

فصل تمهيدي

المناويل القرآنية

لفعل تواصل وموعد تفاعلي

المطلب الأول/ مدخل تقديمي ومفاهيمي

❖ أولا- دواعي اختيار البحث

توزع اختيار موضوع الأطروحة بين أسباب موضوعية وأخرى ذاتية.

أ- الأسباب الموضوعية:

• نتائج دراسة مسحية للأعمال البحثية ذات الصلة

طاف البعض بتحليل الخطابات المولوية سياسيا ولم يتوصلوا بالأدوات القرآنية اللسانية إلا من باب التوطئة المفاهيمية.

فكل من كتب حول الحقل الملكي أو من أجله تداول من خلال اللغة البعد السياسي والتأسيسي والمؤسساتي والتاريخي لبعض المفاهيم المرتبطة بالمؤسسة الملكية، ولم يتناول خطابات المؤسسة للنفاذ إلى الخصيصة اللغوية واللسانية لهذه الخطابات، ولم يجعل المداخل المومئ إليها مداخل لفهم الجانب المقولي والقولي: فكل من تناول الخطاب الملكي تناوله بمعزل عن ألياف اللغة؛ وحتى من تطرق للخطابات على امتداد فترة حكم زمنية طويلة، فعل ذلك على استحياء وتوجس واقتصر على الشق التواصلية وفق تناول صحفي صرف ولامس نذرا يسيرا من التناول التداولي:

❖ فالسيد فتح الله عبد الناصر، في دراسته الموسومة " صفقوا لخطبة الزعيم: الاتصال السياسي في المغرب"، رصد، ووصد بالتالي دفتي بحثه ليحمله حكرا على واقع الإعلام السياسي، من خلال ما أنتجته الفئتين المغربيتين الأولى والثانية، وعلاقتها بالمنظومة السياسية، وطريقة معالجتهما الإخبارية وبرامجهما الحوارية.

لتسويق بحثه، حاول الدكتور فتح الله عبد الناصر أن يتوجه للمواطن-المتلقي لحضه على التعامل مع الخطاب السياسي الحزبي خصوصا، كطرف فاعل في عملية التواصل السياسي، بدل تسخير بنانه للتصفيق فقط، وصب بيانه في هذا الطرح، بعد جزء خصَّ به العلاقة بين الإعلام والسياسة، دون التفصيل في خطاب أعلام السياسة، أو على الأقل خطب بعض وجوه الاتصال السياسي والنقابي بالمغرب التي صفت لها الجماهير بالبلاد، والتي اكتسبت إبان نضالها ضد المستعمر خبرة اتصالية وإعلامية.

ورغم القيمة العلمية للدراسة، فإنها تظل خارج الزمن السياسي الذي أردت لموضوع أطروحتي أن تتحرك فيه، لارتباطها بعهد الملك الراحل الحسن الثاني.

❖ نفس التغريد خارج الزمن الافتراضي للخطابات التي اتخذها البحث موضوعا للتفكيك اللساني، طبع تعاملتي مع مرجع له أهميته في الحقول المعجمية للخطابات الملكية للراحلين محمد الخامس والملك الحسن الثاني، للدكتور الحسان قسّاوي في أطروحته لنيل الدكتوراه في اللسانيات بعنوان "أثر الحكمة والعقيدة في خطب الملوك العلويين: الملك محمد الخامس والملك الحسن الثاني نموذجا".

هذه الحكمة التي يحتكم إليها الفاعلون في الحقل السياسي في إطار التحكيم الملكي بين باقي الفرقاء يستمدّها صاحب الجلالة من بلاغة الصفات والتسميات التي حرص الفصل 19 من دستور 1996 وبعده الفصل 41 من دستور فاتح يوليوز 2011، على تكريسها كمحددات للهوية الدينية والدينيوية للمؤسسة الملكية بالمغرب.

❖ وباطلاعي على أطروحة المستشار الملكي "التطور التقليدي للقانون الدستوري المغربي"¹ للدكتور محمد المعتصم، نفهم التلازم على مستوى التسمية التي تحملها دستوريا مؤسسة صاحب الجلالة التي نتناول بالدرس خطاباته، بين المكانة السياسية والدينية للملك- الخليفة، وعلاقته بالأمة في غياب الوسطاء، حتى ولو كانت هذه الوساطة مُدسترة (برلمان، حكومة)، والتلازم الحاصل بين البعد القانوني الخلفي (نسبة للخلافة في تصور السلطاني)، والممارسة السياسية التاريخية للسلطين المغاربة (أي إمارة المؤمنين، البيعة، قداسة الخلافة، والدين الإسلامي والحفاظ عليه، إلخ...) والصلاحيات الدستورية المحصورة في نظام الملكية البرلمانية.

اعتمادا على النسق السياسي والقانوني الدستوري للمؤسسة الملكية ساعدني على الأقل لفهم بلاغة استعمال بعض التسميات التي يُقدم بها صاحب الجلالة في الإعلام، ومعرفة كُنه عدد من المفاهيم التي تتواتر في الخطب الملكية في أفق قراءة تواترها لسانيا، وظروف إنتاج الخطب المولوية، وسبب اختيار بعض الصلاحيات والصفات التي تصف به المؤسسة نفسها بها.

فجل الخطب الملكية، سواء تلك التي أسهب فيها المغفور له الحسن الثاني، أو تلك التي أوجز فيها وارث سره محمد السادس، حرصت على تأكيد مرجعية إمارة المؤمنين للحقل الديني، وجعلتها مرادفة للإسلام.

هذا التأكيد ورد في إحدى خطب المغفور له الحسن الثاني حين قال: "إن الجالس على عرش البلاد يصبح بمقتضى تسلمه ذرى المسؤولية العظمى القائد المضطلع بشؤون الأمة.. الراعي للأسرة الكبيرة الدافق قلبه بحب أعضائها، المترفع فوق خلافاتها ونزاعاتها وهيأتها، فالأمة كلها له، بجماعاتها وأفرادها مثلما هو للأمة جمعاء... وهذا الدور... أوكلتها التقاليد المرعية على مدى العصور إلى ملك المغرب وكرسه الدستور في مقتضيات أقرتها الأمة، وتقيدا بذلك، حرصنا طيلة سنوات عهدنا على القيام بدورنا التاريخي الدستوري كاملا فمارسنا سلطانتا كأمر المؤمنين وحامي الملة والدين"².

نفس المحورية التي تكتسيها إمارة المؤمنين داخل الحقل الديني صونا للوحدة الدينية للمغاربة أكدها الملك محمد السادس بقوله: "إنه الإسلام الأصيل، كما جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، والذي ارتضاه المغاربة ديناً لهم، لملاءمته فطرتهم السليمة، وهويتهم الموحدة، على طاعة الله ورسوله، ولأمر المؤمنين الذي يابعوه على ولاية أمرهم، فحماهم من بدع الطوائف وتطرف الخوارج عن السنة والجماعة".

هذا التلازم نجده من خلال الاطلاع على "الدليل المرجعي للإمام والخطيب والواعظ"³، وكذا "وثيقة تأهيل أئمة المساجد"⁴ وما تحضن عليه من إلزامية الدعاء للملك في خطب الجمعة، والتفديد الحرفي بالتوجيهات الدينية والسياسية التي يوجهها الملك باعتباره أمير المؤمنين في جميع المؤسسات الدينية من مساجد ومجالس العلمية، وهذا ما برز جليا في خطبة الجمعة الشهيرة التي جعلت من التصويت بنعم لدستور 2011 من عرى الإسلام والإيمان.

❖ أما فريد لمريني في كتابه "صراع الحداثة والتقليد، معوقات التحول الليبرالي في المغرب"⁵، فقد رتب محددات الأنظمة الباتيرنالية حسب الدراسات الأنجلوساكسونية وفق الترتيب التالي:

- طابع القرب القوي الذي تكتسيه العلاقة بين الأتباع والزعيم، بحث تسيطر معايير الإخلاص والتفاني على الكفاءة في الانضمام إلى الحاشية؛

1- محمد، المعتصم، التطور التقليدي للقانون الدستوري المغربي، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في القانون العام، تحت إشراف الأستاذ محمد الغماري، مارس 1988

2- الحسن الثاني، خطب وندوات، الجزء الثاني عشر 1991-1992، ص: 259

3- "دليل الإمام والخطيب والواعظ"، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، طبعة 1433 هـ/ 2012 م

4- "وثيقة تأهيل أئمة المساجد"، منشورات المجلس العلمي الأعلى في إطار خطة ميثاق العلماء للقاء التمهيدي الأول المنعقد بتاريخ 27 يونيو 2009

5- فريد، لمريني: صراع الحداثة والتقليد، معوقات التحول الليبرالي في المغرب، سلسلة دفاتر وجهة نظر، الطبعة الأولى، 2006، مطبعة النجاح الجديدة، ص: 138

- تشخيص العلاقات بين الملك وحاشيته وبينه (ما) وبين أفراد الرعايا التي تعتبر الزعيم أبا؛
- سيطرة اللاهيكالية في ممارسات السلطة مثل الحط من قيمة المؤسسات وعدم توضيح المسؤوليات؛
- تناسب النزاعات السياسية القائمة والتنافسية مع التوازنات الهشة التي تعمل على تأييد الأوضاع المستقرة؛
- هيمنة البطولة، خاصة العسكرية على شخص الزعيم/ الدولة؛
- سيادة الدين الرسمي.

وعليه، لم يتناول خطاب المؤسسة الباتيرنالية ومستويات تلقيها من طرف الحاشية وتحاشي المقاربة اللسانية لاستقاء فريد المريني محددات الأنظمة الباتيرنالية من معين مرجع صاحبها بتدفق لسانه الفرنسي:

"La légitimation des pouvoirs au Maroc, Tradition, protestation et répression"

❖ نفس التغريد خارج الزمن الافتراضي للأطروحة ألفيته عند الباحث في الأنثربولوجيا وجيولوجيا النسق السياسي المغربي، جون واتربوري¹، حيث ظل كتابه حول "الملكية والنخبة السياسية في المغرب"، وقفا على التحليل السياسي وواقفا عند حدود البحث الأنثربولوجي.

❖ هذا الحضور الوازن لمؤسسة إمارة المؤمنين وللمعجم المرتبط بها الذي يحفل به الخطاب المولوي، تناوله عبد الرحمن شحشي في قراءته "لآليات اشتغال الخطاب عند الحسن الثاني في الحقلين الديني والسياسي"، وسطوة حضور إمارة المؤمنين في الأجهزة المؤسساتية والقنوات الإيديولوجية، تماما كما فعل المستشار الملكي، الدكتور محمد معتصم في تأصيله للتقليدية الملكية دستوريا في أطروحة المومئ إليها أعلاه.

في حين وقف في الفصل الثاني على اهمالآليات اللسانية التواصلية والمنطقية الحجاجية والمعرفية والمجازية التي تشكلخطابات التواصل والحجاج.

أما الفصل الثالث، فنظر فيه إلى استراتيجيات الخطابالحجاجي، تقنياته وطرائقه وإشكالات الفهم والتأويل، وخاتمة هذه الفصول اقتصت في اثرةعلاقة الحجاج بنظريته المسألة والبلاغة وملحقا خاصا بكلمة الوزير الأول عبد الرحمان اليوسفي أمام نواب الأمة.

❖ أما د. عمر أوكان، فقد وقف عند حدود "مدخل لدراسة النصوصالسلطة"²، وأطلق السلطة على الإطلاق لينصرف فهمها إلى السلطة السياسية رغم أن مرحلة تدوينه لم تعرف حضورا وازنا للسلطة ولا لسلطة الخطاب خارج سلطة المؤسسة الملكية.

❖ وحتى عند تناوله للسياسة في كتابه "للسياسة، بالسياسة فيالتشريح السياسي"، لم يحدد محمد سبيلا³ هوية الساسة وظل في إطار العموميات والتعميم، بحثا عن تعميم الموقف والوقوف على نفس المسافة بين الخطاب الملكي والخطاب السياسي.

وقد كان بالإمكان أن ترتصف هذه النصوص في إحالات وهوامش متن الأطروحة بعد تذييلها في الهوامش والإحالات بعد اكتمال الرؤية التصميمية الصميمة للأطروحة، لو لم تبتعد عن زاوية نظري اللساني التداولي للخطاب الملكي، لتبقى لها فضل اختيار البحث منذ البداية وتوكي تفاصيله الأولى عليها وارتسام ملامحه بها.

¹ - واتربوري جون، الملكية والنخبة السياسية في المغرب، ترجمة ماجد نعمة وعبود عطية، دار الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، 1982

² - عمر أوكان، مدخل لدراسة النص والسلطة، دار أفريقيا للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1991

³ - محمد سبيلا: للسياسة، بالسياسة فيالتشريح السياسي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2000، الطبعة الثانية 2010

هي إذن مراجع لباحثين مغاربة تداولوا من خلال اللغة البعد السياسي والتأسيسي والمؤسساتي والتاريخي لبعض المفاهيم المرتبطة بالمؤسسة الملكية، ولم يتناولوا خطابات المؤسسة للنفوذ إلى الخصيصة اللغوية واللسانية لهذه الخطابات، وجعلوا المداخل المومئ إليها مداخل لفهم الجانب المقولي والقولي فقط: فكل من تناول الخطاب الملكي تناوله بمعزل عن ألياف اللغة.

وحتى من تطرق للخطابات على امتداد فترة حكم زمنية طويلة، فعل ذلك على استحياء وتوجس واقتصر على الشق التواصلية وفق تناول صحفي صرف.

فكل تلك المبادرات البحثية وقفت عند مهارة التحليل السياسي أو الإعلامي أو الإيديولوجي للخطاب، المقروء ولم توفق في الوقوف على مهارة صوغ النص المقروء.

فالتحليل السياسي للخطاب الملكي يفترض سبرا للاحتمالات الممكنة لمسارات التفاعل بينه وبين القوى السياسية الفاعلة في المجتمع، وتفسيرا علميا لنوع العلاقات بين هذه القوى السياسية، مع محاولة البحث عن إجابة للسؤال "ماذا" بطريقة موضوعية ومنطقية، بدل التركيز على المستوى النوعي للصياغة "كيف صيغ؟"، وفق معايير تحليل سياسي يتحقق فيها:

- البُعد عن الأحكام المطلقة والأخذ في الحسبان كل التفسيرات المحتملة مع بيان مدى إمكانية هذه التفسيرات وتداعياتها ودرجة تأثيرها؛
- النأي عن المعالجة العاطفية للقضايا والأحداث والمواقف والاستناد إلى الدليل والبرهان في تفسيرها وتحليلها بعمق حتى تكون مقبولة لدى كافة الأطراف؛
- إبقاء الفرصة متاحة لمناقشة الآراء الأخرى وعدم إغلاق الباب في وجهها؛
- وضع خدمة الصالح العام والدفاع عن الأمة وممارسة النقد الاجتماعي بطريقة إيجابية وهادفة نصب أعين التحليل السياسي.

نفس التماشي مع سنة تحاشي التحليل بمقترب لسانی ألفيته عند د. عبد الرحمن شحشي في قراءته "الآليات اشتغال الخطاب عند الحسن الثاني في الحقلين الديني والسياسي"، حيث سجلت حضورا شبه حصري للمستوى المضاميني في هذا المصنف التيمي الأكاديمي لخطابات تشي بحضور إمارة المؤمنين في الأجهزة المؤسسية والقنوات الإيديولوجية، أسوة بعدد من أركان البحث أو الأعلام الصحافية التي ركزت على خطاب واحد أو خطابات مرحلة معينة تجزيئيا، ولم توفق في:

- استقراء التاريخ والحصول على المعلومات حول الموضوع السياسي المطروح للتحليل؛
- متابعة أقوال السياسيين والمحللين الاستراتيجيين والوقوف عند وجهة نظرهم وتحليلاتهم السياسية وتطور الموقف بين حقبة وأخرى من مراحل تتبع الموقف السياسي؛
- إدراك طبيعة المصالح التي تربط القوى السياسية في المجتمع ونوعها ومدى تأثيرها في شكل العلاقة؛

- امتلاك المحلل السياسي لمعلومات خاصة حول الموضوع من خلال موقعة أو اتصالاته؛
- التسلح بخبرة المحلل السياسي في المجال الذي يكتب فيه.

هذه الدراسات العلمية التحليلية تعلقت فقط بمضمون الخطابات المولوية للحسن الثاني، واستثناء بخطابات وارث سره الملك محمد السادس، دون أن يكون هناك تعالق بين الأدوات اللسانية لتحليل المضمون وحاملها اللغوي موصوفا كان أم واصفا، أو مقارنة مقارنة بين خطابي العهدين.

وباستنطاق مضامين كل هذه الرسائل والأطروحات ذات الصلة بالحقل الملكي، وفقت نسبيا في الوقوف على وقوفها عند عتبة الطابع السطحي، لسانيا، لعدد من الأطروحات، التي لم تتناول إلا بعض الشذرات الخطابية الملكية، وحتى تلك التي تناولت الفقرات الطويلة من نصوص الخطابات الملكية لم تتجاوز مستوى الإستشهاد بها في سياقات غير السياقات اللغوية.

كما غاب عن محاولات التحليل اللساني مفهوم المدونة الخطابية أو العينة التمثيلية أو على الأقل النص الخطابي كاملاً في ترابط بنياته وفي ارتباطه بنصوص أخرى ثاوية وراءه أو مُحايثة له أو أعقبته، بنفس تبعثر مفهوم الخطاب، حيث تم الاعتماد في مختلف الشواهد على الأمثلة والفقرات المفردة الفقيرة، وعرفت بعض النصوص الخطابية اجتزاء من سياقاتها.

كما أن طابع بعض فئات البحث الموهل في التزلف من أجل التزلف جعل بعض المنطلقات البحثية تخدم هدفاً أو فكرة محددة سلفاً، فابتعدت بذلك عن النصانية وعن الموضوعية التي كانت ستؤدي لنفس النتائج لو لم تُستبق في المقدمات، فكانت بذلك الأنساق المضمرة التي صنعها بعض المحللون مدمرة للنسق الموضوعي ولمنهجية الإنطلاق من المقدمات للوصول إلى نتائج، وبالتالي تبني مسار معكوس ينعكس على منسوب الثقة في البحث، وحتى في نظرية ومناهج مقاربتة وجهازها المصطلحي.

ونَحَت جُل الدراسات التي وُفقت في الإطلاع عليها نحو المعالجة بلغة إعلامية أو أكاديمية تتوسل بإليات التحليل السياسي وآلياته وأدواته ومفاهيمه، لكنها تنأى عن اللسانيات بمفهومها التداولي كأحدث تشكل للنظرية اللسانية في أفعال الكلام وفي لسانيات النص، لترد اللسانيات وفتوحاتها كعنصر مضاف وذيلي لا يتجاوز استعارة مفاهيمها لمقاربة النسق الخطابي أو التوظيف السطحي لعناصر الاتصال اللغوي في نظرية جاكوبسون، رغم أن هذا النسق ليس جزءاً من وظائف اللغة بقدر ما هو أداة منهجية خارجية للتحليل يمكن الوصول إليها عن طريق الوظيفة المرجعية التي تركز على السياق والوظيفة المعجمية التي تركز بدورها على الشفرة.

• مَنزلة المؤسسة المُحتفى لسانيا بخطاباتها

موضوع أطروحة بحث نيل الدكتوراه في اللسانيات هو أيضاً الإبن الشرعي لموضوع الماستر، يحمل نفس خصائصه الجينية، ويجني بذرة تأصيل لساني للخطاب السياسي، مع إعادة نثرها هذه المرة في حقل الخطب المولوية لصاحب الجلالة لمنزلتها التي تخرج عن حقلي الخطاب السياسي والخطاب التسويقي الإشهاري.

الحديث عن المنزلة جعلني أقرر ألا أنزل في مستوى اختيار العينة الخطابية التي سأخضعها للتحليل، بنفس بحثي يُوافق نفس مسار تقدمي في مستويات البحث من الماستر إلى درجة أكبر بحجم الدكتوراه، فاخترت الانتقال من الخطاب السياسي إلى الخطاب المولوي الذي لا يؤلف الناس بعطايه بقدر ما يؤلفهم حول شخصه بسجاياه، فضلاً عما يمتلكه الخطاب الملكي من تقنيات تواصلية وتأثيرية لا تتوفر في الخطابات الأخرى، وهذا ما يجعلها تتوارى.

فقد استطاع الخطاب الملكي الارتقاء بعناصره البلاغية وتقنياته الحجاجية وسلامته اللغوية وتوظيفاته الصوتية من تحقيق انتشار واسع وتأثير جماهيري، على النقيض من بعض خطباء الفضاء العمومي وخطاباتهم المتثابثة العاجزة عن استقطاب الجماهير.

كما أن جملة من التمريرات الخطابية السياسية لسنة 2011 وتداعياتها شكلت إشارات ملكية بليغة حفرتني للإستمرار وفق نفس النسق لاستقراء عدد من الخطابات الملكية بحمولتها الصريحة والضمنية للوقوف على اللغة وتوظيفاتها، في أفق استخراج النظم المرجعية والمبادئ التي ترسخها هذه الخطب كقناة من قنوات التواصل الملكي مع رعاياه بالداخل والخارج، انطلاقاً من الأنظمة اللغوية النازمة للخطابات الملكية.

حتى لسانيو وبلاغيو المغرب من الرعيل الأول والماهدون منهم لعلم اللسان والبلاغة والحجاج، ومن تبعهم ممن تخصصوا في لسانيات النص والخطاب، أغفلوا النص السياسي، واكتفوا بالنص الشعري وباقي المتن الأدبية الإبداعية والإمتاعية، على اعتبار أن للشعر جمهورا واسعا يتمتع بذوابة جعلت من ديوان العرب فنهم القولي الأول، على نحو يجعلنا نظن أن هناك انطبعا سائدا في الاعتقاد اللساني التقليدي المغربي مؤداه أن الخطاب السياسي هذيل ولا يرقى إلى مستوى الشعر، ولا حتى إلى مستوى البحث، لأنه يحمل سمات ضعف البناء اللغوي.

ويجرفني التركيز على الخطاب في مدلوله اللغوي الذي تركز عليه مختلف حقول العلوم الإنسانية والسياسية وعلوم التسويق نحو "الاتصال السياسي"، وبالتالي مهارات الإبلاغ والإقناع التي يصبح فيها المتلقي أيضا طرفا في إنتاج الخطاب، يوجب الإستجداد بالمنهج التواصلية الإثنوغرافي.

وتفسر الطبيعة التواصلية للخطاب المولوي طبيعة التفاعل بين شتات النظريات والمفاهيم والمصطلحات والمعارف داخل دائرة علم تحليل الخطاب كما سيبرزه المنهج التواصلية (الإثنوغرافي) الذي ستتوسل به بعض أدواته هذه الدراسة.

منطلق أن الخطاب المولوي بمعناه الواسع، لفظيا كان أم غير لفظي وما يرتبط به من رموز ومراسيم بروتوكولية وخصوصيات اللباس المولوي يحمل ثقافة الخطيب ومجتمعه، وحضارته، وتاريخه الفكري والسياسي والديني والنفسي والاجتماعي والعاطفي، على نحو يجعله يتحول إلى نص سيميائي قابل للقراءة ويحفل بالمفاهيم المؤسسة لمعرفة يعتبر الخطاب أداتها: فلغة الخطاب الملك بمعانيها ومبانيها تنسجم مع رؤية هايدغر للغة حين وصفها بـ "بيت الكينونة"¹ أو "بيت حقيقة الوجود"، فقد أردت أن يكون ولوجي إلى البيت الخطابي المولوي شكلا من أشكال الضيافة أو الإستضافة، فيشكل دخولي علمه وعالمه إضافة لعرى العلاقة التواصلية المتجددة بين الملك والشعب.

فاللغة جسم الوجود وذاكرة المجتمع، ووعاء ما ورث وما اكتسب وما أنتج من خبرات ومعارف يستحيل تداولها في إطار اللغة الحزبية أو النقابية، كما أن لغة الخطاب المولوي معرفة، والمعرفة تذكر والجهل نسيان، والتذكر تفكير وفكر، والتفكير والتدبر في عدد من القضايا التي تستأثر باهتمام واسع لا وجود لهما خارج لغة الخطاب المولوي التي تحمل الفكر المولوي، لأننا حسب هايدغر دائما "لا نفكر إلا داخل الكلمات".

حين انطلقت من تصور دلالة الخطاب على هذا النحو، فقد قررت مبدئيا أن تحليل لغة الخطاب المولوي مدخل للنفاذ لخصيصة الفكر المولوي، فكان على هذه الدراسة أن تنصب على المدخل (والمدرس هنا اللغة الواصفة لا اللغة الموصوفة)، الجسد اللغوي للخطاب، فسلكت مسلك ميشيل فوكو في حفريات المعرفة لما نبش في طبقات الخطاب الأوربي الموروث لمعرفته، وبالتالي معرفة المشروع الحضاري الأوروبي بشكل عام، تماما كما فعل الجابري حينما انطلق من دراسات الخطاب العربي للنفاذ إلى العقل العربي، لأبتدئ بدوري أيضا باللغة وأنتهي بها، دونما حاجة لأسلك المسالك الفكرية والفلسفية للمفكرين المذكورين.

كما أن للموضوع آنية أستقيها من الخرجات الدّانية للملك محمد السادس في أكثر من مناسبة لتكريس الثابت حول مناسباتية الخطب الملكية المرتبطة ببعض الأعياد الوطنية والخطاب الإفتتاحي للدورات البرلمانية والمتحول وظروفه، وانتقالاته إلى باحة البوح بمواقفه وبمبادراته التي تؤسس لتعاقدات جديدة في الحقلين السوسيو-اقتصادي والسياسي في إطار الإنتقالات الخطابية الكبرى التي رافقت الإنتقالات بين فترة حكم والده وفترة حكمه، والحقبة التي مرت بها هذه الأخيرة.

¹ - مارتن هايدغر، كتابات أساسية، الجزء 2، ترجمة إسماعيل المصدق، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى 2003، ص 282.

ابتغيت ببحتي هذا الإسهام في سوق البحث ببضاعة تحمل علامة تحليل الخطاب المولوي الذي يتصدر الخطابات السياسية ويعبر عن موقف صانع القرار من عدد من القضايا والمسائل.

كما أردت أن يفتح هذا الجهد على تكريس التوالج القائم بين عالم السياسة وخطاب خطابها وعلم لسانيات النص والخطاب، وأردناها رسالة علمية متخصصة في بلاغة الإيجاز في الخطاب المولوي البعيد عن الإعانات والإطناب وفصاحة الأفعال الإنجازية، وفق رؤية بحثية تتيح فهم الخطابات المولوية ومن خلالها النفاذ إلى أهم ملامح شخصية الخطيب وطبيعة مجتمع تلقي الخطاب وأوجه الالتقائية بينهما ومساحات التقاطع التي مكنت من تقادي القطيعة التي تقطعت بسببها أوصال شعوب برؤسائها، وتفرقوا بين مستجد ولاجئ وسائل.

من خلال هذه المحاولة لتدشين هذا الحقل البحثي برؤية من درس العلوم السياسية وبرؤية الباحث اللساني والبلاغي، حاولت توطين نفسي ضمن جيل زملائي الذين تناولوا الخطابات الإقناعية في حقول غير سياسة الساسة (كالخطاب الإشهاري الذي تناوله زميلي **مصطفى حفاظ** والذي يحمل في تضاعيفه سياسة تجارية وتسويقية يعتبر الإشهار إحدى أدواتها، أو أطروحة **الزميل الموريتاني عبد السلام ولد بلاهي ولد دحان** حول التواصل السياسي ودور وسائل الإعلام في تشكيل الرأي العام، أو الموضوع الذي وقع عليه اختيار أخي الكاتب العام **الحبيب قابو** عندما قارب لسانيا الخطاب السياسي بالمغرب، أو الخلاصات التي توصلت إليها **الأخت بشرى البهيجي** بعد تفكيكها لآليات وإليات الإتصال المؤسساتي في المغرب من خلال نموذج الوكالة الحضرية لإنقاذ فاس، أو ما قدمه زميلنا في مهنة القلم الصحفي **القدير لحسن والنيعام** حول تجربة الصحافة الجهورية بالمغرب).

ب- المحفزات الذاتية

• رسالة دكتوراه بمقاصد رسالية

أردت أن أكون ممن يرومون إيجاد كلمة سواء ومساحة للإتلاف بين الطائفتين، فأؤسس بمعية باقي المهتمين لظهور جيل من الباحثين المخضرمين بين علم السياسة وعلومها كما في اللسانيات ومناهج تحليل الخطاب، فنحمل اللغة العربية في قلبنا وتحمل أدواتها عناء النبش في أركيولوجيا الخطاب السياسي ابتداء من الطبقة الرسوبية لرسوب الخطاب السياسي الذي شكل موضوع بحث الماستر، مرورا بطبقة الخطابات الملكية التي تعلوها في بحث الدكتوراه، في أفق المرور مستقبلا إلى مقالات تحليلية للخطابات الدبلوماسية لخطباء كونييين، وتكوين فريق عمل عبر-تخصصي ينهض بمهمة تتبع الإنتاج الخطابي تصورا، وصياغة، وتحليلا وتناولا لوقعه على المتلقي ولصوغ الموقف المغربي في المقارعات التي تُحسم لفائدة من يملك سلاح الكلمة ويمسك بناصرية الخطاب، على أن أجعل حسن الخاتمة تدبر بلاغة كتابنا الكريم وسنة وسيرة نبينا العظيم عليه أزكى الصلاة والتسليم.

ابتغيت أيضا لهذا البحث وبهذا الموضوع أن يفيد من ملاحظات القارئ ومختلف المهتمين ليثمنوا اختياري للموضوع، ويبلوروا إشكاليات وتصورات جديدة، أو ينبّهوني إلى ما اعتوّره من أخطاء، في إطار دينامية تبادلية، وأفيد به خزانة البحوث التداولية، وأسهم في خلق تراكمية نوعية، لأن كل بحث هو امتداد لبحوث أخرى أو مقدّمة لبحوث جديدة.

فضلا عن الأسباب التي أوردتها في التوطئة، يسعفني تكويني المزدوج في القانون واللسانيات لفهم التوالجات القائمة بين حقل السياسة وعلومها وعلوم اللسان، إضافة إلى ميلي إلى هذا النوع من الدراسات عبر-التخصصية (اللسانية والسياسية والاجتماعية والنفسية...) التي تروم تفكيك الخطاب ومعرفة أنظمتها، وبالتالي النفاذ إلى مراميها.

فقد ارتبط الإعلام ذاته بالسلطة المنتجة للخطاب، فسخرته هذه السلطة لبث وتدعيم تداول خطابها وتدويله بين الجمهور، وظلت الداخلية حتى عهد قريب تتأبط حقبة الإعلام والاتصال (كان البصري وزيراً للدولة في الداخلية والإعلام)، هذا فضلاً عما يمتلكه الخطاب السياسي منتقنيات تواصلية وتأثيرية ووسائل لا تتوفر في/ ولـ الخطابات الأخرى.

فهل يستطيع هذا المدخل حمل عبء الريادة وسد الفراغ؟ إن ذلك لا يمكن ادعائه بوجه من الأوجه.

ولكن الذي لا شك فيه أنني أحسست بهذا الفراغ، واجتهدت ولم أَلْ، فلم أجد بُدّاً من ندب نفسي للمساهمة في سده، دون تهميش للبلاغة العربية أو بعد عن النص الخطابي المولوي، فشرعت منذ خمس سنوات في جمع شتات ركام منفصل الحلقات، فكاد تتبع مسار الجدال النظري والنقاش الدائر حول الخطاب ولسانيات الخطاب أن يعصف بي لسنوات في التيه وتفرق السبل بالبحث وبتفاصيله، لولا تركيزي من جديد على الخطاب المولوي، واصطفائي لعينة مُعينة على تتبع مسار الجدال والنقاش الدائر حول الخطاب ولسانيات الخطاب ومعين للجانب الإجرائي.

في انتظار التأكيد أو التنفيذ الذي ستؤول إليه نتائج وخلصات البحث، أخلص مبدئياً إلى الحكمة التي يضطلع بها صاحب الجلالة لتجعل متنه الخطابي حكماً يعصم تحليلي من الإسقاط، ويبيده عن العمومية أو الإطلاق أو سراديب الإعانات، ليطلق لي العنان في محصلة الأمر للبحث ووصل العام من تحليل الخطاب السياسي بالخاص الذي ينصرف للخطاب الملكي.

• هدف السبق من خلال بحث غير مستهلك أو مكرر

أردت ألاّ يمكث البحث بين أسوار الجامعة معتزلاً حركة البحث في المجتمع، وتخصيصاً الخطاب المتداول في أروقة التداول السياسي، وفق مقاربة تداولية لم يسبقنا إليها أحد من منتسبي التحليل اللساني.

كما رمت بأطروحتي حول موضوع بكر لم تُعبّده أقلام الباحثين أن يستفيد من أدوات التناول اللساني ليفيد بدوره في تأليف البحوث حول المؤسسة الملكية، في إطار تبادلية والتقائية تراكمية، في ظل النقص النسبي لدراسات علمية تحليلية تضع نصب أعينها مستويات التلقي والتواصل الجماهيري والخصائص التركيبية والدلالية والسيمولوجية للغة الخطاب الملكي وللأشكال غير اللفظية البروتوكولية، وبالتالي مضارعة هذا بدراسة مضمون الخطابات المولوية بمنظار لساني اعتماداً على أداة غير تحليل المضمون.

أجدد التعبير عن رغبتني بحول الله في جعلها رسالة علمية متخصصة في البلاغة المولوية ورؤية بحثية أولى ألتمس بها طريقاً للعديد من النتائج الكاشفة عن القيم البلاغية الثابتة التي ظلت مسترسلة منذ الحقبة الحسنية، وعن القيمة المضافة للعهد الخطابي المحمدي.

كما أن الموضوع يستقي أنيته من جدوى تحليل مضمون الخطاب الملكي ووضعه في سياق مرحلة تكثيف الإنتاج الخطابي الذي ميّز فترة الحراك الشعبي غداة الربيع العربي، وقياس وضعه في السياق الخطابي السياسي والحقوق الذي عرفته المرحلة، ومواقف صانع القرار، وبالتالي النفاذ إلى سمات السياسة الخطابية المولوية وأغراضها الإتصالية.

• نحو الخروج بمجال بحثي وطرحه للتداول الأكاديمي

يرتبط هذا المحفز الموضوعي لاختيار موضوع الأطروحة مع الوازع السابق بموجب علاقة سببية أو جدلية تُعَلِّق الأسباب بالنتائج، حيث سجلت أن غياب البحث في مجال الخطاب السياسي يوازي غياب مبحث في المقررات الجامعية، ويواري تخلف الدرس البلاغي القائم (بفهمه الجاحظي) عن إدراك هذا الفن المقولي الذي لا يمكن لأحد غير التداوليين الإحاطة برقائقه ودقائقه.

فالخطاب السياسي، كما هو حال الخطاب باقي أضلاع الثالوث المحرم (الدين والجنس)، لم يُطَبَّع بعد في ذهن الباحثين والمُشرفين وصاغة مشاريع مراكز الدراسات والأبحاث، ولم يُطَوَّع ولم تُطَبَّع بشأنه مؤلفات.

كما أن الحاجة إليه تقتضي تعبير الساسة أنفسهم عن الرغبة في بحوث تثري هذا الحقل، وإن كان ذلك يقتضي ظهور جيل من السياسيين بمقدورهم الابتعاد عن ذاتهم ليتأملوها مع الناس من خلال نقدهم لهم ولأدائهم، وبتوسع مجال القول كما وكيفاً بين الساسة ومجتمع التلقي، سيتدخل اللساني وتتصدر طلائعه ذراعهم التداولي لمواكبة المنتج الخطابي بالتحليل والنقد، وبيان محتواه ودلالاته لجمهور المستمعين، وتقديم العون للساسة في صياغة خطبهم وبلورة مضامينها خدمة لمقاصدهم واستراتيجياتهم التواصلية، والخروج بخلاصات حول الخطابات التي تصدر عن كل القوى الفاعلة وتجنبيها الخروج إلى قارعة الإنفعال.

ووفق الربط الذي يحلو لعبد السلام المسدي أن يقيمه بين اللغة والسياسية، فإن "تطور السياسة زاد في تطور أدوات التعبير وتعدد وسائل ووسائط الاتصال الجماهيري-من خلال الصحافة والإذاعة والتلفزيون-، تطورا يحقق الهيمنة على الجماهير، ويجعل النفوذ السياسي يتوسل بترسنة اللغة ومتاريس الإعلام لخلق الإقناع والافتقار بالأفكار السياسية المختلفة والترويج لها، وتحفيز الجماهير للتبني للامشروط للمشاريع السياسية المختلفة"¹.

ويرى الدكتور المسدي في سياق متصل ومناسبة أخرى أن ما تغير في الخطاب السياسي هو "تغير هو التوظيف السياسي للغة، ففي السياسة المتطورة نستعمل أداة من أدوات السياسة، وفي المجتمعات المتطورة هناك ورش لصناعة الخطاب السياسي لأصحاب القرار الدولي قبل إصدار التقارير الصحفية الخاصة بهم، بمعنى أن لديهم من يسألونه ويستعينون به لإعداد الطبخة المناسبة للخطاب السياسي الذي يقال.. معنى هذا أن اللغة أصبحت سلاحاً من بين الأسلحة الأخرى التي يقوم عليها الصراع الدولي، وقضية الخطاب وسلاح اللغة وأهميتها في الخطاب السياسي قضية مازالت غائبة عن وعينا العربي.

وكثير ما نرى أصحاب القرار في وطننا العربي يرتجلون الكلام السياسي دون حكمة مضبوطة ودراسة مسبقة، وأعتقد أنه من الغباء في ظل آليات السياسة الدولية الحالية أن نمائل التعامل مع الخطاب على أساس البراءة اللغوية، ليس هناك كلام بريء وهذا ما لم يفهمه الساسة بعد؛ لأن الصراع الدولي ليس به براءة لغوية، وكذلك في وكالات الأخبار ونشرات الأخبار ليس بها أيضاً براءة لغوية، فاللغة جزء لا يتجزأ من معركة الصراع الدولي وهي أيضاً الجسر الذي يتسلل عليه صاحب القرار ليعزو النفوس من الداخل، ويهيئ الناس إلى قبول قراره"².

كما ألفت أن التفكير اللساني المعاصر لم ينشغل بعد بلغة السياسة، ولم يُعَرَّ كبير اهتمام بما يحفل به الخطاب السياسي من ألفاظ وعبارات، قد يحتمل مضمونها الصدق أو الكذب، أو أيديولوجيات تكمن وراء توجيه هذا الخطاب وجهته التي يريد تحقيقها؛ حتى يتمكن من كشف الزيف القابع بين جنابات هذه اللغة وما تستخدمه من حيل ووسائل للوصول إلى ما تهدف، وما تتميز به من سمات في مستوياتها المختلفة الصوتية والصرفية والتركييبية والدلالية.

¹- عبد السلام المسدي، مقتطف من كلمة ألقاها بمناسبة انعقاد فعاليات مؤتمر فكر "11" في نسخته الثانية تحت شعار "المواطن والحكومات: رؤية مستقبلية"، والتي احتضنتها إمارة دبي يومي 26 و27 نوفمبر 2012

²- عبد السلام المسدي، "أزمة النقد ومحنة الإبداع"، في حوار خص به مجلة البيان الإماراتية - إمارة رأس الخيمة - بتاريخ فاتح غشت 2009، ص.47

بهذه المعاني، يروم هذا البحث الأكاديمي رفع حالة توجس اللغة من دخول ردهات المعترك السياسي، وأن تصفح السياسة للغة بدخول معتركها وتضرب صفحا عن عقود من القطيعة، لعل أذن مرحلة عنوانها التوالج والتواشج بين العالمين والعلمين: علم اللغة وعلم السياسية، فأصوغ بدوري عناوين ومضامين توغز للقارئ بلذة النص وتراوده من أجل التصفح، بعد أن ترمي ببعض من حملها الكمي والنوعي من شتى صنوف العتاد النظري.

❖ ثانيا- الأدوات المنهجية للبحث

أ- الأدوات والمناويل القرآنية

عندما وضعت تصوري المنهجي الأولي، انطلقت من أساس منهجي مفاده أن من ابتغى الوصول بتحليل لغة الخطب الملكية إلى مأرب الموضوعية، لابد له من تجنب أمرين قد يعتوران التحليل: أحدهما، ألا يتناول مباشرة المنظور التطبيقي الإستقرائي للقضايا التيمية الوطنية من خلال الخطب الملكية دون الوقوف على هويتها، إذ إن الخطابات على تنوعها تتداخل، ولكل خطاب طبيعته التحليلية، وتناوله يجب أن يكون أوسع أفقا من تناول نص أدبي أو علمي؛ أما الأمر الآخر، فهو ألا يعني الأمر الأول بالضرورة تناولي للخطاب الملكي تحليلي له كوحدة واحدة، مع الحرص على اختيار المقاطع الحاملة لقضية بعينها: وهذا ما سألتزم به في اختياري للشذرات الخطابية التي سأوردها في هذا البحث، فأكون عليها من الواردين.

وبناءً على ذلك، فقد آثرت أن أبدأ أولاً بتحديد مفهوم عام للخطاب، واخترت من بين اتجاهات تحليل الخطاب السياسي ذاك الذي يرصد الملامح اللغوية (الصوتية، والصرفية، والتركيبية، والدلالية)، قبل أن أتناول عينات من الخطاب الملكي، ولن أنعته بالخطاب السياسي لأنه لا يبحث كما الخطابات الحزبية أو النقابية عن الشرعية أو الاستقطاب أو التبرير، بقدر ما يشكل صلة وصل وتفسير وتحوار وتشاور دوري/فصلي وتفصيلي circonstancié-périodique مباشر بين ملك شرعي ورعاياه.

ولأني سأحدث بإسهاب عن الخطاب الملكي في بعده السياسي والتنموي بالدرجة الأولى، أقترح أن نميل إلى الطرح الذي يرى أن الخطاب كلام يُنجز في ظرفية ما من ظروف التواصل، وهيظرفية تعامل اجتماعية خطابية هدفها المعلن هو الإظهار، ومقصدها المضمرة هو التأثير والإبهار.

هذا الإطار الإجرائي أو المنهج التحليلي الموسوم بإثنوغرافيا الاتصال (علم النص أو تحليل الخطاب) هو زبدة ما توصلت إليه مناهج التحليل، تشايعها الدراسات النفسية والاجتماعية والفلسفية والمعرفية المختلفة وتُفيد منها، حتى خلصت إلى منهج تحليلي تأسس على الإجابة عن الأسئلة التي تجمعها أدبيات الكتابة الصحافية في الكلمة الانجليزية (The 5W)¹ : من قائل أو كاتب الخطاب؟ متى قيل أو كتب الخطاب؟ أين قيل أو كتب الخطاب؟ ماذا حوى الخطاب؟ لماذا قيل أو كتب الخطاب؟ كيف قيل أو كتب الخطاب؟ لمن قيل أو كتب ذلك كذلك؟

سأدأب أيضا على تبيان المرسلين والمتلقين، مع بحث وسائط الحالة التواصلية (من يتوجه لمن؟ ولأي غرض؟ وبأية نية وطوية؟) في إطار قراءتي للبنية الحوارية للخطابات المولوية التي ترد عادة في شكل مخاطبة أو مراسلة، بمضامين المحاورة.

¹ - هي تجميع لصيغ الإستفهام في مظاهرها باللغة الإنجليزية Who ? Where ? When ? What ? Why ؟ بترتيبها هذا حسب التناول الإخباري التحليلي : فجريدة يومية ستركز في تناولها للخبر على قصاصات Dépêches مقتضبة تجيب على أسئلة ماذا؟ ومتى؟ وتجاوزا قد تتوسع للإجابة عن سؤال "من؟" في حين تتجاوز صحيفة أسبوعية ذات بعد تحليلي مستويات السؤال إلى مستوى مسالة الأحداث عن الحثيات والتعليق عليها بالبحث ليس فقط عن ماذا، ولكن عن لماذا؟ وأين؟ ومتى؟ وكيف؟

للإجابة عن هذه الأسئلة، سيتناول الشق التطبيقي من هذا البحث شذرات خطابية من المتون المقولية لصاحب الجلالة، في عدد من المناسبات (السياق Le Contextuel)، الحاملة للعديد من القضايا (الجانب المقالي Le Textuel) التي سأحاول ترتيبها وتبويبها وفق نظام أولويات موضوع الأطروحة.

كما قطعت على نفسي في الفصل التمهيدي للأطروحة عهدا باستثمار لسانيات الخطاب في تحليل الخطابات الملكية، ولن أبر بالعهد الذي قطعته على نفسي إلا بعد أن أخلص ذمتي منهجيا من خلال اختيار المقاربة اللازمة لقراءة النص الخطابي لصاحب الجلالة وفقا لبنياته المرجعية، والتعبيرية، والمفاهيمية والافهامية، وما وراء اللغوية من ظروف الإفضاء به.

وعليه، كان لزاما أن أستهل إذن تحليل كل خطاب، أو شذرة منه، انطلاقا من قراءة بنيته الوقائعية، وذلك بالبحث في طريقة سوق الأحداث وتقديمها، قبل قراءة البنية الإخبارية التي قدمت عددا من الأحداث والوقائع والمبادرات التي شكلت فواصل على عهد صاحب الجلالة.

باستعمالي لمناويل قرآنية مختلفة لكل خطاب، وبأدوات تفكيك ومستويات متباينة، سيكون بوسعي الإحياء ضمنا بهلامية الخطاب السياسي وقراءته المفتوحة أبدا: فلا يمكن لنص الخطاب الملكي لغزارته المضمونية أن يُقرأ قراءة أو قراءتين فقط، وإنما هو يتغذى باستمرار ويتجدد بالقراءة، وفي كل قراءة إضافة له.

ثم إن هذه القراءات المختلفة لا تختلف إلا لتألف، وتتداخل وتتوحد وتتقاطع إلا لتتكامل: وذلك ما يميز قراءة النص السياسي عن غيرها من القراءات، فهي تبحث دائما في تعدد الدلالات المختلفة التي يحملها النص، لأنه لا يمكن أن يقدم المعنى هكذا جاهزا ونهائيا.

لذلك، سأبرز في تناولي أن الخطاب السياسي والحوار السياسي هما وجهان لاستعمال سياسي واحد للنسيج اللغوي المنطوق والمكتوب المترابط المنسجم المشحون بالسياسة فكراً وسلوكاً، ممارسة وتفاعلا بين الفاعلين والمدعوين للتفاعل في سياق مخصوص (اجتماعي، لغوي، زمني، مكاني...) ومعرفة وإشكالات، المكتمل في دلالاته بذاته، ذو الغرض الاتصالي والخصوصية التداولية.

ويمكن التأسيس لبداية التحول الإشاري البليغ على عهد الملك محمد السادس انطلاقا من تحويل الاعتمادات التي كانت ترصدها المصالح المركزية والإقليمية والمحلية من مواردها، علاوة على الموارد التي تقتطع من ميزانية المؤسسات والمرافق العمومية وشبه العمومية للإحتفال بالأعياد الوطنية لعيد العرش والمسيرة الخضراء إلى الإنفاق على المشاريع الاجتماعية عن طريق اعتمادات في إطار التدبير والتمويل التشاركيين لمشاريع المبادرة الوطنية للتنمية البشرية التي ارتضاها جلالته مشروعا مُلك "Projet de Règne".

وإذا استثنينا التوظيفات السياسية لبعض أشكال المراسيم التقليدية للحكم السلطاني لمواجهة المرجعيات الدينية للحركات الإسلامية، فإن مخزنة المراسيم المخزنية لا يخرج عن بعض المهام التي يمارسها رمزيا صاحب الجلالة لتكريس امتداد المؤسسة الملكية، وضمان الولاء والأشكال التي توحى به (البيعة والتوقيع على عقدها، التجديد السنوي للولاء...).

في هذا السياق، جدير بالذكر أن التحديث طال الأشكال اللفظية والغير اللفظية لمؤسسة البيعة بإخراجها من طابعها التقليدي الشفهي نحو نمط العقد المكتوب الوقع عليه إسميا من طرف الوزير الأول والوزراء، بمن فيهم سيدتين كاتبتين للدولة، مما يجعل المرأة المغربية لأول مرة في تاريخ المغرب توقع على عقد بيعة الملك¹.

1- عبد الرفيع الجواهري في البيعة الشعبية، الأحداث المغربية بتاريخ 30 يوليوز 2000

وقد تم نقل المراسيم المخزنية من سياقها الديني إلى سياقها الوطني، عن طريق أداء المنتخبين لطقوس فروض الولاء والطاعة.

كما عرفت الترتيبات المراسيمية تداخل بنيات جديدة لمعاضدة البنيات التقليدية (الحجاجة الملكية) بعد إحداث وزارة القصور الملكية والتشريفات والأوسمة، وظهور لافت لبعض مستشاري الملك في تهيئ الزيارات الملكية لبعض الأقاليم، كإشراف الراحلة زليخة نصري على الترتيبات التي تسبق الزيارات الملكية لكل ربوع مملكتنا.

وللتريدات المتلفة التي تقطع بعض البرامج لتعلن بالوصلة الفاصلة "صاحب الجلالة يخاطبكم" دور دال على وصل الشعب بملكه، وعلى تعدد مناسبات خطبة الود وحبله الذي ظل موصولا بين ملوك الدولة العلوية الشريفة ورعاياهم الأوفياء.

كما أن لصور صاحب الجلالة المبنوثة في المدارات والشوارع دور كبير في التكريس الإيقوني لشخصنة السلطة، والهبة السياسية والإدارية لصاحبها، وتكريس الشرعية الشعبية والمجالية لملك البلاد كوحدة مركزية للحكم الملكي الدستوري.

وعليه، أثرت استعراض أهم التجديدات التي عرفها حفل المراسيم المخزنية، من خلال التخفيف من بعضها، وتنقيح البعض الآخر، تكريسا لمفهوم القرب والانفتاح الذي طال الأيقونات الخاصة بالملك بالانفتاح على صور زوجته، والتقاط صور جماعية للعائلة الملكية الكبيرة، علاوة على صورته الأقل رسمية والتي رسمت بعض تفاصيل الحياة اليومية الخاصة للملك-الإنسان، والتي زكته صورته وهو ينحني ليقبل المعاق، والصور التي تعلق بذاكرة مستعملي الطريق وهم يرون ملك البلاد يسوق سيارته ويتوقف أمام الإشارات الضوئية، ويقطع ملايين السنوات الضوئية ليأسر قلوب الملايين من شعبه.

فالإشارات لا تُحصى، ولا تكاد تُستقصى، وحتى اختيار تاريخ 21 مارس مثلاً لعقد قران صاحب الجلالة بالأميرة للا سلمى يستبطن الدلالة على خصب وتجدد يوافق بداية فصل الربيع والاعتدال الربيعي.

يدفعني هذا التجدد في إطار التجذر، وهذا التحول المؤسساتي نحو الناطق والنطق والمنطق الرسمي كمقابل ومعاقل حدائي لمؤسسة الحاجب في القاموس التقليدي، إلى مطارحة عدد من الإشارات غير اللفظية للملك ورجالات العهد الجديد هوس السؤال ومساءلة كل ما بدا أنه اخرج القصر من "بنيقات" الممارسة المخزنية للمخاطبة من وراء حجاب وحاجب حريص على التقاليد المخزنية المحضية نحو رحابة الفضاء العمومي المنفتح والمتواصل لمؤسسة القصور والتشريفات والأوسمة التي تعكس تبني الحداثة والتحديث الذي نطقت به مؤسسة الناطق الرسمي.

مؤسسة الناطق الرسمي التي تنطق الحق، أو الحق الرسمي، وترسم خطا فاصلا بين الحقائق وبين ما يشاع من إشاعات، وتعكس السياسة التواصلية للمؤسسة التي ينطق بلسانها، في سياق توسيع دائرة المتاح إعلاميا لعموم المواطنين، وشساعة المُعلن، وتقليص هامش المضمهر، كانت بدوها في قلب الأطروحة، باعتبارها أولى الإشارات الدالة على تقليص الشخصنة كما في نموذج الممثل الشخصي للملك الناطق باسم الملك (كما الشأن بالنسبة للأمير الراحل مولاي عبد الله والمرحوم أحمد بلافريج)، لصالح الناطق الرسمي باسم المؤسسة (القصر).

هذا الانتقال من التشخيص إلى التجريد تؤكد سلسلة الإصلاحات الدستورية التي نأى بها صاحب الجلالة بشخصه عن المزايدات المتعلقة بشخص الملك إلى المؤسسة وصلاحياتها في التعديل الدستوري لفتاح يوليو 2011 الذي أقره الشعب المغربي بالإجماع.

في هذا المضمار، حاولت أن التقط كل هبة هواء تحديتي هباً على المؤسسة الملكية وضخ في شرايين المغرب لحمايته من السكتة القلبية والهبات الاحتجاجية التي لم تستطع بعض الأنظمة إيقاف مدّها بالعصا أو الزجر أو ضمان جزرها بجزرة الهبات، ولم تصل أهواءها للمغرب ونظامه، بفضل ترسيم ملكية برلمانية حديثة.

كما دأبت أيضاً على تحليل المفردات والتعبيرات المستعملة في البلاغات المعلنة للزيارات الملكية والممهدة لها، وأثناءها، وبُعدها على اعتبار أنها توفر لنا معلومات كثيرة عن حقيقة اللغة ووظيفتها (كما سبق وأن عرضنا لذلك في معرض حديثنا عن الإعداد المادي و النفسي للجماهير أو مجتمع التلقي)، قبل أن أطرق ملياً في التطرق لعلاقة اللغة (الخطاب على وجه أخص) بالأيديولوجيا *idéologie* كمصطلح استخدمه علماء الاجتماع المعاصرون لتحديد منظومة أفكار وأحكام، واضحة، ومنظومة عامة تستخدم في وصف، وتوضيح، و تفسير أو تبرير وضع مجموعة أو جماعة، وتستوحى قيماً وتقتصر توجهاً دقيقاً نحو فعل تاريخي على هاتيك المجموعة أو الجماعة.

ورأيت من الضروري الانطلاق في الشق المفاهيمي للدراسة من الأدبيات اللسانية المغربية والإرهاصات الأولى للتحليل اللساني الصرف للسياسة من خلال بلاغة اعتماد الأستاذ العمري الذي أفرد بحوثاً عن مقومات الخطبة، وانطلق من اقتراح تعويض كلمة الخطبة كما وردت الثقافة العربية الإسلامية القديمة بكلمة خطابة، ليتحدث هذا الباحث اللساني لأول مرة عن "الخطابة السياسية"، حيث أكد أنه "بدلاً من التفكير في الخطبة كحدث، وجب أن ننظر إليها كوظيفة من وظائف القول: فكل قول يهدف إلى التأثير والتفعيل في المسافة الواسعة الواقعة بين التخيل والبرهان، سواء كان شفويّاً أو مكتوباً فهو قول خطابي. والخطابة قول شفوي أو مكتوب، أي كل قول موجه إلى متلقٍ مستحضر عياناً أو افتراضاً، المهم هو الاستحضار"¹.

انطلقت أيضاً من الجهاز المفاهيمي الذي اعتمده الدكتور عمر أوكان ولم يبتعد عنه الدكتور محمد العمري في دعوته للابتعاد عن كلمة "خطاب"، لأن "الخطابة منطقة بين الخطبة والخطاب، والخطاب أوسع والخطبة أضيق مما نريد، كما أن الخطابة "ملتبسة بين النتاج الكلامي ووصفه (أي البلاغة)، بين النص والتقنية، مُسجلاً في ذات الآن صعوبة ترجمة كلمة "ريطوريك" في التقليد الغربي، إلى اللغة العربية، إذ تترجم أحياناً ببلاغة وأحياناً بخطابة، فهي تترجم بينهما حسب السياق"².

ولم يفتني توضيح منهجية نأى عدد من الخطابات الملكية بنفسها عن الالتباس الذي يطال الخطابة حين تقترن بالخطابة بالسياسة، باعتماد كلمة الاستشارة الوطنية، وعن الخطبة التي أفسدت سمعة الخطابة العربية بعد هيمنة الخطابة المنبرية الوعظية والتوجيهية، وتحول سلطة المنبر الديني إلى المنبر السياسي.

فالخطابات الملكية لا تحمل مبدئياً لا خصائص الخطبة ولا الخطابة، ولا حاجة للتدليل على انتفاء الطابع الشجاري أو السجالي عنها كما نلفيه في باقي متون الخطابة السياسية، والتي نقايسها هنا بطابع الخطابة الاستشارية أو المشورية حسب الوصف الأرسطي، الذي كان السباق للتأسيس لثلاثية خطابية تشكل **الخطابة المشاجرية** أو المقارعة الكلامية *joute oratoire* (وهي التي تجري في المحاكم وتنتظر في الوقائع الماضية) **ضلعها الأول**، و**المشورية** أو الاستشارية (وهي التي تجري في الجمعيات مثل البرلمان وتنتظر في القضايا المستقبلية) **ضلعها الثاني**، و**التثبيتية** (وتلقى في المحافل العامة للتحسين والتقيح) **ضلعها ثالثاً** من أضلاع التقسيم الأرسطي للخطابة.

¹ - إفادات محمد العمري في معرض حوار صحفي أجرته معه جريدة ميدل إيست الإلكترونية، على هامش فعاليات الدورة الثامنة لملتقى الشارقة للشعر العربي المنعقد في الفترة ما بين 31 يناير والسادس من أبريل 2010

² - محمد العمري، دائرة الحوار ومزالق العنف، كشف أساليب الإغاثات والمغالطة-مساهمة في تخليق الخطاب، ص 36-

ومعلوم أن الحوار بتجلياته العديدة، التي تبتدئ بالحوار مع النفس (المونولوج)، مروراً بالحوار الرأسي مع الخالق طلباً للعون أو دعاءً أو استغفاراً، أو مع الأدنى مرتبة من خلال حوار النصيح والوعظ والتلقين، أو الحوار الأفقي مع النظراء ووصولاً إلى الحوار مع الآخرين شركاء كانوا أو فرقاء، إذا التقى بالسياسة وصار حواراً سياسياً، يصير حمال وجوه ووجهات، فيعطي ظاهر الكلام معنى غير ما يشي به باطنه، ويضحي ملغماً بالتورية والألفاظ المبهمة ومسارات النبر المُمهممة التي تشي بالإرتباك أو بالرغبة في إرباك الطرف الآخر.

بالمقابل، وجدت أن خطاب محمد السادس فيه جانب حوارى مع الأفراد ومع الجماعات أو مع عموم شعبه، على نحو يجعل عدداً من الخطابات الملكية ذات السمة الحوارية السياسية تتيح لنا مداخل لسانية لفهم المداخل التنموية والاستيعابية للذوات الأخرى المتشعبة بنفس القيم الوطنية، والحاملة لمساحات انتظار، والتي تجد نفسها متفاعلة مع الخطابات المنخرطة إجرائياً في مسلسل التحديث الذي تعرفه بلادنا.

هذه الخطابات تناولتها على نحو مخصوص على اعتبار أنها تتدرج في إطار عمليات تبادلية تحقق مقصد الإرسال والاستقبال، وتؤكد الفعالية الحوارية التبادلية بين فاعل فعلي متفاعل يُحسن الإرسال (التحدث) ويحرص على التصريح بدل التلميح في إنجاز اللفظي-النطقي، وشعب واع أصبحت لديه كفاءة النقاط الإشارات من خلال العبارات والقابلية للاستقبال والإنصات التفاعلي L'écoute active.

ما يطبع الخطابات الملكية هو تبنيها لأسلوب حوارى ينأى عن طوابع التحرير الأدبي، والتعميمات التي لا معنى لها، مع الحرص على استخدام جمل نسبياً قصيرة، بلغة متينة وتداولية، تعتمد على حجة مَكينة تعاضدها الأوراش الفعلية التي يلمسها المستمع في محيطه، واللجوء إلى المترادفات، بأقل كلفة لغوية.

ما يميزها أيضاً هو تحريها البساطة في بسط الحقائق واستعمال صور لغوية بيانية حقيقية لا تحتاج لاستدعاء الخيال أو ادعاء البقاء في سمائه، مع التركيز على المصطلحات المتداولة بلفظها المشهور، وتجاوز المهجور والبعد كل البعد عن الصيغ البيانية والبديعية كالتورية والمجاز والجناس وازدواج المعاني التي تطفح بها الخطابات السياسية والنقابية التي تحفل بها الساحة وتضيق بها المساحة التواصلية بين الأحزاب والمواطنين.

بمنطق المقابلة، عكفت على تلمس سبل شرح السر الثاوي وراء هذا النجاح الاتصالي والاستيعاب الجماهيري للغة الموظفة في الخطابات الملكية، والذان يجدان مَرْدُهُما في غياب عوامل الالتباس اللغوي أثناء الاتصال السياسي، من قبيل التباس الجمل بتركيب العبارة بشكل ما يفضي إلى الخطأ في التفسير، أو التباس الإطناب عندما نضع تشديداً غير مناسب على نبرة الصوت عند النطق بكلمات في الجملة، أو الالتباس الدلالي قياساً بأهمية أو مغزى مضمون الرسالة، خاصة إذا التقت هذه العوامل مع افتقار جماهير المواطنين إلى فهم كلمات وتجريدات المرسل، فينتج عن ذلك فشل الاتصال السياسي.

غياب الارتجال في تدبير الملفات الوطنية يترجمه عدم ارتجال صاحب الجلالة لخطبه، لغزارة مكوناتها الداخلية التي سندرسها لسانياً، قبل الخروج من الجملة ووحداتها إلى التفسير السوسيو-لساني للخطاب بجل أنماطه، التي تُراوح بين الخطاب وإعلان قرار وإذاعة بيان، وترتبط بالأعياد الوطنية أو بنهاية دورة حكومية أو تقديم إنجازات أو تدشينات تعقبها مخاطبات شعبية مُعدة.

كما لا يمكن لأي كان من غير المغربي أن يفهم عبقرية اختيار منابر إلقاء الخطابات قبل اختيار ألفاظها: اختيار أجدير لإعلان إحداث المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، ولا للأشكال الغير اللفظية (من قبيل العمامة والجلباب والبذلة الشبابية والبذلة العسكرية) التي يخاطب بها صاحب الجلالة هُوياتيا قلوب وعقول رعاياه بالداخل والخارج، و الكف عن توظيف استئثار الانتباه الحسي البصري "أيها المواطنون، صاحب الجلالة يخاطبكم"، مع استمرار استعمال لازمة "شعبي العزيز" متبوعة بلحظة صمت كمجال زمني كاف يتركه صاحب الجلالة للانتباه، وحتى يتسنى له أيضا التقاط أنفاسه.

هذه العبارة اللفظية المتوارثة والمتواترة في الخطابات الملكية لمحمد السادس ووالده، تختلف عن عبارة "أيها الشعب النبيل" التي كان يوظفها المغفور له محمد الخامس، واستعملت لاستثمار وقعها النفسي الموحد لجموع فئات المجتمع المغربي العمرية، والجنسية، واللغوية والهوياتية لكل جهاته، والتي يشكل الالتفاف حول العرش ضامن تجانسها.

هناك أيضا عددا من العبارات التي ترفع مستوى التنبيه لدى الجمهور وتجعل ما يليها ذا قيمة أعلى ويتطلب تفرغا ذهنيا ونفسيا كاملين لاستقبال هذه الرسالة، والقضاء على عوامل التشويش، لإنجاح عملية تبليغ الخطاب، وعملية تلقيه، خاصة عندما يتعلق الخطاب ببعض المحاور التي توظف فيها صيغ التوكيد وإشهاد الله على تحمل الخاضع لجلاله مسؤوليات من استؤمن عليهم من عباده.

لن أبرز في هذا الفصل التقديمي المقتضب كل الملامح اللسانية للخطب الملوية التي سأجلوها في إبانها على الصفحات التي تؤلف بينها ألياف الأطروحة، إلا أنني أورد مبدئيا أن أطروحتي تروم جعل الباحث الذي كان يولّي وجهه شطر المكتبة الفرنسية والإنجليزية، بعد أن يقلب بصره بلا جدوى في رفوف المكتبة المغربية بحثا عن التحليل اللساني للخطاب السياسي عموما والملكي تخصيصا، يتولى ويولي الأدبار ليجد ضالته في مكتبة كليتنا، فيلج ديار المنطق وفضاءات اللسانيات التداولية، ويقطف ما أدنيه منه من قطوف بعد طول شتات بين ديار وردها كليات القانون وبيوت ومدرجات الكلية الضادية.

فما هي الأسرار الثاوية وراء خطب ملكية لها قعودها وتوضيبيها، لم يحرص فيها جلالته على حُسن صناعتها لفظيا، بقدر حرصه على توضيبيها المضاميني، والتي لم يقعد لها مقعد، ولم يترصد لها كل مرصد؟ وكيف يمكن أن يستخرج المرء من خطابات تقريرية شفافة، تنأى عن الأنا وما كان، للتركيز على الهنا والآن، قلّ فيها ورود ضمير المتكلم والصيغ التركيبية التي تنطوي على العلاقة الجدلية بين المتكلم والمخاطب من قبيل الاستفهام، للتركيز على الإفهام وتبديد مساحات الغموض والإبهام التي تطبع الخطابات السجالية لأحزاب المشهد المغربي، التي تعرف سطوة الضمائر وقلة الأفعال، وتناسل العلامات الدالة على المكان والزمان؟

ومن جهة أخرى، ولأن تحليل الخطاب السياسي إنما يدرس الإيديولوجيا والثقافة السياسية ونظام الحكم والوسائل الإقناعية التي للخطاب، سأكتفى بدراسة الخطاب العلمي لصاحب الجلالة محمد السادس دراسة كاملة شكلية ودلالية وبراجماتية انسجاما مع الخصوصية السياسية للخطاب مجسدة في "إقناعيته"، لضالة مساحة الإيديولوجية، وسطوة استعراض الأوراش التي شكلت فواصل في عهده، والتي تقدم بلغة قريبة من لغة الأرقام quantifiable، وبالتالي بلغة قابلة للتقييم التقويم وفق مؤشرات التنمية والواقع l'impact، ومجالها دلالي وبراجماتي (تداولي) أساساً بدل الخطابات الإمتاعية-السجالية التي تركز أساساً على الشكل (البعد النصي) أكثر من غيره تناسبا مع أهميته في توليد المتعة والمعنى.

وقد اقتضى مني تنوع وعاء المدونة الخطابية الملكية للتركيز على المستويات اللسانية الخاصة بشكل الخطابات الملوية، التي لا تحمل عنوانا، اللهم ذلك البلاغ الذي يصدر عن التشريفات والقصور والأوسمة وتتناقله وسائل الاعلام، ونسب الخطاب إلى مناسبته (خطاب العرش، عيد الشباب، المسيرة الخضراء...) وإلى الخطيب (أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس) الذي وُصف بوصفه الديني

التقليداني المستمد من رباط بيعة الرضوان، ووصفه الحدائي "الملك" في ظل ملكية دستورية تشيبتلازم الصفة الدستورية الحدائية (صاحب الجلالة) والدينية (أمير المؤمنين) كصفة تقليدانية حسب وصف المستشار الملكي الدكتور محمد المعتصم، وتتماشى مع ارتباط عيد العرش بمراسيم البيعة والولاء، أو ترد صبيحة نفس اليوم صفته العسكرية "القائد الأعلى ورئيس أركان الحرب العامة للقوات المسلحة الملكية" وفق مراسيم أداء القسم التي تؤدي في ذات اليوم بعد حفل أداء القسم الذي يؤديه أمام جلالته الضباط المتخرجون من المدارس العسكرية وشبه العسكرية الذين يؤدون القسم بين يدي القائد الأعلى للقوات المسلحة الملكية.

واللفظتان تلتحمان بروح الخطاب بشكل قوي لارتباطهما بمفهوم العرش والبيعة وتجديد الولاء، وبمناسبة إلقاء الخطاب (عيد العرش) التي ذكرها عنوان البلاغ، مع تأكيد تواتر الاحتفال (الذكرى العاشرة) وترسخ تاريخ 29 يوليوز موعدا احتفاليا في ذاكرة كل مغربي.

إذن، فالبلاغ هو الحامل لمناسبة الخطاب والمبرز للغرضية الاتصالية وضمن الإعداد النفسي للرعايا للإنصات ومتابعة السياقات النصية والمقامية والاتصالية والدلالية للخطاب شريطة التواجد في موعد البث المحدد (السياق الزمني: 29 يوليوز على الساعة الواحدة زوالا للإنصات لخطاب حفل القسم والثامنة مساء لخطاب العرش) والمكاني (بساحة المشور، أمام وسائل بث الخطاب الملكي المسموعة والمرئية وتلقف المكتوبة لنص خطابي وثير على الأثير يختلف عن القصائد التي ترد مقتضبة عن وكالة المغرب العربي للأنباء).

هذا العنوان هو الذي رسم لتحليلي مجالا عاما نتحرك فيه ونلتزم بلوازمه وترابطاته وإحياءاته وتداعياته الدائرية الحركة في فلك العنوان الذي يوجه القارئ (كما المستمع والمُشاهد) إلى أن الخطاب، خطاب العرش أو باقي الخطابات الملكية.

من هنا، نتوقع مباشرة كل ما يرتبط بهذا العنوان وما ننتظر من إثارته، ويقصى من حقل التوقع ومساحة الانتظار كل التشكيلات النصية أو الدلالية التي تخرج عن هذا السياق.

وعليه، تطرقت للشكل الهندسي للخطابات على الورق، وفق تقليبيها، وعددها، تماما كالصفحات العشر التي سود عليها نص خطاب العرش 2009، وكأنها ورقات مرجعية لكل سنة من سنوات تربيع العاهل على العرش العلوي، وكذا توزع نصها على فقرات كبرى، حوت فقرات نصية ضمينا قصيرة مرتبة بتقطيعات دلالية وترتيب معين على مستوى الجمل.

لم أغفل ترتيب الأجزاء والبُنى الشكلية، التي تصاحب الإعلان عن مخاطبة العاهل لشعبه "صاحب الجلالة يخاطبكم"، للتنبيه، في لحظات ذروة المشاهدة (الثامنة مساء، ماعدا الأمر اليومي الزوالي للقائد الأعلى للقوات المسلحة الملكية لجموع المشاركين في حفل القسم)، مع تنبيه الحضور، قبل أن تطالع المشاهدات المولوية في لحظة الإنصات الملتزم للنشيد الوطني... فلا تكسر لحظة الإنتظار إلا حمدلة صاحب الجلالة والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبالتوجه المباشر بالكلام لرعاياه، واسترساله تقريبا دون توقف في سرد الموضوعات التي سيدور حول رعاها الخطاب-الحصيلة، بنجاحاتها وإخفاقاتها، بالكائن وما سيكون، بما تحقق وبما يمكن تحقيقه وما سيتحقق.

عند تناولني المستوى المضموني للخطابات التي يغلب عليها طابع استقبال المستقبل بعد كشف الحاضر، انطلقت في أعقاب الاستدلالات المُجادلة جدلا تأكيديا يسوق المحطة تلو المحطة وكل المنجزات التي شكلت فواصل في عهده، مراوحة بين ثنائية المسارات الرائدة والمشاريع التنموية والعوائق

والإختلالات، ونصف ارتباط الموضوعات المسرودة بالتنمية وسياسة الأوراش الكبرى واستكمال الوحدة الترابية على حساب مقتضيات الحديث عن العيد نفسه (العرش، ثورة الملك والشعب، الاستقلال، وحتى المسيرة يتم تجاوز الاجترار التاريخي لأحداثها بتفضيل التفصيل في مسلسل تسوية مشكل الصحراء وقضايا الإعمار والتنمية والبناء).

كما عرجت على الخطاب-الوسيلة اللغوية، خاصة وأن صاحب الجلالة يتخذ من النص وسيلة لغوية لإتمام غرضه الاتصالي بوضوح ودقة والتزام، لا ارتباك فيه ولا خروج عن قواعد اللغة-السنن الذي يضمن التواصل بين الخطيب المرسل والمتلقي المستقبل.

ولأن أغلب الخطابات تقريرية إقناعية، فلا أكاد أجد للصور والوجوه البلاغية حضوراً، فتتدر الزخارف اللغوية في خطاب سياسي تقريرى إقناعي بالحصيلة يتطلب الوضوح والسلامة اللغوية فقط: فهي ليست إمتاعية تفجر دلالاتها وتولد جذوة جمالياتها وأغراضها الاتصالية من الإنزياحات والعدول عن أعراف وتقاليد اللغة اليومية، التي نستمتع إليها عموماً فيصرف ذهننا إلى المعنى دون أن نشعر بالشكل ودور التشكيلات اللفظية.

انصرفت بعدئذ غير بعيد عن الشكل، إلى المستوى الصرفي، لأقف على تشكيلة موزايكية من الأفعال والمصادر والأسماء وأسماء الفاعل وأسماء المفعول التي تتضمنها الخطابات الملكية، فرصدت بعدئذ زمن الأفعال الذي أشرت في الفقرة السابقة إلى أنه ابتعد بقدر كبير عن زمن والده في استعمال الأفعال الدالة على الماضي، وتغلبت تلك الدالة على المستقبل والحاضر.

أما المستوى التركيبي، فتناولت فيه ما ميّز الخطابات الملكية من جمل طويلة كلما تعلق الأمر بالجمال الفعلية منها، وفي ذلك تسخير حكيم للغة لتنسجم مع مقومات عهد غلب فيه الفعل والتفاعل والعزم والحزم على مستويي الاعتزام والنوايا.

لم يفتني الحديث عن مستوى الصياغة، طريقة تركيب الأجزاء، ابتداء من استعمال صيغ النداء دون أدواتها (شعبي العزيز)، والوسائل اللغوية والإقناعية، البراغمية، والتمثيلية، والعاطفية...

بدوره، جعلني المستوى الأسلوبي قادراً على عقد مقارنة نثبت من خلالها خصيصة الفرق الشاسع بين عدد الأساليب الخبرية في خطابات العهد الجديد على الأساليب الإنشائية التي طبعت خطابات المغفور له الحسن الثاني، والتي كانت تستهوي المغاربة.

وقد حاولت الخروج بخلاصات تركيبية بين مختلف المستويات، رصدت من خلالها خصائص المستوى الصرفي-تركيبي الذي يعرف غلبة الجمال الفعلية بشكل كبير على الإسمية في الخطابات المولوية، على نحو منح للخطاب صفة الفاعلية في التفاعل مع هموم وانتظارات المواطنين.

كما حاولت أن أبين ما يُميّز صيغتي "تفاعل وفاعل"، لغلبتهما على نصوص الخطابات المولوية التي أمكنني الإطلاع عليها.

روح المشاركة والمباركة والتفاعل بين الملك وشعبه تطلبت مني أن أجلوها بتأكيدي للتناسب الطردي المضطرب بين الأساليب الخبرية والإنشائية، وهو تناسب يشي بنوع من المعادلة بين إملاء الرأي والدعوة إليه، عن طريق النداءات التي لا تقوم مقام تنبيهات.

كما يضمّر البحث الرغبة في البحث في استعمال الضمائر التي وردت غالباً (باستثناء خطابات العرش) بصيغة إرادة التعبير المستوحاة من الذات التي تذوب في خدمة الذات الجمعية والمجتمعية لرعايا صاحب الجلالة، لينخفض بذلك سقف نسبة الإسناد إلى الضمير "أنا" في مقابل الضمائر الأخرى.

كلها مستويات حاملة للدلالة والتحليل وفق مستويات قرائية لسانية، سأحاول تعقبها في المستوى الدلالي، بدراسة الأبنية الدلالية الكبرى للخطابات المولوية¹، والأبنية الأبنية الدلالية الصغرى في الخطاب².

بعد المستوى الصرفي-تركيبى، عرضت للمستوى التداولي-البراغماتي برصد سياق العلاقة بين صاحب الجلالة كمرسل عام، والشعب المغربي وحتى الدولي كمُستقبل (الشعب المغربي بجميع أطيافه ورعاياه في الداخل والخارج، متبوعي الشأن المغربي من مغاربيين خاصة الجارة الجزائر، شركاء أورو-متوسطين، هيئات أممية مانحة وداعمة للأوراش الإصلاحية والتصالحية الكبرى ...).

فكل هذه الجهات تدرك أنها لن تنفذ إلى نوايا المغرب إلا من خلال من يمثلها ومن يلتزم باسمه التزامات منشئة للمسؤولية، ومن "أراد الإطلاع على الفكر المولوي فليُنصت لخطبه".

السياق الزمكاني في رسدي التداولي-البراغماتي تشكل في سياق مغرب العهد الجديد، بالخطابات التي شكلت تاريخا استحق التأريخ، وهو سياق يتواشج مع سياقات أخرى تحددها ظروف التوجه بالخطاب.

وكي لا أواخذ بإغفال المستوى الحجاجي، حاولت التنقيب عن الأدلة الداخل- نصية داخل الخطية الملكية (التوكيدات، أنواع القياس، واستعمال الأمثلة التنموية بدل الأمثال الشعبية التي ميزت خطابات والده، باعتبارها ثوابت وقناعات غير القابلة للنقاش ومشاطرتها لشعبه يفيد منها تأهيل ذهن المتلقي وإقناعه بما سيسوقه في معرض الخطاب... وغيرها من الاستدلالات من إثبات ونفي، بأدواتهما على اختلاف أساليبها وكذلك أساليب الحصر).

ولم يفتني أيضا التنقيب عن الأدلة الخارج-نصية من براهين منطقية التي يستغني عنها الخطاب الملكي باستعماله للقياسات الإضمارية، وتتبع المواطنين للخطاب، وعموما كل ما يتم التوكؤ عليه خدمة للغرض الاتصالي.

وكم وددت بعد تقليب الخطابات على وجوها اللسانية والفوق-لسانية، وتعرجي على إنجاز عدد من العمليات العبر-تخصصية Transdisciplinaire التي تجمع تحت خبائها اللغة والقانون والتاريخ وعلم السياسة وعلم الاجتماع... أن أطرُق للمستوى الصوتي، حتى تشعب أبعادها النظرية والمنهجية والمعرفية، وتتجاوب مع الخطاب الملكي وخصوصياته الخطابية النصية والدلالية والمقامية.

إلا أنه لم يكتب لي إلا بشكل نسبي التفرع للمستوى الصوتي لاستكمال كل شعائر التحليل اللساني ليستوي منسوب الأطروحة في مستوى مستواه الأنسب، ومردُّ تلك النسبية عدم توفري على كل التسجيلات السمعية البصرية لإعادة بث كل الخطابات والإنصات إليها في أفق تحليلها على المستوى الصوتي التمثيلي، وهو ما يجعلني أكتفي بتحديد بعض السمات العامة لمستوى الإلقاء الصوت من خلال عينة تمثيلية للخطابات.

حديثي عن كتبة العرش، قادني لزوما في **الفصل الثالث** من الأطروحة للحديث عن الوسائل التي تُحاك بها ألياف الخطاب الملكي وعن دور كل "نزق" في تمرير الرسائل بين خيوط نسيج كتابة الخطاب الملكي وتوشيته دون تجاوز خطوط الإقتضاب والبقاء في حدود ما يمكن أن يلتزم به أو يُلزم به الخطاب.

¹ - بنية الافتتاح وربط الخطاب بالمناسبة/ بنية الإحتفال المشترك بالإنجازات وبتقاسم الرؤية فيما يخص تدبير الملفات الكبرى بين صاحب الجلالة والمتلقي/ بنية تعزيز القيم الوطنية وترسيخ المذهبية العقائدية، لا محدودية الممكن انطلاقا من الكائن والمتاح.

² - بسوق كل المفردات وتوطئها في حقولها المعجمية.

وكننت سأنتوقف عند الشق التواصلي برسائله ووسائله، ولم يكُ قط في خلدي أن أجز لنفسي تجاوز سقف الأربعمئة صفحة كسقف أعلى خطّه لي أستاذي المشرف، لولا ظهور مقتضيات جديدة للبحث وفق قراءات اقتضتها بعض المتغيرات، وتوفر مادة خصبة أفرزها الزخم الخطابي للربيع العربي، والتحوللات التي طبعت الخطاب ومستوياته، فإن ماجدً واستجد في معرض سنة 2011 وما بعدها وتداعياته البعيدة التي وافقت السنتين الثانية والثالثة من تسجيل بحث الدكتوراه بالجامعة الضادية لفاس-سايس، قد واكبه تداول لغوي-إشاري استحق أن نحتفي به فيمانيفاكتورا التفكير اللساني لنقف على التوظيفات المتباينة للخطاب في حقل السياسة بين خطابة موعلة في السفسة والإنجازات اللفظية المخادعة، وخطاب ملتزم يلزم مرجعية التغيير السلس بعيدا عن مرجعية الفوضى التي لم ولن تكون يوما خلاقة.

فعلُ الاحتجاج كتعبير حضاري عن الاحتياج استحق ويستحق أن أحتفي به كشكل تعبير في بلد ديمقراطي يؤمن بالديمقراطية ويؤمن قنات ممارستها، لأنني أعتبره قناة تقوي وتعاضد القنات العادية (أحزابا وجمعيات ومجالس) في أفق مد الجسور بين المواطن ومؤسسات الدولة في دولة المؤسسات والحق والقانون.

هذا الحراك الذي عرفه الشارع المغربي تماهيا بالشارع العربي في ربيع، واكبه زخم خطابي وإعلامي، وتنامي ظاهرة الاستملاك الخطابي لعدد من المفاهيم والمبادرات، وهو استملاك تم تعليه بحركات استعراضية تجعله قريبا من استدرار النعرات القبلية منه قبل القلبية، والانفعاليات الجماهيرية والوجدانيات العمرية (الشباب وحركة شباب والحراك)، أدى إلى تواتر التفاعلات في ظل انحسار الفعل وسطوة القول والتعبير الإنشائية التي تحمل توقيع جمعيات وجهات يصعب تحديد الخريطة اللسانية لخطابها المتلون المتذبذب، الذي صار عصيا شيمته الدعوة إلى العصيان والمواجهة ولي ذراع السلطات، كما عشنا ذلك في تجربة "حراك الحسيمة" ومحركها في مقابل اللاحراك والسكونية اللتان ميزتا الموقف الرسمي لعدة أشهر، قبل الخروج بموقف زادت لغة صوغه في تازيم الموقف وتحجيم دور الحكومة ومن ورائها الأحزاب والمنتخبون في حلحلة الوضع وخلخلة النسق النضالي الذي ابتدعه مهندسو الحراك.

لذلك، ارتأيت أن أفرد فصلا رابعا لدراسة الإطار التفاعلي وقياس مؤشرات الإنسياق الجماهيري من خلال الخطابات والشعارات واللافتات التي تُشايح الجهد المؤسسي وتُشيّع بين الناس، فرصدت من خلالها مستوى الإستجابة الخطابية للسياق ومقتضياته، وطبيعة الحاجات المعبر عنها وحتى المومئ منها، والفئات المستفيدة من الأداء التنموي وجدوى المشاريع، وقياس الوقع على الفئات المستفيدة ومؤشرات رضا الساكنة وحضها على صيانتها كمكتسبات، حتى يتسنى لي مقارنتها بالخطابات المضادة التي صدرت عن نقابات وأحزاب وجمعيات أجمع الكل على أنها تتكى فقط على شرعية التأليب والفتنة والتخريب وتتوكأ على مرجعيات بائدة ومنقرضة وتقليب تاريخ ميت... والتاريخ الميت لا يُبعث إلا ليعبث به Profanation de sépulture.

فكلما كانت كتابة الاطروحة تشارف على الانتهاء، كانت الحركية والحراك والتكثيف الخطابي الملكي والخطابي الحركي المضاد يحملان الأطروحة المرة تلو المرة على الإبتداء بعد ان كنت قد حددت سقفا للمدونة الخطابية التي كانت عينتها ممتدة بين فترة تولي الملك محمد السادس سدة الحكم وتم سنة 2011.

فما هي السبل التي يمكن أن تضيئها لنا هذه الإجراءات وتتلّمسها أدواتنا المنهجية لتحسس طريق وطريقة في فحص العينة الخطابية الملكية، وقبل ذلك اختيارها؟ وحتى تتمكن الدراسة من الإجابة عن تلك الأسئلة، ونظرا لتعذر الاعتماد على متن خطابي، ركزت على عينة تمثيلية من المدونة الخطابية الملكية.

ب-مسارات البحث

اعتمدت بشكل رئيس على الدراسات الوصفية التحليلية، القائمة على المسح الاستقرائي، بشقيه الوصفي والتحليلي، بالإضافة إلى المنهج المقارن، بين عينات منتقاة من مدونة خطابية مختارة تتوكل بدورها على الخطابات المؤسسة لمجالس ملكية عليا، أو لفكر عقيدتي جديد، أو المُعلنة لتصوير ملكي جديد لقضية وطنية معينة، خاصة تلك التي ميّزت العشرية الأولى من فترة حكم صاحب الجلالة محمد السادس الممتدة بين سنتي 1999 و2009.

كما أسلفت، لم يشكل هذا الإطار الزمني للخطابات موضوع الأطروحة إطارا صلبا Rigue، حيث ارتضيت له أن يكون إطارا مرنا Souple، لأتناول حتى الخطابات التي ميزت سنتي 2010 و2011 ويستقر رأيي بمعية أستاذي على تمطيط الزمن ليشمل كل السنوات التي اقتضاها إنجاز الأطروحة، حجتنا في ذلك امتداد الفعل المولوي الملازم للقول، وسُنة التتبع التي أسس عليها جلالته تدبير الملفات والمشاريع، لأن خطابه ممتد وغير مشروط بظرفية انتخابية أو بمطامح سياسية كما الشأن بالنسبة للخطاب السياسي الحزبي أو النقابي.

وقد اختيرت هذه الخطب بشكل عمدي مع سبق إصراري على المرجعية منها، باعتبارها خطبا واكبت فترة انتقال الملك، وكرست أيضا فترة التأسيس لتصوير ملكي جديد يوازي توجه والده المغفور له الحسن الثاني في بعض القضايا، ويتقاطع معه في أخرى.

وعليه، فقد اعتمدت على مراحل زمنية جديدة وإضافية للزمن الذي حددته سلفا للدراسة (العشرية الأولى لحكم صاحب الجلالة)، لاستقراء كل القضايا الوطنية من خلال الخطب المولوية، حتى وإن اقتضى مني تمطيط زمن عينة الدراسة أن أمطط أيضا مساحة الدراسة لتشمل مئات الصفحات الإضافية، فضربت صفحا عن ضابط السقف الكمي الذي حدده لي أستاذنا المشرف، فليقتض بلتمس العذر لطالبه.

إجرائيا، كان من اللازم إخضاع عينة الخطابات المولوية موضوع التحليل لخمس مراحل يستلزمها التحليل السليم، في أفق الحصول على ثلاثة أنواع من المضامين القُضويّة حول نص الخطاب الملكي:

1- معلومات وبيانات كمية خامة (أرقام - حقائق) عن أشياء أو أحداث معينة؛

2- تحليل وقراءة صاحب الجلالة للحدث؛

3- موقف جلالته الرسمي منه وتعليماته بخصوصه .

وعليه، بعد أن تناولت في الفصل التمهيدي الإطار النظري للتحليل اللساني للخطب المولوية، ونهج التحليل وطبيعة البيانات محل التحليل، قبل أن أفرد شطرا منه للتحليل الكيفي والكمي للنسق اللساني والبياني للخطب المولوية، على أن ينصرف الشق الأخير منه لدراسة عدد من القضايا التي شكلت فواصل على عهد جلالته من منظور هذا التحليل، اقتضت مني طبيعة البحث وتعدد المناويل القرآنية والأطر المنهجية والأدوات الإجرائية أن أرجئ رسم خطة البحث حتى يكتمل الإلمام بكل ما يتعلق بموضوع الأطروحة وتلتئم عناصرها وتلتقط كل ما ينتجه السياق الحالي من خطابات تشكل مادة للقراءة والتحليل والفهم.

معلوم أن معالجة القضايا والمواقف هاته بواقعية تستدعي التوسل بوسائل التحليل السياسي، دون الوقوع في شرك العقل السياسي فنشرك بالمنهجية اللسانية التي ارتضيها علامة فارقة في التحليل البلاغي للخطاب الملكي.

فما هي أدوات التحليل السياسي التي سنتوكأ عليها للفهم قبل أن نهش عليها لتخرج من حظيرة أدواتنا ووسائلنا القرآنية وتجنبنا الوقوع في المحذور وفي المحاذير التي سبقت الإشارة إليها؟

- أول هذه الأدوات الخبرة التاريخية والمعلومات السياسية السابقة عن مواضيع الخطب المبسوبة تحت مجهر التحليل اللساني وسياق توجيهها إلى رعايا جلالته؛

- أما ثانيها، فهو ما صدر بعدئذ من أقوال ودراسات ومواقف صيغت على منوال الخطب المولوية وأفادت منها واستشهدت بشذرات خطابية منها أو اقتبست منها؛

- أما ثالث هاته الأدوات فيتعلق أساسا بتحليل الروابط التي تجمع القوى المتفاعلة وحتى المنفعلة مع الخطاب المولوي وتأثير هذا الأخير في شكل العلاقة أو تشكيلها؛

- في حين تنصرف الأداة الرابعة للمعلومات الخاصة التي يمكن أن أحصل عليها بحكم موقعي أو تموقعي في جغرافية الخطاب السياسي، للرؤى على كل سمة لسانية وملتقط كل لمحة إبلاغية وردت بتكسية بلاغية تفصح عن تمرس في التبليغ، وفصاحة تتمترس وراء البساطة لتبسط خطبا تسطوا فيها الجمل الفعلية على باقي الأجناس النحوية الأخرى.

فبأي لغة يمكن أن تحليل بلاغة الخطابات الملكية وبأي عقل؟

لغة التحليل تبتعد عن المبالغات وكثرة ضرب الأمثلة لتأكيد الرأي أو لتفنيد الرأي المضاد، كما تبتعد عن التوجيه المباشر أو الخطابية أو الإقناع بالترهيب، بقدر ما تقترب من الترغيب. كما تبتعد أدواتنا في القراءة عن أسلوب المقالة السياسية لتبقى وفيه لروح التحليل.

فما الفرق بين التحليل والمقال؟

اشتغالي لسنوات في مهنة المتاعب وصنف المقالات التحليلية خصوصا جعلني أميز بين مقال الرأي الذي يعالج فكرة واحدة يدعو إليها أو يرفضها ويحمل رأي كاتبه ويقدم رؤيته حسب خبرته وتجربته واجتهاده، في مقابل المقال التحليلي الذي يروم معالجة العلاقة بين القوى المختلفة والمفترض أنه لا يحمل رأي المحلل، بقدر ما يسير وراء الأدلة والبراهين، وبالتالي يتسم بالموضوعية والعلمية والحياد التي لا تتحقق للمقال السياسي ولا حتى للتحليل السياسي بنفس توفرها في التحليل اللساني للخطاب السياسي، وإن كان المحلل اللساني في كل الأحوال يتأثر بثقافته وبيئته ورؤيته الشخصية وتجربته الخاصة وهدفه من وراء هذا التحليل.

سأنتقل من البيئة السياسية للخطاب المغربي وبيئة الخطيب لأقف على مدى قدرته على تبيينه خطابيه مع هذه البيئة، فأفرد إطار تحليليا سياسيا أوليا لجميع الخطابات أو لفئة منها وفق المنهجية التحليلية للمتن الخطابي الملكي، من خلال التركيز على تركيزه ومعرفة تركيز النصوص الخطابية: من خلال معرفة كل ما يحيط بالنص أو بالنصوص من بيئة معينة، استطيع ان اتوقع مبدئيا أن تؤدي بي معرفتها لزيادة فهمي ومعرفتي بالنص كمتن سياسي، والإجابة عن الأسئلة الخمس المعروفة (Les 5 W)، والتي تدخل ضمن خطوة من الخطوات الست التي سأعتمدها في استقرائي للقضايا الوطنية الرئيسية من خلال الخطب المولوية.

• مرحلة تحديد عينة الدراسة:

تم تحديد عينة الدراسة وفق بروتوكول اختيار يتجاوز الإختيار الاعتبائي، ويعتمد على جزالة المعاني وقوة المبنى اللغوية المعلنه للبنات جديدة للبناء الديمقراطي في العهد الجديد، والخطب التي عرفت تراكم القضايا التي يعالجها الخطاب الملكي وتلك الثاوية وراء اللغة المستعملة، ولهجة الخطاب، ونبرته ساعة الإصداح به، وتكرارها في أكثر من خطاب.

كما يلزم تجنب انزلاقين منهجين يمكن أن يعتورا البحث: أحدهما، ألا أتناول مباشرة المنظور التطبيقي للخطاب الملكي دون الوقوف على هويته، إذ إن الخطابات على تنوعها تتداخل، ولكل خطاب طبيعته التحليلية التي تتجاوز التناول الأدبي للنص الأدبي أو الحجاجي للنص السياسي؛ أما الآخر، فهو ألا أُعامل الخطاب عند تحليله كوحدة واحدة، والأجدى أن أصطفي شذرات مُستقاة من هذا الخطاب وذلك.

هذا الضابط المنهجي ارتأيت أن أعتمده في اختياري للنصوص التي سترد في الشق التطبيقي من الأطروحة، بعد أن أفرد جانبا نظريا يرصد الفهم اللساني غير العربي للخطاب وللخطاب السياسي ليشكل أرضية لتحليل العينات الخطابية التي استقيتها من الخطب الملكية.

إجرائيا، وجب إخضاع عينة الخطابات المولوية موضوع التحليل لخمس مراحل يستلزمها التحليل السليم.

أما عن عينة هذه الدراسة، فقد اصطفيت عددا من الخطابات المرجعية بأكملها، في حين اكتفيت بشذرات من خطابات أخرى، دون أن أتقيد بترتيبها الزمني.

وقد تم اصطفاء العينة وفقا للمعايير التالية:

- الفترة الزمنية، حتى نتمكن من فهم وجوه الاختلاف والإنتلاف بين عهد الملك محمد السادس وما اعترض بداياته من إكراهات(تداعيات الخطر الإرهابي الدولي لتفجيرات 11 شتنبر التي دقت بعد سنوات أربع أبواب المغرب، التنمية ومحاربة الفقر...) مع بداية حكم والده في مرحلة التأسيس لمغرب مستقل خرج من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، لتجد جميع الأطراف التي صنعت أو اصطنعت ملحمة الإستقلال نفسها أمام اجتهاد لإزاحتها من النسق السياسي المغربي في إطار حرب جديدة سلاحها اختلاف الشرعيات واختلاف المنطلقات في خدمة هدف تحصين المغرب اقتصاديا وسياسيا...فارتأيت في إطار المقارنة ألا أكتفي بخطاب أو إثنتين، فاخترت من خطب الحسن الثاني لعدم إمكانية تعبير خطاب واحد عن صاحبه، ولا عن منطلقاته ولا حتى عن اختياراته التي تعتبر لغة الخطاب قبل مضامينه حاملا لها؛

- لكي يكون للخطاب المدرس صفة "المولوي"، كان من اللازم أن أعرفه بنقيضه، فأدرس بعض الخطابات السياسية أو الدعوية أو الدعائية أو الإشهارية التي حققت بدورها خصيصة الجماهيرية، وأورد جميع الأطراف التي صنعت أو اصطنعت ملحمة الإستقلال، فأقف بالتالي على ما يميز الخطاب المولوي عن الخطاب السياسي، على مُستويي الإيجاز والقدرة على الإنجاز.

وإذ أخذُ هذه الشروط معايير لاختيار عينة الدراسة، فإني لا أريد أن أقدم أحكاما مسبقة على كل فاعلي وخطباء الفضاء العمومي المغربي وخطاباتهم، بقدر ما أقدم فقط تصنيفات أفدناها من قراءتنا الأولية لبعض الخطابات، موقنا أن القول الفصل يبقى لورشة التفكيك اللغوي للوقوف على صدق تلك المعايير وعلميتها أو محدوديتها ونسبيتها.

داخل كل عينة من المدونة، اصطفيت ما أسميته شذرة أو شذرات من نص الخطاب الملكي تحيل عليها الهوامش.

كما أن استعمال نص الخطاب الملكي بدل الخطاب الملكي لم يكن عبثاً، بل انسجم مع كيان النص كجذر لغوي أصيل في اللغة العربية: فقد تضمنت المعاجم العربية القديمة المادة المعجمية "ن.ص.ص"، بدلالات متباينة منها الظهور والرفع، حيث عرفه ابن منظور على أساس أن "النص جمعه نصوص، أصله نصص، وهو علا وركن، ويقال: نص، ينص، نصاً، أرفعه والنص رفعك الشيء. ونص الحديث ينص نصاً، رفعه، وكل من أظهر فقد نص، ومن ذلك المنصة... والنص أصله منتهي الأشياء ومبلغ أقصاها ومنه نصت الرجل إذا استقصيت سألته عن الشيء، حيث تستخرج كل ما عنده وكذلك النص في السير إنما هو أقصى ما تقدر عليه الدابة ... ونص الشيء واستوى واستقام"¹، والإمساك بناصرية النص، هو وقوف على مناصاته للبحث وفق العديد من المستويات القرآنية للوقوف على مستويات استوائه.

لذلك، لم أنتخب من الخطاب الملكي كما أسلفت إلا شذرات أو فقرات من النص أو المتن الخطابي التي توطنها في سياق ورودها ضمن سلسلة الإحالات على الهوامش.

وما توظيفي للنص إلا استلهاً لخصوصية المصطلح وخصائصه كمدونة كلامية، مؤلف من الكلام وليس صورة فوتوغرافية أو رسماً، أو عمارية، أو زياً، ولكونه حدثاً أو توثيقاً لحدث وقع في زمان ومكان معينين لا يعيد نفسه إعادة مطلقة مثله في ذلك مثل الحدث التاريخي، وباعتباره أيضاً حدثاً تواصلياً يهدف إلى توصيل رؤية وتصور وحقائق وتجارب إلى جمهور التلقي، في إطار وظيفة تفاعلية معاضدة للوظيفة التواصلية.

كمن ينقب في بطن الأرض عن الركن، ركزت على السمة الكتابية الأيقونية لنص الخطاب الملكي لانغلاقها داخل حدود بداية ونهاية وقراءة لا تتجاوز القراءة الواحدة أو سقف القراءة الثنائية لتصل إلى تعدد القراءات التي يمكن أن تكون للصورة أو للزّي الذي يظهر به صاحب الجلالة أو للمراسيم البروتوكولية التي تتيح العديد من القراءات.

إلا أن انغلاق النص الخطابي في شقه الكتابي لا يعني أنه افتقد طابعه التوالدي كحدث لغوي متولد من أحداث تاريخية وسياسية ومتغيرات دولية ووطنية.

يشار في هذا الصدد أنني وقفت على نفس المسافة في خضم الاختلاف القائم بين اللسانين النصانيين، حيث ركز بعضهم على المستوى الدلالي "غريماس"، والتركيبي والتداولي، في الوقت الذي ركز الآخرون أكثر على العلاقات بين هذه المستويات: فقد رام التحليل البنيوي تقديم النص "كفضاء وكسياق خطي، ومدة زمنية محددة"²، قبل أن يزيد كلا من "هاليداي" و"رقية حسن" حجراً في موضع اللبنة من الزاوية التي وضع أسسها ولبناتها فان ديك لتعزيز صرح تعريف النص وتحديد المستويات المكونة له، فجاءت لبناتهما أكثر شمولية من فان ديك، حيث انصرفا إلى القول أن "كلمة نص" تستخدم في علم اللغة للإشارة إلى أي فقرة منطوقة كانت أو مكتوبة، مهما طالت أو امتدت، والنص وحدة اللغة المستعملة وليس محدداً، بحجمه، ويرتبط بالجملة بالطريقة التي ترتبط بها الجملة بالعبرة. والنص وحدة دلالية، وهذه الوحدة ليست شكلاً لكنها معنى، لذا فإنه يتصل بالعبرة أو الجملة بالإدراك لا بالحجم"³.

عطفاً على ما تقدم به كل من "هاليداي" و"رقية حسن"، فإنني أحجم بدوري عن اعتبار حجم النص معياراً للحكم على ما هو نص وغير نص، لأركز على الجانب الوظيفي للغة، وأيضاً على السياق وارتباطه بالنص، فضلاً عن الدور الذي يؤديه لمرسل والمتلقي على السواء.

كما أجد درجات مقبولة مماثلة في التعريف الذي وضعه كل من "روبرت دي بوجران" و"ولفجانج دريسلر" حين اعتبروا النص "حدثاً يقصد به شخص توجيه المستقبل صوب بناء علاقات متنوعة

¹ جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، 2003، الجزء الرابع عشر، مادة "نصص"، ص. 272.

² عبد الجليل مرتاض، في عالم النص والقراءة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص 9.

³ صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دار قباء، الطبعة الأولى 2000، ص 30.

لا تقتصر على العلاقات القواعدية وكذلك إلى التأثير في مواقف بشرية¹: فالنص عندهما بهذا المعنى يتجاوز خرائط الشكل الذي يقف عند الجملة، ليشكل حدثاً يشكل مدار الحديث، ويحمل مقاصد ينوي المرسل أن يحققها، فلا يرتبط النص حينئذ بالمستوى القواعدي فقط، بل يتعداه ويتسع مداه.

وحتى تتحقق صفة النصية فيما أطلقا عليه نصاً، لا بد من توافر سبعة معايير مجتمعة وتزول عنه هذه الصفة بمجرد تخلف واحد من هذه المعايير التي لخصها "روبرت بوجراند" و"ولفجانج دريسلر" في "السبك، والحبك، والقصد، والقبول، والإخبارية، والمقامية والتناص"²: إذن حتى يتمكن صاحب النص من تحقيق هدفه التواصلية، لا بد أن تجتمع فيه هذه المعايير كاملة، وإذا غاب واحد منه، انتفت عنه صفة النصية.

ويبقى الخطاب الملكي أشمل من نص خطاب جلالته وأشمل من الشذرات التي أطعم بها فقرات اطروحتي وأحتج بها: فالخطاب أوسع من النص، والخطاب بنية بالضرورة، ولكنه يتسع لغرض تغطية ملابسات إنتاجها وتلقيها وتأويلها.

كما أن استعمالنا لكلمة نص على كل خطاب من خطابات جلالة الملك ينسجم أيضاً مع ما يراه "بول ريكور" بشأن "تثبيت كل خطاب بواسطة الكتابة"³: فالعلاقة بين النص والخطاب ترتبط بالكتابة التي تصبح أمراً مؤسسا للنص ومقوماً له.

وما حرصنا على استعمال نص الخطاب الملكي إلا إمعان مني في الجمع بين مختلف المستويات القرآنية للمتن الخطي وكذا لسياقاته.

ف"النص يرتبط بالكتابة والقراءة، أما الخطاب فيرتبط بالبعد الاجتماعي، لأن الخطاب يمثل فضاء لتبادل الآراء، حيث سعى البعض"⁴ إلى وضع هذه الحدود الفاصلة بين النص والخطاب، والتي يمكن أن نوجزها وفق الخطاطة التوضيحية المقتضبة التالية:

❖ الخطاب = ملفوظ + مقام تخاطبي (ظروف إنتاج)؛

❖ النص = ملفوظ - مقام تخاطبي (ظروف إنتاج).

وعليه، فمجال تحليل الخطاب يُعنى باللغة المنطوقة ضمن السياق، في حين أن مجال تحليل النص يتعلق بتحليل اللغة المكتوبة. لذلك، تختلف مستويات التحليل بين النص والخطاب، فلا يمكن تحليل الخطاب بمعزل عن المقام (لأنه فعل منجز في مقام معين، وزمان ومكان معينين).

على النقيض مما أوردته بشأن الخطاب، ألفت أن النص مجرد عن كل هذه العوامل، فكان من اللازم أن أراعي هذه الفروق وأنطلق من ظروف الانتاج التي تميز النص عن الخطاب لاستنتاج العديد من الحقائق.

كجمهور تلقي الخطابات الملكية، أجد نفسي في بعض الفقرات أمام شذرات خطابية غاية في البساطة من حيث لغتها، لكنها قد تتضمن قرائن (ضماير، وظروف) تجعلها غامضة غير مفهومة دون سابق إحاطة بسياقها، ومن ثم فإن للسياق دوراً فعالاً في تواصلية الخطاب الملكي وفي انسجامه أساساً.

وتتحدد عناصر السياق وفق البناء الذي قدمه طه عبد الرحمان في "عناصر ثلاث هي:

1. العنصر الذاتي، ويشمل معتقدات المتكلم، مقاصده، اهتماماته ورغباته؛

¹ - روبرت بوجراند وولفجانج دريسلر، مدخل إلى علم لغة النص، ترجمة إلهام أبو غزالة وعلي خليل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة 1999، ص 10

² - المرجع نفسه، ص 8

³ - صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، القاهرة، الطبعة الأولى، 1996، ص 34.

⁴ - سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي، النص والسياق، المركز الثقافي الغربي - بيروت، الطبعة الثانية 2001، ص 11

2. العنصر الموضوعي، ويشمل كل الوقائع الخارجية (الظروف الزمانية والمكانية)؛
3. العنصر الذواتي، ويشمل المعرفة المشتركة بين المخاطبين أو ما يسمى بالأرضية المشتركة، وهي معرفة معقدة التركيب¹.

هذه العناصر المكونة للسياق تشتمل بالدرجة الأولى على **طرفي الخطاب** -المرسل، المرسل إليه أو المتكلم أو المخاطب- و**المحيط الخارجي** الذي يضم عنصري الزمان والمكان (متى، أين)، والشرط أو العنصر الأخير يضم كل ما يتعلق **بالمعارف المشتركة** بينهما لكل عنصر من هذه العناصر دور معين يؤديه من أجل إنتاج الخطاب وكذا تحقيق الهدف أو القصد من وراء عملية التخاطب وهذا المخطط يوضح هذه العناصر.

والواقع أنه لا يكفي وجود طرفي الخطاب لإتمام العملية التواصلية، فلا بد من وجود علاقة ومعرفة مشتركة بينهما، "فالعلاقة بين طرفي الخطاب من أبرز العناصر السياقية التي تؤثر في تحديد إستراتيجية الخطاب المناسبة واختيارها إذ يراعيها المرسل دوماً عند إنتاج خطابه، فلا يغفلها وذلك بوصفها محدداً سياقياً له دور في إنجاح عملية التواصل وتحقيق هدف المرسل من عدمه"².

• مرحلة تركيز نص الخطاب

تشمل هذه المرحلة محاولة معرفة سياقية ترصد كل ما يحيط بالخطاب الملكي من بيئة معينة، علّنا نوفق في زيادة فهمنا ومعرفتنا بالخطاب الملكي. وتشمل هذه المعرفة السياقية :

- متى **When?**: تاريخ الخطاب، معرفة توقيت إلقائه ومناسبته وظروفه يحمل دلالة تحيل على ظروف الخروج بقرار سياسي معين، كما أن تواتر ورود بعض القضايا في خطابات متفرقة زمانياً يفيد أهميتها وتتبع صاحب الجلالة لمآلها، كما أن عدم إثارة قضية في معرض الخطابات التي تتلو إثارته تفيد التوصل بشأنها إلى حل، أو عدم رضا صاحب الجلالة عن الجهة التي أوكل إليها مهمة الإنكباب عليها، أو تعليقها حتى إشعار آخر لظهور قضايا مقدمة في سلم الأولويات الوطنية.

- من **Who?**: من المفيد لتحليل الخطب السياسية لصاحب الجلالة الحديث عنه لا للتعريف بالمعرفة، ولكن رفعا للإستفهامات التي لا يعرفها العوام عن تربية صاحب الجلالة وتعليمه وطقوس تمرسه على البروتوكول الملكي في مدرسة والده المغفور له الحسن الثاني، وانتدابه منذ نعومة أظفاره مبعوثاً وممثلاً لجلالته في عدد من اللقاءات؛

- أين **Where?**: من خلال محاولة قرآنية للحيز المكاني الذي تُلّي فيه الخطاب الملكي، خاصة عندما يكون قد أُلقي من خارج قاعة العرش بالقصر الملكي

• مرحلة استكشاف الخطاب الملكي

حاولت جاهداً في هذه المرحلة أن أوضح الغامض أو المبهم من التعبيرات سواء أكانت كلمات بسيطة أو مفاهيم أساسية أو أفكار ... الخ.

¹- طه عبد الرحمان: البحث في اللساني والسيماي، الدلائل والتداوليات (أشكال وحدود)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس، طبعة 1995، ص 302

²- عبد الهادي بن ظافر الشهري : استراتيجيات الخطاب، مكتبة الدكتور الغامدي، بنغازي-ليبيا الطبعة الاولى 2001، ص 48

فقد أقتضى الأمر ألا أهمل أي تعبير لا أعرف معناه أو آخذ المعنى المباشر الذي قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة، خاصة إذا كانت الكلمة ترتبط بحقل علمي معين كالسياسة، أو القانون أو الحقل الاجتماعي.

أما بالنسبة للأفكار، فإن الخطاب الملكي يضم عادة تسلسلا فكريا يفكر ويتفكر في موضوع أو عدة مواضيع يوردها الخطاب بعد اللازمة التي تصاحب خطاب كل المناسبات الوطنية التقليدية، والمواعيد التي أصبحت بحكم قوة تأسيسها لفكر سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي تضامني معين عيدا وطنيا جديدا (كما في خطاب 18 ماي المعلن للمبادرة الوطنية للتنمية البشرية)، والرسائل الملكية التي تشكل رد فعل يحمل انطباعات أو أوامر مولوية لتغيير استراتيجية بدت له غير مجدية (كما في رسالته الشديدة اللهجة على لسان مستشاره محمد المعتصم الموجهة إلى المشاركين في فعاليات الرياضة، والتي أعقبها عمليا إقالة وزيرة الشباب والرياضة نوال متوكل عند أول تعديل وزاري).

• مرحلة النباش اللساني في تراص طبقات الخطاب الملكي

سأتوقف في هذه المرحلة عند موضوع وجسد عينات البحث، لأفحصها من الداخل، قبل أن أصل بعض مداخلها بالخطابات التي تتداخل معها موضوعاتيا.

وعليه، كما الشأن بالنسبة لتحليل أي خطاب سياسي، أجد نفسي أمام ثلاثية من البنى التي يشيد عليها الصرح التحليلي:

1- البنية الطبوغرافية للخطاب الملكي: ستحملنا عبر تضاريس نص الخطاب وهياكله المقسمة إلى عدد من المقاطع، وكل مقطع يتضمن عادة فكرة معينة، وبتجميعها ومقاربتها بخطب ذات صلة، نصل على القضية التي اقتضاها الحامل المقولي.

بعض النصوص لا تحتل التقطيع لتمحورها حول فكرة وقضية محورية واحدة، تنبثق منها عدة أفكار جزئية ومساندة تدعمها، عندئذ ينبغي البحث في القضية التي أثارها الخطاب أو الفكرة التي تقاسمها صاحب الجلالة مع رعاياه، وتفرعاتها الداعمة.

ومهما كانت الطبيعة البنائية للخطاب، يتعين علي في نفس السياق رصد خصائص التسلسل الفكري والموضوعاتي وأولويات ترتيبه وانتظامه وتنسيقه؛

2 - بنية الخطاب الملكي اللغوية: وتشمل البنية اللغوية كل ما يندرج في إطار اللغة مما له دلالة، سواء تعلق الأمر بصيغ الجملة صيغة النفي والنهي، محل الجملة من الإعراب، وحروف الوصل والإشارة وغيرها من الصياغات التي تميظ اللثام عن مرامي الخطاب الملكي؛

3- البنية المنطقية للخطاب الملكي: لا جرم أن الخطابات الملكية تتأسس على حامل منطقي أو أكثر يدور حوله منطوق الخطاب، ويستدل به ومن خلاله منطقية المنطوق الخطابي الملكي، من قبيل الانتقال من القاعدة الكلية إلى الوقائع والإحداث الجزئية كما الانتقال من الوقائع الجزئية إلى القواعد الكلية.

فعندما يتحدث صاحب الجلالة عن إصلاح القضاء، فالتقارير التي رفعت لتعرض على النظر السديد لجلالته تُقر ضمنياً بالفساد الكلي الذي ينخر الجهاز، ويكون بذلك الخطاب دالا على فساد أنظمتها الفرعية، ومن ورائها فساد المتقاضين، والفساد الاجتماعي، وتفشي ظاهرة الإرشاء وتكريس الرشوة في الثقافة الشعبية.

والحديث عن قطاع معين يفيد حملة لنفس جينات الفساد في باقي قطاعات الحكومية باعتبار قطاع العدل جزءا منها.

وعلى النقيض من ذلك، أجد أن ما يصدق على "الجزء" يصدق بدرجة احتمال عالية على "الكل" أو على مجموع الأجزاء التي تم اجتزاءها.

فإذا صدق تحليل جزئية معينة من النظام السياسي المغربي، فمنطقي أن الأمر ينطبق على النظام السياسي بوجه عام: إذا كان النظام القضائي مثلاً يعرف استئراء الفساد، فإن ذلك ينصرف أيضا إلى كافة الأنظمة الإدارية، والتجارية، والأسرية...

• البحث في نص الخطاب الملكي عن غائيته

في بعض المناسبات وبمناسبة بعض الأحداث، تتحسر سلطة التصريح وذكر الأشخاص والمؤسسات اعتبارا للدور الأبوي لصاحب الجلالة ومسؤوليته عن سلوكات وانزلاقات أبنائه ورعاياه، فيلجأ جلالته إلى إطلاق الخطاب على شكل مبادئ لا يستثني أحد من ضرورة الإلتزام بها، وتعليمات يلزم الجميع بتنفيذها حرفيا.

في هذه الحالة، يصير مناط السؤال في هذه المرحلة عن الجانب المقاصدي للخطب الملكية، لمن وجه الخطاب (وغالبا مقطعا من الخطاب)، وأشهد شعبه على ذلك؟ ماهي مضامين الرسالة التي حملها نص الخطاب وأراد أن يفهمها المعني بها؟ وبأية لهجة وردت رسالة الرضا أو الغضب والإستياء الملكي؟

إذن، سيكون رهاني في المرحلة ما قبل الأخيرة من مراحل استقراء القضايا التي تحفل بها الخطابات الملكية محاولة تجاوز مستوى تعجل القراءة الأولية للخطاب الملكي قراءة العوام، محاولين استنباط غاياته ومرامييه ومقاصده، ولا يمكن أن ندعي منهجية هذا التمرين القبل نهائي مالم تتسم بذات المنهجية التمارين الأربع السابقة.

• مرحلة التعليق على سر تعلق الشعب بخطاب ملكه

بعد تقسيم الخطاب وربطه بخطابات أخرى، أجدني على مشارف فهم غائية الخطاب الملكي وسياقه ومرامييه، بعد التنقيب والتقصي بعيدا عن تضليل الأحكام الأولية، فتستتب لي مداخل الفهم بعد اجتياز المراحل الخمس، فأتمكن انطلاقا من ذلك من تقديم تعليق لساني وسياسي-قانوني علمي على نص الخطاب السياسي، في أفق تجميع هذه التعليقات حول باقي الخطابات السياسية المكونة لعينة الدراسة، في أفق استنباط المقاربة المولوية لموضوع أو حدث ما.

ت-محاذير الورش البحثي

اهتمامي باستخراج جداول ضمنتها نتائج التحليل الكمي والوقت الذي استأثرت به جعلني أتوجس خيفة من شكلية وعدم موضوعية فئات تحليل المضمون اعتماداً على مؤشرات كمية متحصلة من عمليات تفتيت النص وتحويله إلى أرقام وبيانات إحصائية لا تكشف عن معنى النص أو المعاني التي يحملها، وتهمل سياق النص وعلاقاته، ومنظور الفاعل، فضلاً عن عدم الاكتراث بالمعاني الضمنية أو غير الظاهرة في النص.

لذلك، اضطررت إلى استعادة مناهج وأدوات للتحليل الكيفي في دراسة المتن الخطابي الملكي، والبحث عن التكامل المنهجي والإجرائي بين الكمي والنوعي.

بقدر اهتمامي بالمنتوج الخطابي، ركزت على عمليات استقباله من مجتمع الخطيب، واحتمالات تفسير كل واحد للخطاب وفقاً لمرجعياته الشخصية وخبراته وتجاربه الذاتية، وانتظاراته لأن للنص ذاته تأثير حاسم في توجيه قراءتهم.

باعتباري جزءاً لا يتجزأ من مجتمع التلقي الخطي، فلن أرجم بالموضوعية أو ألزم بمعناها التقليدي المطلق، مادامت قراءتي وتأويلي وتحليلي للخطابات تصطبغ ببعض النزوعات الشخصية: فحتى اختيار الخطابات عينة الدراسة فيه حظ للنفس، ومصادري بخطاب دون غيره، وبفقرات بعينها دون سواها يؤكد خروجي عن جادة الاختيار الموضوعي التي يجعل الإعجاب ضرباً من ضروب النفس دون أن يجعلني أجنب الصواب في التناول الأكاديمي العلمي الصرف للخطاب.

ذاتية الموضوع تختلط أيضاً بكوني من المتأثرين باستراتيجياته الخطابية كأبي مواطن مغربي يشكل رقماً ضمن حظيرة مجتمع الخطيب، فلن أرجم بالموضوعية أو ألزم بمعناها التقليدي المطلق، مادامت قراءتي وتأويلي وتحليلي للخطابات تصطبغ ببعض النزوعات الشخصية: فحتى اختياري للعينة الخطابية ضمن مدونة ممتدة زمنياً وتيمياً من الخطابات الممتدة على مساحة 18 سنة من الحكم فيه حظ للنفس، وإعجابي هو إعجاب شخصي بخطاب دون غيره، وبفقرات بعينها دون سواها، وبشذرات دون أخرى، مما كان يندب بخروجي عن جادة الاختيار الموضوعي التي يجعل الإعجاب ضرباً من ضروب النفس، لولا أنني حاولت أن أكبحها من خلال التناول الحذر وفق خطاطة محاذير وتحصينات منهجية سطرته للبحث.

هذه الذاتية حاولت تجريد نفسي منها من خلال وضع العديد من الضوابط المنهجية الموضوعية، فقلتها صريحة فصيحة لما آويت إلى الحديث عن محاذير الدراسة لأخلص ذمتي منهجياً، فأقررتُ (متجاوزاً بذلك درجة الإعراف) بالحديث عن بعض الضوابط التي تعين بحثنا من السقوط في عدد من المحاذير، والتي لا تخرج عن تكثيف المقاربة الوصفية، واستخراج جداول كمية إحصائية، والتركيز على عينات بعينها وتفادي التعليق على المضمون لتجنب الذاتية، واعتماد مؤشرات كمية متحصلة من عمليات تفتيت النص وتحويله إلى أرقام وبيانات إحصائية، وإن كانت هذه المنهجية لا تتحرى الكشف عن معنى النص أو المعاني التي يحملها، وتهمل سياق النص وعلاقاته، ومنظور الفاعل، فضلاً عن عدم اكتراثها بالمعاني الضمنية أو غير الظاهرة في النص.

كما أن ضابط الهدفية جعلني أسطر الأهداف للخروج بالنتائج انطلاقاً من فروض للدراسة، بعيداً عن رسم أهداف ذاتية، فضلاً عن استجابة اختيار الموضوع لضابط الأولويات، حيث لم نجد أن هناك إنتاجاً خطابياً غزيراً يمكن أن يشكل أرضية للبحث والنبش والتقليب والتنقيب كما تنتج ذلك مدونة المتن الخطابي الملكي.

إلا أنني لا أنكر مرة أخرى أن في نجواي حظ للنفس وفي اختيار بحثي استجابة لضابط الرؤية المستقبلية التي سيق أن رسمتها ورسمتها، ولا مناص من تأكيدها، والتي انطلقت من تحليل الخطاب السياسي على علاقاته في بحث للماستر، والتدرج في استبدال ما هو أدنى بما هو خير، وتخير عينة من معين الخطابات الملكية التي تعلوها، في فهم ما يصدر عن صناع السياسة العالمية: فلو قدر لي فيما بعد أن ألقط عالم الإدارة وألتحق بأروقة البحث العلمي، سيكون بوسعي آنذاك استكمال بلورة ضابط الرسالة الذي أردته لرسالة الدكتوراه، لأن كل عمل رسالي يحمل من التجرد ما يجعله يخرج نسبياً عن الذاتية.

في سياق الحديث عن الذاتية، حاولت أن أتجاوز حتى مشكل الإنزلاق الموضوعي المتعلق أصلاً بالطبيعة التطبيقية للأطروحة، من خلال الفصل بشأن اختيار نصوص المدونة الخطابية التي ستصطبغها عينة للدراسة من بين خطابات تحمل كلها خصائص مضامينية وحامل لغوي تحضك على اختيارها، فضلاً عن صعوبة تحديد الحجم الكمي التمثيلي لمدونة ممتدة في الزمن.

ث- فروض الأطروحة

يفترض في أطروحتي أن تفترض وجود علاقة ارتباط دالة لا اعتبار فيها بين الإيجاز والبلاغة، وبين أفعال الإنجاز والفصاحة، وتثبت قيام هذه العلاقة انطلاقاً من عمليات تفكيكية لعينات المتن المدروس، ودراسة وصفية للإستعمال البلاغي في الخطاب الملكي، وطبيعته، وسياقه، وعلاقته بالوظيفة الإبلابية لخطاب يؤثر الإبلاغ والإظهار على الإبهار، وتقفي آثار تأثر الصياغة وتراجع مساحتها أمام الغزارة المضامينية.

في سعيي إلى بيان وضعية استعمال الإيجاز وسطوة أفعال الإنجاز في الخطاب الملكي، وبلاغة الإشارات المولوية وطبيعة المواقف الملكية من عدد من القضايا وتجاه عدد من الملفات، كان لزاماً عليّ أن أوضح ذلك من خلال:

- بيان السمات اللسانية المؤطرة لحقل التواصل المولوي مع شعبه؛
- بيان ما يميز الخطاب المولوي عن الخطابات التي تطفح بها الساحة السياسية والحقوقية والثقافية والسوسيو-اقتصادية.

وعليه، يحاول شق من الأطروحة اختبار المقولة التالية: إذا كان من سمات الخطاب السياسي الحقوقي والحزبي المزوجة بين ديمقراطية اللغة وحقوقيتها من جانب، وبين استبدادية الفعل والممارسة من جانب آخر¹، فكيف يمكن تحليل الخطابات لسانياً وإخراجها من سياقاتها السياسية دون السقوط في التحليل اللساني الذي يمكن أن يضع بحثنا خارج الموضوع؟

وعليه، ستشكل الإجابة عن هذه الخصوصية إجابة عن أسباب اختيار الخطابات الملكية بدل السياسية، ومشروع إجابة عن خصيصتي بلاغة الإيجاز وفصاحة الإنجاز.

¹ - حيث تحضر مفاهيم الحقوق والتداول على الكراسي في الخطابات الحزبية والكتيبات المذهبية، وتغيب مضامينها على مستوى الفعل، فإن الفعل والتفاعل يغلبان بالمقابل على الخطابات المولوية المقتضبة والكثيفة التي ترد بمضامين تكرسها الأوراش المهيكلة الكبرى التي جعلها الملك محمد السادس مشروع عهده ومملكه

الحديث عن الخطاب السياسي المولوي يقودني إلى الحديث عن سياق الإفضاء به، وعن مفهوم السياق لفهم دلالاته بالتطرق للنظريات الحديثة لعلم الدلالة (النظرية الإشارية، النظرية التصورية، ثم النظرية السلوكية)، قبل الحديث عن سياقات النظرية السياقية ذاتها (السياق اللغوي، السياق العاطفي، سياق الموقف أو المقام، ثم السياق الثقافي)، لأخلص للدلالة عبر السياق الذي جاءت فيه وبه الخطابات الملكية، مع تذييلها بملحق المفردات ذات المعاني الدلالية التي تضمنتها الخطابات الملكية، ويحاithها في محصلة الأمر كشف إحصائي يرصد تعاقب ورودها في العينات الخطابية التي تعتمدها الأطروحة.

سأكون أيضا مضطرا للنظر في كيفية توظيف السلطة الرموز لإضفاء الشرعية على نفسها، تماما كاعتمادها على الخطاب، مع محاولة الإنطلاق من الاستخدام العادي والاعتيادي للرموز في توطيد أقدام السلطة الحاكمة كحضور صورة الزعيم السياسي في كل مصلحة إدارية أو بيت داخل الوطن، أو علالأوراق النقدية، أو التماثيل المنحوتة، أو على شاشات التلفزيون، والصفحات الأولى للصحف والمجلات...

حتى من يُمعن النظر في لغة الأحزاب وينشغل باللغة السياسة للحركات الاجتماعية يلقي أن ما تنطوي عليه خطاباتها من ألفاظ وعبارات تحتمل مضامينه الصدق أو الكذب.

كما تحتوي إيديولوجيات تكمن وراء توجيه هذا الخطاب وجّهته التي هو مؤليها، مع مساحات زيف قابعة بين جنبات هذه اللغة وما تستخدمه من حيل ووسائل للوصول إلى ما تهدف، وما تتميز به من سمات في مستوياتها المختلفة الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية.

فإذا اخترت الخطاب السياسي عموما والمولوي خصوصا مادة أختبر من خلالها تساؤلاتي السابقة، فإن عليّ بداية أن أحدد معايير تمييز النص السياسي عن النص غير السياسي:

- فهل الإعلان عن فوز المغرب بميدالية معينة في تظاهرة رياضية دولية هو نص سياسي أم غير سياسي؟

- ثم من هو المرسل هنا للنص؟

- هل هم أفراد أم سلطة سياسية أم زعماء أم جهات إعلامية، أم منظمات دولية أم مفكرون؟

- وما هي الرسالة السياسية والاجتماعية التّأوية وراء الخطاب الملكي؟

- وبأي وسائل تمرر وبأية نية وطوية؟

- ومن هي الشريحة المجتمعية (مجتمع التلقي) التي تستهدفها دون غيرها بعض خطابات الملك؟

- من المعني بخطاب الملك: هل هو فرد بعينه أم الجمع والمجتمع كله؟

- فهل هذا هو حال الخطابات الملكية التي لا التباس فيها؟

- ولماذا يطغى الالتباس على باقي الخطابات السياسية الأخرى؟

لعل كل هذه الأسئلة لا تستحق مني مجرد التأمل العميق من جهة والرؤية في الإجابة من جهة أخرى، بقدر ما تفتح الباب على سلسلة أطول من الأسئلة النازمة التي ستتتظم وراء شداها فقرات العمود الفقري للأطروحة.

ج- الأسئلة الناعمة للأطروحة

لكي تستتب للدراسة تغطية كل تلك الجوانب نظريا وتطبيقيا، سأحاول الإجابة عن الأسئلة البحثية البحتة التالية أو جلها على الأقل، وحصد فضل إثارها لتتبعها مشاريع بحثية أخرى:

- ما الأبعاد النظرية والمنهجية لتحليل الخطاب؟
- كيف يمكن أن أحاصر أنموذج العلاقة القائمة بين الفعل السياسي والفعل اللغوي في لحظات تشظي التأويل وقصور اللغة التي تغدو تحت وطأة السلطة السياسية آلة لإنتاج المعنى واللامعنى أيضا؟
- كيف يتم إنتاج المعنى السياسي بمبنى لغوي فيمانيفكتوا الصناعة اللغوية قبل الترويج له سياسيا في أروقة العرض السياسي؟
- وماذا عن الإلتباس في الدلالة؟ وما هي محددات استفتاء القرائن لرفع كل التباس؟
- ماذا لو لم يهب لي سياق التركيب هذه القرائن: هل كنت سأحتكم إلى مقام التداول لأستجدي منه الفسر والإيضاح، أم كنت سأقف على باب اللفظ وعند حدوده حتى يلفظ لي الدلالة بعد كبير إذلال؟
- من أين تستمد اللغة سلطتها؟ ومن أين تأتيها دلالاتها وسطوتها اليقينية؟
- هل تنمهي اللغة كسلطة بالسلط الأخرى؟ وهل تنأتى من هذا الإئتلاف الجديد بين القول السياسي والصورة السياسية؟
- هل يحتاج السياسي إلى اللساني وإلى التحضير المسبق لإلقاء خطب مكتوبة بمهارة وحذق أم يترجل عن صهوة الكتابة ويرتجلها؟
- هل كان التحضير وراء براعة الملك الراحل الحسن الثاني وإبهاره لشعبه بقدرته الخارقة على الارتجال ومطاوله هامات رجال طبعوا عصره وجعلوه يبدع في العصر والعصف الذهني لاستخراج ما ينفع الناس، ولو اقتضى الأمر أحيانا بعض الزبد؟
- ما هي ظروف إنتاج الخطاب السياسي ساعة البوح به؟
- وما الشكل اللغوي للحديث السياسي ساعة الإفضاء به؟ أهو خطاب أم حوار أم رسالة سياسية؟
- ما الأبعاد والإشكاليات اللغوية واللسانية التي يثيرها "الخطاب" و"الخطاب السياسي" عموما، وتحليل "الخطاب المولوي" تخصيصا؟
- هل يمكن الحديث عن الخطاب المولوي في مقابلة الخطاب السياسي أو عقد مقارنة مع وجود الفارق بين الفريقين؟
- ماهي خصوصيات مجتمع تلقي الخطاب المولوي ومستويات تتبعه وتفاعله وانفعاله ومؤشرات فعله الملازم للفعل المولوي؟
- من هم باقي فاعلي حقل الخطابة السياسية بالمغرب ومن هو مجتمع خطابهم السياسي؟
- ما الذي يجعل الخطاب السياسي لا يصلح أن يوجه إلي مجتمع غير المجتمع المغربي؟
- هل هناك مورفولوجية وتقاسيم تسم ملامح وجه أو وجوه الخطاب السياسي المغربي؟
- ماهي الإجراءات الإقناعية المعتمدة في التعامل مع مجتمع التلقي؟
- ماذا يُقصد بمظاهر الإنساق في تحليل الخطاب؟
- ما بيئة الخطاب المولوي؟
- ما هي غائية إنتاج الخطاب السياسي، ووفق أية مناويل صياغة لغوية وبأية نية وطوية؟

- هل المعنى السياسي وديعة نأخذها كما نأخذ أي معنى مجسم؟ أم وديعة مستترة تتطلب منا بحثاً ومساهمة في صنعه وإنتاجه؟
- ما هي ملامح الوجه اللغوي للخطاب المولوي؟ وبأية مضامين إيديولوجية يردّ لئلا يُردّ عليه؟
- ما هي الأغراض الاتصالية الصريحة للخطاب المولوي ومشاغله المضمونية وضماناته التي تكسبه شعبية ووثوقية (الإجراءات الإقناعية)؟
- ماذا يقصد بنظرية الإتصال وأثرها في تحليل الخطاب؟ وما مفهوم الإتصال السياسي وعناصره وأهدافه وأنواعه؟
- لماذا الإتصال السياسي تخصيصاً؟ وما الخطاب السياسي وما عناصره؟
- ما خصائص أسلوب الخطاب السياسي المكتوب الذي استخدمه عاهلنا في خطابه على ضوء مظاهر الإتساق ونظرية الإتصال؟
- كيف تتحول اللغة إلى أداة من أدوات الصراع السياسي وعمادا رافعا للخطابة والفكر السياسيين؟
- كيف ولماذا يعمد السياسي إلى تطهير البساط اللغوي، وتفصيل المتعدد، وتفكيك المركب ليُرسى خصائص بنية الكلمات وبنية العبارات، ثم خصائص تركيب الجمل لتستوي له معالم الخطاب؟
- ما بيئة الخطاب السياسي المغربي والسياسي الدولي؟ وما هي شروط تبيئة الخطاب لمعانقة الخصوصيات اللغوية المحلية والمواضيع السياسية والأذهان المحلية؟
- كيف كان الشكل اللغوي لخطاب الملك الراحل وكيف يمكن تبيئته مع الخطاب السياسي المغربي أو تبيئة هذا الخطاب مع الخطاب الملكي؟
- ما الأغراض الاتصالية الصريحة والضمنية للخطاب السياسي المغربي وكيف يتعامل مع متلقيه؟
- سأبحر بعدئذ في عالم اللغة والسياسة لأرسو بتساؤلاتي في مرافئ اللغة فأعيد طرح الأسئلة الحائرة حولها على نفسي:**
- كيف تشتغل؟ وكيف يشتغل العقل السياسي بها أو معها من خلال اشتغاله فيها وعليها؟ وكيف ينتظم جهازها عند التداول؟
- وبأي معيار يتم التخاطب بين الخطيب السياسي وال جماهير في خطوبة الود على خطبة أخيه السياسي لإستمالة الناخب؟ وماذا عن علاقتهما بالملك كخطيب يُخطب وده ولا يخطب ود أحد؟
- لماذا لا يحمل الخطاب المولوي نفس سمات الخطاب الحزبي الذي يحمله الفرقاء والشركاء ويحمل على يحمل على غير ما كان يقصد إليه؟
- كيف يقول السياسي قولاً يعلم سلفاً أن أغلب الجمهور سيفهمونه فهما محدداً وأن بعض المتلقين سيفهمونه الفهم الذي ارتضاه أو اقتضاه سياق المخاطبة؟
- فما الذي يصنع المعنى ومن يتصنعه ويصنعه صانعه؟
- كيف يتم توظيف المستويات اللسانية في بنية الخطب المولوية: هل يتم تفعيلها على المستوى المعجمي فقط؟ أم أنها تحمل دلالات ضمنية؟
- كيف يمكن أن نصل إلى هاته الدلالات الضمنية الثاوية: هل بالإعتماد على بنية النص الداخلية، أم بربط هذا النص بمستوياته الدلالية والتداولية؟
- لماذا تتسم بنية الخطاب المولوي بتوظيف جمل علمية قصيرة وتغيب عنها الجمل داخل الجمل؟

- هل للمخاطب ومستويات فهمه وتلقيه اعتبار في ذلك وفي الإعتبارات التي تحكم بنية الخطاب؟
- لماذا لا تمتزج اللغة المعيارية مع اللغة العامية كما كانت على عهد الملك الراحل الحسن الثاني في بنية الخطاب المولوي لوارث سره؟
- ما مساحة العناصر السيميولوجية (الرموز، الإيحاء، الإشارة، التضمين...) كمضامين داعمة في بنية بعض الخطابات المولوية وطقوسها البروتوكولية؟
- هل تزداد مساحات الإيحاء والتضمين والرمز والإشارة في لغة الحوار الملكي أكثر من حضورها في خطاباته رغم حواريتها وسجاليتها الضمنية؟ بأية نية ووفق أية بنية؟
- هل يعكس الحوار السياسي والتعاقد الرمزي الإجتماعي المولوي بنية ثقافية أكتع وقدرات أشسع على الإقناع والإبداع والحجاج والإفحام دون إقحام المؤسسة الملكية في أتون المساجلة مع من يتموقعون بعيدا عنه في النسق السياسي المغربي؟
- هل تتم التمارين اللغوية الحوارية بمرونة وطلاوة وحلاوة تغلب تجرع مرارة ما يترجع فور استرجاع الإيحاء ومقارعة الحجة بالحجة؟
- هل المتن الحواري المولوي مع وسائل الإعلام الغربية يحمل ذات الخصائص اللسانية؟ وماذا لو تعلق الأمر بمنبر إعلامي عربي أو مغربي؟
- هل يمكننا تحليل الخطابات الملكية انطلاقا من خطب مفردة أم في إطار مدونة خطابية تنتظم في بنية متكاملة حتى يمكن أن ندعي تعقب المسار الفكري والمنهج التنموي والتدبيري لصاحب الجلالة؟
- وفق أي تواتر: السانكروني أو الدياكروني؟ أم هما معا؟ ووفق أي توافق؟
- وهل الدلالة في بطن الخطاب، أم في باطن الخطاب أم فيما استبطنته التركيبية المواز ايبكية لمجتمع التلقي ولمساحات المشترك بين المغاربة؟
- كيف ترسم الخطب المولوية تقاسيم الدلالة وتقيم سياجها؟
- هل اللغة المطلقة هي الفاعل في حقل الفاعلية والفعالية السياسية والمحقة لقصد التفاعل الجماهيري أم الكلام المتعين منها وفق استعمال محدد في مقام مخصوص؟
- كيف يكيف صاحب الجلالة خطبه الجماهيرية لينفذ إلى مضامينها العامة كما الخاصة وخاصة الخاصة وينفذونها؟

كلها أسئلة وجهتها للغة وأحسب أن أكون قد جئت نسبيا لجلها بمحاور مُجزاة، فالتمسْتُ باللغة ومنها أن تجزي لي الكيل كيف لا كما، علها تولجني إلى عالم البلاغة المولوية، بعد أن أضحت اللغة مركز الفعل الذي يتحول فيه الإنسان من فضاء التأمل والإدراك إلى واقع الإنجاز ووقع التحقيق والتحقق واستدراك ما فات: فاللغة هي بمعنى من المعاني أو بكل تلك المعاني نواة القول المولوي، حيث يتوج الفعل اللغوي قبل الإنجاز السياسي والسوسيو-اقتصادي.

وكي لا تتفرق بي السبل التي استدرجتني في سراديبها مختلف الأسئلة النازمة للبحث، فتستنزف مجهودي لضمان تركيز الأطروحة، فقد حاولت الوقوف عند إشكالية موحدة جامعة لما تفرق في غيرها من الأسئلة النازمة الرئيسة المذكورة وتنشيطاتها الفرعية: فمِمَّا أوردته من أسئلة **ناظمة** طرحتها وطارحتها سبل التفكير والتشكيك تناسلت بشكل مسترسل فولدت الواحدة الأخرى لتتناهز 387 سؤالا بلورتها في إشكالية واحدة وموحدة.

ح- الإشكالية المنظمة والموجهة لمسار البحث

ما أوردته من أسئلة ناظمة بلورتها بإيجاز المقال حول حاملين إثنين:

• **كيف تدعن البلاغة لمقتضيات العقيدة السياسية التي أسسها صاحب الجلالة بلاغيا على الإيجاز وعلى فصاحة أفعال الإنجاز، متجاوزا بذلك تعقيدات السياسة التي تعكسها طول الخطب وتكراراتها ومواقفها المتكررة التي لا تخضع للتكرير؟**

• **وكيف يمكن أن نُحصي كميا هذه السمات البلاغية في الخطابات المولوية ونرتبها في سلم أولويات كشرط تقتضيه إواليات قراءتها وفق مستويات ومناويل قرآنية نوعية تستمزع خلاصات منهج المسح بالعينة ضمن البحوث الوصفية الكمية، يُضارِعها تحليل الخطاب الإقناعي والأسلوبية وعلم الدلالة والتداولية ونظرية الحجاج، وكفايات الخطيب ومسارات التلقي بسبب اختلاف فئات ودرجات فهم أطياف مجتمع التلقي، ومحددات الإنتلاف الجماهيري وسبل بلورة مسارات تحقق القبول الجماهيري للخطاب الملكي والإقبال عليه، وخوارزميات الإستجابة وضروب الإذعان Acquiessement التي تتجاوز مستوى القبول والرضا والتراضي والوفاق؟**

هذان السؤالان شكلا قادحا لبحث السمات اللسانية ذات الأولوية في الخطابات المولوية، وما توارى من عوالم استراتيجية خطابية وتواصلية، تراعي السياق، وتتصف بالإتساق، وتروم خدمة مرامي فهم أسباب الإنسياق الجماهيري.

لتقديم مشاريع الإجابة عن جل الأسئلة المومئ إليها أعلاه كما بلورتها تجميعيا في نسق إشكالية، (والتي يمكن للآخرين أن ينطلقوا من في بحوث فرعية أخرى)، اعتمدت خطة بحث وخطاطة لمسار منهجي اقتضى مني أولا تحديد عينة الدراسة لإستحالة الإنطلاق من مدونة خطابية ممتدة لعقدين من الزمن وتحنيطها في بحث له سقفه الكمي، خاصة وأن أطروحتي لم تعتمد فقط على المستوى الكمي لاستخراج جداول إحصائية من جميع الممارسات الخطابية الملكية (خطابات، حوارات، رسائل، كلمات ترحيبية...)، بل نوّعت الإطارات المنهجية ومسارات وأدوات التحليل، مع بقاء سنة التصويب والتعديل.

❖ ثالثا- الجهاز المفاهيمي

بعد التوطئة التي بسطت فيها مقتضى سياق تغيير الأستاذ المشرف على الأطروحة وتغيير المناويل القرآنية للموضوع وفق تصور تداولي للموضوع بمعاودة تشكيله حتى يستوي خلقا ويكون طرعا خلاقا ليولد على راحتي لجنة المناقشة، وانطلاقا من هذا الإقتباس المستنبط من التصور القرآني، آثرت الإنطلاق من هدي القرآن تيمنا بفضله وأفضليته لإزالة الإلتباس الذي يكتنف دلالة الخطاب.

فدلالة الخطاب تحيل في مختلف تضاعيف المعجمات العربية على "الكلام"، حيث استمدت هذه الدلالة من السياق الذي وردت فيه لفظة الخطاب في القرآن الكريم، وتوزع ورود الخطاب بين صيغة المصدر مع الأحالة على الكلام، كما في قوله تعالى ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابَ﴾، وفي قوله أيضا: ﴿فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي بِالْخِطَابِ﴾، وقوله: ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾، أو بصيغة الفعل في قوله في محكم التنزيل: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾، وأمره تعالى لسيدنا نوح بصيغة الفعل: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الذِّينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾¹.

1- السور حسب ورودها تباعا "ص" 20 و 23، النبا/ 37 الفرقان/ 63 ثم المؤمنون/ 27

ويتبين على ضوء التفاسير التي وضعها المفسرون القدماء والمحدثون للآيات القرآنية أن المفهوم القرآني للخطاب يحيل كما أسلفت، ولا تختلف دلالة هذه اللفظة في المعجم العربي عن هذه الإحالة؛ حيث أن الإحالة المعجمية استمدت دلالتها من دائرة التفسير القرآني على وفق السياق الذي وردت فيه اللفظة فكان التلازم الدلالي الواضح بين مفهومي الخطاب والكلام وترادفهما اللغوي على مستوى اللفظ المعجمي مؤشرا دالا على أصول المصطلح الشفهية.

ويمكنني القول مبدئيا أن دلالة المصطلح لم تقتزن بعلامة مكتوبة، بل ارتبطت بالمستوى الشفهي تحديدا، مع ما يستتبع ذلك من علو شأن وشأ العلامة السمعية في الموروث من ثقافتنا على حساب العلامة المرئية من خلال كلام مؤثر ومقنع اعتبر خطابا استطاع من خلاله رسولنا الأكرم صلى الله عليه وسلم مجادلة الكفار ونشر الدعوة الإسلامية في شبه الجزيرة العربية، لتعم بعد ذلك أصقاع العالم.

ويورد "الزمخشري" تفسيراً لفصل الخطاب بقوله: "إنه الكلام المبين الدال على المقصود بلا التباس"¹، وقيل معناه أن يفصل بين الحق والباطل، أي أن يحكم بالبينه، وهو موسوم بالبيان والتبيان، وتجنب الإبهام والغموض واللبس، فخلق بين المصطلحين -كلام وخطاب- تلازما يوجب الكثير من الاستقصاء والفحص الدقيقين.

وهذا ما ذهب إليه الأمدي² الذي خص الكلام بمعنى الخطاب، باعتبار الكلام وفق التعريف الذي ارتضاه له ابن جني "لفظا مستقلا بنفسه، مفيدا لمعناه، يتسم بالأصل الشفهي"³؛

لذلك نجد أن التهانوي⁴ يؤكد على الأصول الشفهية للمصطلح، محاولا إخراج لفظ الخطاب من كل ما يعتمد على الحركة، والإيحاء، والإشارة كوسائل للإفهام، كما أخرج أيضا المهمل من الكلام، وكل كلام لا يقصد به الأصل في إفهام السامع.

ويشمل الخطاب اللفظ والفحوى، إذ له وجهان، شكله الخارجي (ويمثله اللفظ)، وداخلي (وهو المفهوم)، ويحترز باللفظ عن الحركات والإشارات المفهمة بالمواضعة، وبالتواضع عليه من الأقوال المهملة: فهو كما يذهب التهانوي بالقول "إن الخطاب، إما الكلام اللفظي أو الكلام النفسي الموجه نحو الغير للإفهام"⁵.

وقد ارتبط مصطلح الخطاب في الثقافة العربية بحقل علم الأصول، ولهذا فإن دلالاته مقيدة بإجراءات ذلك الحقل مباشرة؛ ذلك أن حقل علم الأصول واسع جدا؛ فكثير من قضايا الثقافة العربية الإسلامية متصلة به، منها على سبيل المثال لا الحصر، ميادين علوم القرآن الكريم، والحديث، واللغة...

أما الزمخشري في أساس البلاغة، فقد أورد ما يلي: "خطب: خاطبه أحسن الخطاب، وهو المواجهة بالكلام... وكان يقوم الرجل في النادي في الجاهلية فيقول: خُطِبٌ... واختطب القوم فلانا: دعوه إلى أن يخطب إليهم... ونقول له: أنت الأخطب البين الخطبة، فتخيل إليه أنه ذو البيان في خطبته..."

وقد حملت لسانيات الخطاب لقرون طويلة إسما مجيدا هو اسم "البلاغة"، وظل دائما التأكيد منصبا على المظهر اللفظي للخطاب، بحكم اشتغال اللسانيين بالخطاب الشفوي-الكلام-على أساس أن الكلام يمثل مظهرا لفظيا خاصا بالفرد؛

¹ - الكشف، ج4، بيروت، 1987، ص 80

² - المبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين، تحقيق عبد الأمير الأعسم، بغداد، 1985

³ - ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، الجزء الأول، القاهرة، 1999، ص 32

⁴ - كشف اصطلاحات الفنون، تحقيق لطفي عبد البديع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد الثاني، 1972، ص 175

⁵ - المرجع نفسه، ص 175

أما الآمدي فقد ظل تعريفه للخطاب كلفظ متواضع عليها المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه. وقد توسعت حدود النظر إلى الخطاب، من وصفه متتالية جمل، ليشمل عددا وافرا من مظاهر التعبير الإشارية، سواء أكانت وسائلها لفظية أم إيمائية أم صورية أم كتابية... ويعد الخطاب حدث اللغة. حاصل التأصيل القاموسي إذن أن كلمة "خطاب" في القواميس العربية حمالة للدلالة: فالخطاب قد يكون كلاما أو فعل توجيه الكلام، وهو محدد في الحيز الزمني بنقطة بداية وبنقطة انتهاء، مع اشتراط وجود شخصين أو أكثر يتفاعلا (ون) فيما بينهما (هم) بهدف تحقيق الإفهام أو الإقناع أو هما معا. في القواميس الفرنسية -وحتى أورد التعريف من مظانّه-، وجدت أن روبير الصغير Le Petit Robert قد أورد عدة دلالات للمدخل المعجمي، ومن أهمها:

أ- الموضوع الذي نتكلم فيه؛

ب- خطبة شفوية أمام جمع من الناس؛

ت- كتابة أدبية تعالج موضوعا بطريقة منهجية؛

ث- التعبير اللفظي عن الفكر (=الكلام)؛

ج- الكلام، وقد يعني ملفوظا لغويا قابلا للملاحظة (جملة، متوالية من الجمل المنطوقة، نص مكتوب)؛

ح- عالم الخطاب: أي مجموع سياقاته، فطبيعة الخطاب غير ثابتة؛ إذ قد يكون كلاما وقد يكون كتابة؛ وهو من حيث الحجم إما محدد (جملة، متوالية من الجمل، نص) أو غير محدد (كلام).

كما أن الخطاب يختلف عن اللسان باعتباره مؤسسة فردية (شأنه في ذلك شأن الكلام)، في مقابل القواعد الاجتماعية التي تحكم اللسان. ويضيف التعريف ملاحظة هامة، وهي أن للخطاب عالمة الخاص، أي سياقاته الخاصة به.

ويمكن هذا الإطار تسجيل غياب خاصيتين أساسيتين للخطاب ذكرتهما القواميس العربية وهما: التفاعل بين المتخاطبين من جهة، وسعي الخطاب إلى الإفهام والإقناع من جهة ثانية.

فهل تدارك لاروس الجيب ذكر هذه الملاحظة؟

الخطاب بحسب لاروس الجيب هو: "فعل المخاطبة (أو التخاطب) (...) قطعة شفوية هدفها الإقناع (...) إنه متوالية الكلمات المشكلة للغة"¹.

يستدرك هذا القاموس خاصية الإقناع في الخطاب، غير أن المقارنة بين هذا التعريف وسابقه تدفعنا إلى طرح التساؤل التالي: هل الخطاب ملفوظ (روبير الصغير) أم هو متوالية من الكلمات المشكلة للغة (لاروس الجيب)؟

ويتحدد الخطاب في "روبير الصغير" باعتباره تعبيراً (شفويا كان أم كتابيا) عن موضوع ما، بحيث يكون قابلاً للملاحظة، وهو في هذا يقابل الملفوظ.

ورغم أن قاموس لاروس الجيب أهمل التدقيق في تحديده لهذه المسألة، حين اعتبر الخطاب "متوالية الكلمات المشكلة للغة"²، لا ننسى إشارته الهامة إلى وصف الخطاب بفعل المخاطبة/التخاطب (Action de discourir). إنها إشارة ضمنية إلى ارتباط الخطاب بوضعية تواصلية ما؛ ذلك أن التخاطب في حقيقة الأمر تفاعل بين مشاركين أو أكثر؛ لذلك، يميز بعض اللسانيين بين الكلمة والجملة والنص تبعا لوجود سياق أو انعدامه.

¹-Petit Robert, CD-Rom du petit Robert, « Dictionnaire analogique et alphabétique de la langue française, Nouvelle Edition 2001, avec des textes remaniés et amplifiés sous la direction de Josette Rey-Debove et Alain Rey, Bureau Van Dijk, Bruxelles, p. 735

²- Larousse de poche, librairie Larousse, 1968, p. 113

وبالنظر إلى اقتضاء العملية التواصلية شريكين -أو أكثر- يتفاعلان فيما بينهما، فإن المحرك الذي يغذي هذه العملية هو المستوى المعرفي للمتواصلين، أو ما يسميه رائد النحو الوظيفي بالمغرب الدكتور أحمد المتوكل بـ "المخزون المعلوماتي" مراوفاً فيه بين ثلاثة أنواع من المعارف:

- 1- المعارف العامة؛
- 2- المعارف المقامية؛
- 3- المعارف السياقية.

وهكذا، فإن الخطاب استعمال لغوي محكوم بعالمه الذهني وأسلوبه الخاص وبنيته الداخلية وهو يتطلب معارف عامة ومقامية وسياقية قصد تحقيق التواصل بين المشاركين حول موضوع معين ولهدف محدد.

في حدوده القاموسية، يقدم الخطاب دلالات متعددة: وقد أبرزت المقارنة بين القواميس العربية والقواميس الفرنسية اشتراكهما معاً في عدد من المعاني واختلافهما في بعضها الآخر.

ويمهد دومينيك مانغونو لتصوره للخطاب في مجال اللسانيات بذكر بعض الاستعمالات المتداولة لكلمة "خطاب": فقد تستعمل للدلالة على بعض الملفوظات الرسمية (وذلك من قبيل: "خطاب صاحب الجلالة")، أو تستعمل منعوتاً ينعت بكلمات تحيل إلى مجالات مختلفة (مثل: الخطاب السياسي، الخطاب العلمي، الخطاب الإسلامي، الخطاب النهضوي، الخطاب الأدبي، الخطاب اللغوي...)، دون أن تحمل كلمة "خطاب" في مثل هذه الاستعمالات دلالات دقيقة، اللهم إلا الإشارة في الآن نفسه إلى "النسق الذي يسمح بإنتاج مجموعة من النصوص، وكذلك إلى هذه النصوص ذاتها.

ويُوقع مانغونو "الخطاب" ضمن التداوليات، باعتبار اهتمامها بالعملية التواصلية وبالعلاقة التي تجمع بين المرسل (أنا) والمرسل إليه (أنت) والمرسلة (خطاب).

كما يحدد خصائص للخطاب من خلال مجموعة من السمات الأساسية نلخصها في: "سمة المجتمعية، سمة التوجيهية، سمة الفعل والتأثير، سمة التفاعلية، سمة السياقية، سمة الذاتية وسمة التبريرية"¹.

أما الدكتور أحمد متوكل، فقد خصص كتابه "قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية - بنية الخطاب من الجملة إلى النص -" لمقاربة بعض القضايا اللغوية، واستكمال مشروعه اللساني ليشمل الخطاب أيضاً، مع محاولة اختبار مدى صحة فرضية سيمون ديك حول كون "بنية النص تشاكل إلى حد بعيد بنية الجملة"²؛ ويبدو واضحاً أن النحو الوظيفي لا يهتم بإقامة الحدود بين النص والخطاب؛ إذ يعتبرهما مسميان لمفهوم واحد في غالب الأحيان.

فقد ورد تعريف أحمد المتوكل للخطاب بشكل أعم من تعريف سيمون ديك؛ فالأول يوسع مفهوم الخطاب ليشمل "كل إنتاج لغوي كيفما كانت طبيعته (شبه الجملة والجملة والنص)"³، بينما يقصره فان ديك على ما وراء الجملة؛ أي أن الخطاب مشكل من مجموعة من الجمل لا من جملة واحدة.

ويشترك التعريفان في ربط الخطاب بوظيفته التواصلية: فالمتوكل يميز بين الخطاب وباقي الإنتاجات اللغوية الأخرى استناداً إلى وجود ظروف مقامية أو انعدامها، في حين يصرح فان ديك بأن الخطاب تواصلية بامتياز.

¹- Dominique Maingueneau, Analyser les textes de communication, Editions Dunod, Paris, 1998, pp 37 à 42

²- أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية - بنية الخطاب من النص إلى الجملة - منشورات دار الأمان - 2001، ص 16

³- المرجع السابق، ص 17

يتضح مما سبق أن الخطاب في النحو الوظيفي هو مجمل الاستعمالات اللغوية المشروطة بالسياقات التي وردت فيها، والتي تهدف تحقيق التواصل بين شخصين أو أكثر وذلك قصد تأسيس فضاء تواصل تفاعلي.

غني عن القول أن "أحمد المتوكل" هو مؤسس تصور نحوي وظيفي يجعل من التواصل الوظيفية الأساس للغة، على عكس ما تذهب إليه الأنحاء الصورية، ويعتبر "الخطاب نسقا (بكل ما تحمل كلمة نسق من دلالة) مفتوحا على سياقه اللغوي ومقاماته المفترضة: إنه تبادل للمعلومات بين ذوات تؤمن بأهمية التواصل الرامي إلى الإفهام والإقناع وتؤمن له سبل ذلك".

وتقوم هذه البنية على دعامتين هما:

- **شكل الخطاب** متمثلا في التراكيب اللغوية بين المفردات التي تفضي إلى مفاهيم تعلو على المفردات المجردة؛

- **مضمون الخطاب** والذي نبلغه بتحليل عقلي لما يستبطنه التركيب اللغوي عبر توظيف للمفاهيم يساهم في فك ما استعصى على الفهم، الأمر الذي يعني أننا نسلم بوجود علاقة بين الشكل والمضمون.

لكن هذه العلاقة بين الشكل والمضمون ليست علاقة طليقة ومتحررة من الضوابط، إنها تفاعل يتم في دورق المنظومة القيمية التي تشكلت تاريخيا وتضبط العلاقة والدلالة بين المفردات والمفاهيم الثاوية في باطن الخطاب، وهو ما يعني توثيق الصلة بين المفهوم من ناحية، وسياقه التاريخي من ناحية أخرى، لتعرف مدى تطوره عبر رحلة الخطاب، وهو ما يؤسس لتحرك دقيق للصلة بين بنية المجتمع وبنية الخطاب معبرا عنها بشبكة المفاهيم التي يتأسس عليها الخطاب.

كل ذلك يعني أن جيولوجيا الخطاب الملكي (والخطاب الإقناعي أو الإبلاغي عموما) تقوم على صفائح يعلو بعضها بعضا، لكن قاعدة ارتكازها هي البنية الاجتماعية تعلوها منظومة قيمية توجه الحركة وتضفي عليها مستوى شرعيتها، ويتم التعبير عن هذه المنظومة بشبكة مترابطة من المفاهيم التي تستند على مفردات اللغة.

فهل من جدوى لمبحث يبحث في التوالجات القائمة بين اللغة ولغة الخطاب الملكي دون أن نغرق في الجانب القاموسي؟

يشار أنني توجست أيضا من هواجس الذاتية ومهاوي تحويل التحليل إلى فضاء للقاموسية، لأن تعريف مفهوم معين قد يتطلب تعريف مفاهيم أخرى تقحمنها في دائرة مفرغة.

كما أن عددا من المفاهيم تتنازع أبوتها العديد من الحقول المعرفية وكانت ستجرني إلى دروب التحصيل عند مباشرة التمحيص المفهومي، أو تستغرقني وأغرق في جدل آخر بين الالتزام بالفهم والتسطيح والإشارة المقتضبة للماحة الذكية أو الذهاب إلى ما وراء المفاهيم والظواهر وتمظهراتها، والتعبير عنها بأرقام مجردة لا تحسن الكلام عن نفسها، أو تتنازعني مسارات الاختيار بين السمات التجريدية الموغلة في العمق والتعاريف القابلة للقياس والتقييس، بين التعامل الكمي الإحصائي مع المفهوم والمضمون أو التعامل النوعي بين هذا وذاك، فأثرت في النهاية وضع تعاريف تخص بحثنا، مع الالتزام بتعاريف مرجعية لبحوث سابقة، على أن تكون تلك التي أسوفاً وأسوقها بدوري تعاريف يمكن اعتمادها كتعاريف مرجعية لبحوث لاحقة.

فحتى لا أنزلق في مهايوي القاموسية، لا بد أن أوضح أنني حصرت بحثي من خلال تأسيس تحديد المفاهيم في الخطاب الملكي على وعي مسبق بضرورة استعمال الأجهزة المفاهيمية التي تتعلق فقط بالدوائر الثلاث التالية وتعالقاتها وعلاقاتها:

- 1- البنية الاجتماعية المغربية: وهي مجموعة الوحدات الاجتماعية بدءا من الفرد والأسرة والعشيرة والقبيلة والأمة والحزب والنقابة... وانتهاء بالمؤسسة الملكية، وشبكة التفاعلات بينها وبين باقي الوحدات والسلط التي تتقاسم إنتاج الخطاب أو إنتاج بلاغة التعبير عن استقبال الخطاب والتفاعل مع مضامينه، فضلا عن منظومة القواعد التي تضبط هذه التفاعلات؛
- 2- المنظومة القيمية في المجتمع المغربي: وهي تعبير عن مثاليات المجتمع العربي التي تشكل مرجعية الحكم على السلوك السياسي للملك سلوك تلقي الخطاب في أوساط جمهور التلقي (الشعب والساسة)، على أساس أن الفرق بين مجتمع الخطيب ومجتمع تلقي الخطاب السياسي أو الديني ليس في توافر منظومة قيمية، بل في سلم القيم وسلمية تلقيها وإعلانها لتخضع لها باقي الخطابات التي لا تحوز نفس سمات ومستويات الإقبال على بورصة تداول القيم الخطابية للإستماع أو الإستمتاع بالخطابات؛
- 3- تحديد المفاهيم المركزية والمفاهيم التابعة في بنية الخطاب الملكي.

أ- التعقّب المفاهيمي للتوالجات القائمة بين خطاب السلطة وسلطة الخطاب

يعد مفهوم السلطة واحداً من المفاهيم النظرية ذات الصلاحية لتفسير ظاهرة الدولة ومن خاله القائمين عليها حتى أعلى سلطة مؤسساتية تمثلها المؤسسة الملكية التي جعلنا خطاباتها مدار أطروحتنا. فثمة شبه إجماع بين علماء الاجتماع السياسي على اعتبار الدولة ظاهرة سلطة أساساً، وهي أعلى درجات تجريد السلطة السياسية.

ويستدعي تفسير ظاهرة الدولة تفسيراً آخر مؤداه أن مفهوم السلطة في الفكر الغربي، شأنه شأن بقية مفاهيمه السياسية، ارتبط برؤية الإنسان الغربي للكون، وبمسار تطورها.

إلا أن المسار الغربي لفهم السلطة لا ينسجم مع فهمنا للسلطة، خاصة بعد أن مثلت المرحلتين الإغريقية والثيولوجية المسيحية من تاريخ مفهوم السلطة في الفكر السياسي الغربي المنتج لخدمة الدولة تأسيساً لنسق علمنة السلطة في ارتباط بأفق الحرية: فمنذ اللوغوس اليوناني إلى اللوغوس المسيحي، تغير التفكير الغربي حول السلطة.

في المغرب، وبموجب القانون الذي توكل على ما استقر عليه اجتهاد القضاء الإداري، لا يعتبر الملك سلطة إدارية، وقراراته تعتبر قرارات غير إدارية، ولا تفتح بالتالي باب الطعن فيها أمام المحاكم المختصة: فقد تواتر الاجتهاد القضائي منذ حكم عبد الحميد الرّونده الصادر بتاريخ 18 يونيو 1960 كأول حكم افتتحت به الغرفة الإدارية اجتهادها، حيث اعتبرت أن جلالة الملك ليس بسلطة إدارية وأن القرار القاضي بتوقيف السيد عبد الحميد الرّونده من وظيفته كقاضي هو "قرار صادر عن الملك في شكل ظهير، وتبعاً لذلك فإن المجلس الأعلى غير مختص في الطعن الرامي إلى إلغاء الظهير"¹.

¹ - انطلاقاً من مقتضيات الدستور الحالي، يرى بعض رجال الفقه القانوني أن الملك باعتباره رئيس المجلس الأعلى للسلطة القضائية، فهو رئيس للسلطة التنفيذية، وبصفته تلك، فهو يصدر قرارات إدارية يمكن الطعن فيها إذا كانت مشوبة بالشطط في استعمال السلطة، (خاصة المقررات التأديبية المتعلقة بالوضعية الفردية)

ولقد أكدت الغرفة الإدارية في أحكام أخرى أن جلالة الملك ليس بسلطة إدارية، من خلال تأكيد اجتهادها القضائي في قرارها الصادر في الدعوى التي رفعتها قضية الشركة الفلاحية لمزرعة عبد العزيز ضد المرسوم الملكي الصادر في 11 يونيو 1968 للمطالبة بإلغائه بسبب الشطط في استعمال السلطة، والذي كان قد وُقِع من قبل الوزير الأول إذا ذاك بناء على تفويض ملكي للمصادقة على عملية ضم الأراضي الزراعية في قطاع مصانع الشمندر بناحية الغرب.

لكن المجلس الأعلى قضى بأن جلالة الملك يمارس اختصاصاته الدستورية بوصفه أميراً للمؤمنين طبقاً للفصل 19 من الدستور ولا يمكن اعتباره سلطة إدارية.

وعليه، فقد رفضت الغرفة الإدارية بالمجلس الأعلى تشبيه القرارات الملكية ذات الطابع الإداري بالقرارات الإدارية العادية، وتبنت مبدأ عدم إخضاعه لرقابة القضاء، واستندت لتعليل قرارها على سوق الحثيات التالية:

"- حيث إن المرسوم الممضي من قبل الوزير الأول بناء على تفويض من الملك هو مرسوم ملكي 'Décret Royal' -

حيث أن الملك يمارس اختصاصاته الدستورية بوصفه أميراً للمؤمنين طبقاً للفصل 19 من دستور 1962، ولا يمكن اعتباره سلطة إدارية؛

فإن الغرفة الإدارية لا تختص بالنظر في القرارات الصادرة عن السلطات غير الإدارية، ليظل السبيل الوحيد هو لجوء صاحب الشأن إلى جلالة الملك على سبيل الإستعطف".

وبحكم طبيعة الخطاب الملكي وهوية السلطة الدينية والسياسية التي تصدره وما يحيط بها من سلطات رمزية، فقد أثرت الوقوف بشكل شبه حصري عند عتبة خطاب السلطة وسلطة الخطاب المساندة لها، وأتلمس لي مسارب في دواليب الإستعمال المزدوج لسلطة اللغة في لغة السلطة، والنظر في مجموعة من الأنظمة العلائقية التي تدور في فلك ثنائيات وتقاطبات بين السلطة والإيديولوجيا، وجدلية التأثير والتأثر، والإقناع والإنصياح... وعدد من الإشكاليات الفلسفية التي طرحها فلاسفة وأنتروبولوجيون وتعلقت بتعميق النقاش حول مشكلة سلطة اللغة عند "السفستائيين"، وعلاقتها بالواقع والعالم الخارجي في الفكر "الأفلاطوني"، فضلا عن بنية وتركيب اللغة وعلاقتها بالمنطق والسياسة في التصور "الأرسطي"، وتوالج اللغة في علاقة ثلاثية بالفكر والمعرفة عند "ديكارت"، وكذا علاقة اللغة بالمجتمع مع "روسو"، ووصولاً إلى التأسيس للمنظور الاجتماعي للغة بمقرب أنثربولوجي كان "إدوارد سابير" من مآهديه.

إلا أنني لم أقف عند كل هذه المدارس ومنهجية مقاربتها لهاته الإشكاليات والعلاقات كي لا تلهيني عن الخط المنهجي الذي رسمته للأطروحة أو تخرجني من ظلال المقاربة اللسانية (للجانب اللفظي) والسيميائية (للسق الأيقوني لخطابات وإشارات المؤسسة الملكية) والبلاغية (للنظامين معا)، لأكتفي فقط بالمقاربة التي ترى اللغة خطاباً وشكلاً من أشكال الممارسة الاجتماعية، أي أن "اللغة جزء من المجتمع، ولها صيرورة اجتماعية تجعلها مشروطة اجتماعياً بالجوانب غير اللغوية في المجتمع، والشيء الذي ترسم فيه السلطة منذ الازل هو اللغة، أو بتعبير أدق، اللسان"¹.

¹- فيركلو، نورمان : الخطاب بوصفه ممارسة اجتماعية، ترجمة رشاد عبد القادر، مجلة الكرمل، عدد 64، 2000، ص. 156

• التوالجات القائمة بين سلطة اللغة ولغة السلطة وخطاب السلطة وسلطة الخطاب

يقتضي البحث في طبيعة العلاقة النازمة بين اللغة والخطاب والمجتمع، النظر في مجموعة من العلاقات، كعلاقة اللغة بالسلطة والأيدولوجيا والثقافة، وطرح جملة من المستويات النظرية والمشكلات المعرفية، كأصل اللغة و سلطة اللغة والسلط المساندة لها، و التمييز الذي تقيمه اللسانيات بين اللغة والكلام والخطاب والوحدات المشكلة للخطاب واللسانيات الداخلية والخارجية، وغيرها من المستويات القرائية، مع تقليب النظر لننظر في بعض المسائل الابستمولوجية التي تطرحها هذه العلاقة ضمن ميدان معرفي يحاول جاهدا التأسيس لمناهجه ومفاهيمه و مسائله، ونعني بذلك علم الاجتماع اللغوي و/ أو اللسانيات الاجتماعية، او ما يثيره من مسائل شكلت ولا تزال مثار خلاف بين اللسانيين وعلماء الاجتماع حول الطبيعة الاجتماعية للغة.

كما نتعذر دراسة الموضوع مفصولا عن سياق النقاش في بداياته بين الفلاسفة وعلماء الأنثروبولوجيا، خاصة وأن الفلاسفة قد ناقشوا مشكلة سلطة اللغة "الحركة السوفسطائية"، و "علاقة اللغة بالواقع والعالم الخارجي" (أفلاطون)، و "بنية وتركيب اللغة وعلاقتها بالمنطق والسياسة" (أرسطو)، و "علاقة اللغة بالفكر والمعرفة" (ديكارت وجون لوك)، و "علاقة اللغة بالمجتمع" (جون جاك روسو)، قبل أن تؤسس الأنثروبولوجيا الحديثة (مع إدوارد سابير) "للمنظور الاجتماعي للغة".

وسأكتفي بوجهة النظر التي ترى في اللغة خطابا وشكلا من أشكال الممارسة الاجتماعية، لأن هذا التحديد يثير إشكاليات لسانية لا تتجاوز مستوى التمييز بين اللغة والكلام والخطاب والعلاقة بالمجتمع.

بوصفها شكلا من أشكال الممارسة الاجتماعية، تعتبر اللغة "جزءا من المجتمع...وهي صيرورة اجتماعية...وهذه الصيرورة مشروطة اجتماعيا، أي مشروطة بالجوانب غير اللغوية من المجتمع": هذا المستوى الأولي يكن ان اجلوه من خلال استحضار مدرستي "ميشيل فوكو" و "بيير بورديو" في اللغة والخطاب والمجتمع والسلطة، اللذان تكاملا رغم اختلاف منظوريهما.

لقد ساد الدراسات التي تناولت السلطة وعرفت بها سوء فهم كبير لها، ولعلاقتها بالنص على وجه الخصوص؛ حيث هيمنت على هذه الدراسات نظرة تفسيرية أحادية بدت قاصرة عن الإحاطة بمفهوم "السلطة"، وحصرته على مفهوم القوة والجاه، والحكومة والدولة، وفي ذلك إقصاء غير مبرر لأشكال سلطوية كثيرة منتشرة في جميع ميادين الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية واللغوية.

ويمكن تلمس شكلين بارزين للسلطة pouvoir، أولهما ينبع من داخل اللغة، تمارسه اللغة على مستعمليها، عبر التسمية ذات الطابع الجبري وما يصاحبها من فرض مصطلحات على المفاهيم والأشياء المتنوعة، وعبر المواضع التركيبية syntagmatiques والدلالية sémantiques والسياقية contextuelles لدى مجتمع معين.

أما ثاني هذين الشكلين اللغويين فيوجد خارج اللغة ويمارس نشاطه من خلالها، كما يجسد ذلك نموذج "السلطات الحاكمة"، التي أورد "رولان بارت" بشأنها أن "إعطاء مفهوم للسلطة ربما سيكون أكثر سلطوية: فالتعريف ليس فقط هو تحديد العلاقات بين الدال والمدلول، وإنما هو أيضا فرض المفاهيم على الأشياء. وبناء عليه فهناك من يربط السلطة بالقوة أو الحق أو الحياة،... والتي تبقى الجانب الأحادي لعلاقتها بالحكم والتسيير والتدبير وباختصار بالسياسي. والهدف من هذا كله هو إخفاء الوجه التعددي للسلطة واختصارها في مكان واحد هو السياسة"².

¹ - المرجع نفسه، ص. 155.

² - رولان بارت ت درس السيميولوجيا - ترجمة عبد السلام بنعبد العالي - دار توبقال للنشر - ط1 - 1986 - ص12

بالإضافة إلى سلطة المؤسسة المتجلية في إعطاء مشروعية التحدث علانية باسمها للخطيب، وفي مراقبته، هناك سلطة اللغة التي تمده بالمفاهيم والأشكال اللغوية الملائمة للتعامل مع السياق، ووظيفة اللغة من هذا المنطلق هي إجبار المتحدث على التعبير، وليست التبليغ.

ويرى "ميشل فوكو" أن "السلطة لم تحظ بالدرس والتحليل الرأسمالي والماركسي، فتناولها كمظهر سلطة لدى الآخر"¹، متجاوزاً بذلك المنظور الليبرالي للسلطة، بوصفها خضوعاً للقانون، بنفس تجاوزه للمفهوم الماركسي الذي يضع السلطة بيد الدولة، ليجعلها تعكس صراعاً طبقياً.

إلا أن تجاوز فوكو المفاهيم السابقة للسلطة لا يعني أنه يلغيها، بقدر ما يتعامل معها من كونها "استراتيجية" (ليست ملكاً لأحد)، ومُحايدة (تنتشر في مفاصل المجتمع كلها)، وإجرائية (تعكس إجراءات خفية ومعلنة في الوقت نفسه)².

كما جمع فوكو أيضاً بين المعرفة والسلطة دون خلق حالة مساواة بينهما، وإن كانت المعرفة تمتلك سلطة، فهي ليست سلطة، وإن كانت السلطة تنتج معرفة، فهي ليست معرفة. إن ثنائية المعرفة والسلطة تعبر عند فوكو عن تبادل الأدوار بينهما: ويعرفها بعدئذ بكونها علاقة قوى، ومن ثم فكل "علاقة قوى هي، على الأصح، علاقة سلطة"³.

والسلطة ليست موضوعاً اجتماعياً لوجودها المتعدد في كل مكونات المجتمع (العائلة، الطبقة، الحزب، الأخبار، الآداب، حركات التحرر الموجودة خارج السلطة)، بل السلطة هي كل خطاب لدينا سواء أكان هذا الخطاب داخل السلطة (الحاكمة) أم خارجها. فعلاقة الخطاب السياسي بالسلطة لا يمكن أن تتحقق إلا بوجود الدولة كسلطة شرعية، تمارس فيها تنوكاً فيها سلط مؤسساتية أخرى سلطة الخطاب، هاته الأخيرة تحكمها مؤسسات وتمارس في ظلها السياسة دون سلطة ودون خطاب.

ومعنى هذا أن الخطاب شيء من الأشياء موضوع صراع من أجل الحصول على السلطة، فهو ليس فقط انعكاساً للصراعات السياسية، بل هو المسرح الذي تستثمر فيه الرغبة، فهو ذاته مدار الرغبة والسلطة، وتكمن حقيقته في موقعه، وفي استراتيجية المتحدث به، بحيث يذهب الاهتمام إلى الذي قاله ولماذا قاله؟ من الذي يمتلك الخطاب، ولأي هدف أو غاية يستعمله؟

فالخطاب السياسي يرتبط عادة بـخطاب السلطة، وله صلة وثيقة بها، وهو أكثر الأدوات فعالية من بين الأدوات التي توظفها القوى السياسية، أم **خطاب السلطة**، فيشمل "كل ما تصدره السلطة من إنتاج كلامي مكتوب أو منطوق، أو رمز تعبيرى موجه إلى جمهور مستهدف أو مقصود لإقناعه وتوجيهه إلى مقاصدها"⁴.

ويُعد خطاب السلطة نوعاً من أنواع الخطاب السياسي، وإن كانت الحدود واصله أكثر منها فاصلة، لأن الخطاب السياسي خطاب ينتجه المفكرون السياسيون أو المشتغلون بالسياسة أو المهتمون بها، ويتناول موضوعاً يتعلق بالسلطة أو الدولة، رغم دأب الدكتور محمود عكاشة **على التمييز بين الصاغة وورش الصناعة مع الإقرار بوحدة البضاعة، حين قال بأن "الخطاب السياسي يصنعه سياسيون من داخل السلطة ومن خارجها، وخطاب السلطة يصنعه أصحاب القرار في الدولة أو القياديين فيها أو معدون من داخل السلطة أو من حاشيتها"**⁵.

1- محمد الجلاي، "المعرفة والسلطة في تصور ميشيل فوكو"، الحوار المتمدن، في عددها 4387 الصادر بتاريخ 8 مارس 2014

2- جوده محمد إبراهيم أبو خاص، المنظور الفلسفي للسلطة عند ميشيل فوكو: دراسة في الفلسفة السياسية والاجتماعية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، الطبعة الأولى، 2017، ص. 20

3- نفسه، ص. 22

4- عيسى عودة برهومة: تمثيلات اللغة في الخطاب السياسي، ضمن سلسلة عالم الفكر، عدد 1، المجلد 36، 2007، ص 29

5- محمود عكاشة، لغة الخطاب السياسي: دراسة لغوية تطبيقية في ضوء نظرية الاتصال، دار النشر للجامعات، القاهرة، 2004، ص 29

انطلاقاً من هذا التعريف، يمكن فتح باب الإستنتاجات للقول:

- أن الخطاب السياسي أعم من خطاب السلطة، لأنه يشمل مجمل الإنتاجات السياسية للخطاب العام أو كل خطاب يتناول موضوعاً سياسياً أو قضية تتعلق بالدولة وسلطتها أو سياستها الداخلية والخارجية، فضلاً عن اشتماله للإنتاجات السياسية والدولية لمن اتخذ السياسة موضوعاً، بما في ذلك الأحزاب والمشتغلون بالسياسة من المفكرين والكتاب والباحثين السياسيين، ومُعَدِّي البرامج السياسية؛

- أن خطاب السلطة، بالمقابل، هو خطاب ينتجه أصحاب القرار ومؤسسات الدولة الرسمية وغير الرسمية، ولا يعبر عن شخص قائله، بقدر ما يُعبر عن النظام الحاكم أي النظام الشمولي الجماعي الذي تدعمه السلطة السياسية.

وفي هذا الصدد، يرى محمود عكاشة أن صاغة الخطاب السياسي يرون "خطابهم شرعياً أو دستورياً، وما عداه هزلاً وكذباً، فخطاب الأحزاب المعارضة -حسب رأيهم- غير شرعي، وكذوب لأنه ينقض خطابهم، وكل خطاب معارض لا يعترف بالسلطة يعد مارقاً، وترد عليه السلطة بخطاب يهدمه، ويُغيّبه وتصنع بديلاً له يعبر عن فكرها وإراداتها السياسية"¹.

من هذا الكلام، يتضح أن العلاقة علاقة مزدوجة، تدثر تحت خوانها الخطاب السياسي وخطاب السلطة، وتشبي بعلاقة وطيدة تاريخية في توجيه الخطاب للمعنى السياسي وللممارسة السياسية.

فمنذ الأزل، في علاقته بالمعنى، يعمل الخطاب على توجيه المعنى وإبراز سلطة الخطاب في ذلك، فلا سلطة إلا سلطة الخطاب، فهو الذي يفرض سلطته على الآخرين: فشارل فوكو لا يفصل بين الخطاب وخطاب السلطة "إن الفصل الذي يمكن الحديث عنه هو فصل منهجي، ولكن في إطار نظرة تكاملية تنافس الخطاب في مختلف مستوياته اللغوية والمعرفية والسياسية والأخلاقية، مستويات تعكس مفهومه وامتداداته وعلاقاته بحقول وممارسات معرفية وسلطوية وأخلاقية"²، وهو ما يشير إليه فوكو في إرادة المعرفة.

تأسيساً على ما سبق، يمكن القول بأن هناك علاقة بين السلطة والخطاب السياسي، فمن خلال تحليل السلطة يمكن الوصول إلى فهم الخطاب السياسي وأيضاً إلى فهم تحولاته المستمرة، بمعنى أن السلطة في حد ذاتها علاقة، وهذا هو تعريفها الشائع في العلوم السياسية حيث تعني: "قدرة طرف (أ) على دفع طرف (ب) إلى فعل أشياء لا يفعلها في العادة"³.

وبهذه الصفة، تتمحور علاقة السلطة حول ثلاثة محاور هي:

1. **ممتلك السلطة:** وهو الشخص الذي يكون قادراً على ممارسة فعل سلطوي على الطرف الآخر أو الأطراف الأخرى؛
2. **الخاضع للسلطة:** وهو الطرف الذي تمارس عليه السلطة، أي الشخص الذي يقع عليه فعل السلطة؛

3. **مجال الحياة اليومية:** الإطار العام الذي تتحدد فيه تفاصيل السلطة والخاضع لها.

وبذلك نكون إزاء علاقة سلطة إذا فقط إذا توفرت ثلاثة عناصر في الآن نفسه، وهي "ممتلك السلطة"، و"الخاضع للسلطة"، ثم "مجال السلطة". هذه العناصر مجتمعة تضمن مشروعية السلطة في الخطاب السياسي، فتكون العلاقة بين الخطاب السياسي والسلطة علاقة جدلية تقتضي الطرفين معاً: فالسياسة هدف للسلطة والسلطة وسيلة وهدف في ذات الآن نفسه للسياسة.

يدفعني هذا الأمر للنظر إلى تراص طبقات خطاب السلطة والنبش في حفرياتهما بالمعول الفوكوي.

¹ - المرجع نفسه، ص 30

² - المرجع نفسه، ص 30-31

³ - عبد الإله بوحالة، "منطق السلطة ودينامية الخطاب السياسي"، الحوار المتعدد في عدده 2630 الصادر بتاريخ 28 أبريل 2009

• المفهوم الفوكوي الجديد للسلطة وسؤال السلطة ومساءلة مفهوم السلطة في العهد الجديد

معلوم ان أن السفسطائية قد وقفت عند سلطة الخطاب عندما اكتشفت الإمكانات التي تحملها اللغة كالمغالطة والقدرة على الترميز وإيقاع الخصم في الخطأ ودور الخطابة في تغيير الرأي والموقف، ومنذ ذلك التاريخ على الأقل، طرحت مسألة العلاقة بين اللغة والسلطة فهل للغة سلطة ذاتية أم أنها تستمد من شيء خارج عنها كالسلطة السياسية والدينية وغيرها، لتظهر في هذا السياق من الطرح العام للمسألة تحليلات ميشيل فوكو في اللغة والخطاب، وقسمت أعمال فوكو إلى قسمين حسب المنهج المستخدم أو طريقة التحليل في كل قسم منهما: الأركيولوجيا والجينيولوجيا.

وتنتمي إلى الأركيولوجيا أعمال مثل "الكلمات والأشياء"، و"نشأة العيادة"، و"أركيولوجيا المعرفة" و"نظام الخطاب"، وفيها يحلل فوكو الخطابات المنتجة في حقل العلوم الإنسانية والطبية؛ وتنتمي إلى الجينيولوجيا أعمال مثل "تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي" و"المراقبة والمعاقبة" و"تاريخ الجنس": فالأركيولوجيا هي شكل البحث الذي يكتشف فيه فوكو آليات تكوّن الذات في خطابات العلوم الإنسانية والطبية؛ أما الجينيولوجيا فهي البحث الذي يكتشف آليات تكوّن الفرد عبر نظم الضبط والعقاب والسياسات الجنسية وطرق التعامل مع الجنون.

من جهتي، سأقف في منزلة وسطى لاهي بالأركيولوجيا ولا بالجينيولوجيا الفوكوية، بل تلك المسماة بالإيديولوجيا وسأفرد لها محورا خاصا.

فلطالما آمنت بمعية زملائي في كلية القانون وبالصحافة بأن السلطة موضوع سياسي صرف، ثم أصبحت أعتقد بعد الممارسة في أسلاكها أنها موضوع إيديولوجي كذلك، يتسلل خلسة في الممارسات، حتى داخل فصول وحجرات التدريس داخل المؤسسات، بنفس نسق الوصف الذي قدمه رولان بارت لمجالاتها وآليات اشتغالها حين اعتبرها "قائمة، كامنة في كل خطاب تقوم به، حتى إن كان يصدر من موقع خارجها... ومع هذا استمر الاعتقاد بأن السلطة هي واحدة وحيدة، لكنها في الواقع متعددة مثل الشياطين، فهي موجودة في كل مكان وفي جميع الجهات، جهة الرؤساء والأجهزة، وموجودة عند الجماعات المقهورة والقاهرة، وحاضرة في أكثر الآليات التي تتحكم في التبادل الاجتماعي، في الدولة وعند الطبقات والجماعات، ولكن أيضاً في أشكال الموضة والملبس والآراء الشائعة والمهرجانات والألعاب والمحافل الرياضية والأخبار والعلاقات الأسروية والخاصة بل وحتى عند تلك الحركات التحررية التي تسعى إلى معارضتها. حينما يتسنى لمن يبعدها هنا، فإنها سرعان ما تظهر هناك، فهي لا تزول البتة، ولكننا بقينا نعتقد أنها واحدة وحيدة، حتى أدركنا أنها متعددة الوجوه... هناك في كل مكان أصوات "مشروعة" تعطي لنفسها الصلاحية لتسمع خطاب كل سلطة، وأعني خطاب الغطرسة"¹.

إن السلطة بهذه المعاني حاضرة في أكثر الآليات التي تتحكم في التبادل الاجتماعي رهافة، في الدولة، وعند الطبقات والجماعات، وحتى في العلاقات الأسرية.

فالسلطة متعددة في الفضاء الاجتماعي، وممتدة في الزمان التاريخي، ندفعها اليوم لنفسيها غدا تنبعث من مرقدها لترتسم في وجه جديد: هذا الشيء الذي ترتسم فيه السلطة، ومنذ الأزل، هو اللغة، أو بتعبير أدق "اللسان".

¹- بارت، رولان، درس السيميولوجيا، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، نوبال للنشر، الطبعة الثانية، 1986، ص. 13

رغم أنني لا ألحظ السلطة التي ينطوي عليها اللسان، لأنني أنسى كما الآخرين بأن كل لسان تصنيف، وأن كل تصنيف ينطوي على نوع من القهر، إلا أن اللغة تبقى سلطة تشريعية واللسان قانونها. فماذا عن لغة السلطة كجهة تمارس القهر وتُناط بها المهام التنفيذية للعنف والإكراه الشرعي؟

يعتبر "فوكو" أول من أسس لمفهوم جديد للسلطة، بعد أن تجاوز سؤال الماهية واستعاض عنه بمساءلة السلطة عن المنهجية التي تنبجس بها في الوجود حتى تصير ممارسة وكشف آلياتها وآثارها، محاولاً هدم مُسلّمة مفادها أن السلطة شيءٌ قابلٌ للتمكك، وأنها ترتبط بالدولة والقوانين كما توحى بذلك النزعة الليبرالية أو المنظور الماركسي للطبقات ولصراعها بالسلطة ومن أجل السلطة.

كما أنني أجد هذه الأخيرة حاضرة حتى في الأشكال الأكثر هامشية: فالسلطة بهذا المعنى لا تنضبط لما هو سياسي، بل تتجاوز حيّز السياسي وتُخومه باستمرار وبنوع من الإصرار.

بنفس اطلاعي في الخطابات الملكية على مشروع الجهوية الموسعة، يدفعني الشغف دفعا ويجدي في النهاية نفعا في مَهْمَة إدراك أسرار سؤال السلطة، وارتحال "فوكو" إلى الهامش وإلى تخوم لم تطرق من قبل، مع فهم حدود تجاوز السلطة لحدود الحيز السياسي للخوض بدوري باقتضاب في تجربة اكتشاف المفهوم الفوكوي الموسع للسلطة، وإضافاته المنهجية لمقاربة السلطة في علم السياسية، من خلال خطاباتها ومؤسساتها وممارساتها وممارسيها ومتمرسّيها.

فقد أسس "فوكو" رؤية مغايرة للمفهوم الكلاسيكي للسلطة¹ وتقويضاً لها وهدماً من خلال تبنيه لنموذج يتجاوز البراديغم الاختزالي للسلطة الداعم لفكرة المركز السياسي والمركزة المرتكزة على الرؤية المؤسسية القانونية والوصفية، التي تُدعم الهيكل والبناء الفوقي، وتنفي منطق العلاقات والتفاعلات لإحلال براديغم التشطّي والانعقاد ممّا هو سياسي والتحول من التعقيد النظري إلى التّعقيد الاستراتيجي للسلطة داخل المجتمع.

فالفهم الفوكوي للسلطة يختلف كثيراً عن النموذج الاجتماعي الذي بلوره "إميل دوركايم" والذي "يردّ فيه الظاهرة الاجتماعية في كليتها إلى نوع من السلطة الضابطة والملزمة، سواء كان ذلك على مستوى السلطات الحاكمة أو على مستوى السلطات الدينية والأسرية، وعن النموذج القانوني الذي يربط بين السلطة والشرعية، ويردهما دوماً إلى دور الحكومة المركزية وما ينبثق عنها من تشريعات/ بنفس نأيه عن النموذج الماركسي لذي يعبر عن دور الطبقة الاجتماعية التي تمتلك عبر جهاز الدولة سلطة القرار وسلطة الاستخدام الأمثل لقوى الإنتاج"².

كما أعاد "فوكو" النظر في مقولة "النقد مبني على منطق الزمان"³، فاشتراط معاضدته بمنطق المكان: فقد جعل المنطق الأول السلطة رهينة بفترة زمنية معينة، تتدافع وتتداخل العوامل المرتبطة بتلك الفترة لتشكيل نمط محدد للسلطة، فالسلطة في الحالة القبلية الطبيعية لا تشبه السلطة في الحالة المدنية. خارج تنطيق الزمان الذي لا يطيقه المكان، يتأسس منطق هذا الأخير على هندسة السلطة حسب موقع الرؤية أو طبيعة المجهر الذي تُرى من خلاله السلطة، فيحيل بذلك على "حرب المواقع" واستراتيجية الظفر بالسلطة.

أما المنطق السلطوي المرتبط بمقولة "العقلانية الذكورية"، فقد أفتى "فوكو" بضرورة إعادة دور النسوية لأن السلطة الأبوية بالمعنى الأنثروبولوجي لم تعد محتكرة في يد الأب بصفته عقلاً ذكورياً يمثل القيم العليا داخل الأسرة، منافحاً عن حق العقل المؤنث في تشكيل سلطة موازية لسلطة العقل الذكوري، سواء في الكتابة أو الفن أو تدبير الشأن السياسي.

¹ - أشرف حسن منصور، السلطة على الطبيعة والحقيقة: تحليل فوكو لعناصر الحوكمة في عصر الدولة الليبرالية الجديدة، ص. الأولى

² - أحمد علي الكردي، نظرية المعرفة والسلطة عند ميشيل فوكو، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، دت، ص: 414-415

³ - محمد الشيوخ ياسر الطائري، مقاربات في الحداثة وما بعد الحداثة، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 2007، ص. 42

وينسجم منطق الانفتاح الذي أقره "فوكو" وقرره في محاضراته وكتاباتاته مع انفتاح مقولة "الحقيقة ملازمة للعلم"¹، على الحقائق، وعلى انتقال المؤسسة الملكية من سياق خطابي إلى سياق آخر، ومن براديغم السلطة المعرفية الواحدة إلى سلط أخرى يجسدها الحقل الملكي الذي يجمع بين البراديغم اللاهوتي المرتبط بالنسب الشريف وبإمارة المؤمنين ("استمر الكفاح إلى أن عاد الملك البطل إلى أرض الوطن مكللاً بالنصر يحمل بشرى انتهاء عهد الحجر والحماية ويزوغ فجر الاستقلال والحرية ليتابع مسيرة الجهاد من أجل بناء هذا الاستقلال. وإذا كان الأجل المكتوب قد عجل انتقاله إلى عفو الله ورحمته قبل أن يحقق للمغرب كل ما كان يسعى إليه فان العناية الإلهية كانت حنوة على هذا البلد حين سلمت الأمر لخير من يحمل الأمانة ويكمل الرسالة وارث سره ورفيقه في النضال جلاله والدنا المأسوف على رحيله مولانا الحسن الثاني؛ "والله تعالى نسأل أن يوفقنا في أداء الأمانة، التي ورثناها عن أجدادنا")، والبراديغم السياسي ("فالساسة والدين، في نظام الملكية الدستورية المغربية لا يجتمعان إلا في الملك أمير المؤمنين، حريصين في تقلدنا لهذه الأمانة العظمى")، وصولاً إلى سلطة البراديغم الليبرالي الاقتصادي ("لقد شكلت هذه الثورة-يقصد جلالته ثورة الملك والشعب- نقطة تحول بين مرحلتين جهاديتين تميزت الأولى بالكفاح الوطني الذي خاضه جدنا ضد الاستعمار... وكان بعد هذا أن بلغ الجهاد مرحلته الثانية مرتبطة بالشروع في بناء مغرب حديث لم تلبث بعد وفاة القائد المحرر أن واصلها خلفه ووارث سره والدنا المنعم جلاله الملك الحسن الثاني قدس الله روحه، فبنى وشيد وحدث وجدد وبوأ المغرب على عهده الزاهر الزاخر مكانة مرموقة تدعونا اليوم- وقد حملنا الأمانة- إلى متابعة المسير بإيمان راسخ وخطى ثابتة وبعزم قوي على الإصلاح والتغيير؛ " فإننا ما قفنا منذ تحملنا أمانة قيادتكم نتخذ المبادرات ونقود العمليات ونشد العزائم في سبيل تحقيق إقلاع اقتصادي وتنمية اجتماعية... وتعبئة كل الطاقات لخوض ما دعوناه في خطاب العرش الأخير بالجهاد الأكبر الاقتصادي والاجتماعي").

فإذا كانت المعرفة تفقد سلطتها في حالة اللا يقين الذي يميز المعرفة الحزبية القائمة على الظن والتخمين، فإن المعرفة القائمة على الحقائق والتقارير والدراسات التي ترفع لجلالته تولد السلطة والسلطة المعرفية رديفة للمعرفة بالحال وبالمال وبالقدرة على الإجابة عن أي سؤال أو افتراضه في إطار حوارية الخطاب الملكي. لكن هل نحن أمام سلطة خطاب أم خطاب خطاب سلطة؟ إن السلطة موجودة في الخطاب وفي التأثير الذي يحدثه، والخطاب في ذات الآن تأكيد لسلطة ما ترمز له: "فالخطاب ينقل السلطة ويُنتجها ويُقويها، ولكنه أيضاً يلغئها، ويُفجرها ويُغيها"².

وفي إطار فرش أرضيته الأركيولوجية المرصعة بالتفكيك والحفر في بقايا السلطة التقليدية، طالت معاول "فوكو" أيضاً نظرية التعاقد، التي افترضت أن أساس السلطة هو العقد الاجتماعي وتوافقية وتراضي أطراف العقد، تماماً كما فعل عندما قوض أركان الفكر الماركسي ونزع عنه كساء الربط الماركسي بين السلطة التي تتجسد في جهاز الدولة ومركزتها في مكان واحد، ليقرر وجودها في كل مكان، ويشير إلى هلاميتها وانعدام ماهيتها.

وقد زاد الأمر تيهها حين انبرى لتفكيك ثنائية "الهيمنة والإيديولوجيا" عند "غرامشي"، واقترح تعويضها بثنائية "الحقيقة والسلطة".

كما صحح "فوكو" العديد من المُسلمات، خاصة تلك التي كانت ترى أن السلطة تملك وملك لطبقة لها الغلبة، ليقول بـ"الطابع الإستراتيجي للسلطة كإجراء أكثر منها كنزعة، وحيل ووسائل وتقنيات، وليست حقاً يحتكر، بل وضع يبتكر، وليست بذلك لا بالمؤسسة ولا بالبنية"³: فقد كانت تتم في الغالب المُمَاهَاة بين الدولة والسلطة بل وتُعرّف السلطة بالدولة.

¹ - أشرف حسن منصور، نقد فوكو للنظرية الليبرالية في السلطة، الحوار المتعدد، عدد 2803، بتاريخ 23 أكتوبر 2009، محور علم النفس، الفلسفة وعلم الاجتماع.

² - Foucault, Michel : La volonté de Savoir, Ed. Gallimard, 1976.- p. 133

³ - سالم يفوت، سلطة المعرفة، دار الأمان، الرباط، 2005، ص 54

هذا الاختزال مفاده أنّ السلطة كائنة بأيدي من يحكمون أمّا المحكومون، فلا سلطة لهم.

وتأسيساً على ذلك، تُفهم السلطة كحيازة أو كملكية يمكنها الانتقال من يد إلى أخرى، فاختزال السلطة في الدولة هو اعتبارها ملكية تتحول من يد إلى أخرى وكأنّ هذه الأيدي تقع فيما وراء وفوق من تلزمهم الطاعة، أي أنّها الصورة التي هيولاها هم المحكومون.

أما ما يسمى بـ "الإعتراف"، فوجدته حاضراً في التجسيد الكنسي لطقس التوبة والتطهر الروحي والتحرر من من ثقل الذنب كمسار يشجع من خلاله الراهب الإنسان المسيحي على الإقرار والاعتراف "في إطار التربية الروحية القائمة على فضيلتي الطاعة والإذعان"¹.

هذه الفضيلة نجدها محضرة في إطار التربية المواطنة والتربية الدينية في حقل المعاملات ويستحضرها جلالة الملك أمير المؤمنين لاستثمار سلطتها في تبادل التذكير بالتزامات الوفاء بالعقود وعدم نكث العهود، وبمضمون الالتزام الملكي في مقابل العهد الذي قطعه الشعب على نفسه بالوفاء لملكه والتعلق الدائم لرباط البيعة وطاعة ولي الأمر ("وإذا كان جلالة الملك الحسن الثاني تغمده الله بواسع رحمته قد رحل إلى جوار ربه فإننا نحن محمد السادس قد خلفناه في خدمتك - شعبي العزيز - وخدمة المغرب وسنبقى على النهج الحسنسي سائرين تمسكاً ببيعة الإمامة الشرعية التي تطوق عنقنا وعنقك موصولة بما سبقها على امتداد أزيد من اثني عشر قرناً موثقة السند بكتاب الله وسنة رسوله الكريم ومشدودة العرى إلى الدستور المغربي"²؛ "وإنها لخير مناسبة لتأكيد الوفاء الصادق الذي تبادلناه وتجديد العهد المقدس الذي يلحم بيننا بأواصر البيعة الشرعية التي تطوق عنقك وعنقنا متجذرة عبر ثلاثة عشر قرناً من تاريخنا الحافل المجيد مشدودة إلى العصر الحديث برباط دستوري ديمقراطي متجدد"³).

وساق "فوكو" نموذج فرنسا للتدليل على اعتقاد ظلّ سائدا مؤداه أن "القوة متموضعة في يد الحكومة، وأنّها تمارس عبر عدد معين من المؤسسات كالإدارة الرئاسية، والشرطة، والجيش، وجهاز الدولة. نعرف أن هذه المؤسسات صُنعت لتصنع عدداً معيناً من القرارات لتطبيقها ومعاقبة من لا يطيعها، ولكني أعتقد بأن ممارسة السلطة السياسية تتم كذلك عبر عدد آخر من المؤسسات التي تتظاهر أنّها لا تملك شيئاً مشتركاً مع السلطة السياسية وباستقلاليتها عن الدولة، غير أنها ليست كذلك. يعلم المرء أنّ الجامعة والتي تبدو وكأنها ببساطة تنشر المعرفة، فقد صنعت للمحافظة على طبقة اجتماعية من موقع القوة ولحصر امتلاكها أدوات القوة دون الطبقات الاجتماعية الأخرى، فتساعد على دعم القوة السياسية... وتقوم بنقد عمل المؤسسات"⁴...

حتى ألخص الأوراش البحثية التي باشرها "فوكو" وحفر في طبقاتها، أورد شذرة من كتابه "إرادة المعرفة" قال فيها "ففي الخطاب بالذات، يحدث أن تتمفصل السلطة والمعرفة. ولهذا السبب عينه، ينبغي أن نتصور الخطاب، كمجموعة أجزاء غير متصلة وظيفتها التكتيكية غير متماثلة ولا ثابتة. بصورة أدق، يجب أن لا نتخيل عالماً لخطاب مقسم بين الخطاب المقبول والخطاب المرفوض... بل يجب أن نتصوره كمجموعة عناصر خطابية تستطيع أن تعمل في إستراتيجيات مختلفة: الخطاب ينقل السلطة وينتجها، يقويها، ولكنه أيضاً يلغمها، يفجرها، يجعلها هزيلة، ويسمح بالغائها": هذا الرأي يقتضي تأمله من خلال الإجابة عن سؤال "علاقة الخطاب بالممارسة السياسية"، و"السلطة وسلطة الخطاب"، فضلاً عن "الإجراءات والآليات التي يقيمها المجتمع والذات لمراقبة الخطاب والحد من سلطته وسلطة وتسليط السلطة".

¹ - محمد علي الكردي، نظرية المعرفة والسلطة عند ميشيل فوكو، مرجع سابق، ص 423-424

² - من نص الخطاب الموجه إلى الأمة بمناسبة الذكرى السادسة والأربعين لثورة الملك والشعب

³ - من نص الخطاب الموجه إلى الأمة بمناسبة الذكرى الأولى لعيد العرش

⁴ - محمد علي الكردي، نظرية المعرفة والسلطة عند ميشيل فوكو، مرجع سابق، ص 425

• علاقة الخطاب بالممارسة السياسية ووشائج سلطته بالسلطة

ابتدأ "فوكو" كتابه "نظام الخطاب" برسم ذلك "التخوف من الخطاب، معتبرا أن ذلك التخوف يعكس في الحقيقة سلطة وقوة الخطاب، وأن هذا التخوف تجاه ما يشكله الخطاب بتدبيره الذات أو المؤسسة أو السلطة على السواء: في حقيقته المادية، كشيء منطوق أو مكتوب، يتجه هذا التخوف تجاه هذا الوجود العابر نحو الإمحاء بدون شك، لكن خلال مدة لا نتحكم فيها، ويخامرنا تخوف من إحساسنا بأننا تحت هذه الحركة، التي هي مع ذلك حركة يومية ورمادية، سلطا أو أخطارا لا نتصورها جيدا، التخوف من توقع وجود صراعات وانتصارات وجروح وعبوديات عبر الكثير من الكلمات، التي قلص من فضايلها استعمالها منذ زمن طويل"¹.

فالخطاب سلطة مادية، تملك القوة والقدرة، وتتضمن مخاطر ومخاوف وتحمل صراعات وما تسفر عنه من انتصارات وهزائم، من تحرير واستعبادات، سلطة تعبر الذات والمؤسسة على السواء، لتؤسس وجودها المستقل. هذا الوجود الذي يخيف الذات والمؤسسات والمجتمعات: لذا، يسعى المجتمع، وخاصة المجتمع الغربي حيث يشير "فوكو" إلى فرض أشكال مختلفة لمراقبة الخطاب وسلطته من خلال العديد من الأدوات والإجراءات التي يقيمها المجتمع والذات، ويفترض أن "إنتاج الخطاب في كل مجتمع، هو في نفس الوقت إنتاج مراقب ومُنْتَقَى ومُنْظَم، أُعيد توزيعه من خلال عدد من الإجراءات التي يكون دورها هو الحد من سلطاته، ومخاطره، والتحكم في حدوثه المحتمل، وإخفاء ماديته الثقيلة والرهيبية"².

هذه الإجراءات والآليات التي يقيمها المجتمع والذات، لمراقبة الخطاب والحد من سلطة الخطاب وتبديدهما يثيره من مخاوف وأخطار"، سبق لـ "فوكو" أن صنفها في مجموعات ثلاث، تنفرع إلى إجراءات جزئية توزعت بين داخلية وخارجية.

فالإجراءات الخارجية تتشكل من العديد من العمليات:

- **عملية المنع:** رغم أن "الخطاب في ظاهره شيء بسيط، فإن العديد من أشكال المنع تلحقه لتكشف باكرا وبسرعة عن ارتباطه بالرغبة وبالسلطة"³، حيث أننا لا نملك الحق في قول كل شيء، ولا قول أي شيء، في أي ظرف من الظروف، فهناك موضوعات ممنوعة، وهناك طقوس تقتضيها بعض المقامات، فضلا عن العديد من الإكراهات، مما يقلص من الامتيازات التي تملكها الذات المتحدثة؛

- **عملية القسمة والرفض:** هذا الإجراء استنبطه فوكو من خلال التعارض الذي ألفاه بين العقل والجنون في سياق دراسته المفصلة عن "تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي"، معتبرا أن خطاب المجنون كان يعد دائما إما خطابا فارغا ولا قيمة له ولا يمتلك أية حقيقة أو أهمية أو أن له قدرات غريبة، كالجهر بحقيقة مخفية أو التنبؤ بالمستقبل، وأنه في كل الأحوال، فقد كان خطاب الأحمق الموقع الذي تمارس فيه عملية القسمة والرفض؛

- **عملية إرادة المعرفة والحقيقة:** كعملية ثالثة لتبيان ما هو حقيقي وما هو خاطئ داخل خطاب معين أو ثقافة معينة، يمكن اعتبار إرادة الحقيقة آلية واحدة وسلطوية بالأساس، حاول بعض المفكرين والفنانين مناهضتها، من أمثال "نيتشه"، وعاود فوكو رسم لوحة توصل لإرادة معرفة الحقيقة بدءًا من اليونان حتى العصر الحديث، مستعرضا مختلف التوزيعات التي تقيمها بين ما هو صحيح وما هو خاطئ، بين خطاب العقل الأفلاطوني، وخطاب السوفسطائيين، بين خطاب عصر النهضة القائم على القياس والتصنيف، وخطاب العصور الوسطى الغيبي.

¹-Foucault, Michel: L'ordre du discours.- Paris, Ed. Gallimard, 1971, p. 10.

²-Ibid.- p. 11

³-Ibid.- p. 12

علاوة على هذه الإجراءات الخارجية الأولى التي تراقب الخطاب من الخارج، حلل "فوكو" مجموعة أخرى من الإجراءات الداخلية التي تخص الخطاب ذاته، وتمارس عليه نسقها الرقابي الخاص. **هذه الإجراءات الخارجية التي** "تعمل بالأحرى على شكل مبادئ للتصنيف والتنظيم والتوزيع، كما لو أن الأمر يتعلق هذه المرة بالتحكم في بعد آخر من أبعاد الخطاب، بعد الحدث والصدفة"¹، تتوزع بدورها بين 3 إجراءات:

- **عملية التعليق:** فكل ثقافة في التصور الفوكوي لها نصوص أساسية، تقوم بقراءتها وتأويلها وإعادة قراءتها، سواء تعلق الأمر بنصوص قانونية أو دينية أو أدبية، والنصوص الأولية يتم التعليق عليها دائما. وعليه، فهناك إذن نصوص أساسية وأخرى ثانوية، وإذا كانت العلاقة بينهما غير ثابتة ولا مطلقة، فإن المؤكد هو وجود تفاوت بين التعليق والنص المعلق عليه. هذا التفاوت يحقق وظيفتين، حيث يتيح من جهة تشكيل خطابات جديدة، ومن جهة أخرى، لا يقول سوى ما كان منطوقا به بصمت، لأنه في النص الأول يتعين عليه أن يقول لأول مرة ما كان قد قيل من قبل، وأن يكرر بلا ملل ما لم يكن قد قيل أبدا. وهو بهذه الوظيفة يحد من صدفة الخطاب كحدث أو ك"حدث وصدفة"؛

- **المؤلف:** على اعتبار أن ما يهمنا في هذه الأطروحة هو المؤسسة الملكية قبل خطاباتنا، فلن أسهب في الحديث عن هذا العنصر الذي سبق لفوكو أن ناقشه في دراسة خاصة ارتضى سنة 1969 لها عنوان "ما المؤلف"، وأشار له في "أركيولوجيا المعرفة" و"نظام الخطاب"، ليبرهن كل مرة على أن المهم ليس المؤلف وإنما الخطاب، تماما كما فعل في مؤلفه "الكلمات والأشياء" الذي حلل فيه عددا من التشكيلات الخطابية، دون العودة إلى مؤلفيها والتخلي عنهم والعودة مباشرة إلى الخطابات.

رغم أن "فوكو" لا يدعو إلى إنكار الفرد الكاتب المبدع، يُقر له بدور ووظيفة اجتماعيين ناظمهما الحد من سلطة الخطاب (بواسطة لعبة الهوية، التي تتخذ شكل الفردية وشكل الأنا)، فقد رأى بالمقابل أنه توجد خطابات بدون مؤلفين (كالأحاديث اليومية، والمراسيم والعقود، والخطابات العلمية التي لم تعد تُسند إلى مؤلف بعينه)، وأنه ينبغي تجاوز صيغة المؤلف وتجاهل الوظائف الاجتماعية للمؤلف.

هذا الموقف الفوكوي من المؤلف يقترب كثيرا من "بارت" الذي أعلن عن "موت المؤلف" باسم النص، والفيلسوف "مالارمي" في دعوته إلى إحلال اللغة محل من كان يُعد مالكا، لأنهما اعتبرا أن "اللغة هي التي تتكلم وليس المؤلف، أن أكتب معناه أن أبلغ، عن طريق محو أولي شخصي... تلك النقطة التي لا تعمل فيها إلا اللغة، وليس أنا"².

- **الفرع المعرفي:** يهّم هذا الاجراء متن الأطروحة اعتبارا لدوره في الحد من سلطة الخطاب، وذلك بفرضه لمجموعة من المعايير، وكذا فرضه انتماء القضايا إلى حقله، أو إبعادها عن مجاله.

فلكي تنتمي قضية ما إلى فرع معرفي، فإنه "يتعين عليها أن تسجل نفسها ضمن أفق نظري معين... وأن تستجيب لمتطلبات معقدة وثقيلة حتى تستطيع أن تنتمي إلى مجموع فرع معرفي، يتعين عليها أن تكون -و كما يقول كانغيليم- واقعة (ضمن الحقيقي)، قبل أن يستطيع القول بأنها حقيقية أو خاطئة"³، حيث يسوق في هذا الإطار نظرية الوراثة عند "غريغوار مندل" الذي كان يقول الحقيقة، ويستخدم منها علميا في التحقيق، ولكن نظريته لم تلق القبول والموافقة، لاعتمادها نظرية أخرى لا علمية ولا حقيقية هي نظرية "شليدن" Schleiden التي كانت تدرج في الخطاب البيولوجي لعصره، وتجسد إرادة الحقيقة القائمة في تلك المرحلة.

¹- Ibid.- p. 23

²- بارت، رولان: موت المؤلف في درس السميولوجيا- ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، تقديم عبد الفتاح كيليطو، الدار البيضاء، دار نوبال للنشر، ط 2، 1986، ص 82.

³- Foucault, Michel : L'ordre du discours.- Op.cit.- p. 32 et 33

أما المجموعة الثالثة من الإجراءات والآليات، فتختلف عن المجموعتين السابقتين، لأنها لا تبحث في آليات التحكم في الخطاب، ولا في سلطته ولا في الحد من ظهوره، بل تحدد سلفاً شروط استخدام الخطاب، وتفرض قواعد على الأفراد الذين يستخدمونه، ويمكن تسميتها بإجراءات الاستخدام والتوظيف.

هذه المجموعة يعرفها فوكو بالقول أن الأمر يتعلق هذه المرة "بالتقليل من عدد الذات المتكلمة: لن يدخل أحد في نظام الخطاب إذا لم يكن يستجيب لبعض المتطلبات، أو إذا لم يكن مؤهلاً للقيام بذلك منذ البداية... ليست كل مناطق الخطاب مفتوحة بنفس الدرجة، وقابلة للاختراق بنفس الدرجة: فبعضها محروس وممنوع علانية... في حين أن البعض الآخر يبدو مفتوحاً تقريباً أمام كل الرياح..."¹.

وفق التصور الفوكوي، تتأسس مهام **مجموعة الاستخدام والتوظيف** على إجراءات ثلاث:

- **جمعيات أو جماعات الخطاب:** التي تصون الخطاب وتحافظ على أحوازه ضماناً لتداوله على أضيق نطاق، من خلال جعل مجاله مغلقاً قدر الإمكان، كالأسرار التقنية أو التكنولوجيا والعسكرية والاقتصادية؛

- **جمعيات المذاهب الدينية والسياسية والفلسفية:** لأنه على عكس جمعيات الخطاب، يميل المذهب إلى الانتشار وضمان الانتماء المذهبي. وأما ما يخالف المذهب فيعتبر بدعة، لذلك تعتبر المذاهب شروط وحدود لتداول الخطاب وتعميم لوظائفه داخل المذهب الديني أو الفلسفي أو السياسي، وهدفه إخضاع الذات والجماعات المنتمية لخطاب المذهب.

- **التملك الاجتماعي للخطابات:** تعتبر التربية والتعليم أداة أساسية لامتلاك الخطاب وأدوات صناعته وصياغته، حتى أنه لا يمكن فصل المنظومة التربوية عن الإستراتيجية السياسية والاقتصادية والاجتماعية لمجتمع معين. وفي كل الأحوال فإن جماعات الخطاب والمذاهب والتربية هي الأشكال الأساسية الكبرى التي تحدد وظيفة الخطاب وتداوله وملكيته متعاونة مع المنظومة الخارجية والداخلية في. وفي نظر "فوكو"، فإن تحرير الخطاب وتحرير من سلطته ومحو الخوف الذي يبعثه في الذات والمؤسسة، يتطلب "اتخاذ قرارات ثلاثة يقاومها فكرنا اليومي، وهي تقابل المجموعات الثلاث من الوظائف: إعادة النظر في إرادتنا للحقيقة، إعادة طابع الحدث للخطاب، وأخيراً رفع سيادة الدال"².

ما أورده "فوكو" يتيح تعداد المبادئ الأربع لتحرير الخطاب:

مبدأ القلب Renversement : الذي يعني التخلي عن مبدأ المؤلف والفرع المعرفي وإرادة المعرفة، والنظر في الخطاب كحدث؛

مبدأ الانفصال أو عدم الاتصال Discontinuité : ويعني دراسة الخطابات كممارسات غير متصلة، أي متقطعة؛

مبدأ الخصوصية Spécificité : الذي ينصرف إلى عدم إدراج الخطاب في دلالات ومعان مسبقة، أو إدخاله في لعبة التأويلات اللامتناهية، مع ضرورة النظر إليه كحدث متميز وكمارسة خاصة.

مبدأ الخارجية Extériorité : من خلال دراسة الخطاب من حيث الظاهر دون البحث في المعنى الخفي أو الدلالة الباطنية، أي دراسة ما يظهر من الأحداث والبقاء في إطار ما يُرسم لها من حدود.

¹ Ibid.- p. 39

² Ibid. p. 48

مما سبق بيانه بشأن المجموعات الثلاث، يتضح أن الخطاب ليس أداة في يد السلطة، ولا انعكاسا لها فقط، بل يشكل سلطة في ذاته وهو ما يشير إليه نص "إرادة المعرفة" من كون الخطاب ليس مقسما إلى خطاب مقبول أو مرفوض، بل أن المعرفة والسلطة تتمفصل في الخطاب، وأنه يجب النظر إلى الخطاب كمجموعة عناصر تعمل في إستراتيجيات مختلفة، ليشكل الخطاب في مجموعه سلطة قائمة بذاتها، وإن كانت منطوقاته تتفاوت من حيث القوة والقدرة.

فالواضح أن "فوكو" لم يكتشف مفهوم السلطة مع "نظام الخطاب"، لأنه حلل دائما الخطابات في علاقتها بالسلطة، فلم يتبلور مفهومه للسلطة ولم يتشكل بشكل نهائي، لأن مجموع دراساته الأولى كانت مقدمة تجريبية لمفهوم السلطة وسلطة الخطاب، فلم يظهر المفهوم بشكل واضح إلا في كتابه "نظام الخطاب"، حيث تمت دراسته داخل حقل إستراتيجيات مختلفة وفي الوضعيات التي يحتلها.

كما أن ما لم ينتبه إليه جل الباحثين في فلسفة "فوكو" هو أن مفهوم الخطاب لا ينفصل عنده عن مفهوم اللغة، والتمييز الذي أقامه بين لغة جدلية ولغة غير جدلية، بين لغة خطابية وغير خطابية: حيث تمتاز اللغة غير الجدلية وغير الخطابية بالاختراق والتجاوز والتعدي وبالطابع الوجودي، بينما اللغة الجدلية أو الخطابية تختلف عن مفهوم اللغة وإن كانت تلتقي معه في المرجع والطابع الوجودي، لأن اللغة والخطاب لا يمكن إرجاعهما إلى الذات أو إلى المؤسسة، بل يتميزان بوجود مغاير.

كأحد الوضعيين، تغيا "فوكو" الكشف عن "وضعية الخطابات"، والتأسيس لمفهوم جديد للخطاب لا يقوم على أصول ألسنية أو منطقية (بل يتشكل أساسا من وحدات سماها بالمنطوقات، هذه المنطوقات تشكل منظومات منطوقية، تسمى بالتشكيلات الخطابية، وتكون هذه التشكيلات دائما في حقل خطابي معين، وتحكمها قوانين التكوين والتحويل).

على هذا الأساس يختلف الخطاب عن الجملة والقضية، كما يختلف التحليل الخطابي عن تحليل اللغة والتحليل المنطقي، ذلك أن تحليل الخطاب يعتمد على الوصف الأركيولوجي والتحليل الجينيولوجي، من أجل الكشف عن ندرة وخارجية وتراكم وقبليّة الخطابات، أو بتعبير أدق، يعتمد تحليل الخطاب على التحليل التاريخي للخطابات.

لا تعود مرجعية الخطاب إلى الذات أو إلى المؤسسة أو إلى الصدق المنطقي أو إلى قواعد البناء النحوي، وإنما إلى الممارسة: هذه الممارسة الخطابية وغير الخطابية لا تعني أن نفهم العلاقة بين الممارسات بمنظار السبب والنتيجة أو العلاقة السببية، وإنما على أساس العلاقة التبادلية.

إن تحليل الخطاب على هذا النحو، كشف عن سلطته وقدرته وفي نفس الوقت عن الآليات التي تحكمه وتحد من سلطته، كآلية المنع والرفض والقسمة وإرادة المعرفة وأشكال التملك والتمذهب... إلخ. ولتحرير الخطابات من كل أصناف التأويلات والتحليلات الشكلية، يقترح "فوكو" جملة من المبادئ، كالخصوصية والقطعية والخارجية... إلخ، على نحو جعل "فوكو" يرى أن الخطاب مشروط بالضرورة الاجتماعية ويشكل جزءا من المجتمع رغم ما يتميز به من قدرة وإمكانات.

لدراسة علاقة الخطاب الملكي في فرادته وخصوصيته بالممارسات السياسية وبالصيورة الاجتماعية عموما، ينبغي إمعان النظر في التغيير الذي حدث في وعي الناس، وطريقة إدراكهم للأشياء، لأن الممارسة السياسية حوّلت شروط ظهور الخطابات أو حولت طريقة وجود الخطاب، من خلال جملة من

الإجراءات التي تتعلق أساساً بـ: تعيين الذين لهم الحق في امتلاك وإدارة الخطاب (الساسة ومن يجيدون الصياغة ومخاطبة الوجدان والعقل الجماهيريين)، تقسيم جديد لموضوعات بتطبيق سلم ترتيب وأولويات، تحديد وظائف سوسيو-اجتماعية جديدة للحزب والنقابة، وضع أنماط جديدة لتسجيل وحفظ وإنتاج وتوزيع الخطاب السياسي، فضلاً عن تعيين وظائف جديدة للخطاب السياسي في ممارسة الرقابة وتخويل الشعب حق المحاسبة.

هذه المقاربة المعرفية الجديدة التي اقترحها "فوكو" لدراسة علاقة الخطاب بالممارسة السياسية "أبعدت الخطاب عن المفهوم المثالي للممارسة الخطابية، لتؤسس إمكانية إقامة السنية الاجتماعية Sociolinguistiques تدرس علاقة المنطوقات بمجال اجتماعي معين"¹.

كما خضع هذا المنحى الاجتماعي للخطاب لسنة التغيير وأفرز تغييراً في "نظام الخطاب"، بحيث انصب التركيز على سلطة الخطاب، وعلى مختلف أشكال الرقابة والمنع التي تقيمها السلطة أو المجتمع على الخطاب، خاصة وأن الخطاب لا يصبح أداة في يد السلطة أو نصا يعكس أهداف السلطة، بل يشكل في ذاته سلطة، كما هو واضح مثلاً، في نص الأركيولوجية، الذي أوردته أعلاه في الشذرة المنتقاة من كتاب "إرادة المعرفة".

بهذا المفهوم، صارت سلطة الخطاب قادرة على مناهضة وإقصاء أو إقامة السلطة، حتى أنه صار من الصعب فهم مختلف جوانب المسألة دون تحليل عميق للنظام والآليات التي تتحكم في الخطاب، وإلى البديل الذي يقترحه لدراسة السلطة وسلطة الخطاب.

كما يقتضي الأمر البحث في السؤال الأساسي بشأن العلاقة بين السلطة والمعرفة، حيث تجاوز بيير بورديو التضاد التقليدي المعروف بينهما، ليبين أن "هناك سلطة للنظرية، أو سلطة نظرية... لقد قمت بهذا التمرين النظري كعالم اجتماع وباحث ميداني، وحاولت تحديد قوانين السلطة النظرية وآليات اشتغالها: ... وهذا ما ينسأه الفلاسفة عموماً، لأنهم يفكرون دائماً بمصطلحات الجواهر الخالصة".

بهذا المعنى، يمكن طرح أسئلة تتعلق بتقفي الوشائج الممكنة والكائنة بين الفلسفة والعلوم الاجتماعية، وعلاقة النظرية بالممارسة وكيفية تحققها، فضلاً عن مسألة العلاقة بين العلم والسياسة ومكانة العلم بوصفه سلطة، ومساهمة العلوم الاجتماعية في تحليل هذه القضايا مقارنة بالفلسفة، وعلاقة المعرفة والسلطة كما سبق أن طرحتها كتابات ميشيل فوكو.

• الخطاب وسلطة المعرفة

كأحد المنتسبين للجيل الناقد للوجودية والظاهرية، ينتسب بيير بورديو نفسه لجيل "ألتوسر" و"بارت" و"فوكو" و"دولوز" و"دريدا"، باعتبارهم ذاك الجيل الذي اهتم بالمفهوم واللغة وتاريخ العلوم والابستمولوجيا، واستمدت خلفيته العلمية قوتها من أبحاث "باشلار" أساساً، في الوقت الذي اكتسبت مقاربته المنهجية خلفيتها العلمية في المدرسة الابستمولوجية الفرنسية ومن علماء الاجتماع كـ"ماركس" و"ماكس فيبر" و"دوركايم" و"ليفيت ستروس" وغيرهم: هذه الخلفية ساعدته على الخروج بطرح جديد تجاوز مستوى الحديث عن علاقة الفلسفة بالعلوم الاجتماعية إلى مستوى تقديم منظور جديد للكثير من المسائل الفلسفية والاجتماعية، وخاصة في موضوع اللغة.

¹ - Coppalle, Daniel et Gardin, Bernard : Discours Du Pouvoir et Pouvoir(s) du Discours.- In La Pensée, N° 209, 1980.- p. 154

رغم إقراره بإسهام ليفي ستروس في إعادة الاعتبار والاحترام للعلوم الإنسانية وخاصة بعد صدور الأنثروبولوجية البنيوية والفكر المتوحش، ودعوته إلى استلهاً النموذج اللساني كما صاغه "دي سوسير" و "جاكوبسون" و "حلقة براغ" عموماً، وإيمانه بإسهام "فوكو" في الأركيولوجيا و "دريدا" في الغراماتولوجيا و "بارت" في السيميولوجيا، إلا أن "بورديو" ترك مسافة ما بينه وبين علماء جيله، بشكل يوحى بنوع من عدم الرضا والتحفظ، فهو يرى إن هذا الجيل الذي تلا الوجودية "أحدثوا قطيعة مع الفينومينولوجيا السارترية والنزعة الانسانية الهشة أو المجردة والمثالية، ولكنهم انضموا نصف انضموا الى المنهجية الاستمولوجية واعتنقوها نصف اعتنقوا"¹، ليؤكد بذلك أن عيب الفلاسفة يتمثل في الابتعاد عن الميدان والحياة العملية.

للخروج من غياهب العيب الفلسفي، أعلن بورديو انتسابه إلى المنهجية المادية، ولكن ليس أية مادية وإنما المادية الناشطة وليس المادية السلبية، فأعاد بذلك أطروحة "ماركس" التي يعيب فيها على الماديين تركهم الجانب النشط في المعرفة للمثاليين، ورأى أنه حتى تتمكن الذات من معرفة موضوعها بشكل صحيح، يجب أن تجاوز مرحلة النظر إلى مرحلة العمل، وأن تدخل في الممارسة الميدانية، فكرس هذا المنحى المنهجي من خلال ممارسته للبحث الميداني في أكثر من عشرين وسطاً اجتماعياً مختلفاً.

كما أنه بمجرد انتقاده للبنيوية وبيانه محدودية الطريقة البنيوية²، ذهب "بورديو" أبعد من ذلك ليمضي في مجال تحليل العلاقات الاجتماعية بصفقتها متماسكة وذات دلالة.

بنفس انتقاده للبنيوية كما صاغها ليفي ستروس، تقرب بورديو من فوكو وخاصة في مسألتين أساسيتين هما تحليل المعرفة والسلطة وتحليل اللغة أو الخطاب.

في هذا السياق، يقول "بورديو" إن "موقفي، في خطوطه العريضة، قريب إلى حد كبير من موقف فوكو، ومع ذلك فهو مختلف جداً؟ لقد حاولت أن احل منطق وآلية ما كنت قد أسميته بالسلطة الرمزية le pouvoir symbolique، أي السلطة التي تمارس نفسها على هيئة القدرة التي تجعلنا نرى أو نفهم أو نعرف أو نؤمن (...) فكيف تمارس هذه السلطة دورها؟ كيف تمارس عملها؟ هنا ندخل في منطقة المعرفة/ الجهل، أو المعرفة/ واللامعرفة (...) فالسلطة الرمزية هي سلطة تعسفية في الأصل، ولكن الناس يعترفون بشرعيتها لأنهم يجهلون أنها تعسفية (...) في الواقع أن السلطة ليست شيئاً متموضعا في مكان ما، وإنما هي عبارة عن نظام من العلاقات المتشابكة، ونجد أن كل بنية العالم الاجتماعي/المجتمع، ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار من أجل فهم آليات الهيمنة والسيطرة"³: ولقد بلور بورديو مفهومه أساسياً في تحليل السلطة والسلطة الرمزية بالخصوص، حينما تحدث عن الرأسمال الرمزي le capital symbolique.

ونسحب انتقاد "بورديو" للمنهجية البنيوية بشكل أساسي على طريقة التحليل البنيوي للغة والخطاب والنص، وهو نقد طال بشكل أساسي لسانيات "دي سوسير" و "شومسكي" و "مدرسة أكسفورد" في تحليل أفعال الكلام أو الخطاب ومدرسة "فرانكفورت" وممثليها "هابرماس" في نظريته حول الفعل التواصلية. هذا النقد الذي يمكن تعقبه في مجموعة من الأعمال Questions de sociologie و "Chose dites" و "Ce que parler veut dire" و "Langage et pouvoir symbolique"، يقرب بيير بورديو كثيراً من فوكو، ويميزه عنه في ذات الآن عنه وعن التيار الذي يسمى بما بعد البنيوية وبما بعد الحداثة.

¹ - بورديو، بيير: بين كارل ماركس وماكس فيبر، حوار مع بيير بورديو، في الفكر العربي المعاصر، عدد 37، ص. 52.

² - رغم إقراره بأهميتها وخاصة في مسألة اللغة وطريقة معاملتها للأساطير والرموز وانحسارها في شرنقة تحليل الأنظمة الرمزية والتصورات الفوقية.

³ - بورديو، بيير: بين كارل ماركس وماكس فيبر، حوار مع بيير بورديو، في الفكر العربي المعاصر، عدد 37، ص. 72.

من هنا، دعا أيضا إلى إحداث قطيعة مع القراءة الداخلية كما طبقها ليفي ستروس، والقراءة التي تربط بين الأثر وكتابه بشكل مباشر، واعتبار النص مجرد انعكاس لحياة الكاتب الشخصية (منهجية لانسون)، وكذا القطع مع ما يسميه بالطريقة الاختزالية التي تجعل من الأثر انعكاسا مباشرا للمجتمع أو طبقة معينة، ليدعو بالمقابل إلى اعتماد ما سماه بضرورة الكشف عن "بنية العلاقات بين نصوص فترة زمنية محددة (وليس نصا معزولا بمفرده)، وبين بنية المواقع التي يحتلها مؤلفوها داخل الحقل الأدبي"¹، ويُمَاهي ما سماه فوكو في أركيولوجيا المعرفة بـ "دراسة التشكيلية الخطابية لحقبة تاريخية معينة"، مع حظه على دراسة بنية النص والمواقع التي تؤدي إلى الحديث عن مختلف الوسائط المتحركة في عملية الإنتاج الثقافي، أي الاعتراف بالفضاء الخصوصي الذي ينتج فيه الكتاب أعمالهم دون عزله عن الفضاء الكبير الذي يشكله المجتمع.

"بورديو" لا يعترف بخصوصية الفضاء الثقافي وصراعاته ورهاناته، ولا يعتبره فقط مجرد انعكاس آلي أو مباشر للمجتمع: فمصالح الفضاء الثقافي قد لا تكون هي نفس مصالح الفضاء الاجتماعي، وتقتضي تحليل الأثر الثقافي "لذاته وبذاته قبل أن نربط بشكل عمومي وغامض بين الأعمال الأدبية والتشكيلات الاجتماعية الكبرى"²، قبل أن يستطرد في مكان آخر بالقول "إن الشيء الذي يفرق منهجيتي عن منهجية هؤلاء هو أنني أدرس عناصر اللعبة التي تتولد فيها المصالح الخاصة للمتقنين والاهتمام الجزئي بمصالح الآخرين معا. إن مصالح المتقنين داخل الحقل الثقافي الخاص بهم لا يمكن أن تختزل إلى مجرد مصالح طبقية"³.

ويبقى كتابه الأساسي الخاص باللغة "ماذا يريد الكلام أن يقول" أهم ما يمكن أن نفيد منه في هذا الشق من الأطروحة، حيث نجده ينبري منذ الصفحة الأولى لمناقشة مختلف أشكال السيطرة التي يمارسها النموذج اللساني على العلوم الاجتماعية، وهو في هذه السياق يعلن نفس الحساسية الفوكوية من اللسانيات البنيوية، إلى حد اعتبار القبول بنموذج دوسوسير في تحليل ومعالجة العالم الاجتماعي بوصفه فضاء للتبادل الرمزي اختزالا للفعل الاجتماعي في فعل الحوار أو التواصل.

وقد حذت به راديكالية القطع مع الفلسفة الاجتماعية إلى حد القول في كتابه النقدي الاستمولوجيللبنوية الموسوم بـ "الحس العملي" أن التبادل والتواصل يرتكزان على علاقات قوى، ويستدعيان تجاوز النظرة الاقتصادية الفجة لأشكال التبادل الرمزي، مقدما مفهومه الأساسي في التحليل اللغوي وهو بنية السوق اللغوية structure du marché linguistique: "فالنحو لا يحدد المعنى بقدر ما يحدده السوق، السوق اللغوي. كما أن الرسالة اللغوية لا تفهم ألا بوصفها نتاج لساني، وأن التأويلات تكون على قدر العلاقة التي يقيمها المنتجون. من هنا فإن السوق-السوق اللساني - يساهم في القيمة الرمزية وفي معنى الخطاب معا"⁴.

ولكن ما ذا يقصد بالسوق اللغوية؟ ينصرف المعنى الذي يرومه حول السوق اللغوية إلى السوق التي تتعقد عندما "ينتج شخص ما خطابا موجهًا لمتلقين قادرين على تقييمه وتقديره ومنحه سعرا معينا. والسوق اللغوية شيء ملموس جدا ومجرد جدا في آن واحد. فمن الناحية الواقعية، تعتبر السوق وضعية اجتماعية رسمية مطقسة إلى هذا الحد أو ذاك، أنها بمثابة مجموعة من المتحاورين الذين يشغلون مناصب عليا إلى هذا الحد أو ذاك في سلم التراتب الاجتماعي"⁵.

¹- المرجع نفسه، ص. 73.

²- بورديو، بيير: بين كارل ماركس وماكس فيبر، حوار مع بيير بورديو، في الفكر العربي المعاصر، عدد 37، ص. 74.

³- المرجع نفسه، ص. 77.

⁴- Bourdieu, Pierre : Ce que parler veut dire, l'économie des échanges linguistique.-Paris, Ed. Faya

⁵-Ibid. p. 16

يتصل مفهوم السوق اللغوية بمفهوم الرأسمال اللغوي le capital linguistique الذي يعوض بوجه من الوجوه، الكفاءة اللغوية، وهو ما يعني وجود أرباح لغوية... وعليه فيمكن "اللغة أن تقوم بالوظيفة التي يعتبرها اللغويون محايثة لها، أي الوظيفة التواصلية، دون أن تتوقف عن القيام بوظيفتها الحقيقية، أي الوظيفة الاجتماعية، فوضعيات علاقات القوة اللغوية هي الوضعيات التي يمكن فيها الكلام دون تحقيق التواصل. كحالة القداس مثلاً¹: فمثلاً، يكون للصراعات الدائرة بين الناطقين بالفرنسية والناطقين بالعربية في عدد من الدول العربية التي كانت تخضع للاستعمار الفرنسي سابقاً "بعد اقتصادي بالمعنى الذي أعزوه لهذه الكلمة، أي أن المالكين لكفاءة معينة يدافعون على قيمتهم الخاصة كمنتجين لغويين من خلال الدفاع عن سوق معينة تلائم منتوجاتهم اللغوية الخاصة"².

إذا كانت اللغة تخضع للسوق اللغوية ويحكمها الرأسمال اللغوي بوصفه رأسمالاً رمزياً، فإن مشكلة الأسلوب Le style تعتبر دليلاً على حضور الفرد وتميزه، لأن ما يروج ويتحرك في السوق اللغوية ليس اللغة ولكن خطابات متميزة أسلوبياً، سواء في طريقة إنتاجها أو منتجها أو مستقبلها: فليس هنالك من كلمة محايدة، وكل كلمة يمكن أن تأخذ معاني متعارضة أو متضادة أو متناقضة، وذلك بحسب ما يقدمها المرسل ويستقبلها المستقبل، ولا نستطيع فهم الأثر الرمزي للغة ما لم نأخذ بعين الاعتبار الفكرة القائلة إن اللغة هي الآلية الصورية الأولى التي تملك قدرات عامة ولا متناهية، إذ من الممكن أن نتلفظ بكل شيء في اللغة، ولكن في حدود نحوها.

وعليه، طور "بورديو" قاموساً خاصاً به في التحليل مثل مفهوم الحقل، والحقل اللساني، والرأسمال الرمزي، و السلطة الرمزية، والسوق اللغوية والرأسمال اللغوي... وارتأيت أن أتوقف بشكل خاص عند مفهوم سلطة الخطاب وخطاب السلطة، أي ما يجمعه بـ "ميشال فوكو"، حيث نجده ينتقد أطروحة "أوستين" التي تعطي سلطة لبعض الكلمات كما طرحها في كتابه "Quand dire c'est faire" أو "How to do words with things"، ويرفض التمييز الذي أقامه "دوسوسير" بين اللسانيات الداخلية والخارجية، بين اللغة واستعمالاتها من قبل مستعملاتها، فوصفه بـ "الساذج" نافياً فكرة سلطة الكلمات، ومعتزلاً بان القوة الخطابية للعبارة لا تكمن في نفس الكلمات، وأن "هنالك حالات استثنائية فقط تختزل التبادلات الرمزية إلى علاقات تواصلية محضة. إن سلطة الكلمات ليس أكثر من السلطة المفوضة لناطقها، وأن كلماته، أو مادة خطابه، ليست أكثر من شهادة من بين شهادات أخرى، لضمان التفويض الذي يتم استثماره"³.

فليست سلطة الكلام إلا "السلطة الموكولة لمن فُوض إليه أمر التكلم والنطق بلسان جهة معينة (...). وأقصى ما تفعله اللغة هو أنها تمثل هذه السلطة وتظهرها وترمز إليها": فليس هنالك سلطة الخطاب، هناك فقط خطاب السلطة، وهذا الخطأ - في نظره - "وقع فيه أوستين ولحقه في ذلك هابرماس، وذلك عندما اعتقدا أنه من الممكن أن يستخرجا من الخطاب ما يشكل فعالية الخطاب"⁴.

وفق هذا التحديد، يتفق "بورديو" مع "فوكو" ويختلف معه في ذات الآن: فإذا كان فوكو يعتبر أن للخطاب سلطته الخاصة وذلك من منطلق فلسفي وجودي، ينحو منحى "نيتشه" و"هايدغر"، فإنه لا يفصل الخطاب عن السلطة والمجتمع معاً، وهو ما بينه في مختلف الإجراءات الخارجية (عمليات المنع والقسمة والرفض وإرادة المعرفة) والداخلية (التعليق والمؤلف والفرع المعرفي) والتوظيف (جماعات الخطاب والمذاهب الدينية السياسية والفلسفية والتملك الاجتماعي للخطاب) والتي تحدث عنها في "نظام الخطاب" وسلف بيانها.

¹-Bourdieu, Pierre : Questions de sociologie.- Paris, Ed. Minuit.- p. 124.

²-Ibid. p. 125

³-Bourdieu, Pierre : Questions de sociologie.- Paris, Ed. Minuit.- p. 105

⁴-Ibid. p. 105

وبالرغم من أن تحليل "فوكو" للخطاب يتفق ومضمون المنطوق كما صاغه "أوستين"، إلا أن منهج التحليل يختلف، لأنه يجري في البعد التاريخي وفي إطار العلاقة بين المعرفة والخطاب والسلطة والخطاب، وبذلك يتفق تحليل فوكو مع تحليل "بورديو" الذي يلح على الطابع الاجتماعي للخطاب وعلى ارتباطه بالمؤسسة وبالسلطة الرمزية: هذه السلطة الرمزية التي لا يمكن أن تتحقق في غياب الاعتراف الذي يدلي به الخاضع لتلك السلطة.

إلا أن تحليل الخطاب عند "بورديو" لا يمكن أن يكون تحليلًا لذاته، أي لذات الخطاب، وهو ما يفرقه عن "فوكو"، لأن الوحدات الصورية للخطاب لا تقدم معناها إلا إذا تم ربطها بالشروط الاجتماعية لإنتاجها، بمعنى للمكانة والوضع الذي يحتله مؤلفوها في حقل الإنتاج، ومن جهة أخرى إلى السوق الذي أنتج من أجله، وكذلك الاستحقاقات les échéances المطلوبة.

ما يمكن أن يفيد منه هذا المحور من "بورديو" يتعلق بالخلاصات التي خرج بها من تحليلاته، والتي رأى فيها أن "جميع المجهودات التي بذلت لتتروى في المنطق اللغوي الذي يتحكم في مختلف الأشكال الاستدلالية والبلاغية والأسلوبية، سبب الفعالية الرمزية لتلك الأشكال، لا بد وأن تبوء بالفشل ما دامت لا تقيم علاقة بين خصائص الخطاب وصفات من يلقبه وسمات المؤسسة التي تسند إليه أمر الإلقاء".¹

فعلى سبيل المثال، فلو أخذنا خطابا سلطويا كدرس الأستاذ وخطبة الواعظ الديني، فإنه لا يفعل فعله التأثيري إلا إذا "تحقق شرط الاعتراف به كخطاب نفوذ وسلطة. وهذا الاعتراف الذي يصاحب بالفهم أو بدونه، لا يتم ببسر وسهولة إلا ضمن شروط خاصة، وهي الشروط التي تحدد الاستعمال المشروع (فالخطاب ينبغي أن يصدر عن الشخص الذي سمح له بأن يلقبه، أي عن هذا الذي عرف، واعترف له، بأنه أهل لأن ينتج فئة معينة من الخطابات وأنه كفء وجدير بذلك... كما أنه ينبغي أن يلقى في مقام مشروع، أي أمام متلقي شرعي... وأخيرا ينبغي للخطاب أن يتخذ الصورة الشرعية القانونية أي إن يخضع لقواعد النحو والصرف...".²

وعليه، فإن القاعدة النظرية التي شكلت منهج تحليل الخطاب عند "بورديو" توکأت عل مقولة مفادها أن "لغة السلطة لا تحكم وتأمّر إلا بمساعدة من تحكمهم، أي بفضل مساهمة الآليات الاجتماعية القادرة على تحقيق ذلك التواطؤ الذي يقوم على الجهالة، والذي هو مصدر كل سلطة".

لذا، يدعو إلى ما يسميه "تداولية اجتماعية une pragmatique sociologique" مادامت اللغة لا تتضمن في ذاتها سلطة (وإن كانت تتضمن في ذاتها وفي منطقها الداخلي ما يؤدي إلى تجاوزات السلطة التي كرسها استعمال البرهان الخاطئ أو القياس الخاطئ le paralogisme، وما نسب للسفسطائيين من قدرة على التضليل، حسب وصف أفلاطون الذي رأى أن السوفسطائيين الذين استفادوا من إمكانيات اللغة في ألا تقول شيئا وأن تقول اللامعنى أو أن توجد في الكلمات وبواسطة الكلمات ما لا يوجد في الواقع).

صحيح أن اللغة هذه الإمكانية، ولكن إذا استثنينا هذه الإمكانية، يبقى للغة وجودها الاجتماعي، وسلطتها المستمدة من ذلك الوجود، وحتى اللغة السوفسطائية مستمدة من قوة السوفسطائيين كما بين ذلك أيضا أفلاطون.

ما استوقفني أيضا في فكر "بورديو" لارتباطه بأطروحتي هو تلك الملفوظات والعبارات اللسانية التي رأى أنها تُنتج دائما في سياقات وأسواق خاصة، وأن هذه الأسواق تعطي لهذه المنتوجات اللغوية قيمة، فتخضع القيمة بالطبع لمبدأ الكفاءة العملية، وهو مبدأ غير متساوي يخضع لعملية الرأسمال اللغوي، وإن كان الرأسمال اللغوي يؤدي إلى الرأسمال الاقتصادي والثقافي.

¹ -Ibid. p. 109

² -Ibid. p. 115

وعليه، كلما كان رأسمال المتحدث مهماً، كلما كان بهذا الأخير مقدرة على استغلاله لصالحه، أي أن هنالك نظام التفارق أو الاختلافات، وبالتالي ضمان مصلحة الفردية والتميز *profit de distinction*.

كما ربط "بورديو" اللغة بمسألة الرقابة واللغة الشرعية، ففي حديثه عن السلطة الرمزية يتحدث دائماً عن الاعتراف والتجاهل *reconnaissance et méconnaissance*، فيقول "ينبغي للخطاب أن يصدر عن الشخص الذي سُمح له بأن يلقيه، أي عن هذا الذي عرف، واعترف له، بأنه أهل لأن ينتج فئة معينة من الخطابات وأنه كفء وجدير بذلك... (كالقس أو الإمام والأستاذ والشاعر...)؛ كما أنه ينبغي أن يلقى في مقام مشرع، أي أمام المتلقي الشرعي... وأخيراً ينبغي للخطاب أن يتخذ الصورة الشرعية القانونية (أي أن يخضع لقواعد النحو والصرف...) و هكذا فإن ما يمكن أن نطلق عليه شروطاً طقوسية، وأعني مجموع القواعد التي تتحكم في شكل المظهر العمومي للسلطة ومراسيم الاحتفالات والقواعد التي تضبط الأعمال والتنظيم الرسمي للطقوس، لا تشكل إلا شرطاً واحداً أكثر تجلياً من بين مجموعة من الشروط التي أهمها هي تلك التي تهئ للاعتراف أن يكون، في ذات الوقت تجاهلاً وإيماناً، أي التي تهئ لتسليم سلطة تعطي الخطاب المشروع قوته وتؤمن بنفوذها".

إن هذه الشروط ليست بعيدة عن مجمل الإجراءات الخارجية والداخلية والوظيفية التي تحدث عنها فوكو، لتظل بذلك مساهمة "فوكو" و "بورديو" في دراسة علاقة اللغة بالسلطة وبالفاعلين الاجتماعيين ذات فائدة منهجية جمة في تحليل مختلف المشكلات اللغوية والرمزية للمجتمع، وذلك من حيث الربط بين الخطاب والممارسة (ما يسميه فوكو بالممارسة الخطابية وغير الخطابية، وما يسميه بورديو بنظرية الممارسة).

وعلى الرغم من الاختلاف في القيمة التي يعطيها كليهما للخطاب، حيث اهتمت الممارسات التجريبية التي حللها فوكو بمكونات الخطاب ذاته وبتاريخانيته على حساب اجتماعيته أو اقتصاديته، في مقابل إصرار بورديو على الطابع الاجتماعي والاقتصادي للغة على ضوء دراسته للممارسات الاجتماعية للرأسمالي (الرمزي)، إلا أن هذا الأخير بيّن بجلاء آليات عمل بعض الخطابات، وخاصة الخطاب الديني والسياسي والأيدولوجي، وأكد على استقلالية الآليات اللغوية، وجمعتهما معا بوثقة النظر إلى اللغة والخطاب بوصفهما شكلاً من أشكال الممارسة الاجتماعية.

• الخطاب والأيدولوجيا

ننتقل في حديثنا عن علاقة اللغة (الخطاب على وجه أخص) بالإيدولوجيا *idéologie* من التعريف الذي قدمه "روشي" حيث يرى أن الأيدولوجيا مصطلح استخدمه علماء الاجتماع المعاصرون لتحديد "منظومة أفكار وأحكام، واضحة، ومنظمة عامة تستخدم في وصف، وتوضيح، تفسير أو تبرير وضع مجموعة أو جماعة، وتستوحى بشدة قيماً وتفتوح توجهها دقيقاً نحو فعل تاريخي على هاتيك المجموعة أو الجماعة"¹.

ولعل أبرز ما يعيننا في هذا التعريف هو الشق المتعلق بالأفكار والأحكام التي يلزمها أن تتموضع في وعاء اللغة حتى تتمكن من الانتشار بين صفوف الجماعة، إلى جانب عبارات "الوصف، توضيح، تفسير، تبرير وضع مجموعة"، التي تبرز دور اللغة المسؤولة والخطاب الواعي في بث روح النشاط والفعالية في هذه المفاهيم لتزاول وظيفتها الإقناعية التبريرية في ضوء عملية التواصل.

³- تعريف ورد في سياق تعريف "غي روشي" للثقافة كعامل أساس في "التنشئة الاجتماعية فرغم أن التنشئة هي عملية تثقيف الإنسان أو الطفل أي نقل الثقافة إلى ذلك الكائن البيولوجي الذي يولد لا يعرف شيئاً ولا يقدر على شيء ولا يشعر بشيء حتى يتحول إلى كائن اجتماعي أو ثقافي يعرف ويدرك، ويتفكر ويفكر ويشعر ويحس ويفعل ويتحرك... الخ، فهذه العملية الخطيرة للثقافة هي التي تحدد الطرق والوسائل التي يتم بها نقل هذا الكائن من طبيعته الحيوانية إلى الطبيعة البشرية أو الإنسانية"... إلى جانب تعريف آخر لمالك بن نبي وعبد الإله بلقزيز وغدنز أوردها الباحث الجزائري أحمد السويدي، في كتابه "مفاهيم علم الثقافي ومصطلحاته، المؤسسة الوطنية للكتاب، الطبعة الأولى، الجزائر، 1991، ص 48

وإذ أورد هذا التعريف للإيديولوجيا إنما أريد به ومنه التسلسل كنزق بين خيوط علاقة اللغة بالسلطة من جهة والتواشج التحالفي الكبير القائم بينها وبين الإيديولوجيا من جهة أخرى.

فالإيديولوجيا في ثوب اللغة تعتبر أهم الأدوات والوسائل التي تلجأ إليها السلطة لتبرير ممارساتها وإضفاء الشرعية عليها بالكلمة بما تمارس من عنف غير مادي على المتلقي.

والسلطة إذا تتخذ من الاثنين (اللغة والإيديولوجيا) المرجعية التي تنتشر بموجبها، واليد التي تصافح بها وتبتطش بها وتصفح بها، وتجمع بها العقول والرأي العام في لفافة قبضتها، تلجأ أيضا إلى خلق المؤسسات التي بها وفيها تتم هذه المهمة (كالمدرسة والسجن والبرلمان والإدارات) وباقي رموز السيادة وطقوسها (الأعلام الوطنية، اللافتات المخددة لمناسبة وطنية، الطقوس الاحتفالية الرسمية).

فبواسطة "اللغة" توفر الإيديولوجيا السند للسلطة لممارسة العنف الذي تعلقه اللغة وتختزله لتضعه في خانة رد الفعل على تهديد محتمل، وعدد من الأسباب المضمرة¹. وبواسطة اللغة أيضا تجعل الإيديولوجيا العنف مشروعاً حينما تلجأ إليه السلطة، مظهرة إياه كحق، كضرورة وسبب فيه مصلحة الدولة، كعلة مُحاولَةً إخفاء طابعه كعنف.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الخطاب الإيديولوجي ليس هو الدعاية (البروباكاند بفهمها السياسي Propagande): فوظيفة هذه الأخيرة تبرير فعل سلطوي ما، بينما وظيفة الأولى إضفاء الشرعية على السلطة عبر وساطة النص.

وتعتبر الكتابة السياسية، ومن ورائها الخطابة، صناعةً لا تقف عند حدود تقديم المعاني وإبرازها بقدر ما تهدف إلى المراوغة حسب الهدف أو حسب الموقف أو الفعل السياسي ذاته، وذلك لارتباطها الوثيق بالفعل السياسي ومتطلباته وضروراته ومقتضياته، فلا انفصام لها بذلك عنه لأنها تهدف إلى تقديم معلومات وتغليفها بأي لبوس أو تَكْسِيَّةٍ أو تَوْشِيَّةٍ تكون دافعا أو محركا للحدث السياسي ليؤول به إلى ما تنتشه خلية الكتابة أو تريد طرحه ضد من تطارحه النقاش أو وتسكت عنه في آن.

والكتابة بطبيعتها كانت ومازالت فعلا لكشف وتعرية التراكمات والإشكاليات والصراعات لما لها من فاعلية في تنشيط العقول واستجوابها لتوليد الأفكار وخلق حساسية وشفافية تجاه الأحداث وما يستجد منها على الساحة.

لذا، لا بد لها من تقفي سبيل الصدق وشرط النزاهة حتى تكون كتابة فاعلة لدى الفرد وفي أوساط الجماعة وتحقق نسب قراءة ومقروئية قياسية وجمهور تلقي واسع: فالكتابة كما الخطابة فعل لا بد منه، وضرورة ملحة يتأتى معها الإفهام وسبل الفهم السليم لما يمكن أن تؤول إليه من نهايات متوقعة. ومثل أي كتابة أخرى في أي مجال آخر، تمثل الكتابة السياسية إمكانيةً فضلى للفهم وتحقيق التراكم لارتباطها الوثيق بالتاريخ والأحداث التاريخية.

فإذا كان بالإمكان فصل حقبة تاريخية عن سواها، فلا يمكن فصل كتابة سياسية عن أخرى لأن كل كتابة سياسية جديدة هي قراءة جديدة لكتابة سابقة.

ولكي تصبح الكتابة فاعلة، لا بد أن يباشرها قارئ من نوع خاص بمناويل قراءة معينة، تستنبط مساحات الإضمار والإقرار، وفق شروط قراءة تقتضي متجددة، ومن ثم إنتاج كتابة جديدة تجترح معاني جديدة، وتشكل كذلك فعلا للخلق والتكوين من خلال استقرائها للواقع كطريق للتوقع والاحتمال.

1- المعرفة والسلطة في إسلام العصر الوسيط،

وحيث أن الكتابة تعتمد على اللغة كوسيلة للتعبير عما نفكر به ونرغب فيه وحتى ما نرغب عنه، فقد أخذت اللغة تفرض سيطرتها وسلطانها، وسلطة اللغة أكثر ما تكون وتظهر في حلقات الصراع والتنافس والاختلاف وأصبح من ثم لها كياناتها الخاصة وتنوعاتها حسب المواقف والتوجهات.

فكلُّ يلعب بالألفاظ حسب مقدرته وقدرته على الجدل والحوار، ولم أجد أكثر من الحوار السياسي استخداماً لسلطة اللغة وتداعياتها المباشرة وغير المباشرة، حتى أصبحت لها مداخلة المرئية وغير المرئية، ونقاط ضعفها ومكامن قوتها، فضلاً عن أوجه سيطرتها وهيمنتها وحالات تجددتها، فصارت اللغة السياسية ممكنة التطور وذلك باختلاق واشتقاق مصطلحات جديدة تفرضها ضرورات التطور.

فاللغة السياسية في الخطاب السياسي الحالي تعمل على تقنيع مضامينها وإقناع جمهور تلقياها، حتى أن اللغة السياسية أو الكتابة السياسية تظل في حد ذاتها إشكالية تثير الشكوك والهواجس أكثر مما تقدمه من ثوابت أو تؤكد من يقينيات.

كما أن القارئ العادي قد لا يعي منهجية استنتاج النص ليقرر له بالمضمون البعيد، فلا تطفوا ما في المتن الخطابي من أبعاد غير مرئية إلا لمن يحسن القراءة والتفكير ومن ثم استثارة مكامن وعيه وإدراكه نحو التشكيك والمساءلة ليذهب محاولاً طرح إجابات لها.

وبقدر قدرة الخطاب السياسي على المراوغة بلغته والمخاتلة بأدواته، بقدر ما يكون ناجحاً في إخفاء مناحيه الحقيقية وأهدافه وطرح لغة وأفكار ومفاهيم تعمل على تشتيت الوعي الجمعي وتفتيت بنیان الكلية والشمولية حتى تصبح مجرد كيانات ضعيفة واهية هزيلة لا تقوى على الصد أو الرد، وتعمل الكلمة بما تتيحه من اشتقاق على خلق الفرقة والاعتراك في معترك التقاطب ودروب الشقاق.

إلا أن ما أتاحته وسائل الإتصال ومواقع التواصل من حرية كلمة ورد ووصد الباب أمام الخطاب السياسي المخاتل وتكسير شروط إبداعه وإمكاناته التي لم تكن تحاصرها من قبل قيود غير قيود الحق في اعتلاء المنبر، جعلت بمقدور كل شخص في الفضاء الخطابي ينبري بشكل تلقائي وحر للتعبير عن موقفه، والإنفلات من قبضة الكلمة والخطاب السياسيين، متخذاً طريقاً آخر ليعلن خطاباً آخر، معارضا له بالكلية، أو متفقاً معه في بعض الوجوه الجزئية.

فمن المعروف أن السفسطائية قد وقفت عند سلطة الخطاب عندما اكتشفت الإمكانات التي تحملها اللغة كالمغالطة والقدرة على التمويه وإيقاع الخصم في الخطأ ودور الخطابة في تغيير الرأي والموقف، ومنذ ذلك التاريخ على الأقل، طرحت مسألة العلاقة بين اللغة والسلطة، وعن ذاتية سلطة اللغة أو اعتمادها على المدد والإمداد المستمد من سلط خارج ذاتها ثماهي ذاتها كالسلطة السياسية أو الدينية أو غيرهما من السُّلط.

وقد ظهرت مناويل القراءة الفوكوية للغة والخطاب في هذا السياق من خلال ثلاثيته الفكرية: "L'archéologie du savoir" و "L'ordre du discours" و "La volonté de savoir"، كما برزت دراسات الخطاب وحمل المفهوم حمولة معقدة من المعارف والرؤى مع "بيسانس"، و "زيلييتش هاريس"، و "بول ريكور"، وأصحاب الاتجاه النقدي الثقافي وخطاب ما بعد الكولونيالية (كميشيل فوكو وإدوارد سعيد) حتى غدا مفهوماً مركباً، مخاتلاً، يتقلّت على مألوف التحديد والتعيين، كما هي اللغة مُرواغة، مُخاتلة، تختزن قدرة على التمويه، والتزيين، وتغيير آراء المتلقين، فتمتلك المعنى وتحتكر سلطة الخطاب طوعاً أو كرهاً¹.

1- الزواوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى، 2000، ص 247

على ذلك، تبذت العلاقة بين اللغة والخطاب علاقة ناظمها التأثير والتأثر المتبادلين، فتراصفت الحدود بين تجاذبات السلطة والهيمنة بين أفنومي الخطاب واللغة، ليسعى كل منهما إلى صناعة وعي بديل، وممارسة إمكانياته في التوجيه وتعديل القنوات.

وفي سياق هذا الانشغال يقيم "فان ديك"، كأحد أبرز باحثي دراسات الخطاب ومفكره في عالم اليوم، مقارباته البحثية حول الخطاب والسلطة، ناقدا إساءة استعمال السلطة كما تتجلى في الخطاب، ومدركا أن المعرفة التي لا تحركها غايات نبيلة هي معرفة ناقصة، فنلاحظه في مقالاته العشر التي أثنت كتابه هذا يصدر عن وعي بأن الخطاب يتعالق مع السلطة، ولا مندوحة من نقاش المفهومين بمنأى عن الهيمنة والسيطرة، لأن الخطاب طريقة نظر إلى العالم، تنظيماً أو تمثيلاً للتجربة-الإيديولوجيا في المعنى الطبيعي.

فمن يملك الخطاب ويوجهه يخلق المعنى ويبتدع الحقيقة ولو كانت ملتبسة غير شفافة، وفان ديك يُشاكل "فوكو" في مفهومه للخطاب بأنه "ينطوي على منطق داخلي وارتباطات مؤسسية، فالخطاب ليس ناتجاً بالضرورة من ذات فردية يعبر عنها أو يحمل معناها أو يميل إليها، بل قد يكون خطاب مؤسسة أو فترة زمنية أو فرع معرفياً"¹.

والخطاب أيضاً عملية عقلية منظمة مُنسقة منطقياً، أو عملية مركبة من سلسلة العمليات العقلية الجزئية أو تعبير عن الفكر بواسطة سلسلة من الألفاظ والقضايا التي يرتبط بعضها ببعض، ولم يعد الخطاب طريقة للتعبير أو حديثاً متساوقاً، أو مجموعة عمليات فكرية مترابطة، أو تحليلاً لذات واعية تتأمل وتعرف وتعبر فحسب، وإنما أصبح إمكاناً وشرط وجود ونظاماً، وأصبح حقلاً تتمفصل فيه الذوات، ومجموعة علاقات تجد فيها متركزاً له.

وقد عمل "فان ديك" على تفكيك الخطاب في مقالاته العشر من خلال الاستراتيجيات التي اتكأت عليها هذه الخطابات، وإن تنوّعت هذه الاستراتيجيات فقد تكوكت حول بؤرة مركزية هي أن الخطاب لا يُحلل بوصفه لفظاً مستقلاً بذاته فحسب، بل بوصفه تفاعلاً موقفياً وممارسة اجتماعية أيضاً، وأن السيطرة على الخطاب العام هي سيطرة على العقل العام.

ويسعني ما تيسر لي الإطلاع عليه من مقالاته ذات الصلة بالسلطة والخطاب، خاصة "الخطاب والهيمنة"، و"بُنى الخطاب وبُنى السلطة"، و"تحليل الخطاب النقدي"، و"الخطاب والعنصرية"، و"الخطاب وإنكار العنصرية"، و"الخطاب السياسي والإدراك السياسي"، و"البلاغة الحربية"، و"الخطاب والتلاعب"، و"السياق في الخطاب البرلماني"، للقول بأن هذه الباقية من المقالات يجمعها خيط ناظم يشي بعلاقة بنويّة بين الخطاب والسلطة، فينتمي توظيف اللغة والخطاب والتفاعل اللفظي والتواصل إلى المستوى الجزئي للنظام الاجتماعي، في حين تنتمي السلطة والهيمنة وعدم المساواة بين الفئات أو المجموعات الاجتماعية إلى المستوى الكلي للتحليل.

ولا يقف "فان ديك" من القضايا التي عرضها موقف المحايد، بل ينخرط ويدافع عن مصالح الفئات المهمشة والأقليات في المجتمع: فالحياد عنده خيانة لقيم العلم ولدور المثقف الطبيعي في الحياة.

ولعل ما يميّز كتاب الخطاب والسلطة أيضاً أنه ينحاز إلى علمية منهجية صارمة، فيفيد من مناهج كثيرة مستندة إلى الملاحظة والتحليل والاستراتيجيات المتنوعة، ويوسع من مدارات بياناته ودراساتها وتقويمها، ويختبر فرضياته؛ ليصل إلى نظرية معرفية شاملة في فهم الخطاب النقدي.

¹ - الزواوي بغورة، نفس المرجع، ص 247

ولا يتوانى "فان ديك" في الصدد بالرأي في قضايا تكتنفها الحساسية في البيئة الغربية، فتراه يُعمل مبضعه في نقد المركزية الغربية، ويسمّوها بتقديم النفس إيجاباً وتقديم الآخرين سلباً، فالخطابات المختارة في كتاب الخطاب والسلطة تفيض بهذه الاستراتيجيات المركزية في تجميل الذات وتحقير الآخر، لصدورها عن عقلية تبريرية تتلاعب في الخطاب للوصول إلى مأرب الهيمنة على عقولنا متلقي ومستهدفي الخطاب، فيلجأ أصحاب الخطاب إلى خدع وتكتيكات استراتيجية عبر بلاغة حبك خطاب جدلي يتلاعب في الألفاظ ويجترح استدلالات مموّهة، وغيرها من الآليات والإمكانات التي تختزلها هذه الخطابات، وصولاً إلى توجيه الحقيقة نحو مسرب محدد يتطلع إليه مُنتج الخطاب.

وتكمن أهمية دراسات الخطاب في البيئة العلمية في أنها تعمل على إيجاد معرفة لا تنحاز إلى فئة دون أخرى، بل تعمل على تظهير العلاقات التي تنظم قوى المجتمع، فتنهض على ترسيم ميثاق يبسط العدالة والمساواة بين الأمم والشعوب، معرفة لا تقوم على أساس السيطرة والهيمنة، لأن قاعدتها قوامها التساكن الثقافي والمساواة والعدالة، والأخذ بيد الأقليات والمضطهدين والمهمشين.

كما أشيد في هذا الشأن بما ميز مسار "فان ديك" المُميز ودوره في التحولات الجذرية التي وُطّنت على خريطة علوم اللغة، ونتائجها التي أفرزت دويلات التداولية التي لها حكمها الذاتي وأحكامها في تحليل المحادثة وتحليل الخطاب، قبل أن تتوسع بها ومعها خريطة العلوم البيئية، لتفسح مساراً متداخلة لدراسات مشتركة بين معارف وحقول معرفية متنوعة (مثل علم اللغة الاجتماعي، وعلم اللغة النفسي، وعلم اللغة السياسي...).

تلك المباحث أوردها الباحث المجدد "عماد عبد اللطيف" عند تعقبه السيرة الأكاديمية لـ"فان ديك"، فجلا فيه دور هذا الأخير في الردة المعرفية "عن نحو النص (البنوي، الشكلي) لإعتناق مذهب دراسات الخطاب (الاجتماعية، النقدية)، ليكرس وقته وعلمه وإنتاجه المعرفي لقضايا أكثر ارتباطاً بالمجتمع والسياسة¹.

ما استوقفني في تعقب "عماد عبد اللطيف" لما ينيف عن ثلاثة عقود لمسار "فان ديك" هو سعيه بقوة لفحص خطابات العنصرية والهيمنة والتمييز والتلاعب، ونقدها ومقاومتها بواسطة تعريتها، وبواسطة التحريض ضد استخدامها، وإسهامه في خلق مجالات أكاديمية بارزة، وفي تأسيس تجمعات وروابط أكاديمية غير الغربية، والتي قوضت ما عاشه العلم منذ عصر النهضة من مركزية غربية، وخلقت نواة فرق بحثية كان عماد عبد اللطيف أيقونتها في مصر، وإشراكه كعربي في بناء قاعدة بيانات لدارسي الخطاب في العالم.

أما ما يميز "فان ديك" على مستوى اختيار الموضوعات، فكان انحيازاه للهامش المجتمعي بنفس انحيازاه للهامش الحضاري والثقافي (العربي والأمريكي-اللاتيني خصوصاً).

فقد نقد إساءة استعمال السلطة، كما تتجلى في الخطاب، وانخرط في دراسات موسعة - بمعاونة فرق عمل كبيرة في الغالب - في دراسة الخطابات الشخصية والجماعية والمؤسسية، بهدف فهم الكيفية التي تمارس بها بعض هذه الخطابات أشكال متنوعة من إساءة استعمال السلطة وكيف تشتط وتظلم، وتتكاثر على الأقليات والمهمشين (مثل السود أو الملونين أو اليهود أو المسلمين أو المهجرين والمهاجرين عموماً).

ويبدو هذا الانحياز الصارم للضعفاء فضيلة أخرى من فضائل العلوم الاجتماعية التي اقتضت ترجمة كتابه "الخطاب والسلطة" إلى القارئ العربي، بمقالاته العشرة، كدراسات محورية كان لها تأثير في مسار تحليل الخطاب على مدار عقدين من الزمان، خاصة محور **التلاعب السياسي** (وعلى وجه

¹ - فان دايك، "من نحو النص إلى تحليل الخطاب النقدي"، ترجمة: أحمد صديق الواحي، مجلة فصول، عدد 77، 2010

التحديد طريقة تبرير الأنظمة الحاكمة عدوانها على شعوب ودول مستضعفة وكيف تحاول إضفاء الشرعية على الحروب غير العادلة)، ومحور الهيمنة (وتحديدا طريقة ممارسة الهيمنة في فضاءات السياسة والإعلام والتربية)، ودور الخطاب في إنجاز الهيمنة ومقاومتها، فضلا عن الأدوات التي تساهم في إنتاج الخطاب، قبل أن يكرس فضلا حول سبل السيطرة على الخطاب الذي طالما سيطر بدوره من خلال السيطرة على منافذ أو مداخل الخطاب (من له حق الكلام؟ وأين؟ ومتى؟ وكيف؟) فضلا عن السيطرة على عمليات توزيع الخطاب واستهلاكه وتوجيه التأويلات الممكنة له.

كما أفرد "فان ديك" على مدار خطابه الدور الذي تُمارسه النخب (السياسية والثقافية والتعليمية...) في دعم خطابات السلطة، وفي إحكام السيطرة على الخطاب العام، بهدف خدمة الجماعات والمؤسسات المهيمنة.

وقد استلهمت بعض آليات العدة النظرية لدراسات الخطاب وفق صيغتها المتطورة أو المُطوَّرة من طرف من أخذوا عن "فان ديك" (خصوصا د. "عماد عبد اللطيف") لأقارب بدوري الخطاب الملكي مقارنة إدراكية وتفاعلية تحقق فهما أفضل للعلاقة بين الخطاب والمجتمع، مع توجيه الإهتمام نحو عمليات التفاعل مع الخطابات المكتوبة والمنطوقة.

فقد درس الحوارات الشخصية، ومحادثات العمل، والنقاشات والمداولات البرلمانية، والخطب السياسية، وافتتاحيات الصحف، ومقالات الرأي، والتصريحات السياسية، والكتب المدرسية، والتقارير الإخبارية... وهو ما يضيف على كتابه ثراء في المادة المدروسة يوازيه ثراء أدوات التحليل.

ب- في رحاب الخطاب

يقتضي تمثّل اللغة في الخطاب المولوي البدء بتعريف الخطاب وبنياته وعناصره وعلاقة الخطاب باللغة والمعنى وأهمية الطاب في توجيه المعنى السياسي وعلاقة اللغة بالسياسة وغيرها من خوارزميات فهم الخطاب الملكي وقدرته على الفعل باللغة.

• طبيعة لغة الخطاب المولوي: طبيعة تهوى الفعل وتخشى مهاوي السفسطة وتتحاشى الهواية السياسية وتصون الهوية الخطابية للمؤسسة

إذا كان العلماء والباحثون المشتغلون بالبحث اللغوي عموما قد اختلفوا في تحديد طبيعة اللغة ونشأتها، ويضرب الجدل والاختلاف بينهم بجذوره في أعماق تاريخ التناول المعرفي الفلسفي لظاهرة اللغة كغيرها من الظواهر الطبيعية والإنسانية.

كما ساد الاعتقاد لزمن طويل بأن أصل اللغة الانفعال والتعبير عن العواطف ومحاكاة الطبيعة، كما يُستخلص من عبارة "سقراط" إن الاسم محاكاة صوتية للشيء المحاكى".

وقد سار على نهجه أفلاطون في "الجمهورية"، ليصب هذا الرأي في نفس المجرى الذي يصب فيه موروثنا العربي من حيث موقفه من الجدل اللغوي المذكور آنفا، فقال الفارابي أنه "يتفق أن يستعمل الواحد منهم تصويوتا أو لفظة في الدلالة على شيء ما عندما يخاطب غيره فيحفظ السامع ذلك بعينه عندما يخاطب المنشئ الأول لتلك اللفظة ... فيخاطبان بها غيرهما إلى أن تشيع عند جماعة"¹.

¹ أبونصر الفارابي، "كتاب الحروف/باب حدوث الألفاظ والفلسفة والملة"، حققه وقدم له وعلق عليه محسن مهدي، دار المشرق، بيروت، دون طبعة، ص28

فقد عرفنا أن اللغة من الخصائص والتنوع ما جعلها تشكل مضرب مثل في تضارب الآراء بشأنها، ولم أر بدوري بُداً من استدعاء أهمها بكثير من الإقتضاب بغية الإقترب من فهم طبيعة اللغة ومن خلالها طبيعة لغة الخطابات المولوية.

فإذا كان تحديد المفاهيم يبعد الباحث على تناول بعض المواضيع بالتحليل والدراسة، فإن الإشتغال على الخطاب المولوي يطرح مجموعة من الصعوبات والتي تزداد إذا ما تعلق الأمر بخطابات مؤسسة ملكية ممتدة وثق خطاب 3 من المتربعين على عرشها، فتميز بطول فترة الإرسال التي امتدت لأربعة عقود من جهة، وكثافة البث التي ميزته من جهة ثانية، وتعدد وتباين المرجعيات التي حكمتها من جهة ثالثة.



فقد جمعت وزارة الإعلام على عهد وزير الداخلية الراحل ادريس البصري خطابات الملكين الراحلين محمد الخامس والحسن الثاني، ووثقت مرحلة مهمة من مراحل التوثيق الخطابي والسياسي لفت 361 مرة تولي الملك المجاهد محمد الخامس الحكم خلفا للمولى يوسف، فأصدرته في جزئين وحيدتين، مقابل تناسل الحوليات التي توثق لكل سنوات الممارسة الخطابية والحوارية لوراث سره الملك المشيد الحسن الثاني طيب الله ثراه، تارة بلسان فرنسي وأحياناً أخرى بلسان عربي فصيح، قبل أن تمتد سنة إصدار الحوليات على عهد وارث سرهما الملك المجدد محمد السادس نصره الله وأيده بنفس العنوان، مع اختلاف في الجهة التي استردت سلطة التوثيق وكتابة التاريخ الرسمي للمملكة بعد أن شاركتها في كتابته وزارة الدولة في الداخلية والإعلام.

وبالرغم من ذلك، حددت مفهوم الخطاب المولوي ومَرجعياته ومميزاته وأهدافه وطرف اشتغاله، لأن الخطاب المولوي كما الخطاب السياسي يعتبر بنية لها قواعدها وعوالمها الخاصة، وإن كان يتميز بخصائص عن باقي الخطابات السياسية والدينية والفكرية وغيرها.

كما أن الخطاب المولوي ماهو في محصلة الأمر إلا شكل من أشكال خطابات التأثير على سلوك الآخر بهدف حمله على فعل شيء أو الإمتناع عنه.

فكيف يُمارس الملك محمد السادس السياسة عبر الخطاب كما مارسها والده المغفور له الحسن الثاني؟

• اللغة نظام يستعمله النظام:

تمثل اللغة بثتى مستوياتها الصوتية والتركييبية والدلالية، المكتوبة أو المنطوقة، هيكلًا أو نظاماً من الإشارات والشفرات، التي يضعها مجتمع ما قصد التواصل. واللغة من هذا المنطلق "نظام من الرموز (العلامات) المنطوقة المكتسبة تستخدمه جماعة معينة من الناس بهدف الاتصال وتحقيق التعاون فيما بينهم".

إلا أن اللغة قبل هذا وذاك تعتبر بالفهم السوسيري أيضا "مجموعة من الاتفاقات الضرورية التي وضعها الهيكل الاجتماعي ليسمح باختيار أو استخدام ملكة الكلام لدى الأفراد"¹: فهو في مقولته المأثورة هاته يؤكد على أن اللغة ملكة التخاطب التي يملكها البشر طبقا لقوانين الوراثة، أي أنها ظاهرة إنسانية عامة.

حديث دوسوسير عن السماح باختيار أو استخدام ملكة الكلام لدى الأفراد يحيل على كونها نظاما نحويا له وجود كامن في كل عقل، وبتحديد أدق في عقل الجماعة، لأن اللغة ليست كاملة عند أي متكلم: فهي توجد وجودا كاملا في عقل الجماعة فقط، وهي حصيلة يحاكيها الفرد، وتمثل في محصلة الامر مجموعة من الانطباعات المودعة في عقل كل فرد من الجماعة.

وإضافة إلى هذا كله يعتبر اللغة "تنظيما من الإشارات المفارقة، بل إنها مجموعة من الرموز والقواعد التي تعتمدها جماعة ما في التواصل، وهي قواعد ملزمة للأفراد. كما أنها عبارة عن نظام تترابط أجزاءه في شكل نسق كلي.

ويتحدد كل جزء من أجزاء اللغة تبعا لموقعه داخل النظام، ومع ذلك كله تبقى ظاهرة اجتماعية تخدم غرض التفاهم المتبادل، كما أنها نظام من العلاقات يرتبط بعضها ببعض على نحو تكون فيه قيم كل علامة مشروطة على جهة التبادل بقيم العلامات الأخرى، فاللغة مؤسسة على التعارضات les oppositions"².

وتستدرجني مسارب الحديث هنا لوضع علامة فارقة بين "اللغة" و"الكلام" الذي يعتبر تحقيقا وتحققا لها، فتكون اللغة هي غير استعمال الأفراد هذه المقدر، أي الشيء الذي يعنيه الكلام، ليتضح من هذا التمييز أن اللغة ظاهرة اجتماعية تمثل الأساس المرجعي والنموذجي للكلام الذي يبقى ظاهرة فردية ومقدرة شخصية، قبل أن أتناول بعدئذ القدرة التواصلية لصاحب الجلالة في موضع ومحور لاحقين الملكات التواصلية للملك.

¹ - وفاء محمد كامل: البنيوية في اللسانيات، مجلة عالم الفكر، ص: 227.

² - حسنا إدريسي، "الفكر اللغوي عند دوسوسير"، مجلة الحوار المتمدن في عددها الصادر بتاريخ 9 يناير 2014 في محور "دراسات وأبحاث في التاريخ والتراث واللغات".

• سيميائية اللغة :

ترتبط اللغة وتتداخل وتداخل كبيراً مع السيميولوجيا بشكل يجعلهما تلتبسان حتى على المتخصص، وتتجلى العلاقة بينهما في أن اللغة على حد عبارة إيميل بنفنيست تعطينها النموذج الوحيد الذي يمكن وصفه بأنه سيميويطقي في بنيته الشكلية وفي تأديته لوظيفته: فاللغة تتمثل في القول الذي يحيل إلى موقف ما، فإذا تكلمنا فإننا نتكلم دائماً عن شيء ما، وتتكون من حيث الشكل من وحدات مستقلة تمثل كل وحدة منها علامة "كلمة".

وتنتج اللغة وتستقبل في إطار قيم إشارية مشتركة بين أعضاء مجتمع واحد تمثل التحقيق الوحيد للاتصال بين "ذات المتكلم" و"ذات المخاطب".

تلك القيم الإشارية والصور البشرية التي يحفل بها محيط إلقاء الخطاب الملكي ويرصع مراسلات المؤسسة الملكية تتيج مشاهد مفتوحة على العديد من المناويل القرائية المعاضدة لباقي الرسائل اللفظية للمؤسسة الملكية.

• إبداعية اللغة المولوية :

تنبثق فكرة الإبداعية من الاعتقاد أن متكلم لغة ما يستطيع أن ينتج عدداً لا حصر له من السلاسل اللغوية، مختلفة عن تلك التي يسمع من غيره، وغيره مشروطة بها.

وفي هذه الطبيعة خصيصة لم تُحزها إلا الخطابات المولوية من حيث كونها خطابات إبداع غير مكررة ولا ابتداع فيها، فلا تشترط غيرها وتخلق غيرها شروط الارتباط والإحالة عليها، وإبداعيتها تتجلى في قدرة صاحب الجلالة على إنتاج وتفهم عدد غير متناه من المفاهيم غير المسبقة في حقل التداول السياسي، وتكون اللغة جسداً حاملاً لها.

• الضبط اللغوي ضمان لضبط مؤشرات الانضباط الجماهيري

حين نسمع سياسياً مغربياً يتحدث، ندرك توا عجز لغة الخطاب على توصيل ما تريد أو ما لا تريد. إن صناعة لغة الخطاب السياسي هي أساس صناعة الثقافة السياسية، فلا سياسة بدون لغة تعي دورها توطن نفسها فوق الخرائط البشرية.

وأتصور أن جزءاً كبيراً من إخفاق الأحزاب السياسية ناتج أصلاً عن عطب في لغة الخطاب المستعملة لدى أمناء الكثير من الأحزاب وأعضاء ووكلاء لوائحها الانتخابية.

ويعيش مستقبل هذا الخطاب بدوره حالة من القلق ليتخطيه عدم الفهم من الغموض: فأزمة غموض واختلاط لغة الخطاب السياسي لا تنتهي عند لفظه، أي عند جملة ونصه، بل تُخضعه لكثير من التخرجات والتأويلات، وتأويلات وتفسيرات تصل حد التناقض والتعارض الناتجين أصلاً عن اللا فهم واللا إفهام ومساحات الإبهام وسطوة الوهم والإيهام. ومن جراء هذه اللغة المستعملة في الخطاب السياسي، فإننا نشعر وكأن الطبقة السياسية توجه خطابها إلى شعوب مختلفة ومتعددة، أي أنها لا تخاطب شعباً واحداً، وهنا يكمن الإخفاق السياسي ويكمن العطب البنيوي.

إن قراءة لغة الخطاب السياسي المعاصر تكشف عجز الطبقة السياسية عن فهم مجتمعها اللغوي: فهي لا تعرف أصلا انتماءها اللغوي ولا تعرف في المقابل أيضا الانتماء اللغوي للجهة التي توجه إليها الخطاب.

وتبقى اللغة المعطوبة سببا في خلق واختلاق الكثير من المشاكل والاختلالات التي تشجر بين بين الحاكم والمحكوم: فهي بالقدر الذي يمكنها أن توصل الرسالة وتبلغ القصد، بقدر ما تخطئ هدفها من حيث ضعف بنيتها أو عدم تمكن صاحبها من زمام أمرها فتخلق حالة من الردة.

بشكل عام، تظل لغة الخطاب السياسي المستعملة من قبل طبقة سياسية لغة غير بريئة، فهي إذ تكشف لنا عن خلفيات ومرجعيات الطبقة التي تنتج هذا الخطاب، تبين لنا، وفي ذات الآن، انتماء الجهة الموجهة إليها. وحين تكون هناك أزمة في لغة الخطاب السياسي أو حتى الإداري، فإن التبليغ يكون ضعيفا أو يكون عكس ما يبتغيه صاحب الخطاب، وهذا هو الحاصل في مشهد لغة الخطاب السياسي عندنا.

هذه الأزمة التي تعيشها لغة الخطاب لدى الطبقة السياسية زادت الهوة اتساعا ما بين المرسل والمرسل إليه، وبالتالي حدث خلل كبير في تراكم معرفة السياسية، مؤسسا بالتالي لفقدان الثقة السياسية والإدارية.

كما أنه عندما نصغي لبعض المسؤولين السياسيين أو الإداريين يتحدثون العربية، نجد في كلامهم جملا مقطعة وكلمات لا رابط بينها، لغة بدون روح، تومئ بأن الذي يتكلمها إنما يتكلمها من الخارج، ويتكلم فقط بدافع الصورة الإعلامية الرسمية، يتكلمها وهو منفصل عنها: خطب وزير الصحة وقبلها ادريس بنهيمه أبلغ في هذا المقام من أي تفصيل.

وعليه، أكاد أجزم أن الطبقة السياسية في بلادنا لا تعرف لغة الشارع وإن كانت تتحدث بلغة الشارع أو كان رواد الشارع وراء الحملات التي قادتهم للإستوزار أو لقبة البرلمان، في الوقت الذي أبدع الشعب لغة خاصة به من خلال تنوعات استعمالية يومية جديدة ومبدعة، اقتضت من زمرة الساسة معرفة هذه اللغة والرقى بها إلى مرتبة معينة واستعمالها لإيصال الخطاب وإفهام المرسل إليه.

بالمقابل، يبالغ بعض السياسيون أو الإداريون في التنميق والزخرف اللفظي وتطعيم خطابهم بالتعابير المسكوكة، مُغترفين من معين المعاجم القديمة ويقتربون في أدائهم الخطابي من رواد البلاغة والخطابة العربيين، فيبتدعون في العديد من المرات ويبتعدون بلغة الخشب عن لغة الشعب وحتى عن الشعب نفسه.

نشترك في هذا مع ساسة الجارة الجزائر، فحسب إفادة الباحث امين زاوي، "حين تستعصي اللغة على بعض السياسيين والإداريين، يجدون أنفسهم في موقف شعبي محرج، يخرجون لغة الدوار أو الدشر أو الحي الذي ولدوا فيه وتتكروا له: فيستعملون جملة أو مفردة أو سياقاً من ماضي لغة الدشرة أو الدوار، لغة انقرضت أصلا، فيُثير هذا الاستعمال السخرية والضحك ويبين حجم القطيعة ما بين هذا السياسي والمتلقي"¹.

فإذا عُدنا إلى خطب ملكنا الراحل المغفور له الحسن الثاني قدس الله ضريحه²، ندرك كيف كانت العامة تفهمها بسهولة، وتجري على لسانها بسهولة، فنفهم الرسالة التي يريد الخطاب إيصالها، بغض النظر عن الاتفاق أو الاختلاف حول فحواها: الحقيقة أنه لم يكن الشعب، على اختلاف أجياله ورؤاه السياسية، محتارا أمام فهم الرسالة وتفسيرها.

1- أمين زاوي، "الطبقة السياسية في الجزائر: أعطاب لغة الخطاب"، مقال صادر بالجريدة الإلكترونية جزائرس، في عددها الإلكتروني بتاريخ 10 مارس 2010

2- وهو الذي كان يتكلم لغة عربية بسيطة وسليمة وشعبية ويرتجلها فلا يعتمد في حديثه إلى الشعب لغة الخطاب المكتوب، بل كان يستعمل لغة الشعب للإفهام والتوصيل

ولطالما اعتقدت في البدء أن مشكلة الضبط اللغوي عند السياسيين مرتبطة بجيل الإستعمار الذي تعلم في المدرسة الفرنسية، ولكن الأيام كشفت لي ولغيري بأن المسألة عضوية وهي تمس اليوم جيل الإستقلال والمغربة والتعريب، وتوجه أحد مستشاري الملك إلى تشغيل مهندسي القناطر والطرق في مناصب وزارية وتبويئه إياهم مسؤوليات جهوية.

إن كثيرا من القلق الذي تعيشه الطبقات الشعبية ناتج عن خلل في لغة الخطاب السياسي في بلادنا، فالإشاعة والشك والترويج لأخبار مثيرة لا تخدم استقرار الدولة، مثلا، كل ذلك سببه الجهل بلغة الشعب وغياب الدقة في الخطاب، وإن كثيرا من الفوضى والتمرد الشبابي في بلادنا سببه أخطاء في لغة خطاب الطبقة السياسية.

لذلك فالمجتمع الذي لا يملك طبقة سياسية تتكلم بلغته، تلك اللغة التي يعيش بها ويفرح بها ويحزن بها ويحزن بها، هو مجتمع بدون بوصلة Déboussole، وهو شعب مشوش ومعرض للمد والجزر والتردد والسقوط الحر في كل لحظة.

وعليه، أجدد التأكيد على جدوى اختياري للغة الخطاب المولوي الذي يقدم ضمانات الفعل المتفاعل مع الطبقات الشعبية، حتى في لحظات القلق المعيشي والإحتقان الإجتماعي ومقدمات السخط العام، فصلا عن حملته لخطاب مؤسسة تحمل ثوابت وعقائد مؤسسية مؤسسة على أسهم الثقة التي يحوزها الملك والطابع المرجعي لخطاباته في عين مختلف الفرقاء السياسيين.

- اللغة من التفاهم إلى سوء التفاهم عبر سوء الفهم

إذا كان هناك اختلاف بين المفهوم والمعنى، فما أدرانا أن المتكلم قد نجح في التعبير عن المفهوم الذهني المراد من خلال اختيار الدال المناسب له؟ أيستطيع المتكلم أن يطمئن إلى أنه قد نجح في أن يعبر تماما عما أراد قوله؟ أم أن هناك احتمالا قائما على الدوام في أنه ربما قال أكثر أو أقل مما أراد التعبير عنه؟

وتتجسد أهمية هذه الأسئلة على نحو أوضح حين يعبر المتحدث أو الكاتب ليس عن معنى مفهوم أو دال واحد وإنما عن المعاني المتضمنة في جملة من المفاهيم والأفكار والدوال المتداخلة والمتراصة معا.

وهذا يدعوني للتساؤل مرة أخرى: أحقا أن اللغة وسيلة للتفاهم الفعال والناجز بين أفراد الجماعة اللسانية؟ وما هي الشروط السياقية التي يمكن أن تساعد في إنجاز عملية التفاهم بين الناس على أفضل وجه؟ وهل يستطيع هذا المتكلم أو الكاتب أن يكون على يقين من أن السامع أو القارئ يفهم ما يقوله على الوجه الذي أراده هو، أم أن الأخير يفهم ما يسمع أو يقرأ على وفق قدراته اللسانية وسعة إدراكه فضلا عن انحيازاته وأهوائه ودوافعه النفسية والاجتماعية؟ وإذا ثبت أن اللغة قد تكون وسيلة لسوء التفاهم بالقدر نفسه الذي تكون فيه وسيلة للتفاهم، فهل يكمن السبب في اللغة نفسها، أم في مستعملي اللغة، أم في السياق، أم في هذه الحدود الثلاثة جميعا؟

هذه الأسئلة ستكون مدار البحث في الشق المتعلق في الفصل الرابع بالخطاب السياقي الهزيل، لتجديد الخوض في مسألة إخفاق اللغة، أو ربما إخفاق مستعملي اللغة في تحقيق التواصل والتفاهم بين الناس، ونجاحها في الخطاب الملكي في الانتقال من الدور التواصل إلى التفاعلي.

- بخصوص الوظيفة التواصلية للغة الخطاب الملكي كشكل فيزيائي وفسيولوجي ونفسي للاتصال بين الملك وشعبه أساسا وبعض خاصته وخاصة خاصته، يمكن الخلوصل إلى اعتماد لغة الخطاب الملكي أيضا في العملية التواصلية الفردية والجماعية والجماهيرية للتعبير عن الذات، والتقاط الإشارات التي يحفل بها الفضاء العمومي وإعادة إرسالها وبثها بمضامين يستقبلها المتلقي وتُقبل عليها جميع أطرافه.

ويرى نفس الباحث الفرنسي أن كل النظريات اللسانية "توافق على أن البنيات اللسانية وسيلة غايتها... تحقيق التواصل اللغوي"¹.

وإذ يكشف هذا الرأي على أن الوظيفة الأهم للغة تحقيق التواصل المفضي إلى التفاهم بين الناس، والأهمية الاستثنائية لمشكلة دراسة المعنى وما يكتنفها من صعوبات جمة، فإن الفهم من خلال التواصل اللغوي، أو التفاهم (وفي حالة الفشل في التواصل تكون النتيجة سوء التفاهم) هو الوظيفة الأكثر أهمية من بين وظائف اللغة.

لذا، يظل الفهم ومستوياته من أهم القضايا التي تفرض علينا البحث في المشكلات الجوهرية في مسألة المعنى لأن التفاهم مرتبط بها ارتباطا وثيقا حتى ليتمكن القول إن مشكلات التفاهم هي مشكلات المعنى ومشكلات المعنى هي مشكلات التفاهم.

مشكلات التفاهم لم يتصد لها سوى عدد محدود من المهتمين باللغة في جانبها البنيوي الذي يركز على تركيب اللغة، والدلالي بنوعيه *sémiotique et pragmatique*، الذي يختص بدراسة المعنى في اللغة.

وإذ يقرر د. "سعيد بنكراد" أن "العلامة ولاسيما اللغوية اختصار وتهذيب للوجود وتعميم له"²، فإنني ألاحظ على هذا التعريف أنه يكاد يختص بالمعنى الذي تعبر عنه الوظيفة المرجعية أو الإشارية، لأنه يعمل في حقل العلاقة بين العلامة اللغوية وموجودات العالم الخارجي وأحداثه، وتنهض لغة الخطابات المولوية بمهام التعبير عن فكر النظام ويفهمها كل من تمرّس بأنظمة الإشارات والرموز.

ويرى بعض الباحثين أن اللغة من أهم مصادر اختلافنا وصراعنا الأبديين بوصفنا كائنات اجتماعية.

فمنذ أن ازدهرت الفلسفة السوفسطائية في اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد؛ واكتشفت إمكانية اللعب بالكلام لأغراض متضاربة ودونما اعتبار للواقع الموضوعي و/أو للحقيقة، صار واضحا أن اللغة من أخطر المقتنيات الإنسانية لكون مستخدميها، وهم بشر، قد ينحرفون بها، وهم غالبا ما يفعلون ذلك عن قصد أو بدونه، عما يفترض أن تؤديه من وظائف تسهم في إزالة سوء التفاهم وتحقيق التواصل بين الناس.

والتواصل هنا مشتق على صيغة التفاعل التي تعبر بصيغتها وبمعناها الذي تفيدته عما ينبغي أن تنجزه اللغة أعني التحاور، وهو الهدف والوظيفة المنشودة الأكثر أهمية بين أهداف استعمال اللغة.

¹- موان، جورج، "اللغة والتعبير" في دورية الفيلسوف. دار فايبار للنشر، باريس، 1980، ص. 135 و142

²- موان، جورج، نفس المرجع، ص. 142

على مستوى التواصل وجها لوجه، وكذلك على مستوى المؤسسات، يكون القيام بالخيارات "مصدرا من مصادر الصراع وتضارب المصالح لأن فعل الاختيار هذا يكون موجها من قوى سياسية وأيديولوجية ومواقف لغوية"¹.

وكان موقف السوفسطائيين بما يمثله من قيمة علمية استثنائية مبكرة موضع نقد ودحض لأسباب أخلاقية أو فكرية. ومثال ذلك أن السوفسطائي جورجياس "لا يجعل القوة الخلاقة في الحقيقة بل في القول". وقد كان السوفسطائيون يصرون "عن إيمان عميق بقدرة الخطاب الخلاقة"، وربما يكون هذا الأمر هو ما دفعهم إلى التفكير في اللغة ذريعا وتداوليا.

أما عن طبيعة مشكلة التفاهم التي تعتور الوظيفة التواصلية، فقد قطع فهم الإنسان لطبيعة اللغة ووظائفها أشواطاً بعيدة منذ أن عرف السوفسطائيون نشوة اكتشاف قوة التأثير للكلام على الجماهير.

فقد أسهمت تأملات وبحوث ودراسات فلاسفة ولسانيين² في تطوير تصورات الإنسان حول أثنى مقتنياته، أي اللغة. فأصبح لدينا مدارس لسانية مختلفة، وأنتجت هذه المدارس علوماً متخصصة تدرس مختلف مستويات بنية اللغة من صوتية وصرفية وتركيبية ودلالية، فضلاً عن أنماط اللسانيات المختلفة من نفسية واجتماعية ونظرية وتاريخية.

كما تكونت لدينا نظريات في اللغة مختلفة في المنطلقات ومُتباعدة في النتائج في أغلب الأحيان.

بيد أن هذا التقدم في فهم اللغة لم يصاحبه تقدم مواز في تحسين فرص استعمال اللغة الناجح في تحقيق التواصل الكفء، أو تبديد احتمالات سوء التواصل أو سوء الفهم الناجمة من سوء استخدام اللغة (وعذراً لاستعمال بعض الكلمات المعيارية). فأين تكمن إذن المصادر والأسباب الحقيقية في مثل هذا الفشل؟ من الناحية المنهجية، يتفرع هذا السؤال إلى الأسئلة الفرعية الآتية:

1. هل يكمن الفشل في طبيعة اللغة نفسها وذلك لكونها أداة قاصرة عن التعبير الدقيق عن الفكر؟
2. أم أنه يكمن في الفكر نفسه لأنه لم يعد فكراً ذا أسس عقلانية دقيقة وواضحة وعلى شيء من الثبات؟

3. أم يجد مَكْمُننا في المُستعمل الفرد للغة كونه لا يتورع عن استخدامها استخداماً مفرطاً في الذاتية للتعبير عما يريد دونما اعتبار للحقيقة الموضوعية؟

4. أم أنه يكمن في الصراعات الاجتماعية التي ما انفكت تؤثر في اللغة حين تدفع الناس إلى استعمالها لأغراض أيديولوجية تجعل الخطاب اللغوي وثيق الصلة بالمواقف المستمدة من الأيديولوجيا وليس بالحقائق الموضوعية؟

5. أم أنه يكمن في عدم وجود أسس اجتماعية، من أعراف أو تقاليد أو قواعد أخلاقية أو قانونية، تحول دون سوء استعمال اللغة، أو حتى تخفف منه؟

قد تتداخل الإجابة على هذه الأسئلة نظراً للترابط الوثيق بين أسباب ظاهرة فشل التواصل وسوء التفاهم ومظاهرها المختلفة.

¹ - بنكراد، سعيد، "السيمائيات: النشأة والموضوع"، مجلة عالم الفكر، العدد 3، المجلد 35، يناير - مارس 2007، ص. 7 و 46

² - مثل "باني" في الهند القديمة، و"أفلاطون" و"أرسطو" في اليونان القديمة، و"الفرهيدي" و"سيبويه" و"ابن جني" في بلادنا العربية الإسلامية، و"سوسير" و"سابير" و"بلمفيلد" و"تشومسكي" و"هالداي" وغيرهم كثير في الحضارة الغربية الحديثة

ففي الإجابة على السؤالين الأول والثاني، هناك اتجاهان: الأول منهما يوجه اللوم للغة نفسها في فشل التواصل بين الناس، في حين يلقي الاتجاه الثاني باللائمة على الجماعة اللسانية ونظامها الفكري والسياسي.

- أما الدور التفاعلي للغة، والذي يترجم تلازم الفكر واللغة إلى درجة السيامية التي يستحيل بموجبها فصل أحدهما عن الآخر، فيرتبط بالطابع التفاعلي للخطاب المولوي مع قضايا شعبه وقضايا الوطن، فالتفكير لغة صامتة واللغة تمثيل للتفكير (تفكير ملفوظ)، واللفظ بلورة للحظة التفاعل تلك.

ولم يجانب "هيجل" الصواب في رأيي حين قال "إننا لا نفكر إلا داخل الكلمات"؛ فاللغة هي جسم الوجود كما يتشكل ويتجلى في فكرنا ووجهات نظرنا فيه، فنحن نستثمر اللغة في خدمة تفكيرنا، والسيطرة على قدراتنا اللغوية التي هي في جوهرها قدراتنا الفكرية.

لهذا، لا يمكن الفصل بين "الفكر المولوي" و"لغة التعبير عن الفكر المولوي"، إذ لا يمكن النفاذ للفكر وللأفكار التي تحملها الخطابات بمعزل عن الألفاظ التي تصورها، بل لا نستطيع أن نفكر إلا إذا اقتفينا أساليب صياغة عناصر فكره في قوالب لغوية.

ومن الصعوبة بمكان أيضا تحديد دقائق العلائق التي تربط الفكرة باللغة لما تمتاز به من خصوصية الجدل والتعقيد، وتحديدًا حينما نطرح السؤال هل الفكر هو الذي يشكل اللغة أم أن اللغة هي التي تشكل الفكر والتفكير؟ إذا كان العلماء والفلاسفة يميلون كل الميل إلى الرأي الأول، فإننا نميل كما اللسانيون إلى الرأي الثاني.

وتكاد الحال تكون نفسها بالنسبة للثقافة، وحسبي علاقة التلازم بين اللغة والثقافة أنا أستحضر نظرة "ألفريد فيبر" للثقافة على أنها "جملة من العناصر الروحية والمشاعر والمثل المشتركة التي ترتبط في خصوصيتها بمجموعة وزمن معين"، وذلك ما لا يمكن تصوره والاتفاق عليه خارج أداة اللغة التيهي مجموعة العلامات والشفرات التي تشمل الثقافة نفسها: فلغة الخطاب المولوي تحمل فكرا تدبيريا لعدد من القضايا، وامتدادا لثقافة مخزنية ومراسيمية ولأعراف وتقاليده مخزنية محضية...

هذه المراسيم سأورد الحديث عنها في التناول السيميولوجي لفضاء إلقاء الخطابات المولوية والإشارات غير اللفظية التي تحفل بها شارات السلطة والبروتوكول الملكي، ومأسسة المراسيم السلطانية من خلال الثابت في مراسيم البيعة وخدمة السلطان والتتويج الملكي وتجديد البيعة، وفي التنصيب الحكومي والخطاب الافتتاحي للدورتين الخريفية والربيعية، وغيرها من الإشارات الدالة على حضور المؤسسة الملكية في قلب العاملين الحكومي والبرلماني، فضلا عن المتحول في هذه المراسيم الإشارية غير اللفظية التي دشنها ملك القرب من خلال عصرنة وتحديث البروتوكول المخزني.

مناطق البحث في الإشارات غير اللغوية أن قراءة الخطاب الرسمي غير كافية للإجابة عن مدى استعمال مؤسسة مركزية في بنية النظام السياسي المغربي بحجم المؤسسة الملكية للخطاب كمنظومة فكرية وتأطيرية وهيكلية للمجال السياسي كآلية لممارسة السلطة وتأطير باقي السلط وشرعنة امتلاك السلطة عبر قناة الخطاب، حتى في لحظات العلاقة المأزومة.

إذا كان تحديد المفاهيم يباعد الباحث على تناول بعض المواضيع بالتحليل والدراسة، فإن الإشتغال على الخطاب المولوي يطرح مجموعة من الصعوبات والتي تزداد إذا ما تعلق الأمر بخطاب تميز بطول فترة الإرسال كما أسلفنا، وكثافة البث وتعدد وتباين المرجعيات.

وبالرغم من ذلك، سأحدد مفهوم الخطاب المولوي ومرجعياته ومميزاته وأهدافه وطرف اشتغاله: فالخطاب المولوي كما الخطاب السياسي بنية لها قواعدها وعوالمها الخاصة، وإن كان يتميز بخصائص عن باقي الخطابات السياسية والدينية والفكرية وغيرها.

والخطاب المولوي ماهو إلا شكل من أشكال خطابات التأثير على سلوك الآخر بهدف حمله على فعل شيء أو الإمتناع عنه.

فكيف يُمارس الملك محمد السادس السياسة عبر الخطاب كما مارسها والده المغفور له الحسن الثاني؟

• اللغة والحياة السياسية

إن من أبرز القضايا التي يشملها البحث اللساني الموجه إلى دراسة استخدام السياسة للغة، قضية المصطلحات والتعبيرات التي يصطنعها كل نظام من الأنظمة السياسية المختلفة دعاية لنفسه، وتثبيتا لحكمة.

وتبدوا الفروق جلية بين طرائق الإقناع التي تتبعها كل جهة على حدة، دكتاتورية كانت أم ديمقراطية، كما تبدو مختلفة لدى النظام الواحد باختلاف المراحل التاريخية والظروف الاجتماعية والأمنية. كما لوحظ من الاختلافات الخطابية المتنوعة بين "ماركس" و"لينين" و"غورباتشوف" أو الأنظمة الديمقراطية (أعني الديمقراطية التعددية) وخطاباتها من بلد لآخر رغم وحدة المرجعية المذهبية والفكرية.

ثم إن لغة السياسة تخفت وتتوارى فلا تخرج من رمادها إلى من خلال لغة الانتخابات أثناء الحملات الانتخابية والدعائية، وهي اللغة الكثيفة القمينة بالبحث اللساني، في أفق كشف حقائق علمية ومعرفية كثيفة العتمة والضبابية مرتبطة بالنظام السياسي والمجتمع والسياسة واللغة، وباختلاف اللغة أو الخطاب الدعائي من مرشح لآخر، ومن دائرة انتخابية أو فئة اجتماعية لأخرى، ولغة إعلان النتيجة، ولغة القوانين التي تصدر بشأن الانتخابات ولغة الصحف والمجلات والإذاعة وتعليقات الجماهير على الانتخابات.

كما تضيئ البحوث المرتبطة بعلاقة اللغة بالحياة السياسية جوانب أخرى ذات أهمية قصوى كلغة رسائل التهئة والمواساة التي يصدرها الملك محمد السادس و"الخطب المولوية"، والخطابات السياسية الذيلية التي تعتبر جزءا من الخطاب الرسمي.

كما أن تحليل المفردات والتعبيرات المستعملة في خطابات محمد السادس قبل وبعد الربيع العربي ومقارنة خطاباته بخطابات والده وجده من شأنه أن يقدم لنا معلومات كثيرة عن حقيقة اللغة ووظيفتها، وتحليل التغيرات الدلالية واللفظية التي تصحب انتقال الملك، وما تولد من قيم وتقاليد جديدة يبيثها العهد الجديد في تضاعيف اللغة ليحفر مصطلحاته ومفاهيمه في ذاكرة المجتمع في الوقت الذي تغيب فيه ألفاظا وأساليب وسلوكات لغوية كان يحفل بها العهد السابق، مع ما يواكب صناعة الخطاب من أدلجة تفكير المجتمع عبر عملية إدخال المنظومات الفكرية والمقولات الخاصة بالعهد في جسم ثقافة المجتمع.

يحكم النظام المرجعي للخطاب السياسي للمؤسسة الملكية بالمغرب مستويان:

- **الأول** تشكل المنطلقات الأساسية المهيكلية للخطاب، وهو بمثابة الإطار الفكري الشامل لمبادئ عامة تحدد المواقف والآراء وأساليب العمل بالنسبة للمماساة الفعل داخل المعتقد السياسي إلى جانب باقي الشركاء/الفرقاء، بل ويضيفي من خلالها صبغة الشرعية على حركته السياسية؛
- في حين يرتبط **الثاني** بالإحالات المستعملة من طرف العاهل قصد تدعيم فكرة أو إبراز موقف تفسيراً أو تبريراً، أو تأكيد إيجابيات أسلوب عمل معين أو منهجية أو استهجان سلوك خصم في خضم بعض علاقات الصراع التي يعرفها نسق السلطة وتجاوزات فاعليها التي تتحوا أحياناً نحو الإنفعال. هذا الإنفعال يقتضي بيان نظام العلاقة التي تربط اللغة بالمجتمع.

• علاقة لغة الخطاب الملكي بالمجتمع/مجتمع التلقي :

يمكن أن أفيد من عرضي السابق لفهم طبيعة "اللغة ووظيفتها" ومدى التواشج القائم بينها وبين المجتمع بشتى مؤسساته السياسية والثقافية والمعرفية.

فقد مرّ بي أن اللغة نظام من العلامات يتوضع عليه المجتمع، بغية التواصل واكتساب المعرفة وتبادل الخبرات واستكشاف المستقبل والتنبؤ به، وكانت اللغة كفيلاً بآلياتها وإجراءاتها الوظيفية وماهيتها بالإضطلاع بهذه المهمة على أكمل وجه ممكن، وذلك ما يمكننا أن نلاحظه من تتبع دورها في الديناميات الاجتماعية والأنثروبولوجية والاقتصادية والسياسية إلخ... وهذه الدينامية والحركة اللتان تميزان الخطاب الملكي على مستوى المضامين هما اللتان تساهمان في إيجاد مساحات لتهدئة النفوس وتنفيس بؤر الإحتقان قبل أن تتطور لحراك شعبي.

لا شك أن علم النفس من أبرز مجالات العلوم الإنسانية التي تلتحم وتتداخل مع اللغة وعلومها طبيعياً وغانياً، وشكلت نظرية تشومسكي (1957) "الخلفية المرجعية لفهم تشعب دراسات اللغة في بعدها النفسي، حين أوضح في فهمه الخاص بمستويات المعالجة المتضمنة في فهم العلاقات النحوية (النحو التحويلي) أن اللغة عملية سيكولوجية نشطة تنشأ عن مجموعات سلبية من القواعد النحوية، فمهد بذلك لظهور "علم النفس اللغوي" أو "علم نفس اللغة"، فصارت اللغة فرعاً من علم النفس"¹.

وتُبرز الكلمة -فضلاً عن عملية التواصل التي يتطلّفي جانب كبير منها عملية نفسية تداولية بين طرفي الاتصال- هذه العلاقة النفس-لغوية psycho-linguistique، ذلك أن للكلمة سحرها باعتبارها أصغر وحدة من وحدات المعنى التي تتكون منها الوحدات الأخرى، العبارة والجملة والكلمة، وهي فوق هذا وذاك تتمتع بقوة سحرية خارقة، وتؤثر في نفوسنا وتعديل من سلوكنا، بسبب ما ارتبطت به من صيغة قومية وما اكتسبته من منزلة اجتماعية تقليدية.

سأقف في معرض حديثي عن سيكولوجية التلقي والأغراض الإتصالية لضمان الانضباط والإنصياع الجماهيري على المكون المعنوي للكلمة ذات الطبيعة النفسية المؤثرة في السلوك البشري، ومن ثمة النفاذ إلى نمط التعالقات النفس-لغوية.

مناطق ارتباطي بهذا تأكيد تجارب التحليل النفسي العيادي الفيرويديا لعلاقة القائمة بين اللغة وعلم النفس التي تجلت في لجوء هذا الأخير إلى اللغة، فتعاونت معه في الكشف عن مكونات النفس البشرية ومعالجة قضاياها، حيث أكدت هذه التجارب أن المكبوتات تزول بصياغتها وبلورتها لغوياً.

¹ - "العلاقة بين علم النفس واللغة"، مطبوعات الجامعة المستنصرية بالعراق.

وتشير العبارة "صياغة" إلى التركيب اللغوي، إذ يطلب المحلل النفسي من المريض تحويل ما يجيش في نفسه، أو ما يستشعر، إلى التركيب اللغوي الذي يميل الفلاسفة إلى اعتباره أكثر تأثيراً على نفوسنا من خلال ما درسناه في مقرر الباكالوريا حول "السلطة السحرية للغة".

وحيث أن الكلمات ليست إلا وسيلة واحدة من الوسائل العديدة التي تستطيع اللغة بواسطتها أن تؤثر على التفكير، فقد اهتم الفكر الفلسفي بتأثير نظام التركيب النحوي على أحكامنا وقضايانا المنطقية، وهذا ما استدعى انتقال البحث الجيو- لسانی Géo-Linguistique في الجغرافيا اللغوية (جغرافية الكلمة) إلى الجغرافيا الأسلوبية Géo-Stylistique.

إن لغة الخطاب المولوي بمعناها السيميولوجي العام تحمل التراث والذاكرة، وتحدد ملامح شخصيتنا الذاتية والقومية، وتحمل تصورات واستشرافات مستقبلية، وتعبّر إجابات واستجابات عن ما يجيش في نفوس شعب بشتى تلاوينه من إحساسات وانفعالات ومشاعر وهواجس، وهذه المعاني مفاهيم ذات صلة وثيقة بعلم النفس إذ يُعتبر المعنى من المباحث المشتركة في علم اللغة والنفس، والأكثر من هذا أن نظرية "بلومفيلد"، باعتبارها محورية في علم اللغة، قامت أساساً على التفسير الذي يقدمه السلوكيون للمعنى، بمعنى أن الظروف والملابسات التي تدفع بالإنسان إلى التكلم هي التي تُكسب كلامه دلالة معينة.

تمتد صلات المشترك المجالي بين اللغة وعلم النفس لتشمل كذلك دراسة الخصوصيات الفردية في استخدام اللغة والسمات الأسلوبية وعلاقاتها بالبناء النفسي للخطيب وشخصيته ومواضيع تفكيره وسلم أولوياته والشواهد التي يستدعيها لتبرير موقفه ولفت الانتباه وعلاقة كل هذه العمليات مجتمعة باللغة¹.

ويكشف اهتمام علم اللغة والنفس بالأسلوب وعلاقته بالشخصية عن تكريس وظيفته في الاهتمام بالعلاقات التي تُنتج "الرسالات الكلامية" وسيرة التواصل الكلامي للفرد الذي يرسلها أو يستعملها، وتتابع الصور الكلامية، بذل التقيد بحدود وظيفة الوصف والتحليل العلميين للكلام.

• لغة الخطاب الملكي والحياة الاجتماعية :

إن لغة الخطاب الملكي تترجم ظاهرة اجتماعية مشروطة بنفس ظروف وقوانين التطور والتغير المضطربين اللذين يحكمان غيرها من الظواهر الاجتماعية. وتترجع اللغة على رأس شبكة التقاليد والأعراف والعادات التي يتأسس عليها المجتمع البشري، من حيث أنها تأخذ على عاتقها مهمة التواصل، ورسم آفاق العلاقة بين أفراد المجتمع من قرابة وصداقة، لأن اللغة والمجتمع يستلزمان بعضهما البعض ويتبادلان علاقات التأثير والتأثر بشكل متجدد: وعليه، فإن العلاقة بين علم اللغة وعلم الاجتماع وثيقة إلى حد جعل بعض العلماء يعتبر الأول جزءاً من الأخير، وينطلق هذا الترابط والتلازم من مرجعية الاشتراك في قواسم كثيرة منها ما هو مفهومي ومنها ما هو لصيق بالمشكلات والميادين البحثية، لذا كان من اهتمامات علم اللغة الاجتماعي أو علم الاجتماع اللغوي socio-linguistique البحث في علاقة اللغة وتفاعلاتها مع المجتمع الذي تعيش فيه.

اهتمامي بعلم اللغة الاجتماعي ينطلق من دوره في الكشف عن قوانين علاقات التأثير بين اللغة والمجتمع، عن القوانين والمعايير الاجتماعية التي توضح وتنظم سلوك الأفراد وسلوكهم اللغوي. كعلم يدرس الطرق التي تتفاعل بها اللغة مع المجتمع والطريقة التي تتغير بها البنية اللغوية استجابة لوظائفها الاجتماعية المختلفة والتعريف بماهية هذه الوظائف، ينسجم علم اللغة الاجتماعي فيما هيته مع التغيير الذي طال البنية اللغوية لخطابات الملك محمد السادس مقارنة مع خطابات والده الراحل الحسن الثاني.

¹ - جاسم علي جاسم، "علم اللغة النفسي في التراث العربي"، مجلة الجامعة الإسلامية في عدها 154، صفحات 505 وما يتبعها

هذا الشق يدفعني للإشارة إلى أنه من ضمن الموضوعات التي يتناولها علم اللغة الاجتماعي بالبحث، فضلا عن معرفة علاقة اللغة بالمجتمع، والتواصل عبر ظاهرة الكلام، مسألة اختلاف الصيغ اللغوية المشروط باختلاف الظروف والبيئات، وهو ما عبرت عنه العبارة المأثورة عن التراث العربي "لكل مقام مقال".

ما يهم أطروحتي في حقل دراسات علم اللغة الاجتماعي في ظل خصوصية التعدد اللغوي واللهجيهو الشق المتعلق باهتمامه أيضا بالمشكلات اللغوية الناجمة عن تعدد اللغات في الوطن الواحد، ومحاولة الوصول إلى "معيّار" لغوي يتخذ أسلوبا عاما للاستعمال الوطني للغة موحّدة وموحّدة في المجتمعات التي تتميز بهذه الموزايكية، وتخلق مشكل تعدد فئات مجتمع تلقى نفس الخطاب الملكي. هذا المعطي يدفعني للحديث عن علم اللغة الأنثروبولوجي.

• علم اللغة الأنثروبولوجي :

في علم اللغة الأنثروبولوجي Anthro-Linguistique (علم الإنسان اللغوي) محاولة لرسم خريطة التنوع الثقافي والاجتماعي الإنساني عبر اللغة.

بعيدا عن النظر في لغات المجتمعات البدائية التي ليس لها نظام كتابي أو إنتاج أدبي، وباستحضار توسيع دائرة علم اللغة الأنثروبولوجي لتسع الربط بين اللغة الإنسانية والخصائص الإنسانية في عمومها، أي الخصائص البيولوجية والثقافية للنوع البشري عبر كل الأزمان وكل الأماكن، يكشف هذا الربط عن سر التنوع والاختلاف القائم بين الجماعات البشرية ذات الثقافات المتعددة وفقا لمكانتها ووضعها الاجتماعي، والرموز المستخدمة في الاحتفالات والشعائر الدينية التي تختلف بالطبيعة عن الكلام العادي.

• الإقتصاد اللغوي في استعمال لغة الإقتصاد:

لا يكاد الإقتصاد يترك شيئا في هذا الوجود دون أن يستثمره، وقد سلفت الإشارة تلميحا في سياق الحديث عن سلطة اللغة إلى أن السلوك اللغوي-الذي هو سلوك اجتماعي-مدفوع بدوافع نفسية، وأن اللغة قوة ساحرة تؤثر تأثيرا قويا على نفوسنا وتفكيرنا وشخصيتنا وحتى أذواقنا.

لهذه الأسباب، لجأ الإقتصاد إلى اللغة ليفيد منها في مجال التواصل بين الطرف العارض والطرف الطالب عبر المساومة والترويج الذين لا يتصوران خارج اللغة شأنهما في ذلك شأن المزايدات والمناقصات، بنفس لجوء صاحب الجلالة في خطابه إلى الإقتصاد في القول عند الحديث عن أوراش مهيكلية كبرى وعن نظريات اقتصادية مؤسّسة لمسار التنمية ومخطط الإقلاع الإقتصادي Plan Emergence ومخطط المغرب الأخضر Plan Maroc Vert وغيرها.

وإذا كان من القضايا والدراسات اللغوية المفيدة في هذا المجال دراسة لغة البائعين والمشتريين والوسطاء، وما يُظهرون من مغالطات وأفانين غش تبدو في تعبيراتهم اللغوية، فضلا عن لغة الإعلانات الإشهارية التي تجذب الانتباه بتشويقاتها وترغيباتها وترهيبتها وسحر لغتها التي تخاطب في الزبون غرائز وحواس تختلف باختلاف الموضوع المعلن عنه، فإني بدوري عرّجت على لغة الترويج للمنتوج السياسي وتقنيات تسويق الإنجاز الانتخابي المُخادع التي سأفرد لها مبحثا في سياق حديثي عن الأفعال الإنجازية والإدلاء المولوي الناجز في مقابل الإنجاز اللفظي السياسي المخادع.

وللغة حضورها الجماهيري في المجال الإعلامي الذي يوظفه فاعلو الحقل السياسي العمومي لكسب الرأي العام الذي يضمن بتأييده الاستقرار للحكومات وحتى للأنظمة، ويضفي الشرعية على سلوكها وتفكيرها السياسيين وممارستها السلطوية.

والأمر ذاته بالنسبة للشعوب التي تعتمد إلى اللغة لتظهر بها ومن خلالها ما تعانيه ولتضفي ببلاغة التعبير الموهل في بلاغة التلميح والسخرية الشرعية على ملفاتها المطالبية.

هذه البلاغة الجماهيرية في التعبير عن مطالب فئات شعبية في سياق الربيع العربي في نسخته المغربية اقتضى مني أن أفرد له موطئ قدم في مساحات الأطروحة.

ت- طبيعة العلاقات الناعمة بين تحليل الخطاب ولسانيات النص والتداولية

بعد تناولنا في الفصل المفاهيمي توصيفا لكيان الخطاب الملكي كمصطلح ونوع، عرجت في الفصول الأخرى عليه ككائن قابل للوصف على مستوى الشكل والصياغة، وما يمكن أن نجده من ورائه من تمرس تكرسه مهارة الصاغة في سكب المضامين وسبك المعاني، قبل أن أعالج في باب أنساق الإنسياق ما تشي به من تمرس لمكونات تجسدها الأغراض والرسائل والوسائل التي يلتقطها جمهور التلقي الذي له من الخصوصية ما يجعل صاحب الجلالة يراعي سياقات التوجه إليه، لأستخلص من منظور بلاغي -ينأى عن الخلفية النظرية ويتمسك بالآلية الإجرائية للبلاغة- مدى قدرة الخطاب على الإبلاغ وبلاغته في الإقناع ومدى تحقق شروط الإقناع في أوساط جمهور التلقي.

عندما ركزت على تحليل المستوى الشكلي في ضوء علم اللغة النصي ونظرية الاتصال، أردت أن أبلغ به فهم آليات "فقه الطاعة السياسي" من خلال "نظرية الكفاءة التواصلية للعاهل" وما تواريه أوساط جمهور التلقي من مستويات التلقي وكفاءات الفهم والتحليل والتأويل.

وحيث أن الخطاب الملكي هو الممارسة الفضلى للتواصل بين الملك وعموم شعبه ولغة تواصلهم الأولى في مقابل خطابات سياسية أخرى يحفل بها الفضاء العمومي، وهي ذات قوة وقدرة في الإدراك المشترك وسرعة الفهم والتأثير والإقناع والإقناع كمقدمات للإقلاع عن موقف ما والتوجه نحو تبني آخر، عمدت في هذا الباب على التوكؤ على حاملين نظريين هما "نظرية تحليل الخطاب" و"نظرية الاتصال"، لأنظر من خلالهما إلى بُعدين هاميين يشكلان ضلعي الفصل ضمن ثلاثية الإنساق والانساق، وهما:

- المتن الخطابي كبنية الخطاب الداخلية التي تتألف منها المفردات والتراكيب والجمل (النص)؛

- والسياق الذي ورد فيه بنوعيه "اللغوي" المرتبط ببنية النص الداخلي و"السياق غير اللغوي" الذي سأحدده على ضوء الظروف الخارجية والمؤثرات المباشرة عليه وظروف إنتاجه لأدخل فيه خصائص السياق الإدراكية والاجتماعية والثقافية والمشاركين في الحدث وارتباط الخطاب بالمكان والزمان وباقي الشروط التي أحاطت سرادقاتها بالتلقي الجماهيري للخطاب المولوي والتلاقي والإلتقائية التي تميز قول وفعل العاهل/الفاعل وتفاعل شعبه، رغم محاولات تخصيص مفاعلات الإنفعال.

يفرض الخطاب الملكي وجوده وسطوته على باقي الخطابات السياسية والخطب الوعظية بفضل هويته وهوية صاحبه.

وإذا كان تحليل الخطاب الملكي يقتضي الحديث عن تحليل الخطاب كميدان ذو حدود غير واضحة، فإن الكثير من المشتغلين في ميدانه يتفقون على تحديد الخطاب باعتباره فضاء توظف فيه العلامات أو الكلمات والنصوص في سياق ما.

وتكون مهمة تحليل الخطاب إذن هي دراسة القواعد الضمنية التي تتحكم في إنتاجه، إضافة إلى استعمال العلامات وتداولها من الناحية الاجتماعية والتاريخية.

ومن هذا المنظور فإن "العلامات لن يكون لها معنى ثابت لأن معانيها تتغير حسب السياق الذي تستعمل فيه: فإذا كانت العلامات تتغير من سياق لآخر، فإن ذلك ينطبق على كلمة "خطاب" التي يتقاسمها العديد من الباحثين في ميادين مختلفة"¹.

معلوم أن تحليل الخطاب هو سليل ثلاثة مدارس معروفة ظهرت في ستينيات القرن الماضي مثل إثنوغرافيا التواصل ولسانيات النص والمدرسة الفرنسية لتحليل الخطاب. وعلى هذا الأساس، يمكن تحديد هدفه بأنه تحليل كل منتج لغوي أو كل ملفوظ داخل سياق ما، في مقابل الدراسات الأخرى التي تسعى إلى دراسة اللغة خارج السياق.

ثم إن محاولة إنشاء ميدان بحث مستقل يكون موضوعه الخطاب، يندرج بصفة عامة في إطار التطور الطبيعي الذي تعرفه علوم اللغة بصفة عامة، واللسانيات بصفة خاصة، وذلك لما تتميز به من موضوعية واستقلالية، الأمر الذي جعلها تحدد موضوعها وأطرها المنهجية وتضبط مفاهيمها.

ولعل من أقرب الميادين إلى اللسانيات هو تحليل الخطاب الذي نجد له علاقات متداخلة مع اللسانيات، خاصة فيما يسمى بلسانيات النص أو لسانيات الخطاب.

ذهبت مع أطروحة مفادها أن الخطاب وحدة لسانية جديدة تضاف إلى الوحدات السابقة المعروفة (الفونيم والمورفيم والجملة)، وترفض أي تصور مختزل للخطاب، مستندا في ذلك إلى أن إنتاج الخطابات وتفسيرها لا يخضع لقواعد خاصة تتحكم في تركيبها وتفسيرها، بنفس رفضي للتصور العام لللسانيات الجملة ولسانيات الخطاب.

فإذا كانت لسانيات الخطاب ترى في الجملة أصغر وحدة في الخطاب، أو ترى في هذا الأخير مجموعة متتالية من الجمل، فإن التداولية ترى في الخطاب ملفوظا أو مجموعة من الملفوظات، والفرق بين الجملة والملفوظ هو الأساس الذي تقوم عليه التداولية في مقارباتها كلها.

وبالرغم من تنوع المقاربات في تحليل الخطاب، فإن جل النظريات والمفاهيم التي تنضوي تحت ذلك، تلتقي في تعريف مشترك من حيث المبدأ، وهي أن الملفوظات ليست جملا أو مجموعة متتالية من الجمل ولكنها نصوص، كما يعبر عن ذلك "غرافيتس"، بعد أن كان "هاريس" أول لساني حاول توسيع مجال البحث اللساني، بجعله "يتعدى دراسة الجملة على دراسة الخطاب، يعتبر الخطاب عبارة عن ملفوظ طويل، أو هو متتالية من الجمل تكون مجموعة منغلقة يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر، بواسطة المنهجية التوزيعية وبشكل يجعلنا في مجال لساني محض"².

وبعبارة أخرى، فإن النص في ذاته وبذاته ولذاته صيغة تنظيمية خاصة يجب دراستها على هذه الصورة بإرجاعها إلى شروط إنتاجها، خاصة وأن فهم بنية النص يستدعي لا محالة الإحالة على ظروف إنتاجه، فلا تستقيم له في هذه الحالة من التسميات إلا تسمية "خطاب".

1- خليل بولفاعة، "الأدوات النظرية في تحليل الخطاب"، مقال منشور في العدد الإلكتروني من مجلة القلم العلمي، على الرابط <http://aql.aklaam.net/show.php?id=14995>

2- إبراهيم عبد الله، إشكالية المصطلح النقدي (الخطاب والنص)، مجلة أفق عربية، بغداد، السنة الثامنة عشرة، مارس 1993، ص 56

ورغم عدم تطرق رائد علم اللسان الحديث "دوسوسير" إلى مسألة الخطاب في محاضراته حين اعتبر اللغة "نظاماً من العلامات" واعتبر اللسانيات ميداناً لدراسة اللغة لذاتها، فأقصى بذلك الجانب الفردي في اللغة وهو الجانب المتمثل في الكلام (الخطاب)¹، وأعلى من شأن وشأو الجانب الاجتماعي المتمثل في اللغة، فقد اتجه تطور التصورات في الدرس اللغوي الحديث إلى النظر إلى اللغة باعتبارها تمثل العلاقة بين الذات التي تصدر عنها وتلك التي تتوجه إليها، في إطار حركية علانقية للغة، التي تحولت في نهاية الأمر إلى خطاب بعد أن أصبح الكلام يمثل القطب الأهم في العملية التواصلية²، تماماً كما فعل "شارل بالي" في دراسته الأسلوبية، لتشكل هذه التصورات الجديدة إرهاصات لبروز مبادئ لسانية للكلام التي فتحت طريق البحث حول العلاقات القائمة بين الذات المتكلمة وخطابها والسياق.

وقد ذهب "غيوم" Guillaume إلى حد الحديث عن مفهوم "فعل الخطاب" من أجل تقديم مكانة الذات المتكلمة في سلم الأولويات، ولم يتم تجاوز المُحايدة المغلقة إلى الاهتمام بالفضاء الخطابي الأوسع عبر نص المتن الخطابي من خلال معرفة تنظيمه التركيبي والدلالي إلا مع تطور البحث عند الشكلانيين الروس ابتداء من سنة 1915، خاصة فيما يعرف بالبنيات السردية خاصة في سنة 1928، من خلال عمل "فلاديمير بروب".

كما قدم الباحث الفرنسي "بنفنيست" بحثاً حول التلطف وسيميولوجية اللغة، منطلقاً من الفلسفة التحليلية وخاصة نظرية أفعال الكلام الأنجلوسكسونية لـ "أوستن" حيث قام بإدخال موضوعاً جديدة في اللسانيات الفرنسية تعرف اليوم بتحليل الخطاب.

تلك كانت أهم مقاربات تحليل الخطاب ومفهمته أدواته وآلياته.

وعليه، ستدور المحاور التي تحمل جسد الأطروحة على الانتقال من إتساق الشكل وسياق التشكل إلى أنساق الإتصال الملكي خدمة لمأرب الإبلاغ والإقناع والإنسياق أو حتى الإنصياح الجماهيري، مع تغيير الأدوات المستعملة، وبالتالي المناويل القرآنية لفهم ذلك.

فقد ركزت في الفصول الثلاث الأولى على الخطاب المولوي لصاحب الجلالة الملك محمد السادس دون سواه، وقاربته وفق مناويل علم اللغة النصي ونظرية الاتصال، من خلال الشكل والتشكل، أو بعبارة أخرى من خلال المتن الخطابي النصي وسياقات تشكله وما تطرحه من إشكاليات مراعاة أحوال جمهور التلقي وشروط هذا التلقي.

لذلك، سأعرض في فصل أول لمورفولوجية الخطاب الملكي من خلال قراءة في الشكل ومستويات التشكل والاتساق الترتيبي والتركيبي لمتن الخطاب وبنيته الداخلية التي تتألف منها المفردات والتراكيب والجمل وتؤلف بينها، قبل أن أعرج في الفصل الثاني على السياق بنوعيه³، في أفق النفاذ إلى خصيصة الأساليب الخطابية المتنوعة والإستراتيجيات التداولية التي تعطي للمؤسسة الملكية ولخطابها مستويات قبول وإقبال وإقناع في أوساط جمهور التلقي وحمله على الإذعان الإرادي والإنسياق الجماعي أو الأحادي-الإنفرادي الذي لا يتوفر للخطابات الغيرية التي يطفح بها الفضاء العمومي.

أما الفصل الثالث، فقد أوردت فيه الحديث موصولاً عن مستويات لغة الخطاب الملكي، وتفاصيل للإجابة عن الأسئلة التالية: ماذا عن كتابة الخطب المولوية؟ وبأية لغة وأسلوب لأية مضامين وخدمة لأية

1- خليفة بوجادي "استراتيجية الخطاب الشعري عند أبي الطيب المتنبي مقارنة تداولية، رسالة ماجستير، جامعة الاغواط، السن الجامعية 2007/2008، ص. 32

2- نفس المرجع

3- السياق اللغوي الذي يرتبط ببنية النص الداخلية، والسياق غير اللغوي الذي يُعنى بدراسة الخطاب في ضوء الظروف الخارجية والمؤثرات المباشرة عليه وظروف إنتاجه، ويدخل فيه خصائص السياق الإدراكية والاجتماعية والثقافية والمشاركين في الحدث وارتباط الخطاب بالمكان والزمان.

مقاصد؟ ماهي مظاهر القوة التي تجعل الخطابات الملكية منسجمة مع قيمتها الدستورية وفق الاعراف الدستورية التي تجعل منها مرجعا لكل الفاعلين السياسيين ومناطق تكليف للحكومة لتكييف سياستها العمومية وترجمة الأهداف التي يوردها الخطاب باقتضاب وتكثيف؟ أين تبتدئ ذاتية كتاب الخطب الملكية وما هي حدودها؟ ما التقاطعات الحاصلة بين خطابات والده وأوجع القطيعة بينهما وبين خطب جده محمد الخامس؟ هل طبيعة المناسبة (عيد الاستقلال أو عيد الشباب مثلا) تحكم أسلوب ولغة الخطاب واستمراره أو قطعه مع أسلوب والده وجده في مناسبات مُماثلة؟

هذا دفعني للحديث عن امتداد ثقافة التدوين الديواني وما يسمى بالتوقيعات السلطانية في الأدبيات السلطانية العربية، وتأثر الكتابة الديوانية المغربية بالمدرستين الاندلسية والمشرقية، لأدرس وفق نفس المناويل نصوص الخطابات التي يلقيها جلالة الملك في اللقاءات والمنتديات والبلاغات الملكية والرسائل الملكية الموجهة لفئة دون غيرها على لسان أخيه صاحب السمو الملكي مولاي رشيد أو مستشاريه أو وزراء الحكومة، دون أن ينسيني الشيطان تفحص بعض المراسلات السياسية مع الملوك والرؤساء، خاصة تلك التي تخرج عن سياق التهنية، وما لمست من غلبة التحفظ اللغوي على خطابات الملك محمد السادس إذا تعلق الأمر بشؤون بلدان عربية أخرى، حتى في أوج تأزم علاقة حكامها بشعوبهم، في الوقت الذي نتذكر فيه جميعا مضامين خطاب الحسن الثاني للرئيس العراقي صدام حسين أيام غزو الكويت، وكيف استطاع بنفس مهارة صائغي بيان القمة العربية الطارئة الخروج من مأزق اختيار الصيغة الدبلوماسية الملائمة لرد الإعتداء العراقي عن الكويت وثنيه عن مخطط استمرار الغزو ليشمل الأراضي السعودية، محققا المقابلة بين مأزق الفعل السياسي والإنفراج الذي يخلقه الفعل اللغوي، وتسخير الصورة البلاغية لخدمة المقاصد السياسية والبقاء على نفس نهج اللياقة الدبلوماسية *Diplomatiquement correct* كما في العديد من اللحظات والمواقف التي اقتضت منه التحكيم بين الفرقاء السياسيين أو بين الباطرونا والنقابات ليحافظ على لياقته السياسية *Politiquement correct*.

بنفس النفس التداولي الذي ترصّدت به مناويل صياغة الخطابات الملكية واستراتيجياتها التواصلية، سأحاول في **فصل رابع** وأخير رصد السمات التي تجعل الخطابات المولوية الحُبلى بالدلالات حاملة للمعاني الأساسية، والإضافية والتأويلية ولنسب تتبع ومشاهدة ومقروئية لا تتحقق للخطابات الأخرى، مع بيان محددات قراءة مجتمع التلقي للخطاب الملكي والمستويات القرائية التي يقرون من خلالها للخطاب الملكي بالسطوة المضامينية والحظوة الرمزية في سياق الفورة الخطابية التي يمر بها الفضاء العمومي.

فكيف تستطيع هذه الخطابات الحملية للمعاني والأوجه أن تؤلف بين الآراء، وبالتالي أن تؤلف بين المصالح المتضاربة لفئات من شعبه؟ وهل متن الخطاب الملكي يحمل كما الخطابات السياسية تعدد القراءات؟ أية قراءة بأية غاية؟ ما هي خصوصيات القراءة اللسانية؟ وهل يفرض نص الخطاب الملكي نوعا من القراءة؟ ولماذا تعدد القراءات؟ هل مرّد ذلك إلى تعدد القراء في حظيرة التلقي وتباين خصوصياتهم النفسية والاجتماعية والحضارية والقبولية والإقبالية على خطاب العاهل؟ هل القراءة مستويات كما القراء أنفسهم مستويات حتى تستوي القراءة وتوفر الرسائل في الأذهان وتحملها على الإستحسان والإذعان؟

الفصل الأول

إتساق الشكل:

قراءة في التركيب والترتيب والبناء

استعنت في هذا الشق التطبيقي بعد الله بالأسلوبية لعنايتها بالإنتاج الكلي للكلام وحدها الخاص على اللغة من حيث الأثر الذي تتركه في نفس المتلقي مباشرة، تعاضدها اللسانيات في صيغتها المتطورة والمطورة التي تجاوزت مستوى التنظير في اللغة بوصفها شكلا من أشكال الحدوث المفترضة إلى مستوى دراسة الجملة بوصفها منجزا يمكننا من دراسة العبارات التي وردت فيها "بوصفها منجزا بالفعل، فضلا عن انتقالها من دائرة التركيب في بناء النص لتلامس علوما أخرى غير حظيرتها كالعلوم الاجتماعية والنفسية والفلسفة والأنثروبولوجيا والإثنولوجيا والأدب والعلوم المعرفية واللغة الآلية..."¹

وما الاستعانة بالإتصال وعلومه إلا لأنه أصبح أيضا من روافد الموضوعات التي تصب في بحر اللسانيات المعاصرة، ويعالج قضايا التواصل الإنساني من زاوية اهتمام كل منها، حتى الإتصال أو التواصل السياسي بوصفه أداة لممارسة أنماط السلوك السياسي الأساسية مثل الإقناع وتكوين الرأي العام، وتغيير الآراء والأفكار والاتجاهات والسلوك.

ولا يمكن اعتبار إبحاري في هذه العلوم والأودية ردة مقارباتية عن المقترح التداولي، لأنني في تحليلي للغة الخطاب السياسي عامة والخطاب الملكي تخصيصا انطلقت مما انطلق منه هاريس مذ مهد الطريق لعلم اللغة لتحليل اللغة فوق مستوى الجملة، فدعا في حينه إلى مستوى الجملة، مع مراعاة وحدة تحليل الخطاب (الفقرات مجتمعة أو سلسلة المقالات أو الأحاديث والمقابلات التي تشكل المادة المكونة للعينة الخطابية الملكية أيضا)، وتركيزه على تحليل اللغة في الاستخدام وربطها بسياقاتها وبمستويات تماسكها التي خدمة لتمامها الإقناعي.

إذا كان للشكل مقاربات لتناوله وادوات منهجية قائمة على منهج وصفي تحليل وفق علم اللغة النصي ونظرية الإتصال، فإن له أيضا إشكالياته للوقوف على أعتابه، ومفاتيح مفاهيمية لفتح بابه.

¹ منذر العياشي، "الأسلوبية وتحليل الخطاب"، مركز الإنماء الحضاري، الطبعة الأولى 2002، ص.9

المبحث الأول

لغة الخطاب من خلال مفاتيح علم اللغة النصي



❖ أولاً: القول الفصل في الأسئلة الجزئية النازمة للفصل

- ماذا يقصد بمظاهر الاتساق في تحليل الخطاب؟
- كيف يمكن ان نفيد من خلاصات التطور الذي عرفته نظرية الاتصال على مستوى المصطلح والأدوات لتحليل وتحديد أثرها في تحليل الخطاب؟
- ما مفهوم الاتصال السياسي وعناصره وأنواعه وأهدافه؟
- ماذا عن ماهية الخطاب السياسي وماهي عناصره وماذا عن الخطاب الملكي؟
- ما هي خصائص أسلوب الخطابات المولوية المكتوب وفق محددات مظاهر الاتساق وخدمة الأنساق التواصلية والإنسياق؟
- بالإجابة عن هذه الأسئلة، سنتمكن من تحقيق الأهداف البحثية الجزئية البحتة التالية:
- قياس مظاهر الاتساق في المتن الخطابي الملكي وقراءة مستويات أخرى من تلقيه وفهمه في ضوء نظرية الاتصال؛
- النفاذ إلى سلطة اللغة من خلال لغة السلطة وقياس قوة النفوذ والتأثير في الخطاب المولوي ومستويات توجيه مجتمع التلقي نحو الإذعان والإيمان بالفكر الملكي وصور الإقتناع والإقناع بتصوراته؛
- الكشف عن سمات التنظيم والإنتظام التي تكفل الديمومة لخطاب النظام وتبنيه واستدماجه واستملاكه، وسرعة انتشار مضامينه (بغض النظر عن تسخير وسائل الإعلام وفق مخطط إعلامي) وسياقات تحقق التأثير والتفاعل؛
- معرفة مكونات الخطاب الداخلية ومضامينه وأفكاره، والعوامل الخارجية التي أسهمت في إنتاجه والمقصود منه؛
- معرفة الأساليب الخطابية المتنوعة التي توظف لإقناع جمهور التلقي وفق مقامات الإبلاغ والإقناع وما تواريه من عوالم وعلوم "فقه الطاعة السياسي"؛
- معرفة البعد الثقافي والبعد السياسي والبعد الديني والبعد الاجتماعي للمتون الخطابية المولوية.
- بتحصيل هذه المعارف، يمكن أن أجعل من دراستي للخطابات الملكية لبنة في موضع زاوية الدراسات التي سبق أن أوردتها الحديث في سياق أهمية البحث في مقدمة الأطروحة عن نكوصها عن الخوض في "خطاب السلطة" وتنذرنا من الإنزلاق في مهاوي اللسان والمساس بالمؤسسة الملكية أو بخطابها أو بطريقة تطرقها للمواضيع وغيرها من المواضيع التي جعلت البحث الأكاديمي يطوف بالخطاب الملكي وبمضامينه دون أن يحظى بقطوفه اللغوية الدانية: وقد ألفت أن البحث الأكاديمي في باقي دول المعمور لا يشذ عن هذا التحفظ المغلف بالتوجس من طرق الباب العالي لأصحاب الجلالة والقادة أصحاب المعالي، حيث وجدت أن الباحث المصري المميز عماد عبد اللطيف توقف مسار بحثه عند خطابات رؤساء قضوا نحبتهم أو خلعوا، ووفق في بعثهم من رسمهم لوصف خطاباتهم وخطابيتهم.

❖ ثانياً: المفاتيح المفاهيمية الرئيسة للفصل

تعتمدت ألا أخلط هذه الأدوات المفاهيمية مع تلك التي سبقت الإشارة إليها تفصيلاً أو اقتضاباً في الفصل المفاهيمي للأطروحة، حتى تكون بين يدي وأنا أقف في العتبة على باب الفصل:

- **الاتساق:** سأعالجه كمفهوم دلالي يُحيل إلى العلاقات المعنوية القائمة داخل النص¹؛
- **الاتصال السياسي:** عملية نقل المعاني ذات الدلالة السياسية المرتبطة بعمل النظام السياسي، فهو الاتصال الذي يتخذ من الحدث السياسي، فعلاً أو قولاً، ورموزه، سواء على المستوى الفردي أم الجماعي أم الحزبي، محوراً لنشاطه ومعالجته.
- **الاتصال الملكي:** وينصرف إلى جميع أدوات النشاط الاتصالي الرسمي الملكي التي تعتبر أشمل من الاتصال السياسي لأن فيها خصيصة تنوع الحقول الاتصالية مع شعبه، وتحظى في جميع تجلياتها بالتتبع والإهتمام الجماهيريين والتغطية الإعلامية. حتى عندما يتعلق الأمر بالاتصال الذاتي الثنائي الهاتفي الرسمي أو الخاص (الاتصالات الهاتفية التي يجريها أو يتلقاها الملك محمد السادس من قادة الدول² والمنظمات³) أو التواصل بالكتابة (الرسائل المختلفة) أو المباشر (الإستقبالات والإجتماعات التي يخص بها صاحب الجلالة القادة أو المسؤولين والاحاديث التي يجريها معهم على انفراد)، أو الجماعي (المؤتمرات والمننديات في إطار الاتصال الدولي الرسمي) أو الجماهيري (الخطابات الموجهة لعموم الشعب المغربي).

- **الخطاب السياسي:** يعكس كلام الحكومة أو السلطة أو القادة المنطوق للهدف السياسي ويوجه إلى الجماهير في مناسبة من المناسبات، فيترجم عملية نقل المعاني ذات الدلالة السياسية المرتبطة بعمل النظام السياسي⁴، وسنورد الحديث مفصلاً عن هذا المفهوم في سياق غير سياق هذه التوطئة المفاهيمية.

- **علم اللغة النصي:** هو العلم الذي يرى بأن النص هو الموضوع الرئيس في التحليل والوصف اللغوي، وأن تحليل النصوص تحليل يتجاوز النظام إلى كفاءات الاستخدام، وأن تفسير النصوص يقوم على عناصر داخلية (نصانية) وأخرى خارجية (سياقية)، وأن النصوص تضم تراكيب خاصة، وأن طرق الوصف لا تزال في مرحلة التجريب⁵.

بدوري، سأحاور النص بلغة علم اللغة النصي لأقف بلغة واصفة على ما يميز المتن الخطابي من الداخل من ضروب النظام والانتظام قبل أن ننتقل إلى فهم مستويات وكفاءات ومقاصد الاستخدام.

¹ - خلاصة المفاهيم التي ساقها الأستاذ عاصم شحادة صالح علي في كتابه حول "مظاهر الاتساق والإنسجام في تحليل الخطاب النبوي- رقائق صحيح لبخاري نموذجاً"، ص. 2

² - نسوق نموذجاً للاتصالات الذاتية من خلال بلاغ للديوان الملكي ذكر أن جلالة الملك تلقى اتصالاً هاتفياً بتاريخ 3 يناير 2012 من ماريانو راخوي، رئيس الحكومة الإسبانية، المنتخب أبرزاً من خلاله جودة العلاقات المغربية الإسبانية المبنية على روابط الصداقة العريقة والشراكة المتعددة الأوجه وحسن الجوار. كما أعرب جلالة الملك ورئيس الحكومة الإسبانية عن إرادتهما في تعميق العلاقات بين المملكتين سواء في إطار شراكتهما الإستراتيجية الثنائية المتميزة أو على مستوى الوضع المتقدم الذي يربط المغرب بالاتحاد الأوروبي. وأكد الملك محمد السادس وماريانو راخوي، كذلك، استعدادهما لتعزيز التنسيق بشأن القضايا الثنائية، في إطار الاحترام المتبادل لما فيه خير الشعبين الجارين، وكذا لتطوير التشاور بخصوص القضايا الإقليمية والدولية ذات الإهتمام لمشترك.

³ - نجد في هذا الشأن أيضاً بلاغاً صادراً بتاريخ 29 شتنبر 2016 عن الديوان الملكي هذا نصه: "أجرى صاحب الجلالة الملك محمد السادس، نصره الله، اليوم اتصالاً هاتفياً مع المستشارة الألمانية السيدة أنجيلا ميركل. وخلال هذا الاتصال تباحث صاحب الجلالة والمستشارة الألمانية بشأن سياسة الهجرة. وفي هذا الصدد التزمت المملكة المغربية بتزويد وعقلنة تدبير تدفقات الهجرة. وبهذه المناسبة أعطى صاحب الجلالة تعليماته السامية لوزير الداخلية قصد القيام، إلى جانب فريق من الخبراء من وزارة الداخلية، بزيارة إلى ألمانيا، بغرض تسريع تحديد هوية وإعادة ترحيل المواطنين المغاربة المعنيين بهذه العملية. ومن جهة أخرى، عبرت السيدة ميركل عن قبولها دعوة صاحب الجلالة من أجل القيام بزيارة رسمية للمغرب مطلع سنة 2017"

⁴ - أحمد العايد وآخرون، "المعجم العربي الأساسي"، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم "الإيسيسكو"، ص. 404

⁵ - سعيد حسن بحيري، "علم اللغة النصي: المفاهيم والاتجاهات"، الشركة المصرية العالمية للنشر-لونجمان، القاهرة 1997، الطبعة الأولى، ص. 95

أما المفاهيم الأخرى التي تتعلق بالعملية الاتصالية، والإتصال الجماهيري، والكفاءة الإتصالية المولوية والكفاءة التداولية لجمهور التلقي، فسيرد الحديث عنها في سياقها كي لا أثقل سلسلة المفاتيح بمفاتيح لا تتيح لي فتحاً أولياً للباب الذي يلي الأعتاب.

في الخطاب الملكي كما الرسالة الملكية، نصّية ثابتة تمثلها لازمة "أيتها المواطنات أيها المواطنون، صاحب الجلالة يخاطبكم"، وتقف على ناصيتها متعاليات بينية تنصّدر فقرات النص الخطابي وتعلن محاورها.

المبحث الثاني مستويات الإتساق الترتيبي والتركيب



المطلب الأول/ مستوى الترتيب والتركيب والصياغة

يرتبط الخطاب السياسي بمجتمعه، ويعكس التفاعل بين أفراد الذين يعبرون عن أنفسهم باللغة وسيلة أولى وأولى للإتصال بينهم: فالعلاقة لا انفصام لها بين الخطاب السياسي (بشقية المكتوب والمنطوق) والمجتمع الذي نشأ فيه أو أنشئ لأجله، والمفردات ودلالاتها والتراكيب والمضامين والقيم التي يتضمنها الخطاب موارد المجتمع الذي يستخدم تلك اللغة في التعبير عن نفسه.

فاللغة هي وسيلة الإتصال الأولى تلقي بين السلطة والجمهور لما يتوفر بها ولها من عوامل الإدراك المشترك سريعة الفهم والتأثير والإقناع، وما تقوم به اللغة من دور في توجيه حياة الشعوب نحو مرامي السلطة السياسية وما توظفه هته الأخيرة من أدوات للتأثير في الجمهور وخلق التعلق الجماهيري بأهدافها وأهدافها، وتعبئة أوساط التلقي واستمالة الجموع وإقناعهم وتوجيههم نحو الأهداف التي تتغياها السلطة، بعد أن تبسط في مستهل الخطاب أحوال المجتمع لتعرج على التحولات التي تعتزم السلطة السياسية مباشرتها: فالخطاب السياسي نتاج تفاعلات وصراعات وأزمات بين المجتمعات السياسية، وتعكس خضوع الخطاب لنفوذ السلطة وتأثيرها، وهو في محصلة الأمر إفراز لمثيرات اجتماعية وسياسية Stimulus sociopolitiques تنعكس عليه حتى صار لكل مجتمع خطابه الخاص الذي يُعبر به ليعبر به نحو التعبير عنه.

وللوقوف على مكونات خطاب السلطة المكونة ومضامينه وأفكاره المصونة، كان لابد من وصف خطاب السلطة باعتباره خطابا واسع التأثير والإنتشار، دون الإقتصار على العوامل الداخلية وحدها، لأن في المكونات الخارجية التي أسهمت في إنتاجه، ستكتمل الرؤية حول المقاصد ويتحقق الفهم الذي يتناسب والسياقات الاجتماعية والنفسية والتاريخية واللغوية للصياغة التي نقش بها الخطاب الملكي مستويات ومناويل قرائية تنصرف إلى:

- مستوى الجمل (توليف)؛
- مستوى الأجزاء (تنسيق)؛
- ومستوى الخطاب (ترتيب).

❖ أولا: المتعاليات النصية في الخطابات الملوية

تبتدى الخطابات الملكية كما أشكال التخاطب الأخرى (الرسائل الديوانية الأخوانية، والرسائل الملكية للمنتديات الوطنية والدولية، ونص الحوارات الصحفية) بلازمة الحمدلة، بعد أن تصدرها صفة الجهة التي تحمل توقيعها أو تبتدى أو تنتهي بذكرها (مثلا بلاغ القصر الملكي المُعلن لخطاب سيلقيه صاحب الجلالة).

يُمكن تقسيم المتعاليات النصية في الخطب المولوية (أي العناوين المعلنة لها إن جاز لنا القول) إلى متعالية خارج نصية ثابتة تمثلها لازمة "أيتها المواطنين أيها المواطنون، صاحب الجلالة يخاطبكم"، ومتعاليات تنصدر فقرات النص الخطابي وتعلن محاورها.

يتميز الخطاب الملكي عن خطابات مجايليه، بنصوص لا تشي بضبابية المجهول، وجذوة المحتمل: فمنجزه اللفظي يقرب المواطن من واقعه ويرسم له سبل تغييره، ويستطيع المواطن من خلال المقدمات النصية المعلنة للفقرة (أما بخصوص قضية، في مجال...) وما يبسط بعدها من تحسس معالم التقرير في خريطة التغيير كما يراها جلالته.

من خلال قراءة وصفية للمقدمات النصية المعلنة للفقرة، باعتبارها ثريا لكل فقرات النص المولوي وأول لقاء إشاري إشهاري مختزل تلتقي به أذن مجتمع التلقي، من الضرورة بمكان الإشارة هنا إلى أن المقدمات النصية لازمة نصية لا تأتي اعتباطاً بقدرما تشكل كذا ذهنياً يختزل الحقل الدلالي للفقرة التي يعلن عنها، ومحطة للاستيعاب الأولى للمتلقي، وتأسيساً للوعي من خلال توظيف نسق الجملة الإسمية الدالة على الاستقرار وثبات المعنى.

من الملاحظ أن معظم المقدمات النصية جاءت من النوع الملفوظ (أي من جملة أو لفظة واردة في نسيج الفقرة أو الفقرات التي ترد بشكل تفصيلي) ووردت بحسب الصيغ الإحصائية الآتية:

- فمرة ترد مفرداً نكرة (دولياً، وطنياً، جهوياً، اقتصادياً...) لعلمه أن مسكوكات المقدمات النصية لا يمكن الإفلات من منحنياتها الدلالية، ولا سيما أننا نسلم بمقولة رولان بارت الذي يقر بأن العنوانات أنظمة دلالية سيميولوجية، تحمل قيماً أخلاقية واجتماعية وأيدلوجية، وبمعنى آخر أننا لو قرأنا هذه العنوانات قيماً نجدها لا تفارق معطيات الواقع الذي يبسط جلالته الحديث عنه بشكل تفصيلي، ويعطى تنكيرها دلالة الإطلاق دون التقيد، عدا التعريف في مواقع أخرى لتقييدها بالعلمية والاختصاص؛

- وفي أحيان عديدة، ترد بقية مسكوكات المقدمات النصية على شكل عناوين مركبة إسنادياً أو مركبة إضافياً، فتضفي هذه العناوين الجمالية المعلنة (على المستوى الدولي، وفي إطار حرص جلالتنا على تتبع الأوراش التنموية...)، أضفت على النصوص قوة وسيطرة على هيكلية المتن الخطابي، فقد أقفل الخبر المبتدأ، وأقفلت الصفة الموصوف، وكذا الحال بالنسبة إلى المضاف إليه، الذي أقفل دلالة المضاف.

فلو أخذنا نموذجاً لصيغ الفقرات الجمالية، لوجدنا أنها جاءت مرشدة إلى التأويل بالتلميح أو التصريح بصورة محايدة أو محيرة إذ أحالها جلالته إلى فضاءات مفتوحة، قيدت في انفتاحها متن فقرات النص الخطابي من أجل إيصال رسالة تشظية الخطاب ليكون موجّهاً لعموم المغاربة في الداخل والخارج بواقعية تترجم خصيصة النص الحجاجي الذي يهتم بالهم الجماعي بغية إقناع المتلقي أو التأثير فيه أو تعديل سلوكه، ضمن الفضاء الفكري والاجتماعي، بل أن هذه المقدمات النصية المعلنة لمتن الفقرة التي تدشنها تعتبر ذات محمولات ثقيلة تقريراً، وإحياءاً وتدأباً على استدراج المتلقي إلى الإفصاح عنه بالنيابة، عما يعاينيه وعن أفق الإنتظار والتساؤل وعن إمكانات الإجابة والاستجابة بنجاسة ورحابة يترجمها اهتمام مختلف أطراف مجتمع التلقي المغربي وتشكيلاته بالخطاب وبمضامينه.

أما جانب تعدد الأصوات، فيترجم تعدد الرؤى: فالخطابات في أكثر الأحيان لاتعتمد على صوت واحد، وبتباين الأصوات تتباين الرؤى ليأخذ الخطاب طابعاً ديناميكياً ويترجم رؤية ملكية شخصية في بعض القضايا واسترشاداً بالآراء الإستشارية للمجالس التي تدل صاحب الجلالة على الرأي السديد وتدله عليه: لهذا السبب، نرى جلالته تارةً يتكلم بصوت الأنا وتارةً يتكلم بصوت المخاطب أو الغائب.

كما تأتي الخطابات بالنهايات غير المتوقعة والمطاطية والفاعلية، متجاوزة بذلك سمة التوقع والنمطية والإنفعال التي تطبع الخطابات الحزبية والنقابية.

في الإنتقال بين ورقة وأخرى ضمن الورقات التي تُرد فيها فقرات الخطابات مبنوثة وفق شكل هندسي، نجد مساحات صمت توازيها مساحات بيضاء على ورق الخطاب، تُعطي للمتلقي فرصة التأويل والكتابة على الصفحة البيضاء لأن مساحات النص البيضاء هي بمثابة نصوص مفتوحة تتحمل عدة قراءات، ولا تشي بأي شكل من الأشكال بانفصام السلسلة النصية وتلاشي الحلقات الغائبة في البياض، مع ما تترجمه الحركات التقليدية للورق على عقبه من حركية وانتقال.

وأنا بصدد الحديث عن المقدمات النصية، لابد من التطرق للضرورة لطالما ظلت تلفت انتباه جمهور التلقي، مشاهدين ومستمعين، هي الاستهلال المعلن لخطاب الجلالة "أيتها المواطنين، أيها المواطنون، صاحب الجلالة يخاطبكم".

❖ ثانياً: الطقوس المرتبطة بالإستهلال والإستقبال وتهيبى شروط الإقبال

بادئ ذي بدء، لابد من عرض ما تكتسيه أهمية الجملة الأولى في التحليل النصي، فالاستهلال يحتل مكانة بارزة من حيث أهميته من ناحية، ومن حيث علاقته ببقية أجزاء النص من ناحية أخرى، وتحكمه كذلك في هذه الأجزاء.

- لعنصر الاستهلال "صاحب الجلالة يخاطبكم" كعنصر أول دور كبير، إذ أن الجملة الأولى في التحليل النصي تشكل علامة بارزة ويحتل الاستهلال مكانة بارزة من حيث أهميته من ناحية، ومن حيث علاقته ببقية أجزاء النص من ناحية أخرى، وتحكمه كذلك في هذه الأجزاء. ففي الغالب، يركز جلالاته كمرسل كل جهوده في هذه الجملة، إذ يكون ما بعدها غالباً تفسيراً لها.

كما تمثل كذلك المحور الذي يدور عليه النص فيما بعد، إذ تتعلق الأجزاء الباقية من النص بالجملة الأولى بوسيلة ما: فالارتباط واضح بين افتتاح الخطاب وما يليه من مواضيع وقضايا، وجميع فقرات الخطاب ترتبط مباشرة أو وفق علاقة سببية تعتبر تفصيلاً لما أجمله العنوان، فإنها بنيت على إجمال ما يحويه القرآن مفصلاً، فإنها واقعة في مطلع التنزيل، والبلاغة فيه: أن تتضمن ما سيق الكلام لأجله.

وبالرغم من ذلك، لا أرى طائفة من الوقوف في التحليل عند عتبة الجملة الأولى فحسب، بقدر ما أقترح أن نتعداها إلى باحة المتن الخطابي وترتيب وتراص أجزاءه، كما سيتأكد ذلك في التحليل التطبيقي.

إذن الكلمة الأولى، والجملة الأولى، بل الشذرة الأولى بالنسبة للمتن الخطابي الملكي كلها عناصر لها وظيفتها الترابطية في النص، فيذكر أحد الباحثين المُحدثين أن "الجملة الأولى في أي نص تمثل معلماً عليه يقوم اللاحق منها ويعود. وداخل تلك الجملة نفسها يمثل اللفظ الأول منها معلماً تقوم عليه سائر مكوناتها. فالمسند يقتضي المسند إليه، وهذا الأخير يقتضي الأول، وهما معاً يقتضيان متممات، فهذه حلقة أولى تنتهي دون أن تنغلق على نفسها، فهي مستقلة من حيث التركيب، ولكنها منطلق في كل شيء لما يأتي بعدها من حلقات هي جمل أخرى، وبين هذه الحلقات علاقات تخالف في نوعها العلاقات التي تحكم انتظام الجملة الداخلي، فهي علاقات انتشارية أفقية تضيف جديداً من حيث الإخبار أو البيان، ولذلك توصف الحلقة إلى جانب الأخرى لتكون عالماً ممتداً هو عالم النص"¹.

¹ - الأزهر الزناد، نسيج النص، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء الطبعة الأولى، 1993، ص 176

نفس الشيء بالنسبة للبنية الزمانية، حيث "يحكم الفعل الرئيسي... الأزمنة كلها في الأفعال أو غيرها... وفي الإحالة يحكم العنصر الإشاري العناصر الإحالية المتعلقة به كلها".

كما تمثل كذلك المحور الذي يدور عليه النص فيما بعد، إذ تتعلق الأجزاء الباقية من النص بالجملة الأولى بوسيلة ما (روابط أو غيرها).

ولن يقف بي أمر التحليل هنا أيضاً عند باحة المتن الخطابي وترتيب وتراص أجزائه، بقدر ما سيتعداه إلى استباحة استنطاق عنوان النص للبوح بأسراره.

بنفس اهتمامي بالجملة الأولى لفرادتها، سأفرد اهتماماً خاصاً لل فقرات التي تضمنت تفصيلاً لما أجمله الخطاب بكامل فقراته، لأنها بنيت بدورها على إجمال ما تحويه الجملة الأولى على سبيل الإستهلال. ويشكل عنصر الإحالة أو المرجعية العنصر الثاني من عناصر التحليل النصي.

تنبغي الإشارة في هذا المضمار إلى أنه عند دراستي للإحالة خاصة مرجعية الضمير - في المتن الخطابي المولوي، وجدت أن المحال إليه قد يكون واحداً معيناً، وهذا لا غموض فيه.

لكن، ألفت حالات كان المحال إليه متعدداً، وهنا تبرز المشكلة: فإلى أي من هذه يعود الضمير؟

لقد وجدت الحل في معرفة السياق اللغوي والسياق الاجتماعي المحيط بالنص حتى يمكن معرفة إلى أي شيء يعود الضمير.

ومن هنا تبرز أيضاً أهمية دراسة السياق وعلاقته بالنص.

معلوم أن مستويات الإحالة قد لخصها الباحثون في مستويين أساسيين هما:

- **المستوى الأول:** مستوى خارجي يقوم على وجود ذات المخاطب خارج النص، وتتوفر فيه إحالة على خارج اللغة؛

- **المستوى الثاني:** مستوى داخلي يختص بالمتن المدروس، وعناصر الإشارة تحيل إلى عناصر موجودة داخل النص، والإحالة هنا تكون لغوية. وينقسم هذا النوع الثاني بدوره إلى: إحالة قبلية وأخرى بعدية.

- وهناك **المستوى الثالث:** وهذا المستوى أشار إليه د. الزناد، وسماه بـ "الإحالة النصية" وهي إحالة عنصر معجمي على مقطع من الملفوظ أو النص، وتؤديها ألفاظ من قبيل "قصة"، "خبر"، "رأي"، "فعل".

وأرى أن هذا المستوى يندرج تحت "الإحالة الداخلية": فالكلمة مثلاً عندما تحيل على قطعة من النص، فإن هذه تسمى "إحالة خارجية".

والإحالة تمثل وسيلة من وسائل التماسك النصي، ومن ثم تتمثل أهمية الإحالة في إنشاء التماسك الدلالي للنص: فالإحالة من العناصر المؤثرة في تماسك النص، وأهمية الإحالة في تحقيق التماسك الدلالي للنص صادرة أساساً من منطلق أن الإحالة شيء رابط دلالي، لا يطابقه أي رابط بنيوي آخر.

وبالطبع، ليست الإحالة فقط هي التي تقوم بدور فعال في تماسك النص، "بل يوجد عامل تركيبى وآخر زمني".

أما العنصر الثالث من عناصر التحليل النصي فهو قائم على العنصر السابق، ويرتبط بالأهمية التي تحوزها الإحالة في باب تحقيق التماسك: فرغم أنني لا أحبذ حمل النصوص فوق طاقاتها، إلا أنني لاحظت في نص مهم لسيبويه أنه يعبر عن عملية التماسك هذه بين المسند والمُسند إليه بشكل خاص، وهما يمثلان ظاهرة بارزة من ظواهر التماسك، خاصة على مستوى الجملة، إذ تكاد أبواب النحو كلها تقوم على هذه العلاقة (المسند والمسند إليه والمتعلقات).

هذا هو معنى التماسك بمعناه الشامل الذي يفيد عدم استغناء أحد طرفي العلاقة عن الآخر. هذا المنطق الذي يحكم مستوى الجملة أجده مُحضراً على مستوى الجمل المتجاورة المتباعدة، سواء أكانت المسافة بينها متقاربة أم متباعدة.

وإن كانت علاقة الإسناد هي الأساس الذي تبنى عليه الجمل، فإن العلاقة بين جمل النص تتعدى هذه العلاقة إلى علاقات أخرى تختلف عن الإسناد الجملي. والتأكيد على العلاقة الترابطية-الإسنادية أكده علماء النص المحدثون كذلك، فأطلقوا الموضوع (المسند إليه) على المعلومة المذكورة سلفاً في النص، أما المحمول (المسند) أو الخبر فهو المعلومة الجديدة في النص.

ورب سائل يسأل: هل هذا يعني أن علاقة الإسناد تتعدى مستوى الجملة الواحدة إلى العديد من الجمل المتتابعة؟

الجواب بالإيجاب، لأنه من الممكن أن يأتي المسند إليه في الجملة الأولى، ثم تأتي المسندات المتعددة في الجمل التالية للجملة الأولى.

فقد وَطأَ الإعلام لخطاب صاحب الجلالة من خلال الإعلان عن مخاطبته للمواطنين والمواطنات بلازمة "صاحب الجلالة يخاطبكم" وما أدته أداة النداء "أيها المواطنون، أيها المواطنات" من مهام تنبيه الحضور، فطالعنا الطلعة المولوية في لحظة الانصات الملتزم للنشيد الوطني.

ولا تعتبر هذه اللحظات لحظات انتظار فقط، بل إطلاقاً للغير والنفير في أفق التذكير بهبة كل فتيان المغرب لكسر أغلال الحماية والظفر بالإستقلال والعيش الكريم في ظل شعار خالد، يتوسطه الوطن ويختمه الملك، ليكسر هذا الأخير لحظة الإنتظار ويَصِلَها بالحمدلة والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، متوجها بالكلام المباشر لرعاياه.

وينطلق خطابه مستدعياً المشاعر المتدفقة لتركيز لحظة الابتهاج التي يعيشها المغاربة تخليداً للذكرى العاشرة لتربع ملكهم على عرش أسلافه المنعمين، وأخذ في سرد الموضوعات التي سيدور حول رحاها الخطاب-الحصيلة، بنجاحاتها وإخفاقاتها.

ومن نفس اللحظة الشعورية انطلقت لاستدلالات المُجادلة جدلاً تأكيدياً يسوق المحطة تلو المحطة وكل المنجزات التي شكلت فواصل في عهده، مراوحة بين ثنائية المسارات الرائدة والمشاريع التنموية والعوائق والإختلالات، وقد ارتبطت -كالموضوعات المسرودة- أكثر بموضوعات التنمية وسياسة الأوراش الكبرى واستكمال الوحدة الترابية على حساب مقتضيات الحديث عن عيد العرش.

أما الخاتمة فقد عاد فيها الخطيب إلى ذات الحالة الشعورية المفعمة بالابتهاج مذكراً، خالصاً إلى تذكير شعبه الوفي بروابط البيعة، وتجند راعي الأمة المفعم بمحبة شعبه لصون الحقوق وتحقيق التقدم والازدهار لأبنائه في الداخل والخارج.

وجدت أن الخطابات، إلا فيما نذر، تُستهل بتنبيه الحضور (شعبي العزيز) التي يستغني عنها في كلمات الترحيب التي يوجهها جلالته لضيوفه أو للمشاركين في المؤتمرات والمنتديات، من خلال ذكره صفة المدعوين أو الحضور (أصحاب الجلالة ملوك، أصحاب السمو أمراء، فخامة الرئيس، معشر العلماء الأجلاء، حاجنا الميامين، بناتي، أبنائي الأعزاء، أعضاء برلمان الطفل...).

بعض الخطابات، بعد صمت العنوان، تفاجئ مجتمع التلقي باستهلال اقتحامي، بأساليب خبرية تقريرية وإصدار الأوامر والتوجيهات، مع شيء من استدعاء المشاعر.

- فالاستهلال استمالة (نداء، استدعاء أحاسيس، تحريك مشاعر...) واختيار، وإبلاغ، وإقناع؛

- والسرود سرْدٌ للأحداث والموضوعات والأوصاف (الدعوة إلى الأحداث والتدليل)؛

- أما الإثبات، فهو عرض الحجم (ابتكار القضية لهدف المجادلة) مع البدء بالقوية فالضعيفة فالأكثر قوة؛

- في حين تنصرف الخاتمة إلى استدعاء الأحاسيس والاستخلاص وطرح مناهج الحل والخلاص بعد تحقق الإقناع.

ويشار هنا إلى أن هذا التسلسل لا يعكس توجهها نمطياً في بنية الخطابات الملكية، لأن هناك خطابات إبلاغية صرفة، تغيب فيها التنبيهات ("شعبي العزيز أو أصحاب الجلالة والفخامة...")، وتتوارى عنها حتى المتعاليات النصية المعلنة للخطاب الملكي التي تمثلها لازمة ("أيتها المواطنات أيها المواطنون، صاحب الجلالة يخاطبكم")، فلا تتجاوز في بنائها الترتيبي والتركيبى الإستهلال بالبسملة كبنية افتتاحية، وتصدير الخطاب بالآية القرآنية المضمنة في إطار الأمثلة الدينية لتهيئة جمهور التلقي لتلقي خبر/نعي، قبل مطالعته بالبنية الدلالية الكبرى للنعي، مشفوعة بالقياس الإضماري المنطقي لاحتمية الموت وقضاء ملك الملوك أن يقضي ملك المغرب نحبه، وما يقتضيه هذا القياس المنطقي من صبر وثبات على قضاء الله الذي لا راد له، على أن يوازي الثبات على الصبر ثبات على ما عهد عن الشعب المغربي الوفي دائماً من "حب وولاء وإخلاص لهذا الملك" ("مات الملك عاش الملك-المؤسسة").

إن في الثبات على الحب والولاء والإخلاص تثبيتاً لاستمرارية المؤسسة الملكية، فذكر أجر التحلي بالصبر وأكد ضمناً على أجر هجر الردة المؤسساتية والتخلي عن الحزن، فاتحاً بذلك دلالة الأدلة الداخل نصية لإقناع جمهور التلقي بما سيلي من خلال التوكيد الذي تحمله الآية المستدل بها مرة أخرى من أي القرآن، فنزع بالقرآن وبشعب الإيمان ما لا يُنزع بالسلطان.

كما حاولت في بعض الخطابات المترجمة أن أستقي شكلها الهندسي من مظانه، بهدف تعقب نفس بنية الفقرات في لسانها العربي الفصيح حتى لا يطل الشكل الهندسي للخطاب أو الكلمة التي أُلقيت بالفرنسية تشويه أو تحوير أو تصرف، إذ يترتب عن إفردات الفقرات تقطيعات دلالية مغايرة للخطاب كما ورد في النسخة الأصلية من النص المترجم.

❖ ثالثاً: الشكل الهندسي للخطاب ومتعلقاته النصية

١- الشكل الهندسي للخطاب على الورق كمقدمة للتشكل وبنية نصه الطبوغرافية

لو تم الإعتماد جدلاً على أنموذج الخطاب الملكي المخد للذكرى العاشرة ضمن العينة الخطابية التي توكلت عليه البحث، لوجدت نفسي في حضرة خطاب من عشر صفحات، فكأنهن ورقات مرجعية لكل سنة من سنوات تربع العاهل على العرش العلوي.

أولاً هن استأثر فيها العنوان بالحظ الأوفر نفسه، تاركا للصفحات التسع الأخريات مهمة نشر معناه وإيضاحه وتبسيطه، وقد ظهرت الصفحات التسع مكونة من فقرات كبرى، تفصل بينها نجوم ثلاث، وحوت الفقرات الكبرى فقرات صغيرة أغلبها تتكون من سطرين وثلاثة، فترتب على إفادات الفقرات تقطيعات دلالية للمتن الخطابي، وترتيب متناسق على مستوى الجمل يخدم مهمة تحليل الخطاب الإقناعي للنفاذ من خلاله إلى القراءات السياسية والسوسيو-اقتصادية والثقافية المتاحة.

في الانتقال بين ورقة وأخرى، نجد مساحات صمت توازيها مساحات بيضاء على ورق الخطاب، لتعطي للمتلقي فرصة التأويل والكتابة على الصفحة البيضاء لأن مساحات النص البيضاء هي بمثابة نصوص مفتوحة تتحمل عدة قراءات، ولا تشي بأي شكل من الأشكال بانفصام السلسلة النصية وتلاشي الحلقات الغائبة في البياض، مع ما تترجمه الحركات التقليدية للورق على عقبيه من حركية وانتقال.

وأنا بصدد الحديث عن المقدمات النصية، لأبد من التطرق للضرورة لتلفت انتباه جمهور التلقي، مشاهدين ومستمعين.

وأهم ما تتميز به لغة الخطاب الملكي أن لها شق إخباري وآخر حوارى-مناظراتي غير معلن مع جمهور التلقي، ("مزيغ من السعادة بالتوجه إليك في أول خطاب لنا نلقيه عليك")؛ "حضرات السادة النواب والمستشارين..."، وتقوم على مجموعة من البراهين والحجج التي تروم الحديث عن فعل أنجزه العاهل-الفاعل أو الحديث عن الأوراش التي تقتضي تفاعلاً جماهيرياً، وانخراطاً مؤسساتياً (في الخطابات الموجهة للحكومة، للبرلمان، أو الرسائل التي يوجهها للمشاركين في اللقاءات والمؤتمرات، بما فيها الرياضية)¹.

فالإقناع في قلب الصورة الحجاجية وهو فعلها من خلال أفعال الكلام المنجزة من خلال العبارات وما تحققه بدورها من آثار ونتائج مهما كانت صفتها، لأن إيقاعها يروم دوماً تحقيق وقع على الآخر وإقناعه وفق خطاطة حوار وتواصل والتأثير في سلوك جمهور التلقي من أبناء شعبه، وفق درجات قوة كل فعل كلامي مولوي، ومن خلال خرائط منطقية في البناء والربط والعلاقات الاستدلالية التي يمثل الحجاج أبرز مظاهرها.

وترتبط قوة كل فعل كلامي مولوي بمدى تحقق أمرين في تضاعيفه: مطابقة المقام للمقال؛ والمعاني الضمنية الثابتة وراء الكلام التي لا يتم فهمها إلا باللجوء إلى السياقات المختلفة التي ترد فيها وقرائن الأحوال.

¹ - مثل الرسالة الملكية شديدة اللهجة التي وجهها لجلالته للمسؤولين عن تدبير الشأن الرياضي في المغرب وعموم المشاركين في المناظرة الوطنية للرياضة المنعقدة بالصخيرات في شهر أكتوبر 2008، تلاها نيابة عن جلالته مستشاره السيد محمد معتصم.

فلغة الخطاب الملكي وسيلة تأثيرية، تتأثر سلفا بسياقات يعيشها المواطن وترفع لجلالته من خلال التقارير اليومية وتتبع جلالته لوسائل الإعلام بثتى تلاوينها، وتقتضي أعمال آليات التحليل التداولي وتطبيقها عليها، وهذا ما سنقوم به من خلال التركيز على الأفعال الإنجازية التي أسست عليها مدار جزء من عنوان الأطروحة.

وتستغرق كل خطاب موضوعة أو مواضيع تقتضيهما طبيعة المناسبة، لترد باقي الفقرات أو المواضيع الثانوية إما للتعقيب، أو للتعليق أو الإسهام في النقاش الدائر، أو توجيه تحية إلى جهاز بعينه والإشادة بالجهود التي يبذلها المنتسبون إلى صفوفه، اللهم إذا استثنينا خطابا عمم فيه صاحب الجلالة التنويه ليشمل العديد من الأجهزة والفاعلين، ممن قضى نحبه وممن ينتظر، حين قال ("في ختام هذا الخطاب الذي نوجهه إليك بمناسبة الذكرى السادسة والأربعين لثورة الملك والشعب نود أن نجدد لك ولقواتنا المسلحة الملكية ورجال الدرك والقوات المساعدة وقوات الأمن ورجال الوقاية المدنية عبارات شكرنا على الموقف الوفي والمساندة الصادقة لنا في الفاجعة المؤلمة التي حلت بنا وبالوطن لرحيل أبينا كافة جلالة الملك المقدس مولانا الحسن الثاني نور الله ضريحه. ونحرص على أن نؤكد أننا التزاما منا بالميثاق النضالي الذي سلمه لنا والدنا بعد أن تسلمه من جدنا يرحمه الله وإياه ومتابعة للبناء الشامخ الذي أقامه وتشبثا بالآصرة المتينة التي تشدك إلينا وتشدنا إليك نحيا هذه الذكرى الوطنية المجيدة وسنواصل إن شاء الله إحياءها باعتبارها ذكرى للأمة كلها تحتم علينا على الدوام استحضار أرواح جميع المقاومين للتزود من جهادهم المتفاني والتذكير بما بدلوا من تضحيات كبيرة في شتى الأقاليم ومختلف المواقع مع إشادة خاصة بالعلماء ورجال الفكر والسياسة وطبقة العمال والفلاحين والتنويه بدورهم العظيم في تحرير البلاد ومزيد من العناية بأسرهم والترحم على شهدائهم الأبرار ودعوة العلي القدير أن يجعلهم إلى جانب والدنا وجدنا المكرمين "مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا"¹.

فالخطاب السياسي يرتبط بمجتمعه، ويعكس التفاعل بين أفراد الذين يعبرون عن أنفسهم باللغة وسيلة أولى وأولى للاتصال بينهم.

فالعلاقة لا انفصام لها بين الخطاب السياسي (بشقية المكتوب والمنطوق) والمجتمع الذي نشأ فيه أو أنشئ لأجله، والمفردات ودلالاتها والتراكيب والمضامين والقيم التي يتضمنها الخطاب إرث مجتمعي مشاع على الشياخ بين مستخدمي تلك اللغة للتعبير عن أنفسهم.

ويرى محمود عكاشة أن اللغة هي وسيلة الإتصال الأولى للتلاقي بين السلطة والجمهور لما يتوفر بها ولها من عوامل الإدراك المشترك سريعة الفهم والتأثير والإقناع، وما تقوم به اللغة من دور في توجيه حياة الشعوب نحو مرامي السلطة السياسية وما توظفه هته الأخيرة كما سلف بيانه من أدوات للتأثير في الجمهور وخلق التعلق الجماهيري بأهدافها وأهدافها.

كما اوما إلى قدرتها على تعبئة أوساط التلقي واستمالة الجموع وإقناعهم وتوجيههم نحو الأهداف التي تتغيها السلطة، دون الإقتصار على العوامل الداخلية وحدها، لأن في المكونات الخارجية التي أسهمت في إنتاجه، ستكتمل الرؤية حول المقاصد ويتحقق الفهم الذي يتناسب والسياقات الاجتماعية والنفسية والتاريخية واللغوية.

¹ - آخر فقرة من خطاب جلالته بمناسبة الذكرى السادسة والأربعين لثورة الملك والشعب

ب- تراتبية الأجزاء بين النداء-الإستدعاء والدعاء

عندما قمت بتحليل النص الخطابي المولوي وجدت أن به تضاريس ومسارب، لأنه كأي نص خطابي سياسي قابل للتقسيم إلى مقاطع، يتضمن كل مقطع منها فكرة معينة، ومن تجميع المقاطع تتجمع الأفكار الأساسية في النص.

وقد وجدت أن بعض الخطابات أو الرسائل ترد أحيانا بفكرة واحدة حاكمية ومحورية تنبثق عنها عدة أفكار جزئية ومساندة تدعمها، فيكون المتن الخطابي عندئذ ملتئما حول هذه الفكرة المحورية وتنظيمه تنظيم مركزي له تراتبية ولا جغرافية ترابية له.

هذا المعطى الطبوغرافي الأولي سأورده بمقترب لساني وصفي من خلال محور الشكل الهندسي للخطاب على الورق.

- الإنطلاق بعد الحمدلة بالإستدعاء والتنبيه العام لعموم الشعب، أو لخاصته أو لغيرهم في الخطابات التي توجه للمدعوين الأجانب بمناسبة المؤدبات التي يقيمها جلالته على شرفهم أو المشاركين (السيد، أصحاب الفخامة...) أو الكلمات التي يوجهها للمشاركين في عدد من المحافل الوطنية والدولية.

- ولا تخرج دراساتنا لجمال الخطاب المولوي عن صحة التركيب في إطار علم النحو وما وراء هذه الصحة التركيبية من مطابقة الكلام لمقتضى الحال وما تحمله القرائن من معان تفهم من السياق في إطار علم المعاني.

في هذا السياق، باستقرء أدوات النداء الثابتة ("شعبي العزيز"، "خديمنا الأرضي") أو المتحولة ("حضرات السيدات والسادة المحترمين أعضاء مجلسي النواب والمستشارين")¹ قبل ان تتحول إلى "حضرات السيدات والسادة البرلمانيين المحترمين"²، يمكن القول أن للنداء أغراضا بلاغية تنشأ من خلل علاقة المنادي والمنادى التي يحددها التركيب اللغوي الندائي.

فالتعبير الندائي الذي يهم أطروحتي يحمل مقصدا واضحا أصليا مناطه الإمعان في تنبيه شعبه وتهيئة عموم أفرادها للإنصات بإمعان.

- يلاحظ أن الخطاب الذي أعلن فيه جلالته عن انطلاق التفكير في مشروع الجهورية الموسعة، لم يبدأ كلامه كما جرت العادة بـ "شعبي العزيز"، ولكن بعبارة "حضرات السيدات والسادة": فقد وردت هذه المقدمة المغايرة لكون الملك، على غير عادته، قد ألقى خطابه أمام مجموعة من الشخصيات السياسية التي دُعيت إلى القصر الملكي بمراكش.

- فلكل مقام مقال، فيبتدى بعبارة شعبي العزيز بالنسبة لتلك التي يوجهها مباشرة إلى الشعب، في حين يفتتح السنة البرلمانية بعبارة "حضرات السيدات والسادة"، أو حتى بمناسبة تلك التي يلقيها جلالته في المحافل الدولية أو يتكلف غالبا بإلقائها نيابة عنه الأمير مولاي رشيد أو الأميرة للا مريم أو للا أسماء أو حسناء أو للا سلمى، لكن الخطاب يلقي باسم الملك، وهي نفس العبارات التي يستهل بها الملك رسائله التي يوجهها للندوات أو المناسبات المهمة التي تعقد بالمغرب، ويتكلف في غالب الأحيان واحد من مستشاريه أو فرد من العائلة الملكية أو وزير بإلقائها باسم الملك.

¹ - أداة النداء في الخطاب الذي ألقاه جلالته بمناسبة افتتاحه السنة التشريعية 1999-2000

² - أداة النداء في الخطاب الذي ألقاه جلالته بمناسبة افتتاح السنة التشريعية 2000-2001 والسنوات التشريعية التي تلتها حتى اليوم

- قبل إلقاء هذه الرسائل، يُقبل مُلقي الخطاب الملف الأخضر الذي توضع فيه الرسالة المولوية، حسب التعبير المخزني، قبل الشروع في تلاوتها أمام الحضور: وإذا كانت مقدمة الخطاب الملكي تختلف حسب السياق وحسب طبيعة الجمهور الذي يُلقى في حضرته الخطاب، فإن الثابت أنها تنتهي دائما بعبارة "والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته"، وتنتهي جل خطابات الموجهة إلى الشعب غالبا ما تنتهي بآية قرآنية قبل تحية السلام. دراسة جمل الخطاب المولوي تفيد بأنها لا تخرج عن صحة التركيب في إطار علم النحو وما وراء هذه الصحة التركيبية من مطابقة الكلام لمقتضى الحال وما تحمله القرائن من معان تفهم من السياق في إطار علم المعاني.

وللنداء أغراضا بلاغية تنشأ من خلل علاقة المنادي والمنادى التي يحددها التركيب اللغوي الندائي. فالتعبير الندائي الذي يهتم الاطروحة يحمل مقصدا واضحا أصليا مناطه تنبيه شعبه وتهيئة أفراده للإنصات من خلال:

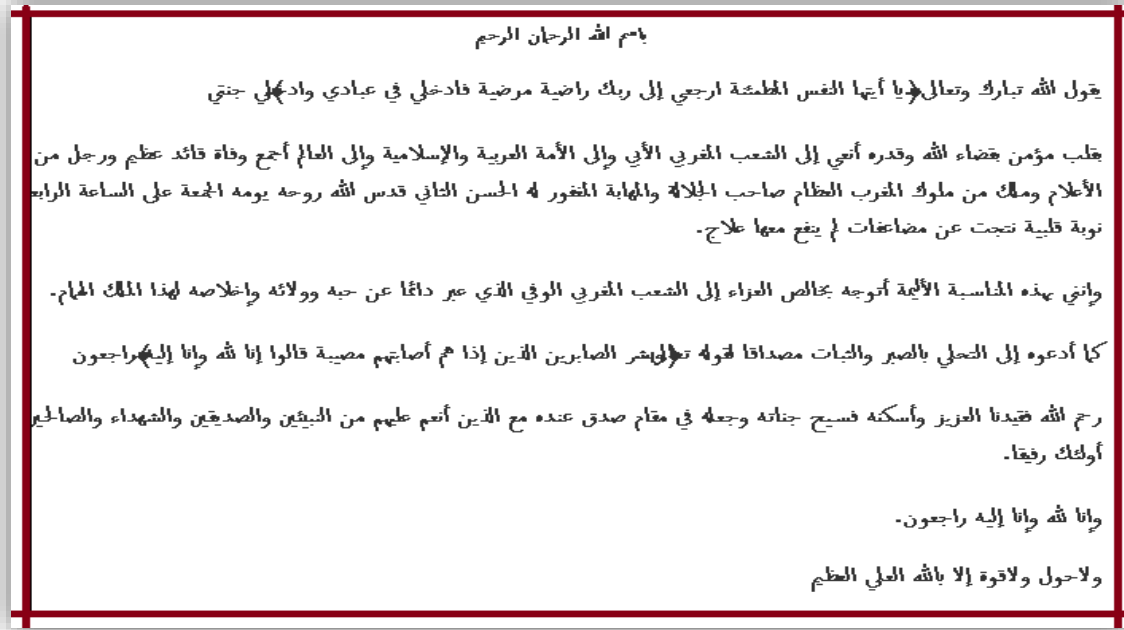
- الإستهلال؛
- عرض إفرادات الفقرات وترتيب الجمل وسرد المواضيع وفق تقطيعاتها الدلالية؛
- الدعاء.

وتقع معظم الخطابات الملكية في صفتين أو ثلاث، وتتوزع بين فقرات، تفصل بينها لازمة "شعبي العزيز... أو أصحاب الجلالة والفضامة والسمو ملوك ورؤساء.. أصحاب الفخامة، أصحاب المعالي، حضرات السادة" أو أحيانا "أصحاب السمو والمعالي، شعبي العزيز". وتتغير كثافة الفقرة التي تستغرق كلماتها نسبا مائوية من مجموع الخطاب تختلف باختلاف الأهمية التي يقتضيها الحقل التيمي في نظر جلالته، فتزداد بتردد يوافق سلم الأولويات وسلم الإختصاصات التي تشكل الخارجية حقله الملكي بامتياز، فتليه باقي القطاعات الحكومية التي يورد جلالته تعليماته التي خص بها كل قطاع وتتبع جلالته لسير إنجاز كل مشروع من المشاريع، مع إظهار وتأكيد مواقفه من عدد من القضايا، والتعديلات الطفيفة التي تقتضيها بعض سياقات الموقف أو المتغيرات.

من خلال عينة تمثيلية للمدونة الخطابية الملكية، اصطفيت منها نص الخطاب السامي الذي وجهه صاحب الجلالة الملك محمد السادس إلى الأمة بمناسبة الذكرى العاشرة لاعتلاء جلالته العرش، فألفت أن قناة البث المباشر في القطب العمومي استهلّت الخطاب بالإعلان عن مخاطبة عاهل المغرب لشعبه "صاحب الجلالة يخاطبكم" وتنبيه الحضور، فتطالع المشاهد الطلعة المولوية في لحظة الإنصات الملتزم للنشيد الوطني، فلا تعتبر هذه اللحظات لحظات انتظار فقط، بل إطلاقا للغير والنفير - كما أسلفنا- في أفق التذكير بهبة كل فتيان المغرب لكسر أغلال الحماية والظفر بالإستقلال والعيش الكريم في ظل شعارنا الخالد، قبل كسر حماسية موسيقى النشيد الملحمي من خلال لحمها بالبسملة والتوجه بالكلام المباشر لعموم رعاياه أو لمن يهمهم الأمر.

و لأن الخطاب تقريرى إقناعي، فلم يكن للصور والوجوه البلاغية حضور فيه ماعدا في قوله (بوطنهم الأم، بروح المواطنة الملتزمة، لحلول الشجاعة، سياق عالمي مشحون، درب التقدم، تحديث صرحه المؤسسي، التدابير الترقيعية، همزة الوصل): فلا غرابة إن سجلنا ندرة الزخارف اللغوية في خطاب سياسي تقريرى إقناعي بالحصيلة يتطلب الوضوح والسلامة اللغوية فقط، لا إمتاعي يفجر دلالاته ويولد جذوة جمالياته وأغراضه الاتصالية من الانزياحات والعذول عن أعراف وتقاليد اللغة اليومية، التي نستمتع إليها فينصرف ذهننا إلى المعنى دون أن نشعر بالشكل ودور التشكيلات اللفظية، على عكس لغة الإمتاع ودينامياتها.

يمكن أن فهم تمثلات هذه البنية من خلال إسقاطها على النموذج الخطابي-المرجعي التالي:



للإشارة، فقد تميز هذا الخطاب -حسب ما تم تداوله على صفحات الصحف في تلك المرحلة- بتبديد طفيف اللغز التي كانت تخيم على سماء العلاقة بين الملك محمد السادس والأمير مولاي هشام على خلفية تأويل تصريحات صدرت عن الأمير المذكور طالب فيها بـ"ميثاق للملكية بالمغرب" ما بين أفراد الأسرة الملكية بالمغرب بعيدا عن تدخلات المستشارين، وهو التصريح الذي كلفه بُعدا (أو بالأحرى استبعادا) عن المناسبات والاحتفالات التي يحضرها عموم حفدة الملك المجاهد، حتى في الصور الجماعية للعائلية الملكية.

ما بدد هذا التوتر بالأساس هو ما أورده جلالته في خطابه الذي لم يستثن أحدا بالقول "أتوجه إليك، بمناسبة الذكرى الخمسين للاستقلال، من هذا المكان التاريخي، بما يرمز إليه من ذكريات خالدة، باسمنا، وباسم كل أفراد الأسرة الملكية الشريفة، سليلة جدنا المنعم، جلالة الملك محمد الخامس، قدس الله روحه، آباء وأبناء، أمراء وأميرات وحفدة، سواء منهم من اختارهم الله إلى جواره، وفي مقدمتهم والدنا المنعم، جلالة الملك الحسن الثاني، وجدتنا المرحومة للا عيلة، وعمنا المغفور له، صاحب السمو الملكي، الأمير مولاي عبد الله، وعمتنا المشمولة بعفو الله، صاحبة السمو الملكي الأميرة للا نزهة، أو من هم على قيد الحياة، أمد الله في أعمارهم، وأصلح ذرياتهم"¹.

بقدر اقتضاب هذا الخطاب الذي توزع بين 13 فقرة بين دفتي المتعالية النصية غير المعهودة (أصحاب السمو والمعالي، شعبي العزيز) والتسليم، بقدر طول الخطابات التي أتت في سياقات الذكرى العاشرة أو غيرها من الخطابات التي جاءت في سياق خاص.

ولولا ضيق مساحة البحث وأولوية اللغة على لغة الأرقام، لحصرت لو غاريتمات الخطاب الملكي وفق تشكّلها الهندسي لننفذ من خلالها إلى الهندسة التدبيرية والتوجيهية للشأن العام والملفات الكبرى، في ظل نكوص وهواية وغواية التدبير القطاعي لبعض أطراف التشكيل الحكومي.

¹ - من نص الخطاب المقتضب الذي ألقاه جلالة الملك في ساحة ضريح محمد الخامس تخليدا لخمسينية عودة الملك الراحل محمد الخامس وعيد الاستقلال.

إحصائيا، يتراوح طول الخطابات الملكية بين 765 كلمة كقيمة إحصائية دنيا لخطاب ساحة ضريح محمد الخامس المخد للذكرى الخمسين لعودة الملك الراحل محمد الخامس وعيد الإستقلال وحد أقصى بلغ مداه ومنتهاه 2510 كلمة في الخطاب المخد للذكرى لعيد العرش، بما فيها صيغة السلام الأولى والأخيرة (أو التوقيع الملكي المشفوع بالصفة إذا تعلق الأمر برسالة صادرة عن جلالتة)، ولقطة شعبي العزيز التي تكررت في العديد من المرات، لتلعب دور قنطرة العبور السلس من مجال على آخر، ومن فقرة إلى فقرة من الفقرات المضامينية الكبرى التي ربت عن الخمسين فقرة صغرى مترابطة فيما بينها تيميا، في مقابل تمدد فقرات أطول خطاب لتصل 91 فقرة.

يذكر في هذا الصدد أن الخطاب الذي ألقاه بمناسبة الذكرى الخامسة عشرة لعيد العرش يشكل أطول خطاب يلقيه صاحب الجلالة بمضامين جد قوية: فقد تطلب الخطاب من جلالتة ساعة ونصف من الإلقاء، وتميز بإلقاء اللائمة على القائمين على تسيير شؤون المواطنين، وعبر بعفوية غير مسبقة عن الأخطاء التي ارتكبها لأنه يستشير مستشاريه قبل اتخاذ القرار، وان قراراته معرضة للخطأ.

فبعد أن ساق بلغة الأرقام ما تحقق من منجزات، أردف بأن أرقام المشاريع الكبرى تظل غير ذات معنى ولا ترقى إلى مأرب رضا جلالتة مادامت لا تحقق الإستفادة للشعب المغربي.

وعكس الخطاب تصور الملك لهندسة الدولة كما سلف الذكر أعلاه: فهو يذكر بسمو العرش وكونه المؤتمن على قيادة الشعب، وأن هذا الأخير مباح له لتقلد هذه القيادة، قبل أن يشيد في نفس الفقرة بتجربة الحكومات السابقة ويعتبر إرثها إيجابيا، وهذا منطقي لأنه في تصوره -وفي الواقع أيضا- هي أدوات تشتغل بحرية غالبا بموجب مشاريع حكومية تحوز الموافقة والمصادقة البرلمانية، وتسترشد بالأطر المرجعية الاعتبارية للتوجيهات الملكية كما تترجمها لازمة "حكومة جلالتنا" كما ظلت مستمرة في التقاليد المرعية وزكاها التجسيد الدستوري لترأس جلالة الملك لأشغال مجلس الوزراء.

وتتغير كثافة الفقرة التي تستغرق كلماتها نسبا مائوية من مجموع الخطاب تختلف باختلاف الأهمية التي يقتضيها الحقل التيمي في نظر جلالتة، فتزداد بتدرج يوافق سلم الأولويات وسلم الإختصاصات التي تشكل الخارجية حقله الملكي بامتياز، فتليه باقي القطاعات الحكومية التي يورد جلالتة تعليماته التي خص بها كل قطاع وتتبع جلالتة لسير إنجاز كل مشروع من المشاريع، مع إظهار وتأكيد مواقفه من عدد من القضايا، والتعديلات الطفيفة التي تقتضيها بعض سياقات الموقف أو المتغيرات.

ويُرد ضمن المتعاليات النصية التي سبق بيانها أيضا الإعلان المُعلن للخطاب ولعنوانه ومناسبته.

❖ رابعا- الإعلان المُعلن للعنوان ولل فعل الخطابي من خلال لازمة "صاحب الجلالة يخاطبكم"

يمكن تقسيم المتعاليات النصية في الخطب المولوية (أي العناوين المعلنة لها إن جاز لنا القول) إلى متعالية خارج نصية ثابتة تمثلها لازمة "أيها المواطنات أيها المواطنون، صاحب الجلالة يخاطبكم"، ومتعاليات تنصدر فقرات النص الخطابي وتعلن محاورها.

ولا يثير هذا الشق أية ملاحظات أو تعليقات، اللهم إذا استثنينا الوظيفة الإنتباهية التي سيرد الحديث عنها في سياقات أخرى، فضلا عن توظيف أدوات النداء.

بالمقابل، يمكن أن أسجل بمنظار مقارنة النوع توجه الملك إلى عموم المغاربة، نساء ورجالا، شيبا وشبابا، في الداخل والخارج.

وقد سبق تمثيل التحليل الشكلي من خلال إسقاطه على عينة تمثيلية جسدت الصفحات العشر من الخطاب المخد للذكرى العاشرة لعيد العرش.

كما سلف القول بأن جل الخطابات لا تحمل عنوانا، اللهم ذلك البلاغ الذي يصدر عن التشريفات والقصور والأوسمة وتتناقله وسائل الاعلام، ويربط بين الخطاب والمناسبة، وبالتالي بينه وبين الجمهور المستهدف.

كما أومأت سلفا إلى أن العنوان يعتبر أول ما نلاحظه، ويتميز بنسب الخطاب إلى مناسبه وإلى قائله، مع بيان الوصف الذي يخاطب به شعبه، من خلال بلاغ مقتضب صادر عن الديوان الملكي يذكر بالغرض الاتصالي والمقام السياقي، ويضمن الإعداد النفسي للرعايا للإنصات ومتابعة السياقات النصية والمقامية والاتصالية والدلالية للخطاب ويحضهم على التواجد في الموعد المحدد للبث.

فالعنوان يحمل مساحة للتحرك في فلكه والإلتزام بلوازمه وترابطاته وإيحاءاته وتداعياته الدائرية الحركة التي توجه القارئ (كما المستمع والمُشاهد) إلى أن الخطاب مثلا هو "خطاب عرش".

ويظل العنوان حاملا مضمونيا ومحمولا سياقيا، وفي البدء كان العنوان، يمكن الوقوف عنده على اعتبار أنه مرجع يتضمن بداخله العلامة الدالة على المعنى، لنرى فيه قصدية الخطاب ككل ومناسبه لأنه النواة المتحركة التي خيط بها نسيج المتن الخطابي الملكي.

فهو إلى حد ما عنوان تيماتي، إستعاري يحيل على محتوى النص بطريقة رمزية، خاصة في بعض نصوص الخطابات الملكية التي أتت أحادية الحقل التيمي¹.

المطلب الثاني/ عناصر وأدوات الاتساق

أما بخصوص أدوات الاتساق داخل متون الخطابات الملكية وخارجها، فقد اعتمدت بعضا من "عناصر الاتساق الأربعة"² التي أوردها عاصم شحادة صالح علي في تحليل مظاهر الاتساق والانسجام في الخطاب النبوي: الإحالة والاستبدال، والوصل والفصل والعناصر المعجمية، وهي العناصر التي أفدت منها في منهجية تحليل مستوى اتساق الشكل.

1. **الإحالة بنوعها** (الإحالة المقامية التي تحيل إلى خارج النص والإحالة النصية المقالية التي تحيل على أجزاء داخل النص) و**عناصرها** (الضمائر وأسماء الإشارة). هذه العلاقة الدلالية التي لا قيود نحوية عليها توفرت في الخطاب على نحو متردد لأنها لا تتطلب سوى التطابق الدلالي بين المحيل والمحال إليه (ضمائر، أسماء إشارة، أدوات مقارنة).

¹ - (الخطاب الملكي الموجه للأمة في 29 ماي 2003 غداة الاعتداءات الإرهابية الغاشمة التي ضربت الدار البيضاء؛ "صاحب الجلالة أمير المؤمنين محمد بن الحسن بنعلي والده جلالته المغفور له الحسن الثاني"؛ "صاحب الجلالة الملك محمد السادس يوجه كلمة سامية إلى الأمة بمناسبة حلول الذكرى الأربعينية لوفاته جلالته الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه وانتهاء فترة الحداد"؛ "رسالة سامية إلى الحجاج المغاربة بمناسبة توجه الفوج الأول منهم إلى الديار المقدسة لأداء مناسك الحج"؛ "نص الخطاب الذي ألقاه صاحب الجلالة الملك محمد السادس في قمة أهداف الألفية للتنمية المنعقدة بنيويورك"؛ "نص الخطاب الذي ألقاه صاحب الجلالة أمام القمة المغربية الخليجية المنعقدة بالرياض"؛ "الخطاب الملكي بمناسبة تأسيس المعهد الملكي للأمازيغية بأجدير" أو "صاحب الجلالة الملك محمد السادس يوجه رسالة سامية بمناسبة انطلاق الموسم الدراسي الجديد"؛ "الرسالة السامية التي أعلن فيها جلالته الملك محمد السادس عن مجموعة من الإجراءات للتخفيف من آثار الجفاف"؛ "الرسالة السامية التي وجهها صاحب الجلالة إلى المشاركين في الأمسية التأبينية المنظمة في ذكرى توديع الراحلة أسية الوديع"...

² - عاصم شحادة صالح علي، "مظاهر الاتساق والانسجام في تحليل الخطاب النبوي -رقائق صحيح البخاري نموذجا"، بحث تكميلي غير منشور لنيل دكتوراه العلوم الإنسانية في اللغة العربية وآدابها، لدراسات اللغوية، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، نونبر 2003

باعتبارها عنصراً من عناصر التحليل النصي، تطرح الإحالة أو المرجعية صعوبة دراستها، خاصة "مرجعية الضمير": فإذا كان المحال إليه واحداً معيناً، فالأمر لا يحتاج إلى كبير عناء، أما إذا كان المحال إليه متعددًا، تطرح مسألة الجهة التي يعود الضمير.

لذلك، لا ملجأ ولا مفر من معرفة السياق اللغوي والسياق الاجتماعي المحيطين بالنص إلا بها، حتى تتاح معرفة إلى أي شيء يعود الضمير. ومن هنا تبرز أيضاً أهمية دراسة السياق وعلاقته بالنص.

أما مستويات الإحالة، فهي على مستويين أساسيين هما:

- **المستوى الأول**، مستوى خارجي يقوم على وجود ذات المخاطب خارج النص وتتوفر فيه إحالة على خارج اللغة.

- **ومستوى ثانٍ**، داخلي، يختص بالنص المدروس، وعناصر الإشارة تحيل إلى عناصر موجودة داخل النص، والإحالة هنا تكون لغوية. وينقسم المستوى الثاني بدوره إلى إحالة قبلية، وإحالة بعدية؛

- فضلاً عن مستوى ثالث أشار إليه الزناد هو "الإحالة النصية"¹، وهي إحالة عنصر معجمي على مقطع من الملفوظ أو النص، وتؤديها ألفاظ من قبيل "خبر"، "رأي"، "فعل".

وتمثل الإحالة وسيلة من وسائل التماسك النصي، ومن ثم تتمثل أهمية الإحالة في إنشاء التماسك الدلالي للمتن الخطابي الملكي، فلا يطابق أي رابط بنيوي آخر دورها في تحقيق التماسك الدلالي.

وبالطبع، ليست الإحالة وحدها من يقوم بدور فعال في تماسك النص، بل يوجد عامل تركيبية وآخر زمني.

وتجسدت أدوات الاتساق النصاني وخارج النصاني من خلال الإحالة واستعمال ضمير الوجودية (أو كما يطيّب للمشاركة تسميته بضمير الشأن) في الخطاب في مواقع كثيرة من الخطابات ("إن سياستنا نحوها هي سياسة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل"..." "يحتجزونهم في المخيمات"..." "ولينصرن الله من ينصره"..." "فهي امتداد للروابط المتينة بين العرش والشعب"...) وتعاونهم في سبيل بناء لبنات المغرب الجديد... فاستعمال جلالته ضمير الفصل "هي" في الجملة الأولى التي أوردناها على سبيل المثال جاء للدلالة على ثبات الموقف والتوجه التنموي الذي انتهجه صاحب الجلالة، وكأنه يقول "إن سياستنا نحوها هيّ هيّ، سياسة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل". فقد أورد ضمير الفصل تلك لتفادي تكراره، وفي إطار حرص جلالته على تكرير خطاباته وتصفياتها قبل الإفضاء بها.

فماذا عن الوصل بالعناصر المعجمية (داخل النص)؟

2. الوصل بالعناصر المعجمية (اللفظ المشترك، التضام)، فبنية النص تحكمها هذه العناصر السياقية، ورغم ما لفكرة عنصر "النظم Texture" كمكون يتحكم في علاقات المعاني داخل النص ويكون وحدتها ويمكن استقصاؤه من خلال بعض العوامل اللفظية والنحوية. وعلى الرغم من أن النظم يخضع لبعض القوانين المحددة في الاستخدام العلامي للغة، فإن الحكم يخضع في النهاية إلى تقدير المستمع من حيث هو الذي يتلقى الرسالة وتنتهي أهدافها في عقله. فظاهرة التكرار في الخطاب الملكي لم ترد كما ترد في الخطابات السياسية المرتجلة أو المقروءة، اللهم في بعض المواقع حيث تكررت من خلال إعادة عنصر معجمي أو مرادف له أو شبه مرادف وعنصر مطلق واسم عام، لتعبر عن التكرار أو التكرير كشكل من أشكال الاتساق المعجمي بشقيه (التضام والتكرار أو التكرير).

¹ - الأزه الزناد، نسيج النص، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1993، ص 176

ومثال على ذلك، توارد لفظة "قضية" في قول جلالته "إن قضية الصحراء تظل قضيتنا الوطنية الكبرى"، لاستثمار وقع تكرار الكلمة نفسها أو إعادة العنصر المعجمي بذاته ولذاته للفت انتباه جمهور التلقي إلى ملف لصحراء والرد الضمني على من يعتبرون ما يبذل خدمة لقضية وحدتنا الترابية هدرا للمال والجهد لأن تكاليف الملف أكبر من عائداته". كما تكررت كلمات وعناصر معجم أخرى بنفس تكرار مرادفات لها أو أشباه مرادفات ("موقفنا لا يتغير ولا يتبدل"، "لن يهدأ لنا بال ولن تفر لنا عين"، فضلا عن تكرار الإسم العام كما في قول جلالته "في يوم من الأيام"، لن تكون "وسيلة من وسائل"، "جنبنا إلى جنب"، "شعبي العزيز، أبناءنا، إخواننا المحتجزين في المخيمات"...).

فإذا كان الشيء بالشيء يذكر، فإن ذكر العناصر نفسها التي تنتمي للقسم العام يحيلني لزوما على تلازم كلمات وعناصر معجم وتضامها لتفديد التعارض.

3. التّضام / التلازم، ورد التعارض في قول جلالته "لا تزال تعترضه عقبات وعراقيل"، وهما لفظين من العناصر نفسها التي تنتمي للقسم العام: فكلاهما من عناصر القسم العام نفسه، كما في استعمال جلالته "تحمل تبعات ومسؤوليات الأمانة العظمى" ليقصد بهما الكل-الجزء.

4. الاستبدال، كعملية داخل-نصية يقوم على تعويض عنصر في النص بعنصر آخر، وعلى علاقة بين عنصر متأخر في النص وعنصر متقدم (علاقة قبلية في الغالب).

وقد وردت في العديد من الخطابات استبدالات إسمية وأخرى قولية من خلال استعمال العنصر اللغوي "غير" ضمن زمرة الاستبدال الاسمي "غير أن جلالتنا واعون بالدور الذي تبذله المصالح الأمنية".

كما يمكن أمثل للاستبدال القولية من خلال إحدى الشذرات التي استقيتها غضة طرية من خطابات جلالته حين قال "هذا عهد قطعناه وهدف نداب على تنزيهه" والذي يعود على الجملة السابقة التي ترتبط بدورها بخطاب سابق في مناسبة سبقت، لأن الخطابات تبر عن التزامات ملكية تسموا عن المخادعة أو استثمار نسيان الذاكرة الجماعية ("وفي هذا الصدد، وكما وعدنا في خطاب العرش، فإننا سننكب كذلك على ملف التعليم في ضوء مشروع الميثاق الذي أنجزته اللجنة الملكية الخاصة للتربية والتكوين"¹)؛ "وحرصا من جلالتنا على ترسيخ الصرح الديموقراطي وجعله أساسا متينا لما نتوخاه من إقلاع اقتصادي وتأزر اجتماعي، فإنه يسعدنا، كما وعدنا بذلك شعبنا العزيز في خطاب العرش، أن نتناول هذا الصرح بالتحسين منطلقين من قاعدته الأساسية المتمثلة في الجماعات المحلية"²؛ "إننا متضامنون مع الولايات المتحدة لمحاربة الإرهاب وهذا أمر مفروغ منه بالنسبة لنا"³، فاستعمال إسم الإشارة "هذا" في هذا السياق يعود على الجملة السابقة، وهو من اتساق النص لأن مفهوم الجملة يتم عند النظر إلى الجملة التي سبقتها، وليكتمل المعنى المقصود في الخطاب، فيستطيع جمهور قراء الحديث الصحفي الذي خصّ به الصحافية الفرنسية الشهيرة "آن سانكلير" استكمال المعنى المشار إليه آنفا.

5. الحذف، يُعد إسم الإشارة "هذا" في الخطاب من أساليب الحذف، فلو اعتمدنا الشذرة الخطابية التي سقتها للتو في معرض حديثي عن الاستبدال القولية، يمكن أن أقرأ نفس الجملة وفق أدوات الإتساق على أن إسم الإشارة "هذا" في الخطاب ورد كأسلوب من أساليب الحذف، ف"هذا أمر مفروغ

¹-نص الخطاب الذي ألقاه جلالته الملك محمد السادس بمناسبة الذكرى السادسة والأربعين لثورة الملك والشعب

²-نص الخطاب الذي ألقاه جلالته الملك محمد السادس بمناسبة افتتاح السنة التشريعية 2000-2001

³-من نص الحديث الصحفي المطول الذي خص به جلالته أسبوعية "باري ماتش" الفرنسية

منه"؛ ويمكن اعتبار إسم الإشارة "تلك" أيضا ضربا من ضروب الحذف داخل النص فأشار له بـ "هذا" على سبيل التوكيد: فالمحذوف هنا يشير إلى جملة سابقة، عبر عنها جلالته بقوله "هذا أمر مفروغ منه"، والجملة السابقة التي يعود إليها "هذا"، تفيد موقف المغرب المتضامن "مع الولايات المتحدة لمحاربة الارهاب"، واستخدام جلالته هنا لحذف الكلام ليشير إليه بـ "هذا" جاء للتوكيد ورد لتأكيد المعنى الذي يقصده لأنه معلوم لدى الصحفية التي تحاوره، ومن ورائها من سيقراون العدد الخاص لباري ماتش.

وقد ورد عن جلالته أيضا في حديث آخر خصّ به جريدة التايمز الأمريكية الشهيرة قوله: "أعرب عن امتناني لوادي طيب الله ثراه الذي حرص على أن ألتقى دراستي بالمغرب وليس بالخارج وذلك حتى أكون ملما بشكل أفضل بحقائق بلدي"، وفي خطابه بمناسبة الذكرى السادسة والأربعين لثورة الملك والشعب "وكان الشعب المغربي المخلص على امتداد هذه الفترة مفعما بروح محمد الخامس الجهادية فأجمع على رفض ما أراد الاستعمار إجباره عليه وصمم بإصرار على متابعة نضاله بالتضحية والفداء حتى يرجع ملك البلاد": استخدم جلالته أدوات تفيد ضرورة الرجوع إلى شيء محذوف قبله (الدراسة بالمغرب بدل الخارج في المثال الأول ومتابعة النضال والفداء بعد نفي محمد الخامس وعائلته) حتى يرجع الملك المنفي وحتى يلم المكلف بولاية العهد بما تقتضيه أمانة الإستخلاف في الملك من إلمام بحقائق بلده.

فالمحذوف يشير في المثال الثاني خصوصا إلى أهداف الإنتفاضة الشعبية المتمردة على المستعمر، حيث أشار جلالته إلى صلة الموصول الذي يشير إلى الشعب ونضاله من أجل العودة، دون أن يشير إلى واقع النفي أو الجهة التي تم نفي محمد الخامس إليها حتى يعود منها لعلم جلالته أن جمهور التلقي والمناسبة شرطان للفهم انطلاقا من السياق، وأن الفهم والمعرفة التاريخيين لوجهة النفي (كوؤسيكا ومدغشقر) متحصلان سلفا عند كل مغربية ومغربي.

يُشار أن للحذف دورا في اتساق النص وفي توخي الإيجاز الذي يشير إليه العنوان الفرعي لأطروحتنا، وإن كان هذا الدور مختلفا من حيث الكيف عن الاتساق بالاستبدال أو الإحالة، فهو يقوم بعملية داخل نصية جد عمليّة، قبلية غالبا، تميزه عن الاستبدال بكونه استبدالا بالصر، ويتميز أيضا عن الحذف بكونه لا يترك أثرا، ليترك لمتلقي الخطاب وقارئه فرصة ملء فراغات المتن الخطابي المولوي: فالحذف بالفهم الذي قدمه هاليداي يفترض وجود عنصر مفترض في النص السابق؛

6. الوصل وضمائر الفصل والعطف، تضمنت الخطابات الملكية إشارات موجهة إلى البحث

عن المفترض فيما تقدم أو ما سيلحق وتحديد طريقة ترابطهما، وكان العطف سببياً وإضافياً وعكسيا وزمنياً.

فقد تحددت بعلاقة الوصل طريقة ترابط اللاحق بالسابق بشكل منظم، مستبطنة الدلالة على اتصال المعاني باتصال المباني ومثانة الصلات والعلاقات والتعاليقات بين العرش والشعب. وقد وجدنا جميع أطراف الوصل الأربع في السياقات التالية:

- بخصوص الوصل الإضافي الذي يتم الربط فيه بواسطة الأدوات "و" و "أو"، فكل تضاعيف الخطاب تشي باستعمال أدوات الوصل الإضافي على نحو يجاوز احتمالات الحصر في جدول، وإن كانت "أو" ترد بشكل أقل لأن الخطاب الملكي لا يرد باستراتيجيات تماثل الخطاب الإشهاري القائم على اقتراح البدائل، بقدر ما يرد بأجوبة جاهزة وتصورات نهائية. وعليه، نجد أن حرف العطف "أو" لا يفيد التخيير والتقدير إلا في مواقع متفرقة من الخطابات الملكية ("تتوخى المبادرة أيضا تعزيز عمل

الدولة والجماعات المحلية دون أن تشكل بديلا لبرامج القطاعات الوزارية أو مخططات التنمية الاقتصادية والاجتماعية للجماعات المحلية؛ "وسنلي هذا المشروع ما هو جدير به من عناية... وفتح أبواب الشغل مشرعة أمام شبابنا الناهض وحثهم على الاجتهاد والابتكار وأخذ المبادرة في غير توان أو تواكل"، "لقد خاض رضوان الله عليه جهادا... لم يجد الاستعمار غير التآمر على الشرعية وطلب من رمز الأمة أن يتنازل عن العرش أو ينفى خارج البلاد"، "لذا فإننا نقديرنا منا لهذه المسؤوليات الجسيمة التي تفرضها علينا الأمانة العظمى وتشبثا بالمقدسات الدينية والوطنية وحرصا على تدعيم المؤسسات وتقويتها ندعو الجميع بحزم وصرامة وبدون لين أو هوادة إلى لزوم مقتضيات دولة الحق والقانون في إطار الحريات التي يضمنها الدستور للأفراد والهيئات وفي نطاق القوانين الإجرائية التي تضبط ممارسة هذه الحريات والتمتع بسائر الحقوق والتي يفضي خرقها أو الإخلال بها إلى التعرض لما تقتضيه القوانين الجاري بها العمل"، فقد وردت "أو" في هذه السياقات لا للتخيير، بل لتأكيد الصرامة وللإيحاء لجمهور التلقي بعدم التراجع عن اختيارات العهد الجديد¹.

كما يمكن ملاحظة غياب باقي الأدوات التي تندرج ضمن المقولة العامة للوصول الإضافي، مثل التماثل الدلالي المتحقق، ويظل **الوصل بالعناصر المعجمية** حاضرا في مثال توارد لفظة "قضية" في قول جلالته "إن قضية الصحراء تظل قضيتنا الوطنية الكبرى"، لاستثمار وقع تكرار الكلمة نفسها أو إعادة العنصر المعجمي بذاته ولذاته للفت انتباه جمهور التلقي والتكرار.

ويمكن ملاحظة الربط بين الجمل بواسطة تعبير من نوع "بالمثل"، أو علاقة الشرح والتعابير التي تُفيدها (أعني، بتعبير آخر، بصيغة أخرى)، أو علاقة التمثيل التي يجسدها تعبير "مثلا"... لأن خطابه يفترض أنه واضح ولا يحتاج لمعاجم ولا إلى طلاس لفهمه، اللهم إذا استثنينا استعمال جلالته تعبير "مثلا" في خطاب العرش "وهنا أستحضر المشاكل التي تعيشها بعض المدن كالدار البيضاء مثلا، التي أعرفها جيدا... فرغم أن ميزانية المجلس الجماعي للدار البيضاء تفوق بثلاثة إلى أربعة أضعاف تلك التي تتوفر عليها فاس أو مراكش مثلا، فإن المنجزات المحققة بهاتين المدينتين في مجال توفير وجودة الخدمات الأساسية تتجاوز بكثير ما تم إنجازه بالدار البيضاء... **وخير مثال** على ذلك ما يعرفه مجال التطهير من خصائص كبير؛" "ففي العديد من القنصليات مثلا، لا يتم إخبار المواطنين بالأخطاء، التي تقع في الوثائق، بسبب غياب آلية متابعة الملفات، إضافة إلى التعقيدات الإدارية التي يتطلبها تصحيح أي خطأ؛" "فالأمن والاستقرار مثلا، هما أساس الإنتاج والثروة؛" "فالاتحاد الأوروبي مثلا، كان ولا يزال يعرف بعض الخلافات بين أعضائه؛" "وخير دليل على ذلك، تزايد عدد الشركات الدولية، كمصنع السيارات "بوجو" مثلا، والشركات الصينية التي ستقوم بإنجاز المشروع الاستراتيجي للمنطقة الصناعية بطنجة؛" "ولابد لها اليوم أن تصبح نموذجا لبناء نمط استهلاك وإنتاج جديد، إن لم نقل أنها ستصبح مثلا يُحتذى به في مجال مكافحة التغيرات المناخية؛" "بالإضافة إلى ذلك، فأنا أريد أن أطلع على الأمور ميدانيا بنفسي وأن أقف على واقع بلادي. فمدينة أكادير مثلا تحظى بكل اهتمامي؛" ..

- نجد أيضا حضورا لأدوات **الوصل** التي تعكس عكس مساحات التوقع، من قبيل "غير أنه"، "إلا أن"، "ورغم ذلك"، ("إلا أننا متطلعون إلى توسيع آفاق النمو؛" "يقتضي توالي أزماتها المزيد من اليقظة والحزم والعقلنة... إلا أن ذلك لا ينبغي أن يكون مبعث ارتياح ذاتي؛" "واعتبارا لمكانة الدار البيضاء كقاطرة

¹- فقد تم استيقاء هذه الشذرات الخطابية من أول خطاب للعرش، أياما على توجيه الخطاب المخلد لذكرى ثورة الملك والشعب لنفس السنة، والسياق الخطابي سياق تحديد توجهات تفرض نفسها ولا اختبار فيها

للتنمية الاقتصادية، فإن هناك إرادة قوية لجعلها قطبا ماليا دوليا...إلا أن تحقيق هذا المشروع الكبير لا يتم بمجرد اتخاذ قرار" ؛ " رغم التحركات الجادة التي يقوم بها بعض البرلمانيين. إلا أنها تظل غير كافية" ؛ " يقدمون ملفات غير كاملة، إلا أنه بدل أن يقوم الشباب بمساعدتهم وعرض قائمة من الحلول لتشجيعهم" ؛ " . فالاتحاد الأوروبي مثلا، كان ولا يزال يعرف بعض الخلافات بين أعضائه. إلا أنها لا تصل حد القطيعة" ؛ " ورغم الإصلاحات والتدابير، التي تم اتخاذها، إلا أنها تبقى غير كافية. وهو ما يقتضي جدية أكبر، والتزاما أقوى من طرف القنصلية والموظفين" ؛ " غير أن هناك بعض المنتخبين يظنون أن دورهم يقتصر على الترشح فقط" ؛ " كفى من سياسة الريع والامتيازات. وكفى من الاسترزاق بالوطن.. غير أنه لا يجب تضخيم الأمر. فهؤلاء الانتهازيون قلة ليس لهم أي مكان بين المغاربة".

- في حين نجد الوصل السببي في سياقات العلاقة المنطقية بين جملتين أو أكثر في الخطابات الملكية، ويعبر عنه بعناصر مثل: "وعليه"، "لهذا"، "تبعا لذلك"، التي تندرج ضمن علاقات خاصة كالنتيجة والسبب أو علاقات منطقية تحكمها العلاقة العامة بين السبب والنتيجة Lien de causalité ou relation causale.

- أما الوصل الزمني، كآخر نوع من أنواع الوصل يربط بين جملتين مُتتابعَتين زمنياً، فنجد حاضرا من خلال كذلك "بالمنجزات والتضحيات، وكذلك لما نلمسه فيكم من إصرار وعزيمة وتفاعل إيجابي" ؛ "وفي هذا السياق، فإننا نتأسف كذلك، لعدم تمكن المجتمع الدولي" ؛ "إن أثار هذه الحال التي مسّت كل أقاليم المملكة تجلت كذلك في الانخفاض المحسوس لمخزوننا المائي" ؛ "ويقتضي الأمر كذلك الالتزام ببرنامج شامل لإحداث ورشات" ؛ " فإننا نتطلع كذلك إلى أن يكون هذا القضاء متطورا ومتجددا؛ فإننا نتطلع كذلك إلى أن يكون هذا القضاء متطورا ومتجددا"...

ويستعمل جلالته أيضا ضمير الفصل "هي هي" للدلالة على ثبات السياسة والموقف.

المبحث الثالث

لوغاريتمات تفكيك الوقائع اللغوية



المطلب الأول/ المستوى الصرفي

يمكن في هذا المقام تناول عدد الأفعال والأسماء وأسماء الفاعل وأسماء المفعول وعدد أفعال التفضيل وصيغ المبالغات والصيغة "تفاعل" ودلالة ذلك، مع الدأب على رصد زمن الأفعال ودلالته بالنسبة للخطاب الملكي، فضلا عن تكرارات الضمائر.

❖ أولا/ عدد الأفعال وصيغها وما في حكمها (المصادر)

أ- عدد الأفعال:

بمناويل القياس الكمي، يمكن الخلوص إلى أن عدد الأفعال وما في حكمها (أي المصادر) يتجاوز عدد الأسماء في أغلب الخطابات، وتتبوأ أسماء الفاعل وكذا أسماء المفعول درجة كمية أقل، تليها أفعال التفضيل، ثم أفعال المبالغة، لتتذيل الترتيب صيغتي "تفاعل" و"فاعل" ومصادرهما.

أما تكرارات الأفعال وأسماء الفاعل والمفعول، فيمكن أن نعلق بالقول أنه من جهة الأفعال، يُلاحظ وجود تقارب كبير بين نسبها ونسب الأسماء، بما يستبطنه من دلالة على حيوية الخطاب ونشاطه، كما يُفهم كذلك من ارتفاع نسبة أسماء الفاعل وأسماء المفعول، والأمر نفسه بالنسبة للصيغتين "فاعل" و"تفاعل" الدالتين على المشاركة في الفعل وتبادله أو على الأقل المباركة.

ضمن عدد الأسماء وعددها، تبوأ أسماء الفاعل وأسماء المفعول الصدارة، متقدمة عددياً على الحصيلة الإحصائية لأسماء "الفاعل" و"أسماء المفعول"، وأيضاً على صيغ المبالغة وأفعال التفضيل وصيغتا "فاعل" و"تفاعل".

ب- صيغ الأفعال:

يُشَي حضور الأفعال المكثف دلالة على الحركة والجمود الذي يتصل بوجود الأسماء بنسب أكبر، وإذا كانت الأفعال أقل عدداً بالمقارنة بالأسماء في بعض الخطابات والرسائل الرسمية، فإن ذاك لا ينزع عنها رداء خصوصية الفعل والحركة ويدخلها في دائرة الرداءة.

كما أن في الغلبة العددية لاستخدام الأفعال في الخطاب المولوي مقارنة باستخدام الأسماء دلالة على حيويته ونشاطه، رغم وجود وسائط تواصلية مولوية تتميز بتوازن أو شبه توازن بين الأفعال والأسماء، لتتنوع الهوة من جديد في الخطابات الثابتة لصالح الأفعال.

ولا يعني وجود النزر اليسير من أفعال التفضيل والمبالغة ضبابية الخطابات الذي نحللها وعاطفيتها، كما سيظهر ذلك في المستوى الأسلوبي.

وإذا كان الحضور الكبير لصيغ المبالغة وأفعال التفضيل يشير إلى مدى ضبابية الخطاب السياسي، فإن الخطاب الملكي شهد مرحلتين تاريخيتين خفّت فيهما نسبة الهواية و غواية الضبابية بفضل روح الجد والواقعية والعمل (ما بعد الخطاب المعلن لبشرى اكتشاف البترول وما بعد خطاب "أين الثروة؟")؛ بينما اختلف الخطاب عن تينك المرحلتين في باقي محطات التوثيق الخطابي الملكي للأحداث والحديث والتصورات والرؤى.

فضلا عن ارتفاع عدد أسماء الفاعل والمفعول، يكتسب الخطاب حيويته وديناميكيته أيضا من اهتمام صاحب الجلالة بالمستقبل، فالحاضر أكثر من الماضي.

كما عرفت صيغتنا "فاعل وتفاعل" تراجعا كبيرا في بعض المواقف لتترجما روح استبداد الخطاب بسبب ظروف تقتضي رفض مشاركة الآخر.

هذا "الإستبداد" الخطابي المرحلي ترجمه ارتفاع نسب تكرارات الضمير "أنا" وفي ذلك نرجسية واضحة، واقتضته بالتأكيد مستلزمات الواقعية، وهي نفس الهيمنة العددية التي سجلتها للأوامر والتعليمات، حيث سيطرت سيطرة شبه كاملة و سطرت شروط وجودها وأسبغت على بعض الخطابات الإستراتيجية التوجيهية.

ت- زمن الأفعال:

تكاد الأفعال الدالة على الزمن الحاضر تكون الوجه الأكثر حضورا، تليها الأفعال الدالة على الزمن الماضي (خاصة في الخطابات المخدرة لذكرى ثورة الملك والشعب)، لتتذيل تلك الدالة على المستقبل أسفل الترتيب: فجلالة الملك يولي اهتمامه الكبير لتشخيص ما يحفل به الحاضر أولا لإستخراج الكائن، ويبنى عليه الممكن التوجهات والتصورات التي ستتلور مستقبلا، ولا يرجع إلى الماضي إلا للحديث عما كان واستعادة شريط الذكريات بمناسبة ذكرى تستدعي تذكر أمجاد أو شرعية نضال والتذكير بالترابط بين الملك والشعب الذي لم ينطفئ قبسه منذ قرون.

ساحات انشغال الخطاب الملكي بالزمن الحاضر والمستقبل يندرج في سياق طبيعي تفرضه طبيعة المشاكل الراهنة التي يعيشها المغرب كبلد نامي، وما تفرضه من تحديات في المستقبل جعلتها تحظى بمساحة واسعة جسدها حضور الحاضر الملحوظ في زمن الأفعال واستقبال اقتران حلها لدى عموم جمهور التلقي بالمستقبل.

في المقابل، يمكن ملاحظة تقارب زمن الأفعال على عهد جده ووالده ("خرجنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر")؛ "ومنذ ذلك اليوم، ونحن نتذكر ما كان قاله مرارا وتكرارا والدنا المنعم محمد الخامس طيب الله ثراه، حينما رجع من المنفى، مقتديا بجده صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة: "إننا رجعنا من الجهاد الأصغر لخوض الجهاد الأكبر"¹: خروج يعقبه الدخول دون تحديد جدولة زمنية في خطاب محمد الخامس). "في حين أن فترة حكم والده غلبت عليها تساوى فيها الزمن الحاضر بالزمن الماضي وطغت سين التسويف على جميع الأفعال التي تفيد المستقبل.

¹-من إحدى الخطابات التي وجهها الملك الراحل الحسن الثاني بمناسبة تخليد ذكرى 20 غشت

مرد هذا التساوي محاولات الملك الراحل الحسن الثاني إيجاد تسوية لمشاكل الحكم وحرب الشرعيات التي حاولت أحزاب الحركة الوطنية جره إليها، وواقع الانقلابات والدسائس وبروز الخطاب الثوري، فكان من اللازم الإستنجاد في كل خطاب بالتاريخ ("وقد سافرنا إلى إسبانيا سنة 1970 ودارت بيننا وبين الجنرال فرانكو محادثة خاصة"؛ "فجريا على العادة التي ألفناها كلما حلت الذكرى نعرض اليوم على أمتنا النشاط العام للدولة، ونبين لها مشاكل الوقت وقضايا الساعة، وسنرى من خلال العرض أن الأعمال التي باشرناها في السنة الماضية جسيمة، والمنجزات التي حققناها كثيرة، والمشاكل التي حللناها عديدة، إلا أن من المشاكل ملا يحل إلا بحصول اتفاق بيننا وبين غيرنا من الدول التي يعينها الأمر، ومن المصاعب ما لا يذلل إلا بوفرة الخبرة وكثرة المال وسعة الوقت"؛ "وإننا نغتتم فرصة هذا المؤتمر وحضور أختينا فخامة الرئيس السيد فرحات عباس رئيس الحكومة الجزائرية، لنوجه في شخصه تحية المؤتمر إلى الأبطال المكافحين في سهول الجزائر وجبالها وصحرائها، ونؤكد لهم وقوفنا بجانبهم موقف التأييد والموازية لأن قضيتهم قضيتنا، ونضالهم نضالنا، مطالبين بمنح الجزائر حقها في الحرية والاستقلال بدون قيد ولا شرط، ومنددين في الوقت نفسه بكل محاولة أثمة، ترمي إلى تجزئة التراب الوطني للقطر الشقيق، كما سبق لنا أن نددنا بها في كل مكان حاول الاستعمار أن يفرضها فيه. إننا من أعرف الناس بهذا الأسلوب الجديد من الاستعمار، الرامي إلى تجزئة التراب الوطني لبعض الأقطار، إضعافا لشأنها، وتفريقا لكلمة أهلها، وذلك ابتغاء إرضاء رغبته في استغلالها، وتركيز نفوذه فيها. فلقد تعرض وطننا كما تعرضت فلسطين الشقيقة والكونغو في كاتانغا، وأنغوليسيا في إيرين الغربية وغيرهما لخطر تجزئة ترابه، وحاول الاستعمار أن يغتصب من بلادنا موريطانيا التي تُكوّن جزءا الجنوب، خارقا بذلك التزاماته وعابثا بالمعاهدات الدولية"¹؛ "أيها السادة: لئن كان عهد والدنا رضوان الله عليه عهد كفاح مرير، ونضال منقطع النظر، أراد العاهل الراحل من ورائهما كسب معركة الاستقلال والتحرير، واسترجاع ما كان لهذه البلاد من مجد أثيل، وعزة طفحت بها صفحات تاريخنا الطويل، فإننا بعد ما أنجح الله مساعيه الحميدة وكلل بالفوز والظفر جهوده المجيدة، أخذنا على أنفسنا أن نصل من عمله ما قطعه المنون، ونتم من بنائه ما شرع في تشييده وتدعيمه، فانصرفت هممتنا إلى اقرار نظام الملكية الدستورية، وتوزيع ما أنجزه والدنا المقدس طيب الله ثراه... ولن يفوتنا بهذه المناسبة أن نذكركم بأن الملوك الذين تعاقبوا على عرش هذه البلاد كانوا يمارسون طيلة قرون طائفة من المهام عن عادة من اختصاص الملكية المطلقة، أما نحن فقد أبینا إلا أن نتنازل بمحض اختيارنا وطوع إرادتنا للأمة من جملة من هذه الاختصاصات مقتصرين على المهام التي يزاولها رؤساء الدول في البلاد الديمقراطية... وغير خاف عليكم أن الدين الإسلامي هو دين الدولة، وأن تعاليمه السامية تقتضينا أن نتمسك بالقيم الروحية التي جاء بها وحض عليها، وأن نجعل منها عمادا لسلوك كل فرد منا في حياته اليومية سلوكا يتسم بمكارم الأخلاق والآداب المثلى، ونبل السجايا عملا بقوله تعالى: ﴿ولو كنتم فضا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾، وقوله جل من قائل ﴿ولا تصعر خدك للناس ولا تمشي في الأرض مرحا﴾"²، حيث تنساق جميع الشواهد في خطاب المرحلة للتفعيد لفصل السلط وتحديد الاختصاصات بين المؤسسة الملكية وباقي المؤسسات الدستورية كما دسترها وأقرها لتوه دستور 1962.

¹ - من نص الخطاب الافتتاحي لمؤتمر القمة المنعقد من يوم 4 إلى 7 يناير 1961 بمدينة الدار البيضاء بدعوة من جلالة إلى زمرة من إخوانه رؤساء الدول الإفريقية المتحررة الناهضة من أجل البحث عن الوسائل العملية الكفيلة بأن تدرأ عن القارة الإفريقية أخطار الاستعمار في شكله القديم والجديد، وتعزز جانب الوحدة الإفريقية، وتزيد أواصر التضامن الإفريقي قوة ومثانة وإحكاما.

² - من نص الخطاب الذي ألقاه الملك الراحل الحسن الثاني بمناسبة افتتاح الدورة الأولى للبرلمان برسم السنة التشريعية 1963-1964

بالمقابل، تميز عهد محمد السادس باستكمال لبنات الدولة، والإنخراط في جهاد أراد له جلالته تسمية "الجهاد الإقتصادي والاجتماعي"، وشيء أن تتم التسمية في نفس المكان (البرلمان) وأمام نفس جمهور الخطيب (نواب وممثلي الأمة) حين طلب من "الطبقة السياسية بجميع مشاربها أن تعتبر هذه الاستحقاقات لحظات قوية للتعبئة والانخراط في الجهاد الاقتصادي والاجتماعي"¹.

ويلاحظ من خلال قراء مسحية لجميع الخطابات:

- زيادة نسبة الفعل المضارع مقارنة مع نسبة الفعل الماضي لإرتباط الخطابات الملكية عموماً بزمان إنتاجها وتأثر صاحب الجلالة بالأحداث، فلا ترد تلك الأحداث إلا لتؤدي وظيفة ثانوية لموضوع الخطاب الذي يرتبط بزمان الإنتاج، رام جلالته النظر إلى الحاضر والمستقبل لا إلى الماضي الذي مضى، وهو شيء انتهى يستفاد منه في الحاضر، لذا استخدم الفعل المضارع بهذه الصيغة للدلالة على الحدث والضرورة والتواصل مع المتلقي والمرسل معاً.

- ورود أغلب الأفعال في الخطابات على صيغة المضارع، فدخلت على بعضها سين التسوييف للدلالة على الزمن القريب، و"سوف" للدلالة على المستقبل البعيد، و"لن" للدلالة على نفي الفعل مطلقاً أو مستقبلاً، فضلاً عن "حتى" للدلالة على الثبوت، خاصة وأن الساسة يرومون بالمقابل استعمال الزمن المستقبل في خطاباتهم لدفع حركة العمل السياسي إلى الأمام، وليثبتوا بأنهم يهتمون بالعمل الحاضر والمستقبل، لتبقى الأحداث الماضية على سبيل التذكير والتفكير.

- قلة صيغ المجهول في الخطاب، فالخطابات المولوية لا تستخدم صيغ المجهول إلا نادراً في حالات تستدعي ذلك.

ث- دلالة الأفعال:

جاءت أغلب الأفعال التي قمنا باستلالتها من الفقرات على خمسة أوزان (فعل، فعل، تفاعل، تفعل، وافتعل)، ويعد الثلاثي المجرد أكثر الأوزان وروداً وكثلاً في الخطاب، بنفس كثرة استخدام بناء الثلاثي المجرد في اللغة العربية الفصحى في الخطاب اليومي.

كما أن استعمال الأفعال بصيغة "افتعلنا" (اعتبرنا، ارتأينا) يشير إلى الحركة الدوئية (تغير، تحمل...)، في حين تشير صيغة "تفعل" إلى المشاركة وتؤشر على المطاوعة.

❖ ثانياً- عدد الأسماء وبلاغة التسمية

أ- عدد تكرارات الحديث بالضمير "أنا" المتكلم المفرد

لا يلقي الباحث في خطاب الملك ولا في مراسلاته استعمال الضمير "أنا" المتكلم المفرد إلا فيما ندر، وحتى في رده على رسالة شكر على عزاء وجهها له الرئيس الجزائري بوتفليقة على إثر وفاة سفير المملكة المعتمد بالجزائر (أسفله نسخة شمسية منها)، حيث بادله صاحب الجلالة الخطاب باستخدام الضمير المباشر استخداماً للدلالة على صاحب الجلالة كمتكلم "نحن" أو "نا" (جلالتنا)، و"العزير" والقريب إلى قلب جلالته الذي أنزله منزلة الجار الأريب.

¹- إحدى شذرات الخطاب الذي ألقاه الملك محمد السادس بمناسبة افتتاح السنة التشريعية 2000-2001

السبت 26 غشت 2000 م - 25 جمادى الأولى 1421 هـ

ص.ج الملك يبعث ببرقية شكر إلى الرئيس الجزائري

بعث صاحب الجلالة الملك محمد السادس ببرقية شكر إلى الرئيس الجزائري السيد عبد العزيز بوتفليقة رداً على برقية التعزية التي بعث بها فخامته إلى جلالتهم على إثر وفاة السفير السيد عبد الرزاق الدغمي

تلك الرسالة جاءت للرد على رسالة التعزية التالية:



لهذا الرزء واشاطر جلاستكم والشعب المغربي هذا انحصاب. إن الفئدة كان نم السفير متفانيا في أداء مهنته النبيلة أحسن أداء، ولم تتركه ولا هو يمثل ملكه وبلاؤه أحسن تمثيل ويدي بلوه مخلصا في سبيل إعادة بناء العلاقات الأخوية المشرقة التي نصبتنا إليها بين بلدنا الشقيقين.

و إذ أرجو من جلاستكم أن تفضلوا بالزيارة عني في تبليغ تعازي إلى كافة أعضاء أسرة الفقيد وذويه، وخلاص مشاعر تعازي معهم في هذا الحصاب الألب الذي لا راد لعزاء الله فيه، أدعو الله العلي العظيم أن يحفظ جلاستكم ويديم عليكم نعمة الصحة والعافية ويجنب الشعب المغربي الشقيق كل مكروه.

و تفضلوا، جلالة الملك وأخي العزيز، بقبول أسامي عبارات التقدير والإكبار.

أخوكم
عبد العزيز بوتفليقة

عبد العزيز بوتفليقة
رئيس الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

عبد العزيز بوتفليقة
رئيس الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية



أخي الأعز الأرضي
جلالة الملك محمد السادس
ملك المملكة المغربية
وفقه الله تعالى ورعاه

علمت ببالخ الأسى والأسف أن يد المنون إختطف أخى وصديقى الحميم، سعادة السفير المرحوم عبد الرزاق الدغمي، سفير جلاستكم بالجزائر، فعالمت لفقد غايه الألم وقاسمتكم أحزانكم في هذا الخطب الجلل.

وفي هذه المناسبة الأليمة أتوجه إلى جلاستكم، وإلى الشعب المغربي الشقيق، بتعازي الأخوية الحارة، سائلا الله عز وجل أن يتغمد الفقيد بواسع مغفرته ونسج رحمته، ويلهمكم وذويه الصبر والسلوان.

إن فقد سفير من طراز المرحوم خسارة للشرب والجزائر، بل ولكل المغرب العربي، ولا غربة أنني أسف

أما من جهة الضمان وتكرارها وأهميتها، وعلى أهميتها، يمكن الحديث باقتضاب من خلال إظهار تكرارات الضمير "أنا" في مقابل الضمان الأخرى، فهي لا تعبر البتة عن روح الدكتاتورية أو مركب نرجسية لدى الخطيب (ونظامه السياسي)، بقدر ما تعكس قوة شخصيته واعتزاز المؤسسة بنسبها وانتسابها للعثرة الشريفة لسيد الخلق وغمام الحق نبينا محمد عليه وعلى آله أفضل السلام، فنجد ثباتا في مؤشرات الثقة هاته والتحصن بالعديد من الشرعيات (الدينية/النسبية والتاريخية الممتدة لدوحة العلوية وشرعية الجهاد في سبيل تحرير الوطن، جهاد البناء الأكبر والجهاد الإقتصادي والإجتماعي الذي لم يفتّر)، حتى في خطاباته الموجهة للمحافل الدولية وفي رسائله وكلماته الموجهة إلى الملوك والقادة التي يضمنها أنه ويعبر عن نفسه من خلالها بعد تلقي رسائلهم التي لا تتجاوز استعمال ضمير المتكلم "أنا".

أ- الأسماء واستعمالاتها

استُخدمت في الخطاب نسبة من الأسماء التي قَلَّتْ أو زادت كُلما رام جلالته إقناع جمهور المتلقي بحقائق ثابتة، خاصة وأن الأسماء تعطي عادة دلالة الاستقرار والثبات. وتضمنت تلك الأسماء المصادر والمشتقات والضمائر واسم الموصول والظرف واسم الإشارة ودلالة الزيادات الصرفية في الخطاب. للتمثيل لها، يمكن سَوق:

- **المصادر:** التي دَلَّتْ على أحداث مجردة من الزمان، وتميزت بالعديد من الخواص، فوردت العديد من المصادر مزيدة (توحيد الصف، تأييد، فعال، الدفاع)؛ أو على صيغة مصادر صناعية (ديمقراطية، التكنولوجيا، تكنوقراطية...) أو مصادر ميمية (مقاومة، مجتمع، مشاعر، مساومة...)؛

- **المشتقات:** حيث تعد الصفة المشبهة أكثر المشتقات استخدامًا، يليها اسم الفاعل. وقد استخدم العاهل/الفاعل اسم الفاعل على من قام بالفعل على وجه الحدوث والتجدد، وذلك ليظهر للمتلقي أنه هو من يقوم بالفعل. وتدل الصفة المشبهة في العديد من فقرات الخطابات الملكي على قيام العاهل بالفعل على وجه الثبوت، ويستثمر أثرها الكبير في نفس جمهور التلقي لتوقظ فيه معاني الإلتزام والإفتخار بالإلتزام والتعلق بقائد مسيرة النماء.

- كما تم استحضار اسم المكان في المرتبة كلما أورد جلالته الحديث عن عدد من الأمكنة (منبراً، أمام، وراء...) باعتبارها إشارات إلى أمكنة وقضايا تثيره وتستأثر باهتمام جماهيري.

ثم يأتي بعد اسم المكان وبنسبة أقل اسم المفعول، واسم التفضيل واسم الزمان، ومثال ذلك: موكول، متروك، وأكثر....

- **اسم الموصول:** حيث يستخدم جلالة الملك اسم الموصول "التي" المؤنث، للإشارة إلى صلة الموصول الدال على الصفة، للتأثير على المتلقي، إذ ربط ذلك بمحاور الخطاب/القضية " في خطابنا الموجه للأمم، في 29 ماي 2003، غداة الاعتداءات الإرهابية الغاشمة، التي ضربت الدار البيضاء، موضع انخراط كل مكونات الأمة ومؤسساتها".

- **الظرف:** وثمة بعض الظروف التي استخدمت في جميع الخطابات، مثل: أمام ووراء وقبل ويوم. وهي تدل على المكانية والزمانية لبيان طبيعة القضايا وجغرافيتها وامتدادها ودأب جلالته على عدم تمطيطها أو تمددها.

- **أسماء الإشارة:** فقد استخدم اسم الإشارة "هذا" و "هذه" ليعودا إلى المشار إليه في الجملة قبلها أو وقد يأتیان للتأكيد مع ذكر المشار إليه، ولاستغناء صاحب الجلالة عن التلميح، مع استعماله في بعض المواقع من الخطابات "أولئك" حيث اقتضى المقام عدم التشهير بأشخاص بعينهم أو لأن الأمر يتعلق بظاهرة أو سلوكيات أو مواقف تظل الجهات المتسببة فيها غير ظاهرة ("وأقصد هنا أولئك الذين يحاولون إثارة الشغب والبلبل داخل المساجد وخارجها، والذين يخرطون في عصابات الإجرام أو الإرهاب"¹؛ "وإننا لنرحب بضيوفنا الكبار، وبالشخصيات الأجنبية المرموقة... ولا سيما أولئك الذين وقفوا إلى جانب العائلة الملكية في منفاها"²؛ "نبتهل إلى العلي القدير أن يكرمها بالثواب وحسن المآب، وينزلها منازل الأخيار والأبرار، وأن يتغمدها بواسع رحمته، ويسكنها فسيح جناته، وأن يجازيها أحسن الجزاء على ما قدمته من أعمال مبرورة"³؛ "وفي طليعتهم قضاة المغرب على مرّ التاريخ أولئك الذين اعترف لهم بالنقوى والنزاهة وشهد لهم بالتبريز في أحكام النوازل والقضايا المستحدثة"⁴، "هذا عهد قطعناه..."

1- خطاب صاحب الجلالة بمناسبة الذكرى الثانية والستين لثورة الملك والشعب

2- من نص الخطاب الملكي الذي وجهه صاحب الجلالة بمناسبة الذكرى الخمسينية لعودة محمد الخامس وعيد الاستقلال

3- من نص الرسالة السامية التي وجهها صاحب الجلالة إلى المشاركين في الذكرى التأبينية للمرحومة آسية الوديع

4- من نص الرسالة السامية التي ألقاها صاحب الجلالة أثناء افتتاح أشغال المجلس الأعلى للقضاء

- دلالة الزيادات الصرفية أو المورفيمات: من خلال جزء المورفيم الذي يحدد جزءاً معيناً من دلالة المورفيم الكلية مثل: "ياء" المضارعة في "يهدأ لنا بال" و"يعود" و"يبقى ورش التنمية"، فـ"الياء" تُعد جزءاً أساسياً أي لا يستقيم الكل بدونه، وهي دلالة على الغيبة، والألف والتاء في "سياسات" و"مسؤوليات" و"تبعات" تدل على جمع المؤنث السالم؛ بينما تأتي "الـ" التعريف في "القضية الوطنية الأولى" إلى العهد أو الجنس في الخطاب، كما ترد على صيغة جمع التكسير مثل "الأرواح" و"الأموال" و"الأبناء".

المطلب الثاني/ التركيبية التركيبية والتشكيلات الأسلوبية

❖ أولاً: تركيبة التركيب

في مجموع البناء الجملي الذي أتيح لي فيه إحصاء آلاف اللبانات الجملية، تستحوذ الجمل الفعلية على النصيب الأكبر وتليها في مركز بعيد الجمل الإسمية. ويمكن الإكتفاء في هذا المستوى بتناول طول الجمل وقصرها وبساطتها وتعقيدها، دونما حاجة لفحص الترابطات النحوية والمعنوية، سواء على مستوى الجملة أو نحو النص (المستوى الداخل-نصي) أو على مستوى خارج النص، إلا إذا ظهر في النص ما يستدعي ذلك، كأن تظهر تشكيلات تركيبية تخل باتساق أو انسجام النص... فقد جاءت الخطابات عموماً في بُعدها النحوي الخالص في صيغة جمل مركبة وطويلة بحيث، تستغرق الجملة الواحدة أحيانا الفقرة الواحدة كاملة، مع كثرة الجمل الاعتراضية، دون أن يؤثر ذلك التعقيد على وضوح الخطاب.

في تقديري المتواضع كمتلقي للخطاب أسوة بعموم الشعب المغربي وفي حدود ما أعتقد أنني تسلحت به من عدة قراءة لغوية ولسانية، جاءت العديد من الخطابات والرسائل الملكية متسقة ومنسجمة على حد كبير يتجاوز مستويات الاتساق في الخطابات المرتجلة لوالده الملك الراحل الحسن الثاني، فلم نلاحظ فيها أو عليها أو بها مظهراً تركيبياً ينفي عنها تلك الصفتين، ولم تعورتها خصوصية تركيبية شائها تلفت الانتباه لنشازها.

كما يمكن ملاحظة موزايكية التشكيل الجملي للخطابات الملكية، حيث تعددت أقسام الجمل التي تشكل لبنات النص الخطابي المولوي، بين إسمية وفعلية، وخبرية وإنشائية، فضلاً عن توزيعها على أساس توزيعها الموقعي بين صنف الجمل بتركيب مستقل أو غير مستقل، لتتراوح أيضاً وفق بنائها الداخلي بين جمل صغرى وأخرى كبرى بتركيب داخلي واحد مستقل في المعنى أو أكثر، لتتنشط هذه الأخيرة إلى جمل بسيطة ومعطوفة وتركيبية ثم مركبة.

باعتتماد تقسيم الجمل الواردة في الخطابات الملكية على أساس البناء الداخلي بين جمل كبرى (بتركيب مستقل واحد على الأقل يتألف من المسند إليه والمسند) وأخرى صغرى (تختلف عن الجمل الكبرى بتركيبها غير المستقل)، يمكن رصد غلبة الجملة الكبرى بتركيبتها المستقلة في المعنى، التي ترد بأكثر من تركيب داخلي وتنوع محتوياتها، وتتيح إجراء تقسيم ثلاثي داخلها على أساس البناء الداخلي يتوزع بين: جمل صغرى بسيطة، وجمل معطوفة، والتركيبية ثم المركبة.

وقد حاولت دخول عالم النحو لدراسة تلك الأشكال التركيبية في أفق معرفة الجملة الأصلية منها وأنواع تلك الجمل وتوظيفاتها في الخطاب، لعلمي الصميم بصعوبة تفسير ظواهر التواصل داخل الخطاب المكتوب من خلالها والنفاد بذلك إلى سراديب الحالة النفسية التي تعبر عنها تلك الجمل ومقاصد الخطاب التداولية.

بمنطق الإحصاء وتوزيع الجمل على الجداول الكمية، يمكن تصنيف نسبة **الجملة البسيطة** في عينة تمثيلية من الخطابات¹ على رأس الجمل (حوالي 57%)، تليها عدديا **الجمل التركيبية** (حوالي 29%)، لتتذيل بذلك فئة **الجمل المركبة** قائمة الترتيب الإحصائي (بنسبة تناهز 14%)، ويسعف منطق القراءة التداولية ومراعاة أحوال المخاطب وكفاءته القرائية للقول بأن الخطاب الملكي يُركز على الأشكال البسيطة ويحرص على الربط بينها أكثر من حرصه على استعمال التركيبية والمركبة ليسهل على المتلقي فهمها.

• تراوح الجمل البسيطة بين القصر والطول

على الرغم من أن الجملة البسيطة كانت أكثر استخدامًا في الخطاب، إلا أن معظمها كان داخل التراكيب الطويلة أو الجملة التركيبية، ولم توح الجمل البسيطة التي جاءت طويلة بأي بتمطيط. كما أن الجمل البسيطة إخبارية ولا تتوافر فيها ما يمكن أن يوطنها ضمن الجمل الإنشائية.

• طول الجمل التركيبية لطول الفكرة وتواشجها مع البسيطة والمركبة

وجدت في زمرة **الجمل التركيبية** تلك التي تتشكل على الأقل من تركيبين مستقلين، وكل مركب قائم بنفسه ولا يعتمد أي منهما على الآخر، وترتبط فيما بينها بأداة من أدوات العطف، ومعظمها طويلة في التركيب إما بسبب طول الفكرة أو بسبب الجمل الثانوية التي تندس كالنزق بين خيوط تركيبين مستقلين على الأقل مع قيام كل مركب بنفسه، أو بسبب الربط بينها بأداة من أدوات العطف. كما يلاحظ في العديد من فقرات مختلف الخطابات والندوات والرسائل الملكية تداخلا بين الجمل التركيبية والجملة البسيطة وكذا مع الجمل المركبة.

في تراكيب الخطابات، جاءت **الجمل المركبة** في الجملة المعتمدة على أداة الربط المفردة أو أدوات الربط المركبة في الجملة في أغلب الخطابات، وقد ورد استخدام الربط السياقي في بعض المقامات بنية التعريض أو الإعراض عن التصريح بتعريض ملكي بسلوك أو بموقف، فكان السياق يتطلب أن يكون ثمة ربط بين هذه الجملة وما سبقها من قول.

وباعتماد **المعيار النوعي للجملة** (إسمية أو فعلية)، اتضح أن نوع الجملة يشارك في إسباغ دلالة على تراكيب الخطاب الملكي، خاصة في ظل السطوة العددية للجملة الفعلية التي تفيد التجدد والحدوث؛ في مقابل ضالة مساحات الجملة الاسمية التي تدل على الحركة والحيوية: في ذلك مؤشر دال على استمزاج صاحب الجلالة لفكرة المزج بين التجديد (كشعار لعهد) والتحديث استجابة للحركة التي يعرفها المجتمع المغربي ومحيطه الإقليمي والقاري والدولي، وبالتالي ضمان فاعلية أكبر لخطاب العاهل وأعدادا أكثر من نسب المتفاعلين مع خطابه من جمهور التلقي.

• وحتى في معظم **التراكيب الإسمية**، ورد استعمال الخبر الجملة "إنني لأعلنها مبادرة وطنية للتنمية البشرية"، فكان التوكيد في هذا الموضع وغيره بالخبر الذي يلقي لإفادة جمهور التلقي بأن صاحب الجلالة يعلم حال شعبه وأن شعبه يعلم أن ملكه على علم بأحواله. ولم تردّ الجمل الإسمية في الجمل المكونة لفقرات الخطاب الملكي إلا في سياق الإبتداء الذي يليه استخدام أداة النصب "أن" لتأكيد ما ذكره جلاله الملك حين أورد أن "قناعتنا الراسخة بأهمية وقيمة الأدوار التي تضطلعون بها في عدة مجالات، تجعلنا حريصين عن كُتب، على تطوير وتحيين منظومة التكوين العسكري وتحسين مناهج التدريب"، أو استعماله ضمير الفصل للتأكيد على شيء.

¹ العينة الخطابية التي اعتمدت لاستخراج الجداول الكمية ناهزت 150 خطابا ورسالة ملكية، روعي في اختيارها تنوع مناسبات الإفضاء بها وتوجيهها، وتباين فئات جمهور التلقي وكذا سياقاتها الزمانية والمكانية.

واصطبغت هذه الجمل الفعلية بدورها بصيغ المضارع والمستقبل، ولم تقف عند الماضي إلا لمأما وفي بعض المحطات الاحتفالية الثابتة التي كانت تقتضي الرجوع إلى التاريخ واسترجاع شريط التذكر والذكريات صونا للذكرى وللذاكرة الجماعية للمملكة.

كما وردت في حال جُمِلَ سابقةً مكررةً على فعل "موقفنا لا يتغير ولا يتبدل"، أو جملاً مثبتةً عموماً، لترد في بعض الأحيان منفيةً أو مثبتةً، بنفس ورود الفعل في مواضع معدودة بصيغة المستقبل بزيادة السين للتسويق أو "سوف".

❖ ثانياً- التشكيل الأسلوبي وثنائية الخبر والإنشاء

يمكن التوصل مبدئياً ببعض الشذرات (التي سيرد استعمالها بشكل جد موسع في المستوى السياقي) لمستوى الأفعال الكلامية كمفهوم ينتمي إلى فلسفة اللغة والتداوليات وليس كمقولة نحوية، حيث الفعل الكلامي هو ما يقوم به المتكلم عندما يتكلم؛ كأن يخبر أو يأمر أو يعد أو يعلن أو يستفهم، وتلك أفعال من جملة أفعال الفاعل، وغيرها من المفاهيم التي توسع فيها كل من "سيرل"¹، و "أوستين" التي يمكن مصادفتها مجتمعة في الخطاب الواحد أو في سلسلة من الخطابات الملكية، والتي تستعمل فيها اللغة من أجل:

- وصف حالات الأشياء على ما هي عليه (الأفعال الجزمية)؛
- إحداث تغيير في الواقع (الأفعال التوجيهية)؛
- الالتزام بأمر من الأمور (الأفعال الوعدية)؛
- التعبير عن الانفعالات والمواقف (الأفعال التعبيرية)؛
- الإعلان عن حدوث شيء (الأفعال الإعلانية).

كما في التراث اللساني العربي، حاولت أن أخضع الأفعال الكلامية داخل متن الخطابات المولوية لمنظار علم المعاني، وتحديدًا للتمييز القائم بين الأسلوب الخبري والأسلوب الإنشائي في إطار نظرية "الخبر والإنشاء"، الذي يقابل في النظريات اللغوية الغربية نظرية "الأفعال الكلامية".

غني عن التذكير أن هذه الظاهرة الأسلوبية (الخبر والإنشاء) استرعت اهتمام الفلاسفة والمناطق العرب أمثال "الفارابي" و "ابن سينا" و "الرازي" و "ابن رشد القرطبي"، الذين عنوا بدراسة التراكيب الخبرية، مستبعدين من مجال دراساتهم التراكيب غير الخبرية بعد أن قسموا الكلام إلى أسلوبين هما الأسلوب الخبري والأسلوب الإنشائي، شأنهم شأن النحاة والبلاغيين الذين ركزوا على التمييز بين الخبر والإنشاء (سيبويه، الجرجاني والسكاكي).

بدوري، أفردت للظاهرتين قوساً باستلال بعض الأدوات الإجرائية التي وظفوها لفهم واستيعاب النص القرآني وبغرض دراسة المعاني الوظيفية وتحديد المقامات المختلفة التي ترد فيها تلك المعاني، في سياق نص آخر هو نص الخطاب الملكي.

¹-L.Austin : *Quad dire c'est faire*. Traduit par G.Lane, ed Seuil, 1970.

2- J.Searle : *Les actes de langage, essais de philosophie du langage*. Traduit par Pauchard.H. Preface O.Ducrot, ed Herman, 1972.

فإذ كان علم المعاني ينصرف إلى "تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتطلبه من ضروب الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره" حسب السكاكي¹، فيختلف بذلك معنى التركيب باختلاف المقام الذي يرد فيه، ليتم الإرتكاز على التراكيب التي لها دلالات مفيدة، سواء كانت دلالات حرفية أم دلالات ضمنية تُفهم كلها من لمقام وبحسب مقصد المتكلم، فإن هذا يطابق ما تقوم عليه الدراسات التداولية الحديثة حول "القصد والإفادة"، وينسجم مع سبق أن أورده الخطيب القزويني، حين ركّز في دراسته للغة ولظاهرة الخبر والإنشاء بالتحديد على مطابقة المقال *Forme* للمقام *Situation* الذي يرد فيه مع مراعاة مقتضى الحال، لما عرف الخطيب المذكور علم المعاني بأنه "علم يُعرف به أحوال اللفظ التي بها يطابق مقتضى الحال"².

وقد انتخبُت من الإنتاج الخطابي الملكي الذي ورد في سياق التمييز بين الأسلوبين الخبري والإنشائي وتقسيماته وأدواته التحليلية المتوزعة بين المنطقية والنحوية والبلاغية والتداولية شذرات توافق طبيعة الأسلوب الخبري للخطاب المولوي، على نقيضيته للأسلوب الإنشائي الذي يميز باقي الخطابات السياسية التي تطفح بها الساحة السياسية.

باستعمال الأدوات الإجرائية التي وظفوها لإقامة تقسيمات النحاة والبلاغيين العرب للكلام، نجد بعضها أو جلها في المعاني الوظيفية والمقامات المختلفة التي وردت بها الخطابات الملكية.

فالخطاب الملكي يحمل ما حمّله "ابن فارس" من "معاني للكلام، والتي تصل إلى عشرة معاني وهي: الخبر والإستخبار، الأمر والنهي، الدعاء والطلب والعرض، التحضيض والتمني والتعجب"³، فضلا عما أورده عن الخبر في نفس الصفحة حين اعتبر أن الخبر "ماجاز تصديق قائله أو تكذيبه، وهو إفادة المخاطب أمرا فيماض من زمان أو مستقبل دائم": فإن طابق الخبر الواقع، فهو حسب السكاكي صادق، وإن لم يطابق فهو كاذب، وبالتالي فالكلام عنده ينقسم إلى خبر وطلب، والخبر عنده ما يحتمل الصدق والكذب، مما جعلني أسقط هذا التمييز على النصية المستمسكة بالناصية الخطابية الكاذبة لجل أطياف الخطاب السياسي.

والطلب بنوعيه (الإستفهام والأمر والنهي والنداء) كما أوردهما السكاكي⁴ واللذان نجدهما في خطاب الملك، فضلا عن التمني كما نلفيه في الخطابات السياسية والنقابية التي لا تجاوز سقف التمني في ملفاتها المطالبة، نجده حاضرا في الشق فوق-السياسي (الخطاب الملكي) للنسق الخطابي السياسي.

ولم أحبز الإنخراط في رصد ما وصل إليه اجتهاد المتأخرين من خلال التقسيمات التي أوردها للأسلوب (خبر، طلب وإنشاء)، ليكون الإنشاء "هو ما اقترن معناه بلفظه (الإنشاء)، وإن لم يقترن بل تأخر عنه فهو طلب"⁵.

ولم أشأ أيضا الوقوف عند الإنشاء كأخر عنصر ضمن هذه الثلاثية، بقدر ما أثرت التوقف عند ما قام به الدارسون العرب داخل التقسيمين الأساسيين "الخبر والإنشاء"، من توغل في المعاني التي يحيل عليها كل قسم من القسمين الكبيرين، وما يرتبط بالمقامات المختلفة التي ترد فيها تلك المعاني، خاصة لما ميّزوا بين الجمل على أساس قوتها وضعفها، وما ينتج عن تلك القوة أو الضعف من معاني تقابل ما يعرف حاليا في الأدبيات الغربية بمفهوم "القوة الإنجازية"، ديدن عنوان فرعي للأطروحة.

¹ - أبويعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي: مفتاح العلوم، تحقيق: عبد الحميد هندواي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000، ص. 247.

² - الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، تعليق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1993، الجزء 1، ص. 52.

³ - أحمد ابن فارس: الصحاحي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، المكتبة السلفية، مطبعة المؤيد، القاهرة، 1910، ص. 150.

⁴ - أبويعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي، مفتاح العلوم، المرجع السابق، ص. 415.

⁵ - رضي الدين الإستربادي: شرح الكافية في النحو، تحقيق رحاب عكاوي، دار الفكر، بيروت، طبعة 2000، ص. 24.

• الجمل الخبرية/الإقناعية

من خلال ضبط تعريف الخبر وتحديدده على أساس الصدق ومطابقة الواقع، يتضح أن الخطاب الملكي حمّال للخبر لأنه يحمل الصدق ويطابق الواقع، ويحمل عموم مجتمع التلقي على التصديق.

فالخبر، على نقيضيته للإنشاء، يقبل الحكم عليه بالثبوت أو بالنفي: وهنا مَكْمَنُ الفرق بين الأسلوبين؛ إذ إنَّ الخبر له نسبة خارجية يقصد من خلالها مطابقة الواقع أولاً، بخلاف الإنشاء الذي لا يُقصد من نسبته الكلامية مطابقة الواقع، بل يُحاول إيجاد مدلول خارجي يتطابق مع لفظه، كما يوضح ذلك الخطيب القزويني في سياق بيانه الفرق بين الأسلوب ينفي قوله: "والفارق بين الخبر والإنشاء هو قصد المطابقة أو قصد عدمها في الخبر، والإنشاء ليس فيه قصد للمطابقة ولا لعدمها"¹.

وتتحقق في الخطابات الملكية تفرعات الخبر إلى أقسام ثلاث، خاصة:

- الخبر الابتدائي: على اعتبار أن الخبر الابتدائي لا يحتاج إلى تأكيد ويُستغنى فيه عن مؤكّدات الحكم لأن جمهور التلقي يكون خالي الذهن تماماً، تماماً كما هو الشأن لعموم المغاربة الذين يطالعهم صاحب الجلالة في بعض فقرات خطابه بجمل خبرية تجمل مضامين لم تكن في خلداهم ("وانه ليسعدنا في غمرة الاحتفال بالمناسبتين المجيدتين أن نرف اليك- شعبي العزيز- بشرى اكتشاف النفط والغاز من النوع الجيد بناحية تالسينت بالأقاليم الشرقية العزيزة علينا بكميات وافرة"²؛ "فقد قررنا تكوين لجنة خاصة لمراجعة الدستور"³)؛

- الخبر الطلبي: هذا القسم من الخبر الذي يحتاج متلقيه إلى تأكيد من قائله بأحد أدوات التأكيد مثل "لام التوكيد" أو "إن" حتى يُبدد حيرة وشك المتلقي، يرد بكثرة في بعض مناسبات الخطاب المولوي، كما في قول جلالته تباعاً في خطابه الإفتتاحيين للسنتين التشريعتين 2000-2001 و 2007-2008 وفي أكثر من فقرة "وإننا لعازمون على مواكبة إصلاح مدونة الجماعات المحلية بإصلاحات متقدمة تهم القانون الانتخابي والتقطيع الانتخابي والجماعي والمالية المحلية ونظامي الموظفين والأملاك الجماعية"؛ "وإننا لعازمون على الإعداد التشاوري الواسع والمتخصص، لميثاق وطني مضبوط، للتغيير العميق والشامل للقضاء... كما يتعين أن تكون من بين الأسبقيات الجديدة، مأكدناه، من اعتماد سياسة فلاحية وطاقية ومائية جديدة؛ فضلاً عن التنمية الترابية، الحضرية والقروية".

وينسجم هذا مع ما أورده "السكاكي" في معرض حديثه عن هذا النوع من الخبر "وإذا ألقاها إلى طالبها... لينقذه عن ورطة الحيرة، استحسن تقوية المنقذ بإدخال "اللام" في الجملة، أو "إن"... كنحولزید عارف أو إن زيدا عارف... إن علاء الدين طالب مجتهد"، وتأكيدنا على إجتهد "علاء الدين" لمن يشك في إجتهداه"⁴.

- الخبر الإنكاري: يكاد يختلط الخبر الإنكاري مع الطلبي فيما استجلبته من المتن الخطابية، من خلال استعمال القسم بالله تعالى أو ما يفيد هذا الاستعمال من خلال الطلب والتوجه بالضراعة والسؤال للمولى عز وجل، مع استعمال أدوات التأكيد السابقة، كما ورد في نص الخطاب الذي ألقاه جلالته بمناسبة افتتاح جلّالته في الجمعة الأولى من شهر أكتوبر 2009 للدورة الخريفية للبرلمان: "فإننا

¹ - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، مرجع سابق، ص. 56

² - من أول خطاب لجلالة الملك محمد السادس بمناسبة ذكرى ثورة الملك والشعب التي حلت غداً ذكرى عيد الشباب

³ - من خطاب وجهه جلالة الملك إلى الأمة حول مشروع الدستور الجديد

⁴ - مفتاح العلوم، نفس المرجع، ص. 258

ماضون في تعهده بالتطوير : تحصينا لمكاسب هامة لا رجعة فيها، وتقويما لما قد يشوبه من اختلالات، لا هوادة في محاربتها، بالإرادة الحازمة، والتعبئة الفعالة" في تعهده بالتطوير: تحصينا لمكاسب هامة لا رجعة فيها، وتقويما لما قد يشوبه من اختلالات، لا هوادة في محاربتها، بالإرادة الحازمة، والتعبئة الفعالة".

فهذا الخبر يتطلب مقامه تأكيد الكلام نتيجة إنكار السامع له، وبقدر إنكار منكري ما تحقق على عهد جلالته بقدر إصرار جلالته على التأكيد بأدوات معينة يستعملها جلالته لإستنكار إمعان فئة من جمهور التلقي في التشكيك أو إنكار الخبر والحرص على تبديد ذاك الشك، ودحض خلفيات مرجعية راديكالية تمعن في تبخيس العمل الرسمي.

فالجمل الخبرية الواردة ضمن الخطابات الملكية تختلف بحسب اختلاف درجة وشدة الغرض الذي تتضمنه، وبالتالي تختلف معانيها وتتنوع بتنوع السياق الذي ترد فيه، وتتراوح دلاليا بين القوة والضعف، لتخرج هذه الدلالة إلى دلالات وأغراض أخرى تفهم من سياق الكلام، فيحتمل لفظ الخبر معاني التمني والإنكار والتعجب، والنهي، والأمر، والدعاء والطلب، والتعظيم (وإنه ليطيب لنا في غمرة هذه الذكرى العطرة أن نعرب لك شعبي العزيز... وإننا لنشيد بالدور الفاعل للمجتمع المدني... مما يجعلنا ندعو السلطات العمومية و الجماعات المحلية و سائر المؤسسات العامة و الخاصة... أن تعقد معه كل أنواع الشراكة و تمده بجميع أشكال المساعدة. وإننا لجد معتزين بتعاطي نخبة المجتمع المدني للشأن العام والعمل الجمعي¹).

نوعيا أو على المستوى الكمي، توزعت الأساليب بين خبرية وإنشائية في كل الخطابات، مع غلبة كمية للأولى، حيث يمكن الوقوف على:

- **سُطوة عددية للأساليب الخبرية** (ابتدائية وطلبية وإنكارية، أو تأكيدية أو تقديرية أو إضمارية، مع أساليب تفيد الفخر والاعتزاز، والمدح والإستحسان والإشادة بعهد جلالته وعهود من سبقوه من القادة، وتنويهه ببعض المؤسسات الوطنية ورجالات المملكة، أو في رسائل شكر أو تعزية تعدد الخصال والسجايا، فضلا عن أساليب شجب واستهجان).

في نفس سياق الحديث عن الأساليب الخبرية، ألفت أنه يمكن تسجيل حضور وازن للإستفهام بشقه الترددي، والإنكاري وحتى التوكيدي.

ويمكن أيضا رصد غلبة الاساليب الخبرية التي تفيد التفاؤل والتمني بشكل خاص على أغلب خطابات السنة الأولى من تولي جلالة الملك مقاليد الحكم، قبل أن تتضاءل نسبة التمني في السنوات التي تلت، حتى طغت كميا معدلات الحديث عما تحقق غالبا من المشاريع والأوراش.

ويُعزى ارتفاع نسبة الأسلوب الخبري في معظم خطابات جلالته إلى الطابع الإبلغي للخطابات، وما تقتضيه المناسبات المتعددة لمخاطبة عموم الشعب أو خاصته من مثليه ومن فاعليه من ضرورة تقديم أكبر قدر ممكن من المعلومات والاستدلالات إلى جمهور التلقي بغية تقاسم تصوره والإقتناع به، فتضاءلت بذلك كما أسلفت الأساليب الخبرية (أو الإقناعية) بالمقارنة مع السنوات الأولى للعهد الجديد لأنه لم يعد السياق يقتضي إقناع الشعب بحكمة الرؤية المولوية التي أصبحت أمرا طوطولوجيا ولم تعد مسألة النوايا مطروحة لإدراك عموم الشعب المغرب وكل فاعلي أطراف النسق السياسي والسوسو-اقتصادي محورية المؤسسة الملكية ودورها.

¹- خطاب الذكرى الأولى لاعتلاء الملك محمد السادس عرش أسلافه الغر الميامين

- كما وردت أساليب وأدوات النداء للتنبيه والدعوة وحتى للإستغاثة وطلب الحيلة والحذر من عموم الشعب ومن المصالح الأمنية في خطابه المرجعي المخلد للذكرى السابعة عشرة لعيد العرش، فاستغرق التحذير نهاية فقرة بأكملها، قبل الحديث عن البنية الدلالية الكبرى للإستثمار الاجنبي وللحضور الوازن للمستثمرين والرأسمال الأجبيين، فاستأثرت هذه النية 12 فقرة من فقرات خطاب محوري ومكثف مثل خطاب العرش¹.

ويمكن فهم مساحة الإهتمام من خلال ربطها بمساحة الثقة التي يضعها جلالتة في السيد المدير العام للجديد للأمن الوطني الذي يقود في ذات الآن مديرية مراقبة التراب الوطني، وما يتوسمه فيه جلالتة من وثوقية جعلت جلالتة يعطي المسؤول الجديد صلاحيات التغيير والإصلاح في هذا الجهاز الحيوي لعلمه بصلاح الشخص الذي وضعه على رأس مديريتين عامتين، وقدرته على تخليق المرفق الأمني وتصحيح الإختلالات في أفق مصالحته مع محيطه ومع مهامه، صونا للمصلحة العامة وضمانا للإستقرار وحفظ النظام والأمن العامين.

ما أوردته حول ما يخرج إليه الخبر من معاني وأغراض تختلف باختلاف المقام، من تعجب وتمني وتعظيم ونهي وأمر ونفي ودعاء وطلب، يجعلني أقف عند مصطلح "الإنشاء" الذي كان يرد في كتابات البعض قديما على أنه "طلب"² أو "نوع من أنواع الإنشاء"³.

- أما الأساليب الإنشائية، فقد وردت بشكل كبير على شكل أوامر إلزامية بنسب تكرار كبيرة في الخطابات عينة فترة الدراسة، فضلا عن النداءات.

• الجمل الإنشائية

فقد توزعت الأساليب الإنشائية، بين الإرشاد على سبيل الأمر والأمر على سبيل الإرشاد، وعلى سبيل الالتزام، وعلى سبيل الطلب والدعوة، فضلا عن أساليب إنشائية جاءت للترغيب والوعد وأخرى للتهديد الضمني والوعيد.

كما تواترت الأساليب الإنشائية في الخطابات المولوية بشكل استدعى منها استدعاء مطلوب غير حاصل وقتالطلب، وشمل مجموعة من الظواهر الأسلوبية المتنوعة بتنوع الصيغ الكلامية (الأفعال الكلامية) وأساليبها، أو بتنوع أغراضها التواصلية، فتراوحت بين الأمر والنهي والإستفهام والتمني وتوجيه النداء والدعاء والدعوة.

¹ - ورد في الخطاب المذكور ما يلي: "وبنفس الإرادة والعزم، نعمل على ضمان أمن المغاربة وسلامتهم، وعلى صيانة استقرار البلاد، والحفاظ على النظام العام./ شعبي العزيز، 1/ إن صيانة الأمن مسؤولية كبيرة، لا حد لها، لا في الزمان، ولا في المكان. وهي أمانة عظيمة في أعناقنا جميعا. 2/ وأود هنا، أن أعبر لمختلف المصالح الأمنية، عن تقديرنا للجهود الدؤوبة، والتضحيات الجسيمة، التي يقدمونها في القيام بواجبهم الوطني. 3/ كما أشيد بالفعالية، التي تميز عملها، في استباق وإفشال المحاولات الإرهابية، التي تحاول يائسة ترويع المواطنين، والمس بالآمن والنظام العام. 4/ وإننا نقدر الظروف الصعبة، التي يعمل فيها نساء ورجال الأمن، بسبب قلة الإمكانيات. فهم يعملون ليلا ونهارا، ويعيشون ضغوطا كبيرة، ويعرضون أنفسهم للخطر، أثناء القيام بمهامهم. 5/ لذا، ندعو الحكومة لتمكين الإدارة الأمنية، من الموارد البشرية والمادية اللازمة لأداء مهامها، على الوجه المطلوب. 6/ كما يتعين مواصلة تخليق الإدارة الأمنية، وتطهيرها من كل ما من شأنه أن يسيء لسمعتها، وللجهود الكبيرة، التي يبذلها أفرادها، في خدمة المواطنين. 7/ إن مصداقية العمليات الأمنية، تقتضي الحزم والصرامة في التعامل مع المجرمين، ومع دعاة التطرف والإرهاب، وذلك في إطار الالتزام بالقانون، واحترام الحقوق والحريات، تحت مراقبة القضاء. 8/ وأمام تزايد التحديات الأمنية، والمؤامرات التي تحاك ضد بلادنا، أدعو لمواصلة التعبئة واليقظة. 9/ كما أؤكد على ضرورة التنسيق بين المصالح الأمنية، الداخلية والخارجية، ومع القوات المسلحة الملكية، بكل مكوناتها، ومع المواطنين. فالكل مسؤول عندما يتعلق الأمر بقضايا الوطن. 10/ فأمن المغرب واجب وطني، لا يقبل الاستثناء، ولا ينبغي أن يكون موضع صراعات فارغة، أو تهاون أو تساهل في أداء الواجب. وإنما يقتضي التنافس الإيجابي، في صيانة وحدة الوطن، وأمنه واستقراره. 11/ فليس من العيب أن تكون الدولة قوية برجالها وأمنها، وأن يكون المغاربة جنودا مجتدين للدفاع عن قضايا وطنهم. 12/ أما على المستوى الخارجي، فإن التنسيق والتعاون، الذي تعتمد المصالح الأمنية ببلادنا، مع نظيراتها في عدد من الدول الشقيقة والصديقة، قد ساهم في إفشال العديد من العمليات الإرهابية، وتجنيد هذه الدول مآسي إنسانية كبيرة.

² - مفتاح العلوم، نفس المرجع، ص. 414.

³ - الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة والمعاني والبيان والبديع، مختصر تلخيص المفتاح، تحقيق رحاب عكاوي، دار الفكر العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 2000، ص. 107.

فالدعوة أو التمني عندما يصدران عن صاحب الجلالة يعتبران ضرباً من ضروب الأمر وفق المسارات التي تتخذها ومعانيها ومدلولاتها والمقام الذي يورده صاحب الجلالة فيها وما يتعلق بالصيغة الكلامية من قرائن: فالإنشاء الذي يستدعي مطلوباً غير حاصل في خطاب العاهل وقت الطلب يصير طلب الحاصل أو المحصل ولو بعد حين: هذا الإستعمال المجازي هو ما يجعل الأساليب الإنشائية الطلبية حُبلى بالمعاني والإقتصاد في القول للتعبير عن العديد من المقاصد وفق السياقات التي تُرد فيها.

فلم استعمل العاهل الإستفهام في بعض خطابه؟ لقد وظفه وفق أغراض متعددة بلهجة تتراوح بين التساؤل ("ويبقى السؤال المطروح: ماذا فعلنا بما حققناه من تقدم هل ساهم فقط في زيادة مستوى الاستهلاك، أم أننا وظفنا ذلك في تحقيق الرخاء المشترك لكل المغاربة وإلى أي درجة انعكس هذا التقدم على تحسين مستوى عيش المواطنين" (...)) فهل كان بإمكان المغاربة، وأنا في مقدمتهم، أن يتخيلوا بأن بلادهم تتوفر على أكبر ميناء بحوض المتوسط، وعلى أكبر محطة للطاقة الشمسية في العالم وهل كان بإمكان أي مواطن أن ينتقل عبر الطريق السيار، من أكادير إلى طنجة، أو من الجديدة إلى وجدة؟¹ ("المساءلة") ("أين هي هذه الثروة وهل استفاد منها جميع المغاربة، أم أنها همت بعض الفئات فقط")²؛ ("لكن لماذا لا تعرف هذه المدينة، التي هي من أغنى مدن المغرب، التقدم الملموس الذي يتطلع إليه البيضاويون والبيضاويات على غرار العديد من المدن الأخرى؟") (...) "وهل يعقل أن تظل فضاء للتناقضات الكبرى إلى الحد الذي قد يجعلها من أضعف النماذج في مجال التدبير الترابي؟"³، أو آية على الشكر أو طلب الشكر ("ونجدد آيات الشكر للمنعم العظيم على النحو الذي يحثنا الله عليه في قوله الكريم (...) فهل أنتم شاكرون؟"⁴، لأن إبراز ما سيتحدد في معرض الثابت أدل على كمال العناية بحصوله من إبقائه على أصله في "فهل تشكرون" حيث دخلت هل على الفعل حقيقة⁵.

فالإستفهام هنا لم يرد بأداة خاصة لطلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من ذي قبل، بقدر ما صدر عنه لعلم جلالته الصميم، لأن صاحب الجلالة أسس استفهامه "بعد الاطلاع على الأرقام والإحصائيات، التي تتضمنها هاتين الدراستين، والتي تبرز تطور ثروة المغرب"، ليتساءل "باستغراب مع المغاربة: أين هي هذه الثروة وهل استفاد منها جميع المغاربة؟".

فوفق التقسيم الذي أقامه العلماء بين "هل" البسيطة و"هل" المركبة⁶، فالعلم بوجود الثروة أمر لا شك فيه، ولكن المجهول والمطلوب معرفته هو ثبوت استفادة جميع المغاربة أو نفيه عنه، لذا تتم الإجابة عنه في الإثبات بـ "نعم" وفي النفي بـ "لا".

لو رُمت الذهاب ببحثي بعيداً لاستقرأت العديد من صيغ الإستفهام والمعاني الفرعية التي يحيل عليها بتنوع المعاني المتفرعة عن الإستفهام والتي تعادل تنوع المقام، حيث وصل السيوطي بدلالات الإستفهام التحويلية إلى اثنين وثلاثين دلالة، أوردها "حسام أحمد قاسم"⁷، واسترسل فيها قبله العلامة "شمس الدين بن الصائغ" في كتابه الموسوم "روض الإفهام في أقسام الإستفهام"، حيث كان الدرس العربي قديماً سباقاً لدراسة الصيغة الأصل أو الفعل الكلامي المباشر وما ينتج عنها من صيغ مجازية فرعية تفهم من سياق الحال وقرائن الأحوال بفهم تداولي ورؤية تحليلية سابقة لعصرها.

1 - خطاب الذكرى الخامسة عشرة لعيد العرش المجيد

2 - نص الخطاب الذي ألقاه جلالة الملك في افتتاح الدورة الأولى من السنة التشريعية الثالثة من الولاية التشريعية التاسعة

3 - خطاب الذكرى الأولى لاعتلاء الملك محمد السادس كرسي العرش

4 - الخطيب القزويني: شرح التلخيص في علوم البلاغة، شرحه وخرج شواهد: محمد هاشم دويكري، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، 1982، ص. 84

5 - الإيضاح في علوم البلاغة والمعاني والبيان والبدیع، نفسه، ص. 109

6 - حسام أحمد قاسم: تحويلات الطلب ومحددات الدلالة: مدخل إلى تحليل الخطاب النبوي الشريف، دار الآفاق العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2007، ص. 117.

كما أن استعمال الإستفهام يأتي في سياق الأمر وطلب الفعل على وجه الإستعلاء من صاحب الجلالة (باعتباره أعلى منزلة على المستوى الرمزي والإعتباري) إلى من هم أدنى منه منزلة، لأن الأمر عند العرب إذا لم ينفذ من طرف المأمور به، يعتبر هذا الأخير عاصيا وأمر ولي الأمر معصي في محصلة الأمر.

ففي خطاب جلالته الموجه إلى الأمة حول حال الدار البيضاء كأغنى مدن المغرب، وأحوال البيضاءويين الذين يعيشون في مجالات تعتبر من أضعف النماذج في مجال التدبير الترابي، يوجه صاحب الجلالة أمرا للسلطات المحلية والمنتخبة من أجل القيام "بتشخيص عاجل (...) من أجل تجاوز ما تعاني منه العاصمة الاقتصادية من ضعف في الحكامة".

فالأمر الملكي الضمني يفترض التحقق والدراسة والإفتحاص على الفور لأن حمولته الدلالية تستوجب تنفيذ المطلوب على عجل، فلا يحق بذلك للمأمورين أن يسترخوا أو يُماطلوا في تنفيذ ما صدر عن جلالته من أوامر بصيغة معاتبة في حق الأمرين بالصرف أو حتى المتأمرين عليه، فحضهم بلغة أمرة على التصرف على سبيل الإستعجال وصرف ميزانية المجلس الجماعي للدار البيضاء التي "تفوق بثلاثة إلى أربعة أضعاف تلك التي تتوفر عليها فاس أو مراكش مثلا" في وجوه صرفها التي تكفل تحقيق منجزات في مجال توفير وجودة الخدمات الأساسية التي تتجاوز مؤشراتهما بالمدينتين المذكورتين ما تم إنجازه بالدار البيضاء.

فلأمر قوة إنجازية تتحقق بمجرد التلفظ به، فيتحول الأمر من مجرد ملفوظ (سلسلة من الأصوات) إلى عمل يحقق وينجز في الواقع، وهذا ما يركز عليه أوستين في محاضراته "كيف تفعل الأشياء بالكلمات"، والتي ميز من خلالها بين ما سماه **بالجمل الوصفية** (التي تصف حدثا ما دون أن تحقق فعلا في الواقع) و**الجمل الإنجازية** التي حددها من خلال سلسلة من المعايير المقالية (من بينها أن الجملة يجب أن تشمل على فعل إنجازي مثل الجمل الأمرية والإستفهامية وجمل النهي والوعد والوعيد والتأنيب والتأديب وغيرها، بحيث يقع الفعل بمجرد التلفظ بالجملة).

ما سبق ذكره يحيل على خلاصات ما اصطلاح عليه التداوليون المعاصرون بـ"نظرية الأفعال الكلامية" التي تعتبر أهم الركائز التي قامت عليها اللسانيات التداولية في منظومة البحث اللغوي العربي المعاصر، حيث شكلت خير مجسد للإستعمالات اللغوية على أرض الواقع وبما يفعله المتكلمون باللغة من تبليغ وإنجاز وفعل وتفاعل تأثير.

وقد ورد لفظ الأمر في العديد من مقاطع الخطابات الملكية عينة الدراسة، وجاء محملا بالعديد من المعاني التي تراوحت بين التمني والدعاء والدعوة والإلتماس في الخطابات التي يلقيها جلالته بمناسبة مآدبات العشاء التي يقيمها جلالته على شرف ملوك ورؤساء الدول الشقيقة والصديقة، فكانت تقتضي منه خروج دلالة الأمر الحقيقة نحو معاني **التلطف** عند مخاطبة الند والمعادل السياسي الذي يناظره في المنزلة السياسية والبروتوكولية أو حتى **المناشدة** ("واصلت لجنة القدس عملها الدؤوب للمحافظة على مدينة القدس وطابعها التاريخي والحضاري والديني... عبرت عن رفضها للتوصية الصادرة عن مجلس النواب الأمريكي بنقل السفارة الأمريكية إليها مناشدة الإدارة الأمريكية عدم تنفيذ هذه التوصية المخالفة لقرارات الشرعية الدولية")¹.

1- من نص التقرير الذي قدمه جلالة الملك محمد السادس، رئيس لجنة القدس، إلى القمة الإسلامية التاسعة

أما بخصوص أدوات النداء في الخطابات الملكية، فقد استعملت في غير معناها الأصلي فتمخضت عنها معاني تتجاوز طلب الإقبال، إلى المطالبة بقبول تقاسم الرؤية المولوية لعدد من القضايا والملفات. كما ترد بمعنى الإختصاص، كما هو الشأن عند مخاطبة صاحب الجلالة للسادة ممثلي الأمة أو علمائها ("معشر العلماء الأجلاء")¹ أو التخصيص من خلال لازمة "أيها الحضور الكرام"، في نص الرسالة السامية لتي وجهها جلالته للدورة الوطنية السادسة لبرلمان الطفل.

وقد استعمل والده الملك الراحل صيغة العرض باعتباره طلب أمر ما بلين ورفق من خلال استعمال "ألا" التي وردت في السياق الذي سنورده بمعنى الإستفهام القائم على وجود دلالة العرض بلين ورفق، ذلك أن مصدر اللين هو ما في الإستفهام من تفويض الفعل للمخاطب وتخيره فيه ونفي احتمال الإخبار الذي قد يوحي به الأمر: "ألا ترون أن 182 ألف منصب شغل سنويا إن لم تكن مائة بالمائة، فهي من الحوافز التي يجب أن تدفعنا لأن نسير إلى الأمام".

وتجاوزت معظم التعابير التي تصدرتها "ألا" معنى الإستفهام في العديد من الجمل، حيث ورد كطلب فيه نوع من الحدث، وانتظار فعل أقوى لأن التحضيض أقوى سطوة من الطلب.

أما الإنشاء غير الطلبي، فلا نكاد نصادف أي نوع من أنواعه، سواء تعلق الأمر بأفعال التعجب، أو أفعال المدح، أو الذم، أو أفعال الرجاء أو القسم أو "كم" الخبرية.

ما راقني أكثر في فكرة الأفعال الإنجازية في الفكر الأوستيني مثلا، هو كونه أول من أسس للتمييز بين الملفوظات الوصفية والملفوظات الإنجازية، في رد منه على فلاسفة اللغة الوضعانيين، الذين حصروا مهمة اللغة في إنتاج تراكيب خبرية تقبل الحكم بالصدق إذا طابقت الواقع الخارجي أو بالكذب إذا لم تطابقه، حيث باشر أوستين مهمة تحرير مجال استعمال اللغة من سجنها الضيق داخل الجمل الوصفية، إلى رحابة التمييز بين الملفوظات الوصفية (أو التقديرية الإخبارية)، والملفوظات الإنجازية (أو الإنشائية، الأدائية أو الذاتية) التي تختلف عن سابقتها من حيث كونها لا تصف واقعا خارجيا ولا تخضع لمعيار الصدق والكذب، لتكتسي بذلك قيمتها من كونها ملفوظات ذات طابع إنجازي، أي أنها تُندرز فعلا بمجرد التلفظ بها.

فالملفوظات الوصفية داخل الخطاب الحزبي مثلا تصف حدثا أو حالة معينة دون فعل أو قدرة على تجاوز القول إلى الفعل، على النقيض من الملفوظات الإنجازية في الخطابات المولوية التي تنجز قولاً وفعلاً في الوقت ذاته، فضلا عن قدرة الجمل الإنجازية في خطابات العاهل على التأثير في الواقع بعد التأثير فور زيارة بعض المواقع، متجاوزة مستوى الحكم بالصدق أو الكذب أو إخضاعها لمعيار النجاح أو الفشل. إلا أن تحقق الفعل الكلامي في الخطاب الملكي يستجيب للمعايير التي سبق لأوستين أن اشترط توافرها، لأن في خرق أحدها خرقا لشرطي النجاح والإكتساح اللذين يرومهما جلالته كخطيب.

هذه المعايير التي يتعلق بها لزوما نجاح أو فشل الفعل الكلامي المولوي تتعلق أساسا بـ:

● **المعايير المقامية** التي تضمن على الدوام لفعل الكلام المولوي النجاح، لأنها تقوم بدورها على شرط مراعاة كلام صاحب الجلالة للشروط المتعارف عليها داخل العشيرة اللغوية المغربية، فضلا عن إشراك جلالته لرعاياه من خلال الخطابات الجماهيرية التي يُوجهها لهم ليحوز اتفاقهم على إنجاز الفعل الكلامي، الذي يمضي فيه جلالته دون أن يوحي إليه أحد ما بقوة التراجع أو بمراجعة الموقف، فيظل الموقف الكلامي الذي اتخذته جلالته على حاله حتى آخر رفق من مراحل إنجاز القول الذي صدر عنه.

¹ - من نص التقرير الذي قدمه جلالته الملك محمد السادس، رئيس لجنة القدس، إلى القمة الإسلامية التاسعة نص الخطاب السامي الذي ألقاه أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس بمناسبة تروّس جلالته بجامع القرويين بفاس حفل تنصيب أعضاء المجلس الأعلى لمؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة

فالخطاب الملكي كإجراء عُرفي ومؤسساتي ومناسباتي أيضا يحوز القبول والإقبال من طرف فئات عريضة من المتتبعين لخطب جلالته الذي يحظى بثقة ومصداقية تضمن له إنجاز الفعل ونجاحه. كما أن الأداء الكلامي لصاحب الجلالة يوحى للمتلقي، كل حسب اختصاصه، بإنجاز الفعل المنوط به أداءً صحيحاً، فيؤدي "بذلك أي خرق لشروط الفعالية في تنزيل القول الكلامي المولوي إلى إخفاق الفعل وفشله والحيولة دون أدائه أو أدائه بشكل سيء، ويسقط فيما يسميه "أوستين" "الإخفاقات" أو "الإساءات"¹.

● **المعايير المقالية:** تعتبر العنصر الثاني الذي يتعلق به لزوماً نجاح أو فشل الفعل الكلامي المولوي.

هذه المعايير المقالية توفرت تقريباً جميع شروطها في الخطابات الملكية فكفلت ضمان نجاحها كفعل كلامي بمجرد الإفضاء بها من طرف جلالته، والتي يشترط فيها الدارسون ما يلي²:

- أ- أن ينتمي الفعل الإنجازي إلى فئة الأفعال الإنجازية نحو: أمر، حذر، وعد، رهان غيرها؛
- ب- أن يكون الفاعل هو نفسه المتكلم؛
- ت- أن تكون الأفعال الإنجازية مبنية للفاعل؛
- ث- أن يكون زمن الفعل هو زمن المتكلم، أي أن يكون الفعل متصرفاً في الحاضر.

فمدار الخطاب الملكي أفعال إنجازية ناجزة لا تخرج عن فئات الأفعال الإنجازية، وهو في ذات الآن الفاعل والمتكلم، وجميع الأفعال الإنجازية تبنى على فعله الشخصي أو تفعيله أو مستويات تفاعله مع عموم شعبه.

ولا تُصرف الأفعال التي تصدر عنه إلا في الحاضر، على النقيض من الأفعال التي ترد في الخطاب السياسي في زمن المستقبل أو في زمن غير زمن النخبة السياسية الهرمة، لتبقى خطاباتها مجانية لجميع أو جل الشروط التي أوردناها، فلا تتجاوز بذلك جملها عتبة العبارات الوصفية.

ويمكن أن أستخلص من المستوى الشكلي تعليقاً على ظاهرة فرضت نفسها على نتائج الإحصاء الكمي الذي باشرته في بداية بحثي على عينة خطابية ثابتة محدودة في الزمن لا تتجاوز خطابات العشرية الأولى لتربع جلالته على عرش أسلافه الميامين.

إلا أنه اتضح لي أن الخطابات المهمة والمحورية التي تلت الفترة المرجعية 1999-2009 ستجعل العينة الثابتة غير تمثيلية *Non représentativité de l'échantillon des discours correspondant à la période de référence retenue* وما يمكن أن يحق بالبحث من تجزئ أو تغريد خارج الزمن، خاصة أن فترة استكمال الأطروحة والتمديد الذي تفضلت رئاسة الجامعة والوزارة الوصية مشكورة بمنحه لعموم المسجلين بأسلاك الدكتوراه اقتضى مني أيضاً تمطيط العينة لتشمل خطابه التاريخي أمام عموم الشركاء الأفارقة وبعض الفرقاء خلال الحفل الاختتامي للقمة الثامنة والعشرين للإتحاد الإفريقي المنعقد في متم شهر يناير 2017 في أديس أبابا وموافقته على "عودة المغرب إلى حظيرته"، لأن "إفريقيا هي بيتي، وقد حان وقت العودة".

¹-Quand dire c'est faire, Op.cit p.50

²-Ibid. pp. 49 et 50

❖ ثالثاً: عناصر الصياغة والترتيب

أ- عناصر الصياغة المعجمية وبنيتها:

• دلالات المعجم

يُسهّم تبين دلالات المعجم الموظف بوضوح في كشف العوالم الداخلية للخطاب، وتلمس معالم الرؤية الملكية، بنفس قدرة الدراسة الإحصائية على إتاحة الإطلاع على بعض الترددات ذات المغزى، التي تسهم في رصد المحاور التي يدور عليها الخطاب.

فقد ترد مفردات حقل ما عدد من المرات في نفس الخطاب، إلا أن البنية اللغوية لا تتحدد بالكلمات، بل بالصيغ.

ويُملي البعد التواصل للخطاب على لغته ضرباً، بل ضرباً مختلفة من الخصوصية، التي تتنافى وإخلال خطابات الخشب السياسية بمنهجية الاعراف التواصلية بتجاوزاتها الصرفية والنحوية، وبالطابع المزاجي لخطابها والتطبع المجازي للغتهم الممزوجة بالتركيب والحذف والإضمار.

فالخطابات الملكية تستثمر معطيات اللغة النفعية العادية، وتشكل حقلاً للأسلوبية التي حملت على عاتقها الربط بين المنجز الخطابى وحامله الأسلوبى وبالتالي فهم التفاعل بين جمهور التلقي ونص الخطاب الملكى.

كما أن الكشف عن الحامل اللغوي أو المنجز اللغوي للخطاب الملكى لا يكون إلا بتحليل بنيته اللغوية، لأنه في النهاية ليس إلا طريقة للتأليف بين مستويات الأصوات والدلالة والبنية النحوية والصور الحجاجية التي تدعم معالجته وتحليله تحليلًا تكاملياً، لأن الخصوصية اللغوية الفردية المنجزة أو الحاملة تحمل على التفكير في تفسيرها ماهيةً وآليةً وهدفًا، فيُعوّل عليها بذلك للفصل بين الموقف الذاتى لصاحب الجلالة ووقوفه على نفس المسافة مع عموم شعبه، لتفجير طاقات اللغة الكامنة بين يديه، والتحرر من شروط صياغة الخطاب السياسى بسفسطته وقيوده التي فرضتها الذهنيات الاجتماعية والممارسات الدّهانية لأفراد الجماعة السياسية الحزبية والنقابية والجمعوية في إنشاء السياقات والصلات اللغوية بين المفردات، بفضل ابتكار سياقات جديدة وإلى إنشاء علائق متميزة وارتباطات حميمة غير مستهلكة بين عناصر اللغة المختلفة.

بهذا المعنى، يقتضى الشروع في تحليل الخطابات الملكية أن أطل عليها إطلالة عامة تجلو التقنية الأسلوبية التي يقوم عليها طابعها الإتصالي وتفسر ما لها من طاقة انفعالية تأثيرية، وذلك على ما يلاحظ فيه للوهلة الأولى من بساطة ووضوح ومباشرة في البنية التعبيرية، وفي البنية الفكرية الدلالية، ولعل كل ما في هذا الخطاب من بنى فكرية دلالية، وبنى صوتية صرفية صرفة ومفرداتية وصرفية ونحوية يشي بالتلقائية والإلتقائية بين لحظات الحالات الإنفعالية لفئات من الشعب لحالة الانفعالية، وحكمة وتفاعل وفعالية الفعل المصحح للوضع كما يبتغيه صاحب الجلالة.

مفردات هذه الظاهرة الصوتية تشكيل صوتي صرفي يتناغم بعفوية تلقائية مع عمق انشغال صاحب الجلالة بأوضاع شعبه بكثير من الفعالية التي قد تصل به إلى حد الإنفعال على بعض المسؤولين في إطار "الغضبات الملكية" التي أطاحت برؤوس تدير مفاصل الدولة.

تلك الغضبات تشي بها اللهجة الصارمة التي ترد في بعض الفقرات من خطابه، حيث تقوم بنيتها العامة في الأعم على ما يشبه التمهلات المقطعية التي يستقل كل مقطع فيها عن الإطار العام للديبلوماسية التي تميز خطاب جلالته وتقتضي منه مراعاة الوضع الرمزي للملك الذي قال "وبصفتي الساهر على احترام الدستور وحسن سير المؤسسات وعلى صيانة الاختيار الديمقراطي، فإنني لا أشرك في أي انتخاب، ولا أنتمي لأي حزب. فأنا ملك لجميع المغاربة مرشحين، وناخبين، وكذلك الذين لا يصوتون. كما أنني ملك لكل الهيئات السياسية دون تمييز أو استثناء... وكما قلت في خطاب سابق، فالحزب الوحيد الذي أعتز بالانتماء إليه هو المغرب".

بنفس التوتر الذي تحمله هذه الفقرات التي لا تتواتر في الخطابات، بقدر ما ألفت تواتر التراكيب النحوية المتوازية والموقّعة، والتي تكسب البنية الصوتية للخطابات الملكية وفقراتها حيوية وحركية وتنوعا وتجددًا، مع وفائها لمتطلبات التنويع التنغمي، فتجعل الفرق بين المفهوم الكمي والمفهوم الكيفي الإيقاعي للوزن بين فقرات الخطاب الملكي جليا، حتى لا يتسرب الملل لجمهور التلقي.

وتُسهم هذه البنية الموسيقية في تشكيل لغوي يجمع في معماره الصوتي والصرفي والتركيب بين البساطة والعمق والقدرة على تقديم حالة انفعالية تأثيرية لها بالغ الاثر على الشعب، لأنها تترجم تعاطف وتفاعل وعطف صاحب الجلالة، وتترجمها القدرة التفاعلية للعاهل والكفاءة التداولية للأفعال الإنجازية، والقدرة الانفعالية التأثيرية التي لا تقوم في الأعم على الصور الفنية الجديدة أو المعقدة، ولا على حتى على التراكيب النحوية المبنية على تجاوز المؤلف من العلاقات الدلالية بين مفردات معجمه اللفظي، بقدر ما تتوكل على التعبير المباشر المجرد من الصورة الفنية المعقدة أو الطريفة، وعلى التوارد المعجمي التقليدي المؤلف في العلاقات الدلالية بين مفردات اللغة، ابتداء بمفرداته ومرورا بتراكيبه، وانتهاء بمقولاته الدلالية العامة.

ويتبع المتن الخطابي المولوي بوصلة الذائقة المحكومة ببؤر التوتر والتعابير الاجتماعية الأكثر إحاحا والتي يحتمل أن تنزلق إلى التعبير الإحتجاجي، ويحركها في الإتجاه الذي يكفل لمضامينه مزيدا من القدرة التأثيرية قبل التأثيرية، التي تعكسها مفرداتها وعمقها وحرارتها ومساحات التعبير الصادق الذي ينبض به الخطاب الملكي أو رسالة التعزية والمواساة توزيعيا وإيقاعيا.

كل هذه العناصر تجعل الخطاب الملكي متنا خطابيا يتمظهر بمساحات صوتية إيقاعية على درجة من التعدد والتنوع والغنى بالتلوينات التي تُسبغ عليه حركية وحيوية إيقاعية، دون انحراف عن المؤلف في اللغة النفعية العادية أو انزلاق نحو مجازات العرب كالحذف والتكرار والإخفاء والإظهار...

جدير بالذكر أن الخطابات الملكية كانت منذ الأزل، ولم تزل، قائمة على مراعاة مقتضى الحال وأحوال المغرب، على نحو جعل المؤسسة الملكية تغير في آخر اللحظات بعض فقرات خطاباتها لتنسجم مع سياقها، كما في إسرار جلالته لشعبه بما يلي: ("ولا أخفي عليك شعبي العزيز على أنني كنت موجها خطابي هذا توجيهها آخر، فإذا بمعلومات تصلني بوسائلها الخاصة، موثوق بها جدا: أن الدولة الإسبانية مقررّة العزم أن تكتب إلى هيئة الأمم المتحدة تطلب إليها رسميا الشروع في مسطرة تقرير المصير. كما بلغني من بعض الإيضاحات والمعلومات السرية الخاصة ما يفيد بأن إسبانيا طلبت وبوعدها أنها أن تجري الاستفتاء في ظرف ستة أو سبعة أشهر. حسنا، نحن لا نخوف من الاستفتاء وتقرير المصير ولا نتهرب منهما، بل نحن أول من دعا إليهما في يوم من الأيام")¹.

¹ - "من أجل تحرير أراضينا المغتصبة الصحراء، سبتة، مليلية والجزر الجعفرية 1974-1975: طبعة جديدة بمناسبة الذكرى الأربعين للمسيرة الخضراء، نونبر 2015، سلسلة دفاتر الصحراء، منشورات وزارة الإتصال، العدد الثاني، ص. 42.

• بنية المعجم

يفيد التنقيب في البنى المعجمية وضوحا في معاني مفردات الخطاب الملكي وسهولتها مع تقليدية العلاقات التركيبية الدلالية التي تربط فيما بينها، حيث يهيمن على هذه العلاقات توارد معجمي لا يتجاوز المؤلف المتداول من العلاقات الرابطة بين المفردات في اللغة العادية، فضلا عن توزع مفردات معجم الخطابات الملكية التي تلقى بنفس المناسبة حقول دلالية ثابتة عموما وقابلة للتصنيف في موضوعات كلية بتنشيطات جزئية تتكرر محاورها في كل خطاب، مالم يقتض سياق من السياقات زيادة محور وافد أو الإستعاضة به عن محور من المحاور التقليدية.

في حديث جلالته عن والده وجده الملكين المجاهدين محمد الخامس والحسن الثاني طيب الله ثراهما، نجد أن خطاب العاهل يصطبغ بخطاب الرثاء والمزوج بالثناء على سجايا وخصال الفقيدين الخلقية والخلقية، فتنتال قيم الشجاعة والشرف والمروءة والشهامة والسيادة والإيثار وخدمة الوطن، بمفردات متكررة حينا ومتنوعة في أحيان كثيرة، لتأكيد ذات قيم السؤدد والسيادة والسمو الخلقي والخلقي في شخص الوالد أو الجد المرثي، لتكون بعض فقرات الخطابات الأولى لاعتلائه العرش خصوصا مرثيات تغترف الأفعال والأسماء والصفات من معجم الحزن في العربية والتعبير عن فقد من كان يتفقد أحوال شعبه، على نحو جعل صاحب الجلالة في خطابه المعلن عن اكتشاف البترول بتالسينت يقول "وإنه ليسعدنا في غمرة الاحتفال بالمناسبتين المجيدتين أن نزف اليك- شعبي العزيز- بشرى اكتشاف النفط والغاز من النوع الجيد بناحية تالسينت بالأقاليم الشرقية العزيزة علينا.... وكم كنا نتمنى لو أن والدنا المقدس كان هو المبشر لك بهذا الاكتشاف لما كان له-رحمه الله- من سهر على مصالحك العليا ومن سعي إلى كل ما يفرحك ويسعدك وما كان له من نظرة بعيدة ومن حرص على أن يدخل المغرب الألفية الثالثة وهو مؤهل لمواكبة التحولات العالمية الجديدة والمساهمة الفاعلة فيها"¹.

ولعل هذا الإفراط في التعبير عن المعاني الجزئية المتكاملة التي مدح به المرثي وأثنى عليه، لا يفيد انفراط اللغة بقدر ما يفيد فرط تعلقه بوالده الذي علق على ولي عهده قيد حياته كل الآمال لمواصلة مشروع " دخول المغرب الألفية الثالثة وهو مؤهل لمواكبة التحولات العالمية الجديدة والمساهمة الفاعلة فيها".

ومن تمام الحديث عن معجم الخطاب في هذا السياق النظر في بنيته الضميرية التي تشكل بعلاقاتها آلية للكشف عن أثر البنية في معمار النص الخطابي، حيث وجدت أن تلك البنية الضميرية تكتسي تجليين إثنيين:

- أحدهما عميق يتمثل بأصوات الشخصيات الرئيسة القارة في البنية العميقة للخطاب؛
- وثانيهما سطحي يتمثل بالتحقيق اللفظي لهذه الأصوات.

لذا، كان التجلي العميق للبنية الضميرية في الخطابات الأولى للعرش وخطابات ثورة الملك والشعب يعكس صدى صوت المرثي وامتداد ذكراه وحض الشعب ممن جابله أو سمعوا عنه على تذكره كي لا يطويه النسيان (دون أن ننسى موقفه الشهم المشهود-والحديث هنا عن محمد الخامس رحمه الله- إلى جانب العالم الحر، في التصدي للنازية والفاشية)²؛ (وفي هذا اليوم، نستحضر بكل تأثر وإجلال، ممزوج بمشاعر التقدير والامتنان، ذكرى الملكين الراحلين، جدنا المنعم صاحب الجلالة الملك محمد الخامس طيب الله

¹ - من خطاب الذكرى السابعة والأربعين لثورة الملك والشعب الذي صادف الذكرى السابعة والثلاثين لعيد الشباب المجيد

² - من خطاب الذكرى الخمسين للاستقلال

ثراه، الذي بر بالوطن وضحى في سبيله وكانت له مكرمة تأسيس النواة الأولى للقوات المسلحة الملكية كرمز للسيادة الوطنية، ووالدنا المنعم صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني تغمده الله برحمته، الذي كان له الفضل الكبير منذ فجر الاستقلال في تأطير وتجهيز وتأهيل قواتنا مع الرقي بمؤهلاتها البشرية والمادية والتقنية¹ أو ينسأه عموم الحجاج من صالح الدعاء ("وتضرعوا إليه عز وجل بأن يرينا في ولي عهدنا، صاحب السمو الملكي الأمير الجليل مولاي الحسن، وكافة أفراد أسرتنا الملكية الشريفة، ما تقر به العين، ... وعلى شعبنا العزيز... وعلى بلدنا ... وأن يشمل برحمته وغفرانه جدنا ووالدنا المنعمين، صاحبي الجلالة الملكين محمد الخامس والحسن الثاني، أكرم الله مثواهما، في جنان الخلد، "مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا")².

والملاحظ أن البنية الضميرية تخفت لأحد ذينك الصوتين أو كليهما تخفت بحسب المناسبة وبتوالي سنوات تربع صاحب الجلالة على العرش، والتحقيق اللفظي لصوتي هاتين الشخصيتين يتمثل بمختلف الضمائر اللغوية من متكلم، وغائب ومخاطب، مع ضمير الغائب على تراكيبه الاسمية والفعلية، أما ضمير المتكلم فقد عرض في كل مرة في نص الخطاب ممثلاً لصوت المرثي وترا (الحسن الثاني) أو شفعا (الحسن الثاني ومحمد الخامس) أو حتى جمعا (فقد لقيت من ملوك الدولة العلوية، من أسلافنا المنعمين، كامل الرعاية وموصول العناية، وكان في مقدمتهم السلطان المولى سليمان الذي تلقى الشيخ سيدي أحمد التجاني بالترحيب والتوقير).³

ويتجلى صوت الراثي بضمير المتكلم الفرد في بضعة تراكيب فعلية نحو (قلتُ، بئ) وإسمية، ولا يكاد يظهر في سياق التجليات الضميرية التي ترد في مقام ذكر وتذكر فقيدي الأمة، حيث نلاحظ عموماً هيمنة التجليات الضميرية بضمير الغائب على التراكيب الاسمية والفعلية الماضية والمضارعية المسبوقة بلام الأمر، ليترجم جدلية الحضور والغياب، وحضوراً ذهنياً واستحضاراً إنجازياً يُبددان الغياب الجسدي: فالبنية العامة للتشكيل اللغوي تبوح بتكرار للغيب وباستجابة داخلية باحت بها البنية الضميرية للتسليم بحقيقة الغياب الجسدي الذي يتحقق له الحضور من خلال ما سلف من منجزات (الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر) والتأسيس لما هو آت (الجهاد الإقتصادي).

ب- تفكيك واجتزاء عناصر ترتيب أجزاء المتن الخطابي المولوي

إذن، إذا كان القصد هو قصد النص، وإذا كان هذا القصد يقصد إلى الاتجاه الذي يفتحه للفكر، يتعين فهم معطى مفاده أن الدلالة العميقة تتحصل بمفهوم دينامي لغاية يتحصن بها.

كما يقف امامي ليدعوني للقول بأن في الشرح إبرازاً للبنية، أي لعلاقات التبعية الداخلية التي تشكل سكونية النص: لذا، فالتفسير يقتضي مني أن أسلك درب الفكر المفتوح بواسطة النص، أي أن أخذ طريق النص ونصانية الخطاب.

¹ - من نص "الأمر اليومي" للقوات المسلحة الملكية الذي ألقاه صاحب الجلالة باعتباره القائد الأعلى ورئيس أركان الحرب العامة للقوات المسلحة الملكية بمناسبة الذكرى الستين لتأسيسها.

² - من إحدى الرسائل التي وجهها صاحب الجلالة إلى الحجاج المغاربة بمناسبة توجه الفوج الأول منهم إلى الديار المقدسة لأداء مناسك الحج

³ - من نص الرسالة السامية التي وجهها صاحب الجلالة أمير المؤمنين بتاريخ 14 ماي 2014 إلى المشاركين في الاجتماع الثالث لأتباع الطريقة التيجانية المنعقد بمدينة فاس

❖ رابعا: التشكيل الأسلوبي

قد يترأى من الممارسات الخطابية الفعلية للمتون التواصلية المولوية أن الراجح في هذا السياق اتخاذه مفاهيم الأسلوبية ظهيرا له، خاصة وأن الخصوصية اللغوية التي تستدعيها الطبيعة التواصلية للخطاب الملكي لا تعني بالضرورة التحرر من المرجعية اللغوية، بقدر ما تعني استثمارا خاصا للطاقات ابتداء بالصوت ومرورا بالمعجم والبنية الصرفية، والتركيب اللغوية، وانتهاء بالعلاقات والقرائن النصية التي تتضافر في إنتاج النص الخطابي الجماهيري.

وقد أثمر ما طبّقته عمليا وما وظفته من أشكال القراءة في التشكيل اللغوي للخطاب المولوي وقوفي على استمرار نمطية نحو الجملة، وتعددية نحو النص، وسطوة المنجز النحوي على البلاغي، لأن الهدف هو الإبلاغ بلغة سليمة بدل الدخول في متاهات بلاغة لا تعطي للنص الخطابي الملكي قيمة في سوق السفسطة الخطابية الحزبية التي تطفح بالغمر والهمز واللمز والبلاغة الشعبوية والشعوبية.

فرغم الخصوصيات اللغوية التي تتطلبها الطبيعة التواصلية للخطابات السياسية عموما والملكية تخصيصا، فلم تتم استباحة القاعدة اللغوية، بقدر ما ألفت استثمارا خاصا لطاقات اللغة ابتداء بالصوت ومرورا بالمعجم والبنية الصرفية، والتركيب النحوي، وانتهاء بالعلاقات والقرائن النصية المتضافرة في إنتاج بلاغة المتن الخطابي من خلال رصانته وبنائه المحكم للتحكم في مسارات الإلقاء وسياقات خلق الإلتقائية مع عموم شعبه الذي يشكل نواة جمهور التلقي.

وعليه، ارتأيت أن أستهل الأمر بالتحليل النحوي لأنه يظل المنهج الأكثر تباثا وديمومة لقراءة آليات اشتغال الخطاب الملكي وفق جميع مستويات اللغة¹ على اعتبار أن التحليل النحوي يظل ضرورة منهجية علمية سبقت الإشارة إليها في الفصل التقديمي لهذه الأطروحة.

كباقي الحقول التي يمكن دراستها ابتداء من اللغة، يتيح تفحص الخطاب المولوي إمكانيات معرفة ممكناته ومكوناته، فضلا عن معرفته كنص يُمَايز الخطابات السياسية الأخرى، وذلك من خلال تتبع المسار الموازي للمسار الذي تتبّعه اللغة، أي العلامة اللغوية، وروح الخطيب-الكاتب والعلاقة التي لا انفصام لها بينهما، في أفق النفاذ إلى روح المتن الخطابي عبر بوابة الظواهر الأسلوبية المحددة في نص الخطاب، والمداخل التي تتيحها بعض عناصره اللغوية التي تنأى بالخطاب الملكي عن اللغو، وتُتمذج في إطار لغته التي تعتبر نفعية أكثر منها فنية، بعناصرها اللغوية المحايدة، حيث لا تكلف فيها ولا اعتساف في ربط كل عنصر من مكونات النص اللغوية.

بعد استثمار ما وقع عليه اختياري بشأن هذه الومضة، يمكن القول في سياق آخر أن التحليل النحوي للخطاب المولوي يضمن سمات ثلاثاً:

- **أولها** قدرٌ معلوم من الموضوعية والمنهجية المحكومة بالمعارف اللغوية، وبالقيم الإيحائية للعناصر اللغوية بمختلف مستوياتها الصوتية والمعجمية والصرفية والتركيبية والدلالية؛

- **هذا** ما يفضي بنا إلى **السمة الثانية**، التي تقوم على إضفاء المزيد من الخصوصية على ممارسة فعل القراءة والنأي به عن التسطيح القرائي الذي ميز القراءات التي وقفت عند الجانب المضاميني لخطابات الملكية ولم تستعذ من غواية استعادة المتن الخطابي ووضعه في الحقول التيمية وفق ترددها، فلا تتردد في رده إلى مظانه دون كبير عناء؛

¹ - الصوتية والمعجمية والصرفية والنحوية والدلالية

- على أن أصدر في تحليلي عن خصوصية قرائية تشكل **السمة الثالثة** من هذه السمات التي تصفيها ذاتية التذوق اللساني للمتن الخطابي بعد تناوله لغويا، لأنه مهما تحريت الموضوعية، فإن تفاعل المتن الخطابي مع سياقاته، ليجعلني بدوري عرضة للتأثر في تفاعلي مع المتن الخطابية لخصوصية تجربتها اللغوية وخصوصية المكون والمكون المعرفي والسياسي والسوسيو-اقتصادي الذي تختزنه طبقاتها، والتي يكفي النبش السطحي بمعاول فوكو في حفريات سلطتها الخطابية و سطوتها وخطاب السلطة فيتحقق فهم خصوصيتها، ومن ثمة النفاذ لخصوصية الذات المرسله وخطاباتها المسترسلة للإستجابة والإجابة عن انتظارات وأسئلة الذوات المتلقية.

هذا المنهج تطلب مني توظيف ما تمكنت من تحصيله خلال مروري بالكلية الضادية في ميادين معرفية متعددة ومتنوعة كالمعارف اللغوية اللسانية العامة - ولا سيما الأسلوبية - والمعارف اللغوية والبلاغية، وما حزته من خلال استملاكي للخطابات الملكية من امتلاك لذائقة مكنتني من تذوق خطاب الملك والتفاعل مع العناصر اللغوية المنجزة والمُهيئة لفصاحة منته الخطابية.

وللعلاقات النحوية القائمة بين مفاصل الخطاب دور هام في تحديد مداخل الولوج إلى مداخل الرؤية المولوية لمنهجية التواصل مع شعبه، بنفس محورية دور توظيف العلاقات النحوية أيضا على المستوى الدلالي لتجاوز الصورة الشكلية نحو فهم التصورات التي تتجاوز الأبنية المؤسسة للدلالات الكلية في النصوص الخطابية الملكية.

كما أن اعتماد التلصص من خلال منظار النص الذي لا يتنصص يتيح فهم تراص الأفكار التي يأويها بمجرد قتل جديلة من البنية النحوية والمفردات: هذه الجديلة تخلق سياقاً لغوياً خاصاً بالنص نفسه وعند محاولة فهم النص وتحليله لابد من فهم بنائه النحوي على مستوى الجملة في مرحلة أولى، وعلى مستوى النص كله في مرحلة أولى.

فإذا كان "إدوارد سابير" يرى أن "الأسلوب ليس مطلقاً (...) وأنه يستوحى من اللغة نفسها عندما تجري في مجاريها الطبيعية مع ما يكفي من اللهجة الفردية"¹، فإن "تودروف" يرى بدوره أن "الأدب لا يمكن أن يكون إلا توسيعاً لبعض خصائص اللغة (...) وأن حقلاً أكاديمياً بكامله (هو الأسلوبية) تم إيجاده على الحدود المشتركة للدراسات الأدبية وعلم اللغة"².

فنظام المفردات وعلاقاتها بعضها ببعض، يتحكم فيه النحو من جهة، ويحتكم إليه التفاعل والتجربة، حفظاً لوشائج التواصل القائمة بينه صاحب الجلالة والتلقي الذي ينتظر الفعل أو القول الفعال لما يريد صاحب الجلالة، خاصة في ظل النكوص الإرادي والإعتيادي للإدارة وللإرادة السياسية الفعلية للأحزاب وللأجندة الأداء التشريعي الذي لم طبع آخر ولاية تشريعية، لولا الرسائل الملكية التي حضتتهن في نهايتها على المصادقة على جل النصوص التنظيمية التأسيسية قبل انصرام الأجل، مع ضرورة تجاوز السجال السياسي والإنخراط في نشاط تشريعي غير مسبوق في تاريخ الممارسة التشريعية.

فقد بلغ عدد الجلسات التشريعية 175 جلسة، توزعت بين 12 دورة عادية ودورتين استثنائيتين استطاعت خلالها الحكومة إحالة ما مجموعه 389 مشروع قانون على مجلسي البرلمان ليصادقوا على 359 منها، ويتم الإرتقاء بالإنتاج التشريعي من السكونية وإثارة خطاب الإستهجان إلى الدينامية واستحسان الإنتاج التشريعي وحركية آلياته، خاصة وأن التدخل التوجيهي الملكي أثمر حصداً تشريعياً قياسياً برسم الولاية التشريعية الخامسة ناهز لأول مرة 25.23% من مجموع القوانين المصادق عليها بمبادرة حكومية (مشاريع قوانين) منذ أول ولاية تشريعية بالمغرب في بداية ستينيات القرن الماضي.

¹ إدوارد سابير وآخرون، اللغة والخطاب الأدبي: مقالات لغوية في الأدب، الدار البيضاء- بيروت، المركز الثقافي العربي، 1993، ص. 35.

² نفس المرجع، ص. 41.

فالخطاب الإفتتاحي لكل دورة تشريعية يشكل رسائل موجهة في قالب نظام اصطلاحي بمضامين إصلاحية تشكل مميزات العملية التواصلية مع "ممثلي" من صَوّت من الهيئة الناجبة، وليس هناك من رسالة ملكية لا تتضمن عناصر مرجعية مشحونة بالقوة التعبيرية المباشرة والإيحائية اللازمة للنفاذ لوعي من يهتمهم الأمر (وحتى من لا يهتمهم الأمر).

ورغم التطابق الحاصل بين الشكل والمضمون، فإن هناك تعسفا على هذا التطابق بين المضمون والسياق الذي اقتضى توجيه الرسالة، حيث أن التعبير عن استهجان جلالته لواقع مضطرب لا يتم حتميا بلغة مضطربة أو مختلة، بل بلغة تحتل مساحات اللافعل، وتحيل الآخر على الخطاب الملكي كسلطة مرجعية تؤهلها سلطة الحلول pouvoir de substitution لإحلال العاهل محل كل من أفلتت منهم سياقات التفاعل مع انتظارات من وضعوا ثقتهم في مرشحي ليكونوا لسان حالهم بالمؤسسات التشريعية: من خلال هذا النموذج، يمكن التسليم مبدئيا بمساوقة لغة الخطاب ومضامينه للواقع ولمقتضى أحوال جمهور الخطيب.

فأسوة بكل خطيب أثيل متعلق بالعرف التحريري الأصيل للخطابات الموجهة بشكل مسؤول لعموم رعاياه، يغترف صاحب الجلالة من قواعد لغته وأصولها، وبمبادئ الأساليب المتأثرة بهذه اللغة، ويأخذ صاحب الجلالة لنفسه قدراً كافياً من الحرية لتطويع المضامين تحديد سلم أولوياتها.

وبالإنصات للخطاب، يجد كل فرد من أفراد الشعب في كلماته مساحة للروح والإيحاء الكلي الاحتمالي الذي يفيد حمل قضيته دون غيره، لأن الكلمات الواردة في متنه لا تحتل فقط الدلالة الواضحة المحددة الأحادية الاتجاه، وتحقق معادلة تلاحم التجاوزي والنمطي، ليكون التواصل الفعال بين الملك وشعبه ثورة جديدة أدواتها اللغة، على اعتبار أن اللغة منظومة تواضعية.

ومنى افتقدت هذه السمة في الخطاب، حدثت القطيعة وتقطعت بها السبل وتفرقت كما لغة الخشب التي شكلت لحد الخطاب السياسي، ولتعسر أو تعذر التواصل بين الخطيب والمتلقي، ولتعطلت موثيق الثقة بينهما.

إن للخطاب الملكي من المصادقية والثوقية ما يعطيه درجة كبيرة وواسعة من المقبولية والإقبال، في مقابل الخطاب السياسي والنقابي والجمعي أيضا التي لا تتجاوز عتبة الإنصات قبل الإعراض عنها وعن دعوتها أو ادعاءاتها.

فقراءة الشكل اللغوي محطة من محطات المرور نحو قراءة في الاداة التواصلية، كبداية لبحث أعمق في الخطاب ككل باعتباره شكلا تواصليا مولويا من حيث الطبيعة والوظيفة والمرامي، يرتهن بشروط التشكيل التي تفرضها قواعد الأداء اللغوي وبالبناء اللغوي الدال والمذلل لصعوبة إحاطة فقرات مقتضبة بإشكاليات كبرى وتوصيف مشاريع وأوراش مهيكلية أكبر.

فالمنهج اللغوي الأسلوبي يتيح كشف منهجية توظيف العلاقات النحوية على المستوى الدلالي لأن هذه العلاقات من أنشط الأدوات التعبيرية في تأسيس البنية الدلالية للخطابات المولوية.

فرغم أن لغة الخطاب السياسي تكاد تكون مكررة في جميع الخطابات، باعتبار اللغة أداة موضوعية عامة، فإن قصب السبق بالنسبة لحامل الخطاب أو الخطابة يكمن في قدرته على إضفاء العديد من العلامات والمعالم الأسلوبية التي تجعل من اللغة أداة طيعة، لأن الأسلوب مجموعة من الإمكانيات التي تحققها اللغة، فتتداعى المعاني والألفاظ وتتوالد لتحدد السمات الأسلوبية العامة التي تنأى عن الإستيلا والصلبية في تشكيل الخطاب المولوي.

❖ خامسا: الملحح التداولي البراغماتي

آثرتُ أن أوجز الحديث عن هذا المستوى من خلال الجدول التفكيكي التالي:

المُرسل	هو صاحب الجلالة أمير المؤمنين وملك المغرب	
الْمُتَلَقِّي	الشعب المغربي بجميع أطيافه ورعايا صاحب الجلالة في الداخل والخارج+منتبعي الشأن المغربي من مغاربة خاصة الجارة الجزائر+من شركاء أوروبة وتوسيطيين + هيئات أممية مانحة وداعمة للأوراش الإصلاحية والتصالحية الكبرى ... كل هذه الجهات تدرك أنه لا تنفذ إلى نوايا المغرب إلا من خلال من يمثلها ومن يلتزم باسمه التزامات منشئة للمسؤولية، ومن أراد الإطلاع على الفكر المولوي فلينصت لخطبه	
السياق	عرف السياق الاجتماعي احتقانا عصف بالوقع الطيب للمبادرة على الطبقات الاجتماعية المعوزة، وكان لزاما اتخاذ بعض التدابير الإجرائية للخروج من عنق الزجاجة وتدابير تداعيات الأزمة الاقتصادية العالمية على اقتصاد المملكة وأحوال شعبها.	السياق الاجتماعي
	المغرب	السياق المكاني
	30 يوليوز 2009	السياق الزمني
الوسائل الإقناعية	إن أول تأكيد في هذا الخطاب بعدفترة عرض قصيرة لموجوداته - وهو نوع من الاستدلالات - هو تأكيد مشاطرة العاهل لرعاياه قناعاته بالأشواط الكبرى التي قطعها المغرب في مسيرة البناء الديمقراطي: تقديم صاحب الجلالة لهذه القناعة غير القابلة للنقاش ومشاطرتها لشعبه يفيد منها تأهيل ذهنا لمتلقي وإقناعه بما سيسوق من معلومات	التوكيدات
	تضمنتالفقرة الأولى من الخطاب قياسا إضماريا تمثل في غياب طرف من أطراف القياس المنطق:" وأنا (الخطيب) أو نحن (اللجنة الإستشارية). وأصل القياس المنطقي هنا هو "أن قائد الأمة ارتأى إخبار شعبه بما يدور من خبايا الأمور".	القياس الإضماري
	لإقناع المتلقي بعدم التخوف من الوضع الاقتصادي ومؤشرات الازمة ومماثلتها لغويا بمؤشرات الوضع الاقتصادي الجيد، مادام الموسم الفلاحي يعطي مؤشرات سنة فلاحية جيدة	الأمثلة
	كالدعوة إلى الانكباب الجادعلى إزاحة وتصحيح ما اعترض مسار البناء الديمقراطي التنموي من عوائق و اختلالات	النصائح والإرشادات
	كالإثبات والنفي بأدواتهما على اختلاف أساليبها وكذلك أساليب الحصر	استدلالات أخرى

		البراهين المنطقية	وقد استغنيناها بالقياسات الإضمارية
	الأدلة الخارج- نصية	شهادة الجمهور	وهي غير متاحة ولكن مؤشرات المتابعة الشعبية للخطاب الملكي تؤكد ذلك
		الواقع	وقد التزم الخطاب بالواقع خارج النص مع شيء من التهويل في وصف الازمة الاقتصادية العالمية والتعظيم في وصف نجاعة المسارات الاحترازية التي جعلت المغرب في منأى عما يحدث، مع شيء من الترغيب والدعوة إلى الثقة والأمل في المستقبل
الغرض الاتصالي		الحصيلة	كان الغرض الاتصالي الصريح لجلالته كما هو معنن مشاطرة عموم الشعب المغربي الحصيلة بنجاحاتها وإخفاقاتها والرغبة في تجاوز مسببات التعثر السوسيو-اقتصادي
قراءة النتائج الكمية على المستويين الشكلي والدلالي			
	الأسماء والأفعال		ركز الفاعل على الفعل المولوي، في مقابل استخدام الأسماء، الأمر الذي يشير إلى حيوية الخطاب في شكلها العام رغم ما عرفه من لا توازن بين الأفعال والأسماء لصالح الأفعال
	الإنشغال بالزمن		منحيث مساحات انشغال الخطاب المولوي بالزمن، فقد كان الحاضر في مقدمتها ليستقبل المستقبل بالتوكي على أرضية الماضي، وهو أمر طبيعي بالنظر إلى تزامن الخطاب-الحصيلة مع الذكرى العاشرة لعيد العرش وتداعيات الأزمة الاقتصادية الكونية
	زمن الأفعال		رؤية العاهل تتميز بحضور الحاضر الملحوظ في زمن الأفعال: فالحاضر موصول بالماضي بحكم استمرار مشاريع بناء وهيكله أجهزة الدولة وتعميم البنيات التحتية لتشمل حتى المناطق التي غضب عليها ومن أهلها والده الحسن الثاني. فالحاضر إذن يعرف أكبر نسبة تكرار من بين أزمنة أفعال الخطاب الملكي.
	زمن الأفعال (تتمة)		حضور الزمن الحاضر وإشارته ومضا للماضي واستشرافه للمستقبل دليل على روح الصدق والمصادقية والواقعية والعمل التي تميز الخطاب السياسي الملكي
	الضمائر وتكرارها		لم ترتفع في خطاب صاحب الجلالة نسبة الحديث بضمير المتكلم المفرد "أنا" (التي تعتبر نموذجا الإستبدادي بالحكم والقرار والنرجسية السياسية)، في مقابل الضمائر الأخرى "نحن" التي يُضمّن أنها ويعبر عن نفسه
	الأساليب		عَرَفَ الخطاب الملكي تواتر الأساليب الخبرية التي تستهدف الإظهار وندرة الأساليب الإنشائية التي تروم الإبهار، ويعود ارتفاع نسبة الأسلوب إلى حرص جلالته على إطلاع رعاياه على الاستراتيجيات والأولويات الوطنية، ومأل بعض الملفات ذات الاهتمام الجماهيري، مع تضمينه قدرا من المعلومات والاستدلالات بغية إقناعه المتلقي بضرورة الإنخراط الواعي والمسؤول

إذا كان مُستخرَج المستوى البراغمتي يفيد تجميعاً لنتائج المستوى الشكلي الكمية ليسهم في كشف ملامح بارزة لشخصية الخطيب من حيث بنائها اللغوي والنفسي، فإن نتائج المستوى الدلالي تساهم بدورها في الكشف عن إيديولوجيا الخطيب والخطاب السياسي، وعلى نحو سيكولوجي قلما يعيه الخطيب، وتتم عملية الكشف أو الإيضاح لتلك الأيديولوجيا من خلال تكرار اللحظات الدلالية ومنح المساحات لحقول ووحدات دلالية يشير حضورها أو إلحاح الخطيب عليها إلى انشغاله بها، سواء أكانت إنجازاً يشيد به ويقرره ويؤكدّه ويتعهد به أم محمّدة تحمّد له، أم كانت نقطة ضعف أو سيئة أو مؤاخذة تؤاخذ عليه.

بعد تقليب الخطابات على وجوهها اللسانية والفوق لسانية، خلص هذا المبحث التطبيقي من البحث إلى جملة نتائج لعل أبرزها أن:

- مفاهيم "خطاب" و"تحليل الخطاب" مقولات ومفاهيم ومصطلحات حيادية قبل أن تكون مشروطة بالسياسي أو الديني أو الشعري؛

- عملية تحليل الخطاب عملية عبر-تخصصية Trans-disciplinaire تجمع تحت خبائها اللغة والقانون والتاريخ وعلم السياسة وعلم الاجتماع... وتتشعب أبعادها النظرية والمنهجية والمعرفية، لتمثل تجاوبا مع الخطاب السياسي وخصوصياته الخطابية النصية والدلالية والمقامية.

لرصد نشاط البنى الدلالية وحضورها وغيابها، في لاوعي الخطيب والخطاب، في أفق كشف إيديولوجياتهما السياسية، وبالتالي إبطال ادعاء الخطاب السياسي البراءة، ولعبة التصريح بغرض اتصالي ما وإرادة آخر غيره، أخذت جملة المؤشرات -هي الحقول الدلالية- الأكثر ترددا وتواترا في الخطاب المولوي.

وإذا كان ارتفاع نسبة تكرار بعض المؤشرات يُعدّ محمّدة أو إيجابية تُحسب للعهد المحمدي، فإن ارتفاع مؤشر "التنمية الاقتصادية ووصيبتها الاجتماعية" ينسجم مع خيارات العهد الجديد الذي جعل من المبادرة الوطنية للتنمية البشرية مشروع مُلك *Projet de règne*.

وعليه، فقد انخفض مؤشر الحديث عن "الولاء والبيعة"، ومرد انخفاض نسبة تكراره لدى الخطيب عدم وجود أزمة ولاء له وعدم طرحها للنقاش، كما كان الأمر عليه على عهد والده خلال فترة ستينيات وبداية سبعينيات القرن الماضي، وما شهدته المرحلة من حرب شرعية حول الأمساك بمقاليده الحكم بعد طرد المستعمر: فعهد محمد السادس جعل مدار النقاش حول التنمية والإصلاح، بعد أن أقرت حتى التيارات السياسية المارقة بدور المؤسسة الملكية الوازن في الحفاظ على التوازنات وبالتالي على استقرار المغرب رغم موزايكية تشكيلاته.

بعد تقليب الخطابات على جميع وجوهها، لا يمكن البتة استكمال المستويات القرائية إلا إذا حالفني التوفيق في رصد نشاط البنى الدلالية والوقوف على نسب حضورها أو غيابها في لاوعي الخطيب والخطاب، وبالتالي حضور المتلقي أو غيابه أو تغييبه أحيانا.

وعليه، عالجت في المبحث الموالي البنى الدلالية التي أثرت أن أورد الحديث عنها باقتضاب ودون فتح باب القيام بجمع مفرداتها وفرداتها وفق نسب تردد مؤشرات الحقول الدلالية في جداول كمية، لتوجسي خيفة من عدم تمثيلية الخطابات التي استطعنا الحصول على نصوصها من جميع أجزاء وأقسام حوليات "انبعاث أمة" والأحاديث الصحفية التي وردت في بطون الكتب والحواليات، وبالتالي عدم التمكن من حساب جميع مؤشرات ترددها من خلال إحصاء تكرارات الوحدات الدلالية (المتغيرات) المنتمية إلى الحقل الدلالي الواحد (المؤشر)، فنؤشر بذلك على بلاغة التراكييب الدلالية.

كما عرجت بعد ذلك في مبحث ثان على معالجة مبحث بلاغة الخطاب الملكي، اعتباراً للتوالج القائم بين المستوى الدلالة والبلاغي على نحو يجعل للدلالة أوجهاً بلاغية: جاء في الخطاب بعض الألفاظ أو الدلالة البلاغية مثل الكناية والاستعارة والاقتباس للتأثير على المتلقي وإقناعه في مضمون الخطاب، وهي المعنى المجازي الذي يعدل عليه المعنى الحقيقي عند المتكلم.

كما أن ارتفاع نسبة تكرار بعض المؤشرات (من قبيل حقوق الإنسان، الحريات...) يُعد مَحَمَدَة أو إيجابية، تُحسب للمرحلة وللعهد اللذان دشنها صاحب الجلالة فأراد أن يكون عهده عهداً جديداً وعهد المصالحة، وجبر الضرر والإستماع لمن كان لا يفتح فمه إلا وهو مُسَجَّى فوق كرسي طبيب الأسنان، التي يعتبر انخفاضها في أي خطاب مؤشراً دالاً على ارتفاع نسب الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان، لذلك، ومؤاخذه على الخطيب، ومن ثَمَّ على نظامه السياسي.

بالمقابل، يشكل غياب المؤشر "الولاء" أو تضائل نسبة تكراره في خطابات العاهل محمد السادس عدم وجود أزمة ولاء له ولنظامه أو للدولة في عهده، في الوقت الذي كان يؤشر ارتفاع نسبة تكرار مؤشر "الولاء" على عهد والده الملك الراحل إلى إلحاح موضوع الولاء عليه، وملحاحية طرحة لمجابهة من يحملون فكر شق عصا طاعة ولي الأمر والردة والبراء في سنوات الانقلابات.

ويتمثل ذلك في صور أربع رئيسة هي القوالب اللفظية والمزاوجات اللفظية وكذا المصاحبات اللفظية فضلاً عن التعبيرات اللغوية التي سأفصل فيها في الفصل الموالي.

إذا كانت نتائج المستوى الشكلي الكمية تساهم بشكل كبير في كشف ملامح بارزة لشخصية الخطيب من حيث بناؤها اللغوي والنفسي، فإن نتائج المستوى الدلالي تساهم بدورها في الكشف عن أيديولوجيا الخطيب والخطاب السياسي بشكل كبير كذلك، وعلى نحو سيكولوجي قلما يعيه الخطيب، وتتم عملية الكشف أو الإيضاح لتلك الأيديولوجيا من خلال تكرار اللحظات الدلالية ومنح المساحات لحقول ووحدات دلالية ما يشير حضورها أو إلحاحها على الخطيب إلى انشغاله بها، سواء أكانت إنجازاً يُشيد به ويقرره ويؤكدده ويتعهد به أم مَحَمَدَة تحمد له، أم كانت نقطة ضعف أو سيئة أو مؤاخذه يؤاخذ عليها.

وعليه، يبقى من قبيل الإدعاء بإمكانية النفاذ إلى أقطار الخطاب الملكي من خلال بنيته التركيبية، لأنه لا يحتمل من المعاني بقدر ما يحتمل من المباني، ولذلك لم أتوجه نحو تحديد الإعرابات الممكنة للشذرات الخطابية المرجعية، لأنني بذلك كنت سأقيد المعاني المطلقة وأدخل نفسي في متهات العلاقات التركيبية الخطابية كتواشجات شكلية ناظمة لكل مكونات الخطاب من جهة، ومحددة لمعانيه من جهة أخرى، مادام المعنى الأساس يكمن في البنية التركيبية العميقة، التي يمكن الوصول إليها عن طريق دراسة البنية السطحية وما طرأ عليها من تحويلات، حيث الانتقال من المستوى الوصفي إلى المستوى التأويلي، بغية تحقق الفهم المقاصدي للخطاب الملكي واكتشاف آليات اتساقه وانسجامه.

وقد وجدت أن الطابع المركب للخطاب الملكي يستدعي استدعاء كل العوامل الفاعلة في اتساق وتكامل منظومة انتظامه، وتماسك فقراته بروابط لغوية، وموضوعية، ودلالية، ووضعها في سياقها، دونما حاجة للغوص في مستويات التحليل اللغوي المتمثلة في الأصوات والصرف والتركيب، باعتبارها أساس الدرس اللغوي، حيث أثرت التعامل مع المستويات الأعلى التي يفضي إليها البحث في سياق التشكل، لأن كل خطاب ابن بينته وله سياقات خاصة لتشكله وفق الشكل الذي أفقته عليه، قبل أم أيمم شطر بيان مستويات التواصل التي تحكمه وتحاكم أدائه في أوساط التداول الإعلامي والإستملاك الالجاهيري وكذا محددات التبني الحزبي.

الفصل الثاني

سياق التشكيل:

قراءة في محددات بلاغة الإيجاز
وفصاحة الإنجاز وشروط الإنشاء

❖ أولاً: القول الفصل في الأسئلة الجزئية النازمة للفصل

انسجاماً مع العنوان الفرعي الآخر للأطروحة، (بلاغة الإيجاز)، ارتأيت أن أورد الحديث عن بلاغة الخطاب المولوي كآخر منوال من المناويل القرائية التي تأسس عليها توصيف بنية وشكل وتراص وتراصف الخطاب الملكي.

لأن استراتيجيات الخطاب تعنى بدراسة اللغة في الاستعمال، فإن هذا يتطلب منهجا يعتد بالسياق الذي تستعمل فيه، وأثره على بنية الخطاب ومعناه. وهذا ما يوفره المنهج التداولي كمنهج اعتمدناه في هذا الفصل، لأنه يتأسس على مفاهيم عديدة تؤلف فيما بينها محاوره التي يتشكل منها وأطره العامة التي توضح معالمه. فما مفهوم ما مفهوم السياق عند العرب والغرب وما دوره في تشكيل الخطاب. فكيف يُستثمر لإدراك قصد المرسل وفهمه؟

لن نتفرق بي السبل بين الشرق والغرب للبحث عن مفهوم السياق وتطوره، لأنني أروم أساساً فهم توظيف الأداة والمفهوم، كبوصلة لتمشي بالبحث نحو ما أقصد إليه بقصد في الكلام.

ومعلوم أن البلاغة والبيان يدعواننا إلى مطابقة الكلام لمقتضى أحوال السامعين لما في الأحوال والمقامات من اختلاف بين الناس، ولأن الخطاب لا يحقق عنصر التأثير في المخاطب ما لم يكن هذا الخطاب موافقاً لحاله ومقامه، لأنه لكل مقام مقال، والتعرف على حال المخاطب يحتاج إلى ذكاء وفطنة ليصل المتكلم إلى درجة عالية يقرأ من خلالها ما في أعين المخاطبين ويقرأ من خلالها تقاسيم وجوه القوم: فقد يكون في الخطاب والإنجاز ما يجعله قادراً على تغيير لون الوجه وقسماته، كما حدث للوليد بن المغيرة لما أوفده كبار قبيلته للقاء "صاحب الدين الجديد"، فلما أقفل ونظروا في وجهه، أيقنوا أنه تأثر بما سمعه من رسولنا الكريم سيدنا محمد عليه أزكى الصلاة والتسليم، فباغثوه بالقول: "لقد رجعت إلينا بغير الوجه الذي ذهبت به".

فبذكاء في الصوغ وباختيار دقيق واع، وبالوعي بأحوال المخاطب في صوغ الأقوال، استطاع جلالاته في مختلف المحطات التواصلية أن يوصل ببلاغة ودون هدر كل ما يريده إلى المخاطبين، وأن يُبيّء خطابه مع جميع السياقات وحاجات وانتظارات جمهور التلقي، ويُبوِّنه بذلك صدارة الخطابات التي يحفل بها الحقل العمومي.

ولأن الخطاب الواعي خطاب استيعابي يمد خطوط التواصل إلى الجميع حتى يحقق الهدف الذي يسعى إليه، وكان لكل حرب سلاحها، فإن سلاح الأفكار هو الذي يتوجه إلى العقل ويحاور الفكر ويعمل على زحزحة القناعات عن مواضعها وإثبات مظاهر إخلالها بشروط الإنجاز بكل اقتضاب وإيجاز لئلا تستغرق مساحات الخطاب في سوق القناعات البديلة وإخلالها محل الأولى، وتنشيتها وإثباتها، لأن مواجهة الكلمة بالكلمة أشد صعوبة وأبعد أثراً وتحتاج إلى استعداد أكثر بكثير من أي مواجهة أخرى، ولهذا كان للكلمة الموقع الأول في التقدير وليس من قبيل الصدفة أن تكون أول مفردة في الرسالة السماوية "اقرأ"، حتى قيل قديماً "في البدء كان الكلم".

فإذا كانت بعض الأنظمة قد حاولت وفشلت في تأليف قلوب الرعايا بالعطايا، فقد كان للخطاب الملكي وحده من الخصائص والسجايا ما جعل الربيع العربي زاهراً في أرض المغرب، لأنه أخذ بعين الاعتبار مصالح المخاطبين وحرص على مراعاة أحوال المحتجين، ولم يؤاخذ المحتاجين منهم، فكان مناسباً لمقتضى الحال وخاطبهم على قدر عقولهم.

ولما كانت البلاغة والبيان يدعوان إلى مطابقة الكلام لمقتضى أحوال السامعين لما في الأحوال والمقامات من اختلاف بين الناس، حتى عرّف البلاغيون بلاغة الكلام بأنها "مطابقة الكلام لمقتضى الحال"، والحال هو الموقف بملاساته أو الظروف القائمة، أو بمعنى أوسع المقام الداعي لإصدار الخطاب، ومقتضى الحال ما يجب أن يكون عليه الخطاب من بيان الحال والتعبير عنها، مع مراعاة الملاسات المحيطة بالموقف، فإذا أصدر المتكلم الخطاب على ما يجب أن يكون من مراعاة الحال - حال المخاطب وحال المتكلم - والملاسات القائمة، وحقّق الفائدة لدى المتلقّي - كان مطابقاً لمقتضى الحال.

وممّا أورده الجاحظ في شأن مقتضى الحال قول الإمام إبراهيم بن محمد: "يكفي من حظّ البلاغة ألاّ يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع"، وعلّق على هذا بقوله: "أما أنا فأستحسن هذا القول"¹.

فخصيصة الخطاب الملكي هو قدرته على خلق الإئتلاف بين المصالح والإلتفاف نحو العاهل وقدرته على التأثير من منطلق تأثر صياغته المسبقة بواقعهم وانتظاراتهم وانشغالاتهم، فلا ينشغلون عنه إلا به.

بالمقابل، نجد أن الخطابات الغيرية خطابات "ميثاقية" بالمعنى الكانتي للمفهوم، تقارب مواضيعها (إن كانت ذات موضوع أصلاً) بالتصور المجرد، وتكبت الفعل لصالح القول، وتعجز عن تحويل الفكرة لإجراء، وتجاوز الدهشة الفلسفية للإستفهام "لماذا" وما يتبعها من إبهام واستيهام إلى استلهاهم تصورات للخروج والإجابة عن سؤال "الكيف".

وعليه، كان لزاماً نقل دراستي للمتن الخطابي المولوي من المستوى النحوي والدلالي إلى المستوى التداولي، حتى يتسنى فهم مسار العملية التواصلية التي تقوم على الفهم والتأويل، وتقفي سبل الحكم عليها الذي لا يتحقق فقط بافتحاص الخصائص البنيوية وجملة الملامح اللفظية، بل يتعداها لمناهج وأدوات أخرى كنظرية الأفعال الكلامية لفهم هذا الإنتاج الخطابي على نحو مخصوص لأن ملقيه ومتلقيه وسياق إنتاجه واستقباله ووسائل إلقائه والمناخ العام لأوساط تلقيه ونفسية متلقيه تستحق نسقا مُعينا وعينا راصدة خاصة لأنه صادر عن خاصة الخاصة.

منطلق في هذا السياق أن الخطاب الملكي، كأى خطاب، ينصرف إلى ما يصدر عن جلالاته من أجل الإبلاغ بنبئته وبنيته أو بنية التأثير والإقناع: فالخطاب بهذا المعنى يأخذ بعين الاعتبار جملة من المعطيات والاعتبارات التي يتم فيها تصريف قضايا المخاطبين، ومراعاة مقتضى الحال وترتيب ملفات المصالحة معهم من خلال ترتيب أولويات تحقيق مصالحهم وإصلاح أحوالهم، بالإضافة إلى انسجام الخطاب الإبلاغي أو الإقناعي وفق بناء وصوغ إبداعي مع القنوات المكونة التي قد تكون متوافقة مع ما يدعوا إليه هذا الخطاب أو قد تتعارض معه، ومراعاة أحوال المخاطبين وتناسب كل خطاب مع مقتضى أحوال المخاطبين، مع مخاطبة هؤلاء "على قدر عقولهم"، واحترام ذكائهم من خلال ذكاء لفظي يترجمه في كل خطاب من خطابات صاحب الجلالة.

¹- أبو عثمان عمرو بن بحر، الجاحظ، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1423 هـ، المجلد 1، الجزء الأول، ص 87

❖ ثانياً: سياق التداول وتداولية السياق

يقتضي التعمق في دراسة لغة الخطاب الملكي والكشف عن خصائصه ومميزاته والبحث في مضامينه العديد من المسارات العلمية، التي تتوسل بدورها بما خطه علماء اللغة والبلاغيون منذ قرون خلت، وما أصدره المتخصصون في العديد من الحقول المعرفية من أدوات.

وتبدو قيمة التحليل التداولي في قدرته على الإجابة عن بعض الطروحات اللسانية، ويقتضي تحليل التماسك على المستوى التداولي مني لزوماً محاولة الإجابة عن مجموعة من الأسئلة من قبيل: من المخاطب؟ من هو المخاطب ومتلقي الخطاب؟ ما هي مقصديتنا أثناء التخاطب؟ وكيف نخاطب بشيء ونسعى لقول شيء آخر؟ وما هي القوانين التي يجب التقيد بها أثناء الخطاب لتجنب الإبهام والغموض في عملية التواصل؟ وما مقياس كفاءتنا التداولية حين نتخاطب؟ وغيرها من الأسئلة التي سأعزها لا محالة بأسئلة أخرى تخدم عموم المتخاطبين، خاصة في سياق تناولنا للخطاب الملكي لجلالته كمتكلم يخاطب جماهير عريضة، ويبحث عن استمالتهم وإقناعهم لتحقيق العديد من الأهداف.

إن هذا النوع من التحليل يُركز على المنتج والمتلقي والموضوع ويبرز دور سياق الموقف في تحقيق التماسك النصي: فهناك تتابعات لقضايا أو وقائع ليست مقبولة منطقياً، ولكنها متماسكة ومقبولة باعتبار وصف الموقف ومعرفة المتكلم والسامع بالعالم، فالسياق "هو تجريد لما يمكن أن تطلق عليه بصورة حدسية (موفقاً اتصالياً).

وعناصر الموقف الاتصالي هي التي تحدد قبول المنطوقات اللغوية (أو عدم قبولها) أو إصابتها (أو إخفاقها) أو كفايتها (أو عدم كفايتها)¹؛ إذ "يتوجب علينا أن نحسب حساباً لحقيقة أن الجمل تنطق ضمن سياقات معينة، وأن جزءاً من محصلة معنى نقش الكلام يستمد من السياق الذي ينتج فيه"²، أي يرتبط المعنى بالسياق، ويقوم التحليل النصي بدور مهم في تفسير اللغة في السياق، بنوعيه وصولاً لتحقيق التماسك النصي.

كنص يحفل بجميع صنوف الأفعال الكلامية من تأكيدات أو التقريريات، وتوجيهيات، والتزاميات أو الوعديات، وتعبيريات وإخباريات، يعتبر الخطاب الملكي أفضل ضرب من ضروب النصوص السردية التي يحبذ التحليل التداولي الإشتغال عليها بأدوات مفتوحة، باعتبار الخطاب المذكور نسيجاً لغوياً محكماً من العناصر التي تشكله وتميزه كشخص الخطيب ومكانته الرمزية، والمكان والزمان والاحداث والوصف والمحاورة/المشاوره، فضلاً عن تعدد المستويات الأسلوبية لتعدد فئات جمهور تلقي الخطاب الملكي ومستوياتهم.

فلغة الخطاب الملكي وسيلة تأثيرية، تتأثر سلفاً بسياقات يعيشها المواطن وترفع لجلالته من خلال التقارير اليومية وتتبع جلالته لوسائل الإعلام بشتى تلاوينها، وتقتضي أعمال آليات التحليل التداولي وتطبيقها عليها، وهذا ما سأقوم به من خلال التركيز على الأفعال الإنجازية التي أسست عليها مدار جزء من عنوان الأطروحة.

¹ - ديك، فان، علم النص، مدخل متداخل الاختصاصات، ص. 116 و 144

² - لاينز، جون، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد العراق، 1987، ص. 200

وحيث أن ما يطبع أيضا لغة الخطاب الملكي أن لها شقا إخباريا وآخر حواريا غير معلن مع جمهور التلقي، ("مزيج من السعادة بالتوجه إليك في أول خطاب لنا نلقيه عليك"؛ "حضررات السادة النواب والمستشارين"...)، وتقوم على مجموعة من البراهين والحجج التي تروم الحديث عن فعل أنجزه العاهل- الفاعل أو الحديث عن الأوراش التي تقتضي تفاعلا جماهيريا، وانخراطا مؤسساتيا (في الخطابات الموجهة للحكومة، للبرلمان، أو الرسائل التي يوجهها للمشاركين في اللقاءات والمؤتمرات، بما فيها تلك التي اختص فيها قطاع الرياضة والرياضيين)¹، فإن هذا المعطى يدفعني لتلمس محددات حوارية الخطاب الملكي وتشكله وفق خطاطات مناظرة ومجادلة يقارع فيها جلالته مجادلين مفترضين، ويفهمهم حجاجيا ويقارعهم الحجة بالحجج.

فالإقناع في قلب الصورة الحجاجية وهو فعلها من خلال أفعال الكلام المنجزة من خلال العبارات وما تحققه بدورها من آثار ونتائج مهما كانت صفتها، لأن إيقاعها يروم دوما تحقيق وقّع على الآخر وإقناعه وفق خطاطة حوار وتواصل والتأثير في سلوك جمهور التلقي من أبناء شعبه، وفق درجات قوة كل فعل كلامي مولوي، ومن خلال خرائط منطقية في البناء والربط والعلاقات الاستدلالية التي يُمثل الحجاج أبرز مظاهرها.

وترتبط قوة كل فعل كلامي مولوي بمدى تحقق أمرين في تضاعيفه: **مطابقة المقام للمقال؛ والمعاني المضامينية الظاهرة في الأبنية الدلالية أو الضمنية الثاوية وراء الكلام التي لا يتم فهمها إلا بالجوء إلى السياقات المختلفة التي ترد فيها وقرائن الأحوال.**

¹ على منوال الرسالة الملكية شديدة اللهجة للمسؤولين عن تدبير الشأن الرياضي في المغرب، والتي تلاها نيابة عن جلالته على عموم المشاركين في المناظرة الوطنية للرياضة المنعقدة بالصخيرات في شهر أكتوبر 2008، مستشاره السيد محمد معتمصم

المبحث الأول

الأبنية الدلالية الثاوية وراء التشكيلات الخطابية المولوية: بلاغة الترتيب والتركيب



اعتباراً لما تقدم، ارتأيت في هذا المبحث نقل دراسة المتن الخطابي المولوي من المستوى النحوي والدلالي إلى المستوى التداولي، حتى يتسنى فهم مسار العملية التواصلية التي تقوم على الفهم والتأويل، وتقفي سبل الحكم عليها الذي لا يتحقق فقط بافتحاص الخصائص البنوية وجملة الملامح اللفظية، بل يتعداها لمناهج وأدوات أخرى كنظرية الأفعال الكلامية لفهم هذا الإنتاج الخطابي على نحو مخصوص لأن ملقيه ومتلقيه وسياق إنتاجه واستقباله ووسائط إلقائه والمناخ العام لأوساط تلقيه ونفسية متلقيه تستحق نسقا مُعينا وعينا راصدة خاصة لأنه صادر عن خاصة الخاصة.

فالفعل اللغوي المولوي الناتج عن استعمال أفعال تفيد التفاعل، والتأكيد والأمر والوعد، والوعيد، وإثارة أسئلة وتقاسم تساؤلات وانشغالات، تدفعنا لمقاربة الإنتاج اللغوي المولوي من خلال تداوليات أفعال الكلام أو الأفعال اللغوية لتحديد أغراض الكلام التي يقصد إليها صاحب الجلالة في خطابه، والتي لا تخرج عن تصنيف رائد نظرية الأفعال الكلامية "أوستين" وتنخرط في أعماله التطبيقية عن الأفعال اللغوية الثلاث¹.

وعليه، سيبحث هذا المبحث أساساً في السياقات التي حكمت انبناء المتن الخطابي وفق البناء الذي سبق بيانه في الفصل الأول، مع إبراز الآليات التي وظفها في خطابه، وأدوات الخطاب السياسي التي تكفل لخطاباته المولوية الهدف التأثيري والاقناعي، انطلاقاً من الاعتماد على المنهج التداولي في تحليل الخطاب، فضلاً عن الإفادة من نظريات الأفعال الكلامية، والاتصال اللغوي ومعانيه واللغة المنطوقة وكذا المكتوبة.

وتمكن التداولية أيضاً في عدد من المواقع من تحديد المميزات الأسلوبية واللسانية للخطاب الملكي وتحليل وحداته الخارجية المشكلة لعلاميتها، انطلاقاً من العنوان حتى آخر فقرة في الخطاب، مروراً بمحطات نسيجه الأسلوبي وبناء الزمانية والمكانية، مع تحديد شخصية صاحب الجلالة فيه والشخصيات التي وردت فيه، وطبيعة حوارها وحوارية الخطابات الملكية ومستويات الكلام في حكيها، فضلاً عن الإشارة اقتضاباً إلى ما استنبطناه من أساليب لغوية وحجاجية وسياقية وتلفظية تحكم الإستدلالات والتوقعات الدلالية، ومن ثم إنتاج الدلالة.

وتستغرق كل خطاب موضوع أو مواضيع تقتضيهما طبيعة المناسبة، لترد باقي الفقرات أو المواضيع الثانوية إما للتعقيب، أو للتعليق أو الإسهام في النقاش الدائر، أو توجيه تحية إلى جهاز بعينه والإشادة بالجهود التي يبذلها المنتسبون إلى صفوفه، اللهم إذا استثنينا خطاباً عمم فيه صاحب الجلالة التنويه ليشمل العديد من الأجهزة والفاعلين، ممن قضى نحبه وممن ينتظر، حين قال ("في ختام هذا الخطاب الذي نوجهه إليك بمناسبة الذكرى السادسة والأربعين لثورة الملك والشعب نود أن نجدد لك ولقواتنا المسلحة الملكية ورجال الدرك والقوات المساعدة وقوات الأمن ورجال الوقاية المدنية عبارات شكرنا على الموقف الوفي والمساندة الصادقة لنا في الفاجعة المؤلمة التي حلت بنا وبالوطن لرحيل أبينا كافة جلالة الملك المقدس مولانا الحسن الثاني نور الله ضريحه. ونحرص على أن نؤكد أننا التزاماً منا بالميثاق النضالي الذي

¹ الأفعال الإخبارية، الإنجازية، وهي مجموعة الأفعال التي توظف في إطار عملية التواصل؛ الأفعال اللغوية الإنشائية التي لا تخبر بشيء محدد وتسمى بالأفعال التي تدخل ضمن المستوى الجمالي والبلاغي؛ ثم الأفعال التي لا تنتمي إلى الإخبار أو الإنشاء، فتشمل كل الأفعال التي يلجأ إليها المرسل والمتلقي لاستمرار التواصل وجلب انتباه السامع.

سلمه لنا والدنا بعد أن تسلمه من جدنا يرحمه الله وإياه ومتابعة للبناء الشامخ الذي أقامه وتشبثا بالأصرة المتينة التي تشدك إلينا وتشدنا إليك نحیی هذه الذكرى الوطنية المجيدة وسواصل إن شاء الله إحياءها باعتبارها ذكرى للأمة كلها تحتم علينا على الدوام استحضار أرواح جميع المقاومين للتزود من جهادهم المتفاني والتذكير بما بدلوا من تضحيات كبيرة في شتى الأقاليم ومختلف المواقع مع إشادة خاصة بالعلماء ورجال الفكر والسياسة وطبقة العمال والفلاحين والتنويه بدورهم العظيم في تحرير البلاد ومزيد من العناية بأسرهم والترحم على شهدائهم الأبرار ودعوة العلي القدير أن يجعلهم إلى جانب والدنا وجدنا المكرمين "مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا"¹.

ويحاول هذا المستوى الإجابة عن سؤال: ماذا حوى الخطاب الملكي؟ تتطلب الإجابة عن هذا المستوى استخلاص البنى الدلالية الكبرى والبنى الصغرى والكشف عن طبيعتها وترتيبها (أهميتها) وكثافتها ومكانها الموقعي من الشكل الهندسي للورقة.

كما تستدعي في هذا المستوى البحث عن البنية الدلالية الكلية التي ربما لها غالبا علاقة كبيرة بالعنوان أو بالبلاغ المعلن لبث الخطاب ("أعلنت وزارة القصور الملكية والتشريفات والأوسمة أن صاحب الجلالة سيلقي خطابا بمناسبة افتتاح فعاليات قمة المناخ كوب22")، أو البنية الدلالية الصغرى في الخطابات التي تتميز بالتداخل النصي والموضوعاتي مثل خطابات العرش ("أعلنت وزارة القصور الملكية والتشريفات والأوسمة أن صاحب الجلالة سيلقي خطابا إلى الأمة بمناسبة حلول الذكرى الثانية والخمسين لميلاد الملك محمد السادس، وسيبث الخطاب على أمواج الإذاعة وشاشة التلفزة في الساعة التاسعة من مساء يوم غد الخميس، 4 ذي القعدة 1436 الموافق لـ 20 غشت 20؛ "أعلنت وزارة القصور الملكية والتشريفات والأوسمة أن صاحب الجلالة سيقوم بزيارة رسمية لجمهورية السينغال الشقيقة... واعتبارا لعمق الروابط الأخوية التي تجمع المغرب بالسنغال، وللمكانة الخاصة التي تحظى بها إفريقيا عند جلالة الملك ولدى المغاربة قاطبة، والإهتمام السامي الذي يوليه لها، فقد قرر جلالته، حفظه الله، أن يوجه خطابه السامي بمناسبة تخليد الذكرى الحادية والأربعين للمسيرة الخضراء المظفرة إلى شعبه الوفي من مدينة داكار").

ويتعين النظر بمنظار تداولي إلى البنيات الدلالية، على اعتبار أنها مؤشرات (أو تيمات) تتساق وتتعالق لتجيب عن أسئلة بحثية وتقدم نتائج تساهم في بناء الفروض التي تؤكد الدراسة التحليلية لا فروض توضع قبل التحليل، ثم البحث عن مدى صحتها بعد ذلك أثناء عملية التحليل.

كما يتعين اختيار المفردات الأساسية للحقول الدلالية المسيطرة (البنى الدلالية الكبرى) والبحث عن العلاقات التي تربط تلك المفاهيم وتحليلها، ذلك أن النص هو الذي يملئ عليها البنى الدلالية، فهي ليست موجودة أو كائنة سلفا، وتمتاز بتشكيلها وحدة كلية منسجمة مترابطة لا انفصام لها، وفقط وحدها الإعلانات والعناوين المعلنه لبعض الخطابات (التي تخرج عن المناسبات الثابتة للتواصل بين الملك وشعبه) تلعب دورا محوريا في تركيزها والكشف عن هويتها الخطابية وكيوناتها ومكوناتها حتى قبل إفصاح جلالته عنها.

ولأن مفردات الخطاب ذات مضمون أيديولوجي، استدعى الأمر البحث عن أيديولوجية الخطاب من خلال علاقاتها نصيا ومقاميا.

ومن جهة أخرى، يمكن القول أن الخطابات الملكية قد تعتمد إلى تغييب موضوعات معينة وإلى إحضار أخرى، بشكل واع بغية تحقيق غرض اتصالي صريح وآخر ضمني، كما الخطاب السياسي الذي يوارى وراءه غالبا عوالم عريضة من الإبهام والإيهام، ومحاولة التعمية وتقليل دائرة الفهم والإفهام.

¹ - آخر فقرة من خطاب جلالته بمناسبة الذكرى السادسة والأربعين لثورة الملك والشعب

وكما أن عددا من الموضوعات والمفاهيم تكرر ورودها داخل الخطاب الواحد، ولا مناص من رصد تناسخ الخطاب (جينولوجيا اللغة) مع خطابات أخرى لجلالته أو مع الخطابات الناجحة لباقي القادة السياسيين الدوليين أو الخطابات التي ساقطت بعض القادة نحو العزل أو الخلع والقتل والتمثيل بجثثهم.

وقد ركزتُ في بعض تحليلات للخطاب على منهج تحليل المضمون العام للخطاب وتشظياته، وفق نشاط تحليلي قائم على أساليب منهج تحليل المنطوق، ومنهج تحليل القوى الفاعلة، وكذا منهج تحليل حقول الدلالة.

بمنظور ترتيب الموضوعات وتحليل تواترها، تتوزع الخطابات الملكية وفق تصنيف أولي تيمى وفق ثلاثية مضامينية:

- 1- خطابات مؤسسة لعقائد وطنية؛
- 2- خطابات معلنة ومتتبعة لمبادرات القائد التنموية؛
- 3- خطابات استشرافية وإشراكية في إعداد تصورات قصد عرضها على النظر السديد لصاحب الجلالة.

وتعرف كل الخطابات غياب هامش التنبؤ والتوقع والتخمين وحضور مساحات اليقين.

معلوم أن المستوى الدلالي يُعبر عن الكلمات والتراكيب وعلاقتها بموضوع الخطاب وأثرها في الدلالة. ويمكن تقسيمه إلى قسمين:

- مستوى الأبنية الدلالية الكبرى؛
- ومستوى الأبنية الدلالية الصغرى.

❖ أولا- الأبنية الدلالية الكبرى

● **بنية الاستهلال والإفتاح** بالصلاة على النبي الكريم وإلقاء سلام الله ورحمته وبركاته على الحضور. وقد غابت هذه البنية عن خطاب النعي حيث استهله جلالته بآية كريمة ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ، رَاجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرَضِيَةً﴾.

وعموما، لا تستغرق بنية الإستهلال في أي خطاب السطر أو السطرين؛

● **بنية النداء للتنبيه**، والتي تتيح لجمهور التلقي معرفة الجهات التي يتوجه إليها صاحب الجلالة بخطاباته (بعد الافتتاح بالبسملة والصلاة على النبي الكريم، يتم توجيه النداء: شعبي العزيز، خديمتنا الأَرْضِي، حضرات السيدات والسادة البرلمانين المحترمين...).

● **بنية الإبتهاج والسعادة** ومشتقاتها بلحظة الخطاب وتوصيفها أو بوجود صاحب الجلالة بجهة أو مدينة لها في قلبه مكانة خاصة، أو بحلول مناسبة والمناسبة شرط لتحقيق التواصل مع الشعب ("يغمرنا شعور مفعم بالغبطة والتأثر ونحن نخاطبك في هذا اليوم الذي نحتفي فيه جميعا بالذكرى الأولى لاعتلائنا عرش أسلافنا الميامين")، أو تبادل رسائل وبرقيات التهاني مع ملوك وقادة الدول الشقيقة والصديقة ("يسرنا ومملكة سوازيلاند الصديقة، تحتفل بعيدها الوطني"; "يطيب لنا أن نغتتم مناسبة العيد الوطني"، "بمناسبة حلول السنة الهجرية.."); أو **الحزن والمواساة** ("بقلب مؤمن بقضاء الله وقدره أنعي إلى الشعب المغربي الأبى"، أو في رسائل التعزية والمواساة والتضامن الموجهة على ملوك وقادة الدول أو إلى عموم شعبه أو خاصتهم،

والتي تنصدها عبارات "علمنا ببالغ الحزن والأسى النبأ المؤلم لحادث الحريق المهول الذي اندلع بالسجن المدني لسيدى موسى بالجديدة"، أو رسالة التعزية التي وجهها جلالته إلى أسرة المرحوم مولاي احمد المنجرة وسلمها والي جهة تانسيفت-مراكش-الحوز أو الرسائل التأبينية¹، أو **هما معا** (كما في خطاب نعي وفاة والده "يخالجنا في هذه اللحظة التاريخية شعور مزيج من السعادة بالتوجه إليك في أول خطاب لنا نلقيه عليك ومن الألم لفقد والدنا الملهم")، فلا تستغرق هذه البنية إلا سطرا أو سطرا ونصف، اللهم إذا استغرقت 10 سطور و 3 فقرات و 10/6 من الصفحة؛

• **بنية بيان نية ومقاصد الخطاب** والمساهمة آنذاك في تشكل فرصة للوعي بطبيعة وجسامة مشاكل البلاد وسبل حلها والقضايا والرؤى التي رام جلالته الملك تقاسمها مع شعبه.

وباستقراء أهم تيمات بنية نية ومقاصد الخطاب كما بيّنها صاحب الجلالة في كل خطاباته ورسائله*، فإن البنية لا تخرج عادة عن المحاور المقاصدية الأخرى التالية:

• **بنية التشخيص الذاتي والتأمل لتشكيل الوعي** وإدراك ما تم إدراكه من نتائج في إطار فقرات عن الحصيلة، وما يتعين استدراكه وتحصيله من أهداف ("إن تأمل هذا الواقع ليجعلنا نتساءل في ألم وحسرة .. كيف يمكن تحقيق التنمية الشاملة وعالمنا القروي يتخبط في مشاكل تضطر سكانه إلى التخلي عن الأرض التي جعلها الله ذلولا للاستزراق منها والهجرة إلى المدن")³.

يُشار في هذا الصدد أن الخطاب المخد للذكرى الخامسة عشرة لاعتلاء جلالته عرش أسلافه الميامين شكل بكل المقاييس خطابا خاصا، بمضامين خاصة وبنية دلالة غير مسبقة في تاريخ التوثيق الخطابي المولوي، حيث أراد جلالته خرق قاعدة استعراض بنية الإنجاز، فأعرض عنها بنية التأمل والنقد الذاتي وطرح أسئلة أكثر أنطولوجية سياسية واقتصاديا واجتماعيا، فتصدت خطاب جلالته بنية التشخيص الذاتي الشهيرة التالية: "إننا لا نريد أن نجعل منها مناسبة لاستعراض حصيلة المنجزات، لأنها مهما بلغت، ستظل دون ما نرتضيه لك شعبي الوفي. وإنما نريدها وقفة تأمل وتساؤل مع الذات، بكل صراحة وصدق وموضوعية، حول ما طبع مسيرتنا من إيجابيات وسلبيات، للتوجه نحو المستقبل، بكل ثقة وعزم وتفاؤل".

ما ميّز هذا الخطاب أيضا هو أن جلالته فضّل الإستعاضة عن لغة الأرقام التي تعتبر الأكثر بلاغة وإنباءً، لكنها تظل أقل إنباء وبناء للفهم طالما لم تبلغ مؤشرات التنمية بظروف عيش جميع المواطنين وضعاً غير الوضع: "أنا لا تهمني الحصيلة والأرقام فقط، وإنما يهمني قبل كل شيء، التأثير المباشر والنوعي، لما تم تحقيقه من منجزات، في تحسين ظروف عيش جميع المواطنين"؛

• **بنية إسقاط بنية التأمل وشخصنتها**، حيث اسقط جلالته على عموم المغاربة بنية التأمل وتأمله معهم وضعهم، لانه "إذا كان من الطبيعي أن يتساءل الإنسان مع نفسه، في كل مرحلة من حياته، فإن إجراء هذه الوقفة مع الذات"، فإنها "تعد ضرورة بالنسبة لخدمك الأول، الذي يتحمل أمانة أكثر من 35 مليون مغربي"، من منطلق "الأمانة العظمى التي أتحملها، كملك لجميع المغاربة، أتساءل يوميا، بل في كل لحظة، وعند كل خطوة، أفكر وأتساور قبل اتخاذ أي قرار، بخصوص قضايا الوطن والمواطنين"؛

¹ الرسالة الملكية التأبينية التي تلقتها مستشارة جلالته الملك الراحلة زليخة نصري على مسامع المشاركين في الامسية التأبينية للمرحومة آسية الوديع

* - رغم ما تعرفه بعدئذ داخل حوار فقرات الخطاب من تشظيات تيمية ومضامينية

³ - من خطاب جلالته بمناسبة الذكرى السادسة والأربعين لثورة الملك والشعب

• **بنية "الإنجاز"**، وتشتمل هذه البنية على انتهاء صاحب الجلالة فرصة الإتصال الجماهيري التي تتيحها الخطابات الملكية لاستعراض حصيلة ما تحقق في كل المجالات، وفق مقولة "البر بالقسم والعهود التي قطعنها المؤسسة على نفسها والاهداف التي رسمتها، فوفت واوفت وأجزلت"؛

• **بنية الأهداف المدركة:** تتعلق غالبا ببنية الإنجاز التي سلف بيانها، وتتخللها إشادة بالجهات التي ساهمت في الإنجاز ومكنت من إدراك الأهداف وفق لجدول الزمني الذي حدد لها (نسوق نموذج اللجنة الملكية الخاصة للتربية والتكوين التي نوه جلالته بنتائج عملها في أكثر من مناسبة" وقد توجت اللجنة جهودها الحميدة بوضع مشروع ميثاق للتربية والتكوين كانت تتأهب لعرضه على أنظار والدنا المقدس لولا أن الأجل وافاه"، واللجنة التي يقصدها جلالته هي اللجنة التي عهد إليها والده قيد حياته مهمة وضع مشروع ميثاق للتربية والتكوين؛ "واعتناء من والدنا المكرم بهذه القضية، فقد كان عين لجنة وطنية خاصة عملت تحت رعايته السامية مستنيرة بالتوجيهات التي تضمنتها رسالته الملكية في هذا الصدد. وقد توجت اللجنة جهودها الحميدة بوضع مشروع ميثاق للتربية والتكوين كانت تتأهب لعرضه على أنظار والدنا المقدس لولا أن الأجل وافاه. وسنلي هذا المشروع ما هو جدير به من عناية تتناسب وما نعلق عليه من آمال في هذا المجال"¹؛ "وكما وعدنا في خطاب العرش، فإننا سننكب كذلك على ملف التعليم في ضوء مشروع الميثاق الذي انجزته اللجنة الملكية الخاصة للتربية والتكوين وبالعباية التي هو جدير بها لأهميته في اعداد النشء وتاهيل اجيال المستقبل. وبالعباية نفسها سنتابع سياسة والدنا برد الله مضجعه"²؛ "جعلت والدنا رضوان الله عليه يعين لجنة ملكية خاصة ممثلة فيها جميع الهيئات والفعاليات لوضع مشروع ميثاق وطني للتربية والتكوين. وقد شاءت الأقدار أن تنهي هذه اللجنة أشغالها دون أن يطلع والدنا المشمول برحمة الله على نتائجها"³؛

• **بنية إدراك التأخرات بنية استدراكها:** ما ميز عهد صاحب الجلالة محمد السادس والإنقطالات الخطابية لعهد هو تجاوز ما عرفه عهد والده من تغني بالنجاح وكظم لحظات الغيظ من الفشل والفاشلين، حيث أورد جلالته في العديد من الخطابات خطاطات الفشل بالقول ("وبموازاة ذلك، نحث الحكومة على الإسراع بإعداد ميثاق للاتمرکز الإداري. إذ لا جهوية ناجعة بدون. وذلك بما يقتضيه الأمر من تجاوز للعقليات المركزية المتحجرة")⁴؛ ("وفي حالة وقوع بعض التجاوزات، كما هو الحال في أي انتخابات، فإن معالجتها يجب أن تتم طبقا للقانون، من طرف المؤسسات القضائية المختصة")؛ ("ولا يفوتني هنا أيضا، أن أنبه لبعض التصرفات والتجاوزات الخطيرة، التي تعرفها فترة الانتخابات، والتي يتعين محاربتها، ومعاينة مرتكبيها")⁵؛ ("غير أن طموحنا يتجاوز بكثير الإمكانيات المحدودة، التي تتوفر عليها الوكالة، بسبب ضعف المساهمات المنتظرة في ميزانيتها")⁶، والضمير يعود هنا على وكالة بيت مال القدس الشريف والمخطط الخماسي الذي بلورته، للفترة الممتدة بين سنتي 2014 و2018.

التصريح بالفشل النسبي الذي حصده بعض المقاربات لا يعني البتة غياب الإشادة بما تحقق على عهد جلالته في إطار التقديم الإيجابي للقطاف.

• **بنية التقديم الإيجابي للذات/المؤسسة الملكية،** من خلال توصيفها بـ "الجلالة" في التسمية التي تفرضها التقاليد الملكية المرعية، فلا يتوانى عن وصف جلالته "بخديم شعبه الأول"؛

¹ - من أول خطاب يلقيه جلالة الملك بمناسبة حلول الذكرى الأولى لاعتلائه كرسي العرش

² - إحدى الشذرات من الخطاب الذي وجهه جلالته بمناسبة الذكرى السادسة والأربعين لثورة الملك والشعب

³ - خطاب صاحب الجلالة بمناسبة افتتاح السنة التشريعية 1999-2000

⁴ - من نص الخطاب الذي وجهه صاحب الجلالة الملك محمد السادس إلى أمة بمناسبة الذكرى العاشرة لاعتلاء جلالته العرش

⁵ - إحدى شذرات الخطاب الموجه إلى الأمة بمناسبة الذكرى 17 لعيد العرش المجيد

⁶ - نص الخطاب الذي ألقاه صاحب الجلالة الملك محمد السادس، رئيس لجنة القدس، في افتتاح الدورة العشرين للجنة المنعقدة بتاريخ 17 يناير 2014 بمراكش

• **بنية محاسبة الذات:** على عكس باقي الذوات السياسية التي نكاد لا نلقي في خطابها نقدا ذاتيا كالذي كان على عهد الزعيم السياسي المرحوم علال الفاسي الذي صاغ كتابا "في النقد الذاتي"، اختار صاحب الجلالة في بعض خطابه الخروج عن رتبة ترتيب الاجزاء والبنى الاعتيادية لاستعراض المنجزات والتقديم الإيجابي للذات والإحتفاء بحكمتها وحكامتها، لأن جلالة الملك لا يصدر عن رأي أو تعنت واستبداد بالرأي، بقدر ما يستشير محيطه ويعتمد على خلاصات التقارير والدراسات التي ترفع لجلالته، إلا أن محاسبة الذات تجعلنا نتساءل مع صاحب الجلالة "هل اختياراتنا صائبة وما هي الأمور التي يجب الإسراع بها، وتلك التي يجب تصحيحها وما هي الأوراش والإصلاحات التي ينبغي إطلاقها"، لأن كل إنسان "يعتقد أنه دائما على صواب، أو أنه لا يخطئ، فإن هذا الطريق سيؤدي به إلى الانزلاق والسقوط في الغرور"¹؛

• **بنية الحكمة والحكمة،** التي يؤسس عليها جلالته القرارات ("كما تشبعنا بحكمة الإسلام المتميزة بالترخيص بزواج الرجل بامرأة ثانية، بصفة شرعية لضرورات قاهرة وضوابط صارمة، وبإذن من القاضي، بدل اللجوء للتعدد الفعلي غير الشرعي، في حالة منع التعدد بصفة قطعية"²؛ "أن يكون في كفاح مستمر لمواجهة كل الازمات والتحديات وحل مختلف القضايا والمشكلات وعلى رأسها قضية الوحدة الترابية التي عالجها بحكمة وروية في التزام بقرارات الأمم المتحدة مع تقديم الدعم الكامل لما ينجح الاستفتاء التأكيدي في أقاليمنا الجنوبية"³، وفي تأكيد جلالته على الحكمة في هذا السياق المرتبط بالاستفتاء ردّ ضمني على جميع الاطراف السياسية التي اعتبرت في إبانة حل الإستفتاء خطأ تدبيريا للملف) وينتظر على ضوءها النتائج ("ومرة أخرى، فإن الوثيرة والظروف التي بها سنحقق ذلك تتوقف على مدى نهجنا سبيل الحكمة")⁴؛

• **بنية التحكيم** بين مختلف الفرقاء والشركاء السياسيين (حكومة/برلمان، أغلبية/معارضة)؛ بنية التحكيم بين مختلف الفاعلين الإقتصاديين (المقاولات الكبرى/المقاولات المتوسطة والصغرى)؛ بنية التحكيم بين مختلف الفاعلين الاجتماعيين (باطرونا/ نقابات عمالية هيئات مهنية)؛ وحتى بنية التحكيم بين المرء وزوجه في إطار مقارنة النوع ("لقد كان من المهم التوصل إلى توافق حول المدونة الجديدة، فلو برزت هناك عرقلة ما، لما كنا توصلنا إلى ما توصلنا إليه حاليا. إنني سعيد لأنكم تحدثتم عن مدونة الأسرة وليس عن مدونة المرأة، لأنه لا ينبغي وضع المرأة في جانب والرجل في الجانب الآخر، لأن كليهما مسؤول داخل الأسرة"⁵؛ "عدم اعتبار المدونة قانونا للمرأة وحدها، بل مدونة للأسرة، أبا وأما وأطفالا، والحرص على أن تجمع بين رفع الحيف عن النساء، وحماية حقوق الاطفال، وصيانة كرامة الرجل"⁶)، وفي ذلك تكمن حكمة تحكيم الملك من خلال موافقته على مسودة المشروع الذي عرضته لجنة الصياغة، قبل النقاش الحالي الدائر حول تفعيل المناصفة؛

• **بنية الحكم،** من خلال الحديث عن مسائل تتعلق بتدبير المؤسسة الملكية للحقل السياسي والسوسيو-اقتصادي والديني والثقافي، وأدوارها المرتبطة بموقعها وبصلاحياتها الدستورية التي تجعلها سلطة تحكيم وتتبع وإشراف مولوي، لأنه من معالم فصل السلط، وتوضيح صلاحياتها، تقسيم الفصل 19 في الدستور الحالي-السابق في زمن الإنتهاء من الاطروحة-، إلى فصلين اثنين: فصل مستقل يتعلق

¹- الخطاب التاريخي المخد للذكرى الخامسة عشرة لاعتلاء جلالته العرش.

²- خطاب جلالته الإفتتاحي للسنة التشريعية 2003-2004

³- خطاب الذكرى السادسة والأربعين لثورة الملك والشعب التي صادفت السنة الاولى لاعتلاء جلالته العرش، فكان ذكر والده الملك الراحل في لسانه غضا طريا

⁴- نص الحديث الصحفي الذي خصّ به صاحب الجلالة اليومية الاقتصادية اليابانية (نيهون كيزاي شيمبون) التابعة لمجموعة (نيكون)، وذلك بمناسبة الزيارة الرسمية قام بها إلى اليابان بدعوة من صاحب الجلالة أكي هيتو، إمبراطور اليابان

⁵- من نص الحديث الصحفي الذي خص به جلالته صحيفة "إلبايس" الإسبانية

⁶- خطاب جلالته الإفتتاحي للسنة التشريعية 2003-2004 الذي استغرقت مضامين الأحوال الشخصية أكثر من ثلاثة أرباع مساحته، أغرقت جلها في الحديث عن المرأة والطفل

بالصلاحيات الدينية الحصرية للملك، أمير المؤمنين، رئيس المجلس العلمي الأعلى، الذي تم الارتقاء به إلى مؤسسة دستورية؛ وفصل آخر يحدد مكانة الملك كرئيس للدولة، وممثلها الأسمى، ورمز وحدة الأمة، والضامن لدوام الدولة واستمرارها، وللاستقلال المملكة وسيادتها، ووحدتها الترابية، والموجه الأمين والحكم الأسمى، المؤتمن على الخيار الديمقراطي، وعلى حسن سير المؤسسات الدستورية، والذي يعلو فوق كل انتفاء. ويمارس الملك مهامه السيادية والضمانية والتحكيمية، الواردة في هذا الفصل، استنادا إلى مقتضيات فصول أخرى، منصوص عليها صراحة في الدستور علما بأن التشريع يظل اختصاصا حصريا للبرلمان¹؛

• **بنية الإشعار والإخطار والإنذار والإعذار**، حيث وردت بعض الخطابات بإشعار بمثابة إنذار أو إعذار إلى المسؤولين أو إلى بعض فئات المواطنين لتحميلهم المسؤولية عن بعض الإنفلاتات، أو لتحمل مسؤولياتهم في الاضطلاع بمهامهم، خاصة في الخطابات التي أسست للمفهوم الجديد للسلطة وربط المحاسبة بالمسؤولية والحكمة الترابية، وغيرها من المواضيع التي تم تبنيها بنفس التراتبية في الوثيقة الدستورية التي صادق عليها المغاربة في الإستفتاء الدستوري على دستور 2011.

كما وردت بعض الخطابات بمضامين إخطار بعض المواطنين ("المغرب يرفض كل الممارسات التي تستهدف المس بأمته واستقراره. وسيصدي لها بكل حزم... فمتى كان ترهيب المواطنين، وتخريب ممتلكاتهم، التي اكتسبوها بجهدهم وعرق جبينهم، حقا من حقوق الإنسان؟ ومتى كان الإخلال بالأمن العام، وتدمير الممتلكات العمومية، يدخل في إطار ممارسة الحقوق والحريات؟ لقد سبق لنا في خطاب المسيرة سنة 2009، أن عبرنا عن رفضنا القاطع لهذه الممارسات، ونبهنا إلى أن أي شخص إما أن يكون وطنيا أو خائنا. فليس هناك مرتبة وسطى بين الوطنية والخيانة... كما أنه ليس هناك درجات في الوطنية، ولا في الخيانة... صحيح أن الوطن غفور رحيم، وسيظل كذلك، ولكن مرة واحدة، لمن تاب ورجع إلى الصواب... إننا نعرف أن الإنسان يمكن أن يخطئ، ولكن الخيانة لا تغفر. والمغرب لن يكون أبدا، مصنعا "لشهداء الخيانة"² أو إعذار وإنذار حتى بعض الأجانب بشأن مغبة بعض السلوكات ("غير أن المغرب قد عرف، قبل هذه الفترة، دخول عدد من اللاجئين القادمين من بعض الدول، التي تعرف تدهورا في الأوضاع الأمنية... وكما تم العمل به سابقا، فإن كل من يثبت في حقه، أي خرق للقوانين أو الضوابط المغربية، سيتم ترحيله خارج الحدود")³.

• **بنية "الدعوة"**: وتضمنت الدعوة إلى عدد من المبادرات وتحمل مسؤولية الوطن والمواطنين ("وإني لأدعو الأحزاب السياسية، والمركزيات النقابية، ومنظمات المجتمع المدني، التي شاركت، بكل حرية والتزام، في صنع هذا الميثاق الدستوري المتقدم")؛

• **بنية "استدعاء الشواهد"**، سواء كانت تاريخية ("جريا على العادة التي سنها والدنا المنعم جلالة الملك الحسن الثاني رضوان الله عليه تخليدا لانطلاق المسيرة الخضراء المظفرة يسعدنا وقد حلت ذكرها الرابعة والعشرون أن أوجه إليك خطابا أدعوك فيه إلى تأمل حدثها المتفرد الذي يمثل إحدى حلقات الكفاح الذي خضته "شعبي العزيز" من أجل استرجاع الاستقلال واستكمال وحدة التراب")، أو حضارية تنموية (...)، أو إنسانية ("أصحاب الجلالة والفخامة والسمو، إن تكلفة الانتظارية، والتقصير في مواجهة تغير المناخ وأثاره، فباسم المصير المشترك، وباسم مسؤوليتنا التاريخية، أدعو كافة الأطراف، للعمل على ترجمة تشبثنا بقيم العدل والتضامن")⁴ أو استدعاء شاهد قرآني (كما في خطاب نعي والده الملك الراحل الحسن الثاني ﷺ وبشر الصابرين الذين إذا هم أصابهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون)؛ أو الخطاب الذي ألقاه بمناسبة حلول الذكرى الأربعينية لوفاة جلالة الملك الحسن وانهاء فترة الحداد ﷺ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﷻ).

¹ - من خطاب جلالته الموجه إلى الأمة بشأن مشروع الدستور الجديد

² - الخطاب الملكي الموجه إلى الأمة بمناسبة الذكرى التاسعة والثلاثين للمسيرة الخضراء

³ - الخطاب الملكي الموجه إلى الأمة بمناسبة الذكرى الثانية والستين لثورة الملك والشعب

⁴ - نص الخطاب السامي الذي ألقاه صاحب الجلالة بمناسبة انعقاد الجلسة الرسمية رفيعة المستوى للدورة الثانية والعشرين لمؤتمر الأطراف في الاتفاقية الإطار للأمم المتحدة حول التغيرات المناخية (كوب 22) المنعقد بمراكش بين 7 و18 نونبر 2016

• **بنية الدعاء:** الذي يرد غالبا قبل بنية الإختتام، من خلال شواهد من الذكر الحكيم (﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾، صدق الله العظيم والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته)، أو من خلال دعاء جلالته لرعاياه ("والله تعالى نسأل أن يوفقكم، ويسدد خطاكم في خدمة المصالح العليا لوطننا العزيز"¹) أو لعموم المشاركين في المؤتمرات الدولية بالتوفيق والنجاح في أشغالهم ("وفقكم الله وسدد خطاكم وأعانكم على تحمل المسؤولية المنوطة بكم، ربنا أنتا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا")².

• **بنية الإختتام،** ولا تستغرق أكثر من سطر واحد، وتكون غالبا باختتام الدعاء أو استدعاء النص القرآني "بصدق الله العظيم" ومن ورائه الخطاب ككل، من خلال إلقاء سلام الله تعالى وبركاته على المشاهدين أو المؤتمرين، (﴿ربنا لا ترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة. إنك أنت الوهاب﴾، صدق الله العظيم. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته)، ليقوم صوت عزف النشيد الوطني من جديد ليوحي بأنه "انتهى الكلام"، فيؤشر على اختتام خطاب صاحب الجلالة.

عند تقليب الخطابات على جميع وجوها، يمكن رصد نشاط البنى الدلالية وحضورها أو غيابها في لاوعي الخطيب والخطاب وبالتالي حضور المتلقي أو غيابه أو تغييبه أحيانا، والوقوف بذلك على بنى دلالية أثرت أن أورد الحديث عنها باقتضاب ودون فتح باب القيام بجمع مفرداتها وفرداتها وفق نسب تردد مؤشرات الحقول الدلالية في جداول كمية، لتوجسي من عدم تمثيلية الخطابات التي استطعت الحصول على نصوصها من جميع أجزاء وأقسام حوليات انبعاث أمة والأحاديث الصحفية بطون الكتب والحوليات، وبالتالي عدم التمكن من حساب جميع مؤشرات ترددها من خلال إحصاء تكرارات الوحدات الدلالية (المتغيرات) المنتمية إلى الحقل الدلالي الواحد (المؤشر)، ليكون بمقدوري عندئذ أن أوشر على بلاغة التراكيب الدلالية.

إلا أنه بدا لي من الأجدى معالجة مبحث بلاغة الخطاب الملكي انطلاقا منها، بسبب التوالج القائم بين المستوى الدلالة والبلاغي على نحو يجعل للدلالة أوجها بلاغية: جاءت في الخطاب بعض الألفاظ أو الدلالة البلاغية مثل الكناية والاستعارة والاقتراس للتأثير على المتلقي وإقناعه في مضمون الخطاب، وهي المعنى المجازي الذي يعدل عليه المعنى الحقيقي عند المتكلم.

كما أن ارتفاع نسبة تكرار بعض المؤشرات (من قبيل حقوق الإنسان، الحريات...) يُعد مَحَمَدَة أو إيجابية، تُحسب للمرحلة وللعهد للذات دشنها صاحب الجلالة فأراد أن يكون عهده عهدا جديدا وعهد المصالحة، وجبر الضرر والإستماع لمن كان لا يفتح فمه إلا وهو مُسَجَّى فوق كرسي طبيب الأسنان، التي يعتبر انخفاضها في أي خطاب مؤشرا دالا على ارتفاع نسب الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان، لذلك، ومواخذه على الخطيب، ومن ثَمّة على نظامه السياسي.

بالمقابل، يشكل غياب المؤشر "الولاء" أو تضائل نسبة تكراره في خطابات العاهل عدم وجود أزمة ولاء له ولنظامه أو للدولة في عهده، في الوقت الذي كان يؤشر ارتفاع نسبة تكرار مؤشر "الولاء" في خطابات والده على ملحاكية موضوع الولاء عليه وضرورة طرحة لمجابهة من يحملون طرح شق عصا الطاعة والولاء لللازمين لولي الأمر ويروجون لفكر الردة والبراء أو للنموذج الجمهوري.

¹-نص الخطاب الملكي الموجه إلى الأمة من مدينة العيون المعلن لتعيين المجلس الملكي الاستشاري للشؤون الصحراوية وتنصيب أعضائه

²-من نص الخطاب الملكي لإفتتاحي للسنة التشريعية 1999-2000

ويتمثل ذلك في صور أربع رئيسية:

- **القوالب اللفظية (فَتْحًا)**، باعتبارها تراكيب لغوية عرفية تجري على ألسنة أبناء اللغة للتعبير عن فكرة أو معنى ما، دون تغيير جوهري في عناصرها وأبنيتها اللغوية من خلال اقتباس جلاله الملك النص القرآني في خطابه بلفظه في العديد من المواقع؛
- **المزاوجات اللفظية؛**
- **والمصاحبات اللفظية؛**
- **ثم التعبيرات اللغوية ("الأغلبية الساحقة"، "السواد الأعظم من أفراد شعبنا"، "جعلنا الإرتقاء بأحوالك شغلنا الشاغل"، "لا تتغير ولا تتبدل"، "يقظة مصالحنا الامنية" "عدالة قضيتنا"، "قضية الصحراء قضيتنا الوطنية الأولى"، "مليلية المحتلة وسبتة السليبية"، "لقمة العيش"، "أبناء هذا الوطن المقيمين في الخارج"، "مغاربة العالم"، "ستسير ضفتي الفضاء الاورو-متوسطي جنبا إلى جنب"، "توحيد كلمة العرب"، "في ظل المساواة"، "استرداد حقوق الشعب الفلسطيني") وما تحمله من دلالات تصل إلى المتلقي دون كبير عناء، فيفهمها المستمع والمتتبع (والمستمع أيضا)، خاصة على عهد والده الحسن الثاني الذي كانت تتخذ خطاباته شكلا سرديا فيه حكي وتسامر يشي به سياق الجملة: ("تذاكرنا أنا وأخي الملك عبد الله، فقلت له... فقال لي..." "قلت له أناشدك الله يا أخي صدام").**

على مستوى الأبنية الدلالية الكبرى، لاحظت في بعض الخطابات ربطا بين الجمل والتراكيب حول موضوع واحد ظل محورا لها حتى نهايتها، فجاءت هذه الخطابات ذات الموضوع الواحد متماسكة في شكلها العام، حيث يربط الموضوع بين المفردات والتراكيب ربطا قويا حتى نهايته، بعد الافتتاح بتمهيد لبعض الأمور أو المواقف أو الأسئلة التي تشكل عمود الموضوع الفقري، فضلا عن محاور لا تخرج عن الإطار العام الموضوعي للخطاب.

❖ ثانيا- الأبنية الدلالية الصغرى

على مستوى الأبنية الدلالية الصغرى: وجدت في جميع الخطابات، خاصة خطابات العرش لعموميتها وعدم اختصاصها بموضوع محدد، حقولا دلالية متسلسلة ومرتبعة من نقطة إلى أخرى.

فلا أكاد أجد في أية من الخطابات الملكية أو الرسائل ذكرا للاعتذار عن الإطالة كما الشأن بالنسبة للخطابات السياسية الأخرى التي تطفح بالحشو والإطناب ويدرك أصحابها ما بلغ بمجتمع اتلقي من ملل وسأم وطول انتظار جراء الغي والعي وما يعتور الخطاب من تكرار، وفي ذلك تثبيت وإثبات لمنطلقنا في هذه الاطروحة حول بلاغة الخطاب الملكي في التبليغ بإيجاز، موضوع مبحثنا الموالي.

وعليه، أجدد التمسك بفرضية مفادها أن الخطاب الملكي، على النقيض من الخطاب السياسي، ليس خطابا "ميتافيزيقيا" بالمعنى الكانتي للمفهوم، لأنه خطاب لا يقارب موضوعه بالتصور المجرد، أو يكبت الفعل لصالح القول، وتخالجني رغبة في الاتكاء على التحدي القرآني ﴿فليأتوا بحديث مثله﴾، ﴿فأتوا بسورة مثله﴾، ﴿فأتوا بعشر سور مثله﴾، الذي لم يذهب التأويل فيه لفهم السورة على أنها "الفعل لا القول"؟

إن انحياز الخطاب للقول في الخطاب السياسي على حساب اللفظ، جعله معنيا بتحقيق سلاسل مترابطة من المصالحات الذهنية، لكنه غير معني بالإجراء ولا بالأجراًة والإنجاز، مما جعل الخطيب السياسي كمن حفظ بكل دقة خطوات السباحة دون أن تلمس قدماء الماء.

المبحث الثاني بلاغة الإيجاز وفصاحة الإنجاز



المطلب الأول/ هل الإيجاز بلاغة والبلاغة إيجاز ؟

سأورد الحديث موجزا عن هذا السؤال، بعيدا عن تعريفات علماء البلاغة والمعتزلة من أهل الكلام والإيجاز والاطناب، لأنتخب من القول ما ورد بشأن الكلام البليغ: فللكلام البليغ مراتب أعلاها ما يصل إلى حد الإعجاز الذي اختص الله به كتابه، ونحن لا نختص عاهلنا -إن جاز لي الأمر- إلا بفضيلة الإنجاز؛ يليها من قرّبه الله منه فأدناه فأغناه عن سواه، نبينا الأواه الذي أوتي جوامع الكلم، ونذكره ونصلي على آله وصحبه لملا نجثوا على الركب، لتتنازل الرتب بعد ذلك فيتبارى فيها البلغاء من الأدباء والمبدعين والفصحاء.

فالإيجاز ليس مجرد لون لبلاغي مُقتصر على جانب واحد من اللغة، ولا على مبحث من مباحث علم البلاغة فحسب، لأن اللغة العربية ذاتها لغة إيجاز، والأساليب العربية غالبا ما تسلك مسلك الإيجاز في الكلام العادي بغير قصد إلى الجمال في التعبير أو تزيين الكلام به، فيكون الإيجاز في صياغتها اللغوية (النحت، الضمائر، الحذف، الإدغام أو الإستفهام والشرط) أو في أساليبها لدواعي أخرى غير الدواعي البلاغية (القصر، الحذف، حذف المسند، حذف المسند إليه، حذف المفعول).

فهناك ربط بين الإيجاز والبلاغة على حد تعريفها بالإيجاز، وإن كان الإيجاز جزء من مكون علوم البلاغة وليس هو البلاغة على شمولية إطلاقها.

فالبلاغة هي علم قائم بذاته بجانب علم النحو والعروض، ولها مداخل ثلاث هي (باب البيان - وباب المعاني- وباب البديع)، والبليغ قد يختار للتعبير عما يخالجه من المعاني ثلاثة أنواع: أن يسهب أو يوجز أو يطنب ويطيل.

كي لا أطنب بدوري، أقول أن الإيجاز هو جمع المعاني المتكاثرة تحت اللفظ القليل مع الإفصاح والإظهار، وهو على وجهين: إيجاز قصر ويكون بتضمين العبارات القصيرة معاني قصيرة من غير حذف؛ وإيجاز حذف ويكون بحذف كلمة أو جملة أو أكثر مع قرينة تعين المحذوف... وبما أن الإيجاز له غايات جمالية في اللغة العربية، فأنا أرى أنه فيه من الجمال ما لمجمع الأحكام والأمثال والعبر التي كان الإيجاز مصدرها من جمال وفاعلية في التعبير بالاختصار على مجمل التعبير دون إطالة.

وبلاغة في اللغة من البلوغ والانتهاء، أي بلوغ المعنى من القائل إلى ذهن المتلقي ودون توغل في التعقيد اللفظي والمعنوي أو صناعة مكشوفة من الكلام من حيث التنميق والتزويق إلى غاية فقدان الكلام رصانته وجوهر معناه، ولغة ذاك العلم القائم بذاته بجانب علم النحو والعروض إلخ ...

ولن أتحدث إلا إشارة عن التصنيف الذي ينصرف له الإيجاز بنوعيه:

- **إيجاز قصر**، ويكون بتضمين العبارات القصيرة معاني قصيرة من غير حذف؛
- **إيجاز حذف**، ويكون بحذف كلمة أو جملة أو أكثر مع قرينة تعين المحذوف، وهي مستويات سنمر بها كراما، لأننا نقصد بالدرجة الأولى بالإيجاز تكثيف المعاني بدل الجوانب النحوية.

وعليه، ساذر التصنيف وأوثر الغايات والمقاصد الجمالية للإيجاز في اللغة العربية، وما يؤديه الاختصار على مجمل التعبير دون إطالة، حيث أن مجمع الأحكام والأمثال والعبر كان مصدرها هذا الإيجاز وعلى رأس ذلك كلامه سبحانه وتعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه المحكم آياته، فلم يحسن تأويله إلا الراسخون في علوم اللغة، ومنها البلاغة بكل أقسامها.

وقد أوردت إحدى الجرائد التي وجدتهني أحتفظ بقصاصة ورقية منها قولاً لعللي بن أبي طالب كرم الله وجهه يعتبر فيه أنه ما رأى "بليغاً قط إلا وله في القول إيجاز، وفي المعاناة إطالة"، وقال قوله أكرم بن صيفي "البلاغة هي الإيجاز".

وقد حذا حذوهم "الصاحب بن عباد: إذا كان الإيجاز كافياً كان الإكثار عياً؛ بنفس مضامين جواب أعرابي سئل عن البلاغة، فأجاب أنها "إقلال في إيجاز وصواب مع سرعة جواب"، بنفس الكلام المسجوع لأبو منصور عبد الملك الذي أشر على "أبلغ الكلام" بكونه "ما حسن إيجازه وقل مجازه وكثر إعجازه، وتناسبت صدوره وأعجازه"؛ كي يحض غيرهم العرب على توخي "الإيجاز، لان له إفهاماً وللإطالة استبهاماً"، "فتكون البلاغة "قليل يفهم وكثير لا يسأم" وترادف الإيجاز.

وتكاد تتداخل الفصاحة مع البلاغة ويمتزجان بالإيجاز فيستمرجان. فقد أعجب معاوية بن أبي سفيان بخطبة "صحرار بن عياش العبدى"، أحد رواد كتاب خطب المحافل، فسأله "ما هذه البلاغة التي فيكم؟ قال: شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا (...) ، وقال له معاوية: ما تعدون البلاغة فيكم؟ قال الإيجاز، فقال له معاوية: وما الإيجاز؟ قال صحرار: أن تجيب فلا تبطئ، وتقول فلا تخطئ"¹.

وإذا ما دققنا في الوحدات اللغوية التي يتضمنها هذا النص، يمكن نلاحظ بأن هنالك علاقة حوارية تواصلية بين ما تنتجه الأنا المتكلمة من خلجات ذاتية، وطلاقة اللسان، وبين الإيجاز في الكلام وتقديم المقصد في تركيب بلاغي موجز، فلا يكون هنالك إفراط في التبليغ ولا تقريط في توصيل الخبر وإتيان الدلالة منه، لأن "أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره" كما يقال، وذلك وفقاً لمقتضيات الحال إذ لكل مقام مقال.

أستطيع هاهنا فهم ضرورة الحديث عن الإيجاز في علاقته بالإنجاز من خلال الحديث عن خطابة العاهل وحوارية نصه الخطابي.

المطلب الثاني/ البلاغة من خلال الإيجاز ومراعاة مقتضى الحال لتغيير الحال والمآل بالإنجاز

ليس الإيجاز مجرد لون بلاغي مُقتصر على ناحية أو جانب واحد من اللغة، ولا على مبحث من مباحث علم البلاغة فحسب، لأن اللغة العربية ذاتها لغة إيجاز، لأن الأساليب العربية غالباً ما تسلك مسلك الإيجاز في الكلام العادي بغير قصد إلى الجمال في التعبير أو تزيين الكلام به، فيكون الإيجاز في صياغتها اللغوية (النحت، الضمائر، الحذف، الإدغام أو الإستفهام والشرط) أو في أساليبها لدواعي أخرى تدعو إليه غير الدواعي البلاغية (القصر، الحذف، حذف المسند، حذف المسند إليه، حذف المفعول).

¹ الجاحظ: البيان والتبيين، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص. 69

في أفق تحصيل صورة شاملة للإيجاز كأسلوب بلاغي ظاهر الأثر في بلاغة الخطاب المولوي، وكموضوع يزاحمه العلماء بغيره من الموضوعات في علم المعاني وفي بعض فنون الأساليب البلاغية التي تشكل بدورها لوناً من ألوان الإيجاز، ينبغي توضيح فكرة مفادها أن الإيجاز لا ينحصر في كونه مجرد أسلوب للتعبير عن المعاني أو بعض الجوانب الذي ترد في مختلف المصنفات كضرب من ضروب الإيجاز.

وعليه، سأتناول خصائص الإيجاز لتوضيح ما يحتويه من خصوصية في اللفظ والمعنى، وبعد منهج وصفي يسرد ما يتعلق بالإيجاز وبيان أثره البلاغي، سأعرج على منهج تحليلي لنحلل على ضوءه عدداً من نصوص الخطابات المولوية لأستخرج منها شواهد لبيان الوجوه البلاغية في أسلوب الإيجاز.

❖ أولاً- الخطابات الملكية بلسان عربي ناظمه الإيجاز

لئلا أركز على قيمة الإيجاز في النص المولوي بعيداً عن الشكل الذي يدرس به الإيجاز كمبحث من مباحث علم المعاني باعتباره علماً من علوم البلاغة، أثرت مبدئياً التركيز أكثر على قيمة الإيجاز في بلاغة النص المولوي مع دراسة تطبيقية لمتنه، لتلمس أوجه الإيجاز فيه والقيمة البلاغية لعدد من الشواهد النصية معتمدين في ذلك على التحليل المباشر لعدد من النصوص، من خلال نظرة استقصائية داخل السياق.

كما حاولت تجاوز مستوى التحليل القائم بالتنقيب عن الإيجاز في الصياغة اللغوية (النحت، الضمائر، الحذف، الإدغام أو الإستفهام والشرط) أو في الأساليب (القصر، الحذف، حذف المسند، حذف المسند إليه، حذف المفعول)، لأستعيض عنه بالحديث عن اللسان العربي الذي أتاح للعاهل فعلاً خطابياً نأى عن فعالية العامة التواصلية في الخطابات السياسية الجماهيرية، مخافة السقوط في الابتذال الذي دفع جلالته منذ أول خطاب من خطابه نحو نحو "التفصيح".

بمنظور العلم والمقاربات العلمية، أفاد الأستاذ محمد العمري في معرض حوار معه حول موضوع الفصحى والعامة في نسج وكتابة الخطبة، أن الحاجة قائمة إلى "القيام بدراسة ميدانية تتناول عينات من الخطب والخطباء لدى فئات الجمهور المستهدف قبل الحديث في فعالية العامة ومحاذير الابتذال فيمكن مبدئياً النظر إلى الموضوع من زاويتين:

- زاوية المقامات الخطابية، حيث ننظر إلى الخطبة باعتبارها حدثاً تفاعلياً في الزمن والمكان، فالخطبة تلقى في جمهور في زمن ومكان محددين، أي جمهور بثقافة وأسئلة محددة. وهذا ما نسميه في البلاغة الحديث مُستمع على وزن مجتمع (ترجمة لكلمة *auditoire*)؛

- زاوية مستويات العامة والخاصية (الفصاحة)، لاننا دائماً بصدد الخطاب السياسي الذي قد يكون في جمعية ذات طبيعة انتقائية وقد يكون في جمهور يوضع موضعها. والسؤال موجه في الغالب إلى حالة الجمهور".

في ذات السياق، يحملنا الأستاذ محمد العمري على الإقرار بأن "التزام الإعراب قد صار يعرقل انطلاق الخطيب السياسي خاصة في المغرب حيث يتم الانتقال من الفصحى العالمية ذات التقطيع الصرفي الحاد، الفحصى "المجودة" المغناة إلى العامة المشوشة بمعجم خليط وعبارات ساقطة أحياناً... فضلاً عن استبدال كلمات سائرة ومعروفة في العربية بكلمات غير عربية ... فضلاً عن عقدة "تذريح" العربية بكلمات وأنصاف جمل فرنسية... إلى آخر هذه اللائحة غير الضرورية من المعوقات التي يحاول الخطيب التخلص منها حين يواجه مقاما خطابياً محترماً فيضطرب ويرتج عليه".

هذا التفسير هو الذي أسس عليه الأستاذ-المرجع محمد العمري ما نلاحظه من " دواخل تحول اليوم بين جمهور المغاربة وبين التدخل البسيط والسهل في المناقشات السياسية التي تجري في الفضائيات العربية... وما نلاحظه من الناس في الشارع، في أبواب الجامعات ودور العرض السينمائي حين يفاجئهم المكروفون. أكثرهم يقول كلمة أو كلمتين ثم يطلب الإعفاء والرحمة، الكل مقتنع بأن اللغة الخليط غير مناسبة في التوجه إلى الجمهور، أي للخطابة".

إن هذا الانتقال الحاد من الفصحى إلى العامية (بمعنى الخليط المعجمي والضعف الحجاجي والمعاني الساقطة المجافية للذوق) هو المشكل حقا.

وعطفا على ما أورده أستاذنا، نقول معه إننا فعلا في حاجة إلى لغة وسط تتلافى الصعوبات والنقائص المشار إليها في الفصحى والعامية على حد سواء. والمسألة مرتبطة "بمحاربة الأميات (بالجمع) وكل أساليب مصادرة الإرادة والرأي... للخروج من الهجنة، يبحثون عن الفاحش والركيك والسخيف، أغلب كلامهم من قاع الخابية حيث تترسب الأوساخ".

ما أورده الأستاذ العمري، عززه في حديث صحفي آخر جاب من خلاله مساحات التعبير البليغ فأجاب فيه عن كيفية "تشديد الخطبة بالنسبة للقائد السياسي"، حيث وصف الوصفة "ولو من زاوية ضيقة نكون فيها معنيين ومعياريين أكثر من كوننا واصفين".

نتكلم في هذا الموضوع متوجهين إلى مخاطب مضمّر يقف رقيبا، أو يفترض أنه رقيب، وهو الحزب الذي ينتمي إليه الخطيب. فالخطيب السياسي الحديث يتحدث باسم حزب (أو دولة، ونهتّم بالمتحدث باسم الحزب في انتظار أن يتاح للأحزاب الحديث باسم الدولة). ولذلك فالجانب الفردي من خطابه محدود في المستوى التقني (أو الإخراج) ومراقب المحتوى. الخطيب السياسي الحديث لا يستطيع، مثل الحجاج بن يوسف الثقفي أو زياد بن أبيه، أن يقطف الثمار التي تحلو له.

فبحسب أستاذنا العمري، ليس من الخافي على خطباء اليوم أن عهد الشفوية قد ولى، فحتى الخطب والحوارات الشفوية تسجل ويعاد الاستماع إليها عدة مرات فتصبح محاسبة كالمكتوب أو أشد: فالمقام العابر يصير مقاما مقيما.

يقتضي ضبط خصائص الصياغة التي ينسج بأليافها المنجز الذهني وفق معايير بلاغية تخص وضع الدال (اللفظ) في موقعه، ثم في علاقته بالمدلول (المعنى)، وصولا إلى التحامهما بلحمة الوحدات اللغوية (الجملة) في سياق عام قائم على حسن الحياكة بغرض تشكيل بنية نصية شفوية (الخطاب الملكي) أو مدونة (الرسالة الملكية السامية) يتحقق الائتلاف بين أجزائها ليحقق فعل الازدواجية في الملاءمة بينها وبين الدلالة التي تحملها (الموضوع أو المواضيع)، وفق مواضع تحكم تلك العلاقة بين الدال والمدلول خدمة لمرامي التواصل والتبليغ والإفهام بمقدار فهم كل كل مستمع، والحمل عليهم على أقدار منازلهم، فتواتيه آلاته، وتتصرف معه أدواته، فتبلغ بلاغة هدف تبديد مساحات الإبهام لتضع بصمة التميز بالإبهام ورسم البسمة على وجوه متتبعيه من عموم شعبه.

لكن، تحضرني سلسلة من الأسئلة تحاصر حتى عنوان الأطروحة الذي تأبط القافية نثرا بسبب اعتمادي لوصف البلاغة عند الحديث عن "بلاغة الإيجاز"، وتدعونا في الحاضر لنركب مغامرة المحاضر حول سر الانتقال داخل دوائر التحليل اللساني من البلاغة إلى الأسلوبية: فهل يتعلق الأمر بمضي زمن الرؤية البلاغية وتقدمها، وذلك بانتهاء حقلها الزمني الذي يتصل بالقضايا التي تعالجها؟ أم بسبب انفصالها المفاهيمي عن متلقيها الذي لم يعد قادرا على تقبلها واستيعاب مفاهيمها التقليدية، أو مجال توظيفها؟ وكيف يمكن لرؤية فكرية أن تنتقل من مرحلة تلتزم البنية النصية فيها بحتمية

تجاوز البحث عن الدلالة في الوحدات الثابتة الجزئية كالجملة إلى مرحلة تصبح فيها بناء دلالي لا غير، يتحاور مع السياق المضموني تحاوراً أسلوبياً فنياً يتحدد مفهومه من غاياته الوظيفية؟ هل يمكن أن ننطلق مبدئياً من طبيعة العلاقة القائمة بين البلاغة والأسلوبية، حتى نبين ما إذا كانت البلاغة هي الأسلوبية أم أن لكل منهما كيانه المستقل عن الآخر.

وعليه، يقتضي الوصول إلى مكن بلاغة الخطاب المولوي من مقرب إيجازه وفصاحته إنجازاً، الإنطلاق من تعريف البلاغة الفصاحة والتلازم الكائن بينهما كأرضية، على أن أعرج في محطة أولى على بلاغة المتن الخطابي الملكي كآلية من آليات التعبير التي تروم التأثير بقوة في الغير، والوقوف بعدئذ على تجليات الفعل التأثيري والإقناعي الدالة على فاعلية خطابية لخطاب ملكي يرد وفق بنية نصية ألفاظها قوالب تصب فيها المعاني، وتغير صاحب الجلالة كذات متكلمة مخرجا سهلاً وسلساً وكثافة دلالية في أحسن الصور وبأحسن التصورات والرؤى التدبيرية، وانتهاء بالوقوف عند الوظائف التي ترتبط بلطائف الصياغة البلاغية الإنجازية لخطابات العاهل، خاصة وأن هذه الصياغة تعد بمثابة عملية التنظيم التسلسلي للمعلومات وتسهم في تمحور التراكيب اللغوية حول محور دلالي متضمن لأساليب بلاغية محددة تؤدي إلى إخراج بنية نصية سليمة ذات قيمة في سياق ما يحفل به فضاؤنا التواصلية من بنيات نصية خطابية سياسية سقيمة وعقيمة.

وبالعودة إلى أهم معاني النظم المتداولة في أوساط المهتمين بإعجاز القرآن قبل "عبد القاهر الجرجاني"، وجدت "القاضي عبد الجبار" في كتابه "المغني في أبواب التوحيد" يورد نصاً يقول فيه: "ليس فصاحة الكلام بأن يكون له نظم مخصوص لأن الخطيب عندهم قد يكون أفصح من الشاعر، والنظم مختلف، إذا أريد بالنظم اختلاف الطريقة وقد يكون النظم واحداً، وتقع المزية في القصاصة"¹.

ويخلص كل من تدبر هذه الشذرة إلى أن مصطلح النظم هنا لا يرمي بدلالة الضم والتألف بين الأصوات، ثم بين الكلمات، ثم بين الفقرات، بقدر ما يعبر عن الأجناس أو الأشكال الأدبية كالشعر والخطابة مثلاً، وكأن صاحب النص كان يسعى إلى تحديد المعايير التي من خلالها يتم بناء تلك الأجناس مع رفضه لأن تكون الطريقة المخصصة للكتابة معياراً للبلاغة، وربما هذا ما ذهب إليه بعض البلاغيين العرب الذين كانوا يبحثون عن تحقيق الجودة في الكلام دون الاهتمام بطريقة تأليف هذا الكلام سواء كان شعراً أم نثراً.

فإذا كان كلام العرب وأدبهم مرادفاً لمصطلحي "النظم والنظام"، فإن الخطاب الملكي يتميز في نظامه بتباينه عن المؤلف من الخطابات (حتى خطابات والده)، ويختص ترتيبه وتصرفه عن أساليب الكلام السياسي المعتاد: تبعاً لذلك، ارتأيت أن أربط موضوع البلاغة الملكية بذات جلالته كمتكلم والصفات والمواصفات الدستورية للمؤسسة الملكية التي تجيد خطاباتها الخوض في قضايا عموم شعبه وييسر لها وضعها ويتيح لها مستشاروها شروط الإعداد والاستعداد لتجويد منتوجها الخطابي الذي يرد على شكل مكاتبة أو مراسلة.

يحضرني في هذا السياق موقف من مواقف طه حسين ضمن القضايا والمواقف التي تناولها عميد الأدب العربي بشكل مغاير لما كان متعارف عليه لدى الباحثين العرب القدماء، ولا سيما حينما تحدث عن الفن النثري الذي أخضع الكلام إلى التقسيم الثلاثي بدل الثنائي المتعارف عليه مسبقاً (الشعر والنثر)، إذ ألفتته يقول بعدم كفاية تقسيم الكلام إلى شعر ونثر، بل يجب أن يقسم الكلام على شعر وخطابة وكتابة وهي التي تعودنا أن نعبر عنها أحياناً بالنثر الفني في الكتب والرسائل.

¹ - القاضي عبد الجبار: المغني في أبواب التوحيد، تح: عبد الحليم محمود و سليمان دنيا، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ج 16، ص

وتعود أولى إرهاصات الصياغة ومهام الكتابة إلى "طه حسين" استفاد من منهج "الجاحظ" العقلي لما تناول الحركة الفكرية النشطة التي ظهرت في القرن الثاني، والتي كانت تصور طبقة عمال الديوان وكتاب الخلفاء الذين كان معظمهم أعاجم من سكان أهل الجزيرة العربية – كنجران فيها اليهود والمسيح- أو خارجها كالفرس والسريريان والأقباط، وهذه الطبقة – في رأي طه حسين – "هي التي أدخلت أمورا جديدة ظهرت على شكل أساليب لم يعهدها العرب من قبل وسلكت في الكتابة طرقا أخذت من كان تحت أيديها من العمال، ومن ثم أصبحت الكتابة أمرا يتنافس فيه"¹.

فهؤلاء الكتاب في تصور "طه حسين" كانوا يتخيرون الألفاظ المشكلة للبنية اللغوية التي يقوم عليها البناء الكلي للأثر الإبداعي في منظور بلاغي وهذا المسلك لا يتحقق في العملية الإبداعية وفق منظور كل من "الجاحظ" و"طه حسين" إلا بالابتعاد عن الألفاظ الصعبة والغريبة التي قد تخل ببناء النص، حيث أسر الجاحظ بالقول: "أما أنا فلم أر قط أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب-كتبة الدواوين-، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ علم ما لم يكن متوعدا وحشيا، ولا ساقطا سوقيا"².

كما اتفق صاحب "محيط المحيط" مع "ابن منظور" في قوله بأن "البلاغة هي الفصاحة"، إذ تجتمعان في تكوين وحدات الفعل ألانجازي الكلامي المعبر عن الغاية المقصودة من قبل المتكلم الذي يملك معرفة مميزة تجيز له التفاعل مع غيره، مجسدا نشاطا لغويا يركز على التواصل المفهومي الحامل لمؤشرات لغوية دالة يستنتقها المشاركون في حدث التفاعل.

وعلاوة على ذلك، لم يكتف مؤلف "محيط المحيط" بما جاء به كل من "الزمخشري وابن منظور".

فقد ذكر لنا فيما استتبع من فقرات ما عرفه من مواقف صدرت عن أهل المعاني والبيان والبدیع – البلاغيين الذين أسسوا لعلم البلاغة – من مصطلحي "البلاغة" و"الفصاحة"، وبيانهم بأن "البلاغة أخص من الفصاحة؛ حيث تقع هذه الأخيرة – الفصاحة – وصفا لكل من المفرد والكلام والمتكلم، بينما تتصل البلاغة بكل من الكلام والمتكلم دون المفرد أي الكلمة، ففي الكلام تسمى بالبراعة والبيان وكذا الفصاحة، أما بلاغة المتكلم فهي الملكة الإبداعية التي تميزه عن غيره في تأليفه للكلام البليغ وصياغة الرؤى والأفكار"³.

فمن الواضح من هذا التوجه أن المنجز للفعل الكلامي ينبغي عليه أن يستند على أفعال إنجازيه لأجل تحقيق عملية اتصالية تواصلية بينه وبين المشاركون معه في ذاك الفعل الكلامي.

لهذا الاعتبار، يعتمد الإنجاز الكلام الفعالي على توليفة مميزة ومدرسة بين ثنائية البلاغة والفصاحة، لأنهما تتصلان بالمتكلم الذي يمكن وصفه بالعضو الفعال في تلك العملية الاتصالية التواصلية.

هذا التوجه يقدم الصياغة اللغوية الموجهة للحدث التفاعلي الكلامي، ويوضح بأن الوقائع التواصلية التي توضع فيها الأنظمة المعرفية وفق تماسك دلالي متصل بسياقات مختلفة تشي بتعدد الوظائف.

¹ - طه حسين: من تاريخ الأدب العربي: العصر العباسي الأول، القرن 2 ص: 481

² - الجاحظ "البيان والتبيين" مج 1، ج 1، ص 95-96

³ - المعلم بطرس البستاني: محيط المحيط، قاموس مطول للغة العربية، مكتبة لبنان، بيروت/لبنان، الطبعة الثالثة، 1993، ص 53

تلك الوظائف التي يمكن أن تفي بها تلك الوقائع التواصلية المنطوية على الحدث التفاعلي بين كل من أطراف الفعل التواصل، وكذا العناصر المكونة للبنية الكلامية ذات التنظيم التفاعلي المنتج للمعرفة بأوجه الطلب المتعددة.

فطرفا التفاعل الكلام (المرسل/المرسل إليه)، لا يكفيهما مطلقا استيعاب ما يرمي إليه الكلام فحسب؛ بل يتوجب عليهما أن يوجها إلى بعضهما البعض إشارات لغوية بلاغية فصيحة تحرك البنية الكلامية في إطار حيزها الدلالي، وفي الوقت ذاته نثرها حتى يتمكن هذان القطبان من التفصيل في إسهاماتهما التشكيلية للفعل التواصل وللحدث الكلامي، مُراعين في ذلك آليات التنظيم البلاغي.

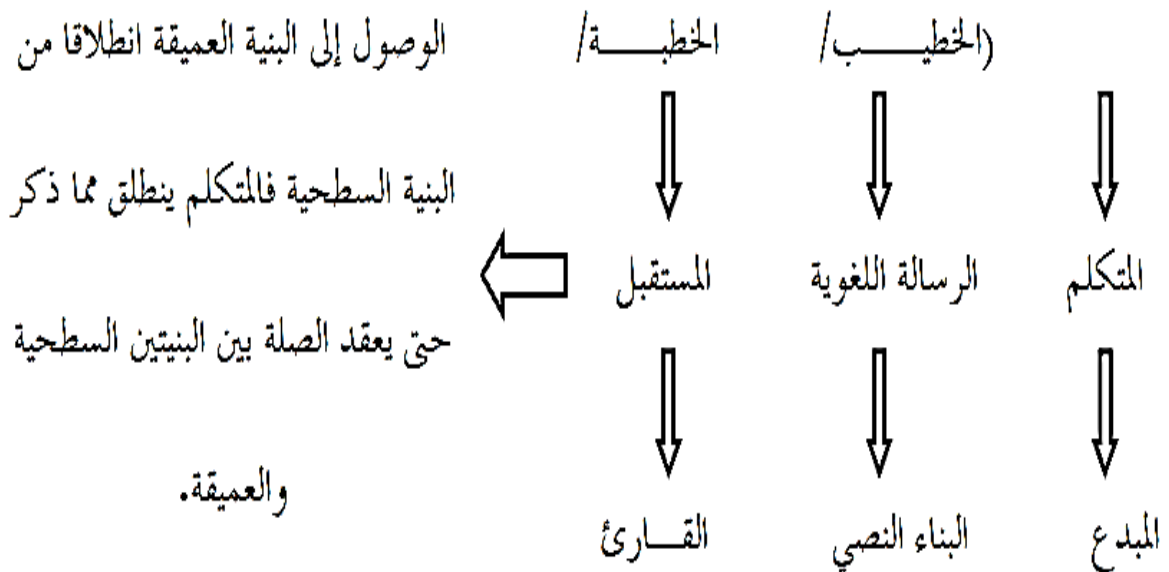
بلاغة الإيجاز وجدتها أيضا مجسدة في المتن الخطابي لجلالته في وحدات كاملة ذات تآلفات متناسبة لها، مسلكها التعبيري يرد بوسائط متفاعلة، بمنجز ذهني متميز عن غيره ويقود رأسا to de go إلى المقاصد باقتصاد في التعبير.

هذا الأمر يحيلني رأسا على فكر الملاءمة بين الخطاب ومجتمع التلقي.

هذا الفكر يسيطر على الخطاب الملكي ويُسطر شروط الملاءمة بينهما وبين موضوعاتها، كما يمكن تجسيد ذلك في الخطابة التالية التي تترجم حتمية توافر الحدث الكلامي على أطرافه لثلاثة:

فالخطيب ملزم، وفق التصور الذي أقره عميد الأدب العربي طه حسين، بإخراج كلامه إخراجا فنيا يراعي فيه التلاؤم بين الدوال مخرجا للدلالة في صورة موجزة وبليغة، مفهومة ومستوعبة.

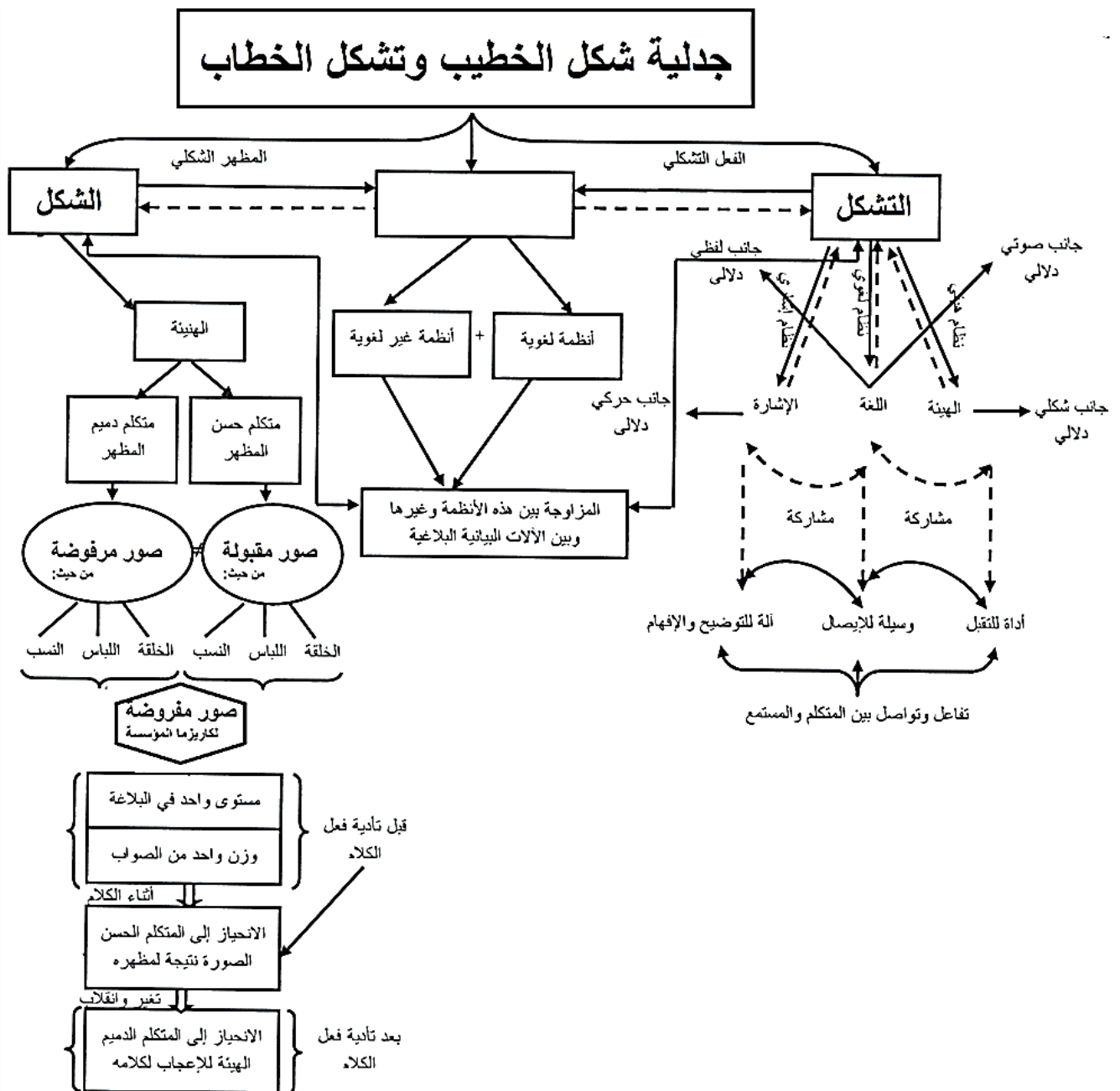
ويرسل **الخطيب** هذه الرسالة إلى **المتلقي** الذي يلزمه بدوره عقد أواصر التواصل بين البنية السطحية (الأولية) والبنية العميقة (الماورائية)، فيزواج بينهما انطلاقا من فعل (الملاءمة) الذي تكرر في هذه الخطابة لا استطرادا، ولكن تأكيدا للأهمية القصوى التي يؤديها فعل الملاءمة في العملية الإبداعية وكذا الفعل الإرسالي التوصيلي.



وتتضح هذه العلاقات أكثر من خلال الحديث عن قطبين بينهما تقاطبات:

- قطب متصل بالبنية النصية؛
- وقطب آخر متعلق بجلالته وموقعه وهيئته اللذان جعلاه على هيئة مقبولة تؤهله ليقبل الشعب على خطابه، ويقبلون منه مضامينه المتضمنة لإشارات مكملة لفحوى الخطاب وشبكة رؤية وتصورات جلالته.

ويقوم التشكيل النصي للخطاب الملكي في كل مناسبة على حدث تمثيلي للغة يقوم على أنظمة متعددة، وصياغات سياقية ودلالية متباينة، فتتراقق هذه الهيئة مع الإشارات التي يطعم بها جلالته نسبيا أدائه الخطابي حتى ينقل رسالته اللغوية ويوصل جوهرها إلى جمهور التلقي، وفق مناويل التجسيد الواردة في الترسيم التالية:



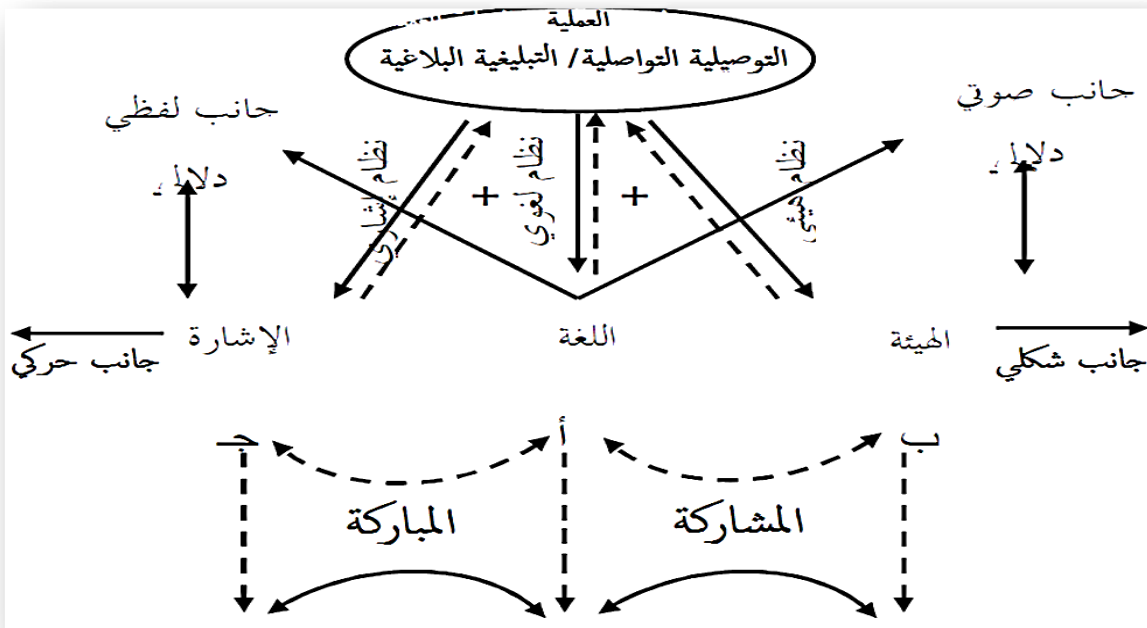
وبناء على هذا المسلك، لا غرو أن "الاشتراك بين البلاغة والفصاحة في تأدية العملية الوضعية للكلام، يكون له أثر لازم لسلامته وتمتعه بالانسجام بين عناصره"¹ حتى يؤدي دوره في إيصال التجربة الفردية الإبداعية.

أما مؤلف "البستان"، فقد قال في تعريفه لمصطلح "البلاغة" بأنها مصدر "بلغ الرجل الكلام إذا كان بليغا، وهي على وجهين: أحدهما، أن يكون بذاته بليغا، وذلك بأن يجمع ثلاثة أوصاف: صوابا في موضوع لغته وطبقا للمعنى المقصود به، وصدقا في نفسه، ومن اخترقه كان ناقصا في البلاغة؛ أما ثانيهما، أن يكون بليغا باعتباره القائل والمقول"².

إجرائيا، يمكن التمثيل للعملية التوصيلية كما تحدث بين جلالته كخطيب وشعبه كمجتمع تلقى وفق لغة مباشرة (النظام التركيبي)، أو بلغة غير مباشرة (نظام هنيئ + نظام إشاري)، فتصير تبعا لذلك مهمة الجمع بين الأنظمة الثلاثة المحدثة لفعلي التفاعل والتواصل بينهما حتى تتم الوظيفة التواصلية والتوصيلية أهم أدوار جلالته بواسطة المزاجية بين شكل لغوي وآخر غير لغوي لا يعرفه إلا هو ومن يتقاسم معه فهم الدلالات المتعارف عليها في مجتمعنا المغربي أو تلك المتعارف عليها في الأعراف الديبلوماسية كلما تعلق الأمر بالرسائل التي يوجهها جلالته إلى ملوك وقادة الدول.

إن تأدية المعنى المرغوب فيه وتبليغه للمتلقى يشترك فيها اللفظ والإشارة.

ولتقريب النظام الهنيئ كمفهوم غير مطروق من الذهن، يمكن التمثيل لذلك من خلال الحديث عن دور هيئة المتكلم في العملية التواصلية والتوصيلية، إذ يمكن بفضلها التأثير في السامع وضمان تقبله لمضمون الكلام، كما يمكن لهذا السامع رفض ما يصدر عن المتكلم: فلو صدر الكلام عن شخصية وقورة مقبولة الصورة والهندام والنسب والصفة لكانت نسبة قبوله من طرف الجمهور وقبول كلامه أكبر من نسبة قبول شخص بذئ الهيئة ومجهول النسب، حتى وإن تساوت مستويات البلاغة في خطابهما أو ألقيا نفس الخطاب، حتى أن الجاحظ ذهب إلى حد اعتبار هيئة الخطيب صنفا من أصناف الدلالات على المعاني، حين قال إن "جميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال (النصية)"³.



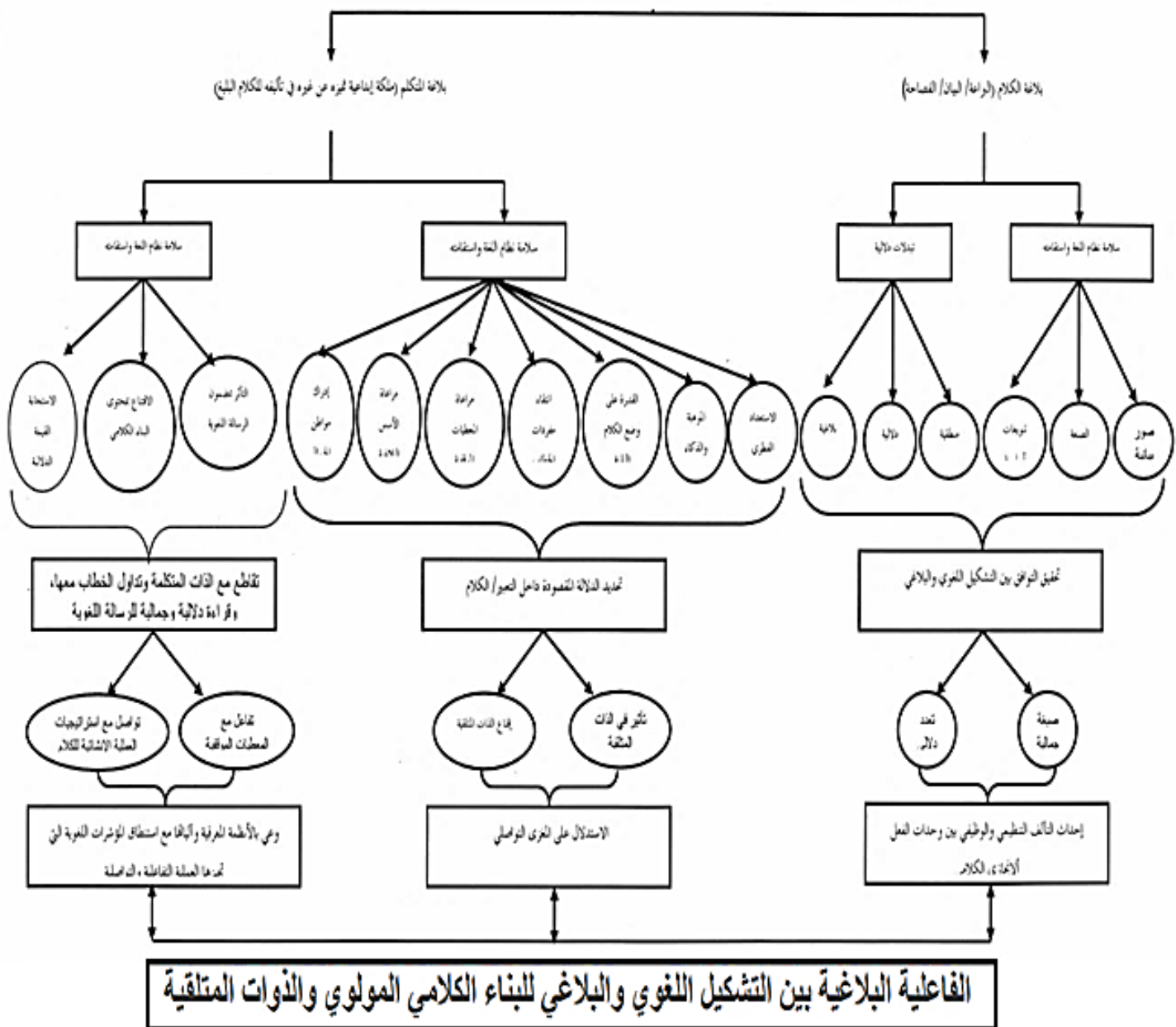
¹ - طه حسين: من تاريخ الأدب العربي: العصر العباسي الأول، القرن 2، الجزء 2، ص: 482

² - عبد الله البستاني، البستان: معجم لغوي مُطوّل، مكتبة لبنان بيروت، لبنان، 1992، ص 85

³ - الجاحظ: البيان والتبيين، مج 1، ج 1، ص: 56

وتقترن الإشارة عند الجاحظ باللفظ، فكلمة عجز المتكلم عن توصيل ما يرغب إلى السامع بالألفاظ، يكون مضطراً إلى استخدام الإشارات التي تعينه في القيام بالعملية التوصيلية، حيث رأى أنه "لا تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة، وحلية موصوفة، على اختلاف في طبقاتها ودلالاتها، وفي الإشارة بالطرف والحاجب..."¹.

وقد تناول كلا من الجاحظ وطه حسين مسألة البلاغة وعلاقتها بالهيئة والمقبولية من خلال ظروف مختلفة لكن بمضامين متقاطعة، حيث كان الجاحظ يكتب لجمهور مستمع أكثر من قارئ لكثرة المجالس الأدبية التي كانت تقام في عصره كان المتكلم /الخطيب فيها هو الوسيلة الإعلامية لتوصيل العمل الأدبي إلى المستمعين؛ بينما تنوعت وسائل الإعلام في عصر طه حسين لتوصيل ذات المضامين: من خلال قراءة ما أورده هؤلاء العلمين، يمكن تجسيد تعاملهما مع بيانات والعلاقة بين الأنظمة اللغوية والآلات البيانية البلاغية كمستوى من مستويات التواصل المكمل للوظيفة التي تؤديها اللغة بغية تحقيق العمليتين التوصيلية والافهامية.



¹ الجاحظ: البيان والتبيين، مج 1، ج 1، ص 69-70

قبل الحديث في مقام آخر عن الفاعلية البلاغية، يمكن الوقوف على مستوى وعي الجاحظ ومن بعده عميد الأدب العربي بأهمية الدوائر البلاغية الثلاثة للتأسيس اللغوي والثراء الدلالي (النص) المنظم في أطره الامتاعية والإقناعية، انطلاقاً من دائرة فن التشكيل التعبيري (البيان)، ومروراً بدائرة فن الجماليات البنائية (البدیع)، وانتهاءً بدائرة فن الصياغة التركيبية (المعاني)، وتحركها وفق حركة توازنية من أجل بناء النص الإبداعي البلاغي الذي تتم فيه معالجة فكرة معينة تصاغ بشكل مثالي، فتتوزع هذه الفكرة بثبات وديناميكية بين البنية السطحية (الشكل) التي تدرك من سطح النص والبنية العميقة (المضمون) التي تعكس حركة العناصر المكونة داخل مستوى التركيب.

في سياق الأطروحة، وانسجاماً مع خصوصية الخطاب الملكي الذي جعلت مدونته والشذرات التي اصطفتيتها متنا وعينة تمثيلية، ينبغي التذكير أن الإطار النصي الملكي هو بالتأكيد غير باقي النصوص الإبداعية (شعرية أو نثرية) التي تحدث عنها الجاحظ وطه حسين والتي كانت بمنطلقات إبداعية، لأن الخطابات الملكية تأتي بمضامين إقناعية، وتنطلق أساساً من دائرة فن الصياغة التركيبية (المعاني)، فلا تدور عليها الدوائر التعبيرية والجمالية البنائية إلا لتكمل مهام الإستمالة والتأثير في مجتمع التلقي، فتكون هذه الكيفية الاستعراضية (الأسلوب) وتبلورها داخل دائرة الإبداع محركاً للشحنات الانفعالية الموجهة نحو تنشيط الفاعلية التشكيلية والدلالية الذاتية للنص.

ويكفي الكشف عن الهوية الأسلوبية للعديد من الشذرات الخطابية لصاحب الجلالة من خلال ثنائية الدال / والمدلول أو اللفظ / المعنى، ليلفي المتصفح حضوراً للجماليات البنائية عند صوغ بنات أفكار المنجز الذهني الذي يرتضيه صاحب الجلالة، فلا يخرج هذان الركنين في النص الخطابي الملكي عن الأشكال التعبيرية التي يتم وفقها تحسين الكلام وتقديم الدلالة وتأدية الوظيفة الجمالية الأسلوبية المصاحبة للعلاقة الماثلة بين الشحنة الفنية التي ينطوي عليها الدال وكذلك المدلول، مع مراعاة متطلبات الممارسة البلاغية من اهتمام بمقتضى الحال، وتوضيح الدلالة على المعنى المراد فهمه والحرص على الكيفية الاستعراضية والاستيعابية للبنى النصية للخطابات الملكية.

فالدائرة البلاغية الثالثة، دائرة فن الصياغة (المعاني) تؤدي دوراً فعالاً في تقديم النص شريطة تطبيق الكلام على ما يقتضيه الحال، لتبقى القيمة الجمالية للدوال عصية عن الإدراك ما لم يتم تناولها أثناء تأديتها لفعاليتها في منظومة العملية التركيبية لها وللوحدات اللغوية¹.

كي لا تدور عليه الدوائر بدوران الفقرات، وجد صاحب المعجم نفسه مدفوعاً دفعا لوضع تصور البياني يوجز فيه العلاقات الدلالة، بحيث "تتم وفقهما ممارسة النشاطين الصياغي والدلالي داخل بنى التركيب، لعلائقية الماثلة بين الدوائر البلاغية الثلاثة، ومدى أهميتها في تجميل البنية النصية"².

وعليه، فقد حاول أن يوضح الممارسة التواصلية المرتكزة على فعل التبليغ الكلامي، الذي لا يتم إلا إذا كانت الذات الممتهنة لهذه الممارسة تتسم بالبلاغة حتى يتحقق استيعاب مكونات نواة الرسالة المنشئة إنشاءً فعلياً بمساعدة وسائل لغوية في لغة ذاتية معينة، تعتمد على بؤرة الانجازات التفاعلية العاكسة لعمليات الصياغة، فتتنشط فيها أبنية لغوية مناسبة وفعالة تكفل مشاركة الشريك الفعال والمتفاعل مع البنية الكلامية البلاغية المؤدية لمقصدية أساسية.

¹ - عبد القادر عبد الجليل: الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، طبعة 2002، ص 230

² - عبد الله البستاني، مرجع سابق، ص 85

ومما يجدر التنبيه إليه أن هذه البنية الكلامية البلاغية جعلها مؤلف "البستان" في شقين:

❖ **الشق الأول:** يتصل بذات المتكلم بشكل عام، إذ لا يمكن لهذه الذات أن تكون بليغة إلا إذا توفرت فيها جملة من الصفات أهمها:

1- **الصواب في موضوع اللغة:** وذلك حتى تتمكن الذات المتكلمة من التعبير عما يجول في خاطرها من الأغراض والمقاصد.

2- **مطابقة المعنى للمقصود به:** ولن يتأتى له هذا إلا إذا أوردت الذات المتكلمة بنيته الكلامية، وفق عقول المخاطبين وطبقات المتلقين في البيان وقوة المنطق؛ إذ لكل مقام مقال، لأنه كلما حاولت هذه الذات مراعاة المقتضيات والمقامات كلما ازداد كلامها حسنا، وكلما كانت أحرص عليها كلما كانت بليغة، أما إذا قلت نسبة مراعاتها لهذه الأمور (الحال/المقام، المقتضى/الاعتبار المناسب، مقتضى الحال/إيراد الكلام على صورة معينة)، عند البلغاء كان أقل مرتبة في البلاغة.

بالإضافة إلى هذه المعاجم التي ورد بيانها، يمكن الإشارة إلى أن مصطلح "البلاغة"، كما تبدى في "المعجم الوسيط" دل على "حسن البيان وقوة التأثير"، وعند علماء اللغة على "مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته"¹.

يُستشف من هذا النص بأن أصحابه قد اتفقوا مع صاحب "لسان العرب"، في قوله بأن البلاغة هي الفصاحة، كما وافقوا أيضا مؤلف "محيط المحيط"، حينما ذكر في مؤلفه بأن دلالة مصطلح "البلاغة" عند علماء اللغة تتمثل في مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

3- **الصدق في النفس:** حيث نلاحظ بأن الذات المتكلمة إذا كانت صادقة في أقوالها غالبا ما تشد رسالتها اللغوية انتباه المتلقين؛ لأنها تسعى إلى تقديمها في صورة بلاغية معينة، تبتعد فيها عن الصنعة والتكلف.

هذا بالنسبة للشق الأول الذي حدده صاحب "البستان"؛

❖ **أما الشق الثاني:** فنجد أنه يتصل بالذات المتكلمة البليغة التي تملك مهارة القول في استخراج المقول وفعل توصليه؛ إذ نجدها تعمل على التصرف فيما تريد التعبير عنه بما يتناسب مع تلك المهارة والقدرة بكلام بلاغي يدل على الدلالة المقصودة بدوال واضحة وسهلة تتفق مع ما تبتغيها من أغراض وأهداف.

وفي ظل هذا المنحى، يمكن الإشارة إلى أن الذات المتكلمة البليغة تنجز صياغات الاتصال استنادا إلى الوظائف المتباينة للعملية التبليغية، المتصفة بالبلاغة التي تشغل موقعا متميزا في الواقع الاتصالي، والانطلاق من مركبات من الأحداث الكلامية، ذات الصبغة الجمالية والتعدد الدلالي، اللذين ينطلق منهما المتفاعل مع البنية الكلامية لاقتفاء أثر النموذج اللغوي البلاغي، المصور للمعطيات الموقفية التي تكون طريقة عرضها للبناء التركيبي الكلامي البلاغي مهمة، لأنها تكفل سلامة المقصد والاستعمال الموفق للتركيبات اللغوية في قوالب فنية تربط بين المتفاعلين (المتكلم/المتلقي)، في لحظة إحداث فعل الاتصال بينهما.

¹- المعلم بطرس البستاني، مرجع سابق، نفس الصفحة

والملفت للانتباه أن مصنفي "المعجم الوسيط" قد انفردوا عنهما بذكرهم لأمرين متصلين بمفهوم البلاغة: أولهما يتعلق **بحُسن البيان**، وثانيهما يتمثل في **قوة التأثير**.

ويبدو لي بأن هذين الأمرين يستنبطان من العملية التفاعلية المتكئة على المعطيات الموقفية التي يطمح إليها العمل التفاعلي، الذي يرتبط بالغاية المقصودة من وراء تناول الأنظمة المعرفية المتباينة التي يتم عرضها في نموذج لغوي بلاغي مميز؛ بحيث يتم التركيز فيه على وسائل الإقناع بتلك المعطيات الموقفية، التي يرصدها الفعل التواصل من خلال العملية الانتقائية للدوال والمدلولات المنشطة للأنظمة المعرفية والوحدات اللغوية، مع مراعاة تنظيمها المنطقي المتلائم مع التمثيل اللغوي لتلك المعطيات.

ومما يحسنُ ذكره، أن جلالته كمتكلم وبوصفه مرسلاً لبنية لغوية يقوم عليها البناء الكلي للأثر الخطابي لما يصدر عن جلالته من منظور بلاغي، يجعله يتميز عن غيره، يبلغ رسالته ويبين حجته، ويُفصح عن مقصديته، دون إسهاب ولا تكلف، كونهما ينفقان من فعل البيان وأثره ودوره الإقناعي بكل ما يتضمنه من وسائل إقناعية تشيع شحنات تفاعلية وتمتص الهبات الإنفعالية.

ففي اعتقادي، كلما تراجع منسوب اهتمام الذات المتكلمة بحسن البيان والإخراج البلاغي لكلامها، كلما أوضحت الدلالة وبلغت الغاية، ومن ثم استمالت الذات المتلقية لتلك البنية الكلامية وفق مستويات الإستمالة التي سأحدث عنها في موضع آخر من مواضع الأطروحة.

على أن ما يُميز الخطاب الملكي هو تضمنه لمعاني رفيعة، تصور بألفاظ دالة تشد انتباه جمهور التلقي، على عكس باقي الخطابات التي ترد بلفظة رديئة تصرف الأسماع عنها.

في هذا المقام، يرى طه حسين أن "العرب في جميع عصورهم لم يعنوا بشيء قط عنايتهم بفصاحة اللفظ وجزالته، ورقيق الأسلوب ورسانته، وقد جعلوا الإعراب واصطفاء اللفظ والملاءمة بين الكلمة والكلمة في الجرس الذي ييسر على اللسان نطقه، ويجري في الأذن وقعه، أساساً لكل هذه الخصال"¹.

وربما لا أجنب الصواب إذا قلت بأن الذات المتكلمة تملك القدرة على إفهام الذات المتلقية انطلاقاً من معارفها الخاصة، وذلك بمراعاتها لحيثيات الفهم الفعالة، التي تتجسد من خلالها العملية الاتصالية لكونها تمثل نشاطاً مشتركاً بين قطبي هذه العملية، اللذان يستوعبان حقيقة المعرفة التي يتضمنها الحدث اللغوي، خاصة وأن هذه الحقيقة المعرفية تُعد – في تصوري – ضرورية لإحداث الفعل التفاعلي، وكذا الحفاظ على المعايير الاتصالية والإدراكية والموقفية... المحددة للفهم المتكئ على الفعل الاستيعابي للمعطيات الموقفية، المُشكلة لجسور التواصل بين الذاتين المتكلمة والمتلقية؛ فالذات المتكلمة تسعى للتوصل إلى إحداث فعل إنجازي تبلغ بفضلها الذات المتلقية ما ترغب فيه من المعارف المكونة لذاك الفعل كما تحاول أن تقدم لها معينات على الفهم.

ولما كان نجاح العمل الإبداعي أو القرائي مقترناً بالمنهجية المتبعة في الدرس، فقد تعين علي أن أعين لنفسي تصوراً قائماً على تحديد نوع المنهج الذي تم تطبيقه في تناولي لملامح بلاغة الخطاب الملكي، فوجدت بذلك مناط قوامه المنهج التناول التاريخي والوصفي للظاهرة البلاغية عموماً، وكذلك تحليل حيثياتها، بدءاً بالاستعراض التاريخي لمسار البلاغة عند العرب، فوصفت باقتضاب تلك الظاهرة البلاغية عند هؤلاء الأسلاف وغيرهم من الأمم الأخرى، وحللت النصوص المعينة لي فيما ذهبت إليه من توجه فكري، واحتسب أن يكون عملي عملاً إجرائياً ينطلق من المصنفات المنتقاة والعينة التمثيلية المرجعية التي وجدت أنها حازت كما هائلاً من النصوص البلاغية.

¹ - طه حسين: الأدب والنقد، المجموعة الكاملة، ج 6، ج 2، ص 396

وللإشارة، فإن النص الأول المعين في هذه الدراسة تمثل في تلك الأفكار والرؤى وكذا النصوص المبنوثة في المصادر، ولم تكن مهمة رصد النصوص المذكورة وتجميعها بالأمر الهين، ولم يكن من السهولة بمكان تطبيقها على المدونة الخطابية الملكية بشتى تلاوينها بحثاً عما يسند تصوري.

كما ارتأيت أن أوضح أن استعمالني في بعض المواضع لضمير الجمع "نحن" لا يغذي نرجسية أو جنون عظمة أو متلازمة تضخم الأنا، بقدر ما يستجيب لضابط الانضباط والتجرد الذي يتيح شمول الفكرة لرؤية الأنا ورؤية الآخر وتقاطعهما.

وإذا كانت البلاغة هي "كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن"¹، فيمكن من خلال الوحدات اللغوية المكونة للبنية النصية للخطابات والرسائل الملكية التي اعتمدتها عينة للدراسة ملامسة وجود علاقة وطيدة بين البلاغة والدلالة؛ أي بين القدرة على الإبلاغ وإثبات الدلالة وكذا العناية بالإخراج الفني للكلام، فالحدود واصله ولم تكن يوماً فاصلة بين جانبي جمال العبارة وعمق الدلالة في بلاغة الخطاب الملكي: فالخطاب باعتباره خطاباً موجهاً للجماهير يتصف بكونه آلية من آليات التعبير التي تروم التأثير بقوة في الغير.

ومهما يكن من أمر، أسلم مبدئياً بوجود مقومات دلالية تجعل من كل خطاب أو رسالة ملكية كياناً تركيبياً دلالياً متضمناً للبلاغة، باعتبار هذه الأخيرة "أحد فروع علم اللغة العام التي تبحث في وظائف البيان وإبراز خصائصه وتأثيره في بناء الأثر ودلالته الجمالية في تصوير ووصف العناصر التي تشكل عالم النص"²: فالبلاغة بهذا المعنى لا تخرج عن التصور الجديدة للنص والنظر إليه بمنظار لغوي والبحث في بنياته الصوتية والتركيبية والدلالية وإسباغ رداء جمالي عليه يدثر مواطن الرداءة ويبرز وظائف البناء والبيان والبيان، فضلاً عن كشف مستويات تلقيه وقبوله ومقبوليته والإقبال عليه في أوساط عموم جمهور التلقي.

بعيدا عن مستوى الرداءة والجمال، تتردى البلاغة المولوية أزهى أبراد الصوغ لتحقيق التأثير وخلق مساحات التأثير.

ثانياً- استعمال البلاغة بمرامي الإبلاغ ومقاصد الإقناع

تم الوقوف في العديد من مفاصل الخطاب الملكي موقف الباحث بلاغياً عن مواقع التفاعل الاتصالي بين جلالاته كمتكلم/خطيب مع جمهور تلقي/مخاطب، وساورني يقين مؤداه أن التفاعل يشكل بؤرة التفكير البلاغي المؤدي إلى التأثير الاتصالي، النابع من الذات البليغة التي تصبو إلى إيصال دلالة معينة إلى الذات المتلقيّة التي تنتشد القيمة الدلالية مادامت بلاغة الكلام تقاس بمدى "تأثير نفس في نفس"، وفكر في فكر، والأثر الحاصل من ذلك التأثير هو التغلب على مقاومة في هوى المخاطب، أو في رأيه"³، فتتحدد الصلة بين الذات عن طريق التشكيل اللغوي والإبداعي (بالفهم الإقناعي لا الإمتاع)، اللذان جسدا في عدد من الفقرات من المتن الخطابي الملكي ترجمة قدرة الذات المتكلمة على الفعل التبليغي ببلاغة إيجاز ونجاعة طاقية لم تهدر الألفاظ ولم تسقط في السقوط والإسفاف والهدر.

¹- أبو هلال العسكري: كتاب الصناعات الكتابية والشعر، تح: محمد علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1986، ص. 10.

²- ابن عبد الله شبيب أحمد، بحوث منهجية في علوم البلاغة العربية، دروس ودراسات، دار ابن خلدون للنشر والتوزيع، ص. 30.

³- محمد كريم الكواز، البلاغة والنقد، المصطلح والنشأة، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2006، ص. 20.

هذه الفاعلية التي يستمدّها الخطاب الملكي من بلاغته (كما سيلي بيانها في الخطاطة أسفله) تتكئ بدورها على الصياغة كتعبير لغوي وبلاغي للبناء الكلامي، لتتوكأ بعد ذلك على قصد جلالته ومستويات تفاعله - "خطابيا" على الأقل - مع جمهور التلقي كمقول له، دون إغفال معطيات المواقف.

وما تجليات الفعل التأثيري والإقناعي إلا مؤشرات دالة على فاعلية خطابية لخطاب ملكي يرد وفق بنية نصية ألفاظها حسنة وتعير صاحب الجلالة كذات متكلمة مخرجا سهلا ومنحتها كثافة دلالية في أحسن الصور وبأحسن التصورات والرؤى التدبيرية، يواكب التطورات بمراعاته لمقتضى الحال ويلقي الضوء على عتمة وظلال السؤال، فتلتقطها جموع الذوات المتلقية وتفتنح بها، وتنسجم بذلك مع التعريف الذي يرى في البلاغة "كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع، فتمكنه في نفسه لتمكنه في نفسه"، مع صورة مقبولة ومعرض حسن¹¹ في سياق منهجية مقايضة بين طرفي الجسد الاتصالي البلاغي دورها في مضاعفة قوة تأثير الكلام.

فكل الخطابات الملكية تشي بتجسيد فعلي بلاغي للعملية الإتصالية بين جلالته من موقعه كخطيب/مرسل/متكلم، وجمهور التلقي والاستماع والإستمتاع/مرسل إليه، وتفاعلهما معا مع الرسالة اللغوية التي تعد المحور الأساسي الذي يتمحور حوله الفعل الإنجازي للكلام والحدث التواصل، وفق تشكيل لغوي وبلاغي في البناء الكلامي يجيب على الإشكاليات، ويحقق بذلك فاعلية التفاعل وفعالية التأثير الذي ترومه الذات المتكلمة لجلالته في استجابات نداء أو لأخذ موقف أو العذول عنه في سياق محدد.

لذلك، لا عجب إذا لاح لي في إنشاء النظام التركيبي لنص المتن الخطابي أو الكتابي لجلالة الملك تعبيرات دالة تترجم اهتمام وإمام جلالته كذات مرسل أو متكلمة بمجمل القضايا والملفات وطبيعة الواقع والأحداث الوقائع، وتستدعي بالمقابل لفت انتباه الذات المجتمعية أو الجمعية أو السياسية أو السوسيو-مهنية المتلقية، من خلال توظيف متباينا في آليات الاتصال والتواصل وما تبسطه لجلالته من شبكة خيارات لتمرير مضامين الخطاب الملكي إلى جمهور التلقي وحثهم على تبنيه: فالتأثير والتأثر حتمية تواصلية بين الملك وشعبه.

وتقوم العملية الإقناعية المدثرة بلبوس إبلاغية على "حتمية تعلق الكلام ببعضه ببعض، وتميز الكلام بكونه مهارة أسلوبية تتخذ من البناء التركيبي الدلالي أداة إبداعية، تتيح للمتكلم إرسال خطابه اللغوي، المعبر عن موقف ما في نظام لغوي معين، يتسم بلامحدودية الأنماط الكلامية المتكئة على وسائل تعبيرية يتم من خلالها التأثير في المتلقي الذي يتشكل بارومته التأثير والإقتناع واقتلاع ما علق بفكره من رواسب، بل وحمله على المرور إلى فعل التبني لمضمون الخطاب"².

وتقوم حاجية الخطاب الملكي وإقناعيته على مخاطبة جمهور التلقي بلغة يفهمها أو يمكن أن يفهمها أو يفهم جزءا منها أو تتولى وسائل الإعلام بسطها مضامينها بتبسيط: وقد لخص طه حسن هذا المعنى في ما وصفه "بالعبارة الواضحة والحجة المقنعة والروح الخفيفة والقدرة على الإفهام" قبل أن ينبه إلى "العيوب التي يتوجب على الخطيب أن يتجنبها سواء أكان ذلك من حيث الكلام، أم من حيث الهيئة أو الإشارة"³: فالبلاغة كما يراها طه حسين تعبر عن الوفاء بالمعاني، وحسن الأداء، والتصرف في فنون القول، وغازاة البديهة ومناسبة القول لما يقتضيه الموقف، وخلو الأسلوب من الخطأ والإحالة، وخلو التعبير من الهجنة.

¹ - قورفاجانج هاينه مان ديتر فيهيج، مدخل إلى علم لغة النص ترجمة وتعليق وتمهيد سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق للنشر القاهرة، ط. الأولى، 2004، ص. 11.

² - يوسف وسطاني، الإنسان في نمطيه اللغوي والبلاغي، مجلة التراث العربي، مجلة محلية فصلية محكمة، صادرة عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق، في عددها 114، يونيو 2009، السنة الخامسة، ص. 208.

³ - طه حسين، من تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، القرن 2، الجزء 2، ص. 480.

1- الجاحظ: البيان والتبيين، مجلد، 1، الجزء 1، ص 97

ومعلوم أنه من العرب قلة تتوفر على السجية اللازمة للإرتجال وأن الحاجة كانت قائمة دائما إلى العملية الإخراجية للمنجز الكلامي القائم على تأليف الكلام الجامع بين المادة اللغوية والصور الذهنية، مع الأخذ بالإعتبار قدرة الفعل التألفي التركيبي على إضفاء حسن السبك على الكلام ورفع درجته في البلاغة لتأدية المعنى في شتى مستوياته (الصوتي، والصرفي والنحوي، والتركيبى والدلالي)، وتمير بنية كلامية مشكلة من كلمات حاملة لتعبير بياني دلالي وخصائص أسلوبية وتأثير اتصالي تواصل مع جمهور التلقي: بين هؤلاء وهذا، صيغت الترسمة أعلاه.

ورغم أن الخطباء المفوهين عالميا هم من استطاعوا الجمع في منجزهم الكلامي بين فاعلية المعاني والمباني وانصهر عندهم الطبع وفعل التطبع بمهارات الصياغة البلاغية، فإن الخطاب الملكي استطاع الجمع بين سلامة الفطرة والسليقة في وضع الكلام مع التشكيل البلاغي الرصين.

فالبلاغة التي تميز المنجز الكلامي المولوي ليست بلاغة لذاتها أو بحثا عنها في حد ذاتها، بقدر ما هي آلة تتوسل بها الذات المخاطبة (كلاما أو مراسلة) في آدائها للحدث البلاغي بلبوس بلاغي. كما أنها لا تروم بأي حال من الأحوال البحث عن الاستحسان أو الاستهجان للفعل الإنجازي الكلامي انطلاقا من الدال الحسن أو القبيح وانتهاء بالبناء الكلي المشكل من تلك الدوال، بقدر ما تروم استحسان جمهور التلقي للموقف والرؤية الملكية في عدد من القضايا واستهجان الخطابات الغيرية الذيلية، من خلال دعوة جلالته الصريحة في عدد من المناسبات إلى "الاستعداد الجيد للاستحقاقات الانتخابية المقبلة، المحلية والجهوية، ليس بالملاسنات الديماغوجية، والحسابات الضيقة، وإنما بالتأهيل السياسي الشامل لكل الفاعلين والمؤسسات والتنظيمات، وخاصة منها الأحزاب السياسية بتجاوزها للملاءمة الشكلية مع إطارها القانوني، إلى التفاعل مع مستجدات المجتمع المغربي ومتغيراته. وهذا ما يقتضي من الجميع القرب الدائم من المواطن وانشغالاته، بعيدا عن الاغراءات الوهمية والوعود التضليلية، المحرفة لقيم الدين والمواطنة.... إجراء قطيعة مع بعض المظاهر والسلوكات المشينة، التي تسيء لصورة المؤسسة التشريعية، وتمس بمصداقية العمل النيابي والسياسي"¹.

ولا تقف البلاغة الموقفية للمنجز الكلامي المولوي عند الكبوات أو الإخفاقات لتبكيها أو تنعيها، بل تعيها لتعبر كما ورد في قول جلالته عن رفض "البكاء على الأطلال، كما نرفض الاتهامات الباطلة الموجهة للسلطات المختصة بتنظيم الانتخابات. فالضمانات التي تم توفيرها تضاهي مثيلاتها في أكبر الديمقراطيات عبر العالم، بل إنها لا توجد إلا في قليل من الدول... من يعتبر نفسه مظلوما، بسبب بعض التجاوزات المعزولة التي تعرفها عادة الممارسة الديمقراطية، فيبقى أمامه اللجوء إلى القضاء.... ورغم كل الجهود المبذولة، فإن الصورة التي تبقى في ذهن عدد من المواطنين، هي الصراعات والمزايدات بين الأغلبية والمعارضة، داخل البرلمان أحيانا، وفي بعض التجمعات الحزبية وحتى في وسائل الإعلام. وقد سبق لي أن قلت لكم، من هذا المنبر، بأن الخطاب السياسي لا يرقى دائما إلى مستوى ما يتطلع إليه المواطن. وهنا أنبه إلى أن التوجه نحو الصراعات الهامشية يكون دائما على حساب القضايا الملحة والانشغالات الحقيقية للمواطنين، وهو ما يؤدي إلى عدم الرضى الشعبي على العمل السياسي بصفة عامة"².

كما ترد مواقف جلالته بلهجة تفيد الإلغاء التام للمؤسسات من منطلق غيابها الفعلي، كما في خطاب جلالته في افتتاح الدورة الأولى من السنة التشريعية الأولى من الولاية التشريعية العاشرة، حين تساءل باستنكار: "ولكن هل سيطلب مني المواطنون التدخل لو قامت الإدارة بواجبها؟ الأكيد أنهم يلجؤون إلى ذلك بسبب انغلاق الأبواب أمامهم، أو لتقصير الإدارة في خدمتهم، أو للتشكي من ظلم أصابهم. إن المرافق

¹- من نص خطاب ألقاه صاحب الجلالة أمام نواب الأمة بمناسبة افتتاح السنة التشريعية 2007-2008

²- نص الخطاب السامي الإقتتاحي للدورة الأولى من السنة التشريعية الخامسة من الولاية التشريعية التاسعة

والإدارات العمومية، تعاني من عدة نقائص، تتعلق بالضعف في الأداء، وفي جودة الخدمات، التي تقدمها للمواطنين. كما أنها تعاني من التضخم ومن قلة الكفاءة، وغياب روح المسؤولية لدى العديد من الموظفين"، قبل أن يُعبّر عن رفضه لهذا الواقع حيث أردف بأنه "من غير المعقول أن يتحمل المواطن تعب وتكاليف التنقل إلى أي إدارة، سواء كانت قنصلية أو عمالة، أو جماعة ترابية، أو مندوبية جهوية وخاصة إذا كان يسكن بعيدا عنها، ولا يجد من يستقبله، أو من يقضي غرضه... ومن غير المقبول، أن لا تجيب الإدارة على شكايات وتسؤلات الناس وكأن المواطن لا يساوي شيئا، أو أنه مجرد جزء بسيط من المنظر العام لفضاء الإدارة".

كما لم ترد الإحالة على خطاب الجمهور إلا لماما في شذرة قال فيها الملك الراحل "دخلت هنا إلى قاعتكم وما زال يرن في أذني - ولا زلت تحت تأثير عميق - ما سمعته وأنا أحيي الجمهور من فتاة وهي تنادي "أمولاي الحسن كيخصنا كل شيء"¹.

لا بدّ هنا من فتح قوس للإشارة بأن لخطابة السياسية كشكل من أشكال التواصل الذي يستهدف إحداث الإقناع والتأثير يمكن أن تعتمد على خطاب نقي وصريح وواضح، كما يمكن أن يكون بالاعتماد على خطاب تضليلي ومخادع: فلا يعني اقتراب خطيب ما من لغة الجماهير أو حتى اقتباسه لكلمات التقطتها أذنه من بين هتافات الجماهير، أو اعتماده على تراكيب واستعارات وأمثال وحكم شعبية أنه يمثل بشكل حقيقي قيمها ومعتقداتها، بقدر ما يعني أنه يسعى للإفادة منها في التأثير على مجتمع التلقي عموما وإقناعه.

وهناك مرحلة تالية في تحليل الخطاب تنصب على معرفة ما إذا كان متلاعبا أم لا: لم أقترّب في هذا الشأن ولن أفعل، ولكنني أشير في بعض الأحيان إلى المسافة بين البلاغة والواقع على اعتبار أنه قد يكون مؤشرا على كونها تضليلية أم لا.

بمنطق المقارنة، وجدت أن الغرب يهتم كثيرا بهذه المسألة لأن ثقافته على خلاف ثقافة العرب تتضمن دائما الشك في الكلمة وتضعها في مقابل الفعل، كما تدل على ذلك أمثلة غربية شائعة من قبيل "الأفعال تتحدث بصوت أعلى من الكلمات" أو "ربط الفعل بالقول" Joindre l'acte à la parole. Quand dire, c'est faire، وفي ذلك امتداد للتراث الإغريقي واستخدام أفلاطون كلمة بلاغة "Rhétorique" لوصف الخطابات القضائية والسياسية المخادعة، حتى ارتبطت الكلمة في التراث الغربي بإيحاءات سلبية، ووضعت بشكل واضح في مقابل الحقيقة على اعتبار أنها تتضمن دائما أشكالا من التلميح والتزييف والخداع اللغوي: لذلك، ترى الثقافة الغربية أن الكلام الواضح البسيط العاري من الجمال والزينة هو أبرز طرق التعبير عن الحقيقة.

يسعفني التمدد الأفقي للقيام بعملية بنشمارك خطابي عربي أستحضر من خلالها المثل النموذجي للخطاب الناصري المميز، الذي أثبت أن المتكلم البليغ يحظى بمنزلة عالية، حتى ولو كان ينطلق من بلاغة خطابه تضليلية ومنطلقات تحايلية للتمكين لإيديولوجية بائدة.

بعد جمال عبد الناصر والسادات، ظهر الرئيس المخلوع حسني مبارك الذي لم ينتم يوما لفئة الخطباء البارعين، بسبب عوامل مختلفة منها تراجع الدور الذي كانت تقوم به الخطابة السياسية بعد حرب ونكسة 1967، وأقول حركة القومية العربية التي كانت مصر في موضع القلب منها في ستينيات القرن الماضي، وتراجع فاعلية الوجود المصري في المؤسسات والمنشآت الدولية نتيجة ذلك، فضلا عن تراجع الخطابة السياسية لارتباطها بمدى ثراء الحركة الفكرية والثقافية والسياسية والاجتماعية في مجتمع معلوم في وقت ما.

¹ - من خطاب صاحب الجلالة المغفور له الملك الحسن الثاني بمناسبة افتتاح الدورة الثانية للبرلمان برسم السنة التشريعية 1997 - 1998

وفي ظل التحولات المهمة والجذرية التي عرفتھا المجتمعات العربية في سنوات الستينات والسبعينات، كانت الخطابة السياسية من أبرز الأدوات لتمير هذه التغيرات الاجتماعية والسياسية مثل قبول السلام مع إسرائيل بالشكل الذي تم عليه.

فربما كان الركود السياسي النسبي لعصر مبارك سببا مباشرا في عدم ظهور أجيال جديدة من الخطباء السياسيين البارعين القادرين على قيادة الجماهير والتوظيف الأمثل لتقنيات الخطابة.

كذلك الشأن بالنسبة لعهد الملك محمد السادس والإستقرار شبه التام وتراجع عهد المؤامرات والدسائس وتقلص موجبات الترافع السياسي التي قلصت بدورها جدلية التدافع نحو الكراسي.

ولما قمت بالخروج من المقارنة بين الملك ووالده وإسقاطها على الرئيسين المصريين السابق والأسبق، مبارك والسادات، وجدت أن عناصر بلاغية كثيرة في خطب الرئيس السادات استمرت في خطب الرئيس مبارك مثل محاولة إقامة علاقة بين الخطيب والجمهور من خلال استخدام ضمائر المخاطب المباشر «أنتم» و«كنت أقول لكم» و«أحكي لكم»، وهي عبارات كانت حاضرة غالبا في خطاب الحسن الثاني ("تذكرت مع"، "فقال لي"، "فقلت له"، "وأقول لكم شعبي العزيز"، "كنت تا نهضر واحد النهار مع سيدنا الله يرحموا¹، كان تايقرا جرائد المعارضة،...قلت له دابا أسيدنا لا كنتي هابط للمدينة تصلي، وقالوا ليك راه مليون ديال الناس واقفين في الطريق، 800 ألف غادين يقولوا يحيا الملك و200 ألف غادي يصفروا، قال لي أخويا ما نهبطش، هاديك إلى كانت وقت قلة الحياء وقتك هاديك، أنا بعدا ما نهبطش، وأنت؟ أنا نعم أسيدي إلى عارف الأغلبية غادي تقول يحيا، والأقلية غادي تقول يسقط، نهبط، وما حدي غادي في المشروعية هادوك اللي قالوا يسقط نخلي دار باباهم.... والناس ديال الشمال راه عارفين ولي العهد، وأحسن مايعرفوش الحسن الثاني فهاذ الباب، يعرفوا الحسن الثاني اللي موالفين به...أهل مراکش، انا كنت مقرر نرتاح فمراكش، أنا مابقيتش غادي مزال عند أهل مراکش، خاصهم يرجعوا عن غيهم").

هناك أيضا مفردات أساسية تتكرر في خطب كليهما مثل الديمقراطية والسلم الاجتماعي والتعايش، في مقابل حضور الأمن الروحي على عهد والده والأمن، على اعتبار تنبه صاحب الجلالة للغزو الوهابي للكتب الصفراء والكاسيت/الأشرطة على عهد والده ووزيره السابق للأوقاف والشؤون الإسلامية، مولاي عبد الكبير العلوي المدغري.

وهناك مَلح مُهم مشترك فيهما هو تكرار اسم بلادنا، مملكتنا في خطبهما في سياقات إيجابية، مع انقطاع في استخدام المفردات الأبوية والدينية في الخطاب السياسي للملك محمد السادس، واستعمال أكثر للمفردات الخاصة بالمواطنة مثلا.

وهناك اختلافات أيضا تخص طريقة الأداء مقارنة بقادة دول أخرى، خاصة بالقطر المصري الشقيق، كانت أغلب خطب الرئيس السادات إرتجالية وعامية بينما أغلب خطب الرئيس مبارك معدة سلفا ومكتوبة بالفصحى. كما أن هناك اختلافات في شكل الأداء.

فالرئيس السادات، حسب العديد من المقاطع المتفرقة في كتابات ومقالات الدكتور عماد عبد اللطيف، وكما رأيته في تسجيلات فيديو وكما رآه كل محبي السينما المصرية في الدور الذي جسد فيه الممثل المصري الراحل أحمد زكي شخصية الرئيس المغتال في فيلم "أيام السادات"، كان يستخدم بدرجة أكبر الحركات الجسدية وتنويعات الصوت، مقارنة بالرئيس مبارك.

¹ - الضمير هنا يعود على والده الملك المجاهد محمد الخامس، والشذرة الخطابية من الخطاب الذي ألقاه الراحل الملك الحسن الثاني في يناير 1984 عقب المظاهرات التي عرفها المغرب، خاصة بمدن الشمال ومراكش، والذي ظل موشوما في ذاكرة التوثيق السياسي بسبب اللهجة غير المسبوقة في السب والوعيد، على نحو جعل البعض يشبهه علاقة الملك آنذاك بشعبه بما يحفل به نسق التحليل العيادي الفرويدي حول الأب السلطوي الذي حاول الإبن التمرد على وصايته والتخلص من جبروته، وانفراط عقد العلاقة واستمرار العقدة في لا وعي فئة من الأبناء من توصيف والدهم لهم بـ"الأوباش" و"الدراري": فقد صدقت بذلك نبوءة السلطان الأسبق سيدي محمد بن يوسف، فكان لكل ملك زمانه، ولكل ملك طريقته في الرد على تمرد أبنائه.

ويمكن من النظرة الأولى اعتبار الاتصال والاستمرارية والاعتماد على تراكيب لغوية ومفردات متكررة في خطب الرئيس مبارك دون انقطاعات أو مفاجآت كتلك التي كانت تحفل بها خطب الرئيس السادات نتاجا لركود مسيرته السياسية.

وقد جسدت خطب الحسن الثاني نفس المنهجية الساداتية في الحركات الجسدية وتعبيرات الوجه وتنويعات الصوت.

على النقيض من ذلك، لما أعطيت لنفسه فرصة عقد نفس المقارنة بين الملك الحسن الثاني ووارث سره، من خلال تقفي أثر نفس المضامين في خطاب وارث سره الملك محمد السادس، وفي نفس المناسبة (افتتاح السنة التشريعية) وأمام نفس مجتمع التلقي (نواب الأمة)، ألفينا أنها تتسم بالطابع التحليلي المتصل بملكة العقل المميزة بمكانيزات التصوير الحداثي، وتتواشج الأفكار في علاقات اتصالية أكثر من كونها علاقات انفصالية، وتتصف بالصيغة التركيبية التي تتعالق فيها مكانيزات تشكيل البناء اللغوي.

ما تقدم تُعاضده جودة صياغة وتكثيف خطابي لا يستقيم معهما الإرتجال تحت طائلة الوقوع في التكرار واللكن والإبتذال وتقطع الحبل المنطقي، فينعكس ذلك سلبا على الحبل الفكري ليستعصي الإنتقال المنطقي ويفقدان معا بوصلة اللغة ("إن الحمولة السياسية القوية لمشروعي إصلاح مدونة الجماعات المحلية وقانونها الانتخابي وكذا مشاريع إصلاح قوانين الحريات العامة والاستحقاقات السياسية والانتخابية والحزبية التي تلوح في الأفق القريب والمدى المتوسط يجب ألا تطغى عليها الحسابات السياسية لدرجة حجب ما يواجهنا من تحديات اقتصادية واجتماعية هائلة. إن على طبقتنا السياسية بجميع مشاربها أن تعتبر هذه الاستحقاقات لحظات قوية للتعبئة والانخراط في الجهاد الاقتصادي والاجتماعي.... وعندما ندعو لنبذ السياسة السياسية التي تقحم من الآن البلاد والعباد في حملة انتخابية سابقة لأوانها، فإننا نشدد على إعادة الاعتبار للعمل السياسي بالمعنى النبيل للسياسة الذي يستحضر مشروعية الطموحات الشخصية والإنسانية في العمل السياسي ولكنه يجعل غاية هذا العمل إفراز رجال دولة يتميزون بالدفاع عن مشروع مجتمعي والتفاني في خدمته لا ابتغاء مصلحة شخصية أو فئوية...")

ويستطرد جلالته بالقول في نفس الخطاب ("واستخلاصا للعبارة وتفعيلها في الاستحقاقات الانتخابية المقبلة، المحلية والجهوية، فإنه يجدر الاستعداد الجيد لها، ليس بالملاسنات الديماغوجية، والحسابات الضيقة، وإنما بالتأهيل السياسي الشامل لكل الفاعلين والمؤسسات والتنظيمات، وخاصة منها الأحزاب السياسية بتجاوزها للملاءمة الشكلية مع إطارها القانوني، إلى التفاعل مع مستجدات المجتمع المغربي ومتغيراته. وهذا ما يقتضي من الجميع القرب الدائم من المواطن وانشغالاته، بعيدا عن الاغراءات الوهمية والوعود التضليلية، المحرفة لقيم الدين والمواطنة"¹).

بالنسبة لمعضلة البطلة، فقد تجاوز الخطاب الملكي خرائط التهويل والوقف موقف العاجز أمام جحافل العاطلين الذين يناهز عددهم 180 ألف سنويا حسب ما أورده والده سنة قبل ذلك تحت نفس القبة، فطرح تشخيصا ينطلق من منظومة التعليم وينتهي إليها، ليصلها بمنظومة الإستثمار وتشجيع المقاولات: ("أما المسألة الثانية، حضرات السيدات والسادة التي نوليها أهمية كبرى فهي قضايا التشغيل والبطالة. يلزم اتخاذ إجراءات ملموسة لمطابقة شعب الدراسة مع واقع الشغل والسعي لربط المؤسسات التعليمية والبرامج مع المحيط الاقتصادي: إن باب التشغيل لا ينبغي أن يبقى حرسا على الوظيفة العمومية، وإن على شبابنا أن يقتحم القطاع الخاص دون أن يستشعر أية عقدة من نظامنا التعليمي الذي نتشرف بكوننا من خريجيه.

إن التطورات المتسارعة تفرض إعادة تأهيل الأطر والعمال المزاولين فبالأحرى المرشحين للعمل ليتسنى لهم مواكبة المستجدات ويظهروا روح المبادرة والابتكار.... إذا كنا قد عالجن المسألة التعليمية بما سيجعل أجيال شبابنا بإذن الله قادرة على مسايرة مستجدات الثورة التكنولوجية المتواصلة والتكيف معها والمساهمة فيها فإننا فيما يتصل بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية التي من شأنها، إذا تمت معالجتها أن تساعد في امتصاص البطالة وخلق فرص الشغل، نلح على ضرورة ترشيد السياسة المالية وحسن تدبير الإنفاق مع الحث على دفع الضرائب وتسديد المستحقات الإلزامية... إلا أننا متطلعون إلى توسيع آفاق النمو بإنعاش المقاولات الصغيرة والمتوسطة وتنشيط الاستثمار العمومي والخصوصي والوطني والأجنبي مع حفز القطاع الخاص على أخذ المبادرة لأننا نعتبر هذا التنشيط وذاك الإنعاش مقوما ضابطا لإيقاع اقتصادي واجتماعي يمكن من فتح باب لتشغيل وإيجاد مناصب عمل لجميع المستويات التكوينية والتأهيلية ويمكن بالتالي من مواصلة التطور والتقدم... ولن يتحقق ذلك ما لم نتجاوز بعض السلبات التي تعوق ازدهار الاستثمار والتي تقتضي إزالتها تسريع السير العادي ومحاربة بطئه ورتابته وتخفيف مساطره والتنسيق بين مراكز القرار وإعادة الثقة في جودة النصوص القانونية وسلامة تطبيقها... لقد سبق لوالدنا طيب الله ثراه أن بعث رسالة إلى وزيره الأول آنذاك بتاريخ 21 يونيو 1989 دعا فيها إلى تبسيط الإجراءات الإدارية للمستثمرين بحيث تكون الإدارة ملزمة بالنظر في ملفاتهم في أجل شهرين... إننا في نطاق الإصلاحات الجذرية التي نحن عازمون بها على مواجهة ظاهرة البطالة قررنا إنشاء صندوق الحسن الثاني للتنمية والتجهيز بقصد استثمار عائدات الخط الثاني للهاتف المحمول لإنجاز بعض المشاريع التي ستوفر بها مناصب شغل عديدة ومتنوعة¹.

فصاحب الجلالة يرفض الانخراط ضمن صفوف الواقفين تحت مظلة النموذج المائل بالتسليم المطلق، أو مجرد الصوت المحاكي المردد لما يقال أو ما قيل له، أو لصوت الحاكي الذي يردد الأذليات والعنتريات والملحقات، ليحبذ بالمقابل التغيير والتجديد على ما كان لاستكشاف ما سيكون، مع تأسيس نسق جديد في التفكير، وفي طريقة التعبير والتدبير.

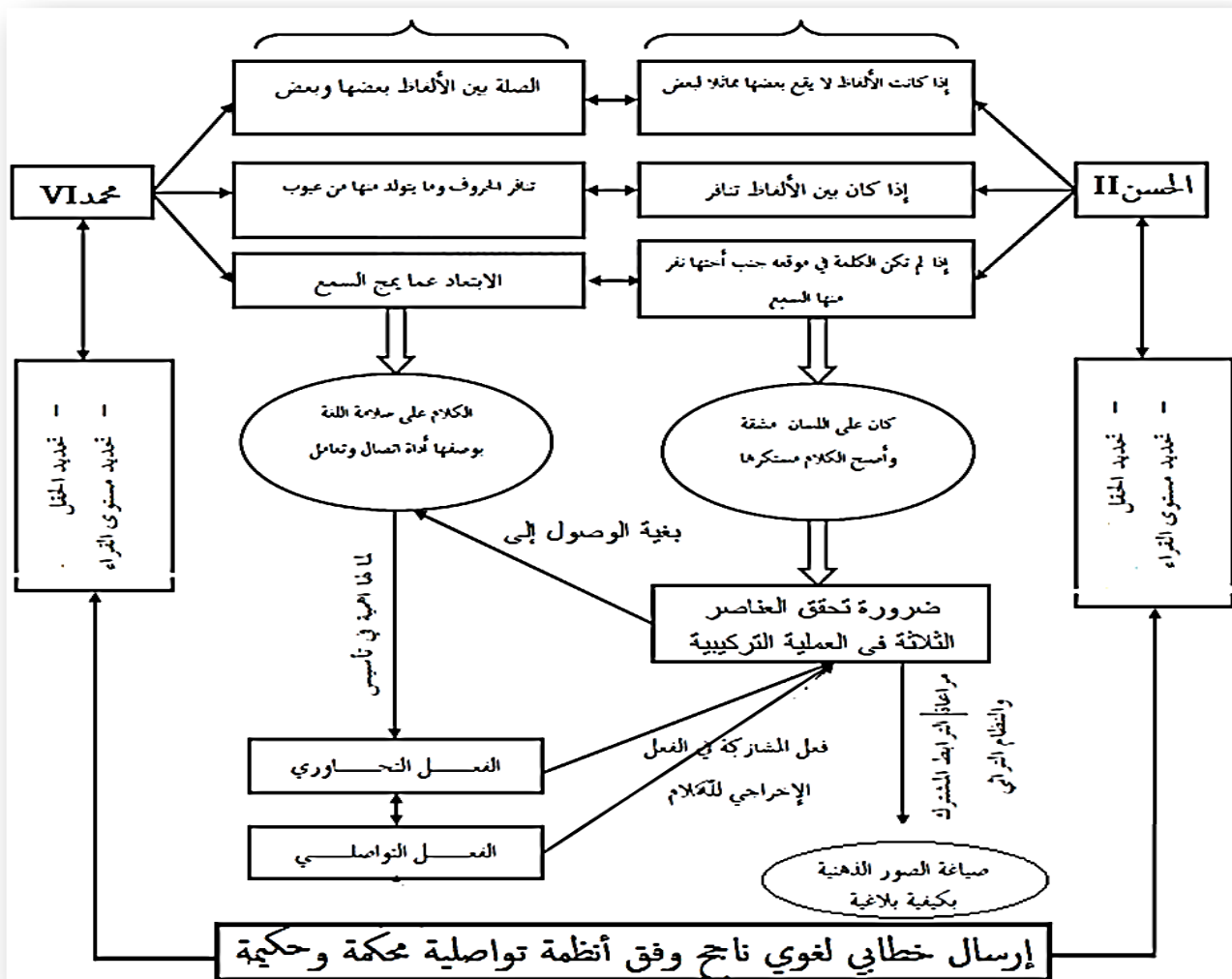
فمناط "الكلام على الجملة، والعلاقة بين المعنى واللفظ، ثم على الوضوح والإيجاز والإطناب، والملاءمة بين الخطبة والسامعين لها، والملاءمة بين الخطبة وموضوعها أو مواضيعها، وبين الخطبة وموضعها وموقع قائلها في ذهن جمهور التلقي"² كما يقول عميد الأدب الدكتور طه حسين: فالشعب يتعامل مع خطب ملكه غير التعامل الذي يتعامل به مع باقي خطابات الحقل السياسي والخطبة الدينية، ولولا فعل الإتصال وحلول مناسباته الوطنية والدينية، لظلت العلاقة انفصاما وانفصالا بين جلالته كذات متكلمة وباقي ذوات شعبه المنصنة (أكثر من مستمعة)، وما كان ليدركها الجمهور المتفاعل معها من خلال احتكاكه بالجمال واستيعاب دلالتها، بعد التوكا على عمليات استدلالية ووصلها باحتمالات تتعلق بمراعاة جلاله الملك في تشكيل كل وحدة لغوية مناسبة للمناسبة وللمعطى الموقفي ولا انتظارات كل فئات شعبه.

ولعلي لن أرجم بالغيب إن أكدت إدراكي لبلاغة وميزة خطابات الملك محمد السادس ووقوفه على فصاحة ألفاظها وبلاغة معانيها ومهارة بانيها واستقامته مبانيها، وهي عناصر تعتبر في اعتقادي بمثابة مؤشرات تشكيلية للبنية المحورية التي تكون المنجز الذهني/ النص الذي ينأى عن مجرد كونه إنجازا فنيا يروم الإخراج.

¹ - مقتطفات من خطاب صاحب الجلالة الملك محمد السادس بمناسبة افتتاح السنة التشريعية 1999-2000

² - طه حسين، من تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، القرن 2، الجزء 2، ص: 482

ولا يتاح فهم هذا المستوى واستخراج ما سلف ذكره من عناصر إلا بالمقارنة بين المتن الخطابي المكتوب للملك الراحل الحسن الثاني مع متن خطاب وارث سره، حيث ألفت في عدة مواقع من المتن الخطابي المرتجل تداخلا في التعبير عن الغايات، ولغة تتسم بالاضطراب لإضراب خط حرص صاحبها عن القراءة مباشرة من الورقة، فاستمت اللغة أيضا بالتداخل، لينعكس الأمر على الدلالة التي تحملها العديد من خطابات الملك الراحل، والتي يرغب المبدع في إرسالها على هيئة رسالة لغوية، فاستعصت عليه مهمة إخراج إنتاجه الفني في وحدة متجانسة في دلالتها على الصور التي أرادها جلالته أو كانت نصب عينه في الخطاب الخطي الذي كان المغفور له يتلمسه سطرًا سطرًا في الخطابات الأولى لتوليهِ العرش خلفًا للملك المجاهد محمد الخامس ("لئن كان عهد والدنا رضوان الله عليه عهد كفاح مرير، ونضال منقطع النظير، أراد العاهل الراحل من ورائهما كسب معركة الاستقلال والتحرير، واسترجاع ما كان لهذه البلاد من مجد أثيل، وعزة طفحت بها صفحات تاريخنا الطويل، فإننا بعد ما أنجح الله مساعيه الحميدة وكل بالفوز والظفر جهوده المجيدة، أخذنا على أنفسنا أن نصل من عمله ما قطعه المنون، ونتم من بنائه ما شرع في تشييده وتدعيمه، فانصرفت هممتنا إلى إقرار نظام الملكية الدستورية، وتبويج ما أنجزه والدنا المقدس طيب الله ثراه"¹)؛ "إننا تأمل أن تنهض جميع المؤسسات الدستورية بالأعباء الملقة على كاهلها، سواء في ذلك الجهاز التشريعي أو الجهاز التنفيذي، وتكون خير أداة لتحقيق ما يطمح إليه شعبنا من تقدم ورخاء، وإننا نأبى أن نتصور أن المؤسسات الدستورية، ستحيد يوما من الأيام عن الجادة القويمة، وتعذل عن المحجة السليمة"².



¹ - من خطاب صاحب الجلالة المغفور له الملك الحسن الثاني بمناسبة افتتاح الدورة الأولى للبرلمان برسم السنة التشريعية 1963 - 1964

² - من خطاب صاحب الجلالة المغفور له الملك الحسن الثاني بمناسبة افتتاح الدورة الثانية للبرلمان برسم السنة التشريعية 1964 - 1965

فإذا كانت هذه المرحلة من مراحل التوثيق الخطابي لعهد الملك الراحل قد عرفت تقبلا كبيرا لجلالته من قبل ذائقه كلامه الموزون المقفى الدال على عملية إنشائية رفعت منسوب قبول الخطاب الملكي (بعد مشيئة الله) في خصم الخطابات التي ميزت مرحلة ما بعد الإستقلال وحرب شرعيات ما بعد تحرير المغرب، فقد تحرر الملك الراحل الحسن الثاني بعدئذ من قراءة الخطاب ليوثر الارتجال، لكن على حساب أنظمة الترابط والترتيب والترائية التي غابت نسبيا، فأصبح الخطاب مجرد هذرٍ أو مذاكرة يعوزه الخط الناظم والنظم، يعبر عن انفعالات وشطحات كلامية لا يرد فيها فعل مشاركة جمهور التلقي الضمني في الفعل الإخراجي للكلام ("وسأقول كلمات باختصار فيما يخص مجلس المستشارين، أن مجلس المستشارين هو قبل كل شيء يجمع منتخبي من يعملون يوميا ليكسب المغرب قوت عمله وهم الفلاحون والمأجورون والتجار والصناع والصناع التقليديون وذو الحرف"¹) "أحبكم لأن كل ما يمت إلى الوطن بصلة هو محبوب عندي وفي وسط فؤادي ووجداني، فأنتم ممثلون للأمة لما تتكلمون باسم الشعب المغربي... فذلك الإخلاص الذي سيجعلنا دائما نتحدث ونتحاور بروح نزيهة بأفاق نظيفة لا يشوبها سحب ولا أغراض ولا مقاصد شخصية ولا مواقف انتهازية بل طريقها - طريق تلك الآفاق لبلوغها - هو الإخلاص لوطننا ولديننا... وهذا الإخلاص هو الذي جعلني دائما أتحدث إليكم في شتى النقط والمواضيع التي أريد أن ينصب اهتمامكم عليها لا فحسب في أيام الدورات المنتظمة والمنظمة، بل حتى خارج الدورات لتكون دائما بالنسبة إليكم ناقوسا يدق في عقلكم وفي قلبكم لينبهكم... تعلمون أن العاصفة المالية والاقتصادية قد هبت على كثير من الدول والقارات في العالم ولم يصمد أمامها لا قوي ولا متوسط في بعض النواحي وبعض القارات، بل حتى العمالة أصيبوا في أسس اقتصادهم بعطب كبير وعميق... نعم نعمل مع الحذر كل الحذر... حين نرى والله الحمد أن عملتنا محترمة... فهذا من المشجعات التي ستجعلنا إذا نحن تعبنا ونحن نتسلق الكدية ونحن نتعب تحت العبء اليومي والشهري والسنوي ... يجب أن تدفعنا لأن نسير إلى الأمام ولأن نسير قدما وأن نفتخر ونزهو ونحمد الله متواضعين... لقد أمضيت دورات ساخنة جدا مواضيعها تدفع كما يقول العامة إلى "تسخين الطرحة"... أُملي أن لا تحاولوا ولا أقول - أنكم تحاولون وإنكم تريدون ذلك ربما دون أن تشعروا أو تريدوا ذلك مما لا شك فيه... أظن في المواضيع التي طرقتها كفاية لهذه الدورة وإن كنت لن اشبع بالاجتماع بكم وباللقاء معكم كما قلت لكم، لأنكم من اليوم الذي تدخلون فيه إلى معمة الانتخابات والحملة الانتخابية"².

❖ ثالثا/ الخطابات الملكية بين فضاءات الإخراج وصيغ الاندماج

إذا كان "طه حسين" قد فاضل بين "عبد الحميد" و"ابن المقفع" جاعلا الأول أفضل من الثاني، جاعلا مناط التفضيل كون "عبد الحميد" في تشكيله لرسالته اللغوية يسعى إلى "توظيف المؤشرات التي تساعد على بناء بنية متجانسة تضم مجموعة من الإمكانيات التي يتم بفضلها التعبير عن موضوع هذه البنية أو تلك على أساس أنها تقوم على تداعيات في الذهن وروابط المفردات، ويمكننا عد هذا الأمر معيارا طبيعيا للتمييز بين بنية نصية مترابطة متناسقة - كما هو الحال عند عبد الحميد - وبنية نصية مترابطة لكن غير متناسقة ترد عند أولئك المتكلمين من ذوي التفكير المضطرب كما هو باد في كتابات "ابن المقفع" فهذا الاضطراب في التفكير ينعكس بشكل ما على النص بوصفه السجل الشكلي الذي يتمثل فيه القول"³، فإعمال نفس منطق المفاضلة يسعف للرد على "مفتقدي بلاغة خطابات الحسن الثاني" و"متفقدتها في خطابات وارث سره" كفرضية أولى انطلقت منها الأطروحة للقول ببلاغة الإيجاز وبالانتقال من خطاب التواصل (العهد الحسني) إلى خطاب التفاعل (العهد المحمدي).

¹ - شذرات من خطاب صاحب الجلالة المغفور له الملك الحسن الثاني بمناسبة افتتاح الدورة الثانية للبرلمان برسم السنة التشريعية 1997 - 1998

² - شذرات من خطاب صاحب الجلالة المغفور له الملك الحسن الثاني بمناسبة افتتاح الدورة الثانية للبرلمان برسم السنة التشريعية 1998 - 1999

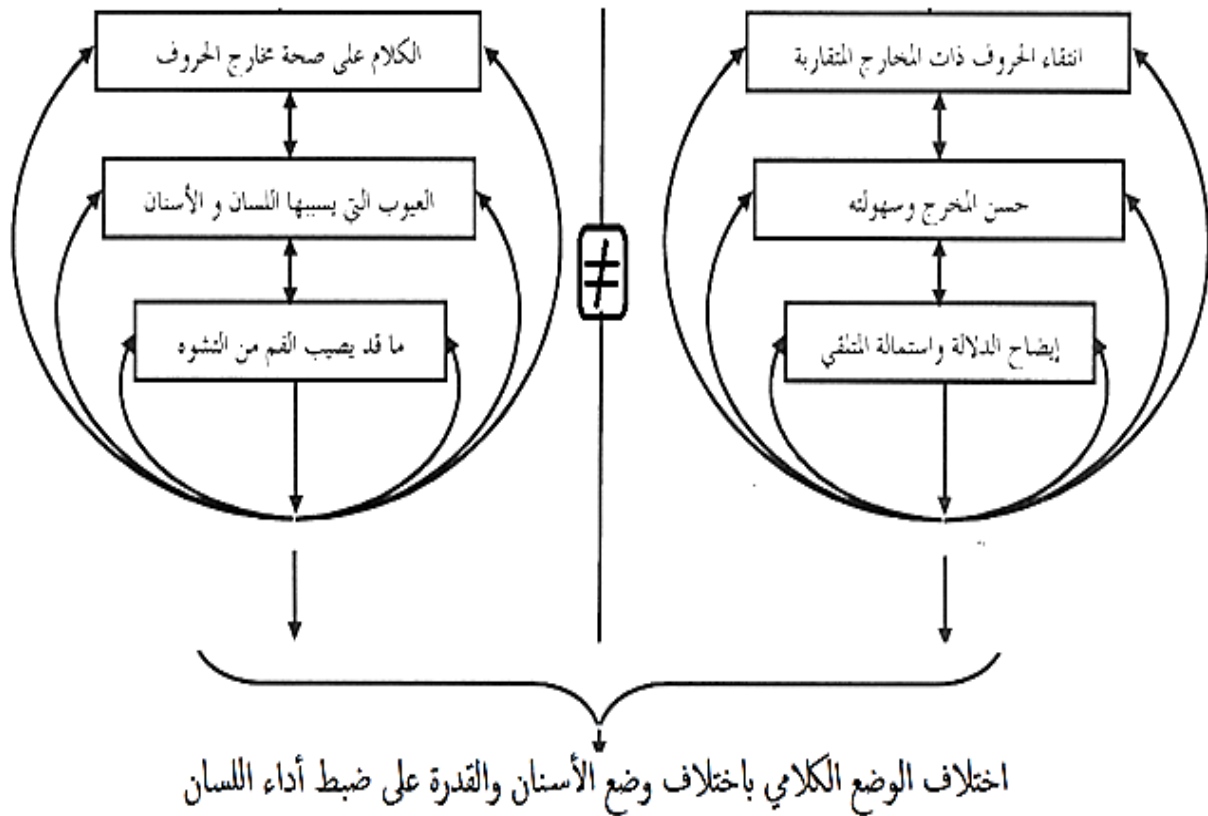
³ - طه حسين، من حديث الشعر والنثر، دار المعارف بمصر، القاهرة، جمهورية مصر العربية، الطبعة العاشرة، 1967، ص. 46

لذلك، فالمدلولات في دقة مداخلها ومسالكها حققت ثنائية التأثير والإقناع المقترنة بالمنطق المحرك للدوال التي زانها تعبير رصين لا حشو فيه ولا ركاسة.

ويقوم التشكيل البلاغي في البناء النصي للمتن الخطابي المولوي على الدال والمدلول والوحدة اللغوية، باعتبارها عناصر تجتمع على الوضوح والتوضيح تارة والإيجاز تارة أخرى وفق ما يقتضيه الموقف الكلامي لجلالته سواء أكان شفويا (خطابا أو حوارا صحفيا) أم مدونا (رسالة ملكية سامية).

كما اتضح أن المنجز البلاغي للعاهل الملك محمد السادس تُراعى فيه العملية الإخراجية للحروف والابتعاد عن عيوب اللسان والأسنان، على نحو يجعل جلالته يُقدم منجزه الذهني في صورة مستحسنة وذلك وفق المؤشرات الدلالية التي تحيل عليها.

ولأن الكلام على "صحة مخارج الحروف ثم العيوب التي سببها اللسان والأسنان أو ما قد يصيب الفم من التشوه"¹ يُنتج نوعا من الإيقاعية تجري مجرى التأثير في الآخر، فإن صاغة الخطاب الملكي على دراية بوظيفة الحرف وجماليته في العملية التركيبية للكلام، فمخرج الصوت واتصاله بالأصوات الأخرى اتصالا تأليفيا يؤدي إلى تكثيف السياق الدلالي في سياق تشكيل لغوي مقتضب يراعي مساحة النفس والتنفس في صدر صاحب الجلالة فلا يرهقه بجمل طويلة واعتراضية، وينتقي بحرفية عالية تشكيلات حرفية سلسلة في مخرجها، وفعالة في بنائها التشكيلي وفي نطق الكلمة، تتولد عنها دلالة إيقاعية، واتساعا دلاليا، وتحض على استحسان خطاب الملك واستهجان باقي الخطابات.



¹ - طه حسين، مرجع سابق، ص. 482.

في هذا الصدد، يرى الجاحظ بحتمية مراعاة مخارج الحروف "أنذركم حسن الألفاظ، وحلاوة مخارج الكلام، فإن المعنى إذا اكتسب لفظا حسنا وأعاره البليغ مخرجا سهلا، ومنحه المتكلم دالا متعشقا، صار في قلبك أحلى، ولصدرك أصلا"¹، مما يؤشر على دعوة للمتكلم من أجل مراعاة الاهتمام في الوضع الكلامي بالعملية الانتقائية للألفاظ ذات المخارج السهلة والمتقاربة حتى يحقق فيها ما يصبو إليه من تقديم كلام بلاغي تأثيري، ومن ثم توصيل رسالته.

فقد ركز على طلاقة اللسان التي تنطوي على حسن المخرج وسهولته وانتقاء اللفظ المتكون من الحروف ذات المخرج المتقارب وجاعلا هذه الطلاقة اللسانية نوعا من أنواع البيان.

فكلما كان المتكلم صاحب لسان طليق كلما أوضح الدلالة واستمال المتلقين وكانت عقول هؤلاء المتلقين عنه أفهم ونفوسهم إليه أميل، وكلما امّحت عنه هذه السمة كلما أصيب البيان بمساوئ متباينة غير تلك المرتبطة بعيوب اللسان والأسنان: من باب الاستئناس، يُذكر في هذا الشأن أن "الجاحظ" أورد ما قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سهيل بن عمرو الخطيب: يا رسول الله، انزع ثنيتيه السفليتين حتى يدلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيبا أبدا"²، لأنه بهدم الأسنان يهدم الجدار الذي يحول دون خروج اللسان، فتختل الوظيفة التنبيهية الكلامية ويتعرض الإخراج الكلامي للإحراج، بدءًا بالحرف ومخرجه وصولا إلى الكلمة والجملة ودلالاتهما، فيكون في الكلام صفير يخرج من بين ثنايا الفم المتروعة.

فما بلغني إلى الآن من خطابات خطية وما استطعت بلوغه من خلال الحفر في طبقات المتن الخطابي بعد الظفر بالمتن الكتابي المولوي من مظاهره (حوليات انبعاث أمة وبعض المراسلات التي توصل بها أصدقائي من الديوان الملكي)، لا يشير إلى أي عيب، ويؤشر على لغة اتصلت وحداتها اللغوية الرمزية سليمة الصياغة وخضعت طوعا للضوابط والقوانين المتعلقة بالعملية التركيبية والمسلمات الأولية للأنساق المنطقية، وارتبطت بالمواضيع التحوارية التي انسجمت فيها الوحدات المركبة مع القضايا المثارة، وقام بين حروف الألفاظ والصلة بين الألفاظ بعضها ببعض فعلٌ تحاوري يناه عن تنافر الحروف الذي يقطع عادة الفعل التواصل بين الخطيب وجمهوره التلقي.

وتقوم تلك اللغة التي يجدها المتتبع لخطابات جلالته كما أسلفت بوظيفة إقناعية للبلاغة الملكية تستميل دون أن تميل عن طريق الإقناع العقلي أو الوجداني أوهما معا، في الوقت الذي تمنع فيه باقي الخطابات في البلاغة الإستيهامية أو التعابير الهلامية التي لا تتوكلأ بُناها النصية على الفهم والإفهام، بقدر ما تروم الترويج للوهم وتوسيع مساحات المضمرات النصية والإبهام والإيهام.

بمنظور وظيفي، يمكن أن نلمح تقاطعات في الخطاب الملكي بلاغة لا تكتفي فقط بوظيفة الإقناع³ والإفهام وإيضاح الدلالة وتبليغها لجمهور التلقي فحسب، بل تتجاوزها إلى غزل ألياف الوظيفة المرجعية والإنشائية والوظيفة الجمالية والتواصلية:

● **في المرجعية والإنشائية**، ينتقي الخطاب في مقدمة كل فقرة من فقرات حقوله التيمية معطى من المعطيات الموقفية، ويجعلها دعامة أساسية يركز عليها في إنشاء بنيته النصية، مراعيًا فيها الانتقاء والالتقاء بين بناء محكم للدوال والمدلولات، قبل الارتقاء بها إلى واجهة العرض والاستعراض لينتقلها جمهور التلقي بقبول حسن؛

1- الجاحظ: البيان والتبيين مج1، ج1، ص 172

2- الجاحظ: البيان والتبيين مج1، ج1، ص 44

1- "تعد بنية الفعل الإنجازي تقنية للخطاب الإقناعي، أي أن الفن البلاغي هو فن للخطاب الفعال والمؤثر، وفي هذا المستوى أيضا، كما هو الحال في مستوى الفعل الكلامي، يعد القول بمثابة فعل، فالخطيب يسعى إلى الحصول على رضا مستمعيه ودفعهم، إذا اقتضى الحال، إلى التصرف في الاتجاه المرغوب فيه، وبهذا المعنى تكون البلاغة إنجازية وتأثيرية في وقت واحد"، والقول لـ"بول ريكور" في كتابه "البلاغة والشعرية والهرمينوطيقا"، ترجمة مصطفى النحال، مجلة فكر ونقد، عدد 16، فبراير 1999، الرباط، ص. 108، الرباط، فبراير 1999، ص. 10

• أما **المرجعية الإتصالية**، فيجلوها بحث الخطاب الملكي عن عرى علاقة منطقية بين ما ينتجه من بُنى نصية ومستويات قبولها وتبنيها من طرف جمهور تلقي الخطاب الملكي/ على اعتبار الملك والشعب قطبي الفعل الإنجازي الكلامي وشرطي تمام الفعل التحويري، مهما كانت مستويات الفهم أو عدمه، لأن التفاهم والقدرة على التفهم يجعلان بلاغة الخطاب المولوي "بلاغة إفهام المعنى لأنه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ والآخر عي، فما البلاغة بتحقيق اللفظ على المعنى وهو غث مستكره ونافر متكلف؛ وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في حسن الصورة من اللفظ"¹.

فاللغة التي تحمل الفكر الملكي تستعمل أساسا لأداء وظائف تواصلية عديدة، ولعل أهم هذه الوظائف توصيل الرسالة اللغوية وإبلاغ جمهور التلقي على النحو الملائم، فتمثل امانا لغة تعاملية في المقام الأول، يحدث بها ومن خلالها الفعل التواصل بين أطراف تلك الرسالة بين الشعب والعاقل، جريا على ما جرت به العادة بينهما من عرى التواصل والتعامل.

ويتضح من خلال مستوى تشكيل جلالته للمنجز الكلامي أن هناك درجة كبيرة من الوعي بضرورة تجاوز مسببات العي والخروج من دائرة الغي الذي يوصم بعه الخطاب السياسي، من خلال والوعي أيضا بالتشابك الذي يلزم أم يتم بين عنصري البنية النصية المستمكة بالنصية الخطابية الملكية: **الفعل التحويري والفعل التواصل**. هذا الوعي يركيه مستوى الوعي بالضرورات الأولية للعملية الإخراجية للمنجز الكلامي عبر تحقيق الصلة بين الألفاظ بعضها وبعض، والابتعاد عن العيوب الناشئة عن تنافر الحروف، والحرص على سلامة اللغة ومراعاة العملية الانتخابية للدوال حتى تؤدي المدلولات المقصودة، مع اقتصاد في اللفظ وتجويد للمعنى عند غزلها لألياف الخطابات والرسائل الملكية وتأليف فقراتها وترتيب صور فعلها الإخراجي.

❖ رابعا- بلاغة الإظهار والإفهام دون سفسطة الإبهار والإيهام

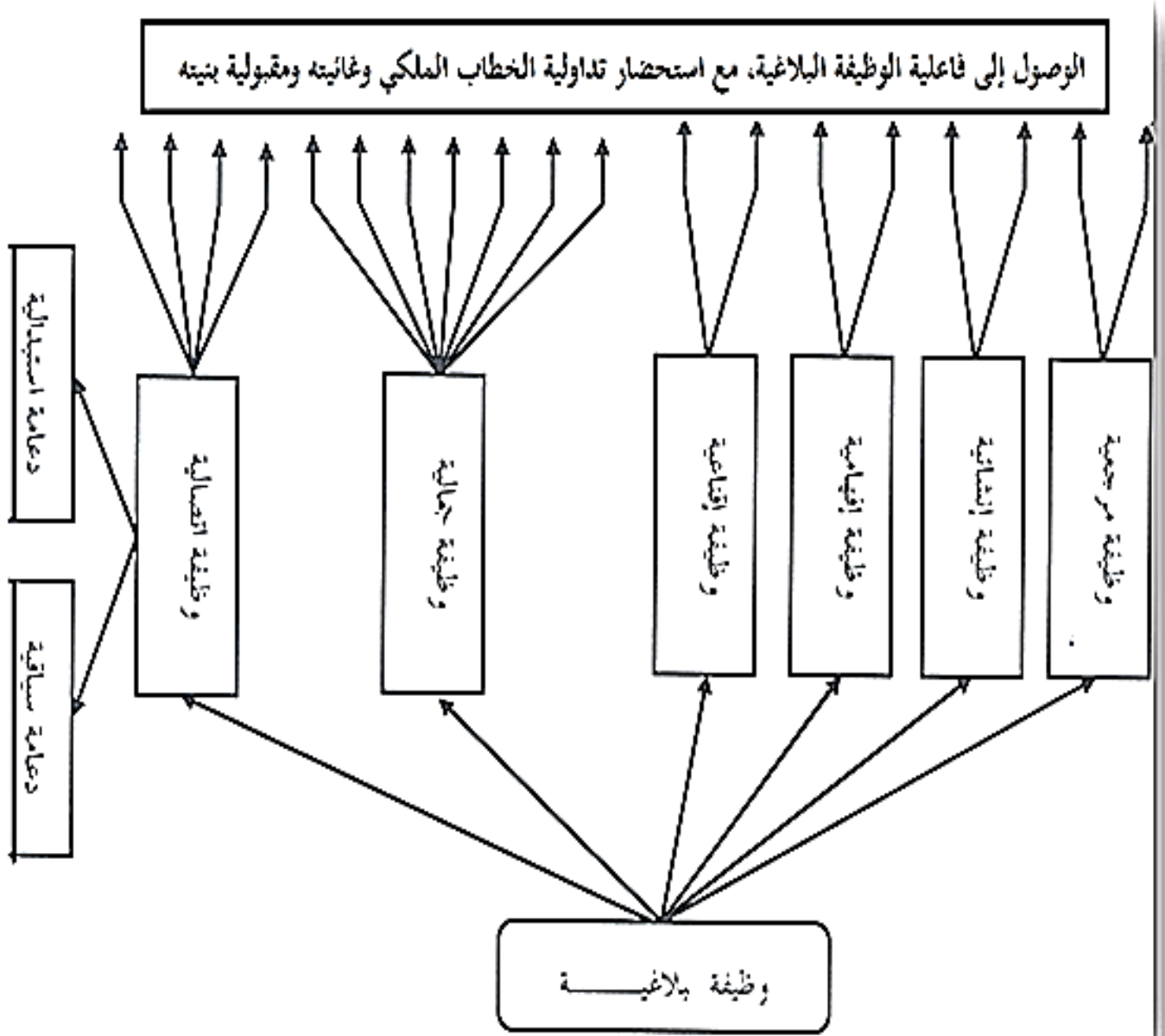
لن أسترسل في الحديث عن المرجعية الجمالية لأنها غير مقصودة لذاتها في خطاب ملكي يروم الإظهار ولا يروم الإبهار، حيث يمكن أن يتراءى للبعض بمقترح **الوظيفة الجمالية** أن العملية الصياغية للفعل الإنجازي الكلامي الملكي (خطابا كان أم حوارا أم كتابا) تحكمها عمليات توليدية توليفية بين الدوال والمدلولات، استنادا على دعامتي الإستبدال (الإنقضاء) والصياغة (السياق)، فتتفاعل هاتان الدعامتان مع بعضهما داخل النظام النصي لتأدية الوظيفة الجمالية.

ولا مُراء أن تشكيل الكلام في خطاب الملك الهمام يتم وفق عملية فنية تركز على الإخراج الجيد للمتّن الخطابي أو الرسالة الملكية، حتى تتصف بحسن الصنعة، وجمالية النسيج وتكاثف الدلالة في بنية الكلام اعتبارا للعلاقات التفاعل الحاصلة بين أجزاء بنية الخطاب الملكي وخصوصيات صياغته لتتنوع خصوصيات مجتمع تلقيه. هذا المعطى يحملني على التسليم بداهة بأن للخطاب الملكي (سواء حَمَلَتْهُ على جانب الإفهام أو مقترح الصياغة) بلاغة لا تقف عند حدود الإفهام فحسب، بل تتعداه إلى مستويات التقنن في البناء و السجع أحيانا وتخير اللفظ، واختيار الجزالة والمتانة ترسيخا لمكانة المؤسسة الملكية وما يصدر عنها.

¹ - الحسن علي بن عيسى الرماني، النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن)، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، جمهورية مصر العربية، القاهرة، الطبعة 2، 1968، ص. 75

لقد اجتمع في الخطاب الملكي ما تفرق في غيره من المتون الخطابية السياسية أو غير السياسية، ووفقاً إلى حد كبير في إنتاج متن خطابي يحقق ثنائية الإفهام والصياغة، فألفت في البنية النصية لجل الخطابات المكتوبة أو الشفهية (وبشكل أقل في المادة الحوارية) قدرة خاصة على الإمساك بناصية المسار الإفهامي الإقناعي بمضامين الإفادة، وإن كانت تفيد على مستوى النظم من خصائص الصنعة البلاغية ذات الغرض التحسيني، لتؤدي بذلك ثنائية الإفهام والصياغة وظائف جمالية في العملية الإنجازية للكلام والخطاب، سواء حملنا "البلاغة على الرؤية الإفهامية أو على الرؤية الصياغية"¹.

بهذا المعنى، تتحدد فعالية بلاغة الخطاب الملكي في كونها فعلاً مُركباً يتكئ على استخدام آليات (أبرزها اللغة) من أجل التبليغ وفق نسق تواصلية بين الملك وشعبه، أو نسق توصيلي للرسالة اللغوية في صورتها الجمالية لغرض التأثير والوصالي عن حلول مناسبة من المناسبات التي تستدعي الخطاب أو الرسالة أو الحديث الصحفي كأنشطة تواصلية تؤثر لمقصدية معينة، موجهة لجمهور التلقي في الداخل أو في الخارج، من المغاربة وغير المغاربة.



1- أبو حيان التوحّدي: المقاييسات، تحقيق حسن السندوبي، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، طبعة 1929، ص. 170.

لذلك، يجد المنتبع الملك والشعب ماثلان أمامه في قلب وظائف إلهامية وإقناعية واتصالية ومرجعية وإنشائية، بالإضافة إلى وظيفة جمالية يريد منها جلالة الملك تمييز الخطاب الملكي عن غيره من الخطابات، كما مثلت لذلك في الخطاطة أعلاه.

فالتشكيلة المعرفية التي استخلصتها من مختلف البنى النصية للخطابات والرسائل الملكية تتشكل من المعطيات الموقفية المتوفرة المناسبة، وتستوعب شبكة من الدلالات العاملة المتفاعلة في ذلك السياق المعرفي الخاص لجلالته أو لما يعرفه عموم المغاربة.

وتفيد تلك التشكيلة انتقالا حواريا من تقديم الملك ذاته كذات متفاعلة مع عموم شعبها، وكمؤسسة مسؤولة منذ أن " قيض الله لنا أن نتربع على عرش أجدادنا الميامين وفق إرادة والدنا الذي أسند إلينا ولاية عهده وبناء على مقتضيات الدستور وطبقا للبيعة التي التزم بها ممثلو الأمة ". هي مسألة يرى جلالته أنه يحملها على عاتقه بالقول " عادة تحملي الأمانة العظمى، لإمارة المؤمنين "؛ " مستخلفين لأداء الرسالة وحمل الأمانة سائرين على نهجهم القويم في قيادتك وإعلاء شانك والارتقاء بك. وإنها لخير مناسبة لتأكيد الوفاء الصادق الذي تبادلهنا وتجديد العهد المقدس الذي يلحم بيننا بأواصر البيعة الشرعية التي تطوق عنقك وعنقنا متجددة عبر ثلاثة عشر قرنا من تاريخنا الحافل المجيد مشدودة إلى العصر الحديث برباط دستوري ديمقراطي متجدد".

بعد بيان مرحلة التأصيل، انتقل جلالته إلى بيان معرفة جلالته بأدق التفاصيل بشأن حال شعبه أو مآل قطاع من القطاعات أو وضع جهة من الجهات ("ومن مذهبنا في الحكم، القائم على جعل النهوض بالأحوال الاجتماعية لمواطنينا، في صلب انشغالاتنا، سياسيا وميدانيا"¹؛ "أحرص على القيام بجولات تفقدية لمختلف أحيائها للوقوف على أوضاعها. كما أتابع مختلف البرامج والمشاريع الهادفة لتجاوز الاختلالات التي تعيشها"²؛ " أتذكر عندما كنت صغيرا أن والدي لم يقض بالرباط خلال إحدى السنوات سوى 18 يوما من أصل 365 يوما. لقد كان والدي رحمه الله يقول دائما إن "عرش العلويين على صهوات جيادهم" وأنا لا أنوي التخلي عن هذا التقليد. بالإضافة إلى ذلك، فأنا أريد أن أطلع على الأمور ميدانيا بنفسني وأن أقف على واقع بلادي. فمدينة أكادير مثلا تحظى بكل اهتمامي. ومن المهم عدم تركيز السياحة في مراكش لأن ذلك قد يؤدي إلى القضاء على مراكش وعلى السياحة في المغرب "³؛ " كيف يمكن تحقيق التنمية الشاملة وعالمنا القروي يتخبط في مشاكل تضطر سكانه إلى التخلي عن الأرض التي جعلها الله ذلولا للاستزراق منها والهجرة إلى المدن "⁴؛ "إذا كان المغرب قد عرف تطورا ملموسا، فإن الواقع يؤكد أن هذه الثروة لا يستفيد منها جميع المواطنين. ذلك أنني ألاحظ، خلال جولاتي التفقدية، بعض مظاهر الفقر والهشاشة، وحدة الفوارق الاجتماعية بين المغاربة"⁵.

فصاحب الجلالة طرح السؤال في إطار البحث الدائم " عن الفعالية والنجاعة، وعن أفضل السبل، ليستفيد جميع المغاربة من مختلف المنجزات، على حد سواء. فالتساؤل وإجراء هذه الوقفة مع الذات، لا يعني الشك أو التردد، أو عدم وضوح الرؤية. بل على العكس من ذلك، فطريقنا واضح، واختياراتنا مضبوطة. فنحن نعرف أنفسنا، ونعرف ماذا نريد، وإلى أين نسير "⁶.

1- من نص الخطاب الذي وجهه جلالته الملك إلى الأمة حول مشروع الدستور الجديد

2- من نص الخطاب الذي ألقاه جلالته الملك أفي افتتاح الدورة الأولى من السنة التشريعية الثالثة من الولاية التشريعية التاسعة

3- من نص الحديث الصحفي المطول الذي خص به جلالته الملك اسبوعية " باري ماتش " الفرنسية

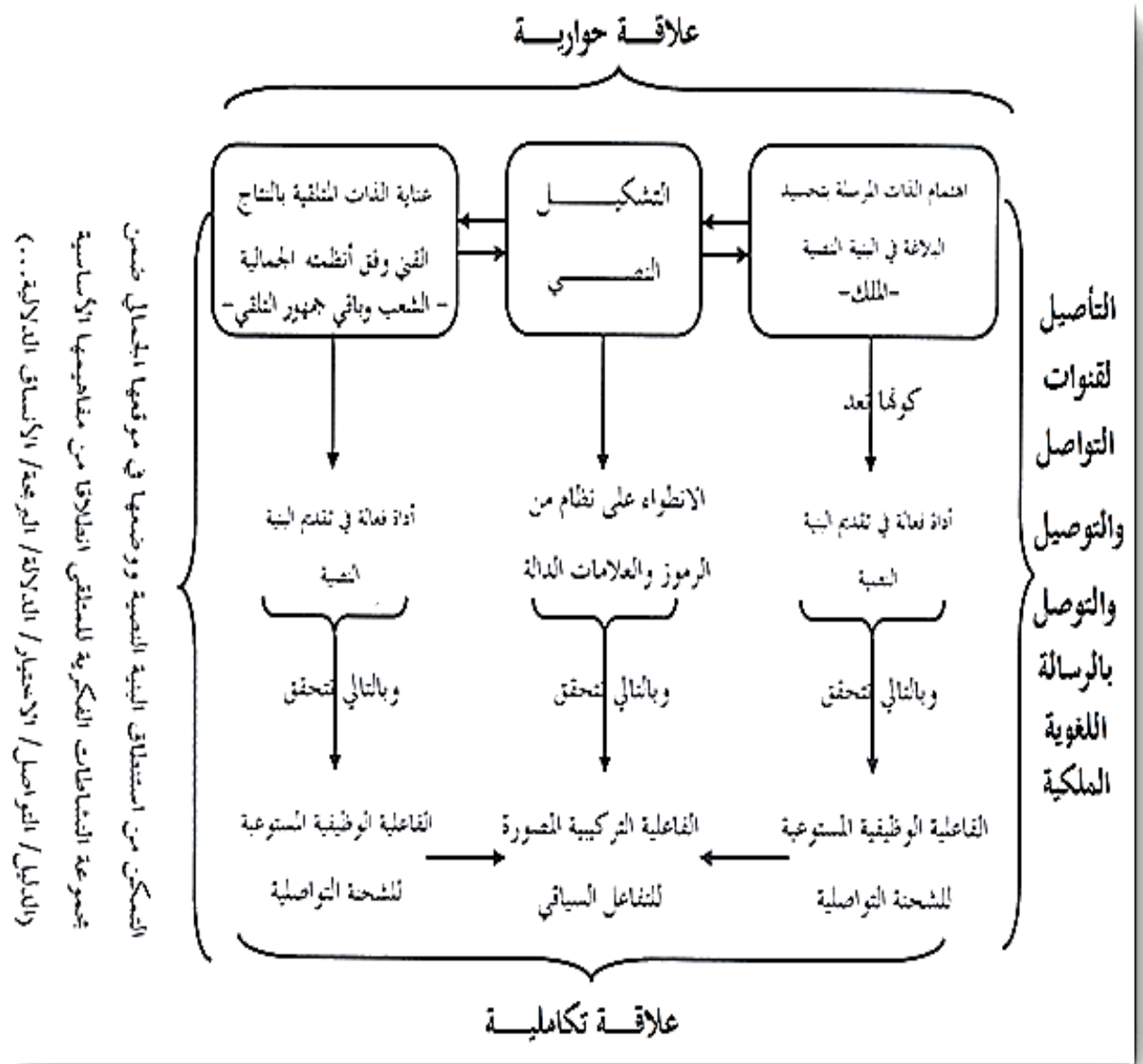
4- من خطاب صاحب الجلالة الملك محمد السادس بمناسبة الذكرى السادسة والأربعين لثورة الملك والشعب

5- من نص الخطاب الذي وجهه جلالته الملك بمناسبة الذكرى الخامسة عشرة لاعتلاء جلالته العرش (والمعروف بخطاب "أين الثروة؟)

6- نفس المرجع.

وفي خضم هذا الزخم التشكيلي والنسيج المركب للمعرفة المشتركة بالحال والتي يزيد العاهل فيها فضلا عن عموم شعبه بمعرفة ذاتية لعناصر الجواب عن سؤال المآل، ينطوى توصيف الملك للوضع -حتى في حالات قناتته- على قيمة فنية ذات الفاعلية الوظيفية مستوعبة لشحنات تواصلية تمتص الشحنات الإنفعالية وحرب الخطابات التي تنحو نحو المشاحنات والتخوين والقذف والتشهير وإثارة العير والنفير.

فالبنية الخطابية المولوية مشحونة بشحنات تواصلية تراعي التفاعل مع سياقات اجتماعية وثقافية وسياسية واقتصادية، محلية وإقليمية ودولية، والمتن النصي الملكي يتضمن مجمل العلاقات البنائية التي يجلوها تعبير لغوي يُعبر عن انشغالات الشعب بلسان العاهل الذي يحملها بعد رحيل والده، فرعى وراعى "جميع اللبنة التي وضعها جدنا المقدس وثبت كيانه ثم انطلق بها في مسيرات للتنشيد والتوحيد"¹، قبل أن يكمل الأوراش التي لم يكتب لها أن تكتمل على عهد والده الملك الراحل الحسن الثاني ويدشن أوراشا أخرى اعتبرت في رأي عموم شعبه علامات فارقة بصمت دخول مغرب العهد الجديد.



¹ - من نص الخطاب الملكي بمناسبة تخليد الذكرى السادسة والأربعين لثورة الملك والشعب

ترتبط البلاغة الملكية أيضا بذات وصفات جلالته كمتكلم يجيد الخوض في قضايا عموم شعبه وييسر له وضعه ويتيح له مستشاروه شروط الإعداد والاستعداد لتجويد منتوجه الخطابى، وبقدر اتصال البلاغة المذكورة بالبنية الكلامية، بنفس قدرة بنيتها النصية على تحقيق التفاعل مع العديد من السياقات التكاملية التي تجعل جمهور التلقي محاوراً متفاعلاً بدوره مع السياقات التواصلية لملكه، كما ورد بيان ذلك في الخطاطة أعلاه.

وقد لا أجافي الصواب إذا قلت بأن خطابات الملك تتسم بموسوعية لا نكاد نلفيها إلا متناثرة في بطون التقارير العلمية والأكاديمية المختصة، قبل أن ترد في متن الخطاب وفق مناويل معالجة وصياغة بسيطة لا تصل إلى التبسيط *simples sans être simplistes*.

فالخطابات الملكية تترجم بتكثيف مضامينها وموسوعيّتها زواجا بين المعرفة الذاتية بأحوال شعبه كما يعاينها صاحب الجلالة من خلال جولاته الميدانية الرسمية وجولاته الخاصة غير الرسمية¹ ومعرفة الآخر، من خلال التقارير التي ترفع للنظر السديد لجلالته، وما يتحصل لدى جلالته من معرفة يستقيها ديوانه من التقارير التي ترفع لقراءة جلالته وقراراته.

ويكفي التأمل في عموم الخطابات والرسائل الملكية للخروج بارتسام مؤداه أن حضور الملمح البلاغي بما يحتويه من دلالة فنية وجمالية تتفاعل مع الدلالة اللغوية، فتنفتح دوماً عن هذا التفاعل الإرهاصات الأولى للبناء النصي، ليكتمل صرح هذا البناء بتظافر معارف أخرى كعلوم التسيير والإدارة، والقانون الدولي العام والخاص، والسوسيولوجيا... حيث تردّ تلك الخطابات والرسائل الملكية بوعي كبير ورؤية تركيبية بلاغية وقيمة دلالية للدوال والمدلولات في صياغة الخطاب وتوجيه الرسالة والكتاب. كما يعتبر اللفظ والمعنى محورا البناء والبيئة النصية.

ويتم تجسيد العملية التواصلية بين الملك وشعبه لقضاء الحاجات وبلوغ المآرب وباقي جمهور تلقي خطاباته ورسائله من خلال تعبير بليغ ورؤية جمالية، والإفصاح عن المقصدية المحققة لوظيفة التشكيل البلاغي لعناصر الكلام أو إضمارها، فلا أسجل مبدئياً غياب انسجام أو تناسق بين عناصر الكلام البليغ في متون جلالته الخطابية، ولا أرى اضطراباً فيها ولا في الفعل التشكيلي لبنائها التركيبي.

❖ خامساً- التوظيفات النوعية للبلاغة الملكية

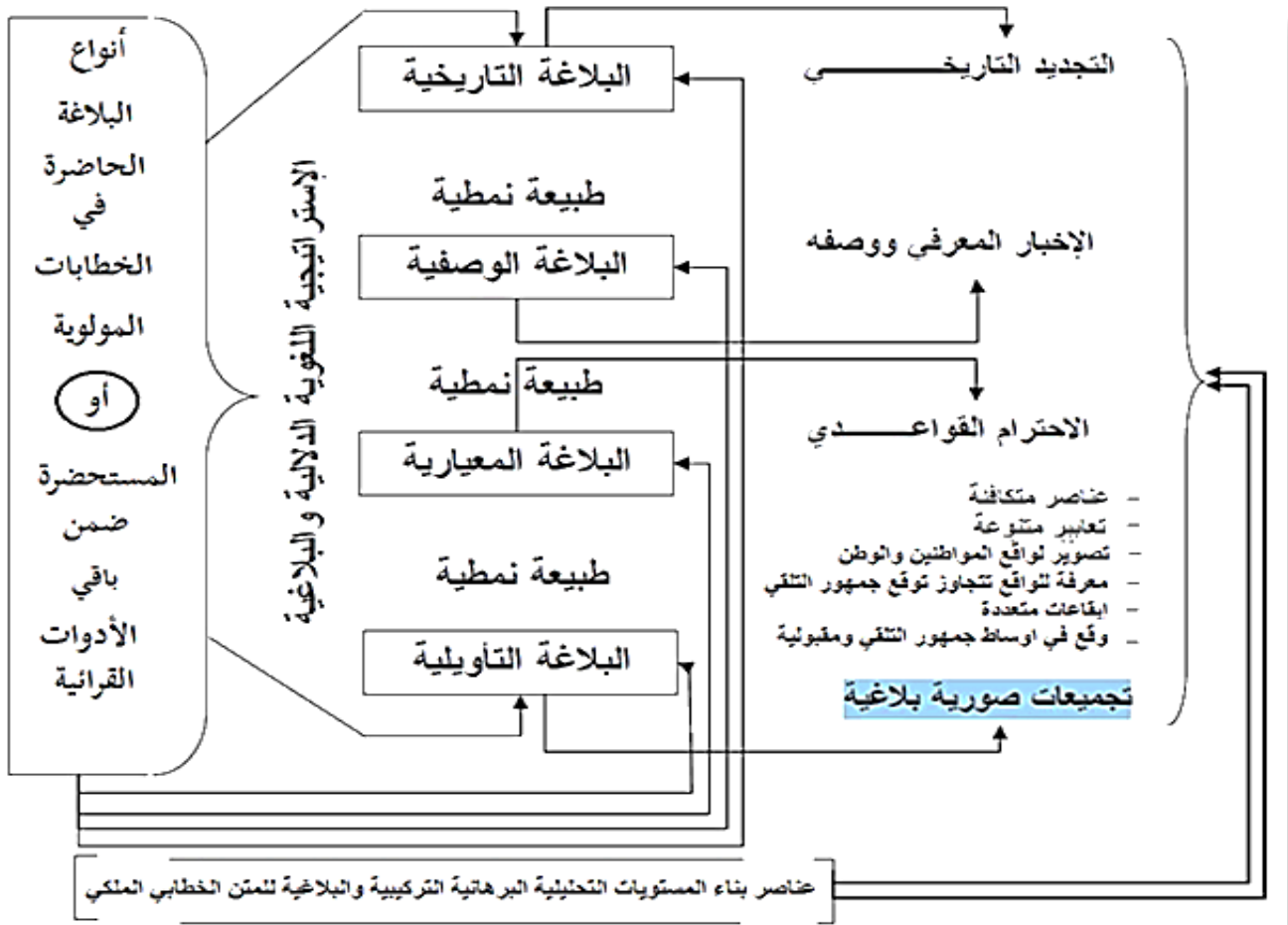
يحمل متن النسيج الخطابي الملكي ناطقاً مشتركة بين البلاغة والأسلوبية في سياق حركي يعكس حركية المؤسسة لاستباق مقدمات الحراك الجماهيري في العديد من المحطات، أو للحلول محل الجهة التي يجدر بها تلمس الحلول للمشاكل التي يعاينها قطاع وزاري معين وطنياً أو جهة ترابية بعينها لذا، يوظف جلالته بلاغة اللغة لتمرير بلاغة الفكر التدبيري الذي يظل على مركزيته في كل خطاب ملكي، لتتحصّر سلطة اللغة وتتحسّر قدرة البلاغة في التأليف والتركيب المتفاعل لتأسيس نسق المنجز الذهني المولوي وتقديم العناصر التي تُشكّله.

²- خاصة وأن صاحب الجلالة قد أعلن في إحدى حواراته الصحفية أن والده "لم يقض بالرباط خلال إحدى السنوات سوى 18 يوماً من أصل 365 يوماً"، فقد كان المغفور له يقول دائماً إن "عرش العلويين على صهوة جيادهم"، وصاحب الجلالة لا ينوي التخلي عن هذا التقليد كما سلف بيان ذلك واعرب عن رغبته في "أن أطلع على الأمور ميدانياً بنفسى وأن أقف على واقع بلادي"؛

وكان بمقدوري تبني نفس منطق التعامل مع الثنائيات (ثنائية البناء والتفكيك/الاختيار والتركيب) لأتعامل في هذا المستوى من الأطروحة مع ثنائية البلاغة والأسلوبية التي تتحرك داخل دائرة مقارنة النص مقارنة فعالة، تستكشف الأبعاد الدلالية المستندة على كل من الأفعال اللغوية والمجال اللغوي الذي تتحرك فيه، وكشف البناءات الأسلوبية وماتحملة من متغيرات تركيبية للصوت واللفظ والصورة، وبالتالي بحث أبعادها الأسلوبية والتعبيرية الحوارية والدلالية.

إلا أنني آثرت العذول الإرادي عن الخوض في هذه الثنائية كي لا أثني منهجيتي ومهجتي عن الالتزام بمنطوق العنوان الفرعي الذي تشير إليه الأطروحة.

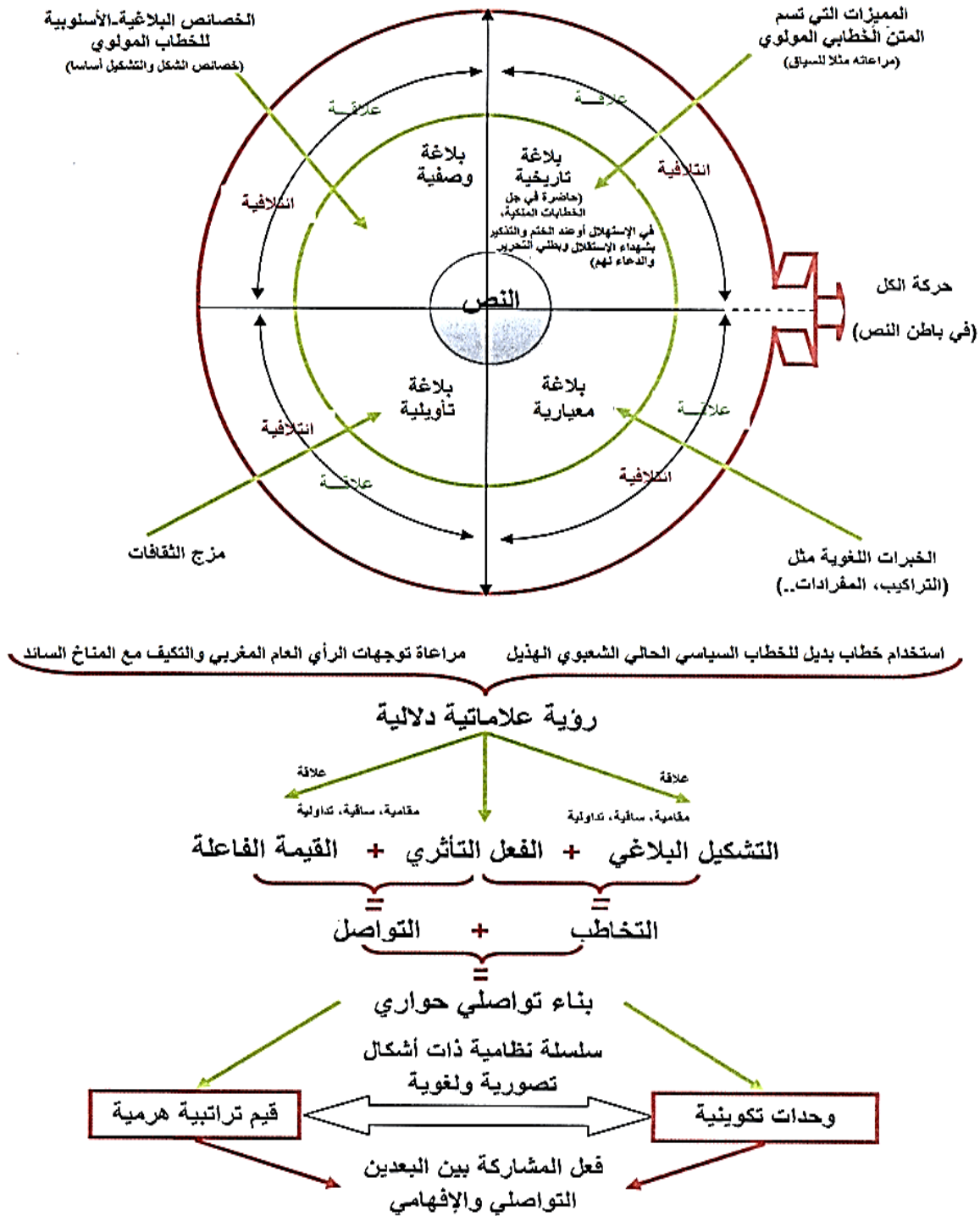
فبعد تدقيق النظر في العديد من الخطابات وافتحص بناها، توصلت إلى عدم جدوى التعامل مع ثنائية البلاغة والأسلوبية، ومحدودية مساحات الانفصال بينهما في النص الخطابي الملكي، حيث وردت فيه البلاغة على شكل أرضية تأسيسية لممارسة أسلوبية تظهر بين الفينة والآخرى في المتن الخطابي جلالة الملك على شكل قفشات إبداعية لا يمكن دراستها إلا من خلال الملمح البلاغي الذي يشكل نظامها وتنتقي منه إجراءاتها وتحدد ميكانيزماتها وفق معاييرها.



فالخرجات الأسلوبية الملكية تعتمد على قاعدة بلاغية لاستكشاف العلاقات الضمنية التي تسهم في تشكيل البناء النصي للخطاب الملكي باشتغالات لغوية لا تجعل أفانين الكلام هدفا بقدر ما ترد في سياق التحرير والتشكيل، حتى أن العلاقة بين المنجز الذهني والإمكانات الأسلوبية لا يمكن إدراكها في الخطاب الملكي إذا ما تم ربط تلك الإمكانات بالنية الكلية للمنجز (المتن الخطابي) وسياقه.

فمن خلال تتبع بعض العينات الخطابية الدالة على أنواع البلاغة، يتضح أن جلالاته يوظف فيها جميع تلك الأنواع التاريخية والوصفية والمعارية، والتأويلية، وذلك بصور متفاوتة، في خطابات انطوت على التنوع الفكري والتبصر المعرفي المرتبطين بالتوظيف البلاغي للغة مع مراعاة الوظيفة التأثيرية، التي تدعمها استعمالات ذكية للأنظمة الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية.

وتؤكد الترسيمية المولية بدورها حركية دورات مستويات التوظيف النوعي البلاغي في بعض خطابات جلالة الملك:



وأمام تعذر أو بالأحرى عدم جدوى الإمساك بطرفي الثنائية الكلاسيكية "الأسلوبية/البلاغة" لسطوة هذه الأخيرة، استعملت أدوات الإستقراء الاستخراجي والتصنيفي للمصنفات الخطابية الملكية بحثاً عن التشظيات النوعية الكائنة (والممكنة أيضاً) للإستعمال البلاغي في الخطاب الملكي، فخرجت برباعية بلاغية تجسدها مستويات أربعة لاستخدام الروابط الدلالية صيغت في سياقات عامة تتضمن نظاماً تركيبياً متسقاً.

1- أول ما تطالع به الخطابات الملكية جمهور التلقي (خاصة تلك التي ترد في مناسبات ذكرى ثورة الملك والشعب والمراسلات التي يوجهها على الدول الصديقة والشقيقة) بلاغة تاريخية، يمكن الإستناد عليها لفهم تاريخ البنيات النصية التي وردت في الخطابات التي سبق توجيهها على الأمة في نفس المناسبة، وتاريخ العلاقة مع قائد أو ملك الدولة التي وجهت إليها رسالة التهئة أو التعزية أو الشكر على حفاوة الإستقبال، والوضعيات التواصلية للملك، فضلاً عن توثيق الوضع العام الذي طبع مرحلة لم تعشها أو لم تفهمها أجيال بكاملها في إبانها، وطبيعة السياق الذي ورد فيه الخطاب والملفات التي كانت سبباً في توجيه الخطاب أو الرسالة الملكية السامية وأخضعت الملك وخطابه لمؤثرات معينة، ونوعية جمهور التلقي ومستويات تلقيه من خلال مستوى اللغة التي يُخاطب بها.

ورغم قصر المدة التي استقيت منها العينة الخطابية موضوع التحليل وقلة العينة التمثيلية للعينة المذكورة، قد وقفت على مستويات تكييف الأسلوب الخطابي الملكي مع العديد من السياقات التاريخية لكل مرحلة من مراحل عهده، وفهمت نسبياً طبيعة المحيط الاجتماعي الذي تفاعلت معه الخطابات أو كان يروم الفعل فيها والتفاعل معها، فكان الأسلوب يرد في نسق بلاغي لا يمكنه إلا أن يستقطب جمهور التلقي بفضل تحديدي لموقعها وموقع ما ورد فيها من حجاج بالنسبة إلى سياقات المطالبة السلمية وفترات الاحتجاج أو تعبيرات الإحتياج التي يلتقطها دلالاته من مصادره والتقارير التي تُرفع لقراء جلالته في ما يسمى بلغة الداخلية بـ "النشرة الإستعلاماتية اليومية" BRQ؛

2- أما بخصوص البلاغة الوصفية، فلم تكن حاضرة على وجه الإستعمال، ولكنها شكلت أدواتنا لوصف مكامن توظيف البلاغة في المتن الخطابي الملكي، مع ربط الآثار النصية المستخرجة ببعض خصوصيات بناء المتن المذكور، ومدى فاعلية تلك الخصوصيات وتوظيفها كشرط لتقويم أو لتحسين الأثر النصي، فضلاً عن وصف البناء الخطابي المستند على الجانبين اللغوي التركيبي، والارسالي والرسالي والجمالي، والمسارب التي ننفذ من خلالها إلى العلاقات المتشابهة بين اللغة والمعرفة في الخطاب الملكي، وبينهما وبين ما لها من طاقة تعبيرية تحقق التواصل مع الأنساق المعهودة وفق الواقع العملي. وبدل أن أصف تلك الآثار في الخطاب الملكي والخصوصيات البنائية له التي لا تنفصل عن مستوياته المألوفة (المتمثلة في المستوى الصوتي، والمستوى اللغوي، والمستوى التركيبي، والمستوى النصي ...)، اكتفيت ببعضها لعدم توفر العينة الصوتية ولاستحالة الإحاطة بمختلف المستويات في أطروحة أردت لها سقفاً محدداً وبناءً ممدداً.

3- ولتوسيع لائحة إمكانيات الأثر، لم أجد بُدّاً من تقني ملامح البلاغة الكلاسيكية المعيارية، دون الوقوف عند مستوياتها المدرسية، مؤثراً دراسة الاستراتيجية الخاصة بهذه البلاغة، والتي تقوم على التشكيل والبناء/التأليف والتركيب¹، وجميع ما يجسد فعل التفاعل الفعلي بين العناصر المكونة للخطابات المولوية كمجموعة لغوية تستدعي في دراستها الإنطلاق من قواعد بلاغية معيارية وقوانين ضمنية، وأصول مُسبقة لبناء النص.

¹ - ادريس قصوري، أسلوبية الرواية، قراءة أسلوبية لرواية زقاق المدق لنجيب محفوظ، ص. 13

فما أظنني حصّلته من معارف عن البلاغة المعيارية وقواعدها كان أداتي القرائية لمستوى احترام المتن الخطابي الملكي لجملة من الآليات والتي ينبني بفضلها الهيكل العام لبنيتها النصية، ومستويات عنايته بأصول اللغة ومعاييرها اعتباراً لدور وفعالية تلك المعايير في تشكّل النسيج البنائي بصورة تركيبية بلاغية تضيف على النسيج كل خطاب ملكي بُعدين: بعد لغوي-تركيبية وآخر قصدي-مقاصدي.

4- كما توسلت بأدوات البلاغة التأويلية لاتصالها بالمعاني المختلفة في البناء النصي ولربطها بين معالم نصية متناثرة كرونولوجيا وسياقيا في البنى النصية المتباعدة للعديد من الخطابات، مع النفاذ إلى خصيصة كل واحدة ومستويات ووضعيات تلقيها من طرف جمهور التلقي وإواليات تأويلها من طرف ذات الجمهور: فمتلقي البناء الخطابي الملكي يتعامل مع شذرات بلاغية تحضه على القراءة أو الإنصات للخطاب الملكي بعد إعجابه بخطاب ملكي سابق، ويصير فعل قراءتنا لسيكولوجية التلقي (التي سنفرد لها مبحثاً ضمن الفصل الرابع) أكبر من مجرد البحث عن المعاني التي يصادفها جمهور التلقي في الخطاب الملكي، فيتعداه إلى البحث عن مستويات التأثير الذي تتركه الخطابات وفق ما يشي به زُبُق بارومتر التأثير.

فتشكل البنية النصية للخطابات الملكية يحملها مسحة بلاغية تجعل جمهور التلقي يربط الصلة بين دلالات اللغة الموضوعية وفق صبغة جمالية خاصة، وذلك قصد "مراهنة المعنى/الدلالة، فلا تنفصل عمليتي الاستقبال/القراءة النصية عن الفرضيات الخاصة من خلالها تحويل وحدة لغوية إلى وحدة أخرى، والتحويل يفترض أنها تشترك مع الأولى في شيء من الدلالة بشكل من الأشكال، وتكتسي هذه العملية أشكالاً متعددة حسب المستوى الذي تبرز فيه، ونوع الخطاب الذي ترتاده"¹، وطبيعة هذا التحويل، علماً أن "التحويل يؤدي لا محالة إلى التأويل"².

وتفتح إمكانيات التأويل مسالك التفاعل مع المنتج الذهني المولوي في سياق معين تكون غايته الإحالة إلى دلالات بعينها، ولا تكون مفتوحة لا تنتهي إلى دلالة بعينها إلا في حالات محصورة عفا فيها جلالة الملك عن التصريح واكتفى بالتلميح كي لا يضع المؤسسة في موقع المجادل أو المقارع الذي يُناظر أشخاصاً أو جهات بعينها ("ورغم مناورات الحساد، فإننا حريصون على احترام ممارسة الحقوق والحريات... إننا لسنا ضد حرية التعبير، والنقد البناء، وإنما ضد العدمية والتكرار للوطن... ولمن لا يدرك معنى حب الوطن، ويحمد الله تعالى، على ما أعطاه لهذا البلد، أقول: تابعوا ما يقع في العديد من دول المنطقة، فإن في ذلك عبرة لمن يعتبر. أما المغرب فسيواصل طريقه بثقة للحاق بالدول الصاعدة")³.

فالدلالة تبقى وسيطاً بين جلالته وجمهور التلقي وما ينتظره، شريطة عدم تجاهل التناول البلاغي لكل من الدلالة الصادرة عن جلالته كذات مُنتجة للمتن الخطابي وجمهور التلقي كذات مستقبلية للخطاب الملكي ومقبلة على تقليب مضامينه وتأويل دلالاته.

وكانت البلاغة التأويلية سبيلي لكشف النسق البلاغي الأسلوبي الذي تأسست عليه تضاعيف البنية النصية الخطية لخطاب صاحب الجلالة، فوفرت بذلك سبل التناول الإجرائي لتفحص النظام البلاغي للخطاب الملكي وقنوات التشكيل والطاقات الكامنة وراء ما نعرفه عن مستويات استجابة الشعب المغربي للخطاب الملكي من منطلق استجابة هذا الأخير للإنعظارات واستجابته للعلاقات البادية بين العلامات والمدلولات.

¹ - دافيد جاسير، مقدمة في الهيروميتوطيقا، ترجمة وجيه قانصو، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2007، ص. 22.

² - Charaudeau (Patrick), Langage et discours, Éléments de sémio-linguistique (Théorie et pratique), Edition Hachette, Paris, 1983, p.35.

³ - نص الخطاب الذي ألقاه جلالة الملك محمد السادس في افتتاح الدورة الأولى من السنة التشريعية الرابعة من الولاية التشريعية التاسعة.

كما أتاحت لي البلاغة التأويلية إمكانية وصف صور بلاغية في الخطابات الملكية تتخذ من فعل القراءة محور ارتكاز لها لتنفذ على مستويات التلقي، متخذة من نسق الصور البلاغية خطوة من خطواتها الجوهرية ونقطة انطلاق لها كي لا يعرف مسارنا تيهها عن الوجهة البلاغية التي ارتضتها بمعية مشرفي الجليل للبحث في التركيبة البلاغية التأويلية للدالة.

وما توظيف الألوان البلاغية الأربعة المذكورة (سواء لكتابة الخطاب الملكي أو لفحصه وقراءته) إلا إثراء لما قلته عن الفاعلية البلاغية الخطابية للمتن الملكي، وتأكيد لدور البلاغة من وراء حُجُب التبليغ في ربط وتمتين عرى اتصال لا انفصام له ولا انفصال مع المتلقي، وإحداث تفاعل حركي دينامي في أغلب السياقات والمقامات وذلك بين الملك (كمرسل للرسالة اللغوية) والشعب، أو بين الملك وباقي ملوك ورؤساء وقادة الدول بوصفهم جمهور تلقي للخطاب أو الرسالة الملكية التي تجتمع فيها إحدى الأنواع الأربعة من البلاغة، أو ترد على شكل تركيبة بلاغية متكافئة الصيغ والمكونات والعناصر الداخلية، ذات وظيفة حوارية مع جمهور التلقي، تحقق فاعلية أكبر بفضل التظافر الفعلي بين الأنواع الثلاثة (التاريخية، الوصفية والمعيارية) لتشكيل حقلا لصياغة فكر خطابي ملكي تحليلي-برهاني- بلاغي متراص البناء وقائم اللبنة.

ورُب سائل يسأل لماذا تغيب عن هذه الثلاثية البلاغية ضلعها الرابع (البلاغة التأويلية)؟

هذ اللون البلاغي يبقى بين يدي جمهور التلقي الذي يقرأ، ليقف عند عتبة النص أو يحيل ويُحال على نصوص أخرى، فيُحوّل ويؤوّل ("وهي أيضا سنة استكمال البناء السياسي والمؤسسي، الذي وطد المكاسب الاقتصادية والاجتماعية، التي حققها المغرب، في مختلف المجالات، والتي سبق عرضها في خطابي العرش و20 غشت... ندعو المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، لإعادة النظر في منظور ومضمون الإصلاح، وفي المقاربات المعتمدة، وخاصة من خلال الانقلاب على القضايا الجوهرية، التي سبق أن حددناها، في خطاب 20 غشت للسنة الماضية"¹؛ "فمكانة المؤسسات تقاس بمدى قيامها بمهامها وخدمتها لمصالح المواطنين. وفي هذا الإطار، نجدد الدعوة للإسراع بانتخاب أعضاء المحكمة الدستورية الذين يخول الدستور صلاحية تعيينهم لمجلسي البرلمان حتى يتسنى تنصيبها في أقرب الآجال. وهو ما سبق أن دعونا إليه في خطاب السنة الماضية"²؛ "كما أنني ملك لكل الهيئات السياسية دون تمييز أو استثناء. وكما قلت في خطاب سابق، فالحزب الوحيد الذي أعترز بالانتماء إليه هو المغرب"³.

فهذا الخطاب الأخير والخطاب الذي يحيل عليه جاء في سياق اقتراب موعد الانتخابات التشريعية المغربية، ما اتصف به المشهد السياسي المغربي من حركية وتصريحات نارية تخرج عن هذا أو ذاك، ومحاولات البعض إقحام الملك في خطباتهم "غير السليمة"، وفق خط خطابي ديمagogي تشكيكي في حياد المؤسسة أو على الأقل محاولات استثمار سطوتها الرمزية من طرف البعض والاستعمال المضاد لهذا الإقحام في إطار خطة تهدف إلى "إبتزاز" و"مقايضة الدولة" على البقاء في الحكومة.

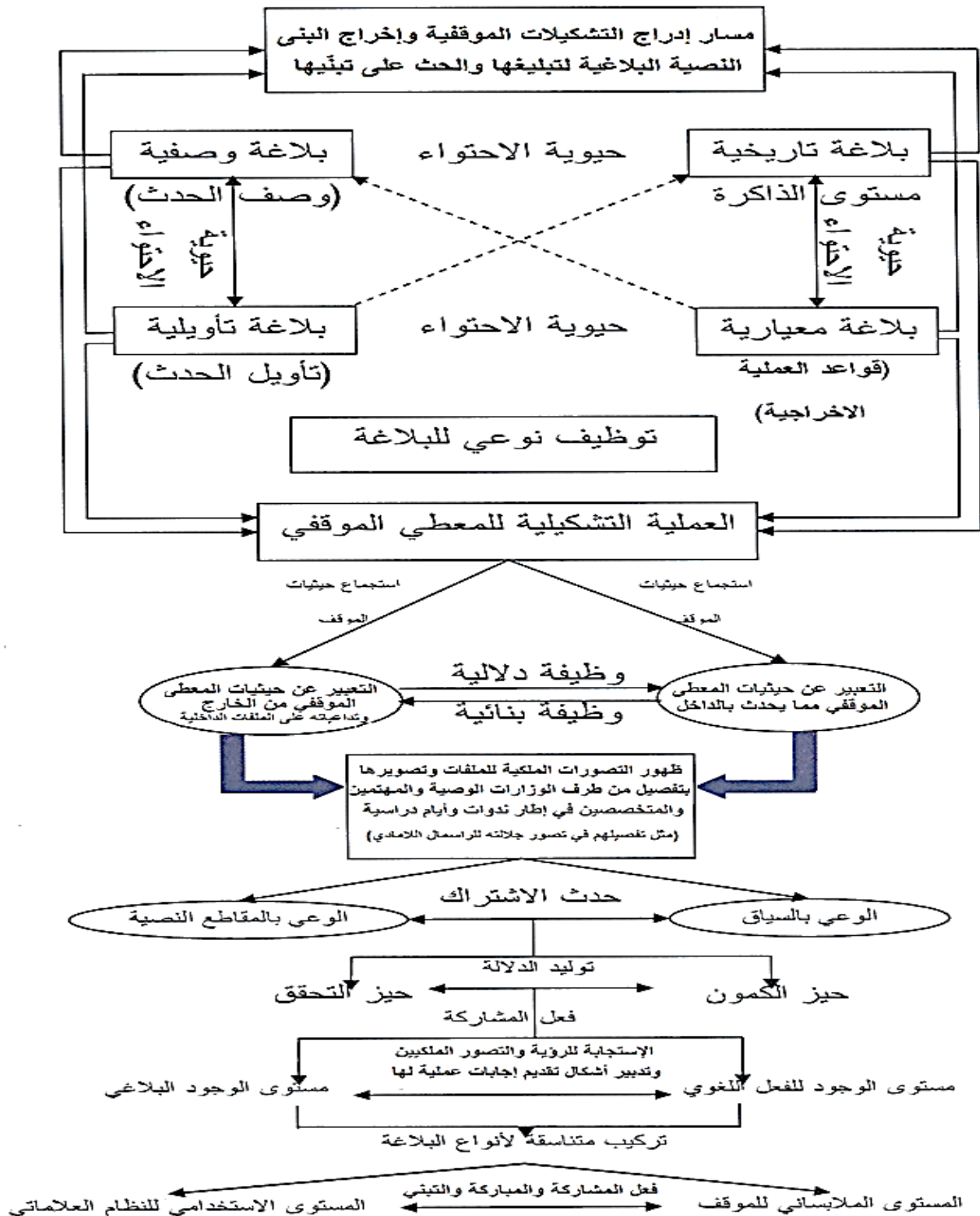
كما صادفت فيه حرصا على ربط السياقات والمقاطع النصية ببعضها البعض، وعيا منه بضرورة اشتغال النص الخطابي الذي يقدمه على نقل يوميات جمهور التلقي بشأن ما سُمي بـ "حزب الملك".

¹ - نص خطاب جلالة الملك الإفتتاحي للدورة الأولى من السنة التشريعية الرابعة من الولاية التشريعية التاسعة

² - نص خطاب جلالة الملك الإفتتاحي للدورة الأولى من السنة التشريعية الخامسة من الولاية التشريعية التاسعة

³ - من نص الخطاب النص السامي الذي وجهه صاحب الجلالة إلى الأمة بمناسبة الذكرى 17 لعيد العرش المجيد

هذا النقل الذي يُترجم فهما لواقع الجمهور المعاش يتم وفق أطر بلاغية واسترجاع النص لصور تصور واقع القطاعات التي يشتكي الشعب من تردي خدماتها، وبنفس حرص جلالته على إخراج البنى النصية البلاغية المنتظمة التي لا تتفصل عن كموناتها الدلالية لنقلها من حيز الكمون إلى حيز التحقق قصد توليد الدلالة، بقدر حرصه على إخراج العديد من المشاريع والمبادرات والخدمات من حيز السكونية إلى دائرة الحركة والتفعيل، محققا بذلك مأرب العبور من مستوى الوجود بالفعل اللغوي إلى مستوى الوجود البلاغي على مستوى اللغة، مستوى التنظير والتصور إلى مستوى التحقيق وتشكل الصورة بناء وإنجازا.



فمن خلال تتبع بعض العينات الخطابية الدالة على أنواع البلاغة، يتضح أنه يُوظف فيها جميع تلك الأنواع التاريخية والوصفية والمعارية، وحتى التأويلية، وذلك بصور متفاوتة، في خطابات انطوت على التنوع الفكري والتبصر المعرفي المرتبطين بالتوظيف البلاغي للغة، مع مراعاة الوظيفة التأثيرية التي تدعمها استعمالات ذكية للأنظمة الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية.

إلا أن ما أوردته بشأن البلاغة التاريخية في مستهل الخطاب أو في مرحلة الختم والدعاء في معظم مكونات المدونة الخطابية للملك لا يعني البتة أن الخطاب الملكي يكتسب خصيصة الوثيقة التاريخية لمؤرخ أكثر مما يحمل خصيصة الخطاب السياسي الإقناعي الذي له وثوقية تتجاوز مجرد التأريخ والتوثيق، وفق صياغة متميزة بثرائها وبلاغتها وسموها، وقوة سلطانها، وسلاسة انتقالاتها باللغة ومن خلال اللغة من الوظيفة الذهنية أو العقلية إلى الوظيفة الانفعالية، حيث يجسد كل خطاب تعاطيا معرفيا مع جميع الأنواع البلاغية وتوظيفها في سياقات معلومة تؤكد وظيفة المطابقة للحدث أو وظيفة الإيحاء به والتنبؤ بتداعياته.

وفي العديد من محطات المدونة الخطابية لصاحب الجلالة، يمكن مصادفة تشكيلات بلاغية لم نألفها إلا في خطابه، وردت بأسلوب بلاغي أسس عليه مخططه البنائي، كما تجسد ذلك الترسيم أعلاه بأبنيتها التركيبية ذات الفاعلية الدلالية، التي تركز على توظيف الأدوات والآليات اللغوية، بوصفها تُستثمر وفق إستراتيجية خطابية مُميزة وغائية، لتؤمّن لنا بمدى مهارة ودُرْبة العرش وكتبته في استملاك الملفات الجماهيرية لمغاربة الداخل والخارج، مع امتلاكهم قدرة خارقة على التشكيل والقيام بالعديد من العمليات الذهنية وكفاءة إخراجية بلاغية لا تُتاح لباقي كتبة الدواوين السياسية لإنتاج الخطاب المناسب للسياق الأنسب.

كما توحى بكل ما تنطوي عليه من استخدام للميكانيزمات السياقية، ومحاولة بلورتها في خطاب لغوي لا لغو فيه، وقوة إنجازية حرفية تتمثل في الإخبار غير المنفصل عن أعمال الذهن، والمتصل بضرورات مراعاة بعض آليات الإستراتيجية الإبداعية وشروط التوظيف الأمثل للبعد الثقافي، والمعارف والمرجعيات الفكرية المشتركة والشحنات العاطفية التي تكفل انسياق الجماهير وخروجها عن بكرة أبيها منذ الساعات الأولى للصباح لتحياي مَقْدَم صاحب الجلالة (كما كان يحلو للصحفي مصطفى العلوي أن يعلق لوصف الإقبال الجماهيري لاستقبال الملك الراحل الحسن الثاني) أو تحلقها حول التلفاز للإنصات لخطب وارث سِرِه.

فما ميّز العهد الخطابي للملك محمد السادس مقارنة بأبيه وباقي خطباء الساحة السياسية هو تبنيه لمسار أفق بلاغي تجديدي يتغذى على قيم الاحتكاك والتفاعل مع الشارع، وبالتالي تتفاعل في خطابه أنواع البلاغة (البلاغة التاريخية، البلاغة الوصفية، البلاغة المعيارية، البلاغة التأويلية)، مع توظيف معطيات كل نوع من هذه الأنواع لمواكبة ملمح التكتيف المضاميني بمختلف حقوله وأبنيته الدلالية، من خلال محاور ثلاث:

- ويتمثل الأول في محور تقنية الشكل البلاغي المنجز في متن الخطاب الملكي؛

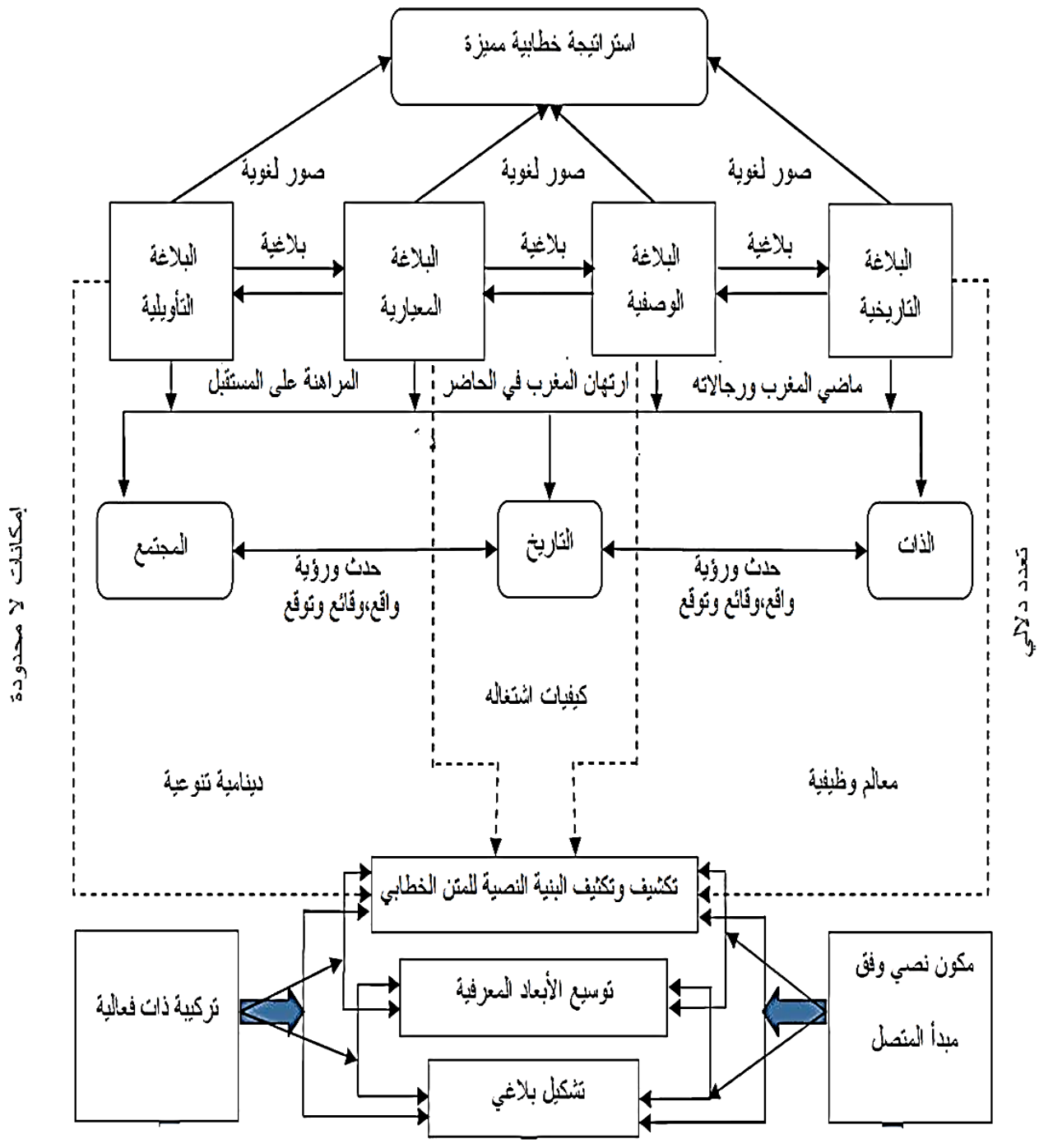
- فيما يتعلق الثاني بمحور كيفية تشكل الدلالات اللغوية وأبنيتها التركيبية في حيز الامتداد النوعي للشكل البلاغي؛

- أما الثالث فيظهر لنا في محور الدلالات التي ينتجها الشكل البلاغي في بنية تشكيل البناء

الخطابي.

فالاستراتيجية البلاغية الملكية تنطلق في هذا السياق من طابعها الوصفي لحدث ما أو واقع ما أو واقعة أو طابعها التاريخي أو بلاغة تأويلية لنفس الوقائع وملابساتها (المستوى الملابساتي) لصوغ السياق الموقفي والدفع نحو تبنيه من طرف باقي مستويات المسؤولية.

كما أن ما يُميز صاحب الجلالة وينعكس على خطاباته وفيها هو حضور تلك الثقافة الإنسانية المشحونة بمجهود الدفع نحو تبني باقي المسؤولين المؤسستيين وتعاطيهم بمسؤولية مع المعطيات الموقفية ليساهم الجميع، كل من موقعه في تغيير موقف أو طبيعة أداء القائم على قطاع ما، ومن ورائه رؤوسيه لمهامهم، أو ترتيب أولويات قطاع أو التشريع في اتجاه تحويل المواقف التي وجه نحوها جلالة الملك في خطابه إلى خطاطات وتصريفها إلى أشكال إنتاجية ومشاريع وأفعال.



ما سبق بيانه بشأن **البلاغة التاريخية**¹ لا يعني البتة أن الخطاب الملكي يكتسب خصيصة الوثيقة التاريخية لمؤرخ، بقدر ما يحوز تعددا دلاليا وخصيصة الوثيقة السياسية الإقناعية ذات وثوقية تتجاوز مجرد التأريخ والتوثيق، وفق صياغة متميزة بثرائها وبلاغتها وسموها، وقوة سلطانها، وسلاسة انتقالاتها باللغة ومن خلال اللغة من الوظيفة الذهنية أو العقلية إلى الوظيفة الانفعالية، حيث يُجسد لنا كل خطاب تعاطيا معرفيا مع جميع الأنواع البلاغية، لتوظيفها في سياقات معلومة تؤكد وظيفة المطابقة للحدث أو وظيفة الإحياء به أو التنبؤ بتداعياته ("نؤكد أن اكتشافنا للنفت بقدر ما يعني تحول المغرب من بلد مستورد لجميع حاجياته منه إلى بلد تزخر أرضه المعطاء بهذه المادة الحيوية، فإنه لا يعني بتاتا تحول المغرب إلى بلد بترولي ذي اقتصاد ريعي مورده الأساسي والأوحد هو ثروته النفطي"; "وقلت ليه دابا أسيدنا لا كنتي هابط للمدينة تصلي، وقالوا ليك راه مليون ديال الناس واقفين في الطريق، 800 ألف غادين يقولوا يحيا الملك و200 ألف غادي يصفروا؟ قال لي أخويا ما نهبطش، هاديك إلى كانت وقت قلة الحياء وقتك هاديك").

❖ سادسا- توارى صيغ البلاغة المستبدة ومصادر المصادرة

تتضمن صناعة البلاغة العربية جملا متداولة، راسخة وأبدية سرمدية لا تقدم لمستعملها أية مزية غير تمطيط الخطاب وحشوه.

ويشيع استخدامها بين الخاصة من الكتاب والعامة من الكتبة، وتسمى "جملا استهلاكية"، يفتتح بها الحديث أو الخطاب بالفصحى، سواء كان مكتوبا أو شفاهيا ويضمناها.

باستقراء وفحص المدونة الخطابية لصاحب الجلالة من إلفها إلى يائها، ألفت غيابا لهذه الصيغ التي كشفت عن تعارضها مع ما أسعى إليه من اقرار بحق الآخر في الاختلاف، والتأكيد على حرية الانسان، وحقه الطبيعي في إبداء رأيه، والتعبير عن مواقفه، واختياراته، الممثلة في الرفض أو القبول، النقض أو الإقرار.

هذه الجمل ليست مقتصرة على فقهاء اللغة، أو دارسيها الأكاديميين فقط، بل تنتشر بشكل واضح في كل أشكال الكتابة النثرية، وفي كل المنابر والوسائل الناقلة للخطاب المعرفي والاعلامي، ومن قبل كل اصحاب القلم: فأجدها عند الصحفي المحترف والمنحرف، عند السياسي الملتمزم وكذا عند السياسي المرتزق بنضاله.

في هذا السياق، سأتناول بعض الجمل الاستهلاكية لمحاولة الكشف عن مضمونها التعسفي ودلالاتها اللغوية والاجتماعية. وسوف أعتمد أساسا على التفسير المعجمي -حيث أبدت الكلمة- وعلى التأثير الایمائي لصفحتها ومعناها، والتي بحثت عنها ولم أجد لها أرضا تأويها في الخطاب الملكي.

وسأبدأ بهذه الفقرة كمثال:

"ومما لاشك فيه أن هذه السياسة التي نسلوها تعتنى بالممارسة وستعطي حتما النتائج المتوخاة منها. وهنا أغتنم الفرصة للتذكير بأن أبواب المغرب مفتوحة في وجه أبنائه أينما كانوا ليساهموا في معركة التنمية والتحديث والديمقراطية ونجد نداء والدنا تغمد الله بواسع رحمته إلى المغرر بهم "إن الوطن غفور رحيم"²: فلو استثنيت هذه الصيغة الإستهلاكية، لوجدت بالمقابل غياب صيغ "ولا ريب أن"، و"لا جدال"،

¹ - في مستهل الخطاب أو في مرحلة الختم والدعاء في معظم مكونات المدونة الخطابية للملك
² - من نص الخطاب الملكي الموجه إلى الأمة بمناسبة الذكرى الرابعة والعشرون للمسيرة الخضراء المظفرة

"لا يمكن إلا أن تكون"، باستثناء استعمالين إثنيين في مجموع المدونة الخطابية العينية للأطروحة: "وإذا كان من المؤكد أن يصادف المرء في الشارع نساء يرتدين الحجاب ورجالا ملتحين فإن ذلك ليس بالأمر الجديد أو الغريب بالمغرب الذي فضل على الدوام التسامح تجاه الآخر"¹... "المؤكد لانخراطهم في توجهنا الوطني، لتدبير شؤونهم المحلية"².

بالمقابل، تحضر هذه الصيغ وعدد من الجمل الاستهلالية الجاهزة التي يدشن بها صاغة ومرتلو الخطاب السياسي كل فقرات خطابهم، ويتداولونها كما يتداولها يوميا الوسط المعرفي والاعلامي، وتتضمن جملا لا تختلف في جاهزيتها ودلالاتها عن الأولى، لكنها تمر على القارئ وتمرر دون أن يعي تأثيرها الايمائي الخفي بحكم التعود والتداول.

لكن المتأمل لهذه الجمل سيلاحظ أن (مما لا شك فيه)، (ولا ريب أن...)، (ولا جدال في أن...)، (ومن المؤكد...) (ولا يمكن إلا أن تكون...) تتضمن معنى جائرا يستلزم حق الآخر (القارئ، المستمع) في الاختلاف، فضلا عن غيرها من الصيغ المؤكدة للمصادرة والالغاء أو التي تشي ضمنا بهما: فهذه الإستهلالات قطعت سلفا بعدم امكانية الشك في قول صاحب الجلالة، وأكدت منذ فاتحة الكلام على أن هذا الموضوع هو من الموضوعات التي لا تحتل الشك.

وتطفح التمرينات والتمريرات السياسية بجمل استهلالية من هذا القبيل على رأس كل فقرة، وتتبعها في جسد الفقرة صيغ تماثلها في الدلالة والتضمين وتفيد تأكيد إحكام السيطرة على القارئ/المتلقي، فلا يحتكم إلا إلى رأي الخطيب السياسي.

بهذه الصيغ الجاهزة، تتم إحالة القارئ دون وعي منه (وتارة دون وعي مفترض من جه الخطيب نفسه) الى حالتين متلازمتين: التصديق التام للقول، والكف عن التفكير في صحته أو عدم صحته أو وضعه موضع النقد والتحليل.

بهذا الشكل، يتم أيضا قطع محاولة التشكيك أو حتى إرهابات التفكير التي قد يجرؤ عليها القارئ/جمهور التلقي في "حق" المتن الكلامي للخطيب، من خلال استعمال هذا الأخير بحنكة ودهاء جملة بسيطة في تركيبها اللغوي، ومألوفة في تداولها الى الحد الذي تبدو معه انها لا تعني شيئا على الاطلاق، او انها مجرد صيغة من صيغ اللغة او قوالها، اعتاد الناس استعمالها دون الاهتمام بما تتضمنه دلالتها وايحاؤها الخفي، وما يكمن وراءه من تعسف.

سواء استهل ورش الكتابة أو الخطاب المسموع بمثل هذه الجمل او جعلتها ضمن متن النص فان دلالتها لا تتغير، فهي صيغة ثابتة، ذات دلالة ثابتة، بسبب ما تولده الكلمات والاشارات المكونة لها من علاقات تعبيرية ذات محتوى اجتماعي وسياسي، إذ أن صيغا كهذه تحيل المستمع والقارئ الى مصدر مجهول وجمعي، وهو في مجهوليته وجمعه، يصير غير قابل للطعن من جهة ويهيئ القارئ للتسليم بمصداقية الموضوع: فبمجرد استخدامه لهذه الجمل، فكأنه يقول ضمنا للقارئ أو مجتمع التلقي أن الموضوع الذي سوف يتحدث فيه من الموضوعات التي تعتبر من قبيل المسلمات، وليؤمن بها وليؤمن لها سبل السمع والطاعة، كما لو أن الامر والرأي رأي رسول معصوم من الخطأ والخطيئة، وحائز لأمر الله باتباعه، كما حازه سيد الخلق وإمام الحق صلى الله عليه وسلم بأمر من خالقه ﷻ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما.

² - مقتطف من الحديث الصحفي الذي خص به جلالتة مجلة "تايمز" الامريكية

³ - من خطاب ألقاه جلالة الملك بمناسبة افتتاح السنة التشريعية 2003-2004

أليس هذا ما توحى به مثل هذه الصيغ حين نقرأها في بداية أي موضوع أو في تضاعيفه؟

تلك الصيغ تُسقط في لاوعي المخاطب نوعاً من الرهبة الخفية التي تشكل سياجاً شائكاً يحول دون تمعُّنه في الموضوع المطروح وتحليله أو نقده؟ لكن، ألا تبدو هذه الصيغ والجمال كما لو أنها صيغة تهديد، تشبه ديباجة فرمان والنص القانوني والسلطة الكامنة خلفه، وإلا فمن هم أولئك الذين لم يشكوا في كلام لم نعرف بعد مضمونه وأبعاده؟

ليست تلك الجملة التي وردت في الفقرة السابقة هي وحدها ما تحفل به سجلات التوثيق الخطابى الملكى والسياسى عموماً في سياق اللغة المتداولة، بل هناك عدداً من الجملة والصيغ المتشابهة والمتضمنة لنفس الدلالات، مع اختلافات طفيفة ولدها العصر وحركة التجديد وأساليب التعبير، منها (مما لا يختلف عليه اثنان / مما لا غبار عليه / لا محالة / من المسلم به / مما لا جدال فيه / لا بد أنكم تتفقون معي / لا خلاف على أن / لا يمارئ أحد / لا غرو أن.... وغيرها).

تكشف دلالات هذه الصيغ مجتمعة عن روح خفية تسعى إلى مصادرة حق الآخر مسبقاً، ورفض الاختلاف مع الخطاب المطروح، كما تفرض ضمناً ونفسياً على الآخر الأخذ بالخطاب على علاته، إلى حد تمثله دون انتقاء أو اختيار أو مجادلة.

وبالرغم من شيوع فكرة الحرية، وذبوع حق الآخر في الاختلاف والرأي المعاكس، ودعوات التجديد، والتطوير، والتنوير بين الدعاة والمثقفين والمفكرين، إلا أنه يلاحظ أن قوالب اللغة وصيغ البلاغة التي يستخدمها الساسة في خطابهم الداعي لم يتم النظر فيها على الأقل، وكأن اللغة شيء، والموقف والوعي شيء آخر.

ما يمكن أن يؤكد صحة هذا الاستنتاج أو بطلانه هو استقرار دلالي يعتمد التأمل فيما توحى به اللغة والمفردات حين استخدامها لها أثناء الكتابة، كلغة سائدة، ووسيلة تعبير وإيصال، ثم علاقتنا باللغة أثناء القراءة، كوسيلة تلق وتكوين معرفة، وهي محاولة تفسير تستعير من المعجم تفسيره ومن علم النفس إحياءه.

- "مما لا شك فيه": "مما" تفيد التبعية/ التعليل/ التفضيل؛ "ما" تفيد الإبهام / أي شيء/ أمر من الأمور؛ "لا" نافية / ونهاية تفيد الرفض أو المنع؛ "شك": تفيد الريبة / الالتباس / وتفيد خلاف اليقين؛ أما "فيه"، فتفيد معنى حوله / عنه / مضمونه / وتشير إلى موضوع الخطاب؛

- "أن هذه السياسية": هذا موضوع من الموضوعات التي لم يشك بها أحد/ صدّقها/ آمن بها

الجميع؛

- "تغتني بالممارسة"، وفي ذلك رفض ضمني للشك في الموضوع المطروح/ فرض التصديق بمقولة اغتناء السياسة المتبعة بفضل الممارسة ولنضرب صفحاً عن السياسات الأخرى التي لم تورث سوى الفقر والتفكير، على مستوى الخطاب أو الممارسة أو التداعيات؛

- "لا محالة": "لا" وردت لنفي/ النهي/ والنقض؛ أما "محالة" فهي جمع محال /، ماحل محالاً، ومماحلة: كأيده، مأكراً، جادله، تماحل القوم: تجادلوا، ودلالاتها أنه لم يتجادل أحد أو يماحل حول الموضوع؛ والإيحاء: منع الجدل والمكايدة حول هذا الموضوع؛

- "لا ريب أن": فالريبة شك وظن وتوجس؛

- "مما لا يختلف عليه اثنان"، من يختلفان، لا يتفقان، ولا يقبله اثنان: كأدنى حد من الجماعة وتحقق الإجماع؛

- "لا مُراء أن"، فالمراء مستند من ماري مراء وممارة، أي جادل ونازع ولاجّ (بتشديد الجيم)/ والمربية هي الشك في الامر، فيتحصل من حاصل التأصيل القاموسي أنه لا جدال أو نزاع أو ملاجة حول هذا الموضوع / الرأي/ الخطاب المطروح؛

- "مما لا جدال فيه"، فالمجادلة مخاصمه، بل هو شدة الخصومة/ مع مهارة في الخصومة، وعند معشر المناطق، تقوم المجادلة على القياس المؤلف من مقدمات مشهورة أو مسلم بها، أي قياس مفيد لتصديق، لا تعتبر فيه الحقيقة أو عدمها، بل عموم الاعتراف والتسليم، والفرص منه الزام الخصم وإفحام من هو قاصر عن مقدمات البرهان، لان الموضوع/ الرأي/ الخطاب لا يحتاج أصلا إلى المجادلة والبراهين والاختصاص بشأنه أو البحث عن البراهين التي تناقض الخطاب أو تقديمها أصلا؛

- "من المسلم به": سلم بالأمر، أي رضي به، ثم سلم بصحته وناقده وراءه؛

- "لا مندوحة": "لا" للنفي، "المندوحة" والمنتدح تنصرف إلى السعة والفسحة، يقال (لك عن الامر مندوحة أو منتدح) أي يمكنك تركه والميل عنه.

- "من المؤكد أن": "من" تفيد التبعية / التعليل / التفضيل، "المؤكد"، من أكد الشيء أي قرره، والاكيد هو الثابت، وترد في هكذا صيغة لاستهلال فقرات الخطاب للدلالة على ما قرر وتقرر سلفا وثبتت صحته، فيمنع بذلك التحليل ويحظر التشكيك.

فالإيحاء في علم النفس يحيل على منع التساؤل والبحث عن التفسير.

إن الجمل الاستهلاكية التي عرّضت لها باقتضاب وألفيتها متفرقة في المتن الخطابي للملك محمد السادس وأبيه وجده، لا يبدأ بها الخطاب فقط، بل تتوزع في متن النص، وتبدأ بها أغلب فقراته. وحيث إنها استهلاكية، فإن الموضوع لم يطرح بعد، والقارئ أو المستمع لم يعرف فحوى الخطاب بعد.

فهي إذن تقوم بمصادرة مسبقة لحقه في الجدل والاختلاف، وتهيئة نفسيا للقبول والاذعان، إذ تُسقط في وعيه الخوف من طرح وجهة نظر مغايرة، مناقضة، ومختلفة، في موضوع الخطاب، ذلك الخوف يترسب عبر تراكم الازمنة والتكرار شخصي.

وحتى إذا تجاوز المرء الخوف بتأثير الثقافة وخصائص الشخصية ويقظة الوعي، فإن وجهة نظره سيشوبها الحذر والتردد، والارتباك والتوجس.

بتحسّس سبيل جمل وصيغ وردت في الخطابات السياسية بقدر من المداهنة والتماهي، وجدت ان هناك خطابات تبدأ هكذا: "لا بد انكم ترون معي.." أو "لا بد انكم تتفقون معي" أو "كما لا يخفى عليكم" أو "من البديهي أن.."، "كلنا نعلم، ومن منا لا يعلم" أو حتى تعبير "وليس" غير بعازب عن ذهنكم¹، وغيرها من الصيغ التي تفيد أن الخطيب أو الكاتب يقول للمتلقي/ القارئ "إن الرأي الذي أطرحه، هو رأيك أيضا، لذا لا يجوز أن تُشكك فيه"، وأن المتلقي مُطالب بالتماهي مع المتكلم، رغم أن ذاك الرأي أو الطرح لم يتكون ولم ينكشف أو يطرح بعد، لا للمتلقي ولا للمتكلم.

¹ - من خطاب الملك الراحل الحسن الثاني بمناسبة افتتاح الدورة الأولى للبرلمان برسم السنة التشريعية 1963-1964

وَيُمْكِنُنَا أَنْ نُلَاحِظَ أَنَّ فِي كُلِّ الْجُمْلِ الاسْتِهْلَالِيَّةِ وَصِيغَهَا، يَكْمُنُ مَجْهُولٌ مَا، ضَمِيرٌ مُسْتَتِرٌ تَقْدِيرُهُ "هَمْ"¹، كَمَا قَدَّمْتُ الْبَرَاهِينَ وَالْأَدْلَةَ عَلَى اسْتِحَالَةِ أَنْ تَكُونَ الْأُمُورُ عَلَى غَيْرِ مَا يَرُونَهَا.

فَالْمَخَاطَبُ يَخَاطَبُ الْجُمُوعَ، الَّتِي أُعْطَتْ مُوَافَقَتَهَا مُسَبِّقًا، فِيمَا يَشْبَهُ "العقد الاجتماعي" بِالْفَهْمِ الَّذِي صَاغَهُ "جَان جَاك رُوسُو"، وَلَمْ يَعْدهَا الْحَقُّ تَبْعًا لِذَلِكَ فِي الْإِنْتِقَادِ أَوْ الْمَجَادَلَةِ.

إِنْ أَيْ قَارِئٌ مُتَمَعِّنٌ، يَسْتَطِيعُ أَنْ يَلَاظَ هَذِهِ الاسْتِهْلَالَاتِ فِي أَيِّ مَقَالٍ فِي صَحِيفَةٍ، أَوْ حَدِيثٍ شَفَاهِيٍّ، أَوْ كِتَابٍ يَتَضَمَّنُ بَحْثًا أَوْ دَرَاةً، أَدْبِيَّةً كَانَتْ، ثَقَافِيَّةً عَامَةً، أَوْ عِلْمِيَّةً، فَهَذِهِ الْجُمْلُ لَا تَسْتَنْتِي مِنْ أَيِّ خُطَابٍ مَعْرِفِيٍّ، عَرَبِيٍّ التَّأْلِيفِ، أَوْ مُتَرْجِمٍ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ، وَیُمْكِنُنَا أَلَا نَسْتَنْتِي لَفْظَتِي (يَجِبُ) وَ(يَنْبَغِي) فِي دَلَالَتِهِمَا الْوَعْظِيَّةِ وَالْجَبْرِيَّةِ.

وَعَلَيْهِ، يَتَعَرَّضُ الْمُتَلَقِّي لِعُدْوَانٍ بِسَبَبِ وَظَائِفِ بَعْضِ الصِّيغِ الْمُتَدَاوِلَةِ، وَبِمَجْرَدِ انْطِلَاقِ الْعُدْوَانِ بِصِيغِ الْإِسْتِهْلَالِ، يَقَعُ الْعُدْوَانُ الرَّمْزِيَّ أَسَاسًا عَلَى الْمُتَلَقِّي/الْقَارِئِ، فَيُحِيلُهُ عَلَى حَالَاتٍ مُتْرَابَةٍ أَوَّلَهَا حَمْلُهُ عَلَى تَصْدِيقِ كُلِّ مَا يَقَالُ وَيَكْتَبُ، وَمَا تَنْقُلُهُ وَسَائِلُ الْأَعْلَامِ وَالْإِتِّصَالِ، أَيَا كَانَ مَصْدَرُهَا، وَثَانِيهَا، حَمْلُهُ عَلَى الْكَفِّ عَنِ التَّفَكُّيرِ وَالتَّحْلِيلِ وَالنَّقْدِ وَالْفِرْزِ، وَحُضُّهُ عَلَى الْقَبُولِ، وَالْإِقْتِنَاعِ، وَالْإِذْعَانِ، ثُمَّ التَّمَثُّلِ، لِأَنَّهُ مِنْ مَنْطِقِ الْمَأْلُوفِ أَنْ نَصْدُقَ مَا عَرَفْنَاهُ وَخَبَرْنَاهُ.

❖ سابعاً- أدوات البلاغة الحوارية

تَكْمُنُ أَهْمِيَّةُ أَسْلُوبِ الْحَوَارِ فِي مِيلِ النَّفْسِ إِلَيْهِ، وَإِضْفَائِهِ الْحَيَوِيَّةَ عَلَى النَّصِّ، وَدَفْعِهِ الْمَلْلَ وَالشُّرُودَ، وَشَدَّه انْتِبَاهَ السَّامِعِينَ، وَيَجْعَلُ الْإِقْبَالَ عَلَى مُتَابَعَةِ النَّصِّ أَشَدَّ، وَالْأَذْنَ أَكْثَرَ تَفْتَحًا وَتَجَاوِبًا. وَنَشَاهِدُ هَذِهِ الْأَهْمِيَّةَ عَيَانًا فِي مَجَالِ النَّاسِ: فَالْمُتَحَدِّثُ النَّاجِحُ لَا يَرْتَضِي لِنَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمُتَحَدِّثُ الْوَحِيدُ، بَلْ تَرَاهُ حَرِيصًا عَلَى أَلَّا يَشْرَكَ مَعَهُ الْحَاضِرِينَ، وَيَسْتَنْتِيهِمْ بِخُلُقِ الْحَوَارِ حَتَّى يَكُونَ حَدِيثُهُ مُقْبُولًا وَمَسْمُوعًا.

وَيَتَضَحُّ هَذَا أَيْضًا فِي مَجَالِ التَّعْلِيمِ، حَيْثُ أَتَاكَ لِي الْإِطْلَاعُ عَلَى جِذَاذَاتِ رَفِيقَةٍ دَرَبِي الَّتِي تُدْرَسُ بِالسَّلَكِ الثَّانَوِيِّ التَّأْهِلِيِّ التَّوَصُّلِ إِلَى قِيَامِ الدَّرْسِ الْجَيِّدِ عَلَى آلِيَةِ الْحَوَارِ الَّتِي يَمْسُكُ بِخِيُوطِهَا وَبِخَطَايَاهَا الْمَعْلَمُ أَوْ الْأُسْتَاذُ، مُتَخَذًا مِنْهُ وَسِيلَةً لِأَدَاءِ الْمَعْلُومَاتِ وَإِصَالِهَا إِلَى أَذْهَانِ تَلَامِذَتِهِ.

وَعَلَيْهِ، فَإِنَّ الْخُطَابَ الْمَلَكِيَّ دَرَسَ بَلِيغٌ يَجِبُ فِيهِ صَاحِبُ الْجَلَالَةِ "المعلم" (بِتَسْكِينِ الْمِيمِ) عَنْ أَسْئَلَةِ شَعْبِهِ وَعَنْ تَسْأُلَاتِهِمْ أَيْضًا، وَيَصْحَحُ أَخْطَاءَهُمْ أَوْ الْخُطَابَاتِ الْمَخَادَعَةِ الَّتِي يُرَوِّجُ لَهَا فِي أَوْسَاطِهِمْ مِنْ طَرَفٍ بَاقِي صِنَاعِ الرَّأْيِ الْعَامِ، وَيَعْلَنُ مِنْ خِلَالِهِ عَنْ إِجَابَاتٍ لِمَطْلَعَاتِهِمْ وَمَشَارِيعِ تَشْكَلِ الْإِسْتِجَابَةِ لانتظاراتهم.

وَلَا يَصْدُرُ جَلَالَتُهُ فِي حَوَارِيَّةِ خُطَابَاتِهِ عَنْ هَوَى أَوْ أَهْوَاءٍ يَحْرُكُهَا أَيْنَمَا اتَّفَقَ، أَوْ يَحْمِلُهَا عَلَى قَوْلِ شَيْءٍ مِنْ فِرَاحٍ: فَمُعْظَمُ تَفَاصِيلِ الْخُطَابِ تَأْتِي نَتِيجَةً لِحَادِثَةٍ مُعَيَّنَةٍ أَوْ وَاقِعَةٍ مِنَ الْوَقَائِعِ، أَوْ ظُهُورِ سُؤَالٍ عَلَى السَّاحَةِ، أَوْ حَوَارٍ جَمَعَهُ بِإِحْدَى الْهَيِّئَاتِ أَوْ تَظَلُّمَاتٍ تَوْصَلُ بِهَا دِيُونَانَهُ أَوْ بَثْنَاهُ إِيَّاهُ رِعَايَاهُ بِالْخَارِجِ خِلَالِ زِيَارَاتِهِ لِلدُّوَلِ الْأَجْنِبِيَّةِ أَوْ حَتَّى فِي زِيَارَاتِهِ التَّقْدِيدِيَّةِ، كَمَا أَوْرَدَ ذَلِكَ فِي الْعَدِيدِ مِنْ خُطَابَاتِهِ ("وَهَذَا أَسْتَحْضِرُ الْمَشَاكِلَ الَّتِي تَعِيشُهَا بَعْضُ الْمَدَنِ كَالدَّارِ الْبَيْضَاءِ مَثَلًا، الَّتِي أَعْرَفْتُهَا جَيِّدًا...فَقَدْ خَصَّصْتُ لَهَا أَوَّلَى زِيَارَاتِي سَنَةِ 1999...وَمِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ وَأَنَا أَحْرَصُ عَلَى الْقِيَامِ بِجُولَاتٍ تَقْدِيدِيَّةٍ لِمُخْتَلَفِ أَحْيَانِهَا لِلْوُقُوفِ عَلَى أَوْضَاعِهَا").

¹ - وَهُمُ النَّاسُ أَوْ السُّلْطَاتُ الْمَعْرِفِيَّةُ الَّتِي أُعْطَتْ بِقَبْلِهَا لِكُلِّ خُطِيبٍ وَكَاتِبٍ وَبَاحِثٍ

ويبقى الخطاب الذي وجهه جلالة الملك بمناسبة افتتاح الدورة الأولى من السنة التشريعية الأولى من الولاية التشريعية العاشرة أهم خطاب تشخيصي لجميع المشاكل التي تَرِدُ على ديوان جلالته من خلال تظلمات وشكايات مباشرة أو من خلال التقارير التي ترفعها جميع المصالح الأمنية بالداخل والخارج: ففي نفس الخطاب، استهل جلالته تشخيص واقع المرافق والإدارات العمومية وما تعانيه من نقائص تتعلق أساسا "بالضعف في الأداء، وفي جودة الخدمات، التي تقدمها للمواطنين... والتضخم وقلة الكفاءة، وغياب روح المسؤولية لدى العديد من الموظفين، وغيرها من المشاكل التي جعلت المواطن يلوذ بجلالته متظلما، حتى أنه يُقال كلام كثير بخصوص لقاء المواطنين بملك البلاد، والتماس مساعدته في حل العديد من المشاكل والصعوبات. وإذا كان البعض لا يفهم توجه عدد من المواطنين إلى ملكهم من أجل حل مشاكل وقضايا بسيطة، فهذا يعني أن هناك خلا في مكان ما. أنا بطبيعة الحال أعتز بالتعامل المباشر مع أبناء شعبي، وبقضاء حاجاتهم البسيطة، وسأظل دائما أقوم بذلك في خدمتهم: ولكن، هل سيطلب مني المواطنون التدخل لو قامت الإدارة بواجبها؟ الأكيد أنهم يلجؤون إلى ذلك بسبب انغلاق الأبواب أمامهم، أو لتقصير الإدارة في خدمتهم، أو للتشكي من ظلم أصابهم".

في تجديد السؤال بنية الحوار عملية كلامية دقيقة، تطلبت مهارة وبلاغة ملكية لافتراض سائل، ومُساءل لطرح الأسئلة عليه ومساءلته بشأن عدد من المسائل التي تقتضي للجواب عنها أو الإستجابة لها بعض البدهة، مع مراعاة مقتضيات معقدة متداخلة¹.

فقد عَرَضَ جلالته عددا من الصعوبات التي تعترض المواطنين المرتفقين بالإدارة، والتي "تبتدئ من الاستقبال، مروراً بالتواصل، إلى معالجة الملفات والوثائق؛ بحيث أصبحت ترتبط في ذهنه بمسار المحارب".

وفي تعبير *Parcours du combattant* إحالة على المعجم العسكري وتدريب محاكاة وضعية الجندي في الحرب، واستبطان للدلالة على توصل ديوان جلالته بتقارير المديرية العامة للدراسات والمستندات بشأن أداء المصالح القتالية والسفارات المعتمدة بالخارج وجودة الخدمات المقدمة لمغاربة العالم.

"فمن غير المعقول"	- "أن يتحمل المواطن، تعب وتكاليف التنقل إلى أي إدارة، سواء كانت قنصلية أو عمالة، أو جماعة ترابية، أو مندوبية جهوية وخاصة إذا كان يسكن بعيدا عنها، ولا يجد من يستقبله، أو من يقضي غرضه"	"فبدون المواطن لن تكون هناك إدارة. ومن حقه أن يتلقى جوابا عن رسائله، وحلولا لمشاكله، المعروضة عليها. وهي ملزمة بأن تفسر الأشياء للناس وأن تبرر قراراتها التي يجب أن تتخذ بناء على القانون"
"ومن غير المقبول"	- "أن لا تجيب الإدارة على شكايات وتساؤلات الناس وكأن المواطن لا يساوي شيئا، أو أنه مجرد جزء بسيط من المنظر العام لفضاء الإدارة."	
ويضرب جلالته مثلا لتقريب واقع العلاقة بين الإدارة ومرتفقيها من أذهان المسؤولين	- تشخيص الخطاب الملكي للوضع القائم والكائن	"فالعديد من المواطنين يشكون من قضايا نزاع الملكية، لأن الدولة لم تقم بتعويضهم عن أملاكهم، أو لتأخير عملية التعويض لسنوات طويلة تضر بمصالحهم، أو لأن مبلغ التعويض أقل من ثمن البيع المعمول به، وغيرها من الأسباب."

¹ - كمقتضيات مراعاة الزمان والمكان، وحال المخاطب، وثقافة الحوار الذي لم يتم بين المواطن/المرتفق والإدارة/المسؤول.

"إن نزع الملكية يجب أن يتم لضرورة المصلحة العامة القصوى، وأن يتم التعويض طبقا للأسعار المعمول بها، في نفس تاريخ القيام بهذه العملية مع تبسيط مساطر الحصول عليه." "ولا ينبغي أن يتم تغيير وضعية الأرض التي تم نزعها، وتحويلها لأغراض تجارية، أو تقويتها من أجل المضاربات العقارية."	- تشخيص الخطاب الملكي لما يجب أن يكون	
	- "كما أن المواطن يشكو بكثرة، من طول وتعقيد المساطر القضائية، ومن عدم تنفيذ الأحكام، وخاصة في مواجهة الإدارة"	
	- "أن تسلب الإدارة للمواطن حقوقه، وهي التي يجب أن تصونها وتدافع عنها. وكيف لمسؤول أن يعرقل حصوله عليها وقد صدر بشأنها حكم قضائي نهائي؟"	"فمن غير المفهوم"
	- "ألا تقوم الإدارة حتى بتسديد ما بذمتها من ديون للمقاولات الصغرى والمتوسطة، بدل دعمها وتشجيعها، اعتبارا لدورها الهام في التنمية والتشغيل"	"كما أنه من غير المعقول"
	- "كما أن المواطنين يشكون أيضا من الشطط في استعمال السلطة والنفوذ، على مستوى مختلف الإدارات، ومن تعقيد المساطر، وطول آجال منح بعض الوثائق الإدارية."	
	- "أن يسافر المواطن لطلب وثيقة، ويقدم كل الوثائق الضرورية، وينتظر أياما وأحيانا أسابيع للحصول عليها"	"إذ لا يعقل"
	- "ففي العديد من القنصليات مثلا، لا يتم إخبار المواطنين بالأخطاء، التي تقع في الوثائق، بسبب غياب آلية لمتابعة الملفات، إضافة إلى التعقيدات الإدارية التي يتطلبها تصحيح أي خطأ" - "وهو ما يكلف المواطن عناء وتكاليف التنقل إلى المغرب لإحضار وثائق الإثبات اللازمة لتصحيح هذا الخطأ، إضافة إلى غياب التنسيق بين الإدارات المعنية مما يعطل عملية تسليم الوثائق"	ويضرب جلالته مثلا آخر لتقريب واقع العلاقة بين الإدارة ومرتقيها من أذهان المسؤولين
"بعد مرور أكثر من 12 سنة، على إطلاق هذا الإصلاح المجتمعي، هناك من لا يعرف لحد الآن، مضمون هذا القانون، وما له من حقوق وما عليه من واجبات، وخاصة في أوساط المغاربة بالخارج."	- "ومن بين القضايا الإدارية، الأكثر انتشارا، تلك التي تتعلق بتطبيق مدونة الأسرة، وما ينتج عن ذلك من مشاكل عائلية واجتماعية"	ويسوق جلالته مثلا آخر للقضايا والملفات التي يتعثر فيها البث والتنفيذ وتؤثر على مصالح المواطنين وقضاء مآربهم

- "لذا، ندعو الحكومة وكافة المؤسسات المعنية، الإدارية والقضائية، لحسن تفعيله، ومواصلة التوعية بمضامينه، ومواكبته بالإصلاح والتحيين، لتجاوز المشاكل التي أبانت عنها التجربة والممارسة."	تعليمات ملكية بمثابة استراتيجية توجيهية
- "تتجسد بشكل واضح في العراقيل التي تعيق الاستثمار، رغم إحداث المراكز الجهوية واستعمال الشباك الوحيد لتبسيط المساطر وتسريع عملية اتخاذ القرار"	إن المشاكل التي تواجه المواطن في الإدارة
"وبهذه العقلية والتمادي في مثل هذه التصرفات، فإن الشباك الوحيد سيبقى دون جدوى."	صحيح أن بعض المستثمرين يقدمون ملفات غير كاملة
"وقد أكدت أكثر من مرة، على ضرورة حل المشاكل، ومعالجة الملفات في عين المكان. كما أعطيت تعليماتي للحكومة، ووجهتها لاتخاذ الإجراءات الإدارية بهذا الخصوص."	- "فما جدوى الرسالة التي وجهتها إلى الوزير الأول منذ 2002 وما فائدة الجهوية واللامركزية واللامركز، إذا استمر الوضع القديم واستمرت المشاكل السابقة؟"
"فإنه يرجع أمواله إلى البنك، إذا كان مقيما في المغرب".	- فالمستثمر عندما لا يتلقى جوابا وإذا لم يتم حل المشكل الذي يواجهه
فإنه يكون مجبرا على العودة بأمواله إلى الخارج. وبذلك يتم حرمان الوطن من فرص الاستثمار والتنمية، وحرمان المواطنين من فرص الشغل.	- أما إذا كان من أبناء الجالية، وفضل الاستثمار في وطنه
فكيف سيتم تطبيق باقي النقاط المهمة الواردة في رسالتنا إلى الوزير الأول والتي تخص علاقة المواطن بالإدارة وتبسيط المساطر وتشجيع الاستثمار؟	- إن الشباك الوحيد ليس إلا واحدا من الأوراش، لمعالجة العراقيل التي تواجه الاستثمار.
- لذا، ندعو الجميع، حكومة وبرلمانا، أحزابا ونقابات، جمعيات وموظفين، للتخلي بروح الوطنية والمسؤولية، من أجل بلورة حلول حقيقية للارتقاء بعمل المرافق الإدارية، والرفع من جودة الخدمات التي تقدمها للمواطنين	- وإذا لم يتم إيجاد الحلول الناجعة لها، بعد كل هذه السنوات
- إن إصلاح الإدارة يتطلب: "تغيير السلوكات والعقليات، وجودة التشريعات، من أجل مرفق إداري عمومي فعال، في خدمة المواطن"؛ إيلاء عناية خاصة لتكوين وتأهيل الموظفين، الحلقة الأساسية في علاقة المواطن بالإدارة، وتمكينهم من فضاء ملائم للعمل، مع استعمال آليات التحفيز والمحاسبة والعقاب..." "تعميم الإدارة الإلكترونية بطريقة مندمجة، تتيحولوج المشترك للمعلومات بين مختلف القطاعات والمرافق، فتوظيف التكنولوجيات الحديثة، يساهم في تسهيل حصول المواطن، على الخدمات، في أقرب الآجال، دون الحاجة إلى كثرة التنقل والاحتكاك بالإدارة، الذي يعد السبب الرئيسي لانتشار ظاهرة الرشوة، واستغلال النفوذ..." "وتعتبر الجهوية المتقدمة التي أصبحت واقعا ملموسا،	قبل ان يختم الخطاب بتوصيف لمنهجية الإصلاح ومداخل التغيير

حجر الزاوية الذي يجب أن تركز عليه الإدارة، في تقريب المواطن من الخدمات والمرافق، ومن مركز القرار... ضرورة بلورة وإخراج ميثاق متقدم للالتزام الإداري، يستجيب لمتطلبات المرحلة... انخراط الجميع في مواكبة التطور، والانخراط في الدينامية المؤسسية والتنمية، التي نقودها ببلادنا... مسؤولية الجميع عن نجاعة الإدارة العمومية والرفع من جودتها باعتبارها عماد أي إصلاح وجوهر تحقيق التنمية والتقدم، الذي نريده لأبناء شعبنا الوفي: (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب، صدق الله العظيم).

وأسلوب الخبر والإخبار في الخطاب الملكي قائم على أساس حوارية الخطاب الذي يمد جسور التواصل الذي لم ينطفئ قبسه منذ سنين بين الملك وعموم رعاياه بالداخل والخارج، بصيغة إستفهام ينفي المنطق عما يعانيه المرتفق عند قضائه لمأرب من المأرب الإدارية، أو واقعة أو حدث معين، فيجيب جلالته على صيغة الإستفهام التي وردت في الشق الأول من الجملة الواردة في خطابه بأسلوب خبري مطابق لمقتضى حال جمهور التلقي.

وقد اقتضت أنماط أسلوب الخبر المولوي الناشئ من ملف يُشكل مثار النقاش في الصحف أو البرامج أو الشكايات والتظلمات أو التقارير التي ترفع لقراءة جلالته، أن يجعلها في شكل حوار يثير فيه جلالته الإشكالية والداء ويصف لها الحل والدواء.

ولتخصيب الحوار من خلال استدعاء شريحة محددة من المواطنين وتسميتها تصريحاً، وظَّف الاسم والصفة "فالمستثمر... أبناء الجالية" أيضاً ليكون عوناً للخبر الذي تنتهي إلى علم جلالته حول ما يعيشه عموم المواطنين من مشاكل وعراقيل ومساطر معقدة عند إنجاز وثائقهم الإدارية: فالتركيز كان لتقريب الأذهان (ذهن المرتفقين وذهن المسؤولين على السواء)، لأن الحلاوة تدرك بالذوق، والخضرة تدرك بالأنظر، وكلاهما مرغوب فيهما.

وبعد أن انتهى جلالته من الجملة الخبرية الأم، أخذ يرتبها بحرف "الفاء" بقوله ("تشغل قضية التعليم حيزاً كبيراً من اهتماماتنا الآنوية والمستقبلية... واعتناء من والدنا المكرم بهذه القضية، فقد كان عين لجنة وطنية خاصة عملت تحت رعايته السامية مستنيرة بالتوجيهات التي تضمنتها رسالته الملكية في هذا الصدد؟") وغيرها من المقامات (واعتناء من والدنا المكرم بهذه القضية فقد كان عين لجنة وطنية خاصة عملت تحت رعايته السامية... فقد كان أول خطاب من بعد اعتماد دستور البلاد الجديد... والآن، وبعد أن قال الشعب كلمته الحاسمة، بالمصادقة على الدستور الجديد، بمضامينه المتقدمة، بما يجعله دستوراً لجميع المغاربة، فقد ارتأينا أن يكون خطابنا لك اليوم، منصبا حول المرحلة الموالية للمصادقة عليه...).

وقد علَّل جلالته موقفه بكلام لا يراه المرء بعيداً عن الوجاهة: "وجعل مصلحة الوطن والمواطنين هي العليا".

فظرف المكان العليا، على نقيضيته للمصالح السفلى الذي جاء المثل بلفظه ليس المقصود منه الحقيقة، ولكن استعلاء لمكانة الوطن والمواطنين فوق مكانة "مختلف الفاعلين المعنيين بالعملية الانتخابية" وفوق "المزايدات العقيمة... والاستعمال اللامشروع للمال والنفوذ... والحسابات الشخصية والحزبية"... لذلك نعتبر أن التنمية البشرية، بتوفيرها لوسائل العيش الكريم، هي خير دعامة لتحقيق الديمقراطية: فالعلو جاء مقروناً بخير المبادرة وخيرتها وأفضليتها، فكانت لفظة "خير" أفضل إشارة إلى هذا المعنى، حيث أدخلت في باب أفضل، وباب أفضل يشهد بالحسن أو الخير للمذكورين، غير أن أحدهما يكون خيراً وأفضل من غيره، كما نقول زيد خير من عمرو، وما نفينا الخيرية عن عمرو

بالأصالة، ولكن زيدا أرفع منه درجة فيها، والحال أن المبادرة الملكية للتنمية البشرية ستجعل من كان فراشه الحجر وغطاؤه المدر في عفاف وكفاف عن بيع ذمته للدكاكين السياسية التي تنشط في مواسم التسويق الانتخابي لتقايسه على صوته.

وفي محاوره خطاب جلالته لشعبه في بعض مواقع الإستفهام الإستكاري والإنكاري لبعض السلوكات إشارة إلى أن القول جزء من الخطبة، وهو بمثابة عطف الخاص على العام، وفيه مزيد عناية بهذا الخاص: " وهل من المعقول أن يأمر الله، الغفور الرحيم، شخصا بتفجير نفسه، أو بقتل الأبرياء؟ علما أن الإسلام لا يجيز أي نوع من الانتحار مهما كانت أسبابه. قال سبحانه: (من قتل نفسا بغير نفس، أو فساد في الأرض، فكأنما قتل الناس جميعا)."

والربط بين استفهام صاحب الجلالة الاستكاري وبين هذه الآية الجليلة من محكم التنزيل جاء استثمارا من جلالته لنفوذه وسدادها، واضطراد هذا النّفوذ وهذا السداد، يجعل الأمر الإلهي فيها أظهر من أن تكون لمحة عبقرية أو مصلح أو فيلسوف.

وجلّ ما ذكر، كان ما حول النصّ الخبري، أو ما يسمى بالمقام، وكان لابد من هذا المقام لإنارة ما يحيط بالموقف الملكي من الإنحاريين من أي القرآن والعقل وما لا يقبله الطبع السليم، حتى أن جلالته أورد أن "الذين يدعون للقتل والعدوان، ويكفرون الناس بغير حق ويفسرون القرآن والسنة بطريقة تحقق أغراضهم، إنما يكذبون على الله ورسوله".

وتقدم الخبر أداة القصر "إنّما"، معلنة عن دلائل بلاغتها في الإثبات العالي للصفة المعنوية "استحضار القيم" (الملازمة للموصوف) "إن الاحتفال بالأحداث التاريخية، ليس فقط من أجل الذكرى، وإنما أيضا لاستحضار القيم والمبادئ، التي ألهمت الأجيال السابقة، من أجل بناء الحاضر، والتوجه بكل ثقة نحو المستقبل"، بنفس حرص جلالته في موقع وموقف آخر على استعمال أداة القصر لإعلان تجاوز المغرب لرؤية إفريقيا رؤية تاجر لا يرى فيها إلا سوقا لترويج منتجاته نحو رؤية استراتيجية أسمى تخدم مشروع الفضاء الإفريقي المشترك وخدمة المواطن الإفريقي"، حيث يرى جلالته أننا "لا نعتبر إفريقيا سوقا لبيع وترويج المنتجات المغربية، أو مجالا للربح السريع، وإنما هي فضاء للعمل المشترك، من أجل تنمية المنطقة، وخدمة المواطن الإفريقي".

بنفس المنهجية، قدم جلالته لإحدى فقرات خطابه بمناسبة، ثم استفهام، ونفيه بعدئذ، قبل تقديم الخبر على أداة القصر "إنّما"، ليعلن بدائل تسمّوا بالعمل السياسي عشية الإستحقاق الانتخابي وما تعرفه الفترة من توافقات تبلفن الخريطة السياسية، معلنا في النهاية عن تلك البدائل التي اختتمها بإثبات علو المبدأ البديل القاضي بـ "ممارسة العمل السياسي بمفهومه النبيل" ("هل سننتظر عشية الاستحقاق الانتخابي لسنة 2007 للبحث عن تراض صوري ومرتل، من شأنه أن يكرس بلقنة الخريطة السياسية؟ كلا. لذلك ندعو الطبقة السياسية إلى تحمل مسؤوليتها، في جعل انتخابات 2007 تشكل منعطفًا هامًا، لإعطاء دفعة قوية ونوعية، للمسار الديمقراطي، وبرز فضاء سياسي جديد، يتسم بأغلبية متماسكة، ومعارضة بناءة، تتنافس وتتعاون، بحسب نتائج الاقتراع، على حسن تدبير الشأن العام، من خلال نخب متجاوبة مع عصرها، لا تختزل نفسها في اليمين أو اليسار، وإنما تجعل من الحكم القويم، المحك الحقيقي، لممارسة العمل السياسي، بمفهومه النبيل").

و"إنّما" وردت في عدد من المقامات على سبيل قاعدة القصر الإدعائي، مثل: إنّما الشاعر زيد، وفي ذلك أن الحصر ليس عامًا، لأن الحكم لا يتعلق فقط بممارسة العمل السياسي، بل يتجاوزه إلى العمل الاجتماعي والإقتصادي والثقافي والديني... فيحمل ذلك على حصر المخصوص وهو تخليق العمل السياسي، فبدأ جملة الصفة بفعل "تجعل" بعد أن أورد نفيًا لفعل آخر "لا تختزل".

أما زيادة "هل" على "نقبل" فتستبطن الدلالة على أن الفاعل قد صار صاحب ما اشتق منه الفعل، فالقبول فيه "بلقنة للخريطة السياسية"، وفي الصيغة الاسمية التي أومأت إليها "أن" المضافة إلى ضمير الغائب "هم" دلالة على تبوئية عدد من الممارسات المرفوضة في حقل التنافس السياسي، وسبب كونه ممارسة مرفوضة كامنة في تقابل التراكيب في الخبر المولوي المنبئ عن التمايز بين العمل السياسي بفهمه النبيل عن بلقنة الخريطة السياسية بفهمها العليل.

إن في الخبر المولوي حثاً على سلوك سياسي سليم يرقى بالشأن السياسي عن واقع البلقنة السقيم.

كما أن في الخطاب الملكي نمطا من الحوارية للجواب عن قضية مهمة أو حكم معين شغل بالهم كان يرحب بمثل هذه المحاورات أشد الترحيب، لأنها جاءت عفو الخاطر دون تكلف أو تصنع، ولأنها جاءت سلسلة عذبة دون تعقيد أو ابتذال: ومن هذا النوع، وهو استفهام يرد جوابه بإيجاز بلاغي يجمع كماً من المعاني العميقة والدلالات الكبيرة في تركيب جملة الجواب، بما يغني جمهور التلقي عن التساؤل أو السؤال بسؤال آخر لفهم جواب السؤال الأول.

ويختتم جلالته خطاباته بالسلام: فالإسلام داعية المحبة، وآية الإخاء والألفة، وقد أمر به القرآن في عدة مواطن، وبين أنه تحية من عند الله مباركة طيبة.

وزيدت لفظة القراءة تنبيهاً على تخصيص هذه اللفظة في التحيات مخالفة لتحايا أهل الجاهلية بألفاظ وضعوها لذلك... وذلك أن "التحية" أعم من "السلام"، ويدخل فيها "حياك الله" و"لك البشري" و"لقت خيراً" .. ولا يقال لذلك "سلام"، وإنما "السلام" هو "السلام عليكم".

إن كلمة السلام في التحية استدعاء لاسم من أسماء الله تعالى، ومعنى السلام عليكم "أنتم في حفظ الله ورعايته"، كما يقال: الله معك، والله يصحبك، وقيل: هي بمعنى السلامة، أي: سلامة الله ملازمة لك، وفي كلمة السلام التي توافق اسماً من أسماء الله تعالى دلالة نفسية، فالسلام هو الذي يبعث الأمان في نفس المؤمنين، وينشر بينهم الحب والوئام. كما أن إقضاء جلالته السلام على من يعرف ومن لا يعرف يزيد المحبة بين المتعارفين ويجلب الصلة والمودة بين المتناكرين

فلا يخص به من يعرف ولا بعض من يعرف تكبراً وتصنعاً، بل هو إقامة لشعائر الإسلام يبذل لكل مسلم ليتألف الجميع وتزداد الصلة بينهم متانة، والإعراض عنه يؤدي إلى الوحشة بين الناس. لهذا، يمكن أن يُقسم السلام إلى سلامين:

1- سلام معرفة، وهو أن يسلم على من يعرف فقط، في حين يترك الذي لا يعرف، و"لفظ المعرفة يفيد تمييز المعلوم من غيره"؛

2- سلام المثوبة والألفة: وهو أن يسلم المسلم على من عرف ومن لم يعرف دون تمييز، وذلك طلباً لثواب السلام وحصولاً للألفة بين المؤمنين. هذا النوع الثاني مأخوذ من قول الرسول صلى الله عليه وسلم "لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم".

وأخيراً، لابد من الإشارة إلى أن الخبر المولوي أظهر بجلاء مَدَنِيَّة المؤسسة الملكية وانسجامها مع صفة القائم عليها باعتباره أمير المؤمنين وسبط النبي الأمين، ويوثق من خلال إفشاء السلام في كل خطاب تلك العلاقة بين الملك وشعبه.

ففي الخبر الملكي في بعض المواضع دلالتان:

- الأولى: دلالة وضعية حقيقة بعيدة عن القصد؛
- الثانية: دلالة مجازية قائمة على الكناية.

إن فهم بعض صيغ الخبر المولوي يتطلب من جمهور المتلقي فهماً عميقاً ودراية كاملة بأساليب اللغة العربية، ومعرفة بمقام الكلام: فأسلوب الكناية يحتاج إلى مستوى ثقافي معين، والخطاب الملكي خطاب جماهيري يستهدف إلهام جميع فئات المجتمع، ويقتضي تبعاً لذلك ألا تترتب عنه صعوبات في المتلقي أو في فهم المتلقي، مع ضرورة الاستعانة بقرائن أو وسائط تعد قنطرة من الدال المنطوق إلى الملامح الخفية.

وحتى عند التعبير عن امتعاض جلالته من المواقف الوبئة وردة على بعض لقطات السعار الخطابي الموازي، يستعير الأساس الجمالي الحسي في مشهد الصورة الكنائية، فيركز البصر عليها، كما تركز الآلة المصورة على ركنٍ لأهميته في التصوير، فيتسامى عن القذف وتلبية داعي الإستفزاز ليعتصم بمحراب التسامي وجملته من الخصال والفضائل كمحرك ذهني ومكررات من مكررات جلالته، لتتوزع حيثيات صورة المؤسسة بين الملموس والحسي، بين الذهن والتخيل، بين المثل الأعلى والتمثل المنسجم مع مكانته الروحية كأمر للمؤمنين وسبط للنبي الأمين ("فإنه يجدر الاستعداد الجيد لها، ليس بالملاسنات الديماغوجية، والحسابات الضيقة، وإنما بالتأهيل السياسي الشامل لكل الفاعلين والمؤسسات والتنظيمات").

أما النمط الثالث من حوارية خطابات صاحب الجلالة فيبدأ من المواضيع التي يتداولها الرأي العام وينتهي بتناولها خطاب صاحب الجلالة، فيكون الحوار بذلك ناشئاً من واقعة معينة أو أمر محدد أو قضية من القضايا التي شكّل مثار استقهام المواطنين، فيستفهمون عن مآلها، فيجيب عنها خطاب الملك ويزيد عليها بخبر يكون قاعدة عامة تسري في هذا الحال وغيره من الأحوال. فالخبر هنا يكون بمثابة مبدأ عام ووصية جامعة ليقندي به الجميع أو يأتي الخبر ليكون بمثابة تعليل لجواب أو لموقف أو قرار وتعليمات صدرت عن جلالته.

وترد في العديد من فقرات الخطابات الملكية لفظة التعليل "أن" فتحا على التعليل (وبكسرهما على الشرطية)، فيرد بذلك كل لفظ بظلال جميلة على النص الخبري.

في هذا المضمار، يشار إلى أن جلالته في أحد خطاباته صوّر الوضع الذي سيؤول إليه حال المواطن تصويراً جميلاً وباعثاً ودافعاً ومحفزاً لاختيار (حال) الكفاف (على) العلة (الفقر والهشاشة والإقصاء): "ولن يتأتى ما نتوخاه من نهوض بالعدالة الاجتماعية والمجالية، إلا بتعزيز السياسات الاجتماعية، لمحاربة الفقر والإقصاء والتهميش، وتوسيع قاعدة الطبقة الوسطى، والنهوض بالمساواة بين الرجل والمرأة؛ فضلاً عن إيلاء عناية خاصة للعالم القروي، وللمناطق الجبلية والنائية والمعزولة، وبلورة ميثاق اجتماعي متقدم" ... "التعبئة حول مبادرتنا الوطنية للتنمية البشرية، لمكافحة الفقر والإقصاء والتهميش".

واستطاع أسلوب الخبر في الخطاب الملكي دون تنميق تسخير الفنون البلاغية كلها بأقسامها الثلاثة (المعاني، والبيان، والبديع)، خدمة للمقاصد التي يعلنها وحتى تلك التي يوارىها، فأكسب معظم الخطابات الملكية مرونة في التعبير عن جميع المواضيع، حتى التقنية منها والإستراتيجية، وكذلك بلاغة في التعبير لتحقيق الفائدة من الخبر. وفي الوقت نفسه، فإن هذا التواشج أصبح عاملاً أساساً لاختلاف القراءات وتباين درجات فهم الخطاب الملكي ومضامينه ومعزاه انطلاقاً من مبناه، فكان الخبر في الخطاب الملكي حاملاً لأكثر من معنى.

❖ ثامنا- بلاغة الإرسال من خلال جمل الإستهلال ومفاتيح الإسترسال

قد يذهب البعض إلى الاعتقاد بأن هذه الجمل الاستهلالية، ليس أكثر من كونها مفتاحا للإسترسال في الحديث، أو أنها مجرد صيغ بريئة اعتاد الناس تداولها دون أن يقصد من ورائها غاية ما. لكن هذا الاعتقاد سيُلغي حقيقة الترابط بين اللغة والتاريخ، كما سيلغي الوظيفة الاجتماعية للغة والأسلوب، ويجعل منها مجرد أدوات حيادية باردة، لتغزو الفكرة والخطاب هما المعول عليهما، مع انتفاء علاقتهما بالأسلوب.

كورثة للبلاغيين¹، يرفض الأسلوبيون هذا الاعتقاد على اعتبار "أن كل ظاهرة اسلوبية، تحقق وظائف اجتماعية، كما أن كل ظاهرة اسلوبية، هي من بعض الوجوه، موقف واختيارات، واللغة لا يمكن أن تشرح بمعزل عن سائر اختيارات الحياة. وحين نصوغ جملا لتؤلف خطابا عن العلم والمعرفة والحرية والعدل والحق، فليس من المنطق إذن أن نستخدم صيغا تتضاد في وظيفتها مع وظيفة الموضوع"².

و حين نريد أن نُبلِّغ الآخر معرفة ما، فليس من قيم المعرفة، ولا منطق العدل ولا خصائص العلم أن نفرضها عليه فرضا، أو نحيله بالإيحاء وفيما يشبه التهديد إلى إنسان مذعن، خائف، أو حذر من الجدل والنقد والاختلاف.

وعليه، فإن من مكرمات المرء فضيلة ردود الفعل التي تبني شخصية وفق خياراته وغاياته، والقول الذي يروجه بعض الاعلاميين والمثقفين الذين أصدروا كتابا ولم تنفذ في السوق بشأن تراجع مؤشرات القراءة وتراجع مبيعات الكتب وتهوي مؤشرات تداول المعرفة تعوزه الدقة والمصداقية: فالناس عادة معنية باكتساب المعرفة، مقروءة ومسموعة ومرئية، والا ما شاهدنا شخصا واحدا يذهب إلى ندوة ليستمتع ويتساءل، ولأغلقت المكتبات ودور الصحف، وقطعت أرجل زوار معرض الكتاب الذي تحج إليه مئات دور النشر لعرض مئات الآلاف من الكتب في شتى المعارف الانسانية.

لذا، فإن القول بكساد سوق الكتاب وخسائر دور النشر نتيجة انصراف الناس عن القراءة، واهتمامها بالسلع والتسلية الفارغة، وموقف السواد الأعظم من الثقافة والمثقفين، قول لا يستقيم، لتضاده مع وقائع الامور، كما انه لا يبنى على تقصي موضوعي.

❖ تاسعا- التلازم التلقائي بين التلقي والنقد

إذا كانت المعرفة بمعناها الواسع هي رغبة الناس عامة، فإن الثقافة المتخصصة ليست مطلب الجميع، شأن أي نشاط مختلف يمارسه البعض دون البعض الآخر، وإذا استثنينا (172) مليون أمة في أفق عام 2025 وفق احصائيات المنظمة العربية للتربية والعلوم³ والفروق الفردية بين الناس في القدرات والطاقات والمنشأ والبيئة الاجتماعية وأنماط المناهج التعليمية التي لا تربى قارئاً ومثقفا بسبب وسائل التطبيق القسرية، ووسائل التسطيح والتهميش الشائعة، فإن الانسان العربي بصفته انسانا معنيا باكتساب المعرفة بفطرة الانسان، كما انه معني بنقد واقعه بالفطرة ايضا، وفعل النقد ينهض في الآن ذاته الذي يتلقى فيه خطاب المعرفة.

¹ - لأن الأسلوبية عُدت ورثة للبلاغة، مادامت تستثمر معطياتها وتوظف وجوها وتشرع ابوابها على علوم إنسانية محابطة كالنقد الادبي واللسانيات و علم الدلالة وعلم التركيب والصوتيات

² - ناصيف، مصطفى، اللغة والتفسير والتواصل، سلسلة "عالم المعرفة"، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، عدد 193، يناير 1995، ص. 231

³ - الوعر، مازن، الاتجاهات اللسانية ودورها في الدراسات الاسلوبية، مجلة عالم الفكر، الكويت، عدد مزدوج 4+3، ص. 199

وسيتخذ هذا النقد تعبيراته المختلفة وفق الشروط الموضوعية التي يعيشها المتلقي، فقد يتخذ شكل النقد الصامت أو الشفهي، أو المكتوب -إذا سمح المناخ العام بذلك- في إطار حياته الخاصة والعامة. هذه الملكة النقدية عند الإنسان هي سر فرادته وتميزه عن سائر الكائنات التي تعيش وفق فطرتها المجردة.

وبهذه الملكة، يغير الإنسان شروط واقعه الانساني عن حال الى حال. لذا، فإن أية وسيلة تحد من تفعيل هذه الخاصية، تعني في دلالتها التدجين والترويض والتطويع وما يقاربها من مفردات، وهذا الترويض سيتماهي مع وسائله المختلفة المتمثلة في بعض وجوها في اللغة واساليبها، إضافة الى الانماط المتكلسة من القيم الاجتماعية والمعرفية، واجناس الثقافة المقننة!

إن التأمل العميق في كيفية اتشكل الرغبة في المعرفة والرغبة في النقد ووسيلتهما في التحقق، سيوضح لنا لزوماً ذلك التلازم التلقائي والضروري الذي يتم في ذهن المتلقي، بين رغبة المعرفة ورغبة النقد: فحين يستمع المتلقي أو يقرأ أو يشاهد خطاباً معرفياً ما، فإنه يُدرك أن المخاطب (بكسر الطاء) يريد أن يبلغه أمراً ما وهو في استخدامه اللغة مفردة واسلوباً يريد أن يثير انتباهه لموضوع الخطاب.

في تتبعه سير الموضوع، يشعر المتلقي بالاهتمام من خلال صيغ البلاغة وما تبثه من انفعالات وصور وافكار وايحاءات، فيزيد اهتمامه أو يقل حسب اقتراب موضوع الخطاب من حياته وتجربته وطموحه ومواقفه من الحياة، أو ابتعاده عنها، وشعور الاهتمام هذا يولد رغبة في تحليل وفحص مضمون الخطاب وإشاراته، ثم يتخذ موقفاً منه سلباً أو إيجاباً نتيجة قيامه بعقلية النقد المصاحبة في الوقت نفسه لعملية التلقي.

وهذا النشاط النقدي يقود الى التكذيب أو التصديق، الايمان أو الشك، الاقتناع أو الاختلاف، الصمت أو الجدل: هذا ما يحدث حتى في قراءتنا الخاصة، إذ يقوم البعض بتدوين رأيه وملاحظاته على هامش الكتاب، وهذه الملاحظات في معناها نقد صامت لا نقصد نشره، كما أننا ننسأه بمجرد انتهائنا من القراءة، إلا أنه يكون قد حدد موقفنا ورأينا في الكتاب؛ بالمقابل، لا يقوم البعض الآخر بعملية التدوين، لكنه ينشط ذهنياً وينتبه لما يقرأ وتتم عملية النقد الصامت في الآن نفسه وتنهض ردود الفعل في النفس والذهن، ويتم التقويم الذي بدوره يؤدي الى ما أدت اليه الطريقة السابقة.

هاتان العمليتان المتلازمتان يقوم بهما الإنسان وفقاً لطبيعته الانسانية المطلقة: فما الذي يُضعف هذه الطبيعة؟ وكيف يُصاب الذهن والنفس بالوهم والسكون؟

في المفاصل التاريخية الكبرى، يحدث غالباً أن تستنبط قوى اجتماعية ذات نزوع مهيم، قواعد واساليب لغوية تكتسب سلطتها وثباتها من سلطة وموقع تلك القوى، وهي إذ توطئها بقوالب راسخة تنقلها عبر حواملها الثقافية الى مراحل تاريخية لاحقة، ضمن أنظمة واساليب معرفية واجتماعية، فهي بذلك ترسخ قيمها وامتدادها في الزمن، حتى بعد اندثارها الشكلي، إذ تبقى روحها منقولة وحية في تضاعيف اللغة وبناءها الاسلوبية.

الى جانب وسائل كثيرة، تقوم "البلاغة بفعلها الترويض عبر صياغتها الثابتة على المخاطب والخطاب والمتلقي: فالمخاطب سيطرح موضوعه الذي يعتقد أنه مهم، وهو معني به، ويريد ايصاله الى المتلقي عبر الصياغة البلاغية للغة"¹.

¹ - حمدة، خميس، "اللغة في الخطاب العربي سلطة البلاغة أم سلطة التبليغ"، مقال صادر بالمجلة الإلكترونية "نزوى"، بتاريخ فاتح يوليوز 2001، مسقط، سلطنة عمان

وأيا كان فحوى الخطاب، اجتماعيا أم سياسيا أم علميا أم أدبيا، فإن المخاطب قد لا ينتبه الى نوايا اللغة بحكم التعود، إذ أن صيغها الجاهزة متداولة، ولا غبار عليها، لكن خصائص البلاغة اللغوية لا تقول ذلك: فالكاتب/الخطيب لابد أن يدرك خصائص اللغة وغايتها من استخدام هذه المفردة أو تلك.

يقول ابو عثمان الجاحظ "كلام الناس طبقات كما ان الناس طبقات، فمن الكلام: الجزل والسخيف والمليح والقبيح والثقيل، وكله عربي، وتنزيل الكلام هذه المنزلة يحتاج الى تمام الآلة واحكام الصنعة واقتناع المتكلم بأن سياسة البلاغة اشد من البلاغة"¹. وهكذا، فإن المتكلم يعرف كيفية التبليغ، فان كان يريد فرض معرفة ما يعتقد ويؤمن بأنها صحيحة ومؤكدة ولا شك فيها، ولا تقبل بالاختلاف، فسوف يجد في صيغ كتلك غايتها، وتؤدي كل من اللغة والنية وظيفتهما.

أما إذا أراد ايصال معرفة يرغب في التأكد من صحتها باستطلاع وجهة نظر الآخرين فيها، وفي نيته طرحها للتحليل والجدل، فإن صيغا كتلك لم تسعفه، بنفس لاجدوى اعتماده على تذبذب نواياه الخفية التي يأمل المتلقي التقاطها، فالمتلقي تم ترويضه مسبقا عبر سياسة البلاغة، على حد قول الجاحظ.

يأخذ الحراك الاجتماعي والثقافي في مجتمعاتنا العربية أشكالا عديدة من الانشطة، أكثرها شيوعا وانتشارا تلك الندوات التي تقام لأسباب وغايات متباينة، سواء كانت ندوات علمية، أو ندوات ثقافية تتسع بسبب شمول المصطلح لخدمة كافة التوجهات، والتطرق لمختلف أشكال المعرفة والعلوم النظرية. ويلحظ المتتبع لهذه الندوات أن روحا من القبول والتوافق والانسجام تخيم على الجماهير التي تحضر الندوات أو كأن ليس في الخطاب – محور الندوة – ما يختلف عليه إثنان.

إلا أن المتأمل لسير الندوات سيدرك أن سر هذا الانسجام التام، يكمن في لعبة خفية يشترك فيها كل الاطراف كما سجلت شخصيا ذلك من خلال تتبع الندوات والمبادرات والوساطات التي تعقد حول ما يقع بالحسيمة والريف عموما أو ما عرفته العديد من بؤر التوتر واجتماعات التنسيق والتحكيم التي التأم فيها الفرقاء: فاللغة والمحاضر والشخص الذي يدير الجلسة والمتلقي، فبعد انتهاء المتكلم من تقديم خطابه، يفتح باب النقاش لمعرفة وجهات نظر الحضور في حيثيات الخطاب، لكن باب النقاش لن يكون سوى طقس يحكم اطار الندوة على المتلقي، لأن الترويض قد أنجز مسبقا بما تضمنته روح الصيغ الاستهلاكية من مصادرة لحق الجدل والشك، والالتباس والاختلاف، والمتلقي اذا استرسل في كلامه، وتضمن سؤاله نية النقد والجدل فسوف يتم تذكيره بضرورة تحديد سؤاله بدقة، حتى يتسنى للمحاضر ان يقدم له الجواب، مع تسييد ثقافة الخضوع والخنوع.

يفترض في الجواب إذن أن يحسم سؤال المتسائل، إلا أن بعض المتلقين قد اكتسبوا -إلى جانب الثقافة والوعي والخبرات- والقدرة على تحديد الموقف والرؤية وروح المشاكسة التي تجعل من سؤالهم مضمرا بروح النقد والجدل: عندها، يحتدم جو النقاش ويدخل مساحة التشكيك والاختلاف الذي يستفز المحاضر/الخطيب للرد، فينشأ الاحتدام، فينهض لحظتها أحد من الحاضرين ليصدح بشعار يجسد المداهنة في مضمونه الذي يشي بالخوف من الاختلاف، كما يشي برفض إثارتته: لذا، يغدو النقاش بعيدا عن موضوع الخطاب وتناقضاته، ونقاط تعارضه مع وعي جمهور التلقي، مع تحاشي تقاطعات آراء بين المتلقي والمحاضر، إذ إن الاختلاف قد قُئن مسبقا وتاليا بصيغ البلاغة والمجاملات الاجتماعية.

هذه الروح المَعَمَّمة عبر وسائط اللغة والمفعمة بالثقافة المقننة، وأشكال حواملها، ستفعل فعل المروّض والكابح لتطلعات الانسان وقدرته على تمحيص الامور، كما تُفقر حسه التحليلي والنفدي، وتضعف روحه التائقة للارتقاء والتغيير: أما الأمر الأنكى فهو ما يمكن ملاحظته من استئثار هذه الروح المروضة، والتي لن تحتسب لصالح المجتمع نفسه والامة نفسها، بل ستمتد الى كل ما يندس اليها من خارج هذين التحديدين.

¹- الجاحظ، ابو عثمان، البيان والتبيين، الجزء الأول، الاتجاهات اللسانية، د. مازن الوعر، مجلة عالم الفكر، الكويت

❖ عاشر- الخطابات الملكية بلسان عربي فصيح

لُغتنا العربية المنحدرة من سلالة اللغات الاولى للحضارات العربية القديمة ما جعلها تبدو وكأنها وهج من روح تلك العصور انسل إلى بعض اساليبها، وتضمنت خصائصها الاجتماعية، كحافظ ومُبلغ، ممثلاً في سطوة البلاغة، وأسرارها، كما في سطوة التداول وطرائقه.

لنتأمل ذلك فيما يذهب اليه د. مصطفى ناصف حين قال أن "البلاغة عاشت على أساس واضح: الكلمة عبارة عن مجموعة مقررة من الامكانيات، أمكن تسجيلها في تعريفات وافتراضات ثابتة، وهي (البلاغة) تنظر الى الكلمة باعتبارها نظاماً مقلداً له اسرارها، لذا علينا أن نعود في فهم الكلمات الى تسجيلات فقهاء اللغة! وليس علينا -بسبب من المرجعية الثابتة- أن نستيقظ يقظة كامنة في القراءة، فعلم البلاغة يفترض ان الكلمة التي تواجهنا قد عرفناها من قبل... كانت أبدية، فقيدت واستراحت، واسترحنا منها"¹.

ولقد كان الجمع في التنزيل بين الفصاحة والبلاغة حاضراً، لحظة حديث الهدد إلى سليمان عما رآه من ملك بلقيس: فقد كانت الفصاحة بحق في وضوح الخطاب، وكانت البلاغة في إيجاز هذا الخطاب.

هو إيجاز يحمل في ذاته من المعاني ما ينبئ عن ثراء الحضارة اليمنية، وبذخها ومجدها وبأسها. ولما كان الإيجاز واجبا في حضرة سليمان، كانت البلاغة الموحية في القصر، وكان القصر الدال في البلاغة، وكان ما كان من رد سليمان في بلاغة الإيجاز وهو يوجه رسالة إلى بلقيس.

يتبين من هذا أن الفصاحة والبلاغة في السياق الكلامي من جهة، والسياق الشعري من الجهة الأخرى، فضاء واحد ينبغي أن ينظر إليه في كليته في حال القراءة المسموعة، والإنشاد الموقع وحتى في حال القراءة الصامتة.

وفي الحالتين معاً، تكون قدرة المتكلم أولاً والشاعر ثانياً على الإفصاح والإبلاغ والتبليغ، بما يؤثر من جميل اللفظ، وجليل العبارة، قائمة بارزة، غير متوارية ولا متخفية.

ولما كان ذلك كذلك، كان البلاغ الفني بصفة عامة، وكان النص الشعري بصفة خاصة، عملاً إبداعياً كاملاً متكاملًا، تتعانق فيه الفصاحة والبلاغة وتتعالقان في سياق واحد من أداء الخطاب بطريقة جمالية.

وفي الحال التي يكون فيها البلاغ أو يكون النص هو المخصوص بالجمالية، أي هو الغاية بل هو الغائية، فإن الرسالة التي يريد المبدع إيصالها لا تغيب، ولكنها تحتاج من القراءة إلى كثير من الجهد اللذيذ في تعرف الأسرار، ووفرة من القدرة الممتعة على تكشف الأخبار، فيكون التحليل والتأويل ماثلين في هذه القراءة التي تكشف من بدء الخطاب إلى نهايته عما وراء الكلمات، والإيقاعات، والألحان والألوان، والصور والإيحاءات، من المعاني والمباني.

فالقواعد الكامنة في البلاغة هي "قواعد العبث بالفكرة، فكرة المتكلم والمخاطب معا بخفة"²، لذلك سميت هذه القواعد باسم "الصنعة"، وهذه الصنعة في البلاغة هي التي يمتحن فيها طلاب اللغة العربية في أعلى مراحل التحصيل العلمي! والتي لقنوا إياها منذ مراحل الابتدائية -بتدرج- عبر مناهج اللغة وعبر دروس الانشاء والتعبير، بل عبر كل وسائل التعامل بالفصحى.

¹ - ناصف، مصطفى، مرجع سابق.

² - المرجع نفسه

وعلى الرغم من "سعي تيار الحداثة في مشروعه الثقافي -والشعري على الاخص- لتغيير بنى اللغة ودلالاتها التقليدية، وعلاقاتها المؤبدة في إطار رسوخ البلاغة وقواعدها الثابتة، وانتشار بعض صيغ التغيير تلك بين المثقفين والمبدعين من الأجيال الحديثة"، إلا أن ذلك الرسوخ بقي عصيا على الاستجابة لدواعي التغيير، وربما يعود السبب إلى الثوابت في القيم الاجتماعية والسياسية، وغيرها من الرواسخ: فاللغة على أهمية دورها وقوته، تظل أداة تعبير، وليست أداة تغيير. وتكاد تتداخل الفصاحة مع البلاغة ويمتزجان بالإيجاز فيستمرزجانه كما في جواب صحرار لمعاوية حول البلاغة والإيجاز أو بلاغة الإيجاز.

إذا ما دققنا في الوحدات اللغوية التي يتضمنها هذا النص، نلاحظ وجود علاقة حوارية تواصلية بين ما تنتجه الأنا المتكلمة من خلجات ذاتية، وطلاقة اللسان، وبين الإيجاز في الكلام وتقديم المقصد في تركيب بلاغي موجز، فلا يكون هنالك إفراط في التبليغ ولا تفريط في توصيل الخبر وإتيان الدلالة منه، لأن "أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره"¹، وذلك وفقا لمقتضيات الحال، إذ لكل مقام مقال.

فالواقع أن الخطاب الملكي يحقق ثنائية التأثير والإقناع بالدليل: فقد أوتي حسن البيان وبراعة البراع في كل وضع خطابي يعتني فيه كرجل دولة بالدوال الدالة والمؤثرة والبنية المتناسقة، والصياغة الجمالية، دون تجاهل معطيات الحدث في حد ذاته.

فلخطابات جلالته بيان بلاغي خاص جعلها تنتج صياغة محكمة وتضع في ضوئها دوالها المنتخبة مؤدية للمدلولات المقصودة منها مطعما إياها بشيء من البلاغة التي جعلتها نماذج تحتذي مسالكها في الإخراج البلاغي.

فالخطبة السياسية وخطبة المحافل والخطبة الوعظية والوعدية كلها أجناس تتقاطع وتجد لها مقاطع في تضاعيف الكتابة الخطابية الملكية، ومرد ذلك، اجتماع العديد من الصفات والمهام في صاحب الخطاب: فهو العاهل الحامل لخطاب الإقناع، والمُفعل الفعلي لاستراتيجيات التنمية والإقلاع، والحامل لأمانة البيعة والإمامة الكبرى وإمارة المؤمنين وحماية حمى الملة والدين...

حديثني عن ثنائية التأثير والإقناع الذي لا ينفي حضور الإبداع يجعلني أدرك سر المسلك الذي سلكه جلالته في صياغة الخطابات الملكية والقائم على التركيب التراتبي والتناول المنطقي، دون إغفال نمط آخر يستحضر التشكيلات المتباينة للمنجز الكلامي لإخراجها إخراجا جماليا ودلاليا.

الحالة هذه تجعلني أنبه إلى أمر مفاده أن المحلل والباحث الأسلوبية ينبغي عليه أن يراعي وضع اللفظة في سياقها الكلي العام للمنتج الذهني وليس الاقتصار بدراساتها جملة أحادية الربين البليغ والمبالغ ومبلغ البلاغة والتبليغ، نبتعد عن الفهم الذي جعل التفاضل في امتلاك ملكة البلاغة على أساس ما ذهب إليه الزمخشري حين أقر أن ليس كل من يتعاطى البلاغة بليغ؛ إذ هناك من يبالي في كلامه ويتكلف في انتقاء اللفظ المشكل للبنية الكلامية، فهو في هذا الوضع لا يعدو إلا أن يكون مقلدا لا غير.

وقد حدد "الزمخشري" أصناف البليغ، فإذا ما تأملنا جيدا في الإشتقاقات التي تنطوي عليها الوحدات اللغوية، نلاحظ بأنها تجعل البليغ في مرتبتين:

- **بليغ حقيقي** يصدر كلامه من السليقة والفطرة، ليندرج ضمن شكل تعبير فني يكون من الناحية الفنية أرقى من الكلام العادي؛

¹ - المرجع نفسه، ص 60

- وبلغ متصنع يتكلف في إخراج كلامه، ويتصنع في نسج بنيته اللغوية التي يكون فيها شغله الشاغل إيجاد لفظ مزوق، أو كلام منمق فيه حشو للتجنيس والترصيع... وما إلى ذلك، وهذا في تصورنا ينقص من بلاغته؛ كونه يبالغ في وضع هذه الرسالة اللغوية التي يريد توصيلها.

وإذا كان مؤلف "لسان العرب" عند تحديده لدلالة مصطلح "البلاغة" لم يتطرق إلى فعل المبالغة في إخراج الكلام كما فعل "الزمخشري"¹، فقد وجدت أنه فصل نوعا ما في دلالة هذا المصطلح، حيث ذكر بأن له دلالات عديدة؛ إذ قال: "بلغ الشيء، يبلغ بلوغا وبلاغا: وصل وانتهى، وأبلغه هو بلاغا وبلغه تبليغا (...)"، والبلاغة الفصاحة، والبلغ والبليغ: البليغ من الرجال، ورجل بليغ وبليغ: حسن الكلام فصيحته يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه"¹.

فمصطلح "البلاغة" وفق ما ورد في لسان العرب لابن منظور² يعني الوصول إلى المراد المرغوب فيه، والانتهاء إلى الغاية المقصودة، وكذا الفصاحة والقدرة على تبليغ ما في النفس بطريقة سلسلة لا تذهب المقصود، وفي الوقت ذاته تحمل قدرا من الفنية والجمالية.

وبذلك يختلف "ابن منظور" عن "الزمخشري" الذي تحدث عن أصناف البلغاء - (بليغ حقيقي / بليغ متصنع) - ، فصاحب "لسان العرب" جعل الفصاحة هي ذاتها البلاغة، كما اهتم بحقيقة الوصول والانتهاء إلى الهدف انطلاقا من العملية التأليفية للبنية الكلامية، وكيفية صياغتها وتشكيلها الفعلي الذي يقوم به المتكلم، والفعل القرائي للكلام الذي يقوم به القارئ، فهو يرى أن البليغ بوصفه متكلم يسعى جاهدا إلى توصيل المعطيات الموقفية إلى المتلقي من خلال انتقائه للدوال المناسبة، ومراعاته للمدلولات المقصودة، فهو لم يكتف بالرجل البليغ المرسل للرسالة اللغوية؛ بل وضع في حسبان المتلقي.

وبفضل هذين الطرفين (المرسل-البليغ/ والمتلقي-المرسل إليه)، يتم التوجه نحو الهدف، ويتحقق الوصول والانتهاء إلى الحالة المرغوب فيها، ومن ثم تشكل البنية الكلامية بالنسبة للمتلقي مدخلا قرائيا مهما، وذلك لاستنباط أساسيات العملية الإنشائية للكلام، المتكئة على رؤية معينة للمتكلم، الذي يعمل على الاستدلال على المغزى التواصلية للكلام.

ويشارك كل من المتكلم/المرسل للكلام والمتلقي/المستقبل للكلام في الحضور التفاعلي للفعل التواصلية، المعتمد على مكونات التفاعل والتواصل بين المواقف المتباينة، المصورة للنموذج اللغوي البلاغي وفق الفعل الكلامي، الخاص بالمواضيع المتطرق إليها، فكل موضوع يقتضي من المتكلم لغة بلاغية خاصة به، واضعا نصب عينيه مستوى السامع/المتلقي/المستقبل الذي يستقبل الكلام؛ لأن الأفكار لا يمكن في رأينا أن تحقق المقصدية مما يريده المتكلم إلا بلغة بلاغية يسهل فهمها على المتلقي.

يحضرني سؤال كنت قد أثرت طي صفحته، حول إصرار الخطاب السياسي والساسة على البحث عن الترادف في اللغة، وما أكثر ما قرأت هذه الأزواج المترادفة ومثيلاتها، حتى في المقالات الصحفية مثل: الجلبة والضوضاء، هاشا وناشأ، الأهوال والأوجال، عناء ومشقة، على كره ومضض... فإذا كانت هذه التراكيب تُرضي غرور تلميذ يكتب "الإنشاء"، فإنها من عيوب الأساليب العربية المعاصرة، والعلمية منها بوجه خاص وتعييب الخطاب السياسي، لاسيما وأنا نعيش اليوم عصر علم وسرعة وإيجاز، فما أحرى المرء بتجنب هذا اللهو اللفظي، والأخذ بالأسلوب الموضوعي الدقيق.

¹ الفصاحة: يقال: "صح: الفصاحة: البيان، فصح الرجل فصاحة فهو فصيح من قوم فصحاء (...)" وكلام فصيح أي بليغ (...). ولقد فصح فصاحة وهو البين في اللسان والبلاغة، والتفصيح استعمال البلاغة (...). والفصيح اللغة: المنطلق اللسان في القول الذي يجيد جيد الكلام من رديته".

² ينظر: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المعروف بابن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، جمهورية مصر العربية، طبعة جديدة ومحققة ومشكولة شكلا كاملا ومزينة بفهارس مفصلة (د ط)، 1981، مج 5، من حرف ع إلى حرف ل، ص 3419-3420.

فينبغي إذن تحري تبسيط اللغة، والتبسيط الذي أقصده يوافق ما أورده أستاذ النقد العربي "محمود تيمور" في كتابه مشكلات اللغة العربية، حين دعا إلى "تحديد معاني الألفاظ تحديدا منطقيا، فلا نسرف في اصطناع المترادف الذي يجعل الألفاظ غير مفصلة على قدور المعاني"¹: فالكل يقر بغنى اللغة العربية، ويشير إلى عشرات الأسماء في اللغة للمسمى الواحد، كأسماء السيف والرمح والفرس والناقة والأسد والقط وغيرها: لكن، هل الترادف المذكور يثري اللغة ويرتقي بها فعلا، أم هو انتفاخ وترهل يتقلان كاهلها، ويعيقان حركاتها في هذا العصر العاصف؟

لا بدّ أولا من السؤال: هل يمكن أن يكون الترادف، بمعنى قيام أكثر من لفظ لدلالة واحدة، من سمات اللغة في منشئها الأول؟ هل يعقل أن تكون اللغة في مراحلها البدئية ابتكرت أكثر من كلمة لتؤدّي جميعها معنى واحدا، أم هو ظاهرة لغوية متأخرة نشأت خلال قرون طويلة من تداول اللغة وتسخيرها في تلبية حاجات أسلوبية وبلاغية طارئة؟

ويرى "الشدياق" في استطراد بديع أن الترادف ليس أصيلا في اللغة، ولكنها ألفاظ كانت متقاربة الدلالة ذهب تداولها على مر العصور بالفوارق الدقيقة بينها، فبدت لنا نحن المتأخرين مترادفة: "على أني لا أذهب إلى أن الألفاظ المترادفة هي بمعنى واحد وإلا لسموها المتساوية، وإنما هي مترادفة بمعنى أن بعضها قد يقوم مقام بعض فخصّت العرب كل نوع منها باسم، ولبعد عهدهم عنا تظنّيناها بمعنى واحد"².

كما لا يستحسن أيضا التلهي بالجمال المتساوقة والتكرار والترادف، كما كان دأبُ الكتاب في "عصر الانحطاط" أو في عصر "الإنحطاط السياسي" الحالي. فإذا كان صحيحا أن هذا "اللهو البديعي" قد يثري الإيقاع، إلا أنه بالمقابل "ينفخ" النص، ويضفي عليه الابتذال والسطحية: "فاللغة الحسنة تتوقّى المترادفات، لأنها ثرثرة صبيانية يضيع بها الوقت، والكاتب الذكيّ يحيل المترادفات من التوحيد إلى التنويع... فنحن نميّز الآن بين الذهن والعقل، وبين الروح والنفس، وبين الحكومة والدولة، وبين المثقف والمتعلم، وهذا حسن، وكذلك نتبع الأسلوب التلغرافي ونختار الكلمة التي تحمل العبرة فضلا عن المعنى"³.

أما الخطب التي ألقيت في الجاهلية وفي صدر الإسلام فكانت قصيرة، حتى أن خطب رسولنا صلى الله عليه وسلم كانت موجزة وواضحة، وتركيبية الجمل بسيطة وخالية من الزخرفة، وما تكرر من الجمل فقد كان بنية التركيز على أمر ما وتقريره في ذهن السامع، عكس القادة السياسيين العرب اليوم الذين تتميز خطبهم بالطول وبتكرار الكلمات وبتكرار جمل كاملة وبإدخال الجمل المعقدة.

ولا أكاد أُلقي في التاريخ شواهد تومئ بحرص الفاتح "طارق بن زياد" على الصناعة اللفظية: فلما استقر بأرض الأندلس، قام في أصحابه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم حثّ المسلمين على الجهاد ورغبهم في الشهادة، ثم قال: "أيها الناس، أين المفر؟" لما رأى طارق ما كان الناس فيه من الشدة بعد أن اقتتلوا ثلاثة أيام أشد قتال، فقام يعظهم ويحضّهم على الصبر ويُرغبهم في الشهادة ثم قال: أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم...". فإن صحت رواية من عاصروه، فلا يُعقل أن الرجل تهيا للخطبة، فانصرف إلى ناحية ليكتب، أو يصنع خطابا حماسيا والمعركة مُشدّت أوارها، مُعتل غبارها.

ومهما يكن من أمر، فالأكيد أن الخطبة استدعتها حالة واحدة وظرف لا يختلف حوله المؤرخون: وهو فتح الأندلس، سواء أكان قبل المعركة، والتحام الجيوش، أم بعد التحامها واحتدام المعارك. وللإجابة عن السؤال المدخل، لا بد من توافر عوامل معينة في أي عمل حتى يتصف بالبلاغي. فهل حققت الخطبة هذه العناصر؟

¹ - محمود تيمور، مشكلات اللغة العربية، مكتبة الآداب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص. 11

² - أحمد فارس الشدياق، الساق على الساق فيما هو الفريق، الدار النموذجية للطباعة والنشر، بيروت، 2006، إعادة إخراج وتصنيف لنسخة باريس 1855، ص. 80

³ - سلامة موسى، البلاغة العصرية واللغة العربية، سلامة موسى للنشر والتوزيع، القاهرة، 1964، الطبعة الرابعة، ص 15

ليس هينا الجواب بنعم دون إثبات قوالب التحقيق، لسانيا، ولغويا، وليس صحيحا الاعتقاد بغير ذلك، ولكني أجد في أنفسنا ميلا إلى التحليل الحجاجي التعليلي: فالأمر يتعلق بخطبة مرجعية في فن الخطابة، وخطة عسكرية تلهب الحماس، ومادة تاريخية قبل أن تكون تاريخية، وأنموذجا في التصدي للمحن وقت الإحن.

والمقصود بالحجاج، كما يعرفه ماس وكما أورده محمد العبد¹ نقلا عنه بكونه "سياق من الفعل الكلامي، تُعرض فيه فرضيات وادعاءات مختلفة في شأنها...": فما الذي فعله الخطيب كلاميا؟ وما الذي عرضه من فرضيات؟

فلا بد إذن للخطيب من توظيف ترسانة حجاجية لإقناع المستقبل، أو المتلقي، وكان ابن زياد في هذا الظرف أحوج ما يكون إلى هذا الفعل الكلامي المعاضد للفعل الجهادي.

وقد ردّ الدكتور "بكري شيخ أمين" على ذلك في كتابه البلاغة العربية في لبوسها الجديد "علم المعاني"، فيقول في تعريف البلاغة: "البلاغة العربية تتمثل أولاً وأخيراً في النصوص المكتوبة أو الملفوظة وحدها". ولما سئل عنها "ابن المقفع" أجاب أن "البلاغة اسم يجري في وجوه كثيرة، منها ما يكون في السكون، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون سجعاً ومنها ما يكون خطباً، وربما كانت رسائل، فعامّة ما يكون من هذه الأبواب، فالوحي فيها، والإشارة إلى المعنى أبلغ، والإيجاز هو البلاغة".

على أنني لا اختلف البتة مع ما أورده ابن المعتز من أن البلاغة "هي البلوغ إلى المعنى، ولما يَطْلُ سَفَرُ الكلام"، ولا أتخلف عن ركب "الخليل بن أحمد الفراهيدي" حين سار يقصد إلى ديار تعريف البلاغة فأقر لها بأنها "ما قُرب طرفاه، وبعُدَ منتهاه، فالسكوت بلاغة، والاستماع بلاغة، والإيجاز بلاغة...": إني إذا ما أخذت بهذه الأحكام، جاز لي القول قياساً: المشي بلاغة، والأكل بلاغة، والشرب بلاغة، والضحك بلاغة، والصغير بلاغة، في بعض الحالات... أبداً، هذا ليس بصحيح، إذ أنني أستطيع أن أدعو تلك التصرفات "تكيفاً" مع الموقف أو "تلاؤماً" مع الظرف، ولا اجد في نفسي حرجاً إن أطلقت عليها أي اسم أو صفة، ولكن لا يمكن بأي حال من الأحوال وسمها بوسم "بلاغة".

والإيجاز بدوره فقد يكون من البلاغة حيناً ما دام ينسرب في الكلام المحكي أو المكتوب، ومن غير البلاغة حيناً آخر، وقد يكون الموجز مصيباً في موقف، وغير مصيب في موقف آخر.

فبإمعان النظر في قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام إذ سأله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَمَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى. يمكن لسائل بدوره أن يتساءل أوليس الله -جلّ جلاله- هو الذي خلق موسى، وخلق عصاه، ويعرف السبب من أجله حمل موسى عصاه؟ إذن فلماذا كان السؤال أولاً؟ ولماذا كانت هذه الإجابة المسهبة المفصلة؟ ألم يكن أولى بالمجيب أن يختصر، ولا سيما أنه في حضرة ملك الملوك، ومن يعرف الظاهر والباطن، والسرّ وأخفى؟ ألم يكن بعيداً عن البلاغة في رأي ابن المقفع، وابن المعتز، ومن عرّف البلاغة بالإيجاز؟

فإذا كان جمهور متذوقي البلاغة يُقرّون بالتعريفات أو بالآخرى الاوصاف التي أعطيت للبلاغة من حيث هي "إيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خطل" و "ومن أنها تصحيح الأقسام واختيار الكلام، ومن أنها وضوح الدلالة (...) وحسن الإشارة، ومن أنها قول تضطر العقول إلى فهمه بأيسر العبارة، ومن أنها إجاعة اللفظ وإشباع المعنى"، يتبدد هذا الإجماع عند الدكتور "بكري شيخ أمين" الذي رأى أنهم "مخطئون من قَصَرُوا البلاغة على الإيجاز، دون قيد أو شرط، لأنهم نسوا أن الإيجاز عيب حين يكون الحبيب مع الحبيب، وحين تحلو النجوى، ويلذ الحديث، وتطيب المناجاة".

¹ - محمد العبد، النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع، ص: 44

وهل كان موسى -عليه السلام- إلّا محبّاً أو حبيباً في آن واحد؟ وهل أحبّ إليه من هذا الموقف الرائع يسأله حبيبه الذي فضله بالرسالة، واصطفاه واجتباها؟ ويجيبه موسى يفصل له، ويشرح، وموسى إن لم يسهب في مثل هذا الموقف، فأين يحسن الإسهاب، ويُستحب الشرح والتفصيل؟ عبثٌ إذن أن نقول: السكوت بلاغة، والاستماع بلاغة، والإيجاز بلاغة وأمثال هذه الأقوال، لأن الظروف أحكامها، والمواقف متطلباتها... والبلاغة الحق، إضافة إلى كونها المكتوب أو المسموع، هي التي تقدر الظروف والمواقف، وتعطي كل ذي حق حقه، سواء أكانت شعراً أم نثراً، مقالاً أم قصة، مسرحية أم حكاية، مديحاً أم هجاءً، غزلاً أم استعطافاً¹.

ويتابع "بكري شيخ أمين" حديثه خلال المبحث الثامن لنفس الكتاب "البلاغة العربية في ثوبها الجديد علم المعاني"، وعنوان الفصل هو "الإيجاز والإطناب والمساواة".

ويعود إلى المقدمة التي بدأ بها كتابه فيقول: وخرجنا بنتيجة أن البلاغة ليست في الإيجاز، ولا في الإطناب... إنما البلاغة أن نخاطب الناس على قدر عقولهم².

وإذا انتقلنا إلى المعاجم التي ظهرت في العصر الحديث فإننا نجد من أبرزها "محيط المحيط" الذي يظهر لنا بأن صاحبه حاول تناول دلالات مصطلح "بلاغة" في نطاقه الواسع وبشكل أكثر دقة، حيث قال "البلاغة: الفصاحة، وعند أهل المعاني أخصب من الفصاحة، والفرق بينهما أن الفصاحة يوصف المفرد والكلام والمتكلم، فيقال: كلمة فصيحة وكلام فصيح، ورجل فصيح، والبلاغة يوصف للكلام والمتكلم فقط، فيقال كلام بليغ ورجل بليغ ولا يقال كلمة بليغة، والبلاغة تطلق عند أهل المعاني على معنيين، أحدهما بلاغة الكلام تطلق وتسمى بالبراعة والبيان، والفصاحة أيضاً وهي مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته، وهي سلامته من التنافر والتعقيد ونحوهما؛ وثانيهما، بلاغة المتكلم، وهي ملكة يقندر بها على تأليف كلام بليغ. وعلم البلاغة يطلق على علم المعاني والبيان، وقد يطلق على فن البديع أيضاً³.

من يتمعن في هذا النص يخلص إلى أن صاحبه قد سلك نفس المسلك الذي اتبعه "الزمخشري" في قوله بأن البلاغة ملكة يتم بفضلها وضع التشكيلات الكلامية، وإحداث التآلف التنظيمي الوظيفي بين وحدات الفعل الإنجازي الكلامي المعبر عن آليات معرفية متباينة.

ويروم المتكلم من وراء البلاغة تحقيق هدف معين بغية الوصول إلى إفهام شريكه في الفعل التفاعلي التواصل بمساعدة الأنظمة المعرفية التي يحتويها الكلام.

وبناء على هذا السياق، يتضح لنا بأن "طه حسين" كان واعياً بتلك الأفعال الثلاثة التي تتركب منها البنية النصية (الفعل التحاوري/الفعل التواصل/الفعل التكافئي)، وما يقع بينها من تشابك يستلزم استيفاء الشروط الأولية في العملية الإخراجية للمنجز الكلامي مثل تحقيق الصلة بين الألفاظ بعضها وبعض، والابتعاد عن العيوب الناشئة عن تنافر الحروف، والحرص على سلامة اللغة ومراعاة العملية الانتخابية للدوال حتى تؤدي المدلولات المقصودة... وما إلى ذلك من الشروط التي لابد للمتكلم أن يهتم بها أثناء تشكيله للمنجز الكلامي دون أن يغفل ذات المتكلم المرسل التي يجب أن تمتلك القدرة والاستعداد على إحداث الفعل الإخراجي لكلام في صورة بلاغية تسترعي انتباه المرسل.

¹ - بكري شيخ أمين - البلاغة العربية في ثوبها الجديد - الطبعة الرابعة - دار العلم للملايين - بيروت - 1995، ص 15

² - بكري شيخ أمين، نفس المرجع، ص 17

³ - المعلم بطرس البستاني: محيط المحيط، قاموس مطول للغة العربية، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1993، ص 53

وتقترب بلاغة الخطاب الملكي من الفهم الذي قدمه عبد الله بن محمد بن جميل المعروف بالباحث "البلاغة الفهم والإفهام، وكشف المعاني، ومعرفة الإعراب، والانتساع في اللفظ، والسداد في النظم، والمعرفة بالقصد، والبيان في الأداء، وصواب الإشارة، وإيضاح الدلالة، والمعرفة بالقول، والاكتفاء بالاختصار عن الاكثار، وامضاء العزم على حكومة الاختيار.. قال: وكل هذه الأبواب محتاج بعضها إلى بعض، كحاجة بعض أعضاء البدن إلى بعض، لا غنى لفضيلة أحدها عن الآخر، فمن أحاط معرفة بهذه الخصال فقد كمل كل الكمال، ومش شذ عن بعضها لم يبعد من النقص بما اجتمع فيه منها.. قال: والبلاغة تخير اللفظ في حسن إفهام"¹.

وفي ثنايا هذا الفهم لا يفوتني أن أنبه على أن المتكلم /المرسل يسعى إلى تحديد الدلالة المقصودة المتضمنة داخل التعبير /الكلام المستخدم، والمعتمد على العناصر التي يتحقق بها التركيب والسبك والسياق، والبادية في الخطاب الذي يتوافر على أقطاب الجسد الكلامي من باث ومتلقي.

في هذا السياق، يقوم الباث بالوظيفة التعبيرية أو الانفعالية التي تتمحور حول نقطة الإرسال لتدل على أفكاره إزاء حالة من الأحوال بلفظ فصيح، وتألّف كلام بليغ، تتم صياغته بشكل بلاغي متميز.

وأنا في هذا المقام الذي أتحدث فيه عن موقع البلاغة بين أهم قطبي العملية التواصلية "المتكلم /الناطق" (الذي تتحدد مهمته في إرسال وإفهام الرسالة اللغوية)، و"السامع /المتلقي" (الذي تتعلق مهمته بضرورة تلقي وفهم تلك الرسالة اللغوية)، وبحضرة طائفة من البلغاء في تحديد مفهوم البلاغة كما تصورها كل واحد منهم، يمكن تحديد مفهوم البلاغة بأنها:

- وضع الكلام في موضعه من طول وإيجاز؛
- وتأديده المعنى أداءً واضحاً بعبارة صحيحة فصيحة لها في النفس أثر خلاب؛
- مع ملائمة كل كلام للمقام الذي يقال فيه وللمخاطبين به.

وألأمس من هذه الوحدات اللغوية المكونة لهذه البنية النصية التي اعتمدتها هنا بأن هنالك علاقة وطيدة بين البلاغة والدلالة؛ أي بين القدرة على الإبلاغ وإثبات الدلالة وكذا العناية بالإخراج الفني للكلام، حيث يتراءى لنا بأنه لا يمكن إحداث الفصل بين الجانب الجمالي والجانب الدلالي في البلاغة العربية.

فالكلام لا بد أن ينطوي على الجمال بوصفه آلية من آليات التعبير وكذا قوة التأثير، وكأننا بالجمالية البادية في الخطاب نتصل به من ناحية عملية إبداعه (إبداع الخطاب بطبيعته ونظرياته)، ومن ناحية عملية تلقيه (تلقي الخطاب بممارسته ونظرياته).

ومهما يكن من شيء، فيتعين أن أشير إلى أن الخطاب تبرز فيه وسائل فنية ومقومات دلالية تجعل منه كيانا تركيبيا دلاليا متضمنا للبلاغة التي تعد "أحد فروع علم اللغة العام، تبحث في وظائف البيان وإبراز خصائصه وتأثيره في بناء الأثر ودلالاته الجمالية في تصوير ووصف العناصر التي تشكل عالم النص"².

فالفاعلية البلاغية بين طرفي الخطاب يطبعها عنصر جمالي داعم ومساعد ومعاوض على التكتيف الدلالي، وذلك بغية تجسيد الفعل التأثيري، وكذا الإقناعي بين هذين الطرفين.

¹- عبد العزيز عتيق: في البلاغة العربية، علم المعاني، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت لبنان، طبعة 1974

²- سمير سعيد: مشكلات الحداثة في النقد الأدبي الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 2002، ص. 259

وقد اتضح لي أن هذا الأمر لا يتأتى للمتكلم البليغ إلا إذا كان مراعيًا للأسس البلاغية المتعارف عليها، لأن "البنية النصية إذا اكتسبت لفظًا حسنًا، وأعارتها الذات المتكلمة مخرجًا سهلاً، ومنحتها كثافة دلالية، استقطبتها الذات المتلقية"¹.

فالتفاعل الاتصالي ضمن هذا المفهوم نشاط يقوم على التبادل الكلامي بين باث يرسل رسالته إلى متلق، ليجلب انتباهه نحو هدف ما، مرتكزا في ذلك كله على شبكة من العناصر الضرورية لإنجاح الفعل الاتصالي بين كل من الباث والمتلقي، المستخدمين لوسائل محددة للتأثير على بعضهما البعض.

ولعل تعريف "عبد الله بن محمد بن جميل" للبلاغة يبقى الأقرب إلى هذا التعريف، كما أن مفهوم "أبي الحسن الرماني" للبلاغة متصل أكثر بأصلها ومباحثها.

ولكن البلاغة قبل هذا وبعد هذا فن قلبي يعتمد على الموهبة وصفاء الاستعداد، ودقة إدراك الجمال، وتبيين الفروق الخفية بين شتى الأساليب.

ولابد لطالب البلاغة من أمرين: قراءة عميقة متصلة لروائع الأدب وحفظ ما يستجده منه، ومران على التعبير من وقت لآخر عن بعض ما يجول في خاطر وتحيش به النفس. ولا شك أن تضافر هذين الأمرين معًا يعينان على تكوين الذوق الأدبي ونقد الأعمال الأدبية والحكم عليها.

ومن السهل أيضا أن نلتبس في أقوال البلغاء السابقة عناصر البلاغة، وهذه العناصر هي: اللفظ، والمعنى، وتأليف الألفاظ على نحو يمنحها قوة وتأثيرًا حسنًا، ثم الدقة في اختيار الكلمات والأساليب على حسب مواطن الكلام، وموضوعاته، وحال السامعين، والنزعة النفسية التي تسيطر عليهم.

وعلى هذا، فلا بُد للبليغ من التفكير في المعاني التي تموج في نفسه على أن تكون صادقة قوية يتجلى فيها أثر الابتكار وسلامة الذوق في تنسيقها وحسن ترتيبها، فإذا تحقق له ذلك اختار لها من الألفاظ الواضحة المؤثرة ما يتلاءم وطبيعتها ويعبر عنها أجمل تعبير.

ومع ذلك، ينبغي أن نتذكر دائما أن البلاغة ليست في اللفظ وحده، وليست في المعنى وحده، وإنما هي في الارتباط العضوي بينهما، وأثر لازم لسلامتهما وانسجامهما.

المطلب الثالث/ سياق التداولية وتداولية السياق²:

❖ أولا- عناصر السياق الموقفي للخطابات الملكية

سأتناول في هذا المطلب علاقة السياق بالدرس التداولي، حتى يكون بوسعي فيما بعد معالجة عناصر السياق الموقفي، قبل الحديث عن محددات الخطاب بوصفه نموذجًا تواصلياً يراعي فيه جلالته أحوال جمهور التلقي، وما يجول بخاطره ويعتمل بداخله أثناء تلقيه للرسالة.

¹ - سامية بن يامنة: الاتصال اللساني بين البلاغة والتداولية، مجلة "دراسات أدبية" التي يصدرها "مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعليمية" (مجلة دورية فصلية محكمة)، الدار الخلدونية للنشر والتوزيع، القبة، الجزائر، العدد الأول، جمادى الأولى، ماي 2008، ص. 53

² - جاء مصطلح "التداولية" انطلاقا من الأصل اليوناني pragma "الذي يعني" العمل action "ومنه اشتقت الصفة اليونانية pragmatics "الذي يحمل على كل ما يتعلق بالعمل. ينظر: طاهر لوصيف، "التداولية اللسانية"، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، العدد 17، يناير 2006، ص 8

كما ساقف على مساحات مراعاة جلالته كمرسل عناصر السياق الأخرى (عموم الشعب المغربي كمرسل إليه، علاقة الولاء والبيعة بين الملك والشعب، الوسيلة اللغوية للخطاب، المعرفة المشتركة)، على أساس إرجاء الحديث عن قنوات الاتصال ظلال الفصل الموالي في الشق المتعلق بالوسائل.

كخطاب يتسم بالتفاعل، وجدت أن جلالته قد وظف عددا من المقولات اللغوية الدالة عليه في خطابه وعلى منزلته بالفهم الذي قدمه "مانغونو" للمكانة، فتراوحت المقولات بين أسلوب الأمر، وتوقع ردود أفعال المتلقين وتفنيدها، وتوقع طرح أسئلة والرد عليها بنعم وكلا وعدد من المؤشرات الدالة على حوارية الخطاب الملكي وطابع المناظراتي غير المعلن.

ولم تغب عني اللحظة من اللحظات ملامح اللغة المنطوقة لأنني أتعامل مع خطاب ملكي شفهي لمتن غير مرتجل، لا تكرر فيه، وحذفت فيه أدوات الوصل، في مقابل تواتر الخطاب المباشر والجمل القصيرة، وتوظيف المؤكدات اللغوية، وأسلوب الأمر والنداء، فضلا عن الأسلوب الإفصاحي، خدمة لاستراتيجيات خطابية تختلف وفقا لاختلاف عناصر السياق، حيث نلني غلبة الإستراتيجية التضامنية، متبوعة بالإستراتيجية التوجيهية، ولا تحضر الإستراتيجية الإقناعية إلا بشكل استثنائي وتكاد تختلط بالإبلاغية الصرفة.

ويُسخر جلالته لكل استراتيجية وسائل لغوية معينة: فتنتال مثلا صيغ التضامن مع جمهور التلقي من خلال الإشارات، والخطاب غير المباشر، والإشادة والإستحسان، وتأنيب الآخر (وحتى الذات أحيانا) والإستهجان، والمكاشفة وإنكار الذات؛ ويحضر الأمر، والتحذير، والتوجيه المركب، والعرض والتحضيض والتمني، باعتبارها وسائل لغوية داعمة للخطابات التي وردت باستراتيجية التوجيهية، في مقابل ندرة آليات الاستراتيجية الإقناعية التي اقتضت في تصريحها لبعض القضايا التي اقتضت التبرير أكثر من التفسير، فتوزعت تلك الوسائل بين ما هو لغوي صرف (أدوات التعليل، والتركيب الشرطي، والوصف، والألفاظ الانفعالية)، وما هو بلاغي (الاستعارة، والتشبيه، والمحسنات البديعية)، فضلا عن ما هو شبه منطقي (الصيغ الصرفية، والروابط، والسلاسل اللفظية...).

وللدرس التداولي من الثراء ما يجعله قادرا على تقديم العديد من الإجراءات، سواء على مستوى الاستعمال اللغوي الطبيعي أو على مستوى الخطاب الأدبي.

وعليه، فإن الحديث عن التداولية وعن شبكتها المفاهيمية يقتضي الإشارة إلى العلاقات القائمة بينها وبين الحقول المختلفة لأنها تشي بانتمائها إلى حقول مفاهيمية تضم مستويات متداخلة، كالبنية اللغوية وقواعد التخاطب، والاستدلالات التداولية، والعمليات الذهنية المتحركة في الإنتاج والفهم اللغويين، فضلا عن علاقة البنية بظروف البناء والتشكل والاستعمال.

لا شك أن أي تحليل نصي يغفل التماسك التداولي، هو تحليل غير مكتمل ويعتوره التقصير، إذ لا يمكن لمحل النص الاقتصار على مستوى واحد من هذه المستويات، حيث "ينتقل مفسر النص بين هذه المستويات مستندا إلى تصورات ومفاهيم وقواعد وقواعد اصطلاحية ومعرفية تتأزر فيها لتقديم تفسير متكامل"¹: ولأهمية هذا المستوى، اعتبر بعض الباحثين "النص/الخطاب ظاهرة تداولية والقول وحدة تداولية لا غير"².

¹ - سعيد بحيري، علم لغة النص: المفاهيم والاتجاهات، الركة المصرية العالمية للنشر-لونغمان، الطبعة الأولى، 1997، ص. 145.

² - أن رويول، جاك موشلار، التداولية اليوم، علم جديد في التواصل، ص. 215.

وهنا، يتعين النظر إلى ما قرره "فان ديك" وأقرّه من "أن التداولية الكبرى دراسة التنظيم الشامل للفعل المشترك -الإنجاز-، أعني متوالية أفعال الكلام والسياق وعلاقتها ببنية الخطاب (...) فلا ينبغي إغفال أن الفكرة الأساسية في التداولية هي أننا عندما نكون في حال التكلم في بعض السياقات، فنحن نقوم أيضاً بإنجاز بعض الأفعال المجتمعية؛ وأغراضنا ومقاصدنا من هذه الأفعال، حيث تتغير صورة معرفة المخاطب تبعاً لأغراض المتكلم تغييراً ملحوظاً وفي معنى مبتذل، فنحن عندما نعد أو ننصح إنما نريد أن يعلم المخاطب بأننا نقدم له وعداً ونسدي له نصحاً. وهذا العلم أو المعرفة هي ثمرة إخراج وتأويل صحيح لقوة فعل الكلام، وفي ذات الوقت فنحن نريد أن يعلم المخاطب (ما) يحكم به أو ما يكون محكوماً به وموجوداً، ومنصوحاً به، أعني ما هو الأمر والشأن، وما ينبغي أن نفعل أو سنفعل في بعض العوالم الممكنة (وفي معظم الأمر في عالم واحد متحقق)¹، حيث يرتبط مقصد المتكلم بالسياق.

من هنا، وجب الاهتمام بالسياق الذي يجعل من النصّ يحقق وظيفته وغرضه في عملية التواصل، حيث تحقق متوالية الأفعال الكلامية ووظيفة كلية شاملة، أي أن الفعل الكلي الشامل بالنظر إلى نوع النصّ يمثل المقصد الرئيس للمتكلم من نصه، وقد لا يكون اكتشاف هذا المقصد من السهولة بمكان في بعض النصوص التي تحوي فيما وراء النصّ مقاصد خفية أو إضافية، وربما كان النصّ في وادٍ وقصده في وادٍ آخر.

ومن أجل ذلك، فإنه من الواجب استعمال بعض القواعد المساعدة لقواعد "فان ديك" في الوصول إلى الفعل الكلامي الإنجازي الشامل، ومنها:

- 1- الاهتمام بـ **سياق الموقف**، وبأبعاد العلاقة بين المتكلم والمخاطب.
- 2- الاهتمام بـ **الحيز الموقعي** الذي يشغله الفعل الكلامي بالنظر إلى نوع النصّ، وإلى قدرات منتج النصّ الأسلوبية؛
- 3- الاهتمام بـ **تصنيفات أنواع الفعل الإنجازي الكلامي المفرد السائدة في النصّ المعين لوضعها في تواتر نسبي مع أنواع الأفعال لأخرى**².

وعليه، سأورد الحديث عن السياق في سياق الحديث عن أهم استراتيجيات التأثير في الخطاب الملكي بحكم سابق تأثر بمقام وسياق ومقتضى الحال، حيث لا يمكن الحديث عن السياق الخطابي في الخطابة المولوية معزولاً عن الإستراتيجيات المرتبطة به، سواء تعلق الأمر بـ **الإستراتيجية التضامنية** (عناصرها وآلياتها)، أو **الإستراتيجية التوجيهية** (ومسوغات استعمالها ووسائلها اللغوية)، أو **الإستراتيجية الإقناعية** (ووسائلها اللغوية، والصرفية، والبلاغية وشبه المنطقية)...

إلا أنه يمكن القول مبدئياً أن جميع المظاهر الموجودة في الخطابة السياسية عموماً والخطاب الملكي خصوصاً تظل رهينة الظروف السياقية: فنجاح أي مظهر من هذه المظاهر يعود إلى السياق الخطابي الذي أنتجت فيه.

وقد عرفت الدراسات اللسانية نقلات معرفية جذرية وتطوراً في معالجتها للظواهر اللغوية؛ فبعد أن كان كثير من اللسانيين يهتمون بالبنى اللغوية من حيث تراكيبها ودلالاتها، راح الدرس اللساني الحديث يهتم بجانب آخر، يطلق عليه "التداولية" المقابل لمصطلح *pragmatique* والذي ترجمه الأستاذ طه عبد الرحمن بمصطلح "تداوليات"؛ حيث يقول: ("وقد وقع اختيارنا منذ سنة 1980 على مصطلح "التداوليات" مقابلاً للمصطلح "براغماتيقا"، لأنه يوفي المطلوب حقه باعتبار دلالاته على معنيي "الاستعمال" و "التفاعل معاً")³.

¹- يُنظر: فان ديك، النصّ والسياق، ص. 292 وما بعدها

²- جمعان عبد الكريم، إشكالات النصّ، المركز الثقافي العربي، 2009، ص. 477.

³- طه عبد الرحمن: "في أصول الحوار وتجديد علم الكلام" المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. المغرب. الطبعة الثانية، 2000، ص. 62.

وهناك من أطلق على التداولية تسمية "السياقية"؛ حيث ربط "مانغونو" البحث التداولي بالسياق، فرأى أن "المكون التداولي يعالج وصف الملفوظات في سياقاتها"¹.

وعليه، تعتبر التداولية دراسة للاستعمال اللغوي في التواصل، خاصة العلاقات القائمة بين الجمل والعبارات داخل السياقات والمقامات التواصلية المختلفة، إذ يمكننا اعتبار التداولية مقاربة للغة ليس من حيث هي بنية مجردة مكتملة، بل من حيث هي تلفظ في سياقات مختلفة، ووفق مقاصد معينة وقوانين تخاطبية محددة: فالتداولية هي دراسة الاستعمال اللغوي في الطبقات السياقية المختلفة، فضلا عن أن "كل منطوق لغوي من المنظور البراجماتي ليس منطوقا من مضامين فحسب، بل هو منطوق من المقاصد أيضا"²، ومدارها يظل "مقاصد وغايات المتكلم وكيف تبلغ مستمعا أو متلقيا"³.

في تلك المعاني تحديد مهامها - التداولية - باعتبارها "كلاما محددا"، صادرا من "متكلم محدد" وموجّها إلى "مخاطب محدد"، ب "لفظ محدد"، في "مقام تواصل معيّن"، لتحقيق "غرض تواصل مخصص". من خلال تحديد السياق، صار بوسعي استخراج المعنى الضمني L'implicite من مجموعة الشذرات التي اخترتها مما تلفظ به جلالته، حيث يمكن التعرف على متضمنات القول من خلال دراسة العلاقة بين المعنى والسياق: وتتيح لنا التداولية ذلك لأنها "تشرح وضعية التواصل وسياقه، وتفتح أبواب دراسة ما لم يقال، ودراسة الضمني في الحديث"⁴.

فاهتمامي هنا بالسياق هو اهتمام بأداة إجرائية استندت عليها اللسانيات التداولية في دراستها للغة أثناء استعمال الكلام، خاصة "تداولية الدرجة الثالثة (أفعال الكلام) التي تشتغل بالسياق وعلى توظيفه العميق في التحليل"⁵، لدور السياق الكبير في كشف مقاصد الخطيب ونواياه، وشروط الإنتاج اللغوي والسياق العام للإفشاء به، وزمانه ومكانه، وهي عناصر حاضرة في الخطابات الملكية التي لها مناسباتها وزمانها ومكانها (قاعة العرش، قبة البرلمان، أجدير بالنسبة للخطاب المعلن لتأسيس المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، العيون لخطاب الجهوية الموسعة...).

فالسياق الذي يهم هذا المطلب هو السياق المقامي Contexte situationnel، وليس السياق اللغوي أو القولي Contexte verbal، لارتباط السياق المقامي بالجانب التركيبي لوحدة لغوية معينة وعلاقاتها مع وحدات أخرى، فضلا عن العناصر التي تسبق أو تلي تلك الوحدات وتوثق محيطها، قبل أن توسع دائرة البحث الشكلي في العلاقات الداخلية التي تتحكم في دلالة النص إلى البحث في سياقات التشكل التي تمنح الوحدات المذكورة معناها السياقي، وما سبق للعرب أن سبقوا به المتأخرين من الباحثين الغربيين حين تحدثوا عن "المقام والمقال"، فتقدموا بألف سنة على زمانهم، كما يقول تمام حسان، لأن "الإعتراف بفكرتي المقام والمقال باعتبارهما أساسيين متميزين من أسس تحليل المعنى يعتبر الآن من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة"⁶، وشائج القربى تلك بين البلاغة العربية واللسانيات التداولية أكدها صلاح فضل حين أورد أن "مفهوم التداولية جاء ليغطي بطريقة منهجية منظمة المساحة التي كان يشار إليها في البلاغة العربية القديمة بعبارة "مقتضى الحال"، وهي التي أنتجت المقولة الشهيرة في البلاغة العربية "لكل مقام مقال"⁷.

¹ - دومينيك مانغونو "المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب" ترجمة: محمد بجاتين. منشورات الاختلاف. الطبعة الأولى، 2005، ص. 98.

² - زتسيسلاف وأورزنيك، مدخل إلى علم النص - مشكلات بناء النص -، ترجمة سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة، الطبعة الأولى، 2003، ص. 87.

³ - بهاء الدين محمد مزيد "من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي - تبسيط التداولية -" شمس للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى، 2010، القاهرة. ص. 18.

⁴ - G ILLES Sioffi ET Dan Van Raemdonck. 100 Fiches pour comprendre la linguistique. Bréal Rosmy, 1995. p.51

⁵ - السياق والنص الشعري، من البنية إلى القراءة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء-المغرب، الطبعة الأولى، 2000، ص. 16.

⁶ - تمام حسان، اللغة العربية: مبناه ومعناها، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الرابعة، 2004، ص. 337.

⁷ - صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، دار الكتاب المصري، القاهرة، الطبعة الأولى، 2004، ص. 26.

وبالفعل، وجدت أنه كانت "السكاكي" عناية كبيرة بدور السياق اللغوي في تحديد قصد المتكلم والإسهام في إفادة السامع بمعنى ما، حتى في سياق دراسته للتقديم والتأخير الذي سبق أن أنجزت بشأنه عرضاً بمعنية زميلي في الماستر "مصطفى حفاظ"، حيث يرى أن التقديم والتأخير يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بالسياق اللغوي من جهة، ويراعيان مقتضيات الأحوال (هكذا جمعا) من جهة أخرى، وأن التقديم والتأخير يكشفان عن غرض المتكلم وغرضه من خطابه، كما في قوله تعالى ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾: فقد أخرت صلة الشهادة أولاً، وقُدِّمت ثانياً، لأن "الغرض في الأول إثبات شهادتهم على الأمم، وفي الآخر اختصاصهم بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم"¹.

فـ"السكاكي" يشير إذن بوضوح إلى ارتباط مبثني التقديم والتأخير بالجانب الدلالي التداولي، وما يقتضيه ذلك من ارتباط ترتيب عناصر الجملة على هذا النحو المخصوص بالمعنى المقصود، استناداً للسياق الوارد في الآية الكريمة، وعناية "السكاكي" بفكرة مقتضة الحال كانت عملية واعية ومقصودة، حيث جعلها تضطلع بدور المرشد في ضبط المعاني وتحديد المقاصد، فُتحقق الفائدة لطرفي الخطاب، حيث تتيح للمتكلم سبل التعبير عن مرامييه وفق الظروف والمقامات، فيختار لمقاصده تراكيب مخصصة تنسجم والمقامات التي يوجد فيها مع سامعه ومجتمع تلقي خطابه (خاصة بالنسبة للخطابات الملكية لتعدد المخاطبين وفئات جمهور التلقي ومستويات التركيب اللازم اعتمادها)؛ بنفس قدرة "مقتضى الحال" على تمكين السامع وجمهور التلقي من التوصل لمقاصد الخطاب ومرامي الخطيب، استناداً لما يشايح الكلام من سياقات لغوية ومقامية: فصاحب علم المعاني، حسب السكاكي، "يتخير الكيفيات المخصوصة من التراكيب اللغوية ويربطها بمقاماتها أو الحال الملائمة لها"².

وقد أورد "السكاكي" أيضاً نموذج ثلاثة أشخاص مختلفي المهنة والمواقع، وصف الله لهم الكلام كلا بحسب وعائه الثقافي ودرجة وعيه المحيطي، بقوله ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خَلَقَتْ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رَفَعَتْ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نَصَبَتْ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سَطَحَتْ﴾، فإذا لم يكن المخاطب من الأعراب الذين يعيشون في البوادي ويربون الإبل، فلن يستطيع إدراك سر الجمع بين الإبل، والسما والجبال والأرض "لبعد التعبير عن خياله في مقام النظر، ثم لبعده في خياله من السماء، وبعد خلقه عن رفعها، وبسط الأرض ورواسيها السماء".

أما إذا عرف حياة العرب بمختلف جوانبها ومناحيها، سيدرك سر هذا الجمع، "لأن أهل الوبر إذا كان مطعمهم ومشربهم وملبسهم من المواشي، كانت عنايتهم مصروفة لا محالة إلى أكثرها نفعاً، وهي الإبل. وإن كان انتفاعهم بها لا يتحصل إلا بأن ترعى وتشرب، كان جل مرمى نظرهم نزول المطر، وأهم مسارح النظر عندهم السماء، ثم إذا كانوا مضطرين إلى مأوى يأويهم ولا حصن يتحصنون فيه ولا مأوى ولا حصن إلا الجبال"³: لذلك يستحسن البدوي هذا الجمع، لأن له ما يقابله في خزانة صورته وتصوراتها للعالم وللمحيط، وللسياق والإطار المكاني الذي يعيش فيه.

وفي دراسته لقانوني الخبر والطلب في علم المعاني، قرر "السكاكي" أن فعلي الإخبار أو الطلب يتضمنان إنجازاً لجملة ذات مقاصد وأغراض تواصلية جديدة، وأن للمقام دور كبير في تحديد أغراض الخبر والطلب، ومدى إفادة تلك الأغراض للقصد الحقيقي أم لا، وفكرة مقتضى الحال التي يدعو السكاكي لمراعاتها في جل مباحث المفتاح تشكل سياقاً تداولياً، يتم من خلاله دراسة مباحث البلاغة في سياقاتها الإستعمالية لتشمل كل ما يحيط بها من مقامات.

¹ - السكاكي، مرجع سابق، ص. 344.

² - حامد صالح خلف الربيعي، مقاييس البلاغة بين الأدياء والعلماء، مكتبة الملك فهد الوطنية، جامعة أم القرى، دون طبعة، 1996، ص. 575.

³ - السكاكي، مرجع سابق، ص. 336.

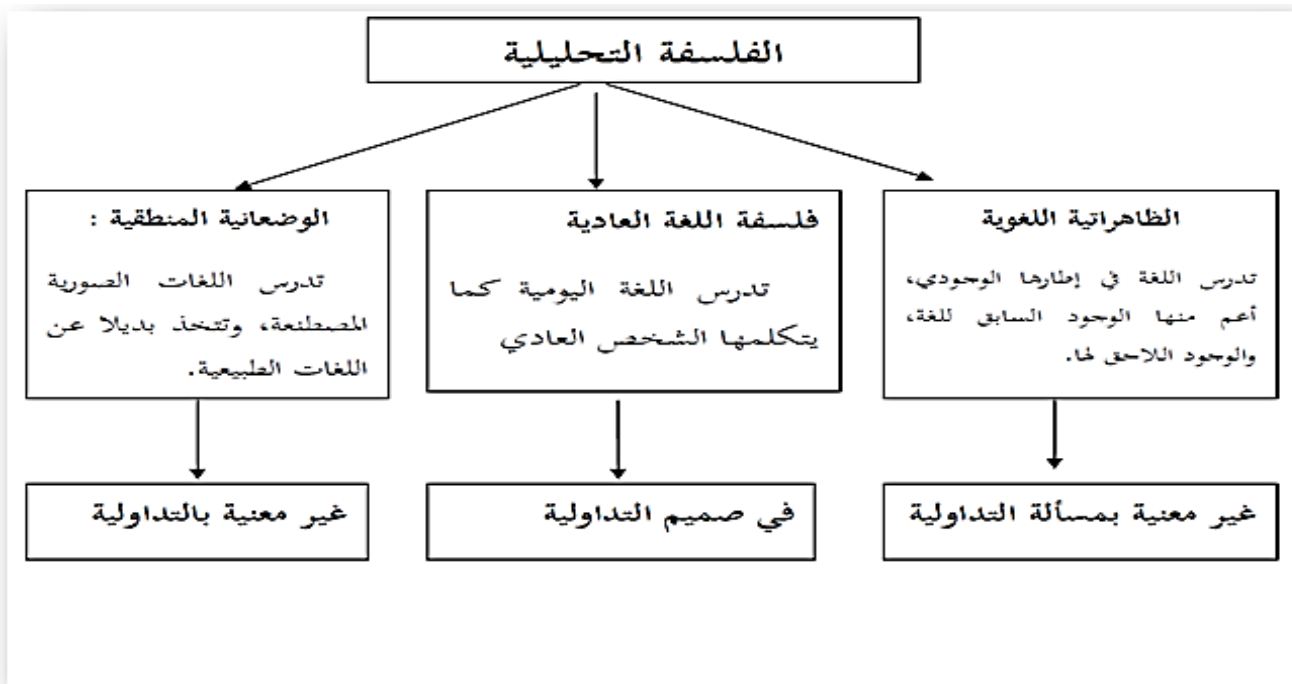
فالأصناف الأربعة للمقام (الخطيب، المتلقي، السياق والموقف)، وما تقتضيه من مطابقة الكلام، كان بالإمكان أن تشكل نظرية بلاغية قائمة تشمل الجانب اللساني الخالص الذي يمثل السياق اللغوي المقولي Contexte verbal ، وجانب ما وراء-لساني métalinguistique يشمل مقاصد المتكلم، وحال السامع وسياق الموقف أو السياق الموقف Contexte situationnel.

❖ ثانيا- التداولية وخرق حدود البنية اللغوية للخطابات المولوية

يتجاوز مفهوم التداولية حدود البنية اللغوية، وحصر البحث اللساني في دراسة اللغة من حيث تراكيبها ودلالاتها إلى البحث في الأقوال والعلاقة بين المخاطب والمخاطب (السامع)، بكل ما يعتري هذه العلاقة من تبادل للوضيعات التخاطبية وإنتاج الخطاب في أفضل الظروف.

فمقارنة مع باقي الإتجاهات الفلسفية التحليلية (الوضعية المنطقية والظاهرانية اللغوية)، لم يقص اتجاه "فلسفة اللغة العادية"، فاهتم باللغة في استعمالاتها العادية، فكشف عن القدرات واكتشف المضامين والأبعاد التي تقتضيها العملية التواصلية.

ويمكن توضيح موقع التداولية من الاتجاهات الثلاثة في المخطط التالي:



وعليه، تعالج (التداولية) المنظومات اللغوية وقواعدها بالنسبة إلى السياق والمؤشرات اللسانية وغير اللسانية في الخطاب (من ضمائر، إحالات على الزمان، إحالات على المكان...)، وتدرس كذلك متضمنات القول الصريح منها والخفي غير المباشر المتضمن في الكلام، وكذا القوانين التي تضبط الخطاب وتفاعله بين المتخاطبين.

كما تحاول التداولية أيضا الكشف عن مختلف التقنيات الحجاجية وتحليلها، وكذا إعطاء تفسيرات حول كفاءات إنتاج القول وانسجامه مع المقاصد الكلامية للمخاطب؛ فهي "تبحث في معرفة مقاصد المتكلم وأغراض كلامه"¹.

¹ - خليفة بوجادي " في اللسانيات التداولية، مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم" ص. 17

كما تبني فلاسفة أكسفورد أفكار "فيتجنشتاين"، رائد اتجاه "فلسفة اللغة العادية" الذي يرى أن البحث الفلسفي لا يكون مجدياً إلا إذا اللغة موضوعاً للدراسة الفلسفي، ومنهم على الخصوص "أوستين" و"سيرل".

وقد استطاع رواده هذا الاتجاه أن يقدموا فلسفة تحليلية للغة تهتم بالمضامين والمقاصد في العملية الاتصالية، إذ قدم أوستين أفكاراً قيمة في رحاب هذا الباب، خاصة مُسلمة "القصدية" التي توسع في دراستها ضمن شبكة من المفاهيم ارتبطت أساساً بـ:

- مبدأ التعاقد *Principe de contractualisation*؛
- مبدأ الفضاء المزدوج لتمظهرات اللغة *Double espace de la mise en scène de l'acte de langage*؛
- مبدأ الإستراتيجية الصريح والضمني *Principe de la stratégie explicite et implicite*؛
- نمط تنظيم الخطاب *Mode d'organisation*؛
- نمط النصوص *Type de textes*.

وانطلاقاً مما سبق يمكن القول أن التداولية هي درس لساني، ذو خطوات إجرائية، يدرس كيفية استعمال الناس للعلامات اللغوية في أحاديثهم وفي خطبهم: وعليه، يعنينا التحليل التداولي بشكل خاص في مهمة تفسير المقاصد الكلامية وتأويلها، من خلال وضعية خطابية محددة، ووفق ظروف سياقية مناسبة، من أجل الوصول إلى فهم العمليات الذهنية التي تسهم في بلورة الخطاب، ومن خلال القوانين التي تحكم الخطاب ومستخدميه.

فالدرس التداولي يهتم بدراسة الملفوظ من لحظة إنتاجه إلى لحظة ختامه وتحديد القصد، وما يمكن أن يحدثه ذاك الملفوظ.

إنَّ خصوبة الدرس التداولي واتساعه جعلاً منه مجالاً ثرياً لتناول الخطاب الملكي كظاهرة لغوية من عدة جوانب وربطه بالواقع التواصل، حيث أن العديد من النظريات التداولية التي ظهرت يسعنا إسقاطها وإسقاط خصائصها ومميزاتها لفهم الخطاب الملكي ومميزاته، والتي لا تخرج عن: متضمنات القول، الأفعال الكلامية والاستلزامات الحوارية وكذا نظريات الحجاج المتنوعة.

أ. متضمنات القول:

تكمن أهمية المتضمن في القول في كيفية توصّل المخاطب إلى ما يتضمنه القول وتحصيل الفائدة منه، والتعرف على ما قد يحتويه من معاني مختلفة لا تظهر إلا عبر السياق الوارد فيه، إذ "يفترض امتلاك المخاطب القدرة على الاستنتاج. قدرة على استنباط عدد من الآليات المرتبطة بقوانين منطقية وتجريبية، بذلك يتمكن المخاطب من استنتاج عدد من القضايا المستخلصة من القول ذاته، واستنتاج محتواها بالاستناد إلى ما يحيط به من أوضاع مختلفة"¹.

¹- ذهبية حمو الحاج "لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب"، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع. ص. 123.

تتشكّل متضمّنات القول من نمطين هما: الافتراض المسبق *Présupposition* والقول المضمّر *Les sous-entendu*.

1- **فالإفتراض المسبق** يهتم أيضا مدار الفصل حول السياق، لأنه كما عرّفه الباحث الجزائري "مسعود الصحرّاي" يقوم على "قول الخلفية التّواصلية الضرورية لتحقيق النجاح في عملية التّواصل، وهي محتواة ضمن السّياق والبنى التركيبية العامّة"¹: فالمتخاطبون يبنون خطاباتهم من معطيات وافتراضات معترف بها ومُتفق عليها بينهم، وقد تكون تلك المعلومات المشتركة بين كل من المخاطب والمخاطب، والمعروفة لديهما سابقا.

2- **أما القول المضمّر**، فيعني أيضا لأنه معنى خفي ومضمّر في الكلام، يفسّر ضمن السّياق الذي ورد فيه، فيكون محددًا (القول المضمّر) في مقام التّواصل ووظيفة العلاقة التي تربط المخاطب بالمخاطب، وقد يرد مخالفا تماما للمعنى الحرفي والصريح في العبارة، حيث "يمكن أن يوصف بالتأويل، وعلى سياق الخطاب إبراز خصوصيّة"²، فلا يمكن للمخاطب الكشف عن الأقوال المضمرة بمعزل عن السياق التي وردت فيه.

ب. الأفعال الكلامية:

ارتبطت اللّغة في كثير من استعمالاتها، بانجازها الفعلي في الواقع؛ فقد نلجأ إلى اللّغة في خطاباتنا للقيام بفعل ما وللتأثير على المخاطب المتلقّي. وقد وسع هذا المفهوم "أوستين" حين أوضح "كيف نصنع الأشياء بالكلمات" (كما ترجم إلى الفرنسية *Quand dire c'est faire*) "أو" عندما نقول نفعل"، حيث يرى بعض الباحثين³ تشابها حقيقيا بين ما قدّمه أوستين وما قدّمه العرب قديما بشأن قضية الإنشاء والخبر المتفرعة عن علم المعاني *How to do things with words*

فقد جاء "أوستين" بفلسفية لسانية تداولية جديدة دفعت العديد من الباحثين إلى دراسة استعمالات اللغة المختلفة في التّواصل حيث استأنف بعد ذلك "سيرل" هذه النظرية ويحاول الإتيان بالجديد ضمنها.

والفعل الكلامي يعني التصّرف (أو العمل) الاجتماعي والمؤسّساتي الذي ينجزه الإنسان بالكلام: وهذا ما ذهب إليه "دومينيك مانغونو" حين عرف الفعل الكلامي بكونه "كل فعل لغوي يندرج في إطار مؤسّساتي يحدد مجموعة من الحقوق والواجبات بالنسبة للمشاركين في عملية التّخاطب، ويجب عليه أن يلبّي عددا من شروط الاستعمال"⁴.

والمقصود بالفعل في هذه النظرية لا ينصرف إلى الحدث الصّوتي فحسب، بل يشمل الفعل اللّغوي الذي يترك أثرا بعد إنجازه: فالتلفظ بجملة من العبارات في سياق معين ووفق ظروف تبليغية مناسبة يعني إنجازها في الواقع، فالتلفظ بهكذا قول يعني إنجاز عمل أو شيء ما، مع أنّ إنجاز هذا الفعل مشروط بأكثر من شرط سياقي ليصبح بالإمكان تحقيقه.

¹ - مسعود الصحرّاي، مرجع سابق، ص. 31

² - ذهبية حمو الحاج، مرجع سابق، ص. 123

³ - علي محمود جحي، "في البراجماتية، الأفعال الانجازية في العربية المعاصرة - دراسة دلالية ومعجم سياقي"، ص. 100

⁴ - دومينيك مانغونو، "المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب"، ترجمة محمد بجاتن، ص. 7

فمن ضمن هذه الشروط¹، نجد:

- أن يكون المتلفظ صاحب سلطة، كما الحال بالنسبة لصاحب الجلالة، وهذه السلطة موجودة خارج اللغة، فسلطة جلالته الرمزية متواضع عليها، فعدد من الاوراش التنموية والمشاريع المهيكلية الكبرى لو تلفظ بها أحد غيره لظلت تراوح مكانها، كما الشأن بالنسبة للمشاريع التي بقيت عالقة بين جهة طنجة-الحسيمة والحكومة، ولما أفلح الخطاب في إنجاز فعل كلامي يترجم في مشاريع وأداءات فعلية ناجزة؛

- أن يكون مكان التلفظ هو المكان المناسب المتعارف عليه لمد الخطاب بقوته الإنجازية، حيث تقتضي بعض الخطابات المولوية لإحداث التغيير والتوجيه أن يتلفظ بها جلالته تحت قبة البرلمان من أجل توجيه العمل التشريعي نحو مسار معين؛ فلو تلفظ به جلالته في مكان آخر غير البرلمان وحاول تمريره في خطاب من خطابات العرش أو المسيرة، لظل أقل إنجازية ووطأة ولتفرقت به السبل في مهاري تنازع الاختصاص، ولما أنجز فعلاً كلامياً موجهاً لممثلي الأمة داخل البرلمان بغرفتيه، وموجهاً للعمل الحكومي من خلال آلية مشاريع القوانين.

فكل فعل كلامي ناجح، يعني توفير الظروف السياقية المناسبة، وعلم المخاطب بقصد المخاطب وفهمه.

وينطلق "أوستين" في تحديد ملامح نظرية أفعال الكلام من فكرة مفادها أن بعض المنطوقات في حقيقتها لا تصف شيئاً في الواقع، ولا تخبر أو ثبت أمراً ما، ولا يمكن الحكم عليها بمعيار الصدق أو الكذب، إلا أنها تؤدي أفعالا مثل الوعد، التحذير، الأمر، الاستفهام، ويحكم عليها بمعيار الفشل أو النجاح في الانجاز.

وفق التصنيف الأوستيني، تتوزع أفعال الكلام بين أصناف ثلاث:

- **فعل الكلام (فعل القول)**، يتمثل في سلسلة الأصوات التي ينطق بها المتكلم بصورتها التركيبية ومعناها المعجمي؛ فيقابل التلفظ بالأصوات "فعل صوتي"، والتلفظ بالتركييب "فعل تركيب"؛ واستعمال التراكيب حسب دلالتها "فعل دلالي"²؛

- **الفعل الإنجازي (قوة فعل الكلام/الفعل المتضمن في القول)**، وهو الفعل الذي ننجزه بالقول، سواء تعلق الأمر باستفهام، أو تحذير، أو وعد، أو قسم...؛

- **الفعل التأثيري (لازم فعل الكلام)**، ويمثل الآثار والنتائج المترتبة عن الفعل الإنجازي، وهو الدفع إلى الالتزام بالقيام بالفعل والافتناع بفعله أو تركه، حيث يترتب عن قول شيء ما حدوث بعض الآثار على إحساسات المخاطب وأفكاره وتصرفاته.

لن أفصل أكثر في هذه المفاهيم وفي التصنيف الخماسي للأفعال الكلامية، كما ورد عند سيرل (التأكيدات أو التقريرات، التوجيهات، الالتزامات أو الوعديات، التعبيريات، الاخباريات)³، لأنني سأنتقل لها في سياق استعمالها بشيء من التفصيل، ولكن أوردتها لبيان دور السياق والحديث عن الإنجاز، باعتبارهما مفهومين محوريين يتوكأ عليهما جسد الفصل ككل.

¹ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، "استراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية -"، ص. 75.

² - خليفة بوجادي، مرجع سابق، ص. 96.

³ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، مرجع سابق، ص. 123.

الفصل الثالث

أنساق التواصل الجماهيري

قراءة في الوسائل والرسائل

تأثر النظام السياسي المغربي، ومن ورائه النظام الاقتصادي والسياسي والاجتماعي، بمفهوم الدعاية وبقوة التأثير الشخصي والتأثير في الآخرين، مع رغبة كل الفاعلين في التعامل مع الواقع دون محاولة النفاذ إلى الفكر لذاته أو في حد ذاته، مع دأبهم على فهم الواقع لاستغلاله والسيطرة عليه سعياً وراء المنافع التي سيجنونها والحقائق التي يُسيجونها وفق الإيديولوجيات التي تُسيجهم.

بدورهما، يتبنى النظام والمؤسسة الملكيين استراتيجيات تواصلية عمادها الرسائل، وقنواتها الوسائل التي تكفل اتصالاً جماهيرياً.

ويتسع مفهوم "النظام" في العملية الاتصالية، ليشمل النظم الاجتماعية التي يحدث فيها السلوك الاتصالي، على أن النظم الاجتماعية تكون موجودة سلفاً ضمن نظم أخرى في المجتمع، مثل الأسرة داخل العائلة، العائلة داخل الأسرة الكبيرة الممتدة، أو القبيلة أو الجهة، وصولاً للوطن والمواطنين والمجتمع الدولي الإنساني.

ويعتبر تسهيل الاتصال وتحقيقه بين أفراد النظام الاجتماعي أهم وظائف النظم الاجتماعية، لتتجاوز بذلك النظم الاجتماعية دورها كأطر يحدث فيها الاتصال بين الأشخاص، إلى كونها هي نفسها نظم اتصال، لها شبكات علاقات، وقدرة على تشبيك الوسائل وتحديد الأدوار وطبيعة العلاقات والأهداف.

وحيث أننا نعيش في عالم يركز أساساً على اللغة في الخطاب مهما كان جنسه، فقد انعكس ذلك على الاستراتيجيات الخطابية التي أصبحت تنبؤاً مكانة هامة بوصفها هي الطرائق التي توصل مقاصد المرسل وتعيّنه على تحقيق فعل التأثير، وبها يتم انسجام الخطاب مع تدخل عنصر السياق لإنتاج الخطاب.

لذلك، ارتأيت أن أتطرق إليها ولوسائلها ورسائلها وأدواتها الإجرائية كمادة معتمدة للتحليل خصوصاً، لأنها ديدن الكفاءة التواصلية للعاهل والكفاءة التداولية لخطابته، فاعتمدت عدة نماذج خطابية ملكية، من مختلف المراحل والمحطات التي شكلت فواصل خطابية في عهده، انسجاماً مع عدد من السياقات التي اقتضت حكمة وحكمة وتحكيم المؤسسة الملكية ولياقة ولباقة الملك، خدمة للعديد من المقاصد ووفق رزمة من الإستراتيجيات.

لكن، وبما أن استراتيجيات الخطاب تفوق الحصر، فقد حاولت أن أعتمد الرباعية التصنيفية لأحد باحثي الملكيات الخليجية¹ (الاستراتيجية التضامنية، التوجيهية، التلميحية والحجاجية) لانسجامها المقاصدي مع استراتيجيات الخطاب الملكي، ولامتدادها كل ما وجدته صالحاً في هذا البحث سواء ما ورد عند النحويين أو الأصوليين أو التداوليين من وسائل وأدوات لغوية تتكفل بتحقيق الهدف من الخطاب كالتضامن والتوجيه والتأثير والإقناع ... الخ.

ولتتبع مسار اللغة في الخطاب الملكي وتفحص مختلف الطرائق والاستراتيجيات التي يتوخاها المرسل لإيصال مقاصده وبلوغ أهدافه بما فيها من رسائل لغوية وآليات بلاغية، سأعتمد في تحليلي على المنهج التداولي في إنتاج الخطاب بوصفه مستوى تصنيفي إجرائي في الدراسات اللغوية،

¹ عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص. 53.

لأَعمَد من خلاله إلى تجاوز دراسة المستوى الدلالي الذي سبق بيانه نحو آفاق بحث أرحب في علاقة العلامات بمؤوليتها ومقام استعمالها، فأدرس اللغة الخطابية المولوية في مقام الاستعمال ومحددات بلوغها مآرب تواصلية/تفاعلية، وفق مقارنة ترصد المقاصد التواصلية للخطاب الملكي، وطرائق تمريرها في مستوى دلالة المقول الحرفية أو غير الحرفية، والتمرينات اللغوية التي توظف فيها لغة الخطاب الملكي في سياقات معينة خدمة للإنجاز، وتمرير الرؤية الملكية والمقاصد المولوية وسلم الأولويات، فضلا عن الوقائع الخارجية المتعلقة بزمان القول ومكانه والنظام العلائقي الذي يجمع صاحب الجلالة بشعبه، ليكون بذلك حاصل تأصيل وتحليل هاته العناصر مجتمعة أداة قرآنية بين يدي جمهور التلقي لفهم الدلالة وتأويل الخطاب.

بعد رصد في الفصل السابق لبعض المعطيات السياقية كأرضية لانباء وانتقاء الاستراتيجية الخطابية الملائمة، عرجت على تحديد هذه الاستراتيجيات وصنفتها، قبل اعتمادها لها لمعرفة الأدوات اللغوية والآليات الخطابية لانتقل عبرها إلى المعنى والمقاصد والرسائل.

وعليه، تناول **الشق الأول** بنية اللغة ووظائفها التواصلية الرسالية في الخطاب المولوي، مع تحليل عينات منها، قبل النظر في أمر ماهية الاستراتيجية الخطابية وكفاءات المرسل فيها، إلى جانب معالجة مسألة المقاصد. وقد تعرضت لمفهومها وأنواعها وعلاقتها بشكل الخطاب مع استثمار ما تسنى لي من ذلك في خطابات العاهل ورسائله وأحاديث يخص بها جلالته العديد من المنابر.

في **شق آخر**، تناولت الرسائل البصرية الثابتة والمتحركة التي تبثها وسائل الإعلام وما يرتبط بها من دلالات سيميولوجية المكان وفقه التمكين للتمكين من فهم فرادة المؤسسة، ووقارها وإنسانيتها، وفق عملية إخراجية مكيئة للمنجز الكلامي، مع ما يميز فضاء الإلقاء الخطابي من سنن تشكيلي، وعلامات بصرية تشي بها ومضة الإخراج وفضاءات الاندماج، وما تتيحه من قراءات في المظاهر المراسيمية والبروتوكولية غير اللفظية المميزة للملكية الدستورية بالمغرب، والدور الترسيمي للمراسيم وتحديثها والإنقلاب السلس على بعضها من خلال بث الصور الملكية وإحياءاتها وصاحب الجلالة يتوسط أسرته الصغيرة، وعائلته الممتدة فضلا عن بلاغة تسييد الدور الأبوي لعاهل الأمة ورب الأسرتين الصغيرة والكبيرة، باعتباره عاهلا لا يكل المسير، يعانق المعانق والأسير، ويقطع الواد الموصل المستطير لوصل شعبه والتواصل معه.

إلا أن حاصل المحاولات المفاهيمية للتعريف يلح كثيرا على جانب التأثير الصادر من المرسل إليه (المتلقي) دون الإشارة إلى العكس، والحال أن المتلقي أصبح الآن طرفا في المخطط الجاكوبسوني، على الأقل من خلال التصفيق كاستجابة وإستحسان.

ويعتبر التأثير على المتلقي ودفعه للاقتناع بمحتوى ومضامين الخطاب أمرا محوريا، لتغيير سلوكاته.

لو كنت قد درست الخطابات الملكية "كخطاب لغوي"، لرأيت صاحب الجلالة مؤسسها الأول والمؤسس لمحتواها، فينحصر آنذاك دور المتلقي في استنفاد قدراته الفكرية وكفاءته التداولية لفهم المقروء والبحث عن تلك الدلالات وإخراجها من المتن الخطابي الملكي، لأن جلالته سيكون وحده هو المنتج للمعاني ولخطابات قد أنجزت سلفا: وعليه، سيكون صاحب الجلالة مُنتج للرسالة، بينما يظل

المتلقي باحثا عنها ومستهلکا لمادتها، فإن استطاع تفكيكها وفهم تركيبها، حدث التواصل ونجحت العملية التواصلية بينهما، وإن فهمها، بدأ التفاعل، وإن تبناها، تحققت جدلية التأثير والتأثر.

لذلك، عكفت على فهم الاستراتيجيات اللغوية الخاصة التي تمكن صاحب الجلالة من الوصول إلى قلب المتلقي والتأثير فيه - وأنا أيضا معهم باعتباري جزءا من مجتمع التلقي- والوسائل التي تتيح التلقي والفهم على نحو مخصوص والتأثر، مع تحقيق التواصل عبر وسائل التواصل الجماهيري.

وعليه، فقد جاء الشق الثالث من الأطروحة بملح تلمحي للإستراتيجيات الثاوية وراء تلك الرسائلالبصرية، فأفردته للحديث عن استراتيجيتي التضامن والتوجيه بعرض الوسائل والأدوات اللغوية التي تساهم في تجسيدها.

كما حاولت أن أبين أثرهما في العملية التواصلية وذلك من خلال مطلبين تطرقت فيهما إلى:

- دراسة الوضعية التواصلية واستراتيجية التضامن في الخطاب الملكي؛
- كيفية تجلي وسائل التضامن اللغوية فيه؛
- استراتيجية التوجيه من خلال الأفعال اللغوية وأساليب التوجيه؛
- استثمار مختلف الصيغ اللغوية في الاستراتيجية التوجيهية.

كما ألمحت إلى فسحات الإفصاح عن مقاصد جلالته من خلال الاستراتيجية التلميحية ومختلف الأدوات اللغوية والآليات البلاغية التي تجسد تلك الإستراتيجية، مبرزاً دورها الحجاجي الداعم لمَهْمَة فعل الإقناع والتأثير في الدراسات العربية والغربية، مع التنويه بشكل محايت بفعل الحجاج ودوره في عملية الإقناع من خلال عرض بعض الأدوات اللغوية للاستراتيجية المذكورة.

كما حاولت الإشارة باقتضاب لمنهجية توظيف واستثمار فئة من الروابط الحجاجية داخل الخطاب الملكي، ليساهم في إبراز الحجة وتحقيق فعل الإقناع اعتمادا على سُلَم حجاجي، حيث أسهمت الخطابات الملكية واستعاراتها في تكميم السعار الإحتجاجي وحفظ الامن والنظام بفضل انتظامه وطرائق تأليفه وتوليفه ورصفه، ومستويات اتساقه.

وعلى ذكر المناسبات، فإن الخطاب والرسائل الملكية تشكل بشكل عام أشكالا من أشكال تخليد ذكرى وطنية ودولية، وحلا لإشكال أو ملف ما، مع بسط أدوات الخبرة الملكية في العديد من المجالات، وتصورات جلالته لتدبير العديد من الملفات، وفهم أنساق التشاور والتخابر، والتعريف بالتجارب الفضلى والتزويد بالمعارف الجديدة والإحصائيات المُحَيِّنة، وحفظ الذاكرة من خلال توثيق الوقائع والمواقع.

كما تتغيا الخطابات الملكية تثبيت مبادئ الوطنية في نفوس جمهور التلقي، فهي أداة تواصل وتوصيل، عبر رسائل لغوية وغير لغوية يبيها جلالته إلى المتلقي بغية التأثير فيه وإقناعه.

المبحث الأول

البنية السطحية لوظائف الرسائل اللغوية



المطلب الأول/ فقه النية والطوية لفهم البنية العميقة للمقصد التخاطبي

لا يمكن الفصل بين الفكر المولوي ولغة التعبير عن الفكر المولوي، إذ يتعذر حينئذ النفاذ للفكر وللأفكار التي تحملها الخطابات بمعزل عن الألفاظ التي تصورها، فلا نستطيع أن نفكر إلا إذا اقتفينا أساليب صياغة عناصر فكره في قوالب لغوية.

انكب كل من تناول الخطاب المولوي على عهد الملك الراحل الحسن الثاني أو علة عهد وارث سره على زاوية إعلامية أو فكرية أو سياسية أو مضامينية وتم إغفال الوظائف اللغوية، ولم ينفذ أحد إلى لغة الخطاب الملكي بسلطان التداولي للبحث عن:

- **الوظيفة التعاملية** من خلال دراسة قدرة لغة الخطابات الملكي وتراكيبها وترتيبها على الإبلاغ، واستجلاء قيمة الاستعمال اللغوي من خلال تركيز الخطاب لتحقيق التواصل بشأن بعض المواضيع المركزية، كي لا تضيق بين تضاعف المواضيع الفرعية التي تستدعيها سياقات التوجيهات والتعليمات التي تمرر لجهات غير الجهة التي يستهدفها الخطاب ويعنيها موضوع الخطاب تخصيصا؛

- **الوظيفة التفاعلية**، التي ينتظر منها الفاعل من القائمين على قضايا شعبه الإضطلاع بمهامهم وتحمل مسؤولياتهم (على غرار الرسالة الموجهة إلى الوزير الأول وإلى الولاة والعمال حول التدبير اللامُتمركز للإستثمار والتي تهم المستثمرين المغاربة، والمقاولين الشباب خصوصا، والشركاء الأجانب، ومن ورائهم عموم المغاربة من خلال مناصب الشغل ومؤشرات الرواج التجاري، أو الخطابات الإفتتاحية للدورات التشريعية لتوجيه مهام التشريع، أو الخطاب الإفتتاحي للمجلس الأعلى للقضاء والتذكير بمبادئ العمل القضائي)، ويحقق من خلال القول ملازمة الفعل وضمنان التفاعل الشعبي والإستحسان وخلق العلاقات وتثبيتها، أو تجاوز التفاعل إلى مستوى التأثير أو التعبير في بعض الأحيان عن التأثير (الخطاب الذي ألقاه جلّالته عقب الأحداث الإرهابية لـ16 ماي 2003 أو تفجيرات مقهي أركانة، زلزال الحسيمة، رسائل التعزية لعموم الشعب أو لخاصته¹ أو لفخامة ملوك ورؤساء الدول الشقيقة والصديقة).

هذه الوظيفة التفاعلية تشكل مدخلا من مداخلنا للولوج إلى البعد المقاصدي للخطاب الملكي، لأن لغة خطابه لا تؤدي فقط وظيفة مرجعية تحيل إلى مدلول، بل تؤدي وظيفة تداولية تتفاوت بحسب القصد أو الهدف الذي من أجله يسوق جملة أو تركيبا أو خطابا، فنتراوح المقاصد بين سد الفراغ الذي تركته الجهات التي كان يتعين عليها القيام بالفعل في إطار ممارسة جلّالته لسلطة الحلول وبالتالي تلمس الحلول لأزمة وشيكة، أو التعبير بلطف وكياسة عن ترحاب بضيف أو شكر على استضافة في كلماته بمناسبة مآدبات الغذاء أو العشاء التي يقيمها جلّالته أو تقام على شرف جلّالته، أو مشاركة عموم شعبه في رؤيته لموضوع أو ملف ما...

¹ كما الشأن بالنسبة لآخر رسالة تعزية ومواساة التي وجهها صاحب جلّالة محمد السادس، يوم 6 دجنبر 2016 إلى الأمين العام لحزب العدالة والتنمية ورئيس الحكومة المكلف لتعبير عن تأثره ومواساته القلبية في وفاة الدته الحاجة مفتاحة الشامي.

وتتبنى هاتان الوظيفتان، من وجهة نظر تداولية، على كون الخطاب الملكي، مثل أي خطاب، قائم على عناصره الثلاث الرئيسة (صاحب الجلالة كخطيب مرسل، والمرسل إليه والسياق).

فصاحب الجلالة كمرسل يراعي في خطابه الموجه إلى المرسل إليه والجهات التي يخصها بالخطاب كطرف ثانٍ يُكمل دائرة العملية التخاطبية ويقصد إفهامه أو تبليغه أو التأثير فيه أو الإعراب عن التأثير معه أو به، يتوخّى اختيار ما يتناسب مع السياق العام؛

فخطاب جلالته مع رعاياه كمرسل إليهم يشكلون **مجتمع التلقي**، يختلف يقينا عن خطابه الموجه إلى نواب الأمة، وخطابه الموجه على القضاء لا يحاكي خطابه الموجه إلى الولاة والعمال، وخطابه لرعايه يختلف تماما عن خطاباته الموجهة لأنداده من ملوك ورؤساء، فيراعي بذلك عند إعداد خطابه ما يقتضيه موقع المرسل إليه الاجتماعي أو الموقع الوظيفي (شعبي العزيز/ خدامنا الأوفياء/ خديمنا الأرضي/ السيدات والسادة ممثلي الأمة/ أصحاب الفخامة أصحاب السمو...)، فيختار ما يتناسب مع منزلتهم ويتوافق مع منزلة جلالته.

كما يُراعي في مقاصده وأهدافه المتنوعة تنوع **العناصر السياقية**، فيختار في مقام الإبلاغ ما يقتضيه ذلك من تبسيط، ويختار غير ذلك من الأدوات اللغوية والآليات الخطابية في مقام الإقناع.

أما إن كان هدفه السيطرة (على الموقف مثلا في سياق تداعيات واقع أو واقعة مأزومين) أو تسطير منهجية للسيطرة على وضع ما، فإن جلالته يعمد إلى الأدوات التي تكفل تحقيقها، في حين يعتمد وسائل التوجيه إذا كانت خطاباته تستدعي توجيه العمل التشريعي (الخطابات السنوية للإفتتاحية للسنة التشريعية) أو الحكومي (الرسائل الموجهة للوزير الأول أو لرئيس الحكومة أو لأحد أعضاء الحكومة) أو القضائي (خطاب جلالته باعتباره رئيس المجلس الأعلى للقضاء) أو الإداري (خطابه المؤسس للمفهوم الجديد للسلطة) في اتجاه غير الإتجاه التي تسير فيه، مستثمرا بذلك صفته وصلاحياته واختيار أدوات معينة وصيغ خطابية بعينها لتوجيه المرسل إليهم، لسطوة حضوره العيني أو الذهني، واعتبارا لعلاقاته السابقة بالمرسل إليهم وموقفه منهم ورؤيته للموضوعات التي تتناولها خطاباته لحض المرسل إليهم على ممارسة تفكيك الخطاب، وتأويله دون تقويله ما لم يقل، لمعرفة مقاصده والإجتهد دون اقتصاد لتنزيلها عند صياغة السياسة القطاعية أو التشريعية أو الجنائية...

فـ"**السياق**" بهذا المعنى يحكم الإطار العام الذي يدعو إلى ترجيح أدوات بعينها واختيار آليات مناسبة لعملية الإفهام والفهم بين العاهل ومجتمع التلقي كطرفي خطاب، وذلك من خلال عدد من العناصر، تجسدها أساسا **العلاقة بينه وبين الجهة** التي يتوجه إليها بالخطاب، وتصور جلالته لأدائها ومستويات تدبيرها (سلبية أم إيجابية)، و**لسياقات الزمان** (الخطابات الأولى للعرش تختلف عن الخطابات التي تلتها...) و**المكان التي وردت فيه** (أجدير، خطاب العيون، خطاب دكاك...)، لان معرفة عناصر السياق تسهم في عملية التعبير عن المقاصد والاستدلال لإدراكها. وعليه، فإن اختيار الأدوات والآليات اللغوية يعد انعكاساً للعناصر التي تشكّل في مجموعها سياقاً معيناً يبرز من خلال لغة الخطاب، وبمعرفة يمكن تفكيك لغة الخطاب والوصول إلى المعنى المقصود أو الغرض المراد.

فالخطاب الملكي يشكل انبثاقا لهذه الثلاثية (العاهل الفاعل، المتلقي المتفاعل، وسياقات القول والفعل)، وتبرز من خلال كل خطاب الأدوات اللغوية والآليات الخطابية المنتقاة، التي يكفي تتبع خصائصها التعبيرية للولوج إلى الفكر المولوي، والمقاصد والمناخ السائد الذي حكم التوجه بالخطاب إلى الأمة أو لخاصتها أو خاصة خاصتها، وتبين اللهجة التي خاطبها بها، وبأية نية وطوية، ليدنى هذا ويُقدّره، ويبعد ذاك ويستعيض عنه بغيره.

وعليه، فالثابت أن لكل خطاب مقاصد وشموسا وظلالا تفصح عنها وظيفته التفاعلية والتفاعلية، إلى التعبير عن مقاصد معينة وتحقيق أهداف محددة: بتشكلاتها وإجابات كل خطاب على إشكالية أو إشكاليات، تصبح لغة الخطابات الملكية حمالة لشكل دال يقود إلى المدلولات الثاوية خلفه من خلال المعطيات السياقية، والعلاقات التخاطبية، والافتراضات المُسبقة التي يدركها جلالتة أو يفترض إدراكها أو ينتظر من جمهور التلقي (شعبه وقادته) استدراكها، فيبني لغة خطابه عليها ليستدل مجتمع التلقي على المقاصد من خلالها بمجرد تحقق الإدراك لديه.

فإذا كان يتصدر وسائل الإتصال الأكثر جماهيرية الجماهيري كل ما يصدر عن جلالتة من **قول خطابي** (خطابات أو أحاديث صحفية) أو **خطي كتابي** (رسائل وبلاغات الديوان الملكي) أو **نشاط**، فقد اختلفت طبيعة الإتصال، وكان خطاب الصحافة المرئية أقرب من خطاب الصحافة المكتوبة والمسموعة، في إطار اهتمام المكلفين بالسياسة التواصلية للقصر بالتلفزة، لقدرتها الفائقة على قيادة وتوجيه الرأي العام، خاصة قبل ظهور وانتشار التكنولوجيا الجديدة للإتصال والاعلام، وبعد ظهور وسائل التواصل الاجتماعي.

بمنطق وصفي تحليلي للموقف من الخطاب الملكي وطريقة تناوله، يمكن القول أنه في ظل عدم استقلاليتها ماليا عن الدولة واستعمالها كآلية لإبقاء نوع من الضغط والحفاظ على نفس الموقف في التناول إزاء خطاب الملك وأنشطته، مع قياس مدى فعالية الخطاب في إحداث تحولات عبر هذه القنوات في جمهور التلقي، تبلورت مواقف من اعتمادها وحدها ومن مضامينها. واعتمادا على فئة الموقف ضمن الفئات التي تجيب على سؤال تحديد ذلك بعيدا عن الأحكام المسبقة، إذ يتطلب اعتماد هذه الفئة التقيد بالحياد ونفي التحيز، وذلك لعدة معايير:

- دراسة الموقف من اختيار هذه القناة أو تلك يُسَعِّفنا لتحديد ملامح الإستراتيجية التواصلية وطبيعة التعاطي الإعلامي مع الخطاب الملكي يسَعِّفنا لفهم ما أريد لإعلام أم يقول وحدود القول والفعل الإعلامي؛

- دراسة الموقف يُعطينا إمكانية تحليل المضمون الكامن للخطاب؛
- الوصول إلى أهداف الخطاب الملكي من خلال خطاطة استهداف فئة أو فئات من جمهور التلقي؛

- تحديد الفئة وفئة الموقف هي الأداة الأنجع لفهم نوعية العلاقة بين صاحب الجلالة وجمهور تلقي خطاباته والتعبيرات الأولى لموقفه منهم وموقف هؤلاء من خطاباته وباقي الخطابات التي يحفل بها الفضاء الخطابي العمومي.

في هذا السياق، يمكن القول أن فئة المواقف التي ألفيناها بنسب متفاوتة، تتوزع بين 03 أصناف:

- الموقف المؤيد: يعكس تجاوبا وتقاطعا إيجابيا وتأييدا للعنصر المحدد في إطار الفئة. فبالنسبة لفئة الصحافة والإعلام كجمهور ضمن الجماهير التي يتوجه إليها الخطاب الملكي مثلا أن حرية التعبير هي مقياس درجة نمو دولة الحق والقانون، فإن موقف صاحب الجلالة مؤيد لا محالة لحرية التعبير، كما أكد ذلك في العديد من الخطابات "ورغم مناورات الحساد، فإننا حريصون على احترام ممارسة الحقوق والحريات. وبموازاة ذلك، فإن من واجبات المواطنة الالتزام باحترام مؤسسات الدولة التي ترجع حمايتها للسلطات الحكومية والقضائية المختصة، وللمؤسسات الحقوقية، وهيآت الضبط والحكمة، كل من موقعه: إننا لسنا ضد حرية التعبير والنقد البناء، وإنما ضد العدمية والتكرار للوطن: فالمغرب سيبقى دائما بلد الحريات التي يضمنها الدستور"¹؛

¹- من نص خطاب ألقاه صاحب الجلالة الملك محمد السادس في افتتاح الدورة الأولى من السنة التشريعية الرابعة من الولاية التشريعية التاسعة

- **الموقف المعارض:** بمعنى أن اتجاه ونظرة وطرح وموقف صانع القرار يتقاطع سلبيا ويخالف العنصر المحدد في إطار الفئة؛
 - **الموقف المحايد:** هو الاتجاه الذي يتبنى لا التأييد ولا المعارضة.
- فما هي محددات القراءة العينية للمدونة الشفهية-المكتوبة؟

المطلب الثاني/ في بنية اللغة السطحية ووظائفها في الخطاب الملكي

يمكن الإنطلاق مما بلوره "الجرجاني" في نظرية النظم حين جعل "النظم دليلا على الكفاءة الذهنية التي يعتمد عليها المرسل في إنجاز الخطاب، بناء على المواءمة بين الكفاءة اللغوية الكامنة في الذهن وعناصر السياق الخارجي"¹، والذي سأجعله في هذا الفصل دليلا على الكفاءة التداولية لعاهلنا التي سأتطرق إليها في فصل ختم هذه الأطروحة.

زيادة على الدراسات البلاغية العربية، كان الإطار التواصلية للغة وباللغة في قلب الدراسات والمناهج التداولية، والنحو الوظيفي واللسانيات الاجتماعية وتحليل الخطاب، والتي يمكن أن نجعلها في علوم التواصل Les Sciences de la Communication، كعلم جامع حاول فيه الباحثون تحديد فعل التواصل مع المتلقين (المرسلين إليهم) والعوامل المتدخلة في اختيارهم وتأثير نظام اللغة المستعملة في تشكيل الخطاب التواصلية.

يمكن مما سبق إدراك وظيفة اللغة التواصلية التي يجسدها الاتجاه الشكلي.

إلا أن الوقوف عند الدلالات الشكلية والنحوية للخطاب فحسب لا يكفي لفهم الخطاب مالم نضعه في سياق الإفضاء به وظروف إنتاجه، وبالتالي، لامندوحة للخطاب عن منهج آخر يتدارك النقص الذي أحدثه الاتجاهان السابقان لان السياق يعتبر مكملا لإتساق الشكل، ويشكل حافزا للخطيب على الإبداع في خطابه، كما يعتبر ذلك العنصر الفعال الذي ييسر عملية التواصل بينه وبين المتلقي، ويتدارك الامر وإدراك السياق تُفهم المعاني.

إن المنهج المكمل هو المنهج التداولي الذي يعتبره البعض منهجا توفيقيا يعني بدراسة الشكل اللغوي والسياق معا، إذ تتبلور فيه وظائف اللغة، وهو ما يهم أطروحتي في باب استخلاص لطائف التركيب والتركيب وفق وظائف البناء الشكلي لخطابات صاحب الجلالة.

لقد تناولت الدراسات الحديثة مختلف وظائف اللغة كاللسانيات الحديثة التي يمثلها (جاكوبسون رومان) محددا وظيفة اللغة استنادا إلى العناصر المكونة لعملية الاتصال (المرسل، المرسل إليه، المرجع، القناة، السنن) المتمثلة في الخطاطة التقليدية التالية:

مرسل ← سياق ← رسالة ← اتصال ← سنن ← مرسل إليه

¹- عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب : مقارنة تداولية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط 1 ، بيروت 2004 ، ص : 7.

- وبناء على هذه العناصر الستة، استنتج "جاكسون" ستة وظائف تتلاءم كل وظيفة منها وكل عنصر من العناصر السابقة، ليصبح "اللغة ست وظائف تتعلق تباعا: بالوظيفة التعبيرية التي تخص مثلا صاحب الجلالة كمرسل، الوظيفة المرجعية التي تتمحور حول المرجع المشترك بين صاحب الجلالة ومجتمع التلقي حول واقع او وقائع واحداث، الوظيفة الإتصالية الرامية إلى إقامة الاتصال وتدور حول القناة أو وسيلة الاتصال الجماهيري التي توظف لتمرير الخطاب الملكي وتكرار بثه لتثبيته، فضلا عن الوظيفة مافوق-لغوية التي يدور رحاها حول لغة الخطاب ذاتها ومناويل استعمالها معجم بعينه تحقيقا لفهم مخصوص، وانتهاء بالوظيفة الشعرية التي تتمحور حول المرسل وما يقتضيه الإيقاع"¹.

هي إذن ذاتها تلك الوظائف التي أوردها "عبد القادر الغزالي" في كتابه "اللسانيات ونظرية التواصل"، مع اختلاف لطيف طفيف في التأليف والترتيب وبشروح أوفر لكل وظيفة من الوظائف التي أوردها النموذج الجاكوبسوني: "الوظيفة المعرفية (Cognitive)، الوظيفة التعبيرية الانفعالية (Expressive)، الوظيفة الإفهامية (Conative)، الوظيفة الانتباهية (Phatique)، الوظيفة الميتالسانية (Métalinguistique) فضلا عن الوظيفة الشعرية (Poétique).

حاولت التركيز على الوظيفتين اللتين تنسجمان بالأساس مع مقاصد الخطاب الملكي، واللذان يسعنا في انتقائهما من حظيرة الوظائف الست نفس الإنتقائية التي انتهجها كل من "براون ويول"² لما وقع اختيارهما على الوظيفتين "التعاملية" و"التفاعلية"، على خلفية اهتمام الوظيفتين السابقتين باللغة في سياق استعمالها، واقتصارهما على هاتين الوظيفتين باعتبارهما الرئيسيتين في اللغة ولغة.

وعليه، وقفت عند النظريتين أو الوظيفتين، بعد الوقوف بمحطة الوظائف التواصلية التي رسمها "رومان جاكسون" لأن الوظيفة التعاملية والتفاعلية، كما أسلفنا، ما هما إلا اختزال ثنائي من الثنائي "براون ويول" لرباعية التصنيف الجاكوبسوني التالي:

- **الوظيفة التعبيرية (Expressive)** أو الانفعالية، التي تركز كما الاطروحة على العاهل/الفاعل كمرسل، كما تهدف إلى التعبير عن موقفه وتصوراته لتدبير قضايا عموم شعبه وقضايا المغرب وموقعه في محيطه المغاربي والقاري والإقليمي والدولي، وهو الشيء الذي نلتمسه في كل خطاب من الخطابات وكل رسالة من الرسائل الملكية التي تختزل كل ما قيل بإيجاز وتركيز يميزان موضوعه الإتصالي (الخطاب/الرسالة)، الذي يحمل تفاعلاته مع جمهور تلقي موضوعه، ويرد بلغة تفاعلية وجدانية تبث روح الوطنية والإخلاص للوطن والالتزام بقضاياها وتثبتها في نفس مجتمع التلقي، بعيدا عن روح الغلو في الحماس والانفعالية التي تميز باقي الخطابات الأيديولوجية الغيرية (دينية كانت أم سياسية أو حقوقية..).

وتتجلى استعمالات هذه اللغة التعبيرية في لغة التحدي التي حملها المغاربة ملكا وشعبا منذ فترة الحماية ضد السلطات الفرنسية "وكان الشعب المغربي المخلص على امتداد هذه الفترة مفعما بروح محمد الخامس الجهادية فأجمع على رفض ما أراد الاستعمار إجباره عليه"³.

¹ - بن ظافر الشهري : استراتيجيات الخطاب ، ص : 12-13.

² جون بول براون وجون يول: تحليل الخطاب، النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك آل سعود، 1994، ص.2 و3

³ من نص الخطاب الذي وجهه صاحب الجلالة إلى الأمة بمناسبة الذكرى السادسة والأربعين لثورة الملك والشعب

فجاء تعبير الرفض ليؤدي وظيفة تعبيرية عن موقف من سلطة حماية تحولت إلى تسلط مستعمر وشراسة مُعَمَّر، بنفس تعبيرية الرفض الذي جاء في خطاب جلالته الموجه إلى ممثلي الأمة في البرلمان بغرفتيه بمناسبة السنة الأخيرة من الولاية التشريعية التاسعة التي اقتضت استكمال إقامة المؤسسات الدستورية لكونها جاءت بعد أول انتخابات محلية وجهوية، في ظل الدستور الجديد، وبعد إقامة مجلس المستشارين في صيغته الجديدة، حين أكد جلالته على "أننا نرفض البكاء على الأطلال، كما نرفض الاتهامات الباطلة الموجهة للسلطات المختصة بتنظيم الانتخابات"، قبل أن يجدد جلالته استعمال تعبير "الرفض" في سياق الحديث في نهاية خطابه إلى أعضاء البرلمان بمجلسية لمنطق بديل لمنطق اعتماد التوافق الإيجابي، في كل القضايا الكبرى للأمة، ومن ثمة "فإننا نرفض التوافقات السلبية التي تحاول إرضاء الرغبات الشخصية والأغراض الفئوية على حساب مصالح الوطن والمواطنين، فالوطن يجب أن يظل فوق الجميع".

ولتجسيد وظيفة اللغة الانفعالية، يستوقفني موقف الرفض كوظيفة تعبيرية من جلالته حين قال "لقد سبق لنا في خطاب المسيرة سنة 2009، أن عبّرنا عن رفضنا القاطع لهذه الممارسات، ونبها إلى أن أي شخص إما أن يكون وطنيا أو خائنا. فليس هناك مرتبة وسطى بين الوطنية والخيانة".

كما أن في لفظة جلالته "عبّرنا" تعبير مؤسساتي على أننا "عبّرنا" من مرحلة التفاعل مع بعض فئات الساكنة من التفاعل إلى الإفعال كشكل تعبري عن تخصيصهم لمفاعلات الإنتفاض والإنتقاد برفعهم لافتات في جميع الأشكال الاحتجاجية يعبرون من خلالها عن قناعتهم بأن "موارد وثروات الصحراء كفيّة بتشغيل أبنائها"، وهو كلام مردود عليه، حيث ورد رد جلالته الصريح والفصيح في متن ذات الخطاب حين قال: "فمن المعروف أن ما تنتجه الصحراء، لا يكفي حتى لسد الحاجيات الأساسية لسكانها. وأقولها بكل صراحة: المغاربة تحملوا تكاليف تنمية الأقاليم الجنوبية. لقد أعطوا من جيوبهم، ومن رزق أولادهم، ليعيش إخوانهم في الجنوب، في ظل الكرامة الإنسانية". وهي نفس المعرفة بالصحراء و"بثرواتها" التي حملت صاحب الجلالة على حمل جزء آخر من الحقيقة التي لا تحتل التجزيء من خلال التعبير على أننا "نعرف جيدا أن هناك من يخدم الوطن، بكل غيرة وصدق. كما أن هناك من يريد وضع الوطن في خدمة مصالحه هؤلاء الذين جعلوا من الابتزاز مذهبا راسخا، ومن الربيع والامتيازات حقا ثابتا، ومن المتاجرة بالقضية الوطنية، مطية لتحقيق مصالح ذاتية"، كما "نعرف أن هناك من يضعون رجلا في الوطن، إذا استفادوا من خيراته، ورجلا مع أعدائه إذا لم يستفيدوا"، ليصدع بالموقف التعبري الأكثر راديكالية وصف الموقف ووصف الوصفة الملائمة للتعاطي معه: "هنا أقول: كفى من سياسة الربيع والامتيازات. وكفى من الاسترزاق بالوطن".

استوقفتني هذه اللحظة الإنفعالية غير المسبوق في تاريخ التوثيق الخطابي لعهد صاحب الجلالة¹، لما بثته من انفعال خيال ما يلقاه الملف من عقوق لأبوية الموقف الملك والحدب على الصحراء وعلى ساكنتها من طرف بعضهم من متعددي الجنسيات (وبالتالي متعددي الهويات)، حيث استدرك جلالته الموقف الخطابي للقول بأنه "إنصافا لكل أبناء الصحراء، وللأغلبية الصامتة التي تؤمن بوحدة الوطن، دعونا لإعادة النظر جذريا في نمط الحكامة بأقاليمنا الجنوبية"، داعيا إلى عدم "تضخيم الأمر، فهؤلاء الانتهازيون قلة ليس لهم أي مكان بين المغاربة. ولن يؤثرُوا على تشبث الصحراويين بوطنهم..."

¹ - على عكس العديد من المحطات الإنفعالية التي ميزت عهد والده الملك الراحل الحسن الثاني في خطابه (كما في خطاب الأوباش، وخطاب تطبخ بيت كل من يتحدث عن فلسطين بـ"ذاك الذي لا يذكر"، وغيرها...)

فهذه الابكار الخطابية المنتقاة جاءت في سياق خطاب بمضامين تفاعلية ترصد تطور الوضع في الصحراء "قبل 1975 لمن لا يعرف الحقيقة، أو يريد تجاهلها"، وتقيس مؤشرات التنمية بالأقاليم الجنوبية التي "تفوق بكثير المعدل الوطني لباقي جهات المملكة"، وما اقتضته ضرورات استدراك ساكنة الصحراء لما فاتها من مغرب الإستقلال من مشاريع مهيكلية وتنموية أسوة بباقي المناطق بالمغرب، من خلال تخويلها سلسلة من الإمتيازات التي سرعان ما ترسخت كحقوق يستفيد منها البعض ليروج البعض الآخر ممن لا يستفيدون "الترويج المغلوط لاستغلال المغرب لثروات المنطقة".

كما اندست اللغة التعبيرية الانفعالية التي تلمسنا دلالاتها القوية للرد على من يندسون وسط جمهور الصحراويين المتمسكين بمغربية صحراءهم وانتماهم لباقي مكونات اللحمة الوطنية، قبل أن تتوارى من خلال عودة جلالته إلى التعبير التفاعلي حيث أورد تفاصيل حول "قرارنا بتفعيل الجهوية المتقدمة، والنموذج التنموي للأقاليم الجنوبية"، ولإنتقال من تحليل الوضع والتحليل الذي يميز تعاطي البعض مع الملف من أجل إبراز عنصر من عناصر تنمية الصحراء والإرتقاء بأحوال ساكنتها من خلال دعوة جلالته "القطاع الخاص، للانخراط أكثر في تنمية الأقاليم الجنوبية".

- أما **الوظيفة الإفهامية (Conative)** التي تتميز كوظيفة بتركيزها على المرسل إليه على اعتبار أنها توجه إليه (الأمر والنداء) وتدل على معالجة أحواله، فتعتبر نقيضاً وظيفياً للوظيفة السابقة التي تصب اهتمامها على المرسل في تعبيره عن موقفه وأحاسيسه، من خلال تركيز الخطاب الملكي في وظيفته الإفهامية على التعبير عن مواقف وانفعالات الشعب الذي يعتبر صاحب الجلالة الضامن الأول لمصالحه، ويعبر في كل خطاب عن مشاعره وانفعاله بلسانه وأصالة عن نفسه ومواقفه بضمير الجمع ونيابة عن عموم الشعب (أغلبيته الصامتة أو تلك التي لا تتاح لها قنوات التعبير)، وبتعابير تمجد وطناً ينتميان إليه.

بتركيزه على شعبه أكثر من تركيزه على أدوار مؤسسته، التزاماً من جلالته بعدد من القضاي، لأن تأدبه أدب قضية يفرض عليه تمثيل شعب والتعبير عن آراء ومواقف وانفعالات جميع مكوناته وأطيافه.

ويمكن تلمس وظيفة الإفهام أو الوظيفة الندائية كما دأبها "جاكسون" من خلال أسلوبية الوظيفة **الإفهامية** من خلال أسلوبَي النداء والأمر بصيغتيهما وأدواتهما أو بلفظهما ("أصدرت جلالتنا أوامرها السامية لتعزيز انتاح قواتنا المسلحة الملكية على محيطها الإقليمي والدولي")¹، أو ما نلفيه في الرسائل التي يوجهها جلالته فعند حلول كل موسم حج إلى الفوج الأول من الحجاج المغاربة المتوجهين إلى الديار المقدسة لأداء مناسك الحج، والتي يكلف بتلاوتها بمطار الرباط - سلا، وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية " الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه. حجاجنا الميامين... اعتباراً لما يملأ قلوبنا من إيمان بقضية المكان والزمان... ولا سيما عند الوقوف بعرفة، فإننا نذكركم بما عليكم من واجب الدعاء، لجلالتنا أمير المؤمنين... فسيراً على النهج القويم... فاستحضروا، رعاكم الله، شرف ذلك المقام... واحرصوا على تأدية مناسككم على الوجه الأمثل... وتذكروا أن أداء مناسككم... فكونوا، رعاكم الله، كما كان أسلافكم، سفراء لبلدكم، في لزوم الجماعة ووحدانية الكلمة... نهيب بكم لمراعاة الترتيبات، التي أعدتها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية... كما ندعوكم للتحلي بالانضباط والانتظام والالتزام

¹ "الأمر اليومي" للقوات المسلحة الملكية كما وجهه صاحب الجلالة القائد الأعلى ورئيس أركان الحرب العامة للقوات المسلحة الملكية بتاريخ 14 ماي 2016 بمناسبة الذكرى الستين لتأسيسها

بالتعليمات الصادرة من السلطات السعودية... معاشر الحجاج الميامين... اعمرُوا أوقاتكم بالطاعات وأنواع القربات، من تلاوة القرآن، ومداومة الذكر والتلبية، وترديد مختلف الأدعية... فإذا أدبتم فريضةكم على الوجه المأمول، فاشكروا الله تعالى على ما هداكم إليه ... وتضرعوا إليه عز وجل بأن يرينا في ولي عهدنا وكافة أفراد أسرتنا الملكية الشريفة، ما تقر به العين¹)، على نحو جعل الخطاب الذي تحمله الرسالة الملكية **خطاباً وعظياً وخطبة منبرية** بامتياز، انبرى فيها جلالته للدعوة لأن المقام اقتضى تلك الوظيفة الإفهامية في صوغ المقال، ليكسب الأمر صفة الوجوب كحكم شرعي يستقيم مع سياق المخاطبة وطبيعة المخاطبين (الحجاج) ومكانة الخطيب في الحقل الديني (أمير المؤمنين وسبط النبي العدنان الأمين، صلوات الله عليه وسلامه).

فقد خاطبهم جلالته وناداهم، فأتبع النداء بالدعاء ("حاجنا الميامين، أمنكم الله ورعاكم، وبعد"، قبل أن يسترسل في خطاب يحمل الوعظ والأمر بالدعوة إلى التقيد ببعض الضوابط الشرعية والسلوكية باعتبارهم سفراء لبلدهم ("فسيرا على النهج القويم الذي دأبنا عليه، بوصفنا أميراً للمؤمنين، وحامياً لحمى الملة والدين، نتوجه إليكم، معاشر الحجاج، برسالتنا السامية هاته، مضمنين إيها ما يجب التذكير به، وإسداء النصح لكم بشأنه، لأداء فريضة الحج على الوجه المطلوب").

- **الوظيفة الانتباهية (Phatique):** التي تدعى **وظيفة إقامة الاتصال**، حيث يمكن أن نجزم بأن اللغة تؤدي هذه الوظيفة في كل الخطابات الملكية وان هذه لأخيرة تعتبر في معظمها إن لم نقل كلها تواصلية. فقد أنشئت أساساً ونظمت لإقامة التواصل بين صاحب الجلالة وأداته التواصلية (الخطابات أو الرسائل الملكية)، وبين الملك وشعبه، وبين الشعب والرسائل الملكية من خلال فهمها على نحو مخصوص والتركيز على مضامينها كأهم أداة تواصلية مباشرة بين الملك وشعبه، فضلاً عن الوسائل الأخرى (الزيارات، التدشينات وباقي الأنشطة الملكية).

ويحرص صاحب الجلالة - عن طريق اللغة - على إثارة انتباه المتلقي للحفاظ على التواصل بينهما، مستعملاً في ذلك مختلفة الأشكال التعبيرية.

وضمامنا لاستمرارية هذا التواصل، يحرص دلالاته على أن تكون الخطابات ناجحة، ليكون معيار نجاحها ومؤشره حججيتها ونسبة تداولها على ألسنة الجماهير في كل زمان للإحتجاج بمضمونها، إلى جانب اعتمادها في مختلف الخطابات الغيرية الأخرى.

- **الوظيفة الميتالسانية (Métalinguistique):** أو وظيفة ما فوق اللغة التي تتمحور حول لغة الخطاب ذاتها، وفيها تميز مجال تمثله اللغة الواصفة التي تُعتمد غالباً في الدراسة العلمية²، والتي لا تهتم سياق أطروحتنا بأي حال من الأحوال.

في هذا السياق، يسعف التوقف عند لغة الخطاب الملكي للقول بأنها لغة واصفة، لعمق وقوة الأحداث والبطولات التي تروي فيها وعنها، فيصعب على الخطيب المرتجل الإتيان بخطاب مرتجل ينفس الألفاظ ولا الخطاب المكتوب أن يرد بنفس التقنية والتركيز المضامين للخطابات الملكية التي تقيد امتلاك الملك لرصيد تعبيرية وفكري ومعرفي وتقني وعبر-تخصصي سهل ممتنع: سهل في فهم عموماً، ويصعب مجاراة معانيه ومبانيه.

¹ - من إحدى الرسائل السامية التي يوجهها جلالته الملك أمير المؤمنين إلى الفوج الأول من الحجاج المغاربة المتوجهين إلى الديار المقدسة لأداء مناسك الحج، والتي يكلف بتلاوتها بمطار الرباط - سلا، وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

² - ينظر: عبد القادر الغزالي، اللسانيات ونظرية التواصل، ص: 50.

وعليه، فلغة الخطاب الملكي لغة علوم سياسية على النقيض من خطاب الساسة، ولغة علوم اقتصادية، ولغة تفكير واجتهاد في الجدل الديني وتتجاوز خطاب التكفير والجهاد الذي تطفح به الخطابات الدوغمانية لمن يستشهدون بكل مُتفقيه وكل عِمّة ورِمّة...

فمعظم الخطابات تتناول في شق منها بلغة واصفة وضعا معين، وتصف حالة قطاع معين أو جهة أو إقليم معينين على نحو يجعلها مُجسّدة وماثلة أمام جمهور التلقي بفضل لغة الخطاب، فتؤدي بذلك لغة الخطاب الملكي الوظيفة الميتا-لغوية.

وأجد أن اللغة في جميع الخطابات كافية لإيصال الرسالة، لأن فيها رسائل صيغت وفق ألفاظ موحية ولغة عالية مستقاة من لغة عربية سليمة ترقى بمستواها عن مستوى الشعبوية التي تعتور باقي الخطابات الإيديولوجية.

- الوظيفة المعرفية (Cognitive): وتتمركز حول المرجع والسياق، وتنطبق على الخطابات الملكية التي يعود تنظيمها وإبداعها حتما إلى مرجع وسياق ما، ولعل أغلبها تم توجيهه إلى الأمة في سياق واقع أو حدث وأحداث وقضايا عديدة في سياق عام وبحلول مناسبة استدعت استنطاق الواقع أو التفاعل مع الوقائع للخروج بتصورات للحل، أو ممارسة الحلول الملكي محل الجهات التي قصرت في أداء مهامها (قطاعات حكومية خصوصا، لعدم اختصاص جلالته بمهام التشريع).

لهذا الإعتبار، أفردت للسياق فصلا خاصا إيمانا مني بالدور الذي يلعبه السياق في تحقق الفهم الجيد للدلالات والمعاني التي تكتنف كل فقرة من فقرات الخطاب الملكي، لأنه بإدراك ظروف توجيه الخطاب، وترتيب المواضيع وطبيعة التدابير التي اتخذت أو تلك التي أعطى جلالة الملك تعليماته السامية لاتخاذها، يتم التلقي الجيد والاستلام الصحيح للرسالة.

لهذا، يجد المرء أن لكل خطاب مرجعه وسياقه الخاص به، أما الإتساق الذي شكّل أول فصل من فصول هذه الأطروحة فنلفي فيه ملامح وظيفة اللغة الشعرية.

- الوظيفة الشعرية (Poétique): تركز الرسائل التي تهemin عليها هذه الوظيفة على الرسالة ذاتها... وتعمل هذه الوظيفة على "إبراز قيمة الكلمات والأصوات والتراكيب ... في ذاتها مُكسبة إيّاها قيمة مستقلة"¹.

يمكن اعتماد هذا التعريف للقول بأن الخطاب الملكي من الأدوات التواصلية المركزة في الرسائل الموجهة للجماهير على الرسالة ذاتها، أي يُركزون على طريقة تشكيلها كمرتكز أساسي، فينتقون الألفاظ الملائمة للإغراض الإتصالية التبليغية التي يرومها جلالته: فلا عجب إذا وجدنا أن كل كلمة توظف وفق أنساق تركيبية محكمة.

- فقد أحسن جلالته اختيار الألفاظ ("وسأظل، كما عهدتموني، الخديم الأول للشعب المغربي الأبي، الساهر الأمين على ثوابت الأمة ومقدساتها، حريصا على الوقوف الميداني على إنجاز الإصلاحات الهيكلية الكبرى التزاما مني بعهد البيعة المقدسة")²: فكلمة التعهد والحرص والإلتزام تواترت في نفس البناء الجُملي وأسبغت عليه قيمة القسم والإلتزام والتعاقد والشهادة، ووعيا بالقيم التي تحيل على الصرامة والوفاء والصدق التي تحقق للخطاب الملكي ولملقيه المصادقية اللازمة في صفوف متلقيه.

¹ - عبد القادر الغزالي: اللسانيات ونظرية التواصل، مكتبة بستان المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، 2003، ص.50

² من خطاب جلالة الملك الإفتتاحي للسنة التشريعية 2007-2008

تجدر الإشارة إلى أنني لم أدرج هذه الرباعية في تصنيف الوظائف للإعتراف بجهود "جاكوبسون" في هذا الميدان، لأنني كنت أروم تأكيد عدم اقتصار الخطاب الملكي على وظيفة دون أخرى: فلا يمكن أن نحكم على الخطاب حسب وظيفة واحدة لأن مجموع الوظائف يمكن أن تتمازج فيما بينها، على أن تُغلب واحدة منها على الخطاب ليكتسي بها بُعدا خاصا به وفق سياقات مخصوصة.

نادرة عي الخطابات التي تمثل لغتها وظيفة واحدة، لأن اللغة تُمثّل لعدة وظائف في الخطاب الواحد، ومن ثمة وجدت تميز خطاب ملكي واحد بأداء لغته لكل ما سبق ذكره من وظائف، فألفت خطابا بلغة انفعالية وتفاعلية، مع مقاطع وفقرات لتحريك الموجد وإثارة انتباه المستمع والحرص على مضمون الرسالة وإيصاله إلى ذهن جمهور المتلقي قصد تحقيق التواصل ومد جسور الاتصال والحفاظ على سلامة العملية التواصلية.

تتمازج وتتسلل كل وظيفة من هذه الوظائف وفق هرمية تحفظ لكل خطاب أورسالة هيكلها وعنصرها الذاتي المميّز.

يرى "الشهري" أنه معظم اللسانيين وفلاسفة اللغة لا يميلون كثيرا إلى دراسة وظائف اللغة في المجتمع، إلا أنهم "يقرون بأن اللغة يمكن أن تستعمل لأداء وظائف تواصلية متعددة، فنجدهم يفترضون أن وظيفتها الأكبر هي إيصال المعلومات". أما "لاينز" فيلاحظ أن مفهوم الاتصال يشمل كذلك المشاعر والأمزجة والمواقف، لكنه أثر أن يصرف اهتمام اللساني أساسا إلى "الإيصال المقصود للمعلومات المتعلقة بالحقائق أو الأقوال".

يلحق "بروان و يول" على ذلك بقولهما أن قيمة الاستعمال اللغوي متعلق بمدى قدرته على إيصال ونقل المعلومات، وتلك هي ميزة اللغة.

وعليه، فيسمي "بروان و يول" اللغة المستعملة لنقل المعلومات المتعلقة بالوقائع والأقوال، "لغة تعاملية" بحكم أن ما كان في ذهن صاغة الخطاب عند استعمالها هو النقل الناجح للمعلومات، وهي لغة موجهة نحو الرسالة مثل المعلومات التي يقدمها منظم النشيد الوطني عبر خطابه، إذ يحرص على تقديم المعلومات المتعلقة بالرسالة صحيحة، أما ما يتعلق بالنشيد الوطني كخطاب مكتوب، فتدوينه وكتابته دليل على حرص صاحبه على إيصال معلومات معينة خاصة فيما يتعلق بالخطابات التي تأخذ الوطن والثروة موضوعا لها. إذ يحرص الشاعر فيها على إبلاغ المتلقي معلومات دقيقة حول الثروة والأحداث التي عرفها الوطن إبانها.

لقد ركز اللسانيون على دور إيصال المعلومات الذي تلعبه اللغة في وظيفتها التفاعلية في حين يركز علماء الاجتماع واللسانيات الاجتماعية على "اللغة المستعملة لإقامة العلاقات الاجتماعية وتنشيتها"¹، لكن "قد يتجاوز دور اللغة إقامة العلاقات الاجتماعية إلى التأثير في المتلقي"²، وهو ما يحدث فعلا في سياق استعمال لغة الخطاب الملكي للتأثير في جمهور التلقي ودفعه إلى التفاعل مع مضامينها، خاصة تلك الخطابات التي تؤطر العلاقات السياسية (كالخطابات الموجهة إلى عموم الناخبين للمشاركة في الانتخابات وتلك التي يوجهها للبرلمانيين في الخطاب لإفتتاحي للسنة التشريعية من أجل "الانخراط الجماعي في البناء الديمقراطي التنموي، الذي نحرص على توسيع فضاءه، ليشمل كل القوى الحية ... ليس

¹ - بن ظافر الشهري، مرجع سابق، ص. 2

² - بروان و يول، مرجع سابق، ص. 3

بالملاسنات الديماغوجية، والحسابات الضيقة، وإنما بالتأهيل السياسي الشامل لكل الفاعلين والمؤسسات والتنظيمات، وخاصة منها الأحزاب السياسية بتجاوزها للملاءمة الشكلية مع إطارها القانوني، إلى التفاعل مع مستجدات المجتمع المغربي ومتغيراته.. لأن النيابة عن الأمة ليست امتيازاً، أو ريع مركز، أو حصانة لمصالح شخصية، بل هي أمانة جسيمة والتزام بالصالح العام¹، وتتجلى بقدر كبير من خلال المعاملات اليومية التي تحدث بينهم.

وقد يتجاوز دور اللغة في بعض السياقات مقام إقامة العلاقات وتثبيتها فقط إلى التأثير.

أما جانب لغة الخطابات التي توطر العلاقات الإجتماعية كتجسيد للوظيفة التفاعلية، فقد لامست وجودها بين تضاعيف العديد من الخطابات، خاصة في الرسائل التي يوجهها جلالته للتعبير عن تعاطفه وسابغ عطفه، أو تلك التي يحدد فيها استراتيجية تضامنية باتخاذ اللغة سبيلا للتعبير عن ذلك في خطابات جلالته الأولى التي حضت على التضامن وتبنته مشروع ملك *Projet de règne*

فقد أشار جلالته في الخطاب المخد للذكرى الأولى لعيد العرش إلى أنه اعتماداً "على هذا النسق من التفكير والتدبير المتجددين وجهنا عنايتنا لمختلف قضايانا المحلية والجهوية والوطنية وفق مشروع سياسي يستوعب حقيقة مجتمعنا في سياقه التاريخي ويعمل على تغييره نحو الارقى والأفضل بواقعية بعيدة عن الشعارات الجوفاء والمقولات الجاهزة وقادرة على التفاعل مع متغيرات العصر تحفزاً من الثوابت الراسخة المتمثلة في قيمنا الإسلامية ومقومات هويتنا الحضارية والثقافية وقادرة كذلك على تفعيل التضامن والتكافل في مدلولهما الإسلامي لمحاربة الفقر ومظاهر الإقصاء والارتقاء بالفئات المحرومة"، قبل أن يركز في المناسبات الأخرى على العالم القروي وعلى الفلاح الذي يعتبر، حسب ريمي لوفو في كتابه الموسوم "الفلاح المغربي المدافع على العرش"²؛ "ولقد كان الجفاف الذي عرفته بلادنا هذا العام محكا دفع إلى تقوية التضامن مع العالم القروي في محنته التي حرصنا شخصياً على معاينتها والوقوف على آثارها وقيادة الحملة الوطنية لتخفيفها وتجاوز أضرارها"³؛ "مكافحة كل أشكال الفقر والإقصاء، وترسيخ التضامن بين الأجيال باتخاذ التدابير اللازمة والمستعجلة لإنقاذ مستقبل أنظمة التقاعد، قبل فوات الأوان"⁴.

وقد وُفقت الخطابات إلى حد كبير في توظيف اللغة إما على المستوى التعامل مع المواضيع أو المستوى التفاعلي من خلال الإيصال الناجح للمعلومات بدليل تداولها على الألسنة، والإستشهاد بشذرات منها في الخطابات الأخرى.

أما من الجانب التفاعلي للغة، فقد استطاع الخطاب الملكي أن يخلق تلك العلاقات الاجتماعية بينه وبين جموع المتلقين، بغض النظر عن الإنتماء الفئوي للمتلقى، لأنها كلها تجسيد لخصائص مشتركة بين كل المغاربة، بلغة مشتركة وهي في مبناها لا تستعصي على الفهم.

يسعى الخطاب الملكي عموماً من خلال وظيفته التفاعلية والتفاعلية إلى التعبير عن مقاصد وأهداف معينة، لتصبح لغة الخطاب شكلاً دالاً يقود إلى مدلولات قد تظهر أو تختفي في شكل الخطاب وذلك من خلال المعطيات السياقية التي تكون عوناً للمتلقى في رصد الجانب المقاصدي للخطاب.

¹الخطاب الذي ألقاه جلالة الملك أمام أعضاء البرلمان بمغربيته بمناسبة افتتاح السنة التشريعية 2007-2008

² لوفو (ريمي)، الفلاح المغربي المدافع عن العرش، ترجمة محمد بن الشيخ، مراجعة عبد اللطيف حسني، منشورات وجهة نظر، 2011

³ من نص الخطاب الذي وجهه صاحب الجلالة بمناسبة الذكرى الخامسة لاعتلاء جلالته عرش أسلافه المنعمين

⁴ نفس المرجع

وقد خُلصت إلى أن اللغة تمارس في الخطاب الملكي جميع الوظائف ولا تقف عند رؤية محددة ومتفق عليها، لأن تحديد هذه الوظائف قائم على الحقل التيمي للخطاب حتى أنه يمكن أن نلمس أكثر من وظيفة في الخطاب الواحد، اعتبارا لكون الخطاب الملكي لا يمكن أن يحقق مقاصده الإتصالية مع مجتمع تلقى متعدد un panel pluriel de récepteurs إلا من خلال اجتماع الوظائف كلها فيه. كما لا أنكر أنني ألفت في بعض الخطابات والرسائل وظيفة واحدة ميزت الخطاب وانفردت به. ورغم اختلاف العلماء حول وظيفة اللغة إلا أن هناك تماثلا في تعاريفهم وهي ما أشار إليه "هاليداي" حيث يرى أنها تسلم كلها بأن اللغة تستعمل لتحقيق أهدافي وأهدافك تعبيرا عن النفس وتأثيرا في الآخرين، ولفت إلى أن هناك وظيفة أخرى تتمثل في الجانب الجمالي أو التصويري المجازي¹.

¹ - فتبحة بوسنة: انسجام الخطاب في مقامات السيوطي، رسالة ماجستير، قسم الأدب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2007، ص. 131 ، نقلا عن: محمود أحمد نحلة، علم اللغة النظامي ، مدخل إلى النظرية اللغوي عند هاليداي، ط 2 ، كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، 2001، ص: 135-136.

المبحث الثاني

الرسائل البلاغية لتشكيلات الصور البصرية



نعيش اليوم في زمن يسود فيه الخطاب البصري على الخطاب السمعي، فأصبحت الصورة هي المحرك الأساس للحصول المعرفي وتعريف الحقيقة، وهنا يكون المواطن مستهلكاً لتلك الصور التي تعكس الحقائق بقدر قدرتها على تزييفها: فالصورة في المحيط الملكي لا تخرج عن شقيها التقليديين: الثابت والمحرك.

أما القراءة السيميولوجية البصرية للصورة المرئية، فإنها تستند إلى جملة من المقومات التي تساهم في قوتها ومدى تأثيرها على المتلقي، فهي ليست عملاً صُدفياً اعتباطياً وعفوياً، وإنما هي تقنية تتأسس من مكونات ثلاثة تتدرج من خلال عملية مرورها في قنوات البصر والفكر والانفعال والتفاعل، وتُنتج مستويات قراءة تقنية/كالغرافية، دلالية، فكرية-معرفية-إيديولوجية.

وللصورة عفوية وعنفوان رمزي يؤشر على عنوان لمرحلة أو لمناسبة أو لحظة من لحظات التوثيق للانتماء والهوية. وانطلاقاً من تلك الحقيقة يسعى هذا المبحث إلى تبيان أهمية وبلاغة الصورة في الخطاب الإعلامي للقصر الملكي، وذلك عبر قراءة تحليلية لعينة من الرسائل البصرية التي استطاع جلالته ورواد الصناعة الخطابية ببلاغتها اللفظية وغير اللفظية توظيفها لتثبيت بعض الثوابت ولإبراز بعض الانتقالات الخطابية للعهد الجديد.

سبق لي القول في بداية المطلب السابق أنه لا يمكنني الفصل بين الفكر المولوي ولغة التعبير عن الفكر المولوي، إذ لن يكون بمقدوري النفاذ للفكر وللأفكار التي تحملها الخطابات بمعزل عن الألفاظ التي تصورها، بل لا أستطيع التفكير في الأمر إلا إذا اقتفيت أساليب صياغة عناصر فكره في قوالب لغوية. ومن الصعوبة بمكان تحديد دقائق العلائق التي تربط الفكرة باللغة لما تمتاز به من خصوصية الجدل والتعقيد، وتحديدًا حينما نطرح السؤال هل الفكر هو الذي يشكل اللغة أم أن اللغة هي التي تشكل الفكر والتفكير؟

إذا كان العلماء والفلاسفة يميلون كل الميل إلى الرأي الأول، فإننا نميل كما اللسانيون إلى الرأي الثاني.

وتكاد الحال تكون نفسها بالنسبة للثقافة، وحسبي علاقة التلازم بين اللغة والثقافة باستحضار نظرة "ألفريد فيبر" للثقافة على أنها "جملة من العناصر الروحية والمشاعر والمثل المشتركة التي ترتبط في خصوصيتها بمجموعة وزمن معين"، وذلك ما لا يمكن تصوره والاتفاق عليه خارج أداة اللغة التيهي مجموعة العلامات والشفرات التي تشمل الثقافة نفسها: فلغة الخطاب المولوي تحمل فكراً تدبيرياً لعدد من القضايا، وثقافة مخزنية ومراسيمية...

هذه المراسيم سأورد الحديث عنها في التناول السيميولوجي لفضاء إلقاء الخطابات المولوية والإشارات غير اللفظية التي تحفل بها شارات السلطة والبروتوكول الملكي، ومأسسة المراسيم السلطانية من خلال الثابت في مراسيم البيعة وخدمة السلطان والتتويج الملكي وتجديد البيعة، وفي التنصيب الحكومي والخطاب الافتتاحي للدورتين الخريفية والربيعية، وغيرها من الإشارات الدالة على حضور المؤسسة الملكية في قلب العملين الحكومي والبرلماني.

حديثي عن التابث يقتضي بمنطق المخالفة *le raisonnement a contrario* الحديث عن المتحول في هذه المراسيم الإشارية غير اللفظية التي دشنها ملك القرب من خلال عصرنة وتحديث البروتوكول المخزني.

ويبقى مناط بحثي في الإشارات غير اللغوية وعنهما أن قراءة الخطاب الرسمي غير كافية للإجابة عن مدى استعمال مؤسسة مركزية في بنية النظام السياسي المغربي بحجم المؤسسة الملكية للخطاب كمنظومة فكرية وتأطيرية وهيكلية للمجال السياسي كآلية لممارسة السلطة وتأطير باقي السلط وشرعنة امتلاك السلطة عبر قناة الخطاب، حتى في لحظات العلاقة المأزومة.

المطلب الأول/ آلية الرسائل العنوانية الآنية الموازية

يروم هذا الشق من الأطروحة مُساءلة عنصر أساسي من عناصر نص الخطاب الملكي يمكن اعتباره "نصا موازيا"، تتحقق فيه صفة الإيجاز وبلاغة الإنجاز والتعبير بتكثيف واقتضاب عما يليه من مساحات وفقرات الخطاب، سواء تعلق الأمر بفقرات الخطاب نفسه أو بعبارة أو نص آخر من جملة النصوص الأخرى التي تصاحب الإعلان عن الخطاب الملكي أو تلك البرامج أو المقالات الحوارية-التحليلية أو الوثائقية-التوثيقية التي تتناول مختلف مظاهر ومستويات ومضامين الخطاب الملكي.

كما أستحضر في هذا المقام أهمية عنوان الخطاب باعتباره خطابا مُقدماتيا يقوم على مقومات حاجية تروم الإقناع وتبئير القضايا التي يقدمها هذا النص للسائل والمتسائل وتتقدمها رسائل العنوان.

❖ أولاً: العنوان كنص مقدماتي وتبئيري لقضايا الخطاب

للعنوان أهمية في الولوج المسبق للتييمات التي سيعالجها الخطاب الملكي، حتى أن بعض الخطابات الملكية والرسائل تفصح بمضامينها من خلال عناوينها (خطاب تعديل الدستور، خطاب المبادرة الوطنية للتنمية البشرية، خطاب عقلنة الحقل الديني، رسالة تعزية ومواساة، رسالة تهنئة...): فالعنوان عنصر ضروري إذ يشكل المنطلق والنص هدفه.

لذا، ارتأيت أن أفرد له جزءا من بحثي لأوليته على باقي عناصر النص، وهو أول ملمح للولوج إلى المتن الخطابي المولوي، وعنصر مُنظم للقراءة ولاختيار خطاب ملكي دون غيره، لهذا التفوق تأثيره الواضح على التأويل الممكن للنص.

وتعد دراسة العنوان محل اهتمام الباحثين والدارسين إلا في أواخر القرن الماضي، بعد أن هيمن النص على عنوانه تاريخا طويلا كاد أن يلغيه من الوجود، فكانت العرب قديما لا تعنون قصائدها بل تكتفي - آنذاك - بذكر مطالعها للتمييز بين هذه القصيدة أو تلك، فمعلقة امرئ القيس يسمونها "قفانبيكي" أو ينسبونها إلى حرف الروي الذي تقف عليه، فيقولون سينية الخنساء أو لامية الشنفرى.

ولم يتوقف الأمر عند القصائد الشعرية بل تجاوزها إلى الدواوين الشعرية، فيلحق الديوان باسم صاحبه، فيقال "ديوان امرئ القيس"، ودام هذا الحال طويلاً إلى أن انفتح العرب على غيرهم من الشعوب وتعرفوا على تقاليد جديدة من الكتابة النثرية، فأخذوا يُعنونون أعمالهم والتي جاءت موسومة بلغة عصرهم ووعيهم الأدبي، فكانت عناوينهم بلغة مسجوعة تحمل في ثناياها نغمة الإيقاع التي تلازم العنوان العربي حتى أوائل القرن الماضي، فهي عناوين نثرية بلغة شعرية.

ويقترن تحرير العنوان من سطوة اللغة المسجوعة مع حركة التجديد في الأدب العربي التي ظهرت في المشرق العربي على يد "محمد حسنين هيكل" و"طه حسين" وغيرهما؛ وفي المهجر الأمريكي على يد الرابطة القلمية (1920)، وقد كان رئيسها "جبران خليل جبران" (1883-1931) من أكثر المبدعين عنونة لما تحمله عناوينهم القصصية من نبض شعري متفرد مثل "الأجنحة المتكسرة"، و"الأرواح المتمردة".. والتي لا يتأتى فهم دلالاتها إلا من خلال قراءة أفقية وفهم عمودي، فجبران مبدع عنواني غير مسبوق في اللغة العربية.

إن كان هذا حال عالم الإبداع، فإن الجانب التنظيري للعنونة يسعفني بلقول بأن اهتمام الباحث العربي جاء في سياق اهتمام الفكر الغربي بهذا الحقل المعرفي وخاصة مع الفرنسي جيرار جنييت (G.Genette) الذي درسه في نطاق عتبات النص ومنحه فصلاً كاملاً - الفصل الثالث - في كتابه: "Seuils"¹¹، ويقصد به العناوين الرئيسية والفرعية والمقدمات والاستشهادات والحواشي والإهداءات، فمنذ أواخر القرن الماضي ظهرت أعمال جادة في الأفق تتبلور وتبشر بميلاد حقل معرفي مستقل يطمح إلى تأسيس علم جديد في المستقبل له أصوله ومناهجه "علم العنوان" (la Titrologie). يمكن أن نقراً تقديمًا بمثابة حث للقارى على عدم إغفال المحطة العنوانية من خلال الفقرات التالية التي قدّمت بها منشورات "Seuil" الفرنسية الكتاب:

Il s'agit ici de seuils du texte littéraire, ou paratexte : présentation éditoriale, nom de l'auteur, titres, dédicaces, épigraphes, préfaces, notes, interviews et entretiens, confidences plus ou moins calculées et autres avertissements en quatrième de couverture.

Car les œuvres littéraires, au moins depuis l'invention du livre moderne, ne se présentent jamais comme un texte nu : elles entourent celui-ci d'un appareil qui le complète et le protège en imposant un mode d'emploi et une interprétation conformes au dessein de l'auteur. Cet appareil, souvent trop visible pour être perçu, peut agir à l'insu de son destinataire. Et pourtant, l'enjeu en est souvent considérable : comment lirions-nous l'Ulysse de Joyce s'il ne s'intitulait pas Ulysse.

قبل أن تختم المطبعة المذكورة تقديم الكتاب على صفحات موقعها بالعالم الأزرق باللهجة التحذيرية التالية من مغبة تَغيب البؤرة العنوانية من خلال التنبيه إلى ما يلي:

Cette étude se veut donc une incitation à considérer de plus près ce qui, si souvent, règle en sous-main nos lectures : Attention au paratexte !

¹¹ -Gérard Genette, Seuils, Editions Seuil, Paris 2002,p:54

وإذا كان هناك دأبا في الأدبيات السياسية على تحقير العنوان واعتبار الخطيب بثقافة العناوين والتسطيح والسطحية وعدم القدرة على الخوض في التفاصيل، فإن العنوان في الأدبيات الصحافية يشكل بابا للمقال وبوابة للمتصفح الجرائد في الأكوام للمرور إلى مرحلة اختيار جريدة أو مجلة دون غيرها، على نحو جعل كبريات الجرائد في العالم تختار مختصا في "عنوان"، وكان لجريدة ليبراسيون الفرنسية قصب السبق في مجال اختيار العناوين، حتى أصبحت مرجعا، على نحو جعل أوساط مهنيي القلم تلج بلسان فرنسي صيح ناظمه الإشادة بالمناويل المميزة للجريدة المذكورة من خلال إطرء كل عنوان حاز التميز والقدرة على الجذب ليوصف بأنها عنوان على شاكلة عناوين جريدة ليبراسيون « La titraille à la Libé » .

ويتجه "جيرار جانيت"، كأحد مؤسسي علم العنوان la titrologie، نحو الحديث عن فن العنوان، مركزا على الطابع التواصللي للعنوان، وهو الوضع الذي يفرض وجود مرسل يرسله، ووجود مستقبل يستقبله لأنه هو المقصود بإنتاج الرسالة، وإرسال العنوان ينطلق من عدم تحديد المرسل (عموم الشعب أو خاصته بحسب دوافع ومسوغات الفعل التواصللي).

وعن وظائف العنوان، يميز جانيت بين نوعين من العناوين:

- العناوين الموضوعاتية thématiques

- العناوين الإخبارية hématiques

فأما الأول، فيستقي مادته من موضوع النص الخطابي؛ وأما الثاني فيحيل على طبيعة النص، فيبين نوعيته أو جنسه أو صيغته، وطبيعة الأفكار التي يتضمنها¹.

❖ ثانيا- العنوان كأداة لتنظيم التواصل:

لقد تمكن العنوان من تأسيس قيمته الحضارية منذ ظهور في الطباعة، (أما بالنسبة للعرب، فقد احتل العنوان قيمته الحضارية منذ عصر التدوين) حتى صار وسيلة من وسائل تنظيم المعرفة وضبطها، وصار لصفحة العنوان أهمية تكتسيها مما تحتويه من معطيات تساوي النص، كما يرى "كومبانيون"².

إن في عَدَّ العنوان وصفحته أداة من أدوات تنظيم المعرفة، دليلا على وجود ودراسة موجهة إلى المتلقي: لذلك، فهو مطالب بأن يكون على دراية كافية بالأنساق التي يستقي العنوان منها مادته، ومن هنا يؤسس العنوان في حد ذاته نسقا أو نظاما code، خاضعا لتغيير أساليب الذوق خلال مرحلة زمنية ما، أو في محيط جغرافيا (خطاب أجدير، خطاب العيون، خطاب داکار، خطاب القمة الخليجية بالرياض)، بحيث يمكن أخذ كل ذلك بعين الاعتبار عندما نرغب في فهم آليات إشتغالها لغويا وسوسولوجيا. وتتجاوز تلك التفاعلات حدود النص وباقي عناصر الموازي النصي، لتتقاطع مع باقي سنوات الإحتفال بنفس المناسبة أو الإحتفال في نفس السنة بمناسبات أخرى، أو عناوين مرحلة تاريخية محددة من حكم صاحب الجلالة، فتشكل بذلك العناوين مجتمعة خزانة لعنوان هي لعمرى عنوان مرحلة.

¹- Gérard Genette, Op.cit, p. 71

²- Antoine Compagnon, La seconde main ou le travail de la citation, aux Editions « Seuil », Paris 1979, p. 251

فخطاب صاحب الجلالة في القمة الخليجية بالرياض بتاريخ 20 أبريل 2016 شكل منعطفا في تاريخ التوثيق الدبلوماسي المغربي نظرا لنوعية الخطاب الذي ألقاه في هذه القمة، وجِدته في الساحة العربية، حيث لم نعهد في خطابات الرؤساء والملوك هكذا نبرة في الخطاب والقول.

ولعل ما أثار انتباهي في هذا الخطاب هو الحديث عن أوضاع المنطقة العربية، وما تمر به من تحديات وأزمات وحروب وتمزقات وتشريد وتهجير وغيرها من ألوان اللاستقرار والتصدع والتمزق والتشردم كوجه من أوجه المؤامرات التي ارتكبت في حق المنطقة العربية. بل أكثر من ذلك، فقد اعتبر الخطاب أن الأمر فيه خطورة كبيرة، لأننا مقبلون على "تحالفات جديدة قد تؤدي إلى التفرقة، وإعادة ترتيب الأوراق في المنطقة، وإشعال نار الفتنة وخلق فوضى جديدة"، لا تستهدف شرق المنطقة العربية بل تمتد إلى غربها. ولعل الخطاب يقصد ما يجري حاليا من تحركات في قضية الصحراء المغربية، خصوصا بعد المواقف المنحازة للأمين العام الأممي السابق، وتصريحاته الخطيرة باتهامه للمغرب بكونه "محتلا".

كما أن الخطاب كان صريحا في اتجاه تحديد طبيعة المواقف المزدوجة والملتوية لبعض الأطراف، والتي يتم تصريفها بين الفينة والأخرى، في مواجهة دولة من دول المنطقة، خصوصا تلك التي تنعم بالاستقرار، وقد كشف الملك في خطابه، أن الدول المستهدفة هي عموما دول الخليج، والمملكة الأردنية الهاشمية والمملكة المغربية. وهي عموما الأنظمة الملكية التي لا زالت محافظة على استقرارها وتماسك مجتمعاتها.

وقد عبر ذات الخطاب، عن كون المنطقة تشهد مؤامرة حقيقية وليس وهمية، تستهدف أمنها واستقرارها: فبعدما تم تمزيق وتقسيم العديد من الدول والإطاحة بها، ها هو الدور يأتي على البقية الباقية، وهي تحديدا دول الشمال الإفريقي، واستهداف المغرب بشكل خاص بحكم موقعه الاستراتيجي ومواقفه، ولا ندري أين ستتوقف الدائرة التآمرية.

في الحقيقة، هذا الخطاب شكل سابقة تاريخية، لأننا كنا نسمع ونقرأ عن مخططات الشرق الأوسط الكبير الذي تقوده الولايات المتحدة الأمريكية، حيث قبل بروز "ثورات الربيع العربي"، فطفا على الساحة حديث وتحليل لهذه "المؤامرة" التي تستهدف أمن المنطقة العربية واستقرارها، بعد طول حديث عن "الفوضى الخلاقة".

شخصيا، كنت أعتقد أن الأمر فيه تهويل ومبالغة كبيرة، وفيه حتى مغالطات تاريخية، قبل أن يتضح لي من هذا الخطاب أنني بحاجة إلى فهم ومناقشة عميقتين للخلفيات التي توطر فكرة المؤامرة:

- فمن يتآمر على من؟ وكيف؟ وبأية وسائل؟
- ومن هم الفاعلون المباشرون وغير المباشرين لهذه المؤامرة؟
- وماهي الخرائط الجيواستراتيجية التي تحاك في الخفاء؟
- وهل يمكن القول، أننا الآن أمام منعطف جديد في بناء التحالفات الاستراتيجية التي كانت تربط حلفاء الأمس بأعداء اليوم؟ ومن هم الحلفاء؟ ومن هم المستهدفون بالحلف؟ ومن هي جبهة المقاومة؟

إذ كان من المُمكن تمييز أسلوب خاص في العنونة في باقي الخطابات، إقناعية كانت أم إبداعية، من خلال تقنية استعمال العناوين الفرعية أو الجزئية البينية المختلفة بين الفصول L'intertexte des titres، أجد أن الأمر يختلف في خطابات صاحب الجلالة، حيث تتكرر نفس اللازمة "شعبي العزيز" كعنوان فرعي يفصل بين تيمات الخطاب الملكي.

وإذا كان العنوان والعناوين الفرعية تشتغل كعلامة ثانوية أو ميتا-علامة méta-signe لإحالاته في المقام الأول على النص الإبداعي أو الإقناعي، فإن العنوان والعنوان الفرعي المتكرر في لازمة "شعبي العزيز" يرتبط في الخطاب الملكي بوظيفة النداء أو المناداة appellative المتضمنة لوظيفة أخرى هي وظيفة التخصيص، من جهة تحديده للجانب الموضوعاتي أو الجانب التجنيسي، أو لجوانب أخرى، من خلال فئة مخصوصة من شعبه ("حضرات السيدات والسادة المحترمين أعضاء مجلسي النواب والمستشارين"، قبل أن تليها بعبارة مقتضبة لازمة "حضرات السيدات والسادة"، "حضرات السادة أعضاء المجلس الأعلى للقضاء"، "معشر العلماء الأجلاء"¹؛ "معشر الرياضيين والرياضيات"²) أو من مخاطبيه وفق ترتيب بروتوكولي (أصحاب الفخامة، أصحاب المعالي، حضرات السادة/ فخامة السيد باراك أوباما، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، أصحاب الجلالة والفخامة والسمو والمعالي، حضرات السيدات والسادة/ فخامة السيد بول كاكامي، رئيس جمهورية رواندا، البلد المضيف للقمّة، أصحاب الفخامة رؤساء الدول والحكومات، أصحاب المعالي والسعادة، حضرات السيدات والسادة).

ولا يلغي هذا التصور كون العنوان معلمة كاملة المعالم، يخضع باقي فقرات النص لفلسفته، وتأويلاته، حتى يصير علامة مزدوجة:

- فمن جهة أولى، يعتبر العنوان علامة على النص، بالنظر إلى ما يرتبط به معه من شبكات دلالية مباشرة أو مؤولة.

- أما من جهة ثانية، فهو علامة على الفعل الحضاري العام الذي ساهم في بلورته، باعتباره نسقا سوسيولوجيا وثقافيا وإيديولوجيا.

ولا ينبغي إهمال الحالات التي يحضر فيها الغموض باعتباره حالة إبداعية، تستلزم مستويات من التحليل، المرتكزة على التفسير والتأويل، ثم التركيب.

❖ ثالثا: البؤرة العنوانية كمثير سمائي

إن طبيعة العنوان ووظائفه وكل مستوياته، كل ذلك يفرض على المتلقي سلوكا خاصا ومحددا من فك الرموز، واستحضار للطاقات المخزونة في الذهن، وتفعيل لأفق الانتظار... تارة وتركيب لمختلف الدلالات، وغير ذلك كله مما قد يكشف عنه التحليل.

ومن هنا، فإن العنوان يشتغل مثيرا معرفيا يستهدف كل ما تحتويه قوالبه التنظيمية، ومكوناته الدلالية، ومستوياته العلاماتية.

¹ - الخطاب السامي لأمر المؤمنين بمناسبة تروّس جلّالته بجامع القرويين بفاس حفل تنصيب أعضاء المجلس الأعلى لمؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة

² - الرسالة الملكية السامية الموجهة للمشاركين في المناظرة الوطنية الثانية حول الرياضة المغربية

وينضاف إلى هذه المستويات جانب أساسي من الجوانب المكونة للعنوان هو الجانب المتصل بفنون الطباعة والخط - الكاليجراف.

ويمكن ان نطلق عليه "فضاء العنوان"، وهو فضاء تتشكل مادته الأساسية من خليط من الألوان والخطوط، وتقنيات الطبع، وكل ذلك مرتبط في تصورنا بالوظيفة الإيديولوجية الكامنة في العنوان وفضائه، الذي يتوفر على دلالة ثقافية تساهم في الرفع من إمكانية نجاح المنتج أو فشله، ولا شيء يمنع من الحديث عن وظيفة إشهارية يقوم بها.

من منطلق ما اكتسبته من معرفة بأهمية العنوان ودوره في حمل القارئ على الاختيار دون احتيار وفي شدّ انتباه المستمع عند اشتغالي بالصحافة وعلوم الطباعة والتصميم الإعلاني، أثرت عدم احتقار اللحظة العنوانية أو القفز عليها والاحتفاء بها من منطلق كونها مجال إضاءة أولى للنص وجسرا يُقرب المسافة بين المتن الخطابي المولوي وجمهور التلقي بمختلف أطيافه وأصنافه.

ونظرا لأهمية العنوان في فك لغز المتن الخطابي والتدليل عليه وعلى مناسبته، جعلته بؤرة أساسية، وذلك بانطلاق من فرضية كونه عنصرا ضروريا وليس ثانويا إذ هو المنطلق والنص هدفه، فنفرد له بالتالي أولوية primauté على باقي عناصر النص، لأن العنوان ليس فقط هو أول ما نلاحظ أو يسترعي اهتمامنا عند الإعلان عن موعد الخطاب الملكي (النص في شكله المادي)، ولكنه عنصر سلطوي منظم للقراءة ويحكم حتى اختيار التيمات التي سيتناولها جلالته وجوبا.

وتأسيسا على ما سبق، لا يمكن محض الحديث عن خطاب ذكرى المسيرة الخضراء دون أن نتقرب معطيات جديدة حول قضية الصحراء وعن مسارات تسوية الملف، ولا يمكن أن نجد خطابا ملكيا افتتاحيا للدورة التشريعية دون إصدار جلالته لتوجيهات وتعليمات سامية إلى ممثلي الأمة ومن ورائهم الحكومة من أجل اعتمادها بوصلة لخارطة طريق العمل التشريعي والتنظيمي.

للقوف على مركزية العنوان المعلن لكل خطاب ملكي أو لكل الخطابات الملكية التي ترد احتفاء بنفس المناسبة، يتعين تحاشي اعتبار العنوان المعلن للخطاب الملكي من متلاشيات القراءة، لأنه يعتبر المدخل نحو عوالم بينها انطلاقا من لغة تعبيرية محتجبة في دلالتها ومتحولة في معانيها ومتداخلة في مقاصدها حول المناسبة الثابتة أو المتحولة التي استدعت توجيه جلالته للخطاب الملكي إلى عموم شعبه، ليوجهنا بذلك سؤال العنوان نحو مواجهة ليست أقل صعوبة من مواجهتنا لسؤال المناويل القرائية المتاحة للخطاب الملكي.

يشغل العنوان كمتعالية نصية حيز المقدمة وناصية النص على مستوى الإعلان القراءة أو الكتابة معا أو حتى على مستوى الإعلان عن موعد توجيه الخطاب لعموم المغاربة وإنصات هؤلاء لمضامينه، ولا يأتي زمنيا بعد اكتمال النص: فهذا الأخير ينال قدرا مهما من اهتمام الدارسين باعتبار بُعد اللغوي والمضاميني والتداولي، أما العنوان، وهو بنية لغوية كذلك، فيظل في معزل عن إهتمام المهتمين وعموم المستمعين (باستثناء البرامج الوثائقية الخاصة التي ترد باقتضاب حول المناسبة أو بعض الأغاني التي كان لسان القصيد ينظمها بالمناسبة أو بعض الملاحم التي كان يبدعها الفنانون بالمناسبة)، رغم ان العنوان عنصر من عناصر النص وأداته السلطوية التي تنظم قراءته وتوجهها.

فالمُتأمل في البُورة العنوانية لكل خطاب ملكي يجدها حِفلا تعبيريا سابقا لمتن الخطاب الذي يليه جلالته، فلا تنحصر هذه المساحة الإحتفالية والإحتفائية بالموعد الخطابي الثابت أو الذي استدعته سياقات محددة في اللساني (اللغوي)، بل تتجاوزُه بعيدا إلى التواصلي، إذ تلعب سياقات التسويق له والإعلان المسبق عنه في النشرات الإخبارية وفي بلاغات وقصاصات وكالة المغرب العربي للأنباء نقلا عن مديرية القصور والتشريفات والأوسمة دورا محوريا في دعوة جمهور التلقي إلى الجلوس في الموعد أمام العاهل للإنصات (وليس للإستماع فقط) لأن في الإنصات تدبر واستماع واستمتاع أيضا.

كمحطة، يقتضي الوصول إلى العنوان رسم خطة لبلوغ أهم مداخل الخطاطة العنوانية كبنية لغوية، مادتها الأساسية هي اللغة، مع ما تحمله هذه اللغة من أبعاد وإيحاءات وتقنيات تواصلية تحت عموم الشعب والمهتمين والساسة لانتظار ما سيسفر عنه اللقاء مع المتن الخطابي المولوي، فلا يقتصر العنوان عن الإعلان عن الولادة، بل يُواكبها ويسبقها ويلبها من خلال تناول إعلامي كبير للمناسبة التي يحمل العنوان وسمها وإسمها، ويقبل أسئلتها، إن لم تكن أسئلتها هي أسئلته وأسئلة المناسبة التي جاء في سياقها (مثلا الخطاب الملكي المعلن لتعديل الدستور).

وتستعين خطاطة العنوان عادة بالمظاهر الإحتفالية التي تحيط سرادقاتها بالخطاب الملكي من خلال مجموع التعبيرات الموسيقية والوثائقية والأفلام التسجيلية التي تثبت بالمناسبة لتجعل مساحة البصري تتجاوز مركزية مساحة اللغوي في المتن الخطابي لتؤدي أبعاد تواصلية وتداولية.

المدخل الإصطلاحي لمركزية اللغة في نصية العنوان: كبنية لغوية، يفرض علينا العنوان اعتباره نصا مضافا إلى نص الخطاب الملكي ويحمل خصائصه الجينية وإن كان العاهل لا يليقه ويفصل بينه وبين النص كسمتوى إجرائي عند إلقاء الخطاب (فلا يمكن لجلالته أن يستهل خطابه بالقول: "خطاب الذكرى الخامسة لعيد العرش أو لاعتلاء جلالتنا عرش أسلافنا الغر الميامين" ثم يبدأ في قراءة نص الخطاب "الحمد لله، والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه. شعبي العزيز، لقد ارتأينا، ونحن نخلد، في هذا اليوم، الذكرى الخامسة لتحملنا أمانة قيادتك، ألا يكون خطاب العرش لهذا العام، مجرد حصيلة لما حققناه من منجزات، على أهميتها. بل نريده رؤية مستقبلية، للمضي قدما في توجيهنا الاستراتيجي، لبناء مغرب موحد، ديمقراطي ومتضامن، منفتح ومتقدم."

ففي هذا إسفاف، وسيعتريه بعدئذ تكرار لا حاجة إليه، حيث أن الخطاب الملكي يذكر عادة بمناسبته وسياق توجيهه إلى الشعب المغربي. فقد ورد الخطاب السالف الذكر في مظانه وفق البنية التالية: صورة الخطاب.

فحتى على المستوى المعجمي، تحليل لفظة "عنوان" على ما ينسجم وطبيعة الواقع الثقافي السائد في وقت ما، فيرد لفظا متقاطع الدلالة بين ثلاث مواد هي: "عنن" و"عنا" و"علن"، ونجد في لسان العرب أن الشيء قد "عن ويعن عنا وعنوانا" إذا ظهر أمامك، وعن ويعن عنا وعنوانا، واعتن: إعترض وعرض.

وتدل كل المعاني على تضمن العنوان لمعاني الظهور والتعريض في المقام الأول، ولذلك كله علاقة بالمعنى، كما يلمس منها دلالة الأثر الدال على الشيء، فيكون العنوان أثرا دالا على ما يتقدمه. كما وجدت في المتن القرآني مادة "عنا" التي تدل، عند الفراء¹، على العمل والنصب لله في قوله تعالى ﴿وَعَنْتَ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾.

¹ - يحيى بن زياد الفراء، معاني القرآن، تحقيق حمد يوسف نجاتي/محمد علي نجار/عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار عالم الكتب، الطبعة الثالثة، 1983، ج 2، ص 913

قال ابن سيدة: العنوان والعنوان سمة الكتاب. وَعَنُونُهُ عَنُونَةً وعنوانا وعناه كلاهما: وَسمه بالعنوان¹.

يُستشف من هذه المادة دلالة تتسجم مع خصيصة العنوان المعلن للخطاب الملكي، وهي الوسم وإرادة المعنى، وكأن العنوان حامل لمعنى محدد، هو معنى الشيء الذي يتقدمه. كما نجد في مادة "علن" "العلان" و"المعالنة" و"الإعلان": المجاهرة بالأمر، يعلن عنوانا، ويعلن عنوانا ويعلن وعلن يعلن علنا وعلانية، إذا شاع وظهر²، ليستشف من هذه المادة دلالة الإشهار والإعلان.

فالقديما فقها الدور التواصلي للعنوان باعتباره الأثر الذي يدل على الشيء الذي يحتل ناصيته، حيث يمكن اعتبار العنوان بمثابة علامة تحتوي النص في حد ذاته وتحتوي الرسالة (موضوع التواصل) وتحتوي المكتوب (الخط)، فضلا عن اشتغالها على الفضاء الذي يتربع فيه الخط وأحيانا الفضاء الذي سيلقى فيه الخطاب ("أعلنت وزارة القصور الملكية والتشريفات والأوسمة أن الملك محمد السادس سيوجه خطابا ساميا إلى الأمة بمناسبة الذكرى 17 لعيد العرش المجيد، من قاعة العرش...")؛ "أعلنت وزارة القصور الملكية والتشريفات والأوسمة، أن الملك محمد السادس، سيوجه خطابه بمناسبة تخليد الذكرى الـ41 للمسيرة الخضراء من مدينة دكار السنغالية".

وبهذا يكون العنوان هو كل إطار يستدل به على الشيء، خاصة وأن مؤرخي اللغة (الفيلولوجيون) يرون أن الفعل الرباعي متطور عن مادة ثنائية، وأن هناك وسيلتان لتطور المادة:

- إحداهما إطالة الحركة المتطرفة، فأصبحت عنا أو عنا؛

- وثانيهما التضعيف³، وهي الأقرب إلى ضبط اسم المصدر "العنوان"، وهي "كلمة تحمل في طياتها معنى الإظهار والإبراز، وتنبيه الناس إلى وجود شيء ما يكون دالا عليه وصارفا الناس إليه وتحمل كذلك دلالة المعنى والتفسير، أي تدل على لاشيء وتلخصه"⁴.

هذا المعنى هو الذي ذكرته أغلب المعاجم، وتنفرد بعض المعاجم دون غيرها بإضافات، ورد كذلك في قاموس الفيروز آبادي: "وكلما استدلت بشيء يظهر على غيره فعنوان له"⁵.

وعلى العموم، فإن هذه التعاريف تجعل للعنوان دلالة مشتركة، ومتداخلة، ولكنها لا تخرج عن إطار أحد الأبعاد التداولية الآتية:

أ- معنى القصد والإرادة، وهو مرتبط بفعل التواصل، إذ هناك فعل الإرسال وقصد الاستقبال، ولكن هذا القصد يأخذ أبعادا مختلفة ومعقدة حينما يتعلق الأمر بالعنوان: فهو "يتوجه إلى المستقبل حاملا" مرسلته" وهذا الحمل تحديدا هو قصد المرسل وإرادته إبلاغ"، المستقبل "بجماع الرسالة إن على مستوى الجنس أو على مستوى الموضوع أو حتى على مستوى موقف الرسالة من خطابها الذي تتأسس داخله"⁶.

¹ - الفراء، نفس المرجع، الجزء الثاني، نفس الصفحة

² - الفراء، نفس المرجع، الجزء الثاني، ص 873

³ - محمد عويس، العنوان في الأدب العربي، النشأة والتطور، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1988، ص 17

⁴ - جمهرة اللغة، ابن دريد، دار صادر، بيروت، دون سنة، الجزء 3، ص 145

⁵ - الفيروز آبادي، قاموس المعجم المحيط، دار المعرفة، بيروت، 2005، الجزء 4، ص 250

⁶ - محمد فكري الجزار، العنوان وسميوطيقا الاتصال الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998، ص 21

فالعنوان وعلى أساس كونه قصداً، إنما هو تأسيس لعلاقة فعلية بخارجه بمختلف مظاهره الواقعية والاجتماعية، والنفسية والسلوكية، وهو في الآن نفسه تأسيس لعلاقة فعلية أخرى هي علاقته بالعمل أو بالنص، الذي يأخذ ناصيته، أو يتربع على عرشه، في ضوء مقصدية أساسية هي مقصود صاحب الجلالة كمرسل، الذي يتمثل صورة نموذجية لمجتمع تلقي معلوم، قادر على التفاعل مع مقصديته إلى أبعد الحدود.

ب- معنى الظهور والعرض، وهو معنى تداولي خاص بجمهور تلقي الخطاب الملكي بالدرجة الأولى، انطلاقاً من كون العنوان أول شيء يطالع عموم المواطنين والمواطنات، وكونه كذلك يعني تحديد "حقل اشتغال المتلقي عليه، كما كان العنوان يحيل على القصد" والإرادة تحديداً لحقل اشتغال المرسل¹، وهي علاقة بين خارج لغوي وداخل لغوي، وتلك ميزة تميز العنوان، لعدم قابليته للتصورات البنيوية المغلقة والمجردة.

فإذا كان العمل يتمتع بهذه القابلية، فمعنى ذلك أن تحقق إنتاجيته الدلالية هي تلاقي قصد جلالته كمرسل بمعرفة ثقافة شعبه كمستقبل، التي تحرك العنوان ("سيوجه صاحب الجلالة خطاباً إلى شعبه الوفي ابتداء من الساعة الثامنة مساءً من يوم الجمعة...")، ويضرب في الوقت نفسه موعداً لهذا اللقاء على الأثر لضمان فرص أكبر للتواصل الجماهيري والتأثير في صفوف الجماهير؛

ج- معنى الأثر الحامل لدلالة تحيل على المحمول، وهي دلالة منحصرة بين قطبين هما المتن الخطابي من جهة، والعنوان كمتعالية نصية من جهة أخرى؛

د- معنى الإعلان والإشهار، وهو مؤسس لعلاقة أخرى ذات طبيعة خاصة توجد خارج نظام اللغة، مع بقائها في دائرة تواصلية، ذات طبيعة علامائية وذرائعية خاصة، هدفها التأثير في المتلقي، من خلال اشتغال العنوان كدعوة لمهرجان خطابي مولوي وكداعية لقضية أو قضايا، ودعوى هي في حقيقتها عنونة إعلانية لموعد تواصل بين الملك وشعبه.

لما طلبت التعريف الإصطلاحي في المعجم العربي الحديث الذي استفاد من تنوع وتشعب مشارب حقول المعرفة، لم أجد أكثر من أن فهم العنوان ينصرف إلى الدليل الذي يكون ظاهراً، فيدل على ماهو في الباطن أو غائب، ومنه قولهم الظاهر عنوان الباطن: فالعنوان جملة من الكلمات تكون مقدمة لبحث أو قصة أو مفتاحاً لعلم من العلوم أو مدخلاً.

أما عنوان الموضوع في المنطق فهو مفهوم الموضوع ووصفه.

في حين ينصرف فهم الموضوع في القضية المنطقية إلى المسند إليه²: فالعنوان من هذا المنظور دليل طبيعي مُمهّد لما في الباطن أو لبعضه أو لأهم ما فيه. ونجد الدكتور "محمد عويس" ضمن من قاربوا هذا التعريف عندما قال: "إن العنوان تفسير لشيء ما، وأنه يحمل هذا الشيء، وأن العنونة شيء بعينه تعد سمة هذا الشيء، ومعناه ومقصده"³.

فإذا كان العنوان مفسر لشيء، فكيف يكون الملخص تفسيرا للمفصل، وكيف تكون العبارة المختصرة تفسيرا للنص الطويل الواسع؟

¹ العنوان وسيميوطيقا الإتصال الأدبي، محمد فكري الجزار، ص 22

² سعيد الكرمي، الهادي إلى لغة العرب، دار لبنان، للطباعة والنشر بيروت، ط 1/ 1412/ 1992 ج 2 ص 282

³ محمد عويس، مرجع سابق، ص 17-18

يكنم الجواب على ذلك في كون العنوان فكرة رئيس يتمحور حولها العمل أو في كونه خلاصة مركزة لنص ومناسبة المتن الخطابي الملكي أو حتى لمضامين المبادرة الملكية ("خطاب إعلان تعديل الدستور") ولسياقها ("خطاب 18 ماي 2003"، يومين فقط بعد تفجيريات 16 ماي الإرهابية).

من خلال تناقل وسائل الإتصال السمعي-البصري والمكتوب لخبر توجيه دلالة الملك لخطاب ملكي وفق الصياغة التالية: "تعلن وزارة القصور الملكية والتشريفات والأوسمة، أنه بمناسبة حلول الذكرى الرابعة والثلاثين للمسيرة الخضراء المظفرة، سيوجه صاحب الجلالة الملك محمد السادس، نصره الله وأيده، خطابا ساميا إلى شعب الوفي. وسيبث الخطاب الملكي على أمواج الإذاعة وشاشة التلفزة في الساعة الثامنة والنصف من مساء يوم غد الجمعة 18 ذي القعدة 1430 هـ، الموافق لـ 06 نونبر 2009)".

ويمكن قراءة العنوان على شاكلة هرم مقلوب متعدد المستويات، قمته الجهة التي أصدرت البلاغ أصالة عن صاحب الجلالة (تعلن وزارة القصور الملكية والتشريفات والأوسمة)، لأن كل مستوى من مستوياته يعتبر مرحلة من مراحل تمطيط هذا العنوان والمادة الإعلامية-الإعلانية من خلال الحديث عن الجهة التي ستوجه الخطاب (صاحب الجلالة الملك محمد السادس شخصا وليس خطابا أو رسالة سيكلف غيره بتلاوتها)، ليرد العنوان كقاعدة سفلى لهذا الهرم، بعد استحضار المناسبة التي استدعت التواصل المباشر بين الملك وشعبه (بمناسبة حلول الذكرى الرابعة والثلاثين للمسيرة الخضراء)، قبل أن يتم وضع أرضية للهرم التي تتضمن فكرته العميقة ومستواه الأدنى أدق مستويات التفسير والتمطيط حول موعد هذا الحدث التواصلية كي لا يتخلف عنه جمهور التلقي.

في حالة الرسالة المنطوقة، يبدو التواصل محكوما بسياق خاص باق الحال، حيث يتم التواصل في ضوء العديد من المعطيات الزمانية والمكانية، جامعة بين قطبي التواصل الرئيسين: جلالة الملك كمرسل وعموم شعبه كمتلقي.

فالسياق يقوم على دعامة بناء علاقة أحادية الجانب تبدأ من جلالته كمرسل الذي يطمع في أن يؤثر في متلقيه بالجوء إلى إبراز كل إمكانياته المتاحة لتحقيق الهدف، وأما سياق الحال فينبني على ما يحيط بجمهور تلقي خطاب جلالته من ظروف وملابسات.

ومن هنا، فإن الإشارة إلى السياق في العنوان كرسالة كاملة ومكتفة على هامش رسائل المتن الخطابي تقدم لها وتوازئها، يجعل للعنوان "وظيفة حملية"، تمثل تفاعلا سيموطيقيا بين النص وعنوانه، وكذا بين كل من "المرسل" والمتلقي أيضا، لأن هذا الأخير يدخل إلى علم الخطاب الملكي من بوابة العنوان "متأولا له، وموظفا خلفيته المعرفية في استنتاج دواله الفقيرة عددا وقواعد تركيبا وسياقا، وكثيرا ما تكون دلالة النص ناتج تأويل عنوانه، أو يمكن اعتبارها كذلك دون إطلاق¹، لأن العنوان هو ناتج تفاعل علاماتي بين جلالته وجمهور التلقي: فعلى الرغم من الطابع الاختزالي للعنوان فإنه ينجح في بناء خطاطته التواصلية في ضوء العمل الذي يتقدمه، الأمر الذي يدفعنا إلى القول بوجود "خطاب عنواني" يحتاج منا للكشف ويدعونا للاكتشاف.

ورغم الفتح الذي ميّز المخطط التواصلية الجاكسوني، فقد كانت تعوزه بعض الإضافات لاقتصاره على الرسالة اللغوية وإغفاله حقيقة مفادها أن النظام التواصلية لايقوم على اللغوي فقط، وإغفاله الرسالة الأيقونية إلى جانب كونه رسالة لغوية، لأن العنوان عبارة عن سنن¹: السنن الأول

1- محمد عويس، مرجع سابق، ص 19

سنن لغوي والآخر سيميائي (الألوان، قاعة العرش، الموسيقى المعلنة للخطاب الملكي، مساحة البياض والصمت Diffusion voix off et à blanc، الجانب البروتوكولي لجلوس ولي العهد صاحب السمو الملكي الأمير مولاي الحسن وصاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد...).

يفرض هذا المعطى إعادة النظر في السؤال الذي طرحه "جاكوبسون" في خطاطته بشأن الوظائف اللغوية، بل ويدفعنا إلى تصور وظيفة جديدة تنسجم والعنصر السالف: فعنوان الخطاب أو بالأحرى مناسباته يسهل ربط الإتصال بالمتلقي، وغالبا ما يركز على بعض العناصر خارج اللغة، أي على أشياء غير لغوية تعتمد الخطاب البصري نظاما لها¹.

❖ رابعا- البلاغتان اللغوية والأيقونية

إن المضمون أو المضامين الدلالية للصورة هي نتاج تركيب يجمع بين ما ينتمي إلى البعد الأيقوني للمتن البصري الذي يشير إلى المحاكاة الخاصة بكائنات أو أشياء وبين ما ينتمي إلى البعد التشكيلي مجسد في أشكال، ويبث رسائل بشتى الوسائل.

ونحن بصدد الحديث عن المتعاليات النصية، أجدني ملزما بالوقوف عند التعدد النصي وفق القراءة والرؤى والتصورات التي قدمتها "جوليا كريستيفا"، والتي استقت بدورها مادتها الخام من السيميولوجيا ومن علم اللغة العام. فهي ترى أن "النص أكثر من مجرد خطاب أو قول، إذ هو موضوع للعديد من الممارسات السيميولوجية التي يُعتد بها من منطلق أنها ظاهرة عبر لغوية، بمعنى أنها مكونة بفضل اللغة، السيميولوجية، التي يعتد بها من منطلق أنها ظاهرة عبر لغوية، بمعنى أنها مكونة بفضل اللغة، لكنها قابلة للإنحصار في مقولاتها"².

ومنه، أجد أن "جوليا كريستيفا" لا تقف بالنص عند حدود النص وانغلاقه اللغوي والبنوي وانحصاره في دائرة بنيته الذاتية، بل تعتبره بؤرة يلتقي فيها العديد من النصوص السابقة والموازية، بالإضافة إلى مختلف السلوكات الثقافية والاجتماعية، والمواقف الإيديولوجية في إطار ما يصطلح عليه بـ التناسل intertextualité حيث يبدو النص من هذا المنظور حالة مزدوجة التوجه:

أ. جهة البنى الدالة، حيث تتشكل شخصيته وتتلور، وبعبارة أخرى، من خلال الخصوصيات اللغوية والكلامية لفترة من الفترات في مجتمع معين، أي أن النص في هذا الاتجاه هو وليد مجتمعه بكل تفاعلاته وأفكاره وقضاياها في فترة ومكان مُحدَّدين، ليكون بذلك لكل زمن نظامه النصي الخاص؛
ب. جهة المجتمع ومعطياته، حيث يساهم في إنتاجه بصفته خطابا³. ومن هنا يصير النص "إنتاجية" كما ترى كريستيفا، ومعنى ذلك:

- أن علاقة النص باللغة التي ينتمي إليها ستكون لا محالة علاقة بناء وهدم؛
- أنه تفاعل وتبادل للتأثير مع النصوص أخرى (تناسل)⁴.

¹ - ينظر مدخل إلى السيمياء، ترنس هوكس، بيت الحكمة، العدد 5، السنة الثانية، 1987، ص 120

² - بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، سلسلة عالم المعرفة ع 164، ص 229

³ Recherche pour une Sémanalyse, Coll Tel Quel, Ed. Seuil p. 10 -11.

⁴ - مدخل لدراسة النص والسلطة، عمر أوكان، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1991، ص 52

فالنص إنتاجية لامتناهية وبؤرة تفاعل تقوم بإنتاج دلالات مختلفة وموازية للنص، يكون أقطابها المؤلف نفسه، ثم المتلقي، وأخيرا السياق، على أساس أن هذا الأخير مذوّب في النص وغير مستقل عنه بذاته، لأنه يشكل شبكة من العلاقات التي تستقطب خصوصا أخرى النص ينتمي إلى شريحة اجتماعية لا ينبغي تغييبها، لأن ذلك يجعل من نص ما مقبولا عند جماعة إنسانية، ولا يحظى بنفس المقبولية عند جماعة أخرى، لتعارض المصالح والتطلعات.

كما تميز "جوليا كريستيفا" في سياق آخر بين مفهومين هما: مفهوم النص الظاهر *phéno* *texte* والنص المتوالد *éno* *texte*، الذي يبنّي بواسطة عمليتي البناء والهدم التي تلحق الملفوظ لكن ليس في إطار إنتاج جملة مثلا، بل في إطار إنتاجية مفتوحة وغير محدودة إلى مالا نهاية¹.

وبذلك، يتحول النص إلى ظاهر وخفي ونهائي ولا نهائي، سياق وتناس، إيجاب وسلب، سكون وحركة، معنى واستحالة، فهم وتعطل فهم². وتلك أهم سمات الخطاب الملكي الذي تختلف مؤشرات فهمه وعدم فهمه وفق مستويات قبوله وعدم قبوله والنظرة الإيجابية أو السلبية والمستلبة لإنتاجيته اللامتناهية للدلالات المختلفة والموازية لنص الخطاب وبؤر التفاعل معه أو الإنفعال لمجرد سماع سبق صاحب الجلالة وزحفه الخطابي على من يتبنون خطابات مغايرة ومناوئة.

ما يميز الخطاب الملكي في هذا السياق هو اتسجابه مع الرؤية التي تراها "جوليا كريستيفا" حين اعتبرته بؤرة ثقافية غير جامدة، ودائمة التوالد والتناسل، حيث لا يتأثر بالطول أو القصر بحكم اتساع مجاله السيميائي وقدرته على نقل اهتمامات المجتمع بتنوعه ويمختلف أطيافه، بنفس حمل نفس المجتمع والقائمين لمضامينه والإستشهاد بها والإحتجاج بشذرات منها في مواجهة بعض المتحاملين على المؤسسة الملكية.

ويحيلني افتتاح نص الخطاب الملكي لزوما على رؤية "رولان بارت" لمفهوم النص والبناء الجديد لتصوره بشأنه حين اعتبره مفتوحا على كل الإيوانيات اللغوية. فمفهوم النص عند "بارت" لا يدرك إلا بمفهوم المخالفة للأثر الأدبي *l'œuvre littéraire* حيث يظل هذا الأخير بناء مغلقا ومحدودا وتتناوله اليد، في مقابل النص الذي تتناوله اللغة³؛ في الوقت الذي يحظى في الأثر الأدبي بعناية فقهاء اللغة والبلاغة، بغية تحديد معناه الحرفي، يكون النص إطاره الواسع ليصير دالا وليس مدلولا، "فلا ينبغي تصور الدال على أنه الجزء الأول من المعنى وحامله المادي... فلا نهائية الدال لا تحيل على ما يعجز اللسان عن التعبير عنه... وإنما إلى فكرة اللعب، أو التوليد الدائم الدال داخل مجال النص"⁴.

فالنص عند "بارت" تعددي، ولا يعني ذلك أنه يحتوي معاني عدة، وإنما يعني إمكانية تنويع وتعدد التأويلات فيه، وهو تعدد لا يؤول إلى وحدة: تبعا لذلك، يظل النص بالفهم البارتي خاضعا للتفجير أكثر من التأويل⁵

ولا يمكن الحديث عن هذه التعالقات والتواشجات دون الإشارة إلى المشروع الفكري الذي دشنه "جيرار جانيث" سنة 1979 وحمله على عاتقه حتى حدود سنة 1987 ولم يتوقف منذ ذلك الحين: ويقوم المشروع بدوره على عدم الوقوف والتوقف في حدود المفهوم التقليدي للنص الذي يعتبر أن النص هو كل ما يوجد بعد العنوان، أو بين دفتي الغلاف، بقدر ما يجب اعتباره إطارا واسعا.

¹ Op.cit. p.282 -283

² وجود النص الأدبي-نص الوجود، مصطفى الكيلاوني: ص 20

³ Roland Barthes, De l'œuvre au texte, in Le bruissement de la langue : essais critiques IV, Editions le Seuil, 2000, p.74

⁴ Op.cit. p.74

⁵ Op.cit. p.75

والتوسع في التعريف الذي شمل ظلال النص لم يقف عند حدود الرقعة النظرية أو الفكرية فحسب، بل كان اتساعه اتساعاً منهجياً يقوم على إعادة الاعتبار إلى عدد من الممارسات الطقوسية التي ترافق فعل الكتابة منذ ظهور فن الطباعة إلى اليوم.

وبهذا لا يمكن حصر حدوده عند مبدأ التناسل، فمشروعه الكبير (في سياق شعري غير سياق النص السياسي الذي يتعلق به موضوع أطروحتنا) محكوم بعدة تصورات أهمها كون موضوع الشعرية ليس هو النص من جهة تَقَرُّده أو من جهة العناصر التي تصنع أدبيته، أو ما يطلق عليه "جامع النص l'architexte بل هو الماوراء نصية «la transtextualité» أو التعالي النصي للنص la transcendance textuelle حيث يعرفه بأنه "كل ما يجعله في تعالق ظاهر أو ضمني مع نصوص أخرى"¹. وبذلك فهو متجاوز لجامع النص ومشتتاً عليه، ولبعض الأنواع الأخرى ذات العلاقة الخاصة بالتعالي النصي.

في هذا الإطار، فقد ميز بين خمسة أنواع² أكاد أجدها حاضرة/مُحضرة في الخطابات الملكية:

- النوع الأول وهو التناسل l'intertextualité وهو من وَضَع جوليا كريستيفا، كما يرى، وعرفه بكونه علاقة حضور تزامنية بين نصين أو عدة نصوص بواسطة الاستحضار، وفي الغالب بالحضور الفعلي لنص داخل نص آخر، إما في شكل استشهاد citation أو شكل أقل أخلاقية كالسرقات الأدبية، أو في شكل تلميح l'allusion أو في ملفوظ لا يتمكن إلا الخيال الثاقب من تحديد العلاقة التي تربطه بملفوظ آخر، يميله إليه بشكل من الأشكال³.

- النوع الثاني، ويُطلق عليه الموازي النصي la Paratextualité ويتكون بصفة عامة من العلائق الأقل وضوحاً، والأكثر بُعداً عن المجموع الذي شكله العمل الأدبي، كالعنوان، والعنوان الفرعي، والتقديم أو الديباجة، والتذييلات، والتنبيهات، والتصدير، والحواشي الجانبية، والحواشي السفلية، ونوعية الغلاف، وأنواع أخرى من إشارات الملاحق والمسودات الخاصة والغيرية التي تزود النص بحواشي متنوعة وغيرها؛

- النوع الثالث، وهو الواسف النصي la Métatextualité ينصرف إلى تلك العلاقة التفسيرية والتعليقية التي تربط نصاً بآخر يتحدث عنه، دون الاستشهاد به أو استدعائه⁴؛

- النوع الرابع، وأُطلق عليه المتفرع النصي hypertextualité يحيل على كل علاقة جامعة للنص "ب" وسماء النص المتفرع hypertext، بنص آخر سابق هو "أ" وأُطلق عليه النص الأصل hypotext، حيث يلقح منه بصورة مغايرة لصورة التعليق. وبعبارة أخرى، هو كل نص تفرع عن نص سابق من خلال صياغة بسيطة في الوقت الذي يكون فيه الثاني هو النص الذي صدر منه الفرع⁵؛

- أما النوع الخامس، فيُطلق عليه الجامع النصي l'Architextualité وهي علاقة بكماء، لأنها لا تتقاطع على أبعد تقدير إلا مع إشارة واحدة من إشارات الموازي النصي ذات الطابع الصنافي البارز⁶، وكونها بكماء راجع إلى رفضها إظهار هويتها وانتمائها، كما لو أن تحديد معيار النوعية النصية ليس من شأن النص نفسه، وإنما من شأن القارئ أو جمهور التلقي.

¹ - Gérard Genette, Palimpsestes épiques : récritures et interférences génériques, Éditions du Seuil, coll. Poétique, 1982, p.7

² - عمر أوكان، مرجع سابق، ص 51

³ - Ibid p.8

⁴ - Op.cit. p.11-12

⁵ - Op.cit. p.14

⁶ - Ibid p11

إن آفاق النص عند "جيرار جانيث" آفاق منهجية ارتأيت الإسترشاد بموزايكيّتها للقول إن عنوان الخطاب الملكي أو النص المُعلن له وعنه ينتمي من الناحية المنهجية إلى الموازي النصي، ويملك بذلك بنية مستقلة تجعله كتلة لغوية قابلة للعديد من المناويل القرائية.

وتدفعنا محورية مكانة جمهور التلقي ومعالجة قضاياها في كل الخطابات الملكية إلى تجديد الإستشهاد بشذرات من فكر "بارت" حين اعتبر النص بؤرة تناص، داعياً إلى الرفع من قيمة وأهمية المتلقي، في سياق رفع شعار الفرد وأهميته، حيث يقول في هذا الشأن: "من المنطقي إذا أن تكون النزعة الوضعية في ميدان الأدب تلك النزعة التي كانت خلاصة لإيديولوجية الرأسمالية، ونهايتها هي التي أولت أهمية قصوى لشخصية المؤلف"، فكان المؤلف يستحوذ على مطولات تاريخ الأدب، وترجمات الكتاب، واستجوابات المجلات، بل وفي وعي الأدباء الذين يحرصون على ربط أشخاص بأعمالهم عن طريق مذكراتهم الشخصية¹.

- إلا أن المؤلف تخلي عن دوره للقارئ، لكونه أصبح يشكل الفضاء الذي "ترتسم فيه كل الاقتباسات التي تتألف منها الكتابة دون أن يضيع أي منها، ويلحقه التلف² وللنص عند بارت قراءته الخاصة به، "وهي قراءة لذة، في مقابل قراءة الاستهلاك التي يُقرأ بها الأثر الأدبي"³، فتقتضي بذلك نظرية النص عند "بارت" "التلاعب بالكلمات والتعدد الدلالي، والحوارية وتبادل المواقع بين المرسل والمرسل إليه"⁴.

بنيويًا، يمكن اعتبار "العنوان بنية مستقلة بذاتها لغويًا"⁵، وإن كان الاستقلال لا يعني الانفصال عن البنية الكبرى، التي هي نص الخطاب الملكي، الأمر الذي يسمح للعنوان بأن يكون في مستوى أولي موضوعاً للدرس على اعتبار أنه بنية مغلقة، حتى وإن كان هذا الانغلاق انغلاقاً مفتوحاً على النص، أي أنه يتيح دراسته في علاقته بالنص-الأم أو البنية اللغوية الكبرى في المستوى الثاني.

تواصلها، يمكن الجزم بأن العنوان بؤرة تواصل كبرى أو أساسية، والنص-الأم محطة الوصول أو بؤرة التواصل صغرى، بعبارة أخرى، فإن النص نقطة تقاطع تواصلية رئيس.

فإذا فرضنا أننا أمام عنوان "خطاب العرش"، نتصور أن الإعلام قد قام بتوجيه رسالة في صورة جملة إسمية غير تامة، لكنها تحمل العديد من الإيحاءات التي يحتمل أن تكون حاضرة في ذهن مصممي ومديري البرمجة بالإذاعة الوطنية وبوكالة المغرب العربي للأنباء.

وعليه، فقد واجهوا القارئ والمتلقي بمختلف أطيافهما ووضعوا لهما هذا التصنيف:

- فقد يكون قارئاً وملتقىاً مثالياً لا وجود له إلا في الخطاطات التنظيرية، وتتمثل هويته في قدرته المثالية على إدراك جميع مرامي المرسل الظاهرة والخفية؛

- كما يمكن لهذا المتلقي/القارئ أن يكون قارئاً عادياً، لا ينتظر من قراءته سوى تحقيق لذه

آنية؛

¹ Roland Barthes, La mort de l'auteur, in Le Bruissement de la langue : Essais critiques IV, Paris, Seuil, coll. « Points Essais », 1984, p. 64

² Op.cit. p.69

³ Roland Barthes, De l'œuvre au texte, p. 79

⁴ عمر أوكان، مرجع سابق، ص 51

⁵ - مستقلة لغويًا على الأقل، لكن هذا الاستقلال يتحول ليصبح استقلالاً سيميائياً.

ويمكن أن يكون قارئاً/مُتلقياً مُتخصّصاً أو دارساً فيتجاوز القراءة العادية التي تحقق لذة حب الإستطلاع والنفاد إلى جديد الفكر والمبادرات والمشاريع المولوية إلى القراءة الفاحصة والمتأملة وربما العارفة، وذلك لأنه باحث أو دارس أو مستثمر أو ناشط حقوقي تدفعه ملفات مطلّبية ومنطلقات إيديولوجية إلى انتظار الموقف الرسمي للمؤسسة الملكية من مسألة أو ملف معين.

فمسألة ترسيم الأمازيغية مثلاً شكّلت لسنوات مطلباً نافحت عنه جميع أطراف وأجنحة الحراك الثقافي الأمازيغي، المعتدلة والمتطرفة على السواء، فجاءت العديد من الخطابات الملكية بكلمة سواء بين الموقف الحكومي والموقف النضالي، من خلال العديد من الخطابات، أهمها الخطاب المعلن لتفاصيل مشروع دستور 2011، حيث أورد جلّالته أن "مشروع الدستور يكرس اللغة العربية لغة رسمية للمملكة، وينص على تعهد الدولة بحمايتها والنهوض بها، كما ينص على دسترة الأمازيغية كلغة رسمية أيضاً، ضمن مبادرة رائدة، تعد تنويعاً لمسار إعادة الاعتبار للأمازيغية، كرسيد لجميع المغاربة؛ على أن يتم تفعيل ترسيمها ضمن مسار متدرج، بقانون تنظيمي، يحدد كفاءات إدماجها في التعليم، وفي القطاعات ذات الأولوية في الحياة العامة. وبموازاة ذلك، ينص المشروع على النهوض بكافة التعبيرات اللغوية والثقافية المغربية، وفي مقدمتها الحسانية، كثقافة أصيلة لأقاليمنا الصحراوية العزيزة"¹؛ أو من خلال خطاب ملكي خاص زف فيه إلى شعبه الوفي من أجدير خبر الإعلان عن تأسيس المعهد الملكي للأمازيغية، حيث قال جلّالته "لقد أبينا إلا أن نقوم بعون الله وحسن توفيقه، بوضع طابعا الشريف، في هذا اليوم المبارك، على الظهير الشريف المحدث والمنظم للمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية؛ هذا المعهد الذي سبق لنا الإعلان عن قرار إحداثه وتحديد مهامه، في خطاب العرش، الذي وجهناه للأمة بمناسبة الذكرى الثانية لاعتلائنا عرش أسلافنا الميامين".

وأما السياق، فإن احتمالاته كثيرة، لكن أقربها هو منهجية الإعلان عن الخطاب الملكي وموعد بثه وتوالي نشرات التذكير بموعده على جميع القنوات المسموعة والمرئية والمكتوبة، ليظل وجود العنوان في مستوى نظر المتلقي أو دائرة رؤيته أو سمعه عنواناً لموعد تواصله ينتظره المواطن وفق عد تنازلي.

بتطبيق خطاطة الوظائف على عنوان الخطاب الملكي في الصحافة المكتوبة وفي قصاصات وكالة المغرب العربي للأنباء أو العنوان المعلن له في النشرات الإخبارية المتلفزة والمبثوثة على أمواج الراديو، ألفت أن للعنوان:

1. **وظيفة مرجعية** ترتبط بالسياق الذي يتم فيه التواصل، ومن هنا، فإن الوظيفة المرجعية ستتعدد وتتعدد؛

2. **وظيفة تأثيرية**، تتصل بقوانين التواصل، وفيها تكمن الأهداف الظاهرة والخفية من وراء إنتاج الرسالة (الخطاب) وعلامة ترويجه (الإعلان المعلن لعنوان الخطاب/مناسباته)، وهي أهداف لا تخرج عن إطار التأثير في المتلقي عن طريق إغرائه وجذب انتباهه من خلال الإعلان عن مناسبة العنوان في لحظات الذروة لإتاحة استقباله من طرف فئة عريضة من جمهور القراء قراءة العنوان قراءة دالة، تستحضر مجموع الإحياءات، وفق قانون تواصل في مناسبات نجد أن الملك وشعبه بدورهما يشتركان فيها لتخليد الذكر والإحتفاء بالحدث.

1- نص الخطاب الذي وجهه جلالة الملك إلى الأمة حول مشروع الدستور الجديد

3. **وظيفة شعرية**، متصلة بالرسالة في حد ذاتها وبمختلف محطاتها التي تعلن عليها العناوين البينية *intertitres* التي يجسدها عند نهاية كل حقل تيمى تكرار لازمة "شعبي العزيز"، وهي اللازمة التي تشكل عنوانا خاصا لكل فقرة من فقرات العمود الفقري الحامل لجسد الخطاب الملكي، تدل عليه وتدخل في تفاعل حوارى مع الفقرة التي سبقتها أو مع متن خطاب آخر في نفس المناسبة برسم سنة أخرى أو مناسبة أخرى في نفس السنة ("وفي هذا الصدد وكما وعدنا في خطاب العرش فاننا سننكب كذلك على ملف التعليم في ضوء مشروع الميثاق الذي انجزته اللجنة الملكية الخاصة للتربية والتكوين"¹؛ "وحرصا من جلالتنا على ترسيخ الصرح الديموقراطي وجعله أساسا متينا لما نتوخاه من إقلاع اقتصادي وتآزر اجتماعي، فإنه يسعدنا، كما وعدنا بذلك شعبنا العزيز في خطاب العرش، أن نتناول هذا الصرح بالتحصين منطلقين من قاعدته الأساسية المتمثلة في الجماعات المحلية"²؛ "أما بالنسبة للأسرة والنهوض بأوضاع المرأة، فإنني قد أبرزت إشكالاتها الجوهرية، غداة تحملي الأمانة العظمى، لإمارة المؤمنين، متسائلا في خطاب عشرين غشت لسنة 1999: "كيف يمكن الرقي بالمجتمع، والنساء اللواتي يشكلن نصفه، تهدر حقوقهن، ويتعرضن للحيث والعنف والتهميش في غير مراعاة لما خولهن ديننا الحنيف، من تكريم وإنصاف؟"³؛ "وفيما يخص هويتنا المنفتحة والمتعددة الروافد، فقد سبق لنا أن أرسينا دعائمها في خطابنا الملكي التاريخي بأجدير، ثم كرسها الدستور الجديد"⁴؛ "وهي أيضا سنة استكمال البناء السياسي والمؤسسي، الذي يوطد المكاسب الاقتصادية والاجتماعية، التي حققها المغرب، في مختلف المجالات، والتي سبق عرضها في خطابي العرش و20 غشت.... ندعو المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، لإعادة النظر في منظور ومضمون الإصلاح، وفي المقاربات المعتمدة، وخاصة من خلال الانقلاب على القضايا الجوهرية، التي سبق أن حددناها، في خطاب 20 غشت للسنة الماضية"⁵.

وعلى العموم، فللعنوان وظيفة مرجعية، مرتبطة بالسياق، يتحكم فيها قانون تواصل غايته التأثير في المرسل إليه أو في المتلقي، ولم أشأ بأي حال من الأحوال التفصيل في هذا المخطط الجاكوبسوني لإهماله دور المتلقي وأهميته وقدرته على إغناء الرسالة، بتحوله إلى منتج لرسالة ثانية، مادام يتلقاها في ظل ظروف اجتماعية وثقافية معينة تختلف من شخص إلى آخر.

فجمهور خطاب جلالة الملك لا يملك صفة التجانس، ويحضر الجانب التداولي بقوة في العملية التواصلية، لأن المتلقي ساعة تلقيه للرسالة أو الرسائل يتفاعل معها، لكن بمستويات مختلفة، تبعا للمستوى الإدراكي لكل متلق على حدة، وتفاعله هو إنتاج لخطابات أخرى عن الخطاب الملكي بحسب تعدد المنتجين/ المتلقين ونوعيتهم (إما على شكل قراءات تحليلية أو مقالات أو حديث في المقهى أو موضوع ندوة فكرية)، كما كان الشأن لعدد من التيمات التي تلفقها المختصون والمهتمون من خطاب صاحب الجلالة ونظموا بشأنها ندوات وملتقيات دولية، وطنية ومحلية "المبادرة الوطنية للتنمية البشرية، مشروع الجهوية المتقدمة، الرأسمال اللامادي، تعديل الدستور...).

ويلتقي هذا الأمر مع مفهوم الأثر المنفتح *œuvre ouverte* الذي يقول به "أمبيرطو-إيكو"⁶، ويجعلني آخذ بعين الاعتبار الظروف الاجتماعية والثقافية والإيديولوجية في عملية التواصل، فأنصف المتلقي الذي نفسه النموذج الجاكوبسوني وغيبه عن تصنيفه.

¹ - من نص الخطاب الذي وجهه جلالة الملك إلى الأمة بمناسبة تخليد الذكرى السادسة والأربعين لثورة الملك والشعب

² - من نص خطاب صاحب الجلالة الملك بمناسبة افتتاح السنة التشريعية 2000-2001

³ - من نص خطاب صاحب الجلالة الملك بمناسبة افتتاح السنة التشريعية 2003-2004

⁴ - شذرة من خطاب ألقاه صاحب الجلالة الملك أمام أعضاء البرلمان بمجلسيه بمناسبة ترؤس جلالة افتتاح الدورة الأولى من السنة التشريعية الثانية من الولاية التشريعية التاسعة.

⁵ - شذرة من خطاب ألقاه صاحب الجلالة الملك أمام أعضاء البرلمان بمجلسيه في افتتاح الدورة الأولى من السنة التشريعية الرابعة من الولاية التشريعية التاسعة

⁶ Umberto Eco, L'œuvre Ouverte, Editions Le Seuil, Paris, 1962, p.17

المطلب الثاني/ رهانات وسطوة الصور المصاحبة والمعنونة للخطاب الملكي وطقوس إلقائه

3 مستويات وتشظياتها تُضيء فضاء هذا المبحث، لأنني أرى أنها تَسِمُ بصريا الخطابات والرسائل الملكية.

ويتعلق الأمر بالجوانب والمستويات التالية:

- جانب الخط المشكل للهوية الكاليفرافية للمملكة؛

- الجانب الفني المتصل بالتشكيل العنواني والألوان والأشكال الهوياتية للملكية؛

- المستوى الذي تتعلق بعض عناصره بعلم تدبير المساحات البيضاء على صفحات الخطابات والرسائل الملكية، وهي مساحات ومسافات بأحجام مقصودة لذاتها توزيع فيها وبينها مكونات المتن الخطابي وعنوانه وتوقيعاته.

وددت لو كنت أتوفر على النسخ الأصلية غير تلك التي رأيتها عند زملائي الذين سبق لهم أن توصلوا برسائل شكر على رسائل تهنئة أو برقيات ولاء سبق لهم أن وجهوها لصاحب الجلالة، والتي لا يمكن أن تكون مخطوطة على نفس فئة ونوعية الورق الذي تُخط عليه خطابات صاحب الجلالة ورسائله حتى يتسنى لي النفاذ إلى سبل الكشف عن الطبيعة الفئوية التي ينتمي إليها المرسل إليه ووثاقة صلته بالمؤسسة الملكية.

❖ أولا- بنية حروف التشكيل والاداء البصري للسكل الكاليفرافي وبلاغة التأويل

إذا كانت بلاغة الخطاب اللغوي موضوع العديد من أوجه الحديث عن الاختلافات التي يمكن رصدها في النثر والشعر، ومن البلاغة التقليدية إلى البلاغة الحديثة التي يشكل عنصر الانزياح l'écart عمودها الفقري، فإن العقود الأخيرة ستعرف ميلاد بلاغة ذات طابع جديد وأكثر ملاءمة لمتطلبات الحياة، وهي بلاغة الخطاب البصري: فإذا كانت اللغة نظاما للتواصل، فإن الصورة بمختلف أشكالها وأنماطها يمكن توظيفها هي الأخرى أنظمة للتواصل، بل هي -وكما سبق وأشرت- لغة قائمة الذات قد يظهر في يوم من الأيام من يضع لها نحا خاصا ونظاما.

لقد طورت وسائل الإعلام أنظمة بلاغية دقيقة تعتمد على الأبعاد الإيحائية للصورة والشكل بكل ما تختزنه هذه الأبعاد من إحالة على عوالم مختلف، سياسة واجتماعية والثقافية ودينية¹. فالصورة تُوظف في الغالب مجازا وفق علاقة جزئية، أي ذكر الجزء وإيراد الكل، ومن هنا فإن البلاغة البصرية تقوم على أكتاف البلاغة العامة الموظفة في اللغة.

معلوم أنه لكل نظام بصري بؤرة يلتقي فيها عنصران أساسيان: الأول هو الدلالة الذاتية dénotation، والثاني هو الإيحاء connotation، فيكون بذلك الأول أقرب إلى الإدراك، لينطبع الثاني بالمقابل ببعض التركيب².

¹ يمكن التوقف عند بعض الصور التي هزت العالم كصورة الطفلة العراقية المريضة بالسرطان والتي أضحت رمزا لايقف عند معاناة الشعب العراقي من الحصار، ولا عند المجهود الذي يقوم به بعض ذوي النيات الحسنة التخفيف من شدة الحصار، ولا عند الأبعاد السياسية التي يمثلها الحصار في حد ذاته، مع ما يتضمنه ذلك من دليل قاطع غير معلن عن غطرسة أمريكا وتسلطها، فالصورة هي إحالة على كل حالة من هذه الحالات مع إحالتها عليها جميعا وفي الآن نفسه.

²Marie-Claude Vetraino -Soulard, Lire une image -Analyse de contenu iconique-. A. Colin, Paris, 1993, p.18

حين اشتغاله على الصورة (والصورة الإشهارية خصوصاً)، أبرز "بارت" أنها تحتوي ثلاث إرساليات هي:

- 1 – الإرسالية اللسانية
- 2 – الإرسالية الأيقونية المرمزة *codé*
- 3 – الإرسالية الأيقونية غير المرمزة.

ومما لا شك فيه، فإن هذه المستويات لا تنسجم فقط مع المستوى الخطي في العنوان، بل تتعداه إلى المجال الفني أو التشكيلي: المكون للمستوى الأساسي الثاني من مستويات الفضاء العنواني.

إن بلاغة الصورة وعناصرها تقبل أن تكون أداة من أدوات مساءلة البنية الخطية في العنوان: وبعبارة أخرى، إن قاسماً مشتركاً بين جميع مكونات العنوان (فضاء العنوان، الخط، والتشكيل) هو ما يشكل البعد البلاغي في شكل الخطابات والرسائل الملكية، وهو موجود في الخط وفي بنية الحرف وفي التشكيل، وبلاغته تتيحها مناويل الدلالة والتأويل.

كما أن النظر إلى الصورة منفردة (خالية من الكتابة)، يجعلنا نتلقّاها كما لو كنا نشاهد فيلماً صامتاً بلا ترجمة، ولو كان الأمر يتعلق بالصورة الإشهارية بدون توقيع إشهاري، لما أمكننا أن نفهم ما تقوله الصورة، حيث تستخدم غالباً في إطار استراتيجية خلق أفق انتظار والتشويق *Teasing et suspense* قبل دعمه بلوحة إشهارية تتضمن الصورة والتعبير.

ويورد الباحثون كل مرة الوظيفة المزدوجة للسان في خطاب الصورة والمتمثلتان في الترسيخ والتدعيم، تُرجع هذه الثنائية إلى قصور الصورة عن أداء بعض الوظائف التعبيرية، كونها لا تتحلّى بالاعتباطية بين دال الصورة ومدلولها مثل اللسان، ولا تنسجم بإمكانية تقطيعها إلى وحدات، إذ لا يُنظر إليها إلا كوحدة واحدة لا تتجزأ، بالإضافة إلى إشكالية عدم محدودية دلالاتها الإيحائية، ومنه تبقى الصورة دائماً في حاجة إلى النسق اللغوي، لكبح جماح المعنى وترشيده.

دلّيلي على ذلك أستمده من علم الخطاب الإشهاري كما تناوله زميلي مصطفى حفاظ، حيث أنه من من النادر أن تقدم صورة إشهارية ذات صبغة أيقونية فقط (خالية من الجانب اللغوي) لأن الرسالة الإشهارية تبتغي الدقة وتخشى انفتاحها على تأويلات عديدة قد تحيد بها عن المقصود.

يمكن أن نميز في النسق اللغوي في الصورة الإشهارية فيما يمكن تمييزه بين عنوان الصادرة أو المانشيت، وبين الجانب التحريري الذي يبلور كل ما يتعلق بالرسالة الإشهارية. هذه الأخيرة يطلق عليها "النصوص الإشهارية" تتراءى في شكل شروحات أو بعض التفاصيل حول المادة المشهر لها، ينضاف إلى العنوان والنصوص الإشهارية "الشعار اللغوي" للإشهار، فضلاً عن الشعائر الأخرى التي تميز الصوغ والإبداع الإشهاريين (خاصة عنصر العلامة التجارية).

وعليه، تأخذ اللغة المكتوبة على عاتقها عبء الدلالة، وتشتغل بديلاً عن الصوت الناطق أو الموسيقى التصويرية للصورة المتحركة.

ويستدعي التحليل القرآني للصورة الثابتة لوحدها وسطوة حضورها وتأثيراتها لفضاء إلقاء الخطاب الملكي وطوقسه وأعرافه المخزنية المحضية يستدعي أخذ البناء العلاماتي في الحسبان من خلال التقصي عن الثلاثية التي تشكل كيانه وتشدد بنيانه: علامات لسانية، علامات تشكيلية ثم علامات

أيقونية، فضلا عن ما يتسم به من إمكانات تعبيرية، تتحقق من خلالها المضامين والإشارات والتمثيلات التي يريد مصممو قاعة العرش تمريرها لجمهور التلقي في ظل ممارسة تجعل من نص الصورة واقعة دلالية تهدف إلى الحث على الإقبال والإستقبال منذ الوهلة الأولى للإستهلال حتى الإسدال.

هذا الهدف رهين بتوظيف آليات إقناعية تعتمد الثلاثية السابقة، والكشف عنها يستدعي الوقوف عند كل مكون على حدة، لتتشكل لدى القارئ مجموعة خطوات يستهدي بها في سبيل التعرف على فحواها.

لهذا، وقبل الوقوف في المطلب الموالي على الاستراتيجيات الإيديولوجية للصور والفضاء المحيط بالملك وكيفية توظيفها، ثم أشكال حضور جلالته داخل هذا الزخم الإيكوني جسدا وفكرا وهنداما، والبلاغة الرمزي المرتبطة برمزية فضاءات الصورة ورموز أخرى، واستراتيجيات تغييب وتغليب صور دون أخرى، أرى من اللازم أن نوطئ لذلك من خلال الجانب التحريري الذي يترجمه الحرف والذي لا ينحرف دلاليا عما تحيل عليه الصورة والإشارات البصرية الثابتة والمتحركة.

بدوره، يساهم الخط في دلالة العنوان، حيث يعد توظيف الخط أداة من أدوات التعبير عن ثوابت المؤسسة الملكية في ظل حراك ودينامية نصها الخطابي.

فالخطاب الحداثي الذي ينبض به ما يصدر عن جلالته من خطابات ورسائل لم يخرج عن هوية الحروفية العربية وظلت ممارسة الفعل الحرفي منسجمة مع خصوصية المادة البصرية للتشكيل الحرفي بكتابة مغربية أصيلة وأثيلة، تتجاوز الحدود البسيطة للكتابة إلى عوالم أكثر رحابة تذكر بالماضي البعيد لكتابة المصحف المغربي، وتحيل على طقوس وأبجديات الكتابات القرآنية واستعمال اللوح والسق والصلصال وقلم القصب الممشوق، وتقفي خطابات الملك للأثر والمأثور الخطي علامة دالة، والخط أثر دال على اللغة وعلامة عليها.

❖ ثانيا: بنية ونية تشكّل المتن الخطابي الملكي

لا يرد خط كتابة الخطاب الملكي من أجل الزينة فحسب (لأن الخطوط المشرقية أكثر تنوعا وغنى)، بل للتعبير عن فرادة وتوظيف يخدم غاية هوياتية منسجمة مع كتابة القرآن الكريم برواية ورش عن نافع، ومن أجل ضبط قوة وإيقاع الحرف والخط المغربي.

إن الخط الموظف يحتاج إلى عناية واهتمام ودقة وإتقان وتسخير خطاطي البلاط للإستجابة لشروط العلاقة بمجتمع التلقي في الداخل والخارج ووضع بصمة تميز الخطاب والرسائل الملكيين، مع ضمان الانشداد إلى هذا النموذج البصري الدقيقة.

كما أن للخط قيمته التي تتجاوز بُعد الفني والجمالي لتشمل الثقافي والاجتماعي.

في هذا السياق، يرى محمد أديب السلاوي أن الخط العربي "بخصوصياته الجمالية/التشكيلية لا يُخاطب العين وحدها، بقدر ما يخاطب الروح أيضا، ويدفعها إلى الغوص في أغوار مضمونه الفني التشكيلي، ومن ثمة يتم التعامل معه من خلال إحياء الكلمة التي تنقل العين من الصورة المجردة إلى الصورة المعرفية الإشرافية العميقة"¹.

1- محمد أديب السلاوي، الحروف والحروفيون، البوكلي للطباعة والنشر، القنيطرة، الطبعة الأولى، 1998 ص. 7

ويعتبر الحرف مادة الخط الأولية الذي تكتب به الخطابات والرسائل الملكية دون تحريف أو انحراف عن سنن الكتابة وأنماطها وتوشيات وأشكال الحرف المنحنية / الهندسية الدقيقة / الملتوية / الرأسية / المستديرة / الأفقية / المائلة / المشجرة / المزهرة والمورقة وتطويعها طواعيته في صنع الإطار وفي التعبير.



فالحرف العربي يطوع من طرف خطاطي القصر بفضل صفاء حركة اليد وليونة أدوات إنجازه التي تجعله أقرب إلى فن الرسم، حتى إن كانت المدارس التي ينتسبون إليها في فن الخطوط لا تخرج عن حدود تعريف طرق وقواعد رسم هذه الخطوط¹، ولا تنفذ إلى البعد الجمالي والهوياتي الدال الذي يختزنه الخط المغربي.

في نظري، يتعلق الأمر فالأمر يتعلق أكثر بممارسة فكرية هوياتية مرتبطة بخصوصية المغرب عن المشرق، تحتاج إلى توليد مفاهيم نظرية ومنظومة فكرية لفهم الآلية التصورية لهذا الأسلوب التصويري للحرف بعيدا عن خطاطات خطه على الورق.

في هذا السياق، يقول أحد الماهدين لهذا المنهج أن "الخط والرسم انصهرا في بوثة واحدة وأنتجا بعدا ثالثا يتوجب أضافته إلى بعد آخر هو البعد اللغوي، خاصة بعد تقلص المسافة بين الإبداع اللغوي والرسم... فأصبح البعد الشكلي أو البصري أو الجرافيكي جزءا من التجربة الإبداعية ولم تعد لغة عمياء، بل صار لها شكل، تنتج بنفسها، ولم تعد مجرد قالب فحسب"².

فالحرف هو المادة الأولية للخط، وفن الخط هو فن رسم لحروفه والتجلي البصري للحرف يحيل إلى فكرة أعم تتعلق بكيفية تحقق الإدراك وتأويل المدركات بعدئذ.

يمكن اعتبار الخط وتمظهرات الحروف التي تطالعنا انطلاقا من المتعاليات النصية الممسكة بناصية متن الخطاب الملكي علامة تحتضنها مساحات ترتيب علامات أخرى أوسع.

فالحرف هو المادة الأولية للخط، وفن الخط هو فن رسم لحروفه والتجلي البصري للحرف يحيل إلى فكرة أعم تتعلق بكيفية تحقق الإدراك وتأويل المدركات.

¹ - لاحظ مثلا صبح الأعشى في صناعة الإنشاء فحديثه عن الحروف يكاد يكون حديثا عن الطريق الفني القويم لإعداد حرف، ج 3، ص ص 28 - 42

² - محمد الماكري: الشكل والخطاب: ص ص 136 - 144

هذه الفكرة تتقاطع مع النظرية الجشطالتيّة الألمانية التي سبق الحديث عنها، والتي أجملها "محمد الماكري" في ثلاث نقاط :

-**العلاقة التفاعلية بين الكل والأجزاء**، وفحواها أن الكل يحتوي وينظم الأجزاء، بحيث أننا لا ندرك إلا بالجمع بين الأجزاء، وإذا حذفنا جزءا تغير الشكل كلّهُ.

-**العمق والشكل**، بحيث أن النظر في التنظيمين الداخلي والخارجي للأشكال البصرية، يأخذ بالحسبان أن كلّ الأشياء المدسوسة لا تنفصل عن شكل وعن عمق، فكل منظور، أو رسالة بصرية باعتبارها شكلا ينفصل إلى عمق³. وتؤثر طبيعة العمق في خصائص الصورة .

-**رسوخ الشكل**، حيث أن المقصود بالرسوخ لدى كوكولا وبيروتى هو قدرة الشكل على شد الانتباه أكثر من غيره، ويكون قابلا للرسوخ عندما يخضع للقوانين الجشطالتيّة، وخاصة ما تعلّق منها بالبساطة والتناسب، والتقابل، وأرى في واقع الحال ووفقا لخصوصية البحث في الخطاب الملكي وأشكال كتابته أنه يتجاوز مستوى القوانين الجشطالتيّة حول رسوخ الخط في الذهن من خلال الصور البصرية التي تعلّق به إلى مستوى ترييخ الهوية الثقافيّة والعقائدية للمملكة من خلال ترسيخ هوية بصرية تعمق الهوية القطيعة عن هوية الشرق العربي وتعدد مذاهبه.

كما أن الخط أداة من أدوات التعبير، والاهتمام به قديم قدم اللغة، كونه الأثر الدال عليها والرمز الحامل لها.

ومن المعروف أنه لم تهتم أمة بالخط كما فعل العرب، حيث أسبغوا عليه طابعا قداسيا عندما ربطوه بكتابة القرآن الكريم، مستغلّين جمالية الحرف العربي بطواعيته وتقوساته ورشاقته، وأبدعوا فنا أصيلا ظل يحافظ على قوانينه العربية وقواعده هو فن الخط.

يُذكر أن الحروفية العربية ظهرت كاتجاه يُعني بالأعمال الفنية وتعامل مع اللغة العربية حروفاً أو مادة بصرية للتشكيل .

ولقد ظهرت ضمن تيار ما بعد الحداثة فكانت الحروفية والزخرفة والنمنمة والرقش وسائل مناسبة للخروج من دائرة "التجسيد" والذهاب بعيدا في التجريدات الغنائية البصرية التي تجمع بين الدلالة القادمة من النص الديني، والشعر والنثر، بالإضافة إلى الزخارف التي اعتمدت على تراتب الخطوط والأقواس، وتكرار اللوازم بما يؤدي إلى موسيقى بصرية واضحة السمات.

حسب ما اطعت عليه ورأيت من تنويعات خطية حتى في إحدى المدونات التوثيقية والتدقيقية والتحقيقية للسيرة الذاتية للسلطان مولاي عبد الحفيظ، التي جمع فيها الدكتور عبد المجيد الخيالي¹ العديد من المراسلات الصادرة عن السلطان المذكور أو الواردة عليه، أن لكل خط من الخطوط طبيعة خاصة، من بساطة وتعقيد، ومن صعوبة وليونة، ودقة وإتقان، ليتعدى كونه- أي الخط - دالا على اللغة إلى نماذج بصرية ذات سمة جمالية فنية، تأسر المتلقي، والأكثر من ذلك أن له قيمة ثقافية حضارية، ضمن البنية الفكرية للمجتمع وتوابته.

ويؤثر شكل حروف الطباعة أو الخط الذي اختاره خطاطو البلاط في مضمون الرسالة وتصميمها في تأثر جمهور التلقي وتصميمه على التتبع والتفاعل: فللحروف من الناحية النفسية وقع قوي على جمهور التلق، فيؤثر سلباً أو إيجاباً على ردود الفعل لديهم أو يحضهم على اللا فعل.

1- الخيالي، عبد المجيد،

وَيَسْتَعْمِدُ لَهَا الْعَوْنُ الْأَمِينُ الْقَبِيضَ، بِصَعْدَةِ خَاصَّةٍ، مِنَ التَّيَّارِ
الدَّوْلِيِّ الْعَادِلِ بِمَا تَشْهَدُهُ تَخَلُّفَ مَا لَقِيَ الْعَالَمُ مِنْ تَحَوُّلاتٍ عَجِيبَةٍ،
وَمَا تَخَامُرُ شَعُوبُهَا مِنْ تَصَلُّعَاتٍ وَانْتِصَارَاتٍ مُلْقَةٍ، وَلَا سَمِيحًا مَا يَبْعَثُ مِنْهَا
يَنْفُكُونَ الْحَيَاةَ الْعَامَّةَ، وَيَفْعَلُونَ مِثْلَ إِثْرِ الْمَسْأَلَةِ وَالْمَسْأَلَةِ، وَالشَّعَابَةِ، وَالشَّعَابَةِ
وَالزَّاهِلَةِ وَالْمُحْكَمَةِ الْجِدَّةِ.

فَقَدْ أَضْمَتْ مَسْأَلَةَ تَكْثِيرِ الْعَسَاكِرِ فِي مَقَدِّمَةِ الْإِنْشَاءِ لَا
الْفَتْحِ لِلْعَوَالِمِ. ذَلِكَ أَنَّ آفَةَ الرِّسُولِ لَمْ تَعُدْ الْيَوْمَ بِمَجْرَدِ مُشْكِلَةٍ
خَالِصَةٍ لَهَا الْبِلَادُ أَوْ تِلْكَ الْمَنْصُفَةِ، بَلْ أَضْمِنَتْ مَعْصِلَةً ذَاكَ أَنْعَادِ
دَوْلَتِهِ، مَتَدَاخِلُهُ مَعَ عِدَّةٍ حَرَامَةٍ أُخْرَى غَائِرَةِ الْجَزْءِ، سَاهَمَتْ الْعُزْلَةُ
وَالْتَقْدِيمُ التَّكْنُولِيُّ فِي تَعْدِدِ أَمَّا صَحَا وَأَشْكَالَهَا.

كَمَا أَنَّ مُوَاجَهَةَ الْأَنْبَارِ الرَّغِيمَةِ لِلْعَسَاكِرِ، كَأَخْصَرِ مَجْهَاتِ
التَّغْيَةِ، وَخَاصَّةً فِي الدَّوَلِ الثَّامِيَةِ، تَشْتَدُّ عَلَى تَصَارُفِ الْعَوْدِ عَلَى
الْعُسُوفِ الدَّوْلِيِّ، لِيُفْعَلَ الْعَدَمَانِ الَّتِي تَصْرَفُهَا آفَةُ الرِّسُولِ، بِكُلِّ
تَحْلِيلٍ نَاقِصٍ، وَخُصُوصًا فِي تَحْقِيقِ إِجْرَاءِ الْأَهْدَافِ الْإِمَائِيَّةِ
الْأَلْفَتَةِ، وَتِلْكَ تَوْجِيهًا لَتَحْقِيقِ أَمَالِ التَّغْيَةِ فِي التَّغْيَةِ الثَّامِيَةِ،
وَالْتَّغْيَةِ مَعَ مَصَادِقِهَا فِي الْعَصَا، عَلَى نَوْرِ الْعَقْرِ وَالْعَشَاةِ، مِنْ أَجْلِ
تَسْمِيَةِ بَشَرِيَّةٍ مُتَوَارِدَةٍ وَمُسْتَدَامَةٍ.

أَصْحَابُ الْعَالَمِ وَالرَّعَايَةِ،
مَحْضَرَاتُ السُّبُلِ وَالرَّسَائِلِ،

لَقَدْ اسْتَشْرَفَ الْعَالَمُ الْمَغْرِبِيَّةَ، مِنْذُ وَقْتِ مَسْكَرِ الْحَالِي الْجَسِيمَةِ
لِلرِّسُولِ، فَسَارَتْ إِلَى مِثْلِ الْوَقَايَةِ مِنْ هَذِهِ الْأَفَةِ وَمَحَارِبِهَا أَخْذِي
أُولَئِكَ وَرَسْرَسَ الْإِضْلَاحَاتِ الَّتِي مَعَهَا الْهَيْبَةُ وَالْمَوْجِبَةُ وَالْعُقُوبَةُ
وَالْتَّغْيَةُ وَالْمَجْمُوعَةُ، وَالتَّوْبَةُ عَلَى قِسْمِ الْعَوَالِمِ الْعِلْمِيَّةِ، وَبِهَا
حَقُوقُ الْإِنْسَانِ وَالْعَوْرِ بِهَا، وَتَرْسُخُ الْحُكْمَةِ الْجِدَّةِ، وَتَحْلِيلُ الْحَيَاةِ
الْعَامَّةِ. وَكُلُّ ذَلِكَ ضَرْبٌ مِنَ الْمَسَارِ الْعَامِ لِمَقْرُصَةِ الدَّوَلَةِ وَالْمَجْمُوعِ
الَّذِي تَسْعَدُهُ بِلَادُنَا، فِي تَحْلِيلِ نَبْزِ الْعَرْشِ وَالشَّعْبِ، وَتَحْلِيلِ الْأَخْتِيَارَاتِ
الضَّامَةِ لِلْإِنْفَاعِ، وَاسْتِكْمَالِ بِنَاءِ مَجْمُوعِ مَقَرِّهِ هَذَانِ، وَتَحْلِيلِ

.../.

واستمر التمايز بين خطوط الأندلس وشمال إفريقيا إلى القرن الرابع الهجري، قبل أن تخضع دول شمال إفريقيا للتأثير الأندلسي إثر قدوم المهاجرين الأندلسيين إليها، مع بدء تراجع النفوذ العربي الإسلامي بالأندلس. وتطور الخط الأندلسي بدوره ومنه تولد ما عرف فيما بعد بالخط المغربي.

ويحتفظ الخط المغربي الذي ألفيته في تلك الرسائل والخطابات الملكية وغيرها ببعض الرواسب التي ورثها من الخط الكوفي، فالألف المتصلة مثلاً تنحدر قليلاً عن مستوى السطر بزاوية كوفية، كما أن حروف الكاف والصاد والضاد والطاء والظاء تكون ممتدة بما يذكر بالخط الكوفي.

ما يميز الخط المغربي هو إعجام حرفي الفاء والقاف، حيث ترسم الفاء بنقطة من أسفل والقاف بنقطة واحدة من فوق¹، غير أن هذه المنهجية لا يتم تبنيها في الرسائل التي يوجهها جلالته إلى رؤساء الدول أو تلك التي يتلوها مستشاروه ومبعوثيه نيابة عنه، كما في نموذج الرسالة السامية التي وجهها بتاريخ 24 أكتوبر 2011 إلى المشاركين في الدورة الرابعة لمؤتمر الدول الأطراف في اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد التي انعقدت أشغالها بمدينة مراكش وتلاها مستشار جلالته عبد اللطيف المنوني.

كما يتميز باتخاذ بعض الحروف امتداداً مبالغاً فيه إذا كانت في آخر الكلمة (أساساً منها "س ش ي ل ن")، كما لا تكتب نقط الحروف النهائية في الفاء والقاف والنون.²

فالخط المغربي أسهل من الخط الكوفي الذي يحتاج إلى جهد وإلى كبير عناية وعناء: فهو خط مقصود لذاته، ونص الخطاب الملكي يستهدف المتلقي المباشر أو وكالات الأنباء التي ستتلقفه لتعممه على أوسع نطاق، أي تستهدف لفت انتباهه، وإدماجه بقوة في عالم النص.

فالخط الذي يحتاج إلى المسطرة وإلى القياس الهندسي لا يمكن أن يكون عفويًا: "فالكوفي ليس مجرد حروف وعلامات يرص بعضها إلى جانب بعض، بل هو فن وإبداع وتحسين مستمر، فمجال الابتكار واسع فيه، وهو فن زخرفي أكثر منه خط ذو حروف موضوعة"³.

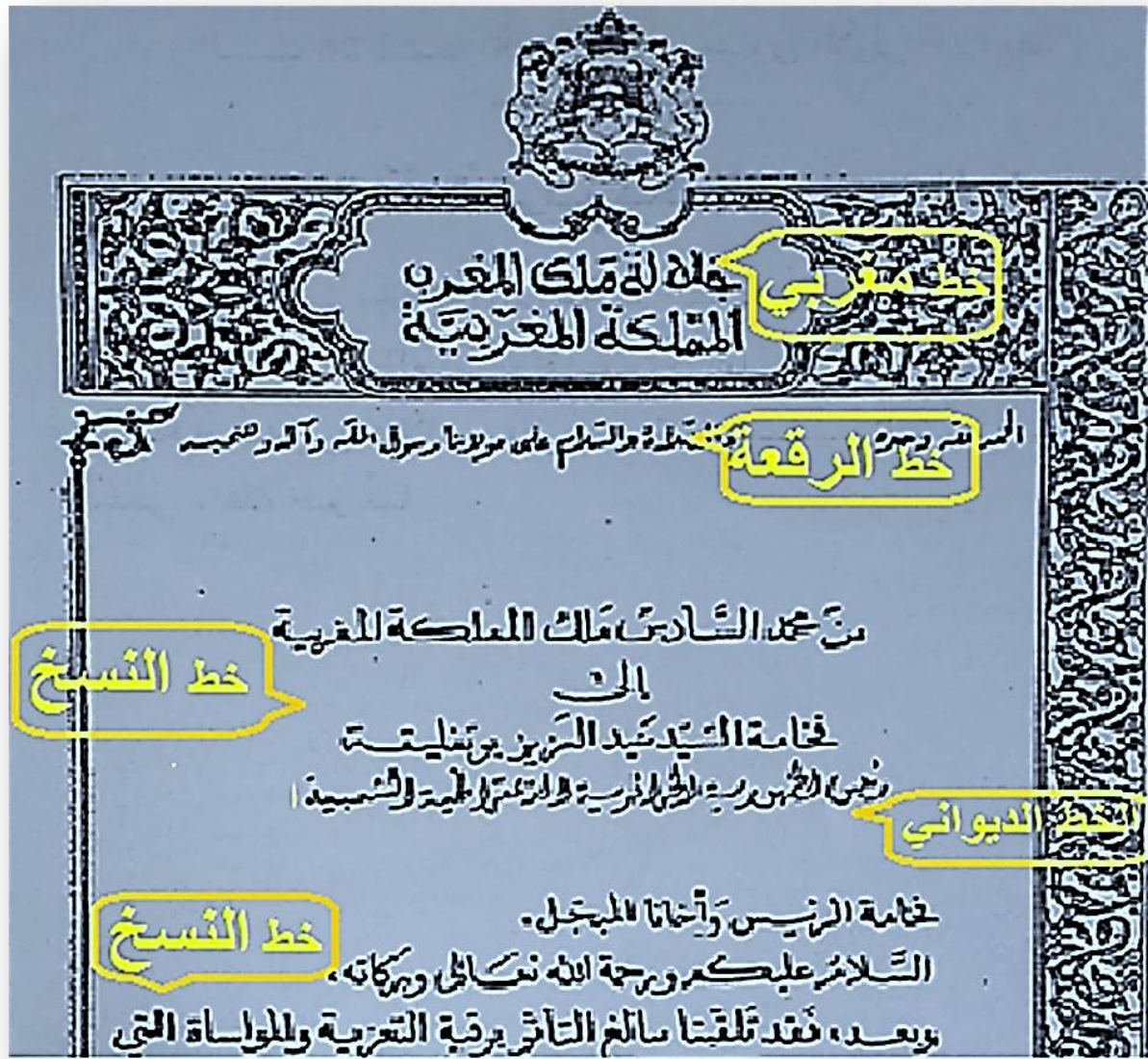
ويمكن اعتبار الخط المغربي مستوى متطور للخط الكوفي الذي لا نجده في الخطابات الملكية، فبقي خطاً تذكاريًا فقط يستخدم في التسجيل على المواد الصلبة كالأحجار وقطع الرخام التي تفيد تدشين الصروح أو لتأريخ الوفيات، وفي ذلك دلالة على رغبة المغرب في القطع مع التراث الخطي المشرقى والإحتفاظ بالخط المغربي في صورته المتطورة لتحرير نص الخطاب الملكي، مع مراعاة إدخال خطوط أخرى من أجل تمييز المملكة المغربية والمؤسسة الملكية ونص الخطاب الصادر عنها عن باقي العناصر الشكلية للرسائل التي يوجهها صاحب الجلالة في الداخل والخارج.

فمن خلال العينة النموذجية أدناه، يتضح استعمال **الخط المغربي** الأصيل في كتابة "المملكة المغربية و جلالة ملك المغرب، ليليها في مرتبة أدنى استعمال **خط الرقعة** في الحمدلة والصلاة على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه، قبل الإستعانة **بالخط النسخي** لتحديد المرسل والمرسل إليه.

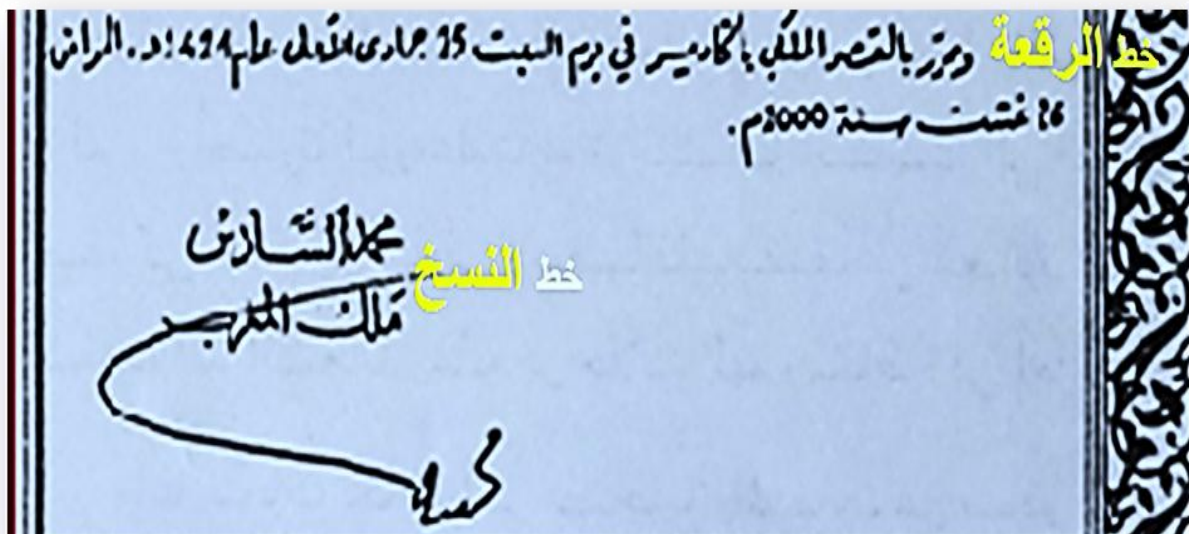
1- عبد اللطيف، محمد الصادق، "الخط المغربي، الخصائص والأنواع"، مجلة الكويت، عدد 191، ص 107-109.

2- المنوني، محمد، تاريخ الوراقة المغربية، صناعة المخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1991.

3 نفسه : ص 86-87



وقد لاحظت أن نص الرسائل التي يوجهها صاحب الجلالة يتم تحريرها بالخط النسخي لتسهيل مهمة القراءة.



في هذا الصدد، يشار أنه تم استعمال نفس الخط في ذكر إسم وصفة صاحب الجلالة ملك المغرب (خط النسخ)، إلا أنه استعمل الخط الديواني في ذكر صفة رئيس الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، إلى جانب خط النسخ (فخامة السيد الرئيس عبد العزيز بوتفليقة).

ويتم الرجوع من جديد عند نهاية كل رسالة إلى خط الرقعة من أجل تحديد مكان وزمن (بشقيه الهجري والميلادي) لتوقيع الرسالة، قبل أن يذيلها جلالته بإسمه وصفته وتوقيعه.

تلتقي هذه المجموعة من النماذج عند عنصر أساسي هو اتخاذها للخط المغربي الأصيل قالبا رئيسيا لإفراغ العنوان ونص الخطاب وصفة المؤسسة (ماعدا في كتابة نص الرسائل الموجهة إلى ملوك ورؤساء وقادة الدول)، رغبة في التأثير في المتلقي وجره إلى التفاعل الإيجابي مع الرسالة أو الخطاب الملكي، وتأكيد توابث المغرب العقدي والمذهبية وحتى الكالغرافية.

ومن خلال البحث في العالم الأزرق، ألفت خطأ يقال أن الملك محمد السادس دبّج به عباراته في الدفتر الذهبي للنصب التذكاري الذي يؤشر لنهاية فصول الإبادة الجماعية التي عرفتها رواندا سنة 1994.

يُشار أن الخط الذي استخدمه ملك المغرب الملك محمد السادس لكتابة عباراته في الدفتر الذهبي للنصب التذكاري الذي يؤشر على مرحلة الإبادة الجماعية برواندا سنة 1994، قد أثار الدفتر المذكور، لكنه أثار فضول ودهشة عدد من المُعلقين والمتتبعين المغاربة من فرط جماليته وانسيابيته؛ فيما أكد آخرون أنه لا يعود للملك، وان هذه "الكلمات كتبت مسبقا، واكتفى الملك بالإمضاء الموجود أسفل الصفحة في اليمين والدليل اختلاف لون الإمضاء والسرعة التي خطت بها تلك الكلمة".

ووقع صاحب الجلالة في الدفتر الذهبي المذكور عبارات خُطّت بخط مغربي أصيل، قال فيها إن "الإبادة الجماعية فترة مظلمة من تاريخ وذاكرة الشعب الرواندي، بل إنها مأساة إنسانية ستُحلّ سُبل ضمير البشرية جنعا. وأن رواندا اليوم، تفتح ذراعيها للحياة، بثقة في الحاضر، وتفاؤل في مستقبل واعد".



واعتبر أحد المعلقين على المقال الذي ورد في العدد الإلكتروني لهسبريس الصادر بتاريخ 21 أكتوبر 2016، أن الخط الذي استخدمه ملك المغرب في الدفتر الذهبي برواندا "يستحق أن يُدرّس في أكبر جامعات العالم"، فيما قالت معلقة أخرى مُعربة عن ذهولها لسبك الملك للخط بتلك الطريقة المحترفة: "ما شاء الله على خط.. وكأنك خطاط".

أما السواد الأعظم من المعلقين فقد ذهب إلى أن الخط الذي وقع به ملك المغرب في الدفتر الذهبي للنصب التذكاري برواندا، يُحاكي الخط الذي يُدرّس في المدارس القديمة التي تعلم وتحفظ القرآن الكريم، واعتبروا أن الأمر ليس غريبا عن ملك تعلم القرآن في المدرسة المولوية.

بالفعل، فإن مسار تربية الملك كما عرفناه من خلال النافذة التي فتحها كتاب ذاكرة ملك على دواليب القصر ودهاليزه يجعلنا لا نستبعد فرضية إشراف الملك شخصا على كتابة رسائله وخطاباته أو بعضا منها.

هذا التنوع الكاليفرافي يروم تحقيق الإنسجام مع الفعالية النصية للخطاب الملكي، لتلتقي تقريرية الخطاب وصرامته ومعقوليته بجمالية الخط وحضها على القراءة المتفحصة والتفاعل مع النص.

فجمالية الخط المغربي في نسخته المطورة للخط الكوفي، وسلطته الثقافية دافع نفسي قوي يفسر الميل إليه على مستوى الواجهة التي تتصدر الخطاب أو الرسالة وتتوسطه، قبل أن يختتم بصفة وتوقيع الملك محمد السادس.

فإذا كان الخط وسيطا بين نص المتن الخطابي الملكي وجمهور تلقيه من زاوية إثارة انتباهه وحته على التفاعل والتأثر وحصول الإقتناع بخصوصية الخط واستلهاام الخط الذي كتب بها كتابنا المقدس، فإن بعض وسائل هذه الإثارة مرتبط أساسا بجمالية الخط المغربي الأصيل من عدة جوانب:

- سلطته الثقافية، المتمثلة في كونه صيغة مطورة للخط الكوفي بعد تبيئته مغاربيا، خاصة وأن الخط الكوفي يعتبر من أقدم الخطوط، وأحد العناصر التي جسدت الحضارة العربية الإسلامية ووثقت لأي القرآن وتدوين أحاديث النبي المصطفى العدنان، صلوات الله عليه وعلى آله وسلم.

- كونه عنصرا من عناصر الزخرفة الإسلامية في المساجد، وعلى دفات المصنفات وبين ثناياها.

وهي كلها عناصر تشكل بعض مقومات الهوية الإسلامية والعربية والمغربية، تفرض الخط المغربي على الصفحة لتتنظم وراءه باقي الخطوط للتوشية والتنويع ليس إلا، لئلا تخلخل نظام الصفحة وهويتها.

إلى جانب العوامل الأخرى (كالجوانب التشكيلية التي تتصدر الخطاب وتؤطره)، يمكن اعتبار الخط المغربي بدوره أحد مرتكزات التفاعل الإيجابي بين القصر ومن يتوصل برسائله.

وتتمثل مرتكزات هذا التفاعل في دفع جمهور التلقي والقراءة إلى اتخاذ الموقف المناسب الذي لا يخرج عن إطار ثلاثة مبادئ هي:

- 1 - الانتقال من الرؤية إلى القراءة، ثم إلى تتبع تضاعيف فقرات الخطاب والانتقاء، وتلك أفضل مستويات التفاعل الإيجابي؛
- 2 - الانتقال من الرؤية إلى القراءة فالتصفح، دون إبداء رغبة الانتقاء؛

3 - البقاء في حدود المشاهدة مع إبداء الإعجاب بطريقة صياغة الخط وإنجازه واستحضار نموذج سور القرآن الكريم وطريقة كتابتها، والإحالة بالتالي على التراكم الرمزي الديني للمؤسسة (مؤسسة إمارة المؤمنين).

كما أن هناك توجهها في بعض الرسائل التي ميزن السنوات الأولى لحكم صاحب الجلالة نحو استعمال الخط النسخي.

والخط النسخي يتيح للخطاط فرصة السير بقلمه بسرعة أكثر من غيره، ويمتاز بوضوح الحروف وإظهار جمالها وروعته، وتُستعمل الصحف والمجلات هذا الخط في مطبوعاتها، فهو خط الكتب المطبوعة اليوم في جميع البلاد العربية. وقد طور المحدثون خط النسخ للمطابع والآلات الكاتبة، ولأجهزة التنضيد الضوئي في الكمبيوتر. وقد توارت هذه الأنساق الخطية فيما بعد في جميع مراسلات القصر الملكي لصالح الخط المغربي الأصل، ولم تعد ترد حتى ضمن ترتيب الخطوط (المغربي متصدرا للرسالة، متبوعا بالرقعي ثم النسخي والديواني).

في هذا الصدد، يرى عبد العالي بوطيب¹ أن دراسة الرسالة اللغوية (وإن كان قد عالجهما في سياق غير السياق الذي يعنينا، حيث ركز فيها على مستوى الصورة الإشهارية) لن تحوز الشمول ما لم تتناول مستويين مختلفين ومتكاملين:

- مستوى أول يخص **مظهرها التشكيلي**، لما يلعبه هذا المظهر بمختلف تجلياته، من دور هام في التحديد غير المباشر لمحتوى الرسالة... وفي هذا الإطار، تكفي الإشارة إلى أن العلاقة التراتبية للطباعة، على ما قد يفصلها أحيانا عن محتوى المكتوب، تبقى مع ذلك فاعلة في تحديد مسار القراءة، عموديا أو أفقيا، يمينا أو يسارا... حسب نوعية اللغة والثقافة، وبذلك تسهم، إلى حد كبير، في توجيه رؤية المتلقي وتبئيرها في أماكن محددة بعينها. ويمكن اعتبار اعتماد نمط معين في الطباعة اختيارا تشكليا، تتجاوز قيمته التعبيرية الدلالة المباشرة للعلامة اللغوية، لتشمل أبعادا إيحائية إضافية، لا تخفى أهميتها، لأن الكلمة المعروضة بشكل ولون خاصين، في سياق سوسيو ثقافي عام، غالبا ما تشد جمهور التلقي قبل قراءة الخطاب الملكي والتعرف على مضمونه المباشر: فأسلوب الطباعة للحروف شريك أساسي في الأسلوب ككل؛

- أما الثاني، فيخص **المضمون اللساني**، وفيه يتم التركيز أساسا على محتوى الرسالة اللغوية المصاحبة للصور والخلفيات بهدف تحديد العلاقة التكاملية القائمة بينهما. وهنا لابد من الاعتراف بالدور الهام الذي تلعبه الدراسة المعجمية والتركيبية، نحوية كانت أو بلاغية، في ضبط آليات اشتغال اللغة، لموازرة الصورة، في مهمة الإيقاع بالمشاهد وتحويله إلى زبون فعلي في الخطاب الإشهاري، أو إبهار جمهور المتلقي وحمله على إظهار وإضمار التعلق بالمؤسسة الملكية وخطاباتها في سياق الإنصات أو قراءة الخطاب الملكي.

وقراءة الصورة - في مستواها اللساني - تتطلب المرور عبر هذه المكونات في تكاملها لا في وجودها كذوات مستقلة؛ حيث نلفيها بشكل أكثر وضوحا في تشكل بنية النص الإشهاري الذي يشكل استراتيجية تواصلية ذات أهداف إبلاغية، تستعين بالجانب الشكلي البصري لإضفاء مسحة قرائية خاصة لدى كل مؤول من جمهور الزبناء والمستهلكين الإعتياديين أو المرتقبين للمنتوج.

¹ - عبد العالي بوطيب، آليات الخطاب الإشهاري الصورة الثابتة نموذجاً، مجلة علامات، العدد 13، ص 118-125

❖ ثالثا- خلفية الإبلاغ البصري وخلفياتها البلاغية

يمكن أن نفهم من إصرار الباحثين على الحديث عن تلازم الوظيفة المزدوجة للسان في خطاب الصورة والمتمثلة في الترسخ والتدعيم أن هذه الثنائية مردها قصور الصورة عن أداء بعض الوظائف التعبيرية، كونها لا تتحلى بالاعتباطية بين دال الصورة ومدلولها مثل اللسان، ولا تنسم بإمكانية تقطيعها إلى وحدات، إذ لا ينظر إليها إلا كوحدة واحدة لا تتجزأ؛ فضلا عن إشكالية عدم محدودية دلالاتها الإيحائية، لتبقى الصورة دائما في حاجة إلى النسق اللغوي من أجل كبح جماح المعنى وترشيده: فالرسائل البصرية التي يطفح بها فضاء إلقاء الخطاب الملكي يبتغي الدقة ويستدعي انفتاحه التوكيدي والتأكيد على مستويات معاضدة كي لا تحيد بالخطاب الملكي والإشارات التي تصدر عن جلالتة عن المقصود.

وقراءة الصورة -في مستواها اللساني -والتصورات والتمثلات المرتبطة بها تستدعي المرور عبر النسق اللغوي ومكوناته في تكاملها، لا في وجودها كدَوَات مستقلة أو كأدوات؛ فهذه المكونات تشكل بنية النص الإشهاري الذي يشكل استراتيجية تواصلية ذات أهداف إبلاغية، تستعين بالجانب الشكلي البصري لإضفاء مسحة قرائية خاصة لدى المؤول.

فمأرب الإبلاغ البصري الذي تستهدفه الصورة والرسالة أو الخطاب الملكي وكذا الفضاء الثابت والمتحول ريطوريا ومجاليا وترايبيا لإلقائه، يتبع الترسمة الدلالية التي خطها بارث، من خلال تقسيمه للمعنى في الصورة على أنه تجليان: أحدهما يصف ما تقدمه الصورة من بنية الواقع (تشخيص)، والآخر رمزي يدرج في اللامرئي (التجريد)، فضلا عن البعد اللغوي باعتباره أحد التمثلات في فضاء الصورة، لا يخرج عن هذا الإطار، ويخضع لتقطيع "النظرة" التي تعد أساس الإدراك البصري من جانب، وللتقطيع اللفظي ذي الأصل اللساني، من جانب ثان.

يُلقي جلالة الملك معظم خطابه بخلفية بصرية ثابتة (قاعة العرش)، باستثناء بعض المناسبات التي تختلف فيها الخلفية حين يتم بث الخطاب من تحت قبة البرلمان، أو من مدينة أخرى (العيون مثلا في خطاب الذكر الأربعين للمسيرة الخضراء) أو من بلد آخر (دكار مثلا)، حيث ظهر صاحب الجلالة بخلفية خضراء مختلفة، تتوسط علمين للمغرب يحيطان بخريطة إفريقيا.



وقد كان من الأمور اللافتة للنظر أنها نفس الخلفية التي كانت في القاعة التي ألقى منها خطاب المسيرة الخضراء بالعيون في السادس من نونبر 2015، مع اختلاف بسيط يكمن في عدم إدراج خريطة إفريقيا وإحلال شعار المملكة محلها.

كما سبق لصاحب الجلالة أن ألقى خطابات بخلفيات فضائية محيطة أو ثلوية زرقاء وأخرى حمراء قانية بمناسبة تخليد الذكرى الواحدة والستون لثورة الملك والشعب.



أما باقي الخلفيات، فلا تخرج عن التشكيلات موزاييكية للزليج البلدي المغربي والأبواب الموشاة بتوشيات الأرابيسك أو النحاس التي تشكل خلفيات لكرسي العرش.

كما أن الثابت في الخلفيات هو استعمال الشعار الذهبي الممثل للمملكة، الذي لا يتربع على الخطابات بنفس تربعه وراء صاحب الجلالة أو توسطه واجهة المكتب الملكي، ليُسمي الشعار كائنا خطابيا لا يفتأ يولد المعنى.

وفي ظل هذه النظرة، جرت مقاربات سيميائية عديدة للعلامة بالنظر إلى ما استجد في مجال السيميائية من توسيع لدائرة بحثها، لتتعدى النصوص الأدبية إلى مجالات أوسع كالإشهار والسينما والأزياء.

تساهم مجموعة من العلامات في تشكيل الكائن الخطابى، وتُعبّر عن طائفة من المدلولات، وتلك العلامات قد تكون ذات طبيعة لغوية، تجسدها الآية 7 من سورة محمد ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ و"المملكة المغربية"؛ أو تصويرية (الصور، الألوان ...) والتي تصاحبها علامات موسيقية للإفتتاح والإختتام (الموسيقى المعلنة للخطاب).

ويتكون شعار المملكة كما تم اعتماده منذ 14 غشت 1957 من شعار ذهبي في قمته تاج من ذهب مزخرف بجواهر تتناوب بألوان حمراء وخضراء وتترجم إيكولوجيا ألوان العلم، تعلوه نجمة خماسية متشابكة، وتليه مباشرة أرضية حمراء وخاتم سليمان الخماسي المتمازج خضراء بالأخضر، ودرع يحتوي حمولة حمراء، بمعلاتها حقل يمثل نصف شمس ساطعة بارزة ذات 15 خيطا شعاعيا ذهبيا فوق ساحة تضم جبالا ترمز لجبال الأطلس، وزخرفة باللونين الذهبي والفضي، مع استدعاء الأطلس من جديد على الجهة الجانبية من خلال أسدين يشكلان دعامتين ويرمزان لأسود الأطلس (أسد اليمين يرى من الجانبية وأسد اليسار مُتَمَرِّ)، وتسند قاعدة لافتة كتبت عليها الآية 7 من سورة محمد "إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ"



باللسان الفرنسي، نجد أن تسمية هذه العناصر مجتمعة بـ *armoire du Royaume*، أعم وأشمل من الشعار، لأن الشعار يحيل على مستوى واحد، في حين أن الأولى أن نطلق مصطلح "الرمز المصور البصري" على هذا النموذج التشكيلي للغة (مظهرها البصري) وجوانبها التصويرية (صور الأسود والحقل والشمس وموزاييكية الألوان) على اعتباره ان تسمية " الرمز المصور البصري" أكثر دلالة على وظيفته كميز للخطابات الملكية وعلامة تميز فضاء إلقاء جلالته لخطاباته عن باقي الفضاءات الخطابية الأخرى، ويتردد ويبسط وجوده في العديد من الأوراق السيادية وتنباه مختلف القطاعات الوزارية في مطبوعاتها ووثائقها وكذا مختلف الجهات العسكرية.

ولا يتم اختيار الزوايا بشكل عشوائي، بقدر ما تشكل زوايا النظر شكلاً تواصلياً حيث تتواصل عبر الربط بين العين والموضوع المنظور له، فالمشاهد لا يركز بالضرورة على زاوية النظر نفسها التي يركز عليها الطاقم الصحفي والإذاعي للقنوات الوطنية المنتدبة لتصوير وبث الخطاب مباشرة على أمواج التلفزة والإذاعة الوطنية أو الموقع نفسه الذي اتخذ الطاقم المذكور للتصوير أو التسجيل مع مراعاتهم اختيار وتحديد إطار الموضوع الذي يسقطه بضبطه الإنارة وكميتها.

لذلك، يتم التركيز على زاوية النظر الوجهية التي تقابل المشاهد وجهها لوجه وكأنها تخاطبه، فهي تهتم بأشكال التصوير، أي كيفية تصوير العاهل ببؤرة أمامية قريبة عند الإلقاء، أو بعيدة عند الوقوف للإنصات للنشيد الوطني، مع اختيار ذكي للزوايا من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين، وفق حركة العين ووضع المركز البصري لعموم المواطنين/المشاهدين.

بالنسبة لحركة العين، يكون استقبال الصورة في المرحلة الأولى مجملاً، فالعين تمسح الصورة، ولكن تبثها على الإطار نفسه، ليس بالكيفية الخطية التي يتلقى بها النص، لكن هذه القراءة المُجملة ما تلبث لتصبح في مرحلة ثانية قراءة خطية، لأن تركيز البصر على الصورة لا يمدده دفعة واحدة بكل الرسائل والدلالات الممكنة، حيث يقتضي أن تقوم العين بمجموعة من الحركات العمودية والأفقية والدائرية، محددة بذلك مسار الصورة.

فالعين تسير في " حركتها الطبيعية وفي رحلتها من اليمين وذلك بالتركيز على التناسق في الصورة ثم على الألوان، والأبعاد، والتحليل، والترتيب والتصنيف"¹.

هذه العلامات البصرية الإيقونية تكتسي أبعادا سيكولوجية، تنطلق من البعد النفسي للتأطير ومستويات انسجام أطراف الإطار والتأطير لتحقيق وحدة الصورة، ومن ثم الانسجام النفسي للمتلقى ووحدة النظام وضرورة التوحد بين الملك والشعب؛ والبعد النفسي لاختيار الزوايا خدمة لبناء متتالي للصورة فيما يخص تقريب وتكبير صورة صاحب الجلالة ببؤرة أمامية قريبة أو إبعاد وتعميق صورة الخلفي، وباقي المدونات التعيينية (مثل الألبسة، والديكورات) و مدونة الوضعيات والحركات والإشارات (مثل زوايا نظر صاحب الجلالة والتي تعتبر أقل حركة وحركية من زوايا نظر والده الذي كان يرتجل خطابه بنظر جائل)، فضلا عن المدونات المتعلقة بالألوان المسيطرة، والتي تسطر دلالات اجتماعية وثقافية.

بخصوص الإرتجال، سأخصص فقرة من فقرات أطروحتي للمسألة لأنها ترتبط للأسف في ذهن جمهور المتلقي بالبلاغة.

فالواقع وتاريخ الخطابة يؤكدان أن الفرد قد يكون ذو بيان في الكتابة وفي تدوين الأفكار، لتغيب اللغة ويفقد الإمساك بناصيتها في الخطابة، مثل "عبد الحميد الكاتب وابن المقفع"²، ومن المحتمل "أن يكون الإنسان خطيبا مفوها ويوصل فكره إلى الآخر ولا يكون مقتدرا في تقديم أفكاره مدونة"³، وقد يكون الفرد جامعا بين الكتابة وفن الخطابة، كما حصل مع الشيخ "محمد البشير الإبراهيم". أما غيرهم، فلا تكاد تضاف صفة البلاغة لرجل معروف، ولا إلى علم موصوف.

وفي سياق ذكر الجانب التشكيلي للحرف، نستعير من "محمد خاين" مُصطلحي " التلخيص الأيقوني "و"أيقنة اللفظي" لوصف التمازج بين المظهر الشكلي الحرفي لشعار المملكة مع الدلالات الرمزية الثاوية خلف التشكلات الأيقونية واللونية: فما هته التشكيلات البصرية إلا حفر في ذاكرة المتلقي القارئ والامي، وكتابة أيقونية تحاكي الشكل الحرفي وتحكي تاريخ المغرب وشروق شمس رغم موقعه جهة الغرب والغروب، بنفس دأب مصممي شعار المملكة منذ سنة 1957 على تعريض المكونات اللسانية بدورها إلى تأثيرات الصورة حتى صار للغة مظهرا سوريا وتمثيلا أيقونيا يحيل على المغرب وتاريخه وطبيعته وطبيعة حكمه ويثبت الصور الذهنية الرسمية في الأذهان.

بالفعل، فإن ما تحتاجه الذاكرة من أجل استحضار " ما مضى " هو هوية لن تكون بادية إلا من خلال اسم، أو من خلال شكل أو من خلال صورة أو من خلال تداعيات صوتية تجسدها الميكساج بين الموسيقى وشعار المملكة وعاهلها بعد لازمة "أيها المواطن أيها المواطنون، صاحب الجلالة يخاطبكم" وبعد إنتهاء صاحب الجلالة من إلقاء خطابه.

في هذه المرحل، أتساءل كما تساءل يوما رولان بارث عن وظيفة النص اللغوي الذي يرافق الصورة الإشهارية، إذ يحدد وظيفتين رئيسيتين للرسالة اللغوية في الصورة: وظيفة الترسخ anchorage ووظيفة المناوبة (والتي أطلق عليها أيضا الربط أو التدعيم).

¹- محمد يوسف رجب الهاشمي، البرمجة اللغوية العصبية للألوان، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2006، ص68

²- طه حسين :من تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول، القرن2، ج2، ص 478

³- بنظر :الجاحظ :البيان والتبيين، مج1، ج1، ص36

وتقوم وظيفة الترسّيح بتحديد وجهة المعنى الذي تريد الصورة بثّه في المتلقي، لأن الصورة نظام وخطاب متعدد المعاني، ويتم اللجوء في خطاب الصورة الإقناعي (والإشعاري تخصيصاً عند "بارت") إلى نص لغوي يرافقها من أجل تكثيف المعنى المراد تبليغه. ويعني ذلك إبعاد كل المعاني المحتملة التي من شأنها إحداث لبس عند المتلقي في فهم معنى الصورة ومقاصدها، خاصة في الصورة التضمينية (الرمزية)، حيث لا يحيل النص على هوية عناصر الصور، بقدر ما يحرص على توجيه عملية التأويل *Interprétation* حتى لا تنزلق المعاني التضمينية إلى القراءة الفردية أو يصاب المتلقي بالقلق أو الضجر أو ينجر نحو قراءات غير تلك التي أريد لها أن يقرأ بها الخطاب الملكي.

إن النص اللغوي يشتغل بشكل موازٍ مع الأيقونات، ويتعدد حضوره على مستوى الصورة : عنوان نص مواز، توقيع، شرح الأيقونات بالرجوع إلى المرجعيات المشتركة بين الملك وشعبه، جواب عن سؤال مقدر

فالنص لا يقدم في الإرسالية البصرية، شكل مجاني اعتباطي، بل يحضر أساساً لمنع التدفق الدلالي المحتمل الذي يستند إلى مبدأ القصدية، ولذلك فإن إرفاق الصورة بإرسالية لغوية مكتوبة يقلص من إمكانات التلقي، ويوجهها الوجهة التي تريدها القناة المرسلّة، وهذا ما أسماه "بارت" وظيفة الترسّيح التي تقوم بدور توجيهي لمعنى الصورة المراد بثّه في المتلقي، ويضيف إليها وظيفة أخرى هي "وظيفة التدعيم" بحيث يقوم النص اللغوي بإضافات دلالات جديدة.

وإذا كانت وظيفة الترسّيح هي الأكثر تداولاً في الرسالة اللغوية، فإن وظيفة المناوبة تعد أقل الوظائف حضوراً خاصة في الصورة الثابتة، فالصورة والكلام في هذه الوظيفة يوجدان في علاقة تكميلية.

كما تحظى هذه الوظيفة بأهمية قصوى في الصورة السينمائية حيث أن الحوار ليس له وظيفة الإيضاح فحسب، وإنما يعمل في الحقيقة على نمو الحركة مرتباً في سلسلة الرسائل معاني لا توجد في الصورة.

ويرى بارت أن هاتين الوظيفتين للرسالة اللغوية تجتمعان في الصورة الأيقونية ذاتها، فإذا كان للنص اللغوي وظيفة مناوبة، فإن عملية الإبلاغ تكون أكثر كلفة لأنها تتطلب معرفة بسنن اللغة، عكس وظيفة الترسّيح في السياق التوظيفي، حيث يورد بارت في هذا الشأن أن "أهمية النسق اللساني تبقى قاصرة أمام بلاغة الصورة وإوالياتها المتفاعلة والمؤثرة، فهي ذات التأثير في نفس المتلقي، كما تستوقف المشاهد لتثير فيه الرغبة والاستجابة"¹.

لذلك يمكن فهم سر الجمع بين بلاغة النسق اللساني وبلاغة الصورة في الخطاب الملكي وفضاء إلقائه، مع معاضدتهما بأنظمة هوياتية ومرسخة تتعلق بهندام جلالته وتدبير المجال وموسيقى النشيد الوطني المعلن للخطاب، وقبلها لحظات وقف بث البرامج الوثائقية والتقارير الخاصة وبث البياض لإعلان مخاطبة جلالة الملك للمواطنين.

إن القيمة الإقناعية للصورة في الخطاب الإشعاري (والسياسي عموماً ضمن جملة الخطابات الإقناعية) لا تتحقق نجاحاتها إلا في ضوء النسق اللغوي، فأنظمة الحركة واللباس والموسيقى لا تكتسب صفة البنية الدالة، إلا إذا مرت عبر محطة اللغة التي تقطع دوالها وتسمي مدلولاتها.

¹- العمراني مصطفى، الخطاب الإشعاري بين التقرير والإبهاء، مجلة فكر ونقد، مجلة ثقافية فكرية، العدد 34، 2000، ص. 27.

وفي هذا السياق يذهب "بيسانس" إلى أن الصورة نسق دلالي قائم بذاته، لها وظيفة أساسية في التواصل، وليست حشوية فيه بالنسبة إلى العلامة اللسانية الطبيعية، بل إن اللغة في كثير من الأحيان تحتاج إلى مثل هذه النظم السيميولوجية لتحقيق وظيفتها التبليغية¹.

بعد الحديث عن شعار المملكة كمتصدر للورقة كفضاء لكتابة الخطابات أو الرسائل الملكية وفضاء إلقاء تلك الخطابات، نخرج على العنوان الذي يرد في بداية الخطاب من خلال استحضار صاحب الجلالة للمناسبة، قبل الحديث بشكل مفصل فيها.

❖ رابعا- آليات الاشتغال العنواني

يأتي دور "العنوان" في إطار مواصلة التحري بشأن النسق اللغوي في خطاب الصورة، وبعد الإشارة إلى الرمز المصور البصري أو ما يصطلح عليه باللغة الفرنسية بـ *armoire du Royaume*، كتجلٍ للميثاق التيبوغرافية للحرف *typographique Charte* وللبنية الإيقونية *Structure iconographique* للصورة: فالعنوان يحضر بقوة ليستمد الحرف والصورة معانيهما من المضامين اللسانية التي تقتض أن يكون عنوانا للخطاب الملكي ولمناسبة إلقائه، والمناسبة شرط.

سلف القول إن مفاهيم العنوان تعددت، تبعا لوجهات النظر والجوانب المرتكز عليها في التعريفات، لكن عموم التعريفات تتفق على اتسامه بالوجود المادي لأنه أول ما يقع عليه البصر، وارتباطه دلاليا بالنص المحيل عليه، كونه العتبة الأولى لتفسيره وتأويله.

فالعنوان ليس فقط هو أول ما نلاحظ في كتاب أو موضوع رسالة أو طلب، بل هو "علامة" قصدية قائمة بذاتها²، وعنصر سلطوي منظم للقراءة ومحدد لمناويل تأويل النص.

وإذا كان العنوان يردُ مباشرة أو استفهاميا في الكتب والمجلات والمقالات فيزيد بذلك من احتمالات تقليل اهتمام القارئ بقراءة تفاصيل النص ويغنيه عن متابعة قراءة التفاصيل، فإن العناوين التي تردُ في الخطابات الملكية لا ترد إلا على شكل عناوين غير مباشرة وتعتمد عدم نشر بعض أو جل محاور الخطاب بشكل مباشر، لتحمل جمهور التلقي على التشوق والإستمرار في القراءة أو الإنصات حتى نهاية الخطاب.

كما أن الإشارة الصوتية "أيها المواطنون، أيتها المواطنات، صاحب الجلالة يخاطبكم" والكتابة الموازية لنفس المضمون تشكل عنوانا آمرا، يلتزم مصممي ومخرجي الإذاعة الوطنية بتصدير الخطاب بصيغة الأمر (الأمر الضمني بالإنصات لمن يخاطبكم).

فالعنوان إشارة سيميائية تدخل في إطار السيميائيات، تتناول كما سلف بيان ذلك المعطى الثقافي في عملية التواصل، على نحو جعل هوك يعتبر العنوان:

-علامة ثقافية، لإحالاته على عالم ممكن وواقعي، فهو يؤثر في تفكير الإنسان وتوجيه

تصرفاته؛

¹ - Porcher, Louis, Introduction a une sémiologie des images, Librairie Marcel Didier, Paris, 1977, p172-173

² - Lio Hoek, La marque du titre: dispositifs sémiotiques d'une pratique textuelle, Ed.:Mouton, Paris, New York, 1981, P. 1 et 2

-علامة إشارية، لإشارته إلى النص من خلال تسميته أو الإعلان عن ماهيته Annoncer les couleurs منذ السطور الأولى لحث المتلقي أو المشاهد على الإستمرار أو العذول عن تتبع المسار؛

-علامة تتيح ترويج النص وتداوله، لأن العنوان يحول النص من شيء مستعمل إلى شيء متداول.

هذا الأمر يزيد من فعالية العنوان كإشارة تواصلية تعتمد الإقناع والإغراء: الإقناع بفكرة مدخلية للنص، والإغراء بقراءة ذلك النص.

فطبيعة العنوان ووظائفه وكل مستوياته، كل ذلك يفرض على المتلقي سلوكا خاصا ومحددا من فك الرموز، واستحضار للطاقت المخزونة في الذهن، وتفعيل لأفق الانتظار، وتركيب لمختلف الدلالات المرتبطة بالمرجعيات المشتركة بين الملك وشعبه بشان المناسبة ومحاور الخطابات التي جرت العادة على خوض جلالته فيها في تلك المناسبة: فالعنوان يشغل مثيرا معرفيا يستهدف كل ما تحويه قوالبه التنظيمية، ومكوناته الدلالية، ومستوياته العلاماتية، وتعاضد العنوان الجوانب المرتبطة بالبرامج الوثائقية والأفلام التسجيلية الخاصة للمغرب زمن الإستعمار مثلا، مع موسيقى مواكبة من الأغنية الوطنية "يا صاحب الصولة والصولجان" التي ترنم بها المرحوم أحمد الببضاوي"، أو بأغنية "عدت يا خير إمام" التي لحنها وغناها الراحل عبد القادر الراشدي بمناسبة عودة المغفور له الملك محمد الخامس من المنفى سنة 1956" أو بمناسبة تخليد ذكرى المسيرة الخضراء من خلال برامج تعرض لخطاب الحسن الثاني وتلبية مئات الآلاف لشعبه وخروجهم في مسيرة النصر، مع موسيقى "نداء الحسن" المصاحبة.

وينضاف إلى هذه المستويات جانب أساسي من الجوانب المكونة للعنوان وهو الجانب المتصل بفن الطباعة والخط والكاليجراف، التي قدمت للإبداع الأدبي إضافات فنية وجمالية، ويطلق عليه "فضاء العنوان"، والذي تعتبر الألوان والخطوط وتقنيات الطبع مادته الأساسية، في ارتباط بالوظيفة الإيديولوجية الكامنة في العنوان وفضائه، والخلفية الثقافية المشتركة حول كتابة النصوص المقدسة والرسمية وما تستدعيه من توقير واحترام.

رغم تباث خلفية الشعار الذهبي الممثل للمملكة كما أسلفنا، فقد وجدنا أن عالم اللون في فضاء ألقاء الخطاب الملكي كان بدوره يستحق أن نقف عنده لفهم الحالة النفسية التي يريد أن يوحي بها مهندسو الفضاء الخطابي ومديروا المجال لحمل عموم المواطنين على الانشراح والفرح والإكبار، إلا أن المجال لم يسعنا اعتبارا لوجود محددات كمية للأطروحة وسقف مثالي اقتضيا أن نقف عند حدود حجم معين.

بالرجوع إلى مؤشرات نجاح الصورة وما يستتبعها من تصورات رهين بقدرتها على تمثيل صورة "ذات المتلقي" والتقائيتها مع تمثلاته حول المؤسسة الملكية وانتظاراته، ومدى قدرتها على تجسيد القيم السوسيو-ثقافية لدائرة متلقيها، وغناها الذي يترجمه تفاعل مدلولاتها.

وهنا أيضا يقتضي الأمر من مُخرجي الفضاء الخطابي لجلالته تقصى ما لا يجب تخييبه في الصورة والفضاء وتأثيره، وإبعاد كل ما يمكن أن يشكل مؤشرا سلبيا، مستعيضين عنها بما يخدم الإستراتيجية الخطابية الملكية والقيم والتمثلات التي يهدف إلى تمريرها لحمهور التلقي وفق إيديولوجية محددة سلفا.

تحملني طبيعة الرمز المصور البصري الذي يعتلي صفحة الخطابات والرسائل الملكية وفضاء إلقاء الخطاب إلى الوقوف على التفاعل بين ما هو لغوي وما هو تصويري فيها لإعتمادها على ثنائية الصورة واللون والرمز بمعنية الحروف متمثلاً في اسم العلامة التي تشكل إبرازاً للمظهر التشكيلي للحرف.

وعليه، فقد أفدت من العينات التي إطلعت عليها للإستدلال على شخصية المؤسسة الملكية التي تحمل الخطابات والرسائل توقيعها والفضاء الذي ينطق رسمياً بمكانتها، فضلاً عن رمزية تلك الإستعمالات في تثبيت هوية العلامة وخصوصية المغرب.

في هذا السياق، يشار أنني لم تساورني الرغبة في توسيع دائرة القراءة لتشمل باقي الصورة البصرية التي تتراوح بين الثبات والدينامية، لأكتفي فقط بالمستوى الخطي.

على أن مستويات القراءة الإيقونية والتحليل القرائي للصورة الثابتة يمكن أن تمتد في قادم الأيام والمقالات والمشاريع البحثية لتشمل:

- ومضة الإخراج ودور فضاءات الإخراج في الاندماج بين الهوية التقليدية والللبوس الحداثي
- السلطة المولوية المُقنعة على نقيضيتها للسلطة المُقنعة سياقات ومحطات سقوط الأُفنة عنها؛
- قراءة في المظاهر المراسيمية والبروتوكولية غير اللفظية المميزة للملكية الدستورية بالمغرب؛
- قراءة في الإشارات غير اللفظية التي تحملها الشارات الملكية (كعربة العرش، والمظلة، وحاشيته من "الثُروكيون" بمختلف درجاتهم في سلم خدمة صاحب الجلالة والدنو المحيطي منه، ومنهجية تأثيثهم للممرات المولوية داخل الفضاءات المشيدة، والمشور الملكي، والحرس الملكي المؤازر بالدرك والشرطة والمخزن الإداري...)
- التهيئ للخلافة على المُلْك وسيناريوهات الإستخلاف من خلال التركيز على بروتوكول جلوس ولي العهد على يمين جلالة الملك وباقي الامراء على شماله؛
- نظام القرابة من المَلِك ومناسبات خرق النظام القرابي بنظام قرب مؤسساتي من خلال بروتوكول الحفلات التي يقيمها صاحب الجلالة على شرف ضيوفه وحضور رئيس الحكومة جنباً لجنب خلال المآدبات؛
- بلاغة الصورة الجماعية لأعضاء الحكومة المنصبة مع صاحب الجلالة؛
- قراءة في الدور الترسيمي للمراسيم من خلال التغطية المسهبة للنشرات الإخبارية، وتكثيف زوايا البث وطقوس انتظار الحضور الملكي أو الخطاب الملكي؛
- قراءة في بث الصور الملكية وإيحاءاتها، وصوره وسط عائلته وبلاغة تسييد الدور الأبوي لعاهل الأمة لتشييد دوره كرب للأسرتين الصغيرة والكبيرة الممتدة لتشمل مغاربة الداخل والخارج؛
- بلاغة البث التكراري السنوي للمشاهد التي تُوثق للحظات وطقوس البيعة والتوقيع على وثيقتها ك لحظة سياسية لا تتكرر إلا عند انتقال العرش؛

- بلاغة تقديم ممثلي جهة وادي الذهب-الكويرة وجهة العيون وكلميم السمارة وجهة سوس ماسة درعة في مراسيم حفل الولاء على ممثلي باقي الجهات؛
- دلالة الصور التلقائية الأقل رسمية على إرهابات العهد الجديد؛
- بلاغة تحديث البروتوكول الملكية من خلال نص الإعلان الرسمي عن زوجه الملك ونشر صورها ونقل مراسيم الاحتفال بالزفاف الملكي عبر وسائل الإعلام العمومية؛
- الدلالات التواصلية لإحداث منصب ناطق رسمي باسم القصر: قطيعة أم امتداد لدور وزارة القصور والتشريفات والأوسمة؛
- بلاغة الفعل المولوي من خلال الزيارات التفقدية لرُبع المملكة والتدشينات المصاحبة وطبيعة المشاريع؛
- قراءة في تقليص الاستعراضات العسكرية كمراسيم تعبيرية رمزية مجسدة لسلطة القائد الأعلى للقوات المسلحة الملكية؛
- المراسيم الدينية كأساس إيديولوجي وسياسي للملكية؛
- بلاغة الحُلل المميّزة للملك في مختلف المناسبات الدينية والوطنية والعسكرية؛
- بلاغة الأوسمة ودرجاتها وأصنافها في التعبير عن الرضا المولوي ومستويات القرب من صاحب الجلالة من خلال طريقة سلام الشخصيات المدنية والعسكرية وفتح جلالته "لمساحات الدُرشة" أو "دأب البعض على فتحها مع جلالته"؛
- الشبكات النسقية لمقاربة الرسائل البصرية وفق ثنائية النسق من الأعلى (الرسالة البصرية) والنسق من الأسفل (الدعاية وقناة البث والتأثير المنتظر)؛
- الحصيلة المشهدية لسنن الأشكال والألوان والأوجه البلاغية للعلامات الإيقونية؛
- ... وغيرها من المحاور الخاصة بالرسائل البصرية المولوية وعموم كفايات التعبير السيميائي القابلة للوصف ضمن عموم تشكيلات مشهد النشاط الخطابي أو البروتوكولي الملكي التي تخضع للرصف.
- وتنبثق عن هذه المحاور إشكالية يمكن أن تشكل نواة لأطروحة مستقبلية مستقلة ناظمها الأسئلة التالية:
- إذا كان الأمر يتعلق بالنظر إلى الصورة لا برويتها، فما هي المُمكنات التعبيرية التي تحتويها؟ وكيف نتناولها ونتأولها؟
- وإذا كانت محاور الصورة الإشهارية تتعلق بمحدد: المصور أولاً، والذات المشاهدة ثانياً، فهل عملية التأويل تُؤتي أكلها دائماً، أم أن هناك شروطاً (خطوات) لقراءة نص الصورة؟
- ماهي مظاهر تناغم العناصر البنائية للصور التي تبث يومياً وتتصدر النشرات الإخبارية حول الأنشطة الملكية، سواء تعلق الأمر بلغة، أو تشكيل أو أيقونات؟
- على أن الثنائية العنوانية المرتبطة ببلاغة الخطاب المكتوب وببلاغة الصور البصرية المرافقة لجلالته، توصل إلى سيميائية العلامات غير المكتوبة التي يبيثها المحيط الملكي وفضاء نشاط الخطابي والبروتوكولي، لما له من خصوصيات تكوينية ذات طبيعة فضائية جامدة، تؤهلها لأداء وظيفة تواصلية محددة على نحو مقصود.

هذا ندر مني لأبد أن أبر به للمساهمة يوما في الحركية الحالية للدرس اللغوي الحديث في مجال إعادة الاعتبار للبلاغة، مُذ أن وطأ لها "بيرلمان"، فسبق إلى توسيع مفهوم البلاغة لتصبح أكثر شمولاً وتحوي الجانبين اللغوي النصي، و التداولي المقامي في إطار حاجية الخطاب، فصارت بفضلها علما عاما للخطابات، و ساعدها على ذلك تفاعلها مع الجوار المعرفي من لسانيات و سيميائيات و علم نفس واجتماع و أنثروبولوجيا... ليعملا معاً في سبيل الكشف عن مكامن الإقناع في كل الخطابات؛ ومذ أن سابق رواد الساحة اللغوية المغربية لإعلان حركية بحثية كان الثالوث الأبرز لمحركها كل من:

- الأستاذ "محمد العمري" في مشروع البلاغة الجديدة والنقد الأدبي، الذي بحث في بلاغة الخطاب الإقناعي وتمثلاته حاضرا وقديما، محاولا إزاء ذلك توضيح مسلك البلاغة والخروج بمفهوم شامل لها، ليبعثها من رسمها وحفرها الغابرة؛

- القارئ السيميائي المتميز والمترجم الجاد لكل ما استجد من دراسات غربية، "سعيد بنكراد"، الذي توج مشروعه الأكاديمي بنظرة خاصة لتوصيف المقاربة السيميائية، وفهمت التحليل السيميائي للخطابات ومنها الخطاب الإشهاري - سيما الصورة- الذي يتبدى في مجلة علامات المتخصصة، والذي تشرفت بحضور العديد من لقاءاته؛

- الحجة الثقة "أبو بكر العزاوي"، في درس الحجاج، من اللغة إلى الخطاب والذي آمن فيه بالطبيعة الحجاجية للغة من خلال الروابط والصلال الحجاجية، التي تُسهم في إثراء الجانب التداولي للغة، والذي بدوره أفضى إلى تمثّل أوسع تمثّل في أن كل نص أو خطاب يملك من الخصائص الحجاجية ما يُعينه على تبليغ المعاني.

... وغيرهم ممن تتاح لي دوما فرص اللقاء بهم في إطار الإطار البحثي النشط لماستر الأدب العربي والثقافة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية وبرحاب المكتبة الوطنية التي أدلف إليها بمجرد تناهي أمر استضافة علم من الأعلام إلى علمي.

كما تسعفني زيارتي المتتالية لتونس في إطار حضور أفعال اللجان التقنية المغربية المشتركة أو التحضير لفعاليات أعمال اللجنة العليا الثنائية المشتركة في مجال الأمن للقاء الباحثين التونسيين، بعد أول لقاء لازلت أعتبره تاريخيا بالدكتور المميز ووزير التعليم العالي والديبلوماسي ورائد التصوير اللفظي "عبد السلام المسدي"، فضلا عن العديد من اللقاءات بكلية الآداب والفنون والإنسانيات بجامعة منوبة بتونس، بالشيخ الوقور "حمادي صمود"، وباقي رموز المدرسة التونسية (بجيليها وتياراها الكلاسيكي والمجدد)، في انتظار توسيع مجال "زيارتي الودية والمريديّة لباقي زوايا شيوخ البحث اللساني بالجزائر بعد رجوع العلاقات الثنائية إلى سابق عهدها، خاصة وأن زيارة تلك الدولة وجامعاتها تكون تحت أعين مخابراتها الذين يتوجسون خيفة من الزائر الوافد من وزارة الداخلية واغيب عنهم صفة الأكاديمي الذي لا يجد راحته إلا بين راحتي الجامعة.

إيماني بالبلاغة الجديدة وتعدد صورها وضرورة تعقبي لتصوراتها ينطلق مما انتهى إليه "حمادي صمود" في كتابه حول "أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم"، ومجهود محمد الولي الذي حدد قوام البلاغة على السطح لتصبح منهجية قارة لدراسة Perlman

الأرسطية في مقالات، خاصة وأننا نعيش "عصر خطابة"، والحاجة لتشجيع الإستهلاك من خلال نشاط إقناعي حجاجي إشهاري وسياسي وهوياتي غير مسبوق، يحيل على أنواع مختلفة باختلاف أشكال التواصل، ويستدعي تحديد الآليات التعبيرية الملائمة لكل شكل، وتعقب غائية التقنيات التي تتعلق بكل نوع حتى يحقق غايته الإقناعية، وفق أنجع التقنيات والوسائل الممكنة لصنع وإيصال الرسائل، وحقن الولاء وخنق البراء في أوساط الجماهير.

فتطرح في هذا السياق إشكالية حول التقنيات الموظفة في الخطاب الملكي ممثلاً في الصورة والخلفية الثابتة، والتي تجعل منه خطاباً مقنعاً؟

يستمد الخطاب الملكي إقناعيته من العديد من الخصائص التي سأفصل بشأنها في الفصل الرابع والآخر بعد بيان الوسائل.

وقفت في المطلب الأول وسياق الحديث عن الوظائف وانتقائي من حظيرة الوظائف الست لبراون ويول، وتركيزي على الوظائف التي تنسجم بالأساس مع مقاصد الخطاب الملكي، وفق نسق خطابي رسالي واسترسالي أيضاً في تمرير الرسائل والأفكار والمعلومات التي تجيب عن سؤال السائل وتروم الإبلاغ والإظهار أكثر مما تروم الإبداع أو الإمتاع أو الإبهار واللذان يسعفنا في انتقائهما، وتحقق مرامي استراتيجية.

إن محاولتي استثمار الوظائف السابقة، لم تكن إلا محاولة أخرى لتستتب منهجياً لأطروحتي سبل إقامة العلاقة بين الوظيفة اللغوية والاستعمال الذي فتح للدرس اللغوي أشكال البحث الأكثر شمولاً، وذلك من خلال الدراسة التداولية للخطاب (تداول الخطاب الملكي)، وبالتالي، دراسة مختلف الاستراتيجيات الخطابية اللغوية التي يحرص من خلالها جلالته على إقامة التواصل والإنجاز في سياقات خاصة.

فما استراتيجيات الخطاب؟

المبحث الثالث

الاستراتيجيات الخطابية المُعتمدة في صياغة الرسائل



يتوخى كل من سلك دروب التواصل تحقيق خطط معينة، يُمكن أن نسميها استراتيجيات، وهي استراتيجيات تُطرَدُ بعينها، من خلال أنساق لغوية وأدوات معينة، فتصبح ظاهرة لافتة للنظر، فتكتسب القيمة التي ترشّحها لتستحقّ الدرس والتحليل في نماذج مختلفة من الخطاب، بوصفها أطراوات لغوية تجسدها كفاءة المرسل التداولية في خطابه، وبوصفها ثمرة لسلسلة من الإجراءات الذهنية التي يقوم بها. و يكون ذلك كله محكوماً بتأثيرات كل العناصر السياقية السالفة، فيغدو الخطاب عندها علامة على مجموعة من هذه الانتظامات التي تعبّر عن التفكير النظري والإنجاز اللغوي الذي يرى المرسل أنه الأمثل من بين الإمكانيات التي تتيحها اللغة في جميع مستوياتها، وذلك للارتفاع بأداء القول وتحقيق ما يريده في خطابه.

هي إذن استراتيجيات قد تفوق الحصر، ومع هذا، لا يمكن تصنيفها إلا تصنيفاً عاماً، لينتظم عندها حسب معايير واضحة.

المطلب الأول/ استراتيجيات الخطاب الملكي بين الماهية ومعايير التصنيف

قبل التطرق إلى مفهوم الاستراتيجية داخل الخطاب الملكي في فهمها السطحي، لا بد لنا من مدخل مفاهيمي يرصد الاستراتيجية في الخطابات بوجهها العام مهما كان جنسها وتصنيفها، حتى يتسنى ربطها بالخطاب وإدراك ماهيتها فيه.

❖ أولاً- مفهوم الإستراتيجية واستراتيجية استعمال المفهوم

يحقق الإنسان أهدافه من خلال الأفعال التي يمارسها في حياته اليومية، وترتبط هذه الأفعال بسياق معين، وبما أن أفعاله مختلفة فإنه يسعى إلى إتباع طرق إستراتيجية متباينة تتناسب والسياق لتحقيق أهدافه: فالإستراتيجية هي طرق أو خطط موضوعة من طرف الهيئات العسكرية لتحقيق الزحف والسيطرة، وتعدى هذا المفهوم ليتسع من حيث الاستعمال ويشمل العديد من العلوم المعرفية.

فالإستراتيجية عملية تخطيط لتحقيق سياسة ما والتحكم في الوضع بشكل كلي، وعرفت أيضاً بكونها " طرق محددة لتناول مشكلة ما، أو القيام بمهمة من المهمات، أو هي تدابير مرسومة من أجل ضبط معلومات محددة والتحكم بها.

تستعمل كلمة إستراتيجية عادة بمعاني التدليل على الطريقة التي يتصرف بها أحد الشركاء في لعبة معينة تبعاً لما يعتقد أنه يحتمل أن يصدر من تصرفات عن الآخرين، ولما يخال أن الآخرين سيتصورون أنه بالإمكان أن يصدر عنه، فيفكر في الطريقة المثلى للتأثير على الغير.

كما تستعمل للتدليل على مجمل الأساليب المستخدمة في مجابهة عدو فعلي أو خصم مفترض لحرمانه من وسائله القتالية وحمله على الاستسلام، لو اقتضى ذلك التحامل عليه، مادام الهدف من الإستراتيجية هو تبني الحلول الراحبة والأسلحة الرادعة.

هذه الدلالات تتفق مع تلك التي أعطاها "فوكو" للإستراتيجية، والتي رأى أنها "عمل ذهني بالأساس، بمعنى أن اختيار الوسائل المستخدمة يعتمد على استخدام العقل، وبهذا فإن اختيار الإستراتيجية يتميز بالعقلانية"¹.

أما عن مفهوم الإستراتيجية في الخطاب، فقد ارتبطت كعملية يقوم بها المرسل باختيار العبارات والكلمات المناسبة، وكذا اختيار السياق المناسب: فقبل تلفظ صاحب الجلالة بخطابه، يخطط المستشارون ومستشارو التواصل لكيفية إنتاجه، كذا كيفية إيصال معناه إلى عموم المغاربة وخاصتهم، فيحرصون كل الحرص على استعمال اللغة استعمالاً دقيقاً يتواءم والسياق، ومستويات جمهور التلقي، وما سبق ذكره عن تحديد الفئة المستهدفة، وفئة الموقف الذي يجب أن يمرر، ويستثمرون ما لديهم مجتمعين من ذكاء جماعي والذكاء التجميحي للتقارير الواردة من كل جهة والدراسات وبلاغة أيجازها في حصيلة، بعد استنطاقها واستخراج مؤشرات الخلل والزلل في المنظومة التدبيرية للملفات الكبرى، وتحديد مواطن العلل والأعطاب الإجتماعية، حتى يتمكن صاحب الجلالة بالتأشير على سبل المعالجة ومنهجيتها، وفق كفاية لغوية تسندها كفاية تداولية.

لا بأس في هذا السياق من التذكير أن الكفاية اللغوية أحد المصطلحات التي وضعها تشومسكي في دراسته للغة هي "معرفة المحادث (المتكلم/السامع) بلغته"²: إلا أن هذه الكفاية اللغوية لا تهم كثيراً مستوى تحليلنا، لانها لا تخرج عن إطار المعرفة البسيطة بالقواعد الأساسية التي بواسطتها يتم تركيب الجمل وصياغتها صياغة صحيحة وفهمها.

لذلك نوثر مصطلح "الكفاية التواصلية" الذي استبدل به هايمس مصطلح "الكفاية اللغوية" الذي رأى أن فيها ضيقاً وتضييقاً لاقتصاره بشكل حصري على الجانب النحوي لمعرفة المتكلم، حيث أصر هايمس على تجاوز الجانب القواعدي المعياري في اللغة ليركز على الوظيفة الأساسية التي تقوم بها اللغة، وهي الإتصال الذي من أجله ينشئ المتكلم الجمل والعبارات، فعرف الكفاية الاتصالية بأنها "مقدرة المتكلم على إنتاج منطوقات مناسبة لأنماط المواقف الإتصالية المختلفة، لا جمل نحوية"³.

❖ ثانياً- معايير تصنيف الإستراتيجيات الخطابية الملكية

يمكن إخضاع تصنيف الإستراتيجيات الخطابية الملكية للعديد من المعايير التي تختلف وفق طبيعة الخطاب (خطاب موجه إلى عموم الشعب/ الأمة، أو إلى فئة منها أو الخطابات والرسائل التي يوجهها جلالاته على فخامة ملوك ورؤساء وقادة الدول أو بمناسبة مشاركته في المنتديات الدولية وتتصدرها عبارات أصحاب الفخامة والمعالي، حضرات السيدات والسادة)، فننظر لبعضها:

¹ - أوبيير دريفوس، وبول رابينوف، ميشيل فوكو (مسيرة فلسفية)، ترجمة جورج أبي صالح، مراجعة وشروح مطاع الصفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، ص. 200

² - محمد العبد، النص والخطاب والاتصال الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2005، ص. 22

³ - المرجع نفسه، ص. 49

- **بالمعيار الإجتماعي للعلاقات التخاطبية** التي تجمعها بالمخاطب وبجمهور التلقي، فهناك مثلاً، معيار العلاقة التخاطبية بين أطراف الخطاب التي تتراوح قريباً وبعداً، علوّاً أو دنوّاً، فننفذ من خلال هذا المعيار إلى الاستراتيجية التضامنية التي يتوسل فيها جلالته الأدوات الإشارية اللغوية التي تُدني البعيد أو تقترب منه، وتجمع جلالته بكل الأطراف التخاطبية، مثل الضمير (نحن) الذي يدل بالطبع على جلالته، وينزاح في العديد من المقاطع للتعبير عن الجمع بينه وبين باقي أطراف الخطاب فيتحدث أصالة عن جلالته ونيابة عن عموم المغاربة أو عموم المسلمين باعتباره أميراً للمؤمنين ليجمعهم كلهم من خلال استعمال ضمير "نحن" تحت لواء واحد، دلالة على التقارب بينه وبينهم؛ واستعمال الاسم الأوّل بدلا عن الألقاب والكنى، أو مصطلح المهنة التي يمارسها المرسل إليه (وزيرنا في الاوقاف والشؤون الإسلامية، السيد المنوني رئيس لجنة مراجعة الدستور)، أو ذكر خصائص موقعه الجغرافي، وغير ذلك كثير أو حتى ممارسة طقوس بلدة أو جهة ما، كدأب جلالته خلال زيارته لتنزانيا على مراعاة مصاحبة الرئيس التنزاني في قرع الطبول، استجابة لطقوس استقبال البلد المضيف، وإيدانا من جلالته بقرع طبول العودة المضفرة إلى حضن القارة التي غاب عنها مؤسساتها، وإن كانت الروابط لم تنقطع، لأنه ظل حاضراً فيها اقتصادياً وأمنياً ومحتضناً للجاليات الإفريقية التي تنقاطر على المغرب في إطار اللجوء أو للتطبيب أو الدراسة أو للعبور نحو الضفة الأخرى وحاضناً، حيث اقتضت البداهة "العودة إلى البيت".

ففي الوقت الذي تعتبر فيه المملكة المغربية من بين البلدان الأفريقية الأكثر تقدماً، وتتطلع فيه معظم الدول الأعضاء إلى رجوعنا، اخترنا العودة للقاء أسرتنا. وفي واقع الأمر "لأننا لم نغادر أبدا هذه الأسرة، رغم السنوات التي غاب فيها عن مؤسسات الاتحاد الإفريقي، فإن الروابط لم تنقطع قط؛ بل إنها ظلت قوية".

كما أن الدول الأفريقية وجدت المغرب دوماً بجانبها، فاستطاع بذلك " تطوير علاقات ثنائية قوية وملموسة، فمنذ سنة 2000، أبرم المغرب مع البلدان الإفريقية، حوالي ألف اتفاقية همت مختلف مجالات التعاون، علماً أنه على سبيل المقارنة، ولفترة زمنية أكبر، تم التوقيع على 515 اتفاقية بين سنتي 1956 و1999، في حين أنه منذ سنة 2000 إلى اليوم، وصل العدد إلى 949 اتفاقية، أي حوالي الضعف"¹.

وفق نفس مقترح العلاقة التخاطبية يُمكن أن نقارب الخطابات الملكية من خلال الإستراتيجية التوجيهية التي تعتبر الأكثر حضوراً، والتي تترجمها العديد من الآليات التي تتراوح بين أساليب الإستحسان والإستهجان ومن ورائها الأمر والنهي الصريحين، والتحذير، والتقدير والتحبير، وباقي الأدوار التي تكفل للعاهل سلطة أبوية وسلطة سياسية واجتماعية ودينية موجهة من خلال العديد من الأدوات اللغوية للسلط التي دُونها شأننا وشأوا، والتي لا تجد في نفسها حرجاً مما قضى به جلالته ولا تجد بُداً من الامتثال والتنفيذ؛

- **أو بالمعيار اللغوي** الذي تترجمه المستويات الشكلية للغة الخطاب فنقف عندها، وفق الصنفين اللذان يميزان معيار دلالة الشكل اللغوي هذا، حيث يتضح القصد إما بشكل مباشر من خلال مباشرة قراءة ظاهر الخطاب وتتبع فقراته، أو يرد قصداً غير مباشر فتكون المعاني مستلزمة من شكل الخطاب، فيكون بذلك شكلاً يستلزم قصداً غير المعنى الذي يدل عليه ظاهر القول أو الكلام.

¹ الخطاب الذي وجهه جلالة الملك محمد السادس في "أديس أبابا" أمام المشاركين في القمة الـ 28 للاتحاد الإفريقي

ورغم ندرة الإيماء واستخدام جلالته لأشكال تستبطن الدلالة على معاني ثاوية وراءها، إلا أن سياق الخطاب يكفل كشفها وتحديدها. هذا الأمر يقتضي الحديث عن ضرب من ضروب الإستراتيجيات التلميحية التي تفتضيها صفة ومكانة العاهل في النسق السياسي والديني المغربي.

فلما أورد جلالته بلسان الإقتناع وعلم اليقين الذي يتقاسمه الجميع أنه "كما نعلم جميعاً، فلا الغاز ولا البترول بإمكانه تلبية الحاجيات الغذائية الأساسية. أليس الأمن الغذائي أكبر تحد تواجهه القارة الإفريقية؟"، فقد اقتضى الإنسجام مع تربيته ومكانة جلالته كملك بين الرؤساء وقادة الدول أن يعتصم بمحراب التأدب ومراعاة وضعه ضمن باقي القادة فيكون ديبلوماسياً *Diplomatiquement* correct

وعند استعمال جلالته لأسلوب الاستفهام، لم يقصد به أن يسأل أو يستخبر الحاضرين عن مجهول، وإنما حاول الخروج عن ذلك إلى مقصد آخر يتمثل في التماس تغليب المنطق، ودفع المرسل إليهم إلى مشاركته في تبني خطاب الواقعية في العلاقات الدولية *l'éthique que dicte le réalisme politique sans tics* التي تنبذ التمترس وراء الموقف على علاته، أو التكوثر العقلي أو التكلس الفكري والمذهبي، وفرض الأمر الواقع عليهم، وبالتالي تحقيق إنجاز ونصر حاجي من خلال إنجاز فعل لغوي غير مباشر، سنعرض له في إبانة بمناسبة حديثنا عن الفعل الكلامي والأفعال الإنجازية انطلاقاً من فلاسفة اللغة قديماً (بلاغيون وفقهاء وأصوليون ووصولاً إلى أوستين وتلميذه سيرل): فقد أوجس للحاضرين إيماءاً وتضميناً وتلميحا أن إفريقيا لا تحتاج للنفط أو الغاز الجزائري، بقدر ما تحتاج لحل أزمة الغذاء لثني ملايين المهاجرين عن رحلة الموت والخروج والعروج نحو الشمال للإرتهان بين يدي شبكات الهجرة والإتجار في البشر والنزوح الجماعي هروباً من الفقر والمجاعة.

وفي هذه الإستراتيجية الملكية استدعاء لنفس الإستراتيجية الحوارية التي تهكم من خلالها الملك الراحل الحسن الثاني من تهكم قادة الجزائر على سياسة السود التي كان قد انتهجها آنذاك، لما تبجحوا بالطفرة النفطية، على نحو جعله يقول لهم ما يمكن ترجمته بما يلي "حظاً سعيداً حتى اليوم الذي ستضطرون فيه لتناول شرائح لحم بصلصة النفط"، في إشارة بليغة من جلالته لا تحتاج إلى معاجم ولا إبي طلاس لفهم حاجة الإنسان في بعض المقامات إلى الطماطم أكثر من حاجته للنفط.

- أو نتجاوز الظاهر لنبحث عن الأسرار والسرائر فنوثر المعيار المقاصدي لنقف على الأهداف والمرامي والمضمرات كما وردت في الخطاب، فنجد أن هدف تمرير القنوات التي يحملها الملك وبالتالي حث عموم شعبه على الإقتناع بها، وحمل من أناط بهم مهام خدمة رعاياه في الداخل والخارج على بلورتها إجرائياً في القطاعات التي يسهرون تسييرها، وبذلك يخدم هذا الصنف من الخطابات ما يمكن أن نصنفه ضمن إستراتيجيات الإقناع. وقد ألفينا حضوراً لاستراتيجيات مختلفة في الخطاب الواحد، بنفس تمدد نفس الإستراتيجية في خطابات مختلفة وفي سياقات مختلفة، تؤكد ضرورة تجاوز التصنيفات القائمة للخطابات إلى سياسية ودينية وإقناعية وإبلاغية واحتفالية تقسيماً متجاوزاً، لأن ظاهر الخطاب الشكلي أو سياقه غير كاف لتصنيف الخطاب في دائرة معيّنة، في مقابل إمكانية اعتماد التصنيف الإستراتيجي تصنيفاً عاماً لأكثر من خطاب وفي أكثر من مناسبة، مع ما يحتمله هذا الإطار الإستراتيجي العام من تشظيات تصنيفية للخطاب إلى تصريح مباشر أو تلمحي غير مباشر أو خطاب إقناعي أو خطاب إمتاعي أو إبلاغي...

وباستحضار مجتمع الخطيب الذي يستهدفه صاحب الجلالة ويتفاعل معه تأثيراً أو تأثيراً عند ممارسته أي فعل خطابي موجه نحوه أو توجيهي لفعل باقي حلقات التدبير، نستطيع أن نُميِّز خصوصاً سطوة الخطابات ذات الإستراتيجية التوجيهية متنوعة بالخطابات ذات الاستراتيجية التوجيهية التي لا تروم أدواتها اللغوية المباشرة إلا فرض الغرض من الخطاب بأسلوب مباشر وواضح يجلوا المعنى دون كبير عناء.

وعليه، نستشف أنه من الصعب على المرء أن يستشف أدوار لغة الخطاب الملكي في خدمة الإنسياق وتثبيت دور هذه القناة التواصلية المولوية كأداة من أدوات فقه الطاعة السياسي وخلق الولاء وخلق البراء بنفس التلازم الذي يميز علاقة كل استراتيجية من الاستراتيجيات التي يوظفها الخطاب الملكي أو سلسلة الخطابات المخددة لنفس المناسبة (عيد عرش أو مسيرة خضراء أو افتتاح دورة برلمانية أو رسالة إلى المشاركين في قمة أو مؤتمر) مع سلسلة المقاصد التي يعتزم بلوغها صاحب الجلالة من خطابه أو ينتظرها جمهور التلقي، ويقتضيها عموماً السياق.

❖ ثالثاً- أهمية استراتيجيات الخطاب

للسياقات دور مهم في صياغة كل خطاب ملكي وفي اختيار لغته وبنائه وتحديد شروط انبثاقه وترتيب أولوياته، لأن مجتمع تلقي خطاب صاحب الجلالة مجتمع متنوع ويتحرك في سياقات خاصة بميولات ودرجات ومصالح متباينة ودرجات استيعاب واستقطاب متنوعة، تتطلب كل منها خطاباً خاصاً، ومعجماً خاصاً ومضامين بعينها لتتضمن أهدافاً مختلفة (وغالباً متعارضة: فعندما يوجه جلالاته تعليماته لتقديم الدعم للباطرونا وبالتالي للإستثمار، فإن الشغيلة يمكن أن تقر أن توصيات جلالاته قد تُفهم على أنها ستكون على حسابهم) ونفس الشيء بالنسبة لباقي الخطابات التي تستدعي إضاءات حولها وحول دورها في تقريب وجهات النظر، وتقديم المقاربات وتوضيح الحقائق وتوجيه عامة الشعب وخاصة مسؤوليه صوب الوجهة التي يرتضيها جلالاته.

لذلك، فالحاجة قائمة لسبر أغوار الإستراتيجيات والوقوف على كفاءات تطويعها خدمة لمرامي فقه الطاعة السياسي، أو لغايات تفقيه عموم الناس وباقي الذوات التي يخاطبها الخطاب الملكي أو حتى تلك التي يخطب ودها وفق متطلبات سياق الإنسياق، مع تعقب مستويات تكيف الخطاب مع تقلبات السياق.

ونحن أولى المجتمعات بذلك في حياتنا الثقافية، لما للخطاب من دور في تقريب وجهات النظر، وإيضاح الحقائق وتوجيه عامة الشعب وخاصة مسؤوليه صوب الوجهة التي يرتضيها جلالاته.

ما يؤكد علو كعب الخطاب الملكي وقدراته التي تترجم مهارة إرساله وتركيز مضمونه واسترساله والكفاءة التداولية لرجل الدولة الأول، هو أننا لا نكاد نجد استعمال استراتيجية واحدة في الخطاب الواحد لتجاوز الجمود الخطابي وتفاذي احتمالات عدم الإنصات للخطابات التي تليه أو ورود احتمال عدم التفاعل مع معانيه، فنجد تفضيلاً لإستراتيجية ما في سياق وتفاضلاً بينها في الخطاب الواحد لتحقيق التناسب بين الخطاب وبين سياقه وضمان التتبع الجماهيري وانسياقه، من خلال تغليب آلية لغوية على أخرى خدمة لمرامي تغليب استراتيجية على استراتيجيات ثانوية وراءها.

وعليه، يبقى المنهج التداولي الذي تسلمنا أول مفاتيحه المفاهيمية من يد أستاذنا المشرف مستوى التصنيف الإجرائي الأقرب لدراسة المستوى المقاصدي للعاهل ومستويات الإبلاغ ببلاغة تتجاوز مستوى دلالة المقولات الحرفية، وكيفية توظيف جلالاته للمستويات اللغوية المختلفة في سياقات

معينة تحقق الإتساق الداخلي للخطاب والإتساق بين الخطاب (بشكله ومكوناته المضامينية وبمكوناته الموضوعية ووقائعه الخارجية وزمن الإفضاء به والنتائج التي أفضى إليها بحكم موقع الخطيب ومكانته في نظر باقي أطراف الخطاب) والسياق والعلاقة الدائمة والعري القائمة بين الإنجاز اللغوي وعناصر السياق الذي وردت فيه، فيجعل كل أطراف الحقل السياسي ترد من معينه، وتبنيها غير مشروط لمقاصد جلالته ورؤيته، واهتماماته وسلم أولوياته، لجدواها وتسهم هذه العناصر في تحديد الدلالة عند المرسل إليه، إذ يعتمد عليها في تأويل الخطاب وفهم مقاصده.

وبهذا، يمكن الخلوص إلى أن المنهج التداولي يعين على دراسة ما يعنيه الخطاب في سياق معين، كما يعين على معرفة أثر السياق في لغة الخطاب عند إنتاجه، بين تنوعها زمانياً بين خطاب توجيهي وخطاب مواجهة، وبين خطاب وحديث خص به منبرا من المنابر الأجنبية، بين خطاب ورسالة، وغيرها من التنويعات الخطابية التي تشكل دليلا على كلية الاستراتيجيات الخطابية للملك، كما ترد في صور مبنوثة وسياقات مختلفة خدمة لأهداف تخاطبية تعبر عنها هذه شذرات العبارات وما توحى به الإشارات لتختلف مؤشرات تلقيها والتقاطها باختلاف جمهور التلقي.

بمزج واع بين **المقترَب التداولي** في معالجة الخطاب والحوار الملكي والحجاج الموظف في خطابه الإبلَغي أو الإقناعي، يمكن أن نقارب الخطابات عينة الدراسة مقارنة استراتيجية في ضوء المنهج التداولي، على اختلاف محاوره، باستثمار ما يتصل بالمنهج المذكور وتوظيفاته، دون أن نحصر الأطروحة كلها ضمن إطار جزئي بعينه أو نجعلها تنكفي على نفسها وفق رؤية واحدة.

ولما كانت أشكال الاتصال الملكي لا تخرج عن الإطار **الشخصي الثنائي** (رسائل التهنية والتعزية والمواساة، التصريحات لمشاركة عقب الزيارات الرسمية والأحاديث التي يخص بها بعض المنابر) أو **الجماهيري** (الخطب الملكية والبلاغات الصادرة عن القصر) أو **الوسيطي** (الرسائل المولوية، التوجيهات السامية)، فضلا عن الإشارات التي تحملها "برامج الرحلات الملكية داخل البلاد وخارجها، وما يترتب عنها من إبرام اتفاقيات ومعاهدات وتوطيد التواصل والتعاون بين المغرب وباقي الدول"¹، فإنها تنطلق في مجالاتها من خلال الرموز اللفظية وغير اللفظية وترتدي مقومات وعناصر اللغة المؤثرة حسب الهدف المقصود، لتجعل جمهور التلقي أمام أمرين: إما أن يعجز عن فهم تلك الرموز فتفشل الغاية منها، وإما إن يقوم بالتأمل والاسترسال في فهم المهارات التواصلية وتناسب الشكل مع المضمون ليتطابق فهمه مع ما أراده صاحب الجلالة ولمن أراده صاحب الجلالة أن يكون محور النشاط التواصلية: الشعب المغربي.

يدفعني هذا المعطى إلى الحديث بشكل مسهب عن لغة الخطاب الملكي التي دخلت باعتراف صاحب الجلالة عرش أسلافه مرحلة جديدة في الصياغة والمعنى ذلك، في ظل ظهور وسائل التردد الجديدة (والرد أيضا) التي أصبحت تتيحها وسائل تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات وتعدد المنابر التي جعلت التواصل بين الملك وشعبه أكثر ثنائية من الاتصال الإحادي الإفرادي الذي ميز عهد والده المغفور له الحسن الثاني.

مع نهاية العقد الأخير من الألفية الثانية، أصبحت وسائل الاتصال تتيح نقلا حرا للمعاني وتشكل أدوات ضغط على الحكومات وأجهزتها، مثلما تضغط على قطاعات المجتمع الأخرى بفاعلية وتأثير، واتسعت دائرة مستعمليها في صفوف الجماهير، فأصبحت وسائل التواصل متنقلة وقادرة على نقل التفاعل في إبانة وحمل المنتبعين على ضرب موعد محدد للتحرك والانتقال الفيزيائي الفعلي

¹ تصدير عبد الحق المريني، مؤرخ المملكة، للقسم الأول من الجزء 56 من سلسلة حوليات "انبعاث أمة"، الصادر عن المطبعة الملكية بتاريخ 13 يوليوز 2011.

لإرباك المصالح القائمة على استتباب الأمن وفتح باب الاحتجاج ليلتحق ويتحلق حول نواته الصلبة الآلاف والملايين.

بذلك تتشكل كتل بشرية ضاغطة على الحكومات وحتى على قادة الدول، دون أن يستطيع الإعلام الرسمي نقل المعاني والمضامين الاتصالية بتصرف أو بحد أدنى من التشويش وتوظيف خبراته المعزولة في النقل والبت والتعليق لوجود خبرات غير رسمية "مشتركة"، ومستويات حرية اختيار أكبر أمام المنتبِع، والاستعاضة عن بلاغة اللغة ببلاغة التعبير غير اللفظي عن المعاني اللفظية من خلال الصورة والحركة والإيقاع واختصار المفردات لكي تلائم السرعة في هذا المجال.

وعليه، فقد تم فرض آليات الشكل على المعنى وافترض ظهور سلط جديدة وواقع اتصالي جديد يفرض سيطرة اتصالية خارجية بمستويات استخدام لغة ومهارات اتصالية جد متطورة، ويستدعي ذلك الدراسة النظرية للغة وإشكالياتها والمهارات التي تستخدمها بأساليب محددة للخطاب في مجال الاتصال الجماهيري والمحاور المتصلة به

باستعمال المنهج الوصفي القائم على المسح والتحليل للوقوف على أنظمة الرموز المرئية أو المسموعة اللفظية وغير اللفظية التي تستخدم في ترميز الرسائل الاتصالية والمهارات التواصلية التي تترجم نتاجا ماديا للغة ولمنطقها الذي يستوقف جمهور التلقي بمختلف فئاته لحمله على التجاوب معها بالقبول أو الإقبال فور توصل الجماهير والنخب بدلالات الفهم والفاعلية والانسجام.

بين لغة الخطاب المولوي والاتصال الجماهيري علاقة قائمة، ورسائل يتم إنجازها عبر عدة قنوات بعناصر دالة متباينة الماهية بوجود اللغة ومعانيها، ووسائل تكرر الخطاب ومضامينه ومناويله القرائية حتى يستقر في ذهن جمهور التلقي ويبلغ بسلاسة إلى المقصد الحقيقي للنص الخطابي الملكي بفضل تعدد القراءات المضامينية.

وتكمن وظيفة اللغة وفق ما عرضنا له في شق الإتساق في مراقبة الرسالة الاتصالية والحفاظ على تقديمها بأفضل صورة من خلال عملية خطابية تحتوي مفردات وجملا لتجعل الخطاب الملكي "وحدات لغوية تتسلسل في جمل مترابطة ومتجانسة"¹، فيحمل الخطاب الملكي ألفاظا مختارة، لجمهور التلقي دور في انتقائها لتحقيق التفاعل والحوار معه للتأثير فيه، لأنه يستحيل على جمهور التلقي يلجأ إلى الجهاز اللغوي ومفرداته من أجل بناء صورة وفق التصور الذي قدمه صاحب الجلالة، فنجد في محصلة الامر أن الخطاب مساحة اللغة فيها تجسيدها في الاتصال الشخصي والاتصال الجماهيري بنظم ومعاني متعددة تفهمها كل فئات جمهور التلقي.

بمنطق الوظائف والاهداف، تشتمل لغة الخطاب الملكي رموزا ذات معاني ترتبط مع بعضها البعض لتؤلف دلالات لفظية، وتشترك في خصائص تجعل من الخطاب الملكي يسود لما له من سداد.

فلغة الخطاب الملكي وسيلة تواصل وسيطرة تزرخ بالمفردات التي تحكم ترتيبها قواعد لإيصال المعنى وتستعرض المعارف والمقاربات الملكية للعديد من القضايا، بإبداعية خاصة بكل نص خطابي مولوي على حدة والخصوصية التي تتشكل في صورة سياق مستقل بحيث يتلقاه كل متلقي ويفهم معانيه دون لبس أو غموض، فيجري التفسير والتفاعل مع الرسالة الاتصالية الملكية دون احتكام إلى مخزون معرفي، على نحو يجعلنا نقول مع خالد سليكي أن "لغة الخطاب وسيلة لها استقلاليتها في كل نص، تبتدأ بنقطة وتنتهي بأخرى"².

¹-محمد خلاف، الخطاب الإقناعي: الإشهار نموذجاً. مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، عدد 9، 1987، ص. 79

²- خالد سليكي، من النقد المعباري إلى التحليل اللساني، مجلة عالم الفكر، القاهرة، عدد 23، ص. 398

فالحركة الإتصالية لكل خطاب ملكي يتغير إيقاعها ووقعها بين خطاب وآخر وفق متغير شكله أو صورته الصياغية، وما وراء المتن الخطابي من مضامين، فتدرك غايات كل خطاب وفق مناسبتة أولا، ووفق الرؤى والخلفيات الفكرية التي يحاول بثها، والأسلوب التي يقدمها به، وتوظيف العبارات بالشكل الذي يضمن التركيبية الأساسية للفئات التي يستهدفه.

وتستطيع الأشكال اللغوية اللفظية وغير اللفظية للخطاب الملكي أن تجعل منه أداة تواصل جماهيري لتأثير على جمهور متنوع عند كل محطة وطنية أو حدث، فتوافق حاجة الملك إلى الإبلاغ والإفهام مع حاجة مجتمع التلقي إلى بلوغ الفهم، من خلال تنظيم هؤلاء البنائي ليزيدوا من فهمهم، اعتمادا على المدخل اللغوي كواحدة من مستلزمات الفهم.

فاللغة هي وسيلة الاتصال التي بدونها لا تتحقق عملية الاتصال الجماهيري، اعتمادا على نسق العبارات والإشارات والرموز التي تهدف إلى نقل المعنى بدلالات متنوعة، رغم أن وسائل الإعلام الوطنية والجهات التي تعبر عن ارتساماتها عقب الخطاب الملكي لا تركز على الاتصال اللغوي والمعلومات المقدمة والطريقة التي تستخدم الكلمات ومعانيها في سياق النص، رغم أن لغة الخطاب التي تتأى عن تناولها الإرتسامات والتعاليق والتحليل هي إحدى أدوات توصيل الأفكار الملكية و التعبير عن مضامينها بين أبناء مجتمعنا أو مع باقي المجتمعات الأخرى، ومن ثمة وجب إعادة وسائل الاتصال إعادة التفكير في صياغة جديدة للالتزامات ووسائل الاتصال حيال اللغة.

كما أن الاتصال المولوي يتم باللغة التي تكفل وجودا للخطاب بقوة وجود الفعل وحظوة الفاعل لإتمام المعنى وإيصاله إلى عموم الجماهير، وفق السيرورة الدائرية المفترضة، فإن سريان لغة الخطاب الخطابي الملكي في عملية الاتصال الجماهيري يتم خلال دور جلالته كمرسل يتولى تحويل المعاني إلى شكل لغوي وفق مفردات يفهمها الجمهور عامته، وخاصته، مع الحرص على التوفيق بين التجاذبات الكائنة أو المحتملة لتفادي الميل نحو جهة أو تغليبها، وخلق قوة خطابه التأثيرية التي لا تُؤثر إلا بقدر الرغبة في التأثير والتعبير عن أداء وكفاءة تداولية تنسجم مع السياسة التواصلية للمؤسسة الملكية وتفاعلها مع المحيطين الداخلي والخارجي وفق ما تتوفر عليه المؤسسة من مؤشرات الرضا والسخط الجماهيري عن تدبير قطاع أو ملف معين وبارومترات قياسها ومواضيع الإهتمام الرئيسة والفرعية وسلميتها لترتيبها وفق نفس السلمية في متن نفس الخطاب أو في خطابات متتابعة بموجب تعاكل هادئ يحض على الفعل أكثر من الإنفعال وبلغة خطاب اتصالي إيصال للمعنى، يتفادى استخدام المفردات التي لها غايات أخرى لدى الخطابات الغيرية وبلغة ترتقي فوقها لتكفل بناء تأثير لاحق وتجلب كل تعبير سابق ("فالمغاربة تلاقح حضاري أصيل، بين جميع مكونات الهوية المغربية. وهم عندنا سواسية. لا فرق بين الجبلي والريفي، والصحراوي والسوسي ...")¹.

حديثي عن لغة الخطاب الاتصالي المولوي يحيلني أيضا على المحور الثاني الذي يشكل شكل المتن الخطابي أو الرسالة ضلعه الثاني في السيرورة الدائرية للتواصل، والتي يتشكل بناؤها من لغة لفظية وأخرى غير لفظية لاتمام المعنى المراد إيصاله إلى عموم الشعب.

وللخطاب الملكي كمتن رسالي من الخصائص ما يجعله يستجيب لشروط التأثير والمحورية والمركزية ضمن باقي الخطابات، مع قدرة على ضمان المشاركة الفاعلة والارتقاء بالتدبير، فضلا عن وفرة مساحات تدبر مستويات تنويع مفرداته (الرأسمال اللامادي/ نخب متجاوبة مع عصرها، لا

¹ - من الخطاب الموجه إلى الأمة بمناسبة الذكرى 39 للمسيرة الخضراء

تختزل نفسها في اليمين أو اليسار/ انبثاق مشهد سياسي قائم على أقطاب قوية، متميزة في رؤاها الواضحة / وتحصين الانتقال الديمقراطي/ مفهومنا للديبلوماسية الفاعلة الرسمية منها والموازية في إطار ديبلوماسية متجددة الهياكل/ أن يكون العمل السياسي بعيدا عن إقحام الدين فيه، لقدسية مبادئه المنزهة عن نوازع التفرقة بسد الطريق أمام توظيفه السياسي المغرض/ تخليق وحماية للمال العام ، من كل أشكال الهدر والتبذير ، ومحاربة لكل الممارسات الريعية ، والامتيازات (اللامشروعة)¹ وعدم تكرارها بشكل ممل، والابتعاد عن التعقيد والتموقع بذكاء ضمن الخريطة النفسية للجماهير، مع مراعاة التبسيط عموما في استخدام العبارات والاستعارات اللفظية والتعبيرات المجازية في بعض الحالات التي يستدعي الموقف ذلك.

ورغم أن الرسالة لا تكتسي أهمية بمعزل عن الوسيلة والقناة والوسائل الاتصالية التي تمرر من خلالها، إلا أن أدوات التوصيل لم تفرض بعد قدراتها على أدوات التواصل المولوي (خطاباته) في بناء المضامين أو في اختيار النفاذ للجمهور، لأن الطابع الجماهيري لجمهور التلقي يقتضي ركوب وسيلة اتصال جماهيرية، في حين أن الطابع الثنائي للخطابات التي تلقى بمناسبة استقبال أو رسائل تعزيزية أو تهنئة تبقى حبيسة التوثيق الديواني الذي تجمع حويلات "انبعاث أمة".

بخصوص جمهور التلقي كمستقبل، يرتبط نجاح عملية الاتصال المولوي بمعرفة سابقة بنوعية الجمهور واللغة التي يجب التعامل بها معه ومع مختلف فئاته ومشاربهم اللغوية والجهوية والعرقية والهوياتية في إطار الهوية الوطنية الجامعة. ويعد جمهور التلقي المحدد الأساسي لمورفولوجية الإستراتيجية الخطابية والوسيلة الاتصالية، التي تتنوع بتنوع التركيبة الاجتماعية والفكرية والجغرافية للجمهور المذكور، وتوسع قاعدته، وتغيره المستمر وخضوعه لظروف إنسانية وبيئية مختلفة.

لذا فإن لغة الخطاب حتى تستقيم علاقتها في هذا النسق، تستوجب لزوما:

- تحديد الجمهور والوقوف عند خصائص المفردات ومعانيها المألوفة لديه؛
- خلق حالة من التواصل معه (رجع الصدى)؛
- مراعاة الخصائص الشخصية التي يحملها (العمر، المستوى الفكري، الوضع الاجتماعي، الانتماء الديني والفكري) وكذلك الخصائص السيكولوجية (الذكاء، السلوك، الثقة بالنفس، العوامل المؤثرة في حياة جمهور التلقي... وغيرها)؛
- عدم التناقض مع رأيه، ترك فرصة الاختيار الانتقائي مفتوحة أمامه للوصول الى التأثيرات المطلوبة؛
- تمرير الثوابت عبر الكلمات والمترادفات ووضع تصور لكيفية اختزالها فكريا؛
- معرفة المتغيرات وأبعاد المفردات التي انتهى تداولها والسعي إلى عصرنه لغة الخطاب الملكي وتجديدها باستمرار؛
- حساب الاحتمالات للحد من الوقوع في خطأ استخدام المفردات التي لها غايات أخرى لدى الوسائل المنافسة وحاملي الخطابات الكيدية أو العدائية للمؤسسة أم للمملكة، مع ما يستلزم ذلك من م أن تستعين وسائل الاتصال بلغة ترتقي فوق مستوى لغة الحياة العادية، دون اللغة المستخدمة في الآداب والعلوم، وذلك لاحتواء المستويات المتباينة في المجتمع.

¹ - نموذج للتكثيف المفاهيمي في خطابين فقط من خطبه المخدلة للذكرى الخامسة والعاشر لعيد العرش

كما يتعين على وسائل الاتصال والمتخصصين في المجال:

- البحث عن تجديد الخطابات المولوية ومعانيها وصقل المعلومات بلاغيا لمواكبة التجديد الفكري داخل الخطاب للعبير عن التأثير وخلق التأثير والفاعلية عناصر تجعل الخطاب أقدر على الاستهواء، إبراز السمات الخاصة والشمولية للغة بحيث تخاطب الجميع بذات المعنى والوضوح؛

- الربط المنطقي لاستخدامات اللغة بالنسبة إلى ظروف الزمان والمكان وتتابع المعلومات بدقة وسرعة وترابط منطقي لان المهارة هي الوظيفة او الإنجاز الذي يؤديه متغير اجتماعي وسط تفاعلات إنسانية.

المطلب الثاني/ مهارات الاتصال الجماهيري من خلال لغة الخطاب

يشكل البحث عن تجديد المفردات ومعانيها المولوي وصقل المعلومات بلاغيا لمواكبة التجديد الفكري داخل الخطاب للعبير عن التأثير وخلق التأثير والفاعلية عناصر تجعل الخطاب أقدر على الاستهواء، ومخاطبة الجميع بذات المعنى والوضوح وع السعي إلى ترسيخ هوية خطابية ملكية تميزه عن باقي الهويات أو حتى الهويات الخطابية، مع اعتبار الخطاب الملكي مساحة للمكاشفة وكشف الأرصدة التدبيرية للعاهل للعديد من القضايا وباحة للتنقيف والتفعيل والمشاركة السياسية والاجتماعية والإقتصادية.

ومن خلال الربط المنطقي لاستخدامات الخطاب بظروف الزمان والمكان، وتتابع المعلومات بدقة وسرعة وترابط منطقي، يحوز الخطاب الملكي مقومات مهارة الوظيفة أو الإنجاز الذي يؤديه وفق كل متغير اجتماعي وفي زخم التفاعلات التي تعرفها المملكة ومحيطها الإقليمي والدولي.

وباستخدام أدوات محددة في تحقيق أغراضه، يحقق الخطاب مهارة الاتصال الجماهيري من خلال أساليب لغة الخطاب الملكي والمهارات الاتصالية للغة الخطاب المولوي.

❖ أولاً: أساليب لغة الخطاب الملكي

إذا كان الأسلوب هو الاختيار الجيد للغة أو كما يحلوا للبعض الآخر تصوير العلاقة بالقول ان اللغة هي ثوب الفكرة والأسلوب فصالحها الخاص، فإنه يتعين دراسة أسلوبية للغة الخطاب الملكي ضمن نظام الخطاب من خلال التعرف على ماهية النص وكيفية بنائه، حتى ندير لغة خطابه في مجال الفنون الاتصالية المختلفة.

هذه الإدارة تقتضي تحليل الأوضاع المختلفة للتخاطب وسياقاتها النفسية والبشرية، وتعقب آثار الحالات النفسية في التعبير اللغوي.

إلا أن أساليب لغة الخطاب الملكي لا تبدوا ظاهرة للعيان في مجال الاتصال الجماهيري، وإنما تتسلسل في النص والبنى الداخلية فيه. وتتحدد أساليب لغة الخطاب الملكي وفق شروط:

- **الموضوعية:** من خلال إظهار الاهتمام من خلال الجدية في الطرح والدقة في التعبير والوضوح في المعنى المقدم، وتقديم المعلومات على أساس التحقيق والتدقيق (كما أمرناه أيضا، بأن يرفع إلى جلالتنا اقتراحات بشأن تكوين لجنة من ذوي الاختصاص، لاعداد دليل عملي، يتضمن مختلف الأحكام والنصوص... فقد أسندنا إلى المجلس العلمي الأعلى اقتراح الفتوى على جلالتنا، بصفتنا أمير المؤمنين ورئيسا لهذا المجلس، فيما يتعلق بالنوازل الدينية، سدا للذرائع، وقطعا لدابر الفتنة والبلبل)؛

- **الإيجاز:** من خلال اعتماد المفردات والجمل المختصرة والتي تقدم معاني واسعة والمعرفة بدلالات الألفاظ واستخدامها بشفافية وإبعاد المعقد منها، لأن وقت جلالته وكذا سعة صدر جمهور التلقي لا يتناسبان مع الحشد والتطويل؛

- **المطابقة:** سواء مع انتظارات وتطلعات الجماهير أو فكر النخب منها أو مصالح فئاتها وطبقاتها، من خلال مراعاة الخلفية الفكرية والأوضاع الإنسانية لكل فئة من عموم الشعب واختيار العبارات التي لها دلالات مشابهة للتي يتداولونها أو يفهمونها، لان صعوبة الفهم والتفسير تفقد الى النفور عن الوسيلة والبحث عن خطابات أخرى؛

- **التجديد:** عبر استخدام مفردات ورموز متجددة تتناغم مع ما تعرفه وسائط التواصل من تطور يقتضي محاكاته في تطوير وسائل النقل وحشد الصور التي تبين الوجه الحداثي للمؤسسة دون المساس بأصالة لغة المؤسسة وبلاغتها ودأبها على الارتقاء بشكل ومضمون مجتمع تلقي الخطاب الذي أنيطت بها إمامته العظمى؛

- **الفاعلية:** التي تترجمها القدرة على إيصال المعنى بأبعاد ودلالات لها وقع على المتلقي ابتداء من إثارة انتباهه ووصولاً إلى استنهاض هممه مروراً باستثارة اهتمامه، اعتماداً على وسائل عرض واستعراض مبتكرة، وعناصر تصوير لفظي وأخرى غير لفظية تترجمها الأغاني الوطنية التي تعقب الخطاب أو البرامج التسجيلية التي تحفل بالصور والإيقاعات والمؤثرات الصوتية...؛

- **التنوع والالتزام:** الذي تدعمه الحركة اللحظية لوسائل الاتصال وما تتطلبه من ارتقاء بمستوى الإبهار والتسويق والارتقاء بمستوى التفاعل لدى عموم جمهور التلقي، على أساس الابتعاد عن العبارات الجاهزة أو التجريد الغامض، والألفاظ المبهمة أو الكلمات المبتذلة والحادة، التي تسيء إلى الجمهور وتجعله ينفر عن الخطاب كوسيلة الاتصالية ويعرض عنها أو يعرض بها؛

- **التدرج والمناسبة:** بتوسل استثارة الرغبات (العقلية، العاطفية، الحركية أو السكونية أحيانا لإيقاف الحراك) وخلق روح التأمل لدى الجمهور، مع توخي عدم الاصطدام المباشر بالجمهور او صدمه، ومحاولة إخفاء المقاصد وراء السطور والإستعاضة عنها بالتلميح.

❖ ثانيا: المهارات الاتصالية للغة الخطاب المولوي

يعتمد الخطاب الملكي كوسيلة من أهم وسائل الاتصال الجماهيري على مهارات متنوعة في تبني لغة الخطاب، وإيصال المعاني على نحو يجعل مهاراتها تتداخل مع أساليب لغة الخطاب، إلا أن الفرق بينهما يكمن في مهارة التعامل مع روح اللغة وبناءها الداخلي في الوقت الذي يتعامل الأسلوب مع طريقة عرض المعلومات من خلال استخدامات اللغة ودلالاتها . في الشق المتعلق بالمهارة الاتصالية، نجد أن لصناع لغة الخطاب الملكي قدرة على مطاوعة التشكيل والتمثيل بأوجه متعددة لشمولية اللغة العربية التي تصاغ بها والأطر الدلالية التي تحملها والمعاني المتعددة لكل مفردة على نحو يجعلها:

- وسيلة اقتصادية للتعبير عن معاني متعددة بكلمات أقل؛
- ذات معاني تلائمها مفردات تترجم مختلف المضامين الاتصالية لكل خطاب من الخطابات المولوية؛
- قادرة على التعبير عن مقاصد جلالته دون إظهارها من خلال البعد البلاغي والصياغي للغة؛
- قابلية كل مفردة لتقديم أكثر من معنى بمجرد تغيير الحركات فيها؛
- لغة عربية أصيلة تحوز قدرة على المعاصرة لامتلاكها القدرة على التحديث وإدخال معاني ورموز جديدة لاحتواء كافة الظروف والمتغيرات.

مهارة لغة الخطاب الملكي كوسيلة للاتصال الجماهيري مع الشعب تترجمها أيضا:

- المهارة الجمالية أو الإيحائية: إذ تستطيع لغة الخطاب الملكي إثارة الجانب النفسي لدى جمهور التلقي من خلال وسائل الاتصال، ن خلال تنمية التشويق والدعوة إلى التأمل المفتوح واستثارة الرغبات ومغازلة العواطف (الخطابات ذات المضامين الهوياتية) والمطامح (خطاب الإعلان عن اكتشاف البترول بنالسينت مثلا)، وتقبل إسقاطات كل فرد على حدة وفقا لرغباته، من خلال محاوره اللاوعي وسياقات تختلف في طبيعتها من فرد لآخر. ويستعين الخطاب الملكي هاهنا بأدوار اللغة لتغيير البنية الإدراكية لجمهور التلقي وزيادة قناعاته من خلال تنظيم المفردات وتقديمها بشفافية مستعينا بأمور أهمها تتعلق بتفاعل اللغة العربي مع التكنولوجيا وتدبير المشاريع المهيكلية الكبرى، ومعجم الخبراء (في التنمية البشرية مثلا وفي قياس مؤشرات الفقر ومصادر الثروة والرأس المال اللامادي وغيرها من المفاهيم التي أسست لها الخطابات الملكية في فهم المغاربة فانصرفوا لفك طلاسمها)، وباقي أساليب اللغة وحرفة البعد البلاغي التي لا تنحرف إلى البلاغة بفهمها السفسطي؛

- المهارة التوجيهية، إذ نجحت معظم توظيفات اللغة في نسيج لغوي مكثف ووافر وغير متنافر، من خلال تجانس الألفاظ ووحدتها في النص الواحد أو بالمقارنة مع النصوص الخطابية التي سبقتها، لتدفع لغة الخطاب نقاط التأثير لدى الجمهور فتناغم مع ما يريده صاحب الجلالة الأمر بالصياغة والصناعة le Commandeur des Croyants et le commanditaire des discours.

وتحتاج في ذلك إلى التجديد والثقة وتقديم أنموذج التعاطي الملتمزم الذي ينتظر التصرفات السلوكية المطلوبة في المجتمع ومن المجتمع والمؤسسات (مثلا المؤسسة التشريعية في خطاب جلالته الموجه إلى البرلمانين "كما ندعوكم لتحمل مسؤولياتكم كاملة، في القيام بمهامكم التشريعية، لأن ما يهمنا، ليس فقط عدد القوانين، التي تتم المصادقة عليها، بل الأهم من ذلك هو الجودة التشريعية لهذه القوانين")¹.

فضلا عن الانسجام بين حركة الكلمة وإيقاع المؤثرات المرافقة لها وكذا مراعاة التوقيت الزمني المناسب وتوخي تكتيك عرض المضمون لحث المخاطبين بمختلف مستوياتهم على تبني قناعات واختيارات لأنها قناعات ورؤى العاهل الذي لا ينطق بالأهواء أو بمنطق تحقيق مأرب سياسيوي بقدر ما يُوطَّنه وضعه الإعتباري كمُمثل أسمى للأمة ومَلِك الجميع الذي يسمو فوق الإنتماء ("إنني أفضل بالأحرى أن أقول إنني ملك جميع المغاربة... الفقراء منهم والأغنياء"² وعندما حذر جميع الفاعلين مرشحين وأحزابا من استعمال شخص الملك "في أي صراعات انتخابية أو حزبية وبصفتي الساهر على احترام الدستور وحسن سير المؤسسات وعلى صيانة الاختيار الديمقراطي، فإنني لا أشرك في أي انتخاب، ولا أنتمي لأي حزب. فأنا ملك لجميع المغاربة مرشحين، وناخبين، وكذلك الذين لا يصوتون. كما أنني ملك لكل الهيئات السياسية دون تمييز أو استثناء. وكما قلت في خطاب سابق، فالحزب الوحيد الذي أعتز بالانتماء إليه هو المغرب"³؛

- **مهارة التشكيل والمطاوعة** باعتبارها إحدى القدرات التجسدية ضمن جهد لغة الخطاب الملكي في مجال الاتصال الجماهيري، والتي يعتمد فيها على تمثيل الأشياء بأبعادها ومضامينها دون إفراط أو تفريط، حتى في غياب الصور أو المؤثرات المختلفة، يدعمه في تلك المهارة الأداء الاتصالي الجيد والمستوى الإحترافي والتقني والفكري لصاغة الخطاب، واتحاد صياغة اللغة للمعنى مع انتهاز أسلوب تكتيكي لمراعاة جميع درجات ثقافة ووعي الجمهور، فضلا عن قدرة التعامل مع التكنولوجيا الاتصالية، بعد التعرف على حاجة المجتمع والبيئة المحيطة بكل فئاته، لإشراكهم بموجب الاتصال معهم حتى نكاد نجد في بعض الخطابات محاكاة للواقع من خلال سرعة الحركة والإيقاعات المصاحبة لها؛

- **المهارة الدلالية**، حيث تستطيع لغة الخطاب الملكي إيصال الحقائق والمعارف إلى الجمهور بصورة مباشرة أو غير مباشرة. ويوفر التشبيه والصور المستعارة والمدلولات المساندة والاختصارات سهولة ذلك التقديم، حتى أن الدلالة تتجاوز بتعبيرات المجاز حدود الصور المحسوسة إلى حدود المعاني المجزئة، فتعطي للتفكير والتأمل الفرصة لإدراك المعنى المقصود.

هذه المهارة استلزمت صحة استعمال الكلمات التي تربط المعنى ببعضه البعض، وضبط الإيقاع خدمة للوقع، مع الموازنة بين الشكل والمضمون، وفتح الباب أمام الخطاب من أجل مزيد من القابلية والقدرة على التنبؤ من خلال تراكيب لغوية وعناصر تحقق وحدة النص المقدم رغم اختلاف الجمهور وفئاته المستهدفة وخصائصها، مع الابتعاد عن الضغط عليه بما يقلل من استيعابه للمضامين المقدمة إليه.

¹ من نص الخطاب الذي ألقاه جلالته بمناسبة افتتاح الدورة الأولى من السنة التشريعية الثالثة من الولاية التشريعية التاسعة

² من أجوبة صاحب الجلالة على الأسئلة التي طرحتها الصحفية بأسبوعية "باري ماتش" الفرنسية في إطار سؤالها لجلالته حول تسميته بملك الفقراء

³ من خطاب جلالته بمناسبة الذكرى 17 لعبد العرش المجيد

❖ ثالثاً: إكراهات لغة الخطاب لتحقيق الاتصال الجماهيري

إذا كان ما سبق تقف مع لغة الخطاب وتعبّد طريقها، فهناك عوامل تقف في طريق لغة الخطاب وتحد من عملها في بناء حلقات إيصال المعرفة إلى الجمهور، ليتباين فهم معاني الرسالة الاتصالية، رغم أنها وردت بلغة يعرفها الجميع.

كما أن لوسائل الاتصال أداؤها الواسع والمتشعب، مما يؤدي إلى تناقض في مستويات قراءة المتن الخطابي الملكي الواحد، لتبرز بذلك عوائق أمام لغة الخطاب في أداء دورها داخل العملية الاتصالية بمجملها، لعل أبرزها:

- ابتعاد اللغة أحياناً عن نسق وحاجات وفهم جمهور التلقي في كل مرة من المرات التي يتم فيها تعقيد الخطاب للتقعيد لتوجه ماكرو- تنموي ينأى تقنياً عن منسوب الفهم والمحددات الثقافية والمجالات السوسيو-اقتصادية التي ينتمي إليها الفرد وعدم ربطها بسياق التخاطب الاتصالي؛

- الانتقائية: التي تفرضها إلزامية التوجه إلى جمهور محدد أو التوجه بموضوع محدد إلى فئات مختلفة من الجماهير، وترك الآخر ورأيه دون الوصول إليه أو التغاضي عنه؛

- المغالطة: التي يحاول بعض المناوئين للمؤسسات استنباطها من بعض الخطابات (مثل الخطاب المعلن لاكتشاف البترول بتالسينت) أو أولئك الذين يعتبرون أن بعض الخطابات فيها إظهار جزء من الحقيقة وإخفاء مصدر المعلومات (خاصة بالنسبة للتهديدات التي تعرفها المملكة والخطر الإرهابي)، أو من يعتبرون أن سلم الأولويات يقتضي تناول العاهل لمواضيع تعبر عن شعور أكبر بالمسؤولية الاجتماعية، فضلاً عن أولئك الذين يرون في المنتديات مدثرين تحت الأسماء المستعارة أن استخدام العبارات المبهمة مناورة ومغالطة لتحقيق مقصد ما.

معلوم أن خطاب المسيرة الخضراء دائماً يتم الحديث فيه عن كل ما يتعلق بموضوع الوحدة الترابية، ويدخل بذلك في صنف الخطب القارة من حيث مواعيد إلقائها.

صرامة خطاب المسيرة الخضراء المذكور ستظهر أسبابها في ما بعد، وبالضبط يوم 3 يناير في خطبة "استثنائية"، كلما كانت الحاجة ماسة لإخبار الرأي العام بإطلاق مجموعة من المشاريع أو الحديث عن ملف يقتضي مشاركة الشعب فيه: فقد كان الخطاب الإستثنائي مناسبة لإعلان الملك بمراكش أمام مجموعة من السياسيين عن مشروع الجهوية الموسعة، خاصة المتعلقة بالأقاليم الجنوبية، ويفسر النبذة المختلفة لخطاب المسيرة لسنة 2009، والذي يعتبر العديد من المقربين والمطلعين أنه لم يكتب من طرف الديوان الملكي.

- التقليد: الذي يميز بعض الخطابات التي لم تخرج بعد عن استخدام النماذج الجاهزة وتفلت منها سياقات لغة العصر والمستجدات على الساحة الاتصالية، من معاني ومفردات، فتفقد الخطاب كوسيلة اتصالية فعاليتها وتجعلها تعيش في معزل عن الأحداث والأزمات وتعيش الأفكار بذلك وراء لغة قديمة تحيل على لغة خطابات جيل مابعد الإستقلال فلا تكاد من يلقي لمضامينها بال، لأنها تُشعر جمهور التلقي بالضبابية وتوقف الحركة الاجتماعية والنمو الاقتصادي؛

❖ رابعا: ورشة صياغة المعلومة في الخطاب الإتصالي المولوي ومهارة صناع لغة الخطاب

من خلال تبني اعتبارات وسياقات توضح طبيعة الأداء الانتمائي، تعد صناعة المعلومة في ورشات الإحتراف الخطابي من أهم محددات الخصوصية الاتصالية للخطابات المولوية.

وتتطلق هذه المهارة الحرفية في صناعة المعلومة من الاستعانة بعدد من الادوات التي تتجاوز تعتمد على صياغة منتج للإستهلاك الجماهيري الواسع، بمعلومات متنوعة يمكن فهمها بمؤشرات متسارعة وبدرجة إتاحة عالية، فضلا عن اختيار القنوات التي سيسوق من خلالها المنتج وتوفير خدمات شرح مضامينه من جديد واستعادة وتكرار شذرات منها في برامج ونشرات على مدار الساعة، مع مراعاة التوقيت الزماني والمكاني لمن تتوجه إليهم، ودعوة مختصين للدفع بجمهور التلقي بالمشاركة الفعالة مع الوسيلة الاتصالية، وإتاحة منتديات الحوار فضاءات للردود والتعليق للتعبير عن التعلق بالعاهل وتبني رؤيته للملفات التي شكلت مدار الخطاب الملكي، فيتحول جمهور التلقي من مستهلك إلى مشارك.

هذا المعطى يعيدنا مرة أخرى إلى ما أوردناه بشأن التشويش وعدم الوضوح في خضم حديثنا عن معيقات وإكراهات لغة الخطاب لتحقيق الاتصال الجماهيري، وتجعلنا نؤكد من جديد على ضرورة تحري الدقة والجودة في المضمون وعدم التذبذب فيه عند الإظهار ومحاولة الإبهار على مستوى الشكل، حتى تتفق الآراء حول محورية الخطاب الملكي.

في هذا السياق، ينبغي التذكير بأن وسائل الاتصال التي تناول الخطاب الملكي بثا تحليلا وتكرارا قد دشنت عهدا جديدة على مستوى البث الفضائي وخدمات الأجهزة الرقمية والمعلوماتية والانترنت، بعد تطور الوسط الاتصالي، وتزاحم القنوات ومستويات الحنكة والمراس والتقنية لأطرها والدعم المادي والاستقلالية البرمجية التي تحظى بها، وإن كانت الرسمية منها الأكثر انعكاسا لبناء النظام السياسي، في ظل انزلاقات غير الرسمية منها التي تشغل باستقلالية وحرية وفق حدود لا يمكن تخطيها، وإن كانت في الغالب لا تشكل إلا استنساخا لما يصدر عن القنوات الرسمية التي لم ترق بعد إلى درجة القدرة على مخاطبة العواطف قبل العقل في مضامينها الاتصالية وتنقل الخطاب الملكي من دائرة الوطن إلى باقي الأوطان وتغيير التخطيط والسياسات الاتصالية، واستبدال لغة تقديم الخطاب الملكي وطريقة التفكير فيه أو بشأنه، مع مراعاة الاعتبارات الثقافية لجمهور التلقي واهتماماته لينعكس إيجابا ووجوبا أيضا على الرسالة الاتصالية المنقولة ويجعلها تطرق بيت المواطن المغربي بدون استئذان.

وعليه، يتعين التفكير مستقبلا في إخراج تناول القنوات المرئية والمكتوبة الإلكترونية للخطابات من روح الإبتذال أو التناول السطحي أو المواجهات الصدامية، وتجاوز حالة الإسفاف والابتذال في تقديم الأنشطة الملكية وتحليل الخطابات الملكية.

كما يتوجب تقديم التعليقات الخاصة بها باللغات العامية إضافة إلى الفصحى، لرفع منسوب انتماء قنوات الفضاء العمومي ودعم نسب مشاهدتها وتمكين الخطابات الملكية من الإضطلاع برسالتها الاتصالية، وحلحلة واقع القطاع الإعلامي لضمان مزيد من مستهلكي مواد وبرامج الإذاعات الوطنية بنفس استهلاك الصحف الإلكترونية، والانتقال بمنتبع مستهلك الخطاب من السلبي البليد إلى القادر

على تامل مضامينه وبناء العميقة وتعميق التعلق بالمؤسسة والإقبال على خطاباتها وحفظها حفظاً للمرتكزات القيمية والإنجازات التاريخية والمنظومة الفكرية التي تتراس في كل خطاب من خطابات الملك.

حتى يتم الإقبال على الخطاب الملكي، ينبغي مسبقاً التفكير في رفع نسب مشاهدة الوسائل المرئية التي تنقله وتجويد الإنتاج التلفزيوني وتنويعه وبثه أياماً قبل موعد الخطاب.

فإذا كان وجود قناة واحدة على عهد الحسن الثاني قبل أن تعاضدها القناة الثانية في نهاية الثمانينات يفرض جميع المغاربة الإنصات للخطاب الملكي ومن تم اكتشافه والإعجاب به والإفتتان بلقاءاته الصحفية التي يخص بها القنوات التلفزيونية والمجلات والصحف الأجنبية، فإن واقع "الإسهال" الذي يعرفه فضاء الإعلام العمومي والخصوصي قد خلق إشكال "المهارة" الذي باتت تشكو منه القنوات المرئية، وواقع قصورها الاتصالي الذي يجعل أدواتها توحى باستمرار الوصاية والإرشاد الرسميين، وعملها الاتصالي يوحى بضعف الحيادية والشفافية في الطروحات الاتصالية وتكرار نفس المزمور الدمث.

كما أن أحادية اللغة الاتصالية للخطابات المولوية لا تواكبها فريدة في التقديم أو التناول الإعلامي خدمة لمرامي توسيع تداولها أو حتى تدويلها، فتأتي الخطابات متتالية متكررة بدل أن تأتي متوثبة ومكررة (بالفهم الذي يكرر به النفط وينتقى منه ما ينفع وتترك الروايز الأخرى لاستعمالات صناعية ثانوية)، حيث لازل الإعلام يتعاطى مع متلقي خطابات الملك محمد السادس كما كان يتعامل مع متلقي خطابات والده المغفور له الحسن الثاني، فتعتبره مجرد مستهلك ومتلقي لا يجرؤ على الفعل، فيتم التوجه إليه كمتلقي مستلقي في مكانه كما توجه للكسول الذي تزعجه الأسئلة وتقدم له فتاوى جاهزة لكل ما يتعرض إليه من قضايا وأحداث، مما يدفعه إلى الإعراض عن مشاهدة القنوات المغربية رغم ما يتم تقديمه على أساس أنه نسب مشاهدة والتي توجه للتبرير التجاري حتى تعتمد القنوات المعنية كوسائل لتمرير الوصلات الإشهارية والوصول للفئات المستهدفة في أوقات ذروة المشاهدة.

قصور اللغة الاتصالية يترجمه أيضاً تضائل نسب الأمانة في شفافية العرض أو التغطية المتوازنة للأحداث، فضلاً عن المناخ السائد في بعض القنوات وحرب الزعامات والصراع على الكراسي للإستحواذ على الشاشة (صراع الصحافي راضي الليلي وتبادل الإتهامات على رؤوس الأشهاد مع فاطمة برودي وزوجها) وغيرها من الوقائع التي تعري واقع مصالح وتجاذبات كان من اللازم أن تتفادها القنوات التي تعتبر واجهة لتمرير الخبر أكثر مما هي عليه الآن كساحة للمواجهة خدمة لأجندات الوجهة.

هذه الوضعية تثير في أوساط المتلقي والمتتبع للخطابات في سياق تتبع الأنشطة الملكية عند بداية كل نشرة وما يعقبها من فقرات انطباعاً بدس الأفكار الإيديولوجية التي يؤمن بها النخبة وغلبة النفعية على المحددات الأخلاقية للنقل الإعلامي المحايد، فضلاً عن انتقاء الأحداث بدلاً من عرض الوقائع وترك المجال للجماهير للإستقراء.

في هذا المشهد الصراع، يُفسح المجال لباقي قنوات البث غير الرسمي وتترك لها فرصة الإستقواء واستدراج جمهور التلقي نحو قراءتها للخطاب الملكي وللأنشطة الملكية (كما هو الشأن بالنسبة لما تناقلته معظم المنابر الإلكترونية من مقالات وفيديوهات بلغة إدعائية مجحفة لتمرير مقولات حول "أشكال الصرف غير الرشيد لجلالته في شكل مشاريع دعم وهبات لفائدة عدد من الدول الإفريقية".

كما يفتح الباب مشرعا لاستغلال جمهور التتبع بتعاليق وأطروحات راديكالية في الإساءة للمؤببة الملكية وتحجب عن الجمهور سبل المعرفة والفهم: فمثلا، ساهمت العديد من التعاليق التي تلت تقييم المغرب لمعدات طبية لعدد من الدول الإفريقية في حجب الطابع الإستثماري لهذه الهبات وسيناريوهات توظيفها كورقة سياسية لكسب قضيتنا الوطنية الأولى وترسيخ الدور الريادي والإستراتيجي للمملكة على المستوى القاري والإقليمي، على نحو أفقد الجمهور القابلية لاستقبال الخطاب الملكي بنفس التفاني التي كانت عليه من ذي قبل أو الإقبال على مضامينه في ظل استمرار عناصر التشويش التي سبقت الإشارة إليها في مقام سابق.

لتقديم الخطاب اللفظي المولوي أو غير اللفظي (الأنشطة الملكية)، تستخدم القنوات لغة تقديم تحمل خصوصية الخطاب المنظم من خلال لغة محفزة ومثيرة أكثر من كونها لغة مقنعة أو محاورية. وتطغى على لغتها التعبيرات والشعارات الإنشائية الخالية من الموضوعية، مع سطوة المساحة المخصصة للإعلانات التجارية في مقابل تراجع نسبة البرامج الثقافية ضمن مجموع الإرسال العام.

وعلى جميع القنوات أن تشترك خلال بثها للخطابات الملكية الخطاب العاطفي في إثارة المشاعر بأسلوب عرض متميز من أجل كسب عقول الأجيال الجديدة وعدم اختزالهم في شرقة المستهلك الذي يستقبل الخطاب ويكرر الإستقبال، لإحتمال نفوره وتفادي الإقبال على الخطاب كلما عنّ لها القصور في استخدام اللغة أو عدم فاعلية الخطاب عند طرحه القضايا والبرامج المختلفة أو إذا أظهرت قنوات الإتصال معه عدم فاعليتها واستمرارها في افتقاد شرعية الإستجابة لتطلعات الجمهور المستهدف من خلال تشجيع الباحثين وبناء الاستطلاعات المستمرة وبناء هوية إعلامية تستهوي متتبع برامجها وبالتالي متتبع الخطاب الملكي على شاشاتها بعيدا عن الرسمية في الطرح أو عكس الرأي الحكومي في مضامينها الاتصالية، أو استخدام النماذج الجاهزة.

❖ خامسا: دور اللغة المكتسبة في تحقيق المكاسب السياسية

لقد توصلت اللسانيات الحديثة إلى أن اللغة مكتسبة من البيئة التي ينشأ فيها الإنسان، بعد أن كان الرأي السائد هو أنها هبة من الله.

في سياق بحثنا، سأقول أن الملك يهبه الله لمن يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ولكن لغة الملك وخطابات الملك تستدعي التزود بميكانيزمات وآليات اكتساب لغة الخطاب الجماهيري وإوالياته، حتى تستطيع أداء مهامها والتي لا تخرج عن وظيفة اللغة كنظام من الرموز والإشارات، المعقدة والمتشابهة التي يتواضع عليها مجتمع ما قصد التعبير عما يشاهده من ظواهر طبيعية وإنسانية، وما يحسه من انفعالات، وأحاسيس ومشاعر، يفيد العاهل من اللغة ويستثمرونها خاصة في الوصف والتسجيل والتعبير، والدعوة إلي الحوار، وفي الإقناع وممارسة السلطة ومحاربة التسلط وبناء الموقف.

وتكاد وظيفة اللغة تركز أساسا على دعامتين أساسيتين هما: التعبير والتواصل، فضلا عن كونها هي التي تسمح لنا بالتفكير والتذكير والتدبير الذين يستحيل تحقيقهم خارجها، وكل هذا ينسجم مع الوظائف المرتبطة بالإستعمال المولوي للغة كأداة للتواصل بين الملك وعموم شعبه والتعبير عن انشغالات صاحب الجلالة، وموقفه من عدد من القضايا وتقاسم مقاربتة المولوية لحظها.

- بخصوص الدور التعبيري للغة الخطاب الملكي كأهم أهداف التواصل، والذي لا انفصام له كما يقول جورج مونان حين أورد أنه "من العسير الانفصال عن التعريف العائد إلي حوالي 2000 سنة، والذي يقول بأن اللغة في المقام الأول هي التعبير عن الفكر"، يمكن القول أن لغة الخطاب المولوي تعبر عن فكر، لأن التعبير يتلازم تلازما كلياً مع الفكر، إذ أن عملية التعبير مشروطة في الغالب بالفكر والفكر بدوره مشروط باللغة إذ لا وجود له خارجها.

وتنهض لغة الخطابات المولوية بمهام التعبير عن فكر النظام ويفهمها كل من تمارس بأنظمة الإشارات والرموز؛

- أما بخصوص الوظيفة التواصلية للغة الخطاب الملكي كشكل فيزيائي وفسولوجي ونفسي للإتصال بين الملك وشعبه أساساً وبعض خاصته وخاصة خاصته، يمكن الخلوصل إلى اعتماد لغة الخطاب الملكي أيضاً في العملية التواصلية الفردية والجماعية والجماهيرية للتعبير عن الذات، والتقاط الإشارات التي يحفل بها الفضاء العمومي وإعادة إرسالها وبثها بمضامين يستقبلها المتلقي وتُقبل عليها جميع أطرافه.

- أما دورها التفكيرية الذي يترجم تلازم الفكر واللغة إلى درجة السيامية التي يستحيل بموجبها فصل أحدهما عن الآخر، فالتفكير لغة صامتة واللغة تمثيل للتفكير (تفكير ملفوظ). ولم يجانب هيجل الصواب في رأينا حين قال "إننا لا نفكر إلا داخل الكلمات"؛ فاللغة هي جسم الوجود كما يتشكل ويتجلى في فكرنا ووجهات نظرنا فيه، فنحن نستثمر اللغة في خدمة تفكيرنا، والسيطرة على قدراتنا اللغوية التي هي في جوهرها قدراتنا الفكرية.

فما هي الإستراتيجيات الثاوية وراء الكفايات التواصلية للعاهل عند صوغ الرسائل وتنويع الوسائل؟

المطلب الثالث/ الإستراتيجيات الإتصالية الثاوية وراء الخطابات المولوية

❖ أولاً- استراتيجيات تواصلية بمضامين رسالية

مما سبق، نتبين أن الخطاب الملكي باعتباره خطاباً إقناعياً جماهيرياً يتجسد على أرض الواقع خدمة للعديد من الأهداف، إلى جانب هدفه/ كينونته العامين القائمين على التواصل بين الملك وشعبه وضمن وجود آلية تتحدد محدداتها في:

أ - الهدف: وهو الوصول إلى قلب المتلقي والتواصل معه، وتقريبه من عدد من التدابير والتصورات، وحقن الولاء وتثبيت التعلق بالمؤسسة وإظهار محاوريتها، مستعينا في ذلك بمختلف ما تمليه عليه كفاءته اللغوية والمعرفية، بما فيها من أساليب وتراكيب ودلالات تقربه من المتلقي بمختلف مستوياته؛

ب - الموضوع: الموضوع العام الذي يرتبط بمناسبة توجيه الخطاب، قبل أن يتفرع إلى مواضيع معاضدة أو مكملة اقتضاها السياق كمحدد ثالث؛

ج - عناصر السياق: وتنصرف إلى كل الظروف المحيطة بصياغة الخطاب والإفضاء به جريا على سنة توجيهه كل سنة عند حلول المناسبة التي تقتضي توجيهه (مناسبات عيد العرش، عيد المسيرة الخضراء، ذكرى ثورة الملك والشعب...) أو حدوث طارئ أو مستجد استدعى فتح مساحات مكاشفة بين الملك وشعبه. وتساهم هذه السياقات في قرار توجيه الخطاب أو توجيه الخطاب الإعتيادي بمضامين معينة للدفع بالمتلقي إلى التأثير بالوقائع أو بسبل تغيير الواقع أو بالوقع المحتمل لمشاريع مُهيكلّة أو مبادرات تعتبر المؤسسة الملكية عادة السبقة إلى إعلانها في أبحاث خطابية تحمل قيم ابتكار حلول والحلول عند الإقتضاء محل الجهات التي كان يفترض أن تتولى الأمر؛

د - الفعل: وهو تنظيم فقرات الخطاب وترصده وترتيبه ليتم تداوله على نطاق واسع؛

هـ - الفاعل: الذي يمثله العاهل الذي يعتبر الممثل الأسمى للدولة، ورمز وحدة الأمة، والضامن لدوام الدولة واستمرارها، وللاستقلال المملكة وسيادتها، ووحدتها الترابية، والموجه الأمين والحكم الأسمى، المؤتمن على الخيار الديمقراطي، وعلى حسن سير المؤسسات الدستورية، والذي يعلو فوق كل انتماء، فهو الناطق بإسم عموم شعبه ولا تنطق خطابه بالأهواء ولا بالهوى السياسية.

لذلك، نجد في صياغة الخطاب مخططات ذهنية تستحضر الكفاءات اللغوية والمعرفية والافتراضات المسبقة من أجل الوصول إلى النقطة التي يريدها جلالته من تشخيص للواقع وحُسن تصوير موضوع خطابه بلسان الصدق في التعبير وحُكامة في التقرير وحكمة في التقدير، مع إحكام التدبير، أخذًا في حسابه كل العناصر السياقية التي تحيط برسائله ورسالية خطابه.

تتجسد الخطة الذهنية بالنسبة للخطاب عندما يصبح خطابا مكتوبا، إذ تترسم فيه مختلف الاستراتيجيات للتأثير على جمهور التلقي واستمالته، وبالتالي تحقق إصابة الهدف من الكتابة كتجلي كامل للخطاب، فيتحول من واقعة حدثت في زمان ومكان ما إلى إنجاز.

ومنه، يُعتبر كل خطاب من الخطابات الملكية جنسا خطابيا ومقاما نرصد فيه مختلف الاستراتيجيات التي حفزت تبنيها واتباعها لتصبح بعد ذلك فعلا إنجازا تتلقفه الهامات وتستشهد به القامات، لأنه يصبح مُثبتًا للوقائع الكلامية فور الإفضاء به، فيبقى كذلك إلى أجل غير مسمى.

هذه خصيصة تميزه عن الخطاب الشفهي لأنه يوجد في لحظة زمنية حاضرة من الخطاب فقد يفلت كلاما ويثبت كتابة، لأن الواقعة تظهر وتختفي... والخطاب من حيث هو واقعة يختفي، ولا تثبت الكتابة إلا معنى الواقعة الكلامية وليس الواقعة بما هي واقعة، فتضمن الكتابة الحياة لذلك للخطاب.

وعموما، فإن تعدد الإمكانيات هو تعدد أوجه مفهوم الاستراتيجية، لذلك نظر "فوكو" إلى الاستراتيجية على أنها ذات معان متعددة وذلك من خلال تعريفاته للاستراتيجية، التي رأى فيها "عملا عقليا، مبني على افتراضات مسبقة، وتتجسد من خلال أدوات ووسائل تناسب سياق استعمالها"، على حد تعبير "بن ظافر الشهري".

وعليه، فإذا كانت الاستراتيجية هي تلك الطريقة أو الطرق التي يستعملها الإنسان لتحقيق أفعال داخل مجتمعه، فما صلة الاستراتيجية بالخطاب؟ وما معنى وما هي كفاءات المرسل التي يتبناها لتجسيد ومعاودة الاستراتيجية الخطابية؟

تكمّن الوظيفة الأساسية للعمل السياسي ومن ورائه الخطاب كأداة جماهيرية لإعمال العديد من المقتضيات وظيفية فهو محاولة ضبط العلاقة بين الحاكم والمحكوم وهذا الضبط يحتاج الى سلوكيات متعددة منها ما هو سلوك غير لفظي مثل القرارات والقوانين والمواقف السياسية ومنها ما هو لفظي يعتمد على القول قبل الفعل للتأثير على سلوكيات الجماهير وتوجيهها الوجهة التي تناسب او التي يفضلها السياسي، وتعتبر الخطابة السياسية أحد أهم هذه الوسائل اللفظية لضبط هذه العلاقة بين الحاكم والمحكوم والعكس، ورُقي الخطاب السياسي هو مؤشر على مدى الرقي والتقدم الذي وصلت اليه الشعوب المستهدفة بمثل هذا النوع من الخطابات فهي تعتبر أحد مظاهر التقدم والرقي الاجتماعي ووسيلة للتوجيه وإصلاح المجتمعات، كما أنها تعتبر الأكثر إقناعاً وتأثيراً وانتشاراً في المجتمعات إذ تم استخدامها كوسيلة للنصح والإرشاد في أمور الحياة والدين والقيم والمبادئ.

عُرفنا نحن العرب منذ قديم الزمان بقدرتنا على الابداع في الخطابة وظهر لدينا الشعراء والوعاظ والحكماء الذين يستهدفون التأثير في مجتمعاتهم مرة بالشعر وأخرى بالنثر وثالثة بالكلمات والألفاظ المختصرة ذات الدلالة وهو ما يقرب أكثر من الخطابة الاجتماعية، وإن كان لها من ابعاد سياسية.

لذا، تتنوع الخطابة بتنوع موضوعاتها والهدف منها، فهناك الخطابة الدينية والتي تعد منشعائر العبادات في صلاة الجمعة وصلاة العيدين وصلاة الاستسقاء واستنهاض الناس واستنفارهم في الملحومات عند المسلمين، وايضا الخطابة الاحتفالية والتي غالبا ما يكون هدفها النصح والإرشاد، وايضا الخطابة القضائية الاستدلالية والتي من مهامها التبليغ وتنفيذ حجج الخصوم، فضلا عن الخطب الحربية التي يتم إلقاءها بين الجند لتحريضهم وحثهم على الجهاد، والدفاع عن الوطن.

كما تميز سلفنا في الخطابة السياسية الاستشارية التي تهتم بالقضايا التي تسير حياة الناس والدول، وهي التي عرفها المفكر اليوناني القديم أرسطو الخطابة السياسية بأنها الخطابة الاستشارية، وقسمها إلى تشاورية تنظر في الوقائع والأحداث الماضية، وهي أقرب إلى المنطق والجدل. فضلا عن الخطابة السياسية التثبينية الوثائقية التي تلقفها المحافل العامة للتحسين والتقبيح والكيد، وهي أقرب إلى الأدب، دون ان نغفل الخطابة التشاورية التي تجري في الجمعيات والأحزاب السياسية ومؤسسات الحكم المختلفة حيث تنظر في القضايا الراهنة والمستقبلية المتصلة في امور تنظيم شؤون الشعوب وعلاقتها بالنظام السياسي.

ويتكون الخطاب السياسي من عدة جمل موجهة عن قصد إلى المتلقي بقصد التأثير فيه وإقناعه بمضمون الخطاب عن طريق الشرح والتحليل والإثارة، فيرد بأفكار سياسية، ويهدف إلى تغيير النفوس والعقول والأفكار والواقع. وتنبع قوة أي خطاب سياسي من ثقافة المتحدث ومدى القوة اللغوية وانسجامها مع الحديث ووعيه المتحدث السياسي واحترامه لمن يسمعه ويوجه له الخطاب، فضلا عن قوة الشخصية ومدى إقناعه للجماهير بالمسألة التي يتحدث فيها.

وهناك عدة طرق للخطابة السياسية:

- فهناك **الطريقة الأخلاقية** التي تعتمد على التأثير في شخصية المخاطب؛
- وهناك **الطريقة العاطفية** التي تعتمد على تأثير استخدام الخطيب للمناشدة العاطفية؛
- فضلا عن **الطريقة المنطقية** التي توظف لتأثير استخدام المبادئ الأصولية المتبعة بالبرهان.

ويعتبر الخطيب هو الفاعل السياسي الذي يقوم بإلقاء الخطبة السياسية أو إجراء الحوار السياسي أو الادلاء بالتصريحات السياسية، حيث يقوم بتوصيل رسالة واضحة لها هدف أو مجموعة أهداف محددة بعينها، وقد يكون الخطاب السياسي معد له من قبل، أو يكون تعقيباً على حادث تم للنو.

والخطاب الملكي يتكون من مقدمة ومتن وخاتمة، حيث يُستهل بمقدمة تتكون من مجموعة من الكلمات العذبة القوية والمنتقاة، يليها موضوع أو مواضيع يتمحور حولها الخطاب، ويُراعى فيها المناسبة، وسياقات التواصل الملكي، والتسلسل المنطقي بين الأفكار والأحداث المتصلة بالواقع والظروف المحيطة، فلا نجد مبالغة في الكلمات والعبارات المؤثرة الجذابة التي تدغدغ مشاعر المستمعين، ليُغادرها الخطاب بعدئذ دون أن يدعمها بمراجع محسومة وأحداث ووثائق تاريخية.

كما يشي الخطاب واختيار مواضيعه وتنويع مستوياته بدراسة ملكية سابقة بنفسيات جمهور التلقي وفئات عموم شعبه، فتزد بعض الفقرات الموجهة للعوام بلغة سهلة ومختصرة، وترد الأخرى بنوع من التعالي بالمعرفة والمعلومات فتطاول الفئات التي تدعي العلم بخبايا الأمور أو يسوقون بعض الوقائع دون التأكد من دقتها وصحتها ومصداقية مصادرها.

كما تتيج مناويل الصياغة للخطاب الملكي قدرة على التأثير في الجماهير وإقناعهم بأهدافه وأفكاره، واستدامتها ووضوحها لمصداقيتها ومنطقيتها، وسبقاً في ضبط السلوك السياسي لدى المواطن بما يُحقق مصلحة الوطن العليا للوطن والمواطنين.

❖ ثانياً- المَلَكات التواصلية للملك والكفاءة التداولية لعاهل متواصل

تُعتبر الاستراتيجية الخطابية عملاً يتجاوز إبداعية الخطاب وترجمته لما يخالجه الوجدان ليمرر ما استحکم من فكر وقناعات في الأذهان، ليأتي بعد ذلك تقويم اللسان، فلا يقتصر بذلك إبداع العلامات الخطابية على الفنانين والأدباء والكتاب والشعراء فقط، بل يتعداهم ليشمل كفاءة العاهل اللغوية والاستراتيجيات اللغوية التي يُحسن انتقاءها، لكونها المسرب الوحيد لإرادته والتعبير عن مقاصده تحقيقاً لأهدافه، فلا يجد سبيلاً لذلك غير استعمال اللغة وفقاً لما يتطلبه السياق ويستحسن جمهور المتلقي من عموم شعبه.

ومنه، كان من اللازم على صاغة الخطاب الملكي أن يختاروا استراتيجية معينة من أجل إنتاج الخطاب مع احترام سياق الإنتاج، لأن إقناع المتلقي أو المرسل إليه والتأثير في دواخله لا يتحققان إلا من خلال العديد من المداخل، التي تقتضي قبل كل شيء أن يكون الخطيب ملكاً مَلِكاً لكفاءة لغوية ومُمتلكاً لخبرة تؤهله لإمتلاك سلطة ذلك التأثير على الوجه الصحيح وبلسان فصيح.

وقد اعتبر "مانغونو" أن مصطلح المَلَكَة أو الكفاءة (Compétence) من المصطلحات التي قام بشحذها وتحديد مفهومها "تشومسكي" مؤسس النحو التقريغي "للدلالة على القدرة التي يتمتع بها الناطقون بلغة ما، والتي تمكنهم من إنتاج وفهم عدد لا متناه من الجمل...".

أما الدراسة الإثنية للاتصال، قد اعتمدت مفهوم المَلَكَة الاتصالية/التبليغية: "لكي يقيض للفرد الكلام، لا بد أن يُحسن استعمال اللغة بكيفية مناسبة تتماشى والمقامات والأحوال المتنوعة".

وعليه، فإن هذه المَلَكَة تُكتسب في صلب التخابط.

والمَلَكَة عند "مانغونو" هي تلك المَلَكَة الخطابية التي تأتي للدلالة على القدرة التي يجب على الفرد أن يتمتع بها لإنتاج ملفوظات تنتمي إلى تشكيلة خطابية محددة، وتنقسم هذه المَلَكَة/ الكفاءة إلى نوعين هما:

- **الكفاءة اللغوية** وهي كل ما يخوله المعدم اللغوي من ألفاظ وكلمات وتراكيب تساعد المرسل على انتقاء استراتيجيته وتوظيفها؛

- في حين تكمن **الكفاءة التداولية** في ذلك "النسق الذي يتعدى النسق الطبيعي إلى أنساق متعددة ومتألّفة، إذ تتألف القدرة التواصلية لدى مستعمل اللغة الطبيعية من خمس مَلَكات على الأقل وهي: المَلَكَة اللغوية، والمَلَكَة المنطقية، والمَلَكَة المعرفية، والمَلَكَة الإدراكية والمَلَكَة الاجتماعية".

❖ ثالثاً- تظفير الكفاءات الخطابية من خلال تظافر مَلَكات الملك

بناء على ما تقدم من أمر المَلَكات الخمس، فإن تظافر هذه المَلَكات في إنتاج الخطاب هو ما تصنعه الكفاءة التداولية التي تتبلور فيها وبها تلك المَلَكات وتُستثمر.

لذلك، فالكفاءة اللغوية وحدها لا تكفي لعملية التواصل المناسب للسياق بالرغم من كونها أساساً فيها، وهو نفس الموقف الذي تبناه محللو الخطاب، إذ يرون أنه "لا يمكن الاكتفاء بهذه المَلَكَة النحوية، خاصة في مجال تحليل الخطاب، ذلك أنه تنضاف إليها المَلَكَة التداولية التي تنطوي على قواعد تسمح للمتكلم بتأويل ملفوظ بالنسبة إلى السياق بعينه ومن بين هذه القواعد: قواعد التخابط Les lois du discours".

من هنا، يمكن اعتبار الكفاءة التداولية، ذلك "الاستثمار الذكي للمَلَكَة اللغوية عند مستعملها"¹، لأنه لا يكفي أن يمتلك لغة معينة، بل لا بد أن يتحكم في إخضاعها لمختلف السياقات، واستحسان ميادين استعمالها، والتدليل على قوة تمكنه منها بما في ذلك من جذب للمتلقي وإقناعه بالمقاصد التي يرمي إليها الخطاب.

إن ما سبق ذكره يحدو بي إلى الوقوف على حقيقة مفادها توطد العلاقة بين الاستراتيجية الخطابية والكفاءة التداولية، إذ تُعتبر الأولى نتيجة لصناعة الكفاءة التداولية، وهو الأمر الذي يحيلنا على قدرة المرسل اللغوية واستعمالها في إنجاز خطابه.

وحسب النحو الوظيفي كما يرى "بن ظافر الشهري"، فإن قدرة المتكلم هذه، قدرة تواصلية بما فيها من معرفة للقواعد التداولية والقواعد التركيبية والصوتية والدلالية التي تُمكن من الإنجاز في طبقات مقامية معينة، وتحقيق أهداف تواصلية محددة.

¹ - بن ظافر الشهري مرجع سابق، ص. 117

نفس الكليات تلتئم بفضل نفس المَلَكَة في الخطاب¹، مع فارق في الأهداف والمرامي بين "إقناعية الخطاب" و"إمتاعية الشعر"، فلا يتأتى ذلك إلا بإدراك السياق الذي يجري فيه التواصل بكل أبعاده المؤثرة، وهو بدوره شيء مستقر في فكر الخطيب/المبدع (والتلازم صحيح لأن كل خطيب بالضرورة مبدع)، حيث انه قبل استثمار كل ملكاته لغوية كانت أو تداولية، لا بد له أن يقوم بإعمال فكره وتهيئة ذهنه والأمر الذي أُلح وشدد عليه كثيرا "الجرجاني"، فإعمال الفكر أساسي في نظم الخطاب، لأن النظم صنعة يُستعان عليها بالفكرة.

وعليه، فإن "إعمال الفكر وترتيب المعاني في النفس"² يمنح الاستراتيجية صفة التجديد.

وتترجم هذه الشذرات الخطابية الكفاءة اللغوية، إذ توحى الألفاظ والكلمات التي وظفها بالقوة والتحدي وهي مناسبة لسياق تدبير مرحلة ما بعد الربيع العربي، وباقي الظروف السياقية للإستياء والإحتقان الإجتماعي والإحتياج الذي ولد الإحتجاج واستدعت لغة بهكذا لهجة واستنهضت القاموس اللغوي الجديد على لغة صاحب الجلالة.

إن هذه الظروف السياقية - على اجتماعها - ساهمت في إنتاج الخطاب بالشكل الذي هو عليه ومنه، ودفعته إلى مراعاة سياق خطابه، ومراعاة السياق دليل على حسن مزجه بالرصيد اللغوي القوي الذي يمتلكه، وهو ما يؤكد كفاءته التداولية التي استثمر فيها تلك اللغة وبرع في صياغتها لتبلغ الهدف المنشود (هدف التأثير في المتلقي)، بناء على فهم ووعي ببيئة محيط المتلقي ("إن الوقوف على أحوال الأمة، يتيح لنا الفرصة لتحديد مدى التقدم الذي حققناه، وذلك باستعمال جميع الآليات المعروفة، لقياس هذه التطورات. فقد سبق لنا أن قمنا، سنة 2005، بوقفة مع الذات، من خلال تقرير الخمسينية، لتقييم المنجزات، وتحديد الاختلالات، ومعرفة مستوى التطلعات، منذ بداية عهد الاستقلال، بهدف وضع سياسات عمومية أكثر نجاعة. واليوم، وبعد مرور 15 سنة على تولينا العرش، أرى أنه من واجبنا تجديد هذه الوقفة الوطنية؛ "أدرك الآن مدى هذا الحماس وهذا يشعني بجسامة المسؤولية. لقد قمت في الأشهر الأولى من تولي الحكم بجولة في شمال المملكة. والآن جاء دور الوسط والجنوب. إن هذه الأقاليم.. ورزازات وأكاير وتارودانت والصويرة لم تكن مهمة بل إنها على العكس من ذلك أقطاب سياحية مشهورة؛ " إن تأمل هذا الواقع ليجعلنا نتساءل في ألم وحسرة .. كيف يمكن تحقيق التنمية الشاملة وعالمنا القروي يتخبط في مشاكل تضطر سكانه إلى التخلي عن الأرض التي جعلها الله ذلولا للاستزراق منها والهجرة إلى المدن في غيبة استراتيجية تنموية مندمجة قائمة على تنظيم الأنشطة الفلاحية وغيرها؛ "إننا لا نريد أن نجعل منها مناسبة لاستعراض حصيلة المنجزات، لأنها مهما بلغت، ستظل دون ما نرتضيه لك شعبي الوفي. وإنما نريدها وقفة تأمل وتساؤل مع الذات").

كما يُعد اختيار الكلمات الواردة في الخطابات من عناصر كفاءة العاهل اللغوية، على أن ما يجعله يتجاوز تلك الكفاءة إلى الكفاءة التداولية، هي طرق صياغتها وبلورتها وتركيب تراكيبها واتساقها وأصواتها وحسن توظيف استخدامها بما يخدم السياق العام لتوجيه الخطاب.

عموما، يفرض السياق في الخطابات المولوية امتلاك كفاءة لغوية تتأصل في ثقافته للإقناع والتأثير، وكفاءة تداولية لبلوغ الهدف وتحقيق التواصل مع المتلقي.

¹ - مسعود صحراوي : التداولية عند العلماء العرب : دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي ، ص: 107. بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب ، ص : 117.

² - بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص. 182.

لما وقفت برهة عند الاستراتيجية اللغوية الخطابية، وجدت أنها تحتكم للكفاءتين اللغوية والتداولية، فاستَوْفَنِي في بعض الخطابات امتلاك العاهل للملكات اللغوية السابقة.

- فمن **حيث الملكة اللغوية**: نجده ملكا مُتمكنا ومالكا لرصيد وقاموس لغوي قوي مصدره العربية والقرآن الكريم والجمع بين جميع المعاجم التقنية (المعجم القانوني والتقنية التي يقتضيه القانون الدستوري والمؤسسات السياسية، معجم الإقتصاد، معجم الإستثمار...)، ومن ثمة قدرة الخطاب على إنتاج وتحويل وتأويل مختلف العبارات اللغوية حسب مقامها التواصلية والانتقال السلس بين مختلف المعاجم.

- من **حيث الملكة المعرفية**: نجده صاحب مخزون من المعارف المنظمة، خاصة تلك المرتبطة بالتاريخ والدين، فتتميز خطابه ومراسلاته بحسن استحضار هذه الأحداث وترتيبها باتساق يليق بكل سياق.

- من **حيث الملكة الإدراكية**: يستوقفنا إدراك جلالته ووعيه الجيد بمحيط متلقي الخطاب من عموم شعبه، وبيئته التي يُعد في بعض الخطابات مشاركا فيها منذ صباه ("فقد تربيت على حب الوطن، وكنت شاهدا، كجميع المغاربة، رغم صغر سني آنذاك، على جو التعبئة، وروح الوطنية العالية، التي ميزت استرجاع أقاليمنا الجنوبية... وهي الروح التي تلهم كل تحركاتنا")¹، مؤكدا روح الإستمرار على نهج والده الذي كان يفهم بيئة وظروف عيش مجتمع التلقي ويهمه مخاطبة من يعيشون مع المواطن ومن بوسعهم تغيير واقعه ("زيادة على كون اجتماعي بكم اليوم هو من التزاماتي الدستورية وواجباتي التأسيسية فإنني أشعر دائما حينما التقي بكم وحينما أجتمع معكم بالود والإخلاص... أحبكم لأن كل ما يمت إلى الوطن بصلة هو محبوب عندي وفي وسط فؤادي ووجداني فأنتم ممثلون للأمة لما تتكلمون باسم الشعب المغربي فلا بد إذن أن تكون تلك الصلة وثيقة بينكم وبينني")².

❖ رابعا- اقتصاد اللغة في التعبير عن المقاصد

أ - كيف نقصد في القصد إلى عنوان المقاصد؟

تُعد المقاصد من أهم العوامل التي تؤثر في استعمال اللغة وتأويلها، بنفس تأثيرها في توجيه المرسل إلى اختيار استراتيجية الخطاب.

ويُعَبَّرُ المرسل عن مقاصده في الخطاب من خلال اللغة، إذ "إن اللغة تحيل عليه لتحديد معنى الخطاب، لذلك احتج "صاحب المغني" على أن "القصد شرط في بلوغ الكلام تمامه، معتمدا على ملاحظة أن الكلام في الشاهد يكون أمارة لما يريده المتكلم، بحيث يكون دليلا على مقصود المتكلم، وعلى أن المتكلم أراد أن يبلغ مراده بمقصوده".

وعليه، فإن للغة دورا فعالا في إنتاج الخطاب وتبني استراتيجية ملائمة له، والتعبير عن معاني ومقاصد المرسل فيه بمراعاة العناصر السياقية التي يُنتج في ظروفها الخطاب، إلى جانب كون القصد ووضوحه شرطا من شروط نجاح الرسالة والتفاعل والتواصل بين أطراف الخطاب.

¹- من الحديث الصحفي الذي خص به جلالته اسبوعية "باري ماتش" الفرنسية

²- من خطاب المغفور له جلالته الملك الحسن الثاني بمناسبة افتتاح السنة التشريعية 1998-1999

أما الدور الأساسي للمقاصد فيتمثل في بلورة المعنى كما هو عند المُرسِل، إذ يتوجب عليه مراعاة كيفية التعبير عن قصده، وانتقاء الإستراتيجية التي تتكفل بنقله، مع مراعاة العناصر السياقية الأخرى. تبعا لذلك، تصير وظيفة اللغة هنا قائمة على تحقيق التفاعل والانسجام بين أطراف الخطاب بما يخدم السياق، فتتضح المقاصد بمعرفة عناصره، سواء كانت تلك المقاصد مُباشرة أو ضمنية.

يحييني "القصد" إذن على ذلك المبدأ التداولي الذي اشتقه "طه عبد الرحمان" من التراث العربي الإسلامي فارتضى له إسم "مبدأ التصديق"، وهو كما صاغه: "لا تقل لغيرك قولا لا يصدقه فعليك"¹، فجعل من هذا المبدأ الذي تتفرع منه عدة قواعد أهمها قاعدة القصد، والقائئم على مقولة: "لتنفقد قصدك في كل قول تلقي به إلى الغير"².

ويترتب عن هذه القاعدة أمران أساسيان: أحدهما وصل المستوى التبليغي بالمستوى التهذيبي للمخاطبة، والآخر، إمكان الخروج عن الدلالة الظاهرة للقول³، ونعني بالخروج عن الدلالة الظاهرة للقول : المقاصد الكامنة أو الإجمالية في الخطاب.

تحضرني في هذا السياق مواقف في مواقع من خطابات صاحب الجلالة أكد فيها تلازم القول والفعل في مواقفه ووعوده التي تتحقق في مواعيدها وتُعلن للأمة بمناسبة حلول عيدها وتجليات هذا المبدأ في تدبير جميع الملفات، كما في النسق الدبلوماسي للمغرب ("إن السياسة الخارجية لبلادنا، تعتمد دبلوماسية القول والفعل"⁴؛ "أصحاب الجلالة والفخامة والسمو، إن نتائج هذا المؤتمر ستحدد بشكل حاسم، مصير الجيل الجديد لمؤتمرات الأطراف، والتي ينبغي أن تنكب على المبادرة والفعل").

يمكن ملاحظة أن ما أورده صاحب الجلالة في هذه الشذرات الخطابية الثلاث التي سقناها على سبيل المثال لا الحصر يجسد مبدأ "طه عبد الرحمان" من حيث تصديق الأقوال للأفعال، ودون أن نوغل في الحديث عن تعدد مفاهيم القصد في مختلف الدراسات النظرية سواء العربية منها أو الغربية، يمكن القول أنه مفهوم القصد دلّ على أحد ثلاثة أمور هي كما أوردها "الشهري": "دال على الإرادة، دال على المعنى، دال على هدف الخطاب"، وهي المفاهيم العامة للقصد⁵، إذ يسوق صاحب الجلالة الشاهد تلو الشاهد على صدق القول من خلال مصاحبته للفعل ("شعبي العزيز، إن المغرب إذا وعد وفّى، قولا وفعلًا، ولا يلتزم إلا بما يستطيع الوفاء به. وبذلك فإننا نوجه رسالة إلى العالم: نحن لا نرفع شعارات فارغة ولا نبيع الأوهام، كما يفعل الآخرون، بل نقدم الالتزامات ونقوم بالوفاء بها، وبتنفيذها على أرض الواقع... فالمغرب وعد بتطبيق الجوهية المتقدمة، وهي اليوم حقيقة على أرض الواقع، بمؤسساتها واختصاصاتها؛ والمغرب وعد بالديمقراطية، وبتمكين سكان أقاليمه الجنوبية من تدبير شؤونهم المحلية، وها هم اليوم يختارون ممثليهم ويشاركون في المؤسسات المحلية بكل حرية ومسؤولية؛ كما أن المغرب التزم بنموذج تنموي خاص بأقاليمه الجنوبية، واليوم أطلقنا الأوراش المهيكلية والمشاريع المدرة للثروة وفرص الشغل؛ والمغرب التزم بضمان الأمن والاستقرار، والصحراء المغربية اليوم، أكثر المناطق أمانًا، في جهة الساحل والصحراء؛ وإن المغرب إذ يلتزم اليوم بجعل الصحراء المغربية مركزا للتبادل ومحورا للتواصل مع الدول الإفريقية جنوب الصحراء، وبوضع البنيات التحتية اللازمة لذلك، فإنه سيقوم مرة أخرى بالوفاء بوعوده أمام خيبة أمل الأعداء وحسرتهم").

¹- طه عبد الرحمان، اللسان والميزان، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1998، ص. 214

²- بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص. 195

³- بروان ويول، مرجع سابق، ص. 9

⁴- من نص الخطاب الموجه إلى الأمة بمناسبة الذكرى الأربعين للمسييرة الخضراء المظفرة

⁵- بن ظافر الشهري، مرجع سابق، ص. 212

ومن أجل توضيح آخر لمفهوم القصد، وبناء على أحد المفاهيم السابقة له، فإن هناك من الباحثين من يرى ضرورة حصول قصد المرسل في الخطاب بمفهوم الإرادة، وهناك من يذهب إلى حصر مفهوم القصد في المعنى، إذ تنبني على المفهوم الأول عملية الفهم والإفهام، لأن الخطاب عملية تتم بين طرفين هما المرسل والمتلقي، لذلك، فماهية القصد "كامنة في كونه ينبني على قصدتين أحدهما يتعلق بالتوجه إلى الغير، والثاني يتصل بإفهام هذا الغير"¹.

ويُعد الخطاب الملكي كخطاب مكتوب من الأمثلة التي تجسد إرادة صاحب الجلالة التوجه إلى الشعب المغربي قاطبة في الداخل والخارج أو لفئة منه بمنطوقه بقصد مزدوج يتمثل في إرادة التواصل وكذا إرادة الإفهام وتبديد مساحات الغموض والإبهام.

هي إذن افتراضات قد يضعها المرسل إليه في مخيلته سواء كان المرسل إليه/مجتمع التلقي مخاطباً جماهيرياً أو فئوياً أو أي متلق آخر ("سيقوم مرة أخرى بالوفاء بوعوده أمام خيبة أمل الأعداء وحسرتهم"؛ "إننا نعيش مرحلة فاصلة، بين ماذا نريد؟ وكيف يريد الآخرون أن نكون؟") أي أن جلالته لا يريد أن يُراد لنا غير ما نريده، وأننا لا نريد أن يظل الأمين العام "كيمون" يعترف بعدم اطلاعه على ملف الصحراء المغربية بشكل كامل، وجهلها التام أو النسبي بتطوراته الدقيقة وخلفياته الحقيقية، ليظل الأمين الأممي رهينة مستشاريه الذي لهم بدورهم من المواقف الشخصية التي تتنافى مع قرينة حيادهم الأممي المفترض ما يجعلهم في الغالب معادين للوحدة الترابية المغربية، فضلاً عن انتقاد جلالته في خطاب قمة الخليج أعداء الوحدة الترابية الوطنية وتماديهم في مؤامرتهم، حيث أصبح شهر أبريل من كل سنة، والذي يصادف اجتماعات مجلس الأمن حول قضية الصحراء المغربية، فزاعة ترفع أمام المغرب، وأداة ضغط عليه حيناً وابتزازة أحياناً أخرى.

كلها تعابير أوردتها صاحب الجلالة بقصد لعلمه بطبيعة وطبائع متلقي خطابه من أعداء قضيتنا الوطنية الأولى في الداخل والخارج، ليتفتح النقاش حول خلفيات التي توطر فكرة المؤامرة ومن يتآمر على من؟ وكيف؟ وبأية وسائل؟

ومن هم الفاعلون المباشرون وغير المباشرين لهذه المؤامرة؟ وماهي الخرائط الجيو-استراتيجية التي تحاك في الخفاء؟

وهل يمكن القول، أننا الآن أمام منعطف جديد في بناء التحالفات الاستراتيجية التي كانت تربط حلفاء الأمس بأعداء اليوم؟ ومن هم الحلفاء؟ ومن هم المستهدفون بالحلف؟ ومن هي جبهة المقاومة؟

في هذا الخطاب، يوجه صاحب الجلالة رسالة واضحة بأن المغرب بلد حر، وليس رهينة حلفائه أو شركائه، وإن كان يلتزم بتحالفاته وشراكاته معهم، معبراً عن انفتاحه وسعيه إلى عقد شراكات استراتيجية أخرى تحفظ مصالحه، سواء كان مع أشقائه الخليجيين والعرب والأفارقة، أو مع دول كبرى أخرى كروسيا والصين والهند وغيرهما في إطار تنويع شراكاته الإستراتيجية.

فالخطابات تتم صياغتها كأجوبة على تلك التساؤلات، ليتحصل بذلك الفهم ويكون الإفهام حاصلًا. وإذا كان مفهوم الإرادة والفهم والإفهام مصطلحين لصيقيين بالقصد كما عند "طه عبد الرحمن"، فإنني سأحاول أن أرصد نظرة الباحثين إلى اعتبار القصد هو المعنى، فأتساءل:

هل المقاصد هي نفسها المعاني؟

أم أن هناك فروقا بينهما؟

¹ - مسعود صحراوي : التداولية عند العلماء العرب : دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، ط : 1، دار الطليعة، بيروت ، 2005 ، ص. 105

يرى "بن ظافر الشهري" أن هناك من يعتبر أن المقاصد هي المعاني نفسها أو المعاني هي المقصودة، ومنها "أن يكون الاعتناء بالمعاني المبنوثة في الخطاب هو المقصود الأعظم بناء على أن العرب إنما كانت عنايتها بالمعاني، وإنما أصلحت الألفاظ من أجلها. وهذا الأصل معلوم عند أهل العربية: فاللفظ إنما هو الوسيلة إلى تحصيل المعنى المراد، والمعنى هو المقصود"¹.

وتتفاوت المعاني من حيث علاقة القصد بدلالة الخطاب الحرفية، بالرغم من قدرة المرسل على التعبير عن مقاصده في أي مستوى من مستويات اللغة. لكن يبدو أن معرفة اللغة بأنظمتها المعروفة وحدها لا تُغني المرسل إليه لمعرفة قصد المرسل لتغنيه عن السياق، لأن مدار الأمر ينصب حول ماذا يعني المرسل بخطابه، وليس بماذا تعنيه اللغة، حتى ولو كان الخطاب واضحاً في لغته، لأنه معرفة قصد المرسل هو الفيصل في بيان معناه سواء كان قصداً موضعياً أو إجمالياً.

وهناك من يعارض فكرة أن معرفة المرسل بمستويات اللغة بتنوعها وامتلاكه للكفاءة اللغوية الكافية لإبلاغ قصده لأن المعنى هو المطلوب، ولا يتم التوصل إلى المعنى إلا عن طريق السياق، بالتالي، لا يمكن للغة وحدها (بعيدا عن السياق) أن تُبين القصد الحقيقي للمرسل داخل الخطاب، دليلنا على ذلك أن المعاني ليست في اللغة فقط.

في هذا السياق، يرى "براون و يول" أن هناك "قاعدة هامة في التواصل اللغوي، وهي أن المعاني لا تكمن في الأدوات اللغوية المستعملة، بل لدى المتكلم الذي يستعمل تلك الأدوات ويوظفها بشتى السبل لتحقيق مقاصده ونواياه"².

نتبين أن امتلاك الكفاءة اللغوية (أدوات اللغة ووسائلها) لا تكفي وحدها لإبلاغ المقاصد، بل يتم نقل القصد إلى المرسل إليه باستثمار وبلورة تلك الوسائل والأدوات، ومنه، امتلاك الكفاءة التداولية بما فيها من استثمار جيد للغة والتحكم في توظيفها داخل الخطاب.

ونستنتج عاملاً من أهم العوامل التي بفضلها يتضح القصد، هو "السياق" الذي لا يتأتى القصد إلا بفضلله، ذلك أن "دلالة العبارة هي استلزام القول للمعنى المقصود من سياقه...."³.

وقد أكد "الجرجاني"⁴ أن استعمال آليات معينة في الخطاب لا يكون إلا من أجل تحقيق مقاصد معينة يبتغيها المرسل ولا تتحقق هذه المقاصد إلا في المعاني.

وعليه، فوجب الحرص على إفهام هذا القصد وفهمه، لأن إنتاج الخطاب بين طرفين مرهون بفهم مقاصد المرسل من قبل المرسل إليه، وكل عدم فهم للقصد سينبني عليه إنتاج خطابات لا تتناسب مع السياق، فنرجع الكرة للبحث عن علاقة اللغة والسياق بالخطاب، إذ عدم فهم المقاصد ينتج خطابات غير مناسبة للسياق ومنه، عدم كفاية اللغة وحدها لتحقيق الانسجام بين طرفي الخطاب.

وعلى الرغم من الموقف الثابت لمعارضني نظرية المقصدية الذين يذهبون إلى أن الخصائص اللغوية المشتركة بين الناس هي التي تحدد المعنى، لأن معرفتنا المعجمية والتركيبية والدلالية تمكننا من ضبط معنى النص، فالخصائص اللغوية تؤدي إلى الفهم والتأويل في استقلال تام عن البنيات الخارجية، لأنها مستمدة من المواضع العمومية للاستعمال.

¹ - بن ظافر الشهري، مرجع سابق، ص: 117

² - مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب: دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، ص: 107. بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص: 117.

³ - أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، دت، ص: 132، وما بعدها

⁴ - عبد القاهر الجرجاني، دلالات الإعجاز، ص: 178-180.

بالمقابل، يرد أصحاب نظرية المقاصد التركيبية سريعا من خلال اعتمادهم على المادة اللغوية في الفهم والتأويل، وإن كانوا هم أيضا يرون أنها غير كافية، إذ لا بد من معرفة مُعتقدات المرسل ومواقفه وآرائه، خاصة وأن هذه المواقف والماورائيات هي التي تقف وراء استعمال اللغة بتداعياتها وإيحائها، والتسليم بمقاصد المؤلف وراء كل متلفظ كلامي لا مدفع له، واستغلال المكونات اللغوية أمر لا مناص منه.

وعليه، يُمكن أن أصف نظرية المقاصد بنظرية تركيبية، على اعتبار جمعها بين المستويات اللغوية والسياق لاستنتاج القصد وفهمه، ومنه جمعها بين الكفاءة اللغوية والتداولية.

وعموما، لإدراك معنى العبارة أو معنى الخطاب ككل، يتوجب بوجه عام الوصول إلى فحوى العبارة من جهة، وإلى قصد المرسل من جهة أخرى؛ أما عملية التأويل، فتتم بشكل ناجح عندما تحصل المماثلة بين فهم المتلقي وبين دلالة العبارة وأيضا قصد المتكلم.

ب - العلاقة بين شكل الخطاب وقصد المرسل:

لكل خطاب شكله اللغوي الخاص به، ولا شك أن هناك علاقة بين شكله اللغوي ومعناه، لذا، يجب الربط بين قصد المرسل الذي يريد التعبير عنه في خطابه وشكل اللغة الدال عليه، من خلال النظر إلى سياق التلفظ بالخطاب.

إلا أن ما يُمليه شكل الخطاب اللغوي الظاهر في غالب الأحيان قد لا يدل على قصد المرسل، ومنه، فإن هذا القصد لا يأتي متطابقا مع دلالة الوضع اللغوي بحيث أن المعنى المقصود لا يكون هو المعنى الحرفي.

لذلك، وجب على المرسل إليه فهم القصد الحقيقي الذي يسكن وراء دلالة الوضع اللغوي، لأنه إذا لم يدرك بأن معنى المرسل المقصود لا يطابق المعنى الحرفي للخطاب، فإن عملية الاتصال لا تتم خاصة في حالة عدم اعتبار بعض العناصر السياقية: فالطلب لا يصدر عن جلالة الملك، وإن حدث أن ورد، وإنما يرد على سبيل طلب مع الاستعلاء كما حدث عندما في سياق الرسالة السامية لجلالته إلى المشاركين في الاجتماع الثالث لأتباع الطريقة التيجانية المنعقد بمدينة فاس " نطلب منكم أصحاب الفضيلة، أن تخصوا جلالتنا بنصيب من أدعيتكم المستجابة، كلما حفت بمجالس ذكركم ووظائفكم نفحات التجلي وأوقات الإجابة".

فعندما يطلب جلالة الملك من رعاياه أمرا ما، يظهر من نظام اللغة أن الأمر يُفيد الطلب، في حين أن الرؤية التداولية التي تقتضي النظر إلى حالة المتكلم ومنزلته مقارنة مع المخاطب يقتضيان أن يصبح "الطلب مع الاستعلاء أمر"¹، كما تدل عليه دلالة الوضع اللغوي أو المعنى الظاهر في العبارات التي تسبق أو تكون ثاوية وراءه.

أما سياق الطلب في هذا الخطاب فقد اقتضى أن يطلب منهم الدعاء له، لأنه لا يمكن لصاحب الجلالة بأي حال من الأحوال أن يأمر من الناس الدعاء له بنصيب "من أدعيتهم المستجابة، كلما حفت بمجالس ذكركم ووظائفكم نفحات التجلي وأوقات الإجابة"، التي لا يختص بها إلا الله وتعالى ولا يخص بها إلا خواصه من خلقه.

¹-بيراناروسان، ماهي السيمولوجيا؟ ترجمة محمد نظيف، دار إفريقيا-الشرق، الطبعة الثانية، 2000، ص. 46-47.

ولو كان الطلب في سياق غير السياق ومن أناس غير العلماء الذين لهم وضع اعتباري في الحقل الديني ويعتبرون ورثة الأنبياء، لكان من الممكن أن نقول بعدم التناسب بين دلالة لغة الخطاب الشكلية ومعطيات السياق.

إلا أن الوضع في هذه الحالة اقتضى منا أن نعتبر أن هذه الشذرة الخطابية لا تتدرج ضمن الأوامر التي يطلب فيها المرسل من المرسل إليه تنفيذ أمره، لأن الأمر هنا ليس قطعاً بالأمر ولا ينبغي له، بل هو طلب أو اقتراح أو رجاء، "باعتبارها أغراضاً تواصلية ووظائف خطابية تؤدي بصيغة الأمر على مقتضى قاعدة خروج الأسلوب على مقتضى الظاهر أو خروج الأساليب عن أغراضها"¹، وهي نفس الأغراض التي عالجها "سورل" من خلال تطبيقه لمعيار الشروط المعدة (conditions préparatoires) في خروج الأمر إلى الدعاء والالتماس.

مما سبق، يمكنني القول بأن الشكل الخطابي ليس كافياً للدلالة على قصد المرسل في فعل لغوي معين، انطلاقاً مما قد ينتج عنه من علاقة ثنائية بين القصد وشكل الخطاب، إذ يمكن أن يطابق شكل الخطاب قصد المرسل كما يمكن ألا يطابقه، لأن هناك معاني مضمرة في الخطاب لا يمكن الكشف عنها إلا بواسطة التأويل ولا يمكن أن تستشف إلا استناداً إلى المعرفة المشتركة ومعرفة السياق الذي قد يُؤاري عن نظر الكثيرين ممن لا يشاركون هذه المعرفة العديد من الصور والحقائق والمعاني، ليكون تبعاً لذلك لصورة الخطاب عدة قوى إنجازية لخصها علماء الأصول في قضيتين هما:

- أولاً: منطوق الخطاب، وهو ما يدعوه التداوليون بالمعنى الحرفي؛

- ثانياً: مفهوم الخطاب، وهو ما يسميه التداوليون بالمعنى المستلزم.

وقد حاز هذان المفهومان اهتمام العديد من الدارسين، سواء على مستوى البلاغة العربية القديمة أو على مستوى الدراسات اللسانية المعاصرة، إذ يسمي "الجرجاني" ثنائية "منطوق الخطاب/ مفهوم الخطاب" بالمعنى ومعنى المعنى معتبراً المعنى "ذلك المفهوم من ظاهر اللفظ والذي نصل إليه من غير واسطة، ومعنى المعنى: أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك إلى معنى آخر"²، وهنا يقوم بتوجيه الأمر إلى المرسل إليه أثناء عملية تأويله للخطاب.

يقابل مفهومَي المعنى ومعنى المعنى عند "الجرجاني" ثنائية "رولان بارث" الموسومة بـ "ثنائية التعيين والتضمين (Connotation/dénotation) التي عاد إليها بنشره لكتاب نادى فيه بالعودة إلى مفهوم التضمين، موضحاً أنه لا نجد في الثنائي تعيين/تضمين، سننّين مختلفين، بل مجموعتين سننّيتين: ففي الصورة الفوتوغرافية مثلاً، السنن الذي يأتي قبل القياس هو سنن التعيين (وهو السنن الذي يؤسس القياس).

أما السنن الذي يأتي بعد القياس، فهو سنن التضمين، ويقول "بارث" أن "هيلمسليف" عرف التضمين قائلاً أن التضمين عبارة عن معنى ثاني (La connotation est unsecond sens) حيث يكون الدال نفسه مشكلاً من علامة أو نظام الدلالة الأول الذي هو التعيين (Dénotation).

¹ - آن ربول، جاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ص. 206

² - عبد القاهر الجرجاني، مرجع سابق، نفس الصفحة

وتبقى التضمينات تلك المعاني التي لا توجد في القاموس ولا في النحو اللغوي الذي يكتب الخطاب فيه، لأن القاموس يمكن أن يتوسع والنحو أن يتغير¹. عموماً، يتحدد تعريف التضمين من خلال فضاءين هامّين، هما: "فضاء تالي (تابع) خاضع لتتالي الجمل، وفضاء مكثف، هو فضاء تفاعل الدلالات النصية"².

أستنتج أن هناك مستوى للتلقي هو مستوى التعيين والتضمين، وهما عمليتان مصاحبتان للمتن الخطابي، إذ يعتبر التعيين المعنى الأول الواضح والمباشر (أو المستوى الأول من اللغة الذي يستخلصه المتلقي مباشرة بعد تلقي الرسالة)، في حين أن التضمين يظل أعظم من المستوى الأول، حيث ينفذ إلى اكتشاف المعنى المقصود وهو معنى غير مباشر أو المستوى الثاني من اللغة (ميثاق-لغة) الذي يتم الوصول إليه عبر سلسلة من التأويلات انطلاقاً من المقاصد السابقة، التي تشكل المقاصد الإجمالية.

بما أن النص في مجمله قائم على الركيزتين السابقتين، وهما ركيزتان أساسيتان تكونانه من الداخل، فقد عبّر عنهما رائد الترجمة الآلية "محمد الحناش" بالمعاني الإيمائية (Connotations) والمعاني الإصطلاحية (Dénnotations):

1 - فالمعنى الإيمائي لم يطرأ على عناصره اللغوية أو أشكاله الصغرى أي تغيير دلالي، فهي مازلت تحتفظ بمعناها المعجمي، ولا تعترف بالتغيرات السياقية سلباً أو إيجاباً؛

2 - أما المعنى الإصطلاحي، فإن عناصره الشكلية تحمل دلالات متعارف عليها في مجموعة لسانية معينة، ويمكن أن يطلق على هذا المعنى "المعنى المجازي"، بينما يطلق على الأول المعنى الحقيقي للأشكال اللغوية، وبصفة عامة فإن النص يؤول في الأخير إلى ثنائية الشكل والمضمون.

وعموماً، لا بد من المرور من المعنى الاصطلاحي للوصول إلى المعنى الإيمائي أي المرور من المقصد الموضوعي لاستنتاج المقصد الإجمالي، كل ذلك في أفق استيعاب الخطاب وتحليل دلالاته والكشف عن قصده.

لكن، لا يكفي المعنى الحرفي أو التعيين وحده في الخطاب لفهمه، بل لابد من توفره على المعاني الضمنية، إذ يستحيل التواصل دون إدراك ما هو ضمني وما هو إجمالي، لأن التصريح الكلي في رسالة ما يحولها إلى دائرة مغلقة، ويقف أمام حركية التأويل، فيضع بالتالي حداً لفضول المتلقي، فلا يمكن بذلك أن يقول كل شيء.

فالخطاب كجسد كامل يحمل معاني حرفية وأخرى ضمنية، مقاصد موضوعية وأخرى إجمالية، حيث تعتبر الأولى تلك الدلالات الحرفية التي تملئها علينا لغة الخطاب (وبالتالي تفيد القصد المباشر)؛ أما الدلالات الضمنية فهي تلك المعاني التي لا نستنتجها من الدلالة الحرفية للخطاب، بل نحتاج إلى وسائط كالسياق والكفاءة واللغوية والذهنية لاكتشافها: وعليه، من حقي أن أسألك هل يمكن لخطيب أن يستعمل المعاني الحرفية وحدها؟ أم يجب أن تتخلل خطاباته معاني ضمنية؟ هل يكفي المعنى الحر للتواصل مع النص الخطابي؟ هل هناك حدٌ فاصل بين الاستعمال الحرفي والاستعمال غير الحرفي للغة داخل الخطاب؟ وهل يمكن أن نميز بين الاستعمالين السابقين؟

¹ - فتحيّة بوسنة: الانسجام في مقامات السيوطي، ص 37، نقلاً عن: جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق وتعليق: فوز أحمد زمري، ط 1، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 2003، ص: 357-358.

² - طه عبد الرحمن، مرجع سابق، ص. 261

يمكن القول إذن بأن المفاهيم السابقة (التعيين، المعنى الحقيقي، المعنى الاصطلاحي، منطوق الخطاب، المعنى، معنى المعنى، المعنى الحرفي، التضمنين، المعنى الإيماني، المعنى الإيحائي) تصب في مجال واحد، هو مجال اللغة التي يوظفها الخطيب للدلالة على قصده، إما متوسلا بالأسلوب المباشر أو غير المباشر.

ومن أجل فهم واستيعاب جيد للمعاني الضمنية داخل الخطاب الملكي، لابد من الاستيعاب الجيد للمعنى الحرفي والصريح الذي يحمله نفس الخطاب.

ومرورا بهذا الشكل اللغوي الخارجي الحرفي، أصل غالبا إلى درجة الحديث عن استنفاد الدلالات الكامنة في الخطاب، فألجأ لاستيعاب المعنى الحرفي والصريح الذي يحمله خطاب آخر بنفس المضامين، مع إخضاع المعاني الأولى (الوضعية) للكفاءة اللغوية وتفاعلها مع السياق، وهي عملية خاصة بالمتلقي، وهي نفس الفكرة التي دافع عنها السيميائي "إمبيرطو إيكو" في كتابه "حدود التأويل"، حيث ساند فكرة أنه لا يمكننا أن نؤول جملة أو نصا ونكشف عن كل معانيه ومقاصده الممكنة إلا إذا فهمنا المعاني الحرفية لتلك الجملة أو ذلك النص.

أما المتلقي، ودون أن يبحث عن قصد المتلفظ، فإنه سيستوعب المعنى الحرفي: فبرجوعي إلى "إيكو"، أرى من الضروري استيعاب المعنى الحرفي أولا لأننتقل إلى تلقي المعنى الخفي، وللتأويل، فأسمح لنفسني حينها باستخراج كل المعاني الممكنة منها.

كما وجدت في معرض قراءاتي الحرة في إطار المقارنة أنه لما سبق لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية الأسبق "رونالد ريغن" أن صرح في ندوة صحفية أنه "بعد لحظات سيصدر أمره بقذف الإتحاد السوفياتي"، أورد ذلك على سبيل المزاح دون قصد أو نية القذف، بل ردا على الصحافة التي ضايقته.

مما سبق، يصبح المعنى الحرفي والمعنى غير الحرفي أو المقاصد الموضوعية والإجمالية وجهين لعملة واحدة هي الخطاب: فقد يستعمل الخطيب لغة مباشرة وصريحة لتحقيق أهداف ومقاصد معينة، كما قد يعتمد التلميح أحيانا لأغراض ومقاصد أخرى، وما على المتلقي إلا تفقد المعنى الأول واستنفاد كفاءاته الذهنية للوصول إلى المعاني الكامنة.

ج- أنواع المقاصد:

تتخلل الخطاب عموما معانٍ ودلالات لغوية وضعية مباشرة وأخرى غير مباشرة يتم فهمها عن طريق الاستنتاج والتأويل، وهو الأمر الذي يحيلنا على إدراك وجود مقاصد موضوعية مباشرة أخرى للمخاطب، كما قد يعبر عن مقاصد أخرى تكون مضمنة في ثنايا الخطاب.

وعليه، فإن إلى جانب مقاصده التواصلية الموضوعية من كل قول ينتجه، يكون لصاحب خطاب ما مقصدا تواصليا إجماليا يتعلق بمجموع خطابه.

1- المقاصد الموضوعية: وهي الأغراض المباشرة مثل المعاني والأفكار التي تتجلى بوضوح في المتن الخطابي، وبأسلوب مباشر يتطابق فيه المعنى الحرفي للغة مع قصد المرسل، فمثلا لم تخرج القضايا التي طرحها جلالته في القمة الخليجية-المغربية موضوعين استراتيجيين للمغرب يتعلقان

"بالعلاقات المغربية - الخليجية والشراكة الاستراتيجية بينهما، وقضية الصحراء المغربية والمستجدات الخطيرة وغير المسبوقة، وموقف المغرب منها"¹، بعد كلمة افتتح بها صاحب الجلالة ف شكر لخدام الحرمين الملك سلمان على استضافة القمة الخليجية المغربية بالرياض، ووصل الشكر لأصحاب السمو والسعادة بدول الخليج على دعمهم المستمر للمغرب ماديا ومعنويا من أجل مشاريعه التنموية الكبرى، والدفاع عن قضايا الوطن العادلة.

فمن خلال هذه العينة الخطابية مثلا، تتجسد كل أفعال الكلام السابقة والتي يوظفها جلالتة بأسلوب مباشر وصريح للدلالة على قصده الواضح والمباشر.

وغالبا ما يكون المقصد موضعيا والأسلوب مباشرا في الخطابات الملكية عموما، رغم الطابع التقني للعديد منها، وتتهادى مؤشرات الحماسة التي لا تغطي سوى بعض أجزائها، مع غلبة الإرادة المباشرة في التغيير بنفس الإرادة الراسخة في الإقناع والتأثير.

لذلك، يُلاحظ غلبة الأسلوب المباشر والطابع غير الحماسي في الخطاب الملكي، بنفس غياب الإيحاء عنها والرمز للدلالة على مقاصد كلية.

بالمقابل، وجدت في الخطابات الإيديولوجية الغيرية (الخطابات السياسية الحزبية او الخطابات الراديكالية الدينية أو الهوياتية...) طابع الحماسة تعبيرا عن مقاصد الموضوعية.

ولشروع هذه الظاهرة فيه، نجد عندهم تصويرا فنيا وتوظيفا لصور الخيال في خطاباتهم لعدم تمكنهم من تقديم تصورات وبرامج فعلية (عرض أحدهم على شريط فيديو تم تداوله على نطاق واسع برنامج حزبه الخاص بالشباب، فلم يجد ليحد أن مشكلة الشباب تتلخص في عدم وجود المال الكافي لشراء حذاء رياضي ونظارة شمسية وشرب فنان قهوة مع صديقه بالمقهي!).

بالمقابل، نجد أن العديد من الساسة ينخرطون في القالب الحماسي الذي ينسجم مع جو المعارك السياسية/الانتخابية، مما يبرر تسامحهم في الاحتكام إلى المستوى المضاميني لغياب مضمون لعلمهم السياسي والحزبي وندرة عتادهم الحربي، فيتجاهلون المضمون وتفرض عليهم المناظرة الإهتمام بالشكل والإشكالية، ويمعنون في استعمال الأساليب التلميحية، فيؤدي ذلك إلى ضعف أدائهم الإقناعي، فتفشل ربحهم بعد تبادل التهم حول حصيلة ربحهم.

فالخطاب السياسي الناجح يحتاج لخطيب ملهم يمتلك ناصية الفكر قبل اللغة، ولغة إحصائية وقدرة على التمرينات المقارنة التي تسعها لغة الأرقام، واستعراضا للأحداث وحديثا عن تداعياتها دون تجريح أو قذف أو تشهير، مع مزوجة الصناعة اللفظية بالعفوية في انتقاء التعابير.

هذا المعطى نجده في الخطابات الملكية ويظهر لنا في المقاصد الموضوعية في كل خطاب ملكي من خلال جملة من الأفكار والمعاني المباشرة التي يترجمها جلالتة باستعمال مختلف الأساليب المباشرة والواضحة كأسلوب الأمر والنداء والنهي، التي توظف تأدية لأفعال إنجازية صريحة تطابق قصده الموضوعي والصريح في الخطاب بغرض التأثير الجيد في جمهور التلقي وإقناعه بمحتوى الرسالة.

¹ - من الخطاب الذي وجهه جلالة الملك بمناسبة انعقاد القمة الخليجية بالرياض بتاريخ 20 أبريل 2016

وتساهم الأساليب السابقة وغيرها من الأفعال الإنجازية في بلورة المقاصد الموضوعية داخل الخطاب، وهي ما سأنتعرض إليه بشيء من التفصيل بمناسبة استعراضنا للاستراتيجيات المباشرة، بما فيها الاستراتيجية التوجيهية.

2- المقاصد الإجمالية: وهي المعاني غير المباشرة التي نستنتجها عن طريق المعاني الأولى وهو ما أشرنا إليه سابقا في سياق الحديث عن شكل الخطاب اللغوي وقصد المرسل.

حاولت التركيز على أبرز ما يمكن له التعبير عن المقاصد الإجمالية في الخطاب، من خلال ملمح عن أفعال الكلام غير المباشرة كما هي عند "سورل"، واقتصدت في هذا المقام حين قصدت راسا لتلك الكيفية التي يعتمد عليها المرسل أو المتكلم ليقول شيئا في وقت يقصد فيه شيئا آخر.

ومنه، فإن "سورل" يرى أن المقاصد الجمالية تصاحبها قوتان:

- "قوة إنجازية حرفية أو الفعل اللغوي المباشر"، إذ فيه تكون القوة الإنجازية مدلولا عليها بصيغة العبارة؛

- "قوة إنجازية متضمنة"، حيث يأتي القول في سياق معين حاملا لقوة إنجازية غير القوة الإنجازية التي يدل عليها مؤشر القوة الإنجازية.

وفي قول جلالته " ويبقى السؤال المطروح: ماذا فعلنا بما حققناه من تقدم هل ساهم فقط في زيادة مستوى الاستهلاك، أم أننا وظفنا ذلك في تحقيق الرخاء المشترك لكل المغاربة وإلى أي درجة انعكس هذا التقدم على تحسين مستوى عيش المواطنين؟"، تكمن القوة الإنجازية الحرفية في الاستفهام¹، بينما يخرج هذا الأسلوب إلى غرض تواصلية آخر هو الرجاء وتتمني تحقيق الرخاء المشترك لعموم المغاربة، وهو مقصد إجمالي تدل عليه باقي فقرات نفس الخطاب "غير أنني بعد الاطلاع على الأرقام والإحصائيات، التي تتضمنها هاتين الدراستين، والتي تبرز تطور ثروة المغرب، أتساءل باستغراب مع المغاربة: أين هي هذه الثروة وهل استفاد منها جميع المغاربة، أم أنها همت بعض الفئات فقط؟ الجواب على هذه الأسئلة لا يتطلب تحليلا عميقا: إذا كان المغرب قد عرف تطورا ملموسا، فإن الواقع يؤكد أن هذه الثروة لا يستفيد منها جميع المواطنين. ذلك أنني ألاحظ، خلال جولاتي التفقدية، بعض مظاهر الفقر والهشاشة، وحدة الفوارق الاجتماعية بين المغاربة".

نستنتج أن أسلوب الاستفهام غرض أصلي خرج إلى غرض فرعي هو الرجاء والأمل والتمني والدعاء باستدعاء مؤشرات علمية "تم اعتماد مؤشرات التنمية البشرية، لمعرفة مستوى الرخاء لدى الشعوب، ومدى استفادتها من ثروات بلدانها... وخلال تسعينات القرن الماضي، بدأ العمل باحتساب الرأسمال غير المادي كمكون أساسي، منذ سنة 2005، من طرف البنك الدولي... ويرتكز هذا المعيار على احتساب المؤهلات، التي لا يتم أخذها بعين الاعتبار من طرف المقاربات المالية التقليدية... ويتعلق الأمر هنا بقياس الرصيد التاريخي والثقافي لأي بلد، إضافة إلى ما يتميز به من رأسمال بشري واجتماعي، والثقة والاستقرار، وجودة المؤسسات، والابتكار والبحث العلمي، والإبداع الثقافي والفني، وجودة الحياة والبيئة وغيرها".

وهذا بالضبط ما اهتم به التراث العربي القديم من خلال عناية البلاغيين بقضية القوة الإنجازية المتضمنة واهتمامهم بوصف ظاهرة الاستلزام الخطابي من حيث "الأغراض الأصلية والأغراض الفرعية" وهو نفسه ما ذهب إليه النحاة العرب في إطار المعاني التي يخرج إليها أسلوب الاستفهام.

¹ - ابن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 186 :

في نفس السياق، يورد "جلال الدين السيوطي" في كتابه "الإتقان في علوم القرآن" معاني بعض الكلمات التي تتفرد بمعاني جديدة عند استعمالها في سياقات أخرى لتخرج بذلك عن معناها الأصلي، وكذا مراعاة تعدد معانيها أثناء عملية التأويل: "الهمزة تأتي على وجهين: أحدهما، الاستفهام، وحقيقته طلب الإفهام، وهي أصل أدواته، ومن ثم اختصت بأمور، أحدها: جواز حذفها، ثانيها، أنها ترد لطلب التصور والتصديق، ثالثها، أنها تدخل على أحدهما: التذكير والتنبيه والآخر التعجب في الأمر العظيم"¹.

وبهذا يؤكد "السيوطي" على أن العبارة اللغوية الواحدة بإمكانها أن تحمل أكثر من قوة إنجازية متضمنة إجمالية، إضافة إلى قوتها الإنجازية المباشرة الموضوعية.

وقد اقترح "طه عبد الرحمان"² في نفس المضممار شروطا محددة للفعل اللغوي، كما حددها "سورل" نفسه، والتي ينتقل بها المتلقي من المعنى الحرفي (المقصد الموضوعي) المباشر إلى المعنى المستلزم (المقصد الإجمالي) غير المباشر. يتعلق الأمر بتلك الشروط التمهيدية التي ينبغي أن يستوفيها الفعل الكلامي حتى يكون موفقا وهي أربعة:

- **شروط مضمون القضية:** وتحدد أوصاف المضمون المعبر عنه بقول مخصوص.
- **الشروط الجوهرية:** وتعين هذه الشروط الغرض التواصلية من الفعل التكملي، وهذا الغرض الذي يُلزم المتكلم بواجبات معينة.
- **شروط الصدق:** وتحدد الحال الاعتقادي الذي ينبغي أن يقوم به المتكلم المؤدي لهذا الفعل التكملي.
- **الشروط التمهيدية:** وتتعلق بما يعرفه المتكلم عن قدرات واعتقادات وإرادات المستمع وعن طبيعة العلاقات القائمة بينهما.
- ومنه، فإن الشروط التمهيدية هي التي تُساهم في تحديد الأفعال الكلامية ذات القوة الحرفية وتعدد قوتها المستلزمة.

من ذلك، اعتُبرت أفعال الكلام كتمظهر للقصد التواصلية، "ذلك لأن فهم القصد التواصلية للمتكلم لا يعتمد فقط على الدلالة اللسانية للقول، بل ينطلق منها ويتجاوزها بتشغيل كل أنواع المقدمات والمؤشرات والقرائن السياقية، ويجند لذلك قدراته الاستدلالية والاستنتاجية التي تدخل في اعتبارها وفي حسابها أية معلومة... سواء ذات علاقة بالعلامة اللسانية أو بالسياق التداولي".

وعليه، تأتي أهمية التضمين في الأفعال غير المباشرة، حيث يتم الانتقال من الفعل المباشر (الاستفهام) إلى الفعل غير المباشر (الطلب والدعاء...) بناء على معلومات مشتركة بين أطراف الخطاب، كما يمكن أن نلمسه في الشذرة الخطابية المولوية التالية: "كيف يمكن تحقيق التنمية الشاملة وعالمنا القروي يتخبط في مشاكل تضطر سكانه إلى التخلي عن الأرض التي جعلها الله ذلولا للاستنزاق منها والهجرة إلى المدن في غياب استراتيجية تنمية مندمجة قائمة على تنظيم الأنشطة الفلاحية وغيرها والاهتمام بالسكن والتعليم وتحسين مستوى التجهيزات الأساسية والحد من الهجرة بوضع خطة تراعي النهوض بالجماعات القروية وإنشاء أقطاب جديدة للتنمية في المراكز المحيطة بالحواضر وكذا تدبير التقلبات غير المتوقعة كالجفاف وما إليه": فقد مثل هذا الخطاب في ظاهره فعلا لغويا مباشرا، هو الاستفهام،

¹ - فتحة بوسنة: الانسجام في مقامات السيوطي، ص 37، نقلا عن: جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق وتعليق: فواز أحمد زمرلي، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 2003، ص. 357-358.

² - طه عبد الرحمان، مرجع سابق، ص. 261.

الذي يحيل بدوره على فعل لغوي غير مباشر هو الدعوة إلى تحقيق التنمية الشاملة للعالم القروي من خلال تثبيت الساكنة القروية ووقف نزيف الهجرة القروية نحو المدن والتمسك بالأرض للاستمرار منها، من خلال وضع "استراتيجية تنمية مندمجة قائمة على تنظيم الأنشطة الفلاحية وغيرها والاهتمام بالسكن والتعليم وتحسين مستوى التجهيزات الأساسية والحد من الهجرة بوضع خطة تراعي النهوض بالجماعات القروية وإنشاء أقطاب جديدة للتنمية في المراكز المحيطة بالحواضر وكذا تدبير التقلبات غير المتوقعة كالجفاف وما إليه"، وهو غرض تواصلِي خرج إليه أسلوب الاستفهام السابق. ومنه، فهناك انتقال من السؤال إلى الطلب والدعوة.

نظرا لاعتبار القصد من أهم أركان الدرس التداولي قديما وحديثا، ونظرا لأهميته ودوره التداولي في استراتيجيات الخطاب خاصة، فإنني سأحاول وفق المستطاع ترصد تجلياته العامة في الخطابات المولوية من خلال البحث عن المقاصد الموضوعية والإجمالية التي تشكل بصفة عامة.

فقد تحمل بعض الخطابات في ثناياها مقاصدا مباشرة وأخرى غير مباشرة وفق السياق وهدف الخطاب، لتكون بذلك أهم المقاصد الموضوعية التي يُعبر عنها، فتظهر وتتمظهر أساسا من خلال أساليب التوجيه كالأمر والنهي النداء.

وعليه، فلا بد أن يلاحظ من يمتلك عدة الملاحظة أن مقاصد جلالته الموضوعية في تضاعيف كل خطاب تتحول إلى مقاصد موضوعية أخرى تلائم الفترة المولوية للخطاب، فيتحول الحديث عما سيتم إنجازه إلى حديث عن المنجز ومساحات برمجة إنجازات أخرى مستقبلية وهكذا دواليك.

كما تعالج مواضيع جديدة تفرضها السياقات الزمنية الجديدة وتغير مزاج ومستوى وعي جمهور التلقي.

فبعد الخطابات الأولى لجلالته حول المشاريع الاجتماعية والتنموية، صارت الخطابات تتطرق لمواضيع جديدة أكثر فلسفة وتجريدا من المواضيع المادية الأولى من خلال أسئلة الهوية المتعددة للمغرب ومسألة الثروة والرأسمال اللامادي ومؤشرات التنمية... وفق نسق فكري جديد يعبر عن مقاصد أكثر موضوعية (ليس في موضوعاتها ولكن في مؤشرات قياسها وحسابها واحتساب جدواها من منطلق وقعها المباشر على المواطن).

وعموما، ستتضح هذه المقاصد من خلال جانبها التداولي عندما سينصرف حديثنا مفصلا عن الاستراتيجيات المباشرة (التضامن والتوجيه) وغير المباشرة (التلميح) بما فيها من أفعال كلامية مباشرة وغير مباشرة كذلك.

لكن قبل ذلك، يمكن أن نسأل أنفسنا عن سر الاهتمام بالمقاصد في الخطاب؟ وماذا عن مكان هذه الأهمية؟

يمكن تلمس الجواب عن الجدوى من خلال ما عرض له الباحثون عن أهمية المقاصد في الخطاب، قديما وحديثا، وذلك انطلاقا من أن المقاصد "هي لب العلمية التواصلية لأنه لا وجود لأي تواصل عن طريق العلامات دون وجود قصدية وراء فعل التواصل، ودون وجود إبداع أو على الأقل دون وجود توليف للعلامات"¹.

1- إسماعيل، صلاح، فلسفة العقل، دراسة في فلسفة سيرل، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2007، ص 169 وما يليها

ولأنها كذلك، فقد رأى "سيرل" أن المقاصد ذات تكوين بيولوجي، ولها أطر معينة في ذهن المرسل هي إفهام المرسل إليه، ولا يتحقق ذلك إلا إذا امتلك المرسل اللغة في مستوياتها المعروفة ليعبر عن القصد الذي يوصله إلى المرسل إليه.

نرصد من بين هذه المستويات مثلا المستوى الدلالي، من خلال معرفته بالعلاقة بين الدوال والمدلولات، ومعرفته أيضا بقواعد تركيبها وسياقات استعمالاتها، ومعرفته عموما بالمواضعات التي ينظم إنتاج الخطاب بها، وهو ما يقودني إلى اعتبار القصد في المواضعة ذاتها، لأنها لو تم النظر إلى إنشاء العلامات أو المواضعة عليها، فإننا نجد القصد ركيزة أساسية سواء العلامة المنتمية إلى اللغة الطبيعية، أو التي تنتمي إلى أي صنف آخر من العلامات.

لكن لا يقف دور القصد عند إيجاد العلاقة الدلالية في العلامة اللغوية بين الدال والمدلول، بل يمتد إلى استعمالها لاحقا في الخطاب وذلك من خلال تفكيك تلك العلاقة بين الدول ومدلولاتها على مستوى الألفاظ المفردة ذات المعاني المعروفة، ومن ثمة، في إعادة إنشاء العلاقة بين الدوال والمدلولات التي لم يكن بينها ربط من ذي قبل، مثلما يبدو في بعض الاستعارات والتشبيهات المقطعة من بعض الشواهد والمأثورات، والتي يوظفها جلالته لمدح تاريخ الكفاح ووصف محورية دور المؤسسة الملكية في قيادته والدعوة إليه.

فالمتبادر إلى ذهن المتلقي أن المرسل قد استعمل الدوال التي احتواها خطابه بوصفها دوالا على ذوات تنتمي إلى جنس الحيوانات (أسود الاطلس، أشبال، محاربة الفقر، التصدي للإرهاب..) أو هندسة المنشآت (البناء الديمقراطي والمؤسساتي)، وهو تأويل مستفاد من المواضعة اللغوية ابتداء، والحديث عن البناء الديمقراطي يحيل على معجم الهندسة المعمارية "وبصفتنا الساهر على صيانة الاختيار الديمقراطي، فإننا نؤكد تشبثنا بالتعددية الحزبية، التي وضع أسسها جدنا المقدس جلالة الملك محمد الخامس، ورسخها والدنا جلالة الملك الحسن الثاني، طيب الله مثواهما وناضلت من أجلها الأجيال السابقة".

وعليه، فإن المتلقي عندما يستوعب المعنى الحرفي للدلالات السابقة، سيتساءل: ما هذه الأسماء؟ فالشعب، وطارق، والجيش ليسوا حيوانات، فلماذا يخاطبون هكذا ويصورون بهذا التوصيف؟ والديمقراطية ليست بناء لتكون التعددية الحزبية أساسا رافعا لها، ولا يحتاج الاختيار الديمقراطي لأعمال صيانة وليس بكريمة عائلة لنتحدث عن صون البكر ربة الصون والعفاف.

لكن بتفكيكي للنظام العلائقي بين هذه الدوال ومدلولاتها المتعارف عليها، أجد أن هناك علاقات مجازية، تدل على خصائص متعددة في ذات الممدوح لكون كل دال من هذه الدوال متميز بخصيصة واحدة، ومنظومة ترابطات بين الجيش والأسود، بين طارق زياد والفتح وطرق مجالات اقتصادية لم تكن مطروقة من ذي قبل (الطاقة الريحية ضمن الطاقات البديلة، مشروع طنجة المتوسطي والتمين باسم طارق بن زياد)، وبين أبناء الوطن والأشبال، للدلالة على علاقة ومعنى متواضع عليه ليشاركوا فيه، وهو صفة الشجاعة قاصدا بذلك أن كلا من الأبناء وأفراد الجيش وطارق هم ليوث وأسود كناية عن الشجاعة والبسالة.

ويرتكز إنتاج المجاز كآلية على مرحلتين: التفكيك والإعادة، وهي الآلية التي تخدم قصد المرسل "المبدع" عند التعمية على من يفقه اللغة في مواضعاتها الأصلية، بقصد حصر الدلالة في أفق ضيق ولئلا يفقهها عبر المرسل إليه المقصود بالخطاب، وتسمى هذه الآلية "بالآلية التشفير".

لكن، مقابل هذا، فهناك من العلامات التي لا يتبين معناها إلا من خلال القصد أو قصد المرسل مثل الرمز (Symbole).

لذلك يذهب أنصار سيمياء التواصل (بويسانس، باريطو، مونان، غرايس، أوستين، فتجنشتاين، مارتنيه) إلى "أن العلامة تتكون من وحدة ثلاثية المبنى: الدال والمدلول والقصد، وما الخطاب اللغوي إلا علامة تنطوي عليها مقاصد المتكلم، وهذا ما يجعل معنى الخطاب يتعدد بتعدد السياقات التي يُنتج فيها"¹.

وعليه، تبرز أهمية المقاصد ودورها في عملية بث الخطاب وضرورة ارتباط القصد بالعلامة عند الإستعمال... لأن التواصل مشروط بالقصدية وإرادة المتكلم في التأثير على الغير، إذ لا يمكن للدليل أن يكون أداة تواصلية قصدية مالم تشترط القصدية التواصلية الواعية"، وبالتالي، فلا تواصل دون إدراك المقاصد.

يدفعني هذا إلى الحديث عن براءة الرسائل قبل أن أعرج في المطلب الموالي على حيادية الوسائل.

❖ خامسا- حيادية وسائل الإتصال الجماهيري ومستويات خدمة الرسائل

مبدئيا، لا يمكن بأي حال من الاحوال الحديث عن حيادية الوسائل في ظل تأثيرات واضحة لتلك الوسائل على الأفراد والجماعات داخل جمهور التلقي، والدعامات التي تعتمد عليها والشروط التي توظفها في التأثير وفق مسارات إيديولوجية سنورها باقتضاب لتعدد مستويات مقاربة هذا الجانب وتوزعها بين علم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع وارتباطها بالنسق الاتصالي.

يحدد التأثير والتأثر بموجب ما يتمخض عن مرحلتي المواجهة والتبادل في سياق إلقاء الخطاب الملكي، بعد فترة قد تطول أو تقصر (هي مرحلة التفاعل)، لنصل في محصلة الامر إلى قدرة المؤسسة الملكية على إثبات الصواب والمعقولية في طريقة صوغها لبراهينها وحججها، في مقابل تراجع جمهور التلقي أو الجماعة المغيرة لسلوكها بعد انبهارها بصواب الموقف الملكي الذي أثر في سلوكها وجعلها تغير موقفها وفق توافقات.

إجرائيا، يتجاوز الخطاب الملكي مستويات التواصل وعلاقات التأثير بين الأفراد إلى مستوى التأثير في الأفراد وحتى في المجموعات التي ينتسبون إليها (فحديث جلالة الملك عن "أبناء الصحراء الحقيقيين، الوطنيين الصادقين، الذين ظلوا أوفياء لروابط البيعة التي تجمعهم وأجدادهم، عبر التاريخ بملوك المغرب"، وليس على "الذين ينساقون وراء أطروحات الأعداء ويروجون لها، رغم قتلهم، فليس لهم مكان بيننا"، يحمل المجموعة الأولى (الوحدويون) على مقاطعة الفئة الثانية (الإنفصاليون) والتصدي لهم حتى يفيتوا إلى أمر الله ونداء الوطن ويرجعوا عن غيهم ("ومن تاب ورجع إلى الصواب، فإن الوطن غفور رحيم")².

¹- ابن طاهر الشهري، مرجع سابق، ص. 185.
²- من خطاب جلالة الملك إلى الأمة بمناسبة الذكرى الأربعين للمسيرة الخضراء

فإذا كانت الجماعة تؤثر في الأرض وتحمله على تغيير السلوك، فإن الخطاب الملكي يتوجه أيضا إلى الفرد لحمله على تغيير أسلوب الجماعة والتأثير في هذه الأخيرة والتصدي لها واستثمار ما يملكه من كاريزما: فلما أسند صاحب الجلالة رئاسة لجنة مراجعة الدستور للأستاذ عبد اللطيف المنوني، "لما هو مشهود له به من حكمة، ودراية علمية عالية بالقانون الدستوري، وخبرة حقوقية واسعة؛ داعين مكونات اللجنة إلى الإصغاء والتشاور مع المنظمات الحزبية والنقابية، ومع الفعاليات الشبابية، والجمعية والفكرية والعلمية المؤهلة، وتلقي تصوراتها في هذا الشأن؛ على أن ترفع إلى نظرنا السامي نتائج أعمالها"، فقد دعا ضمينا إلى إنصات أعضاء اللجنة للسيد المنوني لعلم صاحب الجلالة بموقعه الأكاديمي وقدرته على التأثير في باقي أعضاء اللجنة وتوجيه المناقشة والصياغة في الاتجاه الذي يريد أو أريد له.

وقد أبان التأخير الذي طال تشكيل الحكومة ووضعيتها العطالة التنفيذية لشهور عديدة عن ذكاء صاغة الدستور.

وبنفس قدرة الخطاب الملكي على التأثير بشتى الوسائل الإتصالية-الإعلامية، بقدر استطاعته تقديم نموذج متطور للخطاب الجماهيري، الذي يتجاوز طابع النرجسية والدوغمانية الحزبية إلى القدرة على النقد الذاتي قبل نقد باقي الذات، وإعادة التقييم والتقييم المستمرين، بالإضافة إلى أن التأثير في التفاعل السياسي والسوسيو-اقتصادي والثقافي (إننا لا نريد أن نجعل منها مناسبة لاستعراض حصيلة المنجزات، لأنها مهما بلغت، ستظل دون ما نرتضيه لك شعبي الوفي، وإنما نريدها وقفة تأمل وتساؤل مع الذات، بكل صراحة وصدق وموضوعية، حول ما طبع مسيرتنا من إيجابيات وسلبيات)، وبالتالي التأثير في الفاعلين الذين لا يملكون نفس القدرة على النقد الذاتي أو التراجع، ولو بنفس مصطلحات التهذيب المحور للتراجع ووصفه بالمراجعة، حين قال جلالتة "من منطلق الأمانة العظمى التي أتحملها، كملك لجميع المغاربة، أنساءل يوميا، بل في كل لحظة، وعند كل خطوة، أفكر وأتساؤل قبل اتخاذ أي قرار، بخصوص قضايا الوطن والمواطنين: هل اختياراتنا صائبة وما هي الأمور التي يجب الإسراع بها، وتلك التي يجب تصحيحها وما هي الأوراش والإصلاحات التي ينبغي إطلاقها. أما إذا كان الإنسان يعتقد أنه دائما على صواب، أو أنه لا يخطئ، فإن هذا الطريق سيؤدي به إلى الانزلاق والسقوط في الغرور"¹.

كما يحمل الخطاب ووسائل التواصل التي تحمله طلبات رأي وتقييم وتحليل وتعبير يوجهها الملك إلى شعبه، وبالتالي إشراكهم وحثهم على قيم التعاون والتنافس الشريف والتوافق كتفاعلات وعمليات تفاعلية تقتضيها المصالح العليا للوطن والمواطنين وتحقيق التماسك.

فوظيفة الإعلام والإعلان هنا وجهان لاستعمال واحد، حيث أن الإعلان يكمن هنا في الترويج للمنتوج الخطابي الملكي وتحديد موعد لعرضه وتوجيه الجمهور ولفت نظره للتعرض لمضامينه والإعراض عن جميع البرامج التي كان يتتبعها لحظة إلقاء الخطاب الملكي (حيث يتم وقف بث جميع البرامج مثلا لنقل وقائع افتتاح جلالة الملك للسنة التشريعية..)، ويتصل بحقلي الإعلام والإعلان عن الموعد الخطابي بين الملك وشعبه مستوى ثالث يتعلق بالدعاية التي ترمي إلى التأثير على السلوك والإقناع أكثر من دأبها على الإبلاغ.

¹ - من الخطاب الموجه إلى الأمة بمناسبة الذكرى الخامسة عشرة لاعتلاء جلالتة العرش

صحيح ان عملية التواصل الجماهيري من خلال التعرض الإختياري للخطاب الذي يستمع إليه او يقرأ مضامينه كل فرد من جمهور تلقي الخطاب الملكي، أولا من اختيار مصادر تمرير الخطابات الملكية والإطلاع على النوات التي يتفقون معها وتدعم قناعاتهم، أو لإرتباط ذاتي بالمؤسسة الملكية صاحبة الخطاب، أو هما معا.

وعليه، فكلما اجتمع قبول القناة والرسالة، تراجع مجال رفض الرسائل التي تحملها تلك الوسائل عن الملك وخطاباته.

إلا أن وسائل الإعلام العمومي تدعم الانتباه الإختياري من خلال توجيه حواس جمهور التلقي في فترة محدده من الوقت إلى شيء يتعلق بالخطاب الملكي أو بالمناسبة التي يرد في سياقها.

وتعتمد ذات القنوات في التأثير الإختياري على جمهور التلقي على كثافة المنبه وجلب الإنتباه، مساحات الموسيقى الوطنية والأغاني التاريخية التي ارتبطت بمرحلة من مراحل تاريخ المغرب (استقلال، المسيرة خصوصا)، وحتى مساحات الصمت التي تعقب لازمة "أيها المواطنون أيتها المواطنات، صاحب الجلالة يخاطبكم"، قبل إحداث تغيير على سكونية الشاشة من خلال موسيقى النشيد الوطني إيذانا ببّء الخطاب الملكي وتكرار ذات النشيد لإعلان انتهائه.

ما يميز البرامج التي تسبق أو تلي الخطاب الملكي وحتى النشرات الإخبارية التي تعيد بث الخطاب وتتلقفه باقي الوسائط صوتا أو صوتا وصورة أو كتابة من خلال التسجيل أو قصاصات وكالة المغرب العربي للأنباء، هو اضطلاعها بالعديد من الأدوار.

بنفس حرص الخطاب الملكي على التدعيم والتغيير والتذكير، نجد حرصا من لدن المختصين في البرمجة على ضمان اضطلاع وسائل الإعلام العمومي والخاص على:

- تدعيم دعم وتقوية بعض أنواع السلوك والمعتقدات، من خلال عرضها بشكل إيجابي بعد الخطاب الملكي أو الإحالة على ما يدعمها من برامج وثائقية ترصد مثلا المشاريع التي عرفها المغرب في إطار التنمية البشرية، أو تشجيع الإستثمار، أو تقوية البنيات التحتية، أو أفلام تسجيلية ألّفنا بثها عند حلول ذكرى ثورة الملك والشعب...؛

- تغيير القيم والآراء القائمة، عبر إقناع جمهور التلقي بأن المراد هو التغيير نحو الأفضل من خلال استطلاع الرأي بخصوص المضامين التي وردت في الخطاب الملكي أو استقاء شهادات لأمناء الأحزاب السياسية والمركزيات النقابية لحظات بعد إلقاء جلالة الملك لخطابه السامي: يقوم هذا النمط الإستدعائي لبعض الوجوه البارزة على مفهوم الإستعانة "بقادة الرأي" (على قلتهم في المغرب)، الذين يعيدون الحديث عن شق من الخطاب الملكي أو يتناولونه بمنطق استحسان مضامينه وتوقيته، فتتمر للمتلقي بكل اطيافه ولأتباع قائد الحزب السياسي أو المركزية النقابية فيحدث التأثير اعتمادا على موقف قائد الرأي، حتى دون تعرض جمهور التلقي من أتباعه ومنخرطي ومناضلي حزبه مُباشرة لوسائل الإعلام كمصدر أول للخطاب.

فنحن عندما نتحدث عن الرعاية الرسمية لجلالته كضامن لممارسة الحريات العامة، فمن البديهي أن نتحدث عن إعلام حر ونزيه ومسؤول، وإن كنا نقف في نهاية الأمر على وجود إعلام موجه، يُحرم من نعمة التنقيب وكشف الحقائق للرأي العام المغربي والدولي بشأن توجهات وحقائق كثيرة تتعلق بالسياسة والفلسفة السياسية وغائية توجيه هذا الإعلام والدعاية في تحديد دور الجماهير في السياق الذي يتوافق مع توجهات معينة في تسطير أولويات سوق الخبر وطبيعة تناول الأحداث.

يُشار أن ظهور وسائل التواصل التي لا تخضع للرقابة القبلية قد قلص مهام "حراس البوابة" الإعلامية وأدوارها في اختيار المعلقين عن تعلّقهم بالخطاب الملكي ومضامينه والسماح بدخول من تشاء ومنع من تشاء وما تشاء، حيث صارت العديد من المنابر الإلكترونية المرئية والمكتوبة والمسموعة تتوسع في رسم لوحة حول انطباعات عموم المغاربة بشأن الخطاب الملكي ومضامينه. ويساهم تبئير المواضيع عبر مفهوم ترتيب الأولويات وإعطائها ما تستحق من التفاصيل خدمة لمرامي التدعيم والتأثير.

بخصوص كيفية وحجم التأثير الذي تمارسه وسائل الإتصال في أوساط جمهور التلقي وعلى هذا الجمهور، يمكن القول أن سلطة وسائل الإعلام على المغاربة تتجاوز حدود التقييم، خاصة في ظل السياق الحالي لتعدد الوسائل وظهور قنوات التفاعل على مواقع التواصل الاجتماعي وظهور الجرائد الإلكترونية وفتح مجالات للتعبير.

بمنطق التأثير المطلق والمباشر في العلاقة بين وسائل الإعلام وجمهور تلقي الخطاب الملكي، يظل التأثير قصير المدى وبتأثيرات محدودة في فئة من الفئات، فلا يبقى بذلك منط الحديث عن وجود التأثير أو عدمه، إنما في مداه وحجمه.

بمنطق مدى التأثير والظروف التي يحدث فيها، يمكن القول أن الخطاب الملكي يؤثر على المدى الطويل من خلال حاجته لفترة طويلة من أجل القدرة على تغيير المعتقدات والقناعات والتصورات والمواقف، وليس على التغيير المباشر للسلوك (بما فيه سلوك الطبقة السياسية مثلاً¹، أو سلوك العاملين في قطاع ما²).

كما أن استمرار التعرض لوسائل الإعلام وتعرضها لمضامين الخطاب الملكي يحدث الأثر الذي يبتغيه صاحب الجلالة من خطابه، ويتم تطعيم المضمون الخطابي بجرات متتالية من الرسائل الإعلامية الداعمة والمثبتة للفكرة والمضمون الخطابي الملكي وفعالية نجاعة الفكر المولوي.

لذلك، قررت وأقررت مسبقاً بأن الأمر يستدعي تجاوز السؤال التقليدي حول التأثير أو عدمه إلى أسئلة أكثر عمقاً وإلحاحاً: كيف تؤثر؟ ومتى تؤثر مضامين الوسائل في جمهور تلقي الخطاب الملكي ومن خلال أية قنوات ووسائل؟.

فكل وسائل ووسائل الإعلام تؤثر بشكل عام على جمهور التلقي أو على فئة منه عبر الترويج لآراء معينة، والتعظيم على الآراء المخالفة خدمة لمرامي تعميم موقف رسمي وزيادة مساحات التعظيم، مع تشكيل إجماع ورأي عام يوافق التوجه الذي ارتضاه جلالة الملك لملف أو قضية معينة، وفق سلم أولويات الأجندة الاجتماعية أو السياسية أو السوسيو-تنموية والثقافية والديبلوماسية للمملكة.

فالخطاب الملكي والوسائل التي تمرر من خلاله تروم أولاً التعبير عن موقف جلالة الملك ورؤيته، وحمل من لا يحمل نفس الموقف على التغيير الضمني للموقف، وبالتالي التغيير المعرفي العام المرتبط بتصور صاحب الجلالة: فعندما قرر المغرب إطلاق مبادرة الحكم الذاتي في إطار مشروع الجهوية المتقدمة بأقاليمنا الصحراوية، كان الموقف الأكاديمي والديبلوماسي على موعد مع الردة "دون أدنى تردد" والتراجع تحت مسمى المراجعات عن كل ما سبق أن وثقته أدبيات التوثيق البحثي البحث في الجامعة والندوات والبحوث والاطاريح حول الإستفتاء.

¹ - كما كان الشأن مثلاً في خطابه الموجه إلى الساسة قبيل الإنتخابات من أجل حثهم على تفادي الزج بالمؤسسة الملكية لتحقيق مآرب انتخابية ضيقة

² - أو كما كان الشأن بالنسبة لانتقاد جلالته أداء الإدارة والقائمين عليها من خلال استهجانته للصعوبات الكثيرة والكبيرة التي تواجه المواطن في علاقته بالإدارة والتي "تبتدئ من الاستقبال، مروراً بالتواصل، إلى معالجة الملفات والوثائق؛ بحيث أصبحت ترتبط في ذهنه بمسار المحارب".

كما تمت إحالة العديد من الوثائق والتقارير التي تتضمن لوائح الإستفتاء والمراسلات المتبادلة لسنوات مع مبعوثي ومسؤولي بعثة "المينورسو" على الأرشيف.

حديثي عن الموقف الملكي الذي يرد في الخطاب الملكي يقتضي الحديث عن المواقف التي يتخذها جمهور التلقي والتي لا تخرج عن مواقف ثلاث:

- **موقف اللاموقف** الذي يعبر عنه المتلقي الذي يتأثر بالرسالة دون مقاومة للمفردات التي يختارها جلالة الملك ويستملكها دون اجتهاد؛

- **موقف المتلقي المفكك** الذي يفك رموز الرسالة برؤية مختلفة وفق البيئة التي ينتمي إليها، ولكن في إطار مقارنة مدى انسجام مرجعيته السياسية أو الثقافية أو الإقتصادية مع المرجعية التي أعلن من خلالها جلالة الملك عن رزمة من التصورات والمشاريع والمبادرات (مثلا، يمكن أن نصنف مثلا الجناح الراديكالي الأمازيغي ضمن هذه الفئة التي تقرأ المضامين الهوياتية للخطب الملكية من مدى انسجامها مع المرجعية الثقافية المغربية ومدى تقدم مسار تفعيل الطابع الرسمي للغة الأمازيغية في الفضاءين العمومي والمشهد الثقافي والإعلامي).

- أما **الموقف الثالث** فيمكن أن نتلمسه من خلال بعض الخطابات المناوئة التي تتبنى جزءا من القيم المهمة التي ترد في الخطابات الملكية لا بنية تبنيها، ولكن بطوية مقارعتها والتهكم بشكل سمج عليها بسبب مناصبة العداء للمؤسسة أو لخطابها ومبادراتها.

كما تمارس ذات الوسائل دور التنشئة الوطنية على المواطنة من خلال حرص العديد من الخطابات على التذكير بقيم الانتماء للوطن وقيم المواطنة، حيث يرى جلالته أننا لا نملك "عصا سحرية نزع بها حل جميع هذه المشاكل وغيرها ولكننا عازمون بحزم وعن قريب ان شاء الله على مواجهتها بما نتوفر عليه من امكانيات وبما نملك من طاقات معنوية هي زادنا وعمدتنا وبما يلزم من تعبئة وتضامن وتضحية ومن صدق واخلاص وضمير حي يقظ وهي شروط بدونها لا تكون المواطنة الصالحة ولا يتحقق أي تقدم بل لا يكون الايمان"¹.

وبقدر قدرة الخطاب الملكي على الإستشارة الجماعية واستنهاض الهمم للفعل، كما كان الشأن في الخطابات التي دعت المواطنين للتصويت في الإستفتاء بشأن إصلاح الدستور او للمشاركة في الإنتخابات والتعبير الحر والنزيه عن إرادة الهيئة الناخبة وإفراز حكومة تعبر عن الشعب المغربي وتحمل تطلعاته ("نود التوجه إلى كل الأطراف الفاعلة في الممارسة الديمقراطية، من هيئة ناخبة، وأحزاب سياسية، وسلطات عمومية، برسائل واضحة: فالمواطنون أقول: إن المواطنة المسؤولة تستوجب المشاركة الإيجابية، في كل مجالات الحياة الوطنية. فالمطلوب منكم ليس مجرد الإدلاء بأصواتكم فقط، ولا النظر إلى السياسة على أنها لحظة اقتراع، أو مسألة احتراف حزبي، تحتكره الطبقة السياسية وحدها. بل المطلوب هو الانخراط القوي والمستمر في العمل السياسي الملتمزم، على كل مستوياته الديمقراطية، وأوراشه التنموية"²)، بقدر قدرته على الضبط الإجتماعي والحث على الفعل في خطابه الموجه لعموم المواطنين أو لفئة منهم في جهة من جهاته ("إننا نتكلم عن أبناء الصحراء الحقيقيين، الوطنيين الصادقين، الذين ظلوا أوفياء لروابط البيعة التي تجمعهم وأجدادهم، عبر التاريخ بملوك المغرب... أما الذين ينساقون وراء أطروحات الأعداء ويروجون لها، رغم قتلهم، فليس لهم مكان بيننا. ومن تاب ورجع إلى الصواب، فإن الوطن غفور

¹ - من خطاب جلالته بمناسبة تخليد بلادنا إليك الذكرى السادسة والأربعين لثورة الملك والشعب

² - من نص خطاب صاحب الجلالة الملك محمد السادس بمناسبة افتتاح السنة التشريعية 2006-2007

رحيم" ¹)، أو خاصتهم ("بدل الخوض في التنابر بالألقاب وجري البعض وراء مصالح أنانية فردية أو أشكال من الشعبوية المضرة بكل مكونات هذا المجتمع السياسي الذي ننتظر منه النهوض الكامل بوظيفته الدستورية المتمثلة في تربية وتأطير المواطنين" ²) أو فئة منهم في جهة ما ("ضد من خانوا وطنهم وقتلوا غدا وعمدا أناسا أبرياء... لقد دقت ساعة الحقيقة معلنة نهاية زمن التساهل في مواجهة من يستغلون الديمقراطية للنيل من سلطة الدولة، أو من يروجون أفكارا تشكل تربة خصبة لزراع أشواك الانغلاق والتزمت والفتنة، أو يعرقلون قيام السلطات العمومية والقضائية، بما يفرضه عليها القانون من وجوب الحزم في حماية حرمة وأمن الأشخاص والممتلكات" ³)؛ هؤلاء الذين جعلوا من الابتزاز مذهباً راسخاً، ومن الربيع والامتيازات حقاً ثابتاً، ومن المتاجرة بالقضية الوطنية، مطية لتحقيق مصالح ذاتية. كما نعرف أن هناك من يضعون رجلاً في الوطن، إذا استفادوا من خيراته، ورجلاً مع أعدائه إذا لم يستفيدوا. وهنا أقول: كفى من سياسة الربيع والامتيازات، وكفى من الاسترزاق بالوطن!).

الحديث عن أعداء الوطن يجرنا إلى الحديث عن أعداء الملك، من خلال الأصوات الناعقة التي خرجت من جلباب المؤسسة العسكرية (كما الشأن بالنسبة للضابط المبلس من صفوف الجيش محمد أديب، والجالطي والطبيب العسكري المغربي مراد الصغير أو بعض الغربان التي اختلط عليها الموقف بتجربة الإغتراب والغربية فصارت تتبنى خطاباً غريباً عن قواعد الانضباط العسكري)، أو مدنية تنكرت لمرجعيتها الوطنية وارتباطها برباط البيعة (نموذج بيتر شمراخ ومحمد عليوين وريشارد عزوز وتاشفين بلقرين و قبلهم علي لمرباط).

في سياق الحديث عن تجربة هذا الأخير لأنها كانت منصة المناصب الأكثر هيكلية وتنظيمية للمؤسسات ولممارسة الحق في الاختلاف باسم حرية الصحافة من خلال جريدته الساخرة "دومان"، يمكن القول أن آخر العنفود زببية وآخر بنات المشهد الإعلامي الساخر والساحر كانت أسبوعية دومان: لما ظهرت أسبوعية "دومان" في الأكشاك، لاح لأول وهلة للمتبعين آنذاك بشير انفراج سياسي وحقوق، فاعتبروا أن النسق السياسي المغربي أصبح أكثر فهماً أو تفهماً على الأقل لفكرة حرية صحافية تنخرط في خدمة المشروع الحداثي، بعد أن تعاقبت الحرية تعاقداً مجتمعياً مع السلطات التي اختزلتها أدبيات روسو في ثلاثية لازالت تآبى ضلعاً ضليعاً يجعلها رباعية بعيدة عن الخيام وعن مآدب اللئام.

أسبوعية دومان لم تكن حاملاً لخطاب صحافي نطقه سفاهة علي لمرباط (ومن باب التسفيه نعتة بذلك)، بقدر ما كانت تجميعاً لشذرات خطابية تناثرت على منابر القراء التي فتحتها بعض الجرائد الوطنية لتطفح بالسخرية من واقع محلي تديره تذبذبات من أداء حكومي لا تحكمه الحكمة وتعوزه الحكامة ويستتجد عند إنتاجه للضرورة الملزمة بالتحكيم الملكي.

حققت دومان قصد التواصل الجماهيري مع الشارع ومع المثقف، وحتى مع من تضعهم أمام فوهة مدفعها مشكلة مشكلة للسلطات السياسية ومنبراً للانعتاق، للتفكيك وللتشكيك بالنسبة للقارئ، ومساحة تحريرية للبوح والمكاشفة وللاكتشاف، مشكلة بذلك فتحة "حقوقياً وتعبيرياً" مكن من فتح ملفات فتحت فيها فمه بالغمز واللمز والهمز حتى من كان لا يُسمح له ولا يُسمح له فتحه إلا وهو مُسجى على كرسي طبيب الأسنان.

1- من خطاب جلالتة إلى الأمة بمناسبة الذكرى الأربعين للمسييرة الخضراء

2- من نص الخطاب المخد للذكرى الأولى لاعتلاء جلالة الملك كرسي العرش

3- شذرات من الخطاب الملكي الموجه بتاريخ 29 ماي 2003 أياماً فقط بعد الاعتداءات الإرهابية التي ضربت الدار البيضاء

كشكل تواصل، شكلت دومان شكلاً تواصلياً وتوصلياً يُحسن النبش في مقابر النسيان والأساطير، وإن أُؤخذ بجريرة النهش في الأشخاص والتصرفات" فالهزل في التصوير والكلام كان كالمح في الطعام، فكان هجومها تنكيت ومدحها تنكيت!

وباسم التماذي في استعمال الحرية اتخذت في حقها إجراءات سلبية للحرية رغم أن "اللسان ما فيه عظم وطبيعة القلم الساخر تا تُحكم"، فلم يُدرك أن جزاء الأمر بالمعروف والضرب بالكفوف أو سحب جميع الاعداد من الأكشاك ومصادرتها ورفها بين الرفوف!

كانت دومان تحترم شكلاً تدبير فضائها التحريري الشائك والمشكك، وتُبدع في وضع القصص للقصصات والمقالات التي تسببت في "إقالة العديد من المسؤولين"، والكاريكاتير الذي يجيد القذف وإثارة العير والنفير، والحرب المعلنة والإعلانات غير المعلنة وفق خط تحريري متجانس مع الخط التسويقي والاستسواقي، على نحو ساق البعض في قراءات ارتبط فيها الساق بالساق لربط ذلك بتجنس المرابط بجنسيات أخرى...

بنفس التحامل والحمولة التحريرية الشرسة وفي أعمدة منتظمة ومُنظمة غير نظامية، حمل ورثة لمرباط مشعله في مشعل شحتان وأريري المتناقض مع الملمس الحريري لنيشان (وإن كانت إخراجاً وإخراجاً وتوزيعاً ذات شأو وشأن)، وطور بعدها نيني الذي يمكن وصفه بـ"شمقمق الصحافة الساخرة" مجانبق التقارير الخبرية الحارقة الخارقة، ومساحات النار والنور ووخر الدبور لكل جسد استأسد أو حاول تسييد ثقافة التبئيس واليأس والتبئيس، وتشييد ثقافة كتابة تكرر الخل وصناعة الملل وتحمل على الزلل.

استوقفتني كقارئ وكصانع للخبر حينها باحات مساحات البوح والفضح الوريثة، كل ومضة لمّاحة، وكل مقالة "ذباحة" تقطع مع المقالات "للحلاحة" في باحة التزلّف، وتصنع الحدث السياسي والحديث الجماهيري، وإن كانت تقع تحت طائلة المتابعات القضائية وتوقع صكوك تغريمها لصالح غريمها وتزيد مبيعاتها والاشتراكات التضامنية لمُغرميها نكايّة بمُغرميها.

لاحظت أيضاً أن الصحف التي تتألق داخل مملكة السياسة هي تلك التي تخلق ببدائلها اللفظية الموقف، وتجعلك تتجول في حدائق المترادفات ودائرة المتناظرات حتى تقتفي أثر الكلمات وهي تعيد صياغة موقف من المواقف دون تشهير أو قذف يقذف بالقائمين عليها في غياهب المعتقلات أو في الإستجداء بعد الخروج من ردهات التغريمات.

انزلت بعض الصحف في مواقف حملتها على جعل أعدادها اللاحقة لأعدادها الملاحقة والمصادرة تؤدي وظيفة الاعتذار وإفساح مجالات لممارسة حق الرد ورد القلم المسلول إلى غمده للخروج من المأزق كالنرق بين خيوط النسيج.

وبعد أدبيات الهجاء والإغظة تتحول إلى مقالات تلهج بالثناء والدعاء بعد حملة الإدّعاء، تنخرط مع صحافة الرصيف في الثغاء، تنخرط في حفظ المنازل، وتُسأَل عن مغبة وتبعات العبث بالمقدسات وعدم صون المقامات...

هو الصحافي المنتعل أو الحافي يتواطؤ على السياسي بالكتابة فيورطها معه ويتأمر بها وعليها فتغدو مقالاته حمالة الحطب تنفث اللهب بلغة الخشب في وجه الآخرين وتلفح حتى من أوقدها: نعم، لقد كانت حمالة إذلال يمكن أن تتحول بدهاء إلى حمالة دلالات وتمشي بدلال يغلفه إجلال وإكبار باقي الصحف لأنه أقلامها وُقِّت في فهم الحرية والتحرير، وإعمال مصفاة وقمع التكرير لنلا تتعرض لقمع ومقص ومصادرة الغير.

الصحافة الساخرة غير المسخرة كما عرفتْها وعشت بين ظهرانيها هي في اعتقادي تلك القدرة على النبش في أركيولوجية الأحاديث والحوادث وتوليفها في صيغ تلطف نتوءات السياسة و تمتص الشحنة الانفعالية للقضاء وتعبر ببلاغة مُحايثة لمضمون الخطاب السياسي، سواء جاءت خبراً أو تراءت موقفاً أو صيغت بياناً أو تبياناً أو بيئة -واليمين على من أنكرها- أو سيقّت مساق الفعل أو رد الفعل.

بين السياسة و الصحافة وبين الحدث السياسي و الحديث الصحفي تلازم وعلاقة مريديّة- طرحنا دائماً بشأنها سؤال من منهما الشيخ ومن منهما المريد للمزيد؟

فحيثما وجدت موقفاً سياسياً، إلا اقترن به موقف صحفي مُتجل أو مُستتر ثاوٍ وراءه، وما من فعل سياسي إلا حامل أو منتج لخطاب صحفي: هذا الخطاب إما أن نلفيه خطاباً ذليلاً أليفاً وحليفاً، فهو ساعتئذ امتداح وزهو وتبرير وتفسير؛ وإما هو خطاب استنكار واستنفار للاستياء الجماهيري، وتظلم واحتجاج يغذيه التعبير عن الاحتياج...

إن الإبحار في شروط عقد وانعقاد القِران الصحفي-السياسي يُرسي بتساؤلاتي على حافة شاطئ التعبير الصحفي الساهر والساحر لأعيد طرح السؤال الحائر حولها على نفسي: كيف تشتغل؟ وكيف يشتغل العقل السياسي بها أو معها من خلال اشتغاله فيها وعليها؟

كيف ينتظم معجم التداول بين الدولة والسلطة الصحفية؟

وبأي معيار- وبلا "مُعيار" (بتسكين الميم) - يتم التخابط بين الخطيب الصحفي في خطوبة الود والورد على خطبة أخيه السياسي لاستمالة الجماهير؟

كيف يمكن للصحافي الفصيح أن يصيح و يعف قلمه عن التلميح، و يقف في وجه الريح فلا يُريح ولا يستريح؟ كيف يتجنب الذبح باسم الرحمان فِداءً للأوثان؟

كيف يستطيع نيني من جديد تحدي إعصار "نينيو" التغريعات القضائية والأحكام التي وُطنته غريماً ودون أن تشاء زعيماً؟ كيف استطاع أصحاب بعض الأقلام المأجورة في صحف مهجورة أن يوقعوا أنفسهم في شطرنج المواقع والعلاقات والإعلانات رغم عدم إتقانهم لعبة اللغة عبر شطرنج الكلام، وعجزهم عن استرقاق اللغة قبل استرقاق أذهان جمهور القراء؟

لا أحد يجزم بقدرته على استكشاف المعاني النازمة والروابط القائمة بين الصحافة وتناولها لكل صور الخبر والفعل والفاعل السياسي، والصورة السياسية الواحدة تتكرر على لسان عدد من المنابر، وإن كان كل منهم يصوغها على مناويل وتعاليق أدائية تُوحي بامتلاكه لحقوق ملكيتها الأدبية...

كلما اتسع مجال الكلام، قويت حظوظ الإقناع أو بغية الاستهواء أو الإغواء بمقالات لا تحمل تفكيراً بقدر ما تحمل تكفيراً، تحمل إجهاداً وتنتظر جهاداً واجتهاداً، وتحمل لعقاً ولا تحمل عقلاً، وتطفح بلقنة دون عقلنة لسننِها اللغوي وسننِها لمعجم يتم تركيبه وفق سنن الشنن الدلالي والشنن التحريرية... الاصطياد في ماء الآخرين وتجفيف منابع ماء وجههم جعل الخط التحريري لعدد من الجرائد و المجلات فكراً ذرائعياً يبرر بدل أن يفسر، وجعل خطاباتها تجرّيمية تُمعن في الإغاة والاستفزاز والابتزاز، متوسلةً بمجازات الإيحاء والتضمين حتى تضمن مقابلاً لسكوته على شكل إعلانات أو هبات لنقادي هبّاتها التشهيرية.

مطاطية المواقف الصحفية والتمرينات اللغوية في صحافتنا تترد إلى جوهر الفعل السياسي في لحظات الانحياز نحو كتل الضغط يؤكد ما تحفل به موسوعات التوثيق الصحافي من ضروب التركيب التي تركز مهارات البلاغة الصحافية الجديدة التي انحسرت فيها سلطة المصريح به أمام تضخم سلطة المسكوت عنه، على نحو يقتضي تزويد القارئ بَعْدَ مهارة القراءة السياسية الجديدة القدرة على فهم كيفية تمرير القنوات وحقن الولاءات والإعداد النفسي للجماهير قبل اختراقها وممارسة التنويم لتعويم الفضاة التدبيرية لبعض الملفات ذات الاهتمام الجماهيري.

نادرة هي المقالات التي جرّت على أصحابها الولايات القضائية بعد تقليبها من طرف الأجهزة الاستخباراتية الداخلية المختصة، ليس فقط على وجوها التركيبية النحوية والدالية المعجمية والسياقية النصية والمقامية التداولية، بل حتى على مستويات ما فوق السياق وفيما وراء المقام وفق حيثيات قرائية أخرى، ربما لم تخطر حتى لمحرر المقال ببال، ليجر بذلك على نفسه الوبال.

نادرة هي الوجوه الصحفية التي تهوى المواجهة، وكثيرة هي تلك التي ترنو إلى رنين الدراهم وصناعة الملاحم، وتصدّر الواجهة والانخراط في نوادي الوجاهة.

فجل الأقلام تخشى تقليم أطافرها وتغرسها في حقل المصالح والعلاقات والتودد والتزلف، ليظل خطها التحريري ذا تعاطي حريري يُدثر تحت خوانه علاقة التَّسَرِّي القائمة بين الفعل السياسي واللا فعل الصحفي، ويَشيْ بشهر عسل يتحول إلى أسل عند قصور اللغة الصحفية عن المدح، أو عندما تقصر يد مُسَخَّرِ الأقلام المأجورة عن المنح.

بالعودة بعد هذا القوس إلى الخطابات الملكية، يمكن الإسترسال للقول بأنها تشكل -بمعية الوسائل التي تمرر من خلالها- صياغة جديدة للواقع ولرؤية الواقع بعيدا عن حروب الكراسي والمواقع، حيث أورد جلالته بصريح العبارة ما يلي: "مؤكدین تقدیرنا للأحزاب الجادة، ومن خلالها للمواطنين، الذين لم تكن مشاركتهم المواطنة في الانتخاب، بروح التنافسية والثقة، في مسارنا السياسي المتقدم، لتتخصر في يوم الاقتراع فقط، وإنما ينبغي أن تكون تجسيدا للتعبئة الدائمة، ولإعادة الاعتبار لنضالية العمل السياسي، من قبل كل الفاعلين. ولن يتأتى ذلك، إلا بالقطيعة مع البؤس، سياسة وواقعا. فالسياسة بمعناها النبيل، ليست مجرد حملة انتخابية، أو وصلة إشهارية، بل هي فن الممكن بين الحاجيات والإمكانات، والتوعية الدائمة للشعب، والعمل التنموي الميداني، الكفيل بإيجاد حلول ملموسة لمعادلتها الصعبة. فالفرق بين الواقع والأمل، هو العمل، ثم العمل، ثم العمل"¹.

حديثي عن جدلية حمل الخطاب وما يحمله من رسائله الذي تتحمل وسائل الإعلام مهمة نقل مضامينه وفق مخطط إعلامي، يرتبط أيضا بجدلية التأثير والتأثر، وشروطه وكيفياته ومجالاته.

هي كلها عناصر تقتضي الحديث عن العاهل كمصدر للخطاب ولرسائله وعن نفوذ المؤسسة ومستويات مصداقيتها التي تؤثر في مقبولية الرسالة، ومن ورائه نفاذ الرسالة الملكية لتتصدر سلم أولويات البث التلفزيوني، مع تبني هذه الوسائل لوسائل صياغة وتكرار عرض ومؤثرات معينة لتثبيت وعرض الرسالة والخطاب الملكي.

ورغم تعدد أشكال ووسائل الإعلام والاتصال الجماهيري وتوزعها أساسا بين المقروءة والمرئية والمسموعة، فإن دورها التفاعلي وتغير درجات التأثير يتغير بتغير مقدرة كل وسيلة من الوسائل على التف ضمتن تفاعل جمهور تلقي جمهور الخطاب للمضمون الإعلامي.

1- من نص خطاب صاحب الجلالة الملك محمد السادس الافتتاحي للسنة التشريعية 2007-2008

في هذا السياق، يرى عالم الاجتماع البريطاني "جيدنز" أن "طبيعة الوسيلة الإعلامية المستخدمة في المجتمع تؤثر في بنية المجتمع أكثر مما يتركه المضمون أو المحتوى أو الرسالة التي تنقلها وسائل الإعلام" مضيفاً أن "وسائل الاتصال في الوطن العربي، مع استثناءات قليلة هي بنت السلطة أو ربيتها، وهي الأدوات الأساسية للتعبئة السياسية، أو الشحن العاطفي النفسي"، معتبراً أن "المواطن العربي مجرد هدف للاتصال الذي يستهدف قولته في قوالب ذهنية معينة، ذات أبعاد محددة، تزيد من سلبيته، وقلة مشاركته في الحياة السياسية، هذا وإن كانت مشاركته السياسية مطلوبة أصلاً أو مرغوباً فيها من قبل النظم الاجتماعية القطرية"¹.

ولا يتأثر جمهور التلقي بالخطاب الملكي كتأثره بباقي الخطابات السياسية أو الدينية وفق خطاطة تحمل في محورها الزمني تأثيراً تلقائياً ومباشراً على المدى القصير، بقدر ما يتحقق التأثير بعد فترة زمنية طويلة من خلال تراكم المتابعة الإعلامية، حيث يؤثر العرض الهائل للأفكار والقناعات المبنوثة عبر وسائل الإعلام على جمهور التلقي على مر الزمن: ألفت هذا النموذج عند دراستنا في الإجازة المطبقة للتواصل بكلية ابن امسيك في محور التواصل والعلاقات العامة "نظرية دوامة الصمت" التي تقوم على فرضية مفادها أن قيام وسائل الإعلام بعرض رأي الأغلبية، يقلل من قيمة من يتمترسون وراء خنادق المعارضة.

كما يساهم التأثير التراكمي في الغرس التدريجي للرسائل التي تنقلها تلك الوسائل، فيتأثر جمهور التلقي دون إدراك ووعي بما تعرضه وسائل الإعلام بشكل متواصل، فيصاب بنوع من التبدل وعدم الإحساس، فتكرار المناظرة الفاضحة عبر هذه الوسائل يصنع في نفوس الناس شيئاً من اللامبالاة تجاه ظواهر أخرى تدعم التطبيع والتضييع مع كل جرعة من جرعات الإلهاء.

وبغض النظر عن تصنيف وتصنيف الخطاب الملكي، فتصنيف وتصنيف وترتيب أولويات الأخبار ليتصدرها الخطاب الملكي، يخضع لسلم أولويات يقوم بها القائمون على الاتصال بالإذاعة والتلفزة المغربية، لافتراض قيام قسم البرمجة وقسم الأخبار بترتيب اهتمامات جمهور التلقي أو الإيحاء له أن برامج بعينها أهم من غيرها من خلال إعطائها حيز أكبر من الوقت والإعلان عنها بشكل متكرر لترسيخها في الذهن أو لفرضها على العائلات في أوقات ذروة المشاهدة حول المائدة.

ويتحكم القائمون على قسم الأخبار والبرمجة بمختلف وسائل الإعلامية الرسمي في مضمون باقي الرسائل التي تسبق أو تلي الخطاب الملكي، على النقيض من باقي الرسائل التي تتيح لهم هامش قرار بشأن مآلها، حيث تمر الرسالة الإعلامية بعدة مراحل وهي تنتقل من المصدر إلى المتلقي ليتم اتخاذ القرار حول إذا ما كانوا سينقلون الرسالة التي تلقوها أو يعزلون عن ذلك، أو ستطراً عليها بعض التغييرات والتعديلات، فينشرون ما يريدون، ويمنعون ما لا يريدون نشره.

فقرار وسيطرة القائمين على سلسلة الاتصال والبرمجة بدار البريهي وغيرها تعلق إلى حين كلما تعلق الأمر بالخطاب الملكي، على عكس باقي المواد التي يمكن أن تُنشر أو تُقبر أو تُبتر: فحراس المعبد الإعلامي يُحكمون حراستهم على المنافذ فلا ينفذ من بوابة الإتصال الجماهيري إلا سلطان خطاب السلطة، قبل أن يوصد نفس البوابة المظلة على الجماهير في وجه خطابات أخرى.

¹ - جيدنز أنطوني، علم الاجتماع، ترجمة: الدكتور فايز الصُبّاغ، الطبعة الرابعة، مؤسسة ترجمان، المنظمة العربية للترجمة، ص. 78

إلا أن مساحة التناول الحر لمضمون الخطاب الملكي توسعت مع جيل الوسائل الحديثة كالصحافة الإلكترونية ومواقع الاخبار والمعرفة المختلفة على شبكة الانترنت، وكذلك مواقع التواصل الاجتماعي (كالفيس بوك وتويتر والإستغرام) وأصبحنا نعيش فصول تشكيل البناء الإدراكي والمعرفي للفرد والمجتمع، وتجاه قضايا مجتمعة والقدرة على تحليلها واستيعابها للاتخاذ السلوك المناسب حول هذه القضايا، حتى صار لوسائل الإعلام الحديثة دورا في التمرد على باقي الأشكال التقليدية وفي إعطاء نمط فكري وتناول غير تلك التي ترسمها الوسائل التقليدية الرسمية.

فالمُطلع على البوابة الإلكترونية Karimroyal عبر عنوانها المعروف¹، والتي خصصها أحد رفاق صاحب الجلالة بالمدرسة المولوية، يدرك غزارة الرصيد الوثيقي والوسائط الجديدة للتواصل بين الملك وشعبه والتي تتيح للمتصفحولوج إلى خصوصيات القصر العامر ومن يعمره من الأسرة والعائلة العلوية.

كما انحسرت سلطة الوسائل التقليدية للاتصال الجماهيري، فصار جمهور التلقي يتجه إلى وسائل الإعلام التي يرى أنها تشبع فضوله ويقوم بالتعرض الإنتقائي لهذه الوسيلة أو تلك، في الوقت الذي يريد، ووفق الخط التحريري الذي يرى أنه يتفق مع أفكاره واتجاهاته، فوصلنا إلى نمط مشاهدة وتتبع لما تقدمه وسائل الإعلام من معلومات تتبعها نظرة تحليلية وتفكير من المشاهد والمتتبع والمتصفح في كل ما تطرحه تلك الوسائل من قضايا هامة تشكل الرأي العام الواعي.

ويلعب الإعلام دورا محوريا في تشكيل الرأي العام بشأن الخطاب الملكي ومضامينه وطريقة وتوقيت طرحه لعدد من الرؤى المُحايدة لإثارة عدد من القضايا والموضوعات والملفات التي تشكل مدار النقاش العمومي ومنابر القراء ومنندياتهم، والارتقاء بالبناء المعرفي والإدراكي للمواطن في كافة المجالات في أفق خلق مجتمع مطلع قادر على التفكير والتحليل وربط واقع الأحداث والمشاهدات من حوله بالصورة الذهنية التي ترسمها وسائل الإعلام.

وعليه، أصبحنا نعيش لامركزية الإتصال، ولم يعد للنظام السياسي (القطاع الوزاري المكلف بالداخلية تخصيصا حيث كانت ترتبط حقيقة الإعلام بأمر الوزارات) أو المقربون من السلطة من أصحاب النفوذ أو سيطرة رأس المال القدرة على بسط سطوتهم على الجهاز الاعلامي وتسخيره كأداة لبث رسائل إعلامية بغرض حشد الرأي العام لصالح القضايا التي يتبناها الخطاب الرسمي للنظام السياسي، فظهرت منابر أخرى تزاخم القنوات الرسمية وتنزع عنها رداء التمثيلية وتهشها لتشجيع عن برامجها وبرمجتها الرداءة، لترتد إلى جوهر التعبير عن الواقع لتحظى بنسب مشاهدة: هذا الواقع أفرز ضربا استراتيجيا موجعا لمركزية الاتصال عبر القنوات الرسمية، وتم تفتيت هذه المركزية بسبب تزايد عدد البرامج، وزيادة فاعلية التفاعلية والتزامنية والشيوع والذيع، وتحولت الجماهيرية التي كانت للإذاعة والتلفزة.

وقد كان لهذا التطور، سواء في الخصائص والسمات أو الوسائل الاتصالية أو مضامين (برامج) هذه الوسائل (سواء كانت اجتماعية أو ثقافية أو تربوية أو تعليمية أو اقتصادية أو رياضية أو سياسية...)، بالغ الأثر على توجهات الجماهير واهتماماتها.

فبعد أن كانت توجهاتهم عامة أصبحت خاصة، وبعد أن كانت وسائل الأعلام عمومية وتتوجه إلى جماهير في إطار اتصال جماهيري عبر وسائط جماهيرية mass-média، أصبح بمقدور الفرد اختيار المادة التي يستهلكها، فانتقل الفرد من تلقي المضامين المحدودة إلى استخدام المضامين المتنوعة التي يذهب هو إليها ولا تأتيه أو تفرض عليه، فتحوّلت الجماهير من "جمهور" إلى "مستخدمين" للوسائل الإعلامية، حيث يورد أحد المختصين في هذا المجال أن الفرد "انتقل من مجرد التلقي المتمثل بالقراءة و المشاهدة و الاستماع ومن ثم التأويل الصامت إلى استخدام المضامين الإعلامية عبر الإعلام الجديد من خلال التعليق والتقييم و لتأليف والطباعة و لإرسال، والنسخ واللصق والتصنيف.. وهكذا يصبح للمستخدم خيار وإرادة تدفعه إلى التفاعل مع ما يشاء من المضامين الإعلامية. وقد يقوم بذلك بشكل مترامن فقد يقوم بالاستماع إلى ملف صوتي و الدردشة مع أحد الأصدقاء و حفظ ملف فيديو على جهازه في نفس اللحظة"¹.

إلا أن الأمر لا زال على ما هو عليه بالنسبة للتعامل مع الخطاب الملكي وظروف تلقيه، إذ لازال الخطاب الملكي يخضع لنموذج "الاستجابة الشرطية البسيطة"²، فيتلاءم بذلك على مستوى التأثير وشروط التلقي مع وجهات النظر المبكرة حول قوة وسائل الاتصال بصفتها تمارس تأثيراً مباشراً يعتمد على المصدر أكثر مما يتوقف على طبيعة الشخص المستقبل، أي عموم المواطنين في واقع الحال.

يدفعني هذا المعطى الجديد إلى تفصيل الحديث حول جدوى "الإعتماد" الحصري من طرف القصر على القنوات الرسمية -على علائها- لتقديم الخطاب الملكي أو التعليق على مضامينه.

إلا أن الإستراتيجيات الخطابية الملكية لتمرير الرسائل والرد على الخطاب المضاد للحقل المؤسساتي الرسمي، لا يمكن أن تجد لجمهور التلقي سبيلاً لولا وجود مقتضيات الإعتماد على وسائل اتصال جماهيري تقليدية رسمية تتقاطع مع الوسائل الحديثة بموجب انتقالات ومخططات تواصلية قائمة على محوري الإعتماد والإعداد للإعداد بالحقل الملكي الرسمي وبالانتقالات والمحطات التي شكلت فواصل على عهده.

¹ - كامل خورشيد مراد: الاتصال الجماهيري والإعلام (التطور - الخصائص - النظريات)، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، 2011، ص 422

² - سامية محمد جابر: الاتصال الجماهيري والمجتمع الحديث: النظرية والتطبيق، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية، 1994، ص 160

المبحث الثاني

النسق الإستراتيجي "لاعتماـد" الوسائل والإعتماـد عليها لتمرير الرسائل



إذا كانت العملية الاتصالية تبتدئ عادة بالمرسل لتنتهي بالمستقبل، فإنها في سياق العلاقة التواصلية الخطابية بين الملك وشعبه تبتدئ بالشعب وتنتهي به وإليه.

فالرسائل والإشارات التي يتوصل بها جلالة الملك شخصيا من شعبه (شكايات وتظلمات وسؤال جلالته لمن يلاقي بهم عن الحال والمآل)، أو من القائمين على خدمة رعاياه في الداخل والخارج (من خلال تقارير تحليلية، ومراسلات ومذكرات إخبارية، ونقاش عمومي في إطار الأسئلة البرلمانية والبرامج الحوارية على القنوات الوطنية وكذا وسائل الأتصال الحديثة)، فضلا عن الزيارات الميدانية لجلالته، الرسمية وغير الرسمية، تشكل رسائل أولى من شعب مرسل إلى ملك يلتقط الإشارات والعبارات والأسئلة بكل الوسائل، فلا يرد السائل ولا يؤخذ المُسائل، بقدر ما يرد على أسئلته ومساءلاته بشكل رسمي (خطابات ملكية) أو غير رسمي (الإقالة أو العزل من المهام، كما حدث لوزير الشباب والرياضة السابق بعد تداول فضيحة ملعب الأمير مولاي عبد الله بالرباط)، ليرتد صدى المستوى المقولي للخطاب الملكي وأفعاله الأنجازية إلى الفعل الملازم لتعليمات جلالته وتوجيهاته من خلال تفاعل القائمين على رعاية وخدمة مصالح رعاياه وأيضا من خلال تراجع مؤشرات الإنفعال.

وقبل الحديث بشكل مفصل في هذا المبحث عن فضل المقاييس المهارية والكفاءة الاتصالية لجلالته كفاعل، والفعالية الثاوية وراء استعماله لبعض الوسائل في تمرير الرسائل المكتوبة والإشارية، والتطوير الذي استطاع تجاوز أسباب القصور في وصول ما يبث من داخل ردهات القصور والخروج الميداني لتعديل أشكال ومسارات الرسائل الملكية، لا بد من الإنطلاق من علاقة التواصل الجماهيري بين الملك والشعب كما تجسدها عادة الخطابات الملكية كممارسة لفظية، وغير اللفظية، والتي لا تخرج عموما عن هذا المسار، لتشكل بذلك لمبحثنا المنطلق والمدار، من خلال الحديث عن مفهوم "النظام" في العملية الاتصالية إلى اتصال النظام، والوسائل التي يستثمرها أو تدعوا للإستثمار حتى يجني الفعل الملكي ثمار فعالية التواصل الجماهيري مع عموم شعبه.

وعليه، سيتناول هذا المبحث القضايا الأساسية التي تفسر عملية الاتصال الجماهيري باعتبارها عملية تتميز بخصائص بيولوجية وسيكولوجية واجتماعية، وتمر بمراحل أساسية يشترك فيها المرسل والمستقبل والرسالة والأداة، خاصة في سياق الاتصال الجماهيري وخصائصه التي تميزه عن سائر أنواع الاتصال الأخرى.

لذلك، سأعرض لأبرز الخصائص التي تميز وسائل الإعلام عن بعضها، وفق مقارنة مُقارنة بين ثنائية القنوات التقليدية الرسمية لوسائل القطب العمومي في مقابل القنوات الحديثة الحرة والمفتوحة للتواصل الجماهيري.

ونظرا للتطور الذي ميز الساحة وحملته المؤسسات الاعلامية المتناثرة بين صحافة وفضاءات مفتوحة أو أفلت كالنزق الديجيتالي من بين خيوط تحكمها، سأطرق ضمن محاور المبحث للمستوى الوظيفي لكل وسيلة من وسائل الإعلام.

كما سأركز على مستويات التأثير والإقناع والإبداع في اختيار الرسائل المكتوبة والبصرية الداعمة في إطار استراتيجية تواصلية ستحدد ملامحها في الفصل الموالي الذي أفردته بشكل مستقل للوظائف السياسية للاتصال الجماهيري ولوسائله في خدمة مرامي الانسياق الجماهيري، لأجيب عن كيفية اشتغال السلطة بالرأي العام وعليه قبل أن تتشغل به، فضلا عن قنوات التصريف الأيديولوجي لخطاب السلطة وتواصلها مع فئات عريضة من الرأي العام.

المطلب الأول/ نظرية الاعتماد وسياقات الإعداد للإعداد بخطاب الملك

❖ أولا- نظرية الاعتماد على الوسائل

يختلف الكثير حول فلسفة وأهداف وأساليب الإعلام، مرئياً كان أم مسموعاً أم مقروءاً، فيرى البعض أن الإعلام مصدر من مصادر التنقيف وتوسيع المدارك، في حين يرى البعض الآخر أن الإعلام يتيح متابعة الأحداث حال حدوثها فقط لا غير، لكن فريقاً آخر ينظر للإعلام على أنه وسيلة ترفيه تُبدد الملل، وهناك من يرى أن للإعلام قيمة تربوية تنعكس على النشء، وتوجه أفكاره واتجاهاته، وإيمانه بالقضايا المختلفة.

كان الاعتماد على وسائل الإعلام العمومي ووكالة المغرب العربي للأنباء ضرورة تقتضيها مقتضيات التواصل لجماهيري بين الملك وشعبه، قبل أن تصبح نسبة الاعتماد أقل مما كانت عليه لاختلاف العرض الإعلامي وتنوع الوسائط التواصلية التي جاءت في إطار الفورة التكنولوجية واختلاف وتنوع أهدافها واستراتيجياتها باختلاف الأهداف والحاجات الفردية لكل فرد ومجموعة وفئة من جمهور تلقي الخطاب الملكي، فأصبح الخطاب الملكي أمام تقسيمات فتوية لجمهور التلقي ووسائط ووسائل إعلام تحددها طبيعة الأهداف، ودرجة الاهتمام به وطبيعة الاعتماد على وسائل معينة للنفوذ إلى كل بيت أو كل مجموعة في مكان عمومي أو أمام شاشة حاسوب، والقدرة على ضمان نسبة مشاهدة بعد حمل المتلقي على مجاهدة النفس لقطع لحظة استفادة أو استمتاع ببرنامج ترفيهي للإسترخاء بعد يوم شاق والإستعاضة عن برنامجه المفضل بالإنصات المطول للخطاب الملكي والإنصات الفطن والإستماع بدل الإستمتاع.

ويستمد الخطاب الملكي قوته من قوة انتقاله من النموذج الخطابي لوالده الملك الراحل الحسن الثاني القائم على الإقناع نحو نموذج نظام معلومات حول دينامية الإقلاع في شتى المجالات، مع سَوَق المصادر النادرة للمعلومات التي لا تسيطر عليها إلا الدوائر المأذونة والتي تسطر من خلالها مستقبل الأمة ومسارها.

وعليه، يعتمد جمهور التلقي على وسائل الإعلام الرسمي كنظام فرعي لإدراك وفهم نظام فرعي آخر هو قنوات التواصل الملكي مع دوائر البحث واللجان الإستشارية والجهات المالية الدولية المانحة.

وإذا كان الخطاب الملكي لا يحتاج البتة لمنبهات لحمل الجمهور الملتمزم الذي يتتبع وسائل الإعلام (مشاهدة واستماعاً وقراءة وتصفاً) للحصول على المعلومات داخل وسائل الإعلام التي تتفاعل مع النظم الأخرى كالنظام الاقتصادي، السياسي، والديني حيث تنشأ علاقة متبادلة بين وسائل الإعلام وهذه الأنظمة، فإن جمهوراً هاماً وقاعدة اجتماعية عريضة تستدعي اعتماد وسائل أخرى ضماناً لأعداد جمهور التلقي وخدمة لتأثير معرفي وعاطفي أكبر، ومراعاة بناء الخطط التواصلية للقصر في إطار تدبير التواصل في الازمات وتوضيح المواقف ووقف مد الإشاعة، التي كانت ستعصف في وقت ما بمصادقية المؤسسة لولا الخطاب التي كرس تنزيه المؤسسة الملكية عن التوقيع الحزبي ورفضها البات أي شكل من أشكال الزج باسم الملك في الصراعات الحزبية الانتخابية الضيقة ("وبصفتي الساهر على احترام الدستور وحسن سير المؤسسات وعلى صيانة الاختيار الديمقراطي، فإنني لا أشارك في أي انتخاب، ولا أنتمي لأي حزب. فأنا ملك لجميع المغاربة مرشحين، وناخبين، وكذلك الذين لا يصوتون. كما أنني ملك لكل الهيئات السياسية دون تمييز أو استثناء. وكما قلت في خطاب سابق، فالحزب الوحيد الذي أعتر بالانتماء إليه هو المغرب. ومن تم، فشخص الملك، يحظى بمكانة خاصة في نظامنا السياسي. وعلى جميع الفاعلين مرشحين وأحزاباً تقادي استخدامه في أي صراعات انتخابية أو حزبية"¹).

كما يستمدون من الخطاب الملكي ما لا يجدونه في الخطاب الحزبي ولا في الصحافة الحزبية من معلومات عن الأحداث الجارية، تتيح لجلهم فهم سياقات ما يدور ومنحى التحول وخوارزميات الاستقرار ورؤية صاحب القرار.

إلا أن الحديث عن الفهم يدفعني للحديث عن اختلاف مستويات ودرجات اعتماد جمهور التلقي على وسائل الإعلام العمومي للفهم، حيث يتمتع جمهور الصفوة مثلاً بمصادر معلومات أكثر تنوعاً من المصادر المتاحة للجمهور العام الذي يعتمد على وسائل الإعلام باعتبارها أحد مصادره الأساسية، بنفس اختلاف الأهداف والمصالح والحاجات الفردية بين جمهوري العامة والخاصة.

فعند الإنصات إلى الخطاب الملكي وبالتالي إلى القناة التي تبثه أو تعيد بثه لتبثه أو تستضيف محللين للنقاش بشأن مضامينه، نجد أن كل فئة من فئات جمهور التلقي تقف عند عتبة من العتبات التالية:

- **عتبة الفهم**، مثل معرفة الذات والحال والمآل في إطار الفهم الاجتماعي والسياسي لما يقع بالمغرب؛

- **عتبة التوجيه** المستفاد من المضامين التوجيهية للخطاب الملكي كما وجهها صاحب الجلالة لمن يعينهم أو لم يكن يعينهم الأمر، وتوجيه التفاعلي لعموم شعبه نحو الفعل الذي يجب أن يقوم بالمهام، فيستفيد كل مواطن أفلنت منه البوصلة من شذرات خطابية حُبلى بالدلالات لعن كيفية التعامل مع مواقف جديدة أو صعبة.

- **عتبة الفضول أو الإنصات الطارئ للخطاب**، حيث تشمل هذه الفئة مجموعة من جمهور التلقي الذين تلنقى أعينهم بالخطاب الملكي في إطار اهتمام باقي أفراد الأسرة بالخطاب الملكي ومضامينه، أو قطع البث لربط الإتصال بقاعة العرش أو بقبة البرلمان لبث الخطاب الملكي...

¹ - من نص الخطاب الذي وجهه صاحب الجلالة إلى الأمة بمناسبة تخليدها الذكرى 17 لتربيته على عرش أسلافه الميامين

وفي محصلة الأمر، تتداخل العناصر الرئيسية للعملية الاتصالية للنموذج المتكامل (وسائل الإعلام - المجتمع - الجمهور) ومجموعة معقدة من المتغيرات وفق النسق التالي:

1- ينشأ الخطاب الملكي تبعا لمستويات تدفق الأحداث وتواتر الوقائع وتغير بعد النظم السوسيو-اقتصادية والثقافية والسياسية فتحدث علاقات اعتماد متبادلة بين هذه النظم الاجتماعية يؤثر الخطاب الملكي الحديث عنها عبر وسائل الإعلام، فيدلي بدلوه لنقل تتبع صاحب الجلالة لهذه الديناميات في إطار الإطلاع من جهة، والإضطلاع من جهة أخرى بالمهام والتكاليف الشرعية للإمامة الكبرى ("حريصا على الوقوف الميداني على إنجاز الإصلاحات الهيكلية الكبرى التزاما مني بعهد البيعة المقدسة"¹)؛ "تتوالى السنوات، بعون الله وتوفيقه، منذ أن تحملنا أمانة قيادتك. وهي أمانة جليلة بشرف خدمتك، وجسيمة بما تنطوي عليه من مسؤوليات أمام الله، وأمام التاريخ، وعظيمة بما تحمله من التزامات تجاه جميع المغاربة. ونحنفل اليوم بالذكرى السابعة عشرة، لعهد العرش المجيد، ونحن أكثر اعتزازا بما يجمعنا من روابط البيعة الوثقى"²؛ "في هذا اليوم الذي نحتفي فيه جميعا بالذكرى الأولى لاعتلائنا عرش أسلافنا الميامين مستخلفين لأداء الرسالة وحمل الأمانة سائرين على نهجهم القويم في قيادتك وإعلاء شانك والارتقاء بك. وإنها لخير مناسبة لتأكيد الوفاء الصادق الذي تبادلناه وتجديد العهد المقدس الذي يلحم بيننا بأواصر البيعة الشرعية التي تطوق عنقك وعنقنا متجددة عبر ثلاثة عشر قرنا من تاريخنا الحافل المجيد مشدودة إلى العصر الحديث برابط دستوري ديمقراطي متجدد"³؛ "لقد حرصنا على أن نستفتح خيرا بختم هذا الظهير الشريف، بمدينة خنيفرة، في مستهل سلسلة من زياراتنا، لعدة مناطق من المملكة مستهدفين تجديد الصلة برعايانا الأوفياء، في أماكن إقامتهم وعملهم، حيثما كانوا، متوخين من تفقدنا الميداني المتواصل لكل أرجاء وطننا العزيز، واللقاء بكل فئات شعبنا الوفي، التأكيد على أن قلب المغرب النابض يوجد حيثما يوجد ويعيش المواطنون المغاربة"⁴.

تلتقط الخطابات الملكية جميع الإشارات والمؤشرات التي ترد في تقارير الجهات المعنية، وما يشهده صاحب الجلالة من خلال زيارته التفقدية والميدانية ("وهنا أستحضر المشاكل التي تعيشها بعض المدن كالدردار البيضاء مثلا، التي أعرفها جيدا، وتربطني بأهلها مشاعر عاطفية من المحبة والوفاء، التي أكنها لجميع المغاربة... ومنذ ذلك الوقت وأنا أحرص على القيام بجولات تفقدية لمختلف أحيائها للوقوف على أوضاعها. كما أتابع مختلف البرامج والمشاريع الهادفة لتجاوز الاختلالات التي تعيشها"⁵)؛ "هكذا انطلقنا في لقاء مباشر معك ومعاينة ميدانية لأحوال كل فئاتك وجهاتك خاصة المحرومة منها"⁶؛ "وبموازاة المجال الاقتصادي، يعد الجانب الاجتماعي ركيزة أساسية، لما نقوده ونتابعه ميدانيا من أورش تنمية في كافة ربوع المملكة"⁷؛ "وهو قرار نابع من جوهر نظام الملكية المغربية الاجتماعية، ومن مذهبنا في الحكم، القائم على جعل النهوض بالأحوال الاجتماعية لمواطنينا، في صلب انشغالنا، سياسيا وميدانيا"⁸.

هذا التوجه الملكي نحو الميدان ينسجم مع مقاربة تدبيرية أسسها لها والده الملك الراحل الحسن الثاني وقبله ملوك الدولة العلوية، حيث قال جلالتة في معرض حديث صحفي خص به أسبوعية "باري ماتش" الفرنسية أن "الملك لم يكن يتواجد دائما في الرباط وحدها. وإنني أتذكر عندما كنت صغيرا أن والذي لم يقض بالرباط خلال إحدى السنوات سوى 18 يوما من أصل 365 يوما. لقد كان والذي رحمه الله يقول دائما أن "عرش العلويين على صهوات جيادهم" وأنا لا أنوي التخلي عن هذا التقليد. وبالإضافة إلى ذلك، فأنا أريد أن أطلع على الأمور ميدانيا بنفسني وأن أقف على واقع بلادي".

¹ - من خطاب صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله بمناسبة افتتاح السنة التشريعية 2007-2008

² - من الخطاب الذي ألقاه جلالة الملك بخنيفرة وأعلن فيه عن وضع الطابع الشريف لجلالتة على الظهير الشريف المحدث والمنظم للمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، وهو المعهد الذي سبق لجلالتة الإعلان عن قرار إحداثه وتحديد مهامه، في خطاب العرش الذي وجهه للأمة بمناسبة الذكرى الثانية لاعتلائه سدة العرش

³ - من نص الخطاب المخد للذكرى الأولى لاعتلاء جلالة الملك عرش أسلافه الميامين

⁴ - من نص الخطاب السامي الذي وجهه صاحب الجلالة الملك محمد السادس إلى الأمة بمناسبة الذكرى العاشرة لاعتلائه العرش

⁵ - من الخطاب الذي وجهه صاحب الجلالة إلى الشعب المغربي بشأن مضامين مشروع الدستور الجديد لسنة 2011

ويتميز كل مجتمع بثقافة خاصة تعبر عن القيم والتقاليد والعادات وأنماط السلوك التي يتم نقلها عبر رموز لفظية وغير لفظية تحدث العمليات الدينامية لنشر الثقافة، وتشتمل هذه العمليات على قوى تدعوا إلى ثبات المجتمع والحفاظ على استقراره من خلال الإجماع والسيطرة، والتكيف الاجتماعي والحفاظ على وضع الستاتيكو.

كما توجد أيضاً في المجتمع قوى أخرى تدعو للصراع والتغيير، وتتم هذه العمليات على مستوي البناء الكلي للمجتمع، أو بين الجماعات، أو المراكز الاجتماعية المرتبة بشكل تصاعدي، ويتضمن هذا البناء عناصر رسمية وغير رسمية.

2- تؤثر عناصر الثقافة والبناء الاجتماعي للمجتمع على وسائل الإعلام إيجاباً وسلباً، وهي التي تحدد خصائص وسائل الإعلام التي تتضمن: الأهداف والموارد، والتنظيم، والبناء، والعلاقات المتبادلة وتتحكم هذه الخصائص في وظائف تسليم المعلومات التي يتحكم فيها عدد الوسائل الإعلامية المتاحة، ودرجة مركزيتها، ويؤثر ذلك بالتالي على الأنشطة التي تمارسها وسائل الإعلام أو ما يطلق عليها تحديد السياسات.

بذلك، تؤثر عناصر الثقافة وبناء المجتمع على الأفراد، ويساهم ذلك في تشكيل الفروق الفردية والفئات الاجتماعية، والعلاقات الاجتماعية، ويعمل النظام الاجتماعي أيضاً على خلق حاجات للأفراد ويقضي كل منهم وطره من وسائل الإعلام، فمنه من ينال منها الفهم، ومنهم من يجد فيها التوجيه، في الوقت الذي لا تربط العديد منهم بها سوى علاقة التسلية.

كما تزخر أدبيات البحث العلمي في مجال النظريات الإعلامية، بالعديد من المؤلفات والمراجع العلمية عن النظريات ونشأتها وتطورها وأنواعها.

ويقسم الباحثون النظريات الإعلامية إلى الأنواع التالية:

● **النظريات المتعلقة بالقائم بالاتصال:** تصنف بعض النظريات على أنها مرتبطة بالمرسل أو القائم بالاتصال، ومن هذه النظريات ما يلي:

أ. نظرية الرصاصة أو الحقنة تحت الجلد: تعتمد هذه النظرية على أن وسائل الإعلام تؤثر تأثيراً مباشراً، وسريعاً في الجمهور، وأن الاستجابة لهذه الرسائل مثل رصاصة البندقية تؤثر بعد انطلاقها مباشرة؛

ب. نظرية الغرس الثقافي: تفترض هذه النظرية أن الجمهور يتأثر بوسائل الإعلام في إدراك العالم المحيط به، وتزيد معارفهم، خاصة الأفراد الذين يتعرضون بكثافة لوسائل الإعلام؛

ج. نظرية ترتيب الأولويات: تصنف هذه النظرية على أنها من نظريات القائم بالاتصال، ذلك لافتراض النظرية أن وسائل الإعلام هي من يقوم بترتيب اهتمامات الجمهور من خلال إبراز القضايا التي تستحق، وإهمال قضايا أخرى. فيبدي الجمهور اهتمامه بهذه القضايا دون غيرها.

• **النظريات المتعلقة بنوع التأثير الإعلامي** الذي تحدثه وسائل الإعلام في الجمهور، وهو تأثير يتوزع بدوره على تصنيف نوعي ثلاثي:

أ. **التأثير المباشر** (قصير المدى): يرى هذا النوع من النظريات، التأثير المباشر لوسائل الإعلام في الجمهور. ومن هذه النظريات نظرية الرصاصة الإعلامية؛

ب. **نظريات التأثير التراكمي** (طويل المدى): يرى هذا النوع من النظريات أن تأثير وسائل الإعلام لا يظهر مباشرة، وإنما بعد فترة زمنية طويلة من خلال تراكم المتابعة الإعلامية. ومن أمثلة هذا النوع نظرية دوامة الصمت القائمة على فرضية: أن قيام وسائل الإعلام بعرض رأي الأغلبية، يقلل من أفراد الرأي المعارض؛

ج. **نظريات التأثير المعتدل لوسائل الإعلام**: يرى المنظرون لهذا التصنيف أن وسائل الإعلام تعمل داخل نظام اجتماعي، وتراعي الخصائص النفسية والاجتماعية للجمهور، وأنه ينبغي مراعاة جميع الظروف والعناصر المتصلة بالاتصال. ومن هذه النظريات، نظرية ترتيب الأولويات.

• **أما النظريات المتعلقة بالجمهور**، فهي نوع يرتبط بالجمهور المستخدم للمواد الإعلامية.

ويقوم هذا النوع من النظريات على أساس أن الجمهور يستخدم وسائل الإعلام بسبب دوافع نفسية أو اجتماعية.

ومن هذه النظريات يمكن أن أنتقي منها ما يلي:

أ. **نظرية الاستخدام والإشباع**: تفترض هذه النظرية أن الجمهور يستخدم المواد الإعلامية لإشباع رغبات كامنة لديه، وأن دور وسائل الإعلام هو تلبية الحاجات فقط؛

ب. **نظرية الاعتماد على وسائل الإعلام**: تعتمد فكرة هذه النظرية على أن استخدامنا لوسائل الإعلام لا يتم بمعزل عن تأثير المجتمع الذي نعيش داخله، على أن قدرة وسائل الإعلام على التأثير تزداد عندما تقوم هذه الوسائل بوظيفة نقل المعلومات بشكل مميز ومكثف.

بالنسبة لهذه النظرية الأخيرة، يحدد الاعتماد المتبادل بين النظم الاجتماعية ونظم وسائل الإعلام كيفية تطوير الناس اعتمادهم على وسائل الإعلام لإشباع حاجتهم النفسية والاجتماعية، مما يخلق التنوع في تأثيرات وسائل الإعلام على الأفراد.

3- تقوم وسائل الإعلام بتغطية الأحداث التي تقع داخل النظم الاجتماعية المختلفة، ومن الأشخاص داخل هذه النظم، وتنتقي وسائل الإعلام بعض القضايا والموضوعات التي تشكل رسائل وسائل الإعلام المتاحة للجماهير.

4- **العنصر الرئيسي** في هذا الإطار المتكامل هو الأفراد كأعضاء في الجمهور المتلقي لوسائل الإعلام، وهم أيضا جمهور تلقي الخطاب الملكي من خلال ذات الوسائل. هؤلاء الأفراد لديهم بناء تكامل للواقع الاجتماعي تم تشكيله عبر التنشئة الاجتماعية والتعليم والانتماء إلى جماعات ديموغرافية، وعوامل التكيف الاجتماعي، والخبرة المباشرة، ويستخدم هؤلاء الأفراد وسائل الإعلام لاستكمال بناء الواقع الاجتماعي الذي لا يدركونه بالخبرة المباشرة، وتتحكم علاقات الاعتماد المتبادل بين وسائل الإعلام والنظم الاجتماعية الأخرى في تشكيل رسائل المعلومات للجماهير.

5- حين يكون الواقع الاجتماعي محدداً ومفهوماً للأفراد، ويلبي حاجاتهم وتطلعاتهم قبل وأثناء استقبال الرسائل الإعلامية، لن يكون لرسائل الإعلام تأثير يذكر سوى تدعيم المعتقدات والقيم وأنماط السلوك الموجودة بالفعل. وعلى النقيض، حين لا يكون لدى الأفراد واقع اجتماعي حقيقي يسمح بالفهم والتوجيه والسلوك، فإنهم يعتمدون على وسائل الإعلام بقدر أكبر لفهم الواقع الاجتماعي، وبالتالي يكون لهذه الوسائل تأثير أكبر على المعرفة والاتجاهات والسلوك، لذلك يجب الأخذ في الاعتبار درجة اعتماد الأفراد على وسائل الإعلام للحصول على المعلومات كوسيلة للتنبؤ بآثار هذه الوسائل على الأفراد.

6- تتدفق المعلومات من وسائل الإعلام لكي تؤثر في الأفراد، وفي بعض الحالات تتدفق المعلومات أيضاً من الأفراد لكي تؤثر في وسائل الإعلام، وفي المجتمع ككل، ويتخذ ذلك بعض الأشكال على سبيل المثال، فالاعتراض الجماهيري الذي يزيد من مستوى الصراع في المجتمع، أو يؤدي إلى تكوين جماعات اجتماعية جديدة وغيرها من الأحداث المماثلة قد تؤدي إلى تغييرات في طبيعة العلاقات بين النظم الاجتماعية، ونظم وسائل الإعلام، مثل تمرير قوانين جديدة يتم تصميمها لتغير سياسات تشغيل وسائل الإعلام.

لذلك، فإن علاقات الاعتماد المتبادل بين وسائل الإعلام وأجزاء أخرى من الكيان الاجتماعي، يجب أن تمر بتغيير من أجل أن تبقى المجتمعات في بيئات متغيرة، ويكون مثل هذا التغيير المتكيف بطبيعاً في العادة، وغالباً ما يكون غير مخطط ومن ثم فإنه من الصعب إدراكه في الوقت الذي يقع فيه.

واهتم الباحثان "ملفين دي فلور" و"ساندرا بول روكيش"¹ بتوضيح كيف تساعد علاقات الاعتماد في تفسير آثار التعرض لرسائل وسائل الإعلام الخاصة بمعتقدات وسلوك الفرد، وهو اهتمام مركزي بالنسبة لأولئك الذين يستخدمون نهجاً إدراكياً لتفسير تأثيرات وسائل الاتصال الجماهيرية على جمهورها.

فالأشخاص الذين اعتمدوا على التلفزة لتحقيق تفاهم اجتماعي مثلاً كان عليهم أن يختاروا أنواعاً مختلفة من البرامج التلفزية، وذلك بخلاف أشخاص يعتمدون أساساً على التلفزة من أجل التسلية.

تأسيساً على ما سبق، يختلف التأثير باختلاف الهدف، وفي دراسة "لبول روكيتش" وزملاؤها لمعرفة آثار التعرض لبرنامج تليفزيوني يستهدف التأثير على معتقدات سياسة وسلوكية، قدمت الباحثة أدلة تؤيد هذه الطريقة من التفكير عن التعرض الانتقائي، وأثار وسائل الإعلام، حيث وجدوا أن الأشخاص يختارون بالفعل تعريض أنفسهم على أساس علاقات اعتمادهم الراسخ على التلفزة، وأن المشاهدين الذين لديهم أنواعاً معينة من علاقات الاعتماد كانوا يتأثرون بشكل مختلف عن أولئك الذين ليست لديهم هذه الأنواع.

وأثناء اعتماد الأفراد على وسائل الإعلام يحدث نوعين من التأثير، هما :

- الإثارة العاطفية: يقصد بها ميل الأفراد وحبهم للوسيلة والمضمون المقدم.

- الإثارة الإدراكية: ويقصد بها تعرض الأفراد للوسيلة الإعلامية مع ما يتفق باهتماماته

وحاجاته وأهدافه .

¹Melvin De Fleur And Sandra Ball Rokeach, Theory Of Mass Communication,(New York: Longman, Edu,1992), PP. 262 -264

ففي الدراسة التي أجرتها "ساندرا بول روكيتش" وزملاؤها، ذكر المشاهدون الأكثر اعتماداً على التلفزة أنهم كانوا منتبهين للغاية في مشاهدة البرنامج التلفزي، وأحبوا البرنامج، وعندما يكون اعتماد الأشخاص على برنامج تليفزيوني مثلاً منخفضاً أو منعدياً، فيمكن توقع أن نجدهم يتحدثون أو يفعلون أشياء أخرى في أثناء تشغيل جهاز التلفزة، وبالتالي لا يحتمل أن يكون شعورهم قوياً تجاه البرنامج أو سالباً.

● الخطوة الثالثة: تزداد فيها درجة المشاركة النشطة ومدى استيعاب المعلومات وفقاً لوجود تأثيرات معرفية وعاطفية سابقة، فالأشخاص الذين أثيروا إدراكياً وعاطفياً سوف يشتركون في نوع التنسيق الدقيق للمعلومات بعد التعرض، مثل: الإقلاع عن التدخين، أو بدء التدريبات الرياضية أو إجراء فحوص طبية.

● الخطوة الرابعة: كلما زادت درجة المشاركة في تنسيق المعلومات، زاد الاحتمال في حدوث التأثيرات المعرفية أو العاطفية أو السلوكية نتيجة الاعتماد على وسائل الإعلام في الحصول على المعلومات، فالأفراد الذين يشتركون بشكل مكثف في تنسيق المعلومات أكثر احتمالاً للتأثر بتعرضهم لمحتويات وسائل الإعلام.

← أ- الفروض الرئيسية لنظرية الاعتماد على وسائل الإعلام

يتمثل الفرض الرئيسي لنظرية الاعتماد في قيام الفرد بالاعتماد على وسائل الإعلام لإشباع احتياجاته من خلال استخدام الوسيلة، فكلما لعبت الوسيلة دوراً هاماً في حياة الأشخاص زاد تأثيرها وأصبح دورها أكثر أهمية ومركزية وبذلك تنشأ العلاقة بين شدة الاعتماد ودرجة تأثير الوسيلة لدى الأشخاص، وكلما ازدادت المجتمعات تعقيداً ازداد اعتماد الأفراد على وسائل الإعلام.

كما تقوم على عدة فروض فرعية أخرى مفادها أن:

- دَرَجَة استقرار النظام الاجتماعي تؤثر على زيادة الاعتماد أو قلته على مصادر معلومات وسائل الإعلام، وكلما زادت درجة عدم الاستقرار في المجتمع كلما زاد الاعتماد لدى الأفراد على وسائل الإعلام؛

- دَرَجَة الاعتماد على وسائل الإعلام تزداد في حالة قلة القنوات البديلة للمعلومات أما في حالة وجود مصادر معلومات بديلة، تقدمها شبكات خاصة أو رسمية أو مصادر إعلامية خارج المجتمع سيقل اعتماد الجمهور على وسائل الإعلام؛

- اختلاف دَرَجَة اعتماد الجمهور على وسائل الإعلام نتيجة لوجود اختلاف في الأهداف الشخصية والمصالح والحاجات الفردية والمآرب المؤسساتية.

← ب- الآثار المترتبة على اعتماد الجمهور على وسائل الإعلام:

إن التساؤل الأساسي لنظرية الاعتماد هو تفسير متى؟ ولماذا يعرض الأفراد أنفسهم لوسائل رغم معرفتهم بتأثيرات هذا التعرض على معتقداتهم وسلوكهم: الإجابة عن ذلك يعد تفسيراً للطرق التي يستخدم بها الجمهور وسائل الإعلام لتحقيق أهدافهم الشخصية، حيث ينتج عن اعتماد الجمهور على وسائل الإعلام مجموعة من التأثيرات يمكن تصنيفها على النحو التالي:

•1- التأثيرات المعرفية: وتتضمن عدة آثار، ضمنها:

- **الغموض:** ويحدث الغموض نتيجة لتناقض المعلومات التي يتعرض لها الأفراد، أو نقص المعلومات أو عدم كفايتها لفهم معاني الأحداث أو تحديد التفسيرات الممكنة والصحيحة لهذه الأحداث، فالغموض يمكن أن يحدث لأن الناس يفتقرون إلى معلومات كافية لفهم معنى حدث، أو يفتقرون إلى المعلومات التي تحدد التفسير الصحيح من بين تفسيرات عديدة تقدمها وسائل الإعلام. وتشير البحوث السابقة إلى أن نسبة الغموض تزداد حين تقع أحداث غير متوقعة مثل: كارثة طبيعية أو اغتيال زعيم سياسي، وحين تقدم وسائل الإعلام معلومات غير متكاملة أو معلومات متضاربة بشأن هذه الأحداث، في هذه الحالة يتولد الإحساس بالغموض لدى أعضاء الجمهور، وفي حالات عديدة تكون وسائل الإعلام هي المصدر الوحيد المتاح للحصول على المعلومات، ويحدث الغموض حين تكون هذه المعلومات غير مكتملة أو يكتنفها الغموض أو التضارب.

- **تشكيل الاتجاه:** تلعب وسائل الإعلام دوراً هاماً في تشكيل اتجاهات الأفراد نحو القضايا الجدلية المثارة في المجتمع مثل مشكلات البيئة، وأزمات الطاقة، والفساد السياسي، وتنظيم الأسرة، وتتشكل الاتجاهات الجديدة كلما اكتسب الأفراد المعلومات العامة من خلال وسائل الإعلام.

- **ترتيب الأولويات:** تقوم وسائل الإعلام بترتيب أولويات الجمهور تجاه القضايا البارزة دون غيرها ويقوم الجمهور بتصنيف اهتماماته نحو هذه القضايا ويركز على المعلومات التي يمكن توظيفها وفقاً لاختلافاته الفردية.

- **اتساع المعتقدات:** تساهم وسائل الإعلام في توسيع المعتقدات التي يدركها أفراد الجمهور، لأنهم يتعلمون عن أناس وأماكن وأشياء عديدة من وسائل الإعلام، ويتم تنظيم هذه المعتقدات في فئات تنتمي إلى: الأسرة أو الدين أو السياسة بما يعكس الاهتمامات الرئيسية للأنشطة الاجتماعية.

- **تأسيس وتثبيت القيم:** حيث تؤسس وسائل الإعلام لقيم الحفاظ على القيم وتثبيتها وإشاعة المعتقدات التي يشترك فيها أفراد جماعة ما ويرغبون في ترويجه والحفاظ عليه مثل: الأمانة - الحرية - المساواة - التسامح... وتقوم وسائل الإعلام بدور كبير في توضيح أهمية تلك القيم.

•2- التأثيرات العاطفية (الوجدانية): على المشاعر والعواطف التي يكونها الإنسان تجاه

ما يحيط به، حيث يظهر هذا التأثير عندما تقدم معلومات معينة من خلال وسائل الإعلام فتؤثر على مشاعر الأفراد واستجاباتهم بالتالي في الاتجاه الذي ترومه وتتغياه الرسائل الإعلامية ووسائل تمريرها، لنلفي ضمن أمثلة هذه التأثيرات:

- **الفتور العاطفي:** ويرى الباحثون أن التعرض المكثف إلى موضوعات العنف في وسائل الإعلام يؤدي إلى الفتور العاطفي وعدم الرغبة في تقديم المساعدة للآخرين في أوقات العنف الحقيقي الذي يتصرف الفرد تجاهه كما لو كان عنفاً تلفزيونياً، لتؤكد ذلك العديد من الدراسات التي أشارت إلى أن الاستثارة الناتجة عن مشاهدة أعمال العنف في وسائل الإعلام، تتناقص تدريجياً بمرور الوقت وتؤدي في النهاية إلى الفتور العاطفي.

كما يقرر كثير من الباحثين بأن التلفزة يساعد على انصراف عن الفرد تذكر الأحداث السلبية، ويقصد بها تلك الأحداث التي يعتبرها مسئولة مثلاً عن فشله أو تشير إلى ظلم الناس لغيرهم، لأن تذكر هذه الأحداث تسبب له حالات مزاجية غير سارة.

-الخوف والقلق: إن التعرض المستمر للرسائل أو الدراما التلفزيونية لأعمال العنف والكوارث يؤدي إلى إثارة الخوف والقلق لدى الأفراد من الوقوع ضحايا لأعمال العنف في الواقع.

إن اعتماد الأفراد على وسائل الإعلام قدي يؤدي إلى إثارة الخوف والتوتر بسبب ما تقدمه هذه الوسائل من أخبار عن انتشار وباء أو مرض معدي مثل "مرض سارس"، إلا أنه قد يؤدي أيضاً إلى تقليل مشاعر الخوف والتوتر من انتشار هذا المرض في المنطقة الموجودة بها من خلال المعلومات التي تقدمها وسائل الإعلام عن كيفية الوقاية من هذا المرض والقضاء عليه مستقبلاً.

- الدعم المعنوي والاغتراب: تؤثر وسائل الإعلام على معنويات الأفراد بالسلب أو الإيجاب، فقد أكد " كلاب" أن المجتمعات التي تقوم وسائل الإعلام فيها بأدوار اتصال رئيسية، ترفع الروح المعنوية لدى الأفراد نتيجة زيادة الشعور الجمعي والتوحيد والاندماج، وخاصة إذا كانت وسائل الإعلام تعكس الفئات الاجتماعية التي ينتمي إليها الفرد.

ويلاحظ أن اغتراب الفرد يزداد حين يجد أن معلومات وسائل الإعلام لا تعبر البتة أو عموماً عن نفسه وثقافته وانتماءاته العرقية والدينية والسياسية.

3- التأثيرات السلوكية: تحدث التأثيرات في السلوك نتيجة لحدوث التأثيرات المعرفية والعاطفية، ومن أهم التأثيرات السلوكية :

- التنشيط : يعني قيام الفرد بعمل ما نتيجة التعرض للوسيلة الإعلامية، وهو الناتج الأخير للتأثيرات المعرفية والعاطفية مثل اتخاذ مواقف سلوكية مؤيدة أو معارضة نتيجة التعرض المكثف لوسائل الإعلام.

وقد يتمثل التنشيط في اتخاذ مواقف مؤيدة للإقلاع عن التدخين أو التبرع المادي أو المعنوي لفئات معينة والتنشيط يكون مفيداً اجتماعياً في هذه الحالة، ولكن التنشيط الناتج عن التعرض لوسائل الإعلام قد يكون ضاراً اجتماعياً مثل التورط في أعمال ضد المجتمع مثل العنف والجرائم والاضطرابات.

-الخمول: يعني عدم النشاط وتجنب القيام بالفعل، مما يؤدي إلى اللامبالاة والسلبية والامتناع عن المشاركة في المجتمع ، ويحدث ذلك نتيجة التعرض لرسائل الإعلام المبالغ فيها، تدفع الفرد إلى عدم المشاركة نتيجة الملل مثل عدم القيام بالتصويت في الانتخابات.

← ج- النظام العلائقي لنظرية الاعتماد وتأثيرها على بعض النظريات:

ترتبط نظرية الاعتماد ببعض نظريات الاتصال وهي:

-نظرية ترتيب الأولويات: تقوم نظرية الأولويات على ترتيب الأولويات الشخصية للأفراد تجاه بعض الموضوعات، وتساعد نظرية الاعتماد على تفسير هذه الأولويات، فالأفراد يعتمدون على وسائل الإعلام في اختيارهم للموضوعات التي تقدمها وسائل الإعلام، بشكل يتوافق إلى حد كبير مع خصائصهم الشخصية، والمشكلات التي يعانون منها بالإضافة إلى احتياجاتهم.

-نظرية فجوة المعرفة: تفترض نظرية فجوة المعرفة أن الجمهور ذوي المستوي الاجتماعي الاقتصادي المرتفع يميل إلى اكتساب المعلومات بمعدل أسرع من الجمهور الأقل في المستوي الاجتماعي الاقتصادي ومن هنا تنشأ الفجوة المعرفية في المعلومات.

وتساهم نظرية الاعتماد هنا في فهم هذه النظرية، فالأفراد الأكثر اعتماداً على وسائل الإعلام يحصلون على معلومات أكثر من غيرهم تنشأ الفجوة المعرفية، وتقل الفجوة المعرفية تجاه بعض القضايا التي يتساوى فيها اعتماد الجمهور على وسائل الإعلام.

-مدخل الاستخدامات والإشباعات: يفترض مدخل الاستخدامات والإشباعات أن الأفراد بحاجة إلى إشباع احتياجاتهم من وسائل الإعلام، كما يقوم الأفراد باستخدام المعلومات التي تنقلها وسائل الإعلام وتختلف أهميتها وفقاً لاحتياجاتهم).

وعلى الرغم من أن مدخل الاستخدامات والإشباعات ونظرية الاعتماد يركز كل منهما على العلاقة بين الأفراد ووسائل الإعلام، فكل منهما يركز على التساؤل الخاص.

فماذا يفعل الناس بوسائل الإعلام؟

إن استخدام وسيلة إعلامية يعني معدل قراءة أو مشاهدة أو استماع أكبر، في حين أن الاعتماد يعني درجة الاهتمام بهذه الوسيلة باعتبارها مصدراً هاماً للمعلومات، حتى وإن كان وجود بعض التشابه بين مدخل الاستخدامات والإشباعات ونظرية الاعتماد، فإن بعض الاختلافات بينهما التي يمكن أن نوجزها كالتالي تظل قائمة:

- يركز مدخل الاستخدامات والإشباعات على تحديد الاحتياجات المختلفة والإشباعات الناتجة عن استخدام الأفراد لوسائل الإعلام، بينما تركز نظرية الاعتماد على العلاقة بين الجمهور ووسائل الإعلام والمجتمع.

- يهتم مدخل الاستخدامات والإشباعات بالإجابة على السؤال الأساسي وهو: أين يذهب الأفراد لإشباع احتياجاتهم؟

- في حين تركز نظرية الاعتماد على الإجابة على سؤال: لماذا يلجأ الأفراد إلى وسيلة معينة لإشباع احتياجاتهم؟

- يركز مدخل الاستخدامات والإشباعات على المستوي الفردي فقط، في حين تستخدم نظرية الاعتماد لقياس العلاقات الاعتمادية لكل المستويات الفردية والاجتماعية.

- يقدم مدخل الاستخدامات والإشباعات تصميماً معقداً من الناحية الإجرائية لقياس متغير استخدام الوسيلة، بينما تقدم نظرية الاعتماد تصميماً سهلاً من الناحية الإجرائية لقياس متغير الاعتماد على وسائل الإعلام.

- يؤكد مدخل الاستخدامات والإشباعات على أهمية فكرة الجمهور القوي والتي تؤكد ضرورة اختبارات الجمهور بينما تركز نظرية الاعتماد على قوة وسائل الإعلام التي يعتمد عليها الأفراد، ويزداد الاعتماد أثناء الأزمات.

← د- مسوغات عدم اعتماد نظرية الاعتماد على وسائل الإعلام اعتماداً كلياً:

تعرضت نظرية الاعتماد لمجموعة من الانتقادات التي يمكن تلخيصها على النحو التالي:

- تُبالغ النظرية في تصوير حجم الاعتماد الفعلي للعناصر المختلفة وخاصة المتعلقة بوسائل الإعلام، واستقلالها عن النظام الاجتماعي، فوسائل الإعلام غالباً ما تكون محايدة، حيث أنها مصدر غير سياسي، تستطيع أن تجده عند الضرورة، ويجب أن ترتبط وسائل الإعلام بشكل أساسي بالمؤسسات الأكثر هيمنة وسيطرة في المجتمع؛

- على الرغم من أن الاعتماد الشديد على وسائل الإعلام قد يزيد من التأثيرات الإدارية والسلوكية على الفرد، فإنه للأسف ليست كل تأثيرات وسائل الإعلام الجماهيرية هي تأثيرات لمحتويات وسائل أو أنها تؤثر على الأفراد، حيث أن الأفراد يتأثرون بالأصدقاء والمعارف وغيرهم؛ - رغم أنه كان يقصد بمدخل الاعتماد أساساً الاعتماد على مستوى النظام الاجتماعي ككل، لكن معظم الدراسات الإعلامية تعاملت مع مدخل الاعتماد على المستوى الفردي فقط، بمعنى أنها ركزت على الآثار الناجمة عن اعتماد الأفراد على الوسائل المختلفة، مع هذا لا تزال روكيتش ترى أن المستقبل سيكون للتركيز على أهداف الجماعات من الاعتماد؛

- تم تعريف الاعتماد إجرائياً بالتعرض، رغم أنه ليس كل من يتعرض لوسيلة يعتمد عليها، فعلى سبيل المثال قد يتعرض الفرد لفترة طويلة لمشاهدة التلفزة في حين يعتمد على وسيلة أخرى مثل الصحف في اكتسابه للمعلومات السياسية، أو في موضوع ما.

← ح- موجبات اعتماد نظرية الاعتماد على وسائل الإعلام اعتماداً كلياً:

مهما يكن من أمر، فإن نظرية الاعتماد على وسائل الإعلام تتمتع بمجموعة من المزايا، أهمها:

- تعتبر نظرية الاعتماد نموذج مفتوح لمجموعة من التأثيرات المحتملة، وتجنب النموذج عدم وجود تأثيرات لوسائل الإعلام، ووجود تأثير غير محدود، لذلك يطلق عليها نظرية شاملة، حيث تقدم نظرية كلية للعلاقة بين الاتصال والرأي العام، وتتجنب الأسئلة البسيطة عما إذا كانت وسائل الاتصال لها تأثير كبير على المجتمع؛

- تهتم نظرية الاعتماد بالظروف التاريخية والبناء الاجتماعي أكثر من المتغيرات الشخصية والفردية، لذلك فهي أكثر ملاءمة في التعامل مع النظام الاجتماعي بصورة أكبر من النماذج الأخرى المرتبطة بوسائل الإعلام؛

- تؤكد نظرية الاعتماد على أن تأثير وسائل الإعلام على الجمهور، يؤدي إلى التأثير على النظام الاجتماعي وعلى نظام وسائل الإعلام نفسها، وبالتالي فإن أداء وسائل الإعلام، قد يؤدي إلى المطالبة بالتغيير أو إصلاح نظام وسائل الإعلام، سواء من خلال النظام السياسي أو من خلال آلية السوق الحر أو من خلال ظهور وسائل إعلام بديلة.

هذه الانتقادات الموجهة لمواطن القصور الذي يعتور كل وسيلة من وسائل الإعلام، تدفعنا للتقصي المبدئي عن وسائل الاتصال الجماهيري من خلال تبين ماهيتها وتعقب تجلياتها.

❖ ثانيا- وسائل الإتصال الجماهيري بين الماهية والأدوار والتجليات

← أ- ماهية وسائل الاتصال الجماهيري:

الإتصال بالمفهوم العام للكلمة هو نشاط إنساني حيوي يحيل على انتقال المعلومات والحقائق والأفكار والآراء والمشاعر أيضا. ففي نموذج ترحاب شخص بآخر، يستخدم الآخر إيماءات في رده على التحية، تتضمن العملية التواصلية التي تأخذ ثوان قليلة المقدرة على إنجاز أنشطة متعددة.

أما عملية الاتصال الجماهيري، فتبدأ عمليا عندما يصوغ القائلون بالاتصال رسائل معينة: فهم ينشرون رسائلهم بسرعة، ويستمر نشرها من خلال استخدام وسيلة فنية إلى مناطق عديدة وإلى جماهير مختلفة. وعندما يدرك الأعضاء من الجمهور هذه الرسائل، فهي ببساطة تكون قد حققت المعنى الذي يقصده القائلون بالاتصال، وحركت مشاعر الأعضاء من الجماهير.

والإتصال الجماهيري كعملية تتميز بخصائص بيولوجية وسيكولوجية واجتماعية، حيث يتطلب استقبال الرسالة عملية بيولوجية لدى الكائن تتصل إلى حد كبير بوظائف الجهاز العصبي والحواس المختلفة. وكل عملية اتصال تتضمن وجود مثير تنتج عنه استجابة. بدورها، تعد العلاقات القائمة بين الأفراد أو الجماعات بمثابة شكل من أشكال الاتصال.

وتهدف هذه العلاقات إلى إحداث تغيير في سلوك المتلقي، بل إنها تضطر المرسل أيضا إلى إجراء تغيير في سلوكه. ومن هنا، يكون الاتصال ناجحا كلما استطاع أن يجعل المثيرات قادرة على إحداث الاستجابات المرغوب فيها، فاستجاب المتلقي وأطاع.

← ب- مراحل تطور عملية الاتصال الجماهيري:

يمكن التمييز بين خمس مراحل أساسية تتم من خلالها عملية الاتصال الجماهيري، تتخلص بإيجاز فيما يلي:

- يعمل القائلون بالاتصال، على صياغة أنواع مختلفة من مضمون يقدم إلى نوعيات مختلفة من الجمهور من أجل أغراض متعددة.

- تنتشر هذه الرسائل بسرعة نسبيا، ويستمر انتشارها بواسطة استخدام الوسائل الفنية مثل الطباعة والإذاعة والتلفزة.

وقد اهتمت نظريتي "شانون" و "ويفر" بتفسير المراحل السابقة، حيث كان لنظريتهما دور هام في تنمية وتطوير النماذج والنظريات الأخرى التي فسرنا عملية الاتصال الجماهيري. ويعتمد نموذج "شانون" على النظرية الرياضية في الاتصال.

ويوضح أن مصدر المعلومات يقوم بإنتاج "رسالة" لكي ترسل خارجيا عبر جهاز معين، ويمكن أن تحتوي هذه الرسالة على كلمات مقروءة أو مكتوبة أو لحن موسيقى أو صورة. وتنتقل الرسالة من خلال القناة/الوسيلة، حيث يتم بواسطتها نقل الإشارة من المرسل إلى المستقبل ويستقبلها الأخير. وتكون الغاية أو الهدف من هذه العملية هو الثر الذي تتركه الرسالة في سلوك المستقبل، وما ينتج عنه من تغيير.

والخطاب السياسي الإقناعي كتعبير عن قيمه سياسية من خلال استخدامات اللغة، وتركيز على التنظيم المعرفي الإقناعي للأحداث ووصفها يقتضي تدبيجه في بيان أو تصريح أو خبر صدر عن مؤسسة رسمية، على أساس إعداد قبلي، يعبر بناءه عن نفسه اتجاه التجارب الجديدة، الأمر الذي يعني الاعتراف بالتماسك الداخلي من خلال صناعة حرفية إقناعية تتشكل وفقاً للظروف الآنية، على أساس تمريره وفق استراتيجية إعلامية ومخطط تواصلية لصناعة خطاب سياسي إقناعي يستفيد من النظريات الإعلامية والنماذج الإقناعية والتسويقية السياسية.

وعليه، فإن التسرع في صياغته وإعداده ينعكس على قيمته التأثيرية في البيئة الإعلامية الدولية، خاصة إذا اعتمد في إنتاج رسائله الإعلامية على اللغة الاعتذارية والتبريرية وصياغتها في قوالب إنشائية، أو اختبر مقولات تتبع أسلوب القوالب الثقافية الثابتة كأحد أهم أساليب الإقناع، أو موجز racourci خبرة ثقافية فرعية أو مقولة عقائدية تستوجب عادة الاتفاق العام على مضمونها بين أفراد نفس الثقافة، وهذا لا يعني قبول نفس المقولة بين أفراد الثقافة الأخرى، خاصة بالنسبة لخطاب جماهيري لملك يعتبر ملكاً للجميع وخطابه ملكاً لهم.

← ت- الاتصال الإقناعي:

هو عملية تفاعلية معقدة يرتبط فيها المرسل والمتلقي برموز لفظية وغير لفظية ومن خلال هذه الرموز يسعى المقنع أن يؤثر بغير استجابته¹. ويرتكز هذا التعريف على الاعتمادية التفاعلية في عملية الإقناع وأن التأثير يأتي طواعية، لأن من تمرسوا ومارسوا الإقناع يفترضون أن الجمهور سيتعرض لرسائل إقناعية مضادة.

كما أن هذا التعريف لا يبتعد عن مفهوم نظرية التفاعل الرمزية والبناء الاجتماعي للحقيقة بمعنأ إدراك الرمز وتحديد المعنى هو العملية العقلية التي ينظر الأفراد من خلالها للأشياء والأشخاص في المواقف الاتصالية المختلفة.

ومن أجل بناء خطاب ناجح، يجب أن ينبثق من نظريات التأثير الإعلامي وأن المهارة في هذا المقام هي تطويع المفاهيم النظرية إلى ممارسة مهنية وإجرائية في إنتاج الخطاب وهذا ما تسعى هذه الدراسة إلى تقديمه.

← ث- الإتصال التفاوضي:

يلعب الإعلام دوراً هاماً في عملية التفاوض ويمكن تحديد هذا الدور في النقاط التالية: الإعلام كمصدر للمعلومات. فقد أكدت البحوث الميدانية أن الإعلام هو المصدر الأساسي للقادة السياسيين والدبلوماسيين وكل من لهم صلة بالعملية السياسية في المجتمع، ويقدم الإعلام لأطراف التفاوض رؤية أولية للأطراف المشاركة في عملية التفاوض.

● **الإعلام كأداة:** لأن الإعلام أداة من أدوات خلق رأي مساند أو معارض للقضية محل التفاوض أو لطرف من أطراف التفاوض، حيث يلعب دوراً هاماً في مجال خلق رأي عام مسانداً أو معارضاً لقضية يدور حولها التفاوض وخلق اتجاهات معارضة أو مؤيدة للقضية محل التفاوض أو لأحد أطراف التفاوض.

¹ - Stanley Barans et Dennis Davis, Mass Communication theory, by Asilum Mayor, 2005, p.221

● **الإعلام كأداة للتفاوض**، حيث يمكن استخدام الإعلام كأداة من أدوات التفاوض بأحد الصور التالية :

- **الصورة الأولى:** استخدامه كأداة من أدوات الضغط :

- ويتم ذلك من خلال تسريب بعض الأخبار والمعلومات التي يود أحد الأطراف أو لا يرغب في نشرها قبل التوصل للاتفاق النهائي؛
- من خلال تقديم إخبار كاذبة تمثل إخراجاً لأحد الأطراف المعنية في عملية التفاوض؛
- تسريب أخبار عن التوصل إلى نتائج قبل نهاية التفاوض .

الصورة الثانية: استخدام الإعلام كأداة لفرض موقف معين على أحد الأطراف وذلك من خلال دفعه إلى تبني موقف سياسي معين .

الصورة الثالثة: استخدام الإعلام كأداة من أدوات التلاعب بالمواقف وذلك من خلال تجاهل هذه الحقائق وطرح آراء ومعلومات وأفكار جديدة.

كما هناك إستراتيجية يعتمد عليها التفاوض، حتى على المستوى الدولي، عند التعامل مع الإعلام أثناء الأحداث، ونكتفي هنا بذكرها كمفاهيم دون التعرض لتفاصيلها لأن ذلك سيستنفذ السقف الكمي المتاح لأطروحتنا، وهي :

1. إستراتيجية تجاهل الإعلام؛
2. إستراتيجية الاهتمام بالإعلام؛
3. إستراتيجية التعقيم الإعلامي والضغط على الإعلاميين.

← ج- إستراتيجيات الخطاب السياسي والإقناعي

ترتكز هذه الإستراتيجية على صياغة التخطيط الإعلامي السياسي في صورة تنواعم مع وحدة الهدف.

وتتيح معرفة الرسائل الاتصالية الإقليمية والدولية بطريقة علمية اللبنة الأساسية لمشاريع خطابات سياسية واعية ومؤثرة.

وهذا يرتبط بحقيقة أساسية في العلاقات الدولية مؤداها أن ليس في مقدور أي نظام سياسي وطني أن يعمل ويتفاعل في المجتمع الدولي الواسع حوله ما لميتوفر له مستوى مناسب من الإدراك أو من المعرفة بأهداف الدول الأخرى وبأمانيتها ومتطلباتها ومخاوفها .

كما يقتضي الفكر الاستراتيجي التواصل والإعلامي كما أن معرفة البيئة الاتصالية معرفة واعية تتطلب التنبؤ بما سيطرح على الساحة من رسائل إعلامية، وهنا تدخل المعالجة الإعلامية بشكل موضوعي وهادف في صياغة وتوجيه هذه الرسائل من خلال مكاتب وكالة المغرب العربي للأنباء ومسؤولي الإتصال بالسفارات المغربية بمختلف العواصم، مثل :

- إجراء تحقيقات صحفية أو مقابلات صحافية تخدم التوجه السياسي للمملكة؛

- تقديم الاستشارات الإعلامية للمسؤولين وتحديد مراكز الاهتمام بالمضامين الإعلامية؛

- إجراء دراسات وبحوث إعلامية وقياس الرأي العام من خلال المضامين الصحافية بطرق علمية تكون بشكل دوري.

- الاستفادة من الطلبة المغاربة وعموم المغاربة المقيمين بالدول الأجنبية للتسويق لسياسات المملكة من خلال اختيار بعض الطلاب والفاعلين للقيام بهذه المهمة؛

- بناء علاقة متواصلة مع الطلبة المغاربة وتشجيعهم على إعداد أبحاث ودراسات عن المملكة وتزويدهم بالمواد والمعطيات والمراجع اللازمة لذلك؛

- الاستفادة من المناسبات الوطنية في البلدان الخارجية الخاصة والمساهمة الفعالة بها، وتحويلها إلى مادة إعلامية، مثل احتفال سفارات جمهورية مصر العربية بمختلف العواصم بانتصار 6 أكتوبر، واستثمار المناسبة للحديث عن دور التجربة المغربية في هذا الانتصار والتجربة المغربية عموماً في العديد من الميادين، بتنسيق مسبق مع مصالح السفارة المصرية لتصبح المملكة جزءاً من هذا الاحتفال، مع احتفاظ المغرب وسفاراته بتنظيم احتفالات بالعديد من المناسبات التي شكلت فواصل في تاريخ المغرب، حتى ذكرى تأسيس الولايات المتحدة الأمريكية وعيدها الوطني يجب أن يحظى بمبادرات مغربية لتسليط الدور على دور الدبلوماسية المغربية منذ قرون من خلال مشاركات مغربية في احتفالات سفارات أمريكا المعتمدة بجل العواصم العالمية.

ورد الحديث في المحاور السابقة عن قدرة العاهل الفاعل وكفاءته التواصلية من خلال اختيار المواضيع وترتيبها وطريقة تناولها. لكن قبل ذلك، ارتأيت أن أنطلق مما انطلقت منه نظرية الإتصال عند "شانون و ويفر" حين تحدث عن قدرة قناة الاتصال.

فالقناة عندهما ليست عبارة عن كمية من الرموز المنقولة من مكان إلى آخر، ولكنها كمية المعلومات التي يمكن للقناة أن تنقلها.

ويؤكد "ويفر" أن كل القنوات سواء كانت إلكترونية أو سلكية أو ميكانيكية أو إنسانية لها حدود للقدرة. وعلى سبيل المثال تستطيع عين الإنسان أن تدرك وتنقل معلومات أكثر في فترة قليلة، لأن العقل يقوم بعملية الإدراك ثم التخزين.

ويلاحظ أيضاً بالنسبة لوسائل الإعلام أن قدرة القناة تتحدد بواسطة المساحة أو الوقت متاح بالنسبة للمحرر أو مذيع نشرة الأخبار من جانب، وكذلك الوقت متاح للجهة المقصودة لنقل الرسالة إليها.

ونظرية المعلومات لا تهتم بالمعلومات بالمعنى الشائع الذي يستخدمه علماء الاجتماع، وذلك لأن هذه النظرية لا تهتم بالمعنى أو مضمون الرسالة. ولكنها تهتم بإرسال أو نقل الرمز والقنوات أو الوسائل التي تحمل الرسالة.

ويؤكد "شانون" أن معيار المعلومات يقابل مفهوم عدم الدقة وكلما كانت الرسالة تتصف بعدم الدقة، كلما زادت نسبة التشويش بها، حيث يؤثر في عدم فهم كامل للرسالة مما يؤدي إلى استخدام بعض الحشو وتكرار المعلومة.

المطلب الثاني/ الإنتقالات التواصلية للعهد الجديد بين خيار القطيعة والتقاطع بين الوسائل التقليدية والقنوات الحديثة للتواصل الجماهيري

❖ أولاً: الوسائط التقليدية للتواصل الملكي

أ- خصائص استعمال المواد المطبوعة

لما حاولت التعرض لخصائص المواد المطبوعة، وجدت أنها الوسائل الإعلامية الوحيدة التي تسمح للقارئ بالسيطرة على ظروف التعرض. كما تتيح له الفرصة لكي يقرأ الرسالة أكثر من مرة، فضلاً عن إتاحة المطبوع فرصاً لا تتوفر لغيره من الوسائل الأخرى لعرضه في مساحة كبيرة. إلا أن المطبوع يحتاج إلى مساهمة من جانب القارئ أكبر من تلك التي تتطلبها الوسائل الأخرى من جمهورها، ويتيح حرية أكبر في التخيل وتوزيع الظلال والتفسيرات وما شابه ذلك. كما أن القارئ لا يحس بأنه شخصياً جزء من عملية الاتصال كما يحس مستمع الراديو أو مشاهد التلفزة.

إلا أن استعمال الوسائل المطبوعة لتمرير خطابات جلالة الملك لتمرير الخطاب الملكي لا يخرج عن قصاصات وكالة المغرب العربي للأنباء، حتى بالنسبة للمدونة الكتابية لجلالته، فهي تركز على الأخبار بمضمون الرسائل التي وجهها لجلالته لرؤساء وقادة الدول، والتي اعتمدها أيضاً ضمن مدونة التحليل الخطابية التي نحن بصدها في أطروحتنا.

ب- خصائص استعمال المواد الإذاعية والمرئية

أما بالنسبة للإذاعة، فيقصد بها بداية جميع وسائل تذييه امر ما وتوصيل برامج الراديو والتلفزة بقصد استقبال عموم الجمهور (مستمعين ومشاهدين) لها، وهي مميزة عن الإشارات الخاصة التي توجه مباشرة إلى أفراد معينين.

وربما توصف الإذاعة في صورها العامة بأنها نظام لنشر التسلية والتعليم والمعلومات. وهناك العديد من الخصائص التي تميز الإذاعة وتجعلها أداة فعالة للمساهمة في عملية التنقيف، حيث تمتاز بسهولة التعرض لها دون أن تكلف المستمع شيئاً أو الانتقال.

أما بالنسبة لخصائص التلفزة، نجد أنها أصبحت تشكل محورا مركزيا في الحياة اليومية، وجزءا من ثقافتنا ويعد أيضا وسيلة تشير إلى تكامل المجتمع ثقافيا وقد وصف "سيلفرستون" التلفزة بأنها وسيلة ساحرة معقدة مليئة بالتناقض ويتميز أيضا عن الوسائل الأخرى بأنه وسيلة سمعية بصرية، حيث يجذب العين والأذن، كما أنه لا يرسل الصورة فقط، وإنما الصورة المتحركة التي تنعكس تعبيراتها على الوجوه.

كما أن التلفزة وسيلة قوية يمكن بواسطتها الوصول إلى جميع المواطنين. كما أنها في نهاية المطاف تتميز عن المواد المطبوعة بتقديمه المادة في أنيتها.

وتختلف استعمالات التلفزة ومن ثم الإشباع التي تحققها لمتلقيها من الجمهور جرّاء مشاهدته للإشهار التلفزي، باختلاف المواد المبرمجة التي يتم عرضها، وباختلاف الأسباب التي تؤدي به إلى مشاهدته:

- فهناك من يشاهده لمجرد إشباع حاجته الجمالية التي تتمثل في جاذبية المادة الإشهارية، وهذا ما يعرف بتوظيف الإبداع والقيم الإيحائية في الإشهار التلفزي؛
- في حين أن هناك من يشاهده لتجزية الفراغ، وبالتالي تتموقع هذه الأسباب بين البحث عن تحقيق وظيفة إعلامية، وتحقيق وظيفة تعويضية للخلاص من الرتابة، أو لحوافر دوافع أخرى. لكن تبقى الوظيفة الإعلامية هي الهدف الأساس للمشاهد.

وتعتبر التلفزة في كل الأحوال وسيطا سمعيا وبصريا يستمد قوته من مستويات تتبع الجمهور القياسية لبرامجه: فالتلفزة تدخل إلى البيوت في لحظات الإسترخاء ودون سابق إشعار أو إنذار أو استئذان وانتظار، الشيء الذي يمنحها قدرة خاصة عبر تغطيتها الواسعة باعتبارها الوسيط الأكثر تأثيرا¹، حيث يمكن أن ننظر إلى الصورة المتلفزة على أنها عملية إدراكها آنية، خلافا للصورة الثابتة التي تقتضي وقتا لإدراكها وفهمها حتى يتشكل وعي مقاصدها وفق التشكيلة الثقافية التي يحيل عليها منظورها البصري بالنسبة للناظر، ووفق نظام التمثلات البصرية والعالم الخارج، والطريقة التي تنتظر بها الذوات الإنسانية المعتمدة على تجربتها البصرية.

يُمثل التواصل التلفزي أكثر الأنساق الخطابية التي تحقق نسبة تلقي كبيرة لقيامه على عنصر الجمهور كركيزة، وفاعلا أساسيا في عملية التلقي. كما يساعد أيضا على توفير خاصية تتعلق بالانتقال من المحيط الخاص (التلقي الفردي) إلى المحيط العام (التلقي الجماعي في إطار أسري أو عائلي أو على مستوى رواد مقهى) عبر الوظيفة الاجتماعية التي تتيح لهم تبادل الآراء والحديث بشأن مضمون الخطاب الملكي في اوساط من خلال متلق أكبر هو الجمهور.

ويمكن اعتبار التلفزة من أحدث وسائل التأثير في الرأي العام التي تمخض عنها القرن العشرين وأخطرها أيضا لأنه يقدم الكلمة المسموعة والكلمة المرئية في آن واحد، فاتضحت في السنوات الأخيرة خطورة وأهمية التلفزة وأثره في تكوين الرأي العام، ودفع ذلك الاحتكارات الرأسمالية في الولايات المتحدة الأمريكية إلى اتخاذه وسيلة لتوجيه الرأي العام لخدمة مصالحها، قبل أن تخرج إلى حيز الوجود وسائط التواصل الإجتماعي التي أفلتت من سيطرة الدول والجهزة الامنية والصناعة الإعلامية.

وتتميز التلفزة عن وسائل الإعلام الأخرى بعدة مزايا من بينها:

- أنه أقرب وسيلة للاتصال والمواجهة؛
- أن برامجه في أغلب الأحيان محلية ومن هنا كان أكثر قدرة على مخاطبة الرأي العام والتأثير فيه.

كما أروم الإنطلاق من التعامل مع فرضية تتعلق بالطابع الاحتمالي لإنتاج المعنى، حيث تؤكد هذه الفرضية أن المعاني ليست خصائص ثابتة في النصوص الخطابية الملكية التي ينقلها التلفزيونية، بل هي نتاج تفسير جمهور التلقي الذي يقوم بقراءة المتن الخطابي الملكي، ويترتب على ذلك أنه ليس ثمة شيء في النصوص يمكن لعمليات الفهم والإدراك أن تراه مطابقا لما يقصده منتجوها، وإنما يوجد في مقابل ذلك عملية تفسير يقوم المشاهد بإنتاج الدلالات من خلالها².

¹ -ABDAD(Valerie). Langage et Publicité, Coll. Synergie Breal, 1992, P.78

² - شعبان حنان، الإشهار والتلقي التلفزيوني، الطبعة الأولى، مؤسسة كنوز الحكمة، 2011، ص. 25

ويرتبط الجانب الاتصالي بمدى قدرة الرسالة على تحقيق جانب الإقناع المطلوب منها اعتماداً على مدى قدرتها على ترويج مضامين الخطاب في سوق القيم الخطابية: إن تقييم المعطى الخطابي الملكي يظل رهينا بدرجة مقبوليته عند المتلقي انطلاقاً من وسائل تمريره باعتبارها وسائل تحفيزية وإقناعية تورد الخطاب الملكي بلبوس مقنع أو أقل إقناعاً باعتبارها باتاً له مستويات مقبولة تسبق أو تلي الخطاب، وانطلاقاً من القدرات المعرفية والثقافية لجمهور التلقي.

وعليه، فإن ما يتم إنتاجه هو مجموعة من الخبرات المتبادلة يدفع في أفق التحليل والتأويل إلى تحديد القيمة الموضوعية والإخبارية للخطاب، اعتماداً على القدرات المعرفية والمهاراتية لأقطاب التواصل الملكي: جلالتة كبات وشعبه كمتلقي، يتوسطهما الخطاب الملكي وقدرته على إثارة الإهتمام والتفاعل وكبح الإنفعال.

فالتفاعل يشكل القياس الأول الذي يمكن من خلاله قياس درجة النجاح الإرسالي للخطاب الملكي، وما تصريحات قادة الأحزاب والرأي إلا ترجمة للمؤشرات الأولى للتفاعل من الخطاب.

من خلال تلك الإرتسامات التي ترد على شاشة التلفزة باعتبارها النموذج الدعائي الأكثر مشاهدة واستقطاباً عقب كل خطاب ملكي ومؤشراً دالاً على مستويات تلقيه والتفاعل معه، الأشهادي التلفزيوني، يمكن فهم طبيعة استعمال هذا الوسيط واستثمار نمطه السمعي البصري وخاصة التكرار الإرسالي التي تحكمه ودوره كقناة في ترسيخ الخطاب الملكي في ذهن عموم الشعب المغربي من خلال حرص كل واحد من قادة الأحزاب والنقابات على التذكير بمحطة من محطات الخطاب في إبانة وتقادي ما يسمى مرض العصر والأثر الزمني للنسيان Effet temporel.

وفق هذا النسق في الترسخ والنقاط التفاعلات الأولى مع الخطاب الملك، يتم تقادي البون المعرفي في درجة تلقي الخطاب وما يمكن أن نلمسه من تضارب بين التجاوب والقبول وعدم الإكثارات ويتأكد الطابع الترويجي للخطاب الملكي عبر الشاشة الصغيرة أولاً قبل أن تتعدد درجات تلقيه قياساً إلى درجة توارده داخل باقي القنوات التواصلية، مع ما يصاحبها من تعدد الانفعالات المحدثه عن طريقه بين القبول والإستحسان والإشادة والتعليق أو حتى الرفض من طرفاً أعداء الداخل والخارج، فضلاً عن التعليقات التي ترد في المنتديات أو التفاعلات التي تتم ميدانياً من خلال الندوات التي تجعل الخطاب الملكي مدار أشغالها واشتغالها، فتزيد بذلك حدة التفاعل أو تتضاءل من ذات لأخرى وحسب درجة المقروئية، وحسب ما ورد من مواد في الخطاب الملكي، ومستوى وظيفيته التي أثبت بها نفسه وثبت بها هيمنته كأداة للتغيير والتطوير والإنتاج المستقل للمعنى.

❖ ثانياً- مسار تطور ماهية الوسيلة والوظيفة خدمة للتوظيف الاتصالي الجماهيري

عُد المدخل الوظيفي- في الإطار المتعلق بالدراسات والبحوث الإعلامية - توجهاً بحثياً يعنى أساساً بالتأثيرات الناجمة عن تعرض الجمهور لوسائل الاتصال الجماهيري، عن طريق "محاولة اكتشاف ما تفعله هذه الوسائل بالجمهور المتلقي، فضلاً عن كونه توجه يُعنى بوظائف وسائل الاتصال الجماهيري، عبر البحث بما تفعله هذه الوسائل من أجل الجمهور"¹، فكان هذا المعطى عُدتي للبحث عن استعادة هذه الأداة لأداء مهمة النبش في تراص الوظائف قبل أن أحفر في حفرات التوظيف الملكي للوسائل الجديدة للاتصال الجماهيري.

¹- مصطفى أحمد، اثر الإعلام في الحياة السياسية، دمشق، مطبوع دون خدمات دار نشر، 1996، ص. 129

وتعود البدايات الأولى لهذين التوجهين إلى حقبة ما بعد الحرب العالمية الأولى، إثر ما خلفته من اعتقادات بشأن قدرة وسائل الاتصال الجماهيري في تشكيل الرأي العام في حينها، أظهرت اتجاهًا بحثيًا يعنى بالعلاقة الوظيفية ما بين الوسائل، وبين جماهيرها، قبل لأن يحدد في إثر ذلك كل من شرام ولاسويل عددًا من الوظائف الرئيسة والفرعية للإعلام في المجتمعات، حين جد "ولبرشرام" ووجد أربع عشرة وظيفة أو لوسائل الاتصال الجماهيري مهمة، تتوزع بين "رئيسة وفرعية، تهم أساسا مراقبة الناس وتعليمهم والتعلم منهم، توسع آفاق التعرف على العالم، تبئير التركيز والاهتمام، رفع معنوية الناس، المساعدة بصورة غير مباشرة على تغيير الاتجاه، تغذية قنوات الاتصال بين الأشخاص والتواصل المؤسساتي والتواصل بين المؤسسات والمواطنين، توسيع نطاق الحوار السياسي، تقوية المعايير الاجتماعية، تنمية أشكال التذوق الفني والأدبي، الحض على قيم المواطنة، التأثير في الاتجاهات الضعيفة وتقويتها..."¹.

ومن ثم، حدد هارولد لاسويل بدوره بشكل تجميعي أربع وظائف رئيسة للإعلام:

- **وظيفة المراقبة والإشراف**، إذ توفر عمليات المراقبة، التي تقوم بها وسائل الاتصال الجماهيري، المعلومات اللازمة لاتخاذ القرارات، عن طريق شبكات المندوبين والمراسلين المحليين والخارجيين، وعبر تقاريرهم الصحفية المستمرة، التي تطلع المجتمع عما يجري ويدور من أحداث ووقائع؛

- **وظيفة الترابط**، من خلال تحقيق وسائل الاتصال الجماهيري الترابط بين جميع أنواع استجابات المجتمع إزاء قضية ما، وتخلق بذلك منافذ لإيجاد أو بناء الرأي العام. وانطلاقاً من ذلك، فإن من المهم أن يكون هناك قدر من الإجماع والترابط في المجتمع اتجاه قضاياها الأساسية ليتشكل رأي عام بدل تشكل رأي مجزء ومتشردم؛

- **نقل التراث الاجتماعي**، ويقصد بها لاسويل نشر أو نقل المعرفة والثقافة من جيل إلى جيل ومن مكان إلى آخر، لتحقيق أهداف المجتمع في التنشئة الاجتماعية، التي تشير إلى توفير رصيد مشترك من المعرفة، "يُمكن الناس من العمل كأعضاء ذوي فعالية في المجتمع الذي يعيشون فيه والفضاء المجالي أو الترابي الذي يتقاسمون، مع دعم وتدعيم عرى التآزر والوعي الاجتماعيين، وبذلك يكفل الإعلام مشاركة نشطة في الحياة العامة"².

- **الوظيفة الترفيهية (أو الترويحية)**، وهذه الوظيفة لا تهم بحثنا البتة، ولكن لا بأس من تعريفها لأنها قد تشكل المدخل الأساس لأداء الإعلام باقي الوظائف والمهام، من خلال محورية الإستدراج الذي يؤديه الترفيه لجماهير عريضة، سواء كان ترفيهها قائما على العبث أو الرسالية:

فالرسالية في الترفيه من خلال إذاعة التمثيليات الروائية والرقص والفن والأدب والموسيقى والمسرحيات تحقق مثلاً وظيفة الجلب وإشارة الإهتمام قبل حقن جرعات نقل الثقافة والقيم وتوفير رصيد مشترك من المعرفة.

فلا عجب إذن إذا أشارت أدبيات الإعلام المعاصر جميعها إلى أهمية هذه الوظيفة على الصعيدين الشخصي والجماعي.

¹- المرجع نفسه، ص. 62

²- مي العبد الله سنو، الاتصال في عصر العولمة-الدور والتحديات الجديدة-، بيروت، الدار الجامعية، 199، ص. 38

وتتطلق وظائف الاتصال الجماهيري الأكثر محورية (الإعلام والتعليم، والترفيه، والإقناع)، من الأهداف التي يريد المرسل تحقيقها في أوساط جمهور التلقي، في حين يمكن تحديد وظائف هذه الوسائل من وجهة نظر جمهور التلقي في¹:

- المشاركة في عملية الاتصال؛
- فهم ما يحيط به من ظواهر وأحداث؛
- تعلم الاستمتاع والاسترخاء والهرب من مشاكل الحياة؛
- الحصول على معلومات جديدة تساعد على اتخاذ القرارات والتصرف بشكل مقبول اجتماعياً.
- مهارات جديدة؛

وقد وُلد تطور الحاجات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للمجتمعات المختلفة وظائف أخرى رئيسة للإعلام المعاصر أو ثانوية ثانوية وراء الأولى، نوجزها في:

- **الوظيفة التنموية**، حيث صار الإعلام المعاصر محوريا في حشد السواعد والشواهد خدمة لأهداف التنمية، فإن لم تكن إسهاماتها كاستثمارات وقطاع في التنمية فتتمثل التنمية أحد الدوافع الأساسية لإنشاء وسائل الاتصال الجماهيري ومدن إعلامية بأسرها بطاقات تشغيل يد عاملة واستثمارات كبرى، فإن وسائل الاتصال الجماهيري تحض على تفعيل المشاركة الجماهيرية في التنمية، لذلك، نجد حرصا من جلالة الملك على استثمار الخطاب وجماهيرية أدوات الاتصال المعتمدة لحدث "طبقتنا السياسية بجميع مشاربها أن تعتبر هذه الاستحقاقات لحظات قوية للتعبئة والانخراط في الجهاد الاقتصادي والاجتماعي... بالانخراط في كافة مجالات العمل الوطني... فعلى الجميع مواكبة التطور، والانخراط في الدينامية المؤسسية والتنموية، التي نقودها ببلادنا"².

- **الوظيفة التعليمية**، من خلال اضطلاع وسائل الاتصال الجماهيري بدور كبير في تعليم الأفراد وتختلف مستويات أفراد كل منها مساحة للتربية والتعليم في ظل مهام الاعلام. فالتربية والتعليم يتقاربان مع الإعلام ويتقاطعان معه في نشر المعرفة والإنتساب لعالم الإعلام ومجتمع المعرفة.

- **الوظيفة الثقافية**، ومناطق أهمية هذه الوظيفة تعريفها بالمنتج الثقافي ودورها في تثبيت الذاكرة الجماعية والهوية الخصوصية وترسيخ التاريخ المشترك، والربط بين الموروث الثقافي والإبداعات الحديثة لبناء المستقبل، وتنشيط الحياة الثقافية بالاستجابة للبرغبات الفردية، مع تطوير الطموحات الذاتية لتحقيق التواشج بين سدى النسيج الاجتماعي ولحمة تعلق الفرد بالجماعة وبالوطن وثقافته.

ولعل من أبرز سمات عصرنا وجيل وسائل الاتصال الجماهيري الجديدة تحول هذه الأخيرة إلى أدوات للثقافة، بحيث يمكن القول إنها أصبحت الوسيلة الأكثر ديمقراطية وجماهيرية للحصول على جرعات من الثقافة والاطلاع على جميع أشكال الإبداع. وتزداد أهمية "الدور الثقافي الذي تلعبه هذه الوسائل في تجاوزها لمستوى توصيل الثقافة ونشرها، لتؤثر بشكل أساس في عملية انتقاء محتوى الثقافة، وحتى في إبداع هذا المضمون"³.

¹- محمد البخاري، الإعلام وتحليل المضمون الإعلامي، دمشق، دار علاء الدين، الطبعة الثانية، 2008، ص. 40

²- شذرات خطابية متفرقة بين مجموعة من خطابات صاحب الجلالة في مناسبات متفرقة

³- أديب خضور، دراسات تلفزيونية - الدور التثقيفي للتلفزيون، دمشق، المكتبة الإعلامية، 1998، ص. 9

- **وظيفة الخدمات العامة:** المتعلقة بالنشرات الجوية بأحوال الطقس وفي نشر مواقيت الصلاة وبث الأذان، وفي الاستشارات الطبية والشرعية والقانونية والاجتماعية، وأجندة الأنشطة الثقافية...

- **وظيفة خلق الدوافع وتكوين الآراء والاتجاهات:** إذ يقوم الإعلام بدعم الأهداف المباشرة وغير المباشرة والرئيسة لكل مجتمع، وتشجيع الاختيارات الشخصية ودعم الأنشطة المختصة بالأفراد والجماعات وتشجيع الذات الفردية باتجاه تحقيق الأهداف المتفق عليها ضمن الإطار الجماعي، فضلا عن تكوين الآراء والاتجاهات، إذ إن له دوراً مهماً في تكوين الرأي العام، وهي وظيفة لا يمكن عزلها عن بقية الوظائف التقليدية في الإخبار والتعليم؛

- **الوظيفة التسويقية (الإعلانية أو الترويجية)،** وهي وظيفة مهمة بالنسبة للبائع والمنتج، وقد تعود المتلقي أو المتصفح للإعلانات المنشورة في الصحف والإذاعات والتلفزيون والمبهر في الفضاء الأزرق، فالإعلان صار من بين الوظائف الأساسية للاتصال، ويهنا بشكل خاص لأن النشرات الاخبارية والوصلات التي تسبق الخطاب الملكي تساهم في الترويج للخطاب والتسويق له، بشكل متساق مع الأدوار التي يؤديها التواصل في تسويق المنتجات والخدمات وحتى في التسويق السياسي خلال فترات الحملات الانتخابية في إطار المدة التي تخصص للأحزاب السياسية قبيل الانتخابات لتوجيه حملة انتخابية والتواصل مع الناخبين عبر قنوات القطب العمومي.

يشار في هذا الصدد أن المجلس الأعلى للاتصال السمعي البصري (الهكا) وجه إنذاراً إلى القناة الأولى، ومقدم برنامج "ضيف الأولى" محمد التيجيني، بسبب الحلقة التي استضاف فيها إلياس العمري، حيث اعتبر أن تعليقات وأفكار ومواقف التيجيني انتقدت في مجملها حزباً سياسياً معيناً دون غيره من الأحزاب، في إشارة إلى حزب العدالة والتنمية، واصفاً ذلك بعدم احترام ما يقتضيه "واجب الحياد"، وفق المقتضيات القانونية والتنظيمية المعمول بها في هذا الإطار.

وأشار المجلس في قراره الذي تداول فيه خلال جلسته المنعقدة يوم 13 أكتوبر 2016 بمقر الهيئة، بعدم احترام الشركة الوطنية للإذاعة والتلفزة للمقتضيات القانونية والتنظيمية المذكورة، ووجه إنذاراً لها بهذا الخصوص، كما قرر تبليغ قراره هذا إليها ونشره بالجريدة الرسمية.

في سياق ذي صلة، ينبغي التذكير بأن العملية التواصلية أثناء الحملات الانتخابية تشكل إحدى أهم الآليات التي تستطيع من خلالها الأحزاب السياسية تصريف خطابها السياسي وبرنامجها الانتخابي، إذ تعمل هذه الأحزاب أثناء هذه المرحلة على توظيف مختلف الأساليب للوصول إلى الجسم الانتخابي، بغرض إعلامه وإقناعه بمحتوى البرنامج الانتخابي، وبالتالي، فالتواصل الانتخابي إذن استخدام منظم ومنسق لمختلف وسائل التواصل، لتحقيق الحد الأقصى من الدعم الانتخابي لحزب سياسي أو مرشح أثناء العملية الانتخابية.

ولا تستقيم مقارنة مختلف الوسائل التقليدية التي اعتمدت عليها الأحزاب السياسية لكسب الدعم الانتخابي أثناء فترة الحملة الانتخابي، إلا بالمقاربة السوسيولوجية لطبيعة البنية المجتمعية وفهم طبيعة الثقافة السياسية السائدة، لتشكل بذلك القنوات التواصلية التقليدية إحدى أهم الوسائل التي تعتمد عليها الأحزاب السياسية أثناء الحملات الانتخابية للتواصل مع المواطنين.

والقنوات التقليدية للتواصل بهذا المفهوم هي مختلف الوسائل ذات الطابع التقليدي/العتيق كالولائم (الغرضات والزرود)، "المواسم"، العلاقات الشخصية والأسواق... التي توظفها الأحزاب السياسية لتسويق برنامجها الانتخابي أو مرشحها أثناء فترة الدعاية الانتخابية لجلب تأييد الناخبين.

وتتضاف إلى هذه القنوات التقليدية أيضا مختلف الرسائل المتلفزة الموجهة إلى الناخبين عبر ممثلي الأحزاب الذين يقتسمون حصص مدة البث الإجمالية التي تخصصها القنوات العمومية للأحزاب الممثلة أو غير الممثلة في البرلمان لعرض برنامجها الانتخابي بمناسبة الحملات الانتخابية والإستفتاءية، والتجمعات والتواصل المباشر مع الشعب.

وتعد الخطابات المتلفزة للقادة السياسيين التي تحرص القنوات التلفزية العمومية على بثها أهم الوسائل التقليدية التي تعتمد عليها الأحزاب السياسية للتواصل غير المباشر مع أوسع شريحة ممكنة من الناخبين، حيث "استفادت الأحزاب السياسية من وسائل الإعلام العمومية في الانتخابات التشريعية لسنة 2007 من حوالي أكثر من 168، ليمطط هذا الحيز الزمني في الحملة الانتخابية بمناسبة الانتخابات التشريعية لسنة 2011 ويتجاوز 380 ساعة من البث، من خلال 1082 برنامجا تلفزيا (527 نشرة تلفزية و55 برنامجا حواريا)، فضلا ما يزيد عن الألف برنامج إذاعي، فتوزعت بشقيها البصري والسمعي بين القنوات العمومية (الأولى، القناة الثنائية، الاماويغية وميدي 1 تيفي) والإذاعات العمومية والخاصة (في مقابل أكثر من 1082 برنامج تلفزي سنة 2007، توزعت بين 527 نشرة تلفزية و555 برنامجا حواريا)"¹.

ما يلاحظ في هذا الإطار، هو أن استغلال الأحزاب السياسية لوسائل الاتصال السمعي البصري خلال الحملة الانتخابية الأخيرة عرف نوعا من التطور الكبير، لا من حيث المنظومة الدستورية والقانونية، ولا من حيث تضاعف التوقيت الزمني المخصص لاستفادة الأحزاب من وسائل الإعلام العمومية بالمقارنة مع الحملات الانتخابية السابقة.

كما سُجل أيضا ظهور نوع من الإحترافية في التوظيف الحديث للقنوات التلفزية بالمقارنة مع الانتخابات السابقة، إذ ترسخ اعتماد أحزاب سياسية بعينها (التجمع الوطني للأحرار، العدالة والتنمية والتقدم والإشتراكية...) على وكالات متخصصة لإعداد وصلاتها الإعلانية، إذ بدت هذه الوصلات الإشهارية السياسية في شكل حديث بدل ما كان عليه في السابق حيث كانت تشكل خطابات القادة السياسيين السمة الأساسية للتواصل التلفزي مع الجسم الانتخابي، وظهرت معالم هذا التوظيف "الحديث والحداثي" سواء من حيث الأسلوب الإخراجي للوصلة الإعلانية أو التقنيات الموظفة في ذلك، أو من حيث مضمون هذه الوصلات التلفزية، إذ ركزت على تجسيد أهم المشاكل المجتمعية (البطالة، السكن والتعليم...) وإبراز طريقة التعامل معها و حلها من المنظور الحزبي.

وتزاحم هذه الوسائل الظاهرة التواصلية التقليدية التي يعتمد عليها مرشحو العديد من الأحزاب لاستمالة الناخبين والتأثير في سلوكهم الانتخابي، من قبيل ثقافة الولائم الجماعية التي تغذي نزوعات مجاعية، وتعكس ثقافة استغلال القيم المشتركة حول مشاركة الطعام وعدم تبني سلوك اللئام بعد ذلك.

¹ - مقتطف من تقرير الهاكا (الهيئة العليا للاتصال السمعي-البصري) بشأن ولوج الأحزاب السياسية إلى وسائل الاتصال السمعي البصري العمومي والخاصة بمناسبة الانتخابات التشريعية لسنتي 2007 و2011.

كما تزاخم الاسواق والمواسم التي تُستغل للتسويق السياسي للمنتوج الحزبي، فیرتص جنباً إلى جنب مع المنتجات المعروضة للتسوق، فتكون مناسبة السوق الاسبوعي والتجمعات البشرية للمتبضعين سوقاً انتخابياً بامتياز لتسويق صور المرشحين أكثر من تسويق البرامج.

وعليه، ألفت أن وسائل الاتصال السمعي البصري تقوم بعمليات إعلامية لا تخرج عن إطار توفير المعلومات عن الأوضاع المحيطة بأفراد المجتمع والإسهام في نقل التراث الثقافي عبر الأجيال، والإسهام في تنشئة الأجيال الجديدة، وصهر الوافدين الجدد منهم في المجتمع، دون أن تُغفل الترفيه عن الجماهير وتجزية اوقات فراغهم.

وكان ضروريا التعايش مع المحيط الالكتروني المستقبلي، ومع الكم الهائل من المعلومات الضرورية لتماسك النظام الاجتماعي والعلاقات الإنسانية، فضلاً عن المتغيرات والمعطيات السياسية والاقتصادية والعسكرية التي وسعت من مجالات الإفادة من الإعلام بشكل عام، والتي سنتناولها بشكل منفرد ومفصل في إطار الحديث عن الوظيفة السياسية للإعلام لاقتربها من طبيعة الترويج للخطاب الملكي، وإن كان الملك سلطة فوق-سياسية، و"الحزب الوحيد الذي يعتز بالانتماء إليه هو المغرب".

وفي خضم هذه الثروة اللسانية، فالوظيفة التواصلية لم تتخذ موقعها من البحث اللغوي إلا عندما فرق سوسير بين علم اللغة وعلم لغة الكلام في إطار الأساس المنهجي لعلم اللغة الحديث، إذ قال: "اللغة والكلام... يعتمد أحدهما على الآخر، مع أن اللغة هي أداة الكلام وحصيلته، ولكن اعتماد أحدهما على الآخر لا يمنع من كونهما شيئين متميزين تماماً".¹

إذن، فاللغة بحسب الفهم "السوسييري" الذي عرفته مذ وطأت رجلي رحاب الكلية الضادية نسق سابق في وجوده استخدام الكلمات والممارسات العملية التي هي تلفظ فردي أو كلام؛ أي هي القوانين والأنظمة العامة التي تحكم عملية إنتاج الكلام من دون أن توجد جميعاً إلا بوصفها بنى مكتوبة على صفحات كتب اللغة، في حين أن الكلام هو التطبيق الفعلي لتلك القوانين والقواعد.²

ولهذا، أصبح أي حديث عن اللغة من دون الاهتمام بالموقف التواصل لا معنى له؛ وبالتالي أصبحت الوظيفة التواصلية إطاراً عاماً تتحرك ضمنه بقية وظائف اللغة. بغض النظر عن هذه الوظائف التي أوردناها للإستئناس، سنركز على وظيفة التواصل السياسي للوسائل الإعلامية.

❖ ثالثاً: الوظيفة السياسية والديمقراطية للإعلام

أحدثت التحولات الحاصلة في الميادين السياسية والاقتصادية والتقنية على المستوى الدولي تطورات عدة في بنية وسائل الإعلام بشكل عام، عادت بآثارها في تغيير طرائق أداء القائمين على العملية الإعلامية في جوانب الأداء والتوجيه والتنفيذ، وهو ما أثر في وظائف الإعلام التقليدية وأثرها، حيث تجاوز الفضاء السمعي-البصري والمقروء بالمغرب مرحلة التعددية، ليلبغ حدود التفاعلية الواقعية النشطة، كما تجاوز مستوى سيادة الإعلام الرسمي وسيادة وزارة دولة عليه، بعيداً عن نظريات أحادية الإتجاه Communication unidirectionnelle حول أحادية التوجه والإرسال والأثر الذي يخطط له القائم بالاتصال يوجه لمتلقي ساكن غير فاعل.

1 ف.د. سوسير، علم اللغة العام، ترجمة الدكتور يونيل يوسف عزيز، مراجعة النص العربي: د. مالك يوسف المطليبي، بيت الموصل، بغداد، العراق، 1988، ص 38.

2 إبراهيم عبد الله الغانمي وسعيد علي، عواد، معرفة الآخر (مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة)، الطبعة 2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1996، ص 44.

أ- الإعلام الجماهيري وتشكيل المعتقدات السياسية

أصبح الأداء الإعلامي أكثر تفاعلاً مع التحولات السياسية والاقتصادية والتكنولوجية، التي أنتجت متغيراً إعلامياً سريع التطور وتفاعلية، وما أحدثه ذلك من ضرورات الأخذ بالوظائف الإعلامية الجديدة، في إطار المحافظة على قيم توقيير المؤسسة في عالم التواصل الفعلي والإفتراضي. ويمكن اعتبار تطور وسائل الاتصال الجماهيري جزءاً من تطور الحياة السياسية بشكل عام، حيث أصبحت أجزاء واسعة من هذا العالم بمثابة متلقٍ واحد، تُحركه الأحداث ذاتها، وتدفعه الميول ذاتها، ويتيح بث المعلومات المهمة عن الأحداث التي تقع في أي مكان من العالم في كل البقاع وفي دقائق قليلة وازعاً على تبني الموقف أو الوقوف عند حد تعبيرات لا تتجاوز مستوى الأندهاش أو الإستغراب، أو عدم الاكتراث، أو التعاطف، أو الاستهجان أو الاستحسان.

ويرى "ألmond" أن "وسائل الإعلام بدأت تؤدي دوراً مهماً في بث التوجهات والقيم السياسية الحديثة إلى الأمم: فعلاوة على تقديمها معلومات دقيقة ومحددة وفورية عن الأحداث السياسية في العالم، فإنها تنقل - سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة - القيم الأساسية التي يقررها المجتمع الحديث، إذ "تنقل عنه بعض الشعارات بطريقة مثيرة للعاطفة، كما إن الأحداث التي يتم وصفها مع هذه الشعارات يكون لها لون عاطفي محدد، وهو ما جعل من وسائل الإعلام أداة قوية تسهم في تشكيل المعتقدات السياسية"¹.

وتعد وسائل الاتصال الجماهيري من أفضل الأدوات وأوثقها وأكثرها وثوقية في مجال ربط الصلة بين الحاكم والمحكوم، وفقاً للسياسة الإعلامية لهذه الوسائل، التي تخضع عن وعي أو من غير وعي، لتمثل تعكسه الممارسة السياسية، إذ تترك بنية النظام السياسي بصماتها على هوية ومضمون الخطاب الاتصالي.

هنا تظهر إحدى أشكال تدخلات السلطة في الإعلام، والتي نؤشر من خلالها على ما سبق أن أشرنا إليه في عدد من المواقع في أطروحتنا بشأن تلازم جمع شخصية وزارية راحلة بين حقيقتي الداخلية والإعلام.

للإستعلام عن هذا التلازم، وقفت قليلاً عند تجارب عديدة في إطار المقارنة، فثبت أنه ما من إعلام حر ومستقل بالمطلق: فكما أسلفت في سياق حديثي السابق عن آليات "ترشيح ومنع وحجب" Filtrage, interdiction ou blocage المواقع التي تعتبرها غير قانوني: فكل أجهزة الإعلام تخضع لنظم رقابية، قبلية أو بعدية أو هما معاً، وتمارس عليها أشكال من التدقيق والحجب على مضمون الرسائل. ففي الوقت الذي بدأت تتراجع فيه مستويات أخذ أغلب الأنظمة الرقابية أشكالاً سياسية أو قانونية أو اقتصادية، بدأت بعض الدول بوضع رقابات غير مباشرة تأخذ صيغاً تقنية.

هذه المثبطات والعوائق يمكن أن ترد وفق الأشكال التضييقية التالية: عدم تجديد رخص البث أو حجب تردداته، فرض سياسات إعلامية معينة، توجيه الإعلام لأغراض التعبئة السياسية ومواجهة التحديات التي تواجه نظمها السياسية، فضلاً عن التنشئة السياسية وتعميق الولاء السياسي لدى مواطنيها، أو الإرتهان الإعلامي لكبار المستنشرين والمعلنين.

¹ - جمال مجاهد، الرأي العام وقياسه الاسس النظرية والمنهجية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2007، ص 32

وبدأت هذه الدول تعطي حقوقها في فرض الرقابة السياسية على مضامين الإعلام بعداً قانونياً دولياً، أرجعته إلى قوانين ومواثيق دولية، من قبيل الإحالة على إشارة اليونسكو إلى أن "السياسة الوطنية للاتصال" تعني "مجموعة القواعد والتقاليد التي توضع لترشيد عمل المؤسسات وأجهزة الاتصال في بلد ما، ويدخل في هذا الإطار مجموعة المبادئ والقوانين والتشريعات التي تشمل النشاط الإعلامي، من تأسيس وتنظيم وإدارة ورقابة وتنظيم وملائمة نظم، بشكل تتحقق معه أهداف الإعلام والنتائج المرجوة منه في إطار النموذج السياسي والاقتصادي الذي تأخذ به الدولة"¹.

ومعلوم أن من يحدد هذا النموذج في بلدان العالم الثالث هي الأنظمة الحاكمة، رغم أن اليونسكو تقترض أن "القوانين والتشريعات التي أشارت إليها في هذا التعريف، والتي تتصل بالمضمون الاتصالي وإدارة وتنظيم مؤسسات الإعلام، تأتي بمجملها من مصادر تنطوي ضمن الإطار السياسي والاجتماعي المعلن لهذه الدول، التي تتحدد في الدستور، في القوانين الوطنية ذات الصلة (القانون الجنائي والمدني، والإداري، والقانون الدولي العام)، فضلاً عن اتفاقية حقوق الملكية الفكرية، التي صدرت ضمن جملة من التشريعات الدولية التي تتعلق بتنظيم المعلومات وضبطها وإنتاجها وتداولها وأمنها، وما يتصل بها من تكنولوجيا على مستوى العالم"².

فالعلاقة بين العملية الاتصالية والعملية السياسية وثيقة للغاية، لأن كلا النظامين يؤثر ويتأثر في الآخر.

إلا أن حجم التأثير الذي مارسته النظم السياسية على الاتصال في الدول النامية كان أكبر، على نحو دفع بالأموند مرة أخرى إلى القول بأن "الأنظمة السلطوية الحديثة اكتشفت بان السيطرة الأكثر كفاءة وفاعلية يمكن تحقيقها عن طريق استخدام ثلاثة عناصر ببراعة في وقت واحد، يكون للإعلام دور بارز فيها، وهي:

- **التأهيل السياسي**، من خلال آليات ومساعي لخلق الولاء وخلق البراءة؛

- **التوظيف السياسي**، عبر توظيف الموالين السياسيين، وإعلان هذا الولاء أمام الملاء لترسيخ شرعية النظام وارتصاف الجموع وراءه؛

- **الاتصال السياسي**، بواسطة تحديد وتنظيم تدفق المعلومات"³.

فـ"**التأهيل السياسي**" - بوصفه جزءاً لا يتجزأ من التأهيل الاجتماعي ينصرف إلى الطريقة التي يتعرف بها الفرد على قيم وتوجهات مجتمعه - هو الذي يعطي التوجهات السياسية شكلها المطلوب من قبل النظام، إذ يكتسب معظم الأفراد أنماطاً سلوكية وتوجهات سياسية أولية، لكنها مميزة، في مرحلة مبكرة نسبياً من حياته. وقد تتبلور هذه التوجهات أو يُعاد النظر فيها، ليبقى مع ذلك القسم الأكبر منها في الذات السياسية للشخص.

ويجري التأهيل السياسي عن طريق عدد من القنوات من بين أهمها وسائل الاتصال الجماهيري، إلى جانب العائلة والمدرسة والمنظمات الدينية والمهنية والأحزاب السياسية.

¹ - موجز تنفيذي لتقرير اليونسكو العالمي حول "الاستثمار في التنوع الثقافي والحوار بين الثقافات"، الفصل الخامس "مضامين الإتصال المضامين الثقافية"، ص من 19 إلى 20، منشورات اليونسكو 2009

² - المرجع نفسه

³ - جمال مجاهد، مرجع سابق، ص 33.

إن تلك العناصر لا تعني أن الأنظمة السلطوية هي وحدها من وظفت وسائل الاتصال الجماهيري في الاستخدامات السياسية.

فـ "التوظيف السياسي" يأتي ضمن سياق "الاتصال السياسي" للدول كلها، الذي هو أحد وظائف العملية السياسية الحديثة بشكل عام، على أساس بقاء القرار بين يدي النظام السياسي بشأن قابليته للتغيير أو الستاتيكو والحفاظ على المواقع، وحول ما إذا ما كان النظام السياسي سيستمر محكوماً بحزب وحيد متسلط أو مجلس عسكري، أم أن أحزاباً تنافسية وهيئة تشريعية فاعلة ستحل محلها، فيساهم بذلك الإتصال السياسي في تدعيم الاختيارات الممكنة والكائنة.

هذه المعطيات تسهم تبعاً لذلك في تدعيم مفهوم التماسك السياسي وخلق الرطني والتضامن الجماعي، اعتماداً على ثلاثة عناصر تنخرط جمعاء ومجموعة في تشكيل الظاهرة السياسية للمجتمع:

• العناصر المادية التي تتألف من الإقليم والمناخ وطبيعة المجتمع؛

• **العناصر النظامية** التي تتألف من الدستور المؤلف لهيكل الدولة ومنظومة التقنين والحريات العامة والتي اعتمدتها وزارة الداخلية ضمن هيكلها التنظيمي وخصتها بمديرية على رأسها مدير برتبة عامل¹، وترجم تعيينه وتعيين عدد من العمال من خارج سلك رجال السطة إلى جانب وجوه البوليتكنيك والطب والسياسية والأمن لتحمل مسؤولية تسيير شؤون بالمصالح المركزية لوزارة الداخلية بعض الولايات والعمالات أو الدفع بها في تضاريس الإدارة الترابية، نسقا تدبيريا قائما على الاختصاص وتكريسا للمفهوم الجديد لسلطة التنمية وتتبع المشاريع؛

• **العناصر المعنوية**، التي تشير إلى النواة الوسطى التي تدور عليها أيونات الظاهرة السياسية، وتشمل الإيديولوجيات السائدة والدين وروح الشعب والانتماء للوطن والذود عن حوزته وحياضه؛

وتأسيساً على ذلك، يمكن القول بأن وسائل الإعلام استخدمت في الحياة السياسية لأغراض منها:

1- بيان ما هو مهم وما هو غير مهم، وما الذي يستحق أن يكون ذو صلة سياسية بحياة المواطنين، وترتيب الأجندة السياسية لهم ولخدمة مصالحهم والتداول بشأن قضاياهم وقضايا الوطن؛

2- تحريك الرأي العام ومواكبة الحراك أو تحريكه أو تكبيله، حيث مكنت تلك الوسائل من خلق رأي عام مساند ومؤيد، أو احتواء فئات معارضة عن طريق:

- التنويه، الذي يتحقق بتقديم المعلومات الملائمة لتحقيق الأهداف.

- التحفيز على التغيير، وخلق الطموحات الممكنة لدى الأفراد المستهدفين أو المثبطات التي تمتص حماس فئات أخرى وتحتويها؛

- الدعوة للمشاركة أو العذول عن المشاركة، مع تقديم فعل المشاركة في الحالة الأولى بنوع من المباركة على أساس أن المشاركة الجماهيرية هي المطلب الأساس في إحداث التغيير؛

¹- يتعلق الامر بالسيد العامل محمد أوزكان، مدير التنظيم والحريات العامة بوزارة الداخلية

3- توفير قاعدة بيانات ومصادر للمعلومات لأولئك الذين لديهم خطط وطموحات، اعتباراً للدور الحيوي للإعلام في جذب الشركاء وتكوين جمهور من الأنصار والمساندين والمشايعين، إنشاء اتصالات وثيقة وآليات للتنسيق بين المنظمات والأفراد؛

4- مواجهة السلطة للإعلام المضاد، وظفت السلطات السياسية الإعلام لمواجهة الإعلام المضاد الذي تتعرض له، عن طريق تحصين مواطنيها عبر وسائل الاتصال الجماهيرية المحلية باستخدام أساليب مختلفة منها:

- ربط معتقداته بأشياء أخرى يعرفها وبالقيم المشتركة المقبولة، التي تجعل من المتلقي أكثر مقاومة للإعلام المضاد، وربط هذا الاعتقاد بجماعات مرجعية تحظى بالاحترام العام؛

- إثارة الخوف والقلق وزيادة التوتر عند المتلقي من التداعيات والنتائج غير المرغوبة لحته على مقاومة الرسائل الإعلامية المضادة ومحاولات التعبئة ضد النظام أو ضد السياسات الحكومية (من قبيل احتمال انزلاق الاحتجاج إلى فوضى، والتركيز في النشرات الأخبارية على تتبع الوضع في سوريا والمجاز التي ترتكب في حق المدنيين العزل؛

5- توظيفه كسياسية وأداة استراتيجية لإشهار مواقف الدولة والإشادة بها وبأداء أجهزتها وبالعمليات النوعية التي تقوم بها لإحباط المشاريع الإرهابية مثلاً وتفكيك الخلايا النائمة والذئاب المنفردة، فيضطلع حينئذ بوظائف محددة يؤديها تنفيذاً للدور الذي تفرد له السياسات العامة للدولة، تتمثل بالاتصال بالأفراد والشرائح الاجتماعية والجماعات والكتل السياسية والمنظمات، والحوار مع القوى المؤثرة في اتخاذ القرار السياسي، من شخصيات وأحزاب وكتل برلمانية وقادة رأي، وبالتالي الوصول إلى الحد الأقصى من الفاعلية التي تخدم سياسات معينة للدولة.

ومن المتداول في أوساط علماء الاجتماع والنفس بأن الإعلام بوسائله المتعددة هو أكثر وسائل التأثير على عقول وأفكار الناس، وبذلك فإنه الوسيلة الأولى التي تشكل اتجاهات الناس نحو المواضيع والمواقف الحياتية اليومية التي تعيشها وتواجهها المجتمعات.

وأصبح الإعلام يستخدم في التنظيم والبناء الاجتماعي المتكامل من أجل مصلحة الفرد والمجتمع ككل في شتى مجالات الحياة المعاصرة سواء في الجوانب الاجتماعية، أو الاقتصادية، أو السياسية، وحتى الأمنية.

إلا أنني أثرت التركيز على النموذج الأمني، لاشتغالي بأدواته في أدائي المهني اليومي، ولانشغالي الدائم والقائم بمختلف تشظياته (الأمن الغذائي من خلال ربورطاجات عن تزويد الأسواق بالمواد الاستهلاكية في شهر رمضان أو بتوفر الأضاحي أو ضبط ومراقبة أثمان تذاكر حافلات النقل بين المدن خلال عطلة عيد الأضحى / الأمن الروحي للمملكة من خلال برامج عن الزوايا وعن إغلاق مدارس تشيع الفكر الشيعي وتفكيك خلايا إرهابية/ الأمن الاقتصادي من خلال ضبط كميات من المواد المهربة التي تنافس المنتج الوطني/ لأمن العام من خلال مقتطفات عن تفكيك عصابات كان أفرادها يروعون السكان الأمنيين وتبديد الإحساس بانعدام الأمن بفضل برامج حول دوريات الشرطة/ الأمن المناخي من خلال النشرات الإنذارية والنشرات الجوية التي تنبه المواطنين/ الأمن الطرقي من خلال تضييع بلاغات ونشرات وزارة النقل بشأن الطرق المقطوعة بسبب الثلوج أو الفيضانات أو تفادي استعمال الطريق السيارات في أوقات الذروة وبمناسبة الأعياد والعطل / الأمن المدرسي من خلال الحديث عن الدوريات التي تؤمن محيط المؤسسات التعليمية لمحاربة الظواهر

المشيئة/ الأمن الإجتماعي من خلال الحديث عن قيم التضامن والترويج لشراء شاراته وغير ذلك من الإشارات التي حملتها المبادرة الوطنية للتنمية البشرية مثلا/ الأمن المجتمعي من خلال مخاطبة المؤسسات الشرطية للجمهور عبر الوسائط المختلفة كإجراء وقائي، فيتم بموجب هذا الإحتكاك والتفاعل والتوعية بالمخاطر التي تحيط به وتتربص به والرد على الشائعات والمغالطات والمحاولات المضللة والضالة التي تحاك بألياف الفتنة والبلبله، وكل ما من شأنه ضمن الحفاظ على السلم الإجتماعي دون السقوط في النموذج الماركسي لصراع الطبقات...).

ورغم السرية التي تميز العمل الأمني، فقد اقتضت ضرورات التواصل ظهور الإعلام الأمني على الساحة الإعلامية، كأداة تأثير فعالة ساعدت العديد من المؤسسات على تحقيق أهدافها وتحسين صورتها لدى المتعاملين معها في مجال الأمن وتقريب المسافات بين المؤسسة الأمنية والمواطنين من خلال الإعلام الأمني (مجلة الشرطة نموذجا)، الذي يزود باقي المنابر الإعلامية وجمهور التلقي وحتى الأمنيين أنفسهم بالمعارف الأمنية التي ظلت حتى وقت قريب حكرا على العلب الصماء والبكماء للأجهزة الأمنية.

كما صار الإعلام الأمني يتيح مستويات تعريف ومعرفة بالقضايا الأمنية، ويضطلع بالدور التوعوي ويمحص النصح بشأن تدابير واحتياطات حفظ الأرواح والممتلكات العامة والخاصة، وكل ما من شأنه أن يجنب المواطن مخاطر الوقوع ضحية لشبكات الجريمة، والترهيب من عواقب ارتكابها على الفرد والمجتمع.

كما يساعد الإعلام الأمني بكل أطيافه مختلف العاملين في أسلاكه لأداء المهام المنوطة بهم ورفع روحهم المعنوية، حيث يستشهدون في خطاباتهم كل مرة بشذرات من خطابات الملك التي تنوّه وتشيد "بالقوات المسلحة الملكية، والدرك الملكي، والقوات المساعدة، والأمن الوطني، والوقاية المدنية، والإدارة الترابية على تقانيهم وتجندهم الدائم للدفاع عن وحدة الوطن وسيادته، والسهر على أمنه واستقراره"¹.

ويقوم مفهوم الإعلام الأمني على فلسفة إعلامية تعتمد على زيادة التأثير والفاعلية لما يصدر عن وسائل الإعلام العامة والمتخصصة في المجال الأمني فضلا عن ترسيخ صور بديلة للصور الذهنية النمطية عن الشرطة وعن التعسف والإعتقال والتعذيب والحراسة مدى الحياة Garde à vie au lieu de garde à vue وحث المواطنين على تجاوز مستوى التشكيك إلى مستوى مساعدة رجال الأمن والتعاون معهم في أعقاب الأحداث والجرائم.

فمختلف الرسائل الإعلامية الامنية تصدر بهدف توجيه الرأي العام لتحقيق الخطة الشاملة والتصدي للأسباب والدوافع، ونشر الوعي الامني ومعطيات ومعلومات وتقارير أمنية تنمي حس المسؤولية والشعور بالامن فضلا عن مستويات الجريمة ومكافحة الانحراف باحترافية، دون تهويل أو تهوين، برسائل صادقة تصدر عن المؤسسة الشرطية ترسخ في أذهان الجماهير ضرورة التفاعل الايجابي بين المواطن والامن في إطار سياسة أمنية تجفف مواطن وبؤر ومنابع الإجرام.

وهناك مجالات تعتبر من صميم العمل الشرطي، كالعمل في مجال مكافحة الجريمة، وتسيير المرور، وأعمال الوقاية المدنية وتدبير الأزمات، فضلا عن حماية البيئة ودعم مقومات الأمن المجتمعي.

¹ - من نص الخطاب السامي لجلالته بمناسبة تخليد الشعب المغربي للذكرى 17 لعيد العرش المجيد

كما أن التواصل الأمني يروم التخفيف من التوتر ند حدوث الأزمات، من خلال التتبع ونقل الأخبار والتنقل الميداني للسيطرة على الوضع، خاصة في سياق "الحدث الأمني" (و) "الأزمة الأمنية":

- فـ"الحدث الأمني" يعني تلك الخطوة الأولى المؤدية إلى أزمة أمنية في غالب الأمر، وينصرف إلى كل واقعة أو فعل أو أمر يؤدي التخطيط له أو تنفيذه إلى تهديد حالة الأمن العام للمجتمع، أو الإخلال به في أي مجال من مجالاته إلى المساس في النهاية بالنظام العام ومواجهة النظام.

- أما "الأزمة الأمنية"، فهي تلك الحالة التي يستفعل فيها الحدث الأمني، وتتصاعد فيها مفاعلات تخصيب الإنفعال إلى مستوى التأزم أو تازيم الوضع بشك متعمد وتشبيكه كمقدمة للتشابك، ولو كان في الخطاب تلويح بالسلمية (كما هو الشأن حاليا في إرهابات قيام حراك بالريف بعد وفاة مسحن فكري)، ويتعقد الوضع إلى الحد الذي يتطلب معه ضرورة تكاتف جهود العديد من الجهات الأمنية وغير الأمنية لإمكان مواجهته بحكمة وخبرة، وقدرة على احتواء ما يترتب عليه من أضرار والحيلولة دون تمكين مفتعلي الحراك من الإصرار على الإضرار بالأمن.

ويمكن لوسائل الإعلام قبل الأزمة وحتى فيما بعد انتهائها أن تقوم بمناقشة وتقييم وتحليل ما حدث وما يحدث، للكشف عن الايجابيات والسلبيات وتحديد الدروس المستفادة، لأن الأزمات على المستوى الأمني لا تتحمل القصور أو التقاعس الإعلامي، ولا يكفي فيها الحسم الأمني، أو التعامل البوليسي في الكثير من الحالات.

فالحادث الأمني يُهدد مصالح واستقرار المجتمع، والأزمة الأمنية قد تهز أركان المجتمع ومصلحه، وتستدعي الإعلام الكامل عن تفاصيل التدابير والعلميات الأمنية، وعن جهود رجال الأمن في التعامل مع قوى الأزمة وجيوب الفتنة، مع الحرص على تقديم إجابات على مدار الساعة بشأن طلبات الإستعلام بشأن كيفية حلها والخروج من الوضع المأزوم والعقوبات التي صدرت في حق المتورطين، وبالتالي تحقق عنصر الردع الضمني حُيال كافة فئات جمهور التتبع.

ب- رابعاً- تحريك مطالب الإصلاح

تعد وسائل الاتصال الجماهيري فاعلة في بناء قضايا سياسية مهمة لدى الجمهور، إذ تقوم "بتجهيز" المسرح السياسي للمناقشة، وغالباً ما نجد الناس يتحدثون بانسجام مع الخطوط التي ترسمها هذه الوسائل، لاسيما أنها تمكنت من تحفيز الاتجاهات الساكنة وتحريكها في أوقات معينة، إذ إن لكل فرد اتجاهات نحو العديد من الأشياء، فقد تكون له "اتجاهات ايجابية" نحو الوطن والتفكير المنطقي والديمقراطية والإصلاح، و"اتجاهات محايدة أو مُحيّدة" نحو السلطة والأجانب، و"اتجاهات سلبية راديكالية" تنحو نحو الفوضى وافتعالها، والتأمر، والفساد والعداء للآخر وتأليب الرأي العام ضد فئة من الفئات، والرغبة في القتل والعدوان

إلا إن حالة عدم التألف قد تتولد عن الموقف الذي يتعرض فيه لرسالة إعلامية تربط ما بين موضوعين أو أكثر، يتخذ اتجاهات مختلفة نحوها، كاتجاهه الايجابي من الوطن والإصلاح، والمحايد من السلطة، والسلبي من الفساد، فضلا عن تأثير الحملات الإعلامية على أنماط التفكير الاجتماعية والسياسية عندما تتصدى للفساد، وتعزز العادات السلوكية الصحيحة وأنماط التفكير والتدبير السليمة والسلوكات السوية.

وقد لا تلقى مطالب الإصلاح مساندة جماهيرية كافية في أوقات الهدوء والاستقرار السياسي والرخاء الاقتصادي والرضا الوظيفي، رغم الحاجة الموضوعية لها، وتؤخذ على أنها أنماط من من المعارضة السياسية للنظام الحاكم لتحقيق الوصول إلى السلطة أو التأثير فيها باتجاه ما إذا تعسرت مواجهتها.

ويمكن للإعلام أن يتولى حينذاك إظهار دواعي الإصلاح وموجباته في تلك الظروف عن طريق الكشف عن مواضع الفساد السياسي للسلطة: فقصص الفساد التي تشعلها الصحف المستقلة -ومعها باقي وسائل الاتصال الجماهيري- ساعدت على تحريك الإصلاح في عدد من الأنظمة السياسية، كما إن الأزمات الاقتصادية التي يلقي باللوم فيها على السياسات الحكومية الهزيلة يمكن أن تسهل حدوث التغيير.. ويمكن لتلك القصص أن تعجل بوضع الإصلاح على الأجندة الحكومية أو النقاش البرلماني في إطار الأسئلة الشفهية الآنية.

ت- الوظائف الديمقراطية للإعلام

إذا كانت الوظائف السياسية لوسائل الاتصال الجماهيري، يمكن أن يشير معظمها إلى توظيف النظم الحاكمة والأحزاب والتيارات السياسية للإعلام لتحقيق عدد من الأهداف، فإن جملة المتغيرات السياسية والاقتصادية والتكنولوجية والإعلامية الدولية المعاصرة، التي امتاز بها الحقل الإعلامي الجديد، تضعنا أمام ضرورة تحديد وظائف ديمقراطية للإعلام.

فمثلاً مارست وسائل الاتصال تحت تصرف قادة الرأي وافتتاحياتهم وارتساماتهم لتعينهم على وظائف مسرحية الحياة السياسية والتعبئة وتشكيل الوعي السياسي، فقد تحولت إلى منابر للناس والإنعاق والبوح، ولتلقى الشكاوى والتظلمات.

وقد أصبحت مشاركة المتلقي العادي في العملية الإعلامية ميسرة بفضل ما يسمى بظاهرة الاندماج، التي تشير إلى الاستعمال الشامل للرقمية في الوسائل والتقنيات الاتصالية كافة، على نحو سمح بتشبيك تلك الوسائل التي كانت تعمل بشكل منفصل، لتتيح تقنيا إمكانية التشبيك بين التلفزيون والاتصالات وربط أجهزة ووسائل إعلامية كانت تاريخياً مختلفة الوظائف.

كما أتاح التدوين الإلكتروني (عبر مواقع الصحف الافتراضية الجديدة والمواقع الإخبارية والمنتديات والقوائم البريدية والمواقع الشخصية لبعض السياسيين ورجال الدين والأفراد العاديين) للفئات والجماعات خارج النخب الحاكمة ما يتيح دواوين هؤلاء النخب من توصيل أو تكميم لصوت الآخرين ولتظلماتهم.

فقد مكنت هذه الوسائط من تكوين جيل من الكتاب/القراء/ المدونين المنتجين للمعلومات، بدلا أن يكونوا مستهلكين لها، مع قدرة على تجاوز قيود استخدام وسائل الإعلام التلفزيونية الأخرى كلها وعوائقها وتجاوز حدود الانتماء إلى المدينة أو الجهة إلى مستوى "المواطنة الرقمية" والتجول في فضاءات الديمقراطية الافتراضية، ومناصبه العداء للدول والجهات والأشخاص والجماعات السياسية، مما دفع قسما منها إلى الاعتقاد بان التكنولوجيا الحديثة لوسائل الاتصال ومنها الانترنت أصبحت عدو النظم السياسية التي تنتهك حقوق الأفراد، لان وسائل الإعلام التقليدية تدعم الحكومات وليست الأفراد، ولكن الانترنت أصبح يعطي القوة للأفراد والجماعات، وأن مدونات الإنترنت تمتلك القدرة على نشر أي تفسير سياسي، دون الاضطرار للتعامل مع حراس البوابة في الإعلام التقليدي.

بعد ظهور وسائل الإعلام الجديد، أضحت تأثير تلك النظرية محدودة، وأصبح الجميع يمكنه مخاطبة الجميع بشكل مباشر وبعيدا عن مركزية تلك الوسائل، فقد تعددت قنوات الاتصال المتاحة أمام الفرد، إذ إن المجال الاتصالي المفتوح أتاح تعدداً أكبر في الوسائل والقنوات والمصادر والأصوات والمحتوى والجمهور .

غير أن ذلك لا يعني اختفاء تأثير "نظرية حارس البوابة"، فالمستخدمون للوسائل الجديدة كذلك يقومون بدور يكاد يشبه تأثير حراس البوابة على المضامين الاتصالية، فالأشخاص الذين أصبحوا منتجين للمضامين الاتصالية يتأثرون أيضاً بالعوامل الأربعة، لكن بسبب الاتاحة وسهولة استخدام الكثير لتلك الوسائل، لا يبدو تأثير حراس البوابة الجدد على المضامين الاتصالية. ولم يقتصر تأثير الوسائل الجديدة على نظريات المصدر وإنما غيرت أيضاً من المفهوم الاصطلاحي للقائم بالاتصال، الذي كان يؤدي دوراً رئيساً في العملية الاتصالية، ولم يعد هناك مُرسل ومُستقبل بل كل منهما مشارك في العملية الاتصالية¹.

وما تركيزي على المدونات السياسية إلا لتزايد مستويات استعانة الصحفيين والكتاب ورؤساء التحرير بالمدونات السياسية وكتابات المدونين وقادة وصناع الرأي leaders d'opinion، التي سأتطرق إليها على مستوى تفعيل الممارسة السياسية وإلى محددات ذلك التفعيل بعد الوقوف عند محطة الابط والمحول في اعتماد وسيلة اتصال جماهيري وأخرى وفقاً لتجولات منسوب تلك الجماهيرية.

❖ رابعاً: محددات الثبات والتحول في وسائل الاتصال الجماهيري

وَقَرَّت الفورة التكنولوجية" إمكانية توصيل البث التلفزيوني مباشرة إلى المستقبل، وبدون وسيط، وبدون أية إمكانية إلغاء أو تعطيل أو منع هذا البث، لتفقد الأنظمة سيطرتها وسيادتها واحتكارها الإعلامي، ليشكل هذا التطور بالمغرب كما بباقي الدول العربية أساساً منعطفاً هاماً في الحياة الاتصالية العربية²، حيث "أخذ المجال الإعلامي العربي الجديد يتشكل ببطء، حتى أصبح فضاء تتصارع في داخله قوى جديدة عديدة ومتباينة"³، فضلاً عن تلك القوى السابقة التي كانت تسيطر على النموذج التواصل التقليدي.

ولم يَشُدَّ المغرب عن هذا الحراك الذي عرفته الحياة الاتصالية، ولم تَشُدَّ أو تغرد وسائل الإتصال الوطنية خارج هذا السرب، حيث فتحت فيها مسارب متعددة الهويات والمشارب، بعد أن ظلت العناصر الثلاث التالية تشكل ثقلاً على فضاء التواصل عموماً وجمهور تلقي الخطاب الملكي أيضاً:

- تميز الإعلام المغربي كما العربي قبل عهد الفضائيات والبث الأرضي والتناظري بطابعه القُطري، فالقطرية كانت أهم حقيقة في الإعلام العربي، إذ كانت من السمات العامة للخطاب الإعلامي العربي في السنوات الأخيرة للقرن العشرين؛

- الطابع السلطوي التمجيدي للخطاب الإعلامي العربي، حيث شكل هذا الخطاب نماذج دعائية، في حين أن النموذج الدعائي يختلف بعدة وجوه في الفرضيات السائدة حول الاتصال- كما

¹- نصار إبراهيم عبد الرزاق وصفد حسام الساموك، الاعلام الجديد: تطور الأداء والوسيلة والوظيفة، الدار الجامعية للطباعة والنشر والترجمة، بغداد، 2011، ص 41

²- أديب خضور، الإعلام العربي على أبواب القرن الحادي والعشرين، الطبعة الثانية، دمشق، المكتبة الإعلامية، 2008، ص. 52

³- الصادق أحمامي، المجال الإعلامي العربي- إرهافات نموذج تواصل جديد، مجلة المستقبل العربي، بيروت، العدد 335 ، كانون الثاني 2007، ص. 14

نتوقعه في النظم الديمقراطية-، فتبتدئ هذه الوجوه في المواجهة بالاختلافات في طريقة تعريف الاتصال نفسه، إذ ينظر الدعاة إلى الاتصالات كمجموعة من التقنيات التي ترمي إلى تلقين الجمهور المستهدف، فيما يعتبر المفهوم الديمقراطي للاتصال عن عملية مستمرة من الحوار بين الأصوات المتنوعة، في الوقت الذي عدت النظم الحاكمة وسائل الاتصال الجماهيري بحد ذاتها إحدى أدواتها السلطوية في ممارسة الضبط الاجتماعي، وفي ترسيخ إيديولوجية وقيم السلطة الحاكمة المسيطرة على هذه الأدوات¹، كما كان الأمر عليه على عهد وزير الداخلية الأسبق ادريس البصري الذي كان يتأبط أيضاً حقيبة الإعلام بالتلازم مع حقيبتة "أم الوزارات".

- الابتعاد عن الجمهور وانشغالاته وسلم أولوياته: فلم يكن الإعلام العربي، في معظمه، قادراً على تقديم صورة موضوعية عن الواقع، ولم يغط مجالات الفقر فافتقر إلى المصدقية والفعالية، وافتقر بذلك للجمهور الذي كان يتأفف من لازمة "قولوا العام زين!"، على اعتبار أن الغلام يهين الذكاء الجماعي للجمهور ولا يقيم لأفراده وجماعاته وزناً، فكرس بذلك اعتزال الجماهير للشاشة وعزلة هذه الأخيرة.

إلا أن خطاب هذه الأخيرة ظل على حاله، وتصميمه وبرامجه وطريقة صوغه للخطابات وترتيب العناوين والأولويات في التناول ظل على علّاته، لأنه غير بمعنى بارضاء جمهور غير السلطة، ولا يهتم بالجمهور ولا بنسب المشاهدة وأوقات ذروة المشاهدة الجماهيرية إلا من أجل تقديمه كرقم من أرقام المشاهدة لاجتذاب كبار المُعلنين les grands annonceurs والتبرير التجاري لفعالية القناة لتمرير وصلاتهم الإشهارية، لأن النظم السياسية كانت مشغولة أساساً في ترسيخ وجودها وضمان الاستمرار، فقد تحددت مهام ووظائف الإعلام العربي على هذا الأساس.

بعيدا عن مجال التسويق والإستسواق الذي كتبت فيه وقمت بدراسات في مختلف حقوله عند بداية مساري المهني، يمكن القول أن سيطرة النظم الحاكمة على وسائل الاتصال الجماهيري العربية قد أدت إلى جعل المضمون الإعلامي تابعا للسلطة، وبانت مهمة القائمين بالاتصال ممركة ومركزة على تلبية احتياجات هذه السلطة، حتى ولو كان الدفاع عنها ضد مصالح الغالبية من الجماهير، الذين أصبحوا بحكم ما قدمته هذه الوسائل من قيم الطاعة والترويج فقط للبضاعة يدركون طابع الميل كل الميل الذي تمارسه وسائل الاتصال الجماهيري العربية، بعيدا عن الحياد الإعلامي أو الوسطية والإعتدال أو التوسط بين الفئات.

وعليه، فقد "ظلت تلك الوسائل أداة عضوية للجماعات الحاكمة، تعكس في تعبيرها الإعلامي نمطاً ومجالاً محدداً للسيطرة، مستفيدة من المقدرة الإيديولوجية للإعلام كوسائل جماعية، ومن قدرتها على قول الشيء نفسه لعشرات الملايين من جمهور التلقي"².

حتى الدول التي كانت رائدة إعلامياً على المستوى العربي، لم تخرج قنواتها وصناعة الصحافة لديها بشكل عام عن دور الوسيط الذي يراعي التوسط ولا تتجاوز علامات أدائه المتوسط في الامتحان اليومي لعملية تقديم الآراء والأفكار انطلاقاً من رؤية محددة، "طبقاً لتوجهات المسيطرين على الصحافة، والمتمثل في مختلف النظم الحاكمة في الدول العربية"³.

¹ - بسيوني إبراهيم حمادة، اتجاهات عالمية حديثة في بحوث الإعلام وتكنولوجيا الاتصال، دبي، مطابع البيان، 2003، ص 152

² - شريف درويش اللبان وهشام عطية مقصود، مقدمة في مناهج البحث الإعلامي، القاهرة، الدار العربية للنشر والتوزيع، 2008، 146

³ - نفس المرجع ونفس الصفحة

وقد تحددت بموجب ذلك النظرة إلى السياسية الإعلامية للعديد من هذه الدول بمجرد وضع القيود والرقابة والتحكم في وسائل الاتصال لصالح السلطة الحاكمة، لتصبح هذه الوسائل أداة لشرعة سياسات النظام القائم الذي تعمل ضمن إطاره.

وبالنظر إلى مجمل السياسات الإعلامية الحكومية لأغلب الدول العربية، يمكن استخلاص سماتها العامة وتخليص ذمتنا من خلال تلخيصها في محورين:

- التركيز على الشخصية الوطنية لتلك الدولة، وتعميق الولاء لها في وجدان المواطن وعقله، وفي مخاطبتها للرأي العام في الدول المجاورة أساساً (فقد وجه الملك محمد السادس عبارات تقريع رموز النظام والجار الجائر بالجزائر، واستثنى الرأي العام الجزائري بالقول "أما خصوم وحدتنا الترابية ومن يدور في فلحهم، فهم يعلمون أكثر من غيرهم، بأن الصحراء قضية مصيرية للشعب المغربي، وحينما يجعلون منها محورا لاستراتيجيتهم العدائية، فإنما يؤكدون أنهم الطرف الحقيقي في هذا النزاع المفتعل، ضدا على مشاعر الأخوة المتبادلة بين الشعبين المغربي والجزائري. نؤكد أن المغرب، وهو بلد الحرية والانفتاح، يرفض المزايدة عليه بحقوق الإنسان، لاسيما من طرف أنظمة وجماعات قائمة على انتهاكها. بل تحاول بأساليب المكر والتضليل جعلها أصلا تجاريا، واتخاذها وسيلة للارتزاق الرخيص، داخلها وخارجها، بمقدسات الوطن، أو بالوضع اللاإنساني لإخواننا بتندوف. فهذا الوضع المؤلم يجعل الجزائر والمنظمات الدولية، وخاصة المندوبية السامية لاجئين، أمام مسؤولياتها، في توفير الحماية الفاعلة لهم"¹.

- الدفاع عن السياسة العامة للدولة وقرارات النخبة الحاكمة، وشرح أهدافها وتوضيح مواقفها إزاء القضايا التي تهم السلطة، ومن هنا تكون السياسة الإعلامية للدولة مرآة لسياستها العليا.

وفي النهاية، يمكن القول أن مواقع التواصل الاجتماعي أصبح لها دور كبير في التأثير على الرأي العام بشكل جلي، وتخصص للإعلان عن السلع والخدمات أو لبيع المنتجات أو حتى لبيع الصورة والترويج للموقف.

لذلك، سأحاول الوقوف على هذا الدور من خلال بسط الحديث عن محددات وسمات الوسائط الجديدة للتواصل الجماهيري.

المطلب الثالث/ تطور الوسائل خدمة لتطوير مستويات تداول وتناول الخطاب الملكي

❖ أولا- محددات وسمات الوسائط الجديدة لتواصل الملك وشعبه

أحدثت التطورات التكنولوجية الحديثة في منتصف عقد التسعينات من القرن الماضي نقلة نوعية وثورة حقيقية في عالم الاتصال، حيث انتشرت شبكة الإنترنت في كافة أرجاء المعمورة، وربطت أجزاء هذا العالم المترامية بفضاءها الواسع، ومهدت الطريق لكافة المجتمعات للتقارب والتعارف وتبادل الآراء والأفكار والرغبات. كما أتاحت لكل متصفح لهذه الشبكة من الوسائط المتعددة المتاحة فيها سبل تحقيق التواصل بين الأفراد والجماعات، ثم ظهرت المواقع الإلكترونية والمدونات الشخصية وشبكات المحادثة، التي غيرت مضمون وشكل الإعلام الحديث، وخلقت نوعاً من التواصل بين أصحابها ومستخدميها من جهة، وبين المستخدمين أنفسهم من جهة أخرى.

¹- من نص خطاب جلالة الملك محمد السادس إلى الأمة بمناسبة تخليدها الذكرى الـ 34 للمسيرة الخضراء

وهذه المواقع هي عبارة عن صفحات ويب على شبكة الإنترنت، يخصص بعضها للإعلان عن السلع والخدمات أو لبيع المنتجات، والبعض الآخر عبارة عن صحيفة إلكترونية تتوفر فيها للكتاب إمكانية للنشر، مع تخصيص مساحات تفاعلية للزوار من أجل التفاعل مع المواضيع المنشورة فيها وكتابة الردود، أو دخول فضاءات المساجلة والمناظرة والنقاش بين المتصفحين، وكذلك مواقع للمحادثة (الدرشة). وقد وجدت أن هناك مدونات شخصية يجعلها أصحابها كمحفظة خاصة يدونون فيها يومياتهم، ويضعون صورهم ويسجلون فيها خواطرهم واهتماماتهم.

ومن هذه المواقع محركات البحث وبوابات ويب ومراجع حرة والمدونات ومواقع الصحف والمجلات ومواقع الصحف الإلكترونية ومواقع القنوات الفضائية ومواقع اليوتوب حتى ظهرت شبكات التواصل الإجتماعية مثل التي أتاح البعض منها (خاصة "الفيس بوك" و "اليوتوب" في المغرب ومؤخرا "واتساب" ونسبيا "الإنستغرام" و "تويتر") تبادل مقاطع الفيديو والصور ومشاركة الملفات وإجراء المحادثات الفورية والتواصل والتفاعل المباشر بين جمهور المتلقين.

ويُسجّل لهذه الشبكات كسر احتكار المعلومة، كما أنها شكلت عامل ضغط على الحكومات والمسؤولين: ومن هنا بدأت تتجمع وتتجاوز بعض التكتلات والأفراد داخل هذه الشبكات، حاملة أفكارا وعبئا، إئتلافا واختلافا، فأثّرت هذه الحوارات على تلك الشبكات وأثّرتها وزادتها غنى، وجعلت من الصعب جداً على الرقابة الوصول إليها أو السيطرة عليها، أو لجمها في حدود معينة، ماعدا في بعض السياقات التي سأشير إليها في حينها.

وتظل مواقع التواصل الإجتماعية هي الأكثر انتشاراً على شبكة الإنترنت، لما تمتلكه من خصائص تميزها عن المواقع الإلكترونية، مما شجع متصفحها الإنترنت من كافة أنحاء العالم على الإقبال المتزايد عليه، في الوقت الذي تراجع فيه الإقبال على المواقع الإلكترونية، بالرغم من الانتقادات الشديدة التي تتعرض لها الشبكات الإجتماعية على الدوام وخصوصاً موقع (الفيس بوك) الذي يؤاخذ عليه تأثيره السلبي والمباشر على المجتمع الأسري، والمساهمة في انفرط عقده وانهياره، في مقابل رأي مخالف يرى فيه وسيلة مهمة للتنامي والالتحام بين المجتمعات، وتقريب المفاهيم والرؤى مع الآخر، والإطلاع والتعرف على ثقافات الشعوب المختلفة، إضافة لدوره الفاعل والمتميز كوسيلة اتصال ناجعة في الهبات والانتفاضات الجماهيرية.

تملك وسائل الاتصال الحديثة قدرة خاصة على الرفع من قدرات المنظمات والهيئات وبصفة عامة النشاط، خاصة أولئك الذين تجاوزوا عتبة الهوية الرقمية أو الأمية الرقمية: فوسائل الاتصال الجديدة ومن ضمنها تكنولوجيا الشبكات في الانترنت تخول الأفراد والمنظمات فرصة القيام بأنشطة متعددة كإنشاء المدونات أو الانخراط في الشبكات الاجتماعية وتخول لمستعملها إمكانية تخفيض تكلفة نشر الأخبار والأعمال مبوأة "المواطنين الصحفيين" مركزا مهما في مواجهة مؤسسات الإعلام التقليدية القوية رغم الاستثمارات الضخمة التي يتعين القيام بها من أجل تحقيق ذلك.

لذلك، بنفس دأبي على رصد دور تلك التكنولوجيا في تفعيل الممارسة السياسية من خلال تحليل زيادة استعمالها في عملية التعبئة والسياسية أولا، سأحاول الوقوف على ظاهرة المنتديات السياسية في العالم العربي التي عرفت انتشارا كبيرا وصارت مرشحة لأهمية أكبر في السنوات المقبلة.

❖ ثانيا- الجهد المؤسساتي للرد على سؤال الإعلام الجديد وقوة التعبئة

إن الصراع السياسي والإيديولوجي الذي تضمنه الخطاب الإعلامي الرسمي العربي لعقود طويلة كان يرمي إلى إنتاج- أو حتى إعادة إنتاج- المعاني، التي "تقوم بوظيفة إعادة إنتاج علاقات الصراع والسيطرة والخضوع السياسي في المجتمع، إذ سعت النظم الحاكمة عبر استخدام خطاب إعلامي محدد إلى استبعاد (في حال رفض الاستبعاد) ونفي الآخر.. وعن طريق وسائل الاتصال الجماهيري، بما يتيح من إمكانات الإرسال والتلقي على نطاق جماهيري-، كان يتم نشر وتعميم هذا الصراع، واجتذاب الجماهير إلى صفوف القوى السياسية الحاكمة، بحيث تصبح هذه الوسائل ركيزة لإنتاج وإعادة إنتاج الإيديولوجيات والنظم السياسية المسيطرة"¹.

وأذهب مع الإتجاه الذي يرى أنه في إطار تغليب عنف الدولة المشروع على عنف الأفراد، فمن "الطبيعي أن تلتزم جميع المؤسسات والمنظمات والهيئات العامة والخاصة، ومنها وسائل الاتصال الجماهيري، وتتأثر بالنظام السائد أو الحاكم، وفقاً لما تحدده القيادة السياسية وقراراتها التي تمثل منهاج عملها وإستراتيجيتها، إلى أن يشتد الالتزام أو يتراخى بحسب نوع نظام الحكم.. ومستويات الإلزام وإحكام الزمام للمضي إلى الأمام. ويبقى تبعا لذلك للنظام السياسي، مهما يكن شكله أو نوعه، تأثير واضح وجلي على خط التوجه وعلى التخطيط العام لمختلف المؤسسات"².

كما أنني لا أقصد فقط بقاء هذا لا يعني أن تبقى النظم الحاكمة الموجه الوحيد للإعلام، فالدولة في العالم العربي لا تحتكر وسائل الإعلام فقط، ولكنها تتصرف فيها من منطلق القوة الشرعية الوحيدة التي لها الحق في تنظيمها وتحديد مضمونها، إذ تمارس من خلال آليات متنوعة عملية إنتاج المضامين المتداولة انطلاقاً من مرجعية إيديولوجية، ومن شرعية دور الوساطة الذي أعطته لنفسها، كقوة مؤتمنة على قيم المجتمع ونظمه ونظامه وانتظامه العام ومبادئه الدستورية وما تواريه من مبادئ وعوالم متوارية.

إلا أن المشهد الإعلامي العربي الجديد لم ينأى بنفسه عن التحولات والمتغيرات الشاملة المعاصرة التي أثرت في الإعلام على مستوى العالم، لاسيما مع ظهور الانترنت كمنظومة تواصلية جديدة، وبروز قوى جديدة غير حكومية في هذا المجال، وحجم استثمارها المالي الذي حجّم حجم الإعتمادات القطاعية للقطب العمومي للتلفزة وخرج بفضائيات تدعوا برامجها وتنويعها للإحجام عن المنتج الإعلامي الرسمي ووسائل تأثيره السياسي والإيديولوجي المتكرر والمتنائب.

وقد نتج عن تحولات البيئة السياسية والتقنية والإعلامية زيادة في القنوات والوسائط، وبالتالي تقليص لما يمكن تسميته بالسيادة الإعلامية، والتي ينصرف فهمها في تصريف فكرة انحسار دور الدولة في تنظيم وصول الأفراد إلى المضامين الإعلامية والمساهمة في إنتاجها، في مقابل جملة من التغيرات وإمتلاك الأفراد للتقنيات الجديدة الالكترونية كالانترنت ووسائل الالتقاط المباشر، وإنهاء ما كان يحيل عليه المستوى القطري من تماثل بين المجال الإعلامي والمجال الجغرافي الوطني، فافلت المتلقي كالنزق من بين خيوط الوساطة (الرقابة والبرمجة اللغوية العصبية الرسمية) التي كانت تسمح للدولة بأن تحدد للفرد ما يجب أن يشاهده ويسمعه ويقراه.

¹- شريف درويش اللبان وهشام عطية مقصود، مرجع سابق، نفس الصفحة

²- عبد الكريم راضي، العلاقات العامة فن وإبداع - تطور المؤسسة ونجاح الإدارة، بيروت، دار البحار، 2007، ص. 146

وبالرغم من حداثة هذه الوسائل في العالم العربي، يلاحظ ازدياد كبير في انتشار استعمالها، خلال السنوات القليلة الماضية، كأداة للتعبئة الاجتماعية والسياسية في عدد من الدول العربية من بينها المغرب ومصر والبحرين والكويت ولبنان.

ويعد الصحفيون والمنظمات غير الحكومية مثلاً من أكثر الهيئات استعمالاً للإنترنت في عملهم المهني، كما تمتلك العديد من تلك المنظمات مواقع الكترونية. فأعضاء هذه الأخيرة يستعملون الرسائل الالكترونية من أجل التواصل فيما بينهم وكذا صفحات الويب بهدف جلب المانحين: وفي مجال التعبئة السياسية، يمكن الإشارة إلى الدور الذي لعبته أدوات الاتصال المتنقلة في الانتخابات البرلمانية والرئاسية لسنة 2005 في مصر، حيث استخدمت الهواتف النقالة من أجل تعبئة وتقوية المجموعات الهامشية في لحظة سياسية حرجة من خلال الرفع من البدائل في التحركات المتاحة للأفراد، قوات المعارضة، ومنظمات المجتمع المدني.

واكتسبت رسائل الهاتف القصيرة منذ 2002 شعبية كبيرة، واتخذ العديد منها صبغة سياسية: - فمن جهة، تضمنت تلك الرسائل انتقادات موجهة إلى التوجه نحو إعداد الظروف المواتية لخلافة رئيس الجمهورية في الحكم من قبل ابنه؛

- ومن جهة ثانية كانت محاولة لنشر أصوات عدم الرضا السياسي: وتلجا الأحزاب المعارضة بدورها إلى الانترنت والرسائل الالكترونية من أجل تنظيم الاحتجاجات، بل الأكثر من ذلك، يقوم النشطاء بالنقاط صور للعسكريين ورجال الشرطة أثناء ضربهم للمحتجين وبتسريبها على الانترنت لإطلاع الرأي العام الوطني والدولي عليها.

في دول الخليج، صارت نصوص رسائل الهاتف النقال قناة قوية لخطاب حر حيث يستعمل المتظاهرون تلك الرسائل من أجل حشد الأتباع، ومراوغة السلطات، والالتحاق بسرعة بمواقع الاحتجاج. وهي نفس القناة المستعملة من قبل المرشحين لدعوة أنصارهم إلى صناديق الاقتراع ومن طرف النشطاء الذين لا يكشفون على هوياتهم للمس بخصومهم من خلال الشتائم والنكات والقصائد الفكاهية السياسية: ورغم التكاليف الباهضة لتعبئة الجماهير بواسطة رسائل الهاتف النقال، فالناشطون لا يترددون، بسبب ارتفاع الدخل الفردي بسبب عائدات البترول، في اللجوء إليها لتوجيه رسائلهم إلى الشرائح المستهدفة من المجتمع.

ولم تكن الرسائل النصية إلا الموجه الحديثة من سلسلة استعمال تكنولوجيا الاتصال من قبل المعارضين خلال 15 سنة الماضية، إذ استعمل المنفيون السعوديون والناشطون الإسلاميون نشراك الفاكس خلال بداية منتصف التسعينات من القرن الماضي، القنوات التلفزية الفضائية والتي غيرت دورها المشهد الإعلامي خلال نفس الفترة، قبل أن تهيمن خلال السنوات الأخيرة الأقراص المدمجة، أقراص الفيديو الرقمية والانترنت إلى قنوات نشر الأفكار السياسية في منطقة الخليج.

ومن خلال ما سبق، يتبين بأن الناشطين ومنظمات المجتمع المدني والمنظمات غير الحكومية تعتمد على الهاتف (الهاتف النقال والرسائل النصية)، على الفاكس والتواصل المباشر أكثر من اعتمادها على الانترنت، أما العامل الأساسي الذي يفسر ذلك فيتمثل في ضعف انتشار الانترنت في المجتمع بالإضافة إلى المجهودات والتكاليف المطلوبة لاستخدام موقع الكتروني في عملية التعبئة بعد تصميمه وصياغة مواده وتجديد مضامينه.

هذا الاعتبار هو الذي يفسر أيضاً الحضور الضعيف للأحزاب السياسية العربية على الانترنت.

وهكذا، كانت الرسائل القصيرة أداة أساسية في تنظيم الاحتجاجات ضد غزو العراق في مارس 2003، وكانت وراء القيام بالمظاهرات بمصر، وقبلها بلبنان عقب اغتيال رئيس الوزراء الأسبق رفيق الحريري، حتى أن الحكومة السودانية قامت بإرسال نص رسالة إلى جميع المشتركين في خدمة الهاتف التي تهيمن على تقديمها من أجل دعوتهم إلى المشاركة في مسيرات الاحتجاج ضد مطالبة الأمم المتحدة المحكمة الجنائية الدولية بالتحقيق في مزاعم ارتكاب مسؤولين سودانيين لجرائم ضد الإنسانية في دارفور.

وتجدر الإشارة إلى أن "الحركات الإسلامية في العالم العربي كانت أكثر نجاحاً في تصميمها للإنترنت من مثيلاتها العلمانية أو الليبرالية، وابتدأ هذا الأمر مع الأيام الأولى للشبكة الالكترونية العالمية (1993)، عندما لجأت جمعيات الطلبة المسلمين بأمريكا الشمالية وأوروبا إليها كأداة وسائطية لدعم الوعي الإسلامي العالمي"¹.

كما ظهرت المواقع الجهادية الإخبارية مع الغزو الأمريكي للعراق في مارس 2003 (يوميّات الإسلام وقبل ذلك موجز الأخبار 2002).

رغم أن أصحابها يتعرضون للملاحقة ولا تستطيع الوصول إلا إلى فئة قليلة من الأفراد التي تعمل على تتبع مساراتها من خلال نشراتها الالكترونية، فإن مواقع الإسلاميين الجهاديين تكاثر.

في المغرب، عملت الحركات الإسلامية على الاستفادة من الإمكانيات التي تخولها تكنولوجيا المعلومات والاتصال الجديدة: وهكذا، أنشأت جماعة العدل والإحسان 7 مواقع الكترونية، مقابل امتلاك حزب العدالة والتنمية لـ 5 مواقع.

لقد جعلت هذه المنظمات من مواقعها آلات للنشر والطباعة والتوزيع، فيقوم من خلالها الأعضاء بتحميل وطباعة وتوزيع مضامين تلك المواقع (الكتب، المقالات، المناشير...).

كما أطلقت مجموعة من الشبكات الاجتماعية المنتمية إليها بغية التفكير في المضامين السالفة الذكر والقيام بتوضيحها وتبسيطها للجمهور الأقل علماً.

في نفس السياق، يُستعمل البريد الإلكتروني من قبلها من أجل نشر المستندات بطريقة منتظمة، رغم أنه يلاحظ على تلك التنظيمات بصفة عامة ضعف استعمالها للتواصل التفاعلي الإلكتروني بين أعضائها والمتعاطفين معها.

تأسيساً على ما سبق، يُمكن تحديد سمات الإتصال الإعلامي العربي الجديد عموماً، ومن خلاله المغربي، في ظل التحولات الدولية المعاصرة، من خلال ثلاث مستويات:

أ- مستوى الوسائط:

تُميّز المجال الإتصالي والتواصل الحالي بتعدد قنوات الاتصال المتاحة أمام الفرد، إذ أتاح المجال الاتصالي المفتوح تعدداً أكبر في الوسائل والقنوات والمصادر والأصوات والمحتوى والجمهور.

¹-Albrecht Hofheinz, «The Internet in the Arab World: Playground for Political Liberalization», International politics and Society (IPG), 3, 2005, p. 78

كما نتج عن جدلية تزايد المنتجين ممن يبنون المزيد من المضامين المتنوعة، زيادة في كتلة المستقبلين، وبالضرورة مزيداً من القنوات، حيث كان من الصعب أن تتكيف المساحات الإعلانية والزمينة والمواد الخاصة بالقنوات التقليدية مع اتساع حجم المضامين، وضغط المنافسة، وتنوع رغبات المستقبلين وتزايد احتياجاتهم واحتجاجاتهم على الرداءة (رغم وساطة الوسيط).

ولم يكن بالإمكان الرجوع إلى ما كان ومراوحة نفس المكان والبقاء مع مكونات القطب العمومي الرسمي في ظل أبواب مشرعة للمشروعات الخاصة في مجال البث الفضائي والمنظومة التفاعلية الالكترونية والصحافة الحرة التي تنأى عن الحزبية وعن المذهبية وعن المناويل الرسمية في التناول والتغطية.

ب- مستوى الرسائل والمضامين:

حيث استمرت الحاجة ولا تزال إلى استيراد البرامج من الخارج، ضمن سياق الاتجاه إلى العالمية والمحلية في وقت واحد أو العالمية مع الحفاظ على الخصوصيات المحلية Think global Act local.

وقد فنجم عن ذلك التعامل مع القضايا السياسية والثقافية والاجتماعية المهمة بَعْدَها سلعة، والمنافسة مع الخدمات العامة، وهو ما استوجب "التوجه أكثر إلى المحلية، وكسب مكانة مهمة بين المتلقين المحليين كاستراتيجية فضلى لمواجهة وسائل الاتصال الجديدة غير المحلية"¹.

ت- مستوى الإستراتيجيات:

ويتسم هذا المستوى بمحاولة التفوق والحصول على المصداقية لاجتذاب المتلقين، لا سيما بعد أن حملت العديد من المضامين الإعلامية الوافدة قيماً تتنافى مع الهوية المحلية العربية، حيث تميز "التدفق الحر للمعلومات في ظل العولمة بطبيعة مراوغة ذات إبعاد متناقضة، ذلك انه لا يؤدي بالضرورة إلى حرية التعبير، بل يظهر دائماً مفهوماً جديداً للقرابة في عصر التدفق الالكتروني للمعلومات، يحمي مصالح المتحكمين بالسوق العالمية"² ويهدد التنوع والتعدد في الآراء والأفكار، بسبب سقوط الحواجز السياسية والثقافية وكل العوائق الأخرى أمام التدفق الحر للمعلومات والأفكار، لم يحقق- دوماً -بما يثري الثقافة الإنسانية

كما أن التفاعلية التي تشير إلى إمكانية أن يكون للمشاركين في عملية الاتصال تأثيراً على أدوار الآخرين، ويكون بوسعهم التفاعل معها، أصبح خطراً كامناً في عدم خضوع المضمون الاتصالي المتبادل لسيطرة الدولة، فيخترق حدودها، ويعمل على إعادة تنشئة المتواصلين وفق قيم عالمية، تعدو على قيم المواطنة المحلية، وتتطلب تبعاً لذلك وضع استراتيجيات، تراعي حريات التعبير، بقدر مراعاتها لضمان حماية المجتمع، وتعكف على معالجة إشكالية إعلامية عربية ثلاثية الأبعاد تتجسد في قصور الاستشراف المستقبلي، وزيادة ثقل القيود على الحريات وسيادة الإعلام الترفيهي.

¹- محرز حسن غالي، صناعة الصحافة في العالم - تحديات الوضع الراهن وسيناريوهات المستقبل، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، 2009، ص.145

²- كريس باركر، التلفزيون والعولمة والهويات الثقافية، ترجمة: علا أحمد، القاهرة، مجموعة النيل العربية، 2006، ص. 65

وأعتقد أن وضع استراتيجيات معالجة الإشكالية الإعلامية ينبغي أن يستحضر ثلاث حقائق التالية ويقف عندها:

- عدم تجاهل ديناميات العولمة وآليات حراكها في الوطن العربي، وضرورة تحليل دوافعها وأهدافها وإدراك كيفية استثمارها ايجابيا من خلال التعامل الإستباقي مع سلبياتها، لان الإعلام أصبح بموجب هذه الحقيقة يشغل المجال المشترك بين الفعل السياسي أو الثقافي وردّ الفعل الجماهيري؛

- امتلاك تكنولوجيا المعلومات لامتلاك القدرة على مواجهة الآخرين، ومن لا يمتلكها ليس بوسعه أن يبعد نفسه عن تأثيرات الآخرين، ودخول السباق بدل المrabضة في سياق التفاف استيراد البرامج والمعلومات الساق بالساق.

في هذا المضمار، ورغم أن الدول العربية تعد سوقاً مستهلكة جيدة للتكنولوجيا حالياً، فقد سجل تقرير اللجنة العربية لدراسة قضايا الإعلام والاتصال في الدول العربية مجموعة من العوامل التي أثّرت في مجال تكنولوجيا الاتصال والمعلومات¹، والتي نسوق منها أساساً:

- اختلاف المفاهيم والرؤى المتصلة بتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، إذ مازالت هذه المفاهيم والرؤى غير موحدة بين الدول العربية؛

- ضعف دور المنظمات العربية المتخصصة في مجال تكنولوجيا الاتصال والمعلومات؛

- نقص مصادر المعلومات العربية؛

- مشاكل اللغة العربية في استخدام هذه التكنولوجيا؛

- هجرة نسب كبيرة من الكفاءات العربية التي تم إيفادها إلى الدول المصنعة للتكنولوجيا؛

- تجاهل أطروحة مجتمع المعرفة بوجه عام، وتأثيرات الفضاء المعلوماتي والفجوة الرقمية بوجه خاص في الحقل الإعلامي والسياسي والاجتماعي العربي، ولم يعد هناك من خيار ممكن غير خيار مجتمع المعرفة، إذ يتعامل علم الاجتماع مع مجتمع المعرفة انطلاقاً من علاقة تكنولوجيا الاتصال الحديثة، ونظم المعلومات وتأثيراتها الاجتماعية في الفرد والأسرة ولمجتمع والرأي العام وقوى الضغط المجتمعية وقنوات تصريف الضغط الفعلي أو المفنعل أو المفترض. فغذا كان الفلاسفة ينظرون إلى مجتمع المعرفة من زاوية قراءتهم لما بعد الحداثة وكيفية تشكل فكر معرفي افتراضي وشبكة بشرية جديدة، فإن ما اطلعت عليه في تكويني الأول في القانون على يد فقهاء العلوم السياسية يجعلني أرى بمنظارهم الذي يرون من خلاله أن "التقاء تكنولوجيا الاتصال الحديثة بالقرار والسيادة وتأثر العلاقات الدولية بثورة المعلومات والاتصالات تشكل كلها نوعاً من امتداد السلطة وتشكلها المتجدد في لبوس جديد"².

ومن هنا، تتفق كل المصادر الدولية والأكاديمية على أن "العالم العربي هو من بين أقل مناطق العالم من حيث قدراته التكنولوجية، وأضعفها من حيث إسهامه واستفادته من مجتمع المعرفة ومزاياه، التي بدأت الدول الغربية تنتقل إليه منذ حوالي نصف قرن، وثمة دراسات تشير إلى إن أوضاع العرب في هذا الباب لن تتحسن في العقد المقبل"³.

¹- مي العبد الله سنو، الاتصال في عصر العولمة-الدور والتحديات الجديدة، بيروت، الدار الجامعية، 1999، ص. 132

²- ثامر كامل محمد، مجلة العلوم السياسية، كلية العلوم السياسية، جامعة بغداد العدد 37، 2008، ص. 227

³- راسم محمد الجمال، الاتصال والإعلام في العالم العربي في عصر العولمة، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، 2005، ص. 178

بعد التوطئة لشرح عدم تركيزي على الوسائل التقليدية في تمرير الخطاب الملكي، لا بد أن أبسط الحديث مفصلاً عن تطوير الحقل الخطاب الملكي لقنوات ووسائل تصريف الرسائل، قبل أن أعرج على تطور الوسائل التواصلية الجماهيرية وتنوع الوسائط والوظائف في مستهل الفصل الذي أفردته للانسياق الجماهيري.

يدفعني ما أوردته بخصوص توجيه الإستراتيجيات الإعلامية لمواجهة الدعوات المضادة أو الداعية للفتنة الإعلام، والوقوف عند نموذج من نماذج الدور التوعوي والدعوي لوسائل الإعلام الحديثة في مواجهة التحديات الأمنية إلى النبش في أركيولوجية سلطة الإتصال والمنهجية الجديدة للاتصال بالسلطة.

❖ ثالثاً- المعطى التكنولوجي في خدمة المعطى الإيديولوجي

أسفر الإنتقال من تكنولوجيا الاتصال القائمة على التماثل التناظري إلى الرقمي ومن آلات أحادية الوظيفة إلى آلات متعددة الوظائف عن رفع كفاءة وفعالية وسائل الاتصال الجماهيري للإضطلاع بأدوار تتجاوز تلك التي صنعت وصيغت من أجلها.

ويترجم هذا المعطى استعارة وتبادل التأثير بين وسائل الاتصال الجماهيري، مما يجعل من تطورها أكثر من مجرد تعاقب يؤدي إلى حلول الوسائل الجديدة محل القديمة منها، فضلاً عن خاصية الإلتقاء التي تشير إلى سفر المضامين بين مختلف وسائل الاتصال، فيتمخض عن ذلك نوع من التوحد في معالجتها أو إلى حصول تأثيرات متقاربة.

لذلك، يمكن أن نفهم سر التوجه الملكي نحو وسائل الاعلام الجديدة على اعتبار أنها وسائل "ذكية" ويفترض الذكاء التواصل للمؤسسة الملكية في ظل تنوع الوسائل وتوحيد الرسائل. كما أن توسل المدونات بالانترنت يتيح فاعلية أكبر وفعالية أكثر في استقاء ردود الأفعال والإرتسامات والانطباعات من مظانها، بنفس سماحها للمتصفحين بالتفاعل مع ما هو معروض من خلال انتقاده أو اغنائه.

نفس الامر ينطبق على الصحافة على شبكة الانترنت التي لا تقدم فقط للمستعمل مقالات صحفية، بل تعطيهم امكانيات التعليق والدخول مع مؤلفيها في محاورات ونقشات، أو حتى تبادل المراسلات بين عموم القراء واصحاب المقالات، وهي إمكانيات لا توفرها الصحافة الورقية، مع العلم ان الصحافة الالكترونية تتكون في جزء كبير مما هو مكتوب في الاولى.

وحيث أن الصورة الذهنية التي تكونها وسائل الإعلام تعبر عن وظيفة تقليدية مجددة أكثر منها جديدة، ارتأيت أن أورد الحديث عنها بشكل متلازم لتلازم تعاطيها مع الخطاب والأنشطة الملكي في ظل كتغيرات همت أساساً:

- المعطى الإيديولوجي، المتعلق بميزان القوى الذي اختل منذ سقوط الثنائية القطبية؛

- المعطى التكنولوجي ومرجعيات الانفتاح الإعلامي الدولي القائمين على التجدد السريع للتكنولوجيا، وزيادة التقارب الإتصالي بين الدول، الذي كان من ميزات الثورة الإتصالية التي رافقتها حركة اجتماعية دولية، فأصبحت تستخدم وتجرب بموجبها أشكالاً جديدة من وسائل النقل وتكنولوجيا الاتصال المرئية ووسائل الإعلام والمعلومات التي خلقت لجمهور لتلقي القدرة على تجاوز الحدود السياسية والثقافية، مع تقليص سلطة ودور الدولة في المجال الإعلامي، لتخلق نوعاً من التلقي الأممي؛

- **تواتر مد ثورة الاتصالات** التي شملت ميادين وسائل الاتصال الجماهيري جميعها، وتلاحق سرعته ومستواه الخلاق في اختراق الآفاق واختزال الأبعاد والمسافات، وبالتالي اختزال منظومة الإعلام الرسمي التقليدي وأنظمة رقابته ومراقبته للفضاء السمعي-البصري، رغم محاولات الحقل الإعلامي العمومي الرسمي لملمة أجهزته لتوفير مسوغات الحظر الرسمي للمد الإعلامي غير المقنن، ورفضه جماهيريا وتحريك الرأي العام في اتجاه العودة بعد النشور، وتنويع العرض لضمان بقاء تتبع البث على الأرض، أو الدخول في نسق التبادل بدل الإستيلاء، والحصول على عناصر التركيبية الإعلامية الفضلى التي بمقدورها المشاركة في عملية التأثير والتفاعل المتبادل بين المحلي والدولي.

- **إسهام نتائج المتغيرات الدولية** وظهور قوى جديدة غير حكومية دخلت الإعلام كمجال للإستثمار الإقتصادي أو للبحث عن امتلاك التأثير السياسي أو الإيديولوجي ضمن المجتمعات المحلية، في تكون متغير رئيس آخر، أشتمل على المتغيرات التكنولوجية والتقنية والسياسية، هو المتغير الإعلامي، الذي عاد هو الآخر بنتائجه على تلك المتغيرات، وأسهم في عمليات حراكها الدولي، وامتدادات ذلك الحراك في المجتمعات المحلية.

وقد أسهم هؤلاء الفاعلون الجدد في عملية تغيير الأنماط الإعلامية السائدة، في وقت صار فيه انتقال المعلومات ونشرها دون عوائق أو قيود من أساسيات تشكيل المجتمع المعلوماتي.

- **نشوء المجتمع المعلوماتي** الذي يهيئ لتعميم ظاهرة التحول من نموذج تقديم "الخدمات الإعلامية" للمتلقي السلبي والمستل ومسلوب الإرادة كطرف في عملية الإتصال الجماهيري، الذي يستلقي وفق النموذج البافلوفي لتلقي المعلومات الموجهة إليه دون مشاركة إيجابية واضحة منه في اختيار أو إعداد أو في أساليب نشر تلك المعلومات، عبر وسائل الاتصال الجماهيري التقليدية المختلفة إلى نسق مشاركة **عناصر التركيبة الاجتماعية الفاعلة** جميعها في عملية اختيار وإعداد وتخزين وتوجيه ونشر المعلومات والإفادة منها، مع تجاوز المشاهدة والمباركة على المشاركة المؤثرة في عملية التبادل والتفاعل الإعلامي داخل المجتمع الواحد بعناصره وشرائحه كلها، وحتى بين المجتمعات المختلفة بشكل عام، بما يوفر فرص الحوار، والتفاهم والتفاعل.

وتعتبر هذه التفاعلية من أبرز سمات المتغير الإعلامي الذي شكل تجاوزا لجميع النظريات التقليدية في الإتصال، بدءا من نظرية "شانون و ويفر"، مروراً بـ "نظرية الطلقة السحرية" و "نموذج نقل المعلومات على مرحلتين" وكذا "نموذج الانتباه والإدراك الانتقائي"، وصولاً إلى "نظرية حراس البوابة".

وعليه، قد كانت وسائل الإعلام التقليدية (ولا زالت) وسائل اتصالية ذات اتجاه واحد، وتفتقر إلى رجع الصدى الفوري، في حين أن التفاعل الحقيقي يتطلب نموذجاً اتصالياً ذي اتجاهين، أو إتجاهات متعددة، كما في وسائل الاتصال الحديثة التي تمتلك أدوات تفاعلية تتيح للمستقبل القدرة على المشاركة النشطة الأكثر فاعلية في العملية الاتصالية.

وبعدما كان دوره في السابق مجرد متلق للمعلومات، على نحو جعل البعض يذهب إلى حد القول بصعوبة التمييز راهنا بين المرسل والمتلقي في ظل الطابع المفتوح للمعلومات والمصار، أصبح الجمهور يسعى للحصول على المعلومات واختيار المناسب منها، وتبادل الرسائل مع المرسل.

❖ رابعا-الهبة التكنولوجية لوسائل الإعلام الاجتماعي في الهبة الجماهيرية

في الوقت الذي يستمر فيه تقدم تكنولوجيا وسائط الإعلام ويتواصل فيه ازدياد كثافة التدفق المعلوماتي وتعدد النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في العالم، وشعور الأفراد المتزايد بكيانهم الذاتي وفاعليتهم كأفراد في بناء مجتمعاتهم تغيرت النظرة إلى تلك الوسائط، ظهر موقف جديد يعبر عن عهد فريد يتمثل في اكتشاف الجيل الجديد من الشباب هذا "السلح التقي" ليعلن عن عصر اسمه "عصر المشاركة" دون حاجة لمباركة الجهات الرسمية لدخول معارك العالم الازرق.

هذا العصر الذي تزداد فيه دوائر الاتصال والتبادل اتساعا بغير حدود أو قيود، ويشارك فيه الشباب معاً في مناقشة المشكلات وإيجاد حلول لها، بل وإثارة مسائل وقضايا جديدة عن طريق تلك الشبكات التواصلية نجده واضح الأثر وعميق التأثير في الهبة التي ميزت الوضع في العديد من البلدان العربية في سياق الربيع العربي.

هذه الهبة وغيرها استطاع الشباب أن يوظفوا فيها التقنيات الجديدة والمتطورة من وسائط الإعلام الجديد (الإعلام الاجتماعي)، خاصة وسيلتي الفيسبوك واليوتيوب، بهدف فضح الممارسات أو التعبير عن الملفات المطالبية، فبرعوا في التصوير والتقرير وتظهير السواعد لزعة قواعد بعض الأنظمة.

وقد طرح استخدام هذه التقنيات الإعلامية الجديدة في ساحة التداول فكرة مفادها أن مظهرًا جديدًا من "دينامية النشاط" صار يمثل جزءاً لا يتجزأ من المجتمع المدني والمواطنين، وأسلوباً مختلفاً في تحديد العمل السياسي دون شروط أو تدرج مسبق بهيكل الحزب والنضال في صفوفه، بفضل نشوء الفضاء الافتراضي والتواصل الإلكتروني، وتنامي أشكال متنامية من النشاطات التي افتعلها وابتكرها الشباب عبر هذه الوسائط ووظفها بذكاء وإبداع وابتكار.

هذه الشبكات الاتصالية والتواصلية، وخاصة "الفيسبوك" نجحت في نحت الوعي لدى الشباب وأثبتت مدى تأثيرها في وعي الإنسان وتصرفاته. ولعل السبب الأول في ذلك يعود إلى التفاعل مع الآخرين، والاطلاع السريع على الأحداث والتدخل في الأزمات السياسية، بحيث شكلت وسائط الإعلام الجديدة عامل ضغط كبير في أحداث كثيرة، استطاعت أن تنتقل الحدث بصورته الواقعية والفورية والحقيقية إلى المجتمع الداخلي والعالم دون تجزئه أو تشويش أو تعتيم، وهذا ما منح الفعل الشبابي وأشكال النشاط الوطني صدقية تتعاطاها وسائل الإعلام والشعوب أيضاً.

ومن يتعمق في الهبة الشبابية انطلاقاً من استخدام هذه الوسائط يجد ما يلي:

- استخدام مكثف وعميق لهذه الوسائط يصل أحياناً إلى حد المنهجية والتنظيم والانضباط والابتكار؛

- التوظيف الأمثل والأشمل للعديد من هذه الوسائط دون الاقتصار على وسيلة أو وسيلة واحدة، فوجدنا أن الاهتمام انصب على الفيسبوك واليوتيوب والتويتر وغيرها من الوسائط الاتصالية والتواصلية الجديدة والحديثة؛

- الإعتماد في الكثير من وسائط الإعلام التقليدية خاصة الصحافة والتلفزة والمواقع الإلكترونية الإخبارية وفي كثير من أخبارها وتغطيتها على شباب ونشطاء في الميدان أجادوا استخدام وتوظيف مثل هذه التقنيات الحديثة (وسائل التواصل الاجتماعي)؛

- تصفية Filtrage أو "تحرير" لكثير من الأخبار التي تم تناقلها بواسطة هذه الوسائط، فعندما ينشر الناشطون في هذه الوسائط خبراً غير مؤكد الحدوث، أو ببيانات غير مكتملة، فإنه سرعان ما يتم مراجعته وتصويبه من زملاء آخرين ونشطاء عبر وسائل الاعلام الاجتماعي، وهو ما يحمل الشباب على تحري الدقة والحيلة عندما يقومون بنشر معلومة هنا أو خبر هناك؛

- تجاوز الوسائط وظيفتها التي لا تقف فقط عند حدود نقل المعلومات وتداول الأخبار هنا وهناك إلى مستوى إتاحة توظيف تلك الوسائط في خدمة المجتمع والتنمية المجتمعية والوطنية انطلاقاً من إيمانهم بأن الوسيلة الاتصالية ليست وظيفتها نقل أخبار فحسب، بل إحداث التغيير الاجتماعي والمشاركة في التفاعل الاجتماعي والوطني وحتى الإنساني عموماً.

رغم كل ذلك، لا زال مستخدمو مثل هذه الوسائط يفتقرون أحياناً إلى التعامل مع الخبر باعتباره يندرج في إطار المهنية والمصداقية والشمولية.

فكثيراً ما نجد بعض الناشطين ينقلون الخبر دون تمحيص أو التثبت من صحته، وهذا يسبب تشتتاً في الرأي وخطأً في المعلومة وتناقضاً في التعاطي.

خلاصة القول، أن هذه الوسائط الإعلامية والتواصلية الجديدة استطاعت أن تتحول إلى أداة أو "سلاح" بيد الناشطين في الهبة الجماهيرية الحالية، واستطاعوا بفعلها تنوير الرأي العام وثير وتخصيب بؤر الإحتقان، ورفع الإيقاع النضالي نحو أشكال متنوعة من الفعل المقاوم والتقويمي، بنفس استعمال قادة حراك الريف لوسائط التواصل الاجتماعي للخروج الجماعي في وقت محدد وضرب موعد بإحدى ساحات المدينة وتحديد الشكل النضالي¹.

❖ خامساً- من فعل سلطة الإتصال إلى فاعلية اتصال السلطة والإتصال بها

تختلف النظم السياسية في طريقة تنظيمها وتوزيعها للسلطات، ويتطلب وصول مطالب الأفراد وعموم الشعب إلى إحدى أروقة القرار أو الإخبار قنوات أو وسائط اتصال معينة، قسمها خبراء الإتصال السياسي على مجموعتين:

أ - قنوات الدخول السياسي: ومنها وسائل الاتصال الجماهيري والأحزاب والهيئات التشريعية والقضائية والجهات الحكومية، فضلاً عن تظاهرات الاعتراض والإضرابات السلمية، وغيرها من المظاهر المعلنة، التي لا تحمل مضامين عنف ولا تتبناه كخيار؛

ب -قنوات الدخول القسري: ومنها إضرابات الفئات الساخطة التي تلجأ إلى العنف.

إن وسائل الاتصال الجماهيري تشكل قناة مهمة للاتصال بالسلطة من جانبين: ففضلاً عن إمكانية بيان وجهات نظر ومطالب الجماهير إلى السلطة، فإن هذه الوسائل، تكسب الرسائل التي تنقلها وزناً إضافياً، كما تمتلك القدرة على شحنها عاطفياً وحشد التأييد الشعبي اللازم لحمل السلطة على حمل ملفاتها على محمل الجد أو التجدد والتجند لخدمة المواطن في مواطن القصور الخدماتي والمرفقي.

¹ - مثلاً، دعوة الحضور لإصطحاب أواني منزلية لخوض مسيرة تتخللها وصلات "الطنطنة"

وقد وفرت وظيفة الاتصال بالسلطة فرصة أكبر لعرض الملفات المطلوبة على الملأ، فشجعت الجمهور على التضامن مع صاحب الملف المطّلي ومساندته، كما شجعت فور ظهورها على الإلحاح بقوة أكبر على تليبيتها تحت طائلة إثارة فورات احتجاجية.

كما قلص الإعلام الحر من شرعية الحكومات وقوضها، فأنكر على الحكومات امتيازات سلطة ذات سيادة قادرة على ممارسة التعقل في اختيار البدائل وتسويقها للمطالب، خاصة وأن عدم شرعية السلطة يضعف فاعليتها، بنفس تسبب ضعف الفاعلية أو غيابها على شرعية السلطة وعلى الوعي السياسي الشامل الذي هيأت له السلطة لسنين خلت.

فقد أفقد تطور وسائل الاتصال الجماهيري العديد من الدول واحدة من أهم الوسائل والأدوات الفاعلة للحكم السلطوي، وعن طريق السيطرة على تدفق المعلوما، لم تعد هذه الدول قادرة على مواجهة تأثير تكنولوجيا الاتصال الجماهيري التي تدعم الاتصال الحر المتدفق. كما تم اعتبار التدفق السريع للمعلومات والتعرض المتواصل للثقافات المختلفة تشكياً جديداً لآراء المواطنين ومفاهيمهم وادراكاتهم.

إضافة إلى الوظائف السابقة التي كان قد حددها لاسويل، أضيفت فيما بعد وظيفتا الإقناع والحوار، ليعتمد الوظائف الست خبراء الإعلام في اليونسكو، وأصبحت محور معظم الأدبيات الإعلامية في نهاية القرن الماضي. وتكمن أهمية هاتين الوظيفتين في:

- توفير الحقائق اللازمة وتبادلها لتيسير الاتفاق، أو توضيح مختلف وجهات النظر حول القضايا العامة؛

- توفير الأدلة الملائمة والمطلوبة، لدعم الاهتمام والمشاركة الشعبين على نحو أفضل، فيما يتعلق بالأمور والقضايا المحلية والوطنية والإقليمية والدولية التي تهتم بدرجات اهتمام متفاوتة مجتمع التلقي.

❖ سادسا- الإعلام الجديد والمنتديات

من خلال الاستفادة من تقنيات المدونات، طفت على الساحة الرقمية المغربية ظاهرة إنتاج الأفراد لصحافتهم وصفحاتهم: فالمدونون المغاربة Youtubeurs, Bloggers et Astrofeurs ليسوا بالضرورة صحفيين تحملهم صفتهم على احترام قواعد قانون الصحافة أو المدونات الأخلاقية للصحفيين، أو الرقابة المسبقة لسلطات الإتصال.

كما أن هؤلاء المدونون قاموا بالركوب على الموجة التكنولوجية الرقمية لتوجيه صفحاتهم ومدوناتهم في اتجاه خلخلة احتكار وسائل الإعلام التقليدية، فتواترت المدونات التي تستعصي على العد وتتجاوز في مضامينها كل حد، مع حضور جد لافت للمدونات السياسية التي تتضمن مقالات تحليلية أو خبرية، أو تكتفي بمقاطع فيديو رقمي وصور رقمية تنطق صورها بما لا تنطق به الحروف، دون تحريف أو تصريف للشحنات الإيديولوجية.

لفهم تجليات الخطاب على الانترنت وفي العالم الواقعي للنشاط السياسي والحركات الاجتماعية والنزاعات، يمكن الإستعانة بأدوات مسحية للمدونات التي تستعمل أيضا لتعبئة الأفراد بالإضافة إلى وظيفتها الإخبارية والتواصلية.

وبالاستناد على فحص عينة تمثيلية اختيرت عشوائيا من المدونات المغربية، اتضح أن خريطة المدونات العربية توطن فوق تضاريسها ألوان السياسة والثقافة والعبث والمعارضة.

أما الحقول التيمية للعينة التمثيلية المذكورة، فتتوزع وفق الأبنية الدلالية الكبرى التالية:

- مواضيع السياسة الداخلية والخارجية تعكس من خلالها المدونات الواقع السياسي والاقتصادي على المستوى الوطني والمحلي لصاحب المدونة، مصحوبا بانتقادات للزعماء السياسيين؛
- وان لم تحظ مواضيع السياسة الداخلية بنفس الأهمية، إلا أن تلك المتعلقة بالسياسة الدولية تغطي مساحة مهمة في المدونات؛

- فيما يتعلق بالأنشطة الإرهابية، لا تحمل صفحات المدونين ولا مدوناتهم موقفا داعما للأرهاب أو التطرف، ولا تدعوا للكرهية، وحتى حاملي الفكر المتطرف يتوجسون خيفة من تتبع الكتائب الإلكترونية الأمنية التي لا تتردد في اعتقال من يشيد بالإرهاب، فلا يعملون في المساحات المفتوحة من المدونات لأنهم لا يلجؤون علنا إلى المدونات ويضعون عوائق تحول دون معرفة هوياتهم أو ترصدهم.

أما بخصوص مصادر معلومات المدونات المغربية، يتجه المدونون المغاربة إلى وسائل إعلامنا الوطنية، كما تحتل المصادر الإلكترونية أهمية خاصة، وتأتي في مقدمتها اليوتوب والويكيبيديا تم المواقع الإلكترونية للجزيرة والبيبيسي العربية BBC arabia.

وتطرح المدونات أسئلة جوهرية فيما يتعلق بقدرتها على تفعيل الممارسة والتعبئة السياسية: هنا، لابد من القول بأنه إذا كانت الحكمة تقتضي التحلي بنوع من الشك حول فعاليتها، فالواقع يظهر بان المدونات تعرف تغييرات وتتجه إلى اكتساب أهمية على المستوى السياسي. كما سمحت المدونات لمدونين عاديين ومهنيين بإعادة انخراطهم في السياسة، شدد ممارساتهم التحليلية والجدلية وتجاوز الخطوط الحمراء التي لا تجرؤ وسائل الإعلام الأكثر استقلالية على اختراقها.

إن المدونات الوطنية تحمل بعض الزعماء السياسيين والمسؤولين الإداريين على التصرف بطريقة مختلفة عن الطريقة التي كتن من الممكن ظان يتعاملون بها لو توصلوا بمعطيات أو تظلمات بالوسائل التقليدية: فهل كانت مثلا قضية قائد الدروة ستأخذ نفس المنحى لو ظلت المسألة في حدود وضع شكاية ضد القائد أمام الوكيل العام للملك، ولم لم يلجأ المدونون لعرض الفيديو الرقمي الذي وثق للنزلة؟

هناك آثار أخرى تمتلكها المدونات العربية تتمثل في إنعاش وتطوير المجال العام l'espace public العربي من إخلال أشكال جديدة للتحليل والخطابات، وعبر إسماع عدد كبير من الأصوات.

هذه السيورة لا تتم بدون إثارة المدونين لردود أفعال السلطات ودون أن تطرح من جديد الأسئلة المتعلقة بالحرية والتوازن بين النظام العام وحقوق وحرريات الأفراد.

وإذا كانت الحكومات العربية بصفة عامة تتسامح مع التدوين بسبب انخفاض حجم الجمهور ولاعتباره أحد المؤشرات للتعرف المسبق من قبلها على مصادر الاضطرابات، فإن ازدياد أعداد المدونين وارتفاع تأثيرهم السياسي يطرح ضرورة إيجاد قواعد تحدد حقوق المدونين وواجباتهم، الحماية والحقوق والمسؤولية التي تقع عليهم.

فالمدونون لا يعتبرون صحفيين ولا يمتلكون إطارا نقابيا كما لا توجد قوانين خاصة بالمدونات الإلكترونية، هذا الأمر، يجب أن يدفعهم إلى التفكير جماعيا وفرديا حول أجل إيجاد معايير أخلاقية ومهنية للمدون، معايير يمكن أن تجعل من الصعب إخضاعهم للعقوبات بسبب قيامهم بالتدوين.

لذلك، يحرص المدونون السياسيون على تبني سلوكيات التحفظ والمراقبة الذاتية -وأحيانا العزوف عن السياسية- وعن التعامل مع المواضيع التي تتعلق بالسياسة الداخلية: فالمدونون الذين يتحدثون في قضايا السياسة يقومون غالبا بتحليل ما يقع على الساحة الدولية دون الإشارة إلى ما يحصل في بلدهم. إن هذا العزوف عن قضايا السياسة يفسر في الغالب بالخطر من التعرض إلى ردود أفعال السلطات.

وإذا كانت الحكومات العربية بصفة عامة تتسامح مع التدوين بسبب انخفاض حجم الجمهور ولاعتباره أحد المؤشرات للتعرف المسبق من قبلها على مصادر الاضطرابات، فازدياد أعداد المدونين وارتفاع تأثيرهم السياسي يطرح ضرورة إيجاد قواعد تحدد حقوق المدونين وواجباتهم، الحماية والحقوق والمسؤولية التي تقع عليهم: فالمدونون لا يعتبرون صحفيين ولا يمتلكون إطارا نقابيا كما لا توجد قوانين خاصة بالمدونات الالكترونية، هذا الأمر يجب أن يدفعهم إلى التفكير جماعيا وفرديا في إيجاد معايير أخلاقية ومهنية للمدون.

وتختلف الدول العربية في إجراءات الرقابة المطبقة: فبعضها "يستخدم ترشيح ومنع وحجب Filtrage, interdiction ou blocage المواقع التي تعتبرها غير قانونية (العربية-السعودية، سوريا، تونس، اليمن)، مُقابل قيام دول أخرى بتفعيل الترشيح من خلال التركيز فقط على بعض مواقع المعارضة السياسية (الإمارات العربية المتحدة، البحرين والأردن)، في حين تقوم قطر بترشيح المواقع الإباحية. أما الولوج إلى الانترنت دون تطبيق رقابة الترشيح فيطبق في المغرب والجزائر وليبيا ومصر والسودان ولبنان والعراق والكويت"¹.

أما "الحرية التي يتمتع بها الأفراد فتتأثر بالرقابة التي تمارسها الحكومات والتي تتأسس في الغالب على اعتبارات المحافظة على امن الدولة، الحفاظ على الوحدة الوطنية وعلى الآداب العامة"²: فهي تطرح إشكالية التوفيق بين هذه الاعتبارات وحريات الأفراد لان تحقيق التوازن بينهما يساهم بدرجة كبيرة في تحفيز ودعم المشاركة.

ويُعد الإنترنت أحد المؤشرات القوية لقياس حرية تكنولوجيا المعرفة والاتصال الجديدة في العالم العربي. في هذا الصدد يشير تقرير مراسلون بلا حدود لسنة 2009 بان من بين 12 دولة في العالم التي صنفت من قبل هذه المنظمة على أنها عدوة للانترنت نجد 4 دول عربية (العربية السعودية، مصر، سوريا، وتونس) ويتأسس التصنيف على فرض الرقابة على المعلومات على الشبكة وعلى معاقبة مستعمليها. وتأخذ الرقابة التي تمارسها عادة الحكومات أحد الأشكال التالية:

- تقييد الشبكات وفرض التسجيل كأحد شروط الانخراط فيها؛

- تقييد المحتويات من خلال تقنية الترشيح وتصفية المعلومات وحظر المواقع المحظورة، اتخاذ الإجراءات التأديبية بل وحتى هجمات الفيروسات على المواقع الممنوعة؛

- التهديد بالاعتقال أو السجن في حق من يلج معلومات غير مرخص لها أو لمن يستعمل شبكات الانترنت للتنظيم أو للتعبئة السياسية الممنوعة.

¹ -Albrecht Hofheinz, «The Internet in the Arab World: Playground for Political Liberalization », *International politics and Society (IPG)*, 2005, p. 79

² -Khaled Hroub, «Internet Freedom in the Arab World: Its Impact, State controls, Islamisation and the overestimation of it all»,disponible sur la toile du virtuel sur le lien <http://www.iemed.org/anuari/2009/aarticles/a267.pdf>, p. 3

المطلب الرابع/ الأوعية الإلكترونية لضخ الخطاب الملكي الواعي في وعى الحقل الخطابي السياسي المتداعي

يمثل الإتصال الإلكتروني منظومة جديدة تجاوزت المنظومة المشهدية للتلفزيون، وحقق بشبكته مجالاً يتقصد فيه الفرد باستمرار موقعي الإرسال والتلقي، وتنصهر في داخله العوالم الفردية، وتمثل الشبكة العنكبوتية والفضاء الأزرق فضاءً جماعياً يشترك المستخدمون في إنتاجه، ونموذجاً تواصلياً جديداً لا يتعلق بعملية بث مركزية، ولكن يتفاعل داخل حالة ما، يسهم كل فرد (كذات مستقبلية وباتة في نفس الآن) في اكتشافها بطريقته أو تغييرها أو الحفاظ عليها كما هي.

لقد أحدث الإنترنت، بوصفه العنصر الرئيس في هذه المنظومة واعتباراً لما يُتيحه من تعدد الوسائط، ونصية فائقة، ونقل تجميحي، وتزامنية ولتفاعلية وتغييرات بنيوية في خريطة الإعلام بشكل عام، وفسح المجال لقيام تعددية إعلامية إفتراضية، فصار ينظر إلى الإتصال الإلكتروني على أنه صيرورة تفاوض موضوعها المعنى، تشارك فيه المجموعات عن طريق التواصل والتشاور والمناظرة، فانبثقت منظومة تفاعلية إلكترونية أعلنت نهاية الجمهور، وولادة الذات الجماعية، كبداية لمجتمع المشهد والمشاهد (على مستوى أسرة أو مرتادي مقهى على أكبر تقدير).

وما يمتاز به هذا النموذج عن الأول التقليدي اللامتكافئ والذي كان يخدم النخب التي تتحكم في إنتاج الخطابات العامة، ولا يضمن التبادل والتفاعلية بين المرسل والجمهور، ولا يتيح لهذا الأخير إمكانات إنتاج الخطابات والمشاركة في الاتصال العمومي والتعليق على ما ورد في خطاب الخطيب بلا حسيب أو رقيب.

وقد ساهم مناخ الحريات وازدياد استعمال وسائل الاتصال الجديدة في تغيير جوهر العملية السياسية بصفة عامة والتعبئة الاجتماعية على الخصوص، فصار فاعلو الحقل السياسي أكثر ميلاً لاستخدامها في إطار المهام التي يضطلعون بها وداخل الأجندة المتحركة في تحركاتهم في مختلف الأطارات (الحزبية، النقابية، الجمعوية، الحكومية...).

هذا الاتجاه العميق مس أيضاً مؤسسات المجتمع المدني التي "عرفت ظهور ما يعرف بالنضال الإلكتروني واستعمال تكنولوجيا الاتصال (مثل الرسائل الإلكترونية، المواقع، البودكاستينغ) من أجل مختلف أشكال النضال وذلك بضمان تواصل سريع بين مجموعات المواطنين، توزيع الرسائل إلى جمهور واسع، جمع الأموال على شبكة الانترنت، الضغط وبناء مجموعات أهلية ومنظمات"¹.

في كتابه "New community networks"، أشار دوكلاس شيلر إلى أن "حوالي 500,000 من الأفراد يستعملون بانتظام مئات من شبكات الجماعات على الانترنت في الولايات المتحدة الأمريكية والعالم. إنهم يتوحدون في مختلف المؤسسات المحلية (مثل المدارس، الجامعات، الوكالات الحكومية المحلية، المكتبات والمنظمات التي لا تهدف إلى الربح) في شكل موارد مجتمع واحد توظف من أجل الاضطلاع بوظائف متعددة من تمكين الأفراد من التواصل بينهم، عبر الرسائل الإلكترونية، إلى تشجيع انخراطهم في القرارات المحلية وتنمية الفرص الاقتصادية المفتوحة أمامهم"².

¹ -Françoise Tristani, Histoire des médias. De Diderot à Internet (Frédéric Barbier et Catherine Bertho-Lavenir), Réseaux, volume 14, n°80, 1996, p. 187.

² -Scott London, «Civic Networks: Building Community on the Net », in: Composing Knowledge: Readings for College Writers, by : ROLF NORGAARD Bedford, St. Martin's, 2007, pp. 655-656

ويتحقق ذلك من خلال "الآليات التالية:

- الربط بين أعضاء جماعة معينة، تشجيع النقاش وحل المشاكل المشتركة؛
- تنظيم المعلومات ووسائل الاتصال ذات الأهمية الخاصة لحاجات الجماعات ولمواجهة مشاكلها بناء على جدول زمني؛
- مشاركة قاعدة عريضة من المواطنين بما فيهم نشطاء المجتمع، القادة، الجهات الراعية لأنشطتهم، مقدمي الخدمات وذلك بشكل مستمر؛
- العمل على إدماج جميع أعضاء الجماعة، وعلى الخصوص ذوي الدخل المنخفضة والذين يعانون من إعاقات أو محدودية في الحركة؛
- توفير الخدمات الأساسية بتكاليف عادلة ومعقولة أو على أساسي مجاني؛
- وأخيراً من خلال دعم الثقافة المحلية¹.

في بيئة التواصل والاتصال الجديدة، تطور الاتصال بتطور وسائله، فظهرت وسائل اتصال جديدة -وفي مقدمتها "الإنترنت"-، أحدثت تغييرات جذرية في عملية الاتصال برمتها، تبادل فيها الأطراف الأدوار، وظهرت أنماط اتصالية غير تقليدية، تتم عبر وسائل غير تقليدية، كما استحدثت مفاهيم اتصالية جديدة، كالاتصال متعدد الاتجاه، والمواطن الصحفي.

وقد قضت في المقابل على مفاهيم اتصالية أخرى كهرمية الاتصال، وأحادية مصدر الرسالة، وحارس البوابة، وكلها تصب في خانة تمكين Empowering الفرد العادي من ممارسة العملية الاتصالية من أي مكان، وفي أي زمان، ببسر وسهولة، فهناك اليوم مشهد اتصالي عالمي يتشكل على نحو غير مسبوق، وقد بدأت ملامحه في الظهور منذ ظهور هذه التقنية الحديثة، وشيوع استخدام وسائلها على نطاق جماهيري.

❖ أولاً- من التواصل اللساني إلى التواصل الإلكتروني "ورحلة البحث عن جمهور تُلقي مُتفاعل"

فوسائل الإعلام الجديد -أو البديل- توفر لمن يجيدون التعامل معها فرصا اتصالية عديدة، تتجاوز مجرد تلبية وظائف الاتصال التقليدية؛ إلى الوفاء بجملة من الأغراض التواصلية التي تتم على نحو غير مسبوق.

وكما هو معلوم أصبح الانترنت جزءا لا يتجزأ من البنية الاتصالية والمصدر الأول للأخبار بعيداً عن حراس البوابة، مع استمرار حفاظ جل المؤسسات الإعلامية على النشر التقليدي، على أساس أن الكثير من روادها لازال يحتضهم الحنين للحرف المطبوع. وبالمقابل، برزت الكثير من الأصوات على الساحة الإعلامية تطالب وتدعو الى تفضيل دور المدونات كون وسائل الاعلام التقليدية أصبحت تبتعد عن الجمهور.

ويمكن القول إن مستوى النضج الإستعمالي للإنترنت شكل أرضية ملائمة لنمو وازدهار المدونات، حيث ان المدونات تمثل صنفاً جديداً من المعلومات خرج من رحم (الويب): فالمدونة والويب صنوان لا يتقاطعان في البيئة التكنولوجية الحديثة.

¹-Op. cit, p. 656

وتتسم تكنولوجيا التدوين بخصائص عدة تتمثل بالبساطة في عرض الموضوع والمحورية كصفة ملازمة لها، ويغلب على المدونات عكس الأسلوب الذاتي على الموضوع المراد البحث فيه وكذلك التعبير عن الرأي الخاص والذي غالباً ما يكون مقيداً بفكر الكاتب.

من جانب آخر، كان يغلب على شكل المدونات في بداياتها لأولى الطابع النصي، قبل أن تتحول إلى معارض للصور ولبتشكيلات لبصرية بمؤثرات صوتية وحركة وألوان.

ومن السمات الأخرى من المدونات "وجود التعليقات بعد الإدراجات وذلك باستخدام آلية الروابط التعقيبية لأعلام الآخرين عن التعليقات التي يمكن للقارئ أو المتصفح أن يوردها"¹.

وتتوزع المدونات بين أربعة اجناس رئيسية:

- **مدونات المواطنين** التي يحررها مواطنون لا تربطهم بوسائل الاعلام أي روابط واهم ما يميز هذا النوع من المدونات هو كون صاحبها يُعدُّ المصدر الرئيسي للمعلومة؛

- **مدونات الجمهور** التي تكونت من خلال اتاحة بعض المؤسسات مواقعها الالكترونية للجمهور لإبداء آراءهم ومعتقداتهم وطروحاتهم ضمن أعمدة الرأي التي يكتبها الصحفيين، وتقدم خدمات تتيح للمواطنين صنع الخبر؛

- **مدونات خاصة بالإعلاميين**، تحرر من قبلهم خارج إطار مؤسساتهم الإعلامية، وتتيح لمهنيي الإعلام هامشاً تعبيرياً كبيراً في مدوناتهم إن على مستوى تبني مواضيع معينة و طريقة معالجتها وإمكانية الخروج المعايير التقليدية التي ألزمتهم بها مؤسسات اشتغالهم؛

- **مدونات تابعة أو ملحقة بالمؤسسات الإعلامية**، تتيح لأعلاميها نشر مدوناتهم ضمن مواقعها الالكترونية، فتغني بمدونات مساحات الرأي.

ويمكن اعتبار ظهور المدونات تحدياً كبيراً للمؤسسات الإعلامية التقليدية، كونها دعت الى التغيير في الأساليب والسياسات الإعلامية، فاستخدمت وسائل تقنية واتصالية متقدمة غيرت الخريطة الاتصالية وجعلتها أكثر انفتاحاً على الجمهور، وجاءت بمواد وخدمات جديدة وبديلة كانت تقتصر إليها وسائل الاتصال التقليدية (خاصية التفاعل مع الجمهور مثلاً)، فخرجت المدونات لتتحدى الجمهور بشكل أكثر شفافية وتتفاعل معه كونها وضعت نفسها بمسافة واحدة بينهم وعلى اختلاف آراءهم وتوجهاتهم الفكرية.

إلا أنني لا أرى القطيعة بين الجيل القديم والجديد أو المتجدد، بقدر ما أرى بينها التقاطع: فمن خلال زيادة حجم المعلومات المتاحة كمّاً والطابع النوعي لتحصيلها ومعالجتها ونقلها وبثها، شكل الجيلين الرّوافد المهمة في بناء وعي وشخصية الفرد في مجتمعات المعلومات: فكافة وسائل الإعلام الجماهيري وتكنولوجيا الاتصال وشبكات الهاتف وشبكات المعلومات وتكنولوجيا البث الفضائي وتكنولوجيا الاتصال متعدد الوسائط وتكنولوجيا الاتصال التفاعلي بالتطبيقات المختلفة التي تمثلها هذه الوسائل الاتصالية الجديدة مع تطورها وقدرتها الفائقة في جلب الجمهور والاستحواذ عليه، لم توفق في القضاء على الوسائل التقليدية أو تحييدها على الأقل، بل عززت من وجودها، وساهمت في تطويرها؛ فالإنترنت مثلاً خدم جميع وسائل الإعلام الجماهيري وعمل على تطويرها وعولمتها، وأصبح أمام جمهور التلقي العديد من الخيارات والاختبارات في انتقاء الوسيلة المناسبة له تعرّضا وترتيباً، وفق أولوياته الحياتية.

¹-حسن رضا النجار، المدونات الإعلامية، عنوان مداخلة في المؤتمر الدولي الخامس عشر المنعقد بين 26 و28 أكتوبر 2010 بفيلا دلفيا حول ثقافة التواصل

ويكفي الإطلاع على أية مدونة من المدونات الإعلامية، ومحاورها وموضوعاتها والخدمات المتاحة للتعرف على المدونات الإعلامية وما تمخض عن هذه الوسائل الاتصالية الجديدة من تغيير مسار الوظائف التقليدية للوسائل القديمة، وخلق وظائف جديدة سرّعت من عمليات تغيير اجتماعية وثقافية في اتجاه تشكيل مجتمع جديد عرف بالمجتمع المعلوماتي الذي يعيش علاقات الترابط والانفتاح على بعضه في القرية الكونية التي تخترقها الطرق السيارة للإعلام.

بغض النظر عن الأسئلة السوسولوجية والنفسية وحتى مستويات البرمجة اللغوية العصبية المتعلقة بالعادات والأنماط الشبابية لاستخدام الوسائط التقنية الحديثة، والإشباع التي يحققها هذا الجيل من استخداماتهم لهذه الوسائط والأثر المتمخض عن هذا الاستخدام ومساهماتها في عزلتهم الاجتماعية وشعبيتهم الرقمية الافتراضية المفترضة على قنوات التواصل الاجتماعي بلا حدود أو قيود، كما وُحِدَت فرص التواصل مع أسرهم ومحيطهم الاجتماعي، فعززت عمليات التواصل والحوار الأسري والاجتماعي وزادت من نجاعته في نقل الموروث الاجتماعي وتمير الرسائل الملكية.

وتتفاوت مدى قدرة الجمهور على الاستفادة من هذه التقنية الحديثة للإستفادة أو الإطلاع على مدونات التوثيق الخطابي والحواري الملكي، خاصة فئة الشباب كفاءة عمرية وتعليمية تعنى عناية بهذه التقنية، واستخدامها، وبخاصة فيما عند تواجدهم على الفضاء السيبراني، ومدة هذا التواجد، فضلا عن استخدامهم لوسائل التواصل الاجتماعي، بما يفعل عملية التواصل مع "الآخر".

كما وجدت حضورا لعدد من قضايا التنمية الاجتماعية والاقتصادية والمواقف السياسية التي يتم تصريفها في العالم الافتراضي من خلال تأليب وتحريك المجتمع الافتراضي، فوقفت مجموعات معارضة افتراضية في وجه الحكومات الإلكترونية، وتحركت الميليشيات والكتائب الإلكترونية وفق تنظيمات وشبكات عنكبوتية افتراضية، واشتغلت وراء شاشات حواسيبها حتى صارت الحكومات الفعلية تحسب لها ألف حساب.

بنفس تبني متزعمي الحراك ممارسات افتراضية، بنفس دأب الجهات الرسمية بالمملكة بدورها على تبني تجارب وممارسات افتراضية مضادة، بإمكانات أكبر من الإمكانيات القاعدية المتاحة لنشطاء الفضاء الأزرق، مع سبق على اتخاذ مبادرات شجاعة لتعميم استخدام الخدمات الإلكترونية في مختلف القطاعات، مع وضع تشريعات تحصن الصحافة الإلكترونية من الهوى والاهواء والتهوى والخرق السافر لأخلاقيات المهنة، عكف عليها لجنة مكلفة بإعداد مشروع قانون يوطر الصحافة الإلكترونية. فكيف استطاعت المؤسسة الملكية أن تنتخب من هذا النموذج وسائطها ووسائلها التفاعلية التي تجعلها صاحب الفعل والسبابة إلى التفاعل وتقليص مساحات الإنفعال؟

❖ ثانيا- فضاءات التفاعل مع العاهل بين تفاعلية المنظومة المشهدية وانفعالية النشاط الإلكترونيين

فضلا عن حرص المملكة على صون المسائل السيادية للملكة ضد الغزو الإلكتروني واستباق ما يحيق بالمملكة وبأمنها القومي والمعلوماتي من تهديدات من خلال تقنين وضبط وتتبع حجم انتشار التكنولوجيا داخل المجتمع المغربي، ونوع الاستعمالات والإشباع التي تحققها تلك التكنولوجيات والوسائط لأبناء المجتمع، حرصت المؤسسة الملكية بدورها على مواكبة تلك الفورة التكنولوجية في وقت كانت تؤسس فيه لعهد جديد، فلم تعهد للقائمين على الإتصال بتشكيل منظومات تفاعل إلكتروني مباشر مع المؤسسة الملكية، بل تركت التلقائية لتقوم مقام البرمجة، فأثمرت المبادرات التلقائية خروج أول واجهة لعرض صور الملك على مدونة خاصة بمعجب، فلاقت صفحته إعجاب باقي المعجبين.

❖ ثالثاً- المؤسسة الملكية بين تجدد الرسائل وتمدد الوسائل

منذ التسعينيات من القرن الماضي نقلت شبكة الانترنت ثورة الاتصالات من شكلها السلبي الذي يعتمد على الإلية المعروفة في الاتصال الى الشكل التفاعلي-الشبكي الذي يحض على المشاركة في المصادر الإعلامية بحيث لم يكن هناك مرسل ومستقبل للمعلومات وأصبح الاتصال الوسيطى سمة العصر الراهن. وقد نظر الكثير من الإعلاميين الى ذلك التطور الأفقي على أنه تحدي للإعلام التقليدي وتأسيس لثقافة اتصالية جديدة.

في سياق الحديث عن المدونات، كان لزاماً علي أن أنتخب ضمن آلاف المدونات تلك التي تُعنى بالتدوين والتوثيق الإيكونولوجي لمسار وسيرة الملك.

أ- التدوين الرقمي الرسمي ومدونات الإعلام الإسمى من خلال نموذج كريم روايال

يمكن اعتبار سفيان بحري، صاحب صفحة "Mohammed VI : Roi du Maroc" أحد تجليات المنظومة التفاعلية الالكترونية لموقع شخصي Blog على شبكة الانترنت لشخص أحب حتى الوله الشخصية الكاريزمية لجلالة الملك واستطاع توليف خوارزميات الصورة والخطاب والمقالات ذات الصلة بالملك، وفق تطبيق محكم من تطبيقات الانترنت، يعمل عن طريق نظام إدارة المحتوى (المضامين)، ويظهر تدوينات، ومداخلات ومعلومات وأحداث ووقائع تحمل توقيع العاهل، مؤرخة ومرتببة ترتيباً زمنياً تصاعدياً، ومزودة بنظم آلية لأرشفة المدخلات القديمة، تمكن باقي محبي الملك من الرجوع إلى التدوينات التي تهمهم كلما صارت غير متاحة على الصفحة الرئيسة للمدون الملكي الديجيطالي، الذي ترك للمصموم "محمد مرادجي" فضاء الصورة والألبومات الورقية.

هذا المدون الذي سبق لصحيفة "البابيس" الإسبانية أن وصفته بـ"الشخص الموهوس بالملك" حقق نسب مشاهدة وإعجاب قياسية. ولكن ما يثير دهشة وسائل الاعلام والمهتمين، هو طريقة حصوله على صور شخصية للملك تعجز كبريات المؤسسات الإعلامية والمهتمة بصور المشاهير عن الوصول إليها، وهي دهشة يجيب نسبياً عليها محمد عبد الكريم، خبير الشبكات الاجتماعية، للقول بأن سفيان بحري "مكلف بالترويج لصورة الملك وسط الشباب في مواقع التواصل الاجتماعي".

ما يؤكد هذا الطرح هو استغراب "البابيس" الإسبانية من تسريب سفيان صور شخصية للملك في تونس دون أن يخلف ذلك أي احتجاج، بينما غضب الديوان الملكي من بث التلفزيون الصور نفسها. بدوره، يرى أستاذ الاتصال والعلاقات العامة في المعهد العالي للإعلام والاتصال في الرباط، عبد اللطيف بنصفية، أن "الزعماء العرب، وليس محمد السادس فقط، يعرفون تأثير وسائل التواصل الاجتماعي على شريحة كبيرة من المواطنين، ويدركون، أيضاً، أن شخصيات معارضة حققت شهرة نادرة على فيسبوك وتويتر"¹.

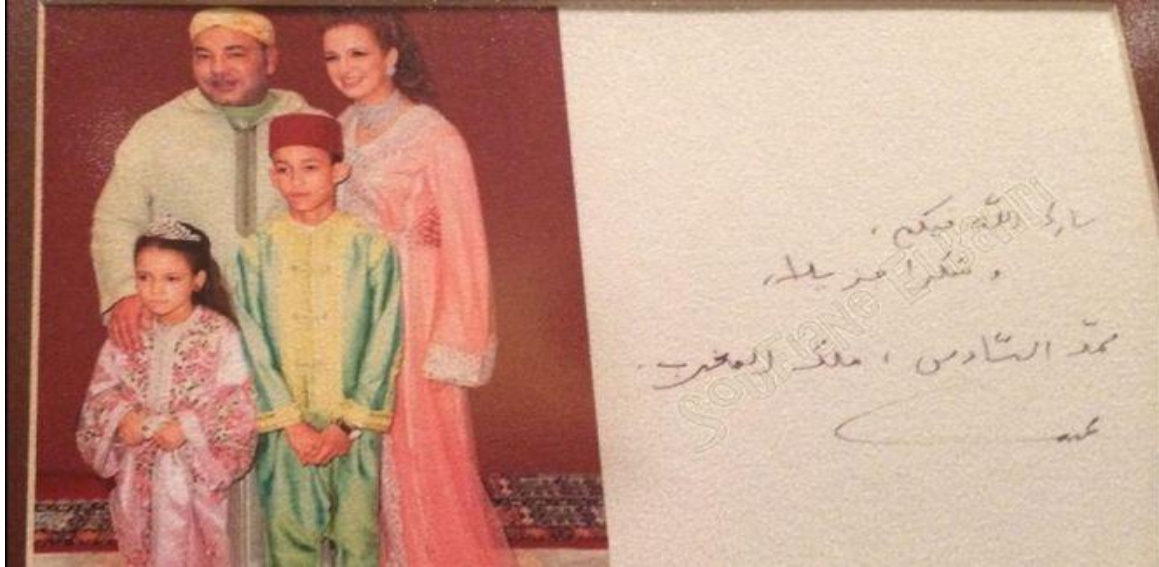
وقد سبق لفيلسوف التواصل الكندي مارشال ماك لوهان أن ردد أن "الأداة هي الخطاب"²، وأن الزعماء الذين يستعملون الأدوات الجديدة للاتصال لسان حالهم يقول "نحن أناس مواكبون وعصريون وحدثيون أيضاً". بدوره يؤكد المصطفى أن "الأنظمة تبحث عن الشرعية والتأييد، وسحب البساط من تحت أرجل المعارضين بعد أن أثبت فيسبوك فعاليته في التحشيد غداة ربيع الثورات العربية"³.

¹- عبد اللطيف بنصفية، في مقال له على الإنترنت

² - Marshal Mc Luhan,

³- المصطفى، في مقال له على الإنترنت

كما تجاوز الملك مستوى فتح ألبوم حياته الخاصة لجمهور التواصل الاجتماعي من خلال موقع "كريم روايال" للتفاعل الشخصي مع محبيه، من خلال رسالة شكر خطها بيده، هي الأولى من نوعها، ليوّجهها لجلالته إلى محبي صفحته بموقع التواصل الاجتماعي "فايسبوك"، فالتقطها سفيان البحيري ونشر مضمونها الذي دبجه لجلالته كالتالي: "بارك الله فيكم، وشكرا جزيلا، محمد السادس، ملك المغرب"، وذيله بتوقيعه.



فما هي الإستراتيجية التواصلية المرتبطة بالتواصل الرقمي وما هي آلياتها؟

ب- ترسيخ الملك لثقافة السيلفي الذي يجمعه بشعبه الوفي وتجاوز احتراز السلف

ارتأيت ألا نقتصر على الظهور الرسمي والبروتوكولي للملك، حيث سأتجاوز به إلى الظهور غير الرسمي والمميز الذي التقط فيها معه محبوه صور سيلفي.

في هذا الصدد، تفاعلت وكالة الأنباء الفرنسية فرانس بريس بشكل كبير مع "سلفيات" الملك محمد السادس، التي التقطها بكثرة خلال فترات إقامته بالعاصمة الفرنسية مع أفراد الجالية المقيمة هناك.

فقد وصفت وكالة "فرانس بريس" الملك محمد السادس بـ "ملك السلفيات"، ضمن قصاصة رصدت فيها ما اعتبرته "وجها ثانيا يعكس شخصية مريحة منفتحة على الحداثة الرقمية"، مُقرة بـ "إحداث الملك محمد السادس ثورة على صورة الملكية بالمغرب، بعد انتشار عدد كبير من السلفيات التي التقطها مع أبناء شعبه بفرنسا في الآونة الأخيرة على نطاق واسع ضمن مواقع التواصل الاجتماعي"، مضيفة أن "صور الملك أبعدتنا كثيرا عن الصورة التقليدية للعاهل الكبير"، قبل أن تستطرد بانه "ملك كول، مبتسم ومسترخٍ، ويرتدي سروال جينز وقميصا ملونا¹، لتقر بوجود إستراتيجية تواصلية يتضح أنها محكمة، بعد ظهور جميع صور الملك الملتقطة خلال زيارته الخاصة إلى فرنسا في صفحة خاصة على "فايسبوك"، تحمل اسم "ملك المغرب، محمد السادس"، في إشارة إلى الصفحة التي يشرف عليها الناشط الفيسبوكي سفيان البحري.

¹ -Le Roi Mohammed VI, grand adepte du selfie, révolutionne la monarchie, sur le portail www.leparisien.fr, du 09 septembre 2016

كما رصد المصدر ذاته ما اعتبره "تلقائية" الملك محمد السادس في التعامل مع أبناء الجالية المغربية المقيمة في فرنسا خلال التقاطه صور "السيلفي" معهم وذلك في غياب أي حراس خاصين لحمايته.



وقال نفس المنبر إنه "لم يعد أسهل من إيجاد صور للملك مع مجهولين في موقع التواصل الاجتماعي "فيسبوك"، إذ ظهر العاهل المغربي بشكل كبير مؤخرا في صور بشكل تلقائي مع مواطنين مغاربة"، في إشارة إلى "سلفيات" الملك محمد السادس التي التقطها بالعاصمة باريس وقبلها في أمستردام، حيث أقام لأيام ضمن زيارات خاصة قادته إلى شمال القارة العجوز.

وضمن تحليلها لأبعاد "سلفيات الملك"، استعانت الوكالة ببيير فيرميرين، حد أبرز المؤرخين الفرنسيين وهو ، الذي اعتبر أن "إقبال الملك على التقاط صور السيلفي بكثرة مع مغاربة العالم، وحتى في المغرب، تقف خلفه إستراتيجية تواصلية مفكر فيها جيدا، وترتكز على أسس"¹.

¹- Op. cit.

ويستند هذا التحليل الذي نقلته وكالة الأنباء الفرنسية إلى "رغبة الملك محمد السادس في تقريب المسافة بين شخص الملك وشعبه، بعد أن كانت الهوة متسعة بينهما في عهد الملك الراحل الحسن الثاني": فإن الملك الحالي "يحاول كسر الصورة التي بناها والده، الذي كان يعتريه بعض الخوف من شعبه"، حسب نفس الخبير.

فتوصيف البيئة الإستراتيجية للتواصل الرقمي لجلالته عبر الشبكة العنكبوتية مع جمهور تلقي أكبر من جمهور الوسائط التواصلية الجماهيرية التقليدية كشف وجود مجتمع تلقي افتراضي للخطاب المكتوب والمقروء وغير اللفظي للملك، له من القابلية للتفاعل مع الخطاب وتدويله وتدويره بنفس دأب صاغة الخطاب الملكي على صوغه وفق استراتيجيات تواصلية عالمية تتخطى الحدود والبلدان، فلم يكن منها الخطاب الملكي غفل ولم يتخلف عنها، فافتحم هذا العالم الافتراضي وأسس فيه وعليه آلياته اشتغاله وانشغاله باهتمامات جمهور التلقي الافتراضي الذي يفترض أن يُكوّن مجتمعه ضمن هذه الشبكة العالمية، فنوّع عرضه وعبّأ مبدعيه فزادت نسب متصفحيه (متلقيه)، كما أسس لأعراف دخيلة على التقاليد التواصلية الأصيلة في المحيط الملك، وإن كانت تنسجم مع واقع الافتراضي وما يفرضه من استراتيجيات.

ت- صناع المعالجة الإعلامية والتواصلية للخطابات الملكية

فضلا عن دور المدون سفيان البحري في بسط وثائق إيقونية وبلاغية تخص صاحب الجلالة، لنجدها متاحة كجمهور تلقي، نجد أن هناك صناعا آخرين ومسوقين لصورة الملك.

فقد اقتضت الإستراتيجية التواصلية للملك محمد السادس حضوره الدائم والمتواصل، وتعاملا مختلفا مع الأضواء، مع استبدال بلاغة القول ببلاغة الفعل، وإن يعبر بالصورة أكثر من تعبيره بالكلمة ليعبر إلى قلوب شعبه.

من خلال استقراء أهم ملمح من مورفولوجية التواصل الملكي الرسمي والخاص ذي البعد العمومي، يمكن أن نفهم كيف يتواصل محمد السادس، ومن هم رجالات القصر في التواصل والإعلام الملكيين.

فبعد الإستقلال، أولت السلطات التلفزيون أهمية قصوى، وأنزلتها كوسيلة جماهيرية بديلة للراديو منزلة "المقدس"، لوعيتها بقوة ونفاذ هذا الجهاز إلى عقول وقلوب المغاربة ضمن باقي مكونات المشهد السمعي-البصري.

ومنذ ستينيات القرن الماضي، وُضع خط تحريري صارم للتلفزيون العمومي، ويعرض كل من يحاول الإجتهد أو التجديد داخل القنوات الرسمية للتهميش أو الإقالة. وقد جرت الإجتهدات في العديد من البرامج والنشرات على الطاقم الصحفي وعلى إدارة القنوات العمومية العديد من المشاكل، كان آخرها إقدام القناة الثانية (دوزيم) على إعداد تقرير عن زيارة الملك إلى تونس، تضمن صوراً للملك مأخوذة من صفحته على الفيسبوك: وقد عبرت "وزارة التشرّيفات والأوسمة" كجهاز مُشرف على برتوكول العائلة الملكية عن غضبها من خلال بلاغ شديد اللهجة ضد القناة، قبل أن يطوى الملف بعد اعتذار "دوزيم" ومعاقبة الصحافي صاحب التقرير.

لفهم سبب السماح بنشر صور الملك على الفيسبوك ومعاينة الإعلام الرسمي على بثها، يرى عبد الله المصطفى، أستاذ التواصل والعلاقات العامة في جامعة كولومبيا في نيويورك أن "الأدوار موزعة بين مهندسي صورة الملك. يدرك هؤلاء أن فئات المجتمع لا تنتظر إلى العاهل بالنظرة نفسها".

ويضيف نفس الخبير أن "الشباب يحبونه حينما يتفاعل معهم في وسائل التواصل الاجتماعي بصور السيلفي مثلاً، بينما لا تزال طبقة مهمة من المغاربة تؤمن أن الملك أمير للمؤمنين يحمل البركة، وأن تعامله مع الناس تحدده أطر الهيبة المحاطة بالسلطين منذ قرون قبل أن يتابع بأن صناع الصورة في التشريعات والوسمة" يريدون شعبية عالية للعاهل.

لذلك، يقدم صناع الصورة ملكاً عصرياً وجذاباً للشباب على فيسبوك، مع حرصهم على استمرار الصورة التقليدية للملك في وسائل الإعلام الرسمية التقليدية"، ويرسخون تلك الصور أو التصورات من خلال بلاغة التقاط وتوثيق حركات الملك الحمالة للدلالة وإبلاغها لمن لم يكتب له الوقوف عند بلاغة مضامينها.

من بعيد، يبدو عبد الحق الميرني لسان حال القصر، فلم يقصر منذ توليه كرسي رجل التواصل الأول بالقصر، بعد فشل تجربة انفتاح وتواصل القصر من خلال مؤسسة مكلفة بهذا الغرض وقادرة على إنهاء التعتيم حول القصر الملكي وتعيين جلالة الملك سنة 1999 المهمة ضمن دائرة أصدقاء الفصل بالمدرسة المولوية حسن أوريد ناطقا رسميا باسم البلاط، قبل أن يفصله.

وقد استمر العمل بالمؤسسة، التي عبرت عن انفتاح القصر الملكي الذي يفترض أن يكون متواصلا باعتباره فاعلا سياسيا، إلى حدود يونيو 2005 تاريخ إنهاء علاقة ابن مدينة الرشيدية بهذه المؤسسة التي ركنت بعد هذا التاريخ إلى الانزواء والصمت، ولعل اختفاءها دفع بالقول إنه تراجع من قبل المؤسسة الملكية عن مؤسسة الاتصال المرتبطة بها.

ولعل ما قوى فرضية التراجع السنين التي قضاها القصر الملكي بدون مسؤول عن هذا المنصب المستحدث مع بداية العهد الجديد، قبل أن تعود مؤسسة الناطق الرسمي باسم القصر الملكي إلى الواجهة سنة 2012 سنوات بعد سبع عجاف من الصمت والركود والركون التواصلي، وشهورا بعد تصويت المغاربة على أول دستور في عهد الملك الحالي، عندما عين محمد السادس الرجل المخضرم بالقصر الملكي عبد الحق الميرني ناطقا رسميا باسمه، لتتطرق بفتح مبين في مجال انفتاح المؤسسة الملكية على التواصل.

ورغم عدم مواكبة هذه المؤسسة الانفتاح الإعلامي الجزئي الذي اعتمدته الملكية مع تولي محمد السادس الحكم، واستمرار رفض مؤسسة الناطق الرسمي الحديث إلى الصحافة والإكتفاء بتدبير بيانات وإعادة تلاوتها في التلفزيون من دون فصح المجال أمام أسئلة الصحافيين وتعقيباتهم، وتحري القصر الصمت والخروج المناسب، فالأكيد أن الاستراتيجية التواصلية للجالس على العرش مرنة مع الإعلام الجديد، كما تدل على ذلك الشبكات الاجتماعية التي تطفح بصور شخصية للملك وللعائلة الملكية.

ويبقى عبد الحق الميرني رجل القصر بامتياز، ويكتسب قدره بمقدار قدرته في سن التاسعة والسبعين على الجمع بين مهمتين حساستين وإشرافه دون إشراف على المنصبين الساميين لمؤرخ المملكة والناطق الرسمي باسم بلاطها.

بدوره، يتربع فيصل العرايشي على هرم القطب العمومي بقنواتها الرسمية السبع وبإذاعتها الوطنية، منذ 15 سنة ويعتبر حارساً لتصريف الصور الملكية عبر قنوات القطب العمومي.

ورغم مؤاخذه خصومه له بالسباحة في مجال يجهله تماماً، يرى مؤيدوه أنه أشرف عام 1989 على إدارة شركة شركة للإعلام السمعي البصري والتكنولوجيا، واكتسب خبرة في المجال.

مع تولي الملك محمد السادس العرش في 1999، عين فيصل العرايشي مديراً جديداً للتلفزيون والإذاعة، وغيّر استراتيجية تواصل القصر مع الصحافة، وبعد شهور من ذلك فاجأ التلفزيون المغاربة بصور شخصية للعائلة المالكة تظهر فيها عقيلة الملك لأول مرة.

وقد كان من عادة الملوك العلويين ألا تظهر زوجاتهم في الإعلام، واستمر مهندسو صورة الملك في فتح أبواب القصر للإعلام الرسمي في المناسبات العائلية للعاهل المغربي، مع توخي التدقيق والمراجعة للصور واللقطات التي تلتقطها عدسات الطاقم التلفزي، واستمرار المحاذير التقليدية الخاصة بعدم بث أحاديث الملك الجانبية مع الناس وتجنب إظهار لقطات له في أوضاع محرجة.

وتكلف أية هفوة مديري التحرير كراسيهم إثر غضبات ملكية كتلك التي أعقبت عدم افتتاح نشرة الأخبار بالنشاط الملكي، خاصة وأن السلطات تعي قيمة التلفزيون وحتى الإذاعة كمصدر رئيس للأخبار الوطنية "الخطبة" للملايين من ذوي التعليم المحدود في الأرياف وبعض الحواضر أيضاً، وهذه الشريحة يجب أن ترى الملك، يومياً، في مستهل كل نشرة أخبار.

لذلك، نفهم محورية القناة "الأولى" كحلقة أساسية في تواصل الملك محمد السادس مع المغاربة، وكنقطة لقاء في المناسبات التي تستدعي التوجه بخطاب إلى الأمة وجسراً للتواصل والتعريف المفصل بما يقوم به الملك من أنشطة عمومية غالباً ما تكون يومية، ويتم تتبعها في النشرة المسائية التي تعتبر الأكثر مشاهدة على تلك القناة.

وقد راهن القصر على سلاح التلفزيون في الوقت الذي كانت فيه المعارضة القوية لأحزاب الحركة الوطنية تمتلك صحافة مكتوبة ذات تأثير قوي بفضل نسب مقروئيتها القياسية مقارنة بالصحافة الرسمية التي كتنت توزع مجاناً على الإدارات لرفع نسبة السحب والتوزيع، فاستدعت مهام الضبط تكليف وزير الداخلية القوي على عهد الراحل الحسن الثاني بحقيبة الإعلام، وعين البصري بدوره والياً من وزارة الداخلية على رأس التلفزيون وعاملاً على رأس الإذاعة، حتى صارت أولى مطالب المعارضة والمجتمع المدني لمدة عقد من الزمان تتلخص في صل الإعلام عن الداخلية، وكذلك كان، فاستبدل الوالي اطریشه كمدير عام للإذاعة والتلفزيون بفيصل العرايشي مديراً للتلفزيون، فاستطاع العرايشي القادم من عالم الإشهار وصاحب العلاقات الواسعة مع محيط الملك محمد السادس أن يصبح مديراً عاماً للإذاعة والتلفزيون، وأن يواكب كل التحولات الكبرى التي عرفها القطاع السمعي البصري بالمغرب، فنجح في "تأميم" القناة الثانية، وفي تأسيس الشركة الوطنية للإذاعة والتلفزيون وبالتالي خلق القطب العمومي الذي ظل منذ تأسيسه عرّابه.

إن دور التلفزيون بالخصوص حساس، وهو الوسيلة الأولى والأهم في رقعة الاستراتيجية التواصلية للقصر، ولذلك كانت هناك دائماً صعوبات جمة في اقتحام قلعته، حتى لو تعلق الأمر بقرار وزاري كما كانت الشأن بالنسبة لوزير الإعلام في أول حكومة التناوب الوزير الراحل العربي المساري الذي ووجه برفض مدراء الإذاعة والتلفزيون تنفيذ قرار له بإعفائهم، وكذا المعركة التي سميت على عهد الحكومة الأولى لحزب العدالة والتنمية بمعركة "دفتر التحملات".

وإذا كانت مطالب المهنيين عموماً تنصب حول تطوير الأداء الاحترافي للتلفزيون العمومي، فإن جناح المحافظة كان ولازال يلوح باستهداف هذه المطالب بشكل مباشر الملك وتوخيها الحد من تغطية أنشطته، وهو ما يفسر بشكل كبير الحذر المبالغ فيه في الترخيص لتلفزات خاصة.

من جهته، يعتبر خليل الهاشمي الإدريسي حسب وصف زملائه في الصحافة الوسيط الاتصالي بين القصر والصحافة بامتياز. ويقف الهاشمي على هرم وكالة المغرب العربي للأنباء كأحد قنوات الاتصال التي تستعملها مؤسسة القصر الملكي على اعتبار سبقها وعلو ساقها في بث ما يُراد نشره حول محمد السادس ومواقفه وردود أفعاله فيما يجري من أحداث وطنية ودولية.

وقد انطلقت الوكالة الرسمية سنة 1959 على شكل وكالة إخبارية خاصة أسسها المهدي بنونة، فاستطاعت أن تجد لها موطئ قدم في الساحة العربية والدولية كوكالة تعكس وجهات النظر المغربية في مختلف القضايا وتغطي الأحداث في مختلف ربوع المملكة بمجرد تأميمها، أضحت الوكالة أيضاً القناة الأولى لتصريف المواقف الرسمية وبث القصاصات المتعلقة بما يحيط بالملك والقصر الملكي من أنشطة وقضايا، وأصبحت المصدر الأول والوحيد لصور الأنشطة الملكية والأميرية والمالكة الحصرية لقصاصات وصور حصرية جعلت المنابر الإعلامية تسد أفساط اشتراك سنوية للإستفادة من خدماتها والتوصل بقصاصاتها.

هذه الأهمية التي تكتسبها الدار يترجمها عيار من يتربعون بها على منصب القرار، فمن مدرائها العاملين وأبرزهم على الإطلاق ياسين المنصوري، رفيق دراسة الملك محمد السادس الذي يشرف اليوم على جهاز المديرية العامة للوثائق والمستندات، المعروف اختصاراً بـ «لادجيد»، كما يترجم عدد وكالاتها ومكاتبها الجهوية والدولية وكذا حجم إمكاناتها البشرية العاملة في مجال نقل وصياغة الأخبار في عواصم تواجدها والحيز الترابي لتغطيتها أهمية الوكالة.

وقد سبق لخليل الهاشمي أن خاض تجربة تأسيس يومية "أجوردوي لوماروك" الناطقة بالفرنسية، قبل أن يتأسس الفيدرالية المغربية لناشري الصحف: وبعد تجربة نقل أخبار شمال إفريقيا والدعوة إلى الوحدة المغاربية كما رامت ذلك نية التأسيس، استطاع الحسن الثاني وضعها بعد "شد وجذب" مع مؤسسها في يد الدولة، فأصبحت منذ ذلك الحين الوكالة رسمية للمملكة.

كغيرها من الوكالات الرسمية في العالم العربي، تقدم "لاماب" وجهات النظر الرسمية للأحداث، وتتابع أنشطة المسؤولين الكبار في الدولة، تهتم بشكل كبير بالأخبار الوطنية، وبشكل خاص بأنشطة العائلة الملكية، حيث تمتلك أيضاً "فريقاً للأنشطة الملكية".

وبرأي الخبراء الإعلاميين، فإن الوكالة فقدت بريقها مع الزحف التكنولوجي الذي تعرفه سوق الميديا في العالم العربي، رغم محاولات المسؤولين منذ تولي خليل الهاشمي الإدريسي الإدارة دفعها إلى مواكبة التغييرات بإضافة خدمات جديدة مثل الفيديو والتفاعل على الشبكات الاجتماعية، مشيرين إلى أن الوكالة لا تزال تتمتع بدور الناطق الإعلامي الرسمي باسم القصر، لتشكل بذلك إحدى وسائل تمرير الرسائل وتقديم إجابات للسائل المهني قبل العام.

حديثي عن الناطق المؤسسي الإعلامي الرسمي باسم القصر، يحيلني على المكلف بالبرمجة ومواكبة مخططات التواصل المؤسسي للقصر الملكي من داخله: ويتعلق الأمر بالمهني العريق، شكيب العروسي، الذي ظل رجل الظل الذي يخطط لمساحات تسليط الأضواء، حيث يقوم بموجب تكليفه بمهمة بالديوان الملكي (وتحديدا مهمة الصحافة) بمهام متعددة، تصب كلها في الإعلام وتدخل في صلب التواصل السياسي للقصر الملكي، حيث يُشرف على اللوجستيك ويتابع الصحافة، وينظم التغطيات والمواكبات دون أن يظهر في الصورة.

وقد تدرّج في المناصب قبل أن يحط الرحال بالقصر، ومر من حال إلى حال منذ تخرجه من جامعة السوربون بفرنسا، حيث قضى إلى حدود اليوم أربعين سنة في المهنة، استهلها بالإذاعة والتلفزة الفرنسية منتصف السبعينيات، ليلتحق بعدها بوكالة المغرب العربي للأنباء ليطلع مكتبها بباريس مراسلا ومديرا لأزيد من عقد ونصف من الزمان، قبل أن يلتحق بمقر الوكالة المركزي نائبا لمدير الأخبار ويعين في 1993 مديرا للإعلام بوزارة الإعلام، وهو المنصب الذي ظل فيه لعقد من الزمان حتى سنة 203، تاريخ تعيينه مكلفا بمهمة في الديوان الملكي.

وقد كانت الصحافة المستقلة في المغرب ترشحه لتولي منصب مدير عام وكالة المغرب العربي للأنباء، بعد أن حظي بوسام الاستحقاق الوطني الفرنسي عام 2005 باعتباره "شخصية متميزة في مجال الاتصال بالمغرب"، قبل أن يستقر الاختيار على الهاشمي الإدريسي، بنفس اختيار إحالته على التقاعد والإستعاضة عنه بالإعلامي كريم بوزيدة لتنظيم شؤون الصحافة والإعلام في القصر الملكي، قادما إلى القصر من وكالات الإشهار في الدار البيضاء، بعد أن اشتغل مع المهمة عقب خروج الأخير من وزارة الداخلية سنة 2007 وتأسيسه شركة تواصل واستشارات إعلامية.

وتقتصر مهمات المسؤول عن التواصل في القصر الملكي على الطرق التقليدية في التواصل من خلال التلفزة الرسمية وصور الأنشطة الملكية، وهي لا تزيد على استدعاء مصوري التلفزة، وتحديد أماكن اشتغالهم وزوايا التصوير، خاصة في ظل انغلاق القصر الملكي على الرأي العام الذي تبلوره الصحافة الوطنية المستقلة، ورفض منح المنابر الوطنية مقابلات أو تصريحات، حيث تتم كل اللقاءات الصحافية التي أجراها الملك الراحل ووارث سره مع وسائل إعلام أجنبية.

غير بعيد عن مراكز القوة في حقل التواصل الرسمي ووسائله التي تهتم بالمحيط الملكي أو يهتم بها، نصادف اسم مديرة الأخبار بالقناة الثانية، سميرة سيطايل، المرأة الحديدية التي يتحدثون عنها ويحيلون عليها في كل رقيقة ودقيقة أكثر من حديثهم عن المسؤول الأول في بناية عين السبع ومديرها العام، سليم الشيخ، والتي سبق لرئيس القطب العمومي أن صرح بأنه لا يتدخل في مهامها، حيث تنعت بالمقربة من المحيط الملكي.

واستطاعت سميرة سيطايل أن تجعل من مديرية الأخبار قلعة محمية وسط القناة الثانية، وأن تطور الأداء الإخباري لدوزيم مقارنة مع القناة الأولى، وجعلت من التنمية الاجتماعية في المحطات الإخبارية والسياسية في البرامج الحوارية نقطة ضوء فارقة ذات أثر وتأثير على أثير القناة التي تأسست نهاية ثمانينيات القرن الماضي.

سميرة سيطايل، القابضة بيد من حديد على القناة الثانية، قضت مسيرتها الدراسية ببلاد موليير قبل أن تحصل على شهادة الإجازة في اللغة الإنجليزية وتقرر العودة للعمل في المغرب.

قبيل عودتها، استفادت سيطايل من دورتين تكوينيتين في عالم الإعلام بكل من "TF1" و"كانال بليس" الفرنسيتين، وبعد فترة تدريب ثالثة في الإذاعة والتلفزة المغربية، اختارت سيطايل مغادرة الإذاعة والتلفزة صوب تجربة تلفزيونية ناشئة مع القناة الثانية منذ إطلاقها بثها من طرف الهولدينغ الملكي "أونا"، فشاعت الأقدار أن تعود القناة وفئة القناة إلى خانة العمومية.

واستطاعت الصحفية الفرنكفونية الشابة أن تُظهر كفاءتها وتنسلق سلم المسؤولية فتدرجت من العمل الصحفي إلى المسؤولية ورئاسة التحرير، ثم عينت نائبة لمدير الأخبار ثم مديرة للأخبار.

وقد عرفت سيطايل بمناصبتها العداء للفاعلين الإسلاميين في المغرب، وأبدت في وقت سابق تخوفها من الحزب الذي يقود الحكومة الحالية، العدالة والتنمية، ومن خلالها، تنهم قيادة الحزب الإسلامي القناة "بمعاداتها ونصب الفخاخ الإعلامية لها"، وترفض التعامل معها بدورها، كما حدث عند امتناع عبد الله بوانو، رئيس فريق المصباح بمجلس النواب، عن حضور حلقة "مباشرة معكم" المخصصة لمناقشة الدخول السياسي.

حديثي أيضا عن وسائل القصر التواصلية، يحيلني من باب أولى على وسائله البروتوكولية الأكثر قربا ومسؤولية عن تدبير مسافة بث الرسائل والاتصال بين الملك وشعبه، وحتى المسافة التي تفصله عن وسائل تغطية أنشطته والمقربين إليه وباقي مكونات محيطه بالقصر وخارجه، من خلال الحديث عن مؤسسة مديريةية التشريعات والقصور والأوسمة، كي لا يُوسم حديثي عن الوسائل بالقصور.

وبالفعل، يعتبر مدير التشريعات والأوسمة أقرب موظفي القصر إلى الملك، وله اتصال مباشر بالأمراء والأميرات، وعلى قدر كبير من الإلمام بطريقة تدبير الحكم ومزاج العاهل الذي يحكم، بالإضافة إلى طبيعة العلاقة التي تربط هذا الأخير بجميع أفراد الأسرة الحاكمة، فضلا عن تحمله مسؤولية توخي الصرامة في احترام هذا البرتوكول، والسهر على ضبط المسافة بين الملك وغيره.

بذكر مسألة مراعاة المسافة مع الملك واحترام البروتوكول، تذكرت الأحاديث التي حكيت والقصص التي رويت أو حكيت عن الجنرال مولاي حفيظ العلوي، الذي كان أشهر من تولى هذه المهام وعُرف بصلابته وتشده في البرتوكول، انه قام مرة بدفع أحد الوزراء بقوة حتى سقط على الأرض.

مع تولي الملك محمد السادس مهام الملك، انقلب فهم المسافة على عهد مدير التشريعات والقصور والأوسمة الحالي، جواد بلحاج، إلى دراسات رياضية موعلة في التعقيد والتعقيد لخوارزميات ممارسة دبلوماسية تقتضي كثيرا من الدبلوماسية واللباقة والحنكة التي تترجم صورة مغايرة لممارسة الحكم ولممارسات محيط الحاكم. وتتوج إناطة مهام التشريعات بجواد بلحاج مسار رجل اشتغل في مهام ذات صلة، حيث انطلق من الإشراف على الإستقبالات والحفلات لما عين رئيسا مهام لمصلحة الاستقبالات الرسمية في البرلمان ما بين سنوات 1986-1988، ثم مديرا لدواوين العديد من الوزارات قبل أن يحط الرحال بوزارة التشريعات الملكية والقصور والأوسمة.

محصلة القول الفصل وهو يشارف على نهايته لنقف على مشارف الفصل الرابع والأخير أن الخطاب الملكي يعتبر عملية اتصالية تفاعلية، تتأسس على منظومة تبادل مستمر في الرؤى والوقائع والأحداث بين جلالة الملك وعموم شعبه وخاصته كأطراف اتصال، فيحدث التفاعل بمجرد تغيير أحد أطراف العملية التواصلية المذكورة سلوكه أو موقفه أو تكيف مع خطابة الرسائل الملكية أو رسائل الجمهور في الرد على محاولات التغيير الموجهة إليه، قبولاً أو تفهماً أو إذعانا وإيدانا بعهد جديد، ناطمه فاعلية التلقي، وفعالية انتقاء الخطاب والتوقيت والمخاطب، خدمة للإلتقائية وانسياق مجتمع التلقي: هذا التفاعل يقع في سياقات تواصلية تراعي في شكل وطبيعة الاتصال والرموز الاتصالية المستخدمة الفروق الفردية وكذا المنزلة الرمزي للمؤسسة الملكية ووضعها الإعتباري.

وتؤدي بهذا المعنى سياقات التواصل والإتصال التي يرد فيها الخطاب الملكي أساسا وظائف تروم تقريب جمهور التلقي من الفكر والتصور المولويين لعدد من القضايا والأحداث، مع استحضار هدف التأثير من خلال عملية الاتصال، التي تهدف إلى خلق صلة وتفاعل بين صاحب الجلالة ومن يستهدفهم برسائلنا الاتصالية العامة (خطأ أو خطابا) أو المنظمة (القرارات والتعليمات التي يوجهها جلالته وفق نظام انتقال المعلومات) داخل شبكة من العلاقات المتداخلة.

على أن ما يميز الخطاب الملكي هو طابعه الجماهيري والطابع الموزاييكي والكمي لجمهور التلقي، مع افتراض معرفة جلالته كمصدّر باختلافات أفراد جمهور التلقي ومستويات التلقي، مما يتمخض عنه صعوبة في صياغة الرسالة التواصلية/الإعلامية التي تُناسب جميع أفراد الجمهور وتتناسب مع مستويات انتظارهم.

كما أنه من الصعوبة قياس استجابة جمهور التلقي، ورد فعله وتفاعله مع الرسائل الملكية المبنوثة في الخطاب، واستيعابها من باب أولى، والمستويات الإنتقائية للمواضيع وترتيبها وطريقة صوغها ليتنبه كل المغاربة لكل الخطاب أو فئة منهم لفقرات محددة في الرسالة الاتصالية الملكية لأسباب تتعلق بغائية الخطاب أو بطبيعة الاهتمامات الشخصية لكل فرد من أفراد جمهور التلقي، وبالتالي الحكم على مستوى النجاح الاتصالي المولوي ومستواه الرسالي تبعاً لمستوى الفعالية الإستعمالية المرتبطة بكل وسيلة من وسائل التواصل الجماهيري، ومستويات الإشتراك والمشاركة في المعنى من خلال التفاعل الرمزي وكذا فاعلية الانتشار في الزمان والمكان، فضلاً عن استمراريتها وقابليتها للإنباء بصنق ما ورد في الخطاب الملكي من رؤى إستراتيجيات لا تدخل في مجال التنبؤ.

ومهما يكن من أمر هذه الوسائل، فهي تظل وسائل إعلام تتحرى الموضوعية في التقديم وتقف عند عتبة تزويد جمهور التلقي بمعلومات حول موعد ألقاء الخطاب الملكي والأنشطة الملكية، وتبرمج برامج ولقاءات وحوارات وتستقي ارتسامات الفاعلين السياسيين وعموم المواطنين وتنقل أولى إشارات تفاعلهم مع الخطاب الملكي.

كما يراعي الخطاب الملكي مجموع الخبرات السابقة والمعلومات والمعتقدات، والقيم والثوابت التي خبرها عموم المغاربة من خطابات سابقة للملك محمد السادس أو من خطابات الملك الراحل وحتى من خطابات فاعلي الفضاء العمومي فصارت بالنسبة لعموم المغاربة وباقي أطراف العملية الاتصالية مكتسبات وأطر مرجعية ومعيارية يقيسون على أساسها مستويات تفاعلهم مع الرسائل الملكية وقبولهم أو عدمه لباقي الخطابات المحايثة للخطاب الملكي أو التي تأتي بمضامين ومرجعيات مضادة، وفق مستويات ثقتهم في المؤسسات، ومواقفهم من كل مؤسسة وتأثير الموقف على الإستجابة، رفضاً أو قبولاً.

ولا يفوت الخطاب الملكي أن يراعي التعدد الفئوي واللغوي لجمهور التلقي وتضارب مصالحه، وتباين اتجاهاته ووجهات نظره، كما يراعي عاداتهم في تتبع وسائل الإعلام وتوزعها بين السلبية (مشاهدة التلفاز أو الإنصات للراديو) والمبادرة (تصفح الجرائد والمواقع الإلكترونية) لتصلهم الرسالة في نفس اللحظة وبسرعة فائقة من خلال مختلف وسائل ووسائط الإعلام من الأكثر جماهيرية إلى الأكثر فئوية، فيوظف كفاءات تواصلية ووسائل إستراتيجية التي تُكسب الرسائل والخطابات الملكية فاعلية ألفاظها، فتجعلها خير بديل ليلفظ جمهور التلقي الخطاب الهذيل لباقي فاعلي أو منفعلي الحقل الخطابي.

الفصل الرابع

الانسياق الجماهيري

وراء خطاب ترافع بديل
لخطاب تدافع سياسي هذيل

اللغة وسيلة لصناعة الخطاب المسوَّغ للفعل، وهذا ما خلَّص إليه كتاب اللغة المتوحَّشة للكاتبين الأميركيين "جون كولنز وروس غلوفر"¹، حيث درسا اللغة كآلة للدعاية، ووسيلة لتحقيق مآرب النخب بغضّ النظر عن المصالح الحقيقية للمواطنين، حيث تشتد الحاجة إليها في الأزمات ويكون أثرها مضاعفاً، فكلّما اشتدّ التعقيد في الأوضاع الاجتماعية منها والسياسية، ازدادت أهميّة المفردات والأداءات اللغوية المنتقاة وحساسيتها.

وقد ورد في الكتاب أيضاً أنّ الناس قد يردّدون كلمات غامضة لا يعرفون أصلها، فقط لكونها متداولة في وسائل الإعلام، وتتسلّل بهدوء إلى المنظومة العقلية المحدّدة للسلوكات والقيم والقناعات، وفي غضون أيام قلائل تتحوّل كلمات قد اندثرت في المعاجم إلى مفردات تتكرّر بشكل يومي.

ولا شك أنّ هذه الأداءات اللغوية تولد محمّلة بالبعوض والكره والحزن والقبول والمعارضة بحسب ما يُراد خدمته، ويوصينا الكتاب بضرورة فهم كلّ فرد للغة الموجهة إليه، وأن ينتقدها ويعرف إن كانت في مصلحته أم لا، وعليه أن يكون واعياً وناقداً لما يقرأ ويسمع، وألا يكون كالإسفنج يمتصّ فقط، ويلفت النظر إلى فكرة سيطرة الدولة على اللغة التي يسمّعها الشعب والصور التي يشاهدها، لتسهيل الحصول على القبول الشعبي، وفي ذلك إشارة إلى مصطلح الإرهاب الذي صنّعه الإدارة الأميركية لتبرير عداءاتها وحروبها على مرّ عقود من الزمن، وأصبح رديفاً للتطرّف والمقت وربما في العمق لدين بعينه، كما أصبح برنامجاً عقلياً يوجّه الرأي العام.

صحيح أنّ كتاب اللغة المتوحَّشة يركز أساساً على علاقة الدول بشعوبها، إلّا أنه يلفت النظر إلى ضرورة التعمّق في عوالم اللغة والخطاب ومجهولاتهما.

فالخطاب يملك القدرة على تشكيل تصوّراتنا وإدراكاتنا، كما يقول سعيد بنكراد في كتابه وهج المعاني، سمائيات الأنساق الثقافية، حيث يورد أننا "أسرى لغاتنا، داخلها نفكر ومن خلال إمكاناتها نكتشف العالم المحيط بنا"². فباللغة يتمكّن المرء من الدفاع عمّا لا يمكن الدفاع عنه، فهي تصنع القبول كما تصنع المعارضة، ومن الممكن لأكثر البشر تحضّراً وفهماً أن يقوم بأعمال إجرامية إذا ما أُعطي المبرّرات الكافية لتقنعه بضرورة ما يفعل بطبيعة الحال عبر وسيط اللغة، وعبر أداءات لغوية فُبركت وصُنعت لتفي بالغرض.

والواقع مليء بحالات عنف لا تلقى معارضةً، خلّف الصمت عنها خطاب إقناع قوي خارقاً للعقول وحارقاً للقيم، مكّن من إيجاد المبرّرات الكافية في اللاوعي لتسويغ حالات العنف تلك، التي عادةً ما تُحمل على صوائت وصوامت عبارات تمويه وتلطيف، ذلك ما ندعوه بالخطاب. وعليه، يرى سعيد بنكراد في كتابه "وجه المعاني" أن "أيّ تراجع للغة هو تقليص لمساحات التواصل ومساس باليات التفكير وتشويش على الوجدان في الوقت ذاته، تقوم اللغة على مبدأ أساس هو تقليصها الامتداد واختصارها التجربة الواقعية".

¹ John Collins et Ross Glover, Collateral Language, NYU Presse, 2002

² سعيد بنكراد، وهج المعاني، سمائيات الأنساق الثقافية، المركز الثقافي 2013، ص 183 وما بعدها

والدعوة هنا موجَّهة للساسة وقبلهم للإعلاميين باعتبارهم جزءاً من لعبة الساسة في هذا المشهد الجديد، كفانا إرهاباً وسَمِّوا الأشياء بمسمياتها، ولا تنقلبوا بخطاباتكم على القيم. واعلموا أنَّ اللغة التي بها تتكلَّمون "هي التي تنتقل بالأفراد من جماعة بشرية إلى مجموعة ثقافية"¹، كما يقول عبد السلام المسدي.

ويقوم خطاب المؤامرة على تغييب الحقيقة وحجبها وإنكار الواقع، والاستخفاف بالعقل وتسطيحه، فيكون بذلك مظهراً من مظاهر الانحراف والتخلف، حيث يقول محمد محمد يونس علي في كتابه "قضايا في اللغة واللسانيات وتحليل الخطاب": "ما أسهل على العربي أن يحلّ جميع مشكلات العالم، وهو يحتسي فنجاناً من قهوة، وربما قبل أن يرتدّ إليه طرفه، فبلحظة من الإلهام الذي لا يكاد يُخطئ، يستطيع كثير من الناس أن يتجاوز النظر إلى ظواهر الأمور ويتعمّق في نيات الناس، وفي غياهب الغيبات ليُدرك بثقة كاملة أنَّ المسألة قيد الدراسة أو النقاش لا تعدو أن تكون (أو ناشئة عن) محض مؤامرة يقوم بها أعداء الأمة أو الجنّ أو قوّة أخرى خفيّة لا نعرفها (كالماسونية ونحوها)، ولا يمكن أن تكون ناشئة عن أخطائنا أو تقصيرنا أو سوء سلوكنا"².

وفي كتابه "علامات فارقة في الفلسفة واللغة والأدب"، يضيف أحمد يوسف في السياق ذاته: "إذا أعملنا التحليل الحفري في الخطاب السياسي لوجدنا مظاهر الحراك بين الإقصاء والانتظام جليّة في المجتمعات العربية التي كانت تخوض معارك التحرير".

ولنمثّل كيف استُعمل مفهوم "الاختلاف" في المعجم السياسي الحديث فأصبح مرادفاً في اللغة السياسية للتعدّد، وجب القول أن في التعدّد الفرقة وتشتيت الجهد/ فهو نقيض الوحدة.

ولهذا يوصف دعاة الاختلاف وأشياعه بأعداء الوحدة وأعداء الداخل وأعداء الثورة وأعداء الأمة: فهم عملاء ومرترقة وخونة.

ولمّا حصل تحوّل في الخطاب السياسي تحت ضغط الحراكين الاجتماعي والسياسي تغيّر الحال، ففرضت "ثقافة الاختلاف" نفسها في المجتمعات العربية بفضل إكراهات العولمة ونضالات "المجتمع المدني".

فقد حدث تغيير في المعجمية السياسية، فتلطّف عنف اللغة، وخفّف الخطاب السياسي من غلواء إرهابه، فاستُبدلت المفردات القاسية والعنيفة والجارحة والعدائية بمفردات أكثر تلطيفاً وأكثر تهذيباً، فصرنا نتحدّث عن "الحساسيات الجديدة" بدل أعداء الخارج والداخل وأعداء الأمة والعملاء، ولم يقوَ الخطاب السياسي الأحادي على استعمال مفردة "المعارضة" إلّا مؤخّراً؛ وعلى الرغم من ذلك فإنّنا لا نجد لها حضوراً في الأدبيات التشريعية".

¹ - عبد السلام المسدي، العرب والانتحار اللغوي، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، 2011 ص. 10

² - محمد محمد يونس علي، مدخل إلى اللسانيات، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى 2004، ص 28

المبحث الأول

محددات الخطاب السياسي الشعبي الهزيل



المطلب الأول/ أزمة الخطاب ولزمة خطاب الأزمة الملازم للخطاب الحزبي

بعد حوالي أكثر من نصف قرن من التجربة الميدانية التي خاضتها الأحزاب والكتل والحركات السياسية المغربية، حازت الأحزاب بدرجات مختلفة مستويات في بعد النظر وفي صياغة الخطاب والإمساك بناصية اللغة في ترجمة الموقف وبلورة التوجه وخوض المواجهة وتصدُّر الواجهة. وقد تميزت بعضها ببُعد النظر في رسم استراتيجية بعيدة رغم تجربتها القصيرة اتجاه الحركات السياسية العريقة حتى أخذت على عاتقها الخطوط البيانية للخارطة الاجتماعية والاقتصادية للبلاد في برنامجها الانتخابي وضمن متن أروياتها ومشروعات تصورهما السياسي والسوسيواقتصادي، في حين لازالت بعضها تحبو في خطابها الاعلامي الذي قد يثير البعض، وقد يكون عرضة للهجوم دون أن تحصن إمكاناتها في التصدي أو الاستقطاب الجماهيري لأحزاب تتبادل نشر الغسيل الداخلي.

❖ أولا- مستوى الخطاب السياسي بمستوى شعبي هزيل وهزيل

الخطاب السياسي الجماهيري نص تحريضي، دعائي يرتبط في الغالب الأعم بالمناسبات والأزمات، ويأخذ شكل الخبر السياسي أو النص المتكامل أو الشعار أو الأغنية أو الطرفة أحيانا ("بوسبرديلة"، "السيكليس"، "ابن عرفة"، "التماسيح والعفاريت"، "وزير الكراطة"، "الحاج شيوعي"...).

فبتحليل التعليقات الواردة على صفحات الإنترنت وتمييزنا بالمنظور السيكولوجي الفرويدي بين الطرائف "البريئة" والطرائف "المُغرصة"، لننُفِذَ إلى تصور المجتمع لكل فاعل سياسي مغربي وردود أفعاله بشأن كل قضية، فنعرف صورة النظام في ذهن المجتمع، وكيف تتحول الطرائف إلى أحد أشكال المقاومة.

كما أنه خطاب تنظيري إيديولوجي نسبيا، فلا يحظر فكر التنظير إلا للبناء عبر مراحل تاريخية، من خلال بناء الخطاب التنظيري بعناية (خاصة المشروع السياسي للحزب والبرنامج الانتخابي)، ليبرهن على صحة مقولاته بقدر من المقدمات والنتائج المنطقية من وجهات نظر.

إن تعبير أرسطو طاليس بأن "الإنسان حيوان سياسي" يشدني للزعم بأن كل خطاب أو نص هو "خطاب سياسي" في نهاية المطاف، فإذا كان الفعل السياسي هو عمل قصدي لتنظيم الحياة اليومية للمجتمع، فإن ذلك يعني أن تفاصيل السلوك الإنساني هي في جوهرها سياسية، لكن لكل خطاب مركزه أو منظوره (paradigme)، ومركز الخطاب السياسي هو "السلطة"، فإذا انتزعنا هذا المفهوم من الخطاب السياسي انهار هذا الخطاب، ويصبح كالمشجب الذي إذا سقط، سقط معه كل ما عُلق عليه.

كما يمكن تسجيل غياب تناسق في الرؤية السياسية لتلك الخطابة بين أمين عام وكاتب أول بالمقارنة مع الرؤية التي يحملها أعضاء معه داخل نفسي المكتب السياسي أو داخل الشبيبة الحزبية التي تمثل ضمي الحزب، فنجد أنفسنا أمام شيزوفرينية خطابية داخل جسد نفس الحزب، مع استخدام لغة خطابة موجهة لشريحة أو تركيبة اجتماعية تنبئ بعجز تلك الكتلة أو النخبة عن التواصل ومواكبة مجريات التطور الاجتماعي والخطابي، لتبقى حبيسة خطاب قديم لم يتجاوز الجانب العرقي أو اللغوي/اللهجي أو الجغرافي، أو الحزبية الكتولية الضيقة في مسخ للقيم الوطنية والهوية الثقافية الجامعة لعموم المغاربة، وإمعان في تناسي دور الكتل الأخرى في الشارع السياسي لأن الحقائق التاريخية لا تفرضها كتلة أو حزب أو شخص، فضل عن انخفاض مستويات تبادل الأدوار بسبب الحزبية الضيقة والتمترس وراء دوغمائية حزبية، ومحاولات الهيمنة على وسائل التواصل العمومي وعلى بث الرسائل، رغم حرص "الهأكا" على ضمان ظهور متساوٍ.

جدير بالذكر أن الحدود الفكرية لم تكن واضحة لدى الكثير من النخب الذين امتزجت معهم التجربة القيادية للمسؤول مع تجربته السياسية ورصيده النضالي داخل هياكل الحزب أو ضد هياكل الدولة أو خروجه كحزب إداري من تحت جلباب تلك الهياكل، فكان خطابه هجيناً لم يتخلص من طابعه الإداري وكانت خطابه السياسية فوق المنابر حاملة لكل التناقضات التي يحفل بها الفضاء الخطابي السياسي.

ومعلوم أن فنّ الخطابة السياسية يستلزم لغة حاملة لفكر واعي وعلم نافع ومعرفة تامة وإدراك صحيح وفهم سليم وتعقل كامل وثوابت نظرية وإيديولوجية ودراسة حكيمة لجمهور التلقي وحاجاته وسلم أولوياته، وأن يوفق بين المرجعية السياسية والمرجعية الدينية، وتترجم مرجعيته السياسية مرجعيته الدينية التي يتبناها كلياً أو نسبياً في الأرضية الإيديولوجية للحزب، كي لا يكون مثل عالم متهتك لا يعمل بعلمه أو جاهل متنسك يعمل بلا علم ولا دراية.

فمن الإجحاف لمن يعتلي المنابر السياسية ويلقي الخطب الجماهيرية من لم يتعلم فنّ الخطابة وأسلوبها الصحيح، ولم يقرأ كتاباً واحداً في علم الخطابة وتتبع تكوينات في القيادة حتى إشراف خبير صاحب علم وتجربة في وادي المنبر والخطابة، فيتعلم من رواد الخطب المنبرية ليوم الجمعة والعيدين أو كبار الخطباء (مثل أمير المنابر المرحوم عبد الحميد كشك)، ويبحث في علم النفس من حيث تأثير الخطيب في نفوس الجماهير، وفي علم الاجتماع كيفيات تأثر المجتمع بكلمات الخطيب وأفعاله وطبيعة التفاعلات التي تنتزى تحت طبقاته وفئاته، حتى لو اقتضى الأمر الإطلاع على الخطب الأكثر راديكالية لفهم مسار تحمّس جمهور الخطيب للجهاد فور إلقاء خطبه النارية، فلا يغفل البحث عن الخطابة والخطباء في علم تاريخ الخطابة، وكذلك في علم الرجال وطبقات الخطباء، وأشهرهم في العالم على مرّ العصور، والبحث في التدوين الخطابي عن الخطابة في الفلسفة والحكمة أيضاً، وعن أشهر الساسة في علم السياسة وعن المناظرات السياسية وعن الردود والتعقيبات والتعقيبات على التعقيبات في البرلمان، ورواد الخطابة السياسية التي ساهمت في قلب المعادلات السياسية والتأثير على الجمهور في قبول فكرة سياسية أو رفضها، وحتى منهجية استعانة علماء الاقتصاد بفنّ الخطابة لتعجيل حركة دولا ب الاقتصاد وتحريك العمّال لمصالحهم الاقتصادية، فضلاً عن ما كتب عن الخطابة كفنّ من الفنون وصناعة من الصناعات في علم المنطق الذي يُعدّ أمّ العلوم وأساسها: فعلماء المنطق يبحثون في الأقيسة وموادّها عن الخطابة وأصولها وقواعدها وأركانها، لأن من يتعلم فنّ الخطابة من علم المنطق لا يتلعثم ولا يضجر جمهوره ولا يسأم.

فالخطابه كلام يُلقى على المسامع لإقناع أو تهيج جمهور التلقي، وتعليم صناعة الإقناع وأساليبه، وتحقيق الأنفع من خلال استثمار قدرة قول الخطيب: فالخطابة بين الفعل والانفعال، ومقدمات قياسها تكون من المشهورات والقضايا المظنونة والمقبولات عند الناس، فيستشهد الخطيب على كلامه ومقوله ومدّاه بأقوال الأنبياء والأولياء مثلاً، مع لحن خاصّ متناسب بين المفاهيم والألفاظ ومع حركات خاصّة، فيدخل كلامه في القلوب وينفذ في العقول، مع المهارة في الفنّ للقدرة على إقناع قلوب الجماهير بالإقلاع من مكانها للتعلم به وبخطابه، فيجعل الداني عالياً والعالي دانياً، والوضع شريفاً والشريف وضيعاً.

في هذا الصدد، أورد المحقق الطوسي في تأثير الخطابة أنه "لا صناعة من الصناعات الخمس- البرهان والخطابة والشعر والجدل والسفسطة- كصناعة الخطابة في إفادة التصديق الإقناعي، لأن عقول العامة قاصرة عن إدراك القياسات البرهانية، بل من الجدل أيضاً، فإنّ الجدل في تعلّق الكليات مجراه مجرى القياس البرهاني: فالصناعة المتكفّلة لإقناع الجمهور ليست إلّا الخطابة، وهذا حقّ لا ينكر، فإنّ البرهان إنّما يتقبّله الخواصّ والطبقة المثقّفة... أما العوام وجمهور الناس، إنّما يتأثرون بالخطابة، ويقول المعلم الأول أرسطو: "إيمان بعض بظنوناتهم لا يقلّ عن إيمان بعض بيقينيّاتهم"¹.

فالخطابة كما جاء بيان معناها الاصطلاحي في جوهر النضيد هي "صناعة علمية يمكن إقناع الجمهور فيما يراد أن يصدّقوا به بقدر الإمكان، وتقرير تلك القواعد لا يمكن بالقياس البرهاني والجدلي، لقصور العامة عن إدراكهما، فدعت الضرورة إلى وضع هذه الصناعة المتكفّلة بذلك، وهي في الإقناع أنجح من غيرها، كما أنّ الجدل في الإلزام أنفع".

وجاء في مطالع الأنوار أن "القياس الخطابي ما يؤلف من المظنونات أو منها ومن المقبولات، وصاحبه يسمّى خطيباً واعظاً، والغرض منه ترغيب الجمهور إلى فعل الخير، وتنفيرهم عن الشرّ".

وقال التفتازاني في تهذيب المنطق: "القياس إمّا برهاني يتألف من اليقينيّات وأصولها (الأوليات والملاحظات والتجربيات والحدسيّات والمتواترات والفطريات)، ثمّ إن كان الأوسط، أي الحد الوسط بين الأصغر والأكبر في مقدّمتي الصغرى والكبرى، مع علّيته للنسبة في الذهن علّة لها في الواقع فبرهان لمّي (أي نصل من العلّة إلى المعلول)؛ وإلّا فإنّي (أي نصل من المعلول إلى العلّة)؛ وإمّا جدلي (يتألف من المشهورات والمسلّمات)، وإمّا خطابي (يتألف من المقبولات والمظنونات)"².

لنفهم أكثر هذه التقسيمات ونسقطها على مستويات الخطاب السياسي والحزبي المغربي الذي لا يتجاوز المقبولات والمظنونات على أكثر تقدير، أرى من المفيد الرجوع إلى ما جاء في الحاشية، حيث عرف:

- "المشهورات" بكونها تلك القضايا التي تطابق فيها آراء الكلّ، كحسن الإحسان وقبح العدوان، وذلك لاشتغالها على مصلحة عامة كالمثاليين المذكورين، أو لموافقتها لطبائعهم كقولهم مواساة الفقير محمودة، وإعانة الضعفاء مرضيّة... أو مشهورات من جهة الشرائع كاستحباب النكاح وحرمة السفاح، أو من جهة الآداب كالاحترام للكبار والرفق بالصغار؛

¹ - تاريخ گويندگان، اسلام

² - سعد الدين التفتازاني، متن تهذيب المنطق والكلام، مكتبة السعادة، القاهرة، 1912، ص 26

- و"المقبولات" باعتبارها تلك القضايا التي تؤخذ عمّن يُعتقد فيه كالأولياء والصلحاء والعلماء والحكماء؛

- ثم "المظنونات" على أنها قضايا يحكم العقل بها حكماً راجحاً غير جازم، كقولنا: فلان يطوف بالليل، وكلّ من يطوف بالليل فهو سارق، فلان سارق. ومقابلة المظنونات مع المقبولات من قبيل مقابلة العام بالخاص، فكلّ مقبول هو مظنون والعكس غير صحيح".

ما قلته لا يدخل في باب المظنونات ولا في إساءة الظن بالأحزاب، ولكن يترجم خلاصة تنقيب في أدبيات الأحزاب الخطابية، والتي تجعل مورفولوجية خطابها أختا سيامية لأدبيات الخطاب النقابي.

❖ ثانيا- الخطاب النقابي وجدلية التوقع والجدل والتنقيب عن هوية

أكد عبد "السلام أديب"، كشاهد من المخضرمين بين العاملين السياسي والنقابي، أن الاحداث النقابية تؤكد يوما عن يوم انسلاخ الأطارات النقابية الكامل عن خدمة مصالح الطبقة العاملة المباشرة، المادية منها والمعنوية، وانسياقها في المقابل نحو خدمة الاجندة السياسية والاقتصادية للباطرون. ورغم تعقد ادوات خدمة البيروقراطية النقابية للخط السياسي للتحالف الطبقي الحاكم، الا أن محطات المؤتمرات النقابية (انظر ظروف انعقاد المؤتمر العاشر للاتحاد المغربي للشغل وما تلاه، ومحطة المؤتمر الخامس الاخير للكنفدرالية الديمقراطية للشغل) أو الاتفاقات المفصوحة المشبوهة التي تبرمها المركزيات النقابية مع الباطرون بين الحين والآخر (يكفي الرجوع الى الاتفاقات المبرمة منذ بداية هذه السنة بين مختلف زعماء المركزيات النقابية ورئيسة الباطرون) ومع الحكومة وكيفية يتم الالتفاف على بعض القرارات اللاشعبية واللاميموقراطية (يكفي الرجوع إلى سياقات تمرير مشروع القانون المالي لسنة 2014 بسرعة داخل البرلمان رغم طابعه الكارثي على الطبقة العاملة) لجعلها تصاغ بشكل مقبول شكلا من طرف الطبقة العاملة مع انها تحمل الكوارث مضمونا لهذه الطبقة، تؤكد كلها على التوافق الطبقي ضدا على مصالح الطبقة العاملة.

وفي سابقة من فريدة من نوعها أقدم يوم الاثنين 02 دجنبر 2013 بالرباط مجموعة من الأساتذة حاملي الاجازة ودبلوم الماستر المحتجون على عدم ترقيتهم إلى السلم العاشر بناء على شهاداتهم، على إحراق بطائهم النقابية التي كانوا في وقت سابق قد انخرطوا بها في النقابات الاكثر تمثيلية، احتجاجا منهم على ما أسموه "خيانة لهم" بعد توقيع النقابات الخمس على محضر اتفاق مع الوزارة تؤكد على مباركتها اجتياز الأساتذة للامتحان من أجل الترقية دون اعتبار لشهاداتهم، وذلك يوم الخميس 14 نونبر 2013 وهو ما اعتبروه حيفا وانتكاسة نقابية قبل أن يتهموا النقابات بقضاء مآربها الشخصية فقط.

كما ساق المسؤول النقابي والحزبي المذكور أمثلة عديدة لتأكيد "انحياز النقابات المكشوف ان لم يكن المتواطئ الى جانب الحكومة، كما يؤكد مرة أخرى على أن أغلب الخطوات النضالية للطبقة العاملة تتم بشكل أو بآخر خارج موافقة المركزيات النقابية وان دور هذه الاخيرة يستهدف في الغالب تكسير أي زخم

نضالي عمالي. وبالعودة الى تاريخ تطور العمل النقابي ببلادنا يظهر أن نشاط ومهام الحركة النقابية المغربية منذ بداياتها الأولى في عقد الخمسينات والى غاية التشويه الكامل لهذا النشاط وهذه المهام في يومنا هذا خاصة مع ما آل اليه الوضع داخل المركزيتين النقابيتين الرئيسيتين والتي من المفروض كونهما تختزنان طاقات نضالية هائلة وهما كل من الاتحاد المغربي للشغل والكنفدرالية الديمقراطية للشغل، على ارتكازه على عنصرين ملازمين متصارعين رافقا هذا النشاط وهذه المهام، مما أدى صراعهما العنيف الى افراز الواقع النقابي الرديء القائم حاليا".

فبالنسبة للعنصر الأول، شكلت النقابات فعلا مدرسة ضرورية للنضال العمالي "يتلقى داخلها العامل الدروس الاولى في التنظيم والوعي الطبقي الجيني وحيث يحدث تكتل العمال داخل قطاعاتهم لمواجهة عجرة الباطرونا واستغلالها واضطهادها المسترسل لكرامتها من جهة وتكتل العمال بمختلف قطاعاتهم العمالية على اختلاف طبيعتها ومضمون انتاجها بما في ذلك القطاع العمومي والوظيفة العمومية وذلك من أجل مواجهة جماعية للسياسات الحكومية المنحازة بشكل منهجي ومطلق لفائدة الباطرونا وعلى حساب مصالح الشغيلة المغربية من جهة أخرى. وقد قامت هذه المدرسة النضالية وصيرورة الوعي الطبقي والنضالات العمالية داخلها على كاهل الطليعة العمالية الواعية داخل المركزيات النقابية"¹.

لكن الوجه المشرق الذي شكلته الطليعة العمالية داخل النقابات كإطارات لتربية الطبقة العاملة على النضال وعلى الرفع من وعيها بذاتها ولذاتها كطبقة مستقلة من الشغيلة المغربية، "كان يتعرض باستمرار لهجوم بيروقراطي انتهازي صارخ. فالطبقة العاملة تتعرض في نفس الوقت لنفس الاضطهاد والاستغلال في مختلف القطاعات ووحدات الانتاج والذي تمارسه عليها الطبقة البرجوازية والمافيات البيروقراطية النقابية المنغرسه وسط العمال وبدعم مطلق من طرف الحكومات المنبثقة بشكل طبيعي عن البرجوازية المهيمنة".

ويدلي المسؤول النقابي المذكور بشهادته في العديد من المنابر حول نمو "كائنات نقابية بيروقراطية تقف على العمل النقابي منغرسه فعلا وسط الشغيلة المغربية لكنها تعمل بجد ونشاط على خدمة مصالح الباطرونا والحكومات المتعاقبة، وحيث يتمثل دورها الاساسي في ضبط نضالات الشغيلة من اجل احتوائها وقولبة مطالبها لكي تتماثل مع مصالح الباطرونا وأهداف السياسات الحكومية المعادية لمصالح الطبقة العاملة".

إن صراع ووحدة هذين العنصرين المتلازمين من خلال صيرورة طويلة نسبيا للعمل النقابي في بلادنا وحيث كان العنصر الثاني المتمثل في البيروقراطية النقابية هو المنتصر في الغالب نظرا لارتباطه المستتر والعلني بالأحزاب السياسية الانتهازية وبأجهزة الدولة العلنية وغير العلنية قد أديا الى نتائج سلبية متعددة، ذكر من بينها عبد السلام أديب :

- "تشويه الوعي الطبقي لدى الطبقة العاملة، فبدلا من تعميق وتطوير التصور البروليتاري العقلائي الطبيعي حول العالم، يتناقض ويختلف جذريا مع التصورات الميتافيزيقية والغيبية التي تسعى البرجوازية الى فرضها على الطبقة العاملة، والتي تفضح جذور بنية استغلالها واضطهادها الطبقي للعمال وتأبيد خضوعها وخنوعها للاستغلال وخدمة التراكم الرأسمالي على حساب فقرها واغترابها عن ذاتها فكريا واقتصاديا واجتماعيا"²؛

¹- عبد السلام أديب، "النقابات، أدوات لتقسيم الطبقة العاملة وتفسير نضالاتها"، الحوار المتمدن، في عددها 4298 الصادر بتاريخ 7 دجنبر 2013

²- عبد السلام أديب، المرجع نفسه

- "تكسير الاحترام والحب الطبيعي للعامل لنفسه لذاته وقدرته على الاستقلال بمواقفه، وذلك من أجل أن يستبطن العامل احتقاره واستهجانه لنفسه وتعلقه الوثني بقضايا غيبية مصطنعة تصنع سعادته وشقاءه ويتحول بالتالي إلى أداة طيعة بيد الباطرونا تستغلها وتسخرها كيفما تشاء لخدمة شروط تراكمها الرأسمالي وسعادتها. انها نفس السياسات والممارسات التي تتم داخل الثكنات العسكرية حيث يتم اللجوء داخلها إلى تفسير ذاتية الجندي ونفسيته وتحطيم احترامه لنفسه الى درجة افتقاده لعنصر الثقة في ذاته وتعلقه فقط بالأوامر العليا الصادرة اليه حتى وان كانت غير منطقية، وبالتالي يتم توظيفه كالروبوت في القتل والتدمير والقيام بأعمال تأبأها النفس البشرية السوية.

ونلاحظ كيف يرتكب الجنود في الغالب فظاعات لا يمكن للإنسان السوي القيام بها، ونفس الشيء ينطبق على كافة قوات القمع التي تُصنع صُنعا داخل الثكنات، وحيث يحرم على الجنود ان يعبروا عن ذات عقلانية مستقلة (انظر في هذا الإطار قضية القبطان أديب والجلطي)؛

- "تجنيد الطبقة العاملة حتى في القضايا التي تتناقض تماما مع مصالحها، كالقبول بالاقتطاعات من الاجور، والقبول بتخفيض أجورها حتى دون الحد الأدنى للأجور، وزيادة في ساعات العمل لتتجاوز 15 ساعة، والقبول بانعدام شروط العمل وسلامته (فقد ازهقت في حادثة روزامور التي روح 66 عاملة نتيجة اغلاق المعمل بالمفتاح من طرف الباطرون)، والقبول بالتسريحات الجماعية وبالتعويضات الهزيلة عن الطرد التعسفي، ... الخ. بل يتم تجنيد الطبقة العاملة من اجل القبول ببعض القضايا السياسية أو العسكرية المرفوضة منطقيا، وبانتخاب مناديب العمال معادين لمصالحها"؛

- "شخصنة العمل النقابي في شخص الزعيم النقابي التاريخي كالمحجوب بن الصديق، وموخاريق، ونوبير أموي، وحמיד شباط، ومحمد يتيم ... بدلا من اعتبار العمل النقابي قضية عمالية جماعية تستهدف انتزاع الحقوق والحريات من خلال قرارات يتخذونها جماعيا وبشكل ديموقراطي. فشخصنة العمل النقابي يعطل كل مبادرة نضالية ميدانية للعمال من اجل انتزاع حقوقهم، وحيث يصبح اتخاذ القرار النضالي متوقف على ارادة ونزوات شفتي الزعيم النقابي وحيث تكون المبادرات النضالية التي تنطق بها شفتي الزعيم مجرد مناورات شكلية الغرض منها خداع الطبقة العاملة لضمان خنوعها لإرادة البيروقراطية النقابية، بينما يتم التوافق من وراء ظهر العمال مع الباطرونا ومع الحكومة على كيفية تمرير مصالحها الطبقيّة دون حدوث ردود فعل عمالية قوية، وذلك ما تتحينه الحكومة والاحزاب السياسية والنقابات حاليا من أجل معالجة أزمة رأس المال ببلادنا"؛

- "السماح بإجرام البيروقراطية النقابية في حق القوى العمالية المناضلة الثورية داخل كافة المركزيات النقابية خوفا من اسقاطها من طرف العمال هي أولا وخوفا من استنهاض الفكر التحرري وسط الطبقة العاملة والذي يجعل من هذه الاخيرة قوة قادرة على فرض حقوقها وحرياتها والوقوف في وجه استغلالها واضطهادها"؛

- "اغتناء المافيا النقابية البيروقراطية على حساب الطبقة العاملة، فأية مركزية نقابية لم تكشف عن حقيقة حساباتها المالية، بل تعاقب كل من يقترب من ذلك. كما تتلقى المافيات النقابية مقابل خدماتها للباطرونا وللحكومة وللأحزاب البرجوازية بمختلف توجهاتها بدائل مالية تظهر بسرعة على نمط معيشتها. اضافة الى استثمار أموال النقابات في مشاريع مشبوهة قد تمارس نفس استغلال الباطرونا للعمال وتدر عليها الكثير من الارباح ويجعل منها ارسنقراطيات نقابية فعلية. ثم هناك الفساد الكبير الذي يشكل طبيعة قارة في سلوك

المافيات النقابية البيروقراطية، انظر تقارير التفتيشية العامة للمالية وتقارير المجلس الأعلى للحسابات وتقارير المنظمات الحقوقية حول شكل هذا الفساد وطبيعته والذي يفصح جرائم المافيات النقابية البيروقراطية ويجعلها تضل بعيدة عن كل محاسبة نظرا لكونها تشكل دودة زائدة طفيلية لكنها ضرورية للنظام البرجوازي القائم؛ فضلا عن هذه السفسطة التي تحيلنا على معجم بائد ("القوى العمالية المناضل الثورية"، "أدوات خدمة البيروقراطية النقابية للخط السياسي للتحالف الطبقي الحاكم"، أو تعبير الطابور الرابع) وتعبيرات تحيل على مرحلة الكفاح من أجل الإستقلال (استنهاض الفكر التحرري)، فضلا عن استشراف فيروسات نقص الذكاء الإعلامي والإستعلامي حول الأحداث قبل سوقها للطبقة العمالية العريضة، واعتبار كراسي النقابات مقر ورفض اعتبارها ممر، والبحث بكل الوسائل عن مفر من جدلية تجديد النخب الأمر.

أوردت المقال برمته وكما ورد في مظهره كي لا أوصف بالتصرف "المخزني" وحياسة الفقرات وفق عقلية المؤسسات، حتى يتسنى للجميع الوقوف على استعمال تعابير تشيئية للآخر ولباقى النقابات الأخرى من طرف المركزيات الثلاث التي حازت شرعية كرونولوجية التأسيس.

❖ ثالثا- فجور الخصومة وتبادل التفرع في المقارنة بين أجيال العمل النقابي والسياسي

لعل ما يثير انتباه المتنوع للمشهد السياسي عامة والخطاب الحزبي خاصة داخل النسق السياسي المغربي المعاصر أن الخطاب السياسي الذي أعقب الانتخابات التشريعية ليوم 25 نونبر 2011 عرف سجلا سياسيا حادا على مستوى المفاهيم التي تؤثت فضاء التواصل السياسي المغربي، وخصوصا فيما يتعلق بالخطاب السياسي لدى التنظيمات الحزبية، مستبظنا الدلالة عن أزمة سياسية خانقة تخترق المشهد الحزبي بين مكونات الأغلبية والمعارضة، وعن هستيريا عاشتها وتعيشها الأحزاب السياسية المغربية وشيزوفرينيا خطابية كرسها تدني أسلوب الخطاب الحزبي.

وقد سبق لـ "كلود بلازولي" أن تحدث في بداية سبعينيات القرن الماضي عن "حالة الموت البطيء الذي تعاني منه أحزاب الحركة الوطنية"¹، وهو موت وقف عبد اللطيف أكنوش² على لحظات منازعة الروح للجسد في مقال له حول "سكرات الموت"، في وصف نيكروولوجي-جنائزي لتردي يرتد إلى جوهر نسق التواصل السياسي لدى النخب الحزبية، في الوقت الذي وقف فيه

فتبادل الاتهامات ليس جديدا على الحياة السياسية المغربية، فهو -كما يقال- ظاهرة جديدة/قديمة، إذ تعود بداياتها الأولى إلى تسعينيات القرن الماضي مع حكومة التناوب التوافقي بقيادة الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية، ولكن المفاهيم التي استعملت آنذاك لم تكن غريبة عن القاموس السياسي.

وقد انتشرت مفاهيم سياسية مألوفة إلى حد ما مثل "جيوب المقاومة، أعداء الديمقراطية، الإرث التاريخي الثقيل،..."، في مقابل ظهور تعابير غريبة عن المعجم السياسي الذي بدا معه الحقل السياسي وكأنه مسرح للفرجة السياسية والإبتذال والنأي بالنفس عن ضروب الخبال.

¹- PALAZZOLI, Jacques (1972) : «La mort lente du mouvement national au Maroc», in Annuaire de l'Afrique du Nord, vol.11, p.233-251

²- عبد اللطيف أكنوش: "سكرات موت" أحزاب الحركة الوطنية، مجلس انفاس بريس الإلكترونية في عددها الصادر بتاريخ 22 أكتوبر 2016

فما يميز الخطاب الحزبي في الآونة الأخيرة هو تبادل الاتهامات بين الفاعلين الحزبيين وتبلور استراتيجيتين متناقضتين، قوامهما الإقصاء والإقصاء المضاد: فالأغلبية تتبنى خطابا تبريريا يروم تبرئة ساحة الحكومة، بينما تتبنى المعارضة خطابا هجوميا اندفاعيا، وكأننا نعيش على وقع محاكمة جماهيرية أمام الرأي العام المغربي أطرافها هي الأحزاب المغربية، وكان الأجدى ان تساق الحقائق والمؤاخذات من باب الإحتكام للرأي العام، مع احترام الآخر وتقادي التراشق بالتهم للرفع من منسوب الشعبوية.

كما أن المعارضة البرلمانية بدورها ما زالت سجينة الحسابات السياسية الضيقة التي تصنفها في خانة المعارضة المنبرية، التي يعوزها الإنسجام، فنجدها معارضة من أجل المعارضة فقط، بتشكيلات جامعة للعديد من الأطياف السياسية والكيانات المجهرية التي تجه بالفحش، ولا تتوفر على خطاب واحد وموحد لرصف صفها في نقد سياسة الأغلبية وطرح البدائل السياسية، حتى إننا نجد أنفسنا أمام معارضات سياسية تناقضاتها أكثر بكثير من تناقضات أحزاب الأغلبية.

تُعد عملية الاتصال، حسب "كارل دويتش" بمثابة الجانب المحوري في أي نظام سياسي على أساس نموذج الذي أشار فيه إلى أن المعلومات تساعد الأفراد على اتخاذ قرار يترجم إلى أفعال تنفيذية فيما بعد¹: فالإتصال الحزبي الجماهيري كما صورته وتصوره كارل دوتش وغيره، يتأتى من خلال استعراض السياسات العمومية التي يتبناها الحزب، والمنجزات والمشاريع التي قام بتنفيذها عبر مواقعه الوزارية، ومقترحات القوانين التي تقدمت بها أطره داخل غرفتي البرلمان، وكذا بمدى حضوره الدبلوماسي في المحافل الدولية، والبدائل السياسية التي يتبناها والديبلوماسية الحزبية، ومساهمته في إعداد السياسات العمومية وتقييمها: أما الأحزاب المغربية عموما، فتتبنى نفس الخطاب السياسي ونفس النسق الإتصالي القائم على توجيه الاتهامات والتشكيك في نزاهة الغير والانتقاص من قدراته التدبيرية، وكل ما تملكه الأحزاب المغربية هو سجلات اتهامات وملاسنات كلامية ووعد انتخابية.

فمنظومة القرار السياسي حسب المفكر المذكور تعتبر بمثابة "آلية ناظمة Servomécanisme أو قذيفة ذاتية الدفع والتوجيه والقيادة"²: فالحاكمون يواصلون باستمرار السعي نحو اهداف داخلية وخارجية محددة، ويعتمدون في سعيهم هذا على المعلومات التي يتوصلون بها باستمرار من المصالح المختصة داخليا (مثلا المصالح الأمنية بتنسيق مع وزارة الداخلية) أو خارجيا (البعثات الدبلوماسية ولادجيد)، أو من المحيط، والبيانات الخاصة بوضعهم إزاء تلك الإهداف (مؤشرات الرضا أو السخط في أوساط الرأي العام، الإستحسان أو الإستهجان..)، والمسافة الفضلى لتوجيه "ضربات تواصلية" استباقية للحفاظ على استمرار النسق أو البقية الباقية من الثقة والثوقية، وقبلها تطوير المقدرات الإستباقية للأجهزة المختصة من اجل قياس استباقي للنتائج المتوقعة لأي برنامج تعبئة مضادة أو مرتدة، ومقدرات المنظومة السياسية عموما على رد الفعل في مواجهة الإنفعال الشعبي أو فعالية الجماعات الضاغطة على التعبئة، وكذا إمكانيات التعديل المتاحة، ومستويات تحييد تحركات مخصبي مفاعلات السخط في بؤر التوتر التي تؤثر على فعالية المنظومة الأمنية والمشهدية السياسية.

¹ - حنان يوسف، نحو إعلام سياسي هادف للشباب ومواجهة خطر العولمة، مجلة الفن الإذاعي، العدد 158، يوليوز 1999، ص 96

² - فقيهي محمد، دروس في علم السياسة، مطبوع خاص بطلبة كلية العلوم القانونية والإقتصادية والإجتماعية بفاس، السداسية الاولى، برسم الموسم الجامعي 2014-2015

إن الحكامة الجيدة تقتضي من الفاعل السياسي الذي يتوخى النجاح في تدبيره للشأن العام، أن يكون على دراية تامة بما يجب القيام به في الظروف الاستثنائية قبل العادية لتدلي بدلوها في الخروج بتصورات لمعالجة بعض الأزمات أو المشكلات الآنية التي لا تستوجب التأجيل.

وحسب تعبير مأثور لـ "فلاديمير لينين"، فإن "الشتائم في السياسة تعبر عن مدى عجز صاحبها عن تقديم نقد علمي لخصومه السياسيين".

من هنا يستشف أن الأحزاب المغربية غير قادرة على تأسيس خطاب سياسي حداثي مؤسساتي يواكب تحولات الظرفية السياسية، بقدر ما تتبنى خطابا تقليديا مبنيا على توجيه الاتهام إلى الغير، وهو خطاب لا يتماشى ومتطلبات المرحلة ولا يرقى إلى تطلعات المواطنين.

وعليه، ينتظر من الأحزاب المغربية تغيير منهجها في الاتصال وإنتاج خطاب سياسي حداثي منظم تتواصل من خلاله مع كافة مكونات المشهد السياسي، وأن تخرج من شرنقة الخطاب الشخصي إلى الخطاب السياسي المؤسساتي، لتستعيد الجماهير الثقة في الأحزاب، وتستطيع هذه حشد رأي عام شعبي كبير يساندها في الاستحقاقات الانتخابية أو تعبئته في الدفاع عن قضايا وطنية كبرى.

فمن العيب أن تعجز الأحزاب مجتمعة ومؤتلفة في فيدراليات عن تعبئة مسيرة كالمسيرة المضادة لحركة "20 فبراير"، في الوقت الذي استطاع فيه شيخ مربى صوفي نور الله ضريحه إخراج مرديده في مسيرة مليونية بفضل التزام هؤلاء وانضباطهم الذي غاب عن المنتسبين لمختلف الأطياف الحزبية.

كما أن وساطة التواصل الإجتماعي أصبحت أكثر تأطيرا للشباب، فصارت قوة تسمى "شعب الفايسبوك" تشكل على المسؤولين السياسيين أناطه بها دستور المملكة لسنة 2011 من خلال الفصل السابع الذي جاء فيه: "تعمل الأحزاب السياسية على تأطير المواطنين والمواطنات وتكوينهم السياسي، وتعزيز انخراطهم في الحياة الوطنية، وفي تدبير الشأن العام، وتساهم في التعبير عن إرادة الناخبين، والمشاركة في ممارسة السلطة، على أساس التعددية والتناوب، بالوسائل الديمقراطية، وفي نطاق المؤسسات الدستورية".

لذلك يتوجب على الأحزاب السياسية ببلادنا تصويب وتطوير خطابها وتواصلها من أجل استمالة المواطنين والشباب على وجه الخصوص ودفعهم إلى الانخراط الجاد والفعال في هذه الأحزاب.

إن إحدى الخطابات التاريخية لجلالة الملك محمد السادس تحت قبة البرلمان، قد وردت حبلً بمضامين الناسي للأحزاب السياسية المغربية، وجاءت بمضامين تفيد التأكيد على الأحزاب بضرورة الارتقاء بتواصلها السياسي ومراجعة أجنذاتها ومحتوى برامجها وكيفية تواصلها السياسي، والقيام بنقد ذاتي لكسب ذواتها وذات الهيئة الناجبة: فالمرحلة التاريخية التي تمر منها البلاد، لا يجب الاستهانة بها واختزالها في تواصل سياسي هدام وغير بناء، يؤدي في الأخير إلى حوار الصم بين الأطراف السياسية وضم الأذان أمام صوت الرأي العام.

حتى عند دخول الشغيلة في نزاع مع الباطرونا بعد انزلاق الصراع من محطات النضال نحو الاحوار ودخول مسلك الدعاوى القضائية، يلاحظ أنه رغم ما يكفله القضاء نسبيا من ضمانات تحقيق العدالة للمتظلم من حكم المحكمة وحق الاعتراض، وعرض القضية على قضاة الاستئناف باعتبارهم

الأكثر خبرة والأقدم في السلك القضائي، أو عرضها على نظر المجلس الأعلى كآخر درجات التقاضي لنقض الحكم المطعون فيه ليعاد فيه النظر من جديد، أو للتصديق واكتساب الحكم القطعي، يلاحظ تجاوز حدود الأصول المنظمة لعملية التقاضي، وطريقة التظلم والطعن في الإجراءات والأحكام القضائية، بل ويتجاوز كلا الطرفين (خاصة النقابات والشغيلة التي تقف وراءها) حدود الخصومة، ويخرج من إطارها، ويسيء الأدب مع الخصم، ويمارس أنواعاً من الاستفزاز والابتزاز، ناهيك عن سلوك سبل أخرى أقرب وصف لها هو الفجور في الخصومة.

فتجد أن النقابات تترك مرافعة محاميها لرفع عقيرتها بالسب والشتم والانتقاص من الخصم، تنقل الخصومة القضائية خارج ردهات المحكمة أو جلسة التفاوض مع الحكومة.

ومع تطور وسائل الإعلام والاتصال وتنوعها وانتشارها برز نوع آخر من أنواع الفجور في الخصومة النقابية كما السياسية، والاستغلال المتزايد لجميع المنابر لشحن الطبقة الشغيلة ومن ورائها شحذ الرأي العام وتوجيهه من خلال خصم لتشكيل ضغط على باقي الخصوم، كي يتوجسوا منه خيفة فيحجموا عن مواصلة مقاضاته أو الإذعان لملفه المطليبي، أو لتصوير القضية في ذهن جمهور التلقي والرأي العام بصورة مغايرة للواقع، أو ليصبغها بما ينسجم مع موقفه في الخصومة، أو ليؤثر على القضاة وعلى مسار القضية، ويربك سير العدالة، رغم أن من أسس العدالة منع التعرض للقضايا المنظورة أمام القضاء في وسائل الإعلام، والحظر الذي تفرضه أدبيات الكتابة الصحافية من عدم نشر تفاصيل قضايا لم تقل فيها المحكمة قولها تصدر حكمها النهائي.

وقدّر لي عبر سبر بعض المقالات والتصريحات واللقاءات والبرامج والخطابات المماثلة لمقال عبد السلام التي تتناول القضايا الرائجة أمام المحاكم، فوجدت ان الكثير منها ورطت أشخاصا واستدرجت بشكل غير معلن القراء أو المتتبعين نحو القذف والصراع، والتأليب.

ونادرة هي منابر الصحافة التي لم تعزها الصحافة لتكون أكبر من أن تُستدرج لمنزلق تسخير منابرها وأقلامها في حروب بالوكالة، ولتنأى بنفسها وبمهنيتها عن استعمالها لتمرير خطابات ظاهرها التلبس بالموضوعية والحياد والنقد البناء والغيرة على الوطن، وباطنها من قبله الإبتزاز والضغط وتأليب الرأي العام من خلال جمهور القراء.

المطلب الثاني/ مورفولوجية خطاب التدافع السياسي الهذيل

❖ أولا- النصية الخطابية السياسية المستمسكة بالناصية الكاذبة

قررت في هذا الشق أن أتجاوز جدار التحوير المذهب للاوصاف التي يمكن أن تنعت بها الخطابات التي صار يطفح بها الفضاء العمومي المغربي والعربي عموماً، من خلال استعادة مشكلة الرمزية التي اكتسبتها بعض الخطابات السياسية التي جرت بذكرها الركبان لنركب نفس وسائل التحليل وإعادة التركيب لنركب على مستويات قوتها ووهنها ومخادعتها انطلاقاً من مفهوم البحث عن نظائر الخطاب الملكي لإقامة مقارنة بنشماركية.

أ- الموقع النوعي لأنساق المخاتلة السياسية وإشاعة ثقافة التضليل والإشاعة

يحضر فعل الكذب بقوة في العديد من السياقات المجتمعية، وتطالعنا القصص المأثورة التي استقيت من ردهات المحاكم بوقائع أشخاص يترددون طوال اليوم للإدلاء أمام المحكمة بتصريحاتهم كشهود إثبات أو نفي في العديد من القضايا في جهات متفرقة على نحو يجعل القضاة يضيقون ذرعا بتردد نفس أسماء الشهود "تحت الطلب" *Témoignage à gage* فيؤبّخونهم ويوحون إليهم بعدم معاودة الرجوع تحت طائلة حبسهم بتهمة شهادة الزور وإهانة المحكمة.

كما تنتال السياقات المرتبطة باحتمالات الصدق (كتحوير مذهب لسياق الكذب) بشكل خاص في خطاب الساسة.

ويحتل الكذب السياسي موقعا نوعيا في الممارسة السياسية، إذ يتخذ أشكالا تداولية عديدة تتراوح بين التجلي عبر اللغة والتخفي في ثنايا الصيغ التواصلية: فتارة تبرز الأكاذيب السياسية دفعة واحدة قصد التهرب من تحمل المسؤولية السياسية اتجاه قضية شائكة أو نتيجة تسرع الفاعل السياسي وتراجعته في الآن نفسه، وأحيانا تظهر بشكل زمني تدريجي عبر الانفعالات السياسية اللفظية إذ تأتي في مراحل متأخرة بعد عدم تمكن الفاعل السياسي من الحفاظ على انسجام لغته السياسية وتماسك موقف والتزامه الخطابي.

ويمكن اعتبار المخاتلة السياسية خرقا جليا لنقطتين أساسيتين: أولاها، خرق الشروط التداولية النوعية التي تعتمد أثناء الإثبات المناسب والملائم؛ وثانيهما، خرق المعايير الأخلاقية العامة للصدق التي هي أساس كل التفاعلات الإنسانية قبل السياسية.

ولابد من التركيز على أهمية صياغة البنيات اللغوية في الإنجازات اللفظية المخادعة باعتبارها بنيات أساسية تتضمن مجمل المؤشرات السياقية والإحالات المرجعية التواصلية التي لا ترتبط بها إلا في إطار سفسطة ترنو للتجارة بالحقيقة وبيع الكلام.

فتحليل الكذب ضمن السياقات السياسية يستدعي زوايا نظر متعددة تسعف في فحص المسارات التواصلية المقترنة بالقصد السياسي ومدى ارتباط لغة الخطاب السياسي باستراتيجية الخداع المتعمد مع سبق الإصرار على الإضرار بصورة الآخر وتخوينه.

إن تحليل تجليات الكذب لا يقتصر فقط على تجريد النظر في بنيات الكلمات وحدها ولا يقف عند الحدود الجمالية الضيقة، بل يتجاوز ذلك لينظر بعمق في بنيات الخطاب ومستويات تشييده لأن الآراء والمواقف الكاذبة لا تنسج إلا ضمن بنيات لغوية متسلسلة ومسار تواصلية يمعن في المخاتلة والإبهار بدل الإظهار.

ولخطاب الكذب أبعادا تداولية لا تتأسس فقط على البناء اللساني الذي يتشكل عبر التأليف اللفظي، وإنما تركز أيضا على التعابير اللسانية الموازية التي تقيد الأشكال التواصلية غير اللفظية من قبيل قسمات الوجه ونبرات الصوت وحركات الجسد وغيرها.

وتكفي الإشارة في هذا المقام إلى أن جملة من المؤشرات السيميائية المتنوعة المستمكة بالناصية اللسانية الكاذبة، بطريقة معبرة وبليغة مثل شكل الابتسامة التي ترسم أثناء لحظات الكذب افتعال الانفعال التفاعلي مع جماهير الناخبين أو الشغيلة وقضاياها وملفاتها المطلوبة.

ويمكن تلخيص الأبعاد المرتبطة باللغة المخادعة وتركيزها في ثلاثة على الأقل: أولها، كثرة الإحالات الذاتية، وثانيها كثرة الكلمات العاطفية السلبية، وثالثها قلة الواسمات ذات التعقد المعرفي.

ومن ثمة، يتبين أن "إنجازات الكذب لا تتحقق عبر تعبير لسانی اعتباطي لأن المخادعة في أبعادها اللغوية المذكورة تقتضي إقامة علاقات تفاعلية بين الإدراك الذاتي للوقائع والاستجابة لمستلزمات التخاطب، أي بين أسلوب اللغة المستعملة ومضمون التواصل"¹.

وعليه، فإن قول الكذب لا يتعلق بمخالفة الصدق وتزييف الحقائق والوقائع كما هي في العالم الواقعي، بل يستلزم أساساً بُعداً سردياً يتمثل دائماً في خلق قصة تتمحور حول تجربة شخصية أو أحداث لم تقع أو موقف غير موجود أصلاً.

واعتماداً عليه، يسعى الكاذب دائماً إلى خلق قصة قابلة للتصديق، فيحاول بذلك أن يكون واقعياً وأن يبتعد عن التجرد والصيغ التخيلية على الرغم من الحضور القوي للمعطيات الوجدانية والاعتناء بتجليات الكذب اعتناءً جوهرياً بالصيغ النوعية للكلمات واللغة من حيث مساهمتها الفاعلة في توليد الآراء وتشكيل المواقف إن على مستوى تشييد الخطاب أو على مستوى إنجازات التواصل.

وإذا ربطنا ذلك بأحد أهم الأنساق المجتمعية متمثلاً في نسق التواصل السياسي، فإننا نذهب إلى أن التوظيف المخادع للغة في المناورات التعبيرية واستثمارها في بعض الاستراتيجيات التخاطبية قد يتجه نحو خرق الشروط التداولية والمعايير الأخلاقية للصدق ليؤدي بذلك إلى ما أسمته مصطفى العاقد بنقعيد ودون تعقيد بـ "الكذب السياسي"، إذ إنه "كذب ينزل منزلة الفعل اللغوي والخطابي القائم على التحفيز اللامشروع للمواقف السياسية والمعرفة المجتمعية أثناء التفاعل مع المكونات السياسية والتواصل مع مختلف فئات المجتمع".

إجمالاً، نستطيع القول بأن الكذب السياسي بما هو إخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه تعبير يهدف إلى التضليل السياسي حيث يعتمد التحفيز اللامشروع للمعرفة السياسية في إطار التفاعل والتواصل المجتمعيين.

إنه نظام خطابي تواصلي "يتأسس على تفاعلات التخاطب السياسي وارتباطها بمواقف السياسيين ومقاصدهم الفردية والجماعية. ومن ثمة، يكون الكذب السياسي فعلاً تواصلياً يخضع بامتياز لمراقبة النماذج السياقية التي يشيدها الفاعلون السياسيون عن الأحداث المجتمعية ضمن وضعيات سياسية تواصلية محددة".

إن فهم الكذب السياسي، من هذا المنظور، من خلال استقراء واقع الخطاب السياسي والنقابي الاستيعابي يمكن من استيعاب جملة من الممارسات السياسية التي يعاب عليها نوع من السلبية التي يطفح بها الفضاء الخطابي السياسي المغربي، محلياً ووطنياً.

ففي العديد من المقامات السياسية، بما فيها التصريحات الصحافية والحملات الانتخابية والمناقشات البرلمانية في إطار جلسات الأسئلة الشفهية، تتشكل الأكاذيب السياسية حول قضايا تهم النخبة السياسية والفاعلين الحزبيين والرأي العام الوطني، فيحاول الكاذبون السياسيون طمسها عبر اللغة المخادعة والتعابير التبريرية والمناورات التواصلية المختلفة.

1- العاقد، أحمد: السياسي والكذب، اللغة المخادعة في الخطاب السياسي، مقال موقع وزارة الثقافة والاتصال

ويكفي في هذا الصدد تأمل أمثلة كثيرة في المشهد السياسي المغربي من بينها تصريح أحد الزعماء المؤسسين للحركة الشعبية للقناة الثانية بكونه رهن ممتلكاته من أجل الحزب وصحافته، وتفاعلات تصريحات عمدة مدينة مكناس حول زيارته لإسرائيل، وتعامل القطاعات الحكومية مع تطورات قضية التشغيل "النجاه"، والمناقشات البرلمانية المتعلقة بإفادات وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية عن تفويت الأراضي التابعة لوزارته، وغيرها كثير.

فعلاوة على ذلك، وبإنجاز هذا النوع من التحليل الذي بسطنا أهم عناصره، سنتجاوز التعابير اللفظية لبعض السياسيين المغاربة التي تحاول أن تقرر بصدقهم وتدفع عنهم آفة الكذب السياسي، وسنقبض على النماذج السياقية التي يشيدونها بطريقة لاشعورية في خطاباتهم السياسية، والتي توطنهم من حيث لا يدرون في خانة المحتالين السياسيين الذين لا يجيدون أعمال مهارات الكذب السياسي، ويمن أن نورد ما قاله حازم القرطاجني في وصفه لمسار تحول الكذب المقنع، حين يحاول لقائل الكاذب أن يصير "مقنعا وموهما أنه حق بتمويهات واستدرجات ترجع إلى القول أو المقول به باعتياد المخاطبات التي يُحتاج فيها إلى تقوية الظنون في شيء"¹.

لأن عنوان النص أو التصريح السياسي يتحدد دائما بمغزاه، فيكفي أن نراعي تشاكلاته المتعددة، وضمنها التشاكلات المجازية والتشاكلات الموضوعاتية، لنجد نمطا خطابيا سياسيا ذو طبيعة اصطناعية في اقترابه ومقارنته للملفات السياسية والاجتماعية، في مقابل نمط خطابي ملكي أكثر عمقا وتجريدا وتجردا في التداول بشأن الملفات الوطنية الكبرى، مع اختيار موضوعة (تيمة) أو موضوعات يمكن اعتبارها مقولات دلالية لها قدرة الحضور على طول المتن الخطابي الملكي، أحيانا على مجمل الخطابات التي ورجت في مرحلة من مراحل حكم صاحب الجلالة أو خطاباته في نفس المناسبة.

بمنظار الروابط الحجاجية، يمثل الخطاب الملكي طريقة في التفاعل، يسندها دائما التسليم بتوخي التأثير في الآخر عن طريق ملفوظات منطقية وغير موهمة بالمنطقية: لذلك، ينزع الحجاج عنه جبة الوسيلة الإبلاغية، ليلتحف التأثير في الآخرين وحملهم على الإقتناع برأي ما، مدعم بالحجج: فعندما تقول وكالة تنمية الشمال أن " المنطقة الشمالية تضم شريطا ساحليا رائعا"، فهي لا تقصد وراء هذا الملفوظ غرض إخبار السائح الوطني والأجنبي بروعة شريطنا الساحلي المتوسطي وبزيارة محطاته الشاطئية، بقدر ما تتغيا دعوة الرأسمال الاجنبي لضخ رساميل في مشاريع استثمارية، وإن حدثت الزيارة في إطار الزيارات التفقدية التي تقتضيها دراسات مخطط الاستثمار visites de reconnaissance et de prospection que requierent les Plans d'investissement يكون خطاب وكالة تنمية الشمال قد أحدث التأثير المطلوب على المستثمر، فيتحقق نمط من أنماط الحجاج (الشرح والتفسير والتعليل والإستماله) التي فصل حازم القرطاجني فيها بالقول " والتفسير أيضا أنواع: فمنه تفسير الإيضاح، وهو إرداف معنى فيه إبهام ما بمعنى مماثل له إلا أنه أوضح منه ... ومنه تفسير السبب ... ومنه تفسير الغاية، ومنه تفسير التضمن"².

لما قمت بتحليل النقاش البرلماني داخل قبة البرلمان وسياقات اتهام المعارضة للأغلبية بالكذب والتزييف والتسويق والتسويق للإنجازات الكاذبة، وجدت أن خطاب التخوين يستبطن الدلالة عن نماذج سياقية عموما وجهاز معرفي خاص شكلت عنصرا أساسيا في مراقبة مجريات النقاش، تشدد على البعد التداولي للأكاذيب، وتبرز أن اتهام الحكومة والأغلبية البرلمانية التي تسندها يتأسس على معيار المعرفة المشتركة.

¹ - حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص 71-72

² - حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص 58

وفق المقاربة التي أسس لها "فان ديك" لظاهرة الكذب، والتي تجاوز فيها المقاربات الاصطلاحية التي وقفت عند إجراء معالجة دلالية قائمة فقط على إنتاج المعتقدات الخاطئة وبلورته أيضا لمقاربة سياقية تناولت بالوصف والتحليل الخطاب الذي ألفاه رئيس الوزراء البريطاني "توني بلير" حول العراق في مجلس العموم بتاريخ 18 مارس 2003 ليبرز من خلالها أهمية النماذج السياقية في مراقبة وتفسير عدد من الجوانب السياسية للتفاعل والتواصل التي ظلت مغيبة في دراسات اللغة والكلام، يمكن أن نعتبر أن قضية الكذب المثارة في بلاغ اتهم فيه حزب الأصالة المعاصرة حزب المص ومن خلاله رئيس الحكومة السيد العثماني بالكذب على خلفية "رجاء" تقدم به رئيس الحكومة للعماري بتيسير وتسهيل مناقشة مشروع قانون مالية 2017 محاولة لتجريد الحزب الذي يتزعم الأغلبية الحكومية الحالية من شرعية الصدق المرتبط بالحزب وبمرجعياته الدينية التي لا مكان لها للكذب ككبيرة والكذب السياسي للضرورة التي تبيح الأخلاق المحظورة في إطار فقه التمكين.

كما يستشف ذلك في العديد من الإستلزامات السياسية المؤسسة على السياق السياسي والتي تعد بمثابة استدلالات سياسية تنهض على التقديم الإيجابي للذات، كما الشأن للحزب الذي يقود الحكومة، وتبيح التقديم السلبي للآخر (أي أحزاب المعارضة) أو العكس.

فإذا تم اتهام رئيس الحكومة بالكذب مثلا، فمعناه أنه متهم بكونه كذب على الأمة وتكرر لما ورد في الأرضية المرجعية لحزب المصباح ذي المرجعية الإسلامية الفعلية، مع خرقه أيضا للمعايير الأساسية للدولة الديمقراطية وضلوعه في التضليل المتعمد واعتماده في التدبير الحكومي على سوء التدبير السياسي انطلاقا من سوء السلوك الذي يقوم على الكذب.

وهذه المقترضات السياسية ليست مشتقة من معنى كلام زعيم المعارضة ولا من معنى التفاعل المتمثل في فعل الاتهام، ولكنها مستنبطة من بنيات النماذج السياقية للمشاركين السياسيين الذين يؤولون هذا التخاطب السياسي بوصفه انفعالا بين الحكومة والمعارضة.

فالنماذج السياقية، بوصفها نماذج ذهنية يشيدها المتواصلون عن الوضعيات التواصلية، تسم المكون المعرفي الذي يراقب استراتيجيات الكذب والاتهام بالكذب والدفاع عن النفس ضد هذا الاتهام ضمن مجال التفاعل السياسي، وهو ما يعني أن الكذب السياسي يصبح جزءا من العناصر المشكلة لبنيات الخطاب السياسي واستراتيجياته.

عبر تحليل العديد من الخطابات بأدوات قرائية نقدية تهتم بالقضايا السياسية الاجتماعية ودراسة تعسف السلطة والشطط في استعمالها، نرى محاولات تراشق بالتهمة وكشف تورط الغير في الكذب على الرأي العام، بناء على أعمال منهج تكاملي يقوم بدراسة المعرفة والإيديولوجيات والمعتقدات المشتركة اجتماعيا التي تسعف في وصف خصائص خطاب الغير بالتعسف على الحقيقة.

وتشير هذه الحقائق إلى محاولات الخطاب السياسي استغناء الجماهير بأسلوب إعلامي ضالع في التصدير واقتناص العبارات لوصف ما اقتنصته العدسات والميكروفونات من صور وتصريحات، وغيرها من العبارات التي لا تخضع لأبجديات الفهم البسيط، إذ تضعنا على ممارسات إعلامية هي أشبه بالطقوس التي يعيش الناسك فيها مخدرا لا يعي ما يسمع ولا يلقي بالا لما يقول غير أنه في حالة من التقمص الوجداني Incarnation لا تسمح له بالانصراف إلى جوهر ومكنون التأثير الذي يخضع له ويخضع الحضور لسلطته.

أمية جمهور تلقي الخطاب، وجهل جلهم قد يكون سببا وجيها لاستلابهم وسلبيتهم في تلقي الغث والسمين كحاطب ليل دون تمحيص، فتستغل بعض الأحزاب والنقابات جهل الجماهير وأميتهم لتمرير كثير من الخطابات السياسية التي تؤسس لقضايا مصيرية، وتشكل خطابا للإستهلاك الإعلامي.

هذا الخطاب الحزبي يركب آليات الترسانة الاعلامية التي تعطي للزعيم الحزبي شرعيته بتسويق ما يقول وتزيين الهلوسات والخرافات السياسية، على أنها حقائق لا تقبل التشكيك، بل إن الأمور تجاوزت إلى الفتاوى في الدين والدخول في صلب المحرمات مما هو معلوم من الدين بالضرورة، أو في إعادة كتابة التاريخ، فيصبح الزعيم المذكور من أدوات التشكيل الثقافي، ولا نجافي الحقيقة إذا قلنا أن جميع مصادر التشكيل الثقافي على تنوعها أصبحت بحوزة الأذرع الإعلامية لبعض الاحزاب وكتائبها الإلكترونية.

وخير دليل على ما سلف هو انخراط كثير من المثقفين أو ممن يحسبون كذلك في هذا التسويق، إذ يقفون بكل صلف ليروجوا هذا الخطاب، بل ويدافعون عنه، وفي حالات كثيرة يجرمون الآخر ويُشيطونونه تحاشيا لتشويه خطابهم أو استدراك جمهور التلقي وإدراكه لمخاتلة الخطاب ولغته ودورها في التخطيط لتنزيل أنماط الهيمنة الاجتماعية، والهيمنة عبر الإقناع وتزييف وعي الجماهير من خلال خطاب حزبي يبحث له عن بيئة حاضنة، ليقدم بموجب مخطط تعبئة إعلامية فجّة على أنه المخلص، فينجز هذا الخطاب ينجز ما لا تنجزه المواجهات العسكرية، بل إنه في كثير من حالاته كان تمهيدا أو مسوغا لعمليات عسكرية شنيعة، أثبتت مدى القسوة الإنسانية والغباء الممنهج الذي يدفعها بقصد أو بدون قصد: إنه سلاح لا يقل فتكا، بل يصيب الجماهير بطلقة واحدة.

ب- التشويش ونقصان كمية الخبر ووسائل التصحيح

لا يرى التصور النظري للتواصل من معنى للرسالة إلا "معناها كمتتالية من الأدلة والعلامات والرموز المتنقلة بين مرسل ومستقبل عبر صلة تشكل الدعامة المادية للتواصل"¹. ومن ثمة، تنشغل نظرية التواصل بطائفة من الأسئلة التي تهم عدد الرسائل التي تتيحها شفرة معطاة والزمن الذي يستغرقه التواصل وشرط الفعالية القصوى للبث والإرسال وكمية الخبر المبتوث في علائقه بمصدر البث أو جهاز الإرسال.

بالفهم المعجمي والدلالة المتداولة لمصطلح التشويش، يعتبر هذا الأخير في نظرية التواصل ضياعا للخبر، مردّه اضطراب في مدار التواصل. وقد يتدخل عطب أو خلل أو تشويش يترتب عنه نقصان كمية الخبر وأحيانا انقطاع التواصل. وفي سبيل إيقاف الأعطاب المتحللة لسلسلة البث والإرسال تستخدم طريقتان متكاملتان بمقتضاهما تعدل الرسالة أو تستخدم أدوات وأجهزة اكتشاف العطب وتصحيح الخطأ.

فلو افترضنا جدلا أن العملية التواصلية تمت على ما يرام بين زيد وعمرو، فإن النتيجة الطبيعية والمنطقية لذلك التواصل هو تساوي كمية الخبر بينهما. أما إذا كانت الصلة مشوشة أو اعتورها عطب، فإن الخبر الذي يتلقاه عمرو ينقص في حجمه وكمه عمّا بثه زيد وأرسله. وعليه، يتعين تقويم الصلة/الوسيلة والبحث عن الشروط التي تضمن تواصلًا تامًا يحافظ على الخبر المنقول منذ بدء الإرسال إلى حين الاستقبال.

¹- Jean Dubois et autres, *Dictionnaire de la linguistique*, Librairie Larousse, Paris, 1973, p.

كما أن للخبر المنقول وظيفة ذات أبعاد مرتبطة بمصدر وصلة البث. وفي حالة وجود الصلة يغدو في الإمكان تبين المصدر أو المصادر التي تتيح أقصى ما يمكن من التواصل، أي تحافظ على الحد الأقصى من الخبر المنقول. هذه القيمة يدعوها اللسانيون وعلماء التواصل ومنظروهم: "قدرة الصلة"، وهو مفهوم استخلصه أول الأمر شانون وقام بتأصيله وصياغته في معادلة رياضية.

وترتبط صلاحية هذا التمثيل الرياضي بالطابع الاتفاقي لمتوالية الأدلة التي يتم بثها، ويتعين بعد ذلك تحديد الباث الذي ينجز الحد الأقصى، وهو الذي يدعوهُ أبو نظرية المعلومات "كلود شانون" بـ"الباث المتكيف أو المتألف" وصاحب الفضل في زيادة السياق على خطاطة التواصل، "رومان جاكوبسون"¹.

وفي مستوى كشف الأعطاب وتصحيح الأخطاء التي تطول عملية التواصل، يبدو التشفير ذا أهمية كبيرة: فالشفرة لا تهتم فقط بوضع الخبر الذي أرسله المصدر ضمن شكل خاص من البث، وإنما تضيف متما لهذا الخبر، أي أنها تدرج نوعاً من النفل-الحشو الذي يوفر إمكانية كشف الخطأ وتصحيحه في بعض الأحيان.

وإذا كانت أجهزة الكشف الإلكترونية متعددة ومعروفة، فإن المكشاف المتميز والأكثر قدرة على إدراك الأخطاء وتداركها وتصحيحها هو دماغ الإنسان، مثلاً أكدت ذلك الأطروحة السوسُورية، وكما يتأكد في مجمل نظريات التواصل: فعندما تُصدر مكالمة هاتفية، قد يحدث أن تضع بعض مقاطع المحادثة، والضياع هذا يعوض ويصحح بكيفية لا شعورية في الغالب، لينسحب الأمر نفسه على التواصل المؤجل، أي الكتابة، وهذا ما يتيح استخلاص نتيجة مفادها أن الكلام والكتابة يمثلان معاً جهازاً للتشفير الناقل-الحشوي.

وبعد الإضاءات السابقة لآليات ومكونات وطرائق اشتغال التواصل وأشكال تجاوزه التشويش الذي يحتمل أن يطوله في كل لحظة وحين، يمكن إرسال السؤال من جديد حول خصوصية التواصل السياسي والسمات المميزة له والاستراتيجيات الخطابية التي يتوكأ عليها لإنجاز مآربه.

ت- التواصل السياسي بين المناورة والمساومة والتضليل

يتوكأ التواصل السياسي على لغة يناور بها ويساوم الخصوم والمنافسين ويضلل المخاطبين المستهدفين، وله فيها مآرب أخرى.

ولا يقوم التواصل اللغوي عموماً كنشاط سلمي، بقدر ما ينهض كمجال للتنافقات والصراعات والتوترات وممارسة العنف بكيفية متبادلة؛ كما أصبح متداولاً أن ممارسة بعض القواعد واحترام بعض القيود والإرغامات الخطابية يترتب عنهما بكيفية طبيعية وضرورية، التحديد والتهميش والإقصاء والإلغاء.

وبحكم اشتغال اللغة في الحقل السياسي، يأخذ هذا الأخير قوام حقل مكون من متنافسين² وتجتاحه باستمرار رهانات قوية على السلطة.

¹- Roman Jakobson, «Linguistique et théorie de la communication», in Essais de linguistique générale, T.1, Ed.Minuit, Paris, 1963, pp. 87-99

²- أحزاب أغلبية حكومية/أحزاب معارضة- خطاب باطرون/خطاب الشغيلة والنقابات- حقل رسمي/ حقل مضاد غير رسمي... وغيرها من المتقابلات

بناء على ذلك، يشكل الحقل السياسي موضوع جميع أشكال الفرجة بمعناها المسرحي: ويكفي هنا استحضار العديد من البرامج التلفزية المباشرة (رغم طابعها المُمسرح والمُعَدّ سلفاً) وخطب ممثلي الأحزاب السياسية المغربية التي تم بثها في سياق الانتخابات التشريعية الأخيرة، والبث التلفزي لجلسات الأسئلة الشفوية في رحاب مجلس النواب بالمغرب، وهي الجلسات التي تأخذ دائماً شكل مسرحية يعوزها الإتقان والاحتراف وترزح تحت طائلة الهواية والغواية والانحراف اللفظي.

صحيح أن التلفاز، وهو جهاز كان لسنوات إيديولوجيا بامتياز، يضطلع بمسؤولية جليلة (غير جليلة) في صناعة التحريف السياسي ومواراة أشكال الانحراف السياسي الذي أدانه وشجبه الفاعلون السياسيون أنفسهم بكيفية دائمة ومنتظمة، لكن لا يقل عن ذلك صحة أننا نعثر هنا على بعض ما يفسر إخفاق المسرحية السياسية في بلادنا، أو على الأقل محدودية جمهوره، إذ تغطي اللعبة السياسية لتجتاح جميع الحقول، وتستطيل خشبة المسرح البرلماني لتغرق بلعبها المكشوف جل خشبات المسرح، ويتحول المثقفون والفنانون والمنتجون ومن ورائهم الساسة إلى دجالين وفي أحسن الحالات إلى مرتزقة.

وكي لا يستغرقني هذا الأمر، سأعود إلى السطر لأحدث عن منهجية تسطير شروط الصدق على نقيضيتها للكذب السياسي.

معلوم أن الاختلاف في المجالين الفرنسي والوطني لا يمنع من ملاحظة بعض التوجهات التحليلية التي اهتمت في آن واحد بتسليط الضوء على التواصل السياسي في شموليته وأفعال الخطاب التي يوظفها والاستراتيجيات الخطابية التي يستثمرها سرا وعلانية، كرها أحيانا وحبا وطواعية في أحيان أخرى.

وفور متابعة سطور هذه الدراسات، يمكن تبين القاسم المشترك بينها والثابت البنيوي فيها: فهي دون استثناء تقريبا تعتبر التواصل السياسي فضاء سجاليا وحجاجيا وشقاقيا وجداليا، وترى فيه صفة الإغواء والإغراء، وترتب على ذلك نتيجة تعلن أن التواصل السياسي فضاء للمناورة.

فالتواصل السياسي يسعى إلى ممارسة آثاره اتكاء على أساليب ووسائل أبعد ما تكون عن الإقناع وشديدة الانتساب إلى عنف الكلام: فالملتزمات والمقترحات التي يرسلها الخطاب السياسي هي في الحقيقة أوامر مقنعة.

وليس نافلا القول هنا إن أهل الحل والعقد أو أهل السياسة أو ببساطة "أصحاب الوقت" هم أهل الأمر والنهي دون منازع: يقود هذا إلى التفكير في أشكال ممارسة العنف الرمزي (بيير بورديو) والسلطة-اللفياتان Léviathan الحاضرة بقوة وقسوة في كل مكان، وغيرها من مواضيع وزوايا النظر التي سأرجئها إلى مكان آخر.

وبناء على ما سبق، كان من اللازم أن يوجه الباحثون بوصلة البحث نحو آليات ممارسة الانحراف السياسي والتحريف السياسي للحقائق بلغة منحرفة.

وفي هذا النزوع البحثي، نجد هنا وهناك من لم يدعي الانتساب إلى اللسانيات الاجتماعية فقط، وإنما زعم كذلك الانتساب إلى حقول معرفية أخرى كالتداوليات والفلسفة الاجتماعية وعلم النفس الاجتماعي تكفي الإحالة عليها شاهدا على تشتت الفكر وتفرق السبل بهم في الحقول المعرفية.

ويعتبر الخطاب السياسي نموذجاً تمثلياً بقوة للخطاب الشقائي، وبهذه الصفة فهو خطاب ينالور ويساوم ويضلل عبر استثمار آليات ووسائل وأدوات تعثر على تجريدها النظري في مصطلح الإسراتيجيات الخطابية، الذي شكل حجر الزاوية في مقاربة "وينزديش" للتواصل السياسي ضمن كتابه الضربة اللفظية القاضية-التواصل الشقائي¹:

وقد حاول في مدار هذه المقاربة إلقاء الضوء على مسار ومصير خطاب الخصم في خطاب المنافس، أي شكل حضور خطاب الأول في خطاب الثاني، بما هو حضور يمر عبر تلاوين وتنويعات عديدة من المناورة والتلاعب، من بينها:

1 - استعمال الخطاب المنقول المباشر مصحوباً بعبارات مثل: زعم أن، ذهب إلى، تجرأ على الدفاع عن...، وذلك بهدف استبعاد أطروحات الخصم بكيفية مثلى؛
2 - نفي مقترحات (أوامر) الخصم ودحضها وتفنيدها ونقضها عبر اللجوء إلى مختلف الأشكال والصيغ التي تكفل تحقيق التقنيد؛

3 - تقنيع مواقف الخصم عبر إسكات ما لا فائدة فيه أو في معرفته ضمن بعض الشروط، أو عن طريق إفشاء ما يخفيه مضمون خطابه ومنطوقه؛

4 - السخرية من خطاب الخصم ومواقفه (لذلك سنخصص مبحثاً مقتضياً للسخرية في الخطاب السياسي) عبر اللجوء في الكتابة إلى المزدوجات وعلامات التعجب أو الحذف أو الاستفهام، وهي أدوات تعبر عن لباقة أنيقة في الهزء والاستهزاء. ويمكن أن تأخذ السخرية شكل "تصنع" أي إدراج خطاب الخصم في الخطاب النقيض دون التصريح بذلك أو إعلانه أو التنبيه عليه، بدعوى الاتفاق بدءاً وظاهرياً، ولكن بهدف السخرية منه بكيفية نموذجية؛

5 - تكتمل ترسانة استراتيجيات "الخطاب الشقائي" بالتصور الهوامي" (كما ورد في معجم مصطلحات التحليل النفسي- لابلاش وبنطاليس)²، لفهم أن الأمر لا يتعلق فحسب بتقنيع ملتمس أو مقترح (أمر)، وإنما تتم مشاهدة مسرحية محبوكة فيها وضمنها تُبنى "صورة شيطانية"، كما حدث عندما نعت متزعم حراك الريف خطيب الخطبة المنبرية بالشيطان وخطيب الشيطان، في إشارة إلى السلطان وإلى تحبيذه لخطاب بديل للخطاب الديني الرسمي.

ولا يتسم التواصل السياسي بالمناورة فحسب، والتي تتحقق عبر إستراتيجيات التخوين والشيطنة، وإنما يتميز بخصيصة نوعية أخرى، قوامها "المساومة من خلال بعض أفعال اللغة السياسية التي تأخذ طابع التهديد المغلف بالتهديد، من قبيل إذا لم تصوتوا علي، فانتظروا أزمة أو أحداث عنف ستغرق فيها البلاد" أو تلويح بنكيران إلى من يهم أو لا يهمهم الأمر بالقول في اختتام المؤتمر الإستثنائي لحزبه بأن "الشعب سيخرج للإحتجاج إذا تم تزوير انتخابات 7 أكتوبر..."

فالخطاب هنا يخيف دون أن يهدد، ومن الأكيد أن النوايا والمقاصد هنا محيرة ومربكة، غير أن البديهي أنها تستهدف وزارة الداخلية، وتوحي للهيئة الناخبة بالتصويت لصالح حزب المصباح لأنه لا محالة فائز، ولا حاجة للناخب لإهدار صوته لصالح أحزاب حكم عليها الامين الحزبي المذكور بالفشل لانتزاع حزبه النصر.

¹-Windisch Uli, Le K.O. Verbal-La communication Conflictuelle-, Aux éditions «L'Age D'Homme», 1987, p. 64

²- لابلاش و ج.ب. بونطاليس، معجم مصطلحات التحليل النفسي، ترجمة مصطفى حجازي، الطبعة الثانية، مؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1997، ص. 92

وهنا تتأتى المهارة القصوى في فرض اللجوء إلى القوة من خلال التحرك التلقائي للجماهير، والإيحاء بامتلاك تلك الجماهير وفئة الهيئة الناجبة التي يمكن أن تصير ناجبة في حال عدم احترام اختياراتها، مع القدرة على تعبئتها وتحريكها في حراك مضاد للفساد الانتخابي وتزوير إرادة الناخبين.

هذا التلويح بالقوة دون استعمالها Exhiber la force pour ne pas l'utiliser ينسجم مع ما عرفناه مع أزوالد دوكرو حين وضع الاختلاف والتمايز بين ما يدعوه أوستين Austin **بالفعل الإنجازي والفعل الحالي**: فالفعل الأول، الإنجازي، كما سلف بيانه في مقام آخر من الأطروحة تمثله واقعة القول بالذات، بمقدار ما يؤثر هذا الفعل على العلاقة بين المرشح والناخبين.

فالقيمة الإنجازية لخطاب المرشح تتوقف على مقام التواصل الانتخابي والعلاقة بين المرشح ومخاطبيه بما فيهم المنافسون السياسيون وقواعدهم الانتخابية؛ أما الفعل الثاني، الحالي، فيدل على العمل الذي نقوم به ونمارسه دون أن نقوله أو نعلنه بالضرورة. وعليه، تتبدى المسافة بين الإنجازي والحالي في الاختلاف بين القول والفعل، بين التهديد والإزعاج كما في المثال السابق: هي استراتيجية التأثير الثاوية في كل تواصل سياسي والفاعلة والمشتغلة بطريقة ماكرة.

فالمناورة والمساومة والمكر هي سمات تمييزية للتواصل السياسي، ويجب أن تنضاف إليها سمات أخرى هي الدجل والتضليل.

وقد بين "روبول" هذه السمة في تحليله للخطاب الإيديولوجي انطلاقاً من أمثلة استعارها من الحقل السياسي، وميز **الخطاب الإيديولوجي** عن أنماط الخطاب السلطوية الأخرى، مثل **الخطاب القانوني والخطاب العسكري**، لأنه يصادر الكلام بالكلام دون الإعلان عن ذلك. فضلاً عن ذلك، يتوقف روبول على أحد **أفعال الاستطاعة** المميزة للتواصل السياسي، وهو الذي يدعوه أوستين Austin -مثلما سبق الذكر- **الفعل الإنجازي**.

غير أن الخطاب السياسي "يستدعي أفعالاً إنجازية ذات طبيعة خاصة نوعاً ما، ذات طبيعة إيديولوجية تحديداً: إنها تعازيم ورقي تهدف إلى التأثير في مجال لا تستطيع اللغة أن تحرك فيه ساكناً"¹. فعندما يعد مسؤول سياسي بإيجاد مائتي ألف منصب شغل للمعطلين من حملة الشهادات، بالإمكان الرد عليه بما قاله الشاعر: "ليت هذا أنجزتنا ما تعد"، وذلك لأنه لا ينتج إلا "فعلاً إنجازياً مغلوفاً أو مغالطاً"، أي إيديولوجياً، يوهم بامتلاك القدرة على ما يعبر عنه، ومن ثم، فهو نقیض الفعل الإنجازي الصرف الذي يُعبر عن القدرة التي يمتلكها المتحدث.

ومجمل القول أن الدراسات التي تدعي الانتساب للسانيات الاجتماعية لم تنكب على دراسة الأبعاد التواصلية والتفاعلية لاشتغال اللغة في الخطاب السياسي، وارتعن اهتمامها في حدود مقاربات معجمية دلالية أو في تحليلات نصية. كما أن الأبعاد المذكورة لم تتحول إلى موضوع للمعرفة ومجال للدراسة إلا في سياق اللسانيات التداولية كمجال يستثمر معطيات العديد من العلوم.

ومن الملائم أن نشير أخيراً إلى أن البث التلفزي للمقابلات والمواجهات والحوارات السياسية والفكرية والإيديولوجية بقدر ما له من فائدة شعبية، في إمكانه كذلك أن يفيد الباحثين في مجالات عدة: اللسانيات واللسانيات الاجتماعية وعلم النفس اللغوي وعلم النفس الاجتماعي وتحليل الخطابات واللسانيات التداولية والعلوم الاجتماعية...، والقائمة مفتوحة، لأن هذه المواجهات تعبر عن رهانات هامة، وتشكل حقلاً للملاحظة والتحليل يتسم بغناه وخصوبته، وخاصة بالنسبة للسانيات التواصل الاجتماعية.

¹- الأزدي، عبد الجليل: التواصل والتواصل السياسي، مقال منشور على موقع www.aljabriabed.net

معلوم أن تدبير التفاعل ومراقبة التبادل يُكْتَسَبُ بصراع راقٍ ويُفَقَدُ بقليل أو كثير من الأناقة. ولما كانت السياسة في بعض معانيها هي تدبير الشأن العام، وإذا كانت سلطة الكلام عموماً، والسياسي بوجه خاص، مشروطة بموازن القوى المتعددة التي تشكل إطار التفاعل ومقام التواصل، فمن الموائم أن تكف الدراسات المهمة بالتواصل السياسي عن الاهتمام بالإستراتيجيات الخطابية فقط، لتتعرف على الكيفيات التي يدبر بها الخطاب السياسي وعلى جميع العناصر والعوامل الفاعلة في المشهد- الفرجة: بهذا المعنى، يفترض تحليل التواصل عموماً، والسياسي بوجه أخص، النظر إليه وفيه "بصفته تشكيلة خطابية تشغل اجتماعياً وتتحدد بشروط إنتاج كاملة التعيين، وهو ما يحيلها إلى فضاء إشكالي بامتياز"¹ حسب عبارة د. "محمد البكري".

ث- تسخير السخرية والتراشق بمدافع التخوين

تعتبر السخرية نهجا جديدا في المشهد السياسي المغربي، بغض النظر عن المرجعيات التي تحرك كل فاعل من فاعليه: فالسخرية والروح المرحية لم تفارق خطابات وتصريحات رئيس الحكومة الأسبق عبد الإله بنكيران، في الوقت الذي يرى فيها البعض ضماناً لشعبيته، يرى البعض الآخر أنها نوع من أنواع صناعة الفرجة ولا تخرج عن حلقات جامع الفناء. أما رد فعل المواقع الاجتماعية على فكاهة بنكيران فقد تأرجح بدوره بين الاندهاش والإعجاب والسخط، على نحو جعل بعض الشباب المغاربة في موقع خاص يطالبون أياً ما قبل حلول شهر رمضان 2016 بالإستعاضة عن البرامج الفكاهية التي تبثها قنوات التلفزيون المغربي عند حلول موعد الإفطار بـ "قفشات رئيس الحكومة".

كما نشر آخرون على إحدى صفحات الإنترنت صورة مركبة لشخص بنكيران والشخصية الكوميدية الشهيرة "مستر بين": أما الدمية التي تجسد رئيس الحكومة المغربي في برنامج ساخر لأحدى القنوات التونسية فقد لاقت هي الأخرى نجاحاً لافتاً في المغرب، بنفس نجاح برنامج "ساس يسوس" الساخر في تسخير صوت بنكيران لإجذاب مستويات استماع قياسية وحلقات Le360.

وليس بنكيران هو الشخص الوحيد الذي يلهم المهتمين بالصفحات الساخرة على مواقع التواصل الاجتماعي أو البرامج الأكثر تتبعاً ومشاهدة، فقد استطاعت الفيديوهاات الكاريكاتورية لقناة 360 ان تجمع جميع أعضاء العائلة الحكومية، دون أن تسرق نجومية بنكيران.

ويدرك بنكيران أهمية تأثير الفكاهة على الجماهير، ويعتبرها عاملاً لرفع منسوب شعبيته. ففي لقاء حزبي علّق بنكيران على ذلك قائلاً: "فجأة وجدت نفسي موضوعاً للفنانين الذين يضحكون الناس. وأقول لكم إنه كلما كانت الفرصة سانحة سأعمل على إضحاكم، وأتمنى من الله أن تبقى أيامنا دائماً ضاحكة"، مشيراً في نفس السياق إلى أن وصول إشعاعه إلى القناة التلفزيونية التونسية من خلال التصريح بنفس الروح المرحية "فليكن! لا أرى مشكلاً في أن أصبح شعبياً حتى في تونس!"²

ويري عبد الوهاب الرامي، الأستاذ بالمعهد العالي للإعلام والاتصال بالرباط، أن "الكثير من رجالات الدولة في العالم يجنحون لمثل هذه الأساليب في التعامل مع العموم، إلا أن ما طبع مسار بنكيران هو أنه سلك نفس المنهج الذي لم تكن نجده في القسّمات الواجمة للسلطة. فلا عجب أن يحذوا بعض السياسيين من المعارضة حذً من خلال اللجوء إلى نماذج من السخرية أو الكوميديا: فالكوميديا تجعل السياسي موضوعاً للفرجة، أما السخرية فهي عبارة عن أسلوب يستعمله السياسي لتوجيه النقد اللاذع لخصومه"².

¹ محمد البكري، التحليل اللساني للخطاب السياسي: خطاب الحركة الوطنية المغربية نموذجاً، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا، الرباط 1992-1993، كلية الآداب، الرباط، مجلدان، تحت إشراف د. أحمد الإدريسي، كما أحالت عليه المؤلف في مجلة فضاءات مستقبلية، الدار البيضاء، العدد الرابع، ماي 1997، صص 4-14.

² عبد الوهاب الرامي، السخرية - نهج جديد في المشهد السياسي بالمغرب، المجلة الإلكترونية ماروك بريس، في نسختها الإلكترونية الصادرة بتاريخ 24 أكتوبر 2012

وإذا كانت السخرية تنجح غالبا في انتزاع بنكيران الابتسامات العريضة من أنصاره وخصومه على السواء كلما خاطبهم بسخريته المعهودة وطريقة انفجاره ضاحكا، إلا أنها تنجح أحيانا وتجرب عليه المتاعب، كما حدث في تجمع حزبي سخر فيه عبد الإله بنكيران من الحروف التي تكتب بها اللغة الأمازيغية، فآثار الفيديو بعد تداوله على الإنترنت سخط الحركة الثقافية الأمازيغية، فاضطر للاعتذار في نهاية الأمر، أو ما جرته تعابير تهكمية مراكشية للوزير الوفا على تلميزة من استهجان.

وعليه، فهناك سياقات تحتمل السخرية ومقامات أخرى لا تحتملها: فالحملات الانتخابية مثلا تكون عادة مناسبة لاستعمال هذا الأسلوب، وإن كانت تنزلق الى مستوى التنازب بين الخصوم السياسيين.

بدوره، يرى **أحمد البوز**، أستاذ العلوم السياسية بجامعة محمد الخامس بالرباط، أن "أسلوب رئيس الحكومة في التواصل يستهوي شريحة كبيرة من المواطنين، خاصة أنهم تعودوا على رؤساء حكومات في صورة مخالفة. لكن استمرار فعالية هذا الأسلوب رهين بما قد يتحقق على أرض الواقع. فتعثر الأداء الحكومي قد يخلق شعورا بالنفور من خطاب الفرجة، وقد يحول صاحبه إلى ممثل بالمعنى السلبي المتداول لهذه الكلمة في السياق المغربي"¹.

أما الباحث والبرلماني عن حزب الاتحاد الاشتراكي المعارض، **حسن طارق**، فقد حذر بدوره في مقال نشره² حول أسلوب رئيس الحكومة، مما أسماه "الانزلاق الفرجوي لحياة سياسة تريد الخروج من هشاشتها النبوية".

وفي نظر مبدع السخرية السياسية الهادفة (والمستهدفة أيضا) الفنان **أحمد السنوسي**، المعروف بـ"بزيز" الذي يطالب لعقود بفتح المجال له للظهور في قنوات الإعلام العمومي السمعي البصري بالمغرب ورفع "الحظر" على تعليقاته الساخرة واللاذعة، فإن "الناس يركزون كثيرا على السخرية في خطابات رئيس الحكومة.

من الناحية الفنية، لا أرى في خطابات بنكيران أية سخرية، بل فقط محاولات للإضحاك. لكن الناس لا ينتظرون منه أن يضحكهم بقدر ما ينتظرون منه حل المشاكل"³.

أما الكاريكاتير، كحليف فني استراتيجي لسخرية الكلمات، فقد غاب في المشهد الإعلامي وعاش الفقد بعج تجربة رسام الكاريكاتير المغربي يحسن "التير" والتصوير دون لغط أو تكثير أو تشهير، "خالد كدار"، الذي اضطر لإغلاق موقع الكتروني ساخر، بسبب "غياب ثقافة تقبل المواضيع التي تتناولها رسوماته بالنقد، حيث هناك من يرى فيها إساءة لأشخاص وتنظيمات".

ويرى كدار⁴ أنه "ليست هناك صحافة ساخرة في المغرب، والكاريكاتير يعتبر نقطة سوداء في تاريخ الصحافة المغربية، فأغلب المشاكل القضائية والتغريمات والعقوبات السالبة للحرية التي عاشتها الصحف وأطقمها، كان الكاريكاتير سببا فيها". ومع تأكيد بمعية الأستاذ **عبد الوهاب الرامي** على أهمية حرية التعبير، فإنني في نفس الوقت أدعو إلى ضرورة احترام أخلاقيات المهنة التي "تحول دون سقوط السخرية في مزالق الانتقاص من الآخرين أو التجريم بدون حجة أو النيل من الأعراض أو خدمة أجنداث سياسية دون أخرى".

1- أحمد بوز، المرجع نفسه

2- حسن طارق، المرجع نفسه

3- أحمد السنوسي الشهير بـ"بزيز"، المرجع نفسه

4- خالد كدار، رسام كاريكاتير مثير للجدل، سبق أن أطلق موفعا إلكترونيا وصحيفة ساخرة متخصصة في الكاريكاتير سماها "با، بو، بي"، وهو موقع لا يعترف بالخطوط الحمراء

ج- خطاب التحقير الآخذ بمسوح السخرية والتصغير

من مجمل تلك العلاقة الجدلية بين الخطابين لسياسي والثقافي وآلياتها ومبرراتها الزائفة يدخل خطاب التحقير بوصفه فضحا متبادلا لبنية المستبد والسلطة المطلقة، ولكنه في المقابل يدخله في حقل الثقافة المضادة لفنيته وبلاغته وحدته في التعبير عن الاحتجاج والصراخ في وجه الهزيمة والكرامة المفقودة والخيانة والبطش والتأله والاستغلال والاستعباد والنفاق والكذب على الماضي والحاضر والمستقبل.

فلغته السياسية المحقّرة قائمة على السخرية بالرسم الكاريكاتيري والتركيب اللغوي الساخر من الدلالات وكشف التناقض في المواقف والأسئلة الاستنكارية واللغة البذيئة الشائمة تفرّغا للغضب وإمعانا في الإهانة والإذلال واستصغارا للمحقّر والمدان.

غير أن السخرية تمتد إلى التعبير المشهدي الذي يستطيع رسامو الكاريكاتير رسمه بالكلمات مُحِين للمتلقّي بشكل القراءة التي تؤدي مؤداها اللاذع إن كان من خلال التكرار للمفردة أو من خلال تناقض دلالة التكرار مع دلالة الجمل السابقة.

في قولنا بـ "السلطة السياسية وخطاب التحقير"، نريد إبراز العلاقة التضادية بين السلطة المطلقة وخطاب التحقير الذي تمارسه المعارضة في رؤيتها للسلطة المطلقة التي لا يمكن أن تتسامح مع ذلك الخطاب ليس لأنه يكشف فسادها فحسب وإنما لتعريضها لها من ورقة التوت الأخلاقية وبعدها الاجتماعي، بما يؤدي إلى تقزيم رموز السلطة السياسية المطلقة الجاثمة على قمة الأحزاب وتجريدتهم من الأبعاد السلطوية الرمزية الجماعية ومخاطبتهم بوصفهم أفرادا يمكن لخطاب التحقير أن يُعري سلوكهم الأخلاقي والاجتماعي وبما لا يسمح بالتسامح معه .

إن خطاب التحقير وفق تلك الرؤية يصبح خصما لدودا للسلطة السياسية، إذ يحمل في طياته صيرورة زمنية دائمة ومتحولة في الآن نفسه: دائمة لأن التجريح والنعوت الجانية في هذا السياق تُلصق بالفرد وتُستدعى من الذاكرة الجمعية كلما دُكر المقصود، وتصبح الإهانة شخصية وليست جماعية وصفية لمرحلة من مراحل السلطة المطلقة بشكل عام، أما سمة التحول فمردها أنها تستدعي كل مرادفات الشتيمة في ذاكرة المتلقي.

وهنا أحيل بالنسبة لخطاب التحقير على الثقافة المضادة من خلال وصف خطاب التبريل المضاد والثقافة الرسمية التي تطرحها السلطة المطلقة وتعمل على تعميمها. وتقوم عادة على النقيض منها، إذ يكشف خطاب التحقير فساد الثقافة السائدة المطروحة من قبل السلطة المطلقة؛ ولأنه يكشف زيفها وفسادها فهي تخشاه وتلاحقه وتحاصره وتقصيه وتمنع تداوله وقراءته تحت حجج واهية ومزيفة وغير صريحة، تنال بشكل عام من أصالته أو رصانته أو فنيته - حين يكون منتميا لحقل الفن - أو جديته حين يتوسل بالهزل لتعميق رسالته التبليغية مشفوعة بالوجع والحرق والإحساس بالفجيعة

ولأن خطاب التحقير خطاب فاضح يعري المستور ويكشف المزيف ويغري بالتداول يكون حادا وعنيفا، حتى وإن أخذ بمسوح السخرية المُرّة ليكون أكثر تأثيرا وبعدا اجتماعيا، فإن لبلاغة خطاب التحقير في الادبيات السياسية ثلاثة مصادر:

- مصدر داخلي يتمثل بقدرته على التأثير وإثارة العير والنفير والنفور من الجهة أو الشخص

المحقّر؛

-ومصدران خارجيان، يتمثلان في قدرته على الانتشار وطبيعة المستبد المستمدة من معطيات الاستبداد والسلطة المطلقة وتأثيرها على الفرد المتمتع بها، إذ توهمه بالتفرد والعبقريّة والكمال حتى يكاد يشترك بالألوهية مع الخالق من حيث حرية التصرف وعبودية الخاضع

فقدرته على التأثير تأتي من بلاغته الداخلية ومساحات التلاعب بصيغ المجاز والتصوير والإيحاء والتورية، خاصة وأن الخطاب شفهي حر *La parole est libre la plume est serve*، ولغة التواصل فيه منحازة إلى التأويل والانفعال العاطفي.

أما قدرة خطاب التحقير على الانتشار فترتبط بالمجتمع العربي وطبيعته المولعة بفن الهجاء منذ العصر الجاهلي وصولاً إلى العصر الحديث بسبب بنيته القبلية والعشائرية القائمة على التفاخر ومقارعة الأغيار، حتى اشتهر أكثر الشعراء الهجاءون في مجتمعاتهم وتداول الناس أشعارهم.

ويذكر لنا تاريخ الأدب أسماء كثيرة في ذلك مثل النابغة الذبياني والحطيئة والأخطل والفرزدق وجريير وابن الرومي والمتنبي والشمقمق، فضلاً عن شعراء العصر الحديث مثل الزهاوي ومعروف الرصافي والجواهري والشاعر العراقي عبود الكرخي وآخرون ممن يجيدون الهجاء والتكيت والتبكيت بأفلامهم وينبشون ويحسنون تقليم أظافر من وضعتهم بنادق هجائهم أمام فوهتها لتقدح ذماً وتحقيراً.

ويبقى الفرق بين الهجاء والشتيمة في خطاب التحقير أن في الشتيمة عداً مستحكما ولا سبيل للمصالحة على عكس الهجاء في العصر القديم.

أمّا عن طبيعة المستبد وآلية تلقيه للفاضح يمكن القول إنها تنبع أولاً من اتخاذ القرار والموقف دون شورى قبلية، وبلا مساءلة ولا محاسبة بعدية: هذا النوع من السلطة يغري بـ "التأله"، فيتصور الأمين العام أو الكاتب الأول للحزب نفسه متمتعاً بخصائص النبي المرسل وصاحب الرسالة، والتي سيظل ماضٍ فيها حتى يقضى الله بقبض روحه، فلا يقبل الجدل في الأقوال والأفعال فكيف بالتحقير والإنكار والمطالبة بالمراجعة.

وعليه، فإن خطاب التحقير يزيل عن المستبد كل مسوغات بقائه في السلطة؛ لأنه تعري من الكمال والتأله وتساوى مع البشر بالعيوب والحسنات، فتصبح أقواله وأفعاله قابلة للمراجعة والتفتيش والإنكار والالتهام؛ مما يجرده من المعصومية، ويعريه بشراً سويماً مفضوحاً بفعله الظالم وقوله المنافق والمزيف وكذبه الموهوم بالعدل والإنصاف.

إن تلك العلاقة القائمة على النقيض ونقيضه بين التأله والتعري يتحوّل فيها تأثير خطاب التحقير من البعد الاجتماعي إلى البعد الفردي فيصبح الخطاب جارحاً للفرد / الحاكم المستبد، وتتحول المسألة إلى قضية شخصية تسيطر عليها غريزة الانتقام والتشفي بسبب فعلها الفاضح على المستوى الاجتماعي، مما يدفع المستبد إلى مزيد من العبث والتعنّت والجبروت والإبادة لفاضحه ومن يتداول خطابه وتغريمهم قضائياً والبحث عبثاً عن الثأر ممن استطاع التأثير على صورته وكاريزميته.

وفي المقابل، يتحول خطاب التحقير إلى خطاب سرّي لا يمكن تداوله في العلن أو طباعته أو تسويقه، فتكمن بلاغته في سرّيته وفي مفرداته الشاتمة والبذيئة وفي مصداقيته الفاضحة من دون تأدب، مما يزيد في انتشاره اجتماعياً على الرغم من منعه رسمياً، فيتحوّل إلى خطاب ثقافي مضاد بحجج البذاءة ولغة التحقير.

وتتحول السخرية مع استمرارها في رسم الفجيرة التي يراها في السلطات الحزبية إلى غضب حاد، حيث تبرز التناقضات في سلوك الأمناء العامون والمتمجدين والمحسوبين عليهم، مما يدفع بالمتلقي إلى قراءة الغضب حاملا شحنة استنكارية هازئة تحمل في طياتها التعرية وكشف المستور من نفاق وخيانة وابتزاز وفجور متبوع بالردة الأخلاقية والوطنية وبالتالي الدينية، والرد على الشائم وخطابات القذف والتجريح، لأنها نهاية النهايات ونهاية الكلام المباح.

ويعمد خطاب التحقير إلى أنواع شتى من التحقير كالتحقير الجنسي والأخلاقي والخلقي، ولا يشفع البناء التركيبي للخطاب التحقيري وحده بالشتيمة لأنه استخدم كل أساليب التحقير الجنسي والأخلاقي والخلقي والعقلي، لأنه يستعمل أسلوبا بلاغيا في مخاطبة العامة التي تتلقف الخطاب وتتداوله لأن فيه رسالة مفادها تعرية الزعيم الحزبي أمام مناضلي الحزب وأتباعه لحملهم على عدم إتباعه. كما أنه لا قيمة لأي خطاب تحقيري مجتث عن بعده الاجتماعي وحقل تداوله، لأن قيمته تكمن في بنائه الإشهاري وفي قوة مضامينه التشهيرية ودقة سوق الصفات القبيحة التي تدعوا إلى التنفير منه ونبذه في محيطه.

فالتحقير الاجتماعي يُصبح هو الغاية في أي خطاب تحقيري للسلطة المطلقة من قبل مطلقه، فالشتيمة الجنسية هي النيل من الحشمة الأخلاقية التي تحيط بالكائن الاجتماعي والشتيمة الأخلاقية تنال من الروابط التي تربط الكائن بمحيطه الإنساني والشتيمة التي تحط من قيمة العقل عند المشتوم تهدف إلى إقصائه من محيط القائمين على التسيير والتدبير... وفي كل تلك المدارات تأخذ لغة الخطاب التحقيري للسلطة المطلقة قيمتها من علاقة تلك السلطة بروابطها الاجتماعية الحاضنة لها رغبة أو رغما، فهي المقصودة بالتعرية والفضح ولذلك أهمية بالغة عند الحاكم والمتحكم والسلطان، فالفاضح يقطع عن المتسلط نبع سلطته بكشف الزيف والإتيان بالبرهان على علله وبالتالي سقوطه بعد إهانته.

من تلك السمات الخالصة التي يراها المستبد الحزبي في نفسه ينزل خطاب التحقير ليحفر في روابطه الاجتماعية ويقطع أوصاله فيصير معلقا في الفراغ ومجردا من فضائله وسماته وتألّه، إذ يكتشف أنه ليس وسيما ولا فصيحاً ومعتوها أو مريضا بالبله، صنع لنفسه نسبا بالبطش وشرفا بالتيه عن مناضلي حزبه، والتصق بالدين والأخلاق حماية لنفسه وليس للوطن والشعب، اعتمد الغدر والحرمان والاعتداء وسيلة للقيادة والإستبداد الحزبي بالجور والتحكم: فالفعل التحفيزي للتحقير الاجتماعي يأتي من حامل السلطة المطلقة ذاتها أيضا؛ في حين أن المستبد يرى في نفسه الفرادة في كل شيء، في الوسامة والفصاحة ورجاحة العقل وصواب الرأي والنسب والشرف والدين والأخلاق وحماية الوطن والشعب من الغدر والفقر والاعتداء وحق القيادة والحكم بالعدل والتحكم.

❖ ثانيا- الضحالة اللغوية والضالة المضامينية

للخطاب السياسي ارتباطات تتقلب به بين أطراف السياق، وينساق في انخراط دلالي يذل الخطيب السياسي ولا يدل أتباعه على طريق مستقيم أو موقف ثابت بسبب الالتباس الدلالي والضالة المضامينية والضحالة اللغوية. فالمشهور في مجال الدرس اللغوي قديماً وحديثاً عن "اللحن" أنه يتصل بقضية الصواب والخطأ في اللغة و"قل لا تفل"، وإن كان مصطلح "الخطأ" صار هو السائد بدلاً منه. وهذا معناه أن "اللحن" يطلق على الخطأ في الإعراب وبنية الكلمات واستعمال معاني الكلمات المفردة، أي الصرف والنحو واللغة بصفة عامة.

ومن الأمثلة القديمة الماثورة في هذا الصدد "أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه مرّ على قوم يسيئون الرمي فقرّعهم، فقالوا: إِنَّا قَوْمٌ متعلمين (هكذا بالياء وحقه الرفع بالواو) فأعرض عنهم وقال: والله لخطؤكم في لسانكم أشدّ عليّ من خطئكم في رميكم، سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: رحم الله امرأً أصلح من لسانه". وكذلك ما رُوِيَ من أن أحد ولادة عمر أيضاً - رضي الله عنه - كتب إليه كتاباً (أي رسالة) لحن فيه، فكتب إليه عمر: أَنْ قَنَعَ (أي اضرب) كاتبك سوطاً.

ورُوِيَ من حديث سيدنا علي رضي الله عنه مع الأعرابي الذي أقرأه المقرئ قوله تعالى من سورة التوبة: أَنْ الله بريء من المشركين ورسوله"، (بجر "رسوله")، حتى قال الأعرابي: أَوْ قد بريء الله من رسوله! فَإِنْ يكن الله بريء من رسوله فأنا أبرأ منه! فأنكر عليّ عليه السلام ذلك، وأوعز إلى أبي الأسود فكرة وضع النحو ورسم له حدوده الأولى كما يقال¹.

فقد لحن أحد الساسة تحت قبة البرلمان، وقال بأنه سيرفع جلسة الأسئلة الشفهية بسبب آذان العصر، والصواب "أذان"، لأن "الآذان" جمع "أذن"، وقال آخر "سوف لن يحضر"، والصواب "لن يحضر"، وغيرها من الترهات التي وثقها فيديو حول "أكبر فضيحة داخل البرلمان المرغبي وزراء لا يتقنون حتى القراءة".

كما قال أحدهم "كادت المدة المخصصة للنائب المحترم أن تنفذ (بالذال المعجمة)"، والصواب (تنفَذَ) بالذال المهملة، لأن المراد هنا معنى "الانتهاء" لا "الاختراق".

كما سمعت في خطاب زعماء الساسة على هامش أنشطة يشكون كل من "ساهم في الندوة"، والصواب "أسهم"، لأن المصدر المناسب لذلك هو "الإسهام"، و"السادة المستشارين" بدل "المستشارون".

كما يَرِد في الورقات التعريفية التي تنجزها الأحزاب عن مرشحيها لخوض الاستحقاقات كلمة "الإسم"، والصواب "الاسم"، لأن الهمزة هنا همزة وصل.

انطلاقاً من هذه الصور التي أوردتها لما صادفتها على طريق الإنصات لبعض الخطب السياسية أو المداخلات لقادة الأحزاب، يمكن القول إن اللحن في الاستعمال العام للغة بمعنى الخطأ في حروف الكلمة أو بنيتها أو الخطأ في الإعراب والنحو أمر مرفوض قطعاً، خاصة في أوساط قادة الأحزاب الذين يتهافون على الميكروفون ويعتلون المنابر دون اعتلاء صهوة الكلمة، لأنه خروج عن أصول اللغة وقواعدها وشدوذ في التعامل معها.

ولأجل هذا روي عن عبد الملك بن مروان قوله: "شيبني ارتقاء المنبر وخشية اللحن"، ولأجل هذا أيضاً كان خلو التعبير منه موضع افتخار واعتزاز؛ رُوِيَ عن الأصمعي قوله: "أربعة لم يلحنوا في جد ولا هزل: الشعبي وعبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف وابن القرية، والحجاج أفصحهم"².

كما يتعين على خطباء السياسة التحلي بالفطنة والقدرة على الاحتجاج وتصريف الكلام، وتجاوز التنظرف في الحديث بخلطه بالكلام الأجنبي أو الخطأ فيه أو استعمال العامية.

هذه كلها شواهد للحن القول، وهو معنى اهتم القرآن كثيراً بكشفه وبيانه.

¹ - ابن جني، الخصائص، مرجع سابق، ص. 10

² - أبو الفتح عثمان بن جني، مرجع سابق، ص. 10

وربما يكون المقصود من "اللحن" بهذا المعنى الكذب المتأصل لدى المنافقين، وتكون كلمة "الكذب" أقرب الكلمات من هذا المعنى بدليل كثرة وصف المنافقين بأنهم كاذبون، لكن لماذا أثر القرآن استعمال "لحن القول" في الآية التالية من سورة الأحزاب "وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا. وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا)؟"

لقد كان في هذا سر من أسرار التعبير فيه كأنه للفت الأنظار لمعنى الانحراف والميل والخروج عن الجادة الذي يكون في كل لحن.

والخلاصة أن "لحن القول" هنا تعبير قرآني لغويّ الإثارة، يدور تلقينا له في ثقافة اللحن وانحراف الشيء عن مقصده، وهو أيضاً موج وكثير الضلال، إذا كان الأمر كذلك، فهل يجوز لنا أن نأخذه من مجاله اللغوي والنصي هذا فنسقطه على السياسة والواقع ونربطه بهما؟

أرى هذا ممكناً بل واجباً يمليه الوعي الثقافي والضمير الاجتماعي وفقه ربط الواقع باللغة ونصها المقدس: وليس من شك في أن الحديث عن اللغة وقضاياها مهم، ولكن الأهم أن يكون ذلك عن وعي بخطورتها وسلطانها وجبروتها وعظم دورها في بناء الإنسان والمجتمع: أجل، جليل أن نسير في طريق الكتابة ويحاور بعضنا بعضاً، ولكن الأجل أن نحمل ونحن في طريقنا رسالة نبلغها للناس.

وبناءً على هذا، وبعد أن تيسرت لي حظوظ ملاحظة استمرار الإستعمال السياسي الشائنة للغة أو المحطم بصور تتجاوز المحظور والممنوع وتقع في وهاد اللحن والخطأ، أليس من الجليّ كذلك أن حياتنا السياسية المعاصرة ملأى بصور مختلفة من التكاذيب التي يروجها وينفثها فينا أصحاب لحن القول المحدثون؟ ألم تكشف عدد من المحطات الخطابية زيف اللغة الواصفة وصورا قبيحة لنفاق العصر عندما يسمى بعض الساسة التهور شجاعة، ويسمى من مات بعد محاولة انقلابية دموية فاشلة شهيداً؟ فأَيُّ القولين نصدق؟ برهان اللغة الساطع وسلطانها العادلة في قول الله عز وجل وحكمة الشاعر أم لغة السياسة الكاذبة الخائفة الذليلة، التي لسان حالها يقول "انذُنْ لي ولا تفتني" و"لا تنفروا في الحر" و"ذرنا نكن مع القاعدين" و"إن بيوتنا عورة"؟

إن رفضي أسوة بباقي محبي اللغة العربية لما يوصف بـ"لحن الإعراب والنحو" - هو رفض لما يسيء إلى اللغة ويريد أن يحطمها، ولا يعادل رفضي ذلك إلا رفضي رفضاً أشد "لحن القول" الذي يشي بالكذب والنفاق المتواريان وراء أفتنة السياسة وخبثها.

في سياق الحديث عن الضحالة اللغوي، أجد أن السياسة تحتاج إلى لغة سياسية للتعبير عنها، على أساس أن تختار هذه اللغة مفرداتها بدقة لتسهيل مرور كثير من المصالح وتحقيق العديد من الأهداف، بنفس حاجتها إلى لغة رصينة تخرجها من الرطانة والعامية والإبتذال.

❖ ثالثاً- استبدال الفصحى بالعامية ولحن القول اللغوي في المعترك السياسي

تتنازع خطباء الحقل السياسي المغربي الرغبة في استعمال العامية لاستثمار فعاليتها في التواصل مع عوم الجماهير، والخوف من السقوط في الإبتذال ومساواتهم بغيرهم من حاملي خطاب المنطق واختيار خلطها بنوع من "التفصيح".

في هذا الصدد، كان الدكتور محمد العمري ممن تطرقوا لموضوع الفصحى والعامية في نسج وكتابة الخطبة بعد أن أطرَقوا ملياً ونقَبوا بحثياً عن اقتضاءاتها المسبقة، والتي تقتضي القيام بدراسة ميدانية تتناول عينات من الخطب والخطباء لدى فئات الجمهور المستهدف قبل الحديث في فعالية العامية ومحاذرات الابتذال، وإن كان يرى مبدئياً أنه "يمكن النظر إلى الموضوع من زاويتين¹:

- زاوية المقامات الخطابية، من خلال النظر إلى الخطبة باعتبارها حدثاً تفاعلياً في الزمن والمكان، فالخطبة تلقى في جمهور في زمن ومكان محددين، أي جمهور بثقافة وأسئلة محددة. وهذا ما نسميه في البلاغة الحديث مُستمع على وزن مجتمع. ترجمة لكلمة *auditoire*؛

- زاوية مستويات العامية والخاصية (الفصاحة)، على اعتبار أننا نكون عادة بصدد الخطاب السياسي الذي قد يكون في جمعية ذات طبيعة انتقائية وقد يكون في جمهور ينزل منزلتها، وضعها. والسؤال موجه في الغالب إلى حالة الجمهور".

ويرى الأستاذ العمري أن الخطاب في الجمعيات يتجه نحو الفصحى الميسر (أي الفصحى المدرج)، حيث يهيمن السكون وحذف الروابط في إطار حرص الخطيب نفسه على تفادي الأخطاء عملاً بمقولة "أَجْزَمُ تُسَلِّمُ"، لأن ردف التزام الإعراب قد صار يعرقل انطلاق الخطيب السياسي خاصة في المغرب حيث يتم الانتقال من الفصحى العالمية ذات التقطيع الصرفي الحاد، والفحصى "المجودة" المغناة، إلى العامية المشوشة بمعجم خليط وعبارات ساقطة أحياناً من نوع "الشمكرية" و"الشفارة" لأنه يحمل معه شِفرة و"المشرملين"، فضلاً عن استبدال كلمات سائرة ومعروفة في العربية بكلمات غير عربية كاستعمال (مجموعة من الباندية، من البلطجية اللي اعترضوا الطموبيل بدل الذين اعترضوا السيارة، وتم نقل مغمى علي إلى السبيطار بدل المستشفى...) وما إلى ذلك من عقد "تذريح" العربية بكلمات وأنصاف جمل فرنسية.

هي معوقات يحاول الخطيب التخلص منها حين يواجه مقاما خطابياً محترماً فيضطرب ويرتج عليه: يمكن أن تلاحظ مثلاً كيف صارت هذه الدواخل تحول اليوم بين جمهور المغاربة وبين التدخل البسيط والسهل في المناقشات السياسية التي تجري في الفضائيات العربية.

الأدهى والانكى أننا نلاحظ كيف يضطرب الناس في الشارع، في أبواب الجامعات ودور العرض السينمائي حين يفاجئهم الميكروفون: فأكثرهم يقول كلمة أو كلمتين ثم يطلب الإعفاء والرحمة، لأن الكل مقتنع بأن اللغة الخليط غير مناسبة في التوجه إلى الجمهور، أي لا تصلح البتة للإدلاء بارتسام أو تصريح ومن باب أولى للخطابة.

إن هذا الانتقال الحاد من الفصحى إلى العامية (بمعنى الخليط المعجمي والضعف الحجاجي والمعاني الساقطة المجافية للذوق) هو المشكل حقاً: فقد عبر الأستاذ العمري عن حاجتنا للخروج من الهجنة والفاحش والركيك والسخيف "إلى لغة وسط تتلافى الصعوبات والنقائص المشار إليها في الفصحى والعامية على حد سواء"، على أن المسألة مرتبطة بمحاربة الأميات (بالجمع) مصادرة الإرادة والرأي.

بمنظار مستوى تشييد الخطبة بالنسبة للقائد السياسي، فإني لا أشيد بخطاب أي من الزعماء السياسيين أو النقابيين بالمغرب، اللهم إذا استثنيت بعض تدخلات فريق العدالة والتنمية بمجلس النواب وتدخل أحد البرلمانيين الذي ارتجل كلمة شكلت مدار تقاسم وإشادة واسعة في أوساط شبكات التواصل الاجتماعي.

¹ - محمد العمري، "الخطابة السياسية، أخلاق وتقنيات"، في حوار خص به حسن نجمي على صفحات جريدة الأتحاج الاشتراكي، في عددها المزدوج الصادر بتاريخ 04 أكتوبر 1999

وعليه، يمكن القول أن تجربة المغرب الخطابية تبقى جديرة بالتناول من زاوية ضيقة نكون فيها معنيين ومعياريين أكثر من كوننا واصفين، لأن خطباء المملكة أصبحوا يتوجهون إلى مخاطب مُضمر يقف رقيباً، أو يفترض أن يكون كذلك، حتى عندما يتحدث باسم الدولة، لأن مجتمع التلقي يُحاكم حتى المستوى التقني (أو الإخراج) بنفس محاكمته للمستوى المضاميني. يتعين تبعاً لذلك على الخطيب أو من يحسب نفسه أن يلائم بين الموقف والمقعد، فلا يتحدث المقعد نيابة عن الموقع، كي لا يَعتَ جمهور المناضلين الذين يستمد منهم قوته ومشروعية خطابه.

وتكون المهمة صعبة حين يحتاج الخطيب إلى إقناع الأنصار قبل الخصوم، أو عندما ينبري من بين صفوف الشركاء قبل الفرقاء من يستبدل خطاب التمجيد والتأييد بخطاب التفنيد، متهما بعدم التمثيلية دو أن يجد من القاعدة من يناصره، أو يضطر إلى شراء النصر فيفسد اللعبة كلها.

في اللحظات الانتقالية كالتى نعيشها، يرى محمد العمري أن "تدبيج خطبة أو إجراء حوار أو التعبير عن رأي في الأشخاص الفاعلين في الزمن الماضي، بالنسبة للمعارض القديم المتحدر من الحركة الوطنية أمراً دقيقاً، بل عسيراً: فهو مراقب بتاريخ الحزب وشعاراته، لا ينبغي أن يكون في الخطبة ما يشعر بالتكرار للتاريخ أو للشعارات حتى ما خرج منها من محك الواقع والتطبيق وصار جزءاً من التاريخ، لأن ذلك التاريخ مرصع بأسماء الرجال الذين ضحوا بالراحة أو الروح، أولئك الذين ترفع صورهم في التظاهرات"¹.

وعليه، تم توجيه دعوات لمعتلي المنابر لمخاطبة الشعب وخطبة وده ليقوموا بنقد ذاتي ويقوموا مستوى خطاباتهم حتى يمكن لهم أن يطلبوا الصفح من فصاحة اللغة العربية أولاً، لأن الصفح من أجل المستقبل ممكن ولكن لا مجال للنسيان، فالنسيان سذاجة بل انتحار، حيث أن هذه الحكمة هي التي عبّدها مانديلا منعرجا سياسيا بزواوية حادة أكثر مما يستوعبه العقل العربي المنتقم: إعادة قراءة التاريخ لا تتم إلا بخطى متوازنة متوازية، بتنازلات من كل الأطراف.

ليس من الخافي على خطباء اليوم أن عهد الشفوية قد ولى، وأن الأحزاب صارت فراغا وقاعا صفصفا من المثقفين، فحتى الخطب والحوارات الشفوية تسجل ويعاد الاستماع إليها عدة مرات فتصبح محاسبة كالمكتوب أو أشد: فالمقام والمقام العابر يصير مقاما مُقيما، وما ينظر إليه على أنه شأن داخلي، قد يصير بتدخل وسائل الإعلام ووسائله شأنا عاما، في ظل بقاء سطوة أصحاب الولايم ونكوص أصحاب العزائم الذين يُلزمون بالتبرك بسن وسنا الكاريزما المفترضة لزعماء الأحزاب من ذوي العمام.

هذه المناورات وجدتها في باقي خطابات الساسة وحتى دواوين رئاسة بعض الأنظمة الجمهورية في الأنظمة الرئاسية، كما سيتضح ذلك من خلال نموذجين للخطاب السياسي المخاتل والإنجاز اللغوية المخادعة.

❖ ثالثا- أزمة خطباء وساسة ومقتضيات الكياسة عند إنتاج الخطاب

استوردت الأحزاب السياسية منذ الأزل ولم تزل نماذج فشلت في إيجاد الحلول في بلدانها الأصلية لتحل مشاكلنا: فنجد عندنا أحزابا تدّعي الإنتساب للليبرالية والدفاع عن الحريات السياسية وتتبنى فكر المبادرة الحرة في المجال الإقتصادي، في حين نجدها محافظة أحيانا وأحيانا أخرى ترفع شعارات مناقضة للفكر الليبرالي كما حدده مفكروه وفلاسفته في الغرب، من قبيل شعارات كالكرامة والعدالة الإجتماعية والتوازنات الإقتصادية وشعارات تنتمي إلى قاموس آخر من إنتاج الفكر الإشتراكي الإجتماعي.

¹- محمد العمري، مرجع سابق

بالمقابل، تجد أن أحزابا حددت هويتها السياسية والإقتصادية من منظور اشتراكي، في حين نجدها من خلال برامجها الانتخابية تدافع عن قيم الليبرالية.

أما الفئة الأخرى من الأحزاب، فقد خطت لنفسها مساراً ثالثاً في الليبرالية أو الإشتراكية، لكن ممارساتها تعطي الانطباع بأنه طريق عشوائي مجهول المنطلق والمنتهى. الديمقراطية الإجتماعية أو الليبرالية الإجتماعية فشلتا في أمريكا مع كلينتون وفي ألمانيا وإسبانيا واليونان وغيرها، فتسببت في إرتفاع موجة الغضب ضد سياساتها العمومية.

وعليه، يُطرح سؤال التواصل الحزبي مجموعة من الإشكاليات المرتبطة بالظاهرة الحزبية المغربية المختلفة عن النماذج المقارنة عبر العالم، من حيث المحددات الفكرية الإيديولوجية والتصنيفية للتنظيم السياسي. ومرد ذلك إلى طبيعة النظام السياسي ككل، وإلى ظروف نشأته وتطوره التاريخي خصوصاً ما بعد الإستقلال¹.

فقد تناسل اللغط في الآونة الأخيرة عن أزمة الخطاب السياسي في المغرب، في شقيه الرسمي والمعارض إلى حد التخمة، لكن نادرة هي الدراسات المختصة في التواصل ونظريات الخطاب والحجاج التي حاولت مقارنة الموضوع وفق آليات التناول المعرفي، ف تعمقت الأزمة عندما طغى التحليل الإعلامي السريع والمسيج بالانتماء الحزبي والسياسي، وبتقلبات أطراف التدافع السياسي، دون فهم لعمق التدافع القائم، حتى أضحى هذا النمط من التحليل ميسماً يطغى على الفعل التواصلية في الفضاء العام، السياسي منه أو غير السياسي.

أول شيء تعلمته من علم النص وآليات تحليل الخطاب والتواصل هو ربط الفعل التواصلية بالسياق بنوعيه:

- السياق أو المقام الخاص؛

- والسياق الثقافي العام الذي يؤثر الأطراف الفاعلة بصفة عامة.

فالمتمتع للمفردات المستعملة في الخطاب السياسي سواء الرسمي أو المعارض يجده خطاباً دارجاً بلغة العامة والتواصل اليومي، ومفردات متدثرة بغطاء التمثيل الشعبي الشائع، تحيل على حقول دلالية متعددة، لذلك فمجرد ذكرها وبأسلوب خطابي خاص، يثير انتباه المواطنين في سياق يتسم بحدة الصراع بين قوى الإصلاح الديمقراطي والسياسي، وقوى الردة والنكوص إلى مسلكيات السلطوية والاستبداد.

هذا الواقع الموهل في الشعبوية يجعل المواطن يتابع المنتج الكلامي بمنطق فلكلوري، وأحياناً يحلله ويرتبط بالسياسة أكثر، وهو في حد ذاته أمر إيجابي يكسر في ذهن المواطن صورة رجل الدولة والسياسة الذي يتقن اللغة الرسمية والتي تنسج أليافها وتغزل تآليفها بعناية، ويجعل التواصل والقرب ميسر بين الطرفين.

غير أن استمرار اهتمام المواطن بالسياسة لا يصير ثقافة سياسية مستمرة، بل ينقطع بانقطاع هذه الذات والشخصيات التي تنتج هذا الخطاب أو بتغير مواقفها ومعها مواقفها.

¹ - Serge HALIMI, le temps des colères, dossier : fin de cycle pour la social-démocratie in le monde diplomatique, mars 2016, p p 1, 17 et 18.

من الناحية الوظيفية، لا ننسى أن أي خطاب سياسي يهدف إلى التأثير والإقناع، وتحكم الرهانات السياسية والرغبة في الإطاحة بالخصم واستمالة الرأي العام لإعتناق وجهة نظر معينة على حساب الأخرى، ووصد الباب أمام خطاب معين مؤثر في المجتمع لئلا يسود ويحقق السؤدد، مع الحرص على تدثير حامله بالسواد ونعتهم بالظلامية، في إطار تدافع أو تنافس سياسي واجتماعي بين الفاعلين المنتمين لمشاريع وتصورات فكرية مختلفة.

وقد علمني درس البلاغة العربية بدوره قاعدة "مراعاة المقام"، ومن خلال قاعدة لـ"كل مقام مقال" و"مراعاة مقتضى الحال"، فولجت إلى ما أناطه علم الخطاب باللغة وما أقر له بها من وظائف تأثيرية تعتمد أساليب وتقنيات مخصوصة في إبلاغ الكلام، وهو الأمر الذي يجعلني أتساءل حول الدوافع والحوافز الكامنة والمتحركة في إنتاج خطاب سياسي لا يخرج عن دائرة الأزيمة.

إن التفسير الأكثر دقة لهذه الصراعات اللفظية، هو استتراء حالة مزمنة من القصور الثقافي والفكري، وفقر الخيال السياسي لدى النخب المتصدرة للمشهد السياسي، وهي في الحقيقة صورة للتصورات والأنظمة الثقافية العامة المؤطرة للسلوك الجمعي؛ حيث تعتمل أنساق ثقافية جامدة، لا تعترف بقيمة الاختلاف والتواصل الحر الفعال في الفضاء العام، وفضيلة الحوار والإقناع والمحااجة العقلانية، وعدم امتلاك القدرة على إدارة التعددية السياسية والثقافية بالوسائل الملائمة.

هذا ما يجعل المنتبغ للخطاب المعارض والرسمي في سياقه الثقافي والسياسي العام، وللصحافة الوطنية وآليات اشتغالها، يصل إلى خلاصات مؤداها أن الفاعل السياسي عندنا لم يتحرر بعد من ثقافة سياسية قائمة على التنازع بدل التعاون، والاختلاف الشديد بدل الوحدة، والسلطوية والاستبداد السياسي بدل الديمقراطية والتداول السلس على تدبير السياسات العامة وفق نتائج صندوق الاقتراع، والقمع والإقصاء بدل الإعراف بحق الآخر في الاختلاف، ناهيك عن ثقافة سياسية قائمة على الزبونية والرغبة في التسلق السريع للسلطة والمحسوبية، بدل الكفاءة والحكمة في تدبير المؤسسات.

وليس أدل على ما سقته من تناقضات مما نشهده ولا نستشهد به من عدم تغير بنية الثقافة السياسية لدى النخبة، إلى حد الوصول إلى توظيف المرفوض في التواصل السياسي العقلاني، سواء تعلق الأمر بالسب أو الشتم ونشر المعلومات الكاذبة والزائفة والتشهير وتمويه الرأي العام واستخدام الإشاعات وتوظيف أساليب احتجاجية لا تحترم لا القانون ولا الذوق العام.

هذه الممارسات أعطت صورة حقيقية للمواطن حول النخب السياسية والحزبية التي يمكن أن تدبر شؤون الدولة يوما ما، ونزعت من قلب الجماهير ما كانت تختص به فاعلي الحقل السياسي من ثقة ومصداقية، حتى طفت خطابات مضادة تكرر العزوف، بل والإقلاع أحيانا عن العمل السياسي الذي يعوزه الإقناع. إن أزمة هذا الخطاب تكمن في فقدان السياسي المثقف، وهي صورة عن حاضر ثقافي وتعليمي مأزوم: فكل أزماتنا ناتجة عن الوهن الحضاري والتخلف الفكري والفقر الروحي.

وفي ظل هذا الوضع تضيق البرامج والمقترحات والبدائل والحلول، ولا نجد أي إبداع أو خيال سياسي قادر على التفكير الاستراتيجي في الإشكالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية، وبالتالي تغيب فكرة المواطنة، وتضعف الديمقراطية، وتتضاءل فرص تأسيس الأحزاب أو إسهامها على الأقل في بلورة أسس دولة حديثة للخروج من نفق التبعية والهشاشة، وشرنقة نموذج تنموي وديمقراطي معطوب تقصمه العيوب.

فالسيسي الذي لا يقرأ سوى الجرائد والمجلات، وذاك الذي لا يمتلك رؤية معرفية وتصورات فلسفية للمشروع الذي ينتمي إليه ويدافع عنه، لا يمكن أن يدافع عن البلد برمته.

أما السيسي الذي لا يمتلك الجرأة على ممارسة الاختلاف عمليا، وفضيلة الحوار والتواصل والاستماع والتعدد والتدافع المدني الحر للمشاريع المجتمعية، وذاك الذي لا يمتلك تكوينا علميا وأكاديميا جيدا، والسيسي الذي لا يعرف تراثه وتاريخه، وحتى وإن كان يمتلك الكفاءة والخبرة، يفتقر بدوره إلى قيم التخلق السياسي في حدوده الدنيا، فيغدو "سياسيا فقيرا"، لا يترك وراءه سوى القبح في الخطاب والممارسة معا.

إلا أن كلامي ليس عدميا ولا مطلقا أو يطلق على عواهنه، لأن هناك سياسيون مثقفون، يمتلكون الخبرة العلمية الموثقة، والقيم السياسية السامية، وطنيون شرفاء وعلماء، مارسوا ويمارسون السياسة بنبل، واقتضت بعض السياقات أن ينأوا بأنفسهم عن السياسة ويقطعوا مع ثغاء قطيع الساسة وغثاء السيل الانتخابي، لأنهم يمارسون السياسية دون تياسة دفاعا عن الكراسي، ويرفضون التناطح ويوثرون التناصح والتسامح، ويرفضون منطق توزيع الحقائق أو الظفر بها وغيرها من الممارسات التي تؤكد حاليات التحقيب السياسي.

بدوره، يعتبر ميلود بلقاضي، أستاذ التعليم العالي بكلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية بالرباط، أن رداءة اللغة السياسية وضعف التواصل السياسي عند بعض الأحزاب يعود لأسباب متعددة، أهمها "تراجع النخب المنتجة للأفكار داخل الأحزاب"، و"ضعف التكوين السياسي"، و"عدم التجديد في أدبيات الحوارات السياسية"، فضلا عن "عدم التشبع بثقافة ومنهجية مجتمعات المعرفة والإعلام"، و"استمرار بعض القيادات المعاقة فكريا وثقافيا وتواصليا على رأس بعض الأحزاب"¹.

وأضاف بلقاضي، أن العديد من الفاعلين السياسيين لا يميزون بين التواصل السياسي المبني على اللغو والثرثرة اللغوية، والتواصل السياسي المبني على الأخلاق والقيم وخطاب الشتم والقذف، مشيرا إلى أن "عالم السياسة هو عالم الخطاب السياسي، وهذا هو ما لم يفهمه الفاعل السياسي، الذي تربي على إنتاج خطاب سياسي، أفقد اللغة السياسية قيمتها وقوتها وجاذبيتها في صنع رأي عام يحترم السياسة والأحزاب والفاعل السياسي ذاته"، ليتوصل انطلاقا من هذه الزاوية إلى أن "السياسة والفاعل السياسي المغربيين، في حاجة لتعاقد جديد مع التواصل السياسي لإعادة الاعتبار إلى السياسة ذاتها، وتحريرها من يد زعماء سياسيين اختزلوا التواصل السياسي في القذف والسب والشتم، لينزلوا به إلى الدرجة الصفر في عصر مجتمعات المعرفة والإعلام".

كما أكد بلقاضي في مقال له نشر أيضا بموقع "هسبريس"، أن جوهر التواصل السياسي يكمن في كونه "شكلا من أشكال العمل السياسي، له أدوار مختلفة منها تحديث الفضاء السياسي العمومي، صناعة الرأي العام إذا ما تم الاستثمار فيه بكيفية سياسية مسؤولة، لكنه يصبح خطرا على السياسة ذاتها حينما يتم توظيفه كوسيلة للترشق بالألفاظ الساقطة وتبادل التهم المجانية والتشكيك والتخوين والتجريم والتجريح، والضرب تحت الحزام والابتذال وشيطة الآخر، ليصبح التواصل السياسي أحد افتك أدوات قتل السياسة والفاعل السياسي ذاته"².

¹ - ميلود بلقاضي، "رداءة الخطاب السياسي نتاج لاستمرار بعض القيادات المعاقة فكريا وثقافيا وتواصليا"، في مقال صادر بجريدة هسبريس بتاريخ 12 أكتوبر 2015

² - ميلود بلقاضي، نفس المصدر

❖ رابعا- التباس الموقف وتلبس خطاب الأحزاب وأدائها التواصلي

على مستوى التصريف الخطابي والتخريج، وجدتني بحضرة تجاذبات خطابية وانجذاب ثاوي بين خطاب رافض لعدد من المنتجات الاجتماعية، للأفراد وعدد من سلوكاتهم، للنصوص القانونية أحيانا أو لتوجهات سياسية أو قرارات صادرة عن جهاز الدول، وما بين خطاب متطابق مع المنتج الموقف التقريري الرسمي، خصوصا فيما يتعلق بقضية الوحدة الوطنية من دون إبداع أفكار جديدة أو مذكرات أو مرافعات دفاعية براغماتية، أو ما بين خطاب للملائمة مع العهد الجديد وخصوصياته المطلوبة والبشرية المتميزة بجيل الشباب والنساء عبر تمثيلية الفئة الأولى وحتى مبدء المناصفة مع الثانية La parité، مما سبب إرباكا لجل الأحزاب لعدم قدرتها على ملائمة خطابها وأفكارها مع الوضع الجديد.

كل هذا يعقد عملية تفكيك وتحليل خطابها في تواصلها مع الجماهير ويبسر سبل التوجس والتشكيك. من هنا يمكن القول أن اللبس والغموض في تحديد هويتها بشكل دقيق إنعكس على أدائها التواصلي.

وقد نجدها أحيانا كثيرة تتخبط في قواميس لا تمت للمتن الخطابي المغربي ولا لحياتنا اليومية بصلة (البلطجية، الطابور الرابع، عراب الحزب..)، وغير متصلة البتة بالأفكار التي وضعتها في أوراقها المرجعية ووثائقها الحزبية.

فإذا كان التواصل السياسي يتجاوز مجرد كونه امتلاكا للوسائل المادية والتقنية التسويقية، ليقضي حرفية في عملية صناعة الخطاب والمواقف وملاءمتها مع الفئات المستهدفة داخل مجال جغرافي محدد باستعمال تقنيات مفتوحة لهذه الفئات، فيعبر بذلك عن عملية تفاعلية من خلالها يفتح التنظيم على بيئته العامة لبسط رؤاه وأفكاره وهويته أمام المواطنين تحديدا، فإن التواصل وعملياته يقتضون بداية تحديدا وتجديدا مستمر للخطاب ومستوياته وموضوعاته، وفق دراسة للمجال وانتظاراته، وتشخيصا مسبقا أو ثاويا أو لاحقا لتلك الانتظارات.

في هذا الصدد، يمكن للمتتبع الفطن أن يلحظ أن الأحزاب المغربية تكاد تنتج وتمارس نفس الخطاب ونفس اللغة الجوابية على مطالب المحيط العام، فلا تحمل عموما أي شحنة إيديولوجية واضحة ومحددة المرجعية من شأنها حفز المواطن وشحن الكفاءات على الإنخراط السياسي.

فالكل يتكلم عن الفساد، دون أن ندري هل يوجد فساد بدون مفسدين في غياب عرض أي منهم لمواجهة مصيره أمام العدالة أو مسؤوليته أمام الدولة.

كما أن جل الأحزاب تتحدث عن الشباب، ولا ندري من يساندهم فعلا ووفق أية منهجية في الدعم، ومن يبتزهم ويستصغرهم ويكتفي باستمالتهم كأصوات ناخبة.

كما أن الكل يتحدث عن الفقر والبطالة والتنمية، دون أن يفكك أحدهم منظومة التفجير.

لذلك، وجدتني بصدد معالجة خطابات أغلبها أقرب إلى أن تكون مجرد شعارات وعناوين وإعلانات نوايا منها إلى مشاريع قابلة للتناول التطبيقي.

فخطاب الحزب ينبغي أن ينقسم الى شقين:

- **شق مذهبي** يحمل تصورا واضحا ودقيقا ومتميزا عن باقي الفاعلين للقضايا العمومية، للإنسان والمجالين العام والخاص، رؤية واضحة لأدوار المؤسسات ومرافق الدولة وبنياتها المتنوعة، أفكاره عن السلطة والسياسة من ينتج الآخر السلطة أم السياسة؟ ثم نظرة لا لبس فيها حول المجتمع الذي يريده التنظيم، ومن تم إنتاج نظراته لتفرعات المجتمع وشعبه كالمدرسة والمحكمة والمستشفى والمقولة وغيرها.

- **وشق خطابي** صرف يبلور مشاريع التنظيم الإجرائية وأجوبته لملامسة الطلبات الواردة عليه والمشخصة سابقا، في انسجام تام مع الأرضية الفلسفية والفكرية والمرجعية النظرية والهوياتية التي يوافق عليها أعضاؤه وهياكله التقريرية او التشاورية. وعموما، يتحمل الخطاب السياسي الحزبي مسؤولية الإجابة على سؤال الهوية والمرجعية في مرحلة أولى، قبل أن يعهد إليه بعد ذلك بالإجابة على أسئلة العمل ومستوياته المؤسساتية والمعارية.

الملاحظ في بلادنا أنه أصبح هناك تسابق بصيغة الهرولة للتهافت سرعان ما يتحول إلى صراع من أجل إشباع رغبة الظهور في الإعلام السمعي البصري، ظنا من السياسي أنه الوسيلة الوحيدة الناجعة لتلميع صورته أو تبييضها خصوصا إذا ارتبط اسمه بمشاكل عمومية أو فضائح تدبيرية، خاصة بمناسبة الأسئلة الشفهية التي تبث مباشرة من البرلمان.

ولئن كانت بعض الأحزاب ببلادنا قد وفقت إلى حد ما في الإجابة على سؤال الهوية، فإنها ظلت تتخبط في الإجابة على سؤال العمل والإنتاج.

في المقابل، نجد أحزابا أخرى لم توفق لا في ذا أو ذاك، وظلت تترنح ما بين التسوق في "البزارات السياسية الأجنبية" من شتى أروقة الأفكار والأدوات من دون ملاءمتها مع الواقع المغربي وما بين البحث عن ذاتها في التربة المغربية، الشيء الذي يجسد صراعا خفيا بين أحزاب الأدوار الإجتماعية الكبرى التي تنظر لأعضائها كمناضلين حقيقيين بصفة دائمة ولا يمكن التفريط فيهم، وأحزاب المهام les missions التي تعتبرهم مجرد زبائن مرتبطين بها ومتغيرين حسب ظروف الزمان والمكان وحسب الحاجة إليهم لردع أحزاب الأدوار الرسالية.

وعموما، في غياب خطاب واضح عقلائي وواقعي محدد المرجعية والأهداف والوسائل، وبعيد عن العنف اللفظي والدلالي، لا يمكن إلا أن يكون تواصل الأحزاب مجرد ظهور حكواتي غير جدي، نتائج غير ملزمة وغير ملتزمة أصلا، مما يفقدها نسبيا المصداقية والثوقية في عيون المواطنين.

ويعتبر فقدان الخطاب الحزبي لمصداقيته إحدى مقدمات ظهور العمل السري والتنظيمات مجهولة الهوية والعقيدة السياسية لتأطير المجتمع وفق منطق غير مألوف، بالعزف على أخطاء وفشل الأحزاب السياسية وعزوف الناخبين والمناضلين عن مقراتها وانشطتها.

من خلال تتبع الوظيفة التواصلية للأحزاب، يمكن أن استخلاص مجموعة من الملاحظات المهمة على مستوى استعمال الأدوات التقنية وحتى المهنية المتعارف عليها كونها في مجال التواصل السياسي الجماهيري غياب بنيات دائمة تعنى بتدبير التواصل السياسي لدى العديد من الأحزاب، يُعهد إليها بوضع خطط للتواصل plans de communication.

ويفترض في خطاطات ومخططات التواصل أن تبلور إستراتيجية تواصلية للتنظيم، تشتمل تحديدا للوسائل وصوغا للرسائل وبناء للمواقف المطلوب تعميمها وتلك التي يجب تعمد تعميمها، مع رسم أهداف الإستراتيجية التواصلية، والفئات المستهدفة، وتحديد الموارد البشرية والفاعلين المتدخلين في عملية التواصل، مع تحديد المجال الجغرافي للعملية، وبرمجة العمليات التسلسلية لاستراتيجية التواصل، وتقييم التكلفة المالية للعمليات، وأساليب تدبير العمليات من المركز أو من الأقاليم، وطرق تقييم وتتبع العمليات التواصلية وأداء مختلف الفاعلين والمعبئين في البرنامج التواصلية.

كما يتعين عدم إغفال الشروع في عمليات إختبارية داخلية قصد تشخيص مكامن الخلل وتقادي نقط الضعف وتجريب الجاهزية، إضافة إلى وضع جهاز بشري لليقظة والإنذار المبكر لتدبير الأزمات والمخاطر والقيام بالمتعين قبلها، كلما عُنَّ نذير خطر يتهدد صورة الحزب أو تصور الناس له، وبعديا لترميم وإعادة بناء صورة التنظيم، والعمل على تحويل كل تهديد إلى فرصة سانحة للتواصل الجيد والظهور في شكل جديد بعد تسطير مخطط يتوزع بين خطاطات وخطابات وقنوات يحيط بها علما ما يعرف في الأدبيات بتواصل الأزمة communication de crise.

كما أن طبيعة جمهور التلقي التي طالما رددناها في جميع تضاعيف الأطروحة لمحوريته تقتضي اختيار التقنية التي تعتمد عليها الفئة المرجعية المستهدفة، مع تحديد الحيز الجغرافي الحضري والقروي، والمدن الكبرى والصغرى، والمناطق الصناعية والفلاحية، والفئات الاجتماعية والمهنية في إطار التواصل المهني communication professionnelle وبين مختلف الفئات العمرية في إطار ما يُعرف بالتواصل الجيلي communication générationnelle أو بين الأجيال communication intergénérationnelle (خاصة وان جل الأحزاب المغربية لها شبيبته وشيبتها)، مع اختيار المتدخلين وتدريبهم على التحدث لفئات معينة وبطرق معينة.

هذا يجرنا للحديث عن افتقاد معظم الأحزاب للبنيات (والنيات) التواصلية العلمية، فكتفي بتواصل عشوائي غير منتظم وغير علمي، بلبوس موسمي ناظمه استمالة الناخبين وضمان أصواتهم.

❖ خامسا- جدلية إشهار المنتج السياسي الإستهلاكي والتشهير بمنتج الغير

ترتبط الملاحظة الأولية بالعدد الكبير من المنتسبين للسياسة والأحزاب الذين لا يميزون بين التسويق السياسي وبين التواصل السياسي: فالأول جزء من الثاني ومكمل له وليس غاية في حد ذاته، لأن التسويق السياسي يرتكز بالأساس على خلق الحاجة لاستعمال منتج معين، مستعملا أدوات "تجميلية" تكميلية تعتمد بالأساس على الصورة وعلى الإشهار.

والملاحظ في بلادنا، أنه أصبح هناك تسابق بل تهافت وأحيانا صراعا حادا من أجل إشباع رغبة الظهور في الإعلام السمعي البصري، ظنا من السياسي أنه الوسيلة الوحيدة الناجعة لتلميع صورته أو تبييضها خصوصا إذا ارتبط اسمه بمشاكل عمومية أو فضائح تدبيرية الشيء الذي قد يعطي نتائج عكسية على شخصه وعلى التنظيم الذي ينتمي له، وأن ابتعاده عن الظهور قد يكون أسلم له ولحزبه.

ويستعمل أيضا عدد من القياديين الحزبيين التسويق السياسي عبر وسائل الإعلام من خلال أداة الإشهار المقارن *publicité comparative* لمقارنة أنفسهم وأحزابهم بمنافسيهم، فيستعمل هذا النوع بطريقة قذحية وتقذح بنادق الهجاء زنادهاء، في الوقت الذي كان يفترض فيه أن يكون مناط المقارنة بالأفكار والمقارنة المستندة على سجل المنجزات.

وتلجأ عدد من التنظيمات إلى الخبراء ووكالات خاصة للتواصل والإعلام، لتلميع صورة عدد من القياديين، الشيء الذي يُعد مكلفا على المستوى المادي ويخلق نوعا من الإتكالية وإقصاء للكفاءات داخلها، إضافة إلى كون خدمات هذه الوكالات لا تتجاوز تقديم الدعم التقني ولا يمكنها القيام مقام الحزب لصناعة خطابه وأفكاره.

وبذلك، فهو إضاعة للموارد وهدر للزمن وإقصاء للطاقات الداخلية في غياب المانع من خلق وكالة خاصة داخلية متمتعة بنوع من الإستقلالية، من بين أطر التنظيم وتحت رقابته المباشرة.

ويتناسى كذلك عدد من السياسيين أن هناك وسائل أخرى أكثر فاعلية لتسويق الصورة أو الفكرة والبرنامج، يتصدرها التواصل المباشر مع عموم المواطنين باستهداف فئات معينة عبر العلاقات العامة وكذلك عبر القرب عن طريق وسائل التواصل الإجتماعي، لنزع فكرة الهالة عن المسؤول مثلا، والدخول في عملية تواصل مباشر في إطار سؤال جواب، والتفاعل مع أفكار الفئات المستهدفة، أو عن طريق الإنفتاح على فئات مهمة في المجتمع لها قدرة متميزة على التواصل والإقناع كالجمعيات المدنية ورواد الفنون والمسرح وغيره.

فالسياسي شأنه شأن أي منتج إجتماعي خاضع لارتفاع قيمته وأيضا للكساد واليوار وفقدان القيمة وفقدان رصيده السياسي الرمزي، الشيء الذي يجعل "المستهلكين" بلغة التجارة أو "الناخبين" بالمنطق الانتخابي الموسمي ينفرون منه نحو منتج آخر يحمل علامة حزبية أخرى أو الانقلاب عليه. وللتواصل السياسي داخل التنظيمات والمؤسسات قواعد ومعايير علمية وضعها الخبراء والمختصون وأكدتها التجارب.

وبشكل موجز، لا يمكن للحزب أن يتواصل خارجيا مالم يصل درجة الوصال والإتصال الداخلي مع منتسبيه ومناضليه والمتعاطفين معه.

وعليه، لا مفر من تواصل داخلي منظم ومهيكل، يهدف إلى تدبير جيد للمعلومة *knowledge management* وإلى تحفيز المناضلين ورص الصفوف وتعزيز الوحدة الداخلية وضمان وفاء والتزام المنتسبين له واستيفائهم لشروط الوفاء للتنظيم السياسي أو النقابي.

هنا، يتعين أيضا وضع خطط لتدبير الأرشيفات الحزبية الداخلية، التي تعد ذاكرة الحزب وتراثه الشيء الذي تفتقده كل الأحزاب المغربية بدون إستثناء، حيث يصعب إيجاد وثائق وأرشيفات منظمة بالطريقة العلمية سواء لمراقبة عمل قيادة الحزب وقراراتها أو للتتبع الإعلامي الصحفي أو للبحث العلمي من أجل إنضاج التجارب التدييرية الداخلية والبحث عن حكمة حزبية حديثة.

وهناك أحزاب تاريخية عريقة ليس لها ذاكرة ورقية بسبب الإهمال والإتلاف العشوائي أحيانا والمدير أحيانا، خصوصا فيما يتعلق بالوثائق المالية والمحاسبية ومحاضر الجموع العامة العادية والإستثنائية: فالأرشيف المنظم يسهل عملية الولوج للمعلومة وعملية توصيلها للمناضلين ولا يمكن الحديث عن معايير للولوج للمعلومة في غياب المعلومة المنظمة أصلا.

وبالرجوع إلى أبحاث كل من "دافيد إيستون"¹ و"كارل دوتش" و"غابرييل الموند"، نجدهم خلصوا إلى أن "الاتصال السياسي يُعد من أهم الضروريات التي يجب أن يتبعها الحزب في عمله، وهو وسيلة الحزب الإيجابية التي من خلالها يبقى على تواصل مفتوح مع الجماهير الشعبية، من جهة، ومع أطره، من جهة ثانية، من خلال اجتماعاتهم الحزبية ومناقشة مختلف المشاكل الاجتماعية والاقتصادية التي تحتاج إلى حلول وإبداء مقترحات مختلفة لمعالجة بعض المشاكل التي تواجه الحزب في تدبيره للشأن العام"².

هذا هو مفهوم التواصل السياسي الإيجابي، الذي يتم عبر فتح قنوات الحوار الحزبية، كجريدة الحزب وتنظيم ملتقيات علمية بمقراته وعقد تجمعات خطابية والقيام بدراسات وتأسيس لجان علمية للبحث. إلا أن ما يلاحظ على الأحزاب المغربية هو أنها سخرت وسائل الاتصال التي بحوزتها كـ"أبواق" هجومية تشن من خلالها حروبا كلامية على باقي مكونات المشهد الحزبي.

كما ينبغي أن يقوم التواصل الداخلي على خطط عمل واضحة بدقة، وينبغي على استعمال رشيد وعقلاني للوسائل التقنية.

أما فيما يتعلق بالتواصل الخارجي، فينبغي لزوما أن يصاحبه الفعل والعمل وأن يخرج من دائرة قطع العهود والوعود وترويج الأوهام والإستيهام، والعمل بالمقابل على استئلام بعض نماذج صياغة خطابات قوية ومتناسقة وعقلانية.

أما الجرائد التي تشكل لسان حال الأحزاب، فلها كلفة مادية وبشرية لا طائل سياسي من وراءها، لأنها لا تُستعمل الإستعمال الأمثل في الوقت الذي قد تكون مصدر قوة للأحزاب إذا تبنت خطابا واضحا أكثر واقعية وملائمة لهموم المواطنين وتساؤلاتهم، وتم حينذاك اعتمادها كأداة فعالة للتواصل والتسويق السياسي.

خلاصة القول، أن الأحزاب المغربية -وإن امتلكت الأدوات العصرية للتخاطب والتواصل مع الجمهور-، مازالت تقتقر إلى القدرة على إنتاج الخطاب وبناء خطط مُهيكلّة لتمريره، طالما لازالت عاجزة عن إفصاح وكشف هوياتها السياسية والفكرية الحقيقية.

حديثي عن غياب خطاب سياسي يدفعني للوقوف عند مسألة غياب خطباء سياسيين، وغياب معجم سياسي للتنافس النظيف.

المطلب الثالث/ إنشائية الخطاب من خلال غياب المشينة والسلبية والإستيلاب

يحمل الخطاب الحزبي جميع خصائص الإنشاء، وفق الفهم المصطلحي لكلمة "إنشاء" التي تحيل على كل كلام لا يحتمل صدقاً ولا كذباً لذاته، وينصرف إلى ما لا يحصل مضمونه ولا يتحقق إلا إذا تلفظت به، لأن طلب الفعل في "افعل" وطلب الكف في "لا تفعل" وطلب المحبوب في "التمني" وطلب الفهم في "الاستفهام" وطلب الاقبال في "النداء" كل ذلك ما حصل إلا بنفس الصيغ المتلفظ بها، ويشمل أنواعا خمسة هي: الأمر، والنهي، والاستفهام، والتمني، والنداء.

¹ - دافيد إيستون David Easton من أبرز المفكرين السياسيين المعاصرين الذين ساهموا بشكل واسع في مجال تحليل الظواهر السياسية، وكذلك من أهم الأكاديميين المتخصصين في تحليل النظم السياسية، حيث وضع النموذج التحليلي المعروف باسم نموذج "المدخلات والمخرجات" Inputs and Outputs وفق استعمال وظيفي

² - عبد الغني السرار، أزمة الخطاب السياسي لدى الأحزاب المغربية، مقال منشور بجريدة "المساء" في عددها الصادر في فاتح غشت 2013

1- **في الأمر:** رغم أن الأحزاب لا تملك سلطة الأمر على مناضليها ومنخرطيها، فأنها يمكن أن تمارس فعل الإيحاء لطلب حصول الفعل من مخاطبيها ضمن جمهور التلقي. فإذا كان القائد العسكري في الثكنة يوجه أوامره بنفس توجيه صاحب الجلالة القائد الأعلى للقوات المسلحة الملكية أوامره في الأمر اليومي على وجه الاستعلاء مع الإلزام، فإن مرد ذلك أن الأمر يعتبر نفسه عالياً ممن هو أقل منه شأنًا، تحت طائلة نسبة الأمر إلى سوء الأدب إن لم يكن عالياً، واشتراط الاستعلاء بهذا المعنى يفيد إيجاباً في الأمر، ولا يوجب الاستمرار والتكرار والتلبية والتنفيذ على الفور عند النداء، مع مراعاة أن يكون الأمر استعلاء مع الأدنى، ودعاء مع الأعلى، والتماساً مع النظير.

ولو عمقت البحث فيما يراد بصيغ الأمر في التراكيب التي ألفيتها في الخطاب الملكي وكذا في الخطاب السياسي والديني، لألفت فيها من كل معنى ما يجعل الخطاب الملكي شاملاً لتلك الصيغ (باستثناء صيغ الإهانة التي يعف الخطاب الملكي عنها كما سبق بيان ذلك).

بالمقابل، لا أجد في صيغ الأمر التي ترد في الخطاب السياسي حضوراً لمعاني الدعاء (لعدم تبني خطب وعظية أو خطابات إرشادية) والتأدب والتأديب، والتعجب (الذي يرد على سبيل الإستهجان في العديد من البلاغات والتصريحات)، والتعجيز (تبخيس العمل الحكومي من طرف فرق المعارضة مثلاً والتشكيك في رؤية 2020 للسياسة) والإباحة (إباحة خطاب سياسي لحزب معروف زراعة القنب الهندي) والاكرام (لأن الأحزاب لا تمنح امتيازات أو مشاريع لعموم الساكنة أو منخرطيها غير مهام التأطير ولا تقدر على تأليف المواطن بالعطايا)، والتخيير (لأن كل حزب بما لديهم فرحون، فكل حزب لا يرى وجود من هو أحق من تشكيلته السياسية "وكل بما لديهم فرحون")، والامتنان (باستثناء بعض خطابات الأحزاب التي راعت التعبير عن شكرها وامتنانها للناخبين الذين صوتوا لصالحها ووضعوا ثقتهم في مرشحيها، كما هو الشأن بالنسبة لحزب العدالة والتنمية عند تصدره للمرة الثانية للانتخابات التشريعية)، في مقابل حضور لافت لمعاني وألفاظ الإهانة والدوام في السلطة والتمني والإذن للمنخرطين بتبني سلوك ما (تارة بشكل تحريضي كما في بعض دعوات اليسار).

ما أوردته بشأن صيغة الأمر يستقيم مع صيغة النهي.

2- **النهي:** هو طلب الكف عن الشيء على وجه الاستعلاء مع الإلزام، بصيغته الواحدة والوحيدة التي يجسدها المضارع المقرون بلا الناهية، والتي يمكن أن تخرج عن هذه الصيغة إلى معانٍ آخر تستفاد من سياق الكلام وقرائن الأحوال، فيكون النهي كما الأمر استعلاءً مع الأدنى، ودعاءً مع الأعلى، والتماساً مع النظير.

كما ألفت تبانياً في المعاني ولأغراض على مستوى صيغ الإستفهام التي ترد في الخطابات.

3- **الإستفهام:** يحفل الخطاب السياسي والنقابي بصيغ الإستفهام، وبأدواته، فتارة هناك ما يطلبه السياسي من منتسبي حزبه بالهمزة، فتد مرة بهمزة يطلب بها التصور ومرة أخرى يروم بها التصديق.

ما هو التصور؟ وما التصديق؟ ما الفرق بين همزة التصور؟ وهمزة التصديق وهل؟ ماذا يطلب بأدوات الإستفهام غير الهمزة وهل؟ ما الذي يطلب بمن؟ ما الذي يطلب بما؟ ما الذي يطلب بمتى؟ ما الذي يطلب بكيف؟ ما الذي يطلب بكم؟ ما الذي يطلب بأيان؟ ما الذي يطلب بأي؟ ما الذي يطلب بأي؟ فضلاً عن العديد من المعاني التي يخرج إليها استخدام أدوات الإستفهام في الخطاب السياسي والنقابي عن معانيها الأصلية.

فالاستفهام هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل وذلك بأداة من إحدى أدواته الآتية: الهمزة، وهل، وما، ومتى، وأيان، وكيف، وأين، وأنى، وكم، وأي.

وتقسم بحسب الطلب إلى ثلاثة أقسام:

أ. ما يطلب به التصور تارة، والتصديق تارة أخرى، وهو – الهمزة؛

ب. وما يطلب به التصديق فقط، وهو – هل؛

ج. وما يطلب به التصور فقط، وهو البقية الباقية من ألفاظ الاستفهام.

وترد أيضاً بأغراض تتباين بين التوبيخ والتعنيف، التوبيخ والتأنيب، التمني أو استنهاض الهممة بالنصح.

على اختلاف صيغها، تأتي أدوات الإستفهام في الخطاب السياسي بمعنى الكيف ("أنى لنا استرجاع ضيعات سوديا وسوجيطة التي فوتت للخواص")، وبمعنى من أين (كقول أحد النقابيين في مهرجان خطابي شبه فارغ "أنى للسيد... هذا، ونحن نعرف ان رأس ماله كان حذاء رياضيا")، أو بمعنى متى ("المقرات الإقليمية للنقابة مفتوحة في وجه المناضلات والمناضلين، زوروا أنى شِئْتُمْ").

كما وردت في عدد من السياقات الخطابية السياسية والنقابية للاستفهام الكمي وتعيين عدد مبهم (كما أورد أحد النقابيين للتهكم على المهرجان الخطابى لزعيم نقابي آخر صعد منصة بدون جمهور بالقول "كم كان معه من مناضلي نقابته").

وقد خرجت ألفاظ الاستفهام عن معناها الأصلي (وهو طلب العلم بمجهول)، فاستفهم بها عن الشيء مع (العلم به) لأغراض أخرى تُفهم من سياق الكلام ودلالته – ومن أهم ذلك الأمر ("واش غادي نبقاو مربعين يدينا والحقوق تاتهمضم")، والنهي (كقوله أحدهم "واش غادي تبقاو خافين")، فضلا عن معاني النفي والتسوية، والإنكار والتقرير والتَّهْوِيل والاستبعاد والتعظيم والتحقيق والتعجب والتهكم والوعيد والاستنباط والتنبية على الخطأ والتَّحْسُر.... وكل ما وُضع من الأخبار في صورة الاستفهام في الأمثلة السابقة تجددت له مزية البلاية، ورمزية الدلالة والمعنى.

وإن كان الخطاب الملكي كما سلف القول لا يرد إلا نادرا بصيغ التمني، ولكن بالرجاء، فإن الخطاب الحزبي يرد في أغلب الحالات بصيغ التمني.

4- **التمني:** إذا كان التمني هو طلب الشيء المرغوب والمحبوب الذي لا يُرجى ، ولا يتوقَّع حصوله إما لكونه مستحيلا ، (كقوله "ألا ليت الشَّبَابَ يعودُ يوما فأخبره بما فعل المشيب")، أو لكونه ممكناً غير مطموح في نيله (كقوله تعالى "يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون") أو تستعمل أيضاً للتعبير عن الندم (نحو "يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا")، فإن الخطاب السياسي والحزبي لا رجاء منه ولا يعبر فيه بـ"عسى ولعل"، بقدر ما يظل في مستوى التمني بأربع أدوات واحدة أصلية- وهي "ليت" وثلاث غير أصلية نائية عنها- ويتمنى بها لغرض بلاغي، تتوزع بين التمني المناسب للمقام باستعمال "هل"، و"لو" و"لعل".

5- **النِّداء:** كما ترد الخطابات الحزبية دائما حبلً بطلبات إقبال المخاطب عليها، وترد وفق كيفيات استعمالها على نمطين، نداء القريب ونداء البعيد. وقد يُنزل القريب منزلة البعيد إشارة إلى غُلُو مرتبته، فيجعلُ بعدُ المنزلَ كأنه بُعد في المكان والمكانة كما يرد ذلك في برقيات الولاء التي يرفعها الساسة عند اختتام أعمال مؤتمراتهم بالقول "أي مولاي، نعم سيدي أعزكم الله، "أي مولاي"، أو في برقيات الولاء المرفوعة لجلالته، من خلال تعابير للدلالة على أن المنادى عظيمُ القدر ورفيعُ الشأن.

ولا يمكن الخوض في تجربة البحث عن المعاني الحقيقية المستفادة من صيغ النداء والمعاني المجازية المستفادة من القرائن في الخطاب الحزبي لتعدد سياقاتها ودلالاتها بتعدد جمهور النقابات والأحزاب وسياقات مخاطبتهم، على النقيض من الخطاب الملكي الذي يتوجه بتعابير نداء واضحة وتقتصر على النزر اليسير من أدوات النداء التي ترد بمعاني حقيقية وموحدة رغم تعدد المخاطبين وتتنوع فئات جمهور التلقي.

لقد قام الخطاب الذي عرفه مغرب سنوات الستينات ونهاية السبعينات ومستهل عقد الثمانينات على لغة جديدة خرجت من حصيلة لغوية تفاعلت مع الواقعو تشربت من ثقافته وتأثرت بمشاعره وجسدت معاناته تجسيدا صادقا، فحققت لغة الخطاب انتشارا واسعا وتأثيرا عميقا، فقد استجابت الجماهير للخطاب وخرجت مؤيدة، فتضمنت الخطابات عوامل ومحاور ساهمت في سطوتها الإقناعية:

- فالخطيب جزء من تاريخ نضالي ضد المستعمر، له من الشرعية النضالية ما يسمح له بالإنصهار في المحيط الوطني والتفاعل معه ومعايشة كل محطة من محطات أزماته؛

- والخطيب ينصّب نفسه وكيلاً عن الشعب في المطالبة بحقوقه والدفاع عنه وعن قضاياها؛

- كما أن الخطيب يخطب دائما من موقعه كصاحب قضية شعبية تنأى عن المآرب الشخصية: فالمتكلم يتكلم أصالة عن الجماعة والمطالب جماعية؛

- أما المُخاطبين، فهم من عموم الطبقة المتوسطة الكادحة ومادونها وهو اختيار واع، فالثورات تخرج من هذه الطبقة، وليس للطبقة العليا التي لا تخرج عنها الثروات قوة وكد الطبقات الشعبية ولا حماسها ولا إخلاصها للقضية، فليسوا بأصحاب قضية بل هم المدّعى عليهم، وهم أعوان النظام ومحميّه؛

- في حين ينصرف موضوع الخطاب إلى الواقع والأزمة والأحداث والجماهير أصحاب القضية، ومن ثمة، كان الخطاب الحزبي والنقابي وراء الإنتفاضات التي اندلعت، فسميت "ثورة الحرامية" بمصر على عهد الرئيس المصري الراحل أنور السادات، و"شهيد كوميرا" على لسان رئيس الداخلية الأسبق إدريس البصري: فقد دعت الأحزاب والنقابات للإنتفاض لنصرة الشعب والنود عن حقوقه، فكانت الشعارات صادقة في حينها، والمستقبل مجهول والمصالح مغيبية والصراع بين القيادات مدفون أو مؤجل، والقلوب موحدة للخروج من واقع التهميش والتفكير لأن الثورات والهبات الاحتجاجية تندفق في بدنها حماساً من ورائه الصدق و الأمل المشوب بالمبادئ والتطلع إلى الأفضل؛

- في نموذج الثورات والحركات، يتم تخير رموز فريدة لها تاريخ نضالي يؤهلها للزعامة والقيادة، ولها قبول لدى رجالها لتكون لهم قيادة موحدة فيكتب لثورتهم النجاح والبقاء .

فقد كانت الخطابات الحزبية في فترة من الفترات التي مرّ بها المغرب تحوز قدرا من الجماهيرية، حيث لم يكن الخطاب السياسي عاطفيا أو ذاتيا يعبر عن ذات الخطيب، بل خطابا مُعدّا يعبر عن مؤسسة سياسية أو اتجاه سياسي، يصوغه من خرجوا للتو من المدرسة الحزبية للنضال والمقاومة، بمهارات يقرها الإختيار السليم للكلمات، حيث يصير صناع الخطاب على استبدال صيغة "إني أؤكد أن الحزب اليوم كله أصبح يعمل لصالح الوطن" بصيغة "وإني أؤكد للشعب أن الحزب اليوم كله...."، وهو اختيار يؤكد وعى صاغة الخطاب بخطورة اللغة في الحدث وسطوتها وضرورة إشراك الشعب، ولو على المستوى اللغوي، في بلورة سبل العمل من أجل الوطن من خلال سياسيين ومناضلين داخل أحزاب خرجت من رحم الوطن ومعاونة شعبه.

لما تناولت عينة خطابية نموذجية من لحظات نشاط مانيفاتورات الإنتاج الخطابي التي تضاعف إنتاجيتها عند حلول الكرنفال الانتخابي فتفتح نقاطا لبيع الكلام، ووقفت عند رواق الخطاب الحزبي الذي جاء في سياق انتخابات 2015، وجدته موزعا بين الصياغة المصدرية والفعلية، فلم يتصدر أي منها المشهد الخطابي.

فالخطاب اللغوي الانتخابي بالمغرب يتسم خلال الحملات الانتخابية بتوظيف معجم لغوي غني بالدلالات والرموز والعلامات السيمائية والبلاغية التي تمتح من مختلف المجالات المعرفية.

للكشف عن مكونات هذا الخطاب سواء المكتوب أو المسموع أو المرئي وغيره، وتمييزه عن خطاب الحزب نظرا للتشابه الكبير وعدم القدرة على التمييز بين خطابات وبرامج هذه الأحزاب، كما يشير العديد من المتتبعين والمحللين إلى جانب بعض الفاعلين في الشأن السياسي والحزبي بالمغرب في مختلف وسائل الإعلام، يمكن القول مبدئيا أنه خطاب خطاب لغوي ولساني قبل أن يكون خطابا سياسيا حزبيا ومجتمعيا، يُعبر عن السياسة اللغوية والوضع اللغوي بالمغرب، من خلال المتح والتمسح باللغة والمركبات الاستعارية و الاصطلاحات المترجمة والمعرّبة وتوظيف أساليب لغوية وبلاغية تكاد تكون متقاربة.

هو خطاب قال عنه رائد البلاغة الجديدة، الدكتور محمد العمري، يجعل المتلقي يُحس بأنه أمام خطاب مُزحلّق مخادع "وأن "علّة العِلل هي البرامج حيث اختلط الحابل بالنابل"¹. فهي لعبة بلاغية: إعطاء الانطباع بالنزاهة وخدمة الوطن.. الخ.

ولن أركز إلا على الخطاب المكتوب في وثائق وأوراق في أغلب البرامج الأحزاب في الانتخابات الترابية 2015، المنشورة على الشبكة العنكبوتية، أو الموزعة على الكتلة الناحية في الشوارع والأزقة، حتى أنأى بتناولي عن المواقف والتناقضات والصراعات والعلاقات والتحالفات والتفاعلات السياسية والحزبية.

بعد الإطلاع عليها وتفحصها وتقليب دفاتها، ودون الحديث على جوانب النبرة الصوتية ولغة الإشارة والجسد والظروف العامة والسياقية والمقامية للخطاب، ألفت فيها تفريطا في الفكر والمضامين وإفراطا في الكلام، وتكرارا للكلام، وهذرا، وتكلفا، وإسهابا وإطنابا وغيرها من العيوب التي قرأت عنها عند الجاحظ في كتابه البيان والتبيين، ووجدتها في كتب التواصل والاتصال الجماهيري والإعلامي والخطابة والخطاب.

وقد ظهر جليا في النقط والمحاور الإجرائية والمواقف المطروحة في البرامج الانتخابية لكل حزب، أن هناك توظيفا لصياغة لغوية مكثفة ومتنوعة تتراوح بين مصادر الأفعال وأفعال المضارعة.

فالبرامج الحزبية والانتخابية تعتمد وتوظف مصادر الأفعال التي نوردها على سبيل المثال لا الحصر: "المساهمة"، "تقوية"، "تعزير"، "الإشراك"، "الترشيح"، "الالتزام"، "العمل"، "إنعاش"، "تقويم"، "تعزير"، "اعتماد"، "تحسين"، "الارتكاز"، "إحداث"، "النهوض"، "إيجاد"، "رصد"، "دعم"، "توفير"، "خلق"، "هيكلة"، "استقطاب"، "تشجيع"، "تشديد"، "حصر"، "تنظيم"، "إخراج"، "الاهتمام"، "تنزيل"، "تعبئة"، "تطوير"، "تنمية"، "إعداد"، "إعمال"، "تثمين"، "وضع"، "تعبئة"، "إقامة"، "تقوية"، "تعزير"، "تكريس"، "الرفع"، "الارتقاء"، "تعميم"، "التصدي"، "التتبع"، "السهر"، "الحرص"، "عقلنة"، "التصدي لبلقنة"، "إقرار"، "بلورة"، "إحداث"، "التقييم"، "ضمان"، "إبراز"، "تعزير"، "تهيئة"، "استحضار" ... إلخ).

1- العمري محمد، في حوار مع جريدة هسبريس الإلكترونية، في عددها الصادر بتاريخ 23 نونبر 2011

بنتبعتها وتعميق النظر فيها، يتبين أنها تنتم بالتعميم والتعويم والاختزالية والتكثيف بصفة ألفاظ فضفاضة دون تحديد وتركيز وتعيين وتفصيل وتدقيق: فهي أفعال كلامية لا تحتل إلا احتمالا واحدا، هو الكذب، لبعدها كل البعد عن الإجرائية والتنفيذ والتطبيق والفعل والالتزام والتطمينات والضمانات الحقيقية المجدولة.

فمن يتحدث عن "المساهمة"، دون بيان طبيعة المساهمة، ونسبة المساهمة وسقفها، وهوية الشركاء المساهمين، والجدول الزمني لدفع المساهمات أو لتقديم التصورات... يضحك على الذقون ويذر الرماد في العيون.

بينما نجد ان تلك التي توظف أفعال المضارعة في صيغة مستقبلية وعدية عهدية في صيغة المبني للمجهول بضمير المخاطب الجمع مثل: "يلتزم"، "يقترح"، "يعتمد"، "حسب"، "يعتبر"، "تلتزم"، "يتضمن"، "يعتزم"، "سنعمل"، "نتعهد"، "نراهن"، "نعتبر"، "نعتقد"...

فهي صيغ تحاول الاقتراب من التدقيق والتفصيل والإجرائية دون التوضيح والتحديد والتركيز، وبصياغة غير مرفقة بأرقام وإحصائيات ومواعيد محددة وخطط واضحة ومرسومة ووفق قواعد ومعايير مضبوطة، ولم توظف الأفعال بشكل كبير، في مقابل سطوة مصادر الأفعال.

فهذا أحد متبوعي الحملة الانتخابية لليونيل جوسبان يقول بصدد البرنامج الانتخابي للسياسي: "في هذا المشروع، كثير من الاقتراحات إلى درجة غياب الأفكار، وبقدر ما تكون صيغة ما بالغة الإيجاز ومشحونة دلاليا، بشحنة دلالية جامعة globalise فكرة أو عدة أفكار بجعلها في صيغة جوهر مبهمة، بقدر ما تكتسب القوة والجاذبية". هذه الفرضية النفسية-الاجتماعية التي تذهب إلى أن الشخص يحس بانجذاب أقوى نحو فكرة ما، حينما تكون هذه غير محددة.

هذا الضرب من الصياغة، الذي تم تحليله في عديد من الدراسات، له غاية هي توليد أثر البداية: فلا يكون الخطاب خطابا منسجما ومتسقا ومتكاملا إلا إذا كان جامعا بين الإقناع أولا ثم الإقناع ثانيا.

كما أن حضور العنصر الأول وغياب الثاني أو العكس أو غيابهما معا يجعلنا أمام أوراق عادية جدا لا ترقى لمستوى الخطاب والبرنامج. لذلك، فاللجوء لهكذا صيغ لغوية يجعل المتلقي العادي -وما بالنا بالمتلقي اللبيب- يحس ويستشعر بأن البرنامج غير واضح وغير محدد وغير مقنع.

وفي هذا السياق، يقول "باتريك شارودو" حول الخطاب في الإقناع السياسي بأن الخطاب السياسي "يضع في صدارة عمله القصد إلى إثارة التفكير والفعل أكثر من القصد إلى البرهنة: فالأمر لا يتعلق بإقامة الحقيقة بالفعل، باستقلال عن الآراء، وإنما يتعلق بمحاولة تحويل (تقوية) الآراء المطبوع بالانفعال"¹: فهو يتأرجح بين نظام العقل ونظام الهوى، جامعا بين اللوغوس والإيتوس والباتوس لأجل محاولة الجواب عن السؤال الذي يفترض أن المواطن يطرحه.

فما الشيء الذي يفرض القبول (الإذعان) بهذه القيمة أو تلك؟ فهل تعكس هذه المصادر والأفعال الموظفة في هذه البرامج الأمر الواقع؟ وهل الخطاب اللغوي للبرامج الانتخابية للأحزاب المغربية في الانتخابات المحلية والجهوية خطاب إقناعي حجاجي وبرهاني؟ بمعنى هل هذا الخطاب

¹ - Charaudeau, Patrick, Le discours politique- les masques du pouvoir-, editions Vuibert, Paris 2005, p. 176

نص متماسك ونسيج متسق ومنسجم؟ هل اللغة تشكل عائقاً أحياناً في التعبير عن البرامج الانتخابية أم الإنتاج اللغوي الانتخابي معيب في أصله أم أن هذا تعبير عن الوضع والمشهد اللغوي العام بالمغرب؟ هل يعمق ويعاد النظر قبل صياغة مثل هذه الخطابات؟ لماذا لا تعتمد البرامج الانتخابية على لغة أرقام وإحصائيات ومعطيات وبيانات وخطط ورؤى دقيقة واضحة ومحددة؟ لماذا طغت الصياغة المصدرية على الصياغة الفعلية في هذه الخطابات؟ ألا تعبر هذه العبارة الواردة في أحد البرامج الانتخابية " ليس هذا برنامجاً في حد ذاته، بل هذه هي أولوياتنا " على أنها خطابات تعويمية تعميمية؟ وما قيمة هذه البرامج في ظل طغيان خطاب التعيين على خطاب الانتخاب؟

حديثي عن التعميم والتعويم يدفعني دفعا لتجديد الغوض في بحر المقارنة علني أسأل من غاصوا في شُعب الخطاب السياسي العربي عن تشكيلة مشابهة للنماذج الخطابية السياسية المغربية، لأجد نماذج خطابية عربية جرى بذكرها الركبان وصارت مصنفات في المخاتلة الخطابية بلبوس مصري وعراقي.

في حقل التداول السياسي أو الحزبي، لا نجد سوى خطبا مكررة نائمة (غير منومة) تنتاب كلماتها وتتمطى جملها وتكتفي بالالتصاق بالأذن في لزوجة وابتذال ما بعده ابتذال فقط في الخطاي الحزبي ولمكونات النسق السياسي المغربي، حيث وجدت تمرداً أفقياً لبلاغة الإنشاء دون مشيئة في الدول العربية الأخرى، وتمرداً عمودياً ظل العديد من الدول الأجنبية وحتى دوائر القرار وقادة دول، وبلغ التمدد العمودي دائرة قرار أكبر من الحزب والنقابة والجمعية، من خلال نماذج رئاسية أو مؤسسة ناطقة رسمياً بإسمها، قامت بعضها بإنشاء صور بلاغية جديدة واستعمال موسع لمصطلحات مغترفة من قاع معجم صفصاف لا قرار له، سقطت كلماته بالإهمال وبعدم الإستعمال، فغاص وراءهم جمهور التلقي في بحر ما غاض، وذهل بإنجازات اللفظية المخادعة التي لم تكسر لها إلا كبوات النظام أو سقوطه بأكمله، كما الشأن بالنسبة للمتحدث الأسبق باسم الجيش العراقي ووزير الإعلام آنذاك سعيد الصحاف.

المطلب الرابع/ أنساق البلاغة السياسية والمبالغة في المخاتلة السياسية وإشاعة ثقافة التضليل والإشاعة

❖ أولاً- النصية الخطابية السياسية المستمسكة بالناصية الكاذبة

مفهوم المخادعة والمخاتلة الخطابين نلفيه بشكل بارز في المشرق العربي لقدرة أهل الشرق على الارتجال بعربية مطيعة ومطوعة.

وإذا كان لشخصية قائل الخطاب السياسي دور رئيس في نجاحه حتى في الظفر برئاسيات دولة من الدول، فيمكن أن نستلهم من النماذج الخطابية المخادعة والمخاتلة من رؤساء الدول، من خلال نموذج وزير الإعلام العراقي الأسبق الذي تلقف لسانه العلوج قبل اقتحامهم للصحارى ليتوارى بعد ذلك وراء متاريس اللغة التي نصبها ونصبها مكان الجيش العراقي المذعور، فضلاً عن خطاب تنحي الرئيس المصري الأسبق جمال عبد الناصر.

تحليل الكذب ضمن السياقات السياسية يستدعي زوايا نظر متعددة تسعف في فحص المسارات التواصلية المقترنة بالقصد السياسي ومدى ارتباط لغة الخطاب السياسي باستراتيجية الخداع المتعمد. هذا الكذب المؤسساتي أو الممؤسس يُنزل منزلة الفعل اللغوي والخطابي القائم على التحفيز اللامشروع للمواقف السياسية والمعرفة المجتمعية أثناء التفاعل مع المكونات السياسية والتواصل مع مختلف فئات المجتمع.

وقد شكل هذا النمط الخاص من الكذب حقلا إنسانيا خصبا لإجراء مقاربات جدية وعميقة تتقاطع ضمنها معطيات العلوم المعرفية وعلم الاجتماع واللسانيات وتحليل الخطاب وأخرى غيرها كثير. فتحليل الكذب ضمن السياقات السياسية يستدعي زوايا نظر متعددة تسعف في فحص المسارات التواصلية المقترنة بالقصد السياسي ومدى ارتباط لغة الخطاب السياسي باستراتيجية الخداع المتعمد. يحتل الكذب السياسي كما سلف بيان ذلك موقعا نوعيا في الممارسة السياسية، إذ يتخذ أشكالا تداولية عديدة تتراوح بين التجلي عبر اللغة والتخفي في ثنايا الصيغ التواصلية: فتارة تبرز الأكاذيب السياسية دفعة واحدة قصد التهرب من تحمل المسؤولية السياسية اتجاه قضية شائكة أو نتيجة تسرع الفاعل السياسي وتراجعته في الآن نفسه، وأحيانا تظهر بشكل زمني تدريجي عبر الانفعالات السياسية اللفظية إذ تأتي في مراحل متأخرة بعد عدم تمكن الفاعل السياسي من الحفاظ على انسجام لغته السياسية وتماسك موقفه وخطابه.

ويتمثل العنصر الحاسم لإظهار الأكاذيب السياسية أو إضمارها في مدى تمكن السياسي أثناء استعمال اللغة المخادعة من امتلاك تقنيات تعبيرية مراوغة نصفها تجاوزا بمهارات الكذب.

فكلما كانت مهارات الفاعل السياسي قوية، كانت الأكاذيب السياسية خفية وغير معلنة على مستوى الموقف والخطاب؛ وكلما كانت بالمقابل تلك المهارات ضعيفة، تطفو الأكاذيب السياسية على السطح ولا تجد سبيلا إلى التستر في ثنايا اللغة التواصلية السياسية. وتحدد قوة هذه المهارات أو ضعفها في قدرة الفاعل السياسي على التفاعل مع الملاحظات والتحويلات التي يشهدها حدث سياسي معين، مما يجعلها مقترنة بالسياق السياسي ومؤثراته الخطابية والتواصلية.

ها هنا وبصفة عامة، يمكن أن ذهب بالقول إلى أن بلورة نظرية للخطاب السياسي ذات كفاية وصفية وتحليلية متقدمة تستلزم استحضار المكون السياقي الذي يضمن المعالجة السليمة والشاملة لمختلف مستويات التفاعل الاجتماعي والتواصل السياسي.

على أن الكشف عن أهمية السياق السياسي يقتضي إدراك الخلفيات المنهجية الكامنة خلف تبئير مفهوم السياق عموما؛ كما أنه متى علمنا أن السياق السياسي فرع عن السياق الإنساني وأن الأصل أسبق عن الفرع، علمنا معه ضرورة بسط الحديث أولا عن مقولة السياق بشكل عام.

وبناء عليه، أقول بأن الاهتمام المتزايد بتحليل السياق شكل استجابة علمية لضرورة توسيع دائرة الدراسات الخطابية ونتيجة حتمية للتطورات الجديدة في مجال دراسة الخطاب كمواجهة للخلفية المُتنزّية وراء المقاربة المتعددة الاختصاصات المتعلقة بتحليل النص والكلام في العلوم الإنسانية والاجتماعية.

ويمُدني سياق الغزو الأمريكي للعراق كما شاهدته قبيل بلوغي عشرينيات عمري بتجربة بلاغية مخادعة فريدة كرسها خطيب الحرب ووزير الإعلام الأسبق محمد سعيد الصحاف الذي تصفح المعجم ليخرج منه بمصطلحات غريبة لوصف أفراد الجيوش الأمريكية التي وقفت على مشارف العاصمة العراقية بغداد.

❖ ثانياً- بلاغة التسمية والمتون اللغوية الكاذبة في أتون السجلات السياسية

الحروب والسجلات، مسلحة كانت أو كلامية، هي بمثابة مهرجانات للكلمة، والبلاغة الواضحة، والسليقة اللغوية المتوارثة كابراً عن كابر بين أسرة ومنابر، وخطبا تبقى تاريخية ويحدث بها الغائب قبل الحاضر، تصدح بها في المواسم الانتخابية الحناجر، ونلمسها في لحظات التواصل من أجل تصريف الأزمات La Communication de Crise.

من التعاريف البسيطة الواضحة في باب الخبر والإنشاء، أن يعرف الخبر بكل ما يحتمل الصدق والكذب، أما الإنشاء فهو ما لا يحتمل صدقاً ولا كذباً...

بلاغة الإنشاء وإنشاء صور بلاغية جديدة شهده الاستعمال الموسع لمصطلحات سقطت للإهمال، للمتحدث باسم الجيش العراقي وزير الإعلام آنذاك سعيد الصحاف.

وتيمناً بالسياق التاريخي الذي استخدم فيه الخليفة العباسي المعتصم في وصف الرومان "العلوج" بعد أن وصله نداء استغاثة من امرأة هاشمية صرخت "وامعتصماه" عندما هم "العلوج الرومان" بإيذاءها: واستخدم هذه الكلمة بشكل عام عددٌ من القادة المسلمين في صدر الإسلام، حيث وصفوا بها الفُرس والرُّوم على حد سواء.

وفسر معجم "لسان العرب" كلمة "علج" بأنها "الرجل من كفار العجم"، والأنثى منها "علجة" بحسب المعجم.

وبيّن المعجم ذاته معنى آخر للكلمة وهو "الحمار الوحشي"، أو "الرجل الغليظ".

وهذا ما ذهب إليه معجم عربي آخر هو معجم "العين"، حيث قال: إن "العلج" هو حمار الوحش "لاستعلاج خلقه" أي غلظه، كما أوضح المعجم أن الرجل إذا خرج وجهه وغلظ فهو علج¹.

وأكد هذا الوصف أيضاً معجم "المصباح المنير"؛ إذ يرد فيه أن العُلجَ حِمَارُ الْوَحْشِ الْغَلِيظُ، وإن الرجل إذا خرج وجهه وغلظ فهو علج². "قَالَ أَبُو زَيْدٍ يُقَالُ اسْتَعْلَجَ الرَّجُلُ إِذَا خَرَجَتْ لِحْيَتُهُ وَكُلُّ ذِي لِحْيَةٍ عُلْجٌ وَلَا يُقَالُ لِلْأَمْرِدِ عُلْجٌ"، قبل أن يشير المعجم نفسه إلى أن بعض العرب "يطلق العلج على الكافر مطلقاً"³.

ويبدو واضحاً أن الخطاب العراقي الرسمي كان يقصد بـ "العلوج" المعنى القائل بأنهم "كفار العجم"، في محاولة منه، على ما يبدو، لمنح هذه الحرب بعداً يحرك تاريخاً راكداً في نفوس العرب والمسلمين، وربما حنيناً إلى عصر كانت فيه جرعة العز والفخر عند المسلمين لا تسمح لهم إلا بأن يسموا كل شيء بمسماه الحقيقي.

¹- لسان العرب، مرجع سابق، حرف العين، "علج"، الجزء العاشر، ص. 249.

²- لسان العرب، مرجع سابق، حرف العين، "علج"، الجزء العاشر، ص. 249.

³- معجم المصباح المنير،

وبعد المؤتمرات الصحفية اليومية للقيادات العراقية ببزاتها العسكرية الخضراء، تعرّف الشارع العربي على مصطلح "العلوج". وكان من المفارقات أنّ البعض ممن يجهل فصاحة لغة الضاد حسب أنّ المتحدثين العراقيين نحتوا كلمة جديدة بتحريف الكلمة فخرجوا بوصف لا يقل هجاء هو "العجول"، وتوقع مراقبو التحولات اللغوية آنذاك وسوسيلوجيا اللغة في العالم العربي أن تُعتمد العبارة وتستخدم في حقل التداول وتُدَوَّل في المقارعات والمساجلات السياسية.

ولم تكن كلمة "علوج" بمثابة عبء ثقيل ينزل بحمولته القذحية على امريكا وجنودها فَحَسَب، بل كانت أشد وطئاً على أولئك المترجمين الفوريين للمؤتمرات الصحفية العراقية، إذ تلعثوا مراراً في نطق هذه الكلمة رغم سهولة رسمها خطياً.

فقد ورد حينها تعبير "عصابة الأوغاد الدوليين" كناية عن قوات التحالف الدولي، و"الأرعن الصغير" لوصف بوش الأب، و"العلوج" الأميركان، "مطايا الإستعمار" كناية عن أمراء آل الصباح: فهي اصطلاحات جديدة لم تألفها آنذاك الأذن العربية من قبل، فأغنت لسانهم العربي وأفقرت رصيد الإحترام واللياقة الواجبان للملكيات الشرق-أوسطية.

لقد أعاد محمد سعيد الصحاف الاعتبار الى مفردات لغوية أهملها المتكلم السليقي العربي في محاولاته العبثية للبحث عن لغة عصرية وإمعان الحزب البعثي في محاربة الإبداع اللفظي.

مفردات مثل "العلوج" تنهض من تراث حسبنا أنه اندثر الى الابد: وإذا عاد المثقفون والاعلاميون العرب الى القواميس ليكتشفوا معنى هذه الكلمة¹، انحبس صوت لغة السياب المناسبة ونازك الملائكة في سفرها عبر سماء الشعر القصيدة الشعرية النسوية لينبجس صوت ينتقي من التراث المعجمي القديم أقبح ما فيه.

بثقافة هجاء بديلة وهجينة، البدوية وبخطاب تضليلي وهمي وموهم، استل الصحاف بين أسرّة ومنابر أدبيات الهجاء والإغظة اللُّغوية واللُّغوية أحياناً ليقارع بها إعلامياً حتى من كانوا على مشارف العاصمة العراقية ودخلوها دون أن يقارعهم أحد أو يقرعوا بابها.

❖ رابعا- مصرُ والرئيس المُصرُّ على الإنجاز اللغوي المخاثل

في النموذج المصري كما شِئ لي أن أراه كسائر متتبعي الإنتاج السنمائي والدرامي المصري من خلال سيناريو فيلم ناصر 57 (ولو برواية أهل الدار)، يتحدد أول ملمح للنجاح الخطابي الذي أعقب نجاح قيادات الثورة في انقلابهم على النظام وتوقفهم في اختيار زعيمهم، فاختروا في البداية اللواء محمد نجيب كشخصية مُقنعة أدبياً وعسكرياً، أسعفته لباقتة وشعبيته وموقعه في هَرَم سلك الجيش للحصول على تأييد معظم الضباط في انتخابات نادي الضباط، وحاز من الكاريزما ما جعل قادة الثورة يدخلون طوعاً تحت إمرته، وحظي بقبول جماهيري واسع بخطابه الهادئ الذي يبعث في النفس الاطمئنان والراحة والثقة، خاصة في سياق خطابي قطع مع العهد الملكي السابق ولم يتقاطع معه حتى على مستوى الألقاب ومفردات الخطاب: وعليه، فقد تحول الخطاب من لغة التعالي وتفخيم الذات والرسميات التي كانت مستخدمة في الخطاب الملكي إلى لغة الخطاب اليومي أو لغة الجماهير وصوغ الخطاب الجماهيري.

¹- إذا كانت تعني الحمار الوحشي السمين القوي، أو الرجل الضخم من كفار العجم، فلم يكن أحد يعرف المعنى الذي يقصد إليه سعيد الصحاف، خاصة في ظل استفحال توريط العراق لنفسه و شعبه في مزالق و مهاوي الصراع وظهور إرهابات الأزمة بعد انزلاق النظام العسكري البعثي المتكررة نحو الصراع مع الجوار لعشرات السنين

من خلال تتبعي لأغلب الإنتاجات السينمائية المصرية التي وثقت لجميع عقود القرن المنصرم، كانت الملكية المصرية تترفع عن استخدام لغة عامة الشعب، وكانت تتحدث غير العربية أحياناً، وإن جاء الخطاب عربياً، وتتعتمد تصيد الغريب من الألفاظ التي تجعل الخطاب طبقياً أو فئوياً وبعيداً عن الطابع الجماهيري، مع استعمال ألقاب لم يكن يُسمح بها لغير الأسرة الحاكمة.

وبالفعل، أنهى الضباط الاحرار بموجب قرار صدر في 25 يوليوز 1953 لغة المحيط الملكي، فألغيت من جميع القوانين والمراسلات والتشريعات عبارة "حضرة صاحب الجلالة الملك"، و"قوات حضرة صاحب الجلالة الملك"، و"حكومة حضرة صاحب الجلالة الملك"¹، وتمت الإستعاضة عنها ببدايل لفظية ثورية من قبيل: رئيس الجمهورية، والقوات المسلحة، والبلاد المصرية، والحكومة الجمهورية.

لقد جاءت لغة الخطاب السياسي شعبية تستخدم مفردات الشعب وتبرز شخصية مصر "الوطن" وتقدمها على شخصية الحاكم في بدء الثورة، قبل ان تنازعها شخصية الحاكم موضعها وتضع نفسها معها في ركاب واحد، فأصبح الحاكم هدفاً في وسائل الإعلام ورمزاً يستدل به على الوطن ويختزل هذا الأخير، وهو ما هياً لظهور شخصية الزعيم البطل الشعبي الذي يحمل هموم شعبه و أمته، ويسعى إلى تحقيق طموحها وإرساء مبادئ الحرية والعدالة الاجتماعية ووحدة الأمة وتحريرها من نير الاحتلال من القوى التي اغتصبت أراضيها واستنزفت خيراتها.

بنبرة مخادعة ومنكسرة بعد سنوات من النجاح والإكتساح الخطابي المُمتد عربياً، ألقى الزعيم القومي المصري الراحل جمال عبد الناصر خطاباً يعلن فيه تنحيه عن السلطة.

وكي لا أصدر في حكمنا هذا عن إطلاق للكلام على عواهنه، أمثل لذلك بجملة سرعان ما يمكن للمرء أن يهتدي إلى عجز الحدود اللسانية عن سبر أغوارها وتأويل دلالاتها و معانيها، مما يستلزم الاستعانة بما ذكرته من آليات قرائية وحقول معرفية.

"أعلن الزعيم القومي جمال عبد الناصر خطاباً أعلن فيه تخليه عن الرئاسة":

فهذه الجملة فعلية تدمج حملين داخلها بواسطة الإحالة النصية الموجودة في ضمير الهاء المتصل بحرف الجر و العائد على (خطاباً) المذكورة في الحمل الأول .

والجملة تحمل خبراً واضحاً مفاده تنحي الرئيس عن مهام الرئاسة وفي مكونات الجملة الداخلية انسجام.

أما إذا أخذنا البناء الجُملي التالي :

أ- ألقى الزعيم القومي جمال عبد الناصر خطاباً أعلن فيه تخليه عن الرئاسة؛

ب- ألقى الزعيم القومي جمال عبد الناصر خطاباً لأنه تخلى عن السلطة؛

ت- سمعت الزعيم القومي جمال عبد الناصر يُلقي خطاباً لأنني كنت أقوم ببعض التمارين

الرياضية.

¹ مانسفيلد، بيتر: تاريخ الشرق الاوسط، ترجمة عبد الجواد سيد، مصر/ الفتح للطباعة والنشر، الفصل الحادي عشر "دخول القوى العظمى وحقية ناصر 1950-1970، ص.

فالجملَة (أ) تبدو سليمة لأن القضيتان فيها متلائمتان: فسبب إلقاء الزعيم لخطابه هو رغبته في الإخبار بتنحيه عن الرئاسة.

أما الجملَة (ب)، فتبدو فيها بعض القيود- لأن تنحي الرئيس عن منصبه ليس السبب الوحيد ولا الأوحد لإلقاء الخطاب، لذلك فإنها تحتل وجهين.

أما في الجملَة (ت)، فيبدو الانفصام و عدم التلاؤم بين القضيتين واضحا، إذ لا علاقة بين إلقاء الخطبة و قيام المتلقي ببعض التمارين الرياضية.

إذن فدلاليا الجملَة (ت) غير صحيحة، ولكنها تركيبيا ونحويا صحيحة أسوة بالجملتين (أ) و (ب).

من هنا فإن الجوانب اللسانية والنحوية والبنوية لا تكفي لتأكيد سلامة الخطاب وفهم دلالاته، والقيود قيود تتعلق بالمستوى الدلالي لا بالمستوى التركيبي- النحوي.

ويمكن تسجيل نفس الملاحظة ونفس القيود إذا عقدنا مقارنة بين الأجوبة الثلاثة المتعلقة بنفس السؤال:

فلو افترضنا أننا حملنا الأجوبة الثلاثة التالية عن السؤال:

- هل أعلن الزعيم القومي جمال عبد الناصر تنحيه عن السلطة؟

الجواب (أ): نعم أعلن ذلك في خطاب.

باستحضارنا لآليات التأويل يمكن ان نستشف ما يلي:

- أن الزعيم يريد أن يمارس خطاب الأقوياء، فهو من أعلن عن التنحي الطوعي عن المنصب. ويُسَعِف البعد النفسي لاستقراء رغبة الزعيم في الظهور بمظهر الزعيم المُلهِم المتوازن الواصل. هذه القراءة تستمد من علم النفس ويمكن أن تصل إلى درجة التأثير النفسي على عموم الشعب، وقد تصفوا عواطفهم نحو رئيسهم ويخرجون في مظاهرات تطالب ببقائه كما وقع بالفعل بعد أن خرجت الجماهير عن بكرة أبيها لتطالبه بالبقاء (وهذا ما وقع آنذاك بالفعل عقب خطاب التنحي)؛

- وقد يبقى فعلا مؤهّما نفسه وأعداءه السياسيين بالإذعان لرغبة الجماهير، وهو ما لم يغفله الزعيم القومي جمال عبد الناصر؛

- أو يخرج مرفوع الرأس فيبيث رسائل مهمة إلى الداخل والخارج تومئ بعزمه المضي قدما في قرار التنحي رغم تمسك الجماهير به، لمسؤوليته عن نكسة 67؛

- ولم بالإمكان إدراك البعد الكامن وراء قرار التنحية الذاتية عن الرئاسة مالم أنبش بمعاول الفهم والتقصي عما ينتزى وراء الخطاب من خلفيات وأحداث ومسببات وظروف وحيثيات لازمت إنتاجه من قبيل ما عاشته مصر من أيام عصية، استهل بها الراحل جمال عبد الناصر خطابه، بحيث يمكن الغوص في الأحداث السياسية للبلد للوصول إلى تفسير العديد من الأشياء: وهنا يمكن وضع اليد على العلل مباشرة والتي يحتمل أن تكون ضغوطا سياسية للمعارضة، أو احتقانا سياسيا واجتماعيا، أو فشلا في تدبير الملفات الوطنية أو هزيمة عسكرية...

- وأنه كان من الوارد أن يكون التنحي عن طيب خاطر رغبة في الوصول إلى مرحلة ديمقراطية أفضل، رغم أن الأمر مُستبعد؛

- وربما كانت التّحية وسيلة للتّحايّل، بحيث يهَيئ الرئيس المذكور لنفسه منصبا رئاسيا أكثر أمانا واستقرارا من خلال إضفاء الشرعية المُفتقدة بواسطة استفتاء حول الرئيس أو انتخابات أو غير ذلك .

- أم كانت استراتيجية من الزعيم العربي الملهم لاحتواء معارضيه في الداخل والخارج بعدما اشتدت شوكتهم، بتّحية نفسه بنفسه استعدادا للعودة بصيغ أخرى، بدلا من أن ينحى وهو مطّأ الرأس . ويبقى للمتلقّي هامش صغير لتأويل هذا الخبر/ الخطاب بصيغ متعددة انطلاقا من درجة وعيه وثقافته وقدراته على الفهم والتحليل، وطبيعة صلته النفسية بالباط التي تخضع لثنائية المد والجزر من شخص إلى آخر، وطبيعة وضعه الاجتماعي ودرجة استفادته من الوضع القائم سياسيا واقتصاديا وغير ذلك من الإعتبارات.

قد يمكن دور الصلة النفسية للمتلقّي بالباط في النموذج المصري من خلال من خلال خروج المصريين (جمهور التلقي في جمهورية مصر) يومي 9 و10 يونيو 1967، في جموع حاشدة للتعبير عن رفضهم الباط لتّحي رئيس جمهوريتهم جمال عبد الناصر عن السلطة: فإن كان جمال عبد الناصر أول رئيس دولة يترجل صهوة الحكم طوعا لا كرها، فإن الشعب المصري كان أول شعب في التاريخ الحديث يخرج جماهيريا -لا ليطالب بمحاكمة من تسبب في هزيمته وهدر دماء الآلاف من أبنائه وماء وجه بلد تربع على الزعامة السياسية العربية وآل حالة إلى سلب أرضه عقب الهزيمة-، بل ليعيدوه ويحملوه على العودة إلى سدة الحكم محمولا على هامات الشعب إلى كرسي رغب عنه.

إلا أن عفوية تلك المظاهرات لم تكن تعني غياب احتمال التعبئة الممنهجة: فعفويتها كانت تصدر عن تراكم التأطير الإيديولوجي للشعب المصري طوال الخمسة عشرة سنة من حكم الضباط الأحرار والإنضباط الإيديولوجي الذي كرسه اللجان الثورية، فالمظاهرات لم تكن في النهاية إلا مُحصلة لعمل أجهزة الدولة السياسية والإيديولوجية على مدى تلك السنوات.

لإدراك سر هذه الخرجة الخطابية غير المسبوقة في تاريخ الحكام العرب، قدماء ومعاصرين، وإعلان قرار التّحية وبشكل رسمي عن الحكم و عن شغل أي منصب رسمي، يمكن أن أستعين ببعض الأنتروبولوجيا والسوسيولوجيا والعلوم السياسية لتحليل الخطاب لعلّي أُلج مسالك درس فوق- لسانی: فالكلمات لم تكن مجرد تعابير في عدد من الخطب السياسية العابرة، ولكنها كانت بمثابة مبادئ أراد أن يرسّيها الزعيم القومي الراحل جمال عبد الناصر الذي عرف عنه بلاغته في إلقاء الخطب السياسية.

وبصرف النظر عن أية مؤاخذات أو خوض في حيثيات الهزيمة التي منيت بها مصر في نكسة 1967، أكاد لا أجد حاكما لدولة عربية أو إسلامية أو ثالثة يُعلن علنا وبصفة رسمية قرارا التّحي عن الحكم والمناصب الرسمية وأن يعود الى صفوف الجماهير: لم أجد سوى الراحل عبد الناصر.

وعما إذا كان الخطاب يمثل حقيقة صادقة بالتّحي أو كان مجرد لعبة سياسية، فالثابت أن الزعيم الراحل يخطب ويعرف ماذا يقول ولماذا ولمن، والفرق بينه وبين من تعاقبوا على رئاسة أرض الكنانة بيّن: فمن في مصر بعد عبد الناصر استطاع إلقاء خطبة متماسكة قادرة على النفاذ إلي وجدان الجماهير، تجاوزت المستوى القطري إلى المستوى الإقليمي؟

وعليه، يمكن القول بتفاوت المهارات الخطابية بين جمال عبد الناصر ومن تربعوا بعده على كرسي الرئاسة بمصر الشقيقة، وفق شخصية ومهارات كل منهم الخطابية، ليتربع الراحل جمال عبد ناصر على عرش الخطابة بحضور طاغ وقدرة غير عادية على الإلقاء والارتجال، تعززها كاريزما الرجل ويُوقدها ذكائه الذي يقطر من عينيه.

ويأتي السادات وصيفا لسلفه بفضل قدرته على اتخاذ القرارات المباشرة ومسرحية أدائه الخطابي المسرحي performance locutoire Théâtralisation de sa ليجد المنتبغ للشأن الخطابي العربي أن الرئيس الأسبق الذي أطيح به، حسني مبارك وخلافا لخلفيه، كانت تعوزه الكاريزما والقدرة على الارتجال.

حتى على مستوى التتبع والاهتمام الجماهيريّين للخطب السياسية لعبد الناصر خصوصا ومن بعده أنور السادات، ألفت أن الجماهير تلتف حول أجهزة الراديو وتنتصب أمام أجهزة التلفزة لتستمع وتستمتع بالخطاب.

وتطبيقاً للتأسيس النظري، يمكن وصف كلمات الرئيس المصري بالقصر والوضوح، عكس الجمل الطويلة والمتداخلة لمخاتلة التي طفح بها خطاب النكسة 67، كما ان التعابير عن التتحي وموجباته عرفت توظيف ألفاظ تشي بالثقة دون الجنوح نحو الثقة الزائدة التي ميزت إعلان الثورة عن ميلادها ومحطات نجاحها الذي كانت تزفه للجماهير.

خطاب النكسة وإعلان المسؤولية عن خسارة الجيش المصري في حرب 67 جاء بنبرة مختلفة، وبتعقيدات لفظية ميزت الخطاب- البيان الذي كان يلقيه الزعيم المصري في كل مرحلة من مراحل الحرب.

فهي إذن خطب وظفت أساليب بلاغية كالإطناب والتجنيص والتقديم والتأخير والإنشاء والحشو والحذف، واستعمال معجم عسكري في سياقات غير عسكرية: فالجندي لا يتقن إلا لغته.

هي خطابات سياسية لا تنحو بلاغيا نحو التعبير المباشر، بل تتوسل بالرموز والأمثلة والحكم ومقارنات بالتاريخ الإسلامي أو مقارنات بدول أخرى Benchmarking étatique، والاستعانة بمقارنات وتشابيه بحكم التأثير العاطفي للمشابهة والاستعارة و غموضهما ومعناهما غير المحدد.

خطاب المخاتلة نلفيه أيضا حتى في أوساط دولة غير عربية ولا مغربية ولا مغاربية، لدى بعض الزعماء التاريخيين الذي لم يكن أحد لينازعهم زعامتهم.

❖ خامسا- المخاتلة والتهويل بصيغة التدويل

أليكسيس تسبيراس، السياسي صاحب المبادئ اليسارية، قائد سيريزا "الحركة ذات الهدف المعلن بإنهاء النقشف في أوروبا"، خضع للبراجماتية، وحالته ليست الأولى.

فالوصول للسلطة ومرور الوقت يغيران غالبا الأيديولوجية الأصلية للقادة: فهذا ما حدث مع ويلي برانت، ودانييل كوهين بينديت، وفرانسوا ميتران، و أندري مالغو، وما حدث أيضا لقادة أكثر وثوقية وترويجا لقيم إيديولوجية من طينة هيجو تشافيز وفيدل كاسترو.

1- فقد تحول المرشح اليوناني المُعادي للنقشف، أليكسيس تسبيراس¹، الذي كان يمثل إزعاجا للترويكاء، والذي تظاهر في جنوة ضد مجموعة الثمانية عام 2001 مع زملائه دعاة العولمة الجديدة، في نصف عام على الأكثر، من رمز جديد للييسار الأوروبي، لقائد "براجماتي" يشبه رؤساء حكومات منطقة اليورو.

1- ويكيبيديا، الموسوعة الحرة

سَنة أشهر بعد الانتخابات اليونانية العامة في 25 يناير 2015، حين حققت حركة اليسار سيريزا برئاسة أليكسيس تسيراس الفوز، خرج هذا الأخير في اليوم نفسه وفور معرفته بالنتائج الأولى، وألقى رسالة حاسمة: "اليونان تتخطى سياسة التشف المشؤومة، تتخطى الخوف، والاستبداد. تتخطى خمس سنوات من الذل والمعاناة، وتتقدم من جديد بثقة وأمل وكرامة ورباطة جأش نحو أوروبا تتغير"، وقدم حزبه أيضاً كمثال حي على هذه الحقبة الجديدة.

2- بدوره، وبعد 14 عامًا كرئيس اشتراكي وماضٍ مظلم خلال نظام فيشي وموضع جدل دائم، بسبب حالة ابنته (غير الشرعية) ماثارينا من علاقته بـ آن بينجويت عام 1974 والتي كانت فقط فصلاً من الجدل الذي دار حول الرجل، كان الأكثر خطورة في مسار **فرانسوا ميتران** إيديولوجيته خلال نظام فيشي، -النظام المستبد الذي كان يميل للنازية-، والذي حكم جنوب فرنسا بين يونيو عام 1940 وأغسطس عام 1944.

بدأ الجدل عام 1994، حين نشر الصحفي والباحث بيير بيان كتاب "شباب فرنسي: فرنسوا ميتران 1940-1944"، تناول فيه صلات الزعيم الاشتراكي لاحقاً، بنظام فيشي، وأوضح في مقابلة مع جريدة "ليبراسيون" الفرنسية في أبريل 1996: "فرنسوا ميتران بالبحث من جديد محاً ثلاثة أرباع حياته، لم يكن بها ما يخجل منه لأن المؤكد أنه لم يشغل مكاناً مهماً في نظام فيشي. تذكر قوله بأنه إذا لم يكن مقاوماً، كان ليصبح قريباً جداً من المقاومة بعد أسابيع قليلة من وصوله لفيشي، هذا خطأ".

لاحقاً، خلال الأربعة عشر عامًا التي قضاها كرئيس اشتراكي، وهو رقم قياسي في فرنسا، يتذكر منتقدو ميتران فيه صفة القائد البراجماتي والانتهازي المتهالك على السلطة، حيث كتبت صحيفة "ليكسبريس" لدى وفاته عام 1996: "تابع لـ (اقتصاد عدم التدخل)، كمدافع عن التغيير. إنه على أية حال قضى على فكرة أن رئيساً اشتراكياً لا يمكنه الاقتناع بالسوق الحر ولا بالخصوصية".

3- أما **ويلي برانديت**، فقد تحول من ماركسي ديمقراطي اجتماعي إلى ديمقراطي اجتماعي ضد الشيوعية.

ويلي برانت، مستشار الجمهورية الفيدرالية الألمانية (1969-1974) وعضو الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني، عاش شبابه خلال الثلاثينات المضطربة في أوروبا.

في ذلك العقد، لم ينتم برانت لذلك التشكيل، بل لحزب العمال الاشتراكي، جماعة سياسية إيديولوجيتها وفقاً لما أوضحه المؤرخ الألماني والتر إل برينيك في مقال عام 1982 "كانت تعود للأصول الماركسية للديمقراطية الاجتماعية وعادت للمطالبة بديكتاتورية البروليتاريا، ونظام شورى العمال، ومبدأ صراع الطبقات وقبل كل شيء الدفاع عن اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية URSS"، كان يدمج نشاطه بعمله كصحفي.

وصل برانديت لبرشلونة أثناء الحرب الأهلية عام 1937، وفي المدينة التقى بالكاتب جورج أورويل، وقاسمه الغرفة في فندق فالكون. في "عام من الحرب والثورة في إسبانيا"، وهو النص الذي حرره في هذه الفترة وقدمه في باريس قبل السلطة التنفيذية لحزبه، وصف برانديت الصراع بأنه "أكبر حدث في التاريخ للحركة العمالية العالمية"، بعدها بسنوات تولى مبادئ الديمقراطية الاشتراكية في ألمانيا، العدو المعلن للشيوعية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية والمتفق في مبادئه الإيديولوجية مع مؤتمر باد جودسبيرغ عام 1959

4- بدوره، نفى **هوجو تشافيز** اتباع الاشتراكية لأن -وفقاً لقوله- "أمريكا اللاتينية الحالية والقادمة - في نهاية التسعينات- تتطلب قفزة إلى الأمام" في مقابلة مع الصحفي الشهير خايمي بايلي عام 1998، خلال الحملة الانتخابية. حتى أنه كان يؤكد على أن كوبا كانت أمام ديكتاتورية. ورفع صورته كمحرر وطني لفرنزويلا، وكخليفة لبوليفار، في موقف واضح لعدم المساواة الاقتصادية، مع ارتفاع معدل الفقر المدقع.

الـ"كاراكاسو" (ضربة كاراكس) (1989) -الاحتجاجات التي انتهت بحمام دم، ذهب ضحيته أكثر من 300 قتيل- ومحاولة الانقلاب على الرئيس الدستوري كارلوس أندريس بيريث سهلاً وصوله، مع ذلك، ذات مرة بقيادة الجماهير إلى السلطة، خطابه غير المؤدلج، والمنشغل باليسار تارة واليمين تارة، استمر في تطرف تدريجي إلى أن نصّب نفسه أباً للاشتراكية في القرن الواحد والعشرين. "الوطن، الاشتراكية أو الموت" أصبحت شعاره وتحولت الديكتاتورية الكوبية بعد سنوات للمستقبل الرئيسي والمستفيد من النفط الخام الضخم المختبئ في باطن الأرض الفنزويلية.

5- وتحيلني أدبيات التوثيق السياسي العالمي على حالة **أندري مالغو**، الذي انتقل من مغازلة الشيوعية إلى الانضمام النهائي إلى شارل ديغول.

سيرة أندري مالغو (1901 - 1976)، المغامر المفتون منذ الشباب بالشرق وأحد الكتاب الرئيسيين في القرن العشرين، تبدأ في باريس، حيث ترك الشاب دراسته وعلم نفسه بنفسه عبر الكتب والسينما. في عام 1932، قام برحلته الأولى لجنوب شرق آسيا، حيث كوّن الوعي السياسي والإلهام اللازم لتأليف كتابه "الوضع الإنساني"، الفائزة بالجائزة الرفيعة جونكورت عام 1933. في العام التالي شارك في مؤتمر الكتاب السوفييت، وكان في ذلك الوقت متجاوزاً مع الأيديولوجية التي اعتبرها معادية للنازية والفاشية. وكافح أيضاً في الحرب الأهلية الإسبانية في جانب الجمهوريين. بعد هذه التجربة، نشر مالرو "الأمل".

6- ولم أجد باحة أمل في الثبات على المبدأ حتى في تعقبي لنموذج **فيديل كاسترو** الذي لم يبق وفيما لإيديولوجيته: "لسنا شيوعيين"، يقول برنامج معارض للنظام: "بعد 40 عاماً من الثورة، كيف سمح الكوبيون حينها بأن يُفرض نظام شمولي في كوبا؟ ببساطة جداً، لأن فيديل خدعنا". من جانبه كان فيديل كاسترو يقول بالإنجليزية في نهايات الخمسينات: "أعرف أنكم مشغولون بما إذا كنا شيوعيين، لكن أريد أن أكون واضحاً. نحن لسنا شيوعيين، بوضوح".

وكان يقول أيضاً: "كيف يمكنني أن أكون أنا شيوعياً. من أين يمكنني أن أحضر الشيوعية؟" (الأب يورنتي، يسوع)، في الحقيقة، زعيم الثورة الكوبية، فيديل كاسترو، لم ينتم أبداً إلى الحزب الاشتراكي الشعبي، المؤسسة الشيوعية في كوبا ما قبل الثورة، رغم أنه انتمى للحزب التقدمي للشعب الكوبي، والذي يدعى أيضاً بالحزب الأرثوذكسي الذي أسسه إدوارد تشيباس.

ويبدو أن من ارتدوا على أعقابهم من الساسة لا يعرفون المراجعات الفكرية، بقدر ما تمتع هذه المواقف عن تراجعات.

كما أن العديد منهم لا ينتج فكراً ولا يكتب حتى خطابه، وقليل هم الأمناء أو الوزراء التكنوقراط الذين تعاقب على رأس الأحزاب والوزارات بالمغرب من يكتب خطبه بيده ومن وحي افكاره حتى يُحسن إلقاءها.

كل هذا يعقد عملية تفكيك وتحليل خطابها في تواصلها مع الجماهير. من هنا يمكن القول أن اللبس و الغموض في تحديد هويتها بشكل دقيق إنعكس على أدائها التواصلي.

أُلفت أن القاموس الحزبي والنقابي يتخبط في كلمات مبهمة وخطب مُهممة يعتورها الغموض ويتلبسها المس بالآخر وتلبس رداء الرداءة فيدثرها بالغموض ويجعلها بدون هوية، تجري بها الأهواء والهواية والغواية حيثما اتُفق، مما يُعقد عملية تفكيك وتحليل خطابها في تواصلها مع الجماهير.

كما أن الخطاب على مستوى التصريف والتخريج يتدحرج ما بين خطاب رافض لعدد من المنتجات الاجتماعية، للأفراد وعدد من سلوكياتهم، للنصوص القانونية أحيانا أو لتوجهات سياسية أو قرارات صادرة عن جهاز الدول، وما بين خطاب متطابق مع المنتج التقريري الرسمي خصوصا فيما يتعلق بقضية الوحدة الوطنية من دون إبداع أفكار جديدة أو مذكرات دفاعية براغماتية، أو ما بين خطاب للملاءمة مع العهد الجديد وخصوصياته المطلوبة والبشرية المتميزة بجيل الشباب والنساء والذي سبّب إرباكا لجل الأحزاب لعدم قدرتها على ملائمة خطابها وأفكارها مع الوضع الجديد، كما سلف أن أشرت لذلك.

المبحث الثاني

محددات الخطاب الملكي المغاير للخطاب السياسي المعاصر



إن المقاربات السوسيولوجيانية تتمثل تحديدا في تقصي هذا النوع من الاختلافات بين المتغيرات اللغوية والشرائح الاجتماعية بإجراء تقاطعات بينها بشكل منظم.

ولو تحدثنا عن الوجه الآلي الذي يسم المقاربة الاجتماعية سنتساءل: هل نحن ننطلق من تحليل اللغة لنفهم شيئا ما عن المجتمع ومجتمع الخطيب؟ أم ننطلق من تحليل المجتمع ليسمح لنا بفهم اللغة؟

لقد شرع "بورديو" في الرد على هذه التساؤلات، ورأى أن اللسانيات التي ظهرت بعد دوسوسير قد قامت على رفض الطابع الاجتماعي للغة، وأن اللسانيين لا خيار لهم سوى البحث في صلب اللغة: فالخطاب كما يراه بورديو ليس رسالة فحسب، بل هو منتج نعرضه على تقييم الآخرين وأن قيمته ستحدد من خلال علاقاته بمنتجات أخرى أكثر ندرة أو أكثر رواجاً.

وقد تحدثت فيما سلف عن تحدث بورديو عن مفهوم "السوق اللغوية"، حين أكد أن اللغة أداة تبليغ، ولكي تُفرض لغة من اللغات بوصفها لغة شرعية، لا بد من سوق لغوية موحدة تقدر فيها قيمة اللغات المختلفة واللهجات ومقارنتها باللغة المهيمنة. وهذا كله قد حملته على الغلو في ديباجة هذا المجاز الاقتصادي الذي يقوم على ميزان القوى الرمزي بين مستهلك ومنتج مزود برأس مال لغوي يروم تحقيق ربح مادي أو رمزي.

يقودني منطق الحديث عن سوق لغوية إلى الحديث عن الخطاب الملكي الذي يتربع على عرش السوق والتسويق والتساق بين البلاغة والإبلاغ ويحظى بوثوقية لدى الجمهور المستهلك، فيقبل عليه ويقبله دون باقي البضاعة الخطابية المنثورة في أروقة الخطابة السياسية.

لذلك سأعتمد في تحليل الخطابين على مفهوم "المكانة" لدى الباحث مانغونو، وسأجمل أهم القواعد التي تحدث عنها في كتابه "تحليل الخطاب".

والتزاما بضرورات المنهج التداولي الذي يربط الخطاب بالسياق وبمجتمع الخطيب، أقدم هنا توصيفا لبيئة الخطاب المولوي (البيئة الخطابية) والظروف القارة والمتحولة للإفضاء به والدلالات التي تحفل بها فضاءاته.

توصيف بيئة الخطاب المولوي عموما يدفعني للقول أنها لا تكتسي نفس التموج الذي طبع الطيف السياسي للمغرب على عهد والده المغفور له الحسن الثاني في سياق مغرب خرج آنذاك لتوه من الكفاح ضد سلطات الحماية إلى صراع مضمّر أو معلن حول السلطة، مع ما استتبع صياغة الخطاب من مضامين حرب شرعيات جعلت مساحات الخطاب أوسع لخطبة ود المواطن من جهة، وانتزاع الإعراف الدولي بالقيادة الوطنية لمغرب ما بعد الاستقلال.

كما تبدو الحاجة ماسة إلى تقديم معلومات عامة الإطار المكاني والزمني والسياقي الذي حكم إنتاج بعض الخطابات بعينها بغض النظر عن الخطابات العادية والإعتيادية التي يقتضيها أريج الذكرى وعبق المناسبة، حتى تتشكل لدينا خلفية كل خطاب على حدة، وسياقه، وطبيعة انطباعات المتلقي عن الخطيب ومضامين الخطاب.

لكن الأكد أن سياق خطابات الملك محمد السادس هو أقل تعقيدا من البيئة الخارجية التي تشكلت فيها خطابات الراحل الحسن الثاني، في سياق إقليمي ودولي احتدم فيه الصراع آنذاك بين المعسكرين الشرقي والغربي، وحاولت دول حديثة العهد بالاستقلال التمترس في حركة دول عدم الانحياز حتى تتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود، قبل أن تندحر قلاع الشيوعية وتندشن عهد الأحادية القطبية وسطوة المنظومة الرأسمالية والدعوة إلى العولمة والحوار والاعتماد المتبادل والاقتصاد الحر، والتسامح ومسلسل السلام، ونبذ الصراع والتعصب والعنف، وغيرها من التّيمات التي تجاوزت قضية حرب الشرعيات إلى شرعنة الحرب ضد عدو هلامي دائم، والتسابق نحو التسلح وامتلاك القنبلة النووية والهيمنة على خيرات النسق ومناطق النفوذ، والتأسيس لكيان لم يكن يوما بالحسبان وتبويئه المستقبلي قيادة الشرق الاوسط الجديد مع تأمينه ضد تحالف جيرانه من خلال تفريقهم وإشعال الفتنة المذهبية والعقائدية فيما بينهم...

ما يُهمنا في هذا السياق هي مؤشرات الصدق كمقدمات لمصادقية الخطيب وسلطته الفعلية الرمزية وقيمة خطابه في أسواق التداول.

المطلب الأول/ سلطة ونظام اللغة في خدمة لغة السلطة والنظام

رغم كون الخطاب السياسي لفته إبلاغية بسيطة، فهو فلتة بلاغية تتضمن الغموض والمخادعة والتضليل على مستوى بنياته الدلالية، فلا يمكن سبر أغواره إدراكا وامتلاكًا إلا من فئة قليلة من المجتمع، فيما يمارس هذا الخطاب السياسي الدجل Imposture على الجماهير الوفيرة من الشعب التي تتلقى علامات وشفرات الخطاب الموضوعية أصلا لمحاصرة الفهم في سطح اللغة.

فالخطاب على ضربين : "خطاب كلمات" و"خطاب بنية"، وهذا الأخير غالبا ما يكون غامضا ومنه الخطاب السياسي "حيث لا يشكل الوضوح الهدف الأساسي للخطاب، بل على العكس لأنه يسعى إلى تعميم وتضبيب الرسالة عن طريق خلق الصيغ اللغوية المضادة والملتبسة حتى لا يتمكن من فهمه: فهو ليس خطابا حواريا، وإنما خطابا جبريا يقتضى تنفيذ دلالاته لا الرد عليها، وذلك لاعتماد صيغ الأمر بدل الصيغ التي تدعو إلى الحوار وتبادل الرأي، وهو ما تذهب ضحيته جماهير الشعب التي لا يحق لها أنتخوض فيه إلا بما يرضى الفئة المسيطرة، التي يحق لها وحدها أن تخوض " في السياسة".

ويسيطر خطاب العنف والصراع على الخطابات الموجودة ويحاول كل خطاب تسطير سطوته وقوته على نحو جعل الزعماء السياسيين يجتهدون للتوحيد بين هذه الخطابات في خطاباتهم حتى تتسم بميسم الهيمنة وفرض التقاليد والأيدولوجيات وإحاطتها بقدسية رجال الدين ومؤسسات المجتمع المختلفة من دور للعبادة والمدارس والكتاب والعلماء.

ومع أن الخطاب السياسي يوارى عوالم عريضة من الحقيقة فيخفف عليه من هياكل اللغة تمويهها واحتياالا على العامة المتلقين وتظاهرا بالبراءة Innocence والبحث عن مصلحتها، فالواقع أن هذا الخطاب يوجه سلوكها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي خدمة لأطماعه أو مصلحة، فتعيش الجماهير الواعية بكل طواعية تحت وطأة السلطة طالما اقتنعت بها في الخطابات الموجهة إليها والموجهة لها، وفي ذلك تأكيد للدور المحوري الذي تلعبه اللغة في الحياة السياسية.

أ- اللغة عصب الحياة السياسية وأداة لإصلاح العطب

إن من أبرز القضايا التي يشملها البحث اللساني الموجه إلى دراسة استخدام السياسة للغة، قضية المصطلحات والتعبيرات التي يصطنعها كل نظام من الأنظمة السياسية المختلفة دعاية لنفسه، وتثبيتاً لحكمة.

وتبدو الفروق ملحوظة بين طرائق الإقناع التي تتبعها كل جهة على حدة، دكتاتورية Dictatorial كانت أم ديمقراطية Démocratique، كما تبدو مختلفة لدى النظام الواحد باختلاف المراحل التاريخية والظروف الاجتماعية والأمية. كما لوحظ وجود تباينات خطابية بين "ماركس" و"لينين" و"غورباتشوف" أو الأنظمة الديمقراطية (الديمقراطية التعددية) وخطاباتها من بلد لآخر رغم وحدة المرجعية المذهبية والفكرية.

لغة الانتخابات أثناء الحملات الانتخابية والدعائية مثلاً تظل قمينة بالبحث اللساني، حتى تكشف حقائق علمية ومعرفية كثيفة العتمة والضبابية مرتبطة بالنظام السياسي و الممارسات الانتخابية والمجتمع والسياسة واللغة .

إن أية دراسة من هذا النمط كفيلة بأن تكشف عن ظهور بعض المفاهيم والمصطلحات على سطح الخطاب السياسي لمجتمع ما، (التي تطلق كفلسفات لها عمق واستقبلت بسطحية واستعملت بتسطيح)، في مقابل غياب أو تعييب متعمد لأخرى في مرحلة أخرى من مراحل حياته، مع تكييف مصطلحات ومفاهيم مع وضع جديد غير الذي ولدت فيه، وترصد مظاهر التباين اللغوي في الخطاب الدعائي أو حتى الدعوي من مرشح لآخر، ومن دائرة انتخابية أو فئة اجتماعية لأخرى، ولغة إعلان النتيجة، ولغة القوانين التي تصدر بشأن الانتخابات، ولغة الصحف والمجلات والإذاعة وتعليقات الجماهير على الانتخابات.

كما تضيئ البحوث المرتبطة بعلاقة اللغة بالحياة السياسية جوانب أخرى ذات أهمية قصوى كلغة المراسيم التي يصدرها رئيس الدولة في الشؤون السياسية وخطب العرش، باعتبارها خطابات سياسية رسمية: إن موضوع الخطاب السياسي هو الوطن والشعب والدولة وما يحيط بكافة هذه العناصر من ظروف ومتغيرات ومتطلبات خارجية أو داخلية.

موضوع الخطاب السياسي كان ولا يزال خطاباً أحادي الجانب، ويظل ملكاً لفرد أو لجماعة تتحكم في مصير الأكثرية أو القاعدة الشعبية: فهو خطاب مؤدلج ومُمنهج، والدليل أنه عندما يعلن صاحب الخطاب أن الدولة أو الشعب في خطر، فهذا يعني إن الحاكم في خطر ووجوده مهدد بالرحيل والمتلقي يفهم ذلك رغم وجود إخطار حقيقية وفعلية تهدد البلد لكن المتلقي لا يمتلك وسائل الضغط أو التغيير لذلك يصبح الخطاب فقاعة ينفخ بها صاحب الخطاب حتى تنفجر عليه في أي لحظة لا يتوقعها، كما الشأن بالنسبة لقائد الثورة الليبية الذي لقي نهاية مأساوية على يد الثوار.

وتتضح ملامح أو مظاهر الخلاف والاختلاف بين الطرفين (الحاكم والمحكوم) أو (الخطيب والمخاطب) بسرعة لدى الطرف الآخر (المتلقي) لما اثبتته التجارب الماضية على عدم صدق نوايا وأفعال المخاطب المسلوب الإرادة والمهزوم من الداخل والخارج، والتي يراها صاحب الخطاب بأنها نصر ويحاول أن يروجها في خطابه المستمرة رغم علمه بأنه مهزوم وهي تصريحات أو معلومات كاذبة.

فالمفارقات والأباطيل والأكاذيب وعقابيل الجريمة الملوثة المدسوسة بين جنبات الخطاب تؤدي إلى ردود أفعال شعبية مُغايرة ومناهضة ورافضة لهذا الخطاب البائس المهزوم.

كل أشّر في معظم الخطب السياسية للرؤساء العرب قبيل سقوطهم وقبلها سقوط خطابهم على أزمة مصداقية وثقة وإقناع وفعل مع المتلقي الذي سئم الشعارات والإنجازات اللفظية المضللة. ما تناهى إلى علمي عن عهد عبد الناصر وإنجازاته اللفظية المخادعة التي أبهتها نكسة 1967 وعجلت برجوعه إلى صفوف الجماهير، وما شهدته بعد الملاحم اللغوية لسعيد الصحاف إبان اجتياح "علوج" التحالف للعراق وتعجيلهم بسقوط النظام، وما رأيته من تهاوي حصون أنظمة في سياق الربيع العربي وما انتهى إليه حكامها يجعلني بدوري أنتهي إلى ضرورة تصحيح المفاهيم والمسارات الخاطئة والسائدة والمتلبسة التي أسهمت لعقود في غسل الدماغ والترويج لمفاهيم مغلوطة ومناهج محرفة وسلوكيات متخبطة ومزدوجة، في أفق الوقوف على أزمة الأزمة ولغة الأزمة وأسباب الأزمة.

ما يميز الواقع المغربي أن ظروف القلق النفسي المزمن والخوف من المجهول أو الانقلاب الثوري السياسي أو الاجتماعي أو الثقافي أو الفوضي لم تنجب خطابا سياسيا مزدوجا متشددا شموليا غير قابل على الانفتاح على الآخر أو لغة تحمل فكرا عقيما سقيما لا يؤمن ولا يصدق ولا يرضى إلا بنفسه، كما هو الحال في الدول الأخرى التي توالى فيها التجارب الفاشلة التي تحاول الإستمرار رغم إذعان المتلقي للخطابات السيئة الصيت والعمل.

قوة البطش والتسلط والاستحواذ والقهر والفقر والسيطرة عجلت بكسر حواجز الإذعان، فدقت لحظة الحسم وانتصرت الإرادة الحرة على الإدارة القلقة الواهنة والواهية، ولم تتمكن الخطابات التي يلقيها أصحابها على علمهم بكذبها وزيفها وبعدها عن الواقع من إرعاب وإرهاب المتلقي.

ما ميز الخطاب المولوي في ظل الأزمة أنه قلص المسافة عن القاعدة الجماهيرية وأشركها في القرار وفي تقرير المصير، كما طرحت الخطابات بفضل مهارات صوغها بديلا لصيغ وبرامج وأساليب التأليب والتحريض العارية من الصحة والدقة والمهنية والأخلاق والإقناع والإسناد والتفويض الجماهيري، لشروء أصحابها الذهني ومحدودية صدقية وفاعلية وتفاعلية ومشاركة المتلقي، الذي لم يجد بُدًا من النأي بنفسه وبوطنه عن خيار الثورة أو القومة أو الانقلاب، وإيثار الإعتصام بمحراب الابوية السلطوية الراعية وتحت جلبابها.

لقد مرّ بي الحديث عن مفهوم ومصطلح "الخطاب" والتباسه بمفهوم "النص" وخلصنا إلى أن الخطاب هو مجموعة الأحداث الكلامية المكتملة بذاتها المكتوبة أو المنطوقة، التي يُرسلها باث ما، ويستقبلها المتلقي عبر قنوات وشفرات Codes ومرجعيات Contextes مشتركة، متفق عليها بينهما، وجار اجتماع أهل اللغة عليها، قصد الإبلاغ والتواصل Communication

ويكون بذلك الخطاب السياسي باعتماد القياس ذلك النسيج اللغوي المنطوق والمكتوب المترابط المنسجم المشحون بالسياسة فكراً وسلوكاً (تفاعلات وممارسات) وفاعلين، ومتفاعلين في سياق مخصوص (اجتماعي، لغوي، زمني، مكاني...) ومعرفة وإشكالات، المكتمل في دلالاته بذاته ذو الغرض الإتصالي والخصوصية التداولية.

والخطاب السياسي رغم كون لفظة إبلاغية بسيطة، فهو لفظة بلاغية تتضمن الغموض . Ambiguïté

فهو مخادع ومضلل في بنياته الدلالية، فلا يمكن سبر أغواره إدراكاً وامتلاكاً إلا من فئة قليلة من المجتمع، فيما يمارس هذا الخطاب السياسي الدجل Imposture على الجماهير الوفيرة من الشعب التي تتلقى علامات وشفرات الخطاب الموضوعية أصلاً لمحاصرة الفهم في سطح اللغة، والخطاب على ضربين: "خطاب كلمات" و"خطاب بنية"، فيكتنف هذا الأخير الغموض، خاصة في جنس الخطاب السياسي "حيث لا يشكل الوضوح الهدف الأساسي للخطاب، بل على العكس لأنه يسعى إلى تعميم وتضبيب الرسالة عن طريق خلق الصيغ اللغوية المضادة والملتبسة حتى لا يتمكن من فهمه: فهو ليس خطاباً حوارياً، وإنما خطاباً جبرياً يقتضي تنفيذ دلالاته لا الرد عليها، وذلك لاعتماد صيغ الأمر بدل الصيغ التي تدعو إلى الحوار وتبادل الرأي"¹.

فما هي إذن خصيصة النموذج الخطابى الحوارى الذى ينأى عن الخطاب السياسى الجبرى والقهرى؟

فهل الخطاب الملكى أيضاً لفظة بلاغية أم لفظة بلاغية؟ هل الملك سلطة أم فوق السلطة وخطابها؟

ت- اللغة عصب الحياة التواصلية للملك بشعبه

إذا كانت من سمات الخطاب السلطوي:

- الإلزام والتشديد والتأكيد في الطرح؛
- سلب حرية الرأي والإرادة والمشاركة في القرار؛
- التأكيد على الكم اللفظي دون النوعي؛
- تغليب صفة الاتهام والمؤامرة على الطرف الآخر؛
- أسلوب التهديد والوعيد والترغيب والترهيب للخصم؛
- الإنفراد بالقرار من طرف الفرد أو المجموعة؛
- أساليب الإقصاء والتهميش والإلغاء وعدم قبول الآخر؛
- الاتكاء على ثلثة من الموالين وإبعاد القاعدة الجماهيرية الرافضة للاذعان والخنوع؛
- تمرير عبارات الوطنية والديمقراطية والتنمية الاقتصادية من أجل استمالة الجمهور أو سرقة قُوتِه؛
- التوظيف الخاطى لبعض المفردات والمصطلحات العلمية أو الادبية أو السياسية أو الاقتصادية أو الأحاديث النبوية والامثال لغير سياقها وبغير المعنى الذى أريد لها.

¹- سيف الدين، عبد الفتاح، في مقال له منشور بالعدد الألكترونى لمجلة العربى الجديد، مقطف جزئياً من كتابه "دفاعت المواطنه المصرىة، تأميم الدولة للدين"

فإن من خصائص الخطاب المولوي، بالمقابل:

- تناول قضايا وهموم ومشاكل الرعية ومحاولة حلها ولو بالتدرج وفي حدود المستطاع؛
- إقرار مبدأ المشاركة الفاعلة والحقيقة في تقرير المصير وتحديد القرارات المهمة؛
- التأكيد على النوع لا الكم؛
- تشكيل مجلس أو لجان استشارية في كل مفصل لإعداد مسودات تتضمن خلاصات حول مشاريع وقوانين مصيرية واعتمادها دون تحفظ أو مصادرتها؛
- تغلب عليه الصراحة والوضوح والمصادقية؛
- خطاب الأفعال لا الأقوال؛
- يمتاز بقوة الحجج والبراهين والأدلة والإقناع؛
- يسعى إلى الإصلاح الكامل والشامل في مختلف المجالات ولا يركز على جانب دون آخر؛
- الانفتاح والحوار والتفاعل مع الآخر وقبول الآخر؛
- التفويض والإسناد الجماهيري؛
- وجود المعارضة الحرة؛
- شرعية وقانونية الخطاب.

بمنطق الإستفراد، تحاول الأحزاب صياغة المقدمات العملية لفلسفة السيادة المطلقة، وتنطلق من المقدمات النظرية الجاهزة ويشكل العامل الإيديولوجي أساساً ثقافياً ودعائياً لفلسفة الإستفراد بالقرار والبحث عن التفرد: وتقوم هذه الفلسفة انطلاقاً من نواة إيديولوجية ذات محورين: الإعتقاد بأن الحزب مكلف برسالة من جهة، والاعتقاد اليقيني بأن أداء هذه الرسالة يستلزم استخدام كل الوسائل، دون اعتماد وسائل الثبات في العمل والموقف على قدر الديمومة في متابعة الهدف، ومواصلة الجوهر الإيديولوجي المولّد للعمل.

ويحاول الخطاب الحزبي إدخال الآخرين جبراً في منطقة القبول بالقدر الحزبي: فثمة يقين لدى "فقهاء الأسلمة أو الحداثة" بأن إذعان الآخرين عنوة - كائناً ما كان شكل الإكراه - أمر محتوم في مواجهة أي شكل من أشكال الممانعة أو المقاطعة. فبعض الأحزاب تعتقد أنها كلبية وتريدها لا تضاهي حتى تماهي بها باقي الكائنات السياسية.

فالاستعلاء ولاهوت القوة كممارسة مركبة للهيمنة والإستقواء بالقرب أو النأي عن دائرة القرب في خطاب الطليعة يترجمان وجود منطقة نائمة في العقل السياسي تستيقظ في المحطات الكبرى وعند اقتراب موعد الإستحقاقات الإنتخابية، وتتعاطى مع السياسة بالمفهوم الهوبزي الماكيافيللي، ولا تُغلب البتة المفهوم المثالي للتعاطى مع الشأن السياسي.

هذه الأطروحة في بعض محطات رواج المنتج الحزبي عند فتح الدكاكين السياسية ينطوي بلا ريب على فعليّة كثيفة، وميلاً اعتيادياً لادعاء النأي عن الديماغوجيا لإظهار محاسن الطموح الحزبي بخطاب موجّه أقل تكلفاً في ارتداء الأقنعة وفي محاولة حيازة الإقناع، مع بلورة الصورة الحزبية للزعيم الحزبي الحامل للخطاب الرسالي التوتاليتاري، وفق داروينية سياسية لم تغب يوماً عن المعتقد الإستراتيجي والصوغ الخطابي للعديد من الأحزاب.

فاستغرق الفكر السياسي بأحلام الإكتساح الإنتخابي وشغف الوصول للسلطة السياسية وبالقدرة الحتمية على تحقيقها، وتشرح ما شهدناه في العديد من مراحل التحقيب السياسي الحزبي من أدوار للميتافيزيقا السياسية في رسم الجذر الفكري والإيديولوجي للسلوك الإستراتيجي الخطابي للأحزاب.

ويقتضي التعمق في دراسة لغة الخطاب الملكي والكشف عن خصائصه ومميزاته والبحث في مضامينه العديد من المسارات العلمية التي لا تقتضي منا أساسا التوسل بما خطه علماء اللغة والبلاغيون منذ قرون خلت وما خطه المتخصصون في العديد من الحقول المعرفية.

لما عالجت عمليات تأليف الخطب وإلقائها، واستجابات الجمهور الذي يتلقاها من خلال تناول الأسئلة التفصيلية التي دأبت على إضاءة دروب بحثي من خلالها، وجدتني أمام أسئلة من قبيل:

من الذي يكتب خطب الملك؟ وما طقوس كتابتها؟ وما أشكال الجدل الذي كان يوجد بين أفكار هؤلاء الكتّاب ومعتقداتهم وقناعاتهم (وحتى مصالحهم) وأفكار الملك ومعتقداته وقناعاته ومصلحته ومصالح تحقيق المصلحة والمصالحة مع عموم جمهور التلقي؟ كيف استطاعت الخطب الملكية أن تلعب دورا محوريا في الحياة السياسية وتحقق مستويات حشد وتأييد وانخراط جماهيري؟ هل يتحقق الانسياق لملاءمة الخطاب الملكي للسياق الذي ورد فيه أم اعتبارا لمكانة العاهل؟ ما طبيعة العلاقة التي تسعى الخطب الملكية لترسيخها بين الملك والشعب؟ أهى علاقة قيادة وريادة أم علاقة انقياد طوعي للسادة أصحاب السيادة؟

المطلب الثاني/ مسالك التأليف ورفع التكليف

إذا كان من الثابت أن القول أعم من الكلام لأنه يطلق على اللفظ المفيد سواء أكان مفردا أو تركيبا، وأن الكلام لا يطلق إلا على التركيب المفيد فائدة يحسن السكوت عليها -كما هو شائع عند النحاة-، ولكن لا يشترط فيه الإرادة دائما لاحتمال صدوره عن النائم والغافل، وإن كان الغالب تعلقه بها، فإن الخطاب أو الخطبة يشترط فيه أو فيها إرادة الكلام وإرادة الإبلاغ حتى لا يكادان ينفكان عنه، وهو بذلك أقرب إلى مصطلح الدلالة باللفظ.

من هذا المنطلق، كان الخطاب منذ الأزل ولم يزل يقتضي مناويل صوغ خاصة تلك العديد من المسالك، من أجل البناء والإبانة وتثبيت الموقف والمذهب، مذهب الغمام مالك وتصوف الجنيد السالك المنجي من الغلو وما يستبطنه من مهالك.

تبدأ عملية التخاطب بالاستعمال الذي يقوم به صاحب الجلالة للخطاب، وتنتهي بالحمل الذي يعزى إلى جمهور التلقي، فلا يتحقق التخاطب والتواصل دون لجوء جلالته إلى مسالك يحاول بها تحقيق غايته أو إيصال مقصوده لشعبه، فنجد أن هذه المسالك تتنوع بتنوع غاياتها، فتنوزع بين:

● **مسالك بيانية** (التي ترتبط بمراد المتكلم من خطابه أهو البيان كما هو المعتاد أم التضليل كما في الإبهام والتورية؟)، ويندرج تحتها المسالك التصريحية والتلميحية، ومنها المسالك الموقفية أو التفاعلية (كالشك والحسم والحذر والهجوم والدفاع والتأدب)

● **وأخرى بنائية** تعنى بالشكل الخطابي، ويندرج بدورها تحتها نوعان:

- نوع على مستوى الجملة ويسمى مسالك النظم (الناشئة عن عملية بناء الجملة التي تأخذ شكلها النهائي في صورة ما يسمى بالأساليب أو أفعال الكلام كالإخبار والأمر والنهي)؛

- ونوع على مستوى النص ويسمى مسالك التأليف، وتندرج تحتها المسالك النمطية (كالسرد والوصف والشرح والحجاج)، وهناك أيضا مسالك السوق التي تسخر فيها القرائن المنصوبة لخدمة مراد جلالته.

كل ما ذكر من مسالك حتى الآن يرتبط بجلالته كمتكلم، ويسمى **مسالك الخطاب**.

أما **مسالك الحمل**، فترتبط بجمهور التلقي بمختلف تشظياته وفئاته وأطيافه ومستويات تلقيه وفهمه وتفاعله، وتشمل **مسالك التفكيك** بنوعيه الوضعي والسيمائي، و**مسالك التأويل**، و**مسالك التفسير**، و**مسالك التفاعل**.

ويرتبط المسلك عادة بوسائل جزئية تقل أو تكثر لتنفيذه، فمسلك التصريح مثلا يحتاج إلى اتباع الأصول الوضعية، أو نصب قرينة تدل على العدول عن المعنى الوضعي، ومسلك الحجاج يحتاج إلى وسائل الإقناع كالاستقراء والقياس والتعليل. ويعد التمكن من بناء المسالك الخطابية من مشمولات الكفاية التخاطبية التي تشمل أيضا معرفة المتخاطبين بالمواضيع اللغوية المعجمية منها والقواعدية، وقدراتهم المنطقية، ومعرفتهم بأصول التخاطب ومعرفتهم بالمحيط الخارجي، وإلمامهم بكل السياقات المتصلة بموضوع التخاطب.

❖ أولا- مقتضيات التأليف بين المسالك البيانية والمسالك البنائية

أ- المسالك البيانية

ترتبط عملية التخاطب ارتباطا شديدا بمبدأ البيان الذي يقتضي أن نفترض حرص المتكلم على صوغ كلامه على نحو يتوخى فيه الصدق والدقة ومناسبة المقام التخاطبي، وإذا كانت هذه الشروط ضرورية للإيفاء بمستلزمات المسلك التصريحي، فإن التلميح قد يكون خيارا مستحسنا في كثير من المقامات التخاطبية، وهذا ما انعكس على مستويات الوضوح في الخطاب الملكي.

ولتحقيق الوضوح، تتبع الأصول الوضعية المستلزمة لما يلي:

- 1- استعمال الحقيقة وتجنب المجاز؛
- 2- استعمال الألفاظ المتباعدة وتجنب المشترك اللفظي؛
- 3- الذكر وتجنب الحذف والإضمار؛
- 4- الالتزام بالترتيب وتجنب التقديم والتأخير؛
- 5- الالتزام بالمساواة بين اللفظ والمعنى وتجنب الإيجاز، والإطناب.

ويلتزم في صياغة معظم فقرات الخطاب بهذه الأصول فبختارون بذلك مسلك التصريح، فلا يعزلون عنها إلا لماما ببعض أنواع العدول سواء أكان عدولا كيفيا كانتهاك مبدأ الحقيقة، أو كميا بأن حذف أو أضمر أو كرر أو أجزأ أو أطنب، أو موقعيا بأن قَدِّم وأخَّر، فيرجحون بذلك المسلك التلمحي لأن طبيعة المخاطب تقتضي ذلك (كما هو الشأن عند الحديث عن الجزائر، أو عند تعمد عدم تدنيس جلالته لسانه بذكر الموالين للبوليساريو ولطروحاته الانفصالية واستعاضته عنها بوصف "أعداء الداخل كرديف ذيلي لأعداء الخارج").

ولا يحضر التلميح واستعارة وسائله الدلالية وتوظيف بعض الاستعارات لكبح السعار الاحتجاجي إلا في بعض المواقع التي ضمنت بعض فقرات خطاب دلالاته بعض الافتراضات أو المفاهيم التخاطبية.

وعليه، فقد غاب أيضا مسلك الإبهام كثالث عنصر من عناصر المسالك البيانية بسبب ندرة استخدام وسائله (كالتورية والإلغاز).

ب- المسالك البنائية

تعنى هذه المسالك بعمليتي بناء الجملة وبناء النص، وتشتمل نوعين من المسالك: المسالك النظامية التي تظهر على مستوى الجملة في شكل ما يسمى بأفعال الكلام كالإخبار والأمر والاستفهام، والمسالك التأليفية المتمثلة في أنماط الخطاب السردي والوصفي والاستدلالي والشرحي.

وتقترب المسالك البنائية من النظامية، لأن ضم عناصر الكلام بعضها إلى بعض، وتعليق كل جزء من أجزاء الجملة بغيرها من الأجزاء، ويشمل الرصف، والتموضع (بمعنى وضع التيمات واختيار الرئيسة والفرعية التي تنسجم مع مناسبة الخطاب الثابتة أو سياق متحول اقتضى تواصل الملك وشعبه) والاستبدال.

يرتبط "الرصف" بمستوى القولة عادة وإن كان بعض اللسانيين يوسع دائرته ليشمل الفقرة أيضا. ويقصد به هنا وضع العناصر اللغوية المستعملة في القولة في شكل خطي بحيث تتوالى فيه تلك العناصر مرتبة في استعمالها ترتيبا زمنيا، ويبدو هذا في الكتابة على شكل سلسلة ائتلافية تتجه في اللغة العربية من اليمين إلى اليسار.

يقوم الرصف أساسا على الإسناد الذي هو المكوّن الأساسي للجملة، وهو المنشئ للنسبة الكلامية بين الموضوع والمحمول.

وفي كل خطوة من خطوات التعليق المؤسسة لكل هذه العلاقات يحرص جلالته على محاولة الملاءمة بين الاختيار على مستوى الاستبدال والمتطلبات الوضعية والاستعمالية للانتلاف، والتعجيم (أي تحقق المعنى المعجمي في المَصْرَف morphème والكلمة) والتععيد (أي صوغ القواعد الصرفية والنحوية) من المعطيات الوضعية التي لا أثر فيها للمتكلم، واختيار ما هو مناسب للمقام التخاطبي من بين البدائل المعجمية والصيغ الصرفية والأنماط النحوية الممكنة.

وعليه، يتوقف الاستبدال على الطريقة التي يريد جلالته أن يورد بها المعنى من حيث الدقة الدلالية والشحنات العاطفية التي تكتنف الكلمات ومدى إحياءاتها، فترسم غايات الخطاب وأغراضه شكل التقاطع بين محور الاستبدال والانتلاف وتتحكم في توجه المتكلم نحو الذكر أو الحذف، والإضمار أو الإظهار.

ويرتبط الرصف كذلك بـ"التموضع"، على اعتبار أن "موضعة الخطاب الملكي Thématisation du discours royal تقتضي ترتيبا معيناً للموضوع أو المواضيع والمحمول وفقا لأولويات التبئير (أي تقديم ما ينال عناية جمهور التلقي) وما يرومّه في مجال إحداث تغييرات موقعية واختيارات كمية وكيفية تحقق لهم أغراضهم بقدر ما يملكون من كفاية بلاغية وتخاطبية.

وترتبط الإفادة ارتباطا وثيقا بتمييز المتكلم بين ما يعتقد أنه معلوم للمخاطب فيعامله على أنه مسلمة، وبين ما يضيفه إلى علم مخاطبه وهو المتعارف عليه في الدراسات التخاطبية بالإضافة.

ولعل من أهم مستلزمات الرصف أن كل عنصر لغوي يستعمل يفرض قيودا قواعدية ودلالية وسياقية على ما يأتي بعده من عناصر بحكم قواعد الانتلاف المتعلقة باللغة المستعملة، ولربما كانت استتبعات المطابقة، وعلامات الإعراب بأنواعها المختلفة في العربية أوضح مثالا على القيود القواعدية.

أما القيود الدلالية فتتصل اتصالاً وثيقة بالسّمات المنطقية والمعجمية لكل كلمة من الكلمات المستعملة ومدى ملاءمتها لما سبقها وتلاها من كلمات، كما أن مناسبة السياق الداخلي والخارجي وشروط التماسك المنطقي والنصي تعد معياراً جوهرياً لتمكين الكلام المرصوف من القبول.

وقد أكد عبد القاهر الجرجاني ذلك بقوله: "ليس الغرض بنظم الكلم أن توالى ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه الفعل".

وفي كل خطوة من خطوات الرصف يتطلب النظم اختبار من محور "الاستبدال" ما يرغب في اختياره أو مما يقتضيه السياق أو تفرضه قواعد اللغة، فيتغير اللفظ ("مناهضو أو مناوئو أو معارضو أو مناصرو) المشروع الوطني وفقاً لمقاصد جلالته وأغراضه التخاطبية، وبذلك يكون قد اختار واحداً من الخيارات التي تدخل مع الخيارات الأخرى في علاقة تغاير؛ لأن معنى كل خيار يختلف اختلافاً جزئياً أو كلياً عن الآخر مهما قلّ أو كثر هذا الاختلاف، ولكنه لا يستطيع أن يقول "مناهضي"؛ لأن العلاقة هنا بين الخيارين (أعني بين "مناهضو" و"مناهضي") علاقة تشابه، أي أن اللفظين بمعنى واحد، ولكن قواعد اللغة تسمح بخيار واحد فقط هنا بين الخيارين وتترك الباقي لسياق آخر.

ويتسم النظم بسمّة التعقيد، فعلاوة على ما سبق من وسائل بنائية ممثلة في الرصف وما يقتضيه من تموضع وتبئير واختيار من محور الاستبدال، فإن من مهماته الشاقة تحويل البنية الدلالية العميقة إلى بنية قواعدية سطحية تراعى فيها القضايا الدلالية من نحو التضمن والافتراض والمفاهيم الخطابية كمفهوم الموافقة ومفهوم المخالفة ونحو ذلك.

ويجبرني هذا إلى الحديث عن نوعين من الدلالة يعد كلا منها مسلكاً نظمياً دلالياً، هما الدلالة الكلامية أو الوجودية والدلالة العدمية أو السكوتية.

ج- المسالك التأليفية

بدورها، تقترب المسالك التأليفية من ربيبيتها البنائية والنظمية، وسنصرف فهمها إلى بناء النص، سواء صغر حجمه ككتابة الرسالة أم كبر كتابته، خاصة أننا لا نجد في المعاجم ما يخبرنا بأن لمعنى التأليف وضعا يختلف عن معنى النظم، بيد أن الاستعمال يجعل كلمة "تأليف" أنسب لبناء النص من كلمة "نظم"، ولذلك استعملنا "النظم" لبناء الجملة، و"التأليف" لبناء النص.

وتُعد "كفاية التأليف" أرقى أنواع الكفايات التخاطبية، لأن اكتسابها لا ينحصر في التمكن من معرفة العناصر المعجمية والقواعدية والبلاغية والأسلوبية للغة المستعملة، بل يشمل أيضاً مهارات منطقية ومنهجية عليها يحتاج تعلمها عادة إلى تعليم مدرسي؛ إذ لا تكفي الكفاية اللغوية حتى في كتابة أبسط أنواع النصوص ككتابة الرسالة أو المقال ما لم يتدرب المؤلف على ذلك تدريباً خاصاً. ومن ثم فإن مسلك التأليف هو مسلك خطابي خاص بمن يأنسون في أنفسهم الكفاية في بناء النص.

ومن المعلوم أن النصوص تتفاوت في بلاغتها وجودتها وجمالها، ولكن الحد الأدنى الذي يعطي لأي قطعة من النثر سمة "النصية" يتطلب توفر شرطين على الأقل:

• **التنظيم:** ويتحقق التنظيم بما يشتمل عليه النص من تقسيم وتفرّيع، وهو أمر يختلف باختلاف نوع النصوص وحجمها، فالكتب مثلاً تقسم عادة إلى فصول (أو أبواب وفصول)، ثم تقسم الفصول إلى مباحث، والمباحث إلى فقرات. أما المقالات فيكتفى فيها عادة بمقدمة وخاتمة ووسط يشتمل على قضايا متبوعة بأدلة أو أمثلة أو تفاصيل قد تشتمل على إحصائيات ونحوها، وتقسم الأفكار الواردة في المقال إلى فقرات تتناول تلك الأفكار، وتشتمل كل فقرة على جملة مفتاحية تحمل الفكرة الأساسية تعقبها عادة جملاً داعمة لتلك الجملة على سبيل التفصيل أو التعليل أو الشرح أو التمثيل. أما في السرد فإن الحكي والشخصيات والزمان والمكان والحدث والحوار من الأركان الأساسية التي يقوم عليها العمل القصصي أو الروائي، ويتفاوت القصاصون والروائيون في عرض تلك العناصر، ورسم صورة التفاعل بينها، وكيفية التدرج في الانتقال من التمهيد إلى العقدة إلى الحل أو النهاية؛

• **الاتساق والتماسك:** يقصد بالاتساق الترتيب الذي يأخذه النص في بنيته الداخلية العميقة، وهو يختلف باختلاف نوعه، فقد يكون الترتيب زمانياً ينتقل فيه من الحدث الأقدم إلى الأحدث، أو منطقياً تتسلسل فيه المقدمات لتتقود إلى نتائج مناسبة، أو غير ذلك؛ إذ ليس ثمة نمط حتمي خاص، بل الكاتب هو الذي يخلق المنطق الخاص بالنص اعتماداً على قدرته على رسم التمهيد المناسب للغرض المستهدف، وعلى صوغ الكيفية التي ينتقل بها من المقدمات إلى النتائج. أما التماسك *cohésion* فهو الربط العضوي بين أجزاء النص على نحو تبدو فيه تلك الأجزاء متوقفة بعضها على بعض كالبنية الواحدة أو العضو الواحد، ويحدث عادة بوسائل لغوية خاصة كالضمائر وأسماء الإشارة وأدوات الربط والحذف والتكرار والإبدال، وقد يكون للقرائن الخارجية المصاحبة للنص تأثير في إحداث هذا التماسك أو تعزيزه.

يمتاز بناء المتن الخطابي بالسمة التراكمية، الأمر الذي يجعل من المسلك التأليفي مهمة معقدة؛ إذ تحتاج كل جملة جديدة في النص إلى عملية إدراج واعية تتطلب تحديد علاقتها بما قبلها وبما سيأتي بعدها من جمل، وقد يختل البناء النصي بسوء الاستهلال أو التخلص، أو سوء استعمال وسائل التماسك، أو بعدم اتباع ضوابط الوصل والفصل، أو بالإخفاق في تكوين بنية منطقية مقبولة للقارئ.

وربما لا أبالغ إذا ما قلنا إن القارئ قد ينزعج من احتواء النص على أخطاء نحوية أو إملائية أو أسلوبية أو مطبعية، ولكن أشد ما يزعجه اختلال البنية المنطقية للنص، أو اقتقاره إلى التماسك العضوي أو اللفظي، وقد عبّر حازم القرطاجني عن ذلك بقوله: "فالذي يجب أن يعتمد في الخروج من غرض إلى غرض أن يكون الكلام غير منفصل بعضه من بعض، وأن يحتال فيما يصل بين حاشيتي الكلام ويجمع بين طرفي القول حتى يلتقي طرفا المدح والنسيب أو غيرهما من الأغراض المتباينة التقاء محكما، فلا يختل نسق الكلام ولا يظهر التباين في أجزاء النظام؛ فإن النفوس والمسامع إذا كانت متدرجة من فن من الكلام إلى فن مشابه له، ومنقلة من معنى إلى معنى مناسب له، ثم انتقل بها من فن إلى فن مباين له من غير جامع بينهما وملئ بين طرفيهما وجدت النفس في طباعها نفورا من ذلك ونبت عنه، كانت بمنزلة المستمر على طريق سهل، بينما هو يسير فيه عفوا إذ تعرض له في طريقه ما ينقله من سهولة المسلك إلى حزنوته ومن لينه إلى خشونته"¹.

1- حازم لقرطاجني، مرجع سابق، ص 319

د- المسالك الموقفية

يتأسس كل خطاب ملكي على رؤية وموقف ملكيين من قضية او مجموعة قضايا تَهْمُ الوطن والمواطنين، ويقاس نجاح التخاطب بمدى مناسبة كلام المتكلم للمقام التخاطبي، وقد أولى علماء البلاغة هذا الأمر عناية خاصة حتى عرفوا البلاغة بأنها "مراعاة المتكلم لمقتضى الحال"، ولذا فإن المتكلم مطالب بمعرفة المسلك المناسب لحال مخاطبه.

يقول السكاكي: "مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر. ثم إذا شرعت في الكلام فلكل كلمة مع صاحبها مقام، ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام، وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به، وهو الذي نسميه مقتضى الحال، فإن كان مقتضى الحال وإطلاق الحكم فحسن الكلام تجريده عن مؤكدات الحكم. وإن كان مقتضى الحال بخلاف ذلك فحسن الكلام تحليه بشيء من ذلك بحسب مقتضى ضعفا وقوة، وإن كان مقتضى الحال طي ذكر المسند إليه فحسن الكلام تركه، وإن كان مقتضى إثباته على وجه من الوجوه المذكورة فحسن الكلام وروده على الاعتبار المناسب، وكذا إن كان مقتضى ترك المسند فحسن الكلام وروده عاريا عن ذكره، وإن كان مقتضى إثباته مخصصاً بشيء من التخصيصات فحسن الكلام نظمته على الوجوه المناسبة من الاعتبارات المقدم ذكرها، وكذا إن كان مقتضى عند انتظام الجملة مع أخرى فصلها أو وصلها والإيجاز معها أو الإطناب، أعني طي جمل عن البين ولا طيها، فحسن الكلام تأليفه مطابقاً لذلك".¹

ولا يتوقف اهتمام المتكلم بالمقام الآني للمخاطب، بل يمتد ليشمل التعمق في شخصية المتكلم لمعرفة النمط الذي تنتمي إليه؛ كي يكون خطابه ملائماً لشخصية مخاطبه، فيختار الأسلوب الذي يتناسب معه، فنغمة الشك مثلاً تتناسب مع الشخصية المفتحة الناقدة، ونغمة الحذر تنسجم مع الشخصية القلقة التي تشعر بالظلم والاضطهاد فتتزعج إلى اتخاذ موقف دفاعي لا تقبل فيه بالنقد، وغالباً ما يرتبط ذلك بعقدة النقص، ونغمة الحسم تتناسب مع الشخصية المنغلقة الاستبدادية، أما نغمة التيقن فتتناسب مع الشخصية التي يعوزها التفكير النقدي.

إن الاعتقاد بأن الكلام ما هو إلا حدث قولي وتجنب طابع "الفعلية" فيه مجانب للصواب، وينضوي على إضعاف ضمني لأهمية اللغة في حياتنا: إن الأب عندما يريد من ابنه أن يركب في السيارة قد يبدأ بحمله على كتفه ثم يضعه في الكرسي الخلفي للسيارة، ولكن هذا لن يستمر طويلاً؛ لأنه بمجرد أن يحقق الطفل الحد الأدنى من الاعتماد على نفسه في المشي ستتوب كلمة "اركب" عن كل ما كان الأب يفعله سابقاً، وهو ما يعني أن عبارة "اركب" حلت محل الفعل الذي كان يقوم به الوالد، وإن لم تكن لها القوة الإنجازية التي يتحقق بها الفعل في الواقع، وقد تقودنا قصة الاستعاضة بفعل الأمر عن حمل الولد هذه إلى استنتاج أننا إنما نلجأ إلى اللغة كلما شعرنا أنها توفر لنا جهداً يتطلبه القيام بفعل ما، غير أن هذا في الواقع ليس كل شيء يمكن للغة أن تقوم به؛ وذلك لأننا نلجأ إليها أيضاً للقيام بأفعال لا يمكن فعلها بدونها، وهكذا فإن عبارة "أنت طالق" عندما يقولها الزوج لزوجته وعند توفر الشروط المناسبة سيترتب عليها أفعال ذات صلة: كالهجر، والانفصال، والابتعاد إلخ، وهي أفعال لا تحدث لولا صيغة الطلاق.

1- السكاكي، مرجع سابق، ص 80

إن كثيرا مما نعهده من الأقوال ونتعامل معه على هذا الأساس لا يخطر ببالنا أنه من الأفعال، ومن ذلك القراءة، والحكي، والنصح، والوعظ، والتدريس، والإرشاد، ولا يمكن لنا تصوره على حقيقته إلا عندما نضعه في جواب ماذا تفعل؟ ويكون الجواب حينئذ: أقرأ نشرة الأخبار، أو أحكي له قصة، أو أنصح ابني، أو أعظ طلابي، أو أدرس الأولاد، أو أمني على زوجتي طريقة صنع الكعكة.

للتذكير فقط، يمكن القول أن أفعال الكلام تعد إذن النتيجة النهائية لعملية النظم، وهي أهم المسالك النظمية التي نحقق بها أغراضنا وغاياتنا التخاطبية، فإذا أردت أن أطلب شيئا فبإمكانني مثلا أن نفعل ذلك بالأمر أو بالدعاء أو بالالتماس، وإذا أردت إعلام مخاطبي بشيء ما فما عليّ إلا أن أخبره بذلك: فاستعمال عبارات اللغة، كان لأوستين Austin وسيرل Searl الفضل في التنبيه إلى ذلك، ووفق ما سقناه في مواضع أخرى من هذه الأطروحة، لا يقف عند حد القول فقط، بل هو فعل ذو تأثير فيما حولنا، وهو الرد الذي يأتي لدحض الاعتقاد السائد عند أتباع المدرسة الوضعية المنطقية التي ترى أن القولة اللغوية تستخدم لوصف الوقائع أو الأحوال، وأنه لا يمكن أن تكون للقولة معنى ما لم يثبت صدقها.

إذن نحن الآن أمام ثلاثة أنواع من الأفعال: الفعل اللفظي (وهو القول أو النطق بالقولة Acte locutoire)، والفعل القصدي (Acte illocutoire)، وهو قصد المتكلم من قولته كاستفهام أو الإخبار، وقد عُدَّ "الوحدة الصغرى للتخاطب اللغوي"، والفعل التأثيري (Acte perlocutoire) وهو التأثير الذي أحدثه القول في المخاطب كتصديق الخبر أو طاعة الأمر.

❖ ثانيا- المحدد الإيديولوجي للصياغة

بعد الاستقلال، كان الخطاب السياسي متعدد المنطلقات والصيغ بتعدد الصاغة، فكان هناك خطاب القصر في العديد من المناسبات التي وثقها مؤرخ المملكة الراحل في مجلدين، وهناك خطاب زعماء أحزاب الحركة الوطنية، وهناك خطاب أعضاء جيش التحرير، فضلا عن الخطابات الدينية الصرّف زعماء بعض الزوايا التي كانت لها قوة حشد وتعبئة تضاهي قوة تعبئة القصر والأحزاب المذكورة، وخطاب الحركات التحريرية بمرجعيات مؤدلجة، قبل أن تسفر حرب الشرعيات وتسطير مسار تدبير المغرب المستقل عن انتصار الملكية فاستتب لها الأمر، وصار هناك خطاب وصوت واحد، هو الخطاب الملكي، وتراجعت أحزاب الحركة الوطنية والأحزاب الشيوعية والإشتراكية وراجعت خطاباتها.

المطلب الثالث/ من يكتبون وماذا يكتبون؟

سبق القول أنه في بداية حكم الملك محمد السادس، أحدث منصب الناطق الرسمي باسم القصر الملكي، وعُين فيه حسن أوريد، قبل أن تغشّل التجربة وتقبّر بشكل نهائي.

وتفيد الأخبار المستقاة أن هناك تفكيراً جاداً في تعيين مجموعة من الناطقين الرسميين، على أساس أن يكلف كل واحد فيهم بملف معين: رغم أن الفكرة مودة، إلا أنها لا تعوض بحال من الأحوال استراتيجية تواصلية محكمة مبنية على القرب ومتخففة من عبارات البروتوكول الثقيلة، انسجاماً مع إعلان الملك محمد السادس أنه "ملك مواطن"، يخاطب الشعب بلغته الوطنية.

إن تجربة إسناد الكتابة لخلية كتابة أو لصاحب قلم سيّال عاشها الزعيم القومي جمال عبد الناصر مع الكاتب الصحفي محمد حسنين هيكل الذي كان يتولى إعداد وتنسيق خطابات الزعيم الناصر، وكانت للعبارات التي انتقاها هيكل لخطاب عبد الناصر بعد النكسة وهو يعلن عن تنحيه سحراً أخرج الشعب المصري إلى الشوارع هاتفاً بحياة الزعيم.

وما تكليف حسنين هيكل بورش الكتابة إلا إقرار منذ الازل ولم يزل بالسطوة الرمزية للإنجاز اللغوي البلاغي سطوة رمزية على الذهن العربي: البلاغة بالنسبة إلى العرب بمثابة الفن بالنسبة للحضارة الرومانية والإبداع المعماري في الحضارة اليونانية والفرعونية.

فإذا كان فن الرسم والنحت والتجسيد محاطا بطابوهات دينية تصل إلى حد التحريم الصريح، فالنحت اللغوي البلاغي وطلاؤه بطلاوة بديعية وحلاوة لفظية شكل مناط فخر العرب ومصدر إعجاز الرسالة المحمدية.

على سبيل المقارنة، فقد كان الكاتب "محمد حسنين هيكل" يتولى كتابة خطب السادات خاصة في بداية حكمه، قبل أن يتولى مهمة الكتابة "موسى صبري" و"أحمد بهاء الدين"، وعلى عهد الرئيس المخلوع حسني مبارك، كان كل من "بطرس غالي" و"أسامة الباز" كتبة النظام المصري.

وقد تحدث موسى صبري عن أنه كان يجيد التعبير عما يريد السادات، في حين تحدث أحمد بهاء الدين عن أنه اختلف مع السادات في كتابة خطاب ما بعد 18 و19 يناير 1977، لإختلاف في الرؤية، حيث رأى السادات أن المظاهرات مجرد "انتفاضة حرامية"، بينما رآها بهاء انتفاضة اجتماعية لأسباب اقتصادية، ونتيجة مباشرة لسياسة الانفتاح الاقتصادي.

حتى حرب أكتوبر كان السادات يلتزم بنص الخطاب المكتوب، وكان قليل الخروج عليه، لذا كان يتحدث بالفصحى وفي هذه الفترة كانت شرعيته مرتبطة بشرعية عبد الناصر، قبل أن يكتسب بعد الحرب شرعية جديدة، فتحرر من الخطاب الرسمي المعد له، وبدأ يرتجل في الخطاب ويخرج على النص.

وقد كانت بعض خطبه في آخر سنوات حكمه قبل اغتياله كلها ارتجالاً ولم يكن يلتزم بالنص، خاصة عندما يتوجه بلغة عامية وبمصطلحات ريفية لعموم الشعب المصري، في حين كان يلتزم بالنص إذا تعلق الأمر بخطاب رسمي أمام جمهور تلقى خاص كما حدث عند إلقائه خطاباً أمام الكنيست التزم فيه بالنص المكتوب ولم يخرج عليه.

كما درج السادات على استعمال الآيات القرآنية والكلمات الدينية في خطبه لضمان تأثير الدين على الناس والمستمعين، كما أنه كان دائم الإشارة إلى السيرة النبوية لمواجهة معارضيهِ من اليساريين الذين كان يتهمهم بالكفر وبالإلحاد وأنهم متأثرون بالشيوعية، وفعل ذلك أيضاً مع عدد من الزعماء العرب الذين كان يهاجمهم، خاصة العقيد الليبي السابق معمر القذافي.

ولم يتم الاعلان عن اسماء من كتبوا خطاب السادات إلا بعد اغتياله، والذين يكتبون لا يحبون الاعلان عن أنفسهم في حينه، باعتبار ان الخطاب في النهاية يحمل اسم الرئيس أو الحاكم، ولا يجوز ان يقول احد انه يكتب له خطبه، وبعضهم لا يعلن خوفا من ردود الفعل المعارضة للخطاب أو للحاكم، لكن المفترض ان الكاتب لا يعبر عن افكاره هو، بل عن افكار من يلقي الخطاب ويتحدث به، وبمجرد اداعة الخطاب وإلقائه تنتفي تماماً مسؤولية الكاتب، فهو ينسب الى قائله.

ويشير من عاصر الرئيس السادات وما ورد في فيلم "أيام السادات" أنه كان مُرهقا لمن يكتبون خطبه، لأنه كان كاتباً محترفاً من قبل وعمل صحافياً لفترة، ورئيس تحرير جريدة "الجمهورية"، فكان هذا المسار في التحرير يدفعه للتحري والتدخل في كل جملة وعبرة.

لا شك أن الخطاب يحمل شخصية قائله و انطباعاته و ثقافته، ولكن الخطاب السياسي لا يحتمل هذا ؛ لأنه خطاب معد سلفاً، بنفس حمل الخطاب الغربي لفكر المؤسسة التي يعبر عنها وعن أهدافها ومصالحها: فالشخصية الفردية مغيبة فيه، وخطاب الملك يقترب من النموذج الغربي الذي تجاوز مستوى التعبير عن النفس وما يمكن أن يجيش فيها إلى التعبير عن المؤسسة الملكية، على النقيض من الخطاب الحزبي الذي يعلو فيه صوت الفرد ويستحوذ عليه، ولا تسمع فيه أصوات الآخرين ولا يعبر عنهم أو خطاب والده الذي كان يناصب العداء لجهات بعينها، فينزاع عن خطابه طابع التجرد الذي يقتضيه التوجه لعموم المغاربة دون تمييز سلبي، كما يفعل وارث سره حين يميز تمييزاً إيجابياً لتمكين جهات أخطأتها عمدا مشاريع التنمية (الشمال والريف) وأوراش ما بعد استرجاع الإستقلال والحرية (أقاليمنا الصحراوية)، وبالتالي، تمكينها من استدراك ما فاتها والحق بقطار التنمية.

فلحظات فقط بعد وفاة الملك الحسن الثاني، ظهر الملك محمد السادس على شاشات التلفزة لينعي والده إلى الشعب من خلال شريط سُجل عليه الخطاب، تم نقله من القصر الملكي إلى زنقة البريهي وتخصيصاً إلى "دار الاذاعة والتلفزة المغربية" تحت حراسة مشددة، فورد بصوت خاشع وبعبارات يتيمة تحمل تيمة خطابية واحدة بعد لازمة أبها المواطنون أيتها المواطنات...صاحب الجلالة يخاطبكم، وارتفاع النشيد الوطني، ليظهر جلالته لتصريف النعي، دون تصريح أوامر أو أهداف أو أولويات.

يلتقط الخطاب الحدث العادي ليحوّله إلى موضوع للخطاب، فيرتفع فوق المشهد وينظر عليه من فوق ويتحدث عنه ببساطته المعهودة دون تكلف أو مبالغة، يحكي اللحظة والواقع أو الواقعة ويغوص في تفاصيل دون الحديث عنها.

فالبعد الميتافيزيقي قائم على الإدراك القبلي السابق على التجربة والثاوي في مفاصل الخطاب الملكي، كتعبير واع عن لاوعي العقل الجمعي، ويأخذ طابع المصالحات الذهنية التي تحاول تفقد العقل الأدوات.

بغض النظر عن المضمون الإيديولوجي للخطاب الملكي، وعن "السياسي" في الخطاب الملكي ومساحة "غير السياسي"، فإن فيه شيئاً من مركز الخطاب السياسي كـ "السلطة أو القوة" هجوماً عليها أو دفاعاً عنها من ناحية، وتركز النقاش العمومي حول مدى "العدالة" في توزيعها من ناحية أخرى، ويكتسي في مدلوله اللغوي سمات "الاتصال السياسي" و "مهارات الإبلاغ والإقناع"، واعتبار جمهور التلقي أيضاً طرفاً في إنتاج الخطاب ومحاورته، واحترام ذكائه وعقله الذي لا ينسى، إذ أن جمهور التلقي يحاكم المضامين اللاحقة استناداً للمضامين السابقة، أي تصبح مضامين الخطاب السابق وكأنها إطار معرفي يقيد تفسيرات ما يليها من خطابات وردت في نفس المناسبة من السنوات اللاحقة أو لا.

فإن كان التسلل لعقل المتلقي لا يظهر في البنية المباشرة للغة، فإنه يتوارى فيه كتواري الأسلاك المعدنية في جدران الإسمنت، ويشمل كل ما ينتجه العقل الخطابي الملكي الإقناعي والفعل السياسي، والسياق الذي ورد فيه الخطاب، ودراسة المكان والزمان والقوانين والقيود والأهداف والنوايا.

ويرتكز صاغة الخطاب على أطر نظرية ترتكز بدورها على مفاهيم مترابطة في النص، لتبني جمهور التلقي صوراً ذهنية ترتسم من خلالها ملامح الظاهرة السياسية في الخطاب الملكي من خلال مستويين:

– مستوى الترابط المنطقي في بنية الخطاب؛

– ومستوى القدرة على انتقال مضمون الخطاب إلى حيز التطبيق والفعل، على أساس أن الجسر الواصل بين الترابط المنطقي وحيز التطبيق يعتمد على المتلقي بمقدار اعتماده على منتج الخطاب، متكئين على رصد مضمون كل مفهوم ومدى اتساقه بين مستخدميه، ومدى ما يصيبه من تغير في المضمون عند انتقاله لحيز التطبيق أو ميدان الفعل.

عند إشارتنا للخطاب الملكي، نبدو وكأننا نسلم مسبقاً بأن لدينا بنية داخلية لنظام الخطاب الملكي، وهذه البنية تشكل المحدد الذي يميز ذلك الخطاب عن غيره، وهذه البنية تقوم على دعائمين لا يخرجان عن شكل الخطاب أولاً (متمثلاً في التراكيب اللغوية بين المفردات التي تقضي إلى مفاهيم تعلو على المفردات المجردة)، ومضمون الخطاب ثانياً (والذي نبغاه بتحليل عقلي لما يستبطنه التركيب اللغوي عبر توظيف للمفاهيم يساهم في فك ما استعصى على الفهم، فيسلم بضرورات التنسيق بين الشكل والمضمون).

لكن هذه العلاقة بين الشكل والمضمون ليست علاقة طليقة ومتحررة من الضوابط، إنها تفاعل يتم في دورق المنظومة القيمية التي تشكلت تاريخياً وتضبط العلاقة والدلالة بين المفردات والمفاهيم الثاوية في باطن الخطاب، وهو ما يعني توثيق الصلة بين الخطاب من ناحية، وسياقه التاريخي من ناحية أخرى، حتى في لحظات تشابه اللفظ في العديد من الخطابات التي لا تستوجب بالضرورة تشابه المعنى نظراً لتباين السياق.

وقيمة الخطاب الملكي تتجلى من خلال القيم التي تمثل "مثالية" تسيطر سطور الخطاب، على أساس أن تكون تلك المثالية إنتاجاً لعراك عضوي وعقلي بين الفرد وبيئته الطبيعية والاجتماعية، فالقيم ثمرة التفاعل، كما يقول لازاد النظرية البنائية التي تهتم بالتعلم القائم على القيم ولبناء المعرفي، وترى كما مؤسسها جان بياجيه أن "التعلم هو حالة خاصة من حالات التطور، وإن هذا التطور يؤدي إلى وعي المتعلم بالإجراءات التي تستعمل لمعرفة الأشياء"¹.

فعند رسمهم لحيولوجيا الخطاب الملكي على صفائح يعلو بعضها بعضاً، يجعل صاغة الخطاب البنية الاجتماعية قاعدة الارتكاز الخطابي، لتعلوها منظومة قيمية توجه الحركة وتضفي عليها مستوى شرعيتها، ويتم التعبير عن هذه المنظومة بشبكة مترابطة من المفاهيم التي تستند على مفردات اللغة، من خلال الوعي بدوائر ثلاث:

– البنية الاجتماعية التي يعيها الخطاب الملكي بجميع وحداتها بدءاً من الفرد والأسرة والعشيرة والقبيلة والأمة والحزب والنقابة ومجموعات الربح الإقتصادي، وشبكة التفاعلات بين هذه الوحدات، ومنظومة القواعد التي تضبط ما يقع بينها من تفاعلات؛

¹ - عطية محسن علي، "الاستراتيجية الحديثة في التدريس الفعال"، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان، 2008، ص 51

– المنظومة القيمية لمجتمعنا، من خلال حرص الخطاب الملكي على التعبير عن مثاليات المجتمع التي تشكل مرجعية الحكم على السلوك سياسيا، ويحتكم إليها؛

– تحديد المفاهيم المركزية والمفاهيم التابعة في بنية فقرات الخطاب الملكي، مع تعيين حدود تجريد الخطاب وتجرد خدمة قضايا المواطنين ومصلحة الوطن، مع تقادي إنتاج خطاب متداول يقترب من القصد دون بلوغه، أو خطاب محشور بين ضاغطي السلطة السياسية والسلطة الاجتماعية للملك، فضلا عن سلطة إنتاج النص بمضامين دينية تنسجم مع صفة إمارة المؤمنين كبديل استراتيجي لتآكل مكانة السلطة بكل أشكالها، وتراجع درجات الالتزام حتى بقواعد اللغة في مخاطبة المعلم والأب وشيخ القبيلة وما يفترض لهم من توقير ومهابة، وتراجع التثبيت بالطقوس التقليدية التي كانت تقتضيها سطوة السلطة السياسية التي لم تكن إلا نتاج شبكة سلط صغيرة في النسيج الاجتماعي الذي يتسمه، بعد أن قرر جلالة الملك القطع مع العديد من الطقوس والتقاليد التي خلخلها لحلة الوضع، وتهلّل ذلك النسيج لتتراخى سطوة السلطة.

كما ألفت حرصا على :

– تغليب فكرة "التوفيق بين المتناقضات والمصالح"، وإن كنا نزعم أن الصراع أداة تطور ضروري وأن دياكتيك الحياة لا يتوقف، فالأفق مفتوح لا تأسره أية لحظة، والتوفيق بين المتناقضات هو المدخل للتطور، ويكفي أن نشير في الفكر السياسي العربي المعاصر إلى ثلاثة نماذج للخطاب السياسي العربي، أولها فكرة التعادلية عند علّال الفاسي في المغرب العربي، التي تقوم على إمكانية تحقيق مجتمع تتعادل فيه القيم التاريخية الكبرى في نفس اللحظة ونفس المكان، وهي العدالة والمساواة والحرية، رغم أننا لا نجد نموذجا في التاريخ الإنساني كله تعادلت فيه القيم الثلاث، ويبشرنا محمد عبده بنموذج ثان وهو نموذج المستبد العادل، بينما حاول الخطاب القومي العربي أن يقيم التطور على ساقين هما القومية والدين، رغم التناحر بينهما في التاريخ العربي ذاته (صراع العرب مع الفرس والترك وظاهرة الشعوبية.. إلخ)، وفي العلاقة بين العروبة والإسلام، فمع وجود تناقض بينهما (أليهما الأولوية).

– ومن بين المفاهيم التي تظهر وتختفي في الخطاب الملكي مفهوم "التسامح"، حتى في الخطابات الموجهة لجيل الأطفال من أجل ترسيخها كقيم ("وإنه لمن دواعي ابتهاجنا، أن يصبح برلمانكم، مدرسة للتربية على المواطنة والديمقراطية، وقوة اقتراحية، في كل ما يرتبط بتدبير الشأن العام. كما يشكل تجربة واعدة، في مجال التنشئة الاجتماعية، والالتزام بحقوق وواجبات الإنسان، وترسيخ الوعي، بفضائل الحوار والتعايش، والتشبع بثقافة الانفتاح والتسامح، ونبذ كل أشكال التطرف والإقصاء والانغلاق")¹.

فالتسامح يبدو في مظهره الخارجي تعبيراً عن نزعة أخلاقية تقوم على غض الطرف عن أخطاء الآخرين أو كظم الغيظ من هفواتهم، لكنه يستتر بعداً غير أخلاقي عند نقله للفضاء السياسي، إذ إنه يتضمن التقرير المسبق بأن الآخر غير ذي حق في قوله أو فعله ولكنني سأجاوز له عن دونيته، إنه حكم معياري مسبق يفترض تنازلاً عن حق "لم يثبت بعد".

¹ - من نص الرسالة التي وجهها جلالة الملك لبناته وأبنائه أعضاء برلمان الطفل بمناسبة انعقاد دورته الوطنية السادسة تحت الرئاسة الفعلية لصاحبة السمو الملكي الأميرة الجليلة للا مريم

– **سطوة التاريخ**، حيث يبرز حضور التاريخ في الخطاب الملكي بشكل جليّ من خلال مفهوم "الثوابت والقيم والعقائد والنظم المحددة غير القابلة للتطور والتجديد، وتعلو فوق الأزمان والبيئات المرتبطة بالإنسان حيث وجد وأنى وجد، فينظر إليها جمهور التلقي كقيم موضوعية ومستقلة عن كل اهتمام شخصي أو ثقافي، وما عليه حيالها إلا أن يلتزم بها ويصوغ سلوكياته وفقاً لمقتضياتها. من خلال مسح الخطاب الملكي، نجد أن أغلب مفاهيم الظاهرة السياسية تقع في دائرة "الثوابت"، وهو ما نجده في أدبيات الأحزاب، ولو تباينت توظيفات هذه المفاهيم.

– **حضور العقل التقني (المنهج الكمي)** في بنية الخطاب الملكي، وتزايد دور التكنوقراط في بنية السلطة والمجتمع وحتى في صوغ الفقرات التقنية للخطاب الملكي؛

– **حضور فعل التفاعل والقدرة على التعبير عن الواقع**، مع توجيه التفاعل نحو نوع من التفاوض والتداول، تداول الواقع، ومراجعة فرضياته المهمة، ومحاولة فرض ما نفترض أو نُسلم به نحن على الآخرين، مع توقُّع ما يفكر فيه الآخرون والتنبؤ بما يدبّر المنافسون وما يؤمن به "الأعداء"، ومن ثمّ تفنيده أو إضعافه أو تشويحه وتقبيحه.

– **ويتحقق أيضاً في الخطاب الملكي قدرٌ كبير من التفاعل بفضل ثراء تعابير اليقين والشكّ وتعابير الضرورة والالتزام الأخلاقي والديني والاجتماعي والوطني والمواطن national et civique، وتترجمه تعابير "افعل" و"لا تفعل" و"يجب" و"ينبغي" و"لا بد" و"علينا".**

– **استخدام أسلوب التوافق الإنزياحي (Identification Deflective)**، من خلال اعتماد هذا الأسلوب على حيلة التوافق السطحي لمضمون الخطاب مع توجهات الجمهور، لا لتثبيتها دائماً، بل لزعزعة الجمهور عنها تدريجياً أحياناً وإحلال توجهات جديدة بدلاً منها وبث التصنيفات الفردية والجماعية التي تتجاوز التصنيفات الحزبية (تعابير مثل الانفصاليين، الدولة العميقة، البلطجية، الشبيحة، الأشباح، الدكاكين السياسية...)، وتوجيه الخطاب توجيهاً مفرطاً في استخدام العبارات الاصطلاحية (الحوار لتبرير لقاء بين من بينهما برزخ إيديولوجي يقتضي القطيعة؛ الإرهاب لتغييب مفهوم المقاومة؛ الإصلاح لامتصاص الثورة) أو استخدام مفردات في السياق الديني لأنها أكثر قدرة على الشحن من السياق العلمي (مثل الجهاد مقابل القتال؛ أو الاستشهاد مقابل الانتحار؛ الفدائي مقابل الثائر؛ المرتد مقابل المعارض؛ الفتنة بدلاً من الثورة...)، ويتم اللجوء للمفردات الدينية في لحظات الأزمة أكثر منها في اللحظات العادية، كما تزداد لديهما اللغة الأبوية عند تناول موضوعات الخلاف بين السلطة والمجتمع، إلى جانب استحضار التاريخ بشكل انتقائي لتعزيز التوجه الخطابى الأبوي وامتداداته.

– **مفهوم الأبوية والانتقال من استهلال الخطاب بـ"شعبي العزيز" أو "السيدات والسادة"، إلى "بناتي، أبنائي الأعزاء، أعضاء برلمان الطفل"، وتزداد مع هذا الاستهلال تعبيرات مثل "الأب"، التطاول، وهو ما يُراد منه تكريس ثقافة "الطاعة" المغلفة بالاحترام، وتحضر نفس قيم العائلة والأبوة والأخوة وحتى البنوة في سياق التذكر أو الحديث عن العلاقات بين الملكيات ("وفي معرض جوابه عن سؤال عما إذا كان النظام الملكي المغربي سيتطور على شاكلة النظام الملكي بإسبانيا قال جلالة الملك "إنني أكن احتراماً كبيراً لصاحب الجلالة الملك خوان كارلوس. وأنا أنادي به بدون تكلف بالعم خوان. إنه شخصية فذة أعرفه منذ زمان. فهو بمثابة أحد أفراد العائلة. ونحن نتحدث في غالب الأحيان هاتفياً. وليس من النادر أن أطلب رأيه أو نصيحته)¹.**

1- من نص الحديث الذي خص به جلالة الملك المجلة الأمريكية "التايمز"

– استخدام الأرقام التي كان من الممكن أن يستحيل التحقق من صحتها للإيهام بالإنجاز، ويمكن تقديم نموذج لذلك من خلال رد جلالته على صحفي بالقول ("إن المشكل بين ليبيا وإيطاليا لا يطرح على النحو ذاته بين المغرب وإسبانيا. فتدفع الهجرة من ليبيا في اتجاه الساحل الجنوبي لأوروبا تدفق قليل. كما أن ليبيا يفصلها عن جزيرة بانتيليريا الإيطالية 50 أو 60 كيلومترا، بينما لا يفصل بين بلدينا إلا 14 كيلومترا، وهذا يعني أن 90 في المائة من المرشحين للهجرة السرية يشعرون بالانجذاب إلى المغرب في المقام الأول"¹؛ "فالكل يعرف الوضع الذي كانت عليه الصحراء، قبل 1975. ولمن لا يعرف الحقيقة، أو يريد تجاهلها، أقدم بعض المعطيات: فمِنذ استرجاعها، مقابل كل درهم من مداخل المنطقة، يستثمر المغرب في صحرائه 7 دراهم، في إطار التضامن بين الجهات وبين أبناء الوطن الواحد. كما أن مؤشرات التنمية البشرية بالمنطقة، سنة 1975، كانت أقل بـ 6 في المائة من جهات شمال المغرب، وبـ 51 في المائة مقارنة بإسبانيا")².

– في بعض لحظات الخطاب، نجد استخدام تعبيرات ليس لها دلالة محددة مثل "المندسين"، انفصاليو الداخل، المأجورين، أجنداث أجنبية... مع ميل فطري إلى تفسير الأحداث على أنها سلسلة من "المؤامرات"، وهو أمر ناتج في محاولة تفادي تحليل تعقيدات الواقع أو لنقص البيانات والمعلومات، فيتم توظيف الحد الأدنى من المعلومات المتوفرة لبناء تحليل متكامل، وهو الأمر الأيسر في نظرية المؤامرة.

– تغليب شخصية الملك على شخصية الخطاب، حيث يهيمن صاحب الخطاب على تحليل الخطاب نفسه، مع تحاشي المحللين الحديث عن تعبيرات وجهه جلالته المحايدة بدرجة لا تضعك أمام فهم واضح ومحدد لرد فعله، لأن لغة الجسد تقيد تمرنا ومراسا لتبني خصائص "الثبات النفسي" و"الثبات الانفعالي"، بتقاسيم جامدة، بلامح صارمة وتعبيرات محسوبة توارى انطباعاته وطباعه وتتفادى انفلات المشاعر.

يمكن تحديد المفاهيم المركزية والفرعية التي رصدناها في الخطابات الملكية في مفاهيم السلطة، التي تتكون من بُعدين هما حاكم من ناحية ودستور أو عقد اجتماعي أو وثيقة حكم من ناحية ثانية، مع تسنم الدولة بداية بسلطة الرسول، بإرادة لم يكن للمجتمع أي دور فيها (الوحي)، وتراكم النص التشريعي المنظم للسلطة والمجتمع خلال 23 سنة، دون أن يكون لهذا المجتمع أي دور في صياغة هذه النصوص، واقتصرت مهمة الأفراد والنخب على فهم أو شرح أو حفظ هذه النصوص، ونظرا لإضفاء القداسة على السلطة الأولى (النبي) والنص التشريعي (القرآن)، تكرر تقليد بأن موضوع السلطة "ليس مما تشغل به الأمة. غير أن ممارسة للسلطة تشير إلى أن السلطة السياسية هي امتداد لمفهوم السلطة الأبوية، وفكرة الراعي.

– التركيز على مكانة المؤسسة الملكية والتعبيرات المرادفة لما ورد في التراث الخطابي المرتبط بالمؤسسة في تأثير الخطاب باعتبارها مختزلة لعلم أهل الحل والعقد، ومستويات استعداد جمهور التلقي لتقبل الخطاب أو رفضه كليل أو جزئيا، وتحريك الصور المستقرة في لاوعي جمهور التلقي، فنجدها ضاغطة عليه للتقبل أو الرفض حتى في أوساط من ينفونها.

¹- من نص الحوار الذي خص به جلالة الملك محمد السادس صحيفة "إيل باييس" الإسبانية

²- من نص الخطاب الملكي الموجه إلى الأمة بمناسبة الذكرى 39 للمسيرة الخضراء

وهكذا، فإن سرد شهادات صاحب الخطاب أو مناصبه تؤثر على "مهابة" الخطاب، كما أن المقارنة بين خطاب النخبة المغاربية يكشف عن "نزعة رشدية" قياساً لنزعة "غزالية" في خطاب النخبة المشاركة، وفق تصور الجابري، لكن هذا الخطاب هو من النخبة وللنخبة.

فمن خلال الوعي بالمكان والتصورات الاستعارية التي ترتبط به، تتشكل قدرة الخطاب على ضبط الجماعات والهويات والطوائف الدينية اليهودية والمسيحية، ويتشكّل كذلك وعيها بمن ينتمي إليها ومن لا ينتمي، وتتبلور الهوية السياسية والجغرافية والاقتصادية لتلك التجمّعات، وتتبلور مفاهيم "نحن" و"هم"، من "معنا" ومن "علينا".

ولذلك يمتلك الخطاب الملكي ويستملك القوة بمعانيها المادية المجردة فيميل إلى استخدامها، فإذا لم يستخدمها، يستعرضها ويلوح بها *Exhiber la force pour ne pas l'utiliser* كما سبق القول.

– يُقايَس الخطاب السياسي الملكي الديمقراطي مع الشورى مع اشتقاقات وتحويرات ("وذلكم هو النهج القويم، الذي سلكه المغرب، حيث قمنا، منذ سنة 2005، بإطلاق المبادرة الوطنية للتنمية البشرية. وقد اعتمدنا في بلورتها مقاربة تشاورية وإدماجية، تقوم على المشاركة الديمقراطية، وحكمة القرب"¹؛ "نتولى اليوم، بمدينة العيون الأصيلة، تعيين المجلس الملكي الاستشاري للشؤون الصحراوية. وبذلك نضع لبنة نعتبرها أساسية، في ترسيخ ثقافة التشاور، وفسح المجال الواسع أمام مواطنينا، للمساهمة باقتراحاتهم العملية، في كل القضايا المتصلة بحدثنا الترابية، وبالتنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للأقاليم الجنوبية العزيزة علينا... وسيرا على نهجنا في التشاور مع كل القوى الحية، وتعميقا للممارسة الديمقراطية التي ارتضيناها دون رجعة، أعلننا في خطابنا بمناسبة الذكرى الثلاثين، لانطلاق المسيرة الخضراء المظفرة، عن قرارنا بإجراء استشارات واسعة للأحزاب السياسية، وكذا لأبناء المنطقة المعنيين، وذلك بخصوص الاقتراح الذي تعتزم بلادنا تقديمه، في موضوع نظام الحكم الذاتي لأقاليمنا الجنوبية، كحل نهائي للنزاع المفتعل حول مغربية صحرائنا"²)، كما فعل محمد عبده حين تفرع الاستبداد عنده إلى "مطلق" (تصرف الواحد في الكل على وجه الإطلاق في الإرادة)، ومقيد (غير ممنوع لا في الشرع ولا في العقل بل هما على وجوبه) ويتجلى في الشورى القائمة على مناصحة الأمراء"³، خاصة وأن الشورى لم تكن يوماً مؤسسة لها قواعد إجرائية، بل يتعذر تقديم نماذج عليها خارج نموذج عمر بن الخطاب كحالة فريدة لكنها لا تشكل تأسيساً لتقاليد تاريخية.

ويتجلى هذا التحوير والتطوير أيضاً في قدرة الخطاب الملكي على تحقيق الوحدة مع احترام حق الثقافات الفرعية في التعبير عن نفسها خطاباً وإجراءً، بالفكر والتنظيم، دون الوصول إلى الانفصال العضوي، وهنا تستيقظ الوحدة معبرة عن ذاتها نصاً بمصطلحات "الأمن القومي بديلاً للأمن الوطني"، و"الوحدة العضوية"، "بصفتنا الضامن لوحدة الأمة وسيادتها"، و"الرباط التاريخي"، "وهويتنا الثقافية الوطنية، التي تشكلت من روافد متعددة، صهرت تاريخنا ونسجت هويتنا، في ارتباط وثيق بوحدة أمتنا، الملتحمة بثوابتها المقدسة"، لأن تاريخ المملكة كما يقول صاحب الجلالة ("ما هو إلا تكريس للتنوع، الذي ظل على الدوام في صلب اهتمامات كل الأسر التي حكمت المغرب وتلاحمت

¹ - إحدى شذرات الخطاب الذي ألقاه صاحب الجلالة الملك بمناسبة أشغال قمة أهداف الألفية للتنمية المنعقدة بنيويورك

² - من الخطاب الذي ألقاه جلالته الملك بمدينة العيون لتعيين المجلس الملكي الاستشاري للشؤون الصحراوية

³ - محمد عبده،

مع شعبه. وهو نفس النهج الذي كرسه المملكة المغربية بكل وضوح في ديباجة دستورها التي أكدت على تلاحم مقومات هويتها الوطنية، الموحدة بانصهار كل مكوناتها، العربية-الإسلامية، والأمازيغية، والصحراوية الحسانية، والغنية بروافدها الإفريقية والأندلسية والعبرية والمتوسطية"¹، وغيرها من الخطابات التي أكدت أن الديمقراطية تماثل الدولة أو المؤسسات التمثيلية مع تركيبة المجتمع وخريطته القومية والدينية والهوياتية واللسانية والجهوية، مادامت لها صيرورات التمرکز السياسي حول النواة الصلبة "للملك أمير المؤمنين والممثل الاسمي للامة ورمز وحدتها وضامن دوام الدولة واستمرارها وعلى انه ضامن حمى الدين والبلاد وحوزة المملكة في دائرة حدودها الحق"².

كما ألفت في "المربع الأيديولوجي" لوظائف الخطاب الملكي تأكيدا لما يقوم به كل خطاب إيديولوجي من إضفاء الشرعية على نفسه وتجريد الآخرين -الخصوم والأعداء والمنافسين والحساد والنقاد- منها، فيستطيع تحقيق هذه الغاية من خلال:

– إسباغ السُلطة الرمزية من خلال استلهاهم الموروث والتقاليد والعادات والقوانين والاستشهاد بأصحاب النفوذ والتأثير الثقافي أو الفكري أو السياسي، كالرموز الدينية ("وهذا هو الكفر الحقيقي، مصداقا لقوله عز وجل : "فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه، أليس في جهنم مثوى للكافرين"، وقول جدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم : "من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار")؛ ("نؤكد تشبثنا بالتعددية الحزبية، التي وضع أسسها جدنا المقدس جلالة الملك محمد الخامس، ورسخها والدنا المنعم جلالة الملك الحسن الثاني، طيب الله مثاها وناضلت من أجلها الأجيال السابقة")؛ والتاريخية والرموز الاكاديمية (الأستاذ المنوني)؛

– إصدار الأحكام الأخلاقية وفق ثنائية الخير والشر والفضيلة والرذيلة والقيم والصواب والخطأ والحلال والحرام والعلم والجهل وغير ذلك من ثنائيات؛

– العقلنة من خلال تجاوز خطاب البلقنة والعمل على إضفاء العقلانية على مقولة أو قضية أو موقف أو اتجاه، من خلال الأرقام والإحصائيات والتسلسل المنطقي والاستشهاد بالمختصين وذوي الخبرة والعلم والمعرفة ("فقد سبق لنا أن قمنا، سنة 2005، بوقفة مع الذات، من خلال تقرير الخمسينية، لتقييم المنجزات، وتحديد الاختلالات، ومعرفة مستوى التطلعات، منذ بداية عهد الاستقلال، بهدف وضع سياسات عمومية أكثر نجاعة")؛ "فقد سبق للبنك الدولي أن أنجز في 2005 و2010 دراستين لقياس الثروة الشاملة لحوالي 120 دولة، من بينها المغرب"؛ "نوجه المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي، بتعاون مع بنك المغرب، ومع المؤسسات الوطنية المعنية، وبتنسيق مع المؤسسات الدولية المختصة، للقيام بدراسة، لقياس القيمة الإجمالية للمغرب، ما بين 1999 ونهاية 2013"؛ "المضامين الوجيهة لتقرير اللجنة الاستشارية للجهوية".

– الأسطورة وسرد الحكايات والقصص، حقيقية أو مؤلفة، رغم تراجعها على عهد صاحب الجلالة محمد السادس مقارنة مع ما كان يحفل به المسار الخطابي الملكي للملك الراحل من خوارق وكرامات.

¹ - من نص الرسالة الملكية التي تلتها صاحبة السمو الملكي الأميرة للا حسناء بمناسبة الحفل الأول لموسيقى البحر الأبيض المتوسط على مسامع ضيوفه من ممثلي السلك الدبلوماسي، والمنظمات الدولية، وسلطات مدينة جنيف، والسلطات السويسرية، ومن شخصيات تنتمي لعالمي المال والفنون

² - من الخطاب الملكي الموجه إلى الأمة بمناسبة الذكرى السادسة والأربعين لثورة الملك والشعب

المطلب الرابع/ كيف يكتبون؟

❖ أولا- دور لفيف الإستشارة في الإشارة على خطب الإمارة

علاوة على ماسبق بيانه في المطلب الاول من هذا المبحث حول مسالك التأليف، يمكن القول أن التواصل السياسي ليس فقط مجرد إمتلاك للوسائل المادية و التقنية والحبر، وإنما هو قبل كل شيء عملية صناعة خطاب ومواقف يثوم بها أحبار الامة، ممن تصلهم الأخبار ويلتزمون الخطاب الملكي مع سياقه وفئاته المستهدفة داخل مجال جغرافي محدد باستعمال تقنيات مفتوحة لهذه الفئات.

فالتواصل تفاعل، وعملية تفاعلية تحص على الفعل أو اللافعل، وتروم الفعالية في كلتا الحالتين، ومن خلالها يفتح التنظيم على بيئته العامة لبسط رؤاه وأفكاره وهويته أمام المواطنين.

فعملية التواصل تقتضي بداية تحديد وتجديد مستمر للخطاب ولمستوياته وموضوعاته وفق دراسة للمجال وانتظاراته، وبعد وضع تشخيص دقيق للرغبات العمومية.

والملاحظ أن الاحزاب المغربية تكاد تنتج وتمارس نفس الخطاب ونفس اللغة الجوابية على مطالب المحيط العام، والتي لا تحمل أي شحنة إيديولوجية واضحة ومحددة المرجعية، والتي من شأنها أن تحفز المواطن وتنشحن الكفاءات على الإنخراط السياسي: فالكلمة يتكلم عن الفساد ولا ندري هل يوجد فساد بدون مفسدين في غياب عرض أي منهم على مواجهة مصيره أمام الدولة، الكل يتكلم عن الشباب ولا ندري من يساندهم فعلا ومن يبتزهم ويستصغرهم، الكل يتحدث عن الفقر والبطالة والتنمية ولا أحد قدم مقترحات عملية متناسقة للحلول.

لذلك نجد أنفسنا بصدد معالجة خطابات أغلبها أقرب إلى أن تكون مجرد شعارات وعناوين وإعلانات نوايا، منها إلى مشاريع قابلة للتناول التطبيقي، وما يجعل الأسلوب الخطابي الملكي متميزا هو أنه خلق لنفسه أسلوبه الخاص، كما أن أسلوبه في معيار النقد لا يقاس بالكلمة، لأن الكلمة قد تكون ركيكة وغير ذات معنى لو وردت بمفردها.

لكن تركيب الجملة عند أصلا وروعتها يجعلك ترى الكلمة تتردى أزهي أبرادها، بحيث ترى أن الكلمة الفصيحة لو أتت موضع هذه الكلمة لن تؤدي نفس دورها ولن تكون بنفس روعتها، وهنا مكمن العبقرية والنبوغ التحريري الخطابي في توخي الدقة في كل جملة، وبلاغة في الإيجاز والتكثيف، لأن كتابة نص تُنجز بما نُقصيه من هذا النص، ثم نستخدمه في الخلفية التي توارىها الكتابة.

يطغى على الخطب الملكية تقسيم إلى أبواب ومداخل ومحاور وتيمات تشي مضامينها بوجود طاقم تحرير متعدد المشارب، يحملون مواصفات خبراء حقول السياسية والعلوم السياسية، والقانون الدستوري والمؤسسات الدستورية والعلاقات الدولية والقانون الدولي، وعلم التسيير المالي والتخليق الإداري وعلوم الاقتصاد، والعلوم الاجتماعية والتواصل، فضلا عن العلوم الشرعية بشتى تفرعاتها... فهم نساجون يحسنون التظهير الخطابي وغزل ألياف اللغة بأسلوب أدبي رصين ومبين، يقوم مقام المعين المعين للقائمين أو المشاركين في تسيير الشأن العمومي والحقل الديني والدني والعسكري والمدني، وميثاقا ودفتر تحملات وثقافة عقلانية يكفي أن يحملها المسؤول وأعوانه وحتى موظفي لحمل مسؤولية الوطن والمواطنين.

لقد أدرك جلالته سر الاستعانة بالشريف ومن يستحق التوظيف بديوانه، وتحددت لنا بالمشاهدة والإستقراء صفة مستشاريه وفضل الاستشارة، لعلم جلالته ان الخطر في السياسة يكمن في الاستغناء عن رأي العقلاء، والتعلق النفسي بتملق الدخلاء من الصحب والخلان على حقل الإستشارة وما يمكن أن يحيق بالأوطان، فيعيق بسط الحكم والحاكمية للسلطان: فالمحيط الملكي يسير بحكم وآراء ماثورة وعادات وتقاليد مخزنية مَرَعِيَّة غير مسطورة، وتعايش بين حماس شباب وحكمة شيوخ ومراعاة للإعتدال، بنفس توفيقه بين أصالة الحاشية والجند والأشكال البروتوكولية وأصحاب الحجاب والمعاصرة في صوغ الخطاب، وصياغة روح قوانين الحكامة في التعامل مع المحكومين بجميع طبقاتهم، بحكمة تتطلب وجود حاكم عاقل، مطالع، مدرك، عادل، معتدل، حازم لين الكلام، و "من لانت كلمته وجبت محبته".

تتميز منهجية كتابة الخطب الملكية كما أو مضنا إليها في الشق المتعلق بالرسائل في المقام الاتصالي بمراعاة مقتضى الحال وأحوال جمهور التلقي، مع توجيه الخط التحريري وفق مسار استراتيجي يروم تحقيق درجات قصوى من الإقناع، مع اعتماد وسائل تواصل جماهيري لحقن اولاء وتجديد البيعة الرمزية وفق خطاطات تأثير.

في بعض المناسبات الاستثنائية، يشير بعض العارفين بما يدور داخل دهاليز القصر أن حدث الإعلان عن مدونة الأسرة مثلا من طرف أمير المؤمنين محمد السادس اقتضى من فريق ضخ العمل لشهور عديدة في الإعداد، كل في مجال تخصصه ليدقق، ونفس الشيء في اللحظات السياسية للبلاد التي يضع فيها الملك تقييما لما وصلت اليه المشاريع التي أعلن عنها في خطابات سابقة ويحدد أولويات جديدة الذي يجب على الحكومة أو حتى البرلمان أن ينكبا على إنجازها. ("ونريد أن نؤكد لكم بدورنا ما نريده لهذه المؤسسة لتقوم بدورها كاملا سواء في الميدان التشريعي أو في مراقبة عمل الحكومة وفق الأدوات المتاحة لها"¹؛ "فإننا نريد برلمانا أكثر فعالية. برلمانا يمارس بنجاعة، كافة اختصاصاته التشريعية والرقابية والتمثيلية، يشكل قدوة للمؤسسات الدستورية، في نهوضها بصلاحياتها كاملة"²).

نفس الإشتغال ميز خطابات محورية ي خطابي العرش لسنوات 2005 و2007 اللذان أعلن فيهما جلالته تباعا عن المبادرة الوطنية للتنمية البشرية ولأول مرة عن مفهوم "الملك المواطن" وغيرها من المحطات الخطابية في مناسبات أخرى تشكل المواعيد الرسمية الواعدة التي يختارها جلالته بذكاء تصريف تعليماته وفكره وتصورات، فلا يفوت جلالته مناسبة جاهزية جمهور التلقي لسماع ما سيحمله الخطاب الملكي.

بدورها، لا تفوت باقي المؤسسات الدستورية المناسبة التي تقتضي حضور فاعليها حفلات استماع رسمي للخطاب بمختلف مقرات الولايات والعمالات والباشويات والقيادات وكذا السفارات المغربية المعتمدة بالعواصم الدولية، اعتبارا للقيمة الدستورية للخطابات الملكية وللعرف الدستوري الذي يجعلها مرجعا لكل الفاعلين السياسيين: فعلى الحكومة مثلا أن تكيف سياستها العمومية انطلاقا مما تتضمنه الخطب الملكية من توجيهات، أو تضطر إلى تعديلها أو العذول عنها أصلا.

¹- من خطاب جلالته الإفتتاحي للسنة التشريعية 1999-2000

²- من خطا الإفتتاحي للسنة التشريعية 2007-2008

وقد أكد حسن طارق في مداخلة له تحت عنوان "الملكية والاصلاح" أن الساحة السياسية كانت دائما من اختصاص الملك، وذلك ما يظهر جليا في خطبه طوال العشر سنوات الماضية، وما يزيد من ترسيخ مكانته كفاعل أول وحصر، مكانة يزكيها تكرار جلالاته لعبارة "شعبي العزيز"، على نحو ذهب بالباحث محمد الناجي في كتابه "العبد المملوك" إلى القول أن في العبارة إحياء بأن الخطب الملكية بمثابة أمر لا يناقش، وأنها بمثابة "أمر السيد لرعاياه"، وأن صفة السيادة يستمدها الملك أيضا من نسبه الشريف، فتضفي على الخطب الملكية صفة القداسة.

❖ ثانيا- صناعة التأثير ورفع منسوب القابلية للتأثر خدمة لمؤشرات الانتشار

بفضل بناء الخطاب وبناء تنظيم يستطيع الحركة بحركية الفكر الملكي، فيُحسن صناعة التأثير في الجماهير ويتقن فنونه حتى يتحقق الانتشار والتجذر الشعبي المطلوب.

العامل الأول لصناعة التأثير هو خلق الاحتياج للفكر الملكي ولتدخلاته، بنفس دأب قسم التسويق بالشركات على خلق الاحتياج لمنتج جديد قبل تصميمه وإنتاجه، مع المبالغة في تصوير خصوصياته حتى إذا بدأ ظهوره يجد من ينتظره ويتلقفه بحرص؛

أما العامل الثاني، فيكمن في اختيار الوقت المناسب وترتيب الاولويات طبقا لاهتمامات الناس، مع مراعاة عدم تشخيص المشكلة دون طرح حلول وبدائل واقعية للحل والضغط من أجل تنفيذها.

ويقوم العامل الثالث على انتقاء وسيلة العرض المناسبة من وسائل الاتصال الجماهيري سواء المقروءة كالصحف والمطبوعات أو المسموعة أو المرئية أو كلها مجتمعة.

بدورها، تمنح وسائل الاتصال الحديث التي تمنح مرسل الرسالة خيارات متعددة يستطيع أن يصل بها لشرائح مختلفة من الجماهير في أوقات مختلفة وأماكن مختلفة، ودون إغفال أهمية الاتصال الشخصي الذي يعتمد عليه صاحب الجلالة أحيانا مع مجموعات معينة (مثلا أولياء وآباء الأطفال الذين كانوا ضحية للبيدوفيل الإسباني كالفان)، أو إيفاد مبعوثه الشخصي لنقل الرسالة بشكل مباشر.

وما ميز أيضا الخطاب الملكي لمحمد السادس مقارنة بخطابات والده، هو قدرته على المناصرة والمدافعة، باعتبارها العامل السادس الذي يقتضيه حدوث مظالم وانتهاكات لأشخاص لبسطاء من الناس لم يجدوا أذانا صاغية لمظلمتهم، أو فئات اجتماعية مسحوقة تنتظر من جلالاته ومن خطباته تدشين حملات مجتمعية تخاطب الرأي العام والسلطات لتغيير تشريع ما أو إزالة ضرر ما أو الحصول على حق مسلوب سواء لفرد أو مجموعة.

وتقتضي بعض القضايا والملفات التي تثير حالة انقسام وفوضى فكرية وحمى كلامية، وإمعانا في زعزعة الثوابت وزلزلة القناعات، وإشاعة الشكوك وزراعة الظنون، صياغة الخطابات بشكل يخرج عن رداءة خطاب تعكير وشحن الأجواء والتخوين وتقاسم الأدوار كما تقاسمها يوما الوليد ابن مغيرة حين وزع ستة عشر رجلاً على أعقاب مكة وأنقابها وفجاجها، ليستقبلوا الوافدين عليها في موسم الحج من شتى جهات الجزيرة العربية، ويتقاسمون القول في القرآن، فيجعلوه عشرين، ويقول هؤلاء سحر، ويقول أولئك شعر يُؤثر، بينما يقول الآخرون كهانة وأساطير الأولين، كل حسب مزاج الوافدين من جهته من قبائل العرب وبطونها.

المطلب الخامس/ لم يَكْتُبُون ولمن يَكْتُبُون؟

❖ أولا- لم يَكْتُبُون؟

سنتناول في هذا المحور مرامي الإقناع والتأثير في الجماهير، كما ترومها الخطابة السياسية: فالخطابة السياسية هي أداة التواصل بين الحاكم والمحكوم، سواء في تقبل الحاكم والتفاهم معه أو الخروج عليه: ومن هنا، لعبت الخطابة السياسية دورا وعرف بعض الخطباء واشتهر أمرهم، في الدولة العربية الإسلامية ظهر ذلك في عصر الخلفاء الراشدين ثم في عهد الدولة الأموية والعباسية.

كان الخلفاء يلقون الخطب في المناسبات المهمة، وكان هناك من يُعدُّون تلك الخطب وأيضا يكتبون الرسائل للخلفاء، وعرفت الخلافة "ديوان الانشاء" وعرفنا "عبد الحميد الكاتب" نموذجا لذلك، وله دراسات ورسائل في إعداد الكاتب وتكوينه، وبعد سقوط الدولة العباسية ضعفت الخطابة والخطاب السياسي لأن الحكام المماليك لم يكونوا يتكلمون العربية، ومن ثم لم تعرف لهم خطب ولم يعرف عن أحدهم خطبة بعينها، أين ذلك من معاوية بن ابي سفيان مثلا ومن قبله علي بن ابي طالب؟

فالخطاب السياسي عموما والملكي خصوصا، سواء أكان منطوقا أو مكتوبا، يعتبر نتاجا لتفاعلات اجتماعية وسياسية، واستجابة لمفاتيح مطلوبة ولتعبيرات سلمية عن الاحتياج، أو ردا على خطابيات الاحتجاج التي تتجلى في اللافتات والشعارات والأيقونات والبيانات والتصريحات والنكت والأغاني والتشكيل الرمزي للحشود.

وتؤدي سياقات التواصل والإتصال التي يَرِدُ فيها الخطاب الملكي أساسا وظائف تروم تقريب جمهور التلقي من الفكر والتصور المولويين لعدد من القضايا والأحداث، مع استحضار هدف التأثير من خلال عملية الاتصال، التي تهدف إلى خلق صلة وتفاعل بين صاحب الجلالة ومن يستهدفهم برسائلنا الاتصالية العامة (خطا أو خطابا) أو المنظمة (القرارات والتعليمات التي يوجهها جلالته وفق نظام انتقال المعلومات) داخل شبكة من العلاقات المتداخلة.

كما يراعي الخطاب الملكي مجموع الخبرات السابقة والمعلومات والمعتقدات، والقيم والثوابت التي خبرها عموم المغاربة من خطابات سابقة للملك محمد السادس أو من خطابات الملك الراحل وحتى من خطابات فاعلي الفضاء العمومي فصارت بالنسبة لعموم المغاربة وباقي أطراف العملية الاتصالية مكتسبات وأطر مرجعية ومعارية يقيسون على أساسها مستويات تفاعلهم مع الرسائل الملكية وقبولهم أو عدمه لباقي الخطابات المحايثة للخطاب الملكي أو التي تأتي بمضامين ومرجعيات مضادة، وفق مستويات ثقتهم في المؤسسات، ومواقفهم من كل مؤسسة وتأثير الموقف على الإستجابة، رفضا أو قبولا.

فإذا كانت غاية الخطابة السياسية إقناع الجمهور والتأثير فيه، فإن ذلك يحفز على تبين ملامح مقومات وكفاءات حشد التأييد الشعبي للقرار وسلسلة القرارات التي يفصح عنها كل خطاب ملكي، مع تقليص شعبية الخطابات السياسية (الحزبية والنقابية) والحقوقية والجمعوية التي تناولت نفس الملفات والمواضيع أو تبنتها.

فما هي الوسائل الإستراتيجية التي تُكسب الرسائل والخطابات الملكية فاعلية ألفاظها، فيلطف جمهور التلقي باقي الخطابات بعد تحقق درجات متفاوتة من الإقناع على سلم الإقتناع ؟

تختلف درجة إقتناع جمهور التلقي والتلقي مع الرؤية المولوية باختلاف مستوياتهم، فمنهم من يسهل إقناعه، ومنهم من لا يعير أصلا اهتماما للخطاب الرسمي ولا لوسائل بثه المباشر، ومنهم من يقاطع تتبع بث الخطاب الرسمي لرفضه سلوكيات البث الحصري للأنشطة الملكية التي قطعت عليه مسلسلا أو برنامجا كان من ضمن جمهور متابعيه الأوفياء، كما أن عددا من المتابعين لا يلقون بالا للخطابات الملكية على أساس أنهم استبقوا مضامينه والمقصد منه La finalite du discours انكطلاقا من سياق الخطاب Contexte du discours.

لو وضعنا جانبا هذه الأقلية التي تبنت خيار النأي بنفسها عن محيط التواصل بين الملك وشعبه، أو تدعي ذلك لأنها لا تلبث أن تستقصي عما ورد في الخطاب الملكي من مضامين بدل الإنصات وتقصي الحقيقة من مظانها، فإن السواد الأعظم من جمهور التلقي يُلاقي مع عاهله في الموعد الذي ضربه له المحدد ويعلق على هذا الموعد التواصل انتظاراته وآماله، في الوقت الذي يأخذ صاحب الجلالة بعين الإعتبار الإنتظارات العامة والفئوية ويرتبها في خطابه، مع مراعاة تنويعه للخطاب واختيار الاستدلالات المناسبة وفقا لما يلائم جمهور التلقي ومستوى لغته وثقافته، وحتى موضوع وهدف خطابه لأن السياقات هي التي تفرض موضوع وهدف الخطابات.

في هذا السياق، يشار أنه كان من المستبعد ألا نجد ذكرا لرؤية جلالة الملك لوقائع وحيثيات تفجيرات 16 ماي الإرهابية في الخطاب الذي وجهه جلالته أياما بعد ذلك (وفي غير المناسبات الوطنية الثابتة لمخاطبة الشعب): وكذلك كان، وجاء الخطاب وفق مساحات التوقع، وزاد عليها إعلان المبادرة الوطنية للتنمية البشرية كحل جذري للخروج من جدلية الفقر والإرهاب، ومتلازمة الإحتياج والإحتجاج.

ومن هذا المنطلق، نجد في صياغة الخطابات الملكية حرصا على أن تكون كل الاستدلالات موجهة ومكيفة مع متطلبات العقل السياسي، والأخلاق أو البحث عن المشاعر وردود الفعل الودية أو لجم ردود الفعل والإنفجالات العدائية التي بدت مؤشرات التعبير عنها في صفوف الشعب ونقلها لجلالته القائمون على تتبع بارومتر الإحتقان الإجتماعي والبلوكاج السياسي والأزمة الإقتصادية والراديكالية الدينية.

وتختلف ردود الفعل وتباين أو تتناقض من حيث مستوياتها وإمكانية ملاحظتها، وفقا لأرصدة المتلقين المعرفية عن الموضوع (الخلفية المعرفية)، ودرجة انتظارهم للخطابات وانتصار هذه الأخيرة لقضاياهم وملفاتهم، ووفقا لوسيلة الخطاب (مسموعة، مرئية، ومقروءة، وشفوية وكتابية...).

وكم وددنا لو كانت الخطابات تعتمد على التلقي المباشر لقياس تجاوب الجمهور وردود الأفعال الآنية ومستويات القبول أو النفور لقصور في اختيار المواضيع أو سلم ترتيب أولوياتها أو في الأداء، كما هو الشأن بالنسبة لباقي خطباء الحقل السياسي، لكن الأمر يبدو مستحيلا لأن للأحزاب جمهورها المحلي والإقليمي المحدود الذي تكد الفروع والمكاتب المحلية وتكد لحشده، في مقابل شساعة جمهور تلقي الخطاب الملكي، وتوزعه بين مغاربة الداخل ومغاربة العالم.

ولأن الاتصال الملكي الجماهيري نشاط ومحتوى لغوي بالمعنى الواسع للغة ويتم بها وفيها، فإنه يكون ذا أهمية كبرى ليس فقط لجمهور اللقي كأفراد أو للفاعلين السياسيين والإقتصاديين والمجموعيين والحقوقيين، بل حتى بالنسبة للسياسات التي تعتمد على الفكر الملكي جون قراءته من خلال المدخل اللغوي، حيث تبرز أهميته بالنسبة لخطاطات التنمية، وللور الذي يلعبه الاتصال لغويا في إتمام عملية صنع القرار الخارجي والداخلي واتخاذ، إلى جانب الوظيفة الاتصالية مع جميع مكونات النظام السياسي المغربي، وفي توجيه الرأي العام، والضبط الاجتماعي وإضفاء الشرعية ونزعتها، وبلورة وموقف المغرب الرسمي من قضايا البيئة، صراع الحضارات وشروط تحصين واقع حوارها ومكتسبات تعايشها بالمغرب، العولمة، المناصفة، القضايا الوطنية الكبرى، ملف الإرهاب، ملف المهاجرين السريين واللاجئين السوريين...

هذه الرغبة في التأثير وخلق حالة استملاك Appropriation جماهيري للخطاب الملكي وإخراجه من رتبة الإلقاء نرصدها في بعض السمات الصوتية الخاصة بالخطاب الملكي، ولغة تحريره التي تبتعد عن الأصوات المتنافرة أو الثقيلة، أو الصعبة، بالإضافة إلى ميلها إلى انتقاء الأصوات السهلة، المتألقة؛ لأن السهولة والوضوح من أهم ملامح لغة هذا الخطاب، فضلا عن الإستعانة بالمؤثرات الصوتية كالنبر والتنغيم، لإبراز الرموز الصوتية المعبرة عنها، كالتركيز على كلمة الفقر والإرهاب في سياق حديث دلالاته عن المحاربة (محاربة الفقر ومكافحة الإرهاب)، مع الضغط على كلمتي فقر وإرهاب في العديد من الخطابات والكلمات كرمز لغوي يعبر عن أهمية الأمن العام الذي لا يتحقق إلا من خلال الأمن المجتمعي الذي تعتبر محاربة الفقر والهشاشة والإقصاء أهم مداخله كي لا ينزل المحتاج نحو الفكر الراديكالي. كما تعتمد بعض الخطابات على تكرار بعض الجمل أو المضامين أو التعبيرات التي نجدها موزعة على العديد من الخطابات، والتكرار يأتي هنا مزية وظاهرة صوتية تنبؤا مقعدها من الخطاب، وفي تكرارها تأكيد لترسخها في قرارة الفكر المولوي، فيكون تكرارها بهذا المعنى إحياء لدى التلقي بمصادقية ما يقال.

وابتداء جلالته خطاباته بالحمدلة وختمها بنص ديني من القرآن الكريم تحدد الموقف الذي يسعى إلى التحدث فيه والمرجعية الدينية التي ينطلق منها، فيتناص النص الديني تناسبا مع النص السياسي ولازمة "باسم الله"، "إن شاء الله"، "بإذن الله الحمد لله"، "وإننا إذ نضرع إلى الباري عز وجل أن يلهمنا شكر نعمته التي تفضل بها علينا"، "فقد شأنت إرادته تعالى أن يمد جهادنا الإقتصادي والاجتماعي بطاقة أساسية لخوضه"... وكلها معتقدات دينية تؤطر مرجع الخطاب وتحدده ضمن القصدية. كما أننا داخل الخطاب نجد لازمة أخرى من اللوازم الأخرى التي لا تتكرر إلا في القمم العربية التي يقاطعها جلالة الملك، والتي كان يحضرها والده الملك الراحل الحسن الثاني، وهي "أيها الإخوة"، وهي مقتبسة من نص ديني ورد فيه "إنما المؤمنون إخوة"، لأن مفهوم الأخوة يحيل على إمكانية العمل الموحدة والانتماء الديني والعرق.

كما أن من ضمن مميزات البناء الإستراتيجي للخطاب الملكي هو تناسبه مع بنية الخطاب السردية، حيث يسرد الأحداث التاريخية واسترجاع الماضي ومحطاته، من أجل أن يذكر المستمع ويستنهضه للتأثير فيه من خلال كلام عاطفي أو تاريخي ليتجاوز الطابع الإخباري إلى إثارة النفوس والتأثير وتحريك المشاعر واستمالتها.

كما وجدت في العديد من الأبحاث الخطابية موضوع العينة التحليلية دأبا على استخدام الصفات بإضافة كلمات على المتن الخطابي للتأثير في المستمع، حيث يصف الشعب بالعزیز، ويصف الجنود بـ"الصدق في عهدكم على الطاعة والولاء لقائدكم الأعلى ورئيس أركان الحرب العامة للقوات المسلحة الملكية، النهج القويم لأسلافنا المنعمين، في الحفاظ على الأمن الروحي للمغرب، ووحدة المذهب المالكي".

واختار لخطابه هذا ديباجة الوصف، وذلك بالربط بين اللفظ وصفته بواو العطف، فأحدثت هاته الديباجة رنة لغوية ووقعا موسيقيا وصوتا مرتفع الجرس، ومع ارتفاع الصوت في النبرة حدث تنعيم من أجل التأثير في المستمع، وهذا يحقق إستراتيجية لخطابه. كما أننا نجده يستعمل أداة الحصر "إلا" كشرط لتنفيذ الكلام من السامع ودغدغة المشاعر والحدة في الكلام تتراوح بين الأدبية والسياسة. ويستثمر جلالته النص الديني مع صوت الأمر حيث يستعمل ألفاظا فيها فعل الأمر من أجل التحريض، ومع التكرار في الكلمات والأقوال، وإن كان يستحضر إستراتيجية الآخر: الخصم الآخر الذي لم يلتزم برباط البيعة الذي يطوق عنق كل مغربي، بلغة الوعد والتهديد عن طريق ألفاظ الذم والتخوين، وهذا الفعل الخطابي ما هو إلا إثارة لغوية كاستعمال الفاء مع فعل الأمر من أجل السرعة وتتابع الأحداث ("فارفعوا"، "فاستعدوا"، "لقد سبق لنا في خطاب المسيرة سنة 2009، أن عبّرنا عن رفضنا القاطع لهذه الممارسات، ونبها إلى أن أي شخص إما أن يكون وطنيا أو خائنا. فليس هناك مرتبة وسطى بين الوطنية والخيانة، كما أنه ليس هناك درجات في الوطنية، ولا في الخيانة. فإما أن يكون الشخص وطنيا، وإما أن يكون خائنا: صحيح أن الوطن غفور رحيم، وسيظل كذلك، ولكن مرة واحدة، لمن تاب ورجع إلى الصواب. أما من يتمادى في خيانة الوطن، فإن جميع القوانين الوطنية والدولية، تعتبر التآمر مع العدو خيانة عظمى").

كما انه استخدم الصيغ المستقبلية (فسوف، وسوف...)، حيث سعى إلى إبراز الآمال والطموح واستشراف المستقبل بتحقيق وانجاز المهام، وفي ذلك إثارته وتشويقه للمتلقي، كما انه استعمل الدعاء سواء المباشر وغير المباشر؛ لان الخطاب موجه للمسلمين كافة، فهو انطلاق يحدد المهام القومية العربية والوحدة الدينية والمشاكل العربية...، كما انه استحضر ثنائية الأنا الفردية والجماعية؛ أيها العراق...، نحن وإياكم، فهي مرتبطة بالجماعة وليس الفرد، واستعمل هذا الأسلوب ليزيل عن نفسه النقد، وان اليد الواحدة لا تصفق، وان انغماس الذات في الجماعة.

كما أن صدام استعمل ثنائية الهدم والبناء عن طريق اللغة لان الخصم ذاته (أمريكا وإسرائيل) يجب محاربتها من منطلق الدين والاعتقاد "وما النصر إلا من عند الله". وفي ذلك توسلا بالدين والإسلام الحنيف، وان الهدم ما هو إلا قلع لجذور الصهاينة، وان البناء دين حنيف ودولة راسخة بالإيمان.

وهكذا فان النص السياسي الذي بين أيدينا يطرح إشكالية كبرى عن علاقة الدين بالسياسة، واستغلالهما من أجل تحقيق الأهداف. كما أن صدام حسين نفسه كانت مرجعته غامضة نوعا ما، فهو انطلق من الاشتراكية وحدد الأنساق القانونية والسياسية لبلاده. ونحن نتساءل معه إلى أي حد استطاع صدام حسين بان يمرر أيديولوجيته ومرجعته انطلاقا من تبرير واستراتيجية تموهية تؤكد قمة المعرفة بسائر الأنظمة وخطاباتها؟

بمعايينتنا للخطاب السياسي باعتباره لغة تنتج الفعل وتحقق القصدية كان لازما علينا تمثل الظاهرة السياسية، بالكشف عن أهم الجوانب التي تبرز لنا الكيفية التي يتعامل معها الخطيب السياسي من خلال الممارسة اللغوية في العمل السياسي، ومن خلال الأبعاد التي تحملها النصوص السياسية. لذا، فإن اختيارنا لنص صدام حسين نسعى منه إلى مثله الراحل من نمذجة وصورة خطابية سياسية، كما أننا نكشف عن الملامح المخصصة للاستراتيجيات الخطابية العربية، وما تؤديه اللغة من لعب كلامي في انفتاح النص السياسي على خطابات أخرى، واعتبارات تخص الوضعية الخاصة والعامة. وهكذا نخلص إلى أن الخطاب السياسي ممارسة للفعل اللغوي عن طريق اللعب بالكلمات، وما أدته اللغة من إنتاجية داخل الخطاب السياسي لتمييزه عن باقي الانتاجات اللغوية للخطابات الأخرى خصوصا، أننا في مقاربتنا كشفنا عن النظرة الواسعة التي يجب ان يتحلى بها الخطيب، وعن المكونات الخطابية للفعل السياسي مع التدريب على الإلقاء وأنه لكل مقام مقال.

وقد كشفنا في نص صدام حسين الخصائص المميزة لنمذجة خطابه خصوصا وأن تجسيد العمل وتحقيقه وظيفيا ناتج عن إثبات اللغة، وأنه في الأخير ما على الفرد أو الجماعة (المجتمع) إلا أن يستجيب للغة وقوانينها وسلطتها، ما دام أنه من امتلاك الخطاب امتلاك السلطة.

ونحن نتساءل في الأخير: إلى أي حد استطاع الخطاب السياسي أن يراعي المرجعيات، وان يتحرى المصادقية والحقيقية؟

كيف يستطيع الخطاب الملكي أن يطوع اللغة ويؤمرن الوسائل الإستراتيجية اقتفاء أثرها في شواهد الخطاب الملكي، من خلال الوظائف المتعددة للخطاب التواصل والآثار اللغوية الدالة على هذه الوظائف؟ وما هي الوسائل الإستراتيجية التي تُكسب الرسائل والخطابات الملكية فاعلية ألقاها، فيلفظ جمهور التلقي باقي الخطابات؟

❖ ثانيا- لمن يكتبون؟

اللغة نظام والاتصال عملية منظمة ومُنظمة، لها عناصرها وتسلسلها المنطقي ومنطقها ونطاق فعلها.

ويعتمد النظام الملكي على نظام اللغة الذي سبق التفصيل بشأنه في معرض الحديث عن مستوى تشكّل وبناء الخطاب وشروط الإنبناء، ومفهوم النظام يتسع في العملية الاتصالية ليشمل النظم الاجتماعية، التي يحدث فيها السلوك الاتصالي، حيث تتواجد النظم الاجتماعية ضمن نظم أخرى في المجتمع مثل: الأسرة داخل العائلة، العائلة داخل الأسرة الكبيرة الممتدة، أو القبيلة...

وعليه، فإن ما يميز الخطاب الملكي هو طابعه الجماهيري والطابع الموزاييكي والكمي لجمهور التلقي، مع افتراض معرفة جلالته كمصدر باختلافات أفراد جمهور التلقي ومستويات التلقي، مما يتمخض عنه صعوبة في صياغة الرسالة التواصلية/الإعلامية التي تُناسب جميع أفراد الجمهور وتتناسب مع مستويات انتظارهم.

ولا يفوت الخطاب الملكي أن يراعي التعدد الفئوي واللغوي لجمهور التلقي وتضارب مصالحه، وتباين اتجاهاته ووجهات نظره، كما يراعي عاداتهم في تتبع وسائل الإعلام وتوزعها بين السلبية (مشاهدة التلفاز أو الإنصات للراديو) والمبادرة (تصفح الجرائد والمواقع الإلكترونية) لتصلهم الرسالة في نفس اللحظة وبسرعة فائقة من خلال مختلف وسائل ووسائط الإعلام، من الأكثر جماهيرية منها إلى الأكثر فئوية.

في إطار الحديث عن الخطيب ومجتمع الخطاب كأبعاد نظرية لتحليل الخطاب يجدر بنا أن تشير إلى أن مجتمع الخطاب حاضر بالفعل وبالقوة، شعورياً أو لا شعورياً في ذهن الخطيب كما في نص الخطاب وفي خلد الذين يخطون أهم فقراته.

ويختلف المخاطبون وفقاً لاختلاف طبيعة الخطاب وغرضه الذي اتجهت إليه الدراسات التحليلية للخطاب لتعرف من خلالها وبها طبيعة المنطلقات والأهداف الأيديولوجية، الفكرية لجلالته كخطيب والتركيبية النفسية والعقيدة السياسية التي يؤسس لها العاهل أو يضمن لها الإستمرار، (النظام السياسي المغربي وخصوصية المؤسسة الملكية، الثوابت العقدية للامة وطبيعة وخصوصية تدبيرنا الجهوي والمجالي ومنظورنا للاختلاف أو سبل ضمان الائتلاف والتعايش بين الهويات الثقافية الوطنية والجهوية والمحلية...)، سواء من خلال التركيز على الوحدات أو المقولات (النحوية، التركيبية أو الدلالية) أو من خلال الأساليب التي تتنوع بتنوع المخاطبين. مرد ذلك أن نفس الخاصية الأسلوبية يمكن "أن تثير انفعالات متعددة ومتميزة تبعا للسياقات التي ترد فيها"¹، كما يقول عبد السلام المسدي، فيسهم بذلك الأسلوب في تمييز صاحبه.

من جهة أخرى، فإن الخطيب يسعى من ناحية إلى تحقيق النجاح في إيصال خطابة بنجاح إلى متلقيه والتمكن من إقناعه بمضمونه، من خلل وسائل إقناعية (تبتدئ بمعرفة تامة بالموضوع، والإخبار عن جميع المعاني والأشياء التي يقع بها الإقناع، الإخبار عن الألفاظ التي يعبر بها عن تلك المعاني وما يستعمل معها ويقوم مقامها ويؤدي مهامها في الإقناع، وتحريك المشاعر واستدراج الجماهير والتأثير فيها)، وخطابات فصيحة صحيحة صريحة (بألفاظ جيدة تقرب الإفهام وتظهر المعاني، وبناء عناصر استماع السامع وحمله على الإستمتاع).

وكل هذه الأمور هي ذاتها العملية التي يقوم من خلالها الخطيب بممارسة التفاعل بينه وبين متلقيه من جهة، وبين النص ومجتمعه من جهة أخرى هي الوجه الآخر للتفاعل الأول، وأي تغيير في البصمة الصائتة (الدالة السوسيري) التي تغلف المعنى وتمثل مقدسات اللسان، يلزم أن يستتبعه تغيير في المعنى المغلف.

إن اجتماعية وتاريخية ذلك المقدس اللساني، تقول جوليا كرسيفا "إن المس بمقدسات اللسان عبر إعادة توزيع مقولاته النحوية وتغيير قوانينه الدلالية يعنى أيضا المس بالمقدسات الاجتماعية والتاريخية"². من هنا، يكون النص وعاءاً للوعي بالتاريخ والمجتمع عند كرسيفا شيئاً مختلفاً عن اللغة التواصلية التي يقننها النحو، لأن النص في نظرها لا يقف عند حدود تصوير الواقع أو الدلالة عليه، بل يتخطاها إلى "تحريك وتحويل الواقع الذي يمسك به في لحظة العلاقة.. بعبارة أخرى، فالنص لا يجمع

¹ - عبد السلام المسدي، الأسلوبية العربية بين المكتسب والمنشود، الدار العربية للكتاب. الطبعة الثانية، 1982، ص. 58

² - جوليا كرسيفا، علم النص، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، المغرب، الطبعة الثانية، 1997، ص. 63

شئات واقع ثابت أو يوهم به دائماً، وإنما يبني المسرح المتنقل لحركته التي يساهم هو فيها ويكون محمولا وصفة له.. () ، وهذا نشاهده في أيامنا هذه، حيث تحول النص إلى مجال يُعَلَّب فيه ويمارس ويتمثل التحويل الاستيمولوجي والاجتماعي والسياسي¹.

بالنسبة للمتلقى أو جمهور التلقي أو جمهور الخطيب، فعندما أبحرنا في محيط المثلث الدلالي السويسري (دال، مدلول ومرجع)، فإن المتلقي يكون مؤسسا لأحد هذه المركبات الثلاثة، وإذا أهمية قصوى في تكوين علاقة الدلالة حيث أنه مسؤول عن ترجمة المفهوم، إلى صورة ذهنية ثم دلالة ما يقصده المتلقى عبر عملية تواصلية نفسية في فضاء سياق لغوي معين... ومن هنا تبرز أهمية المتلقي في إعطاء الدلالة Signification للخطاب (النص)، ذلك أن الجملة تأخذ دلالتها من كونها في وضع تلفظي معين لا من بنائها النحوي والمعجمي.

ويدخل المتلقي في عملية تأثير وتأثر مع الخطاب تبدأ بتأثير مجموعة المتلقين (مجتمع الخطاب أو بالملق الفرد) في الخطاب قبل لحظة إعداده وإنجازه وأثناءها، لتبدأ مرحلة تأثير الخطاب في المتلقي ذات الطابع الاستمراري، حيث أن كل الخطابات تهدف إلى ممارسة سلطة على الجمهور بشكل دال، وتلك السلطة موضع تنافس وصراع، يحسم لصالح البعض دون غيره حسب إمكانيات امتلاك الكلمة وحق الكلام.

فكل فئات مجتمع التلقي وأطيافه تشكل رأيا عاما، له رأي بشأن الرؤية التي يقدمها جلالته في خطابه للعديد من القضايا التي ينتظر الرأي العام مساحة فعل الملك.

❖ ثالثا- رأي عام أم جمهور تلقي وبارومتر قياس وتلقي توجهاته؟

يرتكز مفهوم جمهور وسائل الإعلام التي سبق الحديث عنها كوسائط للتواصل بين الملك وشعبه وتمرير الرسائل وجمهور الخطاب الملكي تخصيصا على إعادة صياغة العديد من المفاهيم السائدة حتى تتمكن من استيعاب العناصر المستجدة الناتجة عن التطور السريع الذي تشهده المجتمعات الحديثة في مجالات الإعلام والاتصال الجماهيري ودمقرطة الولوج إلى خدماتها وزيادة مساحات الاختيار والتفاعل والمشاركة في أوساط جمهور تلقي أصبح يشكل رأيا عاما، على أن إعادة صياغة المفاهيم غالبا ما تضيف عناصر جديدة مستجدة، ولا تعني دائما وبالضرورة إلغاء و/أو تعديل العناصر السابقة التي تدخل في تكوين المفهوم.

إن مفهوم جمهور وسائل الإعلام الذي يعيننا في هذا المقام، لازال أصله التاريخي يلعب دورا أساسيا في الدلالات المختلفة والاستعمالات المتعددة لمصطلح "Audience".

وقد كانت فكرة الجمهور تعني في الأصل مجموع المتفرجين الحاضرين في عرض أو استعراض يستقطب جماهير غفيرة، وتنوع تشكيلاته بين الفضاءات فالفينا الجمهور الرياضي وجمهور المصلين وجماهير المحتجين... فقد انتقلنا من مجموع سكان القرية أو المدينة، بجمهور مكون من أفراد معروفين بذواتهم ومحددون في الزمن والمكان (في دور العبادة في السوق في تشييع جثمان احد أفراد القبيلة..)، ومنظما بحكم العادة ومعين المواقع وفقا للمراتب والمراكز الاجتماعية، وتحت إشراف سلطة روحية أو إدارية، إلى مفهوم جمهور خضع لبعض التعديلات والتغييرات الشكلية في الترتيب والأهمية والوظائف ومستويات الانضباط وضرورات الضبط.

¹ - جوليا كريستيفا، مرجع سابق، ص. 9

وعليه، فإن المفهوم الراهن لجمهور وسائل الإعلام لم يتكون طفرة واحدة، وإنما مر بمراحل تاريخية، ابتدأت بجمهور القراء، سنوات فقط على اختراع الألماني غوتنبرغ حروف الطباعة وإتاحة المنشورات والجرائد والمطويات للعموم وتوزيعها على نطاق أوسع مما كانت عليه، وإن كان توسع جمهور القراء خاضعا للتوزيع الفئوي الذي كان سائدا من قبل، بمستويات تربية وتعليم وتطلعات مختلفة، مع ظهور فئة مستنيرة هدفها تكوين رأي عام حول القضايا المشتركة التي يحملونها ويحملون بتجسيدها على أرض الواقع: بظهور وسائل الإعلام الجماهيرية، أتم تدشين المرحلة الثانية من مراحل تشكيل مفهوم الجمهور.

وتحتل دراسات الرأي العام الآن مكانا مرموقا في جميع دول العالم على اختلاف نظمها السياسية ومذاهبها وأيديولوجياتها سواء على المستوى النظري أو المستوى التطبيقي.

ولقد أصبح للرأي العام فلسفته الخاصة واستخداماته في الأنظمة السياسية المتباينة وأثره في توجيهها وفي التأثير عليها بقدر تأثيره بها، فتستقي آراءه وتسبرها وتتعرف على اتجاهاته لتقديم الخدمات والمنتجات التي تتواءم وحاجاته.

بناء على ذلك، لا ترسم الخطط الأمنية والسياسات الجنائية إلا وفق مؤشرات إحساس الرأي العام بالأمن أو الأمن، ولا تنجح تلك الخطط إلا بقدر تعاون وتأييد وتفهم الرأي العام للتدابير المتخذة، كمقدمة لتشكّل ذرائعية العقل الأمني ليمضي في صياغة أنظمة الأمن الوطني، ولتسويغ المقولة الأمنية بتظاهراتها المختلفة، سواء من ناحية استراتيجيات ومسوغات المكافحة الإستباقية التي تفترض عدواً هلاميا وافتراضيا قد يهاجم في أية لحظة، أو من ناحية تفكيك ما يسميه أصحاب النزعة الذرائعية الخلايا النائمة والمجموعات التي تخدم أجندة الحكومات الراعية للإرهاب.

وبحكم اشتغالي في مجال الأمن والإستراتيجيات الماكرو-أمنية للمملكة، ارتأيت أن أركز على مفهوم الرأي العام من منطلق علاقتنا كمصالح أمنية العديد من أطراف الجمهور.

فالرأي العام ظاهرة اجتماعية، واهتمامي به كما اهتمام الخطاب الملكي نابع من الدور الذي يلعبه الرأي العام في اتخاذ القرار السياسي.

ومن التعريفات التي تعاملت مع الرأي العام، قبل أن تفرع عنها تفرعات لا تحصى ولا تكاد تستقصى، نلفي تلك التي ترى على أنه عبارة عن مجموعة من التصورات الشائعة بين الأفراد، وتركزت هذه الفئة حول النظر إلى الرأي العام على أنه مرادف للمعتقدات أو التصورات الشائعة بين الأفراد حول موضوع معين، وقد ترتب على ذلك نوع من الخلط بين الرأي العام وبعض المفاهيم الأخرى مثل العادات والتقاليد، والتي هي أنماط من الأفكار والسلوك تتناقلهما الأجيال وتنسم بطابع العمومية.

إلا أن العادات ليست في ذاتها رأيا عام لأنها ليست رأيا في مشكلة معينة، فقد تتعود جماعة ما على تناول نوع معين من الأطعمة إلا أن هذا التعود لا يعد رأيا عاما، فليس الرأي العام بالرأي الجماعي كما يتوهم البعض دائما إنما هو آراء الجماعة بشقيهما من مؤيدين ومعارضين على السواء ويختلف الإجماع التام عن الرأي العام في أن الإجماع التام يشير غالبا إلى العرف والتقاليد والعادات الشائعة، أما الرأي العام فأساسه الحوار والنقاش وتفاعل الآراء.

كما أن فئة ثانية من التعريفات تعاملت مع الرأي العام على أنه يدور حول موضوع جدلي معين أو خلافي ومن أمثلة هذه التعريفات ما يلي:

– الرأي السائد بين أغلبية الشعب الواعية في فترة معينة بالنسبة لقضية أو أكثر يطرح فيها الجدل والنقاش وتمس مصالح هذه الأغلبية وقيمتها الأساسية بشكل مباشر؛

– "الحكم الذي تصل إليه الجماعة في قضية ما ذات اعتبار ما؛

– "وجهة نظر الأغلبية تجاه قضية معينة عامة في زمن معين تهم الجماهير وتكون مطروحة للنقاش والجدل، بحثاً عن حل يحقق الصالح العام"؛

– "نسبة الموافقة أو المعارضة داخل جماعة بشأن قضية ما".

والرأي العام يتوزع على أنواع وفق الأبعاد التالية:

– وفقاً لعنصر الزمن، فهناك الرأي العام اليومي أو المؤقت والذي يرتبط بحوادث أو مواقف طارئة، وينتهي بانتهائها، كما أن هناك الرأي العام الدائم؛

– حسب درجة ثباته، بين الرأي العام الثابت والرأي العام المتغير؛

– حسب حركته وحركيته، فهناك الرأي العام الاستاتيكي أو الجامد، والرأي العام النشط أو الديناميكي، والذي ينشأ عن الرغبة في التغيير؛

– فضلاً عن توزيعه حسب النطاق الجغرافي، بين رأي عام محلي، ينتشر في منطقة معينة، ورأي عام وطني يرتبط بدولة أو وطن معين، والرأي العام الإقليمي السائد بين مجموعة من الشعوب المتجاورة جغرافياً كالدول العربية ودول المغرب العربي، فضلاً عن الرأي العام العالمي.

المطلب السادس/كيف يُقرأون؟

قبل الحديث عن كيف يُقرأون، لابد لنا من وقفة عند درجة تتبع الخطابات الملكية أصلاً حتى يتسنى لنا الحديث عن مقرونياتها كمقدمة لقراءتها.

جدير بالذكر أن الخطابات الملكية غير خاضعة للترتيب أو التصنيف، كما هو الشأن بالنسبة لباقي البرامج التلفزيونية الأخرى، لسبب أساسي وهو أنها لا تدخل في حسابات الربح والاشهر.

فالخطب الملكية لا تظهر في الترتيب الذي تعده "ماروك ميري Maroc Mètrie"، الهيئة المسؤولة عن قياس نسب المشاهدة لأحسن عشرة برامج تلفزيونية.

فكيف يمكن لنا ان نعرف هل تحظى الخطابات الملكية بنسب مشاهدة وتتبع، قياساً على برامج سياسية أخرى أو حوارية تستضيف فاعلي الحقل السياسي أو برامج ترفيهية وسهرات فنية يسهر على تنشيطها أشهر المنشطين؟

تُظهر نتائج ماروك ميري¹ لشهر دجنبر 2012 أن البرامج السياسية مثل "حوار" الذي ينشطه مصطفى العلوي على القناة الأولى، و"مباشرة معكم" على القناة الثانية، لم تأت ضمن لائحة العشر برامج الأكثر مشاهدة في التلفزيون المغربي: حينما يفشل السياسيون المغاربة في إثارة انتباه المشاهدين المغاربة، فإن محمد السادس يحقق نسب مشاهدة قياسية: فخطاب العرش الذي وجهه جلّالته بتاريخ 20 غشت 2008 وكان قد ركز فيه على الحكامة الجيدة ومحاربة الرشوة تابعه أكثر من 35 في المائة من المشاهدين، أي حوالي 3 ملايين شخص، أي حوالي عُشر سكان المغرب، علما أن "يونس العلمي"، المدير العام لماروك ميري، يفيد بأن منهجية القياس مستخلصة فقط من القناتين العموميتين، أي دون احتساب معدلات تتبع الخطابات الملكية عبر القنوات الأخرى.

يشار أن الأنشطة الملكية كما الخطابات الملكية تحظى بدورها بمكانة خاصة في برامج التلفزيون العمومي: فنشرة أخبار الثامنة والنصف على القناة الأولى احتلت المرتبة الأولى في البرامج العشر الأكثر مشاهدة خلال شهر دجنبر 2009، و15 دقيقة الأولى من النشرة هي الأكثر مشاهدة، والشهادة صدرت ممن لا تُرد شهادته في مجال تتبع وتعقب نسبة المشاهدة.

بعد هذه التوطئة، يدفعني البحث عن مناويل قراءة الخطاب الملكي بشكل موازي إلى التعرّيج على دراسات جمهور وسائل الإعلام، وهو إعلام يندرج ضمن نطاق الدراسات الشاملة لعملية الاتصال الجماهيري، خاصة في ظل ظهور وسائل الإعلام الجماهيرية وتطورها وارتفاع درجات تعقيد نشاطات المجتمع وتنظيمه وتغييره وصعوبة التقعيد لمنهجية الربط بين تنمية وسائل الاتصال الجماهيري والتغير الاجتماعي وتحويل انطباعات عامة الناس المتعلقة بوسائل الإعلام وعلاقاتها بالمتلقين إلى معارف علمية نظرية وتجريبية، مع وضع أشكال جديدة من الرقابة والسلطة واتساع نطاق الحرية الفردية مقابل تقلص هيمنة الجماع وتواري الانظمة الشمولية السلطوية.

كفرعين خاصين من فروع السوسيولوجيا العامة التي أصبحت قواعدها ومناهجها التقليدية غير كافية لملاحقة التغيرات السريعة التي تطرأ على المجتمعات الحديثة منذ منتصف القرن الماضي، وبخاصة التغيرات التي حدثت منذ بداية القرن الحالي في فضاء الاتصال الشخصي والجماهيري، تركز كل من سوسيولوجيا وسائل الاتصال (Sociologies des Medias) وسوسيولوجيا الجمهور (Sociologie du public)، على مختلف العناصر والجوانب المتعلقة بجمهور وسائل الإعلام التقليدية والإلكترونية.

فسوسيولوجيا الجمهور كفرع من علم الاجتماع الإعلامي، أو سوسيولوجيا وسائل الإعلام، تهتم بشرح وتفسير مختلف الظواهر المرتبطة بالطرف النهائي الأصيل في العملية الاتصالية، حيث تحاول شرح وتفسير الكيفيات والآليات التي تتحكم في تكوين جمهور وسائل الإعلام والسلوك الاتصالي الذي يأتيه هذا الجمهور وعلاقته بالقائم بالاتصال وبالرسالة الإعلامية، من خلال الإجابة على السؤالين الأخيرين في نموذج لاسويل الاتصالي: لمن؟ وبأي أثر؟ واللذان ينسجمان مع محورين من محاور المطلب الذي نحن بصدد.

¹كما ورد التعريف التالي لماروك ميري في موسوعة ويكيبيديا بلسانها الفرنسي، حيث أوردت أن :

"Maroc-Métrie est un prestataire du service de la mesure de référence de l'audience de la télévision sur l'ensemble du territoire marocain qu'il s'agisse des zones urbaines ou rurales. Médiamétrie opère cette mesure pour le compte du CIAUMED (Centre Interprofessionnel d'Audimétrie Médiaque), qui ne cesse d'améliorer ses performances en augmentant les panels et en installant des équipements plus performants".

فإذا كانت دراسات قياس نسب المشاهدة تشكل الترجمة الرياضية والإحصائية لقياس مستويات تتبع الجمهور لوسائل الإعلام، والتوكيد عليها في دراسات التسويق التجاري والسياسي حيث يصبح الجمهور ونسب مشاهدته لقناة ما مؤشرا على قيمة القناة وزيادة ثمن الإعلان في فضاءاتها الإشهارية، فإن القنوات المغربية لم تقم بعد بقياس نسب مشاهدة الخطاب الملكي فتكتفي أساسا بدراسة نسب مشاهدة العديد من البرامج لبرمجة توقيت تمرير الإعلانات والوصلات الإشهارية وبيع مساحات ذروة المشاهدة للمعلنين والمُستشهرين.

وعليه، فقد واجهتني صعوبة الخروج بمعيار علمي لقياس استجابة جمهور التلقي، ورد فعله وتفاعله مع الرسائل الملكية المبنوثة في الخطاب، واستيعابها من باب أولى، والمستويات الإنتقائية للمواضيع وترتيبها وطريقة صوغها ليتنبه كل المغاربة لكل الخطاب أو فئة منهم لفقرات محددة في الرسالة الاتصالية الملكية لأسباب تتعلق بغائية الخطاب أو بطبيعة الاهتمامات الشخصية لكل فرد من أفراد جمهور التلقي، وبالتالي الحكم على مستوى النجاح الإتصالي المولوي ومستواه الرّسالي تبعا لمستوى الفعالية الإستعمالية المرتبطة بكل وسيلة من وسائل التواصل الجماهيري، ومستويات الإشتراك والمشاركة في المعنى من خلال التفاعل الرمزي وكذا فاعلية الانتشار في الزمان والمكان، فضلا عن استمراريتها وقابليتها للإنباء بصدق ما ورد في الخطاب الملكي من رؤى واستراتيجيات لا تدخل في مجال التنبؤ.

فإذا كان قياس مستويات تتبع الخطاب الملكي غير متاحة، فإن قياس فاعلية التلقي متاح بناء على مؤشرات انطباعات العامة والخاصة ووسائل الإعلام بعد كل خطاب ملكي ونسبة الإستشهاد بشذراته في الخطاب الإعلامي والسياسي والحقوقى والجمعي، وحتى عند اجتياز المباريات وانطلاقا من مؤشر جديد أصبح يطلق عليه "بلاغة جمهور التلقي".

❖ أولا- بلاغة الطابع الحوارى والمُساجلي للخطاب الملكي

كامتداد لبنية الخطاب وتعريجا على بيئة الخطيب وفضاء الإلقاء ومجتمع الخطيب ومستويات التلقي ومؤشرات التفاعل مع خطاب الفاعل، يعتبر الطابع الحوارى للخطاب المولوي مع مجتمع تلقيه من أساسيات فاعلية وتفاعل الخطاب الملكي مع جمهوره، وفق حوار يخلق تواصلا شفهيًا راقيا. ويعد الحوار مجالا فعّالا ومفيدا في إكساب الخطاب خصائص التواصل والتّفاعل الاجتماعي، الذي ينبغي أن يكون عن طريق الممارسة اللّغوية الفعلية في مواقف حيوية.

فالحوار عند ابن منظور من التّحاور والتّجاوب وتقول كلمته: كلمته عما أحرار إلي جوابا وما رجع إلي حويرا ولا حويرة، ولا حورا أي مارد جوابا"، "واستحاره: أي استنطقه، يتحاورون يتراجعون الكلام، والمحاورة مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة، والمحورة من المحاورة، مصدر كالمشورة من المشاورة، وما جاءتنني عنه محورة، أي ما رجع إلي عنه بخبر"¹.

¹- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، المجلد2، ط1، 1997، ص 182- 183.

ما يميز حوارية الخطابات الملكية هو قدرتها على حشد جميع مهارات التواصل الشفهي في الحوار- والقدرة على التفكير فيما يشاع ويجري، وطرحه على ساحة النقاش من خلال الإدلاء برأي أولي بشأنه وفتح الباب للنقاش العمومي، أو برأي وتصور نهائي له من الحكمة ما يسنّده (من خلال مرجعية مؤكدة، وأدلة وشواهد وحجج دامغة وبراهين ناصعة)، ويقنضي من باقي المتدخلين بلورته وتنزيله، مع تغليب العام على الخاص، ونسيان توهج الذات أو الانبهار بكل ما يصدر عنها من تداعيات، وهو أيضا ما يمتد إلى طبيعة العلاقة بالآخر إلى حد التماهي معه من باب الدهشة والانبهار. كما تتميز الحوارية بالقدرة على "التكيف بسرعة مع الحقائق والبراهين والشواهد والأفكار الجديدة، وعدم الالتفاف حول الذات لأنها ضربا من ضروب المغامرة"¹.

وتتجح حوارية الخطاب الملكي إذا نجح الحوار وفق معايير النجاح التي حددها "كارل روجر" حين قال أنه "إذا توفرت الرغبة لدى شخصين للتبادل، وان كليهما لديه الرغبة في الاستعلام ومساعدة الآخر، وأن المناقشة استمرت وقتا كافيا بدون تداخلات، فإنه بقدر ما توافرت درجة التوافق لدى أحدهما، بقدر ما يكون هناك اتجاه نحو الطرف الآخر لتوليد ظروف المعالجة، وبالتالي توليد التوافق النفسي، وهذا يعني فرصة نجاح المناقشة"².

كما أن حوارية الخطاب الملكي لا تنجح إلى الفُحش بفضل تحصينها بأخلاقيات ممارسة حوارية خطابية قائمة على مستويات لغة متخلقة وتبتعد عن الابتذال والسوقية والتهور والاندفاع والاستسلام لهيمنة الذات على ما حولها دون وجه حق من باب الرعونة أو الاستعلاء أو تجاهل الآخر، مع احترام الخطاب الملكي للحد النوعي الاصطلاحي دون افتعال إسقاطات على ما لا يحتمل الإسقاط أو الدفع بتأويلات ما لا يحتمل التأويل.

فإذا كانت الخطابات السياسية تقوم على فُحش الخصومة والإنجاز الكاذب وغيرها من السمات التي سبق لنا التفصيل فيها، فإن ثقافة الحوار التي تؤسس عليها الخطابات الملكية تقوم على مجموعة من القواعد والأركان الخاصة بمنهجية الحوار الراقي كالاقرار بالآخر أو الإقرار بحق الاختلاف من منطلقات الحوار البناء والاعتراف بالآخر واحترام رأيه، بعيدا عن تعزيز القنوات الذاتية ومحاولة استدراج الآخر لاعتناقها، مع البحث عن فضاء واسع لاكتشاف المساحة المشتركة وبلورتها.

ثقافة الحوار التي تؤسس عليها الخطابات الملكية تنمي أيضا ثقافة النقد الذاتي ومراجعة النفس، مع اعتبار الرأي الفردي خطوة قابلة للخطأ كقابليتها للصواب، والاعتداد برأي الآخر قابلا للصواب قبل الخطأ وهو يحتاج بدوره درجة وخبرة حاجته على العمق الثقافي وموسوعية الفكر بما يفتح الأبواب أمام المتحاورين للتلاقي أو الافتراق، للتقارب أو الاختلاف والتجديد ومراجعة النصوص ("فإنه يتعين مراجعة النصوص المنظمة لها، ووضع الإطار القانوني للمؤسسات الجديدة")؛ "وستتم مراجعة النظام الانتخابي في اتجاه ترسيخ الديمقراطية وحرية الاختيار وذلك بتحسين الآليات الانتخابية قصد ضمان الشفافية والتعبير الانتخابي الحر وتخليق المسلسل الانتخابي"؛ "فإننا لم نتردد في تجنب المجتمع، مغبة الفتنة حول هذه القضية، بتكوين لجنة استشارية متعددة المشارب والاختصاصات، لاقتراح مراجعة جوهرية، لمدونة

¹- عبد الله التطاوي، الحوار الثقافي، مشروع التواصل والانتماء، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 2006، ص 133

²- صالح أبو أصيب، عز الدين منصور، محمد عبيد الله، الحوار مع الذات، أوراق المؤتمر العالمي الثامن لأكاديمية الآداب والفنون، 28-30 يوليو 2003، جامعة فيلادلفيا، كلية الآداب والفنون، ص135

الأحوال الشخصية") قبل مراجعة النفس ("هل اختيار اتنا صائبة وما هي الأمور التي يجب الإسراع بها، وتلك التي يجب تصحيحها وما هي الأوراش والإصلاحات التي ينبغي إطلاقها. أما إذا كان الإنسان يعتقد أنه دائماً على صواب، أو أنه لا يخطئ، فإن هذا الطريق سيؤدي به إلى الانزلاق والسقوط في الغرور"¹.

ويمثل هذا الخطاب المرجعي المحصلة النهائية للحد الأدنى بفعل الحمولة الإيديولوجية لتلك الحوارات والمواقف المسبقة المتربصة بعضها البعض، فكان الحوار في هذا الخطاب يعني تنازل جلالته عن ثوابت مبدئية عن صواب الفكر الملكي وصواب السياسات الحكومية التي تطبقه والحديث لأول مرة عن وجود هامش الخطأ قياساً على مؤشرات تقييم وأليات أقرها وأجمع عليها "الخبراء والمهتمون، الوطنيون والدوليون".

فقد كَيف جلالته تدليلاته وفق غرض معين، أي بحسب الأسئلة التي يمكن أن يطرحها جمهور التلقي، وتلك التي قد لا يطرحها والتي ينبغي له أن يطرحها ("وكيفما كان تركيب المجالس المنتخبة، فإننا لن نكف عن طرح السؤال الجوهرى .. هل يعد الانتخاب غاية في حد ذاته، ونهاية المطاف؟ كلا، فإن احترام الإرادة الشعبية يقتضي نبذ عقلية ديمقراطية المقاعد، والالتزام بفضيلة ديمقراطية التنمية... إلى متى سنستمر في اللجوء إلى التمييز الإيجابي القانوني، لضمان مشاركة واسعة للمرأة في المؤسسات"²؛ "غير أن السؤال الذي يطرح نفسه اليوم، وبكل إلحاح : هل تمت مواكبة هذا التقدم، من طرف جميع الفاعلين السياسيين، على مستوى الخطاب والممارسة؟"³؛ "هل التعليم الذي يتلقاه أبنائنا اليوم، في المدارس العمومية، قادر على ضمان مستقبلهم؟"⁴؛ "وهل من المعقول أن يأمر الله، الغفور الرحيم، شخصاً بتفجير نفسه، أو بقتل الأبرياء ؟ علماً أن الإسلام لا يجيز أي نوع من الانتحار مهما كانت أسبابه. قال سبحانه : "من قتل نفساً بغير نفس، أو فساد في الأرض، فكأنما قتل الناس جميعاً"⁵.

وإن كان صاحب الجلالة قد أقر مبدئياً أن " التساؤل وإجراء هذه الوقفة مع الذات، لا يعني الشك أو التردد، أو عدم وضوح الرؤية، بل على العكس من ذلك، فطريقنا واضح، واختيار اتنا مضبوطة. فنحن نعرف أنفسنا، ونعرف ماذا نريد، وإلى أين نسير"، فإن هذا النمط الخطابى الحوارى غيَّب نزوع النفوس إلى غلواتها وأنانيتها، وأدرك أن الحقيقة لا يمكن أن تكون ملكاً خاصاً للملك أو لمستشاريه، بقدر ما هي مُشاعة لمن تعلم التنازل عن تعصبه لمعتقداته وآرائه، وعن تعاليه الذي يزين له أنه الوحيد الذي يمثل القيم، وأن ذاته فوق الحوار والنقاش والتساؤل، لأن النفس التي تؤمن بضرورة الحوار ووجوب الالتقاء مع الآخر والتفاهم معه تترك دائماً في داخلها هامشاً للخطأ والصواب في الفكر الذي تحمله.

بالمقابل، قطع الخطاب الملكي مع الخطابات السياسية وحوارياتها التي يغيب عنها المنهج أو السبيل في إدارة الحوار بسبب شيوع العبث وسيطرة الأهواء، أو إثثار ضجيج الأصوات حتى لو اخترقت الحقائق لمجرد إرضاء الذات أو إثبات الوجود، لتسقط في ضرب من الجدل العقيم أو الهراء والخلاف الأرعن، فلا نجد في حوارية خطابات الساسة سوى تلك الأصناف التي فصل فيها عبد الله التطاوي⁶ وأوردها مصنفة كالتالي:

1- من نص خطاب صاحب الجلالة الملك محمد السادس إلى الأمة بمناسبة الذكرى الخامسة عشرة لعيد العرش المجيد

2- من نص خطاب صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله بمناسبة افتتاح السنة التشريعية 2003-2004

3- من نص الخطاب الإفتتاحي لجلالته للدورة الأولى من السنة التشريعية الرابعة من الولاية التشريعية التاسعة

4- من متن الخطاب المخد للذكرى السادسة عشرة لعيد العرش المجيد

5- إحدى شذرات الخطاب الملكي الموجه إلى الشعب المغربي بمناسبة الذكرى الـ 63 لثورة الملك والشعب

6- عبد الله التطاوي، الحوار الثقافي، مشروع التواصل والانتماء، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 2006، ص 133-135

- **حوارات مناورة لفظية** التي ينشغل فيها الطرفان بصرف النّظر عن الموضوع الحقيقي للحوار؛

- **حوارات سُطوية**، اغلب عليها طوية إلغاء الآخر على اعتبار أنه أدنى من أن يُحاور، فيفرض عليه الاستماع للأوامر والاستجابة الفورية لها؛

- **حوارات سطحية**، يحضر فيه التّحاور حول القضايا الجوهرية لكنها لا تقاربها إلى بنوع من التسطيح طلباً للسلامة؛

- **حوارات الطريق المسدود** التي يصر فيها أحد أطراف الحوار منذ البداية على صواب رأيه وسفاهة محاوره، ويتمسك بشدة بوجه نظره ويتعصب لموقفه؛

- **حوارات الموافق المُستلب** الذي يلغي فيه أحد الطرفين حقه في التّحاور لحساب الطّرف الآخر، إما استخفافاً به أو خوفاً منه؛

- **حوارات العدوان السّلبى** الذي يلجأ فيه أحد الأطراف إلى الصّمت السّلبى عنادا أو تجاهلا ورغبة في الكيد للطرف الآخر بتجاهله وإمعانا في إغاظته.

وإذا كانت الخطابات الحزبية تعرف تبادل القذف بمدافع التخوين، فإن الخطاب الملكي ينتصر للحق لتخلص جلالته من في حوارية خطابه مع باقي الفاعلين من كل مفردات التخوين والنفي والإقصاء والتعالي، وادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة، والتعصب، والقناعات السابقة والموافق البائنة والفائتة والنيات المبيتة والأحكام القائمة سلفاً.

كما أن الخطاب الملكي يركز على حسن تدبير الزمن الخطابى وإدارة حواريته من خلال ترشيد الوقت والتركيز على الأمور المتفق عليها والقضايا المشتركة لتتوطد أسباب التواصل وتعمق في الوعي والسلوك تلك المساحات المشتركة، فيدخل الزمن في إدارة حوارية الخطاب الملكي، ويقوم نجاح حواريته على البدء بالقضايا الكبرى، وتحديد نقاط الاختلاف، ثم ترتيبها الواحدة بعد الأخرى، فيبدأ الخطاب حواريته بالأهم، فالمهم، وينتقل الحوار من الأصول إلى الفروع.

في المقابل، نرى جلبة في جلسات الحوار التي تجمع الساسة أو البرلمان بالحكومة، فيصعب التحكم في النقاش، ويغيب التنظيم الموضوعي ولا ينتظر باقي الحضور فتح باب التخل لتوجيه ما يعنّ لهم من ملاحظات أو تعقيبات.

بمنطق المقارنة رغم شساعة الفارق، نلفي أن حوارية الخطاب الملكي تكسبه شخصية سوية لا تتعصب لرأي وإنما تبحث على إقرار الحق والدّفاع عنه، فيه أناة، وصبر وسبر للحقائق وتروي في إصدار الأحكام، التي يقلل منها الخطاب الملكي إلا ما اقتضته الضرورة، مع إخضاعها لمنهج علمي واضح المعالم بين مقدمات وفرضيات ومعطيات ونتائج دون الانصراف إلى الطرح العشوائى للأمور.

فالخطاب الملكي الواعي يراعي قواعد الملاءمة والمناسبة، وعدم الحياد عن صلب الموضوع، ورسم خطة تحدد القضية المتحاور بشأنها، حتى لا تتشعب وتتداخل الأفكار وتخرج حوارية خطابه عن نطاق الموضوع الذي يقتضيه الخطاب أو مناسبة توجيهه للشعب، لأن حصر جلالته للموضوع في الحوار يساعد على توجيه الحوار دون ان يحيد، في مقابل انتظار جمهور التلقي المزيد وحرصه على التعان مع جلالته كخطيب من خلال التسليم والتصديق بالالتزامات التي قطعها جلالته على نفسه.

فما هي أهم السمات المميزة للغة الحوارية في الخطابات الملكية؟

كوسيلة لنقل المعرفة وتمرير الفكر السياسي، يمكن أن نميز بين المستوى العلمي للغة باصطلاحاته المجردة، والمستوى العملي لاستعمال اللغة، مع خلق نموذج مبسط، يفهمه عامة الناس. ولا بد للمتخاور أو المحاور من الالتزام بعدد من الضوابط اللغوية التي يمكن إجمالها فيما يلي:

- ابتغاء الدقة اللغوية ليتحقق الوضوح السمعي والدلالي؛
- استعمال الألفاظ التي تجعل المتخاور متمكناً في القول وممسكاً بناصية اللغة؛
- تبني أسلوب حوار ينادى عن طوابع التحرير الأدبي، والتعميمات التي لا معنى لها والتي تحول إلى تعميمات، والجمال الطويلة، والمترادفات، والمستوى الجمالي في التعبير، حتى لا يتهم من جانب الجمهور المستمع أو محاوره بـ " المتفقيه"، المجادل من أجل الجدل، وليس من أجل الفكر والعلم البناء، مع الحرص على استخدام الجمل القصيرة واللغة المتينة والتداولية والحجة المكيّنة لتبليغ القصد من حوارية الخطاب الملكي والفئات التي يتوجها لها بمضامين الحوار المفترض.
- مراعاة المقتضى الاجتماعي للكلمة والاستعمال المحلي غير الخادش للحياة؛
- وعليه، تتم عملية الاتصال بأقل كلفة لغوية، من خلال:
- تحري البساطة؛
- استعمال صور لغوية بيانية حقيقية دون استدعاء الخيال؛
- البعد كل البعد عن الصيغ البيانية والبديعية كالتورية والمجاز والجناس وازدواج المعاني؛
- التركيز على المصطلحات المتداولة بلفظها المشهور وتجاوز المهجور؛
- وتعد لغة الحوار وسيلة من الوسائل التي تشبه إلى حد كبير وظيفة الصحفي الذي يعرض مادته الإخبارية بشكل مبسط وبتعاطي تحريري حريري لين لا يستعصي على الفهم.
- ومن خلال تتبع بناء حوارية الخطاب الملكي، نجد أنه يمر بمراحل عديدة، قد تتكرر أو قد يكتفي الخطاب الملكي بإحداها أو بعضها:
- **مرحلة البدء أو الافتتاح:** وهي المرحلة التي يرى فيها "حسان الباهي" تمهيدا يقوم على "تنبيه المحاور والإعلان عن المخطط التواصلي، فننفتح على الآخر ونفتح معه الموضوع محل النزاع مع تحديد قواعد فن قيادة الحوار وطبيعة التعامل معه"¹؛
- **مرحلة المواجهة:** وهي مرحلة التساؤل مع إيجاد منفذ يكون ضروريا للإعلان والإخبار، ويكون مُطابقا لكل الالتزامات والتعهدات؛
- **مرحلة التذليل وإقامة الحجة:** وهي مرحلة المدافعة وبسط أدلتنا وحجتنا، مع سابق التوفر على "النية الصادقة التي تسمح بقبول شروحات وأطروحات الطرف الآخر كما تسمح بالتدخل لقبول تعاليق وتعقيبات المتلقي إثراء للفكرة إذ لا تفاهم دون وجود نية في ذلك"².

¹- حسان الباهي، منهجية التفكير النقدي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2004، ص 42-44

²- محمد معروف، حوار أم جدل، مطبعة الشروق، ماي 2002، ص 27

❖ ثانيا- فاعلية الحجاج الحواري ومحددات الإلقاء والإلتقائية بعد سابق تلقي

حين تصوير جدلية الظاهر والباطن في المحادثة أو المعلن والضمني الذي يقارب بين اختلاف مقصد المخاطب، وإدراك وفهم المتلقي لهذا الأخير، وحين نقارب بين ما يقول المتكلم وما يريده فعلاً، يصير الأمر محل استفهام، حينها تقوم جدلية المعنى والدلالة الحاصل في الخطاب، ونكون في حاجة إلى آليات أخرى تتجاوز ما هو لسانی صرف إلى ما هو تداولي ومقامي، للوقوف على المعنى الحقيقي للخطاب، ومدى كفاءة كل من المخاطب في بلوغ مقصد المتكلم، والإجراءات التي يستعملها في ذلك.

فالخطاب الملكي كأى خطاب ذو طبيعة اجتماعية نفسية وخاضع لقوى خارجية تؤثر في عنصرى الإلقاء والتلقي (وبالتالي في عملية الفهم والإفهام)، يحيلنا على ما حرص عليه اللسانيون من محاولات إدراك مقاصد المتكلم واستجابة المتلقي في ظل إقصاء البنيوية لملاسات السياق ومقام الكلام الذي أنتج فيه، وتعرس عليهم الإجابة عن بعض الأسئلة من قبيل:

- من هو المتكلم الحقيقي؟
- إلى من يتوجه هذا الكلام؟
- كيف يتلفظ المتكلم بشيء وهو يريد شيئاً آخر؟ وفي حال كهذه، كيف للمتلقي أن يفهم قصد المتكلم؟ حتى صارت هذه القضايا موضوعات لحقل بالتداولية.
- والسؤال الذي يطرح بعد هذا التقديم الممهّد للتداولية هو أين يتموقع الحجاج في هذا الزخم المفاهيمي من هذا الحقل المعرفي المترامي؟

أسلم مبدئياً بأن للخطاب الحجاجي بنية خاصة وهي بنية استدلالية، وإن كنت أستعمل هذا المصطلح بتحفظ، وكذلك أساليبه التي تميزه من باقي الخطابات الأخرى، فأنا بتحليلي لبنيته الاستدلالية الإقناعية سأكون بصدد رصد أفعال كلامية لها سياق ومقام مشترك بين المتكلم والمتلقي وتؤدي وظيفة حجاجية، "ومن أفعال اللغة المتداولة في الحجاج هناك الأفعال "العرضية" التي تستعمل -حسب أوستين Austin- لعرض المفاهيم، وبسط موضوع، وتوضيح استعمال كلمات وضبط مراجع، مثال ذلك: أكد، أنكر، أجاب، واعترض، وهب، ومثل، وفسر".

وفي هذا السياق يقول "ديكرو": "لقد انطلقنا من ملاحظة عامة أنه كثير من الأفعال الكلامية لها وظيفة حجاجية، توجه المتلقي إلى نتيجة محددة، أو تصرفه عنها. حين نبتعد قليلاً عن العمومية يمكن أن نقول: إن الوظيفة الحجاجية تحمل علامات داخل الجملة نفسها: منها القيمة الحجاجية للملفوظ ما، فهي ليست فقط نتيجة المحمولات الخبرية له، ولكن الجملة يمكنها أن تحمل عدة دلالات وعدة صيغ أسلوبية، والتي بالإضافة إلى محتواها الإخباري يمكنها أن تدلي بتوجيهات حجاجية للملفوظ، حيث تعمل على توجيه المتلقي وجهة دون أخرى"¹.

وقد حدد "فرانز فان إيمرين" موقع الحجاج داخل التداوليات المعيارية بدمجه لنظرية الحجاج مع نظرية الأفعال الكلامية وتحليل المحادثة والخطاب، والجدل الصوري داخل نموذج نظري أطلق عليه اسم نظرية الحجاج الجدلي، ويحدده بكونه: "نموذجاً مثالياً للمحادثة الخلافية، يوجّه مراحلها، ويوزّع الأفعال اللغوية عبر هذه المراحل، وينظم تفاعلاتها، ويشكل شرطاً أساسياً لبناء معياري نسقي للخطاب يسمى التحليل الجدلي"².

¹ - Ducrot, O., 1973, «Les échelles argumentatives », préface de 1980, Paris, Minuit, p11-10

² - القيمة الحجاجية للعبارة القرآنية،

فهو يتصوّر الحجاج من الناحية الجدلية "فعلاً لغوياً مركباً، يتكوّن من مجموعة من الإثباتات الموجّهة لتبرير أو دحض رأي، ولاقناع حكم عقلائي يتفاعل بكيفية معقولة، مع درجة مقبولة وجهة النظر المطروحة". فالخطاب الحجاجي "يتميّز بنوع من الاستدلال الداخلي من خلال الأشكال المختلفة للبنى الداخلية له، وكذلك بنوع من الاستدلال الخارجي من خلال الأثر التكملي الذي يعقد معه".

كما يتجلّى البعد التداولي للخطاب الحجاجي في الحوار أو الحوارية، حيث نجد "سكوت جاكوبس" يحدد الحجاج بكونه: "عملية تكييف للمبادئ الحوارية العامة، مع متطلبات وظيفة خاصة، وهي وظيفة إدارة الخلاف، ذلك أن الحوار -كأي نسق- يتطلب آليات تنظيمية، تواجه القضايا الخلافية، بوضع الحجة في محيط الخلاف المفتوح أو المتضمن أو المسقط، وإعطائها وظيفة تداولية، ما دام الخلاف له علاقة بين الأفعال اللغوية الحوارية، أيّاً كانت القضايا المرتبطة بهذه الأفعال"¹.

فالحجاج الحواري صنف كثير الاستعمال في الخطاب الملكي لملاءمته طبيعة المواضيع المطروحة التي تحتاج إلى الحجج العقلية المُقنعة وتجاوز رداءة وتردي الإدعاءات السياسية المُقنعة.

فالأفعال اللغوية في الخطابات المولوية تنحصر في أفعال الاحكام حسب التصنيف الاوستيني، مثل انحصارها في أفعال "يقوموا"، "يمثلوا" و"يعبروا" (النواب والمستشارين الذين وقع اختيار الأمة عليهم ليمثلوها ويقوموا مقامها في الدفاع عن مصالحها، ويعبروا عن آمالها وآلامها): فبالرغم من مرتبة الأمر الرفيعة المتمثلة في منزلة الملك في النسق السياسي المغربي، إلّا أن أوامره لم تنجز والآداء كان مخففاً، فهي أفعال كلامية غير موفقة، فالتلقي لها لم ينجز مضمون هذه الأفعال لأن "المتتبع للمشهد السياسي الوطني عموماً، والبرلماني خصوصاً يلاحظ أن الخطاب السياسي، لا يرقى دائماً إلى مستوى ما يتطلع إليه المواطن، لأنه شديد الارتباط بالحسابات الحزبية والسياسوية... والملاسنات الديمagogية، والحسابات الضيقة...". والحال أن "الخطاب السياسي يقتضي الصدق مع المواطن، والموضوعية في التحليل، والاحترام بين جميع الفاعلين، بما يجعل منهم شركاء في خدمة الوطن، وليس فرقاء سياسيين، تفرق بينهم المصالح الضيقة"².

لكن البنية الحجاجية ككل كانت ناجحة، ودليل نجاحها هو عدم تمكن الخصوم من إبطالها أو الدخول في مخاصمة سياسية للخطابات الملكية، فتثبت لهذه الأخيرة ما يُدعى إفحام الخصم، الذي لم يبد عناداً أو مقارعة أو محاجة.

فالخطاب الملكي لم يكتف فقط باستعمال أساليب خطابية في الإقناع متعارف عليها لدى جمهور التلقي، ولم يمارسها كاستدلالات منطقية -أرسطية في إثبات صحة التصريح الملكي بجنوح العمل التمثيلي النيابي عن مراميه، بل استحضر في توجهاته الحجاجية ضابط اللغة، لأن اللغة بما تتميز به من طواعية الاستعمال وثراء أبنيتها اللغوية وفق تصور ديكر وكفلت له ترابط الأقوال الذي لم يستند فقط على قواعد الاستدلال المنطقي وإنما عززها وعززها بترابط حجاجي مُسجل في أبنية اللغة بصفته علاقات توجه القول وجهة دون أخرى، وتفرض ربطه بقول دون آخر: فموضوع الحجاج في اللغة هو بيان ما يتضمنه القول من قوة حجاجية تمثل مكوناً أساسياً لا ينفصل عن معناه، ويجعل جلالته موجهاً لقوله وجهة حجاجية.

¹ -أبو بكر العزاوي: اللغة و الحجاج، ص 23

² - شذرات من نص الخطاب الملكي الإفتتاحي للدورة الأولى من السنة التشريعية الرابعة من الولاية التشريعية التاسعة

❖ ثالثاً- الخطاب الملكي بين التفسير والتبرير، البرهنة والحجاج

يظهر مما تقدم أن التحديد اللغوي للحجاج المولوي يدور في فلك الغلبة وبقدر أقل المغالبة التي تنطلق من اللغة وتتغيا حصول التأثير والإقناع، و يحاقل من حيث اللغة كما من حيث الاصطلاح، مع بعض الفرق الذي يبدو أحيانا ويلطف أخرى، مفردات أخرى من قبيل "البرهان و الجدل و الاستدلال"¹، و التواصل و الحوار.

يستدعي التأثير والإقناع في خطابية الحوار الملكي او حوارية الخطاب الملكي آليات فاعلة لتحقيقه، تجعل من الحجاج ميزة من مميزات هذا التخاطب بمواقفه المتعددة وأشكاله المتنوعة بين الشفوية والكتابية، وركيزة موجهة للنصوص المتضمنة للمقصدية والنقاش والانتقاد.

والحجاج الذي تناولناه يتمثل في معرفة ما تشمل عليه اللغات البشرية عامة واللغة العربية خاصة من وسائل لغوية ومن إمكانيات صرفية ومعجمية وتركيبية ودلالية يوظفها المتكلم لتحقيق أهدافه وغاياته الحجاجية والإقناعية.

والحجاج في الاصطلاح هو مجال غني من مجالات التداولية، يشترك مع العديد من العلوم الأخرى ضمن الحقل التداولي، لكنه انبثق من حقل المنطق والبلاغة الفلسفية، فارتبط مفهومه بالفعل، وهو بحث من أجل ترجيح خيار من بين خيارات قائمة وممكنة بهدف دفع فاعلين معينين في مقام خاص إلى القيام بأعمال إزاء الوضع الذي كان قائم: فمفهومه كان قائما أساسا على صناعة الجدل والخطابة، بل إن من الدارسين حديثا من عدّه خطابة جديدة، فلا هو بالجدل ولا هو بالخطابة.

ولتوضيح مفهوم الحجاج argumentation، ينبغي مقارنته بمفهوم سيامي هو مفهوم البرهنة Démonstration أو الاستدلال المنطقي "فالخطاب الطبيعي ليس خطابا برهانيا بالمعنى الدقيق للكلمة فهو لا يمدّ براهين وأدلة منطق ولا يتبع مبادئ الاستنتاج المنطقي".

ويقدم "أبو بكر العزاوي" المثال التالي لبيّن الفرق بين البرهنة و الحجاج:

1- كلّ اللغويين علماء، زيد لغويّ= إذن زيد عالم؛

2- انخفض ميزان الحرارة= إذن سينزل المطر.

يتعلّق الأمر في المثال الأول ببرهنة أو بقياس منطقيّ (Syllogisme)، أما في المثال الثاني فإنه لا يعد وحجّا أو استدلالا طبيعيا غير برهاني واستنتاج أنّ زيدا عالم، في المثال الأول، فالأمر حتميّ وضروريّ لأسباب منطقيّة؛ أما استنتاج نزول المطر في المثال الآخر فيقوم على معرفة العالم، وعلى معنى الشطر الأول من الجملة وهو استنتاج احتمالي.

أما الحجاج هو "تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة وهو يتمثل في انجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب"، وبعبارة أخرى يتمثل في انجاز متواليات من الأقوال بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها "... () (إنّ كون اللغة "لها وظيفة حجاجية يعني أن التسلسلات الخطابية محدّدة، بواسطة الوقائع المعبر عنها داخل الأقوال فقط، ولكنّها محدّدة أيضا وأساسا بواسطة بنية هذه الأقوال فقط، وبواسطة المواد اللغوية التي تمّ توظيفها وتشغيلها"².

¹ - كروم أحمد، الاستدلال في معاني الحروف: دراسة في اللغة والأصول، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، الطبعة الأولى، دجنبر 2000، ص.49

² - أبو بكر العزاوي، اللغة و الحجاج، العمدة في الطبع، الطبعة الأولى: 2006 ، ص 20

وحتى يتَّضح مفهوم الحجاج أكثر وجب التَّفريق بين الاستدلال *raisonnement* والحجاج "Argumentation" لأنَّهما ينتميان إلى نظامين جدَّ مختلفين نظام نسيمه "المنطق" ونظام الخطاب" فالأقوال التي يتَّكون منها استدلال ما مستقلة بعضها عن بعض، يعني أن كلَّ "قول منها يعبر عن قضية ما أي يصف حالة ما أوضعا باعتباره وضعا واقعياً أو متخيلاً، ولهذا "فإنَّ تسلسل الأقوال في الاستبدال ليس مؤسساً على الأقوال نفسها، ولكنَّه مؤسس على القضايا المتضمَّنة فيها، أي على ما نقوله أو نفترضه بشأن العالم"، أمَّا الحجاج "فهو مؤسس على بنية الأقوال اللغوية وعلى تسلسلها واشتغالها داخل الخطاب".

فعلى ماذا تقوم هذه المبادئ الحجاجية؟

إنَّ سلامة العملية الحجاجية مرهونة "برابط يضمن الرِّبط بين الحجَّة والنتيجة وهو ما يعرف بالمبادئ الحجاجية (les topos) وهي تقابل مسلَّات الاستنتاج في المنطق الصُّوري أو الرِّياضي"، ولها خصائص عديدة، حيث يمكن اعتبارها:

- مجموعة من المعتقدات والأفكار المشتركة بين الأفراد داخل مجموعة بشرية معينة؛
- تتميز بالعمومية: فهي تصلح لعدد كبير من السِّياقات المختلفة والمتنوعة ؛
- تعتمد التدرجية: تقيم علاقة بين محمولين تدريجيين أو بين سلميَّين حجاجيين؛
- تروم النسبية: فالى جانب السِّياقات التي يتمَّ فيها تشغيل مبدأ حجاجي ما، هناك إمكان إبطاله ورفض تطبيقه باعتباره غير وارد وغير ملائم للسِّياق المقصود أو يتمَّ إبطاله باعتماد مبدأ حجاجي آخر مناقض له.

وبالرَّجوع إلى المثال الأول، فإنَّ المبدأ *Topo* الحجاجي الموظف هو أنه بقدر جوع الإنسان تكون حاجته إلى الطعام، وكلما كان الإنسان جائعاً، كان بحاجة إلى الطعام.

❖ رابعا- وقع الخطاب المقنع والتنظيم الإيقاعي للخطاب

يقوم هذا الخطاب على تقديم الجديد دائماً في مستوى الأسلوب (بنية التركيب) وفي مستوى المضمون (بنية الدلالة). يتجلى اللا مألوف هنا تحديداً في المستوى المعجمي (الألفاظ، التعبيرات.. الخ)، وفي المستوى الدلالي (مفاهيم جديدة تقدم باستمرار)، وأخيراً في المستوى الوظيفي (الطريقة السيميائية التي من خلالها يتوجه المتكلم إلى المستمع.. كاستخدامه لغة الأجسام والإشارات).

إنَّ الفكرة المهمة هنا هي أن الخطاب المقنع قادر على أن يصمد ويستمر، أما الخطاب العادي فسرعان ما يتلاشى: فكيف يرتبط الخطاب المنطوق والخطاب المكتوب ببقية الأنواع الأخرى من الخطابات؟ وما هي الصفات العالمية والصفات المحلية لكل أنواع الخطابات؟ هل يمكن أن نضع جدولاً معيناً لأنواع الخطابات؟

يمكن القول إنَّ ما يميز الخطاب الملكي هو أنه في شكله الظاهري عملة لوجهين: مخاطبة/محاورة من جهة، وكتابة تروم التوثيق الخطابي والبحث عن سبل تصريح جماهيري للرسائل. فتتوَّع الخطابات والمخاطبات يأتي من تنوع الأهداف والأغراض التي يريد لها صاحب الجلالة، الذي يريد لكل خطاب أن يحقق الأداء الناجح: من هنا، نجد أن التمييز الوحيد الذي يريده اللسانيون بين أنواع الخطابات يقوم على الهدف الذي يريد الخطاب تحقيقه، فصنفوا الخطابات إلى أقسام ومصنفات، نكتفي منها بالخطاب "المقنع" والخطاب "العادي" لمعرفة بنيتهما ووظائفهما.

أ- سمات الخطاب المقتنع والخطاب العادي

بادئ ذي بدء ليس من أهداف الخطاب العادي أن يكون مقتنعاً أو يحاول إقناع الآخرين. ويتميز بالتفاعل والمشاركة في الحديث بين المرسل والمتلقي، فهو خطاب يتسم بالمساواة بين المتكلم والمستمع (أ=ب)، والخيارات المتاحة لـ (أ) هي نفسها تلك التي يحوزها (ب) سواء من ناحية التساؤلات، أو توقع الأجوبة، وتسجيل حالات معينة، أو رفض الأجوبة أو النكوص عن الإستجابة... وإذا حدث خرق معين في الخطاب، يشعر المشاركون أن القاعدة قد خُرقَت، وأنهم في وضع حرج يستوجب القطيعة والمنافرة، فيكون بذلك (أ # ب)..

ففي الخطاب العادي مساحات عفوية، فلا يعتمد على التخطيط المسبق.

بالمقابل، فإن أولى سمات الخطاب الملكي الجماهيري المُقتنع هو غياب التفاعل، أي عدم مشاركة الأعضاء المتحدثين بعضهم إلى بعض في الحديث وأخذ كل إنسان منهم دوره فيه. والمثال على ذلك أن الخطاب الملكي في شكله وطريقة إلقائه يظهر كخطاب غير تفاعلي، أي ليس فيه تبادل للأدوار. فجلالة الملك هو المشارك الواحد والوحيد فيه، وهو الذي يختار الموضوع وهو الذي يتكلم، ثم هو الذي يحدد بداية الكلام ونهايته. إن قوة الإقناع هنا في يده.

ويمكن أن نتساءل هل بإمكان جمهور التلقي أن يكون هو المشارك الآخر في الخطاب من خلال رفض التلقي والانصات للخطاب أو من خلال رفض التأثير الذي يرومه الخطاب والتأثر الذي ينتظره جلالة الملك؟ سنجيب على هذا السؤال في معرض حديثنا عن عناصر قوة الإقناع والتأثير في الخطاب.

وهكذا، فالخطاب الملكي خطاب إقناعي/مُقتنع يروم التأثير في المشاركين لإقناعهم، رغم استخدامه معيار اللامساواة واللاتكافؤية واللاتبادلية في الحديث عن الملف والقضية والحدث، ويجتمع فيه ما يتفرق في غيره من الخطابات القائمة على الدعايات التجارية والحملات الإعلامية والبلاغة السياسية والاحتفالات الدينية التي تدخل أيضا في زمرة الخطابات المقنعة، فتكون بعيدة نسبيا عن الخطاب الإشكالي أو المعقد الذي يقع في منزلة وسطى بين الإقناع وعدمه بسبب تعقيده، كما هو الحال بالنسبة للمحاضرات التي يلقيها الأستاذ على طلابه والمعالجات النفسية التي يطبقها الطبيب على مرضاه والأدب بأجناسه.

كما يقوم الخطاب الإقناعي على تقديم الجديد دائماً في مستوى الأسلوب (بنية التركيب) وفي مستوى المضمون (بنية الدلالة)، ليتجلى اللا مألوف تحديداً في المستوى المعجمي (الألفاظ، التعبيرات.. الخ)، وفي المستوى الدلالي (مفاهيم جديدة تقدم باستمرار)، وأخيراً في المستوى الوظيفي (الطريقة السيميائية التي من خلالها يتوجه المتكلم إلى جمهور التلقي من خلال مستوى المظاهر البروتوكولية والطقوس السلطوية): إن الفكرة المهمة هنا، هي أن الخطاب المقتنع قادر على الصمود والإستمرار، على النقيض من الخطاب العادي الذين يتلاشى بسرعة.

وبتتبع تلك الوظائف، تبرز ميزة أخرى يتسم بها الخطاب المقتنع، وهي أننا نرى هنا مستمعاً يستمع أكثر مما نرى متلقياً يحلل، لاننا نعلم أن فاعلية أو قدرة الاستماع لا تتسجم مع فاعلية التلقي والتحليل أو الثنائية الحوارية.

أما عن سياقات المشاركة، فيقتصر دور جمهور التلقي في الحفلات واللقاءات التي يلقي فيها صاحب الجلالة خطاباته على عدم المشاركة في الحديث وينتهي بالمشاركة الفعلية الواعية، وبين نقطة البدء والانتهاء، يمكن لجمهور التلقي أن يكون حاضراً ولكن دون أن يدري به المتكلم، فيظل دور

جمهور التلقي والإنصات غير واضح (باستثناء التصفيق)، فلا توجد هناك أية قرينة تدل على وجوده كفضاعة، ليظل المستمع هنا موجوداً وحاضراً كشاهد، فلا يشارك الحدث لأن السياق يجعل دوره مقتصرًا على الحضور فقط، وأن يبدي على أكثر تقدير بعض الإشارات السيميائية-الجسمانية (كهز الرأس مثلاً) ليدل على الموافقة أو عدمها. ولكن كيف يُمكننا تحديد "قوة الخطاب"؟

تتحدد قوة الخطاب المقنع من خلال تحكم المتكلم وسيطرته وإمساكه بناصية الخطاب، وقد تتحدد عناصر قوته وضعفه في المستمع أيضاً من خلال إردة هذا الأخير الاستمرار في الاستماع أو التوقف: فالروابط التي يقوم عليها الخطاب تتجاوز السياق والزمان والمكان وحتى الخطاب نفسه، لأن الواقع هناك دائماً خطاب فاعل ومتفاعل، أي أن الخطاب عمل منجز لا يولد على نحو طبيعي.

والمحاضر وهو يحاضر على الطلبة يُدخل في خطابه بعض الابتسامات والإشارات الآتية من الطلاب تدل على انتهاء المحاضرة، أو الانتقال إلى موضوع آخر.

وهذا يدل على أن الخطاب إنجاز متداخل أي أنه فاعل ومتفاعل وليس إنجازاً فردياً. هذا الإنجاز المتداخل يستند إلى صيغ اجتماعية منظمة تنظم هذا الخطاب وتدفعه إلى الأمام.

ونعني بالتنظيم الإيقاعي للكلام التقنيات الإيقاعية التي تؤثر في حوارية الخطاب الملكي وتجعله أكثر فهماً ووضوحاً، من خلال القافية والتزامن والسرعة أو الدرجة الواجب اعتمادها في قراءة الخطاب والنبر. فالإيقاع يشمل النغمة، واللكنة، والوصلة بين فقرة وفقرة، والتكرار، والقحة وتوضيح الحناجر، والنفخ في الأنف، والضحك في إيقاع جميل كما كان يفعل الملك الراحل الحسن الثاني. كما أن الوقف القصير الذي يميز بعض خطابات الملك يشمل التردد والتأني يتعلق بعوامل إدراكية عقلية لتيسير فهم المفردات المعجمية الصعبة أو التراكم المعقدة.

فالخطاب إنجاز قائم على المدخلات (من يتكلم الآن) وعلى الخرج (وسائل الرد اللغوية وغير اللغوية)، ويعرفنا سبر بنية الخطاب ووظيفته على الوجوه الأخرى لقوة اللغة والتي بدونها لا يمكن لعملية الاتصال أن تتحقق بحيوية وفاعلية.

فما هي الوسائل التي نستخدمها في عملية الإقناع؟ وبعبارة أخرى بم نقنع الآخرين؟

ب- وسائل الإقناع

إن صنف الخطاب هو الذي يكشف لنا الوسائل المستخدمة في عملية الإقناع، لذلك قبل الحديث عن هذه الوسائل لا بد لنا من معرفة أنواع الخطابات اللسانية والتي تتجلى أساساً في:

- الخطابات المقنعة:
 - الخطاب الديني (التبشيري)؛
 - الخطاب السياسي؛
 - الخطاب التجاري (الإعلانات التجارية والسلع...).
- الخطابات التي تحمل عناصر قوية من الإقناع:
 - خطاب المحاضرة؛
 - خطاب العلاج النفسي للمرضى؛
 - الخطاب الأدبي.

إن ما يميز المجموعة الأولى عن الثانية هو "وسيلة الإقناع". فالمجموعة الأولى تعتمد من باب أولى على "العاطفة"، إذ تعمل على مخاطبة عواطف الآخرين؛ أما الثانية، فتعتمد على "العقل"، إذ تعمل على مخاطبة عقول جمهور التلقي.

فـ"الإقناع العقلي" إقناع مرغوب فيه لأنه يقوم على الاحترام والتقدير للقيم الإنسانية مانحاً إياها فرصة حقيقية لأن تزن الأمور وتحكم حكماً عادلاً؛

أما "الإقناع العاطفي" فهو إقناع سلبي يقوم على المراوغة والحيلة والمخاتلة حين يخاطب الطبيعة الإنسانية، وبهذا لا يعطيها فرصة حقيقية لاتخاذ القرار الصائب ليظل العقل أكبر غائب.

بصيغة أخرى، فإن الإقناع العقلي يخاطب الوعي في حين أن الإقناع العاطفي يخاطب اللاوعي: بالفهم الفرويدي، يتميز اللاوعي بانتمائه إلى مرحلة ما قبل اللغة، وهو رمزي وغير متسلسل، ثم إنه بصري، في حين أن الوعي فيتميز بأنه عقلي ولغوي وسمعي. وهكذا إذا أراد أحدهم أن يقنع الآخرين، فإنه يضع اللاوعي في الوعي، أي أنه يستخدم المراوغة والحيلة والصور التجريدية والموسيقى والعاطفة أكثر من استخدامه الكلمات في سلسلة منطقية تحليلية برهانية.

ولمعرفة هذا، ينبغي أن ننتبه إلى الوسائل غير اللغوية المستخدمة في الدعايات من أجل الإقناع المضلل المخادع: هذه التأثيرات السلبية المهلكة والمؤذية للخطاب التجاري تنسحب على الخطاب الديني والخطاب السياسي أيضاً.

الخطاب الديني التبشيري هو خطاب مؤثر ووسائله الضغوط عاطفياً من أجل عملية الإقناع، ذلك أن هذا الخطاب يترك عند الآخرين الشعور بالخوف والرغبة للالتجاء إلى العاطفة وترك العقل من أجل تغيير المعتقد.

أما الخطاب السياسي فهدفه الإقناع من أجل خدمة أغراض سياسية خاصة. ذلك أن السياسي لا يريد ناخباً عارفاً بالأمور وإنما يريد صوت هذا الناخب فقط. وهو بذلك مثله مثل التاجر الذي لا يهتم من خلال عرض إعلاناته- بتنقيف الشعب حول موضوع الصحة بقدر ما يريد بيع منتج يشكل خطراً على الصحة.

ج- بلاغة استجابات جمهور التلقي

تحدثنا عن الخطاب الملكي كخطاب بالمفهوم الحدائي، تبوئه طبيعته مكانه في التعبير عن الوعي السياسي الجماهيري، والحديث عن التواصل يحيلنا إلى ما يدعى بالخطاب الذي أصبح وسيلة سيّدة في عصر السرعة الإعلامية ووسيلة في أيدي من يمتلكه، سواء للتعبير أو للحجاج، أو للدفاع عن الآراء بشكل سلمي أو من خلال بلاغة خوض أشكال الاحتجاج.

وبما أننا في مرحلة حرجية، نشهد فيها ثورات عربية عارمة ضدّ الحكم السائد، وتجدد الاحتجاج من خلال حراك الحسيمة والريف عموماً، يقتضي معرفة موقع الخطاب من ما دعي بربيع هذه الثورات.

إنّ الخطاب الما- قبل كان خطاباً في اتجاه واحد عاكساً للبلاغة التقليدية التي تمجّد المتكلم على حساب المخاطب الذي يُعدّ طرفاً فاعلاً في أدنى مرتبة، دون أن تتنبأ بانقلاب أطراف العملية الخطابية، إذ أصبحنا نتحدث عن بلاغة الجمهور، التي يحتل فيها المخاطب دوراً مركزياً في الفعل البلاغي.

لقد أثبت الخطاب الناشئ للثورات والحراك الشعبي بجلاء فعاليتها في تغيير الواقع، فانتقل الخطاب إلى مخاطب غير متهى لتقبله، وهو مناقض لما ذهب إليه الأمدي من حيث كون الخطاب يقصد به إفهام من هو متهى لفهمه، ومادام الطرف الثاني غير مستعد للتخلي عن بعض السلطات، رغم حرصه على انتظار بلاغة الجمهور في حدود الاستجابات التي ينتجها الجمهور أثناء تلقيه للخطابات الجماهيرية التي تبثها وسائل الإعلام.

لقد استطاعت المملكة تجاوز محورية ذات المتكلم في إنتاج الخطاب، على اعتبار أنه هو الذي يتلفظ به ويتصرف في اللغة ويجعلها لصالحه وفي خدمة مصالحه، حتى وإن اقتضى الأمر توظيف بلاغة التحايل وبلاغة المغالطة وبلاغة الكذب، فانخرطت في بلورة بلاغة الجمهور.

وعليه، فإنّ الانتقال من بلاغة المتكلم إلى بلاغة الجمهور سببه لا يعدو أن يكون الوعي بالقضايا التي تدور حول الأشخاص وأحوالهم، فلم يعد الجمهور العربي عامة والمغربي خاصة أمياً، جاهلاً بالحقائق التي تحيط به.

إنّ التعامل مع الجمهور بهذا الشكل، يجعل علم البلاغة الذي عُرف منذ القديم على أنه الطريقة التي يستولي بها المخاطب على عقول مخاطبه علماً يخضع لسنة التغيير، إذ استبدل المخاطب الذي يفترض فيه مواصفات الرجل المتميز بالتقنيين، والإعلاميين، وخبراء الدعاية، فحدث انقلاب على ممارسة السلطة اللغوية بفعل الانقلاب البلاغي، حيث سلبها الجمهور الذي كان مستلباً فيما قبل لوسائل الأعلام الرسمي فطورها لصالحه فأصبح شريكاً في ممارسة سلطة اللغة وسلطة التوظيف البلاغي.

ويفيد الاشتراك في أغلب الأحيان تقاسم المسؤولية في سياق تداولي جديد للممارسة الخطابية يعتمد التداول على السلطة الخطابية وتقاسمها، من خلال خطاب نقدي جماهيري يكشف عن الانحرافات والتحيزات والهيمنة الممارسة، أو الهيمنة التي ينبغي أن تزول تحت ضغط الحركة الجماهيرية والحراك الشعبي وبلاغة جمهور التلقي بعد تسليحه بجلّ الأدوات التي تمكنه من السيطرة وتسطير ما يراه اختلافاً جوهرياً يترجم وعياً جماهيرياً يتصرف بحذر عند ممارسة السلطة المضادة أو المعاضدة.

فيمكن الحديث عن السلطة عن طريق التوازي والتقاطع بين مختلف ممارسيها، حتى أصبح الخطاب السلطوي لا يتحدد في ذاته فحسب، بل من خلال الآثار التي يحدثها في أوساط جمهور التلقي وحجم استجاباته.

إلا أن جمهور التلقي لا يصدر عن موقف ويبلغه ببلاغة إلا إذا كانت بينه وبين الخطيب سابق فاعلية في التلقي.

د- قياس فاعلية التلقي كشرط سابق أو لاحق لفاعلية الإلقاء والانتقاء

من خلال البحث في الخلاصات النظرية والمفاهيمية المتعلقة بجمهور وسائل الإعلام والتراكم المعرفي بين "دراسات الاتصال الجماهيري" و"الدراسات الإعلامية"، و"علوم الإعلام والاتصال"، التي سبق لي أن حزت فيها إجازة مطبقة من الجامعة الضادية لابن امسيك، ومن خلال مرتجعة التراث المتعلق بخوارق وسائل الأعلام في التأثير وإعادة صياغته بإدخال التعديلات الضرورية التي يملها هذا التطور، إما بإلغاء عناصر منتهية صلاحيتها أو بإضافة عناصر جديدة

للتعبير عن الواقع، يمكن القول أن الأبحاث انتقلت من "السلبية المطلقة" للجمهور أمام "القوى الخارقة" لوسائل الإعلام، إلى الجمهور النشط الفعال وتأثيره ومشاركته في إعداد الرسائل الإعلامية، مروراً بتجزئته وتحليله جزئياً وإثنوغرافيا في سياق استعمال وسائل الاتصال في المجتمعات الصناعية وما بعد الصناعية، وهي مجتمعات إلكترونية أو ما بعد الحديثة، وصولاً إلى جيل ثالث من دراسة التلقي ووصولاً إلى عالم ما بعد الجمهور أو الجمهور الإلكتروني وانتهاء بالجمهور ذي القدرة الكلية على التواجد في كل مكان في نفس الزمن كآخر محطة من محطات وصول أو مرور الجمهور في عالم ما بعد الحداثة في العالم الإلكتروني الذي يجري بناؤه من خلال ترسانة "السواتل" والطرق الإعلامية السريعة التي تخترق حواري القرية العامية وفق وصف العالم الكندي مارشال ماك لوهان، والشبكات الداخلية والمحلية والإقليمية والدولية والبيئات التكنو-اجتماعية-ثقافية القائمة في المنازل والمكاتب والأماكن العمومية من مطارات ومحطات القطارات والحافلات، وحتى في جيوب الأشخاص.

لرسم معالم تطور نظريات التأثير وهيكله فعل التلقي وتفكيك البيئة الاجتماعية، لابد من الانطلاق بتصور نموذج اتصالي جزئي لجمهور تلقي مجزء للخطاب الملكي، بين عامة وخاصة، بصرف النظر عن تموقعه الجغرافي وسماته الديموغرافية الاجتماعية والثقافية csp.

ولم تعد العلاقة بين الخطاب وجمهور التلقي وأدوات التمرير قائمة على فهم العلاقة بين ما تبثه وسائل الإعلام والجمهور المتلقي انطلاقاً من انطباعات وآراء ونظرات ذاتية أكثر منها استنتاجات لتحليل وقائع موضوعية، للقول بان وسائل الإعلام مصدر لقوى خفية خارقة تعمل على صقل الرأي والاعتقادات وتغيير عادات الحياة وقولبة السلوك وفقاً لإرادة أولئك الذين يملكون سلطة الرقابة على هذه الوسائل وتوجيه نشاطاتها نحو مواضيع معينة ويمتلكون أيضاً قوة التأثير في مضامينها.

كما رسخوا آنذاك فكرة مؤداها أن كل قارئ للصحيفة أو مستمع للراديو أو مشاهد للفيلم السينمائي يحمل مجموعة من الأفكار الشخصية حول الوسيط المعني وطبيعته ومحاسن استعماله وسيئاته، وكيف يمكن ملاءمته مع متطلبات الحياة اليومية وكيف ينبغي قراءة وتفسير مضامينه.

وقد أسندت الدراسات التي ابتدأت على عهد لازارسفيلد وكاتز دوراً متواضعاً لوسائل الإعلام في أحداث التأثيرات المتوقعة أو غير المنتظرة وغير المرغوب فيها، لخصتها دراسة بجوزيف كلابر نشرت سنة 1962 في عبارة "إن وسائل الاتصال لا تعمل عادة كسبب ضروري وكافي للتأثير في الجمهور، ولكن بالأحرى تعمل ضمن جملة من عوامل التبليغ الوسيطية المترابطة"¹.

لم يعد في هذه المرحلة ينظر إلى وسائل الإعلام، كما كان ينظر إليها سابقاً، على أنها تحدث في كل الظروف نفس التأثيرات البالغة أو المحدودة، وإنما هي تعمل ضمن بنية من العلاقات الاجتماعية موجودة مسبقاً في سياق سوسيو-ثقافي معين يلعب الدور الأول في تشكيل وتوجيه اختيارات واهتمامات واستجابات الجمهور.

رغم رفض قبول هذه الأفكار الجديدة بالنسبة لأولئك الذين تعودوا على تصميم الحملات الإشهارية والدعائية ومحترفي الإعلام الذين آمنوا بأسطورة القوى السحرية لوسائل مهنّتهم، كما كان من الصعب أيضاً أن يسلم علماء الاجتماع بـ "اللا تأثير" المطلق، حيث فضل المشككون في هذه الخلاصات إعادة دراسة المسألة انطلاقاً من فرضية مفادها أن وسائل الإعلام يمكن أن يكون لها تأثير اجتماعي من نوع ما.

¹ - عماد عبد اللطيف، من الوعي إلى الفعل، مقاربات معاصرة في مقاومة الخطاب السلطوي، مجلة ثقافة، كلية الآداب، العدد 2، جامعة البحرين 2009، ص 77

لقد استمر التفكير في وجود "تأثير" و"تأثير قوي" يطبع العلاقة القائمة بين الرسائل الإعلامية والجمهور، خاصة طبيعة العلاقة بين درجة "التعرض" لمحتوى معين ونوع من التغيير يمكن قياسه، أو لنقل نوع من التحول من حالة إلى أخرى في مواقف وآراء ومعلومات المتعرض لمحتويات وسائل الإعلام. فقد تميز جديد البحث في "تحول الاهتمام من تغيير المواقف والتأثير إلى التغيير الطويل المدى والإدراك وإدخال متغيرات السياق والاستعدادات والحوافز وأجواء الرأي وبنيات المعتقد والإيديولوجيا والأمور الثقافية وحتى الأشكال المؤسسية"¹.

ما سُقناه بشأن التأسيس التاريخي المقتضب لأهم دراسات تأثير وسائل الإعلام في الجمهور، وما سنورده حول أهم التطورات التي أدخلت على مقاربات التأثير وتنمية البراديغم الأولي للتأثير المباشر كما أشارت له الباحثة العربية نوال نيومان فأعادت بعثه خلال سبعينات القرن الماضي من خلالها كتابها "عودة لمفهوم وسائل الإعلام القوية"²، جعلنا نفهم أن وسائل الإعلام لا تتوفر في ذاتها على قوة تأثير، ولكن يتوقف الأمر على اعتقاد الناس في قدرتها على تغيير مجرى الأحداث والأفكار والاتجاهات والمواقف، انسجاماً مع ما أورده كاري عند محاولته تفسير إشكالية التأثير ودرجاته واللا تأثير وحدوده بتغيير الاعتقاد في قدرة وسائل الإعلام وفقاً لسلم يتدرج من التأثير البالغ إلى التأثير المحدود إلى مزيد من التأثير.

غير أن بعض الباحثين يعتقدون أن الأمر لا يتعلق بقدرة وسائل الإعلام على التأثير، بقدر ما قد يتعلق باجتماع أسباب قد تكون مصادفة زمنية، جعلت وسائل الإعلام تبدو بتلك القوة في مرحلة تاريخية معينة.

ومن المؤكد أن الناس يطلعون غالباً على الأزمات من خلال وسائل الإعلام، وقد يخلطون بين الرسالة والوسيلة في أوقات التغيرات والشكوك، بين الرسالة الإعلامية وبين الإعلام الرسالي، وتضاءلت نسبة الاعتماد على تلك الوسائل، لتبقى في حدود اعتمادها أكثر فأكثر على وسائل الإعلام كمصدر، ربما الوحيدة للإستعلام والاسترشاد، خاصة في ظل الظروف غير المعتادة.

ومما يزيد في تلك الافتراضية لوسائل الإعلام الجماهيري، أن الحكومات والنخب ومصالح المال والأعمال، تعمل في ظل التوترات والاضطرابات، على استعمال وسائل الإعلام في محاولة للتأثير على الناس ومراقبة وتوجيه سلوكهم.

وهذا ما يعني أن وسائل الإعلام، يمكن أن تكون في ظل ظروف تاريخية ونفسية واجتماعية واقتصادية معينة ذات قوة بالغة، بالنظر للاستجابات الفورية أو المتوسطة التي قد يبديها الناس إزاء الدعوات الهادفة إلى تغيير المواقف في اتجاه يخدم مصالح هذه الأطراف في ظل تلك الظروف.

بمنطق تمييز التوجهات الحديثة الكبرى لأبحاث الجمهور، نجد أنها تبلورت منذ السبعينات ضمن نوعين من التيارات البحثية:

- النوع الأول، والذي يمكن أن نطلق عليه أنموذج التأثير، أحدث قطيعة مع الأنموذج السائد منذ الأربعينات، حيث تخطى عن تحليل التأثير القصير المدى، حجر الزاوية في نظرية لازارسفيلد، ليهتم بالتأثير الإدراكي على المدى البعيد لمجموع أنظمة وسائل الإعلام (كمؤسسات اجتماعية)، خاصة الأبحاث المتعلقة بتكوين الرأي العام؛

¹ -Noelle Neuman, Return to the Concept of Powerful Mass Media, Studies of Broadcasting, 1973, p. 66

² - جنتر هينزه، سلطان الكلمة، تقديم عبد الغفار مكاوي، مجلة الفكر المعاصر، القاهرة 1970، ص 3

- **وظهر النوع الثاني،** الذي يمكن أن نسميه أنموذج التلقي، في بداية الثمانينات ليهتم بالكيفية التي "يؤوّل بها جمهور التلقي الرسائل الإعلامية"، أي التركيز على عملية التلقي في حد ذاتها باعتبارها ممارسة لها أسسها اجتماعياً وثقافياً، وباعتبارها عملية بناء اجتماعي للمعاني التي يضيفها المتلقي على الرسائل الإعلامية.

- **بالنسبة لبراديغم التأثير البالغ والمباشر والتأثير المحدود الفوري والطويل المدى ثم المزيد من التأثير،** وبالرغم من تشاؤمية نظريته لقدرة الجمهور على مقاومة القوة الخارقة لوسائل الإعلام وخطاب الملك الهمام التي تحدث تأثيراً في اتجاه خطي، فنلاحظه في التغير أو التحول الذي قد يلاحظ في سلوكيات جمهور تلقي الخطاب الملكي ومواقفه وحالاته الانفعالية والذهنية والإدراكية والمعرفية أثناء وبعد التعرض الإرادي للخطاب الملكي ووسائل نقله، وعلاقته بالتغيير مقارنة بالوضع السابق للتعرض.

- **أما البراديغم الذي تلاها فقد كان أقل تشاؤماً في نظريته للجمهور،** فتحدث عن مستوى تأثير وسائل الإعلام غير المباشر عبر قادة الرأي أو التدفق الإعلامي عبر خطوتين والتدفق عبر خطوة واحدة ثم التدفق عبر خطوات متعددة، قبل معودة الحديث عن العودة إلى مزيد من التأثير المعمم على عدد متزايد من الناس مع تزايد الأزمات والتوترات وتزايد تحكم وسائل الاتصال الحديثة في النشر الآني للمعلومات عبر وسائط أقل تكلفة وأقل جهد وسهولة الولوج إليها وأكثر قابلية للاستعمال وأكثر جاذبية وفي متناول جماعة من الناس غير محدودة عددياً (الهاتف الخليوي بجميع خدماته، الإنترنت بجميع تقنياته وتقنيات الجمع بينه وغيره من التكنولوجيات الفردية والجماعية).

- **أما بالنسبة لبراديغم التلقي،** كنظرية عامة لها تفريعات ومقاربات، فقد حولت محور الدراسة من محتوى الرسالة وعلاقاته بالتأثير الذي قد يحدث في سلوك الجمهور (أي علاقة الرسالة بالتأثير في نموذج لاسويل) إلى التركيز على مصير الرسالة بعدما يتلقاها الجمهور الإنتقائي القوي والفعال والنشط الذي أعيد له الاعتبار نتيجة تغيير استراتيجية البحث من "ماذا يفعل جمهور التلقي بالخطاب الملكي" إلى سؤال "ما الذي يفعله الخطاب الملكي بجمهور التلقي".

هذه الأشكالية أجاب عنها "كاتز" بأنموذج الاستعمال والإشباع، وبراديغم التفاعل والتأويلات لمورلي، وشكلت نقلة نوعية في نماذج أبحاث الجمهور، حيث أصبح التركيز على العلاقة بين الرسالة والمتلقي.

ويمكن اعتبار نظرية التلقي التي تشكل حجر الزاوية في هذا الأنموذج امتداداً لنظرية التأثير والتقبل واستعادة لمحورية المتلقي.

وترى نظرية التلقي أن أهم شيء في عملية التواصل هو تلك المشاركة الفعالة بين النص الذي ألفه الخطيب وبين القارئ المتلقي، أي أن الفهم الحقيقي للأدب ينطلق من وضع القارئ في مكانه الحقيقي وإعادة الاعتبار له باعتباره هو المرسل إليه والمستقبل للنص ومستهلكه وهو كذلك القارئ الحقيقي له.

لقد طوّر بعض منظري وسائل الإعلام الجماهيري نظرية التلقي وأقاموا خطوط تلاقي بينها وبين نظرية الاستعمال والإشباع التي لا تركز فحسب على أثر أو تأثير وسائل الإعلام على الأفراد، بل أيضاً على طريقة استخدام هذه الوسائل وعلى المتعة والمنفعة التي يحصلون عليها من هذه الوسائل.

وعلى نفس المنوال، يركز المنظرون الإعلاميون على الدور الذي يلعبه الجمهور المتلقي في فك رموز الرسائل وإضفاء معاني عليها ليست بالضرورة هي نفسها معاني النصوص، أي ليست نفس المعنى الذي يقصده القائم بالاتصال.

وقد أصبحت نظرية التلقي واحدة من أبرز النظريات المعاصرة التي أعادت الاعتبار لفعل التلقي كأساس للعملية التواصلية بين المرسل والمستقبل، إضافة إلى الاطلاع على أساليب دراسة الرأي العام في مختلف الوسائل الإعلامية. وتهتم النظرية المذكورة عموماً بمحاولة تفسير آليات فهم النصوص والصور الإعلامية من خلال فهم كيفية قراءة هذه النصوص من طرف الجمهور، ويذهب أصحاب هذه النظرية إلى القول أن العوامل السياقية لها تأثير أكثر من العوامل النصية على الطريقة التي يشاهد بها المتلقي أو يتلقى بها.

وتشتمل عوامل السياق على تشكيلة متنوعة من العناصر، منها هوية المشاهد وظروف التعرض والتجارب القبلية لدى المشاهد وتصوراته السابقة عن نوع الفيلم وإنتاجه، وحتى قضايا سياسية وتاريخية واجتماعية محيطية.

وعلى العموم، فإن نظرية التلقي تضع الشعب كجمهور تلقي، وكأفراد وجماعات وفئات، في سياقات تأخذ بعين الاعتبار كل العوامل التي يمكن أن تؤثر في كيفية قراءة النص وبناء معنى انطلاقاً من المتن الخطابي المولوي.

فالثقافة الجماهيرية تعبير عن العلاقات بين الأفراد والطبقات الاجتماعية في السياق الاجتماعي والسياسي الخاص بالمجتمعات الرأسمالية، وينظرون لوسائل الإعلام كجزء لا يتجزأ من "نظام التفاعلات الرمزية" (Système d'interactions symboliques) يساهم في إنتاج فضاء رمزي، أكثر مما هي أدوات في خدمة طبقة مهيمنة. وهنا يلتقي منظور الدراسات الثقافية مع منظور الاستعمال والإشباع في القول أن "الناس هم الذين يفعلون شيئاً بوسائل الإعلام وليس العكس"¹.

وعلى الرغم من أن وسائل الإعلام تعبر عن موقع إيديولوجي- خاصة من خلال طريقة ترميز النصوص- إلا أنه ليس من المؤكد أن يقوم المتلقي بنفس التفسير، ذلك أن طابع تعدد المعاني (Polysémie) للرسائل التي تحملها الخطابات الملكية تقدم تشكيلة واسعة من القراءات الممكنة التي تتوقف على الوضع الاجتماعي لفئات جمهور التلقي والذي يحدده سياقهم محيطهم الاجتماعي والثقافي.

ولفهم مستويات فهم جماعة من المنصتين للخطاب الملكي وكيفية تلقيه، ومسارات تأويلهم لمحتوى الرسائل انطلاقاً من قيمهم الثقافية وخبراتهم وتجاربهم الاجتماعية، وكيف يشاركون في البناء الاجتماعي لمعاني المنتج الذي تقدمه المدونة الخطابية لصاحب الجلالة من خلال مناويلهم القرائية للمتن المدروس لجأنا إلى منظور أكثر نفعية تمثل في تبين الخصائص الإثنوغرافية للمجموعة التي انصتت بمعيتها للخطاب في مكان عمومي (مقهى شعبي تحديداً ومقهى آخر بحي راقى) أو بقاعات تضم لفيفا من النخب المحلية والسلطات المحلية والعسكرية والأعيان (في إطار ترأسي ما بين سنوات 2005-2009 لحفل الإنصات للخطابات الملكية بمقر الباشويات والدوائر والبلديات التي تشرفت فيها بخدمة رعايا صاحب الجلالة)، فضلاً عن محاولاتي جمع معلومات من خلال الاستجوابات العميقة، والملاحظة المباشرة، والملاحظة بالمشاركة، مع تتبعي الدائم لمنتديات الحوار وللتعليق التي ترد للرد على المقالات التي تتناول إحدى الخطب الملكية بالدرس والتحليل، خاصة بعد انتشار استعمال الصحافة الإلكترونية والبلث التلفزيوني المباشر عبر السواتل.

¹- مصطفى عمراني، الخطاب الأشعاري بين التقرير والإيحاء، مجلة فكر ونقد، العدد 34، 2000، ص 27

وكم وددت لو اتاحت لي فرصة القيام بتصنيفات ميدانية (في إبانها في اوساط جمهور ينصت مباشرة للخطاب) لمستويات التلقي والتأويل انطلاقا من ردود الأفعال التي تصدر عن جمهور تلقي غير منسجم (Hétérogène) للخطاب الملكي، وملاحظة الثابت والمتغير في مواقف عينة تمثيلية قائمة على النوع (ذكر/أنثى) والجماعات اللغوية/ اللهجية، وبنية الجمهور من منظور الانتماء الجهوي والطبقي والتربوي والايولوجي في أفق الوصول إلى مؤشرات تأويل الجمهور للرسائل التي يمررها جلالتها عبر جميع الوسائل الإعلامية انطلاقا من متغيرات النوع والانتماء الطبقي الاجتماعي، مع وضع كل هذه المتغيرات في السياق الذي تمت فيه عملية التلقي، فضلا عن تفصل الفضاءات الخاصة والعمومية ومحاولة تحديد السياق الذي يجري فيه النقاش حول موضوع الهوية الثقافية ومقاربتة في الخطاب الملكي، والوقوف على السلطة ودورها في التأثير على الآخر للإنصات للخطاب الملكي بدل متابعة أطوار مقابلة المديرية الإسباني، وإدراك الدينامية المنزلية في توزيع السلط وسلطة الاختيار داخل الفضاء الأسري ومنهجية إدارة كل عائلة لفضائها الاجتماعي والتكنولوجي حين ستعلق الامر بالإنصات للخطاب الملكي والتفاعلات التي تجري في هذا المحيط قبل وأثناء الإنصات للخطاب وبعده: وفي استعمال "الإنصات للخطاب الملكي" إحالة على الإنصات كضرورة تقتضي الإمعان على نحو يماثل إنصات المؤمنين يوم الجمعة للخطيب، فلا يمكن أن تكون بحضرة خطاب ملكي وتقول لصاحبك "أنصت" دون ان تستحضر نفس طقوس الإنصات ومحاذيره (اللغو الذي يحرمك أجر صلاة الجمعة).

فالتابع السياقي للتلقي يطرح تساؤلات مؤرقة حول الكيفية التي تستعمل بها التلفزة في المنزل، وحول سلطة اتخاذ القرارات المتعلقة باختيار القنوات التلفزيونية والبرامج التي تشاهد في الوسط الأسري، بنفس ملحاحية الجواب عن الجهة التي تملك سلطة اتخاذ القرارات المتعلقة باختيار القنوات التلفزيونية والبرامج داخل محيط المقهى وتفرض ذوقها على باقي رواد نفس المقهى.

كما اقتضى منا تحليل سياق المشاهدة والتتبع والإنصات تجاوز المفهوم العددي لجمهور تلقي الخطيب، إلى مفهوم اشتغال جمهور التلقي كعضو دينامي ممارس لنشاط اتصالي تبادلي مفترض في ظروف سياقية تتشكل فيها أفكاره ومواقفه وانطباعاته لتعتنق الخطاب الملكي أو تعدله أو تعذل عن بعض مضامينه، مع بحث تحليل السياق المنزلي لأنه الأكثر إنباء عن الموقف الفعلي من الخطاب الملكي ومستويات تأويله بعد تلقيه، حيث أن السياق العائلي يشكل عينة مصغرة للسياق العام للحقائق الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي يعاد تمفصلها بأقل معوقات دون توجس وبتلقائية لا تتحقق في الفضاء العمومي للإنصات للخطاب الملكي.

فمفهوم جمهور التلقي يتحقق داخل العائلة، لان الجمهور لا يختزل في فرد مشاهد، ولكنه عضو في الجماعة (العائلة) المشاهدة، لتصير الأسرة هي الوحدة القاعدية البديلة والجامعة للمشاهدة الفردية، ومجالا نشيطا للممارسات الاجتماعية التي تتأثر في نفس الوقت بالمحيط الاجتماعي والثقافي الكلي وبالخصوصيات الموجودة داخل كل عائلة وفق خصوصية الأفراد المكونين لها وتمايز سلوك أعضائها تبعا لاختلاف متغيري السن والنوع، وعادات وطقوس إنصاتهما او مشاهدتهما للراديو او التلفاز، وأيضا الكيفية التي تناقش بها القضايا المرتبطة باختيار المحتوى، فضلا عن مستويات انفتاحهم أو انغلاقهم على التأثيرات الخارجية التي تجعلهم أكثر أو أقل حساسية للخطاب السياسي او العلاني- الأشهاري، أو الترفيهي، او حتى الخطاب الملكي، ودون إغفال طبيعة تدبيرهم لاستعمال مجموع التكنولوجيات المنزلية الجديدة وتأويل الرموز التي تحملها هذه التكنولوجيات ومضامين الرسائل التي تنقلها، وطبيعة القرارات المتخذة داخل البنية العائلية والكيفية التي تتخذ بها هذه القرارات (أي عضو من أفراد العائلة يتخذ أي قرار ومتى ولماذا؟).

ومهما يكن من أمر هذه الوسائل، فهي تظل وسائل إعلام تتحرى الموضوعية في التقديم وتقف عند عتبة تزويد جمهور التلقي بمعلومات حول موعد ألقاء الخطاب الملكي والأنشطة الملكية، وتبرمج برامج ولقاءات وحوارات وتستقي ارتسامات الفاعلين السياسيين وعموم المواطنين وتنقل أولى إشارات تفاعلهم مع الخطاب الملكي.

هنا تبدو مكونات الاتصال ذات المقاييس المهارية والكفاءة الاتصالية لجلالته كفاعل، والفعالية الثابتة وراء استعماله لبعض الوسائل في تمرير الرسائل المكتوبة والإشارية، ومدى فعالية هذه الوسائل في توصيل الرسالة ودراسة أسباب القصور والفشل لتعديل مسار الرسالة وتغيير الوسيلة المستخدمة وصولاً إلى تحقيق الأهداف المنشودة، لدى المرسل، فرداً، أو جماعة، حزباً أو نقابة، حكومة أو دولة أو نظاماً، وهو ما يمكن أن تتضح خطوطه عند الإبحار في الحديث عن سياقات الانسياق الجماهيري وراء خطاب العاهل وفق محددات تتعلق بالاعتماد على الوسائل الأكثر جماهيرية، وترتيب الأولويات، والقدرة على بناء الموقف (الكفاءة التداولية والتدويلية لخطاب الملك).

ويختلف جمهور التلقي في مستويات ودرجات الاعتماد على وسائل الإعلام العمومي للفهم، حيث يتمتع جمهور الصفوة مثلاً بمصادر معلومات أكثر تنوعاً من المصادر المتاحة للجمهور العام الذي يعتمد على وسائل الإعلام باعتبارها أحد مصادره الأساسية، بنفس اختلاف الأهداف والمصالح والحاجات الفردية بين جمهوري العامة والخاصة. فعند الإنصات إلى الخطاب الملكي وبالتالي إلى القناة التي تبثه أو تعيد بثه أو تستضيف محللين لبسط الآراء والإرتسامات بشأن مضامينه، نجد أن كل فئة من فئات جمهور التلقي تقف عند عتبة من العتبات التالية:

- **عتبة الفهم:** مثل معرفة الذات والحال والمآل في إطار فهم سوسيو-سياسي لما يقع ويُتوقع؛
- **عتبة التوجيه:** الاستفادة من المضامين التوجيهية للخطاب الملكي كما وجهها صاحب الجلالة لمن يعنيه أو لم يكن يعنيه الأمر، وتوجيه التفاعلي لعموم شعبه نحو الفعل الذي يجب أن يقوم بالمهام، فيستفيد كل مواطن أفلنت منه البوصلة من شذرات خطابية حُبلى بالدلالات للتعامل مع مواقف جديدة؛
- **عتبة الفضول أو الإنصات الطارئ للخطاب،** حيث تشمل هذه الفئة مجموعة من جمهور التلقي الذين تلتقي أعينهم بالخطاب الملكي في إطار اهتمام باقي أفراد الأسرة بالخطاب الملكي ومضامينه، أو قطع البث لربط الإتصال بقاعة العرش أو بقبة البرلمان لبث الخطاب الملكي...

إن التمييز ضمن مستويات التلقي بين العتبات الثلاث، يطرح ميزة في مستويات التفاعل في أوساط جمهور التلقي بين الشرح والفهم، قبل أن تمرقه محاولات التأويل أو التحويل أو التهويل المرتبط بنص الخطاب الملكي الذي جرى تثبيته بواسطة الكتابة والتوثيق في قصاصات وكالة المغرب العربي للانباء وفي حوليات انبعاث أمة، ليُدْرَج داخل مجال الفهم أو داخل اختلافات حول الفهم أو تتجاذبه محاولات الفهم أو التفسير، وإن كان الفهم يجسد نوعاً من التفسير.

في تحليله لنص الخطاب الملكي، ينطلق جمهور التلقي بمختلف فئاته ومستوياته (عوام ام خاصة أو خاصة الخاصة) من النص ومن شرحه بواسطة علاقاته الداخلية، وبواسطة بنيته، أو الأفضل نستطيع أن نرفع التعليق عن النص، إتمام النص في كلمات، مع إعادته إلى وضعية الاتصال الحي، وفتح باب القراءة، فيكون هذا المشروع ممكناً، بل أيضاً مشروعاً.

ولا تكون القراءة ممكنة ما لم يظهر أولاً أن المتن الخطابي الملكي، باعتباره كتابة ينتظر ويطلب قراءة، إذا كانت القراءة ممكنة، فلأن النص ليس مغلقاً على نفسه، بل تقييد مفتوح على شيء آخر، على نص خطاب آخر، أو على خطاب آخر صدر عن باقي فاعلي الحقل السياسي.

في محاولات تفسير المتن الخطابي الملكي من طرف خاصة الخاصة من محلي المنابر الإعلامية، سنساق إلى إنتاج مفهوم التفسير بالتقابل مع مفهوم الشرح، فنجد أن تفسير الخطاب الملكي يحيل على رغبة في تملك المضامين.

لكن بتمييزنا التفسير باعتباره تملكاً، إننا نريد على الخصوص التشديد على الطابع "الراهن" للتفسير بمجرد الإتيان بالفعل وإلى الفعل، مع انصهار تفسير النص في تفسير الذات لذاتها.

وداخل التفسير، تصبح القراءة كأنها كلاماً، وليست كلاماً، لأن القراءة لا تعادل أبداً تبادلاً ملموس في الفعل الذي هو بالنسبة للنص ما يمثله الكلام بالنسبة للغة، بمعنى حدث وإجراء للخطاب.

كما أن فهم المقروء وفهم النصوص تقتضيان عملية تفاعل تواصلية بين مجتمع تلقي خطاب صاحب الجلالة والمنت الخطابي: فمجتمع التلقي أو الإنصات أو القراءة يساهم خلال هذا التفاعل بمجموعة من العمليات الذهنية، والمنت الخطابي الملكي يقدم مجموعة من العلامات التي تمثل أدلة وإشارات ومفاتيح تمكن جمهور التلقي من فهم المتن الخطابي الملكي وتأويله.

وتمثل عملية الوصول إلى المعنى الجلي والواضح للنص الصيغة الأولية والأساسية خلال عملية القراءة ومحاولات فهم المقروء، رغم ما يعترض العديد من أفراد عنصر التلقي من صعوبات في الوصول إلى المعاني الضمنية والمضمرة، لصعوبة فك رموز كلمات جديدة أو ربط معاني الجمل مع بعضها البعض أو في بناء أفكار النص بشكل إجمالي.

في هذه الحالات يعتبر استخدام إستراتيجيات الاستنتاج والاستدلال التي تعد قوام وأساس عملية القراءة والفهم السبيل الأمثل لتجاوز مثل هذه العقبات.

وعليه، يمكن أن نعرض لمستويات التلقي والفهم بخصوص المدونة الخطابية الملكية وفق مستويات انطباعات العامة وآراء الباحثين.

❖ خامسا- الخطب الملكية بين قراءة خاصة الخاصة، ورأي الخاصة وانطباعات العامة

أشرت في بداية المحور إلى أن القراءة هي أكثر تعقيدا من أن تكون عملية بسيطة لفك رموز وإشارات، وتعتبر حالياً عملية تفاعلية بين القارئ والنص. وانطلاقاً من وجهة النظر، هذه يمكن تحديد مفهوم القراءة بأنها عملية نفهم بواسطتها الخطاب المكتوب.

وخلال عملية الفهم هذه يتدخل، من جهة، النص بما يميزه من شكل ومضمون، ومن جهة أخرى القارئ بما يحمله من توقعات ومعارف مسبقة.

وحتى أنجز عملية قراءة سليمة، أحتاج في نفس الوقت إلى التحكم في مهارة فك الشفرة والمساهمة في النص بأهدافي وأفكاري وتجاربي المسبقة.

فعند القراءة، أجدني في حاجة إلى القيام بعمليات استنتاج وتكهن متواصلة تركز على المعلومات التي يقدمها النص وعلى خبراتي الخاصة، وكذلك على عملية تسمح لي بتحصيل نتائج بينة أو رفض الاستنتاجات والتكهنات التي تم طرحها.

أ- مستويات التلقي في اوساط النخب وخاصة الخاصة

إنّ بناء معنى النص يعني، من جهة، أن يمسك جمهور التلقي بناصيته، فلا يقف عند مستوى التلقي الأزهري غير الفعال؛ ومن جهة أخرى، يقوم من يقرأ بذلك بشكل واع مفكراً فيما هو بصدد القيام به، ليكون بذلك الفهم هو النتيجة النهائية والطبيعية لكل عملية قراءة، وتتكون تلك العملية أساساً لفهم المقروء من مرحلتين:

- 1- **عملية القراءة:** ويحاول القارئ من خلالها أن يسند معنى لمختلف أجزاء النص، وبالتالي نحن أمام عملية الفهم كنشاط غير مكتمل
- 2- **نهاية عملية القراءة:** عندها يكون القارئ أمام عملية الفهم كنتيجة لمختلف مراحل القراءة نفسها.

أما القراءة والفهم، فهما على قدر كبير من الإستراتيجية، لأن القارئ كلما تقدم في قراءة النص يغير ويكيف الاستراتيجيات الخاصة بالفهم أو مقاربتة للنص حسب تعوده على الموضوع المطروح ونمط النص وأهدافه من عملية القراءة واهتماماته والحوافز من ذلك ... أي أنّ القارئ يغير الاستراتيجيات الخاصة بالفهم حسبما تقتضيه الحاجة.

معلوم أن جمهور تلقي الخطاب الملكي، على اختلاف مستوياته التعليمية، والثقافية، يتألف لتتبع خطابات الملك محمد السادس، باعتباره رمزا لدولة ومصدر القرارات العليا لصالح الشعب، وإن تقاسم - حسب مقتضيات الدستور - المسؤولية مع أعضاء الحكومة الجديدة إلا أنه يبقى المسؤول الأول والأخير عن تشكيل ملامح المشهد السياسي المغربي.

وقد ألف المواطن المغربي بأن الخطاب الملكي يأتي بالجدید: فلا عجب إذن إذا وجدناه متأهبا للإنصات دائما لما يخطب به ملك البلاد وغالبا ما يكون على وفاق مع خطابه، غير أنه في الآن نفسه، نجد أن هناك من لا يتفق مع بعض أسس مضامينه.

من بين من يخالف "الإجماع" حسب منطوق دار البريهي، هناك بعض الشباب المغربي الملم بالثقافة السياسية العالمية، والمواكب للتطورات القانونية والديمقراطية، ممن استفسرتهم الجريدة الإلكترونية هسبريس عن مدى توافقهم مع الخطابات، فأفادوا أن ما أبرز خطاب أثار الجدل الكبير بين هذه الفئة المستفصرة هو خطاب الملك الذي انتقد فيه النظام التعليمي بالمغرب وحمل جزء منه للحكومة، معتبرين أن الخطاب غير "واقعي" وغير مُنصف، نظرا لأن القصر يتحمل مسؤوليته أيضا في فشل المنظومة التعليمية بعد العديد من التجارب التي أشرف على صياغة أهم ركانزها مستشارو الملك، ووافق عليها الملك نفسه.

وبعيدا عن عشوائية التصريحات تجاه الخطب الملكية التي صدرت عن الفئة المستفصرة عشوائيا من طرف الجريدة الإلكترونية "هسبريس"، دفعت الجريدة الإلكترونية للاتصال ببعض الباحثين السياسيين لإستيفاء آراءهم بشأن انطباعات العامة حول الخطب الملكية، وكيف يتابعون مضامينها، ورأيهم في الجيل الجديد من خطب محمد السادس.

بالنسبة لرئيس المركز المغاربي للدراسات الأمنية وتحليل السياسات وأستاذ العلوم السياسية بجامعة محمد الخامس بالرباط، منار السليمي، فللخطب الملكية "ثلاث دلالات منصوص عليها دستوريا: الأولى مؤسساتية، تكون بمناسبة افتتاح عمل المؤسسة البرلمانية في الدورة الخريفية، والثانية

توجيهية، وتتم في نفس لحظة افتتاح البرلمان حيث يتوسل الملك بصفته رئيس الدولة أداة الخطاب لتوجيه عمل السلطتين التشريعية والتنفيذية، لترتبط الثالثة بحدوث أزمة دستورية كالحالة المنصوص عليها في الفصل 96 لما يعمد الملك إلى حل المجلسين معا أو احدهما ويكون الحل مسبوق بخطاب موجه للأمة".

وأضاف اسليمي أن "الزاوية الثانية تاريخية-سياسية، تترجمها الخطابات التي توجه إلى الأمة في الأعياد الوطنية، وهي غالبا ما تكون فيها إشارات مرتبطة بالذاكرة التاريخية ودعوات إلى التعبئة ورسائل سياسية إلى الفاعلين في الداخل والخارج"، قبل أن يردف أن الخطابات الملكية يعتمد عليها الفاعلون في بناء حجج للمرافعة في قضايا معينة، وتعتمد من طرف الباحثين لمحاولة فهم وشرح بعض القرارات الإستراتيجية"، ليؤكد بعدئذ أن "الخطب الملكية تغير مضمونها وزمنيتها إذا ما قارنا بين الملك محمد السادس والملك الحسن الثاني. فالأخير كان يعتمد على الخطب كثيرا كآلية للتواصل، بينما محمد السادس يعتمد آليتين للتواصل: خطب مرتبطة بمناسبات دستورية أو أعياد وطنية أو أحداث إستراتيجية، الآلية الثانية هي التواصل الميداني التي تظهر من خلال الزيارات وإطلاق المشاريع في العديد من المناطق المغربية".

وذهب اسليمي في ختام حديثه لهسبريس إلى كون "الخطب الملكية تغيرت من حيث القوة في تشخيص وانتقاد الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، كما أنها باتت ذات مضمون يقدم تقييما للسياسات العمومية المتبعة من طرف الحكومة (التعليم) وانتقلت إلى تقييم السياسات التدبيرية المحلية (الدار البيضاء)، مضيفا أن الخطاب الملكي بات مقرونا بالمعانية الميدانية المتبوعة بزيارات لتقييم طريقة تعامل الفاعلين السياسيين والحكوميين مع التوجيهات الواردة في الخطاب، كما أنها خطب معتمدة على تقارير (المجلس الوطني لحقوق الإنسان أو المجلس الاقتصادي والاجتماعي)، وهي خطب من المتوقع أن تستمر في الجمع بين ثنائية تقييم السياسات الحكومية والإعلان عن مشاريع إستراتيجية مرتبطة بالدولة، وليس الحكومة".

من جانبه، يرى "أحمد الدرداري"، الأستاذ المتخصص في تحليل الخطاب بجامعة عبد المالك السعدي، أن "الخطب الملكية هي مصدر أسمى للتعبير عن إرادة الشعب، وثورة هادئة مجددة للوحدة وآلية إنزال الممارسة السياسية من التنظير إلى الواقع ومطابقتها لهموم المواطنين، وتتبع الرأي العام لاجابياته، خطاب متسم بالاعتدال والمصادقية والتسامح والانفتاح".

واعتبر ذات المتحدث في تصريح لهسبريس أن "الخطب تصريف لمضامين الدستور وصيرورة لمسار الاعتزاز بالخصوصية المغربية، ببنية قوية ومعاني متعددة تتعلق بالشأن العام والتصدي للقضايا ومواكبتها باليات جديدة والتطلع للجديد والتركيز على العمل دون نسيان".

وزاد الدكتور الدراردي أن "خطب الملك مفعمة بعبارات ومفاهيم من الجيل الجديد بدءا من المفهوم الجديد للسلطة إلى الطابع الإنساني للدولة، خطب بمحولات دلالية قوية ومواكبة ومجددة لكل مجالات العمل الشبابي والنسائي.. ومجددة لاهتمامات الدولة العمودية والأفقية والقطاعية".

في هذا السياق، قال "محمد بودن" الباحث في القانون العام إن "الخطب الملكية تشكل محورا للحياة العامة في المغرب، فهي غير خاضعة لا للترتيب ولا للتصنيف مع باقي الخطابات الأخرى أو المواد الإعلامية علاوة على كونها شبكة مهيكلة، وبناءا فكريا لملك البلاد، وبقيمة دستورية محصنة: فهي، حسب بودن، ليست مجرد خطابات أو منجزات لفظية، وإنما بنيانا مرجعيا لكل الفاعلين وخارطة عمل لكل المتدخلين ورسائل صريحة وضمنية لكل المعنيين، وأنها تمثل له "شخصيا حدثا وطنيا بالغ الأهمية سواء كانت خطبا معتادة بحكم المناسبة أو خطبا استثنائية أو خطبا ملقاة في المحافل الدولية".

ويرى بودن في تصريح لجريدة "هسبريس" الإلكترونية أن "خطب الملك محمد السادس تتميز في مبناه ومعناه ومحتواه بجملة من الخصائص وهي: خطاب يذكر بأسس التعاقد، وبروافد ثقافية تعكس التنوع المغربي، وخطاب غير متسامح مع من يحاول النيل من ثوابت المغرب ومقدساته، أو خطاب استشرافي للتحديات، وخطاب بخطط تنموية للمستقبل وحصيلة لأوراش الماضي، وتقييما مرحليا للحاضر، وخطاب يعكس السمات الوطنية والنفسية والعاطفية والشخصية للملك، وخطاب مستحضر للأبعاد الإقليمية والقارية والعالمية، وخطاب ذكي يستحضر ما كان وما هو كائن وما يجب أن يكون، وخطاب يصنع الحدث ويجني ثماره، وخطاب يركز على الفعل بدل رد الفعل، فضلا عن كونه في النهاية خطاب بحكمة زمنية ولفظية": فمضامين الخطاب الملكي هي تعبير عن متطلبات يمكن إجمالها فيما يلي: متطلب مؤسسي، متطلب ثقافي، ومتطلب اجتماعي، ومتطلب اقتصادي ومتطلب أمني ومتطلب جيواستراتيجي.

وتابع ذات المتحدث أن "الجيل الجديد من خطب جلالة الملك محمد السادس ثار فيها على الفجوة التي كانت بين المعلن والمسكوت عنه، حيث تتميز الخطب الملكية بالصراحة والمكاشفة وديمقراطية اللغة في تناغم بين الخطاب كنص ديمقراطي والممارسة الملكية الرشيدة كفعل".

ب- العامة وصناعة الرأي العام من خلال وساطة الصحافة والأحزاب

يتعرض المواطن المغربي لأشكال وأنواع مختلفة من الخطابات العامة، فنجد الخطاب الديني والخطاب السياسي والاعلاني وكذا الملكي الذي يمرر عبر وسائط مرئية مثل الصحف أو الكتب أو اللافقات، أو وسائط مسموعة مثل شرائط الكاسيت والإذاعة، أو وسائط مسموعة مرئية مثل التلفزة والسينما والإنترنت.

وتتنوع وظائف هذه الخطابات ببتباين منشئها والوسائط المستخدمة في نقلها ووظائفها ويتفاوت مدى فاعليتها بتنوع أغراض منشئها وسياقات تداولها، كما تتنوع كذلك أشكال الاستجابة لها والآثار التي تحدثها بتنوع الجمهور الذي يستقبلها.

فإذا كان قياس مستويات تتبع الخطاب الملكي غير متاحة كما سبق بيان ذلك، فإن قياس فاعلية التلقي متاح بناء على مؤشرات انطباعات العامة والخاصة ووسائل الإعلام بعد كل خطاب ملكي ونسبة الإستشهاد بشذراته في الخطاب الإعلامي والسياسي والحقوقى والجمعي، وحتى عند اجتياز المباريات وانطلاقا من مؤشر جديد أصبح يطلق عليه "بلاغة جمهور التلقي".

ج- تلقى الخواص واستراتيجيات التلخيص القرائية لعموم القراء

لقد ألفت تناولا للخطاب الملكي على اعمدة الجرائد الورقية والإلكترونية وفق إستراتيجية "التلخيص" التي ترد في إستراتيجيات الفهم القرائي غفلاً عن أي تفصيل أو غوص في التفاصيل.

إلا أن الملاحظ أن التلخيص الذي نجده للخطاب الملكي على صفحات المنابر الإعلامية أقرب إلى عَنونة الفقرات منه إلى التلخيص الذي يقتضي تخليص الذمة في سوق الخطاب بأمانة، وتقليل حجم النص بالاستعاضة عن جزئيات الأفكار الجزئية والفرعية، والإبقاء على الأفكار الرئيسية.

فمعظم المقالات يمكن اعتبارها ملخصاً وليس تلخيصاً للخطاب الملكي، لأن الملخص يُعدُّ تلخيصاً للتلخيص، ويختلف التلخيص عن التقرير الذي يُكتفى فيه بالمعلومات الأساسية عن الشيء.

وتقوم بعض المنابر في إطار مهمة التلخيص بوضع إطار يُكمل الإطار الذي اختارته لضمم المادة الخطابية الملكية، وعنونة مال لم يرد معنونا، وفصل وتقسيم ما لم يفصله ويقسمه الخطاب الملكي، أو دمج ما قسمه وفصله عند الإقتضاء.

وقد أدّى التعامل مع الخطاب الملكي في الصحافة الوطنية بلسانها العربي الفصيح ولسانها الفرنسي إلى وجود نماذج قرائية تلخيصية تتراوح بين:

– نموذج التلخيص بالاجتزاء، من خلال ذكر بعض الفقرات وحذف البقية، ودمج النصوص ذات الموضوع الواحد بالتصرف في الصياغة، بإيجاد روابط لفظية تكفل ارتباطاً بالسياق؛

– نموذج التلخيص بالاكْتفاء: وذلك بالتخلي عن الإستطرادات التي تخرج عن الموضوع أو الحقل التيمي الذي يهم عموم قراء ومشاهدي المنبر الإعلامي الذي نقل الخطاب الملكي، فيرد التلخيص جلاً مما هو خارج الموضوع، والاكْتفاء بنقل مايدلُّ على الموضوع وترتيبه وفق فقرات غير معنونة.

– نموذج التلخيص بتركيز الفكر: فتكف هيئة التحرير يدها عن التصرف في الخطاب الملكي وفيما دته المتتالية المرتبة، فتكتفي بتناول الفكرة العامة في عناوين منفردة، ودمج الجزئية تحتها، ثم التصرف في الصياغة حتى يُعبّر عن الفكر العامة من دون خلل، أو إفراط ولا تفريط.

ولا يستطيع أحد أن يقلل من شأن مهارة فهم المقروء في العملية التواصلية مع الخطاب الملكي وبالخطاب الملكي، لحواريته ولحواري مضامينه وتعابيرهِ ولتعدد حواريه وسعيهم لاستكشاف مسالك هذا المتن الخطابي واقتفاء مساربه الدلالية.

عديدة هي الاستراتيجيات التي يمكن تطبيقها بغية إنجاح عمليات الإستنتاج والاستدلال أساساً لعملية القراءة فبدونها لا يتم الوصول إلى الفهم الكامل لجميع جوانب النص. ومن هنا تنصح هذه الدراسات بتدريب متعلمي اللغات الأجنبية على استخدام استراتيجيات الاستنتاج والاستدلال التي تمكن جمهور تلقي الخطاب من قراءة واعية للنص وتكفل لهم استيعاباً وفهماً جيداً لروحة ومعانيه المضمرّة بأنفسهم قبل إضماراته ودون مساعدة خارجية، وبلمح وحذق استعمال الاستراتيجيات الاستنتاجية كوسيلة لفهم المتن الخطابي الملكي وتركيب بنائه الدلالي.

❖ سادسا- مساحات الإبهام في فصحى الخطاب الملكي وفسحة الإفهام

أشرت في بداية هذا المبحث من الاطروحة إلى أن القراءة هي أكثر تعقيدا من أن تكون عملية بسيطة لفك رموز وإشارات، وتعتبر حالياً عملية تفاعلية بين الملك والشعب بمختلف أطيافه التي يطوف بقضاياها الخطاب باقتضاب او بنوع من الإسهاب.

وفهم النص الخطابي يستدعى إعمال عملية بناء المعنى من خلال اقتناص أفكاره الهامة وربطها بالأفكار المسبقة التي لدينا، لأن فهم المتن الخطابي الملكي هي العملية التي يتفاعل بها الشعب مع الملك وخطابه.

ويتيح الخطاب الملكي وفق ما استطعت الإطلاع عليه وفحصه من خطابات عينة المدونة الخطابية الملكية إمكانيات فهمه، ليس لأنني أملك كمتلقي المعارف المسبقة الكافية لربط ودمج المعلومات مع بعضها البعض فحسب، بل لأن المتن المدروس يوفر تلك الإمكانية: فالنص يمتلك هيكله، وفيه منطق داخلي ويزودنا بمعلومات صريحة وأخرى ضمنية تمكننا من فك رموزه، ومن الممكن دائماً إدراك معاني النص لأنه يمتلك خصوصيات ومميزات نصية تجعل منه نصاً ذا معنى¹، في خضم اللامعنى الذي يميز باقي نصوص الخطاب السياسي التي يطفح بها فضاء التداول العمومي. كما أن من خصوصيات القراءة في الخطاب الملكي أنه كما أقدم القارئ أو المستمع على الخطاب الملكي وتقدم في قراءة، فهو يغير ويكيف الاستراتيجيات الخاصة بالفهم أو مقارنته للنص حسب تعوده على الموضوع المطروح، وأهدافه من عملية القراءة واهتماماته وانتظاراته والحافز الذي دعاه للمسارة للإنصات لخطاب الملكي.

أ- مساحات مشكلات وصعوبات الفهم عند القراءة

عندما يواجه جمهور تلقي الخطاب الملكي من العوام نص خطاب ملكي ما ويفشلون في بناء معناه العام فإن سبب ذلك يمكن أن يعود إلى واحدة أو أكثر من المشكلات والصعوبات التالية:

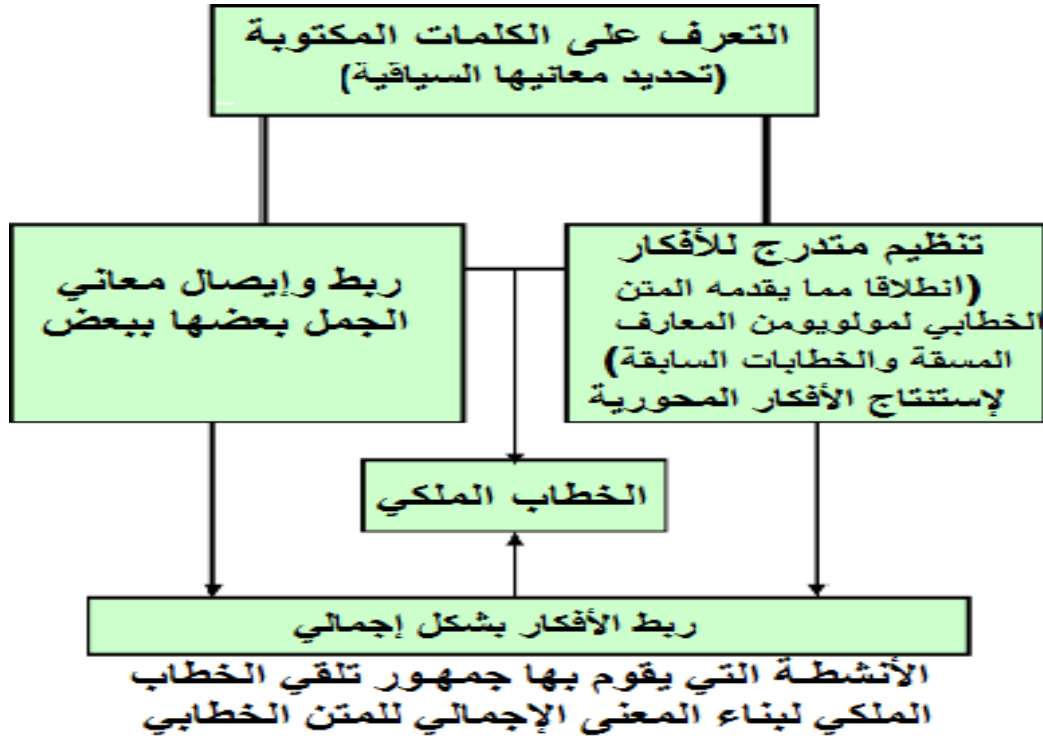
- صعوبات إدراك معنى كلمة، ويحدث هذا عندما لا يفهم جمهور تلقي الخطاب الملكي كلمة ما إما لأنها جديدة بالنسبة إليه، أو لأن المعنى الذي يحدده لها لا يتناسب والسياق الذي توجد فيه، أو لتوظيفه كلمة لم تكن مطروقة من قبل، ولا يفهمها حتى الخاصة (كما هو الشأن مثلاً في خطاب الذكرى 15 لعيد العرش أو ماسمي بـخطاب الثرة، حين أومض جلالته إلى أن "الرأسمال البشري غير المادي يعتبر من أحدث المعايير المعتمدة دولياً، لقياس القيمة الإجمالية للدول"، والتي تعكس تطوراً وانتقالاً "للمعايير التي يعتمد عليها المختصون في المجالين الاقتصادي والمالي لقياس الثروة، بعد أن كانت القيمة الإجمالية للدول تقاس سابقاً، حسب مواردها الطبيعية، ثم على أساس المعطيات المتعلقة بالناتج الداخلي الخام، الذي يعكس بدوره مستوى عيش المواطن")، قبل أن يلي بعد ذلك توضيح المختصين في الاقتصاد ويشرحوا ببساطة ماهية المفهوم الذي ينصرف الرأسمال البشري كأساس كل ثروة حقيقية في البلاد؛
- صعوبات فهم جملة، ويعود ذلك لأسباب عدة منها أنه لا يجد لها أي تأويل أو أن يجد لها عدة تأويلات ولا يعرف أي واحد يتناسب مع سياقها في الفقرة أو النص، أو أن المعنى الذي يحدده لها لا يتوافق ومعارفه المكتسبة مسبقاً؛

- صعوبات على مستوى ربط معاني الجمل بسبب تركيزها، أو غياب الروابط بينها؛

- صعوبات في فهم التركيب الدلالي الإجمالي للنص، انطلاقاً من صعوبة تحديد الفكرة العامة للنص أو بعض أجزائه أو لماذا أقحمت بعض المقاطع النصية أو صعوبة في دواعي ذكر قضية أو حادث في سياق قد لال يبدو للوهلة الأولى أن منطق الربط يجمعهما.

¹ - يعرف كاساني ولونا وسانت المميزات النصية على أنها تلك "الخصوصيات والمميزات التي يجب أن يتوفر عليها أي خطاب مكتوب عندما يقوم في الواقع بدور الرسالة في الوضعية التواصلية الحقيقية. أي هي السمات التي تميز نصاً ذا معنى (أي ما تعتبره مجموعة لغوية معينة كذلك) عن لا نص (أي حفنة من الجمل غير المترابطة) لا تعترف به المجموعة اللغوية كخطاب مكتوب.

انطلاقاً مما ذكر سابقاً يمكن أن أُلخص مختلف الأنشطة التي يقوم بها جمهور تلقي الخطاب الملكي لبناء أو إعادة بناء الفهم من خلال بناء المعنى الإجمالي للنص وفق الخطاطة التالية:



من خلال هذه الترسيمية، يتبين أنّ لعملية قراءة وفهم المتن الخطابي الملكي المكتوب ثلاث مستويات كبرى مرتبطة ومتداخلة ومتفاعلة فيما بينها، حيث:

- يحدد جمهور التلقي في المستوى الأول معاني الكلمات وذلك بفك رموزها انطلاقاً من المعاني التي يستخرجها من معجمه الذاتي المخزن في الذاكرة ويختار منها ما يلائم السياق؛
- قبل أن يقوم في مستوى ثانٍ بتحليل تركيبه يقوم على ربط المفردات والجمل والمقاطع النصية فيما بينها؛
- ويعرج في مستوى ثالث وأخير على مستوى التحليل الدلالي، من خلال البرهنة على قدرته على ربط أفكار مختلف أجزاء المتن الخطابي لتشكل بناءً دلاليّاً متناسقاً ومتماسكاً للنص ككل، أو للنص في علاقته بباقي نصوص المدونة الخطابية الملكية من خلال استخلاص العلاقات الدلالية لمختلف وحداتها، مع ربط الأفكار بشكل هرمي ومتدرّج على المستوى الإجمالي للنص وللخطابات الملكية ذات الصلة.

ب- أهمية استراتيجيات الاستنتاج والاستدلال في فهم المتن الخطابي الملكي

عندما جمهور التلقي، تقتضي عملية القراءة لينفذ السواد الأعظم منهم إلى أقطار الفهم بمستويات متباينة، وضع مجموعة من الاستراتيجيات الأساسية لبناء المعنى الإجمالي للمتن الخطابي الملكي حيز التطبيق، وفق شكل تلقائي ودون أن يدري أي منهم أنه استعمل 03 إستراتيجيات متكاملة لمواجهة نص مرشح للقراءة والفهم:

- فالاستراتيجية الأولى التي نستعملها ونحن بصدد خطاب ملكي له تعقيداته الفكرية وخصوصية صوغه، هي "استراتيجية القراءة الانتقائية" من خلال اختيار واستخلاص تلك المفردات والأفكار المفيدة لفهم المتن الخطابي بشكل إجمالي دون الحاجة إلى قراءته حتى آخر رفق؛

- أما الاستراتيجية الثانية فتقوم على "القراءة الانتقالية" نحو "التوقع"، وتترجم قدرة كل متتبع مغربي على استباق مضمون جزء من نص الخطاب الملكي قبل وروده في الخطاب الشفهي أو قبل أن تصله عينه في الخطاب المكتوب، كالتكهن بالإستهلال والمتعاليات النصية، وبالخاتمة؛

- بدورها، تعتمد "استراتيجية الاستنتاج" على استنباط واستقراء واستخلاص المعنى الضمني للمتن الخطابي الملكي، وبالتالي تجاوز معناه الظاهري أو المعلن أو الجلي واقتناص المعنى الذي يختبئ وراء المعنى اللغوي، نظراً لأهمية تطبيق استراتيجيات الاستنتاج في عملية القراءة باعتبارها الخلاصة والعمود الفقري لعملية الفهم نفسها ومهارة القراءة وفهم النصوص دون الوقوف عند حدود حرفية النص الخطابي الملكي.

- **الكلمات المفتاحية:** فبغض النظر عن الخطاب الملكي حول الثروة والرأسمال اللامادي الذي سبقت الإشارة إليه والذي طرح مشكلة على مستوى تحديد معنى الرأسمال اللامادي ككلمة مفتاحية، فإن جمهور التلقي لا يخفق في فك رموز المتون اللغوية للخطاب الملكية والنفاد إلى معانيه، جلية كانت أو ضمنية، انطلاقاً من قراءة "مقطعية" لكلمات وجمل المتن الخطابي، أو حتى من خلال اعتماد القراءة "الأفقية"، مع إعطاء نفس الأهمية لجميع الألفاظ لأن معنى الجملة يتأتى من معاني مفرداتها المعجمية اعتباراً للعلاقة القائمة بينهما نحواً وتركيباً، واعتباراً لما يضيفه عليها السياق من دلالات معينة لتكوين الملفوظات أو النصوص المختلفة.

بيد أن فضيلة الخطابات الملكية أنها تشير إلى ترتيب مراحل تواتر الأحداث وتتابعها داخل النص، وتورد كلمات مفتاحية وتحافظ على منطق ترتيبها في الجمل والفقرات بفضل منطق لاستعانة بالموصلات وأدوات الربط النصية بين الجمل والفقرات لتنظيم الحركية الداخلية للمتن الخطابي الملكي، وبالتالي تربط الصلات بين الملك وخطابه وبين هاذين وبين جمهور التلقي.

كما تتيح أشكال الحركة المنظمة داخل فقرة الحركة الزمانية ومسار عرضها للأحداث حسب التسلسل الزمني لوقوعها أو حسب ترابطها المنطقي أو تشرح مراحل تدبير ملف من الملفات الكبرى سبل الاستدلال والفهم.

فقد ورد الحديث عن سياق إطلاق ورش الإصلاح الدستوري رغم تعقيداته ومراحل بشكل سلس وقريب من الأذهان من خلال تكثيف الأحداث والخطوات في فقرتين من خطاب جلالة الملك إلى الأمة بمناسبة بمناسبة الإعلان عن ورش إصلاح الدستور (" عملاً بما رسخناه من انتهاج المقاربة التشاركية، في كل الإصلاحات الكبرى، فقد قررنا تكوين لجنة خاصة لمراجعة الدستور، راعينا في اختيار أعضائها، الكفاءة والتجرد والنزاهة.. وقد أسندنا رئاستها للسيد عبد اللطيف المنوني ... داعين مكونات اللجنة إلى الإصغاء والتشاور مع المنظمات الحزبية والنقابية، ومع الفعاليات الشبابية، والجمعية والفكرية والعلمية المؤهلة، وتلقي تصوراتها في هذا الشأن؛ على أن ترفع إلى نظرنا السامي نتائج أعمالها، في غضون شهر يونيو المقبل. وإننا نتوخى من هذه التوجهات العامة، وضع إطار مرجعي، لعمل اللجنة. بيد أن ذلك لا يعفيها من الاجتهاد الخلاق، لاقتراح منظومة دستورية متقدمة.. .. وإلى أن يتم عرض مشروع الدستور الجديد على الاستفتاء الشعبي، وإقراره ودخوله حيز التنفيذ، وإقامة المؤسسات المنبثقة عنه، فإن

المؤسسات القائمة، ستواصل ممارسة مهامها، في إطار مقتضيات الدستور الحالي. وفي هذا السياق، ندعو إلى التعبئة الجماعية، لإنجاح هذا الورش الدستوري الكبير... ومن هذا المنطلق، فإن خديمك الأول، عندما سيقوم بواجبه الوطني، بالتصويت بقول نعم لمشروع الدستور الجديد، المعروض على الاستفتاء الشعبي... أجل، سأقول نعم لهذا المشروع... وإني لأدعو الأحزاب السياسية، والمركزيات النقابية، ومنظمات المجتمع المدني، التي شاركت، بكل حرية والتزام، في صنع هذا الميثاق الدستوري المتقدم، من بدايته إلى نهايته، إلى العمل على تعبئة الشعب المغربي، ليس فقط من أجل التصويت لصالحه، بل بتفعيله".

نفس التدرج راعاه جلالته في بسط الحديث عن ورش الجهوية كمرحلة موالية لمرحلة الإستفتاء على الدستور، مع ربط أجرأته بضرورة التكريس الدستوري (مسار الجهوية المتقدمة، بما تنطوي عليه... وما تقتضيه من مراجعة دستورية عميقة، نعتبرها عماداً لما نعتزم إطلاقه من إصلاحات جديدة شاملة، في تجاوب دائم مع كل مكونات الأمة. ونود في البداية، الإشادة بالمضامين الوجيهة لتقرير اللجنة الاستشارية للجهوية، التي كلفناها، منذ ثالث يناير من السنة الماضية، بإعداد تصور عام لنموذج مغربي للجهوية المتقدمة؛ منوهين بالعمل الجاد، الذي قامت به، رئاسة وأعضاء، وبالمساهمة البناءة، للهيئات الحزبية والنقابية والجمعوية، في هذا الورش المؤسس. وتفعيلاً لما أعلننا عنه في خطاب 20 غشت 2010، بمناسبة ذكرى ثورة الملك والشعب، ندعو الجميع للانخراط في مواصلة إنضاج ما جاء في هذا التصور العام، في نطاق نقاش وطني واسع وبناء. لقد اقترحت اللجنة، في نطاق التدرج، إمكانية إقامة الجهوية المتقدمة بقانون، في الإطار المؤسسي الحالي، وذلك في أفق إنضاج ظروف دسترتها. بيد أننا نعتبر أن المغرب، بما حققه من تطور ديمقراطي، مؤهل للشروع في تكريسها دستوريا)¹.

كما أن بعض المفردات التي يركز عليها المعنى الإجمالي للنص توضح نفسها بنفسها أو بالعودة إلى سياق توظيفها أو بفضل تواردها التكراري.

بعد الانتهاء من تحديد الوحدات والمفردات المهمة في النص والتخلي عن المعلومات العرضية والجانبية، وتخطي عقبة الكلمات الغامضة، يتيح كل نص خطابي ملكي فهمه بالإعتماد على أداة معاضدة يمثلها التحليل السياقي.

- **التحليل السياقي:** حيث تساعد هذه الاستراتيجية في تحديد معنى كل كلمة والاستدلال على معناها بمحصلة علاقاتها بالكلمات الأخرى داخل السياق، فالألفاظ لا تستخدم لذاتها أو مستقلة، إنما ترتبط بغيرها من الألفاظ لتعبر مع بعضها البعض عن فكرة ما، وهكذا فإن الكلمات المعروفة أو المألوفة تحيط بالكلمات الغامضة ويمكن أن توحى لنا بمدلولها.

ويقوم هذا على مبدأ مجاورة اللفظة لأختها، وتتحكم هذه المجاورة في مجموعة من العلاقات والعلامات النحوية والصرفية المحددة للمعنى الوظيفي والدلالي للكلمة داخل السياق، فيهتدي جمهور التلقي بمختلف فئاته ومستوياته إلى تحديد علاقة الكلمة بمجاوراتها المباشرة السابقة واللاحقة حيث يمكن للكلمة الغامضة أن تظهر صلة وثيقة أو تنافراً كاملاً مع كلمات أو أفكار أخرى عبر التشابه أو التناظر المباشر أو عبر المتضادات من حيث الدلالة.

إن الوصول إلى المعنى الظاهري على مستوى سطح المتن الخطابي الملكي كصيغة أولية لبناء معناه الإجمالي يقتضى من جمهور التلقي الانتقال عند القراءة أو الإنصات للخطاب الملكي من المستويات/البنى الأساسية التالية: النص والفقرة والموضوع والفكرة الرئيسة.

¹ - خطاب ملكي سابق

ف"النص" يتشكل من مجموعة من الفقرات التي تتشكل بدورها من عدة جمل تنتظم كوحدات حاملة لفكرة أو معنى من الأفكار والمعاني التي تعالج الموضوع أو المواضيع التيمية التي تطرق إليها الخطاب الملكي.

أما "الفكرة الرئيسية" فهي تلك الجملة التي تحدد أكثر من غيرها أو تشرح أو تعلق على موضوع النص. ويبقى أمر تحديد هذه الجملة من أبسط الوسائل لمعرفة الموضوع الذي يسيطر على الخطاب الملكي، على أن بعض الخطابات جاءت بفكرة واحدة رئيسة سطرت بذاتها ولذاتها شروط الإتصال الملكي بعموم شعبه.

ينطبق هذا الأمر على خطاب نعي صاحب الجلالة أمير المؤمنين محمد بن الحسن والده الملك الراحل الحسن الثاني، والخطاب الذي وجهه أربعون يوما بعد ذلك إلى الأمة بمناسبة حلول الذكرى الأربعينية لوفاة الملك الراحل الحسن الثاني وانتهاء فترة الحداد، أو نص الرسالة الملكية السامية الموجهة إلى اللجنة التنفيذية للفيفا بمناسبة التقديم النهائي لملف ترشيح المغرب لاحتضان مونديال 2010، والتي تلاها بزورخ صاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد الذي كان يترأس الوفد المغربي أو الخطاب الذي ألقاه جلالتة بأجدير بخنيفة ليعلن عن وضع الطابع الملكي على الظهير الشريف المحدث والمنظم للمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية بعد أن سبق الإعلان عن قرار إحداثه وتحديد مهامه، في الخطاب المخلد للذكرى الثانية لاعتلاء جلالتة كرسي العرش.

إن تحديد الأفكار الرئيسية لنص الخطاب الملكي يؤدي بالتأكيد إلى تحديد نمط ونوع الوحدات النصية التي تكونه، ويحدد الاستراتيجية الملائمة لمقاربتة قصد الاستدلال على معانيه الخفية، حتى بالنسبة للمتلقى العادي الذي لا يملك أية أهلية نصية أو تفكير استنتاجي أو استدلاليا، والانطلاق من معلومات وأفكار النص على المستوى الدلالي والبراجماتي لتحديد نبرة ومقاصد صاحب الجلالة ومواقفه، وإنشاء علاقات منطقية سببية أو تشبيهية أو تقابلية أو تناظرية أو زمانية ومكانية بين مختلف أجزاء الخطاب.

ج- استراتيجيات الصياغة والإلقاء: تتيح استراتيجيات الصياغة والإلقاء عند توفر جمهور تتبع وتلقي خطب صاحب الجلالة على الحد الأدنى من الأهلية اللغوية والأمساك بنصية الأهلية النصية باعتماد سبل الاستدلال التالية:

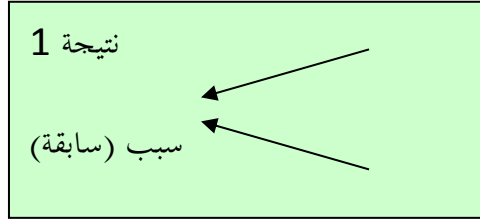
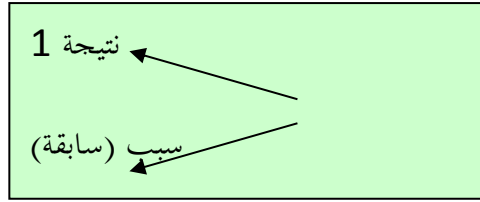
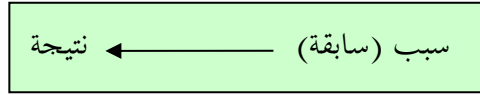
- **الاستدلال على تسلسل وتواتر الأحداث** من خلال مجموعة من الوضعيات التي يتوالى ذكرها أو تذكرها في الخطاب في شكل حلقات تراكمية (مع استعمال الموصلات والمنظمات النصية مثل بادئ ذي بدء، في أول الأمر، بعد ذلك، وعليه التي تدلنا على التنظيم الداخلي للأحداث) لتقودنا إلى فهم قرار وموقف وتصور صاحب الجلالة بشأنها؛

- **الاستدلال على مواقف ومقاصد جلالتة، والكشف عما يرمي إليه في كل رقيقة ودقيقة من مقاطع وأجزاء الخطاب؛**

- **الاستدلال على أسباب وحيثيات ونيات إحداث المؤسسات والأوراش وتدبيرها واستنتاج الأهداف التي كانت وراءها والدوافع والدواعي التي حملت صاحب الجلالة على حمل مشروع إعلانها في خطابه؛**

- **الاستدلال على النتائج** وهي التي تسمح بتوقع أحداث مادية ومخططات جديدة للشخصيات وذلك عن طريق الجملة المقروءة.

ويمكن أن تأخذ استدلالات ربط السبب بالنتيجة أشكالاً عدة منها:



- الإستدلالات الانفعالية التي تتيح النفاذ إلى المحطات الخطابية التي أبدى فيها جلالته انتقالات من تفاعل العاهل الفاعل إلى الإنفعال على عدم قدرة أحد حلقات التدبير أو مؤسسات التسيير عن تجويد الأداء، أو عن عقوق إحدى الفئات أو الجهات اتجاه المواقف الأبوية للعاهل وللوطن، كما كان عليه الشأن في الخطاب شديد اللهجة المخلد للذكرى الأربعون للمسيرة الخضراء ("الصحراويون معروفون، منذ القدم، بأنهم كانوا، دوماً، رجال تجارة وعلم، يعيشون من جهدهم، بكرامة وعزة نفس. ولا ينتظرون المساعدة من أحد، رغم قساوة الظروف. إننا نتكلم عن أبناء الصحراء الحقيقيين، الوطنيين الصادقين، الذين ظلوا أوفياء لروابط البيعة التي تجمعهم وأجدادهم، عبر التاريخ بملوك المغرب. أما الذين ينساقون وراء أطروحات الأعداء ويروجون لها، رغم قتلهم، فليس لهم مكان بيننا. ومن تاب ورجع إلى الصواب، فإن الوطن غفور رحيم").

عظفا على نفس اللهجة التي ميزت الخطاب الذي سبقه والذي أتى بتوضيحات تسعفها الأرقام لدحض ادعاءات من يرون بأن خيرات الصحراء كفيلة بتشغيل شبابها، واجههم جلالته بالقول: ("فمن المعروف أن ما تنتجه الصحراء، لا يكفي حتى لسد الحاجيات الأساسية لسكانها. وأقولها بكل صراحة: المغاربة تحملوا تكاليف تنمية الأقاليم الجنوبية. لقد أعطوا من جيوبهم، ومن رزق أولادهم، ليعيش إخوانهم في الجنوب، في ظل الكرامة الإنسانية... إننا نعرف جيدا أن هناك من يخدم الوطن، بكل غيرة وصدق. كما أن هناك من يريد وضع الوطن في خدمة مصالحه هؤلاء الذين جعلوا من الابتزاز مذهباً راسخاً، ومن الريع والامتيازات حقاً ثابتاً، ومن المتاجرة بالقضية الوطنية، مطية لتحقيق مصالح ذاتية. كما نعرف أن هناك من يضعون رجلاً في الوطن، إذا استفادوا من خيراته، ورجلاً مع أعدائه إذا لم يستفيدوا. وهنا أقول: كفى من سياسة الريع والامتيازات. وكفى من الاسترزاق بالوطن")¹؛ أو عند توجيهه للبرلمانيين بخطاب افتتاحي يحملهم مسؤولياتهم ("كما ندعوكم لتحمل مسؤولياتكم كاملة، في القيام بمهامكم التشريعية، لأن ما يهمنا، ليس فقط عدد القوانين، التي تتم المصادقة عليها، بل الأهم من ذلك هو الجودة التشريعية لهذه القوانين")، قبل أن يورد جلالته القول ("أننا نشدد على ضرورة اعتماد الحوار البناء، والتعاون الوثيق والمتوازن، بين البرلمان والحكومة، في إطار احترام مبدأ فصل السلط، بما يضمن ممارسة سياسية سليمة، تقوم على النجاعة والتناسق، والاستقرار المؤسسي، بعيداً عن تحويل قبة البرلمان

¹ - نص الخطاب الذي وجهه جلالته الملك إلى الأمة بمناسبة الذكرى 39 للمسيرة الخضراء

إلى حلبة للمصارعة السياسية"¹، خاصة وإن الخطاب جاء في سياق خطاب سابق أوصى فيه جلالاته نواب الأمة بالإرتقاء بأداء المؤسسة التشريعية ومراعاة التغيير الجوهري الذي جاء به الدستور، حيث كان لا بد أن يتجلى في تجديد المؤسسات، ("ومن هنا، فإن المناسبة ليست مجرد رئاسة افتتاح دورة تشريعية عادية، وإنما هي لحظة قوية لاستشراف الولاية البرلمانية الأولى في العهد الدستوري الجديد وتدشين مرحلة تاريخية في مسار التطور الديمقراطي والتنموي للمغرب")².

- الاستدلال على الحالة والوضع العمين للمملكة ولل قضايا والملفات الوطنية الكبرى، انطلاقاً من التوضيحات التي تربط بين الأحداث والحقائق و خلاصات التقارير المرفوعة لجلالاته من لدن الهيئات واللجان؛

- الإستدلالات التناظرية واستدلالات المقارنة التي تسمح ببناء علاقات تشابه وتضاد وتكامل بين الجهات، بين القطاعات، وحتى بين الأشخاص ومستويات وطنيتهم في إطار استدلالات المقارنة بين جهة وأخرى ("فرغم أن ميزانية المجلس الجماعي للدار البيضاء تفوق بثلاثة إلى أربعة أضعاف تلك التي تتوفر عليها فاس أو مراكش مثلاً، فإن المنجزات المحققة بهاتين المدينتين في مجال توفير وجودة الخدمات الأساسية تتجاوز بكثير ما تم إنجازه بالدار البيضاء. وخير مثال على ذلك، ما يعرفه مجال التطهير من خصائص كبير، بحيث تظل المنجزات محدودة وأقل بكثير من حاجيات السكان، مقارنة بما تم تحقيقه بالرباط وفاس ومراكش ومدن أخرى")³ أو داخل نفس المدينة ("فالدار البيضاء هي مدينة التفاوتات الاجتماعية الصارخة، حيث تتعايش الفئات الغنية مع الطبقات الفقيرة. وهي مدينة الأبراج العالية وأحياء الصفيح. وهي مركز المال والأعمال والبؤس والبطالة وغيرها، فضلاً عن النفايات والأوساخ التي تلوث بياضها وتشوه سمعتها")⁴.

-استدلالات التوقع التي تتيح لمن يتتبع الخطابات الملكية تكوين افتراضات وتكهنات يمكن أن تتحقق انطلاقاً من بعض المؤشرات المتعلقة بسير الأحداث أو طبيعة المناسبة التي تساعد بدورها على التكهن ببيانات أخرى؛

-استدلالات إنشائية وهي التي تسمح لجمهور التلقي الحائز لمستويات قرائية متقدمة وأدوات القراءة المتخصصة من إقامة علاقات بين الجمل على أساس الإحالات التي تخص القواعد والروابط المعجمية والدلالية، وكيفية تبلورها من خلال وسائل الربط ومستويات تأكيد جلالاته على فكرة بعينها من خلال تكرار المفردات، وتبني جلالاته لتصور شخصي من خلال استعمال الضمائر الشخصية أو موقف لجنة استشارية من خلال استبدال الضمائر الشخصية بأسماء رؤساء اللجان ("عبد اللطيف المنوني، لما هو مشهود له به من حكمة، ودراية علمية عالية بالقانون الدستوري، وخبرة حقوقية واسعة؛" "وضعنا طابعنا الشريف، على ظهائر تعيين أعضاء المجالس العلمية، في تركيبها الجديدة، مكلفين وزيرنا في الأوقاف والشؤون الإسلامية بتنصيبها، لتقوم من خلال انتشارها عبر التراب الوطني، بتدبير الشأن الديني عن قرب، وذلك بتشكيلها من علماء، مشهود لهم بالإخلاص لثوابت الأمة ومقدساتها، والجمع بين فقه الدين والانفتاح على قضايا العصر؛" "وطيلة فترة مقامكم بالديار المقدسة، ما فتئ خديمنا الأرضي وزيرنا في الأوقاف والشؤون الإسلامية يبذل قصارى الجهود، لتمكينكم من كافة الخدمات والشروط الضرورية واتخاذ التدابير اللازمة").

¹- نص الخطاب الذي ألقاه جلالة الملك بمناسبة افتتاح الدورة الأولى من السنة التشريعية الثانية من الولاية التشريعية التاسعة في أكتوبر 2012

²- نص الخطاب الذي ألقاه جلالة الملك في افتتاح الدورة الأولى من السنة التشريعية الخامسة من الولاية التشريعية الثامنة في أكتوبر 2011

³- نص الخطاب الافتتاحي للدورة الأولى من السنة التشريعية الثالثة من الولاية التشريعية التاسعة في أكتوبر 2013

⁴- المرجع نفسه

إن هذه الاستراتيجيات الإستدلالية التي يتيحها المتن الخطابي المولوي ليست الوحيدة، ولكنها المفيدة لمن رام الخروج من ثرى الإبهام إلى ثريا الفهم والقدرة على الإفهام إذا سألته سائل بشأن مضمون خطاب ملكي.

فماذا عن استراتيجيات الكتابة التي تحقق الانخراط والانسياق بعد فهم المقروء؟

❖ سابعا- بين الإظهار وصناعة الإبهار أو تصنع الإنبهار

بعيدا عن تقديس الرجال، أو استخدام القياس أو اعتماد المقارنة مع شساعة الفارق، أو الإجهاد في غير محل الاجتهاد، أو التجرؤ على من نعتبرهم صفوة العمل السياسي وصوغ الخطاب المنسجم مع مرجعياتهم السياسية أو اختزال حاملي الفكر الرسالي في حقل الخطابة السياسية، يمكن القول ان الخطاب الملكي لازال يحظى بسطوة خطابية وحظوة إعلامية تتجاوز في جماهيريتها وديمومتها تلك التي تحوزها بعض الوجوه الإعلامية، سواء أكانت هذه الوجوه لزعيم سياسي أو نقابي، أو لشيخ طرقي أو داعية، أو مدرب، أو صاحب تدوينات، أو مفكر، أو خبير خدمات طبية أو تدأوي بالأعشاب والطب البديل أو أخصائي نفسي يحظون بنسب مشاهدة واستماع ومقروئية واسعة ويروج لهم ولبرامجهم كعلامات فكرية يفتتن بها جمهور الإستهلاك.

حديثي عن استراتيجيات التفاعل الشعبي مع الإعلام لضبط الأداء الإعلامي والعلاقة المعكوسة للتفاعل الإعلامي مع الوجوه الأكثر شعبية، يحملني على الحديث عن صناعة التأثير والانتشار.

بفضل منهجية بناء الخطاب التي فككتها في الفصلين المخصصين للبناء وشروط الأنبناء وكذا الإستراتيجية التواصلية التي تكفل تستجيب لسياق تواصل وتتحقق انسياق تفاعلي، تتم صناعة التأثير في اوساط الجماهير التي تتلقى الخطاب الملكي وتكفل له شروط الإنتشار والتجدر الشعبي المطلوب.

فإذا كانت بعض القنوات تخلق عناصر ومواد صناعة التأثير من خلال خلق الاحتياج في صفوف المستمعين والمُشاهدين لنصائح خبير في الطب البديل أو في الإستشارات القانونية أو في الفتاوى الفقهية، والتأكيد والمبالغة في مدى الاحتياج إلى هذه الخدمات، فإن اختيار توقيت بث البرنامج الذي يستضيف لقاءه المقنن مع جمهوره وترتيب الأولويات واختيار وسائل الاتصال الجماهيري لتمرير رسائله وخدماته لتصل لشرائح مختلفة من الجماهير في أوقات مختلفة وأماكن مختلفة لتتصل به يترجم مراسا ودربة في صناعة التأثير والانسياق وراء أشخاص أثثوا الفضاء العمومي والإعلامي رغم عدم توفرهم على الحد الأدنى من المعرفة الفكرية التي تجعلهم مؤهلين للإجابة عن التساؤلات والنقاش حول افتراضات مسبقة يحملها الجمهور، وتصحيح الصور النمطية والرد على أسئلة الناس، وإن كان التقصير أيضا من مستوى طرح هؤلاء الناس للأسئلة التي تتوقع بين المستويات الدنيا لطرح الأسئلة ومنزقات الاستعلاء النخبوي ولغة الخشب.

بالمقابل، لا تحتاج المؤسسة الملكية إلى نفس المسارات التي تسلكها الوجوه الأكثر إعلامية وقنوات صناعة الرموز، لأن الامر يتعلق برمز أمة، اختصه الحق سبحانه بالملك لأنه وحده جل جلاله أمرنا أن نردد بلسان الاعتقاد الجازم ﴿ اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن

تشاء وتعر من تشاء وتذل من تشاء)، حيث قال صاحب الجلالة في سياق متصل: ("لقد قيض الله لنا أن نتربع على عرش أجدادنا الميامين وفق إرادة والدنا الذي أسند إلينا ولاية عهده وبناء على مقتضيات الدستور وطبقا للبيعة التي التزم بها ممثلو الأمة. فتسلمنا المشعل من يد والدنا قدس الله روحه لممارسة مسؤولية قيادة البلاد")¹.

كما أن بناء الرمزية يقوم على مجموعة من الرموز والصور البصرية التي لم يألّفها جمهور التلقي على عهد الملك الراحل الحسن الثاني، فقوت شعبية صاحب الجلالة بعيدا عن الشعبوية أو الخطاب الشعبي.

ومكنت القدرة على استثمار الحدث المؤسسة الملكية من ترسيخ دورها كفاعل لا محيد عنه في جميع خواريزمات التنمية وترسيخ دولة الحق والقانون التي يعتبر الملك ضامنّها، خاصة وأن استثمار الأحداث يعنى التفاعل معها في إبانها، وتقليص مساحات الغياب وتبديد هامش اللافعل الذي وصم أداء الفاعلين السياسيين لسنوات وقلص تبعا لذلك حضورهم وقدرتهم على التأثير في الجماهير: فبقدر حضور المؤسسة الملكية في الأحداث وقدرتها على استحضار سبل تدبيرها، بقدر ما يزداد منسوب جماهيريتها وقدرتها على التأثير.

كما أن دأب المؤسسة الملكية على المناصرة المباشرة (من خلال تلقي الشكايات والتظلمات مباشرة من يد المعنيين في إطار الزيارات الملكية لو تعقب الموكب) أو غير المباشرة (عبر خدمات الديوان الملكي في مجال تلقي الشكايات والتظلمات وإحالتها على الجهات المختصة) للفئات الهشة أو التي رفعت طلبها لقراءة جلالته من أجل رفع ضرر أو الحصول على حق مسلوب، أو الاستفادة من منافع، قد مكنها من رفع شعبيتها ومن قدرتها على التأثير من منطلق ترسخ قناعة شعبية بإنسانية العاهل وتأثره بقضايا شعبه ("نحن بحول الله مصممون العزم على مواصلة مسيرة التطور والنماء لصالحك شعبي العزيز ولفائدة جميع فئات الشعب ولاسيما الفئات المحرومة التي يستأثر مصيرها باهتمامنا والتي نوليها عطفنا وحنونا")؛ "أن عزمنا على مواصلة مسعى التنمية وتأمين إطار حياة كريمة لكل الفئات الاجتماعية وخاصة منها التي هي أكثر حرمانا والتي يشغل وضعها فكرنا ويستقطب عطفنا يوجب علينا في هذه اللحظات الصعبة أن نعلن لهم مؤازرتنا... أن طبيعة هذا الجفاف تقرر علينا تعبئة جميع الطاقات وكل الامكانيات لمواجهة الوضع ولتوجيه عمل حكومتنا نحو الاقاليم المصابة ورعايانا المتضررين من خلال حركة تطوعية للمؤازرة والمساندة ودفع قوي للتضامن الوطني"²

بمنظور إستراتيجيات التفاعل الشعبي مع الإعلام لضبط الأداء الإعلامي الخاص بالانشطة الملكية والنشاط الخطابي الملكي، نلاحظ أن الخطاب الملكي ينأى بنفسه وبمؤسسته المصدرة عن الخوض كطرف في الحُمى الكلامية، التي تمرر عبر إعلام رديء، يعتمد الكذب والتضليل، ويحترف نشر والأباطيل واقتراء الأكاذيب.

لذلك، أجد في الخطاب الملكي ردا على الإدعاءات، ورفعا للإلتباس، ودحضا للمفتريات وللأسن التي تسفست حول الأحداث، حتى تسلس له بطون المغاربة قيادها، فتحسن المخططات التواصلية استغلال الإعلام في توجيه ضربات عكسية.

¹- من خطاب الذكرى الاولى لإعتلاء جلالة الملك كرسى العرش

²- نص الرسالة الملكية السامية الصادرة بتاريخ 12 شتنبر 2000 التي أعلن فيها جلالته عن مجموعة من الإجراءات للتخفيف من آثار الجفاف

لذلك، أجد مرة أخرى إن للخطاب الملكي وظائف تتنوع بتنوع أغراض منشئيه وفق مشيئة الملك وتختلف سياقات تداوله، لتتنوع تبعاً لذلك أشكال الاستجابة له والآثار التي تحدثها بتنوع الجمهور الذي يستقبلها وينوع بدوره استجاباته.

رمزية الخطاب الملكي أنه يقدم لجمهور التلقي أدوات للجمهور تساعد على تطوير استجاباتهم أو تغييرها بما يحقق مصالحهم العامة وليس مصالح الميسطرين على الخطابات الجماهيرية أو المُسطين لخرائط العبث بخبث بالجماهير وسوقهم سوقاً دون تفكير.

فما هي محددات نزع سلطة اللغة من لغة تطوير الجمهور وضمان استجاباتهم؟

إذا كانت البلاغة تعبر عن مهارة إنتاج الكلام البليغ، وكان علم البلاغة هو العلم الذي يحدد هذه المهارات ويمرن على ممارستها، لتكون بذلك المادة البلاغية تمكن من وصف النصوص التي يرى البلاغيون أنها بليغة، فإن للجمهور بلاغته في التعبير والإجابة والإستجابة.

في هذا الصدد، أستحضر بعض ملامح المشروع البلاغي للمصري عماد عبد اللطيف القائم على "بلاغة المخاطب أو بلاغة الجمهور"، في إطار مشروع شامل حول تجديد الخطاب البلاغي العربي.

ويرى عماد عبد اللطيف أن المواطن العربي المعاصر يتعرض لأشكال وأنواع مختلفة من الخطابات العامة، يتباين منشؤها والوسائط المستخدمة في نقلها ووظائفها ومدى فاعليتها، حيث نجد الخطابات دينية جنباً إلى جنب مع السياسية وإعلامية؛ التي تمرر بوساطة وسائط مرئية (مثل الصحف أو الكتب أو اللقائات)، أو وسائط مسموعة (مثل شرائط الكاسيت والإذاعة)، أو وسائط مسموعة مرئية (مثل التلفزة والسينما والإنترنت).

ورغم تنوع وظائف هذه الخطابات بتنوع أغراض منشئها وسياقات تداولها وكذا تنوع أشكال الاستجابة لها والآثار التي تحدثها بتنوع الجمهور الذي يستقبلها. فإنها تشترك في سعيها للتأثير على الجماهير، وتركيزها على تقفي الطريقة الأكثر فعالية لضمان تفاعل الجمهور واستجابته، انطلاقاً من منهجية مخصصة لإنتاج الخطابات الجماهيرية وترويجها وضمان استهلاكها بجرعات زائدة وسحبها من سوق التداول بمجرد اهتلاكها، في إطار عملية اتصال يمثل الجمهور طرفاً فاعلاً فيها: فهو ليس طرفاً سلبياً في هذه العملية؛ وليس مجرد «مستقبل» لنص المتكلم.

فبالإضافة إلى قيام الجمهور بعملية إنتاج معنى نص الخطاب الملكي عن طريق التأويل والتفسير، فإنه يستطيع أن يُدخل تغييرات جوهرية على الرسالة ذاتها من خلال استجاباته لها؛ حيث إن الاستجابات الآنية لجمهور التلقي وردود أفعاله تؤثر في الطريقة التي يبني بها جلالته نصه ومجمل خطابه وعموم مدونته الخطابية والحوارية.

فإذا كان جمهور التلقي على علم بقدرة استجابته على تعديل نص المتن الخطابي للملك، وكان بمقدوره التمييز بين خطاب سلطوي يحاول السيطرة عليه وخطاب غير سلطوي يحاول تحريره، تأتت للجمهور المذكور سبل تطوير وتفعيل استجابات أو مقاومات للخطاب السلطوي.

والخطاب السلطوي ممارسة موجهة للمخاطب، وفيه بلاغة تشترك مع الخطابات الجماهيرية في طبيعة مستهلكها، ولكنها تخالفها في أهدافها وطبيعتها، فضلاً عن كونه ممارسة عبر-تخصصية، تستعين بالأنظمة الباترنالية واللغوية والسيميوطيقية والسياقية التي تعين على إنتاج الخطاب واستهلاكه، وتحويله إلى نشاط يشترك فيه أشخاص متعددون الاهتمامات والاختصاصات

(أكاديميون، سياسيون، إعلاميون، ناشطون اجتماعيون.. إلخ) على مستوى الصياغة والبناء أو على مستوى دراسة التأثير في الرأي العام وكذا الوسائط التي تضمن له قدرا من الجماهيرية، مع سبر مستويات التميز والتحيز التي تكفل الإنسياق وراء الخطاب السلطوي أو مقاومته.

بعد نقلي لموضوع الممارسة البلاغية من الأدب الرفيع إلى حقل الخطاب السياسي الرقيق في فصل سابق من هذه الأطروحة، أجدني الآن أعدُّ العدة لأعرج في هذا الفصل على بلاغة إنتاج جمهور التلقي للمعاني التي تحملها الإستجابات العفوية لدعوة الخطابات المولوية، وانسياق فئات عريضة وراء خطاب ملكي بديل له من قدرات البناء النصي ما يميزه عن باقي خطابات النسق السياسي المغربي. فطبيعة الإستجابات وأشكالها عند الانصات للخطاب الملكي أو عند الإستشهاد في برامج وتقارير صحفية أو حوارات بشذرات من خطاب الملك، أو تداول مقاطع فيديو لخطابات والده الملك الراحل الحين الثاني وهو يتحدث عن امتعاضه من تصريحات عرفات وتوعده من تسول له نفسه الحديث مرة أخرى عن القضية الفلسطينية أو حديثه عن "الأوباش"... كلها استجابات بلاغية تطفوا أو تخبوا وتستحق ان نفرّد لها فصولا ويدفعنا البحث فصولا.

فالاستجابات التي يُنتجها جمهور التلقي أثناء تلقيه للخطابات الجماهيرية التي تبثها وسائل الإعلام هي استجابات واعية ونوعية لخطاب السلطة، الذي يتضمن أدوات للجمهور تساعد على تطويع استجاباتهم أو تغييرها بما يحقق المصلحة العامة، دون رغبة في السيطرة أو الإستيلاء أو التعبئة السياسية لتحقيق مآرب انتخابية ضيقة.

ويورد جلالة الملك في العديد من خطابه ما ينزهه دعواته عن السلطوية ويوطنها في خانة الأبوية التي كرسها فيها المحور الأول للمتن الدستوري للملكية المواطنة والملك المواطن، ابتداء من فصل مستقل يتعلق بالصلاحيات الدينية الحصرية للملك، أمير المؤمنين، رئيس المجلس العلمي الأعلى، الذي تم الارتقاء به إلى مؤسسة دستورية، فضلا عن فصل آخر يحدد مكانة الملك كرئيس للدولة، وممثلها الأسمى، ورمز وحدة الأمة، والضامن لدوام الدولة واستمرارها، وللاستقلال المملكة وسيادتها، ووحدتها الترابية، والموجه الأمين والحكم الأسمى، المؤتمن على الخيار الديمقراطي، وعلى حسن سير المؤسسات الدستورية، والذي يعلو فوق كل انتماء، والذي ويمارس مهامه السيادية والضمانية والتحكيمية، الواردة في هذا الفصل، استنادا إلى مقتضيات فصول أخرى. فلما قال جلالتة، بعد توطئة حاجية حول حاجة كل وثيقة دستورية للتجديد والتعديل والتفتيح لأن أي دستور مهما بلغ من الكمال يتطلب تعديلا وإصلاحا وتأهيلا، "ومن هذا المنطلق، فإن خديمك الأول، عندما سيقوم بواجبه الوطني، بالتصويت بقول نعم لمشروع الدستور الجديد، المعروض على الاستفتاء الشعبي، إنما لاقتناعي الراسخ بأن مشروع هذا الدستور يعتمد كل المؤسسات والمبادئ الديمقراطية والتنمية، وآليات الحكامة الجيدة، ولأنه يصون كرامة كل المغاربة وحقوقهم"، ويكررها بعدئذ "سأقول نعم لهذا المشروع، لاقتناعي بأنه بجوهره سيعطي دفعة قوية، لإيجاد حل نهائي للقضية العادلة لمغربية صحرائنا"، فقد جعل من هاتين الشذرتين الخطابيتين الإيحائيتين أهم مرحلة من مراحل خطابه ومناطق تواصله مع عموم الشعب الذي لن يفهم بالضرورة كل ما جاء في باقي فقرات الخطاب لتقنية مصطلحاتها ("قوة تقويمية واقتراحية لترسيخ الحكامة الأمنية الجيدة"، "ترسيخ مبادئ وآليات الحكامة الجيدة، مغرب يقوم على لامركزية واسعة"، "دستور قائم على هندسة جديدة"، "همت كل أبوابه، من الديباجة، كجزء لا يتجزأ من الدستور"، "يمارس الملك مهامه السيادية والضمانية والتحكيمية"، "دسترة الأمازيغية كلغة رسمية أيضا"، "النهوض بكافة التعبيرات اللغوية والثقافية المغربية، وفي مقدمتها الحسانية"، "الانبثاق الديمقراطي للسلطة التنفيذية، بقيادة رئيس الحكومة"، "تخفيض النصاب القانوني لتقديم ملتمس الرقابة، وتكوين لجان التقصي"، "تحويل المحكمة الدستورية صلاحية البت في دفعات المتقاضين بعدم دستورية قانون"، "العمل البناء للآلية السياسية"، "يتولى قانون تنظيمي تحديد اختصاصات الدولة والجهات، ودسترة مجلس المنافسة"...).

فدسترة قد تختلط عند العوام ببسترة منتوج دستوري لتحصيله من الشوائب التي طبعت ممارسة الرقابة على شروط المنافسة !

وفي موقف جلالته موقف أبوي في نظام باترنالي في علاقته بشعبه، بموجب وصية المغفور له محمد الخامس في تنصيب الملك الحسن الثاني قيد حياته وليا لعهد المملكة (" فاحرص يا ولدي على تتميم رسالة أسلافك والمحافظة على الأمانة التي من أجلها دعوا إلى الملك وتبوأوا أريكة السلطان، وكن من الشعب وإلى الشعب يسعك ما يسعه ويضيق عنك ما يضيق عنه، ولا تبخل عليه براحة ولا تضن عليه بمجهود، وأثره على قرابتك الوشيحة وبطانتك المقربة، فإنه أسرتك الكبرى، وعشيرتك العظمى").

ويمكن أن الحديث هنا عن الإحياء بدل السلطة والسفوسة وباقي القيم السلبية التي ارتبطت بمسار تشكل البلاغة على مدار قرون عديدة، خاصة في النشق البلاغي الغربي حيث كانت البلاغة أداة تمكن من يتقن استخدامها من السيطرة على الآخرين وتسخيرهم: فقد درسنا أن "جورجياس" كأحد أحد أشهر معلمي البلاغة في تاريخ اليونان القديمة، كان من أولئك الذين يعرفون كيف يتكلمون، ويُقنعون الجماهير ويتمكنون من تسخيرهم لخدمتهم، ويمكنهم بسهولة سلب الجماهير ما يمتلكونه بسحر الكلمة وطلاوة الكلام وحلاوة الضيغ البلاغية.

لكني بالمقابل، يمكن أن أقر بأن العديد من التصورات والتقنيات البلاغية التي قدمتها البلاغة القديمة ما تزال مستخدمة، مع اختلاف في الفاعل، حيث لم تعد مهمة إخضاع الناس لإرادة الخطيب تمهيدا لاستغلالهم بيد الخطيب وحده، بل أصبحت توكل إلى طائفة من محترفي صوغ الكلام والمتخصصين في التواصل الجماهيري وفي تسويق المنتج الخطابي وترويجه (بعد تجربة حتى في حقل الإشهار)، ومختصين في تحرير الخطاب وإنتاجه، وجرعات استهلاكه الخطابي، وأخصائيي التضليل، وخبراء الدعاية، والأقلام المأجورة، والمتحدثين بالوكالة الذين لا يرومون إخضاع جمهور التلقي لحسابهم، وإنما لفائدة من يعملون لحسابهم، أو لصياغة بلاغة مضادة لبلاغة الجمهور وباقي فاعلي الحقل الخطابي.

فالبلاغة التي تعينني وتغنيني لأنها تُعينني على فهم سياقات الانسياق والاستجابة الجماهيرية هي بلاغة تتجاوز الواجهة والوجوه البلاغية لصوغ وتنميق الخطاب إلى ممارسة مُوجَّهة للخطاب وموجهة للمخاطب ومواجهة لباقي الجهات التي تملك سلطة التأثير بخطابها على نفس الفئات الجماهيرية المستهدفة. كما أن البلاغة الملكية التي أنا بصدها وأردتها محورا وعنوانا فرعيا لأطروحتي، تشترك مع الخطابات الجماهيرية في طبيعة مستهلكها، ولكنها تخالفها في أهدافها وطبيعتها، لأنها ممارسة عبر-تخصصية تتجاوز الطابع المدرسي للأنظمة اللغوية والسيميوطيقية المكونة للخطابات الجماهيرية لتعانق السياقات الاجتماعية التي تُنتج وتُستهلك فيها هذه الخطابات، ويشترك في استهلاكها ونشرها وفسر سطوتها الإقناعية قبل الإبداعية من شغفتهم من ذوى الاهتمامات والاختصاصات (أكاديميون، سياسيون، إعلاميون، ناشطون اجتماعيون...)، وشكلوا أول متلقي إيجابي للخطاب ونثر مضامينه وشذراته في أوساط جمهوره الخاص (طلبتة، جمهور قراء عموده أو مقاله الإفتتاحي، مناضلي حزبه، لائحة معارفه على شبكات التواصل الاجتماعي...).

فبلاغة هذا الجمهور الوسيط تشتغل وفق خطاطة تعكس بلاغة الخطاب المولوي ولا

تعاكسه¹

¹ - إلا فيما نذر، من خلال بعض الخطابات المنافسة للحقل الملكي والتي تحاول إلغاء فعالية أدوات التأثير والبلاغة المولوية واعتبارها بلاغة سلطوية ووصاية باترنالية على باقي المؤسسات الدستورية.

❖ ثامنا- ملكات الملك في ضمان استملاك جماهيري لخطاب التأثير والتأطير والتغيير

يتمتع الخطاب الملكي بفعالية وقوة استراتيجية تستمد من منزلة المؤسسة الملكية وقدرتها على الفعل والتفاعل مع واقع عموم المغاربة والتوفيق بين المصالح المتضاربة (مصالح الباطرونا مثلا في مواجهة الملفات المطلوبة للشغيلة مثلا، أو حقوق المرأة في مقابل واجباتها اتجاه الرجل) في الوقت الذي يعجز فيه الخطاب الحزبي أو السياسي عن تحقيق هذا التوازن في الموقف أو حتى على مستوى الخطاب.

لهذا، يمكن ان أفهم محورية الدور التحكيمي للمؤسسة الملكية في عدد من المحطات والملفات التي كانت على ساحة الطرح الخطابي العمومي، بين مُطارحٍ للغرام ومُناصِبٍ للعداء، بين مؤكد ومفند، بين متزمت ومعتدل مُجدد.

ويروم الخطاب الملكي إيصال الافكار التي يؤمن بها جلالته الى أذهان جمهور التلقي ليؤمن لها في نفس الوقت سبل التنفيذ والتجسيد.

ويمكن اعتبار الخطاب الملكي (الذي لا يمكن أن يحنط ضمن أي من التصنيفات العامة للخطاب بين سياسي، وعسكري، وديني، واجتماعي، وقضائي وحتى الخطاب الإحتفالي) أحد أهم وسائل الاتصال مع الشعب حول قضايا هذا الاخير والقضايا التي تهم مستقبل وطنه وترهنه، والرهان الوحيد لإطلاع عموم الشعب على ما يجري ويدور وتسليط دائرة النور على تصورات ملكية لحل إشكالات آنية ورهانات مستقبلية، فضلا عن خصائصها الذاتية والصوغية والإستراتيجية التي تجعل منها خطابات بليغة وبالغة السطوة والتأثير في أوساط الجماهير.

لتنفيذ لمكان السطوة التي يتميز بها الخطاب الملكي والحظوة المُحايدة له والمستمدة أساسا من منزلة العاهل-الفاعل، يمكنني أن أسلك في محطة أولى مسلك توضيح معنى الخطاب السياسي عموما وفاعليته وتوضيح ما يعلنه ويضمّره من مصادر إمداد للخطاب الملكي تخصيصا بالقوة الرمزية والفعالية من خلال الحديث عن خطاب السلطة وسلطة الخطاب، قبل ان أعرج في مرحلة ثالثة على فاعلية مستويات التأثير التي يمتلكها الخطاب الملكي، وسياقات إعداد الخطاب لخلق الإستعداد في صفوف جمهور التلقي، قبل الحديث عن مؤشرات تفاعل جمهور التلقي وتأثره وانقياده السلس وراء خارطة الطريق التي تحملها كل فقرة من فقرات الخطاب.

أ- عناصر القوة النصية الذاتية للخطاب الملكي

يحوز الخطاب الملكي في ذهن عامة الشعب المغربي وخاصة قوة مؤثرة تستمد من فعاليته في تفعيل ما يرد في فقراته من مضامين، ومستوى تفاعل تلك المضامين مع المطالبية الشعبية بعيدا عن سياقات الشعبوية التي يلمحها في الخطاب السياسي (الحزبي أو النقابي).

كما يرى جمهور التلقي من عموم شعبه (وهنا لابد ان أشير إلا أنني ارى من نفس المنظار كواحد من عموم رعايا صاحب الجلالة ومواطني هذا الوطن) أن فاعلية خطابات الملك تقوم على قدرة هذا الاخير كقيادة سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية وحقوقية على صوغ الأهداف والقرارات وتوجيه السياسة العامة والسياسة التشريعية على نحو يجعلها تحوز مستويات مقبولة وإقبال لا تتحقق لغيره من خطابات النسق الخطابي السياسي.

ويأتي الخطاب الملكي في الفترات الثابتة لتوجيهه أو كلما استشعر صاحب الجلالة من خلال بارومتر الإحتقان الاجتماعي أو مؤشرات تتبع الوضع العام لشعبه حاجة إلى التواصل مع شعبه، للإقناع فيهم بصواب قضية وضمان الاستمالة أو لحث من مال كل الميل على الإقلاع عن توجه يجانب الصواب اعتمادا على القوة التأثيرية والتغييرية للخطاب.

فالمواقف في أطلس التوثيق الخطابي تفيد بأن الخطابات الملكية شكلت ساحة للخطابة المولوية بامتياز وبامتزاج بين خطابة جلالته والنسق الخطابي لباقي خطباء الحقل السياسي، شركاء كانوا أم فرقاء).

وللخطاب طرق للتحصيل وعوامل للرقى، فمن طرق تحصيله: الموهبة والاستعداد الفطري، دراسة اصول الخطابة وبناء الخطاب وحفظ كلام البلغاء وحفظ الكثير من الألفظ والأساليب، وكثرة الاطلاع على العلوم المختلفة، والتدريب والممارسة.

بعيدا عن الخوض في تناول الباحثون في العلوم السياسية والاستراتيجيات العامة لمفاهيم الخطاب السياسي، وما ذهبوا إليه من تصنيفات لا يمكن أن تنسحب على الخطاب الملكي، يمكن القول أن نقول مبدئيا أن تصنيفنا يمكن أن يكون منصفا إذا لم تقتصر على رؤية المتن الخطابي من زاويتين فقط (الخطاب الذي صَاحَبَ الملك أم الملك صَاحِبُ الخطاب)، ونظرنا إليه على أنه:

- جزء من مهارات شخصية سياسية اكتسبته شخصا بالمراس في دواليب المدرسة الخطابية لوالده الملك الراحل الحسن الثاني وملازمته له؛
- تمثيل لفعالية قناة وأداة اتصالية ل بين الملك وشعبه وبانتقائه ينتفي الإتصال وتراجع حظوظ التأثير والتأثر ومستويات المشاركة الكلامية حول المشترك بين الملك وشعبه؛
- تعبير عما يعتل في خلد القائد الملهم اتجاه قضايا وطنه وشعبه،
- تعبير عن ظروف مرحلة من المراحل التي يمر بها المغرب وعما سيتطلبه الأمر من تهبيء ذهني مسبق لجمهور التلقي للإستعداد لوضع معين أو للإعداد لإستحقاق ما ("وعلى الأمد المنظور، وفي أفق الاستحقاقات الانتخابية المقبلة، نود التوجه إلى كل الأطراف الفاعلة في الممارسة الديمقراطية، من هيئة ناخبة، وأحزاب سياسية، وسلطات عمومية، برسائل واضحة: فللمواطنين أقول: إن المواطنة المسؤولة تستوجب المشاركة الإيجابية، في كل مجالات الحياة الوطنية. فالمطلوب منكم ليس مجرد الإدلاء بأصواتكم فقط، ولا النظر إلى السياسة على أنها لحظة اقتراع، أو مسألة احترام حزبي، تحتكره الطبقة السياسية وحدها. بل المطلوب هو الانخراط القوي والمستمر في العمل السياسي الملتزم، على كل مستوياته الديمقراطية، وأوراشه التنموية").

- بلورة مستوى صياغة يتجاوز اللغة الموصوفة على اللغة الوصفة والحاملة لفكر تدبيري واستراتيجيات تؤثر في باقي صناعات القرار وفي القواعد الجماهيرية؛
- ترجمة لمستويات حذق ومهارة في الإبلاغ والإقناع عبر استخدام لغة خطابية تخطب الود وتؤثر في الأذهان وتسيطر على جميع أشكال الذهان السياسي والاجتماعي والديني من خلال مجموعة من الإشارات والإيماءات والرموز التي تؤثر تلقائيا في عقول جمهور التلقي وتقطع عنهم باقي مصادر التأثير التي لا تتقاطع مع الرؤية الملكية أو المؤسساتية؛
- تسطير لنسق فكري واحد وموحد لباقي الأنساق، يقوم على حث عموم فاعلي النسق وعموم المواطنين على تتبعه بسبب طابعه المنطقي على مستوى تسلسل وتتابع الأفكار وترتيبها؛

- رسالة مُعلّنة ومُعلّنة عن تصور رسمي أو موجهة للتصور التشريعي أو الإقتصادي أو الاجتماعي (دون الديني الذي تختص به دائما إمارة المؤمنين) الرسمي للمملكة، على أساس أن تقوم المؤسسات والقطاعات المعنية ببلورتها؛
- ذو وثوقية ووثيقة سامية بمضامين مُلزِمة لباقي فاعلي المملكة، لأنه جاء في إطار إفصاح جلالته عن رؤيته وتصوره، وكل مُعلن في خطاب سامي يكتسي سمة الإلزام وفق جدول زمني للإلتزام بتلك الإلتزامات التي قطعها جلالة الملك على نفسه وأشهد عليها عموم شعبه، تحت طائلة ضرب محتمل لمصادقية المؤسسة في حال أخلف أحد المسؤولين العهد ونكث الوعد؛
- وثيقة متعددة الأوجه (خطب، رسائل، حوارات، بلاغات، ظهائر...) تتضمن رؤى واطروحات ومسوغات تقدمها المؤسسة الملكية لجمهور التلقي داخليا وخارجيا، وإعلان نوايا ومشاريع وخوضا في العديد من القضايا الوطنية الدولية تعلن خلالها وإسهاما بآراء استشارية وأخرى ملزمة للشعب والحكومة أو للمجتمع الدولي (خاصة بالنسبة للتقارير والخطابات التي يرفعها جلالته بصفته رئيسا للجنة القدس الشريف).

ب- محددات القوى الاستراتيجية التأثيرية للخطابات الملكية

- تحدد القوة الإستراتيجية التأثيرية للخطاب الملكي قياسا بمستوى سطوته الرمزية والفعالية على باقي القوى السياسية والدينية والضاغطة وطنيا ودوليا وما يصدر عن هذه القوى من خطابات.
- هذا الوقع لا يأتى للخطاب الملكي إلا من خلال عناصر قوة يستقيها من مستوى دقته وتدقيقه في كل صغيرة وكبيرة ومستويات الدلالة والجزالة.
- وعليه، يمكن القول أن مسار تحري الدقة عند التحرير يقتضي:

- تحديد هدف الخطاب السياسي والفكرة أو القناعة التي يجب حقنها حقنا لتفرق السبل بالخطاب والوقوع في "التيه التيمي"، مع مراعاة توزيع تشظياتها في باقي فقرات الخطاب أو الرسالة؛
- دعم الفكرة بوسائل الإقناع التي يمكن تنويعها مراعاة لتنوع مستويات الفهم والتفهم وتفاوت مؤشرات قبول كل فئة من فئات جمهور التلقي (فهناك من يقتنع بالشاهد الديني دون غيره، وهناك من لا يقتنع إلا بلغة الأرقام، ويقتضي الجانب الإقناعي تجميع المعطيات وجمع البيانات وخلاصات التقارير التي رفعتها اللجان الإستشارية والهيئات الدولية لدعم الفكرة التي يسوقها الخطاب الملكي أو يسوقها بشكل ما)؛

- تحرير مسودة خطاب أو رسالة في إطار ورش كتابة أولية، قبل عرضها للتعديل وتغيير مستويات التعليل ومراعاة الحفاظ على التسلسل المؤثر والحجاج المتواتر؛
- التدريب على الإلقاء واستخدام الاشارات والرموز والدلالات التي تدعم متن الخطاب.

فإذا كانت المستويات القوى الاستراتيجية التي يوفرها الخطاب السياسي الفعال يتوفر بعضها أو كلها في الخطابات السياسية أو الإقناعية الأخرى عموما التي تروم بدورها الإبلاغ والإقناع وكسب الثقة، فإن الخطاب الملكي يزيد عليها ويزيد عليها في بورصة التداول الخطابي بنقله وجهة النظر الاستراتيجية إلى الجمهور، ويكتفي بالوقوف عند عتبة التأصيل لفكر مولوي تدبيري أصيل، ولا يدخل البتة في التفاصيل.

كما أن مهام الإبلاغ في الرسالة والخطاب الملكيين لا تقف عند مستوى قطاعي أو توجه حزبي أو إيديولوجي، بل تتعامل بمنطق الدولة ومنطق القيادة العليا ورئاسة أركان الحرب العامة للقوات المسلحة الملكية أو إمارة المؤمنين.

لذلك لا أجد في الخطاب الملكي تعيينا لحزب بعينه أو لوغو أو شعار، بقدر ما أجد شعارا معلنا للوطن ولتوابثه التي وردت في تصدير دستور 2011 كما يلي "إن المملكة المغربية، وفاء لاختيارها الذي لا رجعة فيه، في بناء دولة ديمقراطية يسودها الحق والقانون، تواصل إقامة مؤسسات دولة حديثة، مركّزاتها المشاركة والتعددية والحكمة الجيدة، وإرساء دعائم مجتمع متضامن، يتمتع فيه الجميع بالأمن والحرية والكرامة والمساواة، وتكافؤ الفرص، والعدالة الاجتماعية، ومقومات العيش الكريم، في نطاق التلازم بين حقوق وواجبات المواطنة. المملكة المغربية دولة إسلامية ذات سيادة كاملة، منشئة بوحدتها الوطنية والترايبية، وبصيانة تلاحم مقومات هويتها الوطنية، الموحدة بانصهار كل مكوناتها، العربية الإسلامية، والأمازيغية، والصحراوية الحسانية، والغنية بروافدها الأفريقية والأندلسية والعبرية والمتوسطية... وتأسيسا على هذه القيم والمبادئ الثابتة، وعلى إرادتها القوية في ترسيخ روابط الإخاء والصدقة والتعاون والتضامن والشراكة البناءة، وتحقيق التقدم المشترك، فإن المملكة المغربية، الدولة الموحدة، ذات السيادة الكاملة، المنتمية إلى المغرب الكبير، تؤكد وتلتزم بما يلي: ... حظر ومكافحة كل أشكال التمييز، بسبب الجنس أو اللون أو المعتقد أو الثقافة أو الانتماء الاجتماعي أو الجهوي أو اللغة أو الإعاقة أو أي وضع شخصي، مهما كان".

لذلك، يمكن بسهولة فهم سر الخرجة الخطابية للملك محمد السادس لما تم الزج بصفته في الصراع الانتخابي، فحدّر مختلف الفاعلين- مرشحين وأحزابا- من استخدام صفة وإسم ملك هو في الأساس ملك جميع المغاربة في أي صراعات انتخابية أو حزبية.

كما وقف جلالته على نفس المسافة من جميع أعضاء الأسرة في مدونة الأسرة، ذكورا ونساء، ولم ينزلق نحو موقف لحسم الصراع الذي سبق اعتماد الصيغة النهائية لمدونة الأسرة، حين أصر جلالته على "عدم اعتبار المدونة قانونا للمرأة وحدها، بل مدونة للأسرة، أبا وأما وأطفالا، والحرص على أن تجمع بين رفع الحيف عن النساء، وحماية حقوق الأطفال، وصيانة كرامة الرجل"، متوجها بالسؤال لعموم المغاربة "فهل يرضى أحكم بتشريد أسرته وزوجته وأبنائه في الشارع، أو بالتعسف على ابنته أو أخته؟ وبصفتنا ملكا لكل المغاربة، فإننا لا نشرع لفئة أو جهة معينة، وإنما نجسد الإرادة العامة للأمة، التي نعتبرها أسرتنا الكبرى".

كما حرص جلالته على تصحيح الصفة التي لازمته خلال السنوات الأولى لتوليهِ العرش حين أجاب في معرض حديث صحفي خص به أسبوعية "باري ماتش" الفرنسية، عن سؤال "عندما نتحدث عن "محمد السادس ملك الفقراء"، هل يعني هذا أن ذلك ما زال صحيحا؟" بالقول: "إنني أفضل بالأحرى أن أقول إنني ملك جميع المغاربة.. الفقراء منهم والأغنياء".

ويمكن اعتبار تحري الدقة قبل التحرير من أهم ما جعل جلالته الملك وخطاباته فوق مستوى الملل والنحل وتتجاوز خرائط العبث والتخندق وراء مرجعية معينة أو التحيز لجهة ما، حتى على مستوى الحيز الخطابية.

وقد عكست خاصية الثبات الخطابية في كثير من المحطات ثبات الموقف، وجعلت المؤسسة الملكية بمنأى عن تغيرات المزاج الشعبي ومن ورائه مزاج الساسة.

كما ان قنوات التمرير الخطابي التي تخصص للخطاب الملكي تكفل له معانقة أكبر وأشجع طبقة من جمهور التلقي بطريقة فعالة وجذابة تساعدهم على فهمها في المقام الأول، خاصة في ذروة أوقات المشاهدة.

1. استخدام التاريخ والتعبيرات المألوفة: يعد استخدام الحجاج التاريخي أحد أبرز التقنيات المعتمدة لتوضيح الأفكار المحورية في سياق ثقافة مجتمع يحبذ الحكي والمأثور، ويحمل قيم الآباء والاجداد وعطيقا قيمة ترتبط بعهود الإباء.

لذلك، نجد في أغلب الخطابات والرسائل الملكية حرصا على توظيف شذرات وشواهد من التاريخ تحصيلًا لما سبق ذكره من فوائد وضمان إذعان الأجيال الحالية وليحتص حنين من عاش المرحلة: فالتاريخ يكون أكثر مقبولة واستساغة ويوظف في سياق يفهمه المستمعون، ويدعم الربط بين الماضي -وخاصة القريب- والحاضر والمستقبل احتمالات الارتباط بالخطاب وصاحب الخطاب لتوكنها على الواقعية في رصد وقائع مضت وربطها بواقع حالي تأسيسا لرؤية مستقبلية وكسب فاعلية مواصلة التواصل مع جمهور التلقي.

كما لا يتصيد الخطاب الملكي الغريب أو غير المتداول من الألفاظ: فلم نسمع يوما في الخطاب الملكي "الطابور الخامس، أو الطغمة، أو النظام العاض (فمثلا، سبق لوزير تم إعفائه من مهمة على رأس وزارة الشباب والرياضة أن صرح تحت قبة مجلس المستشارين بوجود "طابور خامس، يعمل ضد المغرب، وهاد الناس قالو باللي الوزير منع علي الفاسي الفهري من الترشح، وحرضو الشركات اللي كيتعاملو معنا في تنظيم كأس العالم للأندية البطلة.. وملي علن الرئيس عدم ترشحه وقع صابوطاج، وملي وصلات رسالة الفيفا حرقة السيرفور ديال الجامعة، وشكون هاد الوزير محمد أوزين اللي بغا يديرو ليه هاد الشي؟ يمشي للجحيم غير يبقى المغرب".

وللدلالة على التموه والتشويش، استدعى الوزير الأسبق للشباب الرياضة كلمة مبهمة تحيل على سياق غير السياق الذي وردت فيه وخلال فترة الحرب الأهلية الإسبانية: فالطابور الخامس مجموعة من الناس تعمل غالبًا على محاولة محاصرة مدينة من الداخل، خدمة لأجندة العدو، وتقوم في بعض الأحيان هذه القوات السرية بمحاولة حشد الناس علنًا لمساعدة هجوم خارجي. وقد تتوزع أنشطة الطابور الخامس بين السر والعلن. كما يمكن لأنشطة الطابور الخامس السرية أن تنطوي على أعمال تخريب وتضليل وتجسس يُنفذها مؤيدو القوة الخارجية ضمن خطوط الدفاع بكل سرية.

2. استخدام عبارات وصفية كوسيلة تعبيرية مساعدة: من خلال الاستخدام المتميز للكلمات الوصفية. فخطاب صاحب الجلالة لا يتضمن استعانة بوسائل بصرية مساعدة (مثل الشرائح البصرية أو العروض التقديمية الإلكترونية)، ويقتضي غياب تلك الصور تصوير الامر بالألفاظ بدل تصويره بعدسة الكاميرا أو بالريشة ولكن بالنسبة لبعض المتحدثين يمثل نقص الوسائل البصرية عائقا كبيرا.

لا أن الخطباء المفوهون يجيدون اختيار الكلمات الوصفية بدلا من الادوات البصرية المساعدة فهم يرسمون اللوحات بالكلمات ذات الحيوية ويعبرون عن أفكارهم بالكلمات التي تستحضر إلى الذهن صورا ثرية.

فعندما يتم اختيار اللغة الثرية والتصويرية بعناية يمكنها ان تحدث في المستمع تأثيرا مساويا للتأثير الذي تحدثه الوسائل البصرية المساعدة: فبالكلمات الوصفية سيتمكن المستمع من استقبال الموضوعات والأفكار بطريقة عقلية لا تُنسى.

3. استخدام النتائج المنطقية: من بين الأساليب ذات الصلة بقوة الخطاب الملكي، نجد اختيار الكلمات ذات المعاني الثرية بالنتائج المنطقية، وهذه إشارة دالة على صدق ومصادقية الخطاب الملكي، لأن شعب القرن الواحد والعشرين أتاحت له قنوات أخرى للمعرفة والفهم، فضلا عن كون التصريح بالحقائق المعلومة للجمهور جزءا من نجاح الخطابات الملكية.

4. إعطاء التفاصيل الكاملة فقط: فالخطابات التي تتمحور حول قضية معينة تلاقي قبولا عند الحديث عن تفاصيلها الكاملة فقط دون الخروج إلى التفاصيل الجانبية، وهو ما يعطي تركيزا أوسع حول نقاط الوصول الفعالة إلى حلول الأزمات واستراتيجيات تحقيق الأهداف. وعليه، فإن "تفاصيل الرسالة دون الخروج عن محدداتها الرئيسية تعطي انطبعا بان الأهداف واضحة في أذهان القادة مما يسهل تطبيقها عند الجمهور"¹.

5. قوة الإقناع: ففوة الخطاب الملكي أسوة بأي خطاب سياسي تتوقف على قدرته على إحداث تواصل ناجح مع المتلقي، وهذا لا يتحقق إلا إذا حاز هذا الخطاب على قدر من الرضا الجماهيري من خلال الإقناع والمُحاجة، إذ يصف الخطاب بمفاهيمه اللغوية واقعا وسياقا معينا.

وهناك عناصر محددة متفق عليها ومن خلالها يمكننا أن نحكم ما إذا كان استعمال هذا الخطاب لمفاهيمه يحقق نوعا من التواصل أم لا، إذ يتأسس بالضرورة في كل خطاب بمضامين إقناعية على معنى معين أو عدة معاني أريد لها أن تصل إلى جمهور المتلقي.

ويعد الإقناع محور القيادة الفعالة، إذ يعرفه لين بأنه "فن التأثير على شخص ما لجعله يقوم بعمل معين عن طريق النصح والتحفيز والتشجيع"²: فالخطاب الملكي يعتمد قوة الإقناع كنوع من القدرة على نقل المعلومات التي تجعل جمهور المتلقي يقتنع ويوافق على رؤية معينة، والهدف من ذلك هو الحصول على كلمة "نعم" أو حتى طرفة عين تدل على موافقة المستمع على ما يتضمنه الخطاب أو تدل على أن المستمع أصبح ينتهج نهج صاحب الخطاب أو يسير على خطاه، بنفس حضور انتظار الإجابة والإستجابة للخطاب الملكي من خلال نموذج لشذرة خطابية قال فيها جلالتة "ومن هذا المنطلق، فإن خديكم الأول، عندما سيقوم بواجبه الوطني، بالتصويت بقول نعم لمشروع الدستور الجديد، المعروض على الاستفتاء الشعبي، إنما لاقتناعي الراسخ بأن مشروع هذا الدستور يعتمد كل المؤسسات والمبادئ الديمقراطية والتنمية، وآليات الحكامة الجيدة، ولأنه يصون كرامة كل المغاربة وحقوقهم، في إطار المساواة وسمو القانون... أجل، سأقول نعم لهذا المشروع، لاقتناعي بأنه بجوهره سيعطي دفعة قوية، لإيجاد حل نهائي للقضية العادلة لمغربية صحرائنا"³.

في سياق العلاقات الشخصية، أستشهد ببيتين لشاعر⁴ في بيان إشارة العين على الرضا، سبق أن وظفتها في عرض لي حول لغة العيون ولغة الإشارة:

أشارت بطرف العين خيفة أهلها	إشارة محزون ولم تتكلم
فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبا	وأهلا وسهلا بالحبیب المقيم

1

²- حمادة الهندي، الخطاب المصري في مواجهة ظاهرة الإرهاب - تحليل سوسيولوجي للخطاب الثقافي والسياسي للفترة 1995-2005، مكتبة النجاح، القاهرة، 2008، ص. 22

³- من نص الخطاب السامي الذي وجهه صاحب الجلالة الملك محمد السادس إلى الأمة حول مشروع الدستور الجديد

⁴- يزيد بن معاوية في قصيدته "خذو بدمي ذات الوشاح فإنني"

فالإقناع هنا حالة من الإيمان المطلق بصحة وجهة نظر جلالته، مع توفيق جلالته في حيازة درجة عالية من اليقين بفكرة موجودة وبفكر مولوي متجدد: لذلك فإن هذه القوة تُعد أحد أهم الركائز التي تركز عليها السلطة السياسية في جميع المجتمعات ويعد الخطاب السياسي أهم المنافذ للوصول إلى إقناع المواطنين بفكرة معينة، فتزداد الحاجة إلى قوة القناع كلما مرت الدولة بأزمات اقتصادية وسياسية كما كان الحال عليه إبان الربيع العربي، فكان لهذه القوة قابلية على جذب القوى الأخرى التي تتقاسم مع الحقل الملكي سلطة تسطير السياسات العمومية والاسيطرة على الرأي العام وكبح جموحه وجنوحه.

6. كسب الثقة: حيث تكمن قوة الخطاب الملكي والزعامة السياسية للملك وشعبيته في ثقة الناس أولاً برجاحة العقل السياسي الملكي، وقدرته القيادية ومن إيمان الشعب بأنه للزعامة أهل. وعليه، فإن من المهام التي تقع على عاتقه مهمة لتوضيح مدى كاريذية الملك، الذي لا ينتمي إلى الفئة التي تتسم خطاباتها بالرتابة والتأؤب، بل بالتوثب الخطابى عبر الصيغ المفهومة وغير المهممة، البعيدة عن الشعور الفاتر الذي يحيل على خطاب يكتب على الدفاتر.

7. نقل وجهة النظر الإستراتيجية لجلالته إلى عموم الجماهير: فالقدرة على نقل وجهة النظر السياسية للجماهير هي تعبير عن إتقان جلالته لنقل أهدافه وحمل الشعب من حال إلى حال، انطلاقاً من طريقة الإبلاغ والتأثير والإقناع والتحفيز والتوجيه.

وثمة أساليب عديدة تجعل الخطاب الملكي أكثر جرأة وأجرأة، منها:

أ - **الأولويات والتركيز على الأهداف الرئيسية،** بعد فهم الهدف الرئيسي للخطاب ووضعه نصب عين جمهور التلقي، مع إطلاع جلالته لهم على الحقائق إما بغرض الإخبار أو الحث على فعل شئ ما، أو التأثير أو حتى تكسير بعض الطابوهات، مع التركيز على الأولويات كعوامل تساعد على ترتيب أفكار جلالته وموضوعاته وتيسير إيصالها إلى شعبه، باستخدام طريقتين للتعبير الخطابى عنها؛

ب - **استخدام الأسئلة البيانية:** وترمز إلى الاستخدام الدقيق للمعلومات الرئيسية التي يريد جلالته نقلها، فلا تحتاج الأسئلة البيانية إلى إجابة من قبل جمهور التلقي؛

ت - **استخدام أسلوب التكرار:** كسمة مميزة للخطاب الملكي المعتمد أحيانا على الإعادة، من خلال **التكرار الأولي** ("إن وضع رؤية جديدة أمر مستحسن، و وضع رؤية للتنفيذ أمر ضروري، أما وضع رؤية للخروج من الوضع الحالي في على قدر هام من المحورية في سياق ما يعيشه مغربنا في محيط إقليمي ودولي متوتر"؛ "ما الذي نريده؟ ما الذي نأمله؟ ما الذي نسعى إليه؟")، أو **التكرار النهائي** ("عندما يتقدم المواطن إلى الإدارة، ويطلب كمواطن بخدمات مرفقية، فإن حقوق المواطنة تقتضي مواطنة ملتزمة، وممارسة لا محيد عنها، لحسن تدبير الشأن العام، ولا سيما المحلي منه، ولا يمكن تحصينها إلا بترسيخ ثقافة المواطنة المنوط بالأحزاب السياسية، وهيئات المجتمع المدني، وبتحسين الأحوال المعيشية للمواطن، حتى يلمسها في واقعه اليومي. لذلك أحدثنا نظاما جديدا لإدارة المدن يكرس مبدأ وحدة المدينة المسيرة من قبل مجلس المدينة الذي يمارس كافة المسؤوليات البلدية وإلى جانبه مجالس للمقاطعات كوحدات فرعية غير متمتعة بالشخصية المعنوية والاستقلال المالي مكلفة بتدبير الشؤون التي تتطلب القرب... فإننا نولي بالغ اهتمامنا للمسؤولية التي تتحملون أعباءها بصفتم ممثلين للمواطنين ترعون مصالحهم وتعبرون عن مطامحهم")، أو **التكرار الأوسط** أو **التكرار الالتفافي** ("فالسباسة...") هي فن الممكن بين الحاجيات والإمكانات، والتوعية الدائمة للشعب، والعمل التنموي الميداني، الكفيل بإيجاد حلول ملموسة لمعادلتها الصعبة. فالفرق بين الواقع والأمل، هو العمل، ثم العمل، ثم العمل¹.

¹ - من نص خطاب صاحب الجلالة بمناسبة افتتاح السنة التشريعية 2007-2008

ب- الإستراتيجية الخطابية للترافع والترفع عن التدافع

تنفيذية الخطاب داخل الكتابة تكون الأكبر مثالية، الخطاب وحده، وليس اللغة، يتوجه إلى شخص ما، هنا يكمن أساس الاتصال، خاصة وأن الخطاب غير موجه لمخاطب حاضر، وقادر على الرد أو التعبير ولو إيماء والدخول في مفارقات الدور التأويلي.

ويمكن أن أصرح أن نص الخطابات الملكية يحتوي على نمطين تواصلين متطابقين يلتقيان في تبني فلسفة وفكر العاهل ومقتضيات خطاباته السابقة واللاحقة، مع تقفي الحكمة والحكمة الخطابية، التي تجعل ظاهر الخطاب مضامين سطحية وباطنه فلسفة ملكية لا يدركها إلا خاصة الخاصة وفق التقسيم الخلدوني، فيصوغون فقرات الخطاب على أساس إقناع الملك بحكمتهم في ترجمة حكمته ورؤاه وتصوراته، وتبني عموم القائمين على التسيير والتدبير لما ورد في الخطابات من استراتيجيات، ضمنا وتصريحا.

ج- صناعة آليات الإنسياق وفقه الطاعة

قام الفقه السياسي على الطاعة كما فعل "الحجاج" و"زياد بن أبيه" وغيرهما من الولاة، على أساس أساليب التهيب والترغيب بالمال والجاه والسلطة والنفوذ تطورت، وكلها أسباب تدعو إلى استمرارية فقه الطاعة.

ويُستشهد غالبا في هذا المقام بالنص الديني ويُرجع إلى الاجتماع على إمام واحد، ولزوم الطاعة له في غير معصية درءاً للفتنة ودفعاً لآفات الفرقة، ولزوم الجماعة واتباعهم فيما اتفقوا عليه من تقويم الإمام والطاعة له في غير معصيته، وعدم الخروج عليه إلا بالكفر البواح.

هذه النصوص تثير تساؤلات تتعلق بفرضية درء الفتنة في التاريخ الإسلامي القديم والمعاصر وموقعها في الفقه والتأويل، وهل يفترض أن تكون الفتنة هي الأصل، وأن يكون تحكيم كتاب الله وسنة رسوله هي الاستثناء؟ وهل يتم درء الفتنة على حساب مقاصد الشريعة الإسلامية؟ ثم ما هو الكفر البواح؟ هل هو وقوف الحاكم ليعلن عن كفره؟ وأي حاكم غبي سيفعله؟ إن كل الحكام العرب وسائر حكام المسلمين يظهرون في وسائل الاعلام وكأنهم تقاة يؤدون الصلوات والعمرة والحج، ويحتفلون بأعياد المسلمين فيتلقون التهاني ويتحدثون بلغة الإسلام بينما يصادرون الحريات ويقتلون ويعاقبون ويسجنون لمجرد الشبهة، بل يضعون أيديهم على أموال الأمة يتصرفون بها تصرف المالك لها، ويكرسون كل أجهزة الدولة لخدمة مصالحهم المتعددة! فهل هذا كفر بواح أم لم يصل هذه الدرجة بعد؟ وكيف نعرف أن الحاكم الفلاني قد وصل درجة الكفر البواح؟ ولماذا تحدث الفتن؟ ومن يقوم بها؟ ولمصلحة من؟ ألا يمكن تجنب الفتنة إذا خرجت السلطة من العائلة الحاكمة؟ ألم تخرج السلطة من بني أمية إلى بني العباس رغم مقولة درء الفتنة؟

إن المسألة ليست الفتن، وإنما هي بالأساس تبرير لفقه الطاعة السياسي، وفقه الطاعة يستمد تأويله الآية الكريمة: (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا).

والطاعة هنا لأولي الأمر ما داموا قد أطاعوا الله ورسوله، لكن الفقه السياسي التف حول مفهوم الآية ليدعو إلى طاعة أولي الأمر مقرونة بطاعة الله ورسوله على الإطلاق ووجوب الطاعة

المطلقة حق خالص لله لا غير، فالطاعة لأولي الأمر مشروطة بطاعتهم لله - عز وجل - لأنه لا طاعة في معصية، وإنما الطاعة في الطاعة، وكررت الآية ذكر الطاعة مع الرسول صلى الله عليه وسلم ولم تكرر مع أولي الأمر للدلالة على أن الطاعة لهم ليست مطلقة، بل فيما كان الله طاعة.

ورغم الباع الطويل لجماعة الإخوان المسلمين في التجديد، إلا أنهم في مسألة الطاعة ظلوا متأثرين بالتراث الإسلامي أكثر من تأثرهم بالإسلام. يقول حسن البنا مؤسس الجماعة عن الطاعة: "وأريد بالطاعة امتثال الأمر وإنفاذه في العسر واليسر والمنشط والمكره. ويقول أن الدعوة تمر بثلاث مراحل: التعريف والتكوين والتنفيذ، ونظام الدعوة في مرحلة التكوين صوفي بحث من الناحية الروحية، وعسكري بحث من الناحية العملية، وشعار هاتين الناحيتين دائماً (أمر وطاعة) من غير تردد ولا مراجعة ولا شك ولا حرج"¹.

ويرى مؤسس جماعة الإخوان المسلمين أيضاً أن مرحلة التنفيذ لا يكفل النجاح فيها إلا "كمال الطاعة". بالمقابل، فلا ينبغي أن تكون الطاعة المطلقة إلا لله ورسوله فقط، وتجب الطاعة لأولي الأمر إذا كان عادلاً، ولا يقرر الحاكم أو بطانته إن كان عادلاً، وإنما يقرر المسلمون ذلك في هذه المسألة أو تلك.

كما أن الطاعة المطلقة سواء في العسكرية أو الصوفية كانت لها نتائج مدمرة أحياناً: فالطاعة في الطرق الصوفية سمحت بتغلغل اللامعقول من الثقافات الأخرى إلى الثقافة العربية ذاتها تحت عباءة الإسلام وهي ليست منه، والإسلام ليس منها.

ولنا مثلٌ في الطاعة العسكرية كيف حولتها الانظمة العربية الحاكمة من الانضباط العسكري إلى الطاعة المطلقة: فالطاعة العمياء تعطل دور العقل أيضاً وقد تشله، وهذا قد نلاحظه في بعض تنظيمات المسلمين السياسية، وبخاصة المنشقة منها، فقد سمح ذلك لأمرأ مثل هذه الجماعات أن تقوم بأعمال منافية للإسلام: لذلك، اوخذ كل من تورط بغير علم في الانقلابات التس شهدا المغرب على عهد الحسن الثاني بسبب عدم تمييزهم كجنود بين واجب الطاعة وواجب الولاء، وأن الصيغة السحرية والتوفيقية تكمن في التصرف كبنادق ذكية Des Baïllonnnettes intelligentes.

هذا الذكاء الذي أستحضره بدوري لأسقطه على الحقل الخطابي أجده حاضراً في الخطاب الملكي وإيجازه الذي يشكل تناسبا طرديا بين مساحة الخطاب وقوة التأثير وموجبات الطاعة: فكلما اتسع مجال الكلام قويت حظوظ الإبلاغ بغية الإقناع أو بغية الإستهواء، فكان الشحن الدلالي قرين الإفاضة في المدى مع التركيز في الكثافة.

مع ناموس التواصل السياسي الجديد ومقتضيات الإيديولوجية والسيطرة على تشكيل سياق الخطاب وتضمين الإيديولوجيات في هياكل الخطاب وترسيخ أنماط الهيمنة الاجتماعية من خلال فكرة الهيمنة عبر الإقناع وتحقيق الإجماع، فقد أصبح الأمر قائماً على التناسب العكسي: فكلما كان الكم اللفظي أوجز كان فعل التأثير أوقع وأنجع. بهذا، تم تقليص فضاء الخطاب وانتقلت البلاغة من فصاحة الخطبة إلى فصاحة القرص اللغوي المضغوط.

ورغم أن أدوات الرصد والتحليل تنتشعب كلما خفيت علينا السلطة التي يكتسبها الخطاب، ومرّد هذا الخفاء أن مفهوم السلطة يستحوذ عليه الحدث السياسي فلا يخطر على بال الجمهور في الشائع من الأحوال أن يقيم اقترانا بين اللغة وهي إبلاغ واللغة وهي صانعة للفعل السياسي ومحقة لحيثيات إنتاجه، أما أن تتحول اللغة أحياناً فتمسي هي جوهر الحدث السياسي في ذاته ولذاته.

¹ - محمد عبد الله الخطيب، نظرات في رسالة التعاليم للشيخ حين البناء، قراءة في "الركن السادس من أركان البيعة"، منشورات مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع، ص. 267

فحضور المفاهيم ذات الأصل القرآني تضيف ظلالة على التجربة الخطابية الملكية وتخضعها لمقتضياتها في الكثير من الأحيان، وقد يصل الأمر إلى حدوث بعض التغييرات في المحتوى المعرفي لتلك المفاهيم كتعبير عن الاستجابة الإرادية لمتغيرات الواقع.

إلا أنني لاحظت في بلاد الكنانة مثلاً أن العلماء قاموا بترسيم المفهوم على أساس الأحاديث التي دونت في المسانيد ثم في كتب الصحاح، وكثير منها لم يكن معروفا لدى فقهاء العصر الأول، بما فيهم أئمة المذاهب الأربعة، باستثناء الإمام أحمد بن حنبل الذي مثل نقطة تحول تم عبرها الانتقال من ثقافة الخروج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمفهومه الواسع إلى ثقافة الطاعة السياسية ذات الصبغة التأويلية.

ووفقاً لمعطيات النسق الحديثي الذي تواكب دخول فقه الطاعة مرحلة التقليد منذ القرن الرابع الهجري، أصبحت طاعة الفاسق والجائر والمتغلب جزءاً من الشريعة، حيث جرى إحكام ربط تلك المدركات بها، وترسخت قاعدة حرمة الخروج على الحاكم الجائر، وهي القاعدة التي تبين من خلال الدراسة أنها مجرد دعوى تاريخية، ظهرت بفعل تراكمات سلبية تشكلت بموجبها ثقافة الطاعة الكاملة منذ منتصف القرن الثاني الهجري تقريباً: لقد فرض استقرار أنظمة الجور السياسي في بعض المراحل ونمو تقاليد سياسية لا علاقة لها بأسس التصور الإسلامي للمسألة السياسية - كـ "ولاية العهد" و "إمارة الاستيلاء" - مجموعة هائلة من التحولات بحيث ابتعدت الممارسة السياسية الإسلامية عن الشورى في الحكم، وعن مفهوم البيعة الصحيحة القائمة على الرضا والاختيار، كما تم إسقاط العدل كشرط أساس لمن يتولى الحكم بسبب غياب "الحكام العدول"، وهذا ما عبر عنه العز بن عبد السلام في إشارته إلى القبول بحكم "الأقل فسوقاً" لغلبة الفسوق على الحكام، وعلى ذلك أعيد إنتاج تصور واقعي للحكم لا يقوم على العدل وإنما على "الأقل فسوقاً".

وقد وجدت هذا التصور واضحاً عند مفكري وفقهاء "الآداب السلطانية" كابن المقفع والطوطوشي وابن الطقطقي وغيرهم فيما أطلقنا عليه وصف "تثبيت الطاعة وتحريك العدل": فالطاعة - بحسب هؤلاء - قيمة ثابتة لا علاقة لها بعدل السلطة أو جورها، كما أن انحراف السلطة يغدو مبرراً إضافياً للمزيد من سلوكيات الطاعة - كالدعاء لها مثلاً - وفق مقولة أساسية فحواها "السلطان لا تصلحه إلا الطاعة"، وهذا الاختلال في منظومة القيم الإسلامية دفع بشكل مطرد باتجاه تفرغ مفهوم الطاعة السياسية من مضامينه القرآنية، وتكريس مفهوم "طاعة الضرورة" الذي راح يكتسب مع الوقت شرعية فقهية واجتماعية.

ذات التحولات طرأت أيضاً على مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالتحليل التاريخي يظهر أن الممارسة السياسية الإسلامية قامت - في الصدر الأول - على شمول هذا المبدأ الذي كان يتضمن إنكار المنكر السياسي باليد. إلا أن عوامل تاريخية ظهرت منذ منتصف القرن الثاني الهجري كان لها الأثر الكبير في التحول من "ثقافة الخروج" بغرض تغيير المنكر السياسي إلى "ثقافة الطاعة السياسية الكاملة".

وقد أظهر التحليل التاريخي أن أهم تلك العوامل تمثلت في ظهور عصر التدوين الذي أعيد فيه تنظيم العلوم والمعارف الإسلامية ومن ضمنها المعرفة السياسية - التي لم تكن قد تبلورت بصورة مستقلة حتى ذلك الوقت - ضمن مشروع ثقافي كبير تبنته السلطة العباسية، كما كان لقيام الدولة العباسية على أنقاض الحكم الأموي والمضمون الاجتماعي الذي جسده قبل أن تنحرف عنه لاحقاً أثر في ذلك التحول.

فهذا الأثر التاريخي الذي أثرينا به فهم صيرورة تطور مفهوم الطاعة السياسية وانعكاس ذلك على التحديدات القرآنية للمفهوم، والخصائص التي اكتسبها في عهد النبوة، ولكن مع ملاحظة تفاوت حضور ذلك الأثر بالنسبة لمجمل تيارات الفكر السياسي الإسلامي، فالمعتزلة والشيعة والزيدية وإن اتجهوا إلى التعامل مع الواقع السياسي إلا أنهم أحجموا عن التنظير له على أساس ديني، أو تحويل معطياته إلى ما يشبه القواعد الشرعية الإجماعية، إذ لم نجد أثرا لدى هؤلاء لمقولات وجوب طاعة الجائر، أو الاعتراف الشرعي بحكم المتغلب، أو الإقرار بولاية الفاسق ولاية عامة، كما هو الحال بالنسبة للفكر السياسي السني، وربما كان السبب في ذلك احتفاظ تلك التيارات بمواقعها خارج السلطة السياسية (سلطة الخلافة)، بوصفها قوى معارضة من الوجهة التاريخية ومدارس عقل ينأى بها عقلها السياسي والديني عن ضروب النقل.

كما أنتج مفهوم الطاعة السياسية حركته من خلال العديد من الإشكاليات المرتبطة بالعلاقة بين السلطة والأمة.

لقد كان واضحا أن مفهوم الطاعة السياسية في الدائرة السنية يتجه بفعل القراءات التأويلية المتواصلة للنصوص تحت ضغط الواقع السياسي إلى الابتعاد عن محتواه القرآني وأهم مظاهر ذلك تمثلت في الآتي:

1- إسقاط المواصفات القرآنية لمفهوم أولي الأمر، وإلغاء الصفة الجماعية لهذا المفهوم، بحيث بات يطلق على كل متغلب وصف "ولي الأمر" بما يحمله من دلالات شرعية مغتصبة، أما من حيث الأصل فإن مفهوم أولي الأمر - كما توصلت الدراسة - هو مفهوم جماعي لا يتجه إلى أي نوع من التحديدات الفئوية (علماء / حكام) وإنما يستوعب ضمن بنيته الشرعية الجانب الرسمي من الظاهرة السياسية، دون أن يستغرق القوة الاجتماعية للأمة المسلمة، بحيث يظل المفهوم المقابل "أهل الحل والعقد" مفهوما فاعلا وموازنا، أما مواصفات أولي الأمر القرآنية فهي: الحكم بالعدل، أداء الأمانة، الاختيار الاجتماعي، الرد إلى الله والرسول عند التنازع، وعلى هذا الأساس قامت الدراسة بالتفريق بين نوعين من النظم السياسية الأول: هو سلطة أولي الأمر، والثاني هي نظم الضرورة بصورها المختلفة في التاريخ الإسلامي.

2- اعتبار طاعة أولي الأمر في القرآن الكريم مطلقة، وقد ترتب على النظر إلى مفهوم الطاعة السياسية في القرآن الكريم بوصفه مفهوما غير مقيد، إسقاط القيود القرآنية عن المفهوم، فلم يعتبر العدل قيما، ولا الشورى، ولا الرد التشريعي إلى الله والرسول (الحكم بالشرعية)، وانحصرت حدود المفهوم -وفقا للفهم الحرفي لأحاديث الطاعة- في قيدي المعصية والمنكر، واللذين يأخذان في الكثير من الأحيان معنى واحدا، ويفقدان قدرتهما على الضبط والتقييد في المجال السياسي.

3- الخلط بين الطاعة الدينية والطاعة السياسية، عبر القول بأن طاعة أولي الأمر في غير المعصية هي طاعة الله والرسول، وقد قامت الدراسة بمراجعة ذلك الفهم، عبر إثبات الطبيعة الاستخلافية لمفهوم الطاعة السياسية، فالمفهوم ليس مفهوما تعبديا (طاعة الله)، ولا تصديقا (طاعة الرسول)، ومن هنا يتضح الفرق بين الطاعة الدينية التي هي مطلقة وكاملة وثابتة وترتبط بعقيدة المؤمن، وبين الطاعة السياسية بوصفها نسبية، ومتغيرة، ومحددة، ومقيدة، وخاضعة لشروط الواقع، وترتبط بدرجة أساسية بسلوك المؤمن إذ لا يترتب عليها كفر أو إيمان.

كما أن أفعال وتصرفات أولي الأمر السياسية قد لا توافق مقصود الله ورسوله -حتى مع افتراض تحريها ذلك- وبالتالي فهي ليست عين طاعة الله ورسوله، لذلك فإن التداخل بين الطاعة الدينية والطاعة السياسية، وعدم تحديد مجال الطاعة السياسية والتمييز بينه وبين مجال العقيدة، سمح بإضفاء صبغة دينية على السلطة السياسية، ومنحها صلاحية التدخل في شئون العقيدة والعبادة، وإهمال وظائفها التنموية والسياسية والحضارية.

4- القول بحرمة الخروج ساعد على وجود ألوان عديدة من الخروج التكفيري، بسبب أن تكفير السلطة مثل شرطاً تاريخياً للخروج عليها، وهكذا صبغت الصراعات السياسية بصبغة دينية بسبب عدم التفريق بين الخروج السياسي بغرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والذي هو حق للأمة، وبين الخروج لأسباب عقدية، كما منح السلطة السياسية حصانة من العزل السياسي باستثناء اقتراحها للكفر البواح وعند القدرة على ذلك.

5- الخوف من الفتنة حال دون تطوير آليات مؤثرة للتعامل مع السلطة السياسية، وتسبب في إقصاء قواعد الشورى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمعارضة وغيرها، وهو الأمر الذي أسهم من الوجهة التاريخية في إنتاج المزيد من الفتن التي أضعفت الدولة والمجتمع في آن.

6- ظهرت مشكلة الاستبداد السياسي كنتيجة للميل المتزايد إلى مسايرة السلطة السياسية وما تنتجه من مركبات إيديولوجية تخدم حاجياتها في البقاء والاستمرار، وقد ظهر ذلك الميل من خلال تعقيد شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإطلاق الصبر، واستحضار الخوف من الفتنة، وتعطيل الشورى، والتخلي المسبق عن التفكير في تطوير الممارسة السياسية والاكتفاء منها بالحد الأخلاقي الأدنى، وحدث نتيجة لذلك تضخم في فقه الطاعة السياسية في مقابل ضمور شديد في المنظومة القيمية، ساعد على إيجاد بيئة ملائمة للاستبداد السياسي.

لقد وجدت تلك المشكلات بصور وكيفيات مختلفة عبر مسار تطور المفهوم، ومع وجود ما يؤشر إلى أن بعض العلماء سعوا إلى الحد من تضخم فقه الطاعة السياسية فإن الاتجاه الغالب في الفكر السياسي السني كان يصب في دائرة الطاعة السياسية الكاملة بوصفها مطلباً شرعياً، لهذا السبب فإن المحاولات الإصلاحية التي ظهرت في التاريخ الإسلامي إما أنها تجنبت المساس بـ"عقيدة الطاعة السياسية" كما هو الحال بالنسبة للفقه المقاصدي لدى العز بن عبد السلام، والشاطبي وغيرهما، لتوقف خطابها الفقهي عند حدود ما استقر العمل به، أو أنها تولت إنجاز الصياغة النهائية لفقه الطاعة السياسية وتكريسه كما هو الحال بالنسبة لفقه السياسة الشرعية الذي ظهر كحركة إصلاحية وانتهى إلى ترسيخ سلطة ولي الأمر في المجالين السياسي والشرعي.

لذلك فإن استقرار فقه الطاعة السياسية وتراكمه غير الحميد حد من تأثير حركات الإصلاح في العالم الإسلامي، بما فيها تلك التي ظهرت في مطلع القرن التاسع عشر على أيدي مفكري النهضة.

فرغم الإسهامات النظرية لمفكري النهضة فيما يتصل بتحريك ثقافة الطاعة السياسية وربطها بالشورى والمحاسبة ومسئولية الحاكم، ورغم توسيع المرجعية التطبيقية عبر الاستعانة بالآيات الفكر الديمقراطية الحديث، فقد ظل الأثر النهضوي فيما يتصل بفقه الطاعة السياسية كان محدوداً للغاية.

تلك النتيجة قادت إلى المقولة الرئيسية الثالثة تبينت فيها استمرار الحضور التاريخي لإشكاليات فقه الطاعة السياسية في الفكر الإسلامي المعاصر بما في ذلك بنية الفقه الدستوري الحديث، وقد عمدت إلى تنظيم إشكاليات الطاعة في الفكر الإسلامي المعاصر في ثلاث مجموعات ترتبط

الأولى بتبديد مفهوم أولي الأمر وتوظيفه سياسيا فتتبعنا مظاهر ذلك في الخطاب الإسلامي المعاصر محاولين الكشف عن مساحة الوعي بالعلاقة الكامنة بين الحالة الاستبدادية الراهنة وبين "الأحادية السلطوية" المتمثلة بما يسمى "ولي الأمر"، أما الأخرى فتتعلق بالاختلال المفاهيمي الذي أحدثه فقه الطاعة السياسية ومظاهره في الفكر الإسلامي المعاصر، وارتبطت المجموعة الثالثة بإشكالية الخروج ومقارباته النظرية في الخطاب الإسلامي المعاصر.

وعموما أمكن القول من خلال التحليل النقدي لبعض أدبيات الفكر السياسي الإسلامي المعاصر أن هناك نزوعا مستمرا للانعتاق من فقه الطاعة السياسية التقليدي عبر محاولات جزئية للتجديد في النسق المفاهيمي الذي ينتمي إليه مفهوم الطاعة السياسية، ولكن مع ملاحظة بقاء بعض مركبات فقه الطاعة السياسية حاضرة بشكل واضح وفاعلة في النقاش الفكري حول حدود الطاعة السياسية، والسقف السياسي أم العقدي لمفهوم الخروج، والقيود السياسية على الطاعة، وتوصيف الحاكم الدستوري وصلاحياته وعلاقة ذلك بمفهوم أولي الأمر.

وقد خلصت ملاحظة منحنيات التطور في مفهوم الطاعة السياسية وطبيعة إشكالياته، وتعيين مساحات تلك الإشكاليات ووجودها الفعلي في خارطة الفكر السياسي الإسلامي إلى اقتراح نموذج تشغيلي لمفهوم الطاعة السياسية، يراعي العلاقة التكاملية بين هذا المفهوم وبين غيره من المفاهيم المشكلة لمنظومة القيم الإسلامية، كما يراعي أيضا الحاجات التنموية والضرورات الحضارية للأمة، وفكرة النموذج التشغيلي وإن لم تكن كافية لتقويم المفهوم في الممارسة العملية فإنها تطرح أمام الفكر الإسلامي مجموعة من الأفكار التي يمكن أن تساعد في تقويم المفهوم من الناحية النظرية عبر كسر "الحتمية التراثية" المتمثلة بفقه الطاعة السياسية التقليدي.

إلا أنه من الصعوبة بمكان القول إن الفكر الإسلامي لم يلتفت إلى خطورة مسألة الطاعة السياسية وما أفرزته من إشكاليات، لكن السقف النظري كما هو الواقع العملي وتداخل أولويات الفكر لم يسمح ببلوغ البحث في هذه المسألة إلى نتيجة تؤسس لخطاب جديد، وبسهولة كبيرة يمكن أن نلاحظ حالة من الارتداد لتبني القديم كلما زاد واقع الاستبداد والاستعمار تغولا، وعادة ما يحدث ذلك لأسباب متنوعة منها فقدان الثقة بتغيير الواقع، أو تأجيل البحث في هذه المسألة تحت وطأة الشعور بوجود تحديات حضارية أكثر خطورة وهي مسألة ناقشناها في هذه الدراسة، وأوضحت جل الأدبيات التي عالجت الموضوع أن التحدي الحضاري يفرض مواجهة إشكالية الطاعة السياسية وليس تأجيلها.

مهما يكن من أمر، فأنا أدرك أن البحث المباشر في مسألة الطاعة السياسية ليس هو معيار الاهتمام بهذا الموضوع، كما أن تدني الإنتاج المعرفي بهذا الخصوص لا يعد مؤشرا على إغفال مسألة على قدر كبير من الأهمية كتلك، وأن التجديد في فكر الطاعة السياسية قد يمر عبر التجديد في الأوعية الفكرية التي يمر من خلالها المفهوم أو المنظومة المفاهيمية التي ينتمي إليها، لكننا مع ذلك نشير إلى ضعف الشعور العام بمشكلة الطاعة السياسية في الفكر الإسلامي المعاصر، وعدم الانتباه إلى مسارات تمدد فقه السياسة الشرعية بمركباته التاريخية وملابساته الفقهية، وأهمها الطاعة السياسية بصورتها التقليدية في خارطة الفكر السياسي الإسلامي المعاصر في بلدان الخليج العربي ومصر خصوصا من خلال آلة الأزهر لصناعة الشرعية السياسية للرئيس.

كما تتعين الإشارة إلى إغفال تقاطعات مشكلة الطاعة السياسية مع مشكلة الاستبداد، وغياب الشورى وقياسها على الديمقراطية وما يثيره من جدل حول النموذج الأجدى، مع ما يتمخض عن تغيبب الأمة عن الفعل الحضاري والمسار الديمقراطي المحايث، فضلا عن عدم الكشف عن النسبية التاريخية لمفهوم "ولي الأمر".

مما تقدم، وكى لا أنزلق نحو مواضيع ذيلية جانبية، أرى أن الامر ينبغي أن يتأسس مسبقاً على دراسات خاصة بجمهور الخطاب الملكي، بأنواعه، بثقافته، مع التمييز في طبقاته بين:

- **جمهور سمعي** يشكل الانصات بالنسبة لهم أفضل وسيلة لفهم الخطاب الملكي، ويفسرون رسائله عن طريق الاستماع لنبرة الصوت وطبقته وسرعته، إضافة إلى محددات صوتية أخرى، ويختارون فضاءات الإنصات التي تمكنهم من الاستمتاع دون إغارة الانتباه لما يجري أمامهم؛

- **جمهور بصري** يحتاج إلى مشاهدة الخطاب الملكي مباشر أو إعادة مشاهدة تسجيل نصه الكامل أو فقرات منه، ويتبوأ عادة مقعده في الصفوف الامامية من المقاهي أو أمام شاشة التلفاز، فيراقب لغة جسد الملك وإيماءاته وكذا تعابير وقسمات وجهه، مع احتفاظه بصور ذهنية لمقاطع تصويرية للخطاب؛

- **جمهور حركي** يستهويه استعمال الخطيب للإيماءات لمعاوضة الكلام ويتعلق حوله في كل مناسبات الحراك الشعبي، مشتت التركيز وشارد الفكر وينبغي للخطاب الملكي أن يعيد إنتاج صورة وحركات الملك الراحل الحسن الثاني في شد انتباهه من خلال حركة السبحة والخنجر وحركات العين واليدين...؛

- **جمهور نصي** لا يجد لفهم الخطاب سبيلاً إلا من خلال تقليب متن الخطاب الملكي المكتوب على جميع وجوهه.

فضلاً عن تصنيف فئوي للجمهور بين:

- **يافعون يرفضون** كل السلط، بما فيها سلطة الأب وسلطة الخطاب والخطيب؛

- **في مقابل بالغين مستقلين**، لهم نزوع فطري نحو التوجيه الذاتي، وراكموا عادات وتجارب في الحياة ونهلوا من جميع ضروب المعرفة ويحتاجون فقط لسلسلة من الروابط الناظمة بين ما اكتسبوه من معارف ومداركوما أرادوا إدراكه من مرامي أو استدراكه غيرها من التصنيفات التي تتجاوز الجمهور وفئاته وطبيعة استجاباته (لفظية/غير لفظية، مباشرة/غير مباشرة، خطابية/غير خطابية.. إلخ)، وطرق تطويرها وتنميتها واحتواء السلبية منها.

فهذه الموضوعات تشكل فقط قائمة أولية يمكن أن تستثمر فيها تقنيات وخلاصات علم التسويق والإعلان ودراسات اتجاهات الرأي العام لتحسين النشاط الخطابي الملكي في اتجاه قدر أكبر من القبول والمقبولية والإقبال، ومزيد من السيطرة المادية على مسارات التوجيه والاستجابة مواجهة الخطابات التبخيسية المضادة التي صار يطفح بها فضاء التداول الخطابي العمومي.

لهذا الغرض، يمكن أن أتوجه مستقبلاً نحو مزيد من النش في البحث التراثي التأصيلي والتركيز على البحث التطوري للمفاهيم السياسية بغرض استعادة الهوية الشرعية لتلك المفاهيم كما تحددها النصوص التأسيسية لا كما ترسمها الممارسة التاريخية، ومن بين تلك المفاهيم مفهوم الشورى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

كما أرى أهمية دراسة بعض المفاهيم التاريخية التي اتجهت في مسار عكسي أي تحولت من مفاهيم تاريخية إلى مفاهيم شرعية كمفهوم "حراسة الدين" و"حراس العقيدة"، وهي مسألة تلتقي فيها "أسلمة الفكر" مع "الخطاب الوسطي" التجديدي، على أن يكمن شرط تحقق مثل ذلك الالتقاء في اتجاه خطاب الأسلمة نحو تحييد وعزل الأثر التاريخي التراكمي على المفاهيم الإسلامية والعودة بها إلى أصولها، مع مواصلة السعي لمواجهة ظاهرة الاستلاب القيمي ودعم التنحي عن أية ممارسة تبجيلية لمفردات فقه السياسة الشرعية.

كل ذلك يمكن أن يقاربه من منطلق إعادة تنظيم العلاقة بين المدركات الثلاثة (الشريعة/الأمة/السلطة) كسبيل لنفي الإشكالية الثنائية الخادعة حول العلاقة السلبية بين الدين والدولة، والتي قادت الفكر السياسي الإسلامي في معاركه ضد العلمانية إلى الدفاع عن مركبات تاريخية بما فيها "سلطة ولي الأمر"، لأؤكد على أهمية تنظيم تلك العلاقة بما يحول دون نسج السلطة علاقة مباشرة مع الشريعة تتجاوز الأمة التي تمثل "الوسيط الحيوي" في العلاقة بين الشريعة والسلطة، والتي بدون استيعاب حقانيتها وحقوقها لا يمكن إيجاد علاقة مستقيمة بين السلطة والشريعة.

حديثي عن الشريعة يحيلني على إمكانية الدخول في مشاريع ثنائية مع ذوي الاختصاص في مجال دراسة بلاغة الخطاب القرآني وبلاغة الحديث النبوي، ومستويات تنظيمه موضوعيا في أبواب غير تلك التي وجدت عليها تاريخيا، بحيث تمثل كل مجموعة من الأحاديث وحدة موضوعية، تنتهي حالة "الاستبداد الفكري" بالأحاديث النبوية عبر الاستشهاد بها في إثبات الشيء وضده، وبحيث يكون لكل حديث مقصود أصلي يستخدم في التدليل عليه، وإن تعددت أغراض الحديث بعد ذلك، وهذا يستدعي ربط الأحاديث النبوية المسببة بأسباب ورودها، وكذلك مناقشة ما يمكن أن يكون زيادات تاريخية في بعض الأحاديث النبوية كما هو الحال في حديث عبادة "إلا أن تروا كفرا بواحا" وحديث حذيفة "اسمع واطع وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك"، خاصة وأن كتاب ابن القيم¹ في الموضوع اعتبر معظم الأحاديث التي وردت في باب الطاعة من قبيل الفتوى، ولم نتبين منه أو من غيره ما دلالة ذلك على وجوب العمل بتلك الأحاديث، وهل ينطبق عليها ما ينطبق على الفتوى من شروط المحدودية المكانية والزمانية، وغيرها من المسائل التي سنعرض عنها اعتبارا لعدم أهليتي العلمية لجلاء مثل تلك المسائل الدقيقة، من جهة، واحتمال تجاوز السقف العددي بين دفتي الأطروحة وتجاوز موضوعها، وإن كنت أجد في متن الحديث شذوذا، لأن الأدلة المحكمة، تقطع بأن وظيفة الدولة - في الإسلام - تقوم على حماية ظهور الناس وأموالهم وأعراضهم، وفي الحديث مخالفة لهذا المقصد وتأسيس للأمر بالسمع والطاعة للأمير في غير معصية الله، وإن جار

كما يمكن أن يفتح البحث في اتجاه طرح مشاريع تطوير البحث المقاصدي وإسقاطه على العديد من مقولات الساسة، في سبيل تقديم دراسة مقاصدية تجديدية بالمعنى الحقيقي في موضوع الطاعة السياسية وفقه التمكين للمؤسسات من خلال سلطة اللغة وسطورة صوغ الخطاب.

فإن دشنت المهمة المسحية لأركيولوجيا الخطاب السياسي في سلك الماستر بمعول لسانی للوقوف على الطبقة الرسوبية لرسوب الخطاب السياسي، فقد عولت علة ذات المعاول للمرور بطبقة الخطابات الملكية التي علوها في أطروحة الدكتوراه، في أفق مروري مستقبلا إلى "مقالات" تحليلية للخطابات الديبلوماسية لخطباء كونييين وزعماء دول عظمى، على أن اجعل حسن الخاتمة الوقوف عند بلاغة الخطاب الإلهي وتدبر عظمتة والخصائص البلاغية لكتابه الكريم الصالح لكل مكان وزمان وأحاديث نبيه المصطفى العدنان (صلى الله عليه وعلى آله الأطهار في كل آن).

على سبيل الختم

ها أنذا أقف على عتبة الختم، وقد بلغت بالأطروحة ما أراد الحق سبحانه أن يبلغني به مبلغاً، فلم أجد أبلغ من الحديث عن توصلي إلى ضرورة مواصلة البحث في الخطاب الملكي بفروض جديدة، فأقف بذلك عن كُتب على أفعال الكلام وعلى مكامن القوة التحقيقية التي تعد عاملاً أساسياً في الاتصال من خلال أفعال الكلام، والتي تتيح أيضاً اختيار فعالاً للفعل المناسب للإيديولوجية الثاوية وراء كل شذرة من الشذرات الخطابية التي تتراس داخل المدونة الخطابية للعاهل.

وبعد ان انتهيت من التأمل والتدبر والاختيار والتحليل والربط، ساقنتني مقتضيات البحث للنش في العديد من المؤلفات والمصنفات والترجمات، فأويت إلى المراجع من مظانها لأن الترجمات لم تُراع فيها شروط البنية التحقيقية والسياق وأهميته في الترجمة، فحاولت في نهاية البحث ان ألحق مَسرِّداً لترجمة الألفاظ التي يجد المتصفح للمراجع الاجنبية صعوبة في فهمها او حتى إقامة التناظر بينها وبين النسخة المترجمة، لأن معرفة المصطلحات والمفاتيح المفاهيمية المتداولة في متن النص الملكي كما في باقي الخطابات تقتضي تحديد أفعال الكلام التي تسود فيه مقامات معينة وترد بنَفْسٍ إيديولوجي إقناعي.

كما اعتزم في نفس السياق جَمْع المصطلحات السياسية والدينية والإقتصادية التي أسست لها المبادرات الملكية أو تلك التي تحفل بها مدونة الوثائق والتوثيق، وتصنيفها في مجموعات وحقول متناسقة مضامينياً ودالياً في مقالات مستقبلية، من ثمة مناقشة كل مصطلح على حدة، ودراسة سياقات استعماله في خطابات متفرقة، خاصة وأن استجلاء المصطلحات والوقوف على مجالها الدلالي يتطلب البدء بقراءة المتن السياسي للوثائق ومعرفةً بأصلها اللغوي ومفهومها الاصطلاحي، وتعباً لتاريخ نشأتها، ورصداً لتطورها الدلالي، للوقوف بموجب الدراسة المقارنة للمتون الخطابية على مستوى التطور المصطلحي بحكم تطور اللغة ومفرداتها بين جيلين أو ثلاثة من الملوك، او بين سياقات ثقافية وجغرافية او حتى مذهبية متباينة، محتكماً إلى السياق الموصل إلى التفسير العلمي المقنع، والإفادة من معطيات علم اللغة الحديث.

كما أن بعض لحظات التيه في المقارنة بين نمطين خطابين وبين جيلين من الملوك او ثلاثة، واستقراء نصوص الوثائق الملكية مكنتني من الوقوف على استمرار بعض المصطلحات التقليدية التي بقيت على دلالتها الأصلية ولم يتغير مجالها الدلالي، في مقابل سقوط مصطلحات بدلالات دانية لم تكن مألوفة أو معروفة.

كما ان إطلاعي على الترجمات التي وردت في الترجمة الفورية للخطاب الملكي جعلني أقف على ما اعتور ترجمة أفعال الكلام عيوب، حيث أن فعل الكلام مثلاً لا يخص جلالة الملك وحده كمتكلم او كمرسل، بل يتوجه إلى جمهور تلقي، ويستدعي ترجمته من طرف مترجم يضع نفسه موضع الاثنين.

ولم يسعفني سقف الأطروحة لإفراد فصل خاص لما تحفل به المدونة الخطابية المولوية من صنوف الحجاج، وأسسها البراغمية أو التداولية، خاصة وأن الخطاب الملكي يصنف ضمن النصوص الحجاجية، التي تعلوا كعباً على باقي خطابات الساحة، وتثير شعبا بكل اطيافه.

وعليه، أتصور مستقبلا السير على مسار تعميق البحث والقيام بدراسات التحليل التقابلي للمتون الخطابية بين العديد من الزعماء وقادة الدول بشأن نفس الموضوع أو الحقول التيمية لإستخراج طرق إقناعهم ومستويات أسلوبهم التعبيري، والانتقال من مستويات ومظاهر الإتساق، والسياق والانساق التواصلية للتركيز على مستويات الإنسجام ونمط اللغة، مع استخراج جداول كمية تناظر في بلاغة اقتضابها ما يسميه المسدي "بلاغة القرص المضغوط"، بعيدا عن إطناب الخطب المتثابرة.

كما سيكون بمقدوري وفق هذه المنهجية التقابلية التعرف على الظواهر الصوتية والصرفية والنظمية والدلالية والبلاغية عن طريق رصد عناصرها ومكوناتها التركيبية، والخروج ببيانات قيمية لها في النظامين: النظام الخطابي للملك، والنظام الخطابي لوالده الملك الراحل الحسن الثاني أو لباقي القادة والملوك ورؤساء الدول، ورصد التباينات في البنيات، ودور الجانب البلاغي في تشكيل الخطاب وتحقيق تواصل مميز و متميز بين الملك والشعب، وتوظيفات الادوات اللغوية الخاصة بكل موقف.

فقد أسعفني الوقوف على أوجه الإلتقائية بين الملك وشعبه و عندها لأهتدي إلى وجود مساحات تقاطع مكّنت بحمد الله مغربنا من تفادي القطيعة التي تقطعت بسببها أوصال شعوب برؤسائها، فقطعت المشانق رؤوس القادة على المقاصل، وتفرقت السبل بلاجئها بين دول العالم وتفرقوا بين مستجدي للمساعدة ومعوز وسائل.

وإذ أقف أيضا في آخر محطات مسار تجميع ومسيرة كتابة شارفت صفحاتها وملاحقها على المائة السادسة، أقف في النهاية على حقيقة مفادها أن قراءة المتن الخطابي متاحة لمن دخل باحة البحث عن مساحات البوح واستخدم كل الإجراءات المتاحة التي يمكن توظيفها، دون لي أعناق نص الخطابات عنوة لتتماشى مع المناهج النقدية الوافدة أو الراقدة.

لو مد لي الله في العمر، سأحاول ألا أقف مستقبلا من الاحزاب موقف المنتقد لخطابها والمفكك المشكك في خطاطاتها، لأنني سأخطب في قادم البحوث ود الخطاب السياسي لإصلاحه واستصلاح أراضيه لأراضيه، حتى يرضى عن نفسه وعن أدائه، فيحقق المصالحة والمصلحة لئلا تحيق به لعنة واستهجان الشعب، لان في مصلحة بلادنا ومؤسساتها أن تعود الاحزاب والخطاب الحزبي للإضطلاع بالأدوار الدستورية المنوطة بها لحلحلة الوضع وامتصاص الغضب الشعبي وتصريفه، علنا نتجاوز ما نشهده حاليا عند كل أزمة من ترديد للضرورة استنجد المواطن والحكومات بالملك.

كما أن رسالية رسالة الدكتوراه يجلوها تجاوز فويبا ميزت مابعد عهد الانقلابات والدسائس، والتوجس خيفة من تحليل خطابات السائس، مع الإشارة والإشادة بالفتح البحثي الذي شكله عهد محمد السادس، بعد كسر جدار الخوف من تفكيك الخطاب السياسي لارتباط الإعلام ذاته في مرحلة من مراحل مغرب القرن الماضي بالسلطة المنتجة للخطاب، ومحاولة المضي قدما في مسار رفع حالة توجس اللغة من دخول ردهات المعترك السياسي، لتفسح السياسة المجال للغة وتصفح عنها لتمكنها من تصفح أوراقها ودخول معتركها وجبهات معاركها، فتضرب بذلك صفحا عن عقود من القطيعة، لندشن مرحلة عنوانها الأبرز التوالج والتواشج بين عالمين وعلمين هما لعمري متنافران: علم اللغة وعلم السياسية، فنحوز قصب السبق في التقريب بين العدوتين العدوتين.

يحدوني أمل في أن يجد الباحث الذي كان يقلب بصره بلا جدوى في رفوف المكتبة بحثا عن التحليل اللساني للخطاب السياسي عموما والملكي تخصيصا، أن يجد ضالته، ويلج ديار المنطق وفضاءات اللسانيات التداولية دون تفرق السبل به بين ديار وردهات كليات القانون ومدرجات وقاعات الكلية الضادية.

وبقدر حرصي مستقبلا على الإسهام المتواضع في تشييد بلاغات نوعية تمهد الطريق أمام التأصيل لقوانين بلاغية كلية لضبط الصفة البلاغية لمختلف أنواع الخطاب وصيغته وأنماطه بعيدا عن التنميط والتحنيط الذي لازم البلاغة ووصمها لقرون بالسفسطة، بقدر إشاراتي بالحركية الحالية للدرس اللغوي الحديث في مجال إعادة الاعتبار للبلاغة، مذكراً لها ببرلمان، فوسّع مفهوم البلاغة، فصارت بفضلها علما عاما للخطابات، وحذا حذوه رواد الساحة اللغوية المغربية لإعلان تبني نفس الحركية البحثية التي كان كل من الأستاذ محمد العمري والقارئ السيميائي المتميز والمترجم الجاد سعيد بنكراد والحجة الثقة في درس الحجاج اللغوي أبو بكر العزاوي ثالوثها الأبرز.

وعليه، أَرغب مستقبلا في الإنخراط في هذه الحركية البحثية لأدلي بدلوي بمعية ثالوثها المغربي المذكور (محمد العمري/سعيد بنكراد/ أبو بكر العزاوي) وحتى المغربي، في سياق التمدد الأفقي المغربي لإطارات الحركية البلاغية الجديدة، حيث كان لي سابق لقاء تاريخي جمعي في تونس بالدكتور المميز ووزير التعليم العالي ورائد التصوير اللفظي والديبلوماسي القدير عبد السلام المسدي، فضلا عن لقاءات بالشيخ الوقور حمادي صمود، وباقي رموز المدرسة التونسية (بجيلها وتيارها الكلاسيكي والمجدد)، في انتظار توسيع مجال "زياراتي الودية والمريديّة لباقي شيوخ البحث اللساني بالجزائر بعد رجوع العلاقات الثنائية إلى سابق عهدها، فيكون إعادة فتح الحدود الترايبية والنفسية مع نظام جارتنا الجائر فتحا أكاديميا على البحث اللساني المغربي بسبب النشاط البحثي المميز للجامعات الجزائرية.

في هذا الصدد، لأبأس أن أتقاسم خاطرة مفادها أنه كلما كانت كتابة الاطروحة تشارف على الانتهاء، كانت الحركية والحراك والتكثيف الخطابي الملكي الذي يصاغ على عجل لمواجهة الحركة الخطابية المضادة تحملي على الإبتداء قبيل الإنتهاء، فطال العمر الإقتراضي لإنهاء الاطروحة وراء جمع شتات ركام منفصل الحلقات، فكاد تتبّع مسار الجدال النظري والنقاش الدائر أن يعصف بي لسنوات أخرى من الجمع والتحليل والتعديل ووصل النهار بالليل.

في النهاية، أقول انه آن الأوان لأضع القلم وأستغفر المولى إن زلت القدم، بعد أن أطلت وتجاوزت ماحدد لي كعتبة زمنية، وكان حريا بي لو أطللت.

ذكرت ما ذكرت، فإن كان صواباً فمن الله وإن كان تقصيرا او قصورا في النظر وفي زواياه، فلي قناعة بان المدونة الخطابية الملكية تحوي الكثير من الأسرار واللطائف التي لا تحصى ولا تكاد تستقصى منذ أن وطأت أقدام مؤسس الدوحة العلوية المغرب الأقصى، ووطأ من خَلْفَهُ بإقدام لدولة لها صولة، ولسلاطينها على صهوات جيادهم ومطايهم جولة.

وعليه، أدعوني وأدعو كل من يهيمه هذا الحقل ليفتقوا كمائمه ويستخرجوا ودائعهم، وأستودعهم هذه الاطروحة علّها تكون لهم قادحا لمشاريع بحثية رديفة أو مكملة أو مقومة، مؤكدة أو مفندة./.